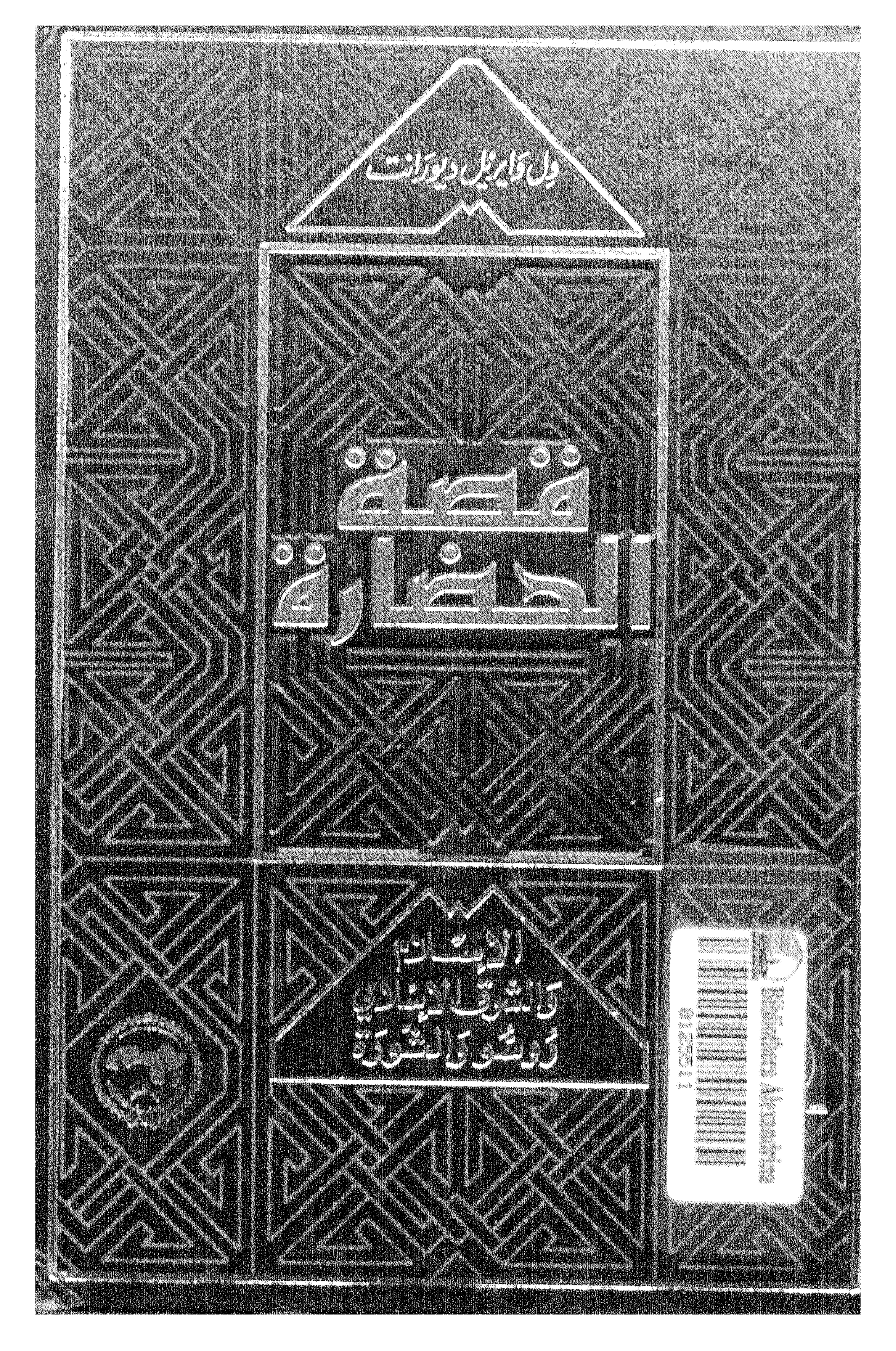


ول وايريل ديورانت
قصة الحضارة
روسو والثورة







قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الإسلام والشرق السلافي
الشمال البروتستنتي

ترجمة
فؤاد أندراوس

الجزء الثالث من المجلد العاشر



تونس

(٤١)



بيروت

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان

المجلد العاشر

الجزء الثالث

الكتاب الرابع

الاسلام والشرق السلافى

١٧١٥ - ١٧٩٦



الفصل السادس عشر

الإسلام

١٧١٥ - ١٧٩٦

١ - الأتراك

حوصرت المسيحية فى القرن الثامن عشر بين فولتير ومحمد (صلى الله عليه وسلم) بين حركة التنوير والإسلام . فمع أن العالم الإسلامى كان قدفقد سطوته الحربية منذ رد سوبيسكى الترك عن فيينا عام ١٦٨٣ ، إلا أنه ظل مسيطراً على المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر وشبه جزيرة العرب وفلسطين وسوريا وفارس وآسيا الصغرى والقرم وجنوبى روسيا وبسارابيا وملدافيا وولاشيا (رومانيا) وبلغاريا والصرب (يوغسلافيا) والجبل الأسود والبوسنة ودلماشيا واليونان وكريت وجزر الارخبيل وتركيا .وهذه الأقطار كلها - باستثناء فارس - كانت جزءا من امبراطورية الأتراك العثمانيين المترامية الأطراف. فعلى الساحل الدلماشى بلغوا الادرياتيك وواجهوا الولايات البابوية ، وعلى البوسفور تسلطوا على المنفذ البحرى الوحيد من البحر الأسود ، وكان فى مقدورهم أن يقفوا سداً منيعاً بين الروس والبحر المتوسط متى شاءوا .

فإذا عبرنا الأقاليم المجرية إلى بلاد المسلمين لم نلحظ للوهلة الأولى فرقاً يذكر بين المدنيتين المسيحية والإسلامية . فهنا أيضا كان فقراء المسلمين السذج الأتقياء يفلحون الأرض تحت إمرة سادتهم الأغنياء الأذكياء المتشككين . ولكن المشهد الاقتصادى يتغير فيما وراء البوسفور : فلايكاد المزروع من الأقاليم يبلغ ١٥٪ ، أما الباقى فصحراء أو جبال لاتتيح غير

التعدين أو الرعي ، هناك كان الإنسان الذى يتميز به الإقليم هو البدوى الذى أسود لونه وتحمص جلده من الشمس ، وتدثر على نحو معقد اتقاء للرمال والقيظ. أما المدن الساحلية أو المتفرقة هنا وهناك كانت حافلة بالتجارة والحرف اليدوية ، ولكن الحياة بدت أكثر دعة واسترخاء مما كانت فى المراكز المسيحية ، فالنساء يلزمن بيوتهن أو يسرن فى وقار شديد تحت أحمالهن ووراء خمرهن ، والرجال يمشون الهوينا فى الشوارع . وكان جل الصناعة يدوياً ، وورشة الصانع ملحقاً يتصدر بيته ، وكان يدخن غليونه ويتجاذب الحديث مع غيره أثناء العمل ، وأحياناً يشارك زبوناً قهوته .

ويمكن القول بوجه عام إن التركى العادى كان قانعاً غاية القناعة بمدنيته ، حتى لقد ظل قروناً لايطيق أى تغيير ذى بال . وكانت التقاليد هنا كما كانت فى التعاليم الكاثوليكية مقدسة قداسة التنزيل . أما الدين فكان أعظم قوة وانتشارا فى الأقطار الإسلامية مما كان فى العالم المسيحى ، والقرآن هو الشريعة والديانة معاً ، وفقهاء الإسلام شراح الشريعة الرسميون . وكان الحج إلى مكة المكرمة يقود كل عام درامته المثيرة فوق رمال الصحراء وعلى الطرق المتربة . أما فى الطبقات العليا فإن البدع العقلانية التى طلع بها معتزلة القرن الثامن الميلادى ، والتى واصلها الشعراء والفلاسفة المسلمون طوال عصر الإيمان ، لقيت قبولا واسعاً مستوراً . كتبت الليدى مارى ورتلى مانتاجيو من الاستانة فى ١٧١٩ تقول :

« إن الأفندية (أى الطبقة المتعلمة) .. ليسوا أكثر إيماناً بالوحى الذى أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) منهم بعصمة البابا . ويصرحون بالربوبية بينهم وبين من يثقون بهم ولا يتكلمون على شريعتهم (أى ماعليه القرآن الكريم) إلا بوصفها مؤسسة سياسية ، تصلح الآن لأن يتقيد بها العقلاء من الناس وإن كانت أصلا من عمل رجال السياسة والمتحمسين من رجال الدين » (١) .

وانقسم الإسلام بين مذهبى السنة والشيعة كما انقسمت مسيحية الغرب

بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ثم قام مذهب جديد فى القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب ، أحد شيوخ نجد — وهو الهضبة الوسطى التى نعرفها اليوم بالعربية السعودية . وكان الوهابيون من الإسلام أشبه بالبيورتان من المسيحية : استنكروا التعبد للأولياء ، وهدموا أضرحة المشايخ والشهداء ، واستهجنوا لبس الحرير والتدخين ، ودافعوا عن حق كل فرد فى أن يفسر القرآن لنفسه[٢] . وقدشاعت الخرافات فى جميع المذاهب على السواء ، ولقى دجاجلة الدين كما لقيت المعجزات الكاذبة التصديق السريع ، وكان جل المسلمين يعدون مملكة السحر عالما حقيقيا كعالم الرمال والشمس الذى يكتنفهم[٣] .

أما التعليم فهيمن عليه رجال الدين الذين آمنوا بأن أضمن سبيل لتكوين المواطنين الصالحين أو الأتباع الأوفياء للقبيلة هى ترويض الخلق لا تحرير الفكر . وكان رجال الدين قد انتصروا فى معركتهم مع العلماء والفلاسفة والمؤرخين الذين ازدهروا أيام الإسلام الوسيط ، فانتكس الفلك إلى التنجيم ، والكيمياء إلى الخيمياء ، والطب إلى السحر ، والتاريخ إلى الأساطير . ولكن فى كثير من المسلمين حلت الحكمة الصامتة محل التعليم والتفقه فى المعرفة . وكما قال داوتى الحكيم البليغ : « إن العرب والترك ، الذين كتبهم هى وجوه الرجال ... والذين شروحهم وتفاسيرهم هى الأقوال المأثورة السائرة ومئات الأمثال الحكيمة القديمة السائدة فى عالم الشرق ، هؤلاء قريبون من إدراك الحقائق الإنسانية . إنهم شيوخ راسخون فى الحكمة وهم لا يزالون شبابا ، ولا ينسون بعد ذلك إلا القليل مما تعلموا[٤] » . وقد أكد ورتلى مونتجيو فى خطاب كتبه عام ١٧١٧ لأديسون أن « الرجال ذوى الشأن من الأتراك يبدون فى أحاديثهم مهذبين لا يقلون تحضرا عن أى رجال التقيت بهم فى فى إيطاليا »[٥] ، أجل فالحكمة ليس لها وطن .

ولقد كان عالم الإسلام على الدوام غنيا بالشعراء . ذلك أن الصحارى الرهيبة ، والسماء المحيطة ، والنجوم المنتشرة إلى مالا نهاية فى الليالى الصافية ، كل أولئك حرك الخيال كما حرك الإيمان الدينى بالإحساس بما فى الكون من

أسرار ملغزة ، وأضفى دم الشباب المضطرم بالرغبة المكبوتة على مفاتن النساء تصورا مثاليا ، تلك المفاتن التي زدنها إغراء في ذكاء وحكمة باحتجابهن وحيائهن . وفي عام ١٧٧٤ نشر السير وليم جونس كتابه « شروح على الشعر العربي » الذي كشف للعقول اليقظة في غربي أوربا عن حب المسلمين للشعر وما ينطوي عليه من رقة وعاطفة مشبوبة . أما أعظم فحول الشعراء العثمانيين في القرن الثامن عشر فهو نديم ، الذي تغنى بشعره أيام السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ — ٣٠) :

إيه أيها الحب الحائر ، إن قلبي وروحي ضاعا هباء

وفرغ مني الصبر وذهب الجلد

ذات مرة كشفت عن صدرها البديع ،

فإذا الراحة والسلام يهربان من صدري . . .

لها خال في خدها وثني ، وضفائر وثنية ، وعيون وثنية ...

أقسم أن دنيا جمالها القاسي بأسرها وثنية خالصة .

ولقد وعدتني بقبلات على نحرها ، وبقبلات على صدرها ،

ولكن ويلي فقد حنثت الوثنية بوعدها السابق .

يا للرشاقة المحببة التي أبرزت بها غدائرها من تحت طربوشها ،

كل مخلوق أبصرها تأمل حسنها مشدوها لتوه .

يا قاسية القلب ، لأجلك يبكي الرجال وينوحون يأسا ،

ان قدك الرقيق لزكي من كل شذى وأبهج من كل لون ،

فليت شعري هل أرضعتك وردة عطرة من ثديها .

وأنك لتقبلين أيتها الحلوة وفي إحدى يديك وردة وفي الأخرى كأس .

فلا أدري أي الثلاثة آخذ — الوردة أم الكأس أم أنت .

لكأن نبعاً متدفقاً تفجر من نهر الحياة :

حين طلعت على بذلك القد اللدن البديع (٦) .

وكان على النساء الإفادة ما استطعن من قدودهن اللدنة الرشيقة ، فمتى ذبلت محاسنهن جر عليهن الزمن ذيول النسيان فى زوايا الحريم . وكان لفظ « الحريم » هذا لا يقصر على أزواج الرجل وسراريه ، بل ينسحب على كل إناث بيته . وقد ظل الحجاب مضروباً عليهن فى القرن الثامن عشر ، وكان يسمح لهن بالخروج من الدار ، ولكن (بعد ١٧٥٤) كان عليهن إذا خرجن أن يخفين كل عضو فيهن إلا عيونهن الساحرة ، ولا يدخل جناحهن غير الأب ، أو الأخ ، أو الزوج ، أو الإبن . وحتى بعد الموت كان المفروض أن يتصل هذا الفصل بين الجنسين فى الدار الآخرة . فالمؤمنات لهن جنتهن غير جنة الرجال ، والمؤمنون يمضون إلى فردوس آخر ترفه فيه عنهم حور من الجنة أبكار متجددات الشباب . وكانت خيانة المرأة لزوجها تعاقب عقاباً صارماً ويندر حدوثها ، وكان العربى يحلف بـ « شرف حريمه » كأغلظ الأيمان (٧) . وروت الليدى مارى أن النساء التركيات اللاتى سمح لها بلقائهن لم تضقن بالحجاب الذى عزلهن عن الرجال . وقد رأت بعضهن يعدلن فى جمال الوجه وحسن القد ورفاهة الطبع « أشهر حساننا الإنجليزيات (٨) . فلما أذن لها بدخول أحد الحمامات العامة الكثيرة ، تبين لها أن النساء يمكن أن يكن جميلات حتى لو تجردن من الثياب . وقد أفتتنت على الأخص بنساء الطبقة الراقية فى حمام بأدرنة . دعونها لخلع ملابسها والاستحمام معهن ، فاعتذرت . « ولما اشتد إلحاحهن على اضطررت فى النهاية إلى أن أفتح قميصى وأريهن مشدى (الكورسيه) ، فأقنعهن هذا تماماً إذ رأيت أنهن اعتقدن أنى حبيسة بقيود تلك الآلة بحيث لا أقوى على فتحها ، وقد عزون هذه الحيلة لتدبير زوجى . وعلقت إحداهن قائلة « أنظرن كم يقسو الأزواج الإنجليز على نسائهن المساكين (٩) » .

وكان الأتراك فخورين بحماماتهم العامة ، يرون أنفسهم على العموم شعبا

أنظف من النصارى الــكفار . وكان الكثيرون من أفراد الطبقتين العليا والوسطى يختلفون إلى الحمام التركى مرتين فى الأسبوع ، وأكثر منهم يختلفون مرة فى الأسبوع . هناك يجلسون فى غرفة ملئت بخارا حتى يتصببوا عرقا ، ثم يأتى عامل فيدعك كل مفصل فى أجسامهم ويدلك لحمهم ويكيسه بقطعة من القماش الخشن ثم يغسله . لا عجب إذن إن لم نسمع الكثير عن روماتيزم المفاصل فى تركيا . على أن أمراضا أخرى تفشت بينهم لاسيما الرمد ، فالرمال والذباب كانت تنقل العدوى إلى العيون . ولكن الأتراك كما أسلفنا علموا أوربا التطعيم ضد الجدرى .

ولم يخامرهم شك فى أن مدنيتهم تفوق مدنية الاقطار المسيحية . صحيح أنهم سلموا بأن الرق كان أوسع انتشارا فى بلاد المسلمين ، ولكنهم لم يروا فرقا حقيقيا بين الارقاء فى تركيا والاقنان (Serfs) أو الخدم (Servants) فى العالم المسيحى ، وقد اتفقت معهم فى الرأى الليدى مارئ واصل اللفظ . وكانوا لا يقلون عنا غلوا فى حب الأزهار والعناية بها ، فكانت لهم مثلنا مباريات مجموعة فى تربية زهرة الطوليب ؛ كما شهدت الآستانة فى عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ — ٣٠) ؛ ويبدو أن الأتراك هم الذين أدخلوا إلى أوربا المسيحية بطريق البندقية وفيينا والأراضى الواطئة أزهار الطوليب والياقوتية (Hyacinth) الشرقية وحوزان الحدائق (ranuneulus) كما أدخلوا أشجار القسطل (أبى فروة) — والميموزا [١٠] .

أما الفن فى تركيا فكان الآن فى اضمحلال شأنه فى معظم الأقطار المسيحية .واعتبر الأتراك أنفسهم أرقى فى صناعات الفخار والنسيج والأبسطة والزخرفة وحتى فى المعمار . فقد ورثوا عن آبائهم كيف يضفون على التصوير التجريدى منطقاً وتواصلا ودلالة . وفاخروا ببهاء القاشانى الذى صنعوه (كما يرى على نافورة أحمد الثالث فى الآستانة)، وببريق قرميدهم الذى لا ينطفىء ، وبصلابة منسوجاتهم ورقتها » وبتألق أبسطتهم ومتانتها . واشتهرت الأناضول والقوقاز فى هذه الحقبة بوبرهما اللامع وتصميم السجاد الهندسى الدقيق ، لاسيما سجاجيد الصلاة التى توجه أعمدتها وأقواسها المدببة

المصلى الراكع صوب المحراب الذى يشير فى كل مسجد إلى قبلة مكة المكرمة . كذلك فضل الأتراك جوامعهم ذات القباب والقرميد والمآذن على أبراج الكتدرائيات القوطية وعقودها وفخامتها الكابية . وشيدوا حتى فى هذه الحقبة المضمحلة المساجد العظيمة فى نورى — عثمانية (١٧٤٨) ولا ليلى — يامسى (١٧٦٥) ، وحاكى أحمد الثالث طراز الحمراء فى القصر الذى شيده فى عام ١٧٢٩ . أما الآستانة فلعلها كانت أروع العواصم الأوربية ، كما كانت أوسعها رقعة برغم شوارعها المتشابكة وأحيائها الفقيرة الكثيرة الضجيج ، وكان سكانها البالغون مليونين من الأنفس [١١] مثلى سكان لندن ، وثلاثة أمثال سكان باريس ، وثمانية أمثال سكان روما[١٢]. وحين أطلت الليدى مارى على المدينة والميناء من قصر السفير البريطانى ، خيل إليها أنهما « ربما يؤلفان معاً أبهى مشهد فى العالم » [١٣] .

على عرش هذه الإمبراطورية العثمانية ، من الفرات إلى الأطلنطى ، تربع سلاطين عصر الاضمحلال . ولقد نظرنا فى موضع آخر من هذا الكتاب [١٤] فى أسباب ذلك الاضمحلال : وهى انتقال تجارة غربى أوربا التى تقصد آسيا ، إذ أصبحت تدور حول أفريقيا بحراً بدلا من طريقها البرى الذى كان يخترق مصر أو غربى آسيا ؛ وتخريب قنوات الرى أو إهمالها ؛ وتوسع الامبراطورية وامتدادها إلى مسافات مترامية لاتتيح لها الحكم المركزى الفعال وما ترتب على ذلك من استقلال الباشوات ونزوع الولايات إلى الانفصال ؛ وتدهورت الحكومة المركزية لتفشى الرشوة والعجز والكسل ، وتمرد الانكشارية المرة تلو المرة على النظام الصارم الذى كان له الفضل فيما بلغوا من قسوة وتسلط القدرية والجمود على الحياة والفكر ، وتراخى السلاطين الذين استطابوا خدور النساء وآثروها على ساحات الوغى .

وقد استهل أحمد الثالث حكمه بسماحة للإنكشارية بأن يملوا عليه اختياره لكبير وزرائه (الصدر الأعظم) . وهذا الوزير هو الذى قبل رشوة بلغت ٢٣٠٫٠٠٠ روبل بعد أن قاد ٢٠٠٫٠٠٠ تركى ضد ٣٨٫٠٠٠ جندى من جيش بطرس الأكبر عند نهر بروت ، لقاء سماحه للقيصر المحاصر

بالفرار (٢١ يوليو ١٧١١) . وحدث أن حرضت البندقية أهل الجبل الأسود على الثورة على تركيا ، فأعلنت هذه الحرب عليها (١٧١٥) وأتمت فتح كريت واليونان . فلما أن تدخلت النمسا ، أعلنت تركيا الحرب عليها (١٧١٦) ، ولكن أوجين أمير سافوا هزم الترك فى بترفارداين وأكره السلطان بمقتضى معاهدة بساروفتز (١٧١٨) على الجلاء عن المجر ، والنزول عن بلغراد وأجزاء من ولاشيا للنمسا ، وتسليم البندقية حصونا فى ألمانيا ودلماشيا . ولم تسفر المحاولات التى بذلتها تركيا لتعويض هذه الخسائر بالغارات تشنها على فارس الا عن المزيد من النكسات والهزائم ، وقد قتل الغوغاء بقيادة عامل حمام الوزير إبراهيم باشا وأكرهوا أحمد على التنازل عن العرش (١٧٣٠) .

وجدد ابن أخيه محمود الأول (١٧٣٠ — ٥٤) الصراع مع الغرب ليفرض بالحرب تدفق الضرائب وتعاليم الدين ، وأنتزع جيش تركى أوخا كوف وكلبورون من الروسيا ، وأسترد جيش آخر بلغراد من النمسا . غير أن أضمحلال تركيا عاود سيرته الأولى فى عهد مصطفى الثالث (١٧٥٧ — ٧٤) . ففى ١٧٦٢ أعلنت بلغاريا استقلالها . وفى ١٧٦٩ خاضت تركيا الحرب مع الروسيا منعاً لانتشار سلطان الروسيا فى بولندا . وهكذا بدأ ذلك الصراع الطويل الذى أنزلت فيه جيوش كاترين الكبرى هزائم ساحقة بالأتراك . فلما مات مصطفى أبرم أخوه عبد الحميد الأول (١٧٧٤—٨٩) معاهدة مذلة تسمى قجوق قينارجى (١٧٧٤) ، قضت على النفوذ التركى فى بولندا وجنوبى روسيا ومالدافيا وولاشيا ، وعلى هيمنة الأتراك على البحر الأسود . وجدد عبد الحميد الحرب فى ١٧٨٧ ، فهزم هزائم منكرة ، ومات كمدا . وكان على تركيا أن تنتظر حتى يجىء كمال باشا (أتاتورك) لينهى قرنين من الفوضى ويجعل منها دولة حديثة .

٢ — الإسلام فى أفريقيا

بعد أن فتح العثمانيون مصر (١٥١٧) أنابوا عنهم فى حكمها الباشوات والولاة . وسمحوا للمماليك الذين كانوا يحكمون مصر منذ ١٢٥٠ بالاحتفاظ

بسلطتهم المحلية بكوات على السنجقيات الاثنى عشرة التى قسمت إليها البلاد . وبينما كان الباشوات يبددون عافيتهم فى البذخ والترف ، درب البكوات جنودهم على الولاء لأشخاصهم ، وسرعان ما تحدوا سلطة الولاء المكروهين. وكان أكثر هؤلاء الحكام المحليين إقداما هو على بك [الكبير] ، الذى كان فى طفولته قد بيع عبدا . ففى ١٧٦٦ خلع الباشا وفى ١٧٦٩ أعلن استقلال مصر . وانتشى بخمرة النصر فقاد جنده المماليك ليفتح جزيرة العرب ، واستولى على مكة ، واتخذ لقب سلطان مصر وخاقان البحرين (الأحمر والمتوسط) . وفى ١٧٧١ أوفد « أبا الذهب » على رأس ثلاثين ألف مقاتل لفتح الشام ، ففتحها ، ولكنه تحالف مع الباب العالى ، وقاد جيشه عائدا إلى مصر . وفر على بك إلى عكا ، وجند جيشا آخر ، والتقى بقوات أبى الذهب والأتراك ، وقاتل حتى أثخن بالجراح فعجز عن المضى فى القتال ، ووقع فى الأسر ، ثم قضى نحبه بعد أسبوع (١٧٧٣) . وعادت مصر ولاية عثمانية من جديد .

ودون ذبذبات السلطة ونشوات القتل هذه استطاعت مراكب التجارة وقوافلها ، واجتهاد الحرفيين ، وفيضان النيل السنوى ، وعرق الفلاحين فى التربة الطمية الخصبة ، استطاعت كلها أن تبقى فى مصر على اقتصاد لم يجن ثماره غير قلة حبتها الطبيعة أو الظروف بالكفاية أو المنصب . وأنتج جهد الحقول والبحار ومحصولها طعاما للمدن وخصوصا الأسكندرية التى كانت من أعظم الثغور ، والقاهرة التى كانت من أكثر العواصم سكانا فى عالم القرن الثامن عشر . وكانت الشوارع ضيقة لتحجب الشمس ، وقد زينت بالمشربيات والشرفات التى يستطيع الحريم اختلاس النظر منهـا إلى الحياة من تحتهن . وكانت الشوارع الكبيرة تعج بالحرف التى تحدت تطفل رأس المال أو إنتاج الآلات . وكانت كل صناعة فى أقطار الإسلام فنا ، وحلت الجودة محل الكم . فصنع الفقراء التحف والطرف للأغنياء ولكنهم لم يبيعوهم قط أباءهم وعزة نفوسهم .

وقام فى القاهرة ثلاثمائة مسجد تدعم فقراءها بالرجاء ، وتزين

المدينة بالقباب الضخمة والأروقة المعمدة الظليلة والمآذن الشامخة . وكان أحدها وهو الجامع الأزهر جامعة الإسلام الأولى ، يؤمه من الطلاب ألفان أو ثلاثة من أقصى بقاع الأرض ، من ماليزيا شرقاً إلى المغرب غربا ، ليتعلموا لغة القرآن وعلوم البلاغة والتوحيد والأخلاق والشريعة ، وكان خريجو الجامعة يؤلفون جماعة العلماء ، ومنهم يختار المعلمون والقضاة . لقد كان نظاما وضع لسنية صارمة في الدين والأخلاق والسياسة .

وهكذا لم يكد يطرأ على الأخلاق أي تغيير من قرن إلى قرن. وكانت سن بلوغ الأحداث متقدمة عنها في الأقطار الشمالية ، فتزوج كثير من البنات في الثانية أو الثالثة عشرة ، وبعضهن في العاشرة ، وبقاء الفتاة بغير زواج إلى السادسة عشرة كان عاراً . ولم يقدر على تعدد الزوجات الذي أباحته الشريعة الإسلامية إلا أغنياء القوم . أما الزوج الذي تخونه زوجته فلم يكن من حقه الشرعي أن يقتل هــذه الزوجة المجرمة فحسب ، بل كان يلقى التشجيع من الرأي العام (١٥) . وكان الفكر الإســلامي ، كالمسيحي ، يعتبر المرأة مصدراً رئيسياً للشر ، لا يمكن السيطرة عليه إلا بإخضاعها اخضاعا صارماً . وكان الأطفال ينشأون على نظام الحريم ، فيتعلمون أن يحبوا أمهم وأن يخشوا أباهم ويجلوه ، وكانوا كلهم تقريباً يتعلمون ضبط النفس وحسن الأدب (١٦) . وساد حسن السلوك جميع الطبقات ، مع شيء من يسر الحركة ورشاقتها ، لعله أخذ عن النساء اللائي ربما أكتسبنه من حمل الأثقال على رءوسهن . وكان المناخ مانعاً من العجــلة مشجعا على الكسل .

ولم يمنع تعدد الزوجات البغاء ، ففي استطاعة البغايا توفير الاثارة التي أخمدها طول الألفة . وتخصصت غواني مصر في الرقصات الفاجرة ، وبعض الآثار القديمة تكشف عن قدم هذا الاغراء . وكانت كل مدينة كبرى تخصص للبغايا حيا يمارسن فيه حرفتهن دون خوف من عقاب القانون . وكانت النساء اللائي يحذقن الراقصات الفاجرة ، شأنهن في جميع الحضارات ،

يستأجرن لهز أجسادهن أمام محافل الذكور ، وفى بعض الحالات كانت النسوة أيضاً يستمتعن بمشاهدة هذا الرقص (١٧) .

أما الموسيقى فكانت تخدم الحب والحرب ، فهى تستفز المهاجمين وتهدىء المهزومين . وكان الموسيقيون المحترفون من الجنسين يؤتى بهم للترفيه . كتب إدوارد لين فى ١٨٣٣ يقول « سمعت فى القاهرة أعظم الموسيقين شهرة وأطربتنى أغانيهم أكثر من أى موسيقى أخرى أستمتعت بها فى حياتى (١٨) . وكانت الآلة المفضلة هى « الكمنجة » ، وهى ضرب من الفيولا النحيلة ، ولها وتران من شعر الخيل على صندوق مصمت مصنوع من جوزة هند شقت بين وسطها ورأسها وغطيت بقشر سمك مشدود(*) .وكان العازف يتربع ويسند طرف الآلة المدبب على الأرض ، ويضرب أوتارها بقوس من شعر الحصان وخشب الدردار . أو قد يقعد العازف وفى حجره قانون كبير وينقر الأوتار بريشة من القرن ملصقة بسبابتيه . وتحول العود القديم الآن إلى شكل الجيتار . فإذا أضفت نايا،وماندولينا ، وطمبورينا ، أكتمل لك أوركسترا يروق الذوق المتحضر ، خيراً من تلك الموسيقى البدائية التى تهيج اليوم المحافل الغربية .

أما « دول البربر » أى البلاد التى زعموا أنها « بربرية » أو همجية — وهى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش- فقد دخلت التاريخ فى القرن الثامن عشر أولا بفضل بطولات قراصنتها أو اغتيال « باياتها » أو « داياتها» وقد احتفظت هذه الحكومات باستقلالها الفعلى بارسالها « الهدايا » بين الحين والحين إلى السلاطين بالآستانة . وكان قوت الشعب يأتى أكثره من الزراعة أو القرصنة ، وكانت الفدية التى تؤدى عن الأسرى النصارى جزءاً هاماً من الدخل القومى: غير أن قباطنة القراصنة كان أكثرهم نصارى (١٩) .أما الفنون فظلت محتفظة بوجود قلق ، ولكن البنائين المغاربة احتفظوا بقدر من المهارة أتاح لهم أن يزركشوا بالقرميد الأزرق والأخضر المتألق « باب منصور » الفخم الذى أضيف فى ١٧٣٢ بوابة بقصر مولاى إسماعيل وجامعه الضخم

(*) الوصف ينطبق على الربابة لا على الكمنجة (المترجم) .

الذى ابتناه فى القرن السابع عشر فى مكناس ، وكانت آنئذ مقر سلاطين مراكش . أما مولاى اسماعيل هذا فقد أقر النظام فى حكمه الذى امتد خمسة وخمسين عاماً (١٦٧٢ — ١٧٢٧) وأنجب مئات الأبناء، ورأى فى منجزاته مايبرر طلب يد ابنة للويس الرابع عشر يضمها إلى حريمه[٢٠] . ويصعب علينا أن نسيغ أساليب حياة شديدة التباين عن أساليب حياتنا ، ولكن قد يعيننا على ذلك أن نتذكر ملاحظة قالها رحالة مغربى عند عودته من زيارة إلى أوربا « يالها من متعة أن يعود المرء إلى الحضارة » [٢١] .

٣ — الإسلام فى فارس (١٧٢٢ — ٨٩)

ولو سئل رجل فارسى فى هذه الحقبة لأعرب عن شعور بالراحة شبيه بهذا عند عودته إلى وطنه بعد مقامه حقبة فى الأقطار المسيحية أو حتى فى أقطار العثمانيين المسلمين . فالفارسى المتعلم حتى سقوط الدولة الصفوية (١٧٣٦) فى أغلب الظن كان يضع المدنية الإيرانية فى مرتبة أعلى من أى حضارة معاصرة ، ربما باستثناء الصينية . وكان يستنكر النصرانية باعتبارها انتكاسا إلى الشرك الشائع بين العوام . ولعله كان يسلم بتفوق بلاد النصارى فى العلوم والتجارة والحرب ، ولكنه كان يؤثر الفنون على العلوم ، والحرف اليدوية على الصناعة الميكنة .

كان القرن الثامن عشر قرنا أليما على فارس . فأنى لإيران وقد غزاها الأفغانيون من الجنوب الشرقى ، ولاحقتها غارات قناصة العبيد من الأزبك فى الشمال الشرقى ، وهاجمتها غارات السلب والنهب الروسية فى الشمال ، واجتاحتها المرة بعد المرة الجيوش التركية فى الغرب ، وأفقرها طغيان نادر شاه ملكها المحب الأبهة وتعسفه فى جمع الضرائب ، ومزق أوصالها الصراع الوحشى بين الأسر المتناحرة طمعاً فى العرش الفارسى — نقول أنى وكيف تستطيع إيران وقد ابتليت بهذا الاضطراب كله أن تواصل التقاليد العظمى للأدب والفن الفارسيين .

وكان البلد الذى نسميه الآن أفغانستان فى القرن السادس عشر تتقاسمه

ثلاث حكومات : كابول الخاضعة للحكم الهندى ، وبلخ الخاضعة للأزبك ، وهراة وقندهار الخاضعتان للفرس . وفى ١٧٠٦ — ٨ ثار أفغانيو قندهار بقيادة مير (أمير) فايز وطردوا الفرس . وغزا ابنه مير محمود فارس ، وخلع الحاكم الصفوى حسينا ، ونصب نفسه شاها . وقد دعم الدين سلاحه ، لأن الأفغانيين كانوا يتبعون المذهب السنى ، ويكفرون الفرس المتشيعين . وقتل محمود فى سورة غضب ثلاثة آلاف من حرس حسين وثلاثمائة من أشراف الفرس ، ونحو مائتى طفل أشتبه فى أنهم استنكروا قتل آبائهم . وبعد راحة طويلة قتل محمود فى يوم واحد (٧ فبراير ١٧٢٥) جميع الأحياء من أفراد الأسرة المالكة خلا حسينا واثنين من أبنائه الصغار . ثم التاث عقل محمود ، فقتله وهو لا يزال فى السابعة والعشرين ابن عمه أشرف (٢٢ أبريل ١٧٢٥) الذى نادى بنفسه شاها . وهكذا بدأ سفك الدماء الذى هد كيان فارس فى ذلك القرن .

واستنجد طهماسب بن حسين بروسيا وتركيا ، فاستجابت بالاتفاق على اقتسام فارس فيما بينهما (١٧٢٥) . ودخل جيش تركى فارس واستولى على همدان وقزوين والمراغة ، ولكن هزمه أشرف قرب كرمانشاه . وكان الجنود الأتراك يفتقرون إلى الحماسة ، فقد تساءلوا أى سبب يدعوهم لمقاتلة الأفغانيين ، وهم أخوة لهم سنيون على شاكلتهم ، ليردوا الصفويين الشيعيين الزنادقة إلى الحكم . وتصالح الأتراك مع أشرف ولكنهم احتفظوا بالأقاليم التى فتحوها (١٧٢٧) .

وبدا أن أشرف قد غدا الآن فى أمان ، ولكن ما مضى عليه عام حتى تحدى سلطانه المغصوب الدخيل ظهور رجل فارسى مغمور أنقض على العدو فى بضع سنين ، فحقق انتصارات من أروع وأفظع ما سجله تاريخ الحروب قاطبة . وقد ولد هذا المقاتل واسمه نادر قيلى (أى عبد الله) فى خيمة بشمال شرقى إيران (١٦٨٦) وكان يعين أباه على رعى ما يملكان من قطعان الغنم والماعز ، ولم يتح له من التعليم غير ما لقنته الحياة الشاقة المحفوفة

بالخاطر . فلما بلغ الثامنة عشرة وخاف أباه كبيراً لأسرته اختطفه هـو وأمه المغيرون الأزبك وحملوهما إلى خيوة حيث باعوهما عبيداً . وماتت الأم فى ذل الأسر ، ولكن نادراً هرب وأصبح زعيما لعصابة لصوص ، واستولى على كالات ونيشابور ومشهد ، وأعان ولاءه وولاء هذه المدن للشاه طهماسب ، وتعهد بطرد الأفغانيين من فارس ورد عرش فارس إلى طهماسب . وقد أنجز هذا كله فى حملات متلاحقة (١٧٢٩ — ٣٠) ورد طهماسب إلى عرشه ، فعين نادراً سلطاناً على خراسان وسيستان وكرمان ومازندران .

وما لبث القائد المظفر أن شرع فى استرداد الأقاليم التى استولت عليها تركيا . فاستطاع بهزيمة الترك هزيمة فاصلة فى همدان (١٧٣١) أن يخضع العراق وأزربيجان لحكم الفرس . ثم نمى إليه نبأ تمرد فى خراسان ، فرفع الحصار عن أروان وزحف ألفاً وأربعمائة ميل عبر العراق وإيران ليحاصر هراة ، وهو زحف يتضاءل بالقياس اليه الزحف الشهير الذى عبر فيه فردريك الأكبر ألمانيا مراراً فى حرب السنين السبع . ونزل طهماسب بشخصه أثناء ذلك الى ساحة القتال ضد الترك فخسر كل ما كسبه نادر ، ونزل عن جورجيا وأرمينيا لتركيا نظير تعهد الترك بمساعدته ضد روسيا (١٧٣٢) . فأسرع نادر قافلا من الشرق وأنهى المعاهدة ، وخلع طهماسب وسجنه ، وأجلس على العرش غلاما لطهماسب لم يجاوز عمره ستة أشهر باسم الشاه عباس الثالث ، ونادى بنفسه وصيا على الصبى ، وأرسل إلى تركيا إعلاناً بالحرب .

ثم زحف على الترك بجيش عدته ثمانون ألف مقاتل جندهم بالإقناع أو بالإرهاب . وعلى مقربة من سامراء التقى بجيش عرمـرم من الترك يقودهم توبال عثمان من محفته لبتر ساقيه . وأطاقت النار مرتين على جوادى نادر أسفله ، وفر حامل عامه ظنا منه أنه قتل ، وأنقلبت عليه فرقة عربية كان يعتمد على معونتها ، وهكذا كانت هزيمة الفرس هزيمة نكراء ماحقة (١٨ يوليو ١٧٣٣) . ولكنه لم فلول جيشه فى همدان ، وجند آلافاً

جددا ، وسلحهم وأطعمهم ، ثم كر على الترك وبطش بهم في ليلان في مذبحة رهيبة لقي فيها توبال عثمان حتفه . ثم أندلعت ثورة أخرى في جنوب غربي فارس ، فشق نادر طريقه من الغرب إلى الشرق ، وهزم الزعيم المتمرد فأنتحر . وفي عودته عبر فارس والعراق ، ألتقى بثمانين ألف تركي في بغاوند (١٧٣٥) ، وهزمهم هزيمة نكراء أكرهت تركيا على إبرام صلح نزلت بمقتضاه لفارس عن تفليس وجونده وأروان .

لم ينس نادر أن بطرس الأكبر هاجم فارس في ١٧٢٢ — ٢٣ ، واستولى على أقاليم جيلان وأستراباد ومازندران على بحر قزوين ، وعلى مدينتي دربند وباكو . وكانت روسيا قد ردت الأقاليم الثلاثة لفارس (١٧٣٢) لأنشغالها في جهات أخرى . فهدد نادر الآن (١٧٣٥) بالتحالف مع تركيا ضد روسيا أن لم تنسحب من دربند وباكو . وعليه سلمت إليه المدينتان ، ودخل نادر أصفهان دخول الفاتح الظافر الذي أعاد بناء قوة فارس . فلما مات الصبي عباس الثالث (١٧٣٦) مختتما بموته ملك الصفويين ، جمع نادر بين الواقع والمظهر ، وارتقى العرش باسم نادر شاه .

وكان يؤمن بأن الخلافات الدينية بين تركيا وفارس تعمل على نشوب الحروب المتكررة ، لذلك أعلن أن فارس ستتخلى منذ الآن عن بدعة التشيع وترتضى السنية مذهبا لها . فلما أدان زعيم الشيعة هذه الخطوة شنقه نادر بكل هدوء مستطاع . ثم صادر أوقاف قزوين الدينية ليفي بنفقات جيشه لإن فارس على حد قوله مدينة لجيشها أكثر مما هي مدينة لدينها (٢٢) . ثم إذ شعر بالحنين إلى الحرب ، فأشرك معه في الملك ابنه رضا قلي ، ثم قاد جيشا من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ليفتح به أفغانستان والهند .

وضرب الحصار عاما كاملا حول قندهار . فلما استسلمت له(١٧٣٨) كان كريما رحيما مع المدافعين عنها ، حتى أن جيشا من الأفغانيين أنضوى تحت لوائه وظل وفياً له إلى يوم مماته . ثم زحف على كابول مفتاح ممر

خيبر ، وهناك أعانته الغنائم التى ظفر بها على رفع الروح المعنوية فى جيشه.
وكان محمد شاه ، إمبراطور الهند المغولى ، يأبى أن يصدق إمكان غزو الفرس للهند ، وكان أحد ولاته قد قتل مبعوث نادر إليه ، فعبر نادر جبال الهملايا ، وأستولى على بشاور ، وعبر السند ، وزحف على دلهى حتى لم يعد بينه وبينها سوى ستين ميلا قبل أن يهب جيش محمد لمقاومته والتقى الجيشان الهائلان على بطاح كرنال (١٧٣٩) ، وأعتمد الهنود على فيلتهم ، أما الفرس فقد هاجموا هذه الحيوانات الصبورة بكرات النار ، فانقلبت الفيلة هاربة وأشاعت الفوضى فى جيش الهنـــود ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وأسر عدد زاد على القتلى ، ويروى نادر أن محمد شاه جاءه يلتمس الرأفة « أمام حضرتنا السماوية». (٢٣) وفرض عليـــه القائد المنتصر تسليم دلهى وكل ثروتها القابلة للنقل تقريبا ، والتى تقـــدر بـ ٨٧,٥٠٠,٠٠٠ جنيه ، بما فيها عرش الطاووس الأشهر ، الذى كان قد صنع (١٦٢٨ — ٣٥) لشاه جيهان فى أوج سطوة المغول . وقتل بعض جنود نادر فى شغب أحدثه الأهالى ، فانتقم بالسماح لجيشه بذبح ١٠٠,٠٠٠ من الوطنيين فى سبع ساعات . واعتذر عن هذه الفعلة بتزويج إبنه نصرالله من إبنة محمد . ثم زحف قافلا إلى فارس لايعوقه عائق بعـــد أن أثبت أنه أعظم الفاتحين قاطبة منذ تيمور لنك .

وكان قدره المقدور أنه لو سرح جيشه فربما يعيث فسادا فى الأرض ويشق عليه عصا الطاعة ، ولو أبقى عليه جيشا عاملا فلزام عليه أن يكسوه ويطعمه ، وكانت النتيجة التى خلص إليها أن الحرب أرخص له من السـلم إذا استطاع خوضها على ساحة غريبة . فمن ترى يكون هدفه الآن ؟ وتذكر غارات الأزبك على شمال شرقى فارس ، وكيف باعوه عبدا ، وكيف ماتت أمه فى رقها . وإذن ففى ١٧٤٠ قاد جيشه زاحفا على أزبكستان ، ولم يكن لأمير بخارى لا القوة ولا الميل للوقوف فى وجه نادر ، ومن ثم فقد أذعن ، وأدى تعويضا ضخما ، ووافق أن يكون نهر سيحون كما كان فى القدم الحد بين أزبكستان وفارس . وكان خان خيوه قدأعدم مبعوث نادر ،

فقتل نادر هـذا الخان ، وأطلق سراح آلاف من العبيد الفرس والروس (١٧٤٠) .

كان نادر بكل شخصيته مقاتلا استغرقت الحرب عقله كله ، فلم يعد فيه ذرة من الرغبة فى الحكم والإدارة . وبات السلام عنده عبئا ثقيلا لا يطيقه . وجعلته الغنائم والأسلاب إنسانا جشعا بخيلا بدلا من أن يكون جوادا كريما . فحين ملأت خزائنه كنوز الهند أعلن تأجيل دفع الضرائب فى فارس ثلاث سنين ، ثم عدل عن رأيه وأمر بجمع الأموال كما كانت تجمع من قبل ، وأفقر جباته فارس كما لو كانت بلدا مغلوبا . ثم خامرته الظنون بأن ابنه يتآمر على خلعه ، فأمر بأن تفقأ عيناه . وقال له ابنه رضا قلى « إنك لم تفقأ عينى بل عينى فارس » [٢٤] . وبدأ الفرس يمقتون منقذهم كما تعلم الروس من قبلهم أن يمقتوا بطرس الأكبر . وأثار الزعماء الدينيون عليه بغض أمة طعنت فى إيمانها الدينى . فحاول أن يخمد التمرد المتعاظم بإعدام المتمردين بالجملة ، حتى لقد بنى أهراما من جماجم ضحاياه . وفى ٢٠ يونيو ١٧٤٧ اقتحم خيمته أربعة رجال من حرسه وهجموا عليه ، فقتل اثنين منهم ، ولكن الآخرين صرعاه . وتنفست فارس كلها الصعداء .

وهوت من بعده البلاد إلى درك من الفوضى أسوأ مما تردت فيه أيام سيطرة الأفغانيين . فطالب نفر من خانات الاقاليم بالعرش ، وتلا ذلك مباراة فى التقتيل والاغتيال . وقنع أحمد خان بتأسيس مملكة أفغانستان الحديثة . أما شاه رخ — الرجل الوسيم اللطيف الرحيم — فقد سملت عيناه بعد اعتلائه العرش بقليل ، فتقهقر ليحكم خراسان حتى ١٧٩٦ . وخرج كريم خان منتصرا من الصراع ، وأسس الاسرة الزندية (١٧٥٠) التى احتفظت بسلطانها حتى ١٧٩٤ . واختار كريم شيراز عاصمة لملكه ، وزينها بالمبانى الجميلة ، وساد جنوبى فارس تسعة وعشرين عاما من نظام وسلام لابأس بهما . فلما مات جعل التطاحن على السلطة يتخذ من جديد صورة الحرب الاهلية ، وعادت الفوضى تضرب أطنابها من جديد .

اختتمت فارس آخر مراحلها الفنية العظمى بسقوط الدولة الصفوية على

يد الافغانيين ، فلم تجملها بعد ذلك غير بعض الآثار الفنية الصغيرة . وقد وصف اللورد كرزن مدرسة الشاه حسين (١٧١٤) بأصفهان — وكانت كلية لتدريب الدارسين والمحامين — بأنها « من أفخم الاطلال فى فارس » [٢٥]. وتعجب السير برسى سايكس من « قرميدها البديع ... ورسومها المخرقة الجميلة » [٢٦]. وكان صناع القرميد لا يزالون أمهر صناعه فى العالم بأسره ، بيد أن افتقار الطبقات العليا نتيجة للحروب الطويلة قضى على سوق المهارة والتفوق وأكره الخزافين على الهبوط بفنهم إلى مستوى الصناعة . وصنعت أغلفة الكتب الفاخرة من الورق المعجن المصقول . وأنتج النساجون أقمشة مقصبة ومطرزة غاية فى الرهافة . وظلت السجاجيد الفارسية تنسج للمحظوظين من شعوب كثيرة رغم أنها شهدت آخر أمجادها فى عهد الشاه عباس الاول . وفى يوشاجان ، وهراة ، وكرمان ، وشيراز على الاخص ، كان النساجون ينتجون سجاجيد « لا يقلل من روعتها فى عين الناظر إلا مقارنتها بأسلافها الكلاسيكية » [٢٧].

أما الشعر الفارسى فقد حطم الفتح الافغانى قلبه ، وتركه أخرس أو كالأخرس طوال حقبة العبودية التالية لهذا الفتح . وحوالى ١٧٥٠ صنف لطف على بك أدار قاموسا بسير الشعراء الفرس ، اختتم بستين من معاصريه. ومع هذه الوفرة الظاهرة فإنه أسف على ما رآه مجاعة فى الكتاب المجيدين فى عصره ، وعزا ذلك إلى الفوضى والفقر السائدين ، « واللذين استشريا بحيث لم يعد لإنسان رغبة فى قراءة الشعر فضلا عن قرضه » [٢٨]. ونسوق هنا تجربة نموذجية للشيخ على خازن ، الذى نظم أربعة دواوين من الشعر ، ولكنه أمسك فى حصار الأفغانيين لأصفهان ، ومات كل أهل بيته فى الحصار ، وظل هو على قيد الحياة ، ثم أفاق من محنته ، وهرب من أنقاض المدينة التى كانت رائعة الجمال يوما ما ، وأنفق الأعوام الثلاثة والثلاثين الباقية من أجله فى الهند . وقد خلد فى « مذاكراته » (١٧٤٢) ذكرى مائة شاعر فارسى فى جيله ، وأعظمهم فى رأيه سيد أحمد هاتف الأصفهانى ، ولعل أكثر قصائده ظفرا بالثناء تلك التى أكد فيها بوجد المتصوفة إيمانه بالله رغم الشك والدمار :

« فى الكنيسة قلت لفاتنة نصرانية ،
يامن يقع القلب فى فخك أسيرا ،
أنت التى يتعلق كل طرف شعرة من شعرى بسدى منطقتك !
إلى متى تضلين الطريق إلى واحدنية الله ؟
إلى متى تفرضين على الآله الواحد عار التثليث ؟
كيف يتأتى أن تدعى الإله الحق الواحد أبا وإبنا وروح القدس؟
فافتر ثغرها الجميل وقالت لى والضحك الحلو يتدفق منها :
إن كنت تعرف سر الآله الواحد فلا ترمنى بسبة الـكفر !
فى ثلاث مرايا يشرق الجمال الأبدى بشعاع من وجهه الساطع .
وبينما نحن فى حديثنا هذا أنبعثت هذه الأنشـودة بجوارنا من جرس الـكنيسة :

« إنه إله واحد ولا إله سواه ؟
لا إله إلا الله وحـده ...:
فى قلب كل ذرة تشقينها ترين شمسا فى الوسط .
أن أنت بذلت لله كل ما تملكين ، فلا حسب كافرا
أن أصابك مثقال ذرة من الخسران . . .
سوف تعبرين الصراط الضيق وتبصرين الملكوت الرحب ،
ملكوت الإله الذى لا يحـده مكان. . . .
وسوف تسمعين ما لم تسمعه أذن ، وترين ما لم تره عين ،
حتى يأتوا بك إلى مكان لا تبصرين فيه من الدنيا وأهلها غير واحد أحد
إلى هذا الواحد ستبذلين الحب من قلبك وروحـك ،
حتى ترى بعين اليقين فى جلاء لا خفاء فيه .
أنه إله واحـد ولا إله سواه ،
لا إله إلا الله وحـده » (٢٩)



الفصل السابع عشر

فاصل روسى

١٧٢٥ – ١٧٦٢

١ – العمل والحكم

كتب فريدريك الأكبر حوالى عام ١٧٧٦ يقول : « من بين جيران بروسيا أجمعين تستحق روسيا أعظم الاهتمام لأنها أخطرهم ، فهى قوية وقريبة . وسيضطر حكام بروسيا القادمون كما اضطررت أنا للسعى إلى صداقة هؤلاء الهمج » [1] .

وعلينا دائما ونحن نفكر فى روسيا أن نتذكر حجمها . كانت فى عهد كاترين الثانية تضم أستونيا وليفونيا وفنلنده (بعضها) ، وروسيا الأوربية ، وشمالى القوقاز ، وسيبريا . وقد اتسعت رقعتها من ٦٨٧٫٠٠٠ إلى ٩١٣٫٠٠٠ كيلو متر مربع فى القرن الثامن عشر ، وزاد سكانها من ثلاثة عشر مليونا فى ١٧٢٢ إلى ستة وثلاثين مليونا فى ١٧٩٠ [2] . وفى ١٧٤٧ قدر فولتير سكان فرنسا أو ألمانيا بأنهم يزيدون قليلا على سكان روسيا ، ولكنه لاحظ أن روسيا تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة أى من الدولتين . وسيقوم الزمن والأصلاب الروسية بملء تلك المساحات الشاسعة .

وفى عام ١٧٢٢ كان ٩٧٫٧ ٪ من سكان روسيا ريفيين ، وظلت نسبتهم ٩٦٫٤ ٪ فى ١٧٩٠ ، فقد كان التصنيع يسير ببطء شديد . وفى ١٧٦٢ كان كل الشعب إلا عشرة فى المائة منه فلاحين ، وكان ٥٢٫٤ ٪ من هؤلاء أقنانا [3] ، ونصف الأرض يمتلكه نحو ١٠٠٫٠٠٠ من النبلاء ، ومعظم ما بقى منها تملكه الدولة أو الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، وبعضها

يملكه فلاحون شبه أحرار ما زالوا يلتزمون بأداء الخدمات وبالطاعة للسادة المحليين ؛ وكانت ثروة المالك تحسب بعدد أقنانه ، من ذلك أن الكونت بيتر خير يميتييف بلغت ثروته ١٤٠٫٠٠٠ قن [٤] . وكان الأقنان الذين تمتلكهم الكنيسة وعددهم ٩٩٢٫٠٠٠ أهم جزء فى ثروتها ، وكان ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ قن يفلحون أراضى التاج فى ١٧٦٢ [٥] .

وكان الشريف يتكفل بالقيادة العسكرية والتنظيم الاقتصادى ، وهو عادة معفى من الخدمة العسكرية ولكنه كثيرا ما تطوع بها أملا فى الحظوة عند الحكومة . وكان له حقوق محاكمة أقنانه ، وله أن يعاقبهم ، أو يبيعهم أو ينفيهم إلى سيبيريا . على أنه كان عادة يسمح لفلاحيه بإدارة شئونهم بواسطة مجلس قريتهم أو « المير » وكان القانون يلزمه بإمداد أقنانه بالبزار وبإعالتهم فى فترات القحط . وقد ينال القن حريته بشرائها من مالكه أو بالانخراط فى سلك الجيش ، ولـكن هذا مشروط برضى المالك . وكان للفلاحين الأحرار حق شراء الأقنان وامتلاكهم ، وكان بعض هؤلاء الأحرار ويلقبون « كولاكى » (أى القبضات) ، يهيمنون على الشئون القروية ، ويقرضون المال بالربا ، ويبزون السادة الإقطاعيين استغلالا وصرامة [٦] . وكان السيد والقن كلاهما متين السلالة ، صلب العود ، قوى الذراع واليد ، عكفا معا على تذليل التربة ، واضطلعا معا بعبء ترويض فصول السنة . وكانت المشاق أحيانا فوق مايطيق البشر ، بحيث نسمع مرارا باقنان يهجرون مزارعهم فى أعداد كبيرة ويختفون فى بولنده أو الأورال أو القوقاز ، وكان الالوف منهم يلقون حتفهم فى الطريق ، والالوف يتصيدهم الجند ويقبضون عليهم . وبين الحين والحين يهب الفلاحون فى ثورة مسلحة على سادتهم وعلى الحكومة ، وتنشب بينهم وبين الجيش معارك يستميتون فيها فى الدفاع عن أنفسهم ، ولكن الهزيمة تلاحقهم دائما ، فيزحف الاحياء منهم قافلين إلى واجباتهم — إلى أخصاب النساء بذريتهم ، والتربة بدمائهم .

وقد درب بعض الاقنان على الفنون والحرف ، فكانوا يمدون سادتهم بكل احتياجاتهم تقريبا . ويروى الـكونت سيجور فى معرض حديثه عن

حفل أقيم لكاترين الثانية أن الشاعر الذى نظم الاوبرا والمؤلف الذى ألف موسيقاها ، والمعمارى الذى بنى قاعة الاستماع ، والنقاش الذى زخرفها ، وممثلى المسرحية وممثلاتها ، والراقصين والراقصات فى الباليه ، والموسيقيين فى الأوركسترا — كل أولئك كانوا أقنانا للكونت خريمتييف [٧] . وكان الفلاحون يصنعون فى الشتاء الطويل الملابس والأدوات التى سيحتاجون إليها فى السنة المقبلة . وكانت الصناعة فى المدن بطيئة التطور ، من جهة لأن كل بيت كان ورشة ، ومن جهة أخرى لأن صعوبات النقل كانت عادة تضيق السوق فلا تجاوز الجهات المجاورة للمنتج . وشجعت الحكومة المشروعات الصناعية بتقديمها الاحتكارات للمحظوظين ، وأحيانا بتزويدهم برأس المـــال ، وقد وافقت على أن يشارك الأشراف فى الصناعة والتجارة . وظهرت رأسمالية مبتدئة فى صناعات التعدين والميتالورجيا والعتاد الحربى ، وفى إنتاج المصانع للمنسوجات والخشب المنشور والسكر والزجاج . وسمح لا « مقاولين » بشراء الاقنان لتزويد مصانعهم بالعمال ، على أن هؤلاء « الفلاحين المملوكين » لم يكونوا مربوطين بالمالك بل بالمشروع ، وألزمهم مرسوم حكومى صدر فى ١٧٣٦ ، هم وذريتهم ، بالبقاء فى مصانعهم حتى يؤذن لهم رسميا بتركها . وكانوا فى حالات كثيرة يعيشون فى معسكرات منفصلين عن أسرهم فى الغالب الأعم [٨] .

أما ساعات العمل فتتفاوت بين أحدى عشرة وخمس عشرة فى اليوم للرجال ، تتخللها ساعة للغداء ، وأما الأجور فتتراوح بين أربعة روبلات وثمانية فى اليوم للرجال ، وبين روبلين وثلاثة للنساء . ولكن بعض أرباب العمل تكفلوا بإطعام عمالهم وإسكانهم ودفع الضرائب عنهم . وبعـــد عام ١٧٣٤ إزداد تشغيل العمال « الأحرار » — أى غير الأقنان — فى المصانع لأنه أتاح مزيدا من الحوافز للعمال وحقق مزيدا من الربح لرب العمل. وكان العمل من الرخص بحيث لا يشجع اختراع الآلات أو استخدامها ، ولكن فى عام ١٧٤٨ أستخدم بولزونوف آلة بخارية فى مصانع الحديد التى يمتلكها بالأورال . [٩]

وبدأت طبقة وسطى صغيرة عديمة الحول سياسيا تتشكل ببطء بين طبقتى النبلاء والفلاحين . ففى عام ١٧٢٥ كان نحو ثلاثة فى المائة من السكان تجارا : أصحاب متاجر فى القرى والمدن والأسواق ، ومستوردين للشاى والحرير من الصين والسكر والبن والتوابل والعقاقير من وراء البحار ، وللمنسوجات الفاخرة والخزف والورق من غربى أوربا ، ومصدرين للخشب والتربنتينة والقار وشحم الحيوان والكتان والقنب . وكانت القوافل تسافر إلى الصين بطريق سيبيريا أو بحر قزوين ، والسفن تقلع من ريجا وريفل ونارفا وسانت بطرسبرج . ولعل الأنهار والقنوات كانت تنقل من التجارة أكثر مما تنقله الطرق البرية أو البحرية .

وكانت موسكو تقع فى قلب تلك التجارة الداخلية ، وكانت من الناحية المادية أكبر مدن أوربا ، إذ أن بها شوارع طويلة عريضة ، و٤٨٤ كنيسة ومائة قصر ، وآلاف الأكواخ والزرائب ، وسكان بلغوا ٢٧٧,٥٣٥ فى ١٧٨٠ [١٠] ، والفرنسيون والألمان واليونان والإيطاليون والانجليز والهولنديون والأسيويون يتحدثون لغاتهم ويعبدون آلهتهم كما يشاءون . وكانت سانت بطرسبرج قلعة للحكومة . ومعقلا لأرستقراطية متفرنسة ، ومركزا للأدب والفن ، أما موسكو فكانت قطب الديانة والتجارة ، وتقسم بحياة نصف شرقيه لم تخلع عنها طابعها الوسيط ، وبوطنية سلافية مشربة بالغيرة والإخلاص . هاتان كانتا البؤرتين المتنافستين اللتين تدور حولهما المدنية الروسية ، حينا تمزق الشعب شطرين كالخلية المنقسمة ، وحينا تحيله مركبا متوترا سيصبح قبل ختام القرن مبعث الرعب لأوربا والحكم الفيصل فى مصيرها .

وكان محالا على شعب أضناه ووحشه صراعه مع الطبيعة ، وأعوزته أسباب الاتصال أو الأمن على الحياة ، وأفتقر أشد الافتقار إلى فرص التعليم وإلى الوقت الذى يفكر فيه — نقول إن شعبا كهذا كان محالا عليه أن يحظى بامتيازات الديمقراطية ومخاطرها ، اللهم إلا فى القرى المعزولة . ولم يكن بد من الاقطاعية فى صورة من صورها ، ومن ضرب عن النظام

الملكى فى الحكم المركزى . وكان من الأمور التى لابد من توقعهـا أن تتعرض الملكية للانقلابات المتكررة ، تقوم بها أحزاب النبلاء المهيمنين على إمدادهم العسكرية للحكومة ، وأن تسعى الملكية إلى الحكم المطلق ، وأن تعتمد على الدين معوانا لجنودها وشرطتها وقضاتها على صيانة الاستقرار الاجتماعى والسلام الداخلى .

وكان الفساد عقبة كؤودا سـدت كل مسالك الادارة . وحتى النبلاء الأثرياء الملتفون حول العرش كان من السهل أجتذابهم بـ « الهدايا ». يقول كاستيرا الذى كان معاصرا تقريبا لهذه الحقبة « أن كان هنـاك عاصم الروس من التملق ، فإنه مامن أحد منهم يستطيع مقاومة أغراء الذهب[11] » . وكان النبلاء يهيمنون على حرس القصر ، ذلك الحرس المعز المذل ، الذى يقيم الملوك ويخلعهم ، ويؤلفون طبقة مميزة من الضباط فى الجيش ، ويملأون مجلس الشيوخ الذى كان يشرع القوانين فى عهـد البزابيث ، ويرأسون الوزارات (الكوليجيا) التى تهيمن على العلاقات الخارجية ، والمحاكم ، والصناعة ، والتجارة ، والمالية ، ويعينون الـكتبة الذين يواصلون السير على النظام البيروقراطى ، ويوجهون إختيار الحاكم للمحافظين ، الذين يديرون الـ « جوبرنيات » أى المحافظات التى انقسمت إليها الامبرطورية ويختارون (بعد ١٧٦١) « الفويفوديين » الذين يحكمون الأقاليم . وكان مكتب الرقيب المالى المؤلف أكثره من رجال الطبقة الوسطى يبسط ظله على جميع فروع الحـكومة ، وهو مكتب مخابرات إتحـادى ، مخول له أن يكشف ويعاقب الإختلاس ، ولكنه ألفى نفسـه محبطاً رغم استخدامه المخبرين على نطاق واسع . فلو أن الملك رفت كل موظف مذنب بالرشوة والفساد لتوقف دولاب الدولة . وكان فى جباة الضرائب من الفهم للمال مالا يبقى لخزانة الدولة مما يجمعون أكثر من ثلثـه .[12]

٢ — الدين والثقافة

كان للدين سلطان كبير فى روسيا . لأن الفقر كان مدقعاً ، ولأن تجار الأمل وجدوا مشترين كثيرين . واقتصرت الشكوكية على طبقة عليا

تقرأ الفرنسية ، وكان للماسونية أتباع كثيرون فى هذه الطبقة[١٣] . أما سكان الريف وأكثر سكان المدن فكانوا يحيون فى عالم فوق طبيعى قوامه التدين الذى يشيع فيه الخوف ، يتخيلون الشياطين محيطة بهم ،ويرسمون الصليب مراراً وتكراراً فى اليوم ، ويتضرعون للقديسين بالتشفع لهم ، ويتعبدون لرفاتهم ، يرهبون المعجزات ، ويرتعدون فرقاً من النذر ، ويخرون سجداً أمام الصور المقدسة ، ويولولون بترانيم كئيبة تنطلق من صدور جهيرة . وكان للكنائس أجراس ضخمة قوية ، وقد أقام بوريس جودونوف جرساً منها بلغ وزنه ٨٨٢٫٠٠٠ رطل ، ولكن الأمبراطورة أنا إيفانوفينابزته فى هذا الميدان ،إذصب لهاجرس يزن ٤٣٢٫٠٠٠ رطل[١٤] .وعمرت الكنائس بالمصلين ، وكانت الطقوس هنا أكثر مهابة ووقاراً والصلوات أكثر حماسة ووجدا منها فى روما البابوية نصف الوثنية . أما القساوسة الروس — وكل منهم يلقب بالبابا — فكانت لهم لحى وشعر مرسل وأردية قاتمة تصل إلى أقدامهم (لأن مظهر السيقان يتعارض مع الكرامة والوقار) . وقلما كانوا يختلطون بالنبلاء أو البلاط بل يعيشون فى بساطة متواضعة ،متبتلين فى أديرتهم أو متزوجين فى دورهم . وكان رؤساء الأديرة يحكمون الرهبان ، والرئيسات يحكمن الراهبات ؛ وكان الكهنة غير الرهبان يخضعون للأساقفة ، وهؤلاء لرؤساء الأساقفة ، وهؤلاء للمطارنة الإقليميين ، وهؤلاء للبطريرك فى موسكو ؛ والكنيسة بجملتها تعترف برئيس الدولة رأساً لها. وخارج الكنيسة عشرات من الملل والنحل تتنافس فى التصوف والتقوى والكراهية .

وأفاد الدين فى بث ناموس أخلاقى حقق بالجهد خلق النظام وسط الدوافع القوية التى طبع عليها شعب بدائى . واتخذ نبلاء البلاط أخلاق الأرستقراطية الفرنسية وعاداتها ولغتها ، وكانت زيجاتهم صفقات عقارية خفف من عبئها العشاق والخليلات . وكان نساء القصر أرقى تعليما من رجاله ، ولكنهن قد يتفجرن فى لحظات الغضب بألفاظ حامية وعنف قاتل . أما عامة الشعب فكانت لغتهم سوقية غليظة ، وكثر بينهم العنف ، وكانت القسوة تتفق وقوة البدن وصفاقة الجلد . وكان كل إنسان يقامر ويسكر حسب طاقته ،

ويسرق حسب منصبه[١٥] ، ولكن الكل كانوا محسنين ، وبزت الأكواخ القصور فى كرم الضيافة . وكانت الوحشية والكرم صفتين شائعتين فى المجتمع كله .

أما اللباس فيختلف من أزياء باريس العصرية . فى البلاط إلى القلانس من الفراء وجلد الغنم والقفازات الصفيقة التى يرتديها الفلاحون ، ومن جوارب النبلاء الطويلة الحريرية إلى الأربطة الصوفية التى تحتوى سيقان الأقنان وأقدامهم . وفى الصيف قد يستحم عامة الناس عراة فى الأنهار متجاهلين الجنس . وكانت الحمامات الروسية كالتركية عنيفة ولكنها محبوبة . وفيما خلا هذا كان الاهتمام بالنظافة الصحية عارضاً ، وحفظ الصحة العامة بدائيا . وكان النبـــلاء يحلقون لحاهم ، أما عامة الشعب فيطلقونها رغم مراسيم بطرس الأكبر .

وكان فى كل بيت تقريباً بالالايكا (جيتار) ، وكان فى سانت بطرسبرج على عهــد اليزابيث وكاترين الثانية أوبرا مجلوبة من إيطاليا وفرنسا . وإليها وفد مشاهير المؤلفين والقـادة الموسيقيين ، وأبرع مغنى العصر وعازفيه . وكان المـال ينفق بسخاء على تعليم الموسيقى ، وقد أثبت صوابه وفائدته بتفجر العبقرية الموسيقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكان أصحاب الأصوات المبشرة من الذكور يرسلون من جميع أصقاع روسيا إلى الكنائس الكبرى لتدريبهم . ولما كانت الطقوس الكنسية اليونانية لا تبيح استعمال الآلات فى الكورس ، فإن الأصوات كانت حرة طليقة ، فحققت من أعماق الانسجام والتناغم ما لم يكن له نظير فى أى بلد آخر فى العالم ، وغنى الصبيان أدوار السوبرانو ، ولكن المرتلين بأصوات الباص (العميقة الخفيفة) هم الذين أذهلوا كثيرين من الأجانب بمدى الخفض فى أصواتهم وباتساع شعورهم من همسات الرقة والحنان إلى موجات القوة الحنجرية .

فمن تراهم مؤلفو هذه الموسيقى المؤثرة لفرق الترتيل الروسية ، أكثرهم رهبان مغمورين لم تقرع الأجراس لموتهم ولم تشتهر أسماؤهم . ويبرز

من بينهم راهبان فى القرن الثامن عشر . أولهما سوزونوفتش بيريزوفسكى الصبى الأوكرانى الذى وهب صوتاً كأنما خلق ليتعبد لله . وأوفدته كاترين الثانية إلى إيطاليا على نفقة الدولة ليحصل أفضل التعليم الموسيقى ، وعاش سنوات فى بولونيا ، وتعلم التأليف الموسيقى على البادرى مارتينى . فلما عاد إلى روسيا كتب موسيقى دينية جمعت بين القوة الروسية والرشاقة الإيطالية . وقوبلت جهوده لإصلاح ترتيل الكورس بالمقاومة من أنصار القديم ، فبات فريسة لاكتئاب مرضى ، وقتل نفسه غير مجاوز الثانية والثلاثين (١٧٧٧) [١٦] . أما الثانى ، وهو أشهر منه ، فاسمه ديمترى بورتنيانسكى ، الذى أدخل وهو لا يزال طفلا فى السابعة كورس كنيسة البلاط ، وناطت الإمبراطورة اليزابيث جالوبى بتعليمه ، فلما عاد جالوبى إلى إيطاليا أوفدت كاترين الثانية ديمترى معه إلى البندقية ومنها انتقل إلى يد البادرى مارتينى ثم إلى روما ونابلى ، حيث ألف موسيقى على الطريقة الإيطالية . وفى ١٧٧٩ عاد إلى روسيا ، وسرعان ما عين مديرا لكورس كنيسة البلاط ، وقد احتفظ بمنصبه هذا حتى مماته (١٨٢٥) . وقد ألف لفرقة الترتيل قداسا يونانيا ، وموسيقات فى أربعة وثمانية أقسام لخمسة وخمسين مزمورا . وتدريبه للفرقة يرجع له أكثر الفضل فى بلوغها مكانة من التفوق جعلتها إحدى عجائب العالم الموسيقى . وفى ١٩٠١ احتفلت سانت بطرسبرج بذكرى ميلاده المائة والخمسين بمظاهر الأبهة والفخامة .

أما الفن الروسى فقد سيطر عليه التأثير الفرنسى ، ولكن الشخصية القائدة فيه كان إيطاليا يدعى فرانشيسكو (أوبارتولوميو) راستريللى . وكان بطرس الأكبر قد استقدم أبلى كارلو إلى روسيا (١٧١٥) ، فصب بالبرونز تمثالا لبطرس ممتطيا صهوة جواد ، وآخر بالحجم الطبيعى للإمبراطورة أنا أيفانوفنا . وورث الابن طراز لويس الخامس عشر الذى جلبه كارلو من فرنسا ، وأضاف إليه بعض ما استوحاه من روائع الباروك التى صنعها بلتازار نويمان وفيشر فون أرلاخ فى ألمانيا والنمسا ، وقد طوع هذه التأثيرات لحاجات روسيا وطرزها الفنية بانسجام فائق حتى أصبح المعمارى المقرب للقيصرة اليزابيث . ويكاد يكون كل بناء روسى ذى خطر

مشيد من ١٧٤١ إلى ١٧٦٣ مصمماً بيده أو بيد معاونيه . فعلى ضفة نيفا اليسرى أقام (١٧٣٢ — ٥٤) « القصر الشتوى » الذى أحرق فى ١٨٣٧ ولكن أعيد بناؤه طبقاً لتصميمه الأصلى فيما يظن : كتلة هائلة من النوافذ والعمد فى ثلاث طبقات ، تعلوها التماثيل والشرفات المفرجة ؛ وكان أقرب منه إلى ذوق اليزابث قصر زاركوى سيلو (أى قرية القيصر) ، المشيد على ربوة تبعد خمسة عشر ميلا جنوبى سانت بطرسبرج . وعلى يساره بنى كنيسة ، وفى داخل القصر كان سلم فخم يؤدى إلى قاعة كبرى تضيئها نوافذ ضخمة بالنهار وست وخمسون ثريا بالليل ؛ وفى الطرف الأبعد قاعة العرش وأجنحة الأمبراطورة ، ثم حجرة صينية تقدم فروض الاجلال التى درج القرن الثامن عشر على تقديمها للفن الصينى . وهناك « حجرة الكهرمان » المكسوة بألواح من الكهرمان والتى أهداها فردريك وليم الأول بديلا لخمسة وخمسين من رماة القنابل اليدوية الفارعى الاجسام ، وقاعة للصور تضم بعض المجموعات الأمبراطورية . أما داخل القصر فأكثره بزخرفة روكوكية ، وصفها رحالة إنجليزى بأنها « مزيج من الهمجية والفخامة »[17]. وقد أزيلت بأمر كاترين الثانية زخارف الواجهة الذهبية ، فقد كانت كاترين بسيطة نقية فى ذوقها .

وكان الأدب أبطأ تطوراً من الفن . فقد افتقد التشجيع لندرة القراء ، وقيدت رقابة الكنيسة والدولة حرية التعبير ، ولم تكن اللغة الروسية قد صقلت ذاتها نحواً ولفظاً بحيث ترقى إلى مستوى الأداة الأدبية . ومع ذلك فحتى قبل تولى اليزابيث العرش (١٧٤٢ (ترك ثلاثة من الكتاب بصماتهم على صفحة التاريخ . وأولهم فازيلى تاتيشيف — كان صاحب نشاط وفكر ، رحالة مؤرخاً ، دبلوماسياً وفيلسوفاً ، يحب روسيا ولكنه يفتح عقله فى تشوق للتطورات الاقتصادية والفكرية فى الغرب . وكان واحداً من ذلك النفر من الشباب الذين أوفدهم بطرس إلى الخارج بغية إخصاب روسيا فكرياً . وقد عاد بأفكار خطرة : فقد قرأ الأصول أو الخلاصات لكتب

بيكون وديكارت ولوك وجروتيوس وبيل ، وذبل إيمانه السنى ، فلم يؤيد الدين إلا بوصفه معواناً على الحكم[١٨] . وقد خدم بطرس فى حملات حربية خطرة . وأصبح حاكماً لأستراخان ، واتهم بالاختلاس . [١٩] واجتمع له من جولاته ذخيرة من المعلومات الجغرافية والعرقية والتاريخية انتفع بها فى كتابة « تاريخ روسيا » . وقد أغضب هذا الكتاب رجال الدين ، ولم يجرؤ أحد على طبعه حتى السنوات السمحة الأولى من حكم كاترين الثانية (١٧٦٨ — ١٧٧٤) .

وواصل ثانى هؤلاء الكتاب الثلاثة — وهو الأمير أنطيوخ كانتمير — التمرد على اللاهوت . كان ابناً لحاكم (هوسبودار) ملدافى ، وجىء به إلى روسيا فى عامه الثالث ، وتعلم الحديث بست لغات ، وخدم فى السفارات الروسية فى لندن وباريس ، والتقى بمونتسكيو وموبرتوى ، فلما عاد كتب نقداً لاذعاً لأولئك الغلاة من الوطنيين الداعين للجامعة السلافية ، المعارضين لتلويث الحياة الروسية بالأفكار الغربية . وإلى القارىء طرفاً من قصيدته « إلى عقلى » :

« أيها العقل الفج ، ياثمرة الدراسات الحديثة ، أمسك ، ولا تدفع القلم فى يدى ... ما أكثر الطرق السهلة المؤدية فى زماننا هذا إلى أسباب التشريف ، ولكن أقل الطرق تقبلا هو الطريق الذى خططته الأخوات الحافيات التسع (ربات الفنون) ... عليك أن تكد وتكدح هناك ، وبينما تشقى أنت يتجنبك الناس كأنك الوباء ويتهكمون عليك ، ويبغضونك ... ... «أن الذى يكب على الكتب ينقلب كافراً » ، هكذا يدمدم كريتو متذمراً فى يده مسبحته... ويريدنى أن أرى مبلغ الخطر فى بذرة المعرفة التى تلقى بيننا : إن أطفالنا ..... مما يفزع الكنيسة ، بدأوا يقرأون الكتاب المقدس ، وهم يناقشون كل شىء ويريدون معرفة العلة لكل شىء ، ولا يضعون فى رجال الدين إلا أقل الثقة . . . إنهم لا يوقدون الشمع أمام الصور ، ولا يحفظون المواسم والأعياد ...

« أيها العقل ، نصيحتى لك أن تصبح أشد صمماً من قطعة زلابية ،

ولا تشك لأنك مغمور ... وإذا كانت الحكمة المنعمة قد علمتك شيئاً، ... فلا تشرحه لغيرك »[٢٠] .

وزاد كانتيمير من إساءاته بترجمته كتاب فولتنيل « أحاديث حول تعدد العوالم » ، وقد أدين الكتاب لأنه كوبرنيقى ، مهرطق ، مجدف ، ولكن كانتيمير أحبط مابيته له مضطهدوه، فقد مات وهو فى السادسة والثلاثين (١٧٤٤) . ولم تجد هجائياته ناشراً يقدم على نشرها حتى عام ١٧٦٢ .

وفى عهد القيصرة اليزابيث بدأ الأدب الروسى يؤكد ذاته شيئاً أكثر من مجرد كونه صدى للأدب الفرنسى . وقد شعر ثالث هؤلاء الكتاب ، وهو ميخائيل لومونوزف ، بالتأثير الألمانى لا الفرنسى ، وكان قد درس فى ماربورج وفرايبورج، ثم تزوج فتاة ألمانية، وجلب معها إلى سانت بطرسبرج حملا ثقيلا من العلم . وأصبح سبع الأكاديمية المبرز فى كل شيء حتى فى الشراب[٢١] . ورفض أن يتخصص ، فكان عالماً فى المعادن ، وجيولوجياً، وكيمائياً ، وكهربائياً ، وفلكياً ، واقتصادياً، وجغرافياً، ومؤرخاً، وفيلولوجياً، وخطيباً . وقد لقبه بوشكن « أول جامعة روسية »[٢٢] وفى غمار هذا كله كان يقرض الشعر :

وكان منافسه الأكبر على ثناء الطبقة المفكرة هو ألكسيس سوماروكوف الذى نشر ديواناً من القصائد الغنائية من نظمه ونظم لومونوسوف ليظهر أنه أشعر منه (وكان الفرق بينهما طفيفاً) . أما مفخرة سوماروكوف الحقيقية فهى انشاؤه مسرحاً قومياً روسيا (١٧٥٦) ألف له تمثيليات رددت صدى تمثيليات راسين وفولتير . وقد ألزمت اليزابيث حاشيتها بالحضور ، وكانوا لا يدفعون أجرا عن دخول المسرح ، فشكا سوماروكوف من أن راتب الخمسة آلاف روبل الذى يتقاضاه فى العام لا يقيم أوده ، ولا يعين مسرحه على الحياة . « أن ما كان الناس يشهدونه فى أثينا يوما وما يشهدونه اليوم فى باريس ، يشهدونه كذلك فى روسيا بفضل اهتمامى . . . وفى ألمانيا لم يوفق حشد من الشعراء لما وفقت إلى صنعه بجهودى أنا وحدى »[٢٣] .

وفى ١٧٦٠ أعيا من هذه الجهود المضنية فشد رحاله إلى موسكو ، ولكن ميله للشجار ما لبث أن أورثه الفقر هناك . فناشد كاترين الثانية أن تبعث به إلى الخارج على نفقة الدولة ، وأكد لها أنه « لو وصف أوربا قلم كقلمى ، لما كفاه ٣٠٠,٠٠٠ روبل »[٢٤] واحتملته كاترين فى صبر حتى مات صريع الشراب (١٧٧٧) .

ولنبعث الآن شيئاً من الإشراق فى هذه الصفحات بقصة غرام بطلتها أميرة إسمها ناتاليا بوريسوفنا دولجوروكايا ، وكانت إبنة الكونت والمشير بوريس خريميتيف ، رفيق سلاح بطرس الأكبر . فنى ربيعها الخامس عشر (١٧٢٩) يوم كانت « باهرة الجمال ومن كبار الوارثات فى روسيا»[٢٥] خطبت لفاسيلى لوكيش دولجوروكى ، أقرب المقربين للقيصر بطرس الثانى . وقبل أن يتاح عقد القران مات بطرس ، فنفى خلفه فاسيل إلى سيبريا ، وأصرت ناتاليا على أن تتزوجه وتتبعه إلى المنفى . وعاشت معـــه ثمانية أعوام فى تبولساك ، وولدت له طفلين . وفى عام ١٧٣٩ أعدم ، وبعد أن قضت فى المنفى ثلاثة أعوام أخرى سمح لها بالعودة إلى روسيا الأوربية فأكملت تعليم أبنائها ، ثم دخلت ديرا فى كييف. هناك ، واستجابةلرجاء ولدها ميخائيل ، كتبت « مذكراتها » (١٧٦٨) التى نشرها حفيـــدها الشاعر الأمير إيفان ميخايلوفيتش دولجوروكى فى ١٨١٠ . وقدأحيا ذكراها ثلاثة شعراء روس ، وهى محل إجلال روسيا باعتبارها نموذجاللكثيرات من النساء الروسيات اللاتى شرفن الثورة ببطولتهن ووفائهن .

والخلاصة أن الحضارة الروسية فى جملتها كانت مزيجا من الإنضباط الحتمى والاستغلال القاسى ، ومن التدين والعنف ، ومن الصلاةوالتجديف ، ومن الموسيقى والتبذل ، ومن الوفاء والقسوة ، ومن الخضوع الذليل والبسالة التى لا تقهر . ولم يستطيع القوم أن يكتسبوا فضائل الســلم لأنه كان لزاما عليهم أن يخوضوا ، خلال فصول شتاء مديدة ، وليالى قارسة البرد طويلة ، حربا مريرة مع الرياح القطبية التى تكتسح سهولهم المتجمدة دون ما حاجز يعوقها . إنهم لم يعرفوا قط النهضة الأوربية ولا الإصلاح

البروتستنتى ، ومن ثم كانوا — إلا فى عاصمتهم المتكلفة — لا يزالون أسرى قيود العصر الوسيط . وكانوا يعزون أنفسهم بكبرياء العرق ويقين الإيمان ، دون أن يبلغ ذلك بعد مبلغ النزعة القومية الأقليمية ، إنما كان إقتناعاً ضارياً بأنه بينما كان الغرب يورد نفسه موارد الهلاك بالعلم والثروة والوثنية والكفر ، أقامت « روسيا المقدسة » وفية لمسيحية آباء الكنيسة الأولين ، أقرب الأمم إلى قلب المسيح وأحبها إليه ، وإليها سيؤول حكم العالم وافتداؤه ، يوما ما .

٣ — السياسة الروسية

١٧٢٥ — ٤١

ليس تاريخ روسيا فيما بين بطرس الأكبر واليزابث بتروفنا إلا سجلا كئيبا محيراً من الدسائس وثورات القصر . فهذه الحقبة تتيح لنا — إن كان لحقبة ما أن تتيح — ونحن مطمئنون — أن نوفر فى الحيز والوقت. ومع ذلك فلا مناص من ذكر بعض عناصر هذا الخليط إن أردنا أن نفهم مركز كاترين الكبرى وخلقها وسلوكها .

كان الوريث الطبيعى للعرش عام ١٧٢٥ بيوتر ألكسيفتش ، صبى العاشرة وابن الكسيس (وألكسيس هو الابن القتيل لبطرس الأكبر) ، ولكن أرملة بطرس التى لم تعرف القراءة والكتابة أقنعت حرس القصر (بدفعها رواتبهم التى طال تخلفها) بأنه عينها خلفاً له ، وبفضل تأييدهم أعلنت (٧ فبراير ١٧٢٥) توليها العرش بإسم كاترين الأولى ، إمبراطورة أقليم روسيا كلها . ولكن كاترين الصغرى هذه انغمست بعد ذلك فى الشراب والفسق . وكانت تحب الخمر حتى تغيب عن وعيها كل مساء ، وتمضى إلى فراشها عادة فى الخامسة صباحا ، وقد تركت زمام الحكم لعشيقها السابق الأمير الكسندر دانيلوفتش منشيكوف ومعه مجلس أعلى ،— واضطلع الكونت أندراى أوسترمان ، الألمانى المولد ، بالشئون الخارجية ووجه روسيا إلى مصادقة ألمانيا والنمسا ومعاداة فرنسا . وعملا بمخططات

بطرس الأكبر ، زوجت كاترين إبنتها آنا بتروفنا لكارل فريدرش ، دوق هولشتين — جوتورب ، وذهب العروسان ليعيشا فى كيل ، حيث ولدت آنا الغلام الذى صار فيما بعد بطرس الثالث . أما كاترين نفسها ، فقد ماتت فى ٦ مايو ١٧٢٧ شهيدة لذاتها ، بعد أن عينت خلفا لها الصبى بيوتر الكسيفيتش الذى اغتصب عرشه من قبل .

ولم يكن بطرس الثانى هذا يتجاوز الثانية عشرة ، فظل منشيكوف يواصل الحكم ، واستغل سلطاته فى الإثراء تحسبا للمستقبل . فهب لفيف من النبـــلاء بزعامة الأخوين إيفان وفاسيلى لوكيتش دولجوروكى فأطاحوا بمنشيكوف ونفوه إلى سيبيريا حيث مات فى ١٧٢٩ . ولم يمض عام حتى لقى بطرس الثانى حتفه بالجدرى ، وانتهى بموته صلب الذكور فى أسرة رومانوف . هذا الحادث المؤسف هو الذى أتاح لروسيا أن تحكمها على مدى ستة وستين عاما ثلاث نساء ضارعن ، أو فقن ، أكثر معاصريهن من الملوك كفاءة تنفيذية وآثارا سياسية ، وسبقنهم جميعا — باستثناء لويس الخامس عشر — فى مضمار العربدة الجنسية .

أما أولى هؤلاء القيصرات فهى آنا إيفانوفنا ، ابنة إيفان الكسيفيتش البالغـــة خمسة وثلاثين عاما ، وأبوها كان الأخ الأبله لبطرس الأكبر . وقد اختارها المجلس الأعلى لأنها اكتسبت سمعة واقية بالوداعة والطاعة . ووضع المجلس الذى كان يهيمن عليه آل دولجوروكى وجولتسين «شروطا» بعثوا بها إلى آنا وهى فى كورلاند ، لابد من قبولها لتثبيتها على العرش . فوقعت على الشروط (٢٨ يناير ١٧٣٠) . ولكن لا الجيش ولا الاكليروس أرادوا إحلال الاوليجركية محل الأوتقراطية . لذلك انطلق وفد من حرس القصر للقاء آنا ، والتمس منها أن تتقلد زمام السلطة المطلقة . فاستوحت الشجاعة من أسلحتهم ، ومزقت « الشروط » على مرأى من الحاشية .

وكانت آنا عديمة الثقـــة بالنبلاء الروس ، فاستقدمت من كورلاند الألمان الذين كانوا يمتعونها هناك . فأصبح إرنست فون بورن ، أو بيرون

عشيقها السابق رئيسا للحكومة ، ورد أوستر مان لرياسة الشئون الخارجية ، وأعاد الكونت خريستوف فون مونيش تنظيم الجيش ، وساعد لوفنفولدى وكورف ، وكيزرلنج ، على تطعيم نظام الحكم الجديد ببعض الكفاية الألمانية . فجمعت الضرائب بصرامة يقظة ، ووسع التعليم وأدخلت عليه التحسينات ، وهيء للدولة جهاز مدرب من الموظفين المدنيين . وبمثل هذه الفاعلية سجنت الحكومة الجديدة أو نفت أو أعدمت الدولجورروكيين والجولتسينيين .

وعاشت آنا عيشة منتظمة نسبيا ، بعد أن قنعت بعشيقين (بيرون ولوفنفولدى) . فكانت تستيقظ فى الثامنة ، وتخصص ثلاث ساعات لشئون الحكم ، وتبتسم ابتسامة الرضى ، إذ يبسط رجالها الألمان سلطان روسيا . فغزا جيش يقوده مونيش بولنده ، وخلع ملكها ستانسلاس لسكزنسكى — الخاضع لتوجيه الفرنسيين . وأجلس على عرشه أوغسطس الثالث السكسونى ، واتخذ أول خطوة على طريق ربط بولنده بالروسيا . وردت فرنسا بأن حرضت تركيا على أن تهاجم روسيا ، ولكن السلطان تردد لانشغاله على جبهته الفارسية ، فرأت روسيا الفرصة مواتية لإعلان الحرب على تركيا ، وهكذا بدأت (١٧٣٥) ستون سنة من صراع السيادة على البحر الأسود . وشرح دبلوماسيو آنا الموقف فقالوا إن الاتراك ، أو من يلوذ بهم فى جنوبى روسيا ، فى يدهم مخارج الانهار الخمسة الكبرى . دنيستر ، وبوج ، ودنيبر ، ودون ، وكوبان — التى كانت أهم مسالك التجارة الروسية المتجهة جنوبا ، وأن القبائل الإسلامية نصف الهمجية التى سكنت الاحواض الدنيا لهذه الانهار هى خطر دائم يتهدد مسيحيى روسيا ، وأن الشواطىء الشمالية للبحر الاسود جزء طبيعى وضرورى من روسيا ، وأن شعبا عظيما ناميا كالشعب الروسى يجب ألا يحال بعد اليوم بينه وبين الوصول إلى البحر الأسود والبحر المتوسط دون معوق ، وقد ظلت هذه الحجج الأنشودة المتكررة التى ظلت تتغنى بها روسيا طوال ما بقى من القرن وما بعده .

أما أول الأهداف فكان القرم ، شبه الجزيرة الذى يقوم معقلا تركيا

على الجبهة الشمالية للبحر الاسود . وكان الاستيلاء على شبه الجزيرة تلك هو الغاية التى استهدفتها حملة مونيش عام ١٧٣٦ . وكان أعدى أعدائه فى هذه الحملة المسافات المترامية والمرض ... ذلك أنه كان عليه أن يعبر ٣٣٠ ميلا من القفار والبرارى التى لاتستطيع بلدة واحدة من بلادها أن تقـدم الطعام أو الدواء لجيش عدته ٥٧,٠٠٠ مقاتل ، وكان لزاماً أن ترافقهم ثمانون ألف عربة فى طابور طويل معرض فى أى نقطة أو لحظة لهجوم قبائل التتار عليه . واستطاع مونيش بفضل قيادته الماهرة أن يستولى فى تسعة وعشرين يوما على بريكوب ، وكوسلوف ، وبخشيسراى (عاصمة القرم) ، ولكن فى ذلك الشهر تفشت الدوسنطاريا وغيرها من الأمراض فى جيشه فأحدثت من الشقاء والتمرد بين رجاله ما أكرهه على التخلى عن فتوحه والتقهقر إلى أوكرانيا ، واستولى أثناء ذلك قائد آخر من قواد آنا على آزوف المشرفة على مصب نهر دون .

وكر مونيش على الجنوب فى أبريل ١٧٣٧ بسبعين ألف مقـاتل ، واستولى على أوخاكوف ، قرب مصب نهر بوج . وفى يونيو انضمت إليه النمسا فى مهاجمة الترك ، ولكن حملتها باءت بفشل ذريع ألجأها إلى إبرام صلح منفرد ، أما روسيا التى تركت فجأة لتواجـه الجيش التركى برمته ، والتى كانت تتوقع حربا مع السويد ، فقد وقعت (١٨ سبتمبر ١٧٣٩) صلحا رد إلى الأتراك تقريبا كل ماكسبه الروس فى حملات ثلاث . واحتفل بالمعاهدة فى سانت بطرسبرج على أنها إنتصار باهر لم يكلف أكثر من مائة ألف قتيل .

وعاشت آنا سنة بعد الحرب . وقبيل موتها عينت وريثا للعرش ، إيفان السادس ، الغلام الذى لم يتجاوز عمره ثمانية أسابيع : وهو ابن بنت أختها آنا ليوبولدوفنا الألمانية المولد وأنطون أولريش أمير برنزويك . وأوصت أن يكون بيرون وصيا على إيفان حتى يبلغ السابعة عشرة . ولكن مونيش وأوسترمان كانا الآن قد نالهما من بيرون ما يكفى . فانضما إلى أولريش وليوبولدوفنا ونفوه إلى سيبيريا (٩ نوفمبر ١٧٤٠) . وأصبحت

آنا ليوبولدوفنا وصية ، ومونيش « الوزير الأول » . وخشى السفيران الفرنسى والسويدى أن يسيطر التيوتون على روسيا سيطرة كاملة . فمولا ثورة يقوم بها الأشراف الروس . واختار الثوار سراً مرشحاللعرش اليزافيتا بترو فنا إبنة بطرس الأكبر وكاترين الأولى .

وكانت اليزابث ، كما سندعوها هنا ، فى الثانية والثلاثين من عمرها ، ولكنها فى أوج حسنها وشجاعتها ونشاطها ، تحب الألعاب الرياضية والتدريب العنيف ، ولكنها أيضاً ولوعة بمتع الغرام ، وقد رفهت عن سلسلة من العشاق ، ولم تظفر بقدر يذكر من التعليم ، وكانت تكتب الروسية بصعوبة وتتكلم الفرنسية بطلاقة . ويبدو أن فكرة تشريفها العرش لم تخطرلها ببال إلى أن نحتها آنا ليوبولدوفنا وأوسترمان جانبا مؤثرين عليها الأجانب . فلما أمرت الوصية فرق سانت بطرسبرج بالرحيل إلى فنلندة ، وتذمر الجند لأنهم سيواجهون حرب شقاء ، اغتنمت اليزابث الفرصة . فلبست الزى العسكرى ، وقصدت ثكنات الجند فى الساعة الثانية من صباح ٦ ديسمبر ١٧٤١ ،وناشدتهم أن يناصروها ، ثم ركبت مركبة الجليد الى القصر الشتوى على رأس فوج من الجيش وأيقظت الوصية ، وزجت بها هى والقيصر الطفل فى السجن . فلما استيقظت المدينة وجدت أن لها حاكماً جديداً ، إمبراطورة روسية خالصة ، وابنـــة لبطرس العظيم . واغتبطت روسيا وفرنسا بهذا الحدث .

٤ — اليزابث بتروفنا

١٧٤١ — ٦٢

من العسير فهم هذه المرأة خلال ضباب الزمن والأهواء . وحين لقيتها كاترين الثانية فى ١٧٤٤ « راعها منها جمالها وجلال سلوكها . . ومع أنها كانت بدينة جداً ، فإن بدانتها لم تنل قط من حسنها أو تجعل حركتها ثقيلة مضطربة . . . رغم ارتدائها طوقاً هائلا لتنورتها حين تكتمل زينتها[٢٦] » . وكانت تبطن الشكوكية إلى شفا الإلحاد[٢٧] ، وتظهر الغيرة

على الديانة التقليــدية . وقد لاحظ مراقب فرنسى « ميلهــا السافر للشراب »[٢٨] ، ولكن علينا أن نتذكر أن روسيا بلداً بارداً وأن الفودكا تدفىء شاربها . وقد رفضت أن تتزوج مخافة أن يبدد الزوج قوتها ويضاعف من أسباب الخلاف والخصومة . ويزعم البعض أنها تزوجت سراً الكسيس رازموفسكى ، فإذا كان الأمر كذلك فإنه لم يكن سوى الأول بين أقران عديدين . وكان فيها غرور وخيلاء ، وولع بالحلى والملابس المبهرجه ، ولها خمسة عشر ألف ثوب، وأكوام من الجوارب، و ٢٥٠٠ حذاء[٢٩] ، وقد استعملت بعضها قذائف أثناء النقاش ، وكان فى استطاعتها أن توبخ خدمها وحاشيتها بلغة السوقة ، وقد صدقت على بعض العقوبات القاسية ، ولكنها كانت فى سريرتها رحيمة الفؤاد[٣٠] . ألغت عقوبة الإعدام إلا على جريمة الخيانة (١٧٤٤) ، ولم تسمح بالتعذيب إلا فى أخطر المحاكمات ؛ أما عقوبة الجلد فقد بقيت نافذة ، ولكن اليزابث كانت تشعر أنه لابد من إيجاد وسيلة لتثبيط المجرمين الذين جعلوا الطرق العامة وشوارع المدن غير مأمونة فى الليل ، وقد جمعت فى طبعها بين القلق والكسل ، ووهبت ذكاء فطرياً حاداً ، وأعطت وطنها خير حكومة سمحت بها حالة التعليم والأخلاق والعادات والاقتصاد الروسى .

وبعد أن نفت أوسترمان ومونش إلى سيبيريا ، أعادت مجلس الشيوخ إلى سلطة القيادة الإدارية ، ووكلت الشئون الخارجية إلى ألكسى بتروفيش بستوزيف — ريومين . وقد وصفته كاترين الثانية بأنه « دساس كبير ، سيئ الظن بالناس ، حازم جرىء فى مبادئه ، عدولا يعرف الصفح ، ولكنه صديق صدوق لأصدقائه » [٣١] . وكان مشغوفا بالمال كما يشغف به عادة من يعرفون أن سمو المنصب قد يفضى إلى السقوط ، وحين حاولت انجلترة أن ترشوه قدرت أن نزاهته تكلف ١٠٠,٠٠٠ كراون [٣٢]. ولا علم لنا إن كانت الصفقة قد تمت ، ولكن بستوزيف وقف بوجه عام فى صف انجلترة ولكن هذا كان ردا طبيعيا على تأييد فرنسا للسويد وتركيا ضد روسيا. وقد عرض فردريك الأكبر هو الآخر على بستوزيف ١٠٠,٠٠٠ كراون إن ألف بين روسيا وبروسيا ، ولكن العرض رفض [٣٣] . وبدلا منه

ألف بستوزيف بين روسيا والنمسا (١٧٤٥) وانجلترة (١٧٥٥). فلما أتبعت انجلترة هذا بتحالف مع بروسيا (١٦ يناير ١٧٥٦) تهدم بناء الأحلاف الذى أقامه بستوزيف ، وأهملت الزابث بعدها الأخذ بنصائحه ، وربطت وزارة جديدة روسيا بحلف فرنسى — نمساوى كان «نقضا للأحلاف» السابقة : وكانت رحى حرب السنين السبع دائرة .

وقد رأينا فى موضع سابق من هذا الكتاب — وما أبعد الشقة بيننا وبينه — كيف هزم القائد الروسى أبراكسين البروسيين فى جروس بيجرزدورف (١٧٥٧) ، ثم سحب جيشه إلى بولندة . وأقنع سفيرا فرنسا والنمسا اليزابث بأن بستوزيف كان قد أمر بتقهقر ابراكسين وأنه يتآمر لخلعهما . فأمرت بالقبض على المستشار والقائد جميعا (١٧٥٨) . ومات ابراكسين فى السجن ، وأنكر بستوزيف التهمتين ، وقد برأت ساحته المعلومات التى أنيط عنها اللثام فيما بعد . وأراد خصومه أن يعذبوه ليعترف . ولكن اليزابث كفتهم . وحل ميخائيل فورونتسوف محل بستوزيف مستشارا .

وفى غمار حفلات البلاط الراقصة ، وموائد قماره ودسائسه وغيراته وأحقاده ، كانت اليزابث تشجع معاونيها على دفع المدنية الروسية قدما . ففتح محسوبها الشاب ايفان شوفالوف جامعة فى موسكو ، وأسس المدارس الابتدائية والثانوية ، وأوفد الطلاب فى بعثات للخارج للدراسات العليا فى الطب ، واستقدم المعماريين والمثالين والمصورين الفرنسيين لأكاديمية الفنون (Akademia Iskustv) التى أقامها فى العاصمة (١٧٥٨) . وقد تبادل الرسائل مع فولتير ، وأغراه بتأليف «تاريخ الإمبراطورية الروسية فى عهد بطرس الأكبر» (١٧٥٧) . أما أخوه بيوتر شوفالوف فقد أعان الاقتصاد بإلغاء المكوس على التجارة الداخلية . على أن اليزابث سمحت أثناء ذلك للتعصب الدينى بأن يزداد إرضاء لدعاة الجامعة السلافية . فأغلقت بعض المساجد فى أقاليم التتار ، ونفت ٣٥٠٠٠ يهوديا .

وكان أكبر مآثرها انتصار جيوشها وقوادها المرة بعد المرة على فردريك

الثانى ، ووقفهم الزحف البروسى ، وأشرافهم على سحقه لولا أن هد تدهور صحتها من قدرتها على حمل التحالف الفرنسى النمساوى الروسى على التماسك كتب السفير البريطانى فى تاريخ مبكر (١٧٥٥) يقول : « لقد ساءت صحة الإمبراطورية وأصيبت ببصق الدم والنهج ، وبالسعال المستمر ، وبالأرجل المتورمة . وبالماء فى رئتيها ، ومع ذلك فقد رقصت « منويتا معى » .(٣٤) وراحت الآن تدفع ثمنا باهظا لإيثارها حياة الفسق على الزواج . وإذ كانت بغير خلف ، فقد طالما بحثت عن شخص من دم ملكى يستطيع التصدى لمشاكل روسيا الخارجية والداخليـــة ، فوقع اختيارها — وهو اختيار لا يمكن تفسيره — على كارل فريدرش أولرش ، ابن اختها آنا بتروفنا وكارل فريدرش ، دوق هولشتين — جوتورب . وكانت هذه أكبر غلطة اقترفتها فى حكمها ، ولكنها كفرت عنها باختيارها لشريكة حياته .

٥ — بطرس وكاترين

١٧٤٣ - ٦١

ولد بيوتر فيودوروفتش ، كما أعادت اليزابث تسمية وريثها ، بمدينة كيل فى ١٧٢٨ . وكان بوصفه حفيدا لبطرس الأكبر ولشارل الثانى عشر كليهما صالحا لارتقاء العرشين الروسى والسويدى . وقد ألزم البيت لضعف صحته حتى بلغ السابعة ، ثم اختير بتغيير فجائى للانضمام إلى حرس هولشتين ونشىء على حياة الجندية . وأصبح رقيبا فى التاسعة ، وكان يسير شامخ الرأس فى العروض الميدانية ، وتعلم لغة ضباط الجيش وأخلاقهم . وحين ناهز الحادية عشرة عين له مرب ألمانى نشأه على الإيمان اللوثرى بصورة لا تنسى ، وأسرف فى تأديبه إسرافا أصابه بالعصاب . وإذ أرهبه هذا المربى بعنفه ، فقد انطوى على الجبن والتكتم ، ولاذ بالمكر والخداع ،(٣٥) وبات « دائم النزق والعناد وحب الشجار »(٣٦). ولعل روسو كان مستشهدا به مثالا يوضح الزعم بأن الإنسان خير بالفطرة ولكن البيئة السيئة هى التى تفسده . ذلك أن بطرس كان رقيق الفؤاد ، يتمنى أن يسلك المسلك الحق ، كما سنرى من

مراسيمه الملكية ، ولكن دمره ما فرض عليه من القيام بأدوار لا تناسبه . وحين التقت به كاترين الثانية وهو فى الحادية عشرة وصفته بأنه « وسيم الطلعة حسن السلوك مجامل » وقالت « أنها لم تشعر بأى نفور من فكرة الزواج به » . (٣٧)

وفى ١٧٤٣ أمرت اليزابث بأن يؤتى به إلى روسيا ، وخلعت عليه لقب الغراندوق ، ويبدو أنها أدخلته فى المذهب الأرثوذكسى ، وحاولت تدريبه على شئون الحكم . ولكنها « وقفت مشدوهة » لفقر تعليمه واهتزاز شخصيته وفى سانت بطرسبرج أضاف السكر عيبا إلى عيوبه الأخرى ، وراود الأمل اليزابث بأن هذا الفتى الغريب قد يتاح له ، إذا زوج بامرأة صحيحة البدن ذكية الفؤاد ، أن ينجب قبل وفاة اليزابث قيصرا كفؤا لروسيا فى مستقبل أيامه . وبهذه الروح المجردة من التعصب العرقى ، والتى اتسمت بها الاستقراطيات الأوروبية حتى أثناء قيام الدول القومية ، اتجهت اليزابث ببصرها خارج روسيا ، فوقع اختيارها على أميرة مغمورة من إحدى الإمارات الألمانية الصغرى . وكان فريدريك الثانى الماكر قد أوصى بهذا الاختيار أملا فى أن يظفر بقيصرة ألمانية صديقة فى روسيا التى أصبحت الآن مبعث خوف لألمانيا .

وعند هذه النقطة تواجهنا مذكرات كاترين الكبرى ، وهى مذكرات لا يتطرق الشك إلى صحة نسبتها إليها ، لم تطبع حتى عام ١٨٥٩ ، ولكن المخطوطة الفرنسية التى كتبتها كاترين بخط يدها محفوظة بدار المحفوظات القومية فى موسكو فهل هى جديرة بالثقة ؟ إن القصة التى ترويها هذه المذكرات تؤيدها على العموم مصادر أخرى . (٣٨) وعيبها ليس الكذب بل التحيز فهى قصة أجادت روايتها بذكاء وحيوية ، ولكنها فى بعضها دفاع عن خلعها زوجها ، وعن احتمالها نبأ قتله بمثل ما احتملته به من رباطة جأش .

وقد ولدت فى شتتن بيومرانيا فى ٢١ ابريل ١٧٢٩ وسميت عند تعميدها صوفيا أوجستا فردريكا بأسماء ثلاث عمات لها . أما أمها فكانت يوهانا اليزابث أميرة هولشتين — جوتورب ، ومن طريقها كانت كاترين ابنة

خالة بطرس . أما أبوها فكان كرستيان أوجست ، أمير انهالت — تسربست فى وسط ألمانيا ، واللواء فى جيش فردريك . وقد خاب أمل أبويها لولادة بنت لا ولد ، وحزنت الأم كأنها أسقطت جنينا . أما كاترين فقد كفرت عن أنوثتها باتخاذها فحولة القادة العسكريين وحنكة الأباطرة الحاكمين ، بينما ظلت طوال ذلك أكثر العشيقات فى أوربا طلابا وأقربهن منالا .

كانت تشكو ألوانا من أمراض الطفولة ، ومنها مرض اشتد عليها حتى خلفها تبدو للناظرين كأنها ستظل مشوهة ما بقى لها من العمر « فى عمودها الفقرى تعرج » و « وكتفها اليمنى أعلى كثيرا من اليسرى » ، وأصبحت الآن « تتخذ شـــكل حرف Z » فحبسها جلاد المدينة السابق ، الذى تخصص فى علاج انخلاع المفاصل ، فى مشد (كورسيه) « لم أكن أخلعه قط نهارا ولا ليلا إلا حين أغير ملابسى الداخلية ، و وبعد ثمانية عشر شهرا بدأت أبدى علامات على استقامة عودى » . [٣٩] ولكثرة ما تردد فى سمعها أنها دميمة ، صممت على أن تنمى ذكاءها بديلا عن الجمال ، فكانت مثالا آخر من أمثلة النقص الذى يشعر به صاحبه فيحفزه إلى قدرات تعويضية . واختفت دمامتها حين لف البلوغ أعضاءها فاستدارت . وكانت رغم هذه الخطوب ذات « طبع رضى » وفيها من الفرح الفطرى « ماأستلزم ضبطه » . [٤٠]

تلقت تعليمها على مهذبين نخص منهم بالذكر قسيسا لوثريا كان يلقى عنتا من أسئلتها . مرة سألته « أليس من الظلم أن يحـــكم على تيطس ، وماركوس أوريليوس ، وجميع عظماء العالم القديم بالهلاك الأبدى رغم فضلهم ، لأنهم لم يعرفوا شيئا عن رؤيا يوحنا اللاهوتى ؟ » وكانت تحسن الجدل إلى حد حمل معلمها على أن يعتزم جلدها لولا تدخل إحدى المربيات . وقد أرادت بصفة خاصة أن تعرف شكل تلك الهيولى التى سبقت الخليقة كما ورد فى سفر التكوين . « ولكن إجاباته لم تبد قط مقنعة » و « فقد كلانا أعصابه » ، وزاد انزعاجه بإصرارها على أن يفسر لهـــا « بالضبط معنى الختان » [٤١] وكان معلموها الآخرون ومربيها فرنسيين ، لذلك أتقنت

الفرنسية ، فقرأت كورني ، وراسين ، وموليير ، وكان واضحا أنها مهيأة لقراءة فولتير . وهكذا أصبحت من أفضل نساء عصرها تعليما .

وانتهى نبأ هذه الأميرة الذكية إلى الإمبراطورة اليزابث ، وكانت تواقة إلى فتاة قد تمنح بطرس الذكاء بالتناضح . ففى أول يناير ١٧٤٤ وصلت إلى أم صوفيا دعوة للحضور معها فى زيارة للبلاط الروسى . وتردد الوالدان ، فقد بدت لهما روسيا بلداً قلقاً بدائياً إلى حد خطر ، أما صوفيا التى حدست أن زواجها من الفرندوق قيد البحث فقد التمست الجواب بقبول الدعوة . وعليه ففى ١٢ يناير بدأوا الرحلة الطويلة الشاقة عبر برلين وشتتن وبروسيا الشرقية وريجا وسانت بطرسبرج إلى موسكو . وفى برلين استضافهم فردريك ، وأعجبته صوفيا ، « وراح يسألنى ألف سؤال ويتكلم على الأوبرا والكوميديا والشعر والرقص ، وباختصار كل شىء يمكن أن يخطر ببال إنسان يتحدث إلى فتاة فى الرابعة عشرة[٤٢] » وفى شتتن « ودعنى أبى ، وكانت آخر مرة رأيته فيها ، وقد بكيت بكاء مراً » . وبلغت الأم وابنتها موسكو فى ٩ فبراير فى حاشية مترفة ، بعد رحلة فى مركبة جليد امتدت اثنتين وخمسين ساعة من سانت بطرسبرج .

وفى ذات المساء التقت ببطرس ثانى مرة ، وقد وقع من نفسها هذه المرة أيضاً موقعاً طيباً ، إلى أن أسر لها أنه لوثرى صميم ، وأنه يحب إحدى الوصيفات فى البلاط[٤٣] . ولاحظت أن الروس يكرهون لهجته وعاداته الألمانية ، أما هى فقد عولت على تعلم الروسية والتمكن منها ، وعلى قبول المذهب الأرثوذكسى بحذافيره وشعرت بشىء « أكثر قليلا من عدم المبالاة نحو بطرس ، ولكن « لم أكن غير مبالية بالتاج الروسى » . وعينوا لها ثلاثة مدرسين — للغة ، وللدين ، وللرقصات الروسية . وقد شقت على نفسها فى الدرس — فنهضت مرة فى منتصف الليل للاستذكار — حتى ألزمت الفراش لإصابتها بذات الجنب ، « وظللت أتذبذب بين الحياة والموت سبعة وعشرين يوماً ، فصدت خلالها ست عشرة مرة ، أحياناً أربع مرات فى اليوم »[٤٤] . وفقدت أمها حظوتها فى البلاط لأنها طلبت استدعاء قسيس

لوثرى . أما صوفيا فقد كسبت قلوباً كثيرة بطلبها قسيساً يونانياً . وأخيراً ، فى ٢١ أبريل ، استطاعت أن تظهر أمام الناس . «كنت هزيلة كأننى هيكل عظمى . . . فى وجهى وقسماتى غضون ، وشعرى ساقط ، ولونى غاية فى الشحوب »[٤٥] وأرسلت لها الأمبراطورة ملء قدر من « الروج » .

وفى ٢٨ يونيو جازت صوفيا ، فى خشوع مؤثر ، مراسم دخولها فى المذهب الأرثوذكسى . وأضيف الآن إلى أسمائها إسمان هما إكاترينا ألكسيفنا ؛ ومن ثم أصبحت منذ الآن تدعى كاترين . وفى صباح الغد ، وفى الكتدرائية الكبرى ، « أوسبنسكى سوبور» ، خطبت رسمياً للغرندوق بطرس . وابتهج كل من رآها بتواضعها اللبق ، وحتى بطرس بدأ يحبها . وبعد أربعة عشر شهراً من التدريب تزوجا فى ٢١ أغسطس ١٧٤٥ فى سانت بطرسبرج . وفى ١٠ أكتوبر رحلت أم كاترين قاصدة أرض الوطن .

وكان بطرس الآن فى السابعة عشرة ، وزوجته فى السادسة عشرة . كانت جميلة ،وكان قبيحاً لأنه أصيب بالجدرى فى سنة خطبتهما . وكانت من الناحية الفكرية شرهة يقظة ، أما هو فيقول سولوفيف إنه « بدت عليه كل أمارات التخلف العقلى ، وكان أشبه بطفل كبير »[٤٦] : يلهو بالدمى والعرائس والعساكر اللعب ، ويولع بالكلاب حتى أنه يحتفظ بعدد منها فى شقته ، ولم تعرف كاترين أيهما شر من الآخر ،نباحها أم رائحتها المنتنة[٤٧]. ولم يحسن الموقف بالعزف على كمانه . وازداد ميله للشراب ؛ « و منذ ١٧٥٣ كان يثمل بالشراب كل يوم تقريباً »[٤٨] وكثيراً ما كانت الإمبراطورة اليزابث توبخه على نقائصه ، ولكنها لم تضعف القدوة إلى الوصية . وكان الذى يزعجها أكثر هو كرهه السافر لروسيا التى سماها « بلداً لعيناً »[٤٩] ، واحتقاره للكنيسة الأرثوذكسية وقساوستها ، وأهم من هذا كله عبادته لفردريك الأكبر ، حتى أثناء اشتباك روسيا وبروسيا فى حرب طاحنة ، وأحاط نفسه بـ « حرس هولشتينى» من الجند كلهم تقريباً ألمان ، وفى بيت لهوه بأورانينباوم كان يلبس إتباعه الزى الألمانى ، ويدربهم على الطريقة البروسية . وحين هرم القائدان الروسيان فرمور وسالتيكوف

البروسيين عام ١٧٥٩ أمسكا عن متابعة إنتصاراتهما مخافة أن يغضبا بطرس [٥٠] الذى قد يصبح قيصراً فى أية لحظة .

وكاد زواجهما أن يصبح صراعا بين ثقافتين ، لأن كاترين كانت تسعى إلى المزيد من التعليم بدراسة الأدب الفرنسى . ويبدو أمراً لا يصدق أن تقرأ هذه الشابة خلال سنيها التعسة وهى غراندوقة أفلاطون وبلوتارخ وتاسيتوس وبيل وفولتير وديدرو ومونتسكيو الذى قالت عن كتابه « روح القوانين » إنه ينبغى أن يكون « كتاب صلوات يومية لكل ملك سليم الإدراك » [٥١] ولابد أن كتبا كهذه أتت على البقية الباقية من معتقدات كاترين الدينية — رغم أنها واصلت دون توان مراعاتها للطقوس الأرثوذكسية وأعطتها هذه الكتب ذلك المفهوم عن « الاستبداد المستنير » الذى تشربه فردريك من فولتير قبل ذلك بجيل .

وخلال ذلك (إن صدقنا روايتها المباشرة) « لم يصـــل زواجى بالغراندوق إلى نقطة الاكتمال » [٥٢] وفى رأى كاستيرا الذى كتب فى ١٨٠٠ سيرة لكاترين تنبىء باطلاع حسن كما تتسم بالعداء لها ، أن « بطرس كان يشكو عيباً بدا رغم سهولة إزالته أشد قسوة ، ولم يستطع عنف حبه ولا محاولاته المتكررة أن يحققا نقطة الاكتمال فى زواجه . » [٥٣] وهذه الحالة لها نظير لافت للنظر ، هى حالة لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت . وربما كان النفور الذى انتهت كاترين إلى الإحساس به نحو بطرس خلال خطبتهما الطويلة قد وضح له وأورثه العنة النفسية . وسرعان ما اتجه إلى نساء أخريات ، واتخذ الخليلة تلو الخليلة ممن راودهن الأمل فى الحلول محل الغراندوقة كاترين . وفى روايتها أن سنوات الزواج الأولى هذه كانت سنوات شقاء وتعاسة لها . وذات يوم (فيم يروى هوراس ولبول) ، حين سألتها الإمبراطورة لم يثمر زواجها ، أجابت بأنه ينبغى ألا ينتظر أى ثمر له . وكان هذا فى الواقع إعلاناً لعجز زوجها . وأجابت إليزابث بأن الدولة تطالب بالخلف ، وتركت للغراندوقة مهمة الحصول على هذا الخلف

بمساعدة من تشاء . وكانت ثمرة طاعتها والدا وبنتا . »[٥٤] وقد بينت مدام ماريا تشوجلوكوفا ، التى عينتها إليزابث وصيفة لكاترين ، للغراندوقة (فيما روته هذه) أن هناك استثناءات هامة لقاعـــدة الوفاء الزوجى ، ووعدتها بأن تكتم السر إذا اتخذت كاترين عشيقا ،[٥٥] و (« لا ريب فى أن هذا الاقتراح المخجل لم يأت من الوصيفة بل من الامبراطورة ذاتها[٥٦] » . وعلينا أن ننظر إلى هذه الأمور فى منظور بلاط روسى طال إلفه للملكات عديدات العشاق ، وبلاط فرنسى تعود على ملوك متعددى العشيقات ، وبلاط سكسونى — بولندى ضم مائة وخمسين طفلا أنجبهم أوغسطس الثالث .

فهل اقتدت كاترين بهذه المثل إلى درجة الإفراط ؟ بعد ولايتها العرش ، نعم . أما قبلها فيبدو أنها إقتصرت فى قصد رواق على ثلاثة عشاق — أولهم — بعد زواجها بنحو ست سنوات — سرجى سالتيكوف ، الضابط الشاب المفعم حيوية . وتشرح كاترين استجابتها لحبه فتقول :

« إن جاز لى توخى الصراحة . . . . قلت إننى كنت أجمع بين عقل الرجل ومزاجه ، وبين مفاتن المرأة الجديرة بأن تحب . وأرجو الصفح عن هذا الوصف ، الذى يبرره صدقه . . . فلقد كنت جذابة ، ومن ثم كان نصف الطريق إلى الأغراء قد قطع فعلا ، ومن الانسانية الخالصة فى مثل هذه المواقف ألا يقف الإنسان فى منتصف الطريق .... فالمــرء لايستطيع أن يمسك بقلبه فى يده ، يحبسه أو يطلقه ، يشد عليه قبضته أو يرخيها كما يشاء . »[٥٧]

وفى ١٧٥١ حملت ولكنها أسقطت حملها ، وتكررت هذه التجربة المؤلمة فى ١٧٥٣ . وفى ١٧٥٤ ولدت الطفل الذى صار فيما بعد الإمبراطور بولس الأول . واغتبطت اليزابث ، وأهدت كاترين ١٠٠ر١٠٠ روبل ، وأرسلت سالتيكوف ليزوى انزواءاً مأمونا فى استكهولم ودرسدن ، حيث كان « عابثا مستهترا مع جميع النساء اللاتى قابلهن »[٥٨] كما تروى كاترين .

أما بطرس فازداد سكرا ، واتخذ مزيدا من الخليلات ، واستقر أخيرا على اليزافينا فوروتسوفا ، ابنة أخي المستشار الجديد . وكانت كاترين تتشاجر معه ، وتسخر منه ومن أصدقائه علانية .[٥٩] وفى ١٧٥٦ قبلت ملاطفة فتى بولندى وسيم فى الرابعة والعشرين يدعى الكونت ستانسلاس بونياتوفسكى ، قدم إلى سانت بطرسبرج ملحقا للسير هانبرى — ولمز ، السفير البريطانى . وتصفها سيرة ستانسلاس الذاتية فى سنة ١٧٥٥ :

«كانت تناهز الخامسة والعشرين . .. فى تلك اللحظة بالذات التى هى أجمل اللحظات للنساء الجميلات . كان لها شعر فاحم ، وبشرة بيضاء ناصعة وأهداب سوداء طويلة ، وأنف إغريقى ، وفم كأنه خلق للقبلات ، ويدان وذراعان غاية فى الحسن ، وقد نحيل يغلب فيه الطول على القصر ، ومشية غاية فى النشاط ملؤها المهابة رغم هذا .وكان رنين صوتها مبهجاً ،وضحكتها مرحة كطبعها »[٦٠] .

فلما حدق النظر فيها « نسى أن هناك قطرا اسمه سيبريا . » وكان هذا الغرام أعمق ماشعرت به من غرامياتها الكثيرة ، وغرامياته هو ، فقد ظل قلبها مع يونياتوفسكى بعد أن اتخذت عشاقاً آخرين بزمن طويل ، أما هو فلم يفق قط تماماً من افتتانه بها ، مهما أنزلت به سياساتها من آلام موجعة. وحين ذهبت لتقيم مع بطرس فى أورانيينباوم ، خاطر ستانسلاس بحياته بزيارتها سرا هناك . وكشف أمره ، وأصدر بطرس أوامره بشنقه . غير أن كاترين تشفعت لبطرس بخليلته التى هدأت ثائرة الغراندوق بعد أن ألانتها هدية من كاترين . وأخيراً ، وفى نوبة من الود ، لم يكتف بطرس بالصفح عن يونياتوفسكى ، بل دعا كاترين للانضمام إلى عشيقها،ودخل معهماومع اليزافيتا فورونتسوفا فى « معيشة رباعية » لطيفة تخللتها عشاءات مرحة اشتركوا فيها جميعاً[٦١] .

وفى ٩ ديسمبر ١٧٥٨ ولدت كاترين بنتا . واعتقد أفراد الحاشية عموماً أن أباها هو بونياتوفسكى[٦٢] ولكن بطرس نسب الفضل لنفسه ،

وتقبل التهانى ، ونظم المهرجانات احتفالا بهذا الانجاز [٦٣] ، ولكن الطفلة ماتت بعد أربعة أشهر. واستدعى بونياتوفسكى إلى بولندة بأمر الامبراطورة، وحرمت كاترين العشق هنيهة ، ولكنها افتتنت بمغامرات الحب والحرب التى خاضها جريجورى جريجوريفتش أورلوف، ياور بيوتر شوفالوف. وكان أورلوف قد كسب لنفسه حسن السمعة بثباته فى موقعه فى معركة زورندورف رغم جروحه الثلاثة . وكان له بنية الرجل الرياضى و « وجه ملاك »[٦٤]، ولكنه لم يعرف من المناقب إلا الظفر بالسلطة والنساء بأى وسيلة متاحة . وكان لشوفالوف خليلة هى الأميرة إلينا كوراكين ، وكانت من أجمل حسان القصر وأكثرهن تحللا ، فاجتذبها أورلوف وظفر بها من رئيسه ، وأقسم شوفالوف أنه قاتله ، ولكنه مات قبل أن ينفذ فيه وعيده . وأعجبت كاترين بشجاعة أورلوف ، ولاحظت أن له أربعة أخوة فى الحرس كلهم قوى فارع الطول ، وقالت فى نفسها إن هؤلاء الخمسة سيفيدون إذا طرأ طارىء . وعليه رتبت لقاء مع جريجورى ، ثم ثانيا ، فثالثاً ، وسرعان ما أزاحت كوراكين واحتلت مكانها . ولم يحل يوليو ١٧٦١ حتى كانت حاملا ، وفى أبريل ١٧٦٢ ولدت ابنا لأورلوف ، وأحيط الحدث بما أمكن من تكتم ، وربى الغلام باسم الكسيس بوبرينسكى .

وفى ديسمبر ١٧٦١ وضح أن الامبراطورة بادئة مرضها الأخير ، وبذلت محاولات لإشراك كاترين فى مؤامرة تستهدف منع بطرس من ارتقاء العرش ، وقد أنذرت بأن بطرس إن أصبح قيصرا سينحيها جانباً ويجعل اليزافيتا فورونتسوفا زوجته ومليكته ، ولكن كاترين رفضت الاشتراك فى المؤامرة . وفى ٥ يناير ١٧٦٢ (حسب التقويم الجديد) ماتت الامبراطورة اليزابث ، وارتقى العرش بطرس دون معارضة سافرة .

٦ — بطرس الثالث

١٧٦٢

وقد أدهش الجميع بسماحة قراراته ؛ فالود الفطرى الذى حجبه ضباب العادات الفظة الغبية تكشف الآن فى نوبة من العرفان لتقلده السلطة بسلام ،

فصفح عن أعدائه ، واستبقى معظم وزراء البزابث ، وحاول أن يتلطف مع كاترين . فخصص لها فى القصر جناحا مريحا فى طرف منه ، وسكن هو جناحا فى الطرف الآخر . وخصص لخليلته الغرف الوسطى ، وكان هذا بالطبع إهانة بالغة ، ولكن كاترين ابتهجت فى دخيلة نفسها بسكناها على مبعدة منه . وزودها بمخصصات سخية ، ودفع ديونها الباهظة دون تحقيق فى أصلها . (٦٥) وفى الحفـــلات الرسمية كان يسوى بينها وبينه فى المكان وأحيانا يقدمها على نفسه . (٦٦)

ثم أعاد من المنفى الرجال والنساء الذين نفاهم الحكام السابقون إلى سيبيريا فعاد الآن مونيش وقد بلغ الثانية والثمانين ليرحب به اثنان وثلاثون حفيدا ، ورده بطرس إلى رتبة المشير ، وأقسم مونيش ليخدمنه إلى النهاية ، وقد بر بقسمه . وأحل الإمبراطور السعيد النبلاء من الالتزام الذى فرضه عليهم بطرس الأكبر ، وهو أن يعطوا الدولة سنين كثيرة من حياتهم ، فاقترحوا أن يصنعوا له تمثالا من الذهب ، ولكنه أمرهم أن يستعملوا هذا الذهب استعمالا أرشد . (٦٧) وألغى مرسوم أصدره بطرس فى ٢١ فبراير بالشرطة السرية التى أبغضها الناس جميعا ، وحرم الاعتقال للتهم السياسية حتى يراجعها مجلس الشيوخ ويقرها . وفى ٢٥ يونيو أصــــدر بطرس مرسوما بأن يعفى مقترف الزنا من التعنيف الرسمى منذ الآن ، «فحتى المسيح لم يدن (الزانية) فى ذلك الأمر » . (٦٨) وابتهجت الحاشية ، وسر التجار لتخفيض رسوم التصدير ، وخفض ثمن الملح ، وأبطل شراء الأقنان لتشغيلهم فى المصانع أما « قدامى المؤمنين » الذين هربوا من روسيا اتقاء اضطهادهم فى عهد البزابث فقد دعوا للعودة والتمتع بالحرية الدينية . ولكن رجال الدين أثارت سخطهم الشديد مراسيم ١٦ فبراير و ٢١ مارس التى أممت جميع أراضى الـــكنيسة وجعلت جميع القساوسة الأرثوذكس موظفين حكوميين ذوى رواتب . وحرر الأقنان العاملون على ضياع النبلاء أن يحرروا هم أيضا سريعا . ووسط هذه الإصلاحات كلها — التى أشار بها عليه مختلف الوزراء — راح بطرس يشرب حتى يثمل .

أما أغرب قراراته الذى أسعده أيما سعادة ، فهو إنهاؤه الحرب مع بروسيا . وكان حتى قبل ولايته العرش قد فعل الكثير ليساعد فردريك ، فأوصل سرا الخطط الحربية التى وضعها مجلس البزابث ، وراح الآن يفاخر بعمله هذا [٦٩] وفى ٥ مايو ربط الروسيا ببروسيا فى تحالف دفاعى هجومى. وأصدر تعليماته إلى قائد القوات الروسية المحاربة مع الجيش النمساوى أن يضعها فى خدمة « سيدى الملك » [٧٠] ثم ارتدى بزة عسكرية بروسية ، وأمر الجنود المحليين بأن يحذوا حذوه ، ثم أدخل الضبط والربط البروسيين فى الجيش ، ونظم التدريبات العسكرية كل يوم لحاشيته ، وأجبر كل ذكر فى الحاشية على المشاركة فيها دون مراعاة للسن أو النقرس [٧١] . وقدم « حرس هولشتين » الخاص به على أفواج العاصمة المعتدة بمكانتها .

ولم يكن الجيش الروسى كارها للسلم ، ولكن أذهله هجر روسيا لحلفائها الفرنسيين والنمساويين فى عجلة ، وتخليها عن جميع الأقاليم التى ظفرت بها من بروسيا خلال الحرب . وأفزعه أن يذيع بطرس عزمه على تجريد جيش روسى على الدنمرك لاسترداد دوقية شلزفج التى أخذتها الدنمرك من أدواق هولشتين ، ومنهم أبو بطرس . وأبان الجنود فى غير لبس إنهم سيرفضون خوض حرب كهذه ، فلما طلب بطرس إلى كيريل رازوموفسكى أن يزحف بجيش على الدنمرك أجابه القائد « ياصاحب الجلالة يجب أولا أن تعطينى جيشا آخر يكره جيشى على الزحف . » [٧٢]

وفجأة وجد بطرس نفسه مكروها رغم إصلاحاته الجريئة الممتازة ، كرهه الجيش خائنا لوطنه ، وكرهه الإكليروس لوثريا أو شرامن اللوثرى ، وطالب الأقنان الذين لم يعتقوا بالحرية فى تذمر وصخب ، وسخر منه البلاط ووصفه رجلا أحمق مأفونا . وفوق هذا كله حامت حوله شبهة عامة فى أنه ينوى تطليق كاترين والزواج من خليلته . [٧٣] « أن هذه الشابة » (كما يروى كاستيرا) « العاطل من أى موهبة خطاب أو كلام ، المتغطرسة فى غباوة .. استطاعت بدهائها أن تحصل من القيصر — تارة بتملقه ، وتارة بتأنيبه ، وتارة حتى بضربه — على تجديد للعهد الذى قطعه لها ... وهو

أن يتزوجها ويبوئها عرش روسيا بدلا من كاترين [٧٤] ولما لعبت برأسه السلطة والخمر عنف فى معاملة كاترين ، حتى لقد رماها علانية بالحماقة . [٧٥] كتب البارون دبروترى إلى شوازيل يقول : «إن الإمبراطورة (كاترين) فى وضع شديد القسوة ، وهى تعامل بمنتهى الاحتقار . . . ولن يدهشنى أنا العليم بشجاعتها وعنفها إن دفعها هذا إلى نوع من الشطط . . . ولا يألو بعض أصدقائها جهداً فى تهدئتها ، ولكنهم لا يترددون فى المخاطرة بكل شىء فى سبيلها أن اقتضى الأمر » [٧٦] .

وكانت سانت بطرسبرج وأرباضها حافلة بأنصار كاترين . أحبها الجيش والحاشية وجماهير الشعب . وكان أخلص أصدقائها فى هذه الأيام العصيبة ، بعد وصيفاتها وجريجورى أورلوف ، أميرة داشكوفا « إيكاترينا رومانوفنا » . ولم تكن هذه السيدة الجريئة المغامرة تتجاوز التاسعة عشرة ، ولكنها كانت ذات مكانة مرموقة فى القصر لأنها ابنة أخى المستشـــار فورونتسوف وأخت خليلة بطرس . وكان بطرس فى سذاجته أو بين كؤوس الخمر قد كشف لها عن نيته فى خلع كاترين وإحلال اليزافيتا فورونتسوفا محلها على العرش . [٧٧] ونقلت داشكوفا النبأ إلى كاترين ، — ورجتها أن تشترك فى مؤامرة لتنحية بطرس . ولكن كاترين كانت قد دبرت فعلا مؤامرة مع نيكيتا بانين ، مربى ولدها بولس ، وكيريل رازوموفسكى ، هتمان (زعيم) أوكرانيا ، ونيقولا كورف رئيس الشرطة ، والأخوين أورلوف ، و ب . ب باسيك ، وهو ضابط فى فوج محلى .

وفى ١٤ يونيو أصدر بطرس أمره بالقبض على كاترين ، ثم ألغى الأمر ، ولكنه أمرها بالاعتكاف فى بيترهوف ، على اثنى عشر ميلا غربى العاصمة . أما بطرس نفسه فخلا بعشيقته فى أورانيينباوم . وترك تعليمات بأن يعد الجيش نفسه للإبحار إلى الدنمرك ، ووعد بأن يلحق به فى يوليو . وفى ٢٧ يونيو قبض على الملازم باسيك لالقائه خطباً تحط من قدر الإمبراطور. وخشى جريجورى وألكسى أورلوف أن يكرة بالتعذيب على الاعتراف بالمؤامرة ، فقرر التصرف فوراً . وعليه ففى الثامن والعشرين ركب ألكسى

فى عجلة قاصداً بيترهوف ، وأيقظ كاترين،وأقنعها بأن تعود معه راكبة إلى سانت بطرسبرج. وفى طريقهما توقفا عند ثكنات فوج اسماعيلوفسكى، واستدعى الجند على قرع الطبول ، وناشدتهم كاترين أن ينقذوها من تهديدات الأمبراطور ، فأقسموا على حمايتها ، « واندفعوا ليقبلوا يدى وقدمى ، وهدب ثوبى ، وهم يدعوننى مخلصتهم » (فى رواية كاترين ليونيا فوفسكى[٧٨]) — لأنهم علموا أنها لن ترسلهم إلى الدنمرك . ومضت إلى كتدرائية كازن فى حراسة فوجين والأخوين أورلوف ، وهناك نودى بها حاكماً مطلقاً لروسيا . ولحقت بها فرقه بريوبرازنسكى هناك ، وتوسل رجالها إليها « أن — تغفر لنا أننا آخر من جاء »[٧٩] ثم انضم إلى صفوفهم حرس الخيالة ، وصحبها أربعة عشر ألف جندى إلى القصر الشتوى ؛ وهناك أعلن مجمع الكنيسة ، ومجلس الشيوخ رسمياً خلع بطرس وتولية كاترين . واحتج بعض ذوى المقامات الرفيعة ، ولكن الجيش أرهبهم ، فأقسموا يمين الولاء للإمبراطورة .

وارتدت زى نقيب فى حرس الخيالة ، وركبت على رأس جندها إلى بيترهوف . وكان بطرس قد ذهب إلى هناك صبيحة ذلك اليوم ليراها ، فلما علم بالثورة فر إلى كرونستات . وعرض عليه مونيش أن يصحبه إلى بومرانيا ويجند جيشاً ليرده إلى العرش ، ولكن بطرس عاد إلى أورانيينباوم وهوعاجز عن اتخاذ القرار . فلما اقتربت قوات كاترين أنفق يوماً فى التماس حل وسط ، ثم وقع على اعتزاله العرش فى ٢٩ يونيو (حسب التقويم القديم) ؛ قال فردريك : « لقد سمح بأن يطاح به كما يسمح طفل بأن يرسل إلى فراشه »[٨٠].وسجن فى روبشا ، على خمسة عشر ميلا من سانت بطرسبرج . والتمس من كاترين أن تسمح له بالاحتفاظ بخادمه الزنجى ، وكلبه الصغير ، وكمانه ، وخليلته . فأجيبت طلباته كلها إلا آخرها . ونفيت اليزافيتا فورونتسوفا إلى موسكو : ثم اختفت من صحائف التاريخ إلى الأبد .

الفصل الثامن عشر

كاترين الكبرى

١٧٦٢ — ١٧٩٦

١ — الحاكمة المطلقة

انتصرت كاترين ، ولكنها كانت عرضة لكل المخاطر التى ينطوى عليها التغيير الفوضوى . فلكى تكافىء الجنود الذين حرسوها فى سعيها الى السلطة أمرت حانات العاصمة بأن تقدم لهم الجعة والفودكا مجاناً ، وكانت النتيجة السكر انتشار بينهم انتشاراً كاد يقوض الأساس الحربى لقوتها . ففى منتصف ليلة ٢٩ — ٣٠ يونيو ، بينما كانت كاترين مستغرقة فى أول نوم لها خلال ثمان وأربعين ساعة ، أيقظها ضابط وقال لها ، « إن رجالنا مخمورون جدا . وقد صرح فيهم فارس من الهوصار « إلى السلاح ! أن ثلاثين ألف بروسى قادمون لاختطاف أمنا (كاترين) ! فتقلدوا سلاحهم وهم قادمون ليطمئنوا عليك » . وارتدت كاترين ثيابها ، وخرجت ، و نفت إشاعة قدوم البروسيين ، وأقنعت محاربيها بالمضى إلى فراشهم [1] .

ثم عرضها ابنها بولس للخطر . وقد بلغ السنة الثامنة من عمره وذلك أن بنين ، واشرافا كثيرين ، ومعظم الاكليروس ، أحسوا أن الشرعية تقتضى تتويج بولس إمبراطورا وتعيين كاترين وصية عليه ، ولكنها خشيت أن إجراء كهذا يلقى بالحكم فى أيدى أولجركيه ارستقراطية ستسعى إلى خلعها أو التسلط عليها . وأعلنت رسميا أن بولس وارث للعرش ، ولكن مؤيديه واصلوا إثارة المشاعر ، وشب الابن على كراهية أمه لأنها سلبته حقه فى التاج .

وحين ذاع نبأ الانقلاب فى أرجاء روسيا تبين أن الرأى العام خارج العاصمة مناوئ لكاترين . ذلك أن العاصمة عرفت عيوب بطرس مباشرة ، وأجمعت عموماً على عدم أهليته للحكم ، أما الشعب الروسى خارج سانت بطرسبرج فقد عرفه من التدابير السمحة التى أضفت على حكومته شيئاً من السمو . فجماهير موسكو ، البعيدة بعداً لا يسمح لها بالإحساس بفتنة كاترين ، ظلت معارضة فى عناد لتوليها العرش . وحين أصطحبت كاترين بولس إلى موسكو (معقل التقاليد السنية) صفق له أهلها بحرارة ، أما كاترين فكان لقاؤهم لها فاتراً ، وندد كثير من أفواج الجيش فى الأقاليم بجنود بطرسبرج غاصبين للسلطة القومية .

ولا علم لنا إن كان العطف الواسع على بطرس هو أحد العوامل فى موته . ذلك أن القيصر المخلوع الذى تحطمت روحه راح يرسل الإلتماسات الذليلة لزوجته ويقول لها « ارحميني وأعطيني سلواى الوحيدة » — يعنى خليلته — ويرجوها أن تسمح له بالعودة إلى أقاربه فى هولشتين . ولكنه بدلا من أن يتلقى هذا العزاء حبس فى حجرة واحدة وفرضت عليه رقابة دائمة . وكان الكسى أورلوف ، رئيس حراسة ، يلعب الورق معه ويقرضه النقود . [٢] وفى ٦ يوليو ١٩٦٢ (حسب التقويم الجديد) ، ركب ألكسى فى عجلة إلى سانت بطرسبرج وأنبأ كاترين بأن بطرس تشاجر معه ومع غيره من الأتباع ومات فى العراك الذى أفضت إليه المشاجرة . أما عن كيفية موته ، فالتاريخ لا يعرف غير الشائعات التى لم تثبت صحة واحدة منها : قيل إنه سمم أو خنق [٣] ، وإنه ضرب حتى مات [٤] ، وإنه مات إثر «إلتهاب الأمعاء والسكتة الدماغية» [٥] وينتهى آخر من أرخ لهذه الحقبة إلى أن «تفاصيل القتل لم يمط عنها قط اللثام تماماً ، والدور الذى لعبته فيه كاترين يظل غير مؤكد . » [٦] ومن غير المحتمل أن تكون كاترين قد أمرت بهذه الفعلة ، [٧] ولكنها لم تعاقب أحداً على إرتكابها ، وأخفتها عن الجماهير يوما ، وقضت يومين فى بكاء ظاهر ، ثم سلمت بالأمر الواقع . وقد أدانتها أوربا كلها تقريباً بالقتل ، أما فردريك الأكبر الذى خسر الكثير بخلع بطرس فقد برأ ساحتها ، « كانت الإمبراطورة جاهلة تماما بهذه الجريمة ، وقد سمعت بها فى يأس

لم تصطنعه ، لأنها توقعت بحق ذلك الحكم الذى يصدره عليها اليوم كل إنسان . » [٨] ووافق فولتير فردريك . أما بولس ابن كاترين ، فبعد أن قرأ الأوراق الخاصة التى خلفتها أمه عند وفاتها ، خلص إلى أن ألكسى قتل بطرس دون أى أمر أو طلب من كاترين . [٩]

وخلقت الحادثة مشاكل لكاترين كما حلت مشاكل أخرى : فقدأوحت بسلسلة متعاقبة من المؤامرات لخلعها ، وتركتها فى انزعاج متصل وخطر داهم وسط فوضى الحكم التى اكتنفتها . كتبت عن هذه الحقبة فيما بعد فقالت : « ظل مجلس الشيوخ متبلدا يصم أذنيه عن شئون الدولة . وبلغت كراسى التشريع درجة من الفساد والتفسخ كادت تطمس معالمها . » [١٠] وكانت روسيا قد خرجت لتوها من حرب انتصرت فيها ولكنها كلفتها ثمنا فادحا ، فكانت الخزانة مدينة بثلاثة عشر مليون روبل ، وتشكو عجزا بلغ سبعة ملايين روبل فى العام ، وأفتضح حال المالية من رفض كبار المصرفيين الهولنديين إقراض المال لروسيا . وتأخرت رواتب الجند شهوراً كثيرة . وبلغ من سوء نظام الجيش أن كاترين خشيت أن يغزو تتار جنوبى روسيا إقليم أوكرانيا فى أية لحظة . أما البلاط فقد اضطرب بالمؤامرات وأضدادها ، وبالخوف من فقدان مناصب الكسب أو السلطة ، أو الأمل فى الظفر بها . وبعد سقوط بطرس بقليل ذهب السفير البروسى إلى أنه « من المؤكد أن حكم الإمبراطورة كاترين لن يكون أكثر من فاصل قصير فى تاريخ العالم » [١١] . وكان هذا من قبيل التمنى ، لأن فردريك حزن على موت حليفه العابد لشخصه . وأخذت كاترين تلغى الأوامر التى أصدرها بطرس لمساعدة فردريك .

وحاولت الإمبراطورة أن تهدىء معارضة رجال الدين بتأجيل تنفيذ المرسوم الذى أصدره بطرس بتأميم أراضى الكنيسة ، ثم ادفأت صدور أنصارها بما خلعته عليهم من مكافآت سخية : فنفحت جريجورى أورلوف بخمسين ألف روبل ، وفتح الطريق أمامه إلى الفراش الملكى . وأعيد بستوزيف من منفاه ، ورد إلى حياة مريحة ولكن دون أن يرد إلى منصبه .

ثم ترفقت بمن عارضوها من قبل . وقدم مونيش فروض الطاعة والولاء فصفحت عنه فورا وعينته حاكما على استونيا ولفونيا ، وربما أعانتها هذه التدابير على الثبات فوق عرشها المهتز ، ولكن أهم العوامل التى كانت عونا لها هى شجاعتها وذكاؤها . ذلك أن سبعة عشر عاما قضتها زوجة مهملة لوريث العرش علمتها رغم حيويتها الشابة قدرا من الصبر والحكمة وضبط النفس وخداع الحكم . وقررت الآن ، فى تحد لنصيحة بانين ، وارتياب فى ولاء مجلس الشيوخ ونزاهته وكفايته ، أن تركز الحكم كله فى شخصها ، وأن تواجه ملوك أوربا المستبدين — باستبدادية تنافس جمع فردريك بين العسكرية والفلسفة . ولم تتخذ لها زوجا . وإذا كان النبلاء يسيطرون على مجلس الشيوخ ، فقد كان الخيار بين أوتقراطية الملكة والاستبدادية المجزأة للسادة الاقطاعيين ، وهو بالضبط الخيار الذى واجهه ريشليو فى فرنسا القرن السابع عشر .

وأحاطت كاترين نفسها بالكفاءة من الرجال ، واكتسبت ولاءهم ، بل حبهم فى كثير من الحالات ، ألزمتهم للعمل الشاق ، ولكنها أجزلت لهم العطاء ، ولعلها غالت فى مكافآتهم ؛ فقد أصبح بهاء بلاطها وبذخه عبئا كبيرا على مواردها . وكان بلاطا غير متجانس ، مؤصلا فى البربرية ومصقولا بالثقافة الفرنسية ، ومحكوما بامرأة ألمانية تفوق مساعديها تعليماً وذكاءاً . وقد أثمرت مكافآتها السخية للخدمات الاستثنائية المنافسة دون أن تكبح جماح الفساد . فكان الكثيرون من بطانتها يأخذون الرشا من الحكومات الأجنبية ، واتخذ بعضهم موقف الحياد بقبول الرشا من طرفين متعارضين . وفى ١٧٦٢ أذاعت كاترين على الأمة إعترافا غير عادى ، فقالت :

« أننا نعده واجباً أساسياً وضرورياً أن نعلن للشعب ، بحسرة صادقة ، أننا سمعنا منذ زمن مديد ، وأننا الآن نرى فى أفعال ظاهرة للعيان ، إلى أى درجة استشرى الفساد فى امبراطوريتنا ، بحيث لا يكاد يوجد منصب فى الحكومة . . . . لا تعدو فيه على العدالة عدوى هذا الوباء . فإذا طلب

إنسان وظيفة كان عليه أن يدفع ثمنها ، وإذا شاء إنسان أن يدفع عن نفسه شر الافتراء ، فبالمال ، وإذا أراد أن يتهم جاره زورا وبهتانا ففى استطاعته بالهدايا أن يضمن نجاح خططه الشريرة » [١٢] .

وكان بعض المؤامرات التى تكاثرت من حولها يستهدف إحلال إيفان السادس محلها . وكان قد قضى الآن رهين السجن إحدى وعشرين سنة بعد أن خلعه انقلاب ديسمبر ١٧٤١ . وفى سبتمبر ١٧٦٢ أفصح فولتير عن خوفه من أن « ايفان قد يطيح بمن أحسنت إلينا » [١٣] ، وكتب يقول : « أخشى أن تقتل إمبراطورتنا العزيزة . » [١٤] فزارت كاترين إيفان ، ووجدته « إنساناً مهملا مهجورا تردى فى العته نتيجة السجن سنين طويلة » [١٥] ثم تركت لحراسه أوامر بأنه لو بذلت أية محاولة لم تصرح بها هى نفسها للافراج عنه ، فعليهم أن يقتلوا إيفان خيرا من أن يسلموه . وفى منتصف ليلة ٥—٦ يوليو ١٧٦٤ ظهر ضابط فى الجيش يدعى فاسيلى ميروفتش على باب السجن يحمل ورقة فحواها أنها أمر من مجلس الشيوخ بتسليم إيفان له . ثم مضى يعينه بعض من الجند وطرق باب الزنزانة التى كان حارسان ينامان فيها مع إيفان ، وطالب بالدخول . فلما رفض طلبه أمر بإحضار مدفع لتحطيم الباب . فلما سمع الحارسان الأمر قتلا إيفان . وقبض على ميروفتش وأعلنت وثيقة عثر عليها فى جيبه أن كاترين خلعت ، وإن إيفان السادس أصبح منذ الآن قيصرا لروسيا . ورفض عند محاكمته أن يفضى بأسماء شركائه . وكان جزاؤه الإعدام . واتهم الرأى العام عموما كاترين بقتل إيفان . [١٦]

واتصلت المؤامرات . ففى ١٧٦٨ أكد ضابط يدعى تشوجلوكوف أنه موكل من الله بالإنتقام لمقتل بطرس الثالث ، فتسلح بخنجر طويل ، ووجد طريقه إلى القصر الملكى ، واختبأ عند منعطف دهليز ألفت كاترين أن تمر فيه . وسمع جريجورى أورلوف بخبر المؤامرة ، فقبض على تشوجلوكوف ، الذى اعترف مفاخراً بأنه ينوى قتل الامبراطورة ، وكان جزاؤه ، النفى إلى سيبيريا .

٢ — العاشقة

أحاط بكاترين نبلاء لا تستطيع أن تثق بهم ، ولاحقتها الدسائس التى أحدثت الاضطراب فى الادارة ، الملك اخترعت ضرباً جديدا من الحكم جعلت فيه عشاقها المتعاقبين كبار إدارى الحكومة . فكان كل عشيق خلال صعود نجمه كبير وزرائها ، وأضافت شخصها إلى مكافأة المنصب ، ولكنها اقتضت كفاءة الخدمة نظير ذلك . كتب ماسون (وهو واحد من أعداء كاترين الفرنسيين الكثيرين) يقول « لم تكن وظيفة واحدة من وظائف الحكومة كلها لا تؤدى فيها الواجبات بمنتهى التدقيق . . وربما لم يكن هناك أى منصب لم تبد فيه الامبراطورة اختيارا وتمييزا أكثر من غيره . وفى اعتقادى أنه لم تقع حالة تبين فيها أن المنصب شغله شخص غير كفء له . »[١٧] ومن الخطأ أن نكون فكرتنا عن كاترين أنها امرأة فاجرة منغمسة فى اللذات ، فقد راعت جميع مظاهر اللياقة ، ولم تسمح لنفسها قط بالدخول فى أحاديث نابية ، ولا سمحت بها فى حضرتها .[١٨] وقد بذلت لمعظم عشاقها الود الوفى — ولبعضهم الود الرقيق ، ورسائلها إلى بوتمكين تنم على إخلاص يكاد يكون صبيانياً ، وقد أصابها موت لانسكوى بحزن مدمر .

وكانت تستعين بالفن والعلم معاً فى مهمة اختيار صاحب الحظوة الجديد. فهى تنشد رجالا يجمعون بين القدرة السياسية والجسدية ، كانت تدعو المرشح لتناول العشاء ، وتختبر عاداته وعقله ، فإذا جاز هذا الإمتحان الدقيق فحصه بأمرها طبيب القصر ، فإذا خرج من هذا الاختبار سليما عينته ياورا لها ، وأعطته راتباً مغرياً ، وسمحت له بمعاشرتها . وإذ كانت مجردة تماماً من الإيمان الدينى ، فانها لم تسمح لأى من الأخلاقيات المسيحية بأن تتدخل فى طريقتها الفذة فى اختيار الوزراء . وقد وضحت الأمر لنقولا سالتيكوف فقالت : «إننى أخدم الامبراطورة بتربيتى الشبان الأكفاء»[١٩] وكانت الخزانة تتكلف غالياً فى مكافأة هؤلاء المحظوظين — وإن كانت التكلفة على الأرجح أقل كثيراً مما كانت تنفقه فرنسا على خليلات لويس

الخامس عشر ومحظياته . وفى تقدير كاستيرا أن الاخوة الخمسة أورلوف تسلموا سبعة عشر مليون روبل ، وبوتمكين خمسين مليوناً ، ولانسكوى ٧,٢٦٠,٠٠٠ . وقد ارتدت بعض هذه النفقة إلى روسيا فى صورة الخدمة الفعالة . فقد أضاف بوتمكين مثلا ، وهو أكثر عشاقها حظوة وتدليلا ، أقاليم درت على الامبراطورية الربح الوفير .

ولكن لم كانت تغير وتبدل فى عشاقها بهذه الكثرة ، حتى انها اتخذت منهم واحداً وعشرين فى أربعين سنة ؟ لأن بعضهم أخفق فى واجب أو أكثر من واجباتهم المزدوجة ، وبعضهم تبين عدم وفائه : وبعضهم مست الحاجة إليه فى مواقع بعيدة . من ذلك أن أحدهم ، ويدعى ريمسكى كورساكوف ، فاجأته فى مسكنها بين ذراعى وصيفة شرفها ، فاكتفت كاترين بطرده ، وتركها آخر يدعى مامونوف لأنه آثر عليها رفيقة أكثر شباباً . وأقالته الامبراطورة دون أن تنتقم منه . (٢٠) يقول ماسون ، «من الخصائص الشديدة الغرابة فى خلق كاترين أن أحداً من المقربين إليها لم يجلب على رأسه كرهها أو انتقامها ، وإن أساء إليها العديدون منهم ، ولم يكن تركهم مناصبهم بسببها . ولم ير الناس قط أحدهم ينزل به العقاب . . . وفى هذا تبدو كاترين أسمى من جميع النساء .» (٢١)

بعد تولى كاترين العرش احتفظ جريجورى أورلوف بمكانته المرموقة عشر سنوات ، وقد أطرته كاترين فى حب فقالت :

«إن للكونت جريجورى عقل النسر ، فأنا لم ألق فى حياتى رجلا أوتى فهما أدق وألطف لأى أمر يضطلع به أو حتى يقترح عليه ... ونزاهته تعصمه من أى تهجم عليه . . . ومن أسف أن التعليم لم يتح له أى فرصة لصقل سجاياه ومواهبه ، وهى فى الحق فائقة ، ولكن حياته العشوائية تركتها كالأرض المراحة .» (٢٢)

ثم كتبت فى موضع آخر ، أن هذا الرجل كان خليقاً بأن يظل «عشيقها وأثيرها» إلى النهاية لولا أنه كان أول من مل صاحبه .» (٢٣)

وقد جاهد جريجورى لتحرير الأقنان ، واقترح تحرير المسيحيين من ربقة العثمانيين ، وأحسن البلاء فى الحروب ، وأغضب الحاشية بكبريائه وغطرسته وراغ من ذراعى كاترين . وقد أقصى فى ١٧٧٢ إلى حيث الثراء والدعة فى ضياعه . أما أخوه الكسى فقد أصبح أمير البحر الأول ، وقاد الأسطول الروسى إلى النصر على الأتراك ، وظل محتفظا بالحظوة طوال العهد ، وعمر حتى قاد أفواجه ضد نابليون .

وحل محل جريجورى فى حظوته فتى فائق الحسن مغمور يدعى الكسيس فاسيلتشيك ، دسه حزب من أحزاب البلاط على كاترين ليصرف فكرها عن أورلوف المنفى ، ولكنها وجدته غير كفء لافى السياسة ولا فى غير السياسة ، فأحلت مكانه (١٧٧٤) جريجورى ألكسندروفتش بوتمكين ، وكان ضابطاً فى حرس الخيالة ، الذين ارتدت زيهم (١٧٦٢) لتقودهم ضد بطرس ، فلما لاحظ بوتمكين أن سيفها تنقصه الشرابة التى يعتز بلبسها الحرس ، انتزع شرابته من مقبض سيفه وركب فى جرأة خارج صفوف الجيش ، وقدم لها هذا الوسام ، فقبلته ، واغتفرت له جرأته ، وأعجبت بوجهه الوسيم وجسمه المفتول . وكان أبوه — وهو كولونيل متقاعد من صغار النبلاء — قد قرر أن يكون ابنه قسيساً ، وتلقى بوتمكين قدرا لايستهان به من التعلم فى التاريخ والدراسات الكلاسيكية واللاهوت ، وأثبت تفوقه فى جامعة موسكو . ولكنه وجد حياة الجيش أنسب لمزاجه الجموح الخصب الخيال من المدرسة اللاهوتية. وقد سحره بالطبع ما اجتمع لكاترين من جمال وسلطان ، فقال عنها إنها إذا دخلت حجرة مظلمة أنارتها»[٢٤] .

وفى حرب ١٧٦٨ قاد فوج خيـالته ببسالة مستهترة حملت كاترين على أن تبعث إليه بإطراء شخصى . فلما عاد إلى سانت بطرسبرج أكلته الغيرة من الإخوة أورلوف وفاسيلتشيك . وتشـاجر مع الأخوة أورلوف ، وفى معركة معهم فقد إحدى عينيه [٢٥] . ولكى يخرج الأمبراطورة من عقاله — أو يدخل نفسه فى عقالها — ترك البلاط ، واعتزل فى ضاحية ، ودرس اللاهوت ، وأطلق شعره ولحيته ، وأعلن أنه سيترهب ، فرق له قلب كاترين ، وبعثت إليه تقول أنها تقدره تقديراً

تقديراً كبيراً ، ودعته ليعود . فحلق لحيته ، وهذب شعره ، وارتدى بزته العسكرية ، وظهر فى البلاط ، واهتز طرباً لبسمات الأمبراطورة . وحين افتقدت كاترين الكفاية فى فاسيلتشيك فتحت ذراعيها لبوتمكين ، وكان يومها فى الرابعة والعشرين ، فى أوج عنفوانه وفتنته . وسرعان ما هامت به هيامه بها ، وراحت تحبوه بوصلها ، وتغدق عليه الروبلات ، والأراضى ، والأقنان ، وحين كان يغيب كانت ترسل إليه رسائل غرامية بريئة من مظهر الجلالة .

« ما أعجب حالى ! كل شيء اعتدت أن أسخر منه وقع لى الآن ، لأن حبى لك أعمانى . فالعواطف التى ظننتها بلهاء مفرطة غير طبيعية أمارسها أنا نفسى الآن . انني لا أقوى على ابعاد عينى الغبيتين عنك . . . .

«لا نستطيع الإلتقاء إلا خلال الأيام الثلاثة القادمة ، فبعدها يحل أول أسبوع فى الصوم الكبير ، المخصص للصلاة والصيام . وسيكون اللقاء إثماً كبيراً . أن مجرد التفكير فى هذا البعد يبكينى»[٢٦]

وعرض عليها الزواج ، ويعتقد بعض المؤرخين أنهما تزوجا سراً ، وفى خطابات عدة تدعوه «زوجى الحبيب» وتتكلم عن نفسها فتقول «زوجتك»[٢٧]، رغم أننا يجب ألانستخلص الحقيقة أبداً من مجرد الألفاظ ويبدو أنه ملها ، ربما لهيامها الجموح به ؛ وتبين أن صوت المغامرة أقوى لديه من الدعوة للهجوم على قلعة فرغ من فتحها . وقد ظل نفوذه عليها عظيماً حتى أن معظم المقربين الذين خلفوه لم يخلفوه إلا بعد الحصول على موافقته .

وهذا ما حدث لبيوتر زافودوفسكى ، الذى استدفأ فى خدرها من ١٧٧٦ إلى ١٧٧٧ ، ولسيمون زوريتش (١٧٧٧ — ١٧٧٨) ، وإيفان رمسكى — كورساكوف (١٧٧٨ — ١٧٨٠) . ولم تشعر بغرام يملك عليها لبها مرة أخرى إلا حين اتخذت ألكسيس لانسكوى (١٧٨٠) عشيقاً . فهذا الفتى لم يكن وسيماً كيساً مثقفاً فحسب ، بل كان صاحب حس شعرى

مرهف وحب إنسانى للخير ، وصديقاً ذكياً للآداب والفنون . « لقد بدا أن الجميع يشاركون الملكة فى ولعها به » (٢٨) . وفجأة أصيب بآلام لاتطاق فى الأمعاء ، واشتبهت الحاشية فى أن يكون بوتمكين قد دس له السم ، ثم مات رغم كل جهود الأطباء ورعاية كاترين المخلصة ، ولفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعيها . وقضت ثلاثة أيام فى عزلة وحزن . ونحن نسمع المرأة من خلف الحاكمة — والقلب من خلف التاريخ — فى رسالة كتبتها فى ٢ يوليو ١٧٨٤ .

« خيل إلى أننى هالكة بعد هذه الخسارة التى لاتعوض . . . لقد عللت نفسى بأنه سيكون العون لى فى شيخوختى . كان مجاملا ، وتعلم الكثير ، واكتسب كل ميولى . . . كان فتى أقوم على تربيته ، وكان شاكراً ، رقيقاً ، طيباً » . . . ان لانسكوى لم يعد له وجود . . وباتت حجرتى وكراً فارغاً بعد أن كانت تفيض إشراقاً وبهجة ، ولا قدرة لى إلا على جر نفسى إليها كأننى طيف من الأطياف . . لا أستطيع النظر إلى وجه إنسان دون أن يختنق صوتى . . . لا أستطيع أن أذوق النوم ولا الطعام . . ولست أدرى ماذا يكون مصيرى» (٢٩) .

وظلت عاماً تحرم نفسها من العشاق ، وأخيراً استسلمت لألكسيس إرمولوف (١٧٨٥ — ١٧٨٦) ، الذى ساء بوتمكين كثيراً فاستعيض عنه سريعاً بالكسيس مامونوف . ولكن سرعان ماز هد ألكسيس فى خليلته ذات السبعة والخمسين . واستأذن فى الزواج من الأميرة شرباتوف ، واحتفلت كاترين بالعروسين فى زفاف رسمى بالبلاط ، ثم صرفتهما محملين بالهدايا (١٧٨٩)(٣٠) . وآخر القائمة هو بلاتون زوبوف (٨٩ — ١٧٩٦) وكان ملازماً فى حرس الخيالة ، مفتول العضل دمث الطباع . وكانت كاترين شاكرة له خدماته ، فاضطلعت بالإشراف على تعليمه ، وانتهت بمعاملته معاملة الأم لابنها . وقد لازمها حتى مماتها .

٣ — الفيلسوفة

بين الحب والحرب ، وسياسة الدولة والدبلوماسية ، وجدت هذه المرأة المدهشة وقتاً للفلسفة . وقد تكون فكرة عن سمو المكانة التى بلغتها جماعة

« الفلاسفة »الفرنسيين حين نرى أكفأ حاكمين من حكام القرن الثامن عشر يعتزان بتبادل الرسائل معهم ويتنافسان على الظفر بثنائهم .

وكانت كاترين قبل ولايتها العرش بزمن طويل تستطيب أسلوب فولتير وفكاهته الذكية وعباراته المجردة من التوقير ، وتحلم بأن تكون ذلك الحاكم « المستبد المستنير » الذى راود أحلامه . ولا بد أنها أعجبت بديدرو أيضاً ، لأنها فى سبتمبر ١٧٦٢ عرضت أن تطبع الموسوعة فى سانت بطرسبرج إذا أمعنت الحكومة الفرنسية فى حظرها . ولم يبق من الرسائل التى كتبتها لفولتير قبل ١٧٦٥ إلا واحدة ، وقد ردت على أبيات أرسلها لها فى أكتوبر ١٧٦٣ :

« لأول مرة آسف على أننى لست شاعرة ، وأن يكون ردى على أبياتك بالضرورة نثراً لا شعراً . ولكنى أود أن أقول لك اننى منذ ١٧٤٦ مدينة بأعظم الفضل لك . فقبل تلك الحقبة لم أكن أقرأ شيئاً غير الروايات ، ولكن حدث أن وقعت كتبك فى يدى مصادفة ، وبعدها لم أكف عن قراءتها ، ولا رغبت فى قراءة كتب أقل جودة فى الكتابة أو أقل تثقيفاً . . . وهكذا لا أفتأ أعود إلى خالق ذوقى عودتى إلى أعمق أسباب تسليتى ، وأؤكد لك يا سيدى أننى إن كنت قد حصلت أى معرفة فالفضل فيها لك . وأنا الآن أقرأ مقالك « فى التاريخ العام» ، وبودى لو حفظت كل صفحة منه عن ظهر قلب »[٣١] .

وظلت كاترين طيلة حياتها ، أو حتى مماتهم ، تراسل فولتير وديدرو ودالمبير ومدام جوفران وجريم وكثيرين غيرهم من وجوه الفرنسيين . وأسهمت فى المال الذى جمعه فولتير لقضية كالاس وسيرفانس وقد أسلفنا القول أنها أمرت باستيراد شحنات كبيرة من الساعات من فرنيه ، ومن الجوارب التى صنعها عمال فولتير ، وأحياناً فولتير نفسه (ان جاز لنا أن نصدق الثعلب العجوز) . وكان من بواعث فخره أن الرؤوس المتوجة أغدقت عليه أسباب التكريم ، وقد كافأ كاترين بأن أصبح مندوبها الصحفى فى فرنسا . وقد برأ ساحتها من الاشتراك فى جريمة قتل بطرس الثالث ، وكتب يقول « أعلم أن

كاترين تلومها بعض الشائعات التافهة حول زوجها ، ولكن هذه أمور عائلية لا شأن لى بها »[٣٢] . وناشد أصحابه أن يؤيدوه فى الدفاع عن كاترين ، فكتب إلى دارجنتال يقول :

« هناك صنيع آخر أرجو أن تسديه إلى ، وهو يخص كاترين . يجب أن ندعم سمعتها فى باريس بين أفاضل القوم ووجهاؤهم ... وعندى أسباب قوية للاعتقاد بأن الدوقين براسلان وشوازيل لايعتبرانها أكثر نساء العالم نقاء ضمير ، ومع ذلك فأنا عليم . . . بأنه لم يكن لها يد فى موت زوجها السكير . . ثم إنه كان أكبر أحمق تربع على عرش . . . ونحن مدينون بالفضل لكاترين لأنها أوتيت الشجاعة لخلع زوجها ، وهى تسوس ملكها بحكمة واعتزاز ، وينبغى أن نبارك رأساً متوجاً ينشر التسامح الدينى فى أرجاء ١٣٥ درجة طولية . . . إذن أرجوك أن تذكر كاترين بخير كثير[٣٣] .

أما مدام دو دفان فقد رأت أن تبرئة الأمبراطورة هذه مخزية جداً ، كذلك أدانتها مدام دشوازيل وهوراس ولبول[٣٤] . وما كان يتوقع من براسلان وشوازيل اللذين يوجهان علاقات فرنسا الخارجية أن يعجبا بإمبراطورة تعارض النفوذ الفرنسى فى بولنده وتتحداه فى تركيا . وكانت الشكوك تساور فولتير ذاته بين حين وحين . فلما سمع بمصرع إيفان السادس ، سلم فى حزن بـ « أن علينا أن نخفف قليلا من غلوائنا فى التحمس » لكاترين[٣٥] . ولكنه ما لبث أن أطرى برنامجها التشريعى ، ورعايتها للفنون ، وحملتها لنشر الحرية الدينية فى بولنده ، وخلع عليها الآن (١٨ مايو ١٧٦٧) لقب « سميراميس الشمال » . وحين خاضت الحرب ضد تركيا قطع هجومه على الكنيسة الكاثوليكية l'imfame ليمتدح حملتها الصليبية لإنقاذ المسيحيين من المسلمين .

أما ديدرو فقد استهواه بالمثل ذلك الجمال المتربع على العرش ، وكان له فى ذلك مبررات قوية . ذلك أن كاترين سمعت أنه ينوى بيع مكتبته ليجمع مهراً لابنته ، فأصدرت تعليماتها لوكيلها الباريسى بأن يشتريها بأى ثمن يطلبه ديدرو ، فطلب ستة عشر ألف جنيه وقبضها . ثم رجت ديدرو أن يحتفظ

بالكتب حتى مماته ، وأن يكون حارسها على المكتبة نظير راتب قدره ألف جنيه فى العام ، وزادت بأن دفعت راتبه مقدماً عن خمسة وعشرين عاماً . وأصبح ديدرو بين عشية وضحاها رجلا غنياً ومحامياً يدافع عن كاترين . فلما دعته لزيارتها لم يستطع أن يرفض . قال « يجب أن يرى الإنسان امرأة كهذه ولو مرة فى العمر »[٣٦] .

وبعد أن دبر شئون المال لزوجته وابنته خرج وهو فى الستين (٣ يونيو ١٧٧٣) فى الرحلة الطويلة الشاقة إلى سانت بطرسبرج . ولبث شهرين فى لاهاى يرشف حلاوة الشهرة على مهل ، ثم واصل الرحلة بطريق درسدن وليبزج ، وحرص على أن يتجنب برلين وفردريك الذى كان قد أبدى عنه بعض الملاحظات الشائكة . وأصيب مرتين خلال الرحلة بالمغص إصابة عنيفة ، ثم وصل إلى سانت بطرسبرج فى التاسع من أكتوبر ، واستقبلته كاترين فى العاشر منه . كتب يقول « ليس هناك من يعرف خيراً منها فن رفع الكلفة عن محدثها »[٣٧] . ودعته للتكلم فى صراحة ، « كما يتكلم رجل لرجل » . ففعل ، وأومأ إيماءاته على عادته ، وأكد نقاطه بصفع فخذى الإمبراطورة . كتبت كاترين لمدام جوفران تقول « ان ديدرو هذا رجل غريب الأطوار . فأنا أخرج من لقاءاتى معه بفخذين مرضوضتين سوداوين تماماً . وقد اضطررت إلى وضع منضدة بيننا وقاية لنفسى ولإعضائى »[٣٨] .

وقد حاول فترة أن يلعب دور الدبلوماسى كما حاول فولتير مع فردريك ، وأن يصرف روسيا عن تحالفها مع النمسا وبروسيا إلى تحالف مع فرنسا [٣٩] ؛ ولكنها سرعان ما صرفته إلى موضوعات أقرب إلى صناعته . وأخبرها فى شىء من التفصيل كيف يمكن أن تحول روسيا إلى بلد مثالى ، واستمعت إليه جذلة ، ولكنها ظلت على تشككها . وقد استعادت فيما بعد هذه الأحاديث فى رسالة كتبتها للكونت لوى — فليب دسيجور . قالت :

« تحدثت معه كثيراً ومراراً ، ولكن بفضول أكثر من الفائدة . ولو صدقته لانقلب كل شىء فى مملكتى . فالتشريع والإدارة والمالية — كلها

كانت تنقلب رأساً على عقب لتفسح مجالا لنظريات غير عملية . . . ثم قلت له فى صراحة : « يا مسيو ديدرو ، لقد أصغيت بمنتهى اللذة لكل ما أوحى به فكرك اللماح . . أن المرء ، بكل مبادئك السامية ، قد يؤلف كتباً رائعة ، ولكنه يخسر فى تجارته . . . أنك تشتغل على الورق ، الذى يتحمل كل شىء . . أما أنا ، الامبراطورة المسكينة ، فأشتغل على جلد البشر ، وهو جلد سريع التهيج حساس على نحو مختلف» . . . وبعدها قصر كلامه على الأدب [٤٠] . وحين وقعت على مذكرات كان قد كتبها « بتعليمات صاحبة الجلالة الامبراطورة . . . لوضع القوانين » وصفتها (بعد وفاته) بأنها «محض هذيان ، لاأثر فيه لمعرفة بالحقائق ولا لتدبير ولا لنظر ثاقب» [٤١] . ومع ذلك استمتعت بحديثه المفعم حيوية ، وكانت تبادله الأحاديث كل يوم تقريباً خلال مقامه الطويل (*) .

وبعد أن أنفق ديدرو خمسة أشهر من البهجة الغامرة فى صحبتها ، والتعب فى بلاطها ، نوى الرحيل إلى أرض الوطن . فأمرت كاترين بصنع عربة خاصة له يستطيع أن يتكىء فيها مستريحاً . وسألته أى الهدايا ترسلها إليه فقال لاشىء ، ولكنه ذكرها بأنها لم تف بوعدها أن ترد له نفقات رحلته ، وقد قدرها بألف وخمسمائة روبل ، فنفحته بثلاثة آلاف وبخاتم ثمين ، وعينت ضابطاً ليرافقه حتى لاهاى . فلما عاد إلى باريس أثنى عليها ثناءالشكر والعرفان.

ولم تحاول كاترين الاتصال بروسو ، الذى كان نقيضها إلى حد مؤلم فى الطبع والأفكار ، ولكنها صادقت جريم ، لأنها عرفت أن صحيفته « الرسائل الأدبية » تصل إلى أيدى الأوربيين ذوى النفوذ . واتخذ أول خطوة بعرضه (١٧٦٤) أن يوافيها برسائله الدورية ، فوافقت ونقدته ألفا وخمسمائة روبل فى السنة . وقد رآها أول مرة حين ذهب إلى سانت بطرسبرج (١٧٧٣) فى بطانة أمير هسى — دار مشتات لحضور زفاف أخت الأمير إلى الغراندوق بولس . وقد وجدته كاترين أكثر واقعية من ديدرو ، مطلعاً إطلاعاً مفيداً

(*) لعل القصة التى زعمت أن أويلر أريك ديدور أمام الحاشية الروسية ببرهان جبرى رهمى على وجود الله قصة مشكوك فى صحتها (٤٢) .

جداً على جميع مناحى ذلك العالم الباريسى الذى سحرها بأدبه وفلسفته وفنه ونسائه وصالوناته . ودعته «للدردشة» معها كل يوم تقريباً خلال شتاء ١٧٧٣ — ١٧٧٤ وقد كتبت إلى فولتير عن هذه اللقاءات : «ان حديث السيد جريم يمتعنى ، ولكن الأشياء التى نود أن نتبادل الكلام فيها من الكثرة بحيث اتسمت لقاءاتنا إلى الآن بالحماسة أكثر من اتسامها بالنظام أو التتابع» وفى حرارة هذه الأحاديث كان عليها المرة بعد المرة أن تذكر نفسها بأن عليها (على حد قولها) أن تعود إلى «أكل العيش» أكل عيشها بالالتفات إلى مهمة الحكم (٤٣) . وعاد جريم إلى باريس يطفح تحمساً لكاترين «غذاء روحى ، وعزاء قلبى ، وفخر عقلى ، وبهجة روسيا ، وأمل أوربا» (٤٤) . وعاد إلى زيارة بطرسبرج فى ١٧٧٦ ، وكان يلقاها كل يوم تقريباً على مدى عام . ورجته أن يمكث ويشرف على التنظيم الجديد للتعليم فى روسيا ، ولكنه حن إلى باريس ومدام ريبنيه . ولم تكن كاترين بالمرأة الغيور ، فلما سمعت أن مدام ريبنيه تعانى أزمة مالية بعثت إليها بطريق رقيق غير مباشر ما يكفى لتلبية حاجاتها (٤٥) . ومنذ ١٧٧٧ قام جريم بمهمة الوكيل لكاترين فى فرنسا فى المشتريات الفنية والمهام السرية . ودامت صداقته لها إلى النهاية دون أن يكدر صفوها مكدر .

ماذا كانت نتائج هذا الغزل بين الأوتقراطية والفلسفة ؟ أما من حيث مصادقتها للفلاسفة بوصفهم وكلاؤها الصحفيين فى فرنسا ، فالأثر السياسى كان صفراً ؛ فالسياسة الفرنسية ، ومن ثم المؤرخون الفرنسيون ، ظلوا خصوماً ألداء لبلد كروسيا يحبط الأهداف الفرنسية فى أوربا الشرقية . ولكن إعجابها بأبطال التنوير الفرنسى كان مخلصاً ، لأنه بدأ قبل تقلدها السلطة بزمن طويل ، ولو كان تظاهراً وادعاء لما ثبت للمواجهات الطويلة مع ديدرو وجريم . وقد أعان اتصالها بالفكر الفرنسى على صبغ روسيا المتعلمة بالصبغة الأوربية ، وعلى تعديل الرأى الغربى الذى رأى فى روسيا وحشاً هائلا جباراً . وقد اقتدى روس كثيرون بكاترين ، وراسلوا الكتاب الفرنسيين ، وشعروا بتأثير الثقافة والعادات والفنون الفرنسية . وزار باريس عدد متزايد من الروس ، ومع أن كثيرين منهم أنفقوا وقتهم فى المغامرات

الجنسية ، إلا أن الكثيرين اختلفوا إلى الصالونات والمتاحف والبلاط ، وقرأوا الأدب والفلسفة الفرنسيين ، وجلبوا معهم أفكاراً شاركت فى الإعداد لتفجر الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر .

٤ ــ الحاكمة القديرة

لايتطرق إلينا الشك فى صدق نيات كاترين فى مطلع حكمها .

فقد وجدت هذه القرارات فى نسخة « تليماك » التى كانت تقرؤها :

« عليك بدراسة الإنسان ، وبتعلم استخدام الرجال بغير الاستسلام لهم دون تحفظ . وابحثى عن الكفاية الأصيله وأن وجدت فى أقصى الأرض ، لأنها تكون عادة متواضعة متوارية .

ولا تسمحى لنفسك بأن تصبحى فريسة للمتملقين ، أفهميهم أنك لا تعبأين بالمديح ولا بالتذلل والخنوع . وضعى ثقتك فى أولئك الذين لديهم الشجاعة للاعتراض على آرائك . . . والذين تهمهم سمعتك أكثر مما يهمهم رضاءك .

« كونى مؤدبة ، رحيمة ، منفتحة ، عطوفاً ، متحررة العقل . ولا تدعى سمو مكانتك يمنعك من النزول فى تلطف إلى صغار الناس ، ووضع نفسك فى موضعهم . واحرصى على ألا يضعف هذا اللطف من سلطانك أو ينتقص من احترامهم لك . . . وانبذى كل تصنع وافتعال . ولا تسمحى للعالم أن يلوثك إلى الحد الذى يفقدك مبادىء الشرف والفضيلة القديمة .

اقسم بالسماء أن أطبع هذه الكلمات على صفحة قلبى »[٤٦] .

وكانت تدأب على الإحاطة بدقائق كل موضوع تتناوله ، وقد كتبت تعليمات مفصلة عن مئات المواضع من تدريب الجيش والعمليات الصناعية إلى زينة حاشيتها وإخراج الأوبرات والتمثيليات . قال أحد كتاب سيرتها الأولين وكان من أقلهم تعاطفاً :

« ان الطموح لم يطفىء فى روح كاترين تذوقاً حاراً للذة ، ولكنها كانت تعرف كيف تنبذ اللذة ، وتنتقل إلى الاضطلاع بأكثر الواجبات خطراً ، وإلى الممارسة التى لا تكل لشئون الحكم . فتحضر جميع مداولات المجلس ، وتقرأ رسائل سفرائها ، وتملى ، أو تشير ... بالردود التى يرد بها . ولا تكل لوزرائها سوى تفاصيل العمل ، ولا تفتأ تراقب تنفيذه »(٤٧) .

واستحالت أو كادت مهمة حكم رقعة ملكها الشاسعة لكثرة القوانين الموجودة (عشرة آلاف) . وتنوعها ، وتناقضاتها ، وفوضاها . وإذ راودها الأمل فى أن تؤدى لروسيا ما أداه من قبل جستنيان للدولة الرومانية ، وفى أن تدعم سلطتها . فإنها دعت إلى موسكو فى ١٤ ديسمبر ١٧٦٦ موظفين إداريين وخبراء قانونيين من كل ركن من أركان الامبراطورية ، ليقوموا بمراجعة دقيقة شاملة وجمع وتنسيق للقانون الروسى . واستعداداً لمجيئهم أعدت بشخصها تعليمات « Nakaz » تصف المبادئ التى ينبغى أن يشكل على أساسها القانون الجديد . وقد عكست هذه المبادىء قراءتها لمونتسكيو وبكاريا وبلاكستون وفولتير . واستهلت تعليماتها بالتصريح بأنه يتعين التفكير فى روسيا على أنها دولة أوربية . ينبغى أن يكون لها دستور قائم على «مبادىء أوربية» . وليس معنى هذا فى مفهومها « حكومة دستورية» تخضع الملك لهيئة تشريعية يختارها الشعب . فمستوى التعليم فى روسيا لن يسمح حتى بحق انتخاب محدود كالموجود آنئذ فى بريطانيا . إنما يعنى حكومة يحكم فيها الحاكم طبقاً للقانون ، وإن كان هو فى نهاية الأمر المصدر الوحيد للقانون . وقد أيدت كاترين النظام الإقطاعى . أعنى نظام الولاء والخدمات المتبادلة بين الفلاح والمقطع (التابع) وبين المقطع والسيد الإقطاعى ، وبين السيد والملك . باعتباره نظاماً لا غنى عنه للاستقرار الإقتصادى والسياسى والحربى فى روسيا عام ١٧٦٦ (وهى بلد الجهات التى تكاد تنعزل بعضها عن بعض ، وعن مركز الحكومة ، نتيجة لصعوبات الاتصال والنقل) ، ولكنها ألحت على ضرورة تعريف وتحديد حقوق السادة على أقنانهم قانوناً ، وعلى السماح للأقنان بتملك الأملاك ، وعلى نقل محاكمة الأقنان وعقابهم من السيد الإقطاعى إلى قاضى عمومى يسأل يسأل محكمة إقليمية مسئولة أمام الملك(٤٨) . وينبغى إن تكون جميع المحاكمات

علنية ، وأن يبطل استخدام التعذيب ، وأن تلغى عقوبة الإعدام قانوناً وواقعاً . أما العبادة الدينية فينبغى أن تكون حرة ، «فالتعصب هو أضر الكبائر بين هذه الكثرة من مختلف العقائد» (٤٩) . ثم قدمت هذه التعليمات قبل طبعها إلى مستشاريها ، فنبهوها إلى أن أى تغيير فجائى من الأحوال المألوفة سيدفع بالروسيا إلى مهاوى الفوضى ؛ وقد سمحت لهم بتعديل مقترحاتها ، لا سيما ما استهدف عتق الأرقاء تدريجياً (٥٠) .

وقد دفعت هذه التعليمات التى نشرت فى هولندة فى ١٧٦٧ صفوة المفكرين الأوربيين إلى الثناء الحماسى عليها ، حتى بعد أن عدلت على هذا النحو . وأرسلت الامبراطورة نسخة منها رأساً إلى فولتير ، الذى قدم فروض احترامه المعهودة : «سيدتى ، تلقيت البارحة ضماناً من ضمانات خلودك — هو مجموعة قوانينك فى ترجمة ألمانية . وقد شرعت اليوم فى ترجمتها إلى الفرنسية . وسوف تظهر فى الصينية ، وفى كل لسان ، وسوف تكون انجيلا للبشر أجمعين (٥١) . وأضاف فى رسائل تالية : « إن المشرعين يحتلون مكان الصدارة فى هيكل المجد ، أما الفاتحون فيأتون من بعدهم . . . اننى أعد (التعليمات) أجل آثار هذا القرن » (٥٢) . ومنعت الحكومة الفرنسية بيع (التعليمات) فى فرنسا .

وقدمت «التعليمات» المعدلة إلى «لجنة صياغة القانون الجديد» التى اجتمعت فى ١٠ أغسطس ١٧٦٧ . وكانت تتألف من ٥٦٤ عضواً تنتخبهم جماعات شتى : ١٦١ من النبلاء و ٢٠٨ من المدن ، ٧٩ من الفلاحين الأحرار ، و ٥٤ من القوزاق ، و ٣٤ من القبائل غير الروسية (مسيحيين أو غير مسيحيين) و ٢٨ من الحكومة . ولم يمثل الاكليروس بصفتهم طبقة ، ولم يمثل الأقنان اطلاقاً . وكانت اللجنة من بعض وجوهها نظير لمجلس طبقات الأمة الفرنسى الذى تقرر أن يجتمع فى باريس فى ١٧٨٩ ، وقد أتى المندوبون للحكومة بقوائم احتوت المظالم ومقترحات الإصلاح من دوائرهم على نحو ما سيفعل مندوبو ذلك المجلس الأشهر . ورفعت هذه الوثائق إلى الامبراطورة فأتاحت لها ولمساعديها مسحاً قيماً لحالة المملكة .

ولم تخول اللجنة سلطة اصدار القوانين ، بل تقديم المشورة للامبراطورة عن حالة كل طبقة أو اقليم وحاجاته وتقديم الاقتراحات للتشريع . وكفلت للمندوبين حرية الكلام وعدم المساس بأشخاصهم . واقترح بعضهم عتق جميع الأقنان وطلب بعضهم مزيداً من التوسع في حق امتلاك الأقنان . وفي ديسمبر ١٧٦٧ استراحت اللجنة ، وفي فبراير ١٧٦٨ انتقلت إلى سانت بطرسبرج . وبلغ مجموع الجلسات التي عقدتها ٢٠٣ ؛ وفي ١٨ ديسمبر أجلت إلى أجل غير مسمى لأن نشوب الحرب ضد تركيا استدعى وجود مندوبين كثيرين في الجبهة . ووكلت مهمة صياغة التشريع المقترح إلى لجان فرعية . ظل بعضها يجتمع حتى ١٧٧٥ ، ولكن لم توضع مجموعة قوانين . ولم تسوء كاترين تماماً هذه النتيجة غير الحاسمة ، فقالت «إن اللجنة . . . أعطتني النور والمعرفة عن جميع الامبراطورية ، وأنا الآن على بينة مما يلزم ، وأعرف بم ينبغي أن أهتم . وقد فصلت اللجنة جميع أقسام القانون ، ووزعت الشئون تحت رؤوس مواضيع ، وكنت خليقة بأن أفعل أكثر من هذا لولا الحرب مع تركيا . واكنا أدخلنا وحدة لم نعهدها إلى الآن في مبادىء النقاش وطرائقه» (٥٣) . وقد أظهرت كاترين للنبلاء في الوقت نفسه مبلغ عرض القاعدة التي ترتكز عليها سلطاتها . واقترحت اللجنة قبل انفضاضها أن تخلع عليها لقب «الكبرى» ، فرفضت ، ولكنها وافقت على أن تلقب «أم الوطن» .

وأصبحت اثنتان من توصيات كاترين قانوناً : إلغاء التعذيب واقرار التسامح الديني . وقد توسع في هذا التسامح : فسمح القانون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية بأن تنافس اليونانية الأرثوذكسية . وحمى اليسوعيين حتى بعد أن حل البابا كلمنت الرابع عشر طائفتهم (١٧٧٣) ، وأذن للتتار الفولجا بأن يعيدوا بناء مساجدهم . وسمحت كاترين لليهود بدخول روسيا ، ولكنها أخضعتهم لضرائب خاصة ، وقصرت إقامتهم على مناطق معينة (ربما تحقيقاً لسلامتهم) . ثم تركت الراسكولنيكيين - المنشقين الدينيين - أحرارا في ممارسة شعائرهم دون عائق ، وكتبت إلى فولتير تقول «صحيح أن عندنا متعصبين يحرقون أنفسهم لأنهم لم يعودوا مضطهدين من الغير ، ولكن لو حذا حذوهم المتعصبون في الدول الأخرى لما نجم عن ذلك ضرر يذكر» (٥٤) .

وأبهج جماعة الفلاسفة بصفة خاصة إخضاع كاترين الكنيسة الروسية للدولة . وشكا بعضهم من أنها لاتزال تحضر الخدمات الدينية (وكذلك كان يفعل فولتير) ، وأدرك أكبرهم سنا أن حضورها أمر لاغنى عنه للاحتفاظ بولاء الشعب . وقد حولت بمرسوم أصدرته فى ٢٦ فبراير ١٧٦٤ جميع أراضى الكنيسة ملكاً للدولة . وبدأت الدولة منذ الآن تدفع رواتب رجال الدين الأرثوذكس — وبهذا ضمنت تأييدهم للحكومة . وأغلق الكثير من أديرة الرهبان والراهبات ، ومنع الباقى منها من قبول أكثر من عدد معلوم من المترهبين الجدد ، ورفعت السن القانونية لنذر الرهبنة . واستخدمت الموارد الفائضة من المؤسسات الكنسية فى إنشاء المدارس والملاجىء والمستشفيات (٥٥).

وعارض رجال الدين والنبلاء التوسع فى التعليم الشعبى مخافة أن يفضى انتشار المعرفة بين الجماهير إلى الهرطقة والكفر والتحزب ، وأن يعرض النظام الإجتماعى للخطر . هنا بدأت كاترين — كما بدأت فى غيره — بتطلعات تحررية . فلجأت إلى جريم :

« أصغوا إلى لحظة يا أصدقائى الفلاسفة : ستكونون لطافاً ظرافاً إذا تفضلتم برسم خطة للشباب ، من ألف باء إلى الجامعة . . . ليس عندى — أنا التى لم أدرس فى باريس ولم أعش فيها — معرفة بهذا الأمر ولا بصر به . . انى مهتمة جداً بفكرة إنشاء جامعة وإدارتها ، ومدرسة ثانوية (جمنازيوم) وأخرى أولية . . . وإلى أن تستجيبوا لطلبى سأنقب فى « الموسوعة » عما أنشده وبالتأكيد سأستخرج منها ما أنشده » (٥٦) .

وقد أثرت فيها أثناء ذلك الحماسة البيداجوجية التى أبداها إيفان بتسكى ، الذى جاب السويد وألمانيا وهولنده وإيطاليا وفرنسا ، واختلف إلى صالون مدام جوفران ودرس الموسوعة والتقى بروسو . ففى ١٧٦٣ أنشأت فى موسكو مدرسة اللقطاء ، خرجت فى ١٧٩٦ أربعين ألف طالب ، وفى ١٧٦٤ فتحت مدرسة للبنين فى سانت بطرسبرج ، وفى ١٧٦٥ أخرى للبنات ، وفى ١٧٦٤

حول دير سمولنى إلى معهد سمولنى لبنات النبلاء — وهذا صدى لمعهد مدام دمانتنون « سان سير » ، وكانت كاترين أول حاكم روسى يفعل شيئاً لتعليم النساء . ولما فت فى عضدها افتقارها إلى المعلمين المؤهلين ، بعثت الطلاب الروس لدراسة التربية فى انجلتره وألمانيا والنمسا وإيطاليا ، وأنشئت مدرسة للمعلمين فى ١٧٨٦ .

وقد أعجبتها اصلاحات يوزف الثانى التعليمية فى النمسا ، فطلبت إليه أن يعيرها شخصاً خبيراً بنظامه ، فأرسل إليها تيودور يانكوفش الذى وضع لها خطة نشرتها باسم «قانون المدارس الشعبية» (٥ أغسطس ١٧٨٦) . وأنشئت مدرسة أولية فى أهم بلدة فى كل اقليم ، ومدرسة ثانوية فى كل مدينة كبرى من مدن ست وعشرين مقاطعة ، وفتحت هذه المدارس لجميع الأطفال أيا كانت طبقتهم ، ولم يسمح فيها بالعقاب البدنى ؛ وكانت الدولة تمدها بالمدرسين والكتب المدرسية . بيد أن المشروع أحبطه إلى حد كبير عزوف الآباء عن ارسال أبنائهم إلى المدارس بدلا من استخدامهم للشغل فى البيت . وخلال السنوات العشر التى انقضت منذ تأسيس «المدارس الشعبية» حتى وفاة كاترين ، زاد عددها ببطء من أربعين إلى ٣١٦ مدرسة ، وعدد المعلمين من ١٣٦ إلى ٧٤٤ ، وعدد التلاميذ من ٤,٣٩٨ إلى ١٧,٣٤١ . وفى عام ١٧٩٦ كانت روسيا لا تزال شديدة التخلف عن الغرب فى ميدان التعليم الشعبى .

أما التعليم العالى فكان متاحاً على نطاق ضيق فى جامعة موسكو وفى المعاهد أو الأكاديميات الخاصة ، وأنشئت مدرسة تجارية فى ١٧٧٢ ، وأكاديمية للمناجم فى ١٧٧٣ . ووسعت أكاديمية العلوم القديمة وزودت بالمال الوافر . وفى ١٧٨٣ ، بناء على إلحاح الأميرة داشكوفا ، وتحت رآستها ، أنشئت أكاديمية روسية لتحسين اللغة ، وتشجيع الأدب ، ودراسة التاريخ ، فأصدرت المترجات ، ونشرت الدوريات ، وصنفت قاموساً صدر فى ستة أجزاء بين ١٧٨٩ ، ١٧٩٩ .

وقد روعت كاترين نسبة الوفيات العالية فى روسيا ، وبدائية وسائل

حفظ الصحة العامة والنظافة الشخصية ، فاستقدمت الأطباء الأجانب ، وأسست كلية للصيدلة فى موسكو ، ودبرت المال لإنتاج الأدوات الجراحية . وفتحت فى موسكو ثلاثة مستشفيات جديدة وملجأ ومستشفى للأمراض العقلية وفى سانت بطرسبرج ثلاثة مستشفيات جديدة بما فيها « مستشفى سرى» للأمراض التناسلية (٥٧) . وفى ١٧٦٨ أدخلت لروسيا التطعيم ضد الجدرى ، وهدأت مخاوف الشعب بوضعها شخصها وهى فى الأربعين ليجرى عليها العلاج كثانى شخص فى روسيا ، وما لبثت كاترين أن كتبت لفولتير تقول «إن الذين طعموا هنا فى شهر واحد أكثر ممن طعموا بفيينا فى سنة » (٥٨) . (وفى ١٧٧٢ دخل التطعيم نابلى لأول مرة ، وفى ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر بالجدرى غير مطعم) .

٥ — الاقتصادية

من القوانين الأساسية التى أصدرتها كاترين قانون (١٧٦٥) قضى بأجراء مسح لجميع أراضى روسيا . وقد قوبلت هذه العملية بمقاومة شديدة من الملاك . وحين اختتم العهد كانت قد شملت عشرين إقليماً من خمسين ، ولكنها لم تستكمل حتى منتصف القرن التاسع عشر . وبينما كان المسح جارياً أدركت الامبراطورة فى وضوح مثبط للهمم كيف يعتمد اقتصاد روسيا على تنظيم الزراعة بواسطة نظام قوامه السادة والأقنان . وفى ١٧٦٦ أعلنت عن جائزة من ألف دوقاتية تمنح لافضل مقال عن تحرير الأقنان . وفاز بالجائزة بياردى دلابيه إكس لا شابل ، الذى رأى أن « العالم كله يطالب الملوك بتحرير الفلاحين» وتنبأ بأن الإنتاج الزراعى سيزداد زيادة هائلة « إذا ملك الفلاحون الأرض التى يزرعونها » (٥٩) . غير أن الملاك الأشراف حذروا كاترين من أن الفلاح سيهجر القرى إلى المدن ان لم يربط بالأرض وبسيده الإقطاعى ، أوسيهاجر من قرية إلى قرية فى لامبالاة أكثر ، فيخلق بذلك الفوضى ، ويمزق الاقتصاد ، ويعوق تجنيد أبناء الفلاحين الأشداء للجيش أو الأسطول .

ومضت القيصرة الحائرة فى مشروعها على حذر ، فالنبلاء يملكون المال

والسلاح اللذين يستطيعان الإطاحة بها ، وهم فى هذه المحاولة يستطيعون الاعتماد على تأييد الأكليروس الذين ساءهم فقدان أراضيهم وأقنانهم . وخافت من الخلل الذى قد تحدثه هجرة جماعية من الفلاحين المحررين إلى مدن غير مستعدة لإسكانهم أو إطعامهم أو تشغيلهم . على أنها قامت بخطوات نحو عتق الأقنان . فجددت مرسوم بطرس الثالث الذى حرم شراء الأقنان لتشغيلهم فى المصانع ، وفرضت على أرباب العمل أن يدفعوا أجور عمالهم نقداً وأن يراعوا ظروف العمل التى يقررها موظفوا المدينة أو « المير »[٦٠] ؛ ولكن حتى مع هذا ظل وضع الأقنان الصناعيين وضع العبودية القاسية المذهلة . وحرمت كاترين القنية فى المدن التى أنشأتها [٦١] ، ثم عتقت الأقنان المشتغلين على الأراضى التى أخذت من الكنيسة نظير دفعهم رسماً صغيراً [٦٢] ، على أن هذه التحسينات طغت عليها منحها المتكررة من أراضى الدولة لمن أخلصوا لها الخدمة كالقواد أو رجال الدولة أو العشاق ، وعلى هذا النحو أصبح أكثر من ٨٠٠,٠٠٠ من الفلاحين الأحرار أقناناً . وارتفعت نسبة الأقنان فى سكان الريف من ٥٢,٤٪ فى بداية العهد إلى ٥٥,٥٪ فى ختامه ، وزاد عدد الأقنان من ٧,٦٧٠٠,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠,٠٠٠[٦٣] . ثم أكملت كاترين استسلامها للنبلاء بـ «خطابات الامتياز للنبلاء» (١٧٨٥) : فقد أكدت فيها من جديد إعفاءهم من ضريبة الرؤوس ، والعقوبة البدنية ، والخدمة العسكرية ، وحقهم فى ألا يحاكموا إلا أمام أمرائهم ، وفى استخراج المعادن من أرضهم ، وفى امتلاك المشروعات الصناعية ، وفى السفر إلى خارج البلاد كما يشاءون . وقد حظرت على الملاك أن يكونوا طغاة أو قساة ، ولكنها أبطلت مفعول هذا الحظر بمنع الأقنان من أن يرسلوا إليها شكاواهم .

ولجأ الفلاحون بعد أن أخمد صوتهم على هذا النحو إلى الفرار أو التمرد أو الاغتيال . وقد قتل ثلاثون من السادة الإقطاعيين بأيدى فلاحيهم بين عامى ١٧٦٠ و ١٧٦٩ ؛ واندلعت خمسون فتنة بينهم فيما بين عامى ١٧٦٢ و ١٧٧٣ [٦٤] . وكانت هذه الفتن تخمد سريعاً حتى قام زعيم ثائر عرف كيف يحول السخط نظاماً ، وأسلحة الفلاحين انتصارات . ذلك أن إمليان بوجاشيف كان قوزاقياً من إقليم الدون ، حارب فى صفوف الروس ضد

البروسيين والأتراك ، ثم طلب تسريحه ، ولكن طلبه رفض ، ففر من الجيش ، وقبض عليه ، فعاود الفرار ، وارتضى حياة طريد القانون . وفى نوفمبر ١٧٧٢ ، بعد أن شجعه الرهبان الساخطون ، أعلن أنه بطرس الثالث الناجى بأعجوبة من كل المحاولات التى بذلت لقتله . وجذب الفلاحين وقطاع الطرق للانضواء تحت لوائه ، حتى أحس بأن ساعده اشتد ، فهجر بعصيان الغاصبة كاترين (سبتمبر ١٧٧٣) . وتوافد عليه قوزاق الأورال والفولجا والدون ، وآلاف الرجال الذين حكم عليهم بالسخرة فى مناجم الأورال ومصاهر المعادن ، وفئات «المؤمنين القدامى» التواقين إلى الإطاحة بالكنيسة الأرثوذكسية ، وقبائل التتار والقرغيز والبشكير المحلية الذين لم ينسوا اكراه الزبانية لهم على الدخول فى المسيحية ، ثم أقنان آبقون من سادتهم ، ومساجين هربوا من السجون : هؤلاء تقاطروا على لواء بوجاشيف حتى اجتمع له عشرون ألف رجل تحت إمرته . فزحفوا ظافرين من مدينة إلى مدينة ، وهزموا القوات التى سيرها ضدهم الحكام المحليون ، واستولوا على مدن هامة مثل قازان وساراتوف ، ثم صادروا المؤن ، وقتلوا الملاك ، وأكرهوا الفلاحين المعارضين على الانضمام إليهم ، وزحفوا مصعدين فى حوض الفولجا صوب موسكو . وأعلن بوجاشيف أنه لن يرتقى هو العرش هناك ، بل سيبوئه الغراندوق بولس . ولكنه — بمزاح رهيب على الأرجح — لقب زوجته الفلاحة بالملكة ، وكبار ضابطه بأسماء ضباط كاترين : الكونت أورلوف ، والكونت بانين ، والكونت فورونشوف .

وسخرت كاترين أول الأمر من هذا «المركيز بوجاشيف» ، ولكنها حين علمت أن العصاة استولوا على قازان ، جردت قوة كبيرة تحت إمرة الجنرال بيوتر ايفانوفتش بانين لإخماد الفتنة . وخف النبلاء لنجدتها بعد أن أدركوا أن الخطر يتهدد هيكل الإقطاع بأسره ، وسرعان ما انضم الجنرال الكسندر فاسيليفتش سوفوروف إلى بانين بفرسانه الذين أصبحوا أحراراً فى التحرك بعد عقد الصلح مع الأتراك ، وأوقع الخلل فى صفوف العصاة التقاؤهم بجنود مدربين تحت قيادة ضباطهم الأمبراطوريين ، فتقهقهروا من موقع إلى آخر ، واستنفدوا مؤنهم ، وبدأوا يتضورون جوعاً . وأعتقل بعض

زعمائهم الطامعين فى الخبز والعفو – بوجاشيف وسلموه للمنتصرين . فجىء به إلى موسكو فى قفص من حديد ، وحوكم فى الكرملين ، وقطع رأسه ومزق جسده أرباعاً ، وعرض رأسه على عمود فى أربعة أقسام من المدينة ليكون « عبرة لغيره » ثم أعدم خمسة من ضباطه ، وجلد غيرهم على هذا الجانب من الموت ، ونفوا إلى سيبيريا . وكان من نتائج الفتنة دعم التحالف بين الامبراطورة والنبلاء .

على أنها تحدت النبلاء شيئاً ما بتأييدها لنمو طبقة قوامها رجال المال والأعمال . ذلك أن اقتناعها ببراهين الفزيوقراطيين دعاها لإقرار حرية التجارة فى المحاصيل الزراعية (١٧٦٢) ، ثم فى كل شىء ، وأنهت (١٧٣٥) الاحتكارات المعتمدة من الحكومة بإصدارها قراراً يبيح لكل إنسان حرية الاضطلاع بأى مشروع صناعى وتنفيذه . وقد أخر نمو الطبقة الوسطى غلبة الصناعة التى تقوم فى الأكواخ والعزب ، ومشاركة النبلاء فى المغامرات الصناعية والتجارية . وزادت المصانع من ٩٨٤ إلى ٣,١٦١ فى عهد كاترين ، ولكن هذه كان أكثرها ورشاً صغيرة لاتستخدم من الصناع إلا القليلين . وزاد سكان المدن من ٣٢٨,٠٠٠ فى عام ١٧٢٤ إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ فى عام ١٧٩٦ — ومع ذلك لم يزل أقل من أربعة فى المائة من مجموع السكان [٦٥] .

ولم تأل الامبراطورة الكثيرة الشراغل جهداً فى النهوض بالتجارة دون أن تلقى إلا التأييد الضنين من حاشيتها النبيلة . لقد كانت الطرق غاية فى السوء ، ولكن الأنهار كثيرة ، وقد ربطتها القنوات فى شبكة مفيدة . وفى عهد كاترين بدىء شق قناة بين الفولجا والنيفا لربط البلطيق ببحر قزوين ، وقد خططت لقناة أخرى تصل بحر قزوين بالبحر الأسود [٦٦] . وظفرت بالتفاوض أو بالحرب بحرية مرور التجارة الروسية دون معوق فى البحر الأسود ومنه إلى البحر المتوسط . ثم حثت دبلوماسييها على عقد المعاهدات التجارية مع انجلتره (١٧٦٦) وبولنده (١٧٧٥) والدنمرك (١٧٨٢) وتركيا (١٧٨٣) والنمسا (١٧٨٥) وفرنسا (١٧٨٧) . ونمت التجارة الخارجية من ٢١,٠٠٠,٠٠٠ روبل عام ١٧٦٢ إلى ٩٦,٠٠٠,٠٠٠ عام ١٧٩٦[٦٧] .

فى هذه الأرقام يجب أن نحسب حساب تضخم العملة الذى تدفع به الحكومات نفقات حروبها . وقد اقترضت كاترين من داخل البلاد وخارجها ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل لتمويل حملاتها على تركيا ، وأصدرت نقوداً ورقية تجاوزت كثيراً أى غطاء من الذهب . وفقد الروبل أثناء حكمها ٣٢٪ من قيمته. وفى هذه الفترة ذاتها ، ورغم زيادة الإيرادات من ٠٠٠,٠٠٠,٢١٥[٦٨]. وأكثر هذا الدين نجم عن الحروب التى كسرت شوكة تركيا ، ومدت حدود روسيا إلى البحر الأسود .

٦ — المحاربة

بدأت كاترين بأهداف سلمية كما يبدأ كل فيلسوف : فأعلنت أن مشاكل الامبراطورية الداخلية ستستغرق اهتمامها ، وأنها ستتجنب كل صراع مع الدول الأجنبية إذا لم يتحرش بها أحد . فثبتت صلح بطرس الثالث مع بروسيا ، وأنهت حربه مع الدنمرك . وفى ١٧٦٢ رفضت الإغراء بفتح كورلاند أو التدخل فى بولنده ، وقالت «عندى ما يكفى من البشر الذين على إسعادهم ، ولن يزيدنى رفاهية ذلك الركن الصغير من أركان الأرض»[٦٩]. ثم خفضت الجيش ، وأهملت ترسانات السلاح ، وسعت إلى التفاوض مع تركيا لإبرام معاهدة للصلح الدائم .

ولكنها كانت كلما درست الخريطة وجدت عيباً فى حدود روسيا . ففى الشرق كانت الامبراطورية محمية جيداً بجبال الأورال وبحر قزوين وضعف الصين . وفى الشمال تحميها الثلوج . أما فى الغرب فالسويد مستولية على جزء من فنلنده ، قد يتوقع منه الهجوم فى أى لحظة يشنه شعب مافتئ يسوؤه ما غصبه منه بطرس الأكبر ؛ وكانت بولنده وبروسيا تسدان الطريق إلى «أوروبا» والاصطباغ بحضارتها . أما فى الجنوب فقد سد التتار ، الخاضعون لخان مسلم يسيطر عليه الترك ، الطريق إلى البحر الأسود . فأى إجهاضات للتاريخ أعطت روسيا جغرافية كهذه ، وحدوداً شاذة كهذه ؟ وهمس فى أذنها القائد القديم مونيش ، والقائد الجديد جريجورى أورلوف ، بأن الوضع يكون معقولا أكثر لو كان البحر الأسود هو الحد الجنوبى ، وبأنه يكون

جميلا رائعاً لو استطاعت روسيا الاستيلاء على الآستانه والتسلط على البوسفور. أما نيكيتا بانين ، وزير خارجيتها من ١٧٦٣ إلى ١٧٨٠ ، فقد فكر فى طرق لإعلاء نفوذ روسيا فى بولنده ومنع هذا البلد الأعزل من الوقوع فى براثن بروسيا .

وتأثرت كاترين بحججهم ، وأخذت تتحرق شوقاً لأن تبوئ وطنها الثانى مكاناً فى السياسة يتفق ومكانها على الخريطة . فلم ينقض عام على تقلدها السلطة حتى انطلقت إلى سياسة خارجية لاترضى فى طموحها بأقل من جعل روسيا الدولة المحورية على القارة . كتبت إلى الكونت كيزرلنج ، سفيرها فى وارسو تقول «أقول لك ان هدفى أن أرتبط بروابط الصداقة مع جميع الدول ، فى تحالف مسلح ، حتى أستطيع على الدوام أن أقف فى صف المظلوم ، وبهذا أصبح الحكم لأوربا (٧٠) .

وأتت عليها فترات كانت فيها قاب قوسين من هدفها هذا . وآية ذلك أنها سحبت روسيا من حرب السنين السبع فإنها فى الوقع حسمت ذلك الصراع الذى شمل القارة كلها لصالح فردريك . وفى عام ١٧٦٤ أبرمت مع فردريك معاهدة كانت نذيراً بتقطيع أوصال بولنده . ثم استغلت حاجة الدنمرك إلى تأييد روسيا لها ضد السويد لتهيمن على سياسة الدنمركيين الخارجية . وفى عام ١٧٧٩ كانت حكماً بين فردريك ويوزف فى معاهدة تشن ، وأصبحت حامية الدستور الأمبراطورى الألمانى . وفى ١٧٨٠ ربطت الدنمرك والسويد وبروسيا والنمسا والبرتغال بالروسيا فى «عصبة حياد مسلح» لحماية السفن المحايدة فى الحرب الدائرة بين انجلتره ومستعمراتها الأمريكية ، فتقرر ألا تتعرض السفن المحايدة للهجوم من أى من الطرفين المحاربين ما لم تحمل ذخائر حربية ؛ وأن الحصار لكى يكون شرعياً ولكى يحترم يجب أن يكون حقيقياً لا مجرد إعلان على الورق .

وقبل أن قلبت الأحلاف ذلك القلب الثانى بزمن طويل بدأ الصراع الطاحن على التسلط على البحر الأسود . وقد نشأت أول حروب كاترين

التركية نتيجة ثانوية غريبة لغزوها لبولنده . ذلك أنها كانت قد أرسلت هناك جيشاً لإعانة غير الكاثوليك فى كفاحهم لنيل حقوق متساوية مع الأغلبية الكاثوليكية ؛ وحمل الكاثوليك سفيراً بابوياً على أن يفهم تركيا أن فرصتها حانت لتهاجم روسيا ؛ وأيدت فرنسا الاقتراح ، وحرضت السويد وخان القرم على الانضمام للهجوم [٧١] . وحزن فولتير على امبراطورته التى أحدق بها الخطر . وكتب إليها يقول «إن تجنيد سفير بابوى الأتراك فى حربه الصليبية عليك لموضوع جديد برواية هزلية إيطالية عنوانها « مصطفى الحليف الفاضل للبابا ! » ، فالموقف كاد يغريه بأن يكون مسيحياً . لا بل انه فى خطاب أرسله إلى كاترين فى نوفمبر ١٧٦٨ اقترح عليها حرباً مقدسة على الكفار .

« إنك تكرهين البولنديين على أن يكونوا متسامحين سعداء على الرغم من سفير البابا ، ويبدو أنك تاقين من المسلمين عنفا . فإذا شنوا عليك الحرب فربما تبلورت فكرة بطرس الأكبر فى جعل الآستانة عاصمة للأمبراطورية الروسية . . . وفى ظنى أنه لو قدر على الأتراك أن يطردوا من أوربا يوماً فسيكون هذا على أيدى الروس . . . فليس يكفى إذلالهم ؛ بل يجب ردهم إلى موطنهم إلى الأبد [٧٢] .

ورفضت السويد أن تشارك فى الهجوم على روسيا ، ولكن تتار القرم اجتاحوا مستعمرة «الصرب الجديدة» الروسية ، الحديثة ، (يناير ١٧٦٩) . وزحف جيش تركى عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل صوب بودوليا لينضم إلى جيش الاتحاد البولندى . ورفضت كاترين أن تسحب قواتها من بولنده . وجردت ثلاثين ألف مقاتل يقودهم ألكسندر جولتسين وبيوتر روميانتسيف لهزيمة التتار ورد الترك ؛ فلما قيل لها إن عدد هؤلاء الترك هائل أجابت « إن الرومان لم يكونوا يعبأون بكثرة أعدائهم ، إنما كانوا يسألون ، أين هم ؟ » [٧٣] . ورد التتار على أعقابهم ، واستولى الروس على آزوف وتاجانروج شمالى الدون ؛ وهزم سبعة عشر ألف روسى ١٥٠,٠٠٠ تركى فى كاجول (١٧٧٠) وتقدم روميانتسيف حتى بلغ بوخارست ، حيث استقبله السكان الأرثوذكس

بمظاهر الفرح والتهليل . وفى ١٧٧١ اجتاح فاسيلى ميخايلوفتش دوبلجوروكى القوم وقضى على الحكم التركى هناك .

وأكثر حتى من هذا إثارة للعجب والأعجاب جرأة الكسيى أورلف ، الذى قاد أسطولا روسياً مخر به عباب المانش ، والأطلنطى ، والبحر المتوسط ، وهزم الأسطول التركى تجاه خيوس ، وأباده فى خزمى (يوليو ١٧٧٠) ؛ غير أن الضرر الذى لحق بمراكبه كان فادحاً فلم يتح له مواصلة انتصاراته .

على أن أحداثاً أخرى لم تبعث مثل هذه البهجة فى فؤاد كاترين . من ذلك أن طاعوناً تفشى فى الجيش الروسى على طول الدانوب ثم ارتد إلى موسكو حيث كان يحصد ألف روح كل يوم فى صيف ١٧٧٠. وكانت عليمة بأن فردريك ينظر باستنكار إلى امتداد ملكها وسلطانها ؛ وأن يوزف الثانى يزعجه تقدم روسيا إلى حدود النمسا فى البلقان ؛ وأن فرنسا لاتترك حجراً لاتقلبه دعماً لحليفتها تركيا ؛ وأن انجلتره ستقاوم بشدة تسلط روسيا على البوسفور ؛ وان السويد إنما تتربص بها الدوائر . فدعت كاترين الترك إلى مؤتمر ، فحضروا ، ولكنهم حرنوا لأصرارها على استقلال القرم ؛ وفى ١٧٧٣ استؤنفت الحرب .

وفى يناير ١٧٧٤ مات مصطفى الثالث ؛ وقرر خلفه أن تركيا قد بلغت من الفوضى والإرهاق حداً يهدد وجودها كدولة أوربية . فاعترفت تركيا بمقتضى صلح كجوق قينارجى (فى رومانيا) ٢١ يوليو ١٧٧٤ باستقلال القرم (التى ظلت تحت حكم التتار) ، ونزلت لروسيا عن آزوف ، وكرش ، وينيكالى ، وكلبورون (على مصب دنيبر) . وفتحت البحر الأسود والبوسفور والدردنيل للمراكب الروسية ، ودفعت لروسيا تعويض حرب قدره ٤,٥٠٠,٠٠٠ روبل ، ومنحت العفو للمسيحيين الذين شاركوا فى ثورات على حكامهم الأتراك ، واعترفت بحق روسيا فى حماية المسيحيين فى تركيا . وكان هـذا فى جملته من أميز المعاهدات التى أبرمتها روسيا فى تاريخها (٧٤) . فقد غدت روسيا الآن من دول البحر الأسود ؛ وتركت

القرم وغيرها من أقاليم التتار فى جنوبى روسيا مفتوحة أمام الغزو الروسى المبكر ، واستطاعت الامبراطورة الشاكة أن تظهر بمظهر المدافعة عن الإيمــان . وراحت كاترين — بعد أن أسكرها النصر — تحلم بتحرير اليونان — أعنى بفتحها ، وبتتويج حفيدها قسطنطين فى الآستانة رأسا لأمبراطورية جديدة .وأبهجت فؤاد فولتير الشائخ برؤى الألعاب الأولمبية وقد ردت إلى مجدها التليد ؛ فكتبت إليه تقول «سوف تجعل ممثلين يونانيين يمثلون التراجيديات اليونانية القديمة فى مسرح (ديونيسيوس) بأثينا » .فلما تذكرت الجيوش والخزانة التى استنفدت أضافت : «على أن أمارس الاعتدال ، وأقول إن السلم خير من أروع حروب الدنيا »[٧٥] .

وأخذت الآن تحل محل فردريك كأشهر ملوك أوربا ، وتعجب الناس جميعاً من سعيها الحثيث لتحقيق أهدافها ، ومن الامتداد المرعب لسلطانها ، وسافر يوزف الثانى امبراطور النمسا ، الذى طالما انحنى لعبقرية فردريك ، إلى موجيليف ، ومنها أكمل الرحلة الطويلة إلى سانت بطرسبرج ليلتقى بالقيصرة ويسعى إلى التحالف معها . وفى مايو ١٧٨١ أبرمت مع يوزف ميثاقاً للعمل الموحد فى بولنده وضد تركيا .

وكان بوتمكين فى غضون هذا يبنى لنفسه الشهرة فى الجنوب . ذلك أنه نظم وسلح وأطعم جيشاً جديداً عدته ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وبنى أسطولا للبحر الأسود ، له موانئ فى سباستبول وأودسا وترسانة فى خرسون ، واستعمر أقطار روسيا الجنوبية ذات المستوطنات الضئيلة ، وأسس المدن والقرى ، وأقام المصانع ، وزود المستعمرين بالماشية والآلات والبزار — وكل هذا ليوفر قواعد للتموين فى حملة حربية تضيف القرم إلى تاج كاترين ، وربما ليظفر بتاج لنفسه . وتشاجر تتار القرم وانقسموا ، فألان بوتمكين زعماءهم بالرشا ، فلما غزا شبه الجزيرة فى النهاية (ديسمبر ١٧٨٢) لم يلق من المقاومة إلا أقلها ؛ وفى ٨ أبريل ١٧٨٣ ، ورغم احتياجات تركيا عديمة الجدوى ، ابتلعت مملكة الروس القرم . ورقى بوتمكين مشيراً ، ورئيساً للكلية الحربية ، وأميراً لطورس ، وحاكماً عاماً للقرم . ونفحته الأمبراطورة فوق هذا كله

بمكافأة من ١٠٠,٠٠٠ روبل ، أنفقها بوتمكين على الحليلات والشراب والطعام .

ورأت كاترين هي أيضاً ان الوقت قد حان لشيء من الاسترخاء . فجمعت بين اللهو والعمل بترتيبها «رحلة ملكية» فخمة على اليابس والماء تفتش خلالها على فتوحها وتترك انطباعاً قوياً فى نفوس هذه الأقاليم — وأوربا كلها — بثراء بلاطها وأبهته . وفى ٢ يناير ١٧٨٧ ، غادرت القصر الشتوى مدثرة بفرائها وشرعت فى رحلتها الطويلة فى « برلينيه» أى مركبة مقفلة من الكبر بحيث تحتوى — فضلا عن شخصها الذى اتسعت أبعاده الآن — عشيقها مامونوف صاحب الحظوة آنئذ ، وكبيرة وصيفاتها ، وكلباً صغيراً ، ومكتبة صغيرة . وتبعتها أربع عشرة عربة و ١٧٠ مركبة جليد ، تحمل سفراء النمسا ، وبريطانيا ، وفرنسا — كوبنتزل ، وفتزهربرت ، والكونت سيجور — مضافاً إليهم الأمير دلين وجيش من الموظفين والبطانة والموسيقيين والخدم . وكان بوتمكين قد سبقها بأيام ليعد لها الطريق ، وليضيئه بمئات المشاعل ، وليرتب لكل ليلة وجباتها وأماكن لنوم الجميع . وكان الموكب إذا مر بمدينة كبرى استراح يوماً أو يومين ريثما تلتقى القيصرة بوجوه المدينة ، وتستعرض أحوالها ، وتوجه أسئلتها ، وتوزع اللوم أو المكافأة . وبدت كل مدينة على الطريق فى أحسن مظهر عملا بتحذيرات بوتمكين وتعليماته ، فاغتسلت وتزينت كما لم تفعل قط من قبل ، سعيدة ولو ليوم واحد فى حياتها .

وفى كييف أشرف بوتمكين على نقل البلاط المتنقل إلى سبع وثمانين سفينة كان قد أعدها وزينها . وعليها أبحر الركب الامبراطورى هابطاً الدنيبر . وعلى طول النهر شاهدت كاترين «القرى البوتمكينية» التى هيأها أمير طورس الأريب وجلاها ليدخل السرور إلى قلبها ، وربما ليترك فى نفوس الدبلوماسيين انطباعاً قوياً عن ثراء روسيا . وبعض هذا الثراء ارتجله بوتمكين ، وبعضه كان حقيقياً . « أما أنه شيد القرى الكاذبة على الضفتين ، ودرب الفلاحين ليخلقوا وهماً بما هم عليه من تقدم ، فذلك من شطحات خيال دبلوماسى سكسونى » [٧٦] . فقد قام الأمير دلين بعدة رحلات

على الشاطئ ليستكشف ما وراء الواجهة ، فقال إنه رغم أن بوتمكين لجأ إلى بعض الحيلة ، فإنه (أى دلين) راعته «المنشآت الفخمة وهى بعد فى مهدها ، والمصانع النامية ، والقرى ذات الشوارع المنتظمة التى تحفها الأشجار» (٧٧) . ولعل كاترين نفسها لم تنخدع ، ولكنها ربما استنتجت كما استنتج سيجور ، أنه حتى لو كان نصف ثراء تلك المدن ونظافتها مظهراً زائلا ، فإن حقيقة وجود سباستبول فعلا — المدينة والقلاع والميناء ، وكلها بنى على شواطئ القرم فى عامين — هذه الحقيقة كفت لجعل بوتمكين جديراً بالثناء . وقد وصفه الأمير دلين الذى كان يعرف تقريباً كل إنسان ذى شأن فى أوربا بأنه «أعجب رجل التقيت به فى حياتى» (٧٨) .

وفى كانيوف جاء ستانسلاس بونياتوفسكى ملك بولنده ، ليقدم فروض الولاء للمرأة التى منحته حبها وعرشه . وفى موقع أبعد على الدنيبر الأدنى ، عند كايداكى ، انضم يوزف الثانى إلى الموكب الذى اتخذ طريقه من ثم برا إلى خرسون فالقرم . هنالك داعبت الأمبراطورة ، والأمبراطور ، والحاكم العام ، أحلامهم بطرد الترك من أوربا ، فحلمت كاترين بالاستيلاء على الآستانة ، ويوزف بابتلاع البلقان ، وبوتمكين بتولى عرش داشيا (رومانيا) . ونصحت انجلتره وبروسيا السلطان عبد الحميد بأن يوجه ضربته إلى الروس فى غفلة منهم قبل أن يستكملوا استعداداتهم الحربية (٧٩) . وكان فى وقاحة السفير الروسى فى الآستانة ما هيأ لتركيا حافزاً إضافياً ، فحبسه السلطان ، وأعلن الجهاد ، وطالب برد القرم ثمناً للصلح . وفى أغسطس ١٧٨٧ عبر الجيش التركى الرئيسى الدانوب وزحف على أوكرانيا .

لقد تعجل بوتمكين فى الإعلان عن فرحه ؛ ذلك أن روسيا لم تكن مستعدة بعد للامتحان النهائى ؛ لذلك نصح الامبراطورة بالتخلى عن القرم . ولكنها وبخته على جبنه الذى لم تعهده فيه ، ثم أمرته هو وسوفوروف وروميانتسيف أن يعدوا كل القوات المتاحة لهم وينطلقوا للقاء الغزاة ؛ أما هى فقد انسحبت إلى سانت بطرسبرج . ودحر سوفروف الترك فى كلبورون ، وحاصر بوتمكين أوشاكوف المشرفة على منافذ دنيبر وبوج . وبينما كان الجهاد والحرب

الصليبية يواجه أحدهما الآخر فى جنوبى روسيا ، قررت السويد أن الفرصة واتتها أخيراً لاسترداد ما فقدت من أقاليم . فجدد جوستاف الثالث حلفاً قديماً مع الترك بعد أن شجعته انجلتره وبروسيا [٨١] ، وطالب كاترين برد فنلنده وكاريليا للسويد ، والقرم لتركيا . وقد نفصل الحديث عن هذه الحرب فى موضع لاحق ، أما الآن فحسبنا أن نقول إن أسطولا سويدياً أنزل بالروس فى البلطيق هزيمة فاصلة فى ٩ يوليو ١٧٩٩ ، وكان قصف المدفعية السويدية يسمع من القصر الشتوى ؛ وفكرت كاترين فى إخلاء عاصمتها . على أن مفوضيها ما لبثوا أن اقنعوا السويد بأن تبرم الصلح (١٥ أغسطس ١٧٩٠) .

وغدت كاترين الآن حرة فى تركيز قوات ضد الترك ، وانضمت النمسا إلى روسيا فى الحرب . وأنهى بوتمكين حصار أوشاكوف بأن أمر رجاله بالهجوم مهما كان الثمن . وكلف النصر الروس ثمانية آلاف قتيل ، وختمت المعركة الضارية بمذبحة أتت على الضحايا دون تمييز (١٧ ديسمبر ١٧٨٨) وتقدم بوتمكين ليستولى على بندر ، واستولى النمساويون على بلغراد ، ودحر سوفروف الأتراك فى رمنيك (٢٢ سبتمبر ١٧٨٩) . وبدا أن تركيا مقضى عليها بالفناء .

على أن الدول الغربية أحست أن الموقف يدعو إلى العمل الموحد ضد كاترين أن أريد ألا يقع البوسفور — ذلك المعقل الاستراتيجى — فى يدها فتصبح روسيا السيد المتسلط على أوربا . وبعد موت فردريك الأكبر (١٧٨٩) رأى خليفته فردريك وليم الثانى فى فزع تحرك روسيا صوب الآستانة ، وتحرك النمسا فى البلقان ؛ وبين روسيا والنمسا وهما بهذه القوة الجديدة ستبيت بروسيا تحت رحمتهما . وعليه فى ٣١ يناير ١٧٩٠ ربط حكومته مع الباب العالى فى ميثاق ألزمه بأن يعلن الحرب على روسيا والنمسا جميعاً فى الربيع ، وبألا يضع السلاح إلا إذا ردت لتركيا كل أقاليمها التى خسرتها .

وبدا أن المد السياسى يتحول ضد كاترين . فقد أضعف قوة يوزف الثانى نشوب الثورة فى الأراضى الواطئة النمساوية وانتشار الفوضى فى المجر ؛ ثم مات فى ٢٠ فبراير ١٧٩٠ ، وأبرم خلفه هدنة مع الأتراك . وحثت

انجلتره وبروسيا كاترين مرة أخرى على عقد الصلح على أساس الاحتفاظ بكل الأراضى التى تم الاستيلاء عليها فى الحرب ؛ ولكنها أبت ؛ ذلك أن استيلاءها على أوشاكوف كان قد فتح الطريق أمام روسيا إلى البحر الأسود ، فهى لاتريد أن تتخلى عن هذا الكسب الحيوى . ثم إن قوادها كانوا يسيرون من نصر إلى نصر ، وتوجوا انتصاراتهم باستيلاء سوفوروف وبوتمكين على مدينة اسماعيل (٢٢ ديسمبر ١٧٩٠) ؛ وقد خسر الروس فى سبيل الاستيلاء على هذا المعقل التركى الواقع على الدانوب عشرة آلاف مقاتل ، وخسر الترك ثلاثين ألفاً . وبعد هذه الوليمة الدموية انتكس بوتمكين الذى انهكته الحرب إلى ضرب من الكسل المترف والسفاح المخزمى مع بنات أخيه ؛ وفى ١٥ أكتوبر ١٧٩١ مات على طريق قريب من ياسى . وأغمى على كاترين ثلاث مرات فى اليوم الذى سمعت فيه بنبأ موته .

وفى مارس ١٧٩١ اقترح وليم بت الابن على البرلمان إرسال إنذار نهائى إلى روسيا يطالبها بأن ترد لتركيا كل الأقاليم التى استولت عليها فى الحرب الراهنة ، واقترح إرسال أسطول بريطانى إلى البلطيق نذيراً بالحرب . ولم تجب كاترين ، أما البرلمان فقد ثنى بت عن إنفاذ مشروعه حين سمع التجار البريطانيون يتحسرون على ضياع تجارتهم مع روسيا . وأما تركيا فقد كفت عن الصراع بعد أن أنهكتها الحرب ، فوقعت فى جاسى (٩ يناير ١٧٩٢) معاهدة ثبتت سيطرة روسيا على القرم وحوضى دنيبر وبوج . وهكذا لم تصل كاترين إلى الآستانة ، ولكنها بلغت ذروة حياتها كأقوى حاكم فى أوربا ، وألمع امرأة فى قرنها .

٧ — المرأة

أكانت امرأة ، أم هولة ؟ رأينا أنها فى مستهل حكمها كانت فاتنة الجسد ، وفى عام ١٧٨٠ كانت قد سمنت ، ولكن هذه السمنة لم تفعل بها شيئاً إلا إضافة الثقل إلى العظمة . وقد وصفها الأمير داين (الذى كان من أوائل من لقبوها «الكبرى» (٨٤) وصفاً مهذباً فقال :

«كانت فى ١٧٨٠ لاتزال حسنة الصورة ، وفى استطاعة الناظر إليها ن يستنتج أنها كانت فيما مضى رائعة الجمال أكثر منها وسيمة . ولم يكن بالمرء حاجة إلى فراسة ليقرأ على جبينها ، كما يقرأ فى كتاب ، العبقرية والعدالة والشجاعة والعمق ورباطة الجأش ولطف الطبع والهدوء والتصميم . وقد اكتسبت صدرها الجميل على حساب خصرها الذى كان يوماً ما شديد النحول ؛ ولكن الناس عادة يسمنون فى روسيا . . . ولم يلحظ المرء قط أنها قصيرة القامة» (٨٢) .

وقد صورها كاستيرا فى كتابته عنها عقب موتها بأنها كانت ترتدى ثوباً أخضر فى احتشام . «كان شعرها المبدر ببودرة خفيفة ، يطفو على كتفيها ، وتعلوه قلنسوة صغيرة مرصعة بالماس . وفى سنيها الأخيرة ألفت أن تستعمل قدراً كبيراً من الروج ، لأنها كانت لاتزال تطمع فى ألا تسمح لآثار الزمن أن تبدو على وجهها ، ومن المحتمل أن هذا الطموح وحده هو الذى دعاها للعيش بمنتهى الاعتدال » (٨٣) .

كانت مغرورة ، واعية فى غير مواربة بثقافتها وسلطتها . قال يوزوف الثانى لكاونتز « إن الغرورمعبودها ، وقدأفسدها الحظ وثقافتها المسرفة »(٨٤) . وفى رأى فردريك الأكبر أن كاترين لوكانت تراسل الله لادعت لنفسها مرتبة مساوية له على الأقل (٨٥) . ومع ذلك كانت تتحدث إلى ديدرو كما يتحدث « رجل إلى رجل » ، ورجت فالكونيه أن يسقط من حديثه لها عبارات المجاملة . وكانت (باستثناء بعض جرائم القتل المحتملة ومذابح الحرب المبررة) لاتقل لطفاً وأنساً عن تشارلز الثانى ملك انجلتره أو هنرى الرابع ملك فرنسا . وفى كل يوم كانت تلقى من نوافذها الخبز لآلاف الطيور التى تجيئها بانتظام لتطعم (٨٦) . وفى سنوات ملكها الأخيرة كانت تطلق العنان بين الحين والحين لنوبات غضب لاتليق بصاحبة السلطان المطلق ، ولكنها حرصت على ألا تصدر أمراً أو توقع ورقة وهى فى هذه النوبات البركانية ، وسرعان ما أخذت تشعر بالخجل من هذه التفجرات ، وأخذت

نفسها بالتحكم فى أعصابها . أما عن شجاعتها فقد نبذت أوربا كل شك فيها .

كانت شهوانية بلا مراء ولا مبالاة ، ولكن غرامياتها لاتؤذينا بشىء بقدر ما تؤذينا « حديقة ظباء » لويس الخامس عشر . وقد درجت على ما درج عليه كل حكام زمانها فأخضعت الأخلاق للسياسة ، وأخمدت المشاعر الشخصية إذا عرقلت توسيع رقعة دولتها . وحيث انعدم مثل هذا الصراع كان لها كل حنان المرأة ورقتها ؛ تحب الأطفال ، وتلاعبهم وتمرح معهم ، وتعلمهم ، ونصنع لهم اللعب . وكانت فى رحلاتها تحرص دائماً على أن يطعم السائقون والخدم كما ينبغى أن يطعموا(٨٧) . وبين الأوراق التى وجدت على منضدتها بعد موتها قبرية كتبتها لنفسها ، «كانت نغفر فى يسر ، ولاتبغض أحداً ، وإذا كانت متسامحة ، متفهمة ، ذات طبع مرح ، فقد أوتيت روحاً جمهورية وقلباً عطوفاً» (٨٨) .

ولم تكن عطوفاً على ولدها البكر ، من جهة لأن بولس أخذ منها بعد ولادته بقليل ، وقام على تربيته بانين وغيره تحت اشراف البزابت ؛ ومن جهة لأن المؤامرات التى دبرت لخلعها كانت أحياناً تنوى جعله إمبراطوراً تحت الوصاية ؛ ومن جهة لأن بولس طالما خامره الظن بأن أمه قاتلة بطرس ؛ كذلك لأن بولس « كان يطيل التفكير دائماً فى سرقة حقوقه فى خلافة أبيه الافتراضية على العرش» . ولكن كاترين تعلقت بابنى بولس الساحرين ألكسندر وقسطنطين ، وأشرفت بشخصها على تعليمهما ، وحاولت إبعادهما عن تأثير أبيهما ، وبيتت أن يرث تاجها ألكسندر لابولس (٨٩) . أمابولس الذى سعد بزواجه الثانى فكان ينظر فى اشمئزاز واضح إلى سلسلة العشاق الذين أمتعوا أمه واستنزفوا موارد الدولة .

أما من الناحية العقلية فقد بزت كاترين كل عشاقها . كانت ترضى جشعهم ، ولكن ندر أن سمحت لهم بتقرير سياستها . وقد أحسنت استيعاب الأدب الفرنسى إلى حد أتاح لها مراسلة أقطابه كما يراسل الواحد من جماعة

الفلاسفة صاحبه ؛ لا بل إن خطاباتها لفولتير كانت تنافس خطاباته لها فطنة وتمييزاً ، وتضارعها رشاقة وخفة دم . وكانت رسائلها كثيرة العدد كثرة رسائل فولتير مع أنها كتبتها خلال فواصل دسائس القصر ، والثورات الداخلية ، والدبلوماسية الحرجة ، والحروب التى غيرت خرائط الدول . وكان حديثها يجعل ديدرو دائم التنبه والاستعداد ، ويحرك مشاعر جريم إلى حد الانتشاء . «كان على المرء فى تلك اللحظات أن يرى هذا الرأس الفذ الذى هو مزاج من العبقرية والحسن حتى يكون فكرة عن النار التى تحركها ، والسهام التى تطلقها ، والهجمات التى تلاحق . . . الهجمة منها الهجمة . . . ولو كان فى طاقتى أن أدون هذه الأحاديث كلمة كلمة لأتيح للدنيا كلها قطعة نفيسه وربما فريدة فى تاريخ العقل البشرى [٩٠] . على أنه كان يشوب هذا السيل الدافق من أفكارها اضطراب وعدم استقرار سريعان ؛ فكانت تندفع بأسرع مما ينبغي فى مشاريع لم تمعن التفكير فيها ، وكانت أحياناً يهزمها إلحاح الأحداث وكثرة الواجبات . ولكن النتيجة حتى مع هذا كانت هائلة » .

ويبدو أمراً لايصدق أن تجد كاترين فى حياة اضطربت بمثل هذه الأحداث المثيرة سياسية كانت أم حربية وقتاً تكتب فيه قصائد الشعر ، والأخبار التاريخية والمذكرات ، والتمثيليات ، ونصوص الأوبرات ، ومقالات المجلات ، وحكايات الجن ، ورسالة علمية عن سيبيريا ، وتاريخاً للأباطرة الرومان ، ومذكرات مستفيضة عن «تاريخ روسيا» وفى ١٧٦٩ — ١٧٧٠ رأست تحرير مجلة هجائية دون أن تعلن عن اسمها ، وكانت هى أهم محرريها . ومن صورها الأدبية صورة وصفت منافقاً فى الدين يحضر القداس يومياً ، ويشعل الشموع أمام الصور المقدسة ، ويتمتم بالصلوات فى فترات متقطعة ، ولكنه يغش التجار ، ويفترى على الجيران ، ويضرب الخدم ، ويندد بالرذيلة الفاشية ويتحسر على الأيام الخالية الطيبة [٩١] . أما حكاية الجن التى كتبتها كاترين ، واسمها «الأمير خلور» فتحكى عن شاب خاض مغامرات خطرة بحثاً عن وردة خرافية بلا شوك ، ليكتشف فى النهاية أنه ليس هناك وردة كهذه إلا الفضيلة ؛ وقد أصبحت هذه القصة من عيون القصص فى الأدب الروسى ، وترجمت إلى لغات كثيرة ؛ وكانت

اثنتان من مسرحياتها مآسي تاريخية تقلد شكسبير ؛ ومعظمها فكاهيات بسيطة تسخر من المشعوذين والمغفلين والبخلاء والمتصوفين والمسرفين ، وتهزأ بكاليسترو ، والماسون ، والمتعصبين الدينيين . هذه التمثيليات كان يعوزها الدقه والصقل ، ولكنها أبهجت الجماهير مع أن كاترين أخفت أنها مؤلفتها ، وقد وضعت هذه العبارة على ستار المسرح الذى شيدته فى الهرمتاج « انه يهذب العادات بالضحك» ؛ وكان هذا خير تعبير عن هدف كوميدياتها . أما أفضل مسرحياتها ، واسمها « أوليج » فكانت تتابعاً رائعاً لمشاهد من تاريخ روسيا ، أشاع فيها الحيرية سبعمائة مؤد فى الرقصات والباليهات والألعاب الأولمبية . وكان جل إنتاج كاترين الأدبى يراجعه السكرتيرون ، لأنها لم تتمكن قط من الهجاء أو النحو الروسى ، ثم أنها لم تأخذ هوايتها للتأليف مأخذ الجد الشديد ؛ ولكن الأدب استمد الشجاعة من قدوتها الامبراطورية وأضفى على ملكها عظمة نهائية ومجداً تشوبه الشوائب .

٨ — الأدب

أخذت روسيا تشعر بعدم نضجها الفكرى ، فراح جيش من المؤلفين يقلدون فى تواضع النماذج الأجنبية ، أويترجمون آثاراً حظيت بالشهرة فى فرنسا أو انجلتره أو المانيا . وجادت كاترين بخمسة آلاف روبل من جيبها الخاص لتشجيع هذا السيل الدخيل ، وترجمت هى نفسها قصة « بليزير» لمارمونتيل . فلما تحمس الروس للمشروعات العريضة ترجم رحمانينوف ، أحد ملاك الأرض فى تامبوف ، أعمال فولتير ؛ وترجم فيريفكين ، رئيس كلية قازان ، إلى الروسية «موسوعة» ديدرو . وترجم غير هؤلاء شكسبير والكلاسيكيات اليونانية واللاتينية ، «وأورشليم المحررة» لتاسو . . .

أما أنجح شعراء العهد فهو جافريل رومانوفتش درزافين . ولد لأسرة رقيقة الحال فى أورنبرج الشرقية ، وكان الدم التتارى يجرى فى عروقه ، فخدم فى فوج بريوبرازنسكى عشرة أعوام ، ورأى كاترين ترقى إلى ذرى السلطة ، وشارك فى إخماد فتنة بوجاشيف ضابطاً فى الجيش ، وشق طريقه صعدا إلى عضوية مجلس الشيوخ . وحين لاحظ درزافين أن الامبراطورة

أطلقت اسم «فليتسا» على أميرة خيرة فى قصة « الأمير خلور » ، أطلق هذا الإسم فى قصيدة عاطفية شهيرة (١٧٨٢) على «الملكة الشبيهة بالآلهة لقبيلة قرغيز — قازاق» وتوسل إلى هذه السلطانة قائلا « علميني كيف أجد الوردة التى لاشوك لها . . . وكيف أعيش حياة تجمع بين اللذة والاستقامة» (٩٢) وحين ناجى الشاعر فليتسا بأن « من قلمها تفيض السعادة على كل البشر الفانين» كان يمتدح كاترين على نحو واضح . وحين لام نفسه «على النوم حتى الظهر ، وتدخين التبغ ، وشرب القهوة . . . وجعل الدنيا ترتعد لنظراتى... والانغماس فى ولائم فاخرة على مائدة تتألق بالفضة والذهب » ، عرف البلاط كله أن هذه غمزة أراد بها بوتمكين . وقد ارتفع درزافين إلى قمة النشوة فى مديح «الإمبراطورة » فليتسا ، التى «تخلق النور من الظلمات ، ولاتؤذى أحداً ، وتقضى عن الهنات ، وتدع الناس يتكلمون كما يشاءون ، وتكتب القصص الخرافية لتعلم شعبها ، وتعلم خلور الأبجدية » (أى حفيدها ألكسندر) . ويختتم الشاعر بقوله : « أتوسل إلى النبى العظيم أن يسمح لى بلمس تراب قدميك ، وأن استمتع بذلك الجدول العذب جدول ألفاظك ولحظك . أنى أتضرع إلى قوى السماء أن تنشر أجنحتها الزرقاء وتحرسك فى الخفاء . . . وأن يسطع صيت أعمالك فى الأجيال القادمة سطوع النجوم فى السماء» (٩٣) . وأكد درزافين أنه لايطمع فى جزاء على كل هذا المديح العطر ، ولكن كاترين رقته ، وما لبث أن قرب منها قربا بصره بعيوبها ؛ فكف عن كتابة المدائح . واتجه إلى عرش أسمى ونظم « قصيدة غنائية للإله » ، مهنئاً اياه تعالى على كونه «ثلاثة — فى — واحد» وعلى حفظه السماوات فى مثل هذا النظام الجميل . وكان أحياناً يهبط إلى الميتافزيقا ، ويردد برهان ديكارت على وجود الله فيقول : « أنا بالطبع موجود ، وإذن فأنت موجود» (٩٤) . وقد ظلت هذه القصيدة الغنائية نصف قرن لاينافسها شعر فى شعبيتها حتى جاء بوشكن .

وقد فاجأ دنيس إيفانوفتش فون فيزين العاصمة بكوميديتين رشيقتين هما «اللواء » و « القاصر» . ونجحت الثانية نجاحاً كاملا حتى أن بوتمكين نصح المؤلف قائلا «مت الآن ، أو لا تكتب شيئاً بعد اليوم » - بمعنى أن أى شىء يكتبه بعد هذا سيضعف من شهرته (٥٩) . وقد رفض فيزين النصيحة ورأى

تحقيق النبوءة التى احتوتها . وفى سنته الأخيرة جاب غربى أوربا وأرسل إلى وطنه بعض رسائل ممتازة احتوت إحداها نبوءة فيها رنين الإفتخار «نحن (الروس) بادئون ، أما هم (يقصد الفرنسيين) فمنتهون »[٩٦] .

وأطرف شخصية فى أدب عصر كاترين هو نيكولاى إيفانوفتش نوفيكوف . فقد تطور هذا الفتى بعد أن طرد من جامعة موسكو لكسله وتخلفه ليصبح رجلا ذا نشاط ذهنى لا ينى . فنى الخامسة والعشرين (١٧٦٩) ، فى سانت بطرسبرج ، رأس تحرير مجلة «الدبور» التى أطلق عليها هذا الإسم لخبث شيطانى ليعارض دورية سوماروكوف «النحلة النشيطة» . وقد هاجم نوفيكوف بأسلوبه المرح الفساد الذى استشرى فى الحكومة ، وهاجم الإلحاد الفولتيرى السائد فى الطبقات العليا لأنه مدمر للأخلاق والشخصية ؛ وامتدح بالمقارنة ما افترض وجوده من إيمان الروس المسلم وأخلاقهم المثالية قبل بطرس الأكبر . «وكان قدامى الحكام الروس قد توقعوا أن إدخال الفنون والعلوم سيقضى قضاء مبرماً على أثمن كنز يملكه الروس — وهو أخلاقهم »[٩٧] . هنا أيضاً كان روسو يخوض حرباً مع فولتير . وحدجت كاترين «الدبور» بنظرات متجهمة ، فاحتجبت فى ١٧٧٠ . وفى ١٧٧٥ انضم نوفيكوف إلى الماسون الأحرار ، الذين كانوا ينزعون فى روسيا إلى الغيبية ، والتقوية ، والأوهام «الروزكروشية »(*) بينما اخوانهم فى فرنسا يداعبون الثورة . وفى ١٧٧٩ انتقل إلى موسكو ، واضطلع بأعمال مطبعة الجامعة ، ونشر فى ثلاث سنوات من الكتب عدداً يفوق ما أخرجته تلك المطبعة فى أربع وعشرين سنة . وحصل بمعونة مالية من صديق له على مزيد من المطابع ، وكون داراً للنشر ، وفتح مكتبات لبيع الكتب فى جميع أرجاء روسيا ، وأذاع نشر إنجيله فى الدين والإصلاح . وأسس المدارس ، والمستشفيات ، والمستوصفات والبيوت النموذجية للعمال .

فلما أحالت الثورة الفرنسية كاترين من حاكمة مستبدة مستنيرة إلى حاكمة

(*) Rosicrucian نسبة لجمعية سرية اشتهرت فى القرنين الـ ١٧ والـ ١٨ وزعمت أنها تملك معرفة سرية للطبيعة والدين . (المترجم)

مستبدة مذعورة ، خشيت أن يكون نوفيكوف بسبيل قلب النظام القائم . فأمرت بلاتون ، مطران موسكو ، أن يفحص أفكار نوفيكوف . وكتب الحبر يقول : «أضرع إلى الله الواسع الرحمة أن يكون هناك مسيحيون مثل نوفيكوف ، لا فى القطيع الذى وكله الله وأنت إلى فحسب ، بل فى العالم بأسره» (٩٨) . ولكن الإمبراطورة التى ظلت على ريبتها رغم ذلك أمرت بسجن نوفيكوف فى قلعة شلوسلبورج (١٧٩٢) . هناك ظل حبيساً حتى ماتت كاترين . فلما أفرج عنه بولس الأول اعتكف فى ضيعته بتخفين ، وأنفق سنيه الأخيرة فى التقوى وأعمال البر .

أما ألكسندر نيكولايفتش راد شتشيف فقد لقى حظاً أشد عثاراً . أوفدته كاترين إلى جامعة ليبزج ، فتعرف إلى بعض أعمال جماعة الفلاسفة ، وأثر فيه بنوع خاص كتاب روسو «العقد الاجتماعى» كما أثر فيه فضح رينال لوحشية الأوربيين فى استغلال المستعمرات وتجارة الرقيق . وعاد إلى سانت بطرسبرج وهو يضطرم بالمثل الاجتماعية ، فلما وكلت إليه إدارة الجمرك تعلم الانجليزية ليتعامل مع التجار البريطانيين ، ودرس الأدب الإنجليزى ، وأثر فيه خاصة كتاب ستيرن «رحلة عاطفية» . وفى ١٧٩٠ نشر كتاباً من عيون الأدب الروسى اسمه «رحلة من سانت بطرسبرج إلى موسكو» . وقد أقر الكتاب بالإيمان القويم ، ولكنه ندد بخدع القساوسة التى يحتالون بها على سذاجة الشعب ؛ وقبل النظام الملكى ، ولكنه برر الثورة على الحاكم الذى ينتهك «العقد الاجتماعى» بتجاهله للقانون . ووصف تمزيق نظام التجنيد الإجبارى لأوصال الأسر ، وبغى السادة على أقنانهم . وقال راد شتشيف إنه أخبر فى أحد الأماكن بنبأ مالك هتك عرض ستين فلاحة عذراء . ثم شهر بالرقابة ودافع عن حرية الصحافة . ولم يكن داعية للثورة ، ولكنه طلب التفهم الرحيم لمن يدعون إليها . وناشد النبلاء والحكومة إنهاء القنية . «فلترق قلوبكم أيها القساة ؛ حطموا أغلال اخوتكم ، وافتحوا سجون الرق . ان للفلاح الذى يهبنا العافية والحياة الحق فى التصرف فى الأرض التى يفلحها» (٩٩) .

ومن عجب أن الرقيب أجاز الكتاب . ولكن كاترين خافت فى ١٧٩٠ أن يحذو شعبها حذو الثورة الفرنسية . فدونت ملاحظة بضرورة عقاب مغتصب العذارى الستين ، ولكنها أمرت بمحاكمة راد شتشيف بتهمة الخيانة . ووجدت فى كتابه فقرات عن اقتحام الحصون وثورة الجنود على قيصر قاس ، ومدائح للانجليز لمقاومتهم ملكاً ظالماً . فحكم مجلس الشيوخ على المؤلف بالإعدام ؛ وخففت كاترين الحكم إلى النفى عشر سنين فى سيبيريا . وسمح الامبراطور بولس الأول لراد شتشيف بالعودة من المنفى (١٧٩٦) ، ثم دعاه ألكسندر الأول إلى سانت بطرسبرج (١٨٠١) . وهناك انتحر بعد سنة ، لأنه ظن دون مبرر أنه سينفى ثانية . ومصيره ومصير نوفيكوف من الوصمات الكثيرة التى تلطخ عهداً رائعاً .

٩ — الفن

صنعت كاترين للفن أكثر قليلا مما صنعته للأدب ، لأن الفن لايستهوى غير الطبقات العليا ، ولايقرع ناقوس الثورة . ولكن الموسيقى الشعبية كانت ثورية دون قصد منها ، لأن كلها تقريباً تألف من أغان حزينة فى مقام صغير وبمصاحبة شاكية باكية ، لا تحكى قصة القلوب التى انفطرت حباً فحسب ، بل الأنفس التى براها الكد والكدح . وندر أن سمع النبلاء تلك الأغانى ، ولكنهم استمتعوا بالأوبرات الإيطالية التى جلبها إلى سانت بطرسبرج جالوبى ، وبايزيللو ، وسالبيرى وتشيماروزا ، الذين كانت الدولة تدفع أجورهم كلهم ، أما كاترين نفسها فلم تكون شديدة الحب للأوبرا . قالت « لاأستطيع فى الموسيقى أن أميز نغمات غير نغمات كلابى التسعة ، التى يشترك كل منها بدوره فى شرف الوجود فى حجرتى ، والتى أستطيع التعرف على صوت كل كلب منها عن بعد » (١٠٠) .

ثم اعترفت أيضاً أنها لاتملك القدرة على فهم الفن . وقد بذلت وسعها لتربى هذا الفهم فى روسيا . فوفرت المال الذى مكن بتسكى من أن يدير بالفعل (١٧٦٤) عجلة أكاديمية الفنون التى أنشئت أيام البزابث (١٧٥٧) . واشترت روائع الفن المعترف بقيمتها فى الخارج وعرضتها فى قاعات تحفها ،

فدفعت ١٨٠,٠٠٠ روبل ثمناً لمجموعة الكونت فون برول فى درسدن ، و ٤٠,٠٠٠ جنيه ثمناً لمجموعة السير روبرت ولبول فى هوتن هول ، و ٤٤٠,٠٠٠ فرنك لمجموعة شوازيل ، و ٤٦٠,٠٠٠ لمجموعة كروزا . وقد عقدت بهذا كله صفقات رابحة دون أن تدرى ، لأن هذه المجموعات التى التقطتها من هنا وهناك ضمت ألفا ومائة لوحة من أعمال رفائيل ، وبوسان ، وفانديك ، ورمبرانت ، وغيرها من التحف الخالدة التى زادت قيمتها مع الزمن وهبوط العملة . واستطاعت من طريق جريم وديدرو (اللذين كانت تتابع نشاط صالونيهما باهتمام) أن تكلف برسم اللوحات فنانين فرنسيين — أمثال فرنيه ، وشاردان ، وهودون — ونسخت لها كطلبها بالحجم الطبيعى لوحات جصية من أعمال رفائيل فى الفاتيكان وبنيت قاعة خاصة بها فى الأرميتاج .

ولم تكلف الفنانين الوطنيين إلا بالقليل ، لأن ذوقها الفرنسى لم يجد فى فن جيلها الروسى غير القليل مما له قيمة باقية . . على أنها قدمت المال لتعليم وإعالة الطلاب فى أكاديمية الفنون وأوفدت عدداً منهم للدراسة فى غربى أوربا . وفى تلك الأكاديمية تخرج رسام أحداث التاريخ أنطون لرزنكو ، ورساما الأشخاص دمترى ليفتسكى وفلاديمير بوروفيكوفسكى . أما لوزنكوا فقد قضى خمس سنين فى باريس وثلاثا فى روما ثم عاد إلى سانت بطرسبرج (١٧٦٩) ليعلم فى الأكاديمية . وقد أثار ضجة بلوحته المساة « فلاديمير أمام روجنيدا » ، ولكنه — ربما لفداحة واجباته الأكاديمية — أخفق فى أن ينتج الروائع المنتظرة منه ، ثم اختطفه الموت وهو فى السادسة والثلاثين (١٧٧٣) . وأما ليفتسكى فقد استخدمته كاترين لبرسم بعض الشابات اللاتى كن يدرسن بمعهد سمولنى ؛ والنتيجة شاهد بجمالهن الرائع . وقد سرت اللوحة التى صور فيها كاترين بدانتها تحت أردية فضفاضة . كذلك جلست لتصورها مدام فيجيه لبرون ، وكانت من بين الفنانات الفرنسيات الكثيرات اللاتى دعتهن كاترين لأضفاء الرشاقة الفرنسية على الفن الروسى .

وأعظم فنانيها الذين استقدمتهم كان فالكونيه . قدم فى ١٧٦٦ ، وأقام فى روسيا اثنتى عشرة سنة . وقد طلبت إليه كاترين أن يصمم ويصب

بالبرونز تمثالا لبطرس الأكبر ممتطياً جواده . وكان قد جلب معه شابة تدعى ماري — آن — كوللو ، كانت النموذج لرأس التمثال الضخم . وتحدى فالكونيه قوانين الفيزياء بتمثيله الحصان يقفز في الهواء ، وقائمتاه الخلفيتان فقط تلمسان أرضاً صلبة ، هي صخرة ضخمة جلبت من كاريليا لترمز إلى المقاومة الهائلة التي تغلب عليها بطرس ؛ وتحقيقاً للتوازن أظهر فالكونيه حية نحاسية — رمزاً للحسد — تلدغ ذيل الحصان . وقد احتفظت هذه الرائعة الفنية بتوازنها بينما تغيرت سانت بطرسبرج إلى بتروجراد ثم إلى لننجراد . واستغرق فالكونيه في هذا العمل وقتاً أطول مما توقعته كاترين ؛ ففقدت اهتمامها به ، وأهملت المثال ، فعاد إلى باريس وقد خاب أمله فيها ، وفي روسيا ، وفي الحياة .

وفي ١٧٥٨ وفد نيكولا — فرانسوا جيليه من فرنسا ليعلم النحت في الأكاديمية . وقد نبغ ثلاثة من تلاميذه في عهد كاترين : تشوبين وكوزلوفسكي وشخيدرين . أما تشوبين فقد كلفه بوتمكين بنحت تمثال «كاترين الثانيه» لقاعة قصر تاوريدا المقببة (الروتندا) ؛ وقد وصف الخبراء التمثال بأنه « عديم الحياة بارد(١٠١) » ، وكذلك يبدو التمثال الذي نحته تشوبين لبوتمكين . أما كوزلوفسكي فقد انتهى إلى مثل هذا الجمود في المقبرة التي نحتها للمرشال سوفوروف ، وحتى في تمثاله لآله الحب كيوبيد . أما شيخدرين فجل أعماله أنتجها في عهد ألكسندر الأول : فإلى عام ١٨١٢ ينتمي تمثاله المسمى «الكرتيدات يسندن الكرة السماوية» — وترى فيه امرأة تحمل الدنيا . . وقد تخصص إيفان بتروفتش مارتوس في التماثيل الجنائزية ، وحفلت الجبانات في بطرسبرج بتماثيله «الباكية» ؛ وقد قيل عنه أنه « أبكى الرخام» وقد تخلف النحت الوطني إلا في تقليده للطرز الأجنبية . وكانت الكنائس الأرثوكسية تحرم التماثيل وقنع النبلاء بالفنانين الذين يعثرون عليهم بين أقنانهم .

ولكن المعمار ازدهر في عهد كاترين ، لأنها صممت على أن تترك بصمتها على عاصمتها . قالت « ان المباني العظيمة تعلن عظمة الحكم ببلاغة لاتقل عن بلاغة الأعمال العظيمة » (١٠٢) . وكتبت في ١٧٧٩ تقول « أنت تعلم أن هوس البناء أقوى اليوم عندنا مما كان في أي وقت مضى ، ولم يهدم

زلزال قط عمائر قدر العمائر التى شيدناها . . . وهذا الهوس شىء لعين ، فهو ينضب المال ، وكلما بنينا ازددنا رغبة فى البناء ، إنه مرض كالسكر بالخمر » [١٠٣] . ومع أنها قالت لفالكونيه « انى لا أعرف حتى كيف أرسم » فقد كان لها رأيها الخاص فى الفن ، أو قل رأى تأثر بالحفائر الرومانية فى هركولانيوم وكتب كايلوس وفنكلمان . فولت ظهرها للباروك المزوق والروكوك الزاهى ، وهما طرازان سادا فى عهد اليزابث ، وفضلت عليهما الطراز الكلاسيكى الجديد الأكثر بساطة ونقاء . وقد عزا إليها بعض معاصريها فضل اصدار التعليمات الواضحة المحددة والرسوم التخطيطية التمهيدية لمعماريها [١٠٤] .

فلما افتقدت الفنانين الوطنيين الذين يحققون لها أفكارها ، ولت وجهها شطر غربى أوربا التماساً لرجال ورثوا التقاليد الكلاسيكية . وهكذا قدم جان باتست فالان دلاموت ، الذى شيد لها على نهر نيفا قصر أكاديمية الفنون (١٧٦٥ — ٧٢) وله واجهة بطراز النهضة من آجر مكسو ورواق معمد كلاسيكى ، وداخله سلم نصف مستدير فخم يفضى إلى قاعة مستديرة تعلوها قبة . وبنى فلان ملحقاً للقصر الشتوى هو الأرميتاج الشهير ، الذى كانت كاترين تراه ملاذاً تحتمى به من مراسيم البلاط ، ولكنه أصبح قاعة تحفها ، وهو اليوم من أهم متاحف العالم . وقالت كاترين فى وصفه لجريم عام ١٧٩٠ « أنه خلوتى الصغيرة ، فى موقع مناسب بحيث لايكلفنى الذهاب إليه أو الإياب منه إلى حجرتى أكثر من ثلاثة آلاف خطوة . . هناك أجول بين طائفة من الأشياء التى أحبها وأزهو بها ، وتلك الجولات الشتوية هى التى تحفظ على عافيتى » [١٠٥] .

ومن فرنسا أيضاً قدم الاسكتلندى تشارلز كاميرون ، الذى درس الزخرفة الكلاسيكية فى وطنه . وقد ابتهجت كاترين بالأشراق والرقة اللذين كان يزين بهما — بالفضة واللاكيه والزجاج واليشب والعقيق والرخام المتعدد الألوان — الجناح الخاص الذى احتفظت به لنفسها ولعشاقها وكلابها فى « القصر العظيم » بتسارسكو سيلو . كتبت تقول « لم أرقط ضريباً لهذه

الحجرات حديثة الزخرف ؛ ولم أمل قط طوال الأسابيع التسعة الأخيرة من تأملها » [١٠٦] . وحول هذا القصر خططت لها حديقة بالطراز « الطبيعي » و « الانجليزي » ، وصفتها في خطاب إلى فولتير فقالت : « إنني الآن أهيم حباً بالحدائق الانجليزية الطراز ، بخطوطها القصيرة ، والمنحنية ، ومنحدراتها المدرجة في رفق ، وبركها وبحيراتها . . . إنني شديدة النفور من الخطوط المستقيمة ؛ وباختصار أقول أن الهوس الانجليزي (الانجلومانيا) يسيطر على هوسي بالنبات » [١٠٧] . وقد بنى كاميرون لولدها بولس وزوجته الثانية الفاتنة في بافلوفسك (وهي ضاحية أخرى من ضواحي العاصمة) قصراً بطراز الفيلات الإيطالية ؛ هنا حفظ الغراندوق وماريا فيود وروفنا التحف التي جمعاها في رحلاتهما في غرب أوربا .

ومن إيطاليا أقبل انطونيو رينالدي ، الذي بنى قصرين باذخين أهدتهما كاترين لجريجوري أورلوف ، قصر الرخام على نهر نيفا ، وقصر جاتشينا قرب تسارسكوسيلو ، الذي أصبح المسكن المفضل عند بولس الأول . ومن إيطاليا جاء جاكوموكوارنجي ، الذي استهوته المعابد اليونانية في بايستوم وروائع باللاديوفي فتشنتشا . وفي ١٧٨٠ عرض على كاترين عن طريق جريم تصميمات ونماذج لأبنية شتى كان يؤمل تشييدها . وافتتنت بها كاترين ومنذ ذلك التاريخ حتى ١٨١٥ شيد كوارنجي في سانت بطرسبرج أو على مقربة منها العدد الوفير من المباني بالطراز الكلاسيكي ، مسرح الأرميتاج ، ومعهد سمولني (الذي ألحقه بدير سمولني في راستريللي) ، ومصرف الإمبراطورية ، ومصلى الطريقة المالطية ، والقصر الانجليزي في بيتر هوف ، وقصر ألكسندر في تسارسكو سيلو . وقد صمم هذا القصر لحفيد كاترين الذي أصبح فيما بعد ألكسندر الأول ، والذي انتقل إليه في ١٧٩٣ ، بعد الفراغ من تشييده بعامين . « إنه من روائع معمار القرن الثامن عشر » [١٠٨] . (*)

(*) كان القصر المفضل لدى القيصر نيقولا الثاني : ومنه فر إلى سيبيريا والموت في ١٩١٧ . وقد حوله السوفييت متحفا . ولحقت به أضرار بالغة في الحرب العالمية الثانيـة . ولكنه رمم .

ولكن ألم يكن هناك معماريون روس ينفقون روبلات كاترين ؟ بلى . فقد حداها الأمل فى ترك أثر يخلد ذكرها فى موسكو إلى أن تكلف فاسيلى بازينيف بتصميم «كرملن» من الحجر ليحل محل كرملن إيفان الأكبر المبنى بالآجر . وصمم بازينيف قصراً هائلا لو قام لتضاءل بالقياس إليه قصر فرساى ؛ والذين رأوا نموذجه الخشبي — الذى تكلف ستين ألف روبل— تعجبوا من براعته . غير أن الأساسات التى أرسيت ليقوم عليها هبطت بهبوط التربة بفعل نهر موسكو ، فنكصت كاترين عن المغامرة على أنها دبرت المال الذى أتاح لإيفان ستاروف أن يبنى على ضفة نيفا اليسرى قصر تاوريدا ، وأهدت هذا القصر المنيف إلى بوتمكين تخليداً لفتحه القرم .

وأيا كانت تكلفة نفقات المبانى التى شيدتها كاترين فإنها حققت هدفها . كتب ماسون المعاصر لها يقول : « إن الرجل الفرنسى بعد دورانه على شواطىء بروسيا الماحلة وشقه سهول ليفونيا المقفرة التى لم تزرع ، تأخذه الدهشة والطرب إذ يعثر مرة أخرى وسط بيداء مترامية على مدينة كبيرة فخمة ، تزخر بمجتمع راق وبأسباب الترويح وبالفنون وألوان الترف التى خالها لاتوجد إلا فى باريس » (١٠٩) . أما الأمير دلين فبعد أن شهد أوربا كلها تقريباً خلص إلى أنه « رغم ما فى كاترين من عيوب ، فإن الصروح التى شيدتها ، العامة منها والخاصة ، تجعل سانت بطرسبرج أبدع مدينة فى العالم» (١١٠) ولا عجب ، فقد حول لحم عشرة ملايين من الفلاحين ودمهم إلى طوب وحجر .

١٠ — خاتمـــة المطاف

لو أن كاترين سئلت لبينت — كما هو دأب الحكام طوال العصور والأزمان — أنه ما دام الموت حقاً على البشر على أية حال ، فلم لايسخر الحكام عبقرية الرجال لتوجيه هؤلاء الأحياء المطاردين والبشر المقضى عليهم لا محاله بالموت ، لجعل الدولة قوية ، وجعل مدنها عظيمة ؟ لقد عودتها سنوات السلطان ، وتحديات الثورة والحرب ، وتقلبات النصر والهزيمة ،

أن تطيق آلام الغير دون أن تجفل ، وأن تغضى عن استغلال الأقوياء للضعفاء باعتباره شراً لا قبل لها بعلاجه .

وقد أرهبتها الثورة الفرنسية بعد ما أزعجها العديد من المؤامرات لخلعها وأخافتها فتنة بوجاشيف . وقد اطاقتها راضية حين توقعت ألا تكون أكثر من إطاحة بارستقراطية عاطلة وحكومة عاجزة ؛ ولكن حين أكره حشد من رعاع باريس لويس السادس عشر ومارى انطوانيت على ترك فرساى وسكنى التويلرى وسط جماهير أفلت زمامها — وحين أعلنت الجمعية التأسيسية أنها صاحبة السلطة العليا ، وحين ارتضى لويس أن يكون الأداة المنفذة لأوامرها لاغير — عندها ارتعدت كاترين فرقاً من التشجيع الذى أعطى بالمثل للذين سعوا إلى أن يفعلوا نظير هذا فى روسيا . فسمحت للأكليروس بأن يحظروا نشر أعمال فولتير التى كانت يوماً ما موضع حبها (١٧٨٩) [١١١] . ثم حرمت هى ذاتها بعد قليل جميع المطبوعات الفرنسية ؛ ونقلت تماثيل فولتير النصفية من قاعاتها إلى حجرة لسقط المتاع (١٧٩٢) [١١٢] ثم نفت المثالى راديشتشيف (١٧٩٠) ، وسجنت نوفيكوف المشرب بروح خدمة المجتمع (١٧٩٢) ، وفرضت رقابة تفتيشية على الأدب والمسرحيات . فلما قطع رأسا لويس السادس عشر ومارى انطوانيت بالجيلوتين (١٧٩٣) قطعت صلاتها مع الحكومة الفرنسية ، وحضت الملكيات الأوربية على تأليف تحالف ضد فرنسا . ولم تنضم هى ذاتها لذلك التحالف ، بل استعملته لتشغل به الدول الغربية ريثما تتم ابتلاعها لبولنده . وقد قالت لأحد دبلوماسييها « إن كثيراً من مشروعاتى لم يستكمل بعد ، ويجب شغل بلاطى برلين وفيينا حتى يتركانا طلقاء بغير قيود » [١١٣] .

على أن آثاراً ضئيلة تخلفت من تحررها القديم وبقيت حتى ١٧٩٣ . ففى ذلك العام أبلغها أحد الحاشية أن فردريك — سيزار دلاهارب ، الذى كان المعلم الخاص لحفيديها ، جمهورى عنيد . فأرسلت فى طلبه وأنبأته بالخبر ، فأجاب « ان جلالتك كنت على علم قبل أن تكلى إلى تعليم الغراندوقين انى سويسرى ، وإذن فجمهورى» ثم رجاها أن تمتحن تلميذيه ، وأن

تحكم على عمله من سلوكهما . ولكنها كانت تعلم كم أحسن تعليمهما ، فقالت له «سيدى ، لتكن يعقوبيا أو جمهوريا أو ماشئت ، إننى مؤمنة بأنك رجل أمين ، وهذا يكفينى . فابق مع حفيدى واحتفظ بكامل ثقتى ، وعلمهما بما عهدته فيك من غيرة» (١١٤) .

وفى وسط هذا الضجيج اتخذت آخر عشاقها (١٧٨٩) وهو بلاتون زوبوف . وكان فى الخامسة والعشرين ، وهى فى الحادية والستين . وكتبت لعشيقها « الشرقى» بوتمكين تقول : «عدت إلى الحياة كأننى ذبابة خدرها البرد » (١١٥) . واقترح «تلميذها» الجديد هجوماً مثلث الشعب على تركيا : جيش روسى بقيادة أخيه فاليران ذى الأربعة والعشرين ربيعاً يعبر القوقاز إلى فارس ويقطع كل تجارة اليابس بين تركيا والشرق ؛ وجيش ثان بقيادة سوفوروف يتغلغل فى البلقان ليحاصر الآستانة ؛ ثم أسطول البحر الأسود الروسى ، تحت إمرة الامبراطورة نفسها ليتسلط على البوسفور . وبعد سنوات من الإعداد بدىء بتنفيذ هذه المغامرة الملحمية (١٧٩٦) واستولى الروس على دربنت وباكو ؛ وتطلعت كاترين إلى انتصارات تكمل برنامجها وتتوج حياتها .

وفى صباح ١٧ نوفمبر ١٧٩٦ بدت مرحة كالعادة . وبعد الفطور اعتكفت فى حجرتها . ومضى وقت ولم تظهر ثانية ، فقرعت خادمتها الباب ، فلما لم تجب دخلت ، فوجدت الامبراطورة منبطحة على الأرض ، صريعة انفجار شريان فى الدماغ ، وفصدت مرتين ، وأفاقت لحظة ، ولكنها فقدت النطق . وفى العاشرة من مساء ذلك اليوم لفظت أنفاسها .

وأحس أعداؤها أنها لاتستحق ميتة رحيمة كهذه . ولم يغفروا لها قط تلك التناقضات بين مزاعمها التحررية وحكمها الاستبدادى ، وضيقها بالمعارضة ، وإخفاقها فى تنفيذ الإصلاح المقترح للقانون الروسى ، واستسلامها للنبلاء فى توسيعها للقنية . ولم تحمد لها انتصاراتها تلك الأسر التى أفقرتها الضرائب الباهظة ، أو التى ثكلت أبناءها بسبب حروبها . ولكن الشعب فى جملته صفق لها لأنها مدت روسيا إلى حدود أرحب وأكثر أمنا . لقد

أضافت ٢٠٠,٠٠٠ ميل مربع لمساحة روسيا ، وفتحت ثغوراً جديدة لتجارة روسيا ، وزادت السكان من تسعة عشر إلى ستة وثلاثين مليونا . وكانت عديمة الضمير فى دبلوماسيتها — ربما أكثر قليلا من معظم حكام ذلك العهد فى ابتلاعها بولنده .

أما أعظم منجزاتها فهو مواصلتها جهود بطرس الأكبر لإدخال روسيا فى نطاق الحضارة الغربية . وبينما كان بطرس يفكر فى هذا الهدف بلغة التكنولوجيا ، كانت كاترين تفكر فيه أولا بلغة الثقافة ، فاستطاعت بقوة شخصيتها وشجاعتها أن تنتزع الطبقات المتعلمة فى روسيا من العصور الوسطى وتدفعها إلى فلك الفكر الحديث فى الأدب والفلسفة والعلوم والفنون . وكانت بين أندادها من الحكام المسيحيين (باستثناء فردريك الثانى غير المسيحى) سباقة إلى توطيد التسامح الدينى . وقد عقد مؤرخ فرنسى مقارنة فضلها فيها على الملك الأعظم (لويس ١٤) قال « إن سماحة كاترين ، وبهاء حكمها ، وفخامة بلاطها ومنشآتها ، وآثارها ، وحروبها — هذا كله كان بالنسبة لروسيا بالضبط ماكأنه عصر لويس الرابع عشر بالنسبة لأوربا . غير أن كاترين إذا نظرنا إليها كفرد وجدناها أعظم من هذا الملك . ذلك أن الفرنسيين هم الذين بنوا مجد لويس ، أما كاترين فهى التى بنت مجد الروس . ولم يتح لها كما أتيح له ميزة حكم شعب مهذب ، ولا أحيطت منذ طفولتها بشخصيات عظيمة مثقفة » (١١٦) .

وفى تقدير مؤرخ انجليزى أن كاترين « هى الحاكمة الوحيدة التى فاقت إليزابث ملكة انجلتره كفاءة ، وهى تعدلها من حيث الأهمية الباقية لأعمالها » (١١٧) . وقال مؤرخ ألمانى «كان كل ما فيها «كائناً سياسياً» ، لاضريب لها من جنس النساء فى التاريخ الحديث ، ولكنها فى الوقت ذاته امرأة خالصة ، وسيدة عظيمة » (١١٨) ، ويجوز لنا أن نطبق عليها المبدأ السمح الذى وضعه جوته : كانت عيوبها عدوى انتقلت إليها من جيلها ، أما فضائلها فكانت من صنعها هى . »

الفصل التاسع عشر

اغتصاب بولنده

١٧١٥ – ١٧٩٥

١ – نظرة عامة على بولنده : ١٧١٥ – ١٧٦٤

كانت الجغرافيا ، والعرق ، والدين ، والسياسة ، هى الأعداء الطبيعية لبولنده . ذلك أن هذا القطر كان يعدل فرنسا اتساعاً ، إذ امتد عام ١٧١٥ من الأودر غرباً إلى ما يقرب من سمولنسك وكييف شرقاً ، ولكن لم يكن له حد طبيعى – من جبال أو نهر عريض – على أى جبهة ليقيه شر الغزو ؛ وقد اشتق اسم بولنده من كلمة « pole » وهو السهل . ولم يكن لها سوى منفذ واحد إلى البحر – عند دانتزج ، أما الفستولا الذى وجد له مصباً هناك ، فلم يكن بالحد الذى يصلح للدفاع ضد بروسيا المجاورة . وقد افتقدت الأمة وحدة العرق ، فكانت كثرة البولنديين البالغة ٦,٥٠٠,٠٠٠ نسمه (١٧١٥) فى صراع متقطع مع الأقليات الألمانية واليهودية واللتوانية والروسية ؛ وهنا التقى التيوتون والسلاف وجهاً لوجه فى عداء طبيعى . ولم يكن هناك وحدة دينية : فالأغلبية الكاثوليكية الرومانية تحكم وتظلم «المنشقين» – وهؤلاء هم الآخرون منقسمون فى نزاع وخصام بين بروتستنت وروم أرثوذكس ويهود . ولم يكن هناك وحدة سياسية ، لأن سلطة السيادة التى حرص أصحابها على الاحتفاظ بها كانت فى يد « السجم » أو « الديت» ، المؤلف كله من نبلاء الكل منهم ، بمقتضى حق النقض المطلق ، سلطة إبطال مفعول أى اقتراح يقترحه الباقون كلهم ، وإنهاء أى دورة ، أو أى ديت منتخب ، ان شاء . أما الملك فينتخبه الديت ، وهو خاضع لـ « مواثيق » يوقعها شرطاً

لانتخابه ، ولم يكن فى استطاعته أن يتبع أى سياسة طويلة المدى وهو مطمئن أقل اطمئنان إلى توريث تاجه لذريته أو تلقى التأييد المتصل . وقد طالب النبلاء بهذه السلطة غير المقيدة على التشريع لأن كلا منهم أراد أن يكون مطلق الحرية فى السيطرة على أراضيه وأقنانه . ولكن التقييد روح الحرية ، فما إن تصبح الحرية مطلقة حتى تقضى عليها الفوضى ، وتاريخ بولنده بعد جان سوبيسكى كان سجلا للفوضى .

وكان أكثر الأرض يزرعه أقنان يرسفون فى قيود ذل إقطاعى لامغيث لهم منه . وكان السيد الإقطاعى أحياناً رفيقاً بهم ، ولكنه كان دائماً مطلق السلطة . وأما أقنانه فلم يدينوا له فقط بجزء المحصول الذى يقدره ويطالبهم به ، بل كان لزاماً عليهم أيضاً أن يعطوه من كدهم ، دون أجر ، عمل يومين أو ثلاثة فى ضيعته كل أسبوع . ومن حسن الحظ أن الأرض الجيدة الرى كانت خصبة ، فوجد الفلاحون ما يكفى لإقامة أودهم ، ولكن كوكس وصفهم بأنهم « أشد فقراً وذلا وشقاء من أى شعب لاحظناه فى رحلاتنا »[1]. وكان سادتهم المحليون هم الطبقة الدنيا من النبلاء أو صغار الأعيان (شلاختا) ، وهؤلاء الملاك بدورهم كانوا خاضعين لنحو مائة من الأقطاب الذين يملكون أو يشرفون على مساحات شاسعة . وكان صغار الأعيان يشغلون معظم الوظائف التنفيذية فى الدولة ، وهم من الناحية النظرية يؤلفون الغالبية فى مجلس السجم ، ولكن السياسة البولندية كانت من الناحية الفعلية صراعاً بين الأقطاب أو أسرهم ، الذين يتلاعبون بمجموعات من صغار الأعيان مستعينين بالنفوذ الاقتصادى أو الرشوة المباشرة [2] .

وظلت الأسرة فى بولنده تحتفظ بأفضليتها البدائية على الدولة . فكان آل رادزيفل ، وآل بوتوكى ، وآل تشارتوريسكى ، كل منهم يترابط أفراده بعاطفة من التماسك الأسرى أوثق من أى رباط قومى ؛ هنا كان حب الوطن هو حرفياً احترام الأب وتبجيله ، والأب الأكبر سناً فوق كل شىء . وكانت الأسرة قوية كنظام أو مؤسسة ، لأنها كانت وحدة الإنتاج الاقتصادى والتهذيب الأخلاقى ، فلم يكن هناك نزعة فردانية اقتصادية تشتت الأبناء

فى أرجاء الوطن ؛ والإبن يقيم عادة فى الضيعة الموروثة ، خاضعاً لأمر أبيه مادام الأب حياً . وزكت الأسرة بفضل وحدة السلطة ، هذه الوحدة ذاتها التى أضعف الدولة افتقادها. وكانت كل ثروة الأسرة تحت اشراف أبوى ممركز ، وفى كثير من الحالات كانت تزداد من عام إلى عام بفضل أرباح الاستغلال والتصدير المعاد استثمارها من جديد ، وفى حالات عديدة فاقت ثروة الملك نفسه . وكان عشرون أسرة بولنديه فى القرن الثامن عشر ينفق كل منها أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ جنيه فى العام على البيت[٣] . وكانت الأسرة القوية تسمى بيتها بلاطاً ، له مستخدموه ، وجيشه الخاص ، وخدمه الكثيرون ، ومظاهر الأبهة الشبيهة بأبهة الملوك ؛ من ذلك أن الأمير كارول رادزيفيل ، الذى بلغت مساحة أرضه نصف مساحة بولنده ، أولم فى ١٧٨٩ وليمة لأربعة آلاف ضيف كلفته مليوناً من الماركات [٤] .

أما أشهر الأسر البولندية قاطبة — والتى بلغ من شهرتها أنها كانت تعرف باسم « الأسرة » فقط — فهى أسرة تشارتوريسكى . فقد تبوأت مرتبة الإمارة منذ القرن الخامس عشر ، واتصلت بصلة القرابة ببيت جاجيللو ، الذى حكم بولنده من ١٣٨٤ إلى ١٥٧٢ . وقد تزوج الأمير كازيميرز تشارتوريسكى (مات ١٧٤١) ، نائب مستشار لتوانيا ، بايزابللا مورستن ، التى أضافت دفعة جديدة من الثقافة الفرنسية إلى الأسرة . وأنجب منها ثلاثة من المشاهير هم : (١) فردريك ميشال تشارتوريسكى ، الذى أصبح كبير مستشارى لتوانيا ، (٢) ألكسندر أوغسطس تشارتوريسكى ، الذى أصبح أمير بالاتين لـ « روسيا الحمراء » ، (٣) قنسطنطيا التى تزوجت ستانسلاس بونياتوفسكى الأول ، وولدت له بونياتوفسكى الثانى ، وهو الشخصية المأساوية الكبرى فى التاريخ البولندى .

ومن مفاخر آل تشارتوريسكى فوق ما تميزوا به أن نزعتهم التحررية نمت بنمو ثروتهم ، فقد طالما عرفوا بترفقهم بأقنانهم ؛ قال أحد معاصريهم « لو أننى ولدت قنا لوددت أن أكون قنا للأمير ألكسندر أوغسطس تشارتوريسكى »[٥] . فأنشأوا المدارس للأطفال ، وزودوهم بالكتب

المدرسية ، وبنوا الكنائس والمستشفيات والأكواخ النموذجية . ثم جلبوا إلى ضيعتهم وقصرهم فى بولافى (قرب لوبلين) معلمين ودارسين دربوا الشباب أياً كانت طبقتهم ، على خدمــة الدولة . أما من الناحية السياسية فأن الأسرة عارضت حق النقض المطلق لأن من شأنه أن يجعل الحكم الفعال ضرباً من المحال . واتحدت ضدهم أسر كثيرة شعرت بأن حق النقض هو حاميها الأوحد من الأوتوقراطية المركزة . وكان أقواها أسرة بوتوكى ، وزعيمها الأمير فيلكس بوتوكى ، الذى كان فى استطاعته أن يركب ثلاثين ميلا فى اتجاه واحد دون أن يجاوز أرضه — ثلاثة ملايين من الأفدنة فى أوكرانيا .

أما الصناعة والتجارة ، اللتان شاركتا فى القرن السادس عشر فى جعل بولنده قطراً عظيماً وفى إثراء مدنها ، فقد عطلتهما خصومة ملاك الأرض ومجلسهم النيابى المطيع . فكانت مدن كثيرة بأسرها تقع فى نطاق الملكية الخاصة لقطب من الأعيان آثر الزراعة على الصناعة مخافة أن تنشأ طبقة وسطى مستقلة . وكانت منافسة الحرف اليدوية التى ينتجها الأقنان فى الضياع قد جرت الكساد على مهرة الصناع فى المدن . كتب انطونى بوتوكى فى ١٧٤٤ يقول « إن خراب المدن ظاهر للعيان حتى أن كبرياتها فى الدولة — باستثناء وارسو دون غيرها — أشبه بأوكار اللصوص» (٦) . فى مدينة لفوف مثلا كثر النجيل فى الشوارع ، وأصبحت بعض ميادينها حقولا مفتوحة ، ومدينة كراكاو التى كانت يوماً ما من أعظم المراكز الثقافية فى أوربا هبط عدد سكانها إلى تسعة آلاف ، وعدد الطلاب فى جامعتها الشهيرة إلى ستمائة (٧) .

ويرجع بعض ما أصاب المدن من انحلال إلى عودة الكاثوليك إلى غزو بولنده . فقد كان كثير من البروتستنت المطرودين تجاراً أو صناعاً مهرة ، وقد ترك تقلص عددهم فى جميع أرجاء بولنده إلا غربيها (حيث بقى ألمان كثيرون) للمسرح البولندى لملاك الأرض ، وكان هؤلاء من الكاثوليك الرومان ، أو فى الشرق من الروم الأرثوذكس أو الموحدين (وهم كاثوليك يمارسون الطقوس الشرقية ولكنهم يعترفون ببابا روما) .

وكان المنشقون أو المخالفون — من البروتستنت والروم الأرثوذكس واليهود ، وجملتهم ثمانية فى المائة من السكان — محرومين من الوظائف العامة ومن عضوية الديت ، وكل الدعاوى المرفوعة ضدهم ينظرها محاكم كاثوليكية خالصة [٨] . وقد بلغت الخصومة الدينية مبلغاً دفع الجماهير عام ١٧٢٤ ، فى مدينة تورون (ثورن) التى كان أكثر أهلها من البروتستنت ، إلى أن تنتهك قدسية القربان وتدوس على صورة العذراء بعد أن أثار غضبها الشديد مسلك طالب يسوعى . وقد أعدم تسعة من هؤلاء المغيرين . واستنجد بروتستنت بولنده ببروسيا ، والروم الأرثوذكس بالروسيا ، وعرضت بروسيا وروسيا الحماية ، ومنها تقدمتا إلى الغزو والتقسيم .

أما أخلاق البولنديين فقد شابهت الأخلاق الألمانية على المائدة ، والفرنسية فى الفراش . وقد أكره الفلاحين على الاكتفاء بالزوجة الواحدة عكوفهم على الأرض والنسل ، ولكن هذا الاكتفاء كان عسيراً فى العاصمة لجمال النساء و « سلوكهن المغرى » [٩] ، هؤلاء النساء اللاتى لم يسمحن لتعليمهن الأرقى بأن يقف عقبة فى طريق فتنتهن . ويروى أن نساء الطبقة الراقية فى وارسو كن من الناحية الجنسية منحلات كنساء باريس [١٠] . ويؤكد لنا بوتياتوفسكى أنه كان بكرا حتى الثانية والعشرين [١١] ، ولكنه يضيف أن هذه العفة كانت شاذة فى طبقته — وكان السكر متوطناً لايعرف الفوارق بين الطبقات . فهو بين الفلاحين أنساهم فى نشوته ما يعانون من فقر أو مشقة أو برد ، أما النبلاء فقد سرى عنهم ما يعانون من العزلة والسأم ، وفى جميع الطبقات كان الذكور ينظرون إليه لا على أنه رذيلة بل مظهر من مظاهر التميز . وقد كرم القوم يان كومارتشفسكى لأنه استطاع أن يفرغ فى جوفه دلواً من الشمبانيا فى جرعة واحدة دون أن يدور رأسه أو تخونه قدماه . وقد نبه القوم بونياتوفسكى إلى أنه لن يكون محبوباً ما لم يثمل بالشراب مرتين فى الأسبوع [١٢] . وكان اكرام الضيف عادة شائعة بين الجميع ، ولكنه كان يقاس بمقدار الطعام والشراب الذى يقدم للضيف . وقد يحدث أن يرهن أحد الأقطاب مدينة يملكها ليدفع نفقات مأدبة .

وكان البولنديون المثقفون يضفون على المشهد رونقاً بأزيائهم . أما الفلاح فكان فى الصيف يقنع بالقميص والسراويل إلى الركبة من التيل الخشن ، دون جوارب طويلة أو حذاء . وفى الشتاء يدثر نفسه كالحزمه دون مراعاة للون ، ولا وقت للزينة ، وأما الأعيان الذين يعدون نحو ٧٢٥,٠٠٠ فلباسهم الحذاء الطويل والسيف والقبعة ذات الريشة والرداء الملون من الحرير أو المخرمات ، ثم حول الخصر حزام عريض من النسيج المنقوش ذى الألوان الكثيرة . وهذا الزى الذى اعتزوا بقوميته نقلوه عن المسلمين نتيجة اتصال اللتوانيين بالأتراك فى أوكرانيا ، وقد عكس ماكان يحدث أحياناً من تحالف بين بولنده وتركيا ضد النمسا أو روسيا ، وربما عبر عن عنصر أسيوى فى عادات البولنديين وأخلاقهم .

أما من الناحية الثقافية فقد عطل بولنده من ١٦٩٧ إلى ١٧٦٣ عدم مبالاة ملوكها السكسون بالأدب والفن السلافيين ، كما عطلها حربان مدمران . ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية أهم راع للفنون فحسب ، بل إنها كانت الموزع للتعليم والأمين الأكبر على نفائس الثقافة والأدب . وقد فرضت حجراً دقيقاً على بولنده يقيها حركة العلم والفلسفة فى الغرب ، ولكنها فى نطاق حدودها نشرت المعرفة ونمتها . من ذلك أن جوزيف زالوسكى أسقف كييف جمع ٢٠٠,٠٠٠ مجلد فى وارسو لمكتبته التى تعد من أعظم مكتبات العصر ، وفى ١٧٤٨ فتحها للجمهور وأهداها للأمة ؛ وكان أثناء ذلك يحيا حياة الزهد ، وقد ضحى بنفسه فى الصراع الناشب ليحفظ على بولنده استقلالها .

وهو الذى وجه القسيس الشاب المتطلع ، ستانسلاس كونارسكى ، إلى دراسة التاريخ والقانون وفى ١٧٣١ أصدر كونارسكى المجلد الأول من أربعة مجلدات جمعت ونسقت القانون البولندى من كازيمير الأكبر حتى وقته . هذه الأبحاث وغيرها كشفت لكونارسكى عن مدى سقوط بولنده المحزن من حالة الازدهار الذى شهدته أيام النهضـــة الأوربية . وقد اقتنع بأن البعث لن يأتى إلا من القمة ، لذلك أنشأ فى وارسو (١٧٤٠) « كلية للنبلاء » يتلقى فيها شباب الأشراف تعليماً لايقتصر على الرياضة واللغات والآداب الكلاسيكية (التى أجاد اليسوعيون تدريسها) ، بل يشمل

العلوم الطبيعية واللغات الحديثة . وكان هذا عملا بطولياً ، لأنه لم يكن لديه مال ولا كتب ، ولا معلمون و لا تلاميذ ، ومع ذلك فقد جعل من كلية النبلاء هذه بعد خمسة عشر عاماً من الكد معهداً ذائع الصيت مرموقاً ، وأحد المنابع للإحياء الثقافى فى عهد بونياتوفسكى ولدستور ١٧٩١ المستنير . وقد دعا لإصلاح اللغة البولندية تخليصاً لها من العبارات اللاتينية والبلاغة المزوقة ؛ واحتجت الأمة ، ولكنها تعلمت . ثم توج كونارسكى أعماله بإصداره فى بولنده (١٧٦٠–٦٣) أهم رسالة سياسية فى القرن ، تحمل هذا العنوان البرىء ، « فى التسيير الفعال لدفة المناقشات » ولكنها احتوت ثورة شعواء على حق النقض المطلق . وهنا أيضاً ارتفعت الاحتجاجات الكثيرة ولكن بعد عام ١٧٦٤ لم يحل «ديت» بحق النقض . وبمعونة كونارسكى بدأ بونياتوفسكى إصلاح الدستور البولندى .

وقبل ذلك الإحياء الرائع المتقطع عانت بولنده سبعة عشر عاماً من الفوضى والعار والاضمحلال تحت حكم الملوك السكسون .

٢ — الملوك السكسون : ١٦٩٧ — ١٧٦٣

فى موضع آخر من هذا الكتاب [١٣] ذكرنا كيف تخطى الديت البولندى ابن سوبيسكى العظيم ليعطى تاج بولنده لفردريك أوغسطس ، ناخب سكسونيا الذى دخل فى المذهب الكاثوليكى بين عشية وضحاها ليصبح أوغسطس الثانى (أى القوى) ملك بولنده ، وكيف ولى شارلى الثانى عشر ملك السويد مكانه ستانسلاس لشتشز نسكى (١٧٠٤) ؛ وكيف أتاحت هزيمة شارل فى بلطاوه (١٧٠٩) لأوغسطس أن يستعيد عرشه ، وقد تمتع بالقليل من السلطات التشريعية التى كان يتمتع بها ملوك القرن الثامن عشر ، ولكن بكل امتيازات الملوك الجنسية . فلما فشل فى حكم بولنده رد حبه على سكسونيا ، فجمل درسدن ، وأترع جوفه بالجعة ، وأفرغ عافيته بالخليلات ، ثم أضاف الإهانة إلى الأذى باتخاذه واحدة فقط من هؤلاء الخليلات من بين حسان

بولنده . وفى أخريات عهده وضع خطة لتقسيم بولنده بين النمسا وبروسيا وسكسونيا ، ولكنه مات (١ فبراير ١٧٣٣) قبل أن ينفذ تدبيره الشرير . وقد قال على فراش الموت ، « إن حياتى كلها كانت خطيئة متصلة »(١٤) .

وفى فترة خلو العرش التى تلت ذلك خلال تجميع ديت انتخابى ، أغدق المبعوثون الفرنسيون المال ليكسبوا نواباً يعملون على إعادة لشتشزنسكى. وكان ستانسلاس منذ خلعه يعيش فى الألزاس مستمتعاً بالسلام والأمل . وفى ١٧٢٥ أصبحت ابنته مارى ملكة على فرنسا بزواجها من لويس الخامس عشر ، وتوقع لويس الآن أن يتبع حموه ، متى رد إلى عرشه ، السياسة الفرنسية ، سياسة توحيد بولنده وبروسيا وتركيا فى صف واحد يضرب نطاقاً حول النمسا . وشعرت الحكومة الروسية بأن حلفاً كهذا من شأنه إضعافها فى صراعاتها المحتومة مع تركيا وبروسيا ، فبادرت بإرسال الروبلات إلى وارسوا لتمنع انتخاب لشتشزنسكى . ولكن الجنيهات الفرنسية كانت أثقل من الروبلات الروسية ، وفى ١٠ سبتمبر ١٧٣٣ أصبح لشتشزنسكى ملكاً على بولنده باسم ستانسلاس الأول .

ورفضت أقلية الاعتراف بانتخابه ، ووضعت نفسها تحت حماية جيش روسى زحف على الفستولا ونادى بالناخب السكسونى ملكاً على بولنده باسم أوغسطس الثالث (٦ أكتوبر) . وهكذا بدأت حرب الوراثة البولندية ، وبدأ أول تدخل حاسم لروسيا فى شئون بولنده وبحث ستانسلاس عن جيش بولنده يدافع عنه ، فلم يجد جيشاً إلا على الورق ، ففر إلى دانتزج واستنجد بفرنسا . وكان يرأس الحكومة الفرنسية آنذاك الكردينال فلورى ، ولم يكن به رغبة لخوض حرب مع روسيا النائية ، فأرسل مفرزة من ٢,٤٠٠ جندى سحقها الروس بجيش من اثنى عشر ألف مقاتل . وفر ستانسلاس من دانتزج واعتكف فى اللورين . وفى يناير ١٧٣٦ وقع على تنازله عن العرش ، وفى يوليو اعترف بأوغسطس الثالث ملكاً .

ولكنه لم يكن أصلح من لشتشزنسكى لقيادة أمة ركبت الفوضى فى صميم دستورها . وتعاون فترة مع آل تشارتوريسكى فى محاولات لإنهاء

حق النقض ، فاستعملت أسرة بوتوكى الفيتو المرة بعد المرة للاحتفاظ بهذا الحق ، وأخيراً يئس أوغسطس وأخلد إلى الدعة فى درسدن ، ولم يزر بولنده إلا لماما . واستمر الفساد واستشرى ، وشارك الملك فيه إذ ألفى نفسه عاجزاً عن وقفه ، وباع المناصب لمن يدفع فيها أغلى الأثمان . وهيمن الأقطاب على المحاكم والقوات المسلحة ، وتفاوضوا رأساً مع الدول الأجنبية وتلقوا منها الإعانات المالية (١٥) . وناورت فرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا لترى أيها يستطيع الظفر بنصيب الأسد من انحلال دولة بولنده الوشيك .

وقبل موت أوغسطس الثالث (٥ أكتوبر ١٧٦٣) وبعده تذرعت المنافسة على تعيين خلفه والتسلط عليه بكل حيلة دبلوماسية حتى وصلت إلى شفا الحرب . فطالب آل بوتوكى بجيش دائم عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ليحمى بولنده من السيطرة الأجنبية ، أما آل تشارتوريسكى فقد راضوا أنفسهم على أن تكون بولنده محمية روسية ، وتفاوضوا مع كاترين الثانية . وأدعت روسيا لنفسها الحق فى حماية الأقلية الرومية الأرثوذكسية فى بولنده ، ومدت ذاكرتها إلى الماضى البعيد لتتذكر أن أقاليم بولنده الشرقية انتزعها من روسيا سانت فلاديمير (٩٥٦ — ١٠١٥) قبل ثمانمائة سنة . أما فرنسا فقد ناصرت ابن أوغسطس الثالث خلفاً له ، فلو أن روسيا سيطرت على بولنده لأنهار صرح السياسة الخارجية الفرنسية كله فى الشرق . وأما فردريك الأكبر الذى كان قد اختتم لتوه سبع سنين من الحرب الطاحنة مع فرنسا والنمسا ، فقد كان فى حاجة إلى صداقة كاترين التى نجا من الكارثة بإذنها ، ووافق على أن يؤيد مرشحها للتاج البولندى ، ثم أبرم معها (١١ أبريل ١٧٦٤) معاهدة تلزم الطرفين سراً بمعارضة أى تغييرات فى دستور بولنده أو السويد ، مخافة أن تقضى أى زيادة فى سلطة الملك إلى جعل أحد هذين القطرين أوكليهما قوياً إلى حد خطر ؛ وهكذا اعتزما الدفاع عن الفوضى باسم الحرية . وهدأت كاترين مخاوف آل تشارتوريسكى بوعدها باختزال حق النقض المطلق بعد أن تستقر الأمور فى نصابها ، وباختيارها محسوباً من هذه الأسرة مرشحاً للعرش . وفى ٧ سبتمبر ١٧٦٤ ، وبإجماع آراء «ديت» أقنعته الروبلات ،

وجيش روسى لايبعد عنه أكثر من ثلاثة أميال ، أختير ستانسلاس بونياتوفسكى ليتبوأ عرش بولنده .

٣ — بونيا توفسكى

ولد لستانسلاس بونيا توفسكى الأب ، حاكم كراكاو، وقسطنطيا تشارتو ريسكى ، فى ٧ يناير ١٧٣٢ . قال لمدام جوفران «ربيت تربية صارمة جداً على يد أم ندر أن تجدى لها نظيرا اليوم فى أى مكان ، فى حين اكتفى أبى فى وعظى بأن أجد فيه الأسوة الحسنة » (١٦) . وحين بلغ السادسة عشرة بدأ القيام برحلات واسعة . وفى ١٧٥٣ بهر مدام جوفرات وصالونها وكل باريس تقريباً بهيأته ومسلكه وشبابه . وبعد بضع سنوات ، وجريا على سنة جيله ، كتب صورة ذاتية كانت مطابقة للحقائق مطابقة منصفة ، قال فيها :

«كان خليقاً بى أن أرضى عن شكلى لو كنت فقط أطول بوصة ... وكان أنفى أقل انعقافاً ، وفمى أصغر بعض الشيء . بهذه التحفظات أعتقد أن وجهى طلق معبر ، ومظهرى لا يخلو من امتياز . . . وكثيراً ما يجعلنى قصر نظرى أبدو مرتبكاً ، ولكن للحظة واحدة فقط . فالواقع أنى قد أوذى شعور الغير بالتطرف فى الناحية المضادة — بسلوك شديد الخيلاء ويعيننى ما حصلت من تعليم ممتاز على إخفاء عيوبى العقلية والبدنية ، حتى أن كثيراً من الناس ربما توقعوا منى أكثر مما أستطيع إعطاءه فى يسر . وعندى من الذكاء ما يكفى للمشاركة فى أى حديث ، دون أن يكفى للحديث طويلا ومراراً . على أن ما فطرت عليه من تعاطف ولطف كثيراً ما يخف لنجدتى . وبى ولع طبيعى بالفن . . . ويمنعنى كسلى أن أوغل فى الفنون والعلوم كما أشتهى . وأنا إما مفرط فى العمل وإما عاطل منه . وفى استطاعتى الحكم على الأمور حكماً جيداً جداً . . . ولكننى فى مسيس الحاجة للمشورة المخلصة لكى أنفذ أى خطة من بنات أفكارى . وأنا حساس جداً ، ولكن الحزن يؤثر فى أكثر كثيراً من الفرح . فأنا أول من ييتئس . . . وإذا أحببت أحببت حباً جماً . . . ولست

محباً للثأر . ومع أننى فى أول لحظات غيظى قد أتوق للانتقام من أعدائى ، إلا أننى لا قدرة لى أبداً على إنفاذ رغبتى ، فالحنو يقف دائماً حائلا بينى وبين الثأر» [١٧] .

وتوحى قدرة بونياتوفسكى على أن يرى ذاته — ويعبر عنها — على هذا النحو الجميل بأنه ولد ليفكر ويكتب لاليخطط وينفذ . وكان قد التقى بمونتسكيو وقرأ فولتير ؛ واكتسب رهافة ونعومة المجتمع الفرنسى الفكرية مع درجة من تلك « الحساسية» التى أخذت تجد التعبير عنها فى روسو . وكان شديد الحساسية للنساء ، ويشعر أن ما أعطينه ، جسداً وروحاً ، لا يقدر بثمن. وقد شاع أنه قبض عليه فى باريس لعدم وفائه بدين ، ثم أطلق سراحه بعد حبسه ساعة ، عندما دفعت مدام جوفران ١٠٠,٠٠٠ جنيه ليفرج عنه» [١٨] .

وبعد أن قضى فى باريس خمسة أشهر ، وإذ كان قد تعلم الانجليزية ، فقد مضى إلى انجلتره واختلف إلى بعض جلسات البرلمان ، وتطلع إلى إعادة تشكيل الموقف البولندى على غرار انجلتره كما صورها مونتسكيو . فلما عاد من رحلاته (١٧٥٤) عين مشرفاً أول للتواينا . وبعد عام رافق السير تشارلز هانبرى وليمز إلى روسيا ، وكانت النتائج كما أسلفنا . ثم عاد إلى وطنه عام ١٧٥٦ ، ولكنه ذهب إلى سانت بطرسبرج فى ١٧٥٧ سفيراً لبولنده . وشارك فى المؤامرة ضد البزابث فى ١٧٥٨ ، وأكره على الرحيل عن روسيا دون أن يمهل وحزنت كاترين على رحيله ، ولكنها حين أيدته ليرتقى عرش بولنده لم يكن دافعها أنها لم تزل تحبه ، بل لأنه (فى زعمها) أقل حقاً فى العرش من أى مرشح آخر ، وإذن فخليق به أن يكون أكثر عرفاناً بهذا الصنيع [١٩] . أما هو فلم يفق قط كل الإفاقه من تلك العلاقة الغرامية المثيرة ، وكان يتذكر كاترين قبل أن تقسى السلطة قلبها ، وبقى افتتانه بها حتى حين اتخذته مطية لإخضاع شعبه .

وبعد انتخابه بيومين أرسل النبأ إلى مدام جوفران :

« ماما العزيزة : يبدو أننى أجد لذة أعظم وأنا أدعوك بذلك الإسم

منذ أمس الأول . (وكانت أمه ميتة) لم يكن فى تاريخنا كله انتخاب بهذا الهدوء وهذا الإجماع . . وكانت كل كبريات نبيلات المملكة حاضرات فى ساحة الانتخاب وسط أفواج النبلاء . . . وسرنى أن تنادى بى أصوات جميع النساء كأصوات جميع الرجال . . . فلم لم تكونى هناك ؟ إذن لانتخبت ابنك » [٢٠] .

وقد رأينا كيف اقتحمت « ماما » طرق أوربا لتزور « ابنها » فى قصره بوارسو (١٧٦٦) . وإذ لم يكن لديها مفهوم واقعى عن الفجوة التى تفصل بين الحضارتين الفرنسية والبولندية ، فقد تاقت نفسها إلى أن تراه يرفع بولنده فى عام واحد ما يقتضى رفعه قرناً ، وأصبحت مشورتها مصدر إزعاج له ، وكدرت محبة بونياتوفسكى البنوية لها ؛ فتنفس الصعداء حين رحلت ، وإن هدأها بالمجاملات وبصورة لشخصه فى إطار مرصع بالماس . واحتفظت بالصورة ولكنها ردت الماس . فلما نأت عنه عاودها حبها له فى كل حرارته ، وكتبت له من فيينا تؤكد له « المحبة التى هى ضرورة من ضرورات حياتى» [٢١]

وبذل ستانسلاس ما وسعه من جهد . فانقطع لمهام الحكم خلال هذه السنوات الأولى بشعور الحاكم المخلص لواجبه . فكان يحضر كل يوم مداولات وزرائه ، ويعكف إلى ساعة متأخرة من الليل على مشكلات اضطلع ببحثها فى تفصيل شديد التدقيق . وقد وفق إلى حد كبير فى تدريب فيلق من الموظفين المدنيين ذوى الكفاية الفائقة والنزاهة المذهلة [٢٢] . ثم فتح بابه لمن يريد لقاءه ،وسحر الجميع بلطفه ، ولم يسحر الجميع بتحمسه للإصلاح . ولكن نشاطه خفف منه إحساسه بأنه معتمد على كاترين ، لا بل على الجيش الروسى الذى خلفته فى بولنده ليكفل سلامته وطاعته . وكان سفيرها الكونت أوتوفون شتاكلبرج يرقبه بعينه الساهرة مخافة أن ينسى سلطان روسيا عليه .

وكان الأعداء يحدقون به من بعيد ومن قريب . فالنبلاء البولنديون حزبان : الحزب الذى يتزعمه آل بوتوكى يدعو للاستقلال قبل الإصلاح ،

ويرغب فى كبح سلطة الملك بالإبقاء على قوة الارستقراطية ، والحزب الآخر الذى يتزعمه آل تشارتوريسكى يطلب الإصلاح أولا ، وحجته أن بولنده بفوضاها الراهنة أضعف من أن تنضو عنها الحماية الروسية . وكان آل تشارتوريسكى مترددين فى تأييد يونياتوفسكى ، فقد أحزنهم سرفه وكثرة خليلاته . وقد خصص له الديت ٢,٢٠٠,٠٠٠ طالر فى العام ، وفى ١٧٨٦ زادها إلى ٦,١٤٣,٠٠٠ جولدن — وهو ما يوازى ثلث إيراد الحكومة . ولكنه تجاوز مخصصاته ، لأنه كان قد اقترض من المصارف فى وطنه وفى خارجه . ودفعت الدولة ديونه مرتين ، ومع ذلك ففى عام ١٧٩٠ كان لايزال مديناً بمبلغ ١١,٥٠٠,٠٠٠ جولدن (٢٣) . وكان مثل كاترين يتطلع إلى تخليد ذكرى ملكه بتشييد الصروح الباذخة ، ووزع نفسه وحاشيته على قصرين غاليين ، وأقام حفلات الترفيه الكثيرة التكلفة ، وأغدق العطايا على الفنانين والكتاب والنساء .

وكانت جاذبيته غالية التكلفة . فلقد كان عند توليه العرش فى الثانية والثلاثين من عمره ، وسيماً مثقفاً كريماً غير متزوج ، فجمع من حوله رهطاً من الحسان يتلهفن على يده وعلى كيس نقوده . وسر العديدات ممن أخفقن فى الزواج منه أن يشاركنه فراشه ، وشاركت بعض الممثلات الباريسيات فى الترفيه عن الملك . واحتج التشارتوريسكيون ، فاعترف بخطاياه وتمادى فيها . وأخيراً قادته خليلة تدعى بانى جرابوفسكا إلى المذبح فى زواج سرى . وبعدها خضعت حياته الجنسية للرقابة الشديدة ، واستطاع أن يبذل اهتماماً أكثر بشئون الحكم والأدب والفنون .

وقد اهتم اهتماماً شخصياً بأعمال وحياة فنانى جيله ومؤلفيه . وحذا حذو كاترين فجمع الصور والتماثيل والكتب ، وبنى قاعة للفن ومكتبة ، وأبرز فى المكتبة تمثالا لفولتير . ووجد عملا للفنانين الوطنيين ، واستقدم غيرهم من فرنسا وإيطاليا وألمانيا . ولم يستطع بيرانيزى وكانوفا الحضور ، ولكنهما نفذا أعمالا له فى إيطاليا . وقد حول نصف القصر الملكى إلى مدرسة للفن ،

ودبر المال ليمكن شباب الفنانين الواعدين من الدراسة فى الخارج . وأسس قرب وارسو صناعة للبرسلان ضارعت منتجاته منتجات ميسن وسيفر . وقد ألهم بقدوته أثرياء البولنديين — كآدم تشارتوريسكى ، والیزابث لوبومیرسكا ، وهيلين رادزيفيل ، وغيرهم — ليجمعوا التحف ، ويكلفوا الفنانين بأعمال فنية ، ويحلوا تنويعات الطراز الكلاسيكى الحديث محل روكوك الفترة السكسونية فى بناء قصورهم وزخرفتها . وكان هو ذاته يحبذ مزيجاً من فن الباروك والفن الكلاسيكى ، وبهذا الطراز صمم دومنيكو مرلينى قصر لازينكى على مشارف وارسو . وكان المصورون الأجانب أثناء ذلك يدربون جيلا جديداً من الفنانين البولنديين الذين بلغوا مرحلة النضج بعد أن اختفت الحرية البولندية .

أما أول الخطوات التى أفضت إلى تلك الكارثة فكانت العقبات التى وضعها فردريك الأكبر فى طريق اصلاح بولنده لذاتها . وإلى ذلك الحين (١٧٦٧) لم يكن لدى كاترين فيما يبدو نية تقطيع أوصال قطر كبولنده خاضع خضوعاً واضحاً للنفوذ الروسى ، فالتقسيم سيوسع رقعة بروسيا بحيث تغدو عائقاً أشد خطراً مما يمكن أن تكونه بولنده السلافية أمام مشاركة روسيا فى شئون غربى أوربا وثقافتها . لذلك اكتفت بالمطالبة بإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية الكاملة . ولكن فردريك أراد أكثر من هذا . فهو لم يستطع قط أن يروض نفسه على قبول هذه الحقيقة ، وهى أن غربى بروسيا ، الألمانى البروتستنتى فى غالبيته الكبرى ، خاضع للحكم البولندى الكاثوليكى . ومن ثم كان نوع من التقسيم لبولنده هدفاً عنده لايغيب عنه . وأى تقوية لبولنده ، سياسية أو عسكرية ، ستعرقل بلوغ أهدافه ؛ لذلك أيد عملاؤه حق النقض المطلق ، وعارضوا فى تشكيل جيش قومى بولندى ، ورحبوا بالخلافات المحتدمة بين الكاثوليك والمنشقين لأنها تتيح ذريعة للغزو .

وتعاون تعصب الكهنوت الكاثوليكى الرومانى مع خطط فردريك . فقد قاوم كل محاولة تبذل لإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية . وفى « روسيا البيضاء » — التى كانت آنئذ جزءاً من بولنده ، مشتملة على منسك — انتزعت

السلطات الكاثوليكية الرومانية مائتى كنيسة من أتباعها الروم الأرثوذكس وأعطتها لطائفة الموحدين ، ومنعت الجاليا الأرثوذكسية من ترميم كنائسها القديمة وبناء أخرى جديدة . وفى حالات كثيرة فصل الأطفال عن آبائهم لينشأوا على طاعة الكنيسة الرومانية ، وأسيئت معاملة القساوسة الأرثوذكس ، وأعدم بعضهم [٢٤] ، وكان بونياتوفسكى ، وهو ربيب جماعة الفلاسفة الفرنسيين ، ميالا إلى التسامح الدينى [٢٥] ، ولكنه كان عليماً بأن الديت سيقاوم ، بالقوة ان اقتضى الأمر ، أى خطوة للسماح لغير الكاثوليكى الرومان بعضويته ؛ وأحس أنه ينبغى تأجيل اقتراحا كهذا حتى يستطيع تعديل من نوع ما لحق النقض المطلق أن يشد أزره . وأجاب فردريك وكاترين بأنهما لايطلبان من بولنده أكثر مما يمنحانه لأقلياتهم الدينية . وقدم للديت الذى اجتمع فى أكتوبر ونوفمبر ١٧٦٦ التماس من بروسيا وروسيا والدنمرك وبريطانيا العظمى بمنح اخوانهم فى الدين فى بولنده كامل حقوقهم المدنية .

وهنا أثارت بلاغة «كاجيتان سوليتك» أسقف كراكاو ثائرة النواب ، فهبوا غاضبين وطالبوا لا برفض الإلتماس فحسب ، بل بتقديم مؤيديه البولنديين للمحاكمة لأنهم خونة لبولنده ولله [٢٦] . ونجا بجلدهم من الموت نفر حاولوا الدفاع عن الملتمس [٢٧] . وحاول بونياتوفسكى أن يهدىء المجالس بإصدار (نوفمبر ١٧٦٦) نبذة سماها «آراء مواطن صالح» ودعا فيها جميع البولنديين للوحدة القومية ، وأنذرهم بأن الشعب المنقسم على ذاته يحرض على الغزو . ثم رجا فى الوقت نفسه السفير البولندى فى بطرسبرج أن يفصل روسيا عن الدول موقعة الملتمس . وكتب يقول « لو أصروا على هذا (الملتمس) فإنى لا أتوقع غير عشية كعشية (مذبحة) القديس بارتولميو للمنشقين ، وحصاداً من السفاكين أمثال رافياك يغتالوننى . . وستحيل الامبراطوره عباءتى الملكية رداء (للقنطور) نيسوس . وسيكون على أن أختار بين نبذ صداقتها وبين مناصبة وطنى العداء» . وردت عليه كاترين بطريق نيكولاى ربنان سفيرها فى وارسو تقول « لا أستطيع أن أتصور كيف يرى الملك نفسه خائناً لوطنه لمجرد أنه يؤيد مطالب العدل والإنصاف» [٢٨] .

لقد كان يفصلها عن بولنده من البون الشاسع سواء فى المسافة أو التعليم ما لا يتيح لها الشعور بوطيس الغضب والكبرياء البولنديين . فلما ألفت جماعة من نبلاء البروتستنت اتحاداً فى ثورن ، وألف حزب من المتشيعين لآل تشارتوريسكى اتحاداً فى رادوم ، أمرت كاترين ربنن بأن يعرض عليهما حماية روسيا . وتحت ستار هذه الحجة جلب ثمانين ألف مقاتل روسى إلى تخوم بولنده ، وبعضهم إلى وارسو ذاتها .

وعاد الديت إلى الإجتماع فى أكتوبر ١٧٦٧ . وحض الاسقفان زالوسكى وسولتيك النواب على الوقوف بحزم أمام أى تغيير فى الدستور . وهنا قبض ربنن على الأسقفين واثنين من العلمانيين بتهمة إهانة الامبراطورة متخطياً بونياتوفسكى ، ونقلهم إلى كالوجا على تسعين ميلا جنوب غربى موسكو . فاحتج الديت ، وأعلن ربنن أنه إذا لقى المزيد من المعارضة فإنه لن يكتفى بترحيل أربعة أقطاب فقط بل أربعين . وفى ٢٤ فبراير ١٧٦٨ استسلم الديت لتهديدات الحرب وأبرم مع روسيا معاهدة قبل بها كل مطالب كاترين . فمنح المنشقون الحرية الكاملة للعبادة الدينية ، وحقهم فى أن يختاروا لعضوية الديت وللوظائف العامة ، وتقرر أن تنظر الدعاوى القضائية بين الكاثوليك والمنشقين أمام محاكم مختلطة . وسر الديت وكاترين وفردريك بتثبيت المعاهدة لحق النقض المطلق ، مع بعض استثناءات للتشريع الاقتصادى . وقبل الديت كاترين حامية لهذا الدستور الجديد ، ولقاء هذا ضمنت كاترين الوحدة الإقليمية لبولنده ما استمر هذا الإتفاق . واغتبطت لأنها لم تكتف بمنح بولنده نصيباً من الحرية الدينية أكبر حتى مما تمتعت به انجلتره ، بل أنها أحبطت خطة فردريك لتقسيم بولنده . وتلقى بونياتوفسكى تهانى جماعة الفلاسفة وازدراء شعبه .

٤ — التقسيم الأول

اتفق الوطنيون والقساوسة البولنديون ١٧٦٨ — ٧٢ مع فردريك على عدم قبول الموقف . وأدان الأكليروس الكاثوليكى الرومانى بقوة تسليم استقلال بولنده الذاتى لامرأة ملحدة روسية . واستنفر البولنديين رجلان ،

أسقف كامر فنييك المسمى آدم كراسنسكي، ويوزف بولاسكي (أبو كاز يمير ولاسكي الذى قاتل دفاعاً عن أمريكا) ، بالعظات والنشرات ليؤكدوا من جديد حريتهم السياسية ودكتاتوريتهم الدينية . فما أنقضى أسبوع على استسلام الديت لربنن حتى ألفت جماعة من البولنديين (٢٩ فبراير ١٧٦٨) اتحاد «بار» — وهى مدينة على الدنيستر فى أوكرانيا البولندية . وكان الأقطاب الذين مولوا الحركة مدفوعين بكراهيتهم لكاترين والملك ، وكان « الجمهور الأبله » كما لقب فردريك أتباعهم يضطرم غيرة على المذهب الحق الأوحد ، وتردد صدى هذه الحماسة فى شعر الشعراء يتحسرون فى مراثى حزينة على إذلال بولنده و « ارتداد » ملكها . وبعثت تركيا والنمسا للوطنيين السلاح والمال ، وأقبل دمورييه من فرنسا لينظمهم فى وحدات مقاتلة . وانضم البولنديون الراغبون فى رد الأسرة السكسونية للعرش إلى الحركة التى ما لبثت أن انتشرت إلى مواقع متفرقة فى طول البلاد وعرضها . وكتب ربنن إلى كاترين يقول « ان بولنده بأسرها اشتعلت ناراً » . وفكر بونيا توفسكى فى الانضمام إلى الاتحاد ، ولكن أعضاءه الغلاة المتهورين نفروه وأقصوه عنه بالمطالبة بخلعه إن لم يكن بإعدامه [٢٩] . وإذا جاز أن نصدق فولتير [٣١] ، فإن ثلاثين من أعضاء الاتحاد أقسموا فى تشستوكوفا هذا القسم :

« نحن الذين أثارتنا غيرة مقدسة دينية ، والذين صممنا على الثأر لله والدين والوطن ، بعد أن أسخطنا ستانسلاس أوغسطس ، محتقر الشرائع السماوية والأرضية ، وراعى الكفار والمهرطقين ، نتعهد ونقسم أمام صورة أم الرب المقدسة المعجزية بأن نستأصل من وجه الأرض شأفة من يدنسها بوطئة الدين . فليساعدنا الرب ! » .

وأمر ربنن الجيش الروسى بإخماد الفتنة ، فطرد الاتحاديين وراء الحدود التركية وأحرق مدينة تركية . فأعلنت تركيا الحرب على روسيا (١٧٦٨) وطالبت بجلاء الروس عن بولنده وتحريرها . واغتنم القوزاق فرصة الاضطراب الشديد ليغزوا أوكرانيا البولندية ، فبطشوا بملاك الأرض ، ووكلائهم اليهود ، والفلاحين الكاثوليك الرومان أو البروتستنت ، فى مهرجان من

التقتيل العشوائى ، ففى مدينة واحدة قتلوا ستة عشر ألف رجل وامرأة وطفل . ورد الاتحاديون بقتل من وصلت إليه أيديهم من الروس والمنشقين ، وهكذا عانى البروتستنت واليهود من خطر مضاعف . ففى هذه السنوات بجملتها (١٧٦٨ — ٧٠) هلك خمسون ألفاً من سكان بولنده سواء فى المذابح أو المعارك [٣١] .

وبدأت كل الأطراف الآن حديث التقسيم . أما الاتحاديون فقد اتهمهم أعداؤهم بأنهم وافقوا على تقسيم بولنده فيما بينهم وبين حلفائهم [٣٢] . ففى فبراير ١٧٦٩ أرسل فردريك إلى سنانت بطرسبرج اقتراحاً بتقسيم بولنده بين روسيا وبروسيا والنمسا ، واشترطت كاترين فى ردها أن تمد بروسيا والنمسا يد العون لروسيا لطرد الترك من أوربا ، لكى توافق على أن تختص بروسيا بذلك الجزء من بولنده الذى يفصل بروسيا الكبرى عن بروسيا الشرقية ، أما باقى بولنده فيخضع للحماية الروسية [٣٣] ، ولكن فردريك تردد . أما شوازيل المتحدث باسم فرنسا فقد اقترح على النمسا أن تستولى على الأقاليم البولندية المجاورة للمجر . ورأتها النمسا فكرة مواتية فى وقت موات ، وعليه ففى أبريل ١٧٦٩ احتلت إقليم سبتز البولندى ، الذى كانت المجر رهنته لبولنده فى ١٤١٢ ولم يفك رهنه قط [٣٤] . وفى ١٧٧٠ اقترح الترك الذين كانوا آنئذ يقاتلون بصفتهم مدافعين عن بولنده — على النمسا تقسيم بولنده بين النمسا وتركيا [٣٥] .

وبينما كانت هذه المفاوضات دائرة ارتضت الدول الغربية فكرة تقسيم بولنده نتيجة لا مناص منها لفوضاها السياسية ، وأحقادها الدينية ، وعجزها الحربى و « أدرك كل رجل دولة فى القارة أن الكارثة واقعة لامحالة » [٣٦] . ولكن البولنديين من خصوم الاتحاديين فى هذا الوقت أوفدوا عضواً فى الديت ليطلب إلى الفيلسوف الاشتراكى مابلى ، وإلى عدو جماعة الفلاسفة روسو ، أن يضعا دستوراً مؤقتاً لبولنده جديدة . وقدم مابلى توصياته فى ١٧٧٠ — ٧١ ، أما روسو فقد فرغ من « دستور بولنده » فى ابريل ١٧٧٢ — بعد شهرين من التوقيع على أولى معاهدات التقسيم .

واستمتع اتحاد بار بلحظات من النشوة قبل انهياره . ففى مارس ١٧٧٠ ، ومن مدينة فارنا التركية ، أعلن خلع بونياتوفسكى . وفى ٣ نوفمبر ١٧٧١ ، اعترض بعض — الاتحاديين طريقه وهو يغادر منزل عم له فى الليل ، وتغلبوا على حرسه ، وقتلوا أحدهم رمياً بالرصاص ، ثم جروا الملك من داخل عربته ، وأحدثوا قطعاً فى رأسه بضربة سيف ، ثم اختطفوه من عاصمة ملكه . ولكن دورية من الشرطة هاجمتهم فى غابة بيلنى ، وأثناء العراك هرب بونياتوفسكى ، واتصل بالحرس الملكى ، فأتى رجاله وعادوا به إلى قصره مشعث الشعر ينزف دماً فى الخامسة صباحاً . وهكذا قضى على كل احتمالات المصالحة بين الحكومة والاتحاد . ولجأ بونياتوفسكى إلى المساعدة الروسية ، وقمع الاتحاد، وبقيت منه بقية فى تركيا — الهلال يحمى الصليب (١٧٧٢) [٣٧]

على أن تقدم جيوش روسيا إلى البحر الأسود والدانوب أزعج كلا من بروسيا والنمسا . فلا فردريك الثانى ولا جوزف الثانى كانا مغتبطين بتوقع سيطرة روسيا على البحر الأسود ، وأسوأ من ذلك على الآستانة . وكانت بروسيا قد تعهدت فى معاهدتى ١٧٦٤ و ١٧٦٦ بأن تساعد روسيا إذا هوجمت ، وكانت تركيا من الناحية الشكلية هى المعتدى فى حرب ١٧٦٨ الروسية التركية ؛ وكانت بروسيا تعرض خزانتها للإفلاس بإرسالها المعونات المالية لروسيا . أما النمسا التى ساءها دخول القوات الروسية فلاشيا فكانت تهدد بالتحالف مع تركيا ضد روسيا ؛ فى تلك الحالة كانت روسيا ستنتظر من بروسيا أن تهاجم النمسا . ولكن فردريك كان قد ضاق ذرعاً بالحرب . لقد خاض حربين ليستولى على سيليزيا ويحتفظ بها ، فلم يخاطر بها الآن ؟ ومن ثم آثر الطرق الدبلوماسية . وتساءل ألا يمكن استرضاء الدول الثلاث بحصص يلتهمونها من أرض بولنده ؛ لو أن الأمور تركت تجرى مجراها والسفير الروسى يحكم بولنده فعلا لما كانت المسألة إلا مسألة وقت حتى تبتلع روسيا ذلك البلد كلية متسترة وراء أى حجة . فهل ما زال فى الإمكان الحيلولة دون هذا ؟ بلى ، إذا ارتضت كاترين أن تأخذ بولنده الشرقية فقط ، وتدع فردريك يأخذ بولنده الغربية وتنسحب من الدانوب . وهل يخفف

من شره يوزف للقتال أن يعطى نصيباً من الغنيمة ؟

وعليه فى يناير ١٧٧١ اقترح الأمير هنرى ، أخو فردريك ، الخطة على الدبلوماسيين الروس فى سانت بطرسبرج . واعترض بنن بأن روسيا قد ضمنت وحدة بولنده الإقليمية ، فذكروه بأن هذا الضمان كان رهناً بالتزام بولنده بدستورها الجديد وتحالفها مع روسيا ، وأن هذا الالتزام انقطع بانضمام العدد الكبير من النواب لاتحاد بار المتمرد . ومع هذا لم ترض كاترين عن الخطة . فأى شىء يدعوها لإعطاء فردريك جزءاً من بولنده بينما قد تأخذ هى الكل بعد قليل ؛ ولم تدعم قوة بروسيا بمزيد من الأرض ، والموارد ، والثغور البلطية ، و مزيد من الجند الفارعين ، ولكنها لم ترد خوض حرب مع فردريك ، فقد كان لديه ١٨٠,٠٠٠ رجل تحت السلاح ، وآثرت على ذلك أن تجعله يمنع يوزف من الاتحاد مع تركيا ضد روسيا ، فهدفها الحاضر ليس بولنده بل البحر الأسود . وعليه فى ٨ يناير ١٧٧١ ، أشارت لهنرى عرضاً فى حفلة إلى موافقتها مبدئياً على خطة فردريك .

وانقضى عام قبل أن تتمكن المفاوضة من الفصل فى تقسيم الغنيمة . فقد أراد فردريك أن يأخذ دانتزج ، فاعترضت كاترين ؛ وكذلك بريطانيا التى كانت تجارتها مع البلطيق ترسو على ذلك الثغر . وفى غضون هذا عبأت النمسا قواتها ، وتحالفت سراً مع تركيا . وفى ١٧ فبراير ١٧٧٢ وقع فردريك وكاترين « اتفاقاً » على تقسيم بولنده . وألانت كاترين جانب يوزف بتخليها عن جميع مطالب روسيا فى فلاشيا ومولدافيا ؛ ثم إن رداءة محصول ١٧٧١ جعل من المستحيل عليه إطعام جيشه . وكانت ماريا تريزا من جهة أخرى تتوسل إلى ولدها بكل دموعها لتمنعه من الاشتراك فى اغتصاب بولنده ، غير أن فردريك وكاترين أكرهاه على الموافقة بشروعهما فى الاستيلاء الفعلى على الأقاليم التى خصا نفسيهما بها . وفى ٥ أغسطس ١٧٧٢ أضاف يوزف توقيعه على ميثاق التقسيم .

أما المعاهدة فبعد الديباجة التى ابتهلت إلى الثالوث المبارك ، وافقت على أن تحتفظ بولنده بثلثى أرضها وثلث سكانها . واستولت النمسا على بولنده الجنوبية بين فولينيا والكربات ، مع غاليسيا وبودوليا الغربية — ٢٧,٠٠٠

ميل مربع ، و ٢,٧٠٠,٠٠٠ — نسمة . وأخذت روسيا « روسيا البيضاء » (بولنده الشرقية إلى دوينا ودنيبر) ٣٦,٠٠٠ ميل مربع ، و ١,٨٠٠,٠٠٠ نسمة . وأخذت بروسيا « بروسيا الغربية » فيما عدا دانتزج وتورن ١٣,٠٠٠ ميل مربع و ٦٠٠,٠٠٠ نسمة . وأخذ فردريك أصغر نصيب ، ولكنه كان قد ألزم المتآمرين بالسلام ، و « خاط » — على حد قوله بروسيا الغربية وبروسيا الشرقية مع براندنبرج . وقد قال الوطني ترايتشكى إن فردريك على أية حال لم يفعل أكثر من أنه رد إلى ألمانيا « معقل الفرسان التيوتون ، — وادى فايشيزال الجميل — الذى انتزعه الفرسان الجرمان من البرابرة فى الأيام الحالية » [٣٨] وذكر فردريك أوربا بأن سكان بروسيا الغربية كثرتهم العظمى ألمانية وبروتستنتيه ، أما كاترين فقد ذكرت أن الإقليم الذى أخذته يسكنه كله تقريباً اتباع الكنيسة الرومية الكاثولوليكية المتحدثون بالروسية [٣٩] .

وسرعان ما احتلت الدول الثلاث أنصبتها من الغنيمة بجيوشها . واستنجد بونياتوفسكى بالدول الغربية لتمنع التقسيم ، ولكنها كانت فى شغل شاغل عنه ؛ ففرنسا تتوقع الحرب مع انجلتره ، وقد ترددت فى معارضة حليفتها النمسا ، وانجلتره تواجه الثورة الوليدة فى أمريكا ، والخطر الذى قد يأتيها من فرنسا وإسبانيا ؛ ونصح جورج الثالث بونياتوفسكى بأن يصلى لله [٤٠] . وطالبت الدول صاحبة التقسيم بدعوة الديت ليصدق على التقسيم الجغرافى الجديد ؛ فماطل بونياتوفسكى عاماً ، وأخيراً دعا الديت للاجتماع فى جرودنو. ورفض الكثير من النبلاء والأساقفة حضوره ، وبعض الذين جاءوا واحتجوا نفوا إلى سيبيريا ؛ وقبل غيرهم الرشا ؛ وحولت البقية المتخلفة من الديت نفسها إلى اتحاد كونفدرالى (يبيح فيه القانون البولندى حكم الأغلبية) ، ووقع الديت المعاهدة التى نزلت عن الأقاليم المنتزعة من بولنده (١٨سبتمبر ١٧٧٣) وبكى بونياتوفسكى ووقع كما بكت ماريا تريزا ووقعت .

وقبلت أوربا الغربية هذا التقسيم الأول على أنه البديل الوحيد لابتلاع روسيا لبولنده ابتلاعاً تاماً . ويقال إن بعض الدبلوماسيين « أذهلهم اعتدال

الشركاء ، الذين اكتفوا بالثلث فى حين كان الكل رهن إشارتهم إن طلبوه»[٤١] .
واغتبط جماعة الفلاسفة لأن بولنده المتعصبة عاقها مستبدوهم المستنيرون ،
ورحب فولتير بالتقسيم باعتباره هزيمة تاريخية للكنيسة الكاثوليكية ، [٤٢]
ولكنه بطبيعة الحال لم يكن سوى انتصار للقوة المنظمة على العجز الرجعى .

٥ — التنوير البولندى ١٧٧٣ — ٩١

كان على بونياتوفسكى أن يختار الآن بين روسيا وبروسيا حامياً له وسيداً عليه . فاختار روسيا ، لأنها أكثر بعداً ، ولأن روسيا دون غيرها تستطيع منع فردريك من الاستيلاء على دانتزج وتورن . وكانت كاترين تواقة إلى الحيلولة دون مزيد من توسع بروسيا ، التى كان جيشها العقبة الكؤود فى طريق التوسع الروسى غرباً . لذلك أمرت سفيرها فى وارسو بأن يقدم العون لبونياتوفسكى بكل طريقة تتفق ومصالح روسيا ، وأرسلت إلى الملك المقترحات التى وضعها بنين من قبل لدستور بولندى أيسر تنفيذاً . وقد احتفظ هذا الدستور بنظام الملكية الانتخابية وحق النقض المطلق ، ولكنه دعم قوة الملك بأن أقام برآسته ، وكأداته التنفيذية ، مجلساً دائماً من ستة وثلاثين عضواً ، ينقسم إلى وزارات للشرطة والعدل والمالية والشئون الخارجية والحرب ؛ ثم نص على إنشاء جيش نظامى من ثلاثين ألف مقاتل . وخاف النبلاء أن يهدد جيش كهذا سيطرتهم على الملك ، فخفضوا العدد إلى ثمانية عشر ألفاً ، على أن الديت الذى انعقد فى ١٧٧٥ صدق على الدستور الجديد مع هذا الاستثناء واستثناءات صغيرة أخرى ، وأصبح فى وسع بونياتوفسكى الآن أن يشرع فى رد شىء من العافية على الأمة .

واستمر الفساد ولكن الفوضى قلت ، فأمكن التغلب على عصابات قطاع الطرق ، ونما الاقتصاد القومى . وعمقت الأنهار لتسمح بمرور السفن الكبيرة ، وشقت الترع لتصل بين الأنهار ، وأكملت فى ١٧٨٣ « قناة ملكية» تربط البحرين البلطى والأسود . وازداد سكان بولنده بين عامى ١٧١٥ و ١٧٧٣ من ٦,٥٠٠,٠٠٠ إلى ٧,٥٠٠,٠٠٠ ، وتضاعف دخل الدولة . وتقرر نظام للمدارس القومية ، وأعدت الكتب المدرسية وزود بها التلاميذ ،

ومنحت الهبات من جديد لجامعتى كراكاو وفلنو وبعث فيهما النشاط ، وأسست الدولة كليات لتخريج المعلمين ومولتها . وكان يونياتوفسكى يحب أن يحيط نفسه بالشعراء والصحفيين والفلاسفة . كتب كوكس يقول « إن الملك يولم كل خميس للأدباء المشهورين بعلمهم وقدراتهم ، وجلالته يترأس بنفسه المائدة » [٤٣] . ويقود النقاش فى الكتب والأفكار . وقد استضاف ثلاثة مؤلفين ليعيشوا معه ، ورفع دخل مؤلفين آخرين فى صمت [٤٤] . وكان آلاف البولنديين ، مع تقديمهم فروض الإجلال للكنيسة — يقرءون لوك ومونتسكيو وفولتير وديدرو ودالامبير وروسو . وهكذا أرسيت أسس التنوير البولندى أو الستانسلافى .

وقد اجتذب يسوعى يدعى آدم ناروشفتش أذن الملك بشعره ؛ فرقى أسقفاً ، ولكنه واصل نظم الشعر العاطفى للطبيعة ، ومازال « ترنيمته للشمس » و « فصوله الأربعة » تحبب فيه من يستطيعون قراءته فى الأصل . وقد استعملت « قصائده الهجاءة » ألفاظاً شعبيه رابيلية الطابع أحياناً أو نابية . وطلب إليه ستانسلاس أن يكتب تاريخاً لبولنده يجمع بين السهولة والعمق . فأنفق الشاعر فى هذا العمل تسع سنين ، وأخرج فى ستة مجلدات (١٧٨٠ — ٨٦) أثراً يمتاز بتوثيقه الدقيق . ولكن حماسته فترت بعد التقسيم الثانى ، وأصيب بالاكتئاب ، ولم يعمر أكثر من سنة بعد التقسيم الأخير [٤٥] .

أما أبرز كتاب العهد البولنديين فهو اجناتسى كراسيكى . وقد اكتسب فى رحلاته صداقة فولتير وديدرو [٤٦] وأصبح قسيساً ، ثم رئيساً للأساقفة آخر الأمر ، ولكن ستانسلاس حثه على إطلاق العنان لمواهبه الشعرية . فكتب ملحمة هازلة سماها « ملحمة الفيران ، انتقد فيها نقداً لاذعاً حروب جيله وصورها معارك بين الجرذان والفيران . وفى قصيدته «هوس الرهبنة» (١٧٧٨) هزأ بالخصومات الديرية وأسلحتها الفتاكة هى الكتب اللاهوتية . ثم اتجه إلى النثر ، فروى فى « مغامرات السيد نيقولا المكتشف» (١٧٧٦) كيف اكتشف نبيل بولندى شاب ، مزود بكل حصيلة العصر وعواطفه ، تحطمت به السفينة على جزيرة غريبة ، أن الرجال والنساء يمكن أن يكونوا

مجدين فضلاء رغم وجودهم فى « حالة الفطرة » . وقد اقتفى خطى هومر وسويفت وديفو فى أعماله هذه ، ثم اقتبس أسلوب أديسون وأخرج سلسلة من صور الحياة اليومية ، منها « بان بودستولى » (١٧٧٨ وما بعدها) التى تصف حياة جنتلمان ومواطن مثالى . وفى « قصص خرافية وأمثال (١٧٧٩) تحدى فيدروس ولافونتين ، وهاجم فى تهكم لاذع خراب الذمة والوحشية المستشرية من حوله . وكانت آخر نصيحة له هوراسية النزعة ، « التمس لك ركناً هادئاً ، ودع السعادة تأتيك خلسة » [٤٧] .

ومع أن تأثير التنوير الفرنسى على ناروشفتش وكراسيكى قد حد منه سلطان الدين ، إلا أنه ظهر بشكل قاطع فى ستانسلاس ترمبيكى ، الذى لم يذكر الدين قط إلا بروح العداء . وقد مجد شعره الطبيعة ، ولكن ليس فى تلك المظاهر السارة التى كثيراً ما تحرك العواطف الرقيقة ؛ فقد آثر جوانبها الأكثر جموحاً ووحشية ، إسرافها المجنون فى إنتاج النبات والحيوان ، عواصفها وسيولها ، صراع الحياة مع الحياة والمأكول مع الآكل ؛ واقتبست خرافاته شكلها من لافونتين ولكن روحها منقول عن لوكريتيوس . وقد أكسبته قوة شعره ورهافته وصقله مكانة مرموقة فى هذا الازدهار الأدبى . وسانده بونياتوفسكى فى جميع محنه ، وعند خلع الملك رافقه الشاعر فى المنفى ، ومكث معه حتى مات .

وكان هناك شعر دينى كثير ، لأن الدين كان العزاء الأخير للبولنديين فى خطوبهم الشخصية والقومية . وقصائد فرانتشيشيك كارپنسكى المسماة « أغنية الصباح» و « أغنية المساء » و« ولادة المسيح » أدب كما أنها تعبد . أما فرانتشيشيك كنيازنين فكان يتنقل فى غير عناء بين هذين العدوين القديمين ، الدين والجنس ، فحين أشرف على دخول القسوسية اكتشف أناكريون والحب ؛ ونشر قصائد غزلية « إيروتيكا » (١٧٧٠) ، ونشد سعادة الدنيا ، ثم عاد إلى الدين ، ومات مجنوناً . إن محاولة التوفيق بين النقيضين قد تفضى إلى الجنون كما تفضى إلى الفلسفة .

أما فى مضمار الدراما فإن أبرز رجالها هو فويتسيش بوجو سلافسكى ،

الذى يكرم وطنه ذكراه باعتباره «أبا المسرح البولندى» ؛ ويجوز لنا أن نسميه « جاريك » بولنده ، ولكن البولنديين لو سئلوا لوصفوا جاريك بأنه بوجوسلافسكى انجلتره . وكان فيما يبدو أول بولندى كرس حياته كلها للمسرح ، ممثلا ، وكاتباً مسرحياً ، ومخرجاً ، ومديراً لمسارح دائمة فى وارسو ولفوف ، ومديراً لشركات نشرت تذوق الدراما فى طول البلاد وعرضها ووراء الحدود . قدم شكسبير وشريدان مترجمين ، وألف هو نفسه كوميديات ما زال بعضها يمثل على المسرح البولندى . وكانت أفضل تمثيليات هذه الفترة هى «عودة النائب» بقلم جوليان أورسين نيمتشفتش الذى كان هو نفسه نائباً ، فقد صور جانبى الأزمة السياسية تصويراً دراميا فى حب نائب من دعاة الإصلاح لفتاة يدافع أبواها عن امتيازات الأقطاب وأساليب العيش فى الماضى .

وآخر رجال التنوير البولنديين وأعظمهم هو هوجو كوللونتاج . نقل إليه تعليمه عدوى أفكار جماعة الفلاسفة ، ولكنه ستر هرطقاته ستراً كافياً حتى حصل على وظيفة كاهن مربحة فى كراكاو . وعينه يونياتوفسكى (١٧٧٣) عضواً فى لجنة للتعليم ، وضع لها كوللونتاج وهو لايزال فى الثالثة والعشرين برنامجاً لإصلاح تعليمى يتفق وخير برامج جيله . وحين ناهز السابعة والعشرين وكل بإعادة تنظيم جامعة كراكاو ، وأنجز المهمة فى بضع سنين ، ثم بقى فى الجامعة مديراً لها . وفى « خطابات من كاتب مجهول إلى رئيس الديت» (١٧٨٨ — ٨٩) ، وفى « القانون السياسى للأمة البولندية» (١٧٩٠) قدم مقترحات أصبحت أساساً لدستور ١٧٩١ .

وكافحت بولنده ، بفضل حث شعرائها ومعلقيها ، لتنير نفسها وتصبح دولة قوية قادرة على الدفاع عن ذاتها . وحانت الفرصة حين عرض فردريك وليم الثانى — خلف فردريك الثانى — على «ديت السنين الأربع» الذى استمر انعقاده من ١٧٨٨ إلى ١٧٩٢ تحالفاً تتعهد فيه بروسيا بأن يحمى جيشها القوى بولنده من أى تدخل أجنبى . وكانت روسيا فى شغل بحربها مع تركيا والسويد ، فالآن قد تستطيع بولنده أن تعتق نفسها من خنوعها الطويل لكاترين ، وتتخلص من أعمال السلب والنهب التى اقترفها الجنود الروس على الأرض

البولندية طوال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة . وحل الديت مجلس بونياتوفسكى الدائم رغم احتجاجاته ، ووافق على أن يجند بإذن الديت جيش من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وأمر الجيش الروسى بالرحيل عن بولنده فوراً (مايو ١٧٨٩)، إما كاترين التى كانت فى حاجة لجميع قواتها فى مواقع أخرى فلم تقاوم ، ولكنها أقسمت على الانتقام . وفى ٢٩ مارس ١٧٩٠ أبرم الديت تحالفاً مع بروسيا .

وكان بونياتوفسكى هو أيضاً قد ثمل الآن بجو الحرية . فنبذ ولاءه لكاترين وتزعم صياغة دستور جديد . وقد نصت شروطه على جعل الملكية وراثية ، ولكنها ضمنت وراثة البيت المالك السكسونى للعرش بعد موت بونياتوفسكى الذى لم يعقب . وتقرر أن توسع سلطات التاج التنفيذية بإعطاء الملك حق النقض المعلق — أى حق منع قرار وافق عليه دايت من أن يصبح قانوناً حتى يؤكده الدايت التالى . ونص على أن يعين الملك وزراءه والأساقفه ، وأن يتولى قيادة الجيش ، وعلى أن ينتخب عدد صغير من المواطنين وغيرهم من أهل المدن نواباً . أما الديت فيتألف من مجلسين ؛ مجلس للنواب له وحده الحق فى وضع القوانين ، ومجلس للشيوخ — يتألف من الأساقفه وحكام الأقاليم ووزراء الملك — تشترط موافقته على أى قانون . أما حق النقض المطلق فتحل محله قاعدة الأغلبية . ويعترف بالمذهب الكاثوليكى الرومانى ديناً سائداً للأمة ، ويعد الارتداد عنه جريمة ، وفيما عدا ذلك فحرية العبادة مكفولة للجميع . وبقيت القنية ، ولكن للفلاحين الآن أن يستأنفوا دعاواهم من المحكمة الوراثية إلى محكمة إقليمية أو قومية . وكان تأثير الدستور الذى اتخذته الولايات المتحدة الأمريكية (١٧٨٧ — ٩٨) واضحاً فى هذه التوصيات . ذلك أن البولنديين الذين حاربوا دفاعاً عن المستعمرات الأمريكية كانوا قد هيأوا ذهن بونياتوفسكى ، ولم يكن قد نسى قراءته للوك ومونتسكيو وجماعة الفلاسفة .

ورغبة فى ضمان التصديق على مقترحاته لجأ بونياتوفسكى إلى الحيلة ؛ ذلك أن كثيراً من أعضاء الديت ذهبوا إلى مواطنهم لقضاء عطلة عيد القيامة عام ١٧٩١ . فدعاه الملك للانعقاد فى ٣ مايو ، وهو تاريخ أبكر من أن

يتيح للأعضاء البعيدين العودة إلى وارسو لحضور الإفتتاح الجديد ؛ أما النواب القريبون الذين وصلوا فى الميعاد فكان أكثرهم أحرار النزعة يمكن الاعتماد عليهم فى تأييد الدستور الجديد . وعرض عليهم فى القصر الملكى بمجرد اجتماعهم ، فقوبل بتصفيق جارف ، وصدق عليه بأغلبية كبيرة . وقد تذكر البولنديون الوطنيون ذلك اليوم ، الثالث من مايو ١٧٩١ ، فى فخر واعتزاز ، وخلدوه فى الأدب والفن والأغانى البولندية .

٦ — تمزيق بولنده ١٧٩٢ — ٩٥

اعترفت جميع الدول بالدستور الجديد إلا روسيا . ووصفه إدموند بيرك بأنه « أنبل امتياز نالته أمة فى أى زمان » وصرح بأن ستانسلاس الثانى قد تبوأ مكاناً فى التاريخ بين عظماء الملوك ورجال الدولة [٤٨] ، ولكن هذه الحماسة ربما كانت انعكاساً لابتهاج انجلتره بهزيمة كاترين .

وأخفت الامبراطورة حينا عداءها لبولنده الجديدة ، ولكنها لم تغفر طرد جيشها منها على عجل ، ولا إحلال النفوذ البروسى محل الروسى فى الشئون البولندية . فلما أنهت معاهدة ياسى (٩ يناير ١٧٩٢) حربها مع تركيا ، وتحررت من الخوف من شريكيها السابقين فى الجريمة — بروسيا والنمسا — لتورطهما فى الحرب ضد فرنسا الثائرة (ابريل ١٧٩٢) ، تلفتت حولها تبحث عن مدخل جديد إلى بولنده .

وقد هيأه لها البولنديون المحافظون ، إذ وافقوا كاترين كل الموافقة على أن دستور بونياتوفسكى قد صدق عليه ديت جمع على عجل بحيث لم يستطع أشراف كثيرون حضوره . وكان فيلكس بوتوكى وغيره من الأقطاب ساخطين أشد السخط على التخلى عن حق النقض المطلق الذى ضمن لهم القوة أمام السلطة المركزية ، ولم يكونوا راغبين فى النزول عن حقهم فى انتخاب الملك ، وفى الهيمنة عليه تبعاً لذلك . ورفض بوتوكى حلف يمين الولاء للمرسوم الجديد ، ثم قاد جماعة من النبلاء إلى سانت بطرسبرج وطلب إلى الإمبراطورة أن تساعدهم على إعادة الدستور الأقدم (دستور ١٧٧٥) الذى

سبق أن تعهدت بحمايته . فأجابت بأنها لاتريد التدخل فى بولنده بناء على طلب أفراد قليلين ، ولكنها ستنظر فى نداء من أقلية بولندية منظمة يعتد بها ، وأحيط فردريك وليم الثانى علماً بهذه المفاوضات ، وكان متورطاً فى الحرب ضد فرنسا ، كارهاً لخوض حرب ضد روسيا ، فأخبر الحكومة البولندية (٤ مايو ١٧٩٢) بأنها إن كانت تنوى الدفاع عن دستورها الجديد بقوة السلاح فعليها ألا تتوقع الدعم من بروسيا (٤٩) . وقفل بوتوكى إلى بولنده ، وألف (١٤ مايو ١٧٩٢) ، فى بلدة بأوكرانيا ، اتحاد تارجوفيكا ، ودعا للانضواء تحت لوائه كل الذين يريدون إعادة الدستور القديم . ولقب اتباعه أنفسهم بالجمهوريين ، وأدانوا تحالف بولنده مع بروسيا ، وأثنوا على كاترين ، والتمسوا بركتها وطلبوا جيشها .

فأرسلتهما جميعاً ، وزحف الاتحاديون على وارسو بعد أن توفر لهم هذا الدعم . وكانت دعوتهم إلى « الحرية » قد أحدثت بعض التأثير ، لأن مدناً عديدة استقبلتهم استقبالها للمحررين ؛ وفى تريسابول (٥ سبتمبر) رحب القوم ببوتوكى كأنه فعلا ملك بولنده الجديد . ودعا بونياتوفسكى الديت أن يعطيه كل السلطات التى تلزم للدفاع . فعينه دكتاتوراً ، ودعا كل الذكور البالغين من البولنديين للخدمة العسكرية ، ثم ارفض . وعين بونياتوفسكى ابن أخيه ، الأمير يوزف بونياتوفسكى ذا التسعة والعشرين عاما ، قائداً أعلى للجيش الذى وجده مفتقراً إلى التدريب ومجهزاً أسوأ تجهيز . وأمر يوزف جميع كتائب الجيش بأن تنضم إليه فى لوبار على نهر سلوتش ، ولكن القوات الروسية كانت قد طوقت الكثيرين فلم يستطيعوا الحضور ، والذين حضروا كانوا أضعف من أن يقفوا الزحف الروسى . وتقهقر الشاب إلى بولرن ، مركز إمداداته تقهقراً منظماً أتاحه قتال المؤخرة الباسل بقيادة تاديوس كوتشيوسكو ، الذى كان قد حارب من قبل فى صفوف المستعمرات فى أمريكا ، وكان الآن وهو فى السادسة والأربعين عريقاً فى أمجاد الوطنية والحرب .

وفى ١٧ يونيو ١٧٩٢ التقى البولنديون بجيش روسى كبير عند زيلنتسى ، وهزموه فى أول معركة حامية انتصرت فيها بولنده منذ أيام سوبييسكى . هنا أيضاً أثبت كوتشيوسكو مهارته ، باستيلائه على ربوة سيطرت منها مدفعيته على ساحة المعركة ؛ أما يوزف ، الذى كان إلى الآن موضع الريبة فى كفايته من مرءوسيه الذين فى مثلى عمره ، فقد كسب احترامهم بقيادته احتياطيه من الجنود بشخصه ليكره الروس على التقهقر . وأثلج نبأ النصر صدر بونياتوفسكى ، ولكن كاد يغلب هذا النبأ نبأ آخر بأن الأمير لودفج فورتمبرج قائد الجيش البروسى الموكل بالقوات البولندية فى لتوانيا ، قد هرب من موقعه تاركاً جنوده فى حالة من الفوضى أتاحت للروس فى ١٢ يونيو الاستيلاء على فلنو عاصمة لتوانيا دون مشقة .

لم يبق من أسباب الدفاع عن بولنده الآن غير جيش يوزف . وكانت مؤنه وعتاده من الضآلة بحيث اضطرت أفواجه إلى الصيام أربعا وعشرين ساعة ، ولم تملك المدفعية غير اثنى عشر صندوقاً من الذخيرة . فأمر الأمير بالتقهقر إلى دوبنو ؛ فلما رمى بالجبن ثبت عند دوبينكا (١٨ يوليو) واستطاع بجيشه البالغ ١٢,٥٠٠ مقاتل أن يتعادل مع ٢٨,٠٠٠ مقاتل روسى . ثم تقهقر بنظام حسن إلى كوروف ، حيث انتظر وصول التعزيزات والمؤن التى وعده بها الملك .

ولكن ستانسلاس كان قد يئس . ذلك أن رفض فردريك وليم الثانى أن ينفذ شروط الحلف البروسى البولندى ، وخيانة الأمير لودفج ، وهروب المئات من الجيش الذى جمعه فى براجا — كل أولئك كان فوق ما تطيقه روحه التى لم تكن يوماً ما شديدة البسالة . وعليه فقد أرسل نداء شخصياً لكاترين يلتمس شروطاً مشرفة ، وكان جوابها (٢٣ يوليو) إنذاراً نهائياً يشترط عليه الانضمام إلى اتحاد تارجوفيكا وإعادة دستور ١٧٧٥ . وقد صدمته لهجتها التى لم تعرف هوادة ولا ليناً ؛ أفهذه هى المرأة التى استجابت يوماً لغرامه الطائش ؟

وكان حنانه هو المسيطر عليه الآن . فلقد فكر فى المقاومة ، وفى التسلح والمضى إلى الجبهة ليقود دفاعاً يائساً ؛ ولكن زوجته ، وأخته ، وابنة أخية ، اشتد بكاؤهم لفكرة موته وما يجره عليهم من الوحدة والأسى ، حتى وعد الملك بأنه سيسلم . ثم ما جدوى المقاومة بعد هذا كله ؟ فبعد أن قطع الأمل فى أى معونة من بروسيا — فى وقت توقع فيه الهجمات على الجبهة الغربية العزلاء — ، كيف تستطيع بولنده الوقوف فى وجه روسيا ؟ ألم يحاول جاهداً أن يثنى الديت عن الاستخفاف بكاترين والمغامرة بكل شىء اعتماداً على وعود بروسيا ؟ ألم يلح فى طلب جيش كبير حسن التجهيز ، وألم يرفض الديت اعتماد المال لهذا الجيش بعد أن وافق على الرجال ؟ وحتى لو حقق الجيش البولندى الراهن انتصاراً أو اثنين على الروس ، أفلا تستطيع كاترين ، المتخمة بالجنود بعد أن أبرمت الصلح مع تركيا ، أن ترسل الموجة تلو الموجة من الجنود المدربين المدججين بالسلاح ضد فلوله المبعثرة المختلة النظام ؟ فعلام التضحية بمزيد من الأرواح ، وإسلام نصف بولنده إلى الخراب ، إذا كان التسليم هو النهاية على كل حال ؟

أرسل السفير الروسى الجديد ، ياكوف سيفرس ، إلى أخته وصفا ملؤه العطف يصور فيه بونياتوفسكى فى هذه الساعة ، ساعة الانهيار البدنى والروحى قال :

« لم يزل الملك (فى عامه الستين) رجلا وسيماً أنيقاً . وإن كان وجهه شاحباً . ولكن فى وسع المرء أن يرى أن ستاراً قاتماً قد أسدل على روحه . إنه يحسن الحديث ، بل يتحدث بفصاحة . وهو مجادل حسن الاستماع دائماً ومع الجميع . ومسكن سىء ، وهو مهمل ، مزدرى مخذول . ومع ذلك فهو ألطف الناس جميعاً . وإذا غضضت النظر عن منصبه الرفيع ، وتأملته من وجهة النظر الشخصية فقط ؛ قلت إن فضائله ترجح رذائله . ولا ريب فى انه أسوأ الملوك حظاً بعد لويس السادس عشر . إنه يحب أقرباءه حباً جماً . وهؤلاء الناس هم علة نكباته كلها (٥١) .

وفى ٢٤ يوليو ١٧٩٢ قرأ بونياتوفسكى الإنذار النهائى الروسى على مستشاريه الخصوصيين ، ونصحهم بأن يركنوا إلى سماحة كاترين وشهامتها . واحتج كثيرون منهم على هذه السذاجة . واقترح أحدهم المدعو مالا خوفسكى أن يجمع فى ساعة واحدة ١٠٠,٠٠٠ جولدن لأغراض الدفاع ، وألح على أن الجيش البولندى يستطيع — حتى إذا اقتضى الأمر التخلى عن وارسو — أن يتقهقر إلى كاركاو ويجند جيشاً جديداً فى الجنوب الآهل بالسكان . وهزم اقتراح بونياتوفسكى بالتسليم فى المجلس بأغلبية عشرين صوتاً ضد سبعة . ولكنه أبطل قرارهم بحكم سلطته دكتاتوراً ، وأمر ابن أخيه بالكف عن المقاومة . ورد يوزف بأن على الملك بدلا من هذا التسليم أن يبادر إلى الجبهة بما يستطيع جمعه من قوات ويقاتل إلى النهاية . فلما أصر ستانسلاس على انضمام الجيش إلى الاتحاد أرسل إليه جميع الضباط إلا واحداً استقالاتهم وعاد يوزف إلى موطنه السابق فى فيينا . وفى ٥ أغسطس احتل جيش روسى براجا . وفى أكتوبر أرسل يوزف رجاء إلى عمه يدعوه لاعتزال ماكه قبل أن تزول البقية الباقية من الشرف . وفى نوفمبر دخل بوتوكى مع طلائع جيش الاتحاديين وارسو دخول الظافر ، وألقى على بونياتوفسكى درساً فى واجبات الملك . ولكن انتصار بوتوكى تبين بعد قليل أنه كارثة ، لأن الجنود البروسيين دخلوا بولنده فى يناير ١٧٩٣ ، وواصلوا زحفهم ليحتلوا دانتزج وتورن ، دون أن يطلق حلفاء بوتوكى الروس رصاصة ليمنعوهم . ووضح أن روسيا وبروسيا قد اتفقتا على تقسيم بولنده ثانية .

وكانت كاترين وفردريك وليم قد وقعا هذا الاتفاق فى ٢٣ يناير ، ولكنهما تكتما أمره حتى ٢٨ فبراير . أما بوتوكى فقد استنفر البولنديين من جميع الأحزاب ليهبوا دفاعاً عن بولنده ؛ فضحكوا منه ، وندد به يوزف خائناً لوطنه ، وتحداه للمبارزة ، ولكن ستانسلاس منعها .

وبمقتضى هذا التقسيم الثانى حصلت روسيا على ٨٩,٠٠٠ ميل مربع من بولنده الشرقية ، يعيش فيها ٣,٠٠٠,٠٠٠ من السكان ، بما فى هذا

فلنو ومنسك ؛ أما بروسيا فأخذت ٢٣,٠٠٠ ميل مربع من بولنده الغربية ، يعيش فيها ١,٠٠٠,٠٠٠ من السكان بما فيها دانتزج وتورن ؛ وبقى لبولنده ٨٠,٠٠٠ ميل مربع و ٤,٠٠٠,٠٠٠ نسمة — وهو يقرب من نصف ما ترك لها من قبل فى ١٧٧٣. ولم يكن للنمسا نصيب فى هذه الغنيمة الثانية ، ولكن هدأتها الوعود الروسية بمساعدتها فى الحصول على بافاريا . أما الدول الغربية التى كانت لاتزال منهمكة فى صراعها مع فرنسا الثائرة فلم تتخذ أى اجراء ضد هذا الاغتصاب الثانى ، الذى عللته لها كاترين بأنه ضرورة اقتضاها تطور الدعوة الثورية فى وارسو ، التى تهدد بالخطر جميع الملكيات.

ولكى تلبس هذه السرقة ثوب الشرعية أمرت بونيا توفسكى أن يدعو الديت للاجتماع فى جرودنو ، وأمرته بالحضور بشخصه ليوقع على تحالف مع روسيا فأبى الذهاب أول الأمر ، ولكن حين عرضت الوفاء بديونه — التى بلغت الآن ١,٥٦٦,٠٠٠ دوقاتية — قبل هذا الإذلال الجديد خدمة لدائنيه . وزود السفير الروسى بالمال لرشوة عدد كاف من النواب ليحضروا اجتماع الديت ، ولم يجد عناء فى رشوة عدة أعضاء من بطانة الملك ليفشوا كل كلمة فاه بها سيدهم وكل عمل أتاه . وأمكن اقناع هذا « الديت الأخير » (١٧ يونيو إلى ٢٤ نوفمبر ١٧٩٣) بأن يوقع معاهدة مع روسيا ، ولكنه ظل شهوراً يأبى التصديق على التقسيم الثانى . وقيل للأعضاء أنهم ممنوعون من مغادرة القاعة حتى يوقعوا ، فظلوا على رفضهم وجلسوا صامتين اثنتى عشرة ساعة . ثم طرح الرئيس المسألة للتصويت ، فلما لم يسمع جواباً أن السكوت علامة الرضى (٢٥ سبتمبر) . وعاد ما بقى من أرض بولنده محمية روسية ؛ وأعيد دستور ١٧٧٥ .

وإذا كان فى استطاعة رجل واحد أن يفتدى الأمة فذلك هو كوتشيوسكو أمده التشارتورسكيون بالمال فذهب إلى باريس (يناير ١٧٩٣) والتمس معونة فرنسا لبلد يتعاطف فى حرارة مع الثورة الفرنسية . وتعهد بأنه لومدت فرنسا يد المعونة لبولنده لهب الفلاحون البولنديون فى ثورة على القنية ، وأهل المدن على النبلاء ، وقال ان بونياتوفسكى سينزل عن عرشه ليكون النظام جمهورياً ، وإن جيشاً بولندياً سيساند فرنسا فى حربها مع بروسيا[٥١] ؛

ورحب الزعماء الفرنسيون بمقترحاته ، ولكن نشوب الحرب مع انجلتره (فبراير ١٧٩٣) وغزو الحلفاء لفرنسا ، قضيا على كل أمل فى تقديم العون لبولنده .

وفى غياب كوتشيوسكو جند بعض المواطنين والماسون الأحرار وضباط الجيش جيشاًبولندياً جديداً (مارس ١٧٩٤) . وهرع كوتشيوسكو من درسدن إلى كركاو لينضم إليه ، فعين قائداً أعلى وأعطى سلطات مطلقة ، وأمر كل خمس بيوت فى بولنده أن توافيه بجندى من المشاه ، وكل خمسين بفارس ، وأمر هؤلاء المجندين بأن يأتوا بما يجمعونه من سلاح ، حتى المعاول والمناجل . وفى ٤ أبريل هاجم بأربعة آلاف مقاتل نظامى وألفى فلاح مجند قوة عدتها سبعة آلاف روسى فى راتسلا فيس قرب كراكاو ، وهزمها بفضل براعة قيادته من جهة وفاعلية مناجل الفلاحين من جهة أخرى .

فلما سمع فريق الراد يكاليين أو «اليعقوبيون» فى وارسو بهذا النصر نظم رجاله عصياً مسلحاً انضم إليه الزعماء من الطبقة الوسطى فى تردد . وفى ١٧ أبريل هاجم هؤلاء الثوار الحامية الروسية المؤلفة من ٧,٥٠٠ مقاتل ، وقتلوا الكثيرين منهم ، وهزموا فرقة بروسية من ١٦٥٠ جندى ، وهربت قوات الاحتلال ، وخضعت وارسو لحظة للسيطرة البولندية . وحررت انتفاضة كهذه مدينة فلنو (٢٣ أبريل) وشنقت هتمان (زعيم) لتوانيا الأكبر ، واستردت أجزاء من بولنده حتى منسك تقريباً . وفى ٧ مايو وعد كوتشوسكو الإقنان بعتقهم ، وكفل لهم تملك الأرض التى يزرعونها . وانضوى تحت لوائه خلق كثير من المتطوعين والمجندين حتى اجتمع له فى يونيو ١٧٩٤ (١٥٠,٠٠٠) رجل لم يكن منهم حسن التجهيز أكثر من ٨٠,٠٠٠ .

على هؤلاء تدفقت الموجات المتتالية من الجنود الروسية أو البروسية المدربة . وفى ٦ يونيو فاجأ جيش متحالف من ٢٦,٠٠٠ مقاتل البولنديين قرب تشيكوسينى ، ولم يتح لكوتشيوسكو من الوقت إلا ما يجلب فيه ١٤,٠٠٠

مقاتل فقط . فهزم بخسائر فادحة ،والتمس الموت فى المعركة ، ولكن الموت راغ منه ؛ وتقهقرت فلول البولنديين إلى وارسو . وفى ١٥ يونيو استولى البروسيون على كراكاو ؛ وفى ١١ أغسطس استعاد الروس فلنو ؛ وفى ١٩ سبتمبر أبادت قوة روسية من ١٢,٥٠٠ من الجنود المتمرسين بالقتال بقيادة سوفوروف جيشاً بولندياً من ٥,٥٠٠ مقاتل عند تريسابول ؛ وفى ١٠ أكتوبر هزم ١٣,٠٠٠ روسى كوتشيوسكو نفسه وهو يقود ٧,٠٠٠ بولندى عند ما سيسجويس ، وجرح جرحاً خطيراً وأسر . ولم يفه كما زعمت الأسطورة بصرخة اليأس « لقد قضى على بولنده ! » ولكن الهزيمة كانت قاضية على الثورة الباسلة .

أما سوفوروف فقد وحد مختلف الجيوش الروسية واقتحم معسكر البولنديين الحصين فى براجا ، وراح جنوده الذين أصابهم جنون المعركة يذبحون لا المدافعين فقط بل سكان البلدة المدنيين . وسلم يونياتوفسكى وارسو تفادياً لمذبحة أشد بشاعة . وأرسل سرفوروف كوتشيوسكو وغيره من زعماء الثوار إلى حيث السجن فى سانت بطرسبرج ، وأرسل الملك إلى جرودنو ليكون رهن إشارة الإمبراطورة . وهناك ، فى ٢٥ نوفمبر ١٧٩٥ ، وقع على اعتزاله الملك . وتوسل إلى كاترين أن تبقى على جزء من بولنده ، ولكنها صممت على أن تحل المسألة البولندية بالقضاء على الأمة البولندية كما ظنت . وبعد خمسة عشر شهراً من النزاع ، وقعت روسيا وبروسيا والنمسا معاهدة التقسيم الثالث (٢٦ يناير ١٧٩٧) واستولت روسيا على كورلاند ولتوانيا وغربى بودوليا وفولينيا — ١٨١,٠٠٠ ميل مربع ؛ واستولت النمسا على « بولنده الصغيرة » بما فيها كراكاو ولودان — ٤٥,٠٠٠ ميل مربع ؛ وأخذت بروسيا الباقى بما فيه وارسوا — ٥٧,٠٠٠ ميل مربع . وفى التقسيمات الثلاثة كلها استوعبت روسيا نحو ٦,٠٠٠,٠٠٠ من سكان بولنده البالغين ١٢,٢٠٠,٠٠٠ نسمه (١٧٩٧) ، والنمسا ٣,٧٠٠,٠٠٠ ، وبروسيا ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة .

وفر آلاف البولنديين من وطنهم ، وتسلم الأجانب الأملاك المصادرة .
وظل بونياتوفسكى فى جرودنو ، يتسلى بدراسة النبات ويكتب مذكراته .
وبعد موت كاترين دعاه بولس الأول إلى سانت بطرسبرج وخصص له
القصر الرخامى و١٠٠,٠٠٠ دوقاتيه فى العام ، وهناك مات فى ١٢ فبراير
١٧٩٨ بعد أن بلغ السادسة والستين . أما كوتشيوسكو فقد أفرج عنه
الامبراطور بولس فى ١٧٩٦ ، وعاد إلى أمريكا ، ثم إلى فرنسا ، وواصل
جهوده لتحرير بولنده حتى مماته (١٨١٧) . وأما يوزف بونياتوفسكى
فقد فر إلى فيينا ، وشارك فى حملة نابليون على روسيا ، وجرح فى سمولنسك ،
وأحسن البلاء فى ليبزج ، ورقى مارشالا فى الجيش الفرنسى ، ومات فى
١٨١٣ مكرماً حتى من أعدائه . وأما بولنده فلم تعد دولة ، ولكنها ظلت
شعباً وحضارة ، يلوثها الاضطهاد الدينى ، ولكنها تميزت بعظماء الشعراء
والقصاصين والموسيقيين والفنانين والعلماء ، ولم تتخل قط عن عزمها على
النهوض من جديد .

* * *



الكتاب الخامس

الشمال البروتستنتي



الفصل العشرون

ألمانيا فى عهد فردريك

١٧٥٦ – ١٧٨٦

١ – فردريك المظفر

من هذا الغول الذى أثار الخوف والإعجاب دولياً ، والذى سرق سيليزيا ، وهزم نصف أوربا المتحد ضده ، وهزأ بالدين ، وازدرى الزواج ، وأعطى فولتير دروساً فى الفلسفة ، واقتطع بعض أوصال بولنده ولو ليمنع روسيا من التهامها كلها ؟

لقد بدأ أقرب إلى الأشباح منه إلى الغيلان يوم عاد حزيناً منتصراً من حرب السنين السبع ودخل برلين (٣٠ مارس ١٧٦٣) بين تصفيق الجماهير المملقة . كتب إلى دارجنس يقول « إنى أعود إلى مدينة لن أعرف فيها غير الأسوار ، ولن أجد أحداً من معارفى ، حيث تنتظرنى مهمة ضخمة ، وحيث أخلف بعد زمن غير طويل عظامى فى مثوى لاتكدر هدوءه الحرب ولا الكوارث ولا سفالة الإنسان »[1] كانت بشرته قد جفت وتغضنت ، وعيناه الزرقاوان الرماديتان داكنتين منتفختين ، ووجهه يحمل آثار المعركة والمرارة ، وأنفه فقط هو الذى احتفظ بجلاله القديم . وقد ظن أنه لن يستطيع الحياة طويلا بعد أن استنزفت الحرب الطويلة موارده جسداً وعقلا وإرادة ، ولكن زهده مد فى أجله ثلاثة وعشرين عاماً أخر . كان مقلا فى طعامه وشرابه ، لايعرف الترف ؛ يعيش ويلبس فى قصره الجديد ببوتسدام كما لو كان فى المعسكر ، وكان يضن بالوقت المخصص للعناية بشخصه ؛ وفى سنيه الأخير أقلع عن الحلاقة ، واكتفى بجز لحيته بمقص بين الحين والحين ؛ ورددت الشائعات أنه لم يكن يستحم كثيراً[2] .

وأكملت الحرب تقسى خلقه الذى بدأ دفاعاً ضد قسوة أبيه . فكان يتطلع بهدوء رواقى بينما الجنود المحكوم عليهم يمرون ستا وثلاثين مرة[٣] بين صفين من الرجال يجلدونهم . وكان يتعقب موظفيه وقواده ويزعجهم بالجواسيس السريين ، والتدخل المفاجىء ، واللغة البذيئة ، والأجر الشحيح ، وبضروب من الأوامر التفصيلية تخنق روح المبادرة والاهتمام . ولم يكسب قط حب أخيه الأمير هنرى الذى جد وأخلص فى خدمته فى الدبلوماسية والحرب . وكان له بعض الصديقات ، ولكنهن كن يخفنه أكثر مما يحببنه ، ولم يسمح لواحدة منهن بدخول دائرة اخصائه . كان يحترم المعاناة الصامتة التى عانتها ملكته التى أهملها ، وعند عودته من الحرب فاجأها بهدية من ٢٥,٠٠٠ طالر ؛ ولكن من المشكوك فيه أنه شاركها فراشها إطلاقاً . ومع ذلك تعلمت أن تحبه إذ رأته بطلا فى المحن مخلصاً فى الحكم ؛ وكانت تشير إليه فى حديثها عنه بعبارة « ملكنا العزيز » و « هذا الملك العزيز الذى أحبه وأعبده »[٤] . ولم يكن له ولد ، ولكنه كان شديد التعلق بكلابه ، وكان اثنان منها ينامان عادة فى حجرته ليلا ، ربما لحراسته ؛ وكان أحياناً يستصحب أحدهما إلى فراشه ليدفئه بحرارة الحيوان . وعندما مات آخر كلابه الكثيره لديه « بكى اليوم كله »[٥] . وقد ظن به اللواط[٦] . ولكننا لانملك فى هذه الشبهة غير التخمين .

وعلى أنه كان يخفى تحت جلده العسكرى الصلب عناصر من الحنان تبدر أن كشف عنها أمام الناس . فقد بكى كثيراً لموت أمه ، وكان يرد على محبة أخته فلهلمينه الحارة بمحبة مخلصة . وقد وزع على بنات أخيه بعض الأفضال الصغيرة غير الملحوظة . كان يضحك من عواطف روسو المفرطة ، ولكنه اغتفر له عداءه وعرض عليه الملجأ حين نبذه العالم المسيحى . وكان يتنقل بين التدريب الصارم لجنوده وصفير الألحان من نايه . وقد ألف الصوناتات والكونشرتوات والسمفونيات التى شارك فى أدائها أمام حاشيته . وسمعه العالم بيرنى هناك ؛ وقرر أنه عزف « بضبط شديد ، واستهلال صاف منسق ، ولعب بالأصابع بديع ، وذوق نقى بسيط ، ودقة بالغة فى التنفيذ ، إتقان

متساو فى كل معزوفاته » ، على أن بيرنى يضيف إلى ما ذكر أنه فى بعض الفقرات الصعبة ، . . . اضطر جلالته — على عكس ما تقتضيه القواعد — أن يلتقط نفسه ليكمل الفقرة[٧] (*) .

وفى سنوات لاحقة أكرهه ازدياد النهج وفقدان عدة أسنان على الإقلاع عن العزف على الناى ، ولكنه استأنف دراسة الكلافير .

وكانت الفلسفة هوايته المحببة بعد الموسيقى . كان يحب أن يشاركه مائدته فيلسوف أو اثنان ليسلخ جلد القساوسة ويستفز قواد الجيش . وكان ثابت القدم كفؤاً لفولتير فى رسائله معه . وقد بقى على شكوكيته فى حين اعتنق معظم جماعة الفلاسفة العقائد الجازمة والخيالات الشاطحة . وكان أول حاكم فى العصور الحديثة يجهر بلادينيته ، ولكنه لم يهاجم الدين علناً . وذهب إلى أن « لدينا من درجات الأرجحيه ما يكفى لبلوغ اليقين بأن « لاشىء بعد الموت»[٩] ، ولكنه رفض حتمية دولباخ وأكد (كرجل هو الإرادة المتجسدة) أن العقل يؤثر على الأحاسيس على نحو خلاق ، وان فى استطاعة العقل أن يسيطر على دوافعنا الفطرية بالتعليم[١٠] أما أحب الفلاسفة إليه فهم (صديقى لوكريتيوس . . . وامبراطورى الطيب ماركوس أوريليوس »؟ وعنده أن أحداً لم يضف إليهما شيئاً ذا بال [١١] .

وقد اتفق مع فولتير على الاعتقاد بأن « الجماهير» تسرف فى إنسالها وتفرط فى كدها بحيث لايتسع لها الوقت للتعليم الحقيقى . ولن يجدى تبصيرها بأوهام اللاهوت إلا فى دفعها إلى العنف السياسى . وهو يقول فى هذا « إن التنوير نور من السماء للواقفين على القمم ، وجمرة مدمرة للجماهير »[١٢] ،

(*) فى ١٨٨٩ نشر برايتسكويف وهرتل ١٢٠ قطعة موسيقية من تأليف فردريك الأكبر . وقد سجل عدد منها على أقراص . وقد أحييت سنفونيته فى مقام D لنايين وأوركسترا فى برلين عام ١٩٢٨ وفى نيويورك عام ١٩٢٩ . [٨]

وقد أجمل قوله هذا تاريخ مذابح سبتمبر ١٧٩٢ وإرهاب ١٧٩٣ قبل أن تبدأ الثورة الفرنسية . وكتب إلى فولتير فى أبريل ١٧٥٩ يقول « فلنعترف بهذه الحقيقة : إن الفلسفة والفنون والآداب لاتنتشر إلا بين قلة من الناس ، أما الجماهير العريضة ... فتظل كما جبلتها الطبيعة ، حيوانات شريرة حاقدة »[١٣] وكان يسمى النوع الإنسانى (فى شيء من المزاح) . « هذا الجنس الملعون » — ويضحك من أحلام الخير والسلام يقول :

« إن الخرافة والنفعية والانتقام والخيانة ونكران الجميل سوف تثير المعارك الدامية المحزنة إلى آخر الدهر ، لأننا محكومون بالعواطف ، ونادراً جداً بالعقل. ولن تنقطع أبداً الحروب وقضايا المحاكم ومظاهر الدمار والأوبئة والزلازل والتفاليس . . . وما دام الأمر كذلك ، فى ظنى أن هذا الوضع ضرورة لابد منها . . . ولكن يلوح لى أنه لو كان هذا الكون قد فطره كائن خير لخلقنا أسعد مما نحن . . . إن العقل البشرى ضعيف ، وأكثر من ثلاثة أرباع البشر خلقوا ليخضعوا لأسخف ضروب التعصب . فالخوف من الشيطان والجحيم يبهر عيونهم ، وهم يكرهون الرجل الحكيم الذى يحاول تنويرهم . . . وعبثاً ألتمس فيهم صورة الله التى يؤكد اللاهوتيون أنهم يحملونها . إن فى داخل كل إنسان وحشاً ، وقليلون هم الذين يستطيعون ترويضه ، وأكثر الناس يرخون له اللجام ما لم يكبحهم الخوف من القانون »[١٤] .

وقد خلص فردريك إلى أن السماح للحكومات بأن تتسلط عليها الأغلبية مجلبة للكوارث . فلكى تحيا الديمقراطية يجب أن تكون — كغيرها من نظم الحكم — أقلية تقنع الأغلبية بأن تسمح لنفسها بأن تقودها الأقلية . وقد رأى فردريك رأى نابليون فيما بعد من أن « الارستقراطية موجودة دائماً بين الأمم وفى الثورات »[١٥] وآمن بأن الارستقراطية الوراثية تربى الإحساس بالشرف والولاء ، والرغبة فى خدمة الدولة بتضحية شخصية بالغة ، لا يمكن توقعها من نوابغ البورجوازيين الذين نشأوا بفضل التسابق على الثروة .

لذلك أحل بعد الحرب شباب النبلاء محل معظم ضباط الطبقة الوسطى الذين ترقوا فى الجيش[١٦] . ولكن بما أن هؤلاء النبلاء المعتزين بعراقتهم قد يصبحون مصدراً للتفتت والفوضى ، وأداة للاستغلال ، إذن فلابد من أن يحمى ملك مطلق السلطة الدولة من الانقسام ، ويدفع الظلم الطبقى عن عامة الشعب .

وكان فردريك يحب أن يصور نفسه خادما للدولة والشعب . وربما كان هذا تبريراً لإرداة القوة فيه ، ولكنه تسامى بحياته إلى مستوى دعواه . فأضحت الدولة عنده « الكائن الأعلى » الذى يبذل فى سبيله نفسه وغيره ؛ ومطالب خدمة الدولة تغلب عنده على ناموس الفضيلة الفردية ؛ فالوصايا العشر تتوقف عند أبواب الملوك . ووافقته جميع الحكومات على هذه « السياسة الواقعية » ، وقبل بعض الملوك النظرة إلى الملكية على أنها خدمة مقدسة . وقد اعتنق فردريك هذا المفهوم من اتصاله بفولتير ؛ ومن طريق الصاقهم بفردريك طور الفلاسفة ونظريتهم « الملكية » ومؤداها أن الأمل الأكبر فى الإصلاح والتقدم معقود على تنوير الملوك .

وهكذا أصبح برغم حروبه معبود الفلاسفة الفرنسيين ، وهدأ من عدائهم له ، حتى عداء روسو الفاضل . وقد رفض د الامبير طويلا دعوات فردريك له ، ولكنه لم يكف عن الثناء عليه . فكتب لفردريك يقول « إن الفلاسفة والأدباء فى كل بلد طالما تطلعوا إليك يا مولاى قائداً ومثالا لهم »[١٧] وأخيراً أذعن الرياضى المتحفظ للدعوات المتكررة ، وأنفق شهرين مع فردريك فى بوتسدام عام ١٧٦٣ . ولم تنتقص الألفة (والمعاش الذى أجراه عليه (من إعجاب دالامبير به . فقد أبهجه اغفال الملك لقواعد التشريفات ، وأطربته تعليقاته — لا على الحرب والحكومة فحسب ، بل على الأدب والفلسفة أيضاً ، وقال لجولى دلسبيناس إن هذا الحديث كان أروع من أى حديث يتاح للمرء سماعه آنئذ فى فرنسا[١٨] . فلما ابتأس دالامبير فى ١٧٧٦ حزنا على موت جولى ، بعث إليه فردريك برسالة تظهر هذا الغول فى ثوب الرجل الحكيم الحنون :

« يؤسفنى الخطب الذى ألم بك ... إن جراح القلب أكثر الجراح إيلاماً ... ولا شيء يبرئها غير الزمن ... إن لى لسوء طالعى حظاً وفيراً جداً من الخبرة بالآلام التى تحدثها خسائر كهذه . وخير دواء هو سيطرة المرء على نفسه ليصرف تفكيره بعيداً ... وخليق بك أن تختار بحثاً هندسياً يتطلب العكوف الدائم عليه ... إن شيشرون أغرق نفسه فى التأليف ليتعزى عن موت حبيبته تليا ... وفى مثل سنك وسنى خليق بنا أن نكون أكثر استعداداً للسلوى لأن لحاقنا بمن فجعنا فيهم لن يطول »[١٩] .

ثم حث دالامبير على أن يحضر ثانية إلى بوتسدام « سوف نفلسف معاً تفاهة الحياة ... وبطلان الرواقية ... وسوف أشعر بالسعادة فى تهدئة حزنك كأننى انتصرت فى معركة . » هنا على الأقل ملك أحب الفلاسفة ، ان لم يكن ملكاً فيلسوفاً بكل معنى الكلمة .

ولكن هذه المعاملة لم يعد يطبقها على فولتير ، ذلك أن خلافاتهما فى برلين وبوتسدام ، والقبض على فولتير فى فرانكفورت — كل هذا ترك جراحاً أعمق من الحزن . وبقى الفيلسوف يعانى الألم والمرارة أطول مما بقى الملك . فأخبر الأمير دلين أن فردريك « لا قدرة له على عرفان الجميل ، ولم يعترف قط بجميل إلا للجواد الذى هرب على ظهره فى معركة مولفتس »[٢٠]. ثم عاد تبادل الرسائل بين ألمع رجلين فى القرن حين كتب فولتير إلى فردريك محاولا أن يثنى المحارب اليائس عن الانتحار . وراحا يتبادلان العتاب والمجاملات . وذكر فولتير فردريك بالإهانات التى لقيها الفيلسوف وابنة أخته من عمال الملك ، وأجاب فردريك : « لولا صلتك برجل فتن حباً بعبقريتك الرائعة لما أفلت بهذه السهولة ... فاعتبر الأمر كله منتهياً ، ولا تذكر لى شيئاً بعد اليوم عن ابنة أختك تلك المتعبة »[٢١]. ولكن الملك رغم هذا لاطف الذات المفلسفة على نحو ساحر :

« أتريد كلاماً حلواً ؟ حسناً جداً ، سأخبرك ببعض الحقائق . إننى أقدر فيك أروع عبقرية ولدتها الأجيال ، إننى أعجب بشعرك ، وأحب نثرك ... ولم يؤت كاتب قبلك مثل هذه اللمسة المرهفة ، ولا مثل هذا

الذوق الأصيل الرقيق . . . إنك ساحر فى حديثك ، تعرف كيف ترفه وتعلم فى وقت واحد . إنك أكثر المخلوقات التى عرفتها إغواء . . . كل شىء فى حياة الإنسان يتوقف على الزمان الذى يجىء فيه إلى هذا العالم . وأنا وإن جئت متأخراً جداً ، إلا أننى لست بآسف على هذا ، لأننى رأيت فولتير ، . . . ولأنه يكتب لى »(٢٢) .

وأعان الملك بتبرعاته السخية حملات فولتير دفاعاً عن أسرتى كالاس وسيرفان ، وصفق للحرب التى شنها على الكنيسة الكاثوليكية (L,infeme) ، ولكنه لم يشارك جماعة الفلاسفة ثقتهم فى تنوير النوع الإنسانى . فقد تنبأ بفوز الخرافة فى السباق بينها وبين العقل . فتراه يكتب إلى فولتير فى ١٣ سبتمبر ١٧٦٦ يقول :

« إن مبشريك سيفتحون أعين قلة من الشباب . . . ولكن ما أكثر الحمقى الذين لايعقلون فى هذا العالم ! . . صدقنى ، لو أن الفلاسفة أقاموا حكومة فلن يمضى نصف قرن حتى يخلق الشعب خرافات جديدة . . . قد يتغير موضوع العبادة ، كما تتغير الأزياء فى فرنسا ؛ (ولكن) ما أهمية أن يسجد الناس أمام قطعة من الفطير ، وأمام العجل أبيس ، أو أمام تابوت العهد ، أو أمام تمثال من التماثيل ؟ لايهم الاختيار ، فالخرافة واحدة ، والعقل لايكسب شيئاً »(٢٣) .

على أن فردريك تصالح مع الدين بعد أن قبله ضرورة بشرية ، فحمى كل صوره السلمية بمنتهى التسامح . ففى سيليزيا التى غزاها ترك الكاثوليكية هادئة دون إزعاج ، فيما عدا فتحه أبواب جامعة برلين لجميع المذاهب ، وكانت من قبل وقفاً على الكاثوليك . . ثم رحب باليسوعيين بصفتهم معلمين ذوى قيمة كبرى ، وكانوا بعد أن طردهم الملوك الكاثوليك قد التمسوا ملجأ تحت حكمه اللاأدرى . وبالمثل بسط حمايته على المسلمين واليهود والملحدين ؛ وفى عهده وفى مملكته مارس كانط حرية الكلام والتعليم والكتابة ، وهى الحرية التى لقيت أشد تعنيف وقضى عليها بعد موت فردريك . وفى ظل هذا التسامح اضمحلت معظم صور الدين فى بروسيا . ففى ١٧٨٠ كان هناك

كنسي واحد لكل ألف من سكان برلين ، وفى ميونخ ثلاثون[٢٤] . وقد ذهب فردريك إلى أن التسامح سيقضى على الكاثوليكية عاجلا . كتب إلى فولتير فى ١٧٦٧ يقول «لابد من حدوث معجزة لكى تعود الكنيسة الكاثوليكية إلى سابق عزها ، فلقد أصيبت بسكتة دماغية خطيرة ، وسوف يمد فى أجلك لتتعزى بدفنها وكتابة قبريتها»[٢٥] . ولكن أشد الشكاك غلواً فى شكوكيته نسى لحظة أن يشك فى الشكوكية .

٢ — اعادة بناء بروسيا

لم يكد حاكم فى التاريخ فى صناعة الحكم كما كد فردريك ، ربما باستثناء تلميذه جوزيف الثانى إمبراطور النمسا ، كان يأخذ نفسه كما يأخذ جنوده بالتدريب الشاق ، فيستيقظ عادة فى الخامسة ، وأحياناً فى الرابعة ، ويشتغل حتى السابعة ، ثم يفطر ، ويجتمع بمساعديه حتى الحادية عشرة ، ويستعرض حرس قصره ، ويتناول الغذاء فى النصف بعد الثانية عشرة مع الوزراء والسفراء ، ثم يعمل حتى الخامسة ، وعندها فقط يسترخى بالموسيقى والأدب الحديث . أما عشاء «نصف الليل» بعد الحرب ، فكان يبدأ فى التاسعة والنصف ، وينتهى فى الثانية عشرة ، ولم يسمح لأى روابط أسرية بأن تصرفه عما هو عاكف عليه ، ولا لأى مراسم بلاطية بأن تثقله ، ولا لأى عطلات دينية بأن تقطع عليه كده ، وكان يراقب عمل وزرائه ، ويملى كل خطوة تقريباً من خطوات السياسة ، ويرقب حالة الخزانة ، وقد أنشأ فوق الحكومة كلها ديواناً للمحاسبات ، خول له سلطة فحص أى مصلحة فى أى وقت . وأصدر إليه تعليماته بأن يبلغ عن أى شبهة مخالفة . وكان يعنف فى معاقبة الانحراف أو عدم الكفاية عنفاً اختفى معه من بروسيا أو كاد ذلك الفساد الحكومى الذى استشرى فى كل بلد آخر من بلدان أوربا .

وكان يعتز بهذا العمل ، وبسرعة إفاقة وطنه مما حاق به من دمار . بدأ بألوان من الاقتصاد فى بيته أثارت السخرية من بلاطى النمسا وفرنسا المسرفين رغم أنهما بلدان مهزومان . فكان بيت الملك يدار باقتصاد شديد كأنه بيت حرفى . فصوان ملابسه لا يحوى غير حلة جندى ، وثلاثة معاطف قديمة ، وصدريات

متسخة بالنشوق ، ورداء رسمي لازمه طوال حياته . وقد طرد بطانة أبيه من الصيادين وكلاب الصيد ، لأن هذا المحارب آثر الشعر على الصيد . ولم يبن أسطولا ، ولم يسع إلى تملك المستعمرات . وكان موظفوه يتقاضون أجوراً زهيدة ، وقد أنفق بمثل هذا البخل على البلاط المتواضع الذى احتفظ به فى برلين حينما هو مقيم فى بوتسدام . ومع ذلك فقد حكم إيرل تشستر فيلد عليه بأنه أكثر بلاط فى أوربا أدباً وتألقاً ونفعاً لشاب أن يوجد فيه ،» ثم أردف قائلا : « سترى فنون الحكم وحكمته فى ذلك البلد الآن (١٧٥٢) خيراً مما تراها فى أى بلد آخر فى أوربا »[٢٦] . على أنه بعد عشرين سنة من هذا التاريخ كتب اللورد مالمسبرى ، السفير البريطانى لدى بروسيا ، ربما لتعزية لندن ، يقول إنه « ليس فى تلك العاصمة (برلين) رجل فاضل واحد ولا امرأة عفيفة واحدة »[٢٧] .

على أن فردريك كان يكبح شحه إذا اتصل الأمر بالدفاع القومى . فسرعان ما أعاد جيشه إلى سابق قوته بفضل الإقناع والتجنيد الإجبارى ؛ فهذا السلاح الذى فى متناوله هو وحده الذى يتيح له صيانة وحدة أراضى بروسيا أمام أطماع جوزيف الثانى وكاترين الثانية . وكان على ذلك الجيش كذلك أن يدعم القوانين التى هيأت النظام والاستقرار للحياة البروسية . وقد أحس أن القوة المركزية هى البديل الوحيد للقوة المختلة الممزقة توضع فى أيدى الأفراد . وكان يؤمل أن تتطور الطاعة بدافع الخوف من القوة ، إلى طاعة بدافع الاعتياد على القانون — وهى قوة اختزلت إلى قواعد وأخفت براثنها .

وقد جدد أمره للفقهاء بأن ينسقوا فى نظام قانونى واحد (قانون بروس عام) التشريع المتنوع المتناقض للكثير من الأقاليم والأجيال . وكانت هـــذه المهمة قد توقفت بموت صموئيل فون كوكسيجى (١٧٥٥) وبنشوب الحرب ، فاستأنفها الآن المستشار يوهان فون كارمر وعضو المجلس الخاص ك. ج. سفاريتس ، واستكملت فى ١٧٩١ . وقد سلم القانون الجديد بوجود الإقطاعية والقنية ، ولكنه حاول فى

هذه الحدود أن يحمى الفرد من الطغيان أو الظلم الخاص أو العام . فألغى المحاكم التى لاضرورة لها . وقلل من الإجراءات القانونية وعجلها ، وخفف العقوبات ، وصعب الشروط اللازمة للتعيين فى وظائف القضاء . وتقرر ألا ينفذ حكم بالإعدام إلا بتصديق الملك ، وفتح للجميع باب الاستئناف أمام الملك . وقد اكتسب سمعة العدالة المحايدة ، وسرعان ما اعترف الجميع للمحاكم البروسية بأنها أنزه وأكفأ المحاكم فى أوربا[٢٨] .

وفى ١٧٦٣ أصدر فردريك النظام التعليمى العام ليثبت ويوسع التعليم الإلزامى الذى أعلنه أبوه فى ١٧١٦ — ١٧ . فتقرر أن يذهب كل طفل فى بروسيا من سن الخامسة إلى الرابعة عشرة إلى المدرسة . ومن صفات فردريك المميزة إسقاط اللاتينية من منهج التعليم الأولى ، وتعيينه قدامى الجند معلمين ، وجعله معظم التعليم يجرى بتدريب أشبه بالتدريب العسكرى[٢٩] . وقد أضاف الملك : « من الخير أن يعلم المدرسون فى الريف الأحداث الدين والأخلاق . . . وحسب أهل الريف أن يتعلموا القليل من القراءة والكتابة . . . ولا بد من تخطيط التعليم . . . بحيث يبقى عليهم فى القرى ولا يؤثر عليهم ليهجروها»[٣٠] .

وحظى تجديد البناء الاقتصادى بالأولوية فى الوقت والمال . فبدأ فردريك باستخدام المال الذى جمع من قبل لحملة حربية أخرى — زالت الحاجة إليها الآن — فى تمويل تعمير المدن والقرى وتوزيع الطعام على المجتمعات الجائعة ، وتقديم البذور للزراعات الجديدة ؛ ثم وزع على المزارع ستين ألف حصان أمكن توفيرها من الجيش . وبلغت جملة المبالغ التى أنفقت على أعمال الإغاثة العامة ٢٠,٣٨٩,٠٠٠ طالر[٣١] . وأعفيت سيليزيا التى اجتاحتها الحرب من الضرائب ستة أشهر ؛ وبنى فيها ثمانية آلاف بيت فى ثلاث سنين ، وقدم مصرف عقارى المال للفلاحين السيليزيين بشروط ميسرة . وأسست جمعيات للتسليف فى مراكز شتى لتشجيع التوسع الزراعى . وصرفت مياه منطقة المستنقعات الممتدة على الأودر الأدنى ، فهيأت أرضاً صالحة للزراعة لخمسين ألف رجل . وبعث المندوبون إلى الخارج لدعوة مهاجرين إلى بروسيا ، فجاء منهم ٣٠٠,٠٠٠[٣٢] .

ولما كانت القنية تربط الفلاح بسيده ، فإنه لم توجد فى بروسيا حرية الانتقال إلى المدن ، تلك الحرية التى يسرت فى انجلترە تطور الصناعة السريع . وقد جهد فردريك بكل الوسائل للتغلب على هذا المعوق . فأقرض الملتزمين المال بشروط ميسرة ، وأجاز الاحتكارات المؤقته ، واستورد العمال ، وفتح مدارس الصنائع ، وأنشأ مصنعاً للبرسلان فى برلين . وناضل لينشىء صناعة الحرير ، ولكن أشجار التوت ذبلت فى برد الشمال . وشجع التعدين النشيط فى سيليزيا الغنية بالمعادن . وفى ٥ سبتمبر ١٧٧٧ كتب إلى فولتير كما يكتب أحد رجال الأعمال لزميل له يقول : « انني عائد من سيليزيا راضياً عنها الرضى كله . . . فقد بعنا للأجانب ما قيمته ٥,٠٠٠,٠٠٠ كراون من التيل ، و ١,٢٠٠,٠٠٠ كراون من القماش . . . وقد أمكن اكتشاف طريقة لتحويل الحديد إلى صلب أبسط كثيراً من طريقة ريومور »[٣٣]

وتسهيلا للتجارة ألغى فردريك المكوس الداخلية ووسع الموانئ ، وحفر القنوات وشق ثلاثين ألف ميل من الطرق الجديدة . أما التجارة الخارجية فقد عاقتها الرسوم المرتفعة على الواردات والحظر المفروض على تصدير السلع الاستراتيجية ؛ واقتضت الفوضى الدولية حماية الصناعة الوطنية لضمان الاكتفاء الصناعى فى الحرب . ورغم ذلك نمت برلين قلباً للتجارة وللحكومة : ففى ١٧٢١ كانت تضم من السكان ٦٠,٠٠٠ ، وفى ١٧٧٧ زادوا إلى ١٤٠,٠٠٠[٣٤] . لقد كانت تتهيأ لتصبح عاصمة لألمانيا .

ولكى يمول فردريك هذا المزيج من الإقطاعية ، والرأسمالية ، والاشتراكية ، والأوتقراطية ، اقتضى شعبه من الضرائب قدراً يقرب مما رد عليهم من نظام اجتماعى وإعانات مالية وأشغال عامة . واحتفظ للدولة باحتكار الملح والسكر والتبغ والبن (بعد ١٧٨١) ، وامتلك ثلث الأرض الصالحة للزراعة[٣٥] . وفرض الضرائب على كل شىء ، حتى على المغنين الجائلين واستقدم هلفتيوس ليخطط له نظاماً محكماً فى جمع الضرائب . وكتب

سفير انجليزى يقول : « ان مشروعات الضرائب الجديدة نفرت الشعب حقاً من ملكهم »[٣٦] . وقد ترك فردريك عند موته فى خزانة الدولة ٥١,٠٠٠,٠٠٠ طالر — وهو ما يعادل إيراد الدولة السنوى مرتين ونصفا .

وفى ١٧٨٨ نشر ميرابو (الابن) بعد زيارات ثلاث لبرلين تحليلا مدمراً عنوانه « فى النظام الملكى البروسى تحت حكم فردريك الأكبر » . وكان قد ورث عن أبيه مبادىء الفزيوقراطيين التى تنادى بالمشروعات الحرة ، لذلك أدان نظام فردريك باعتباره دولة بوليسية ، وبيرقراطية تخنق كل روح للمبادرة وتعدو على كل حرية شخصية . وكان فى وسع فردريك أن يرد على هذه التهم بأنه لو انتهج سياسة «عدم التدخل Laissez Fairo » فى حالة الفوضى التى ضربت أطنابها فى بروسيا عقب حرب السنين السبع لأفسدت عليه هذه السياسة انتصاره بما تجر من فوضى اقتصادية . لقد كان التوجيه أمراً حتمياً ، وكان هو الرجل الوحيد الذى يستطيع القيادة الفعالة ، وهو لايعرف شكلا من أشكال القيادة غير قيادة القائد الحربى لجنوده . لقد أنقذ بروسيا من الهزيمة والانهيار ، ودفع الثمن بفقدانه حب شعبه له ؛ وقد فطن إلى هذه النتيجة ، وعزى نفسه بمبررات أخلاقية :

« إن البشر يتحركون إذا حثثتهم على الحركة . ويقفون إذا كففت عن دفعهم . . . والناس مقلون فى القراءة ، زاهدون فى أن يتعلموا كيف يمكن التصرف فى أى شىء بطرق مختلفة . أما أنا ، أنا الذى لم أصنع بهم قط غير الخير ، فهم يظنون أننى أريد أن أضع سكيناً على حلوقهم بمجرد أن يلوح احتمال إدخال أى تحسين مفيد ، لا بل أى تغيير على الإطلاق . فى مثل هذه الحالات اعتمدت على شرف هدفى وسلامة ضميرى ، وعلى المعلومات التى أملكها ، ثم مضيت فى طريقى هادئاً »[٣٧] .

وقد انتصرت إرادته . فازدادت بروسيا حتى فى حياته غنى وقوة . وتضاعف عدد سكانها ، وانتشر فيها التعليم ، وأخفى التعصب الدينى رأسه . صحيح أن هذا النظام الجديد اعتمد على الاستبداد المستنير ، وأن هذا الاستبداد

بقى بغير الاستنارة بعد أن مات فردريك ، وأن الهيكل القومى اعتراه الضعف وانهار فى فيينا أمام إرادة تعادل إرادة فردريك قوة وجبروتا . ولكن الصرح النابليونى أيضاً ، الذى اعتمد على إرادة رجل واحد وتفكيره ، انهار هو أيضاً ، وفى خاتمة المطاف كان بسمارك ، وريث فردريك والمستفيد البعيد فى تركته ، هو الذى عاقب فرنسا التى سيطر عليها وريث نابليون ، وهو الذى جعل من بروسيا وعشرات الإمارات دولة موحدة قوية هى ألمانيا .

٣ — الإمارات

لنذكر أنفسنا من جديد بأن ألمانيا لم تكن فى القرن الثانى عشر أمة بل اتحاداً مفككاً من دول مستقلة تقريباً ، قبلت صورياً الإمبراطور « الرومانى المقدس » فى فيينا رأساً لها ، وأوفدت ممثلين لها بين الحين والحين إلى ديت إمبراطورى (رايشستاج) ، أهم وظائفه الاستماع إلى الخطب ، واحتمال عبء المراسم ، وانتخاب إمبراطور جديد . وكان للدول لغة وآداب وفنون مشتركة ، ولكنها تباينت فى العادات والزى والعملة والعقيدة . وكان فى هذا التفتت السياسى بعض الفوائد : فتعدد بلاطات الأمراء كان مواتياً لتنوع الثقافات تنوعاً مشجعاً ؛ وكانت الجيوش صغيرة بدلا من أن تكون متحدة فتصبح مصدر إرهاب لأوربا ؛ ثم إن سهولة الهجرة فرضت على الدولة والكنيسة والشعب قسطاً كبيراً من التسامح فى الدين والعادات والقانون . وكانت سلطة كل أمير مطلقة من الناحية النظرية ، لأن المذهب البروتستنتى كرس « حق الملوك الإلهى» . أما فردريك ، الذى لم يقر بأى حق إلهى غير حق جيشه ، فقد سخر من « معظم الأمراء الصغار ، لا سيما الألمان منهم » الذين « يدمرون أنفسهم بالإشراف السفيه إذ يضللهم الوهم بعظمتهم المتصورة ، فأصغر ابن لأصغر ابن لأسرة مقطعة يخيل إليه أنه من طراز لويس الرابع عشر ، فيبنى فرسايه ، ويقتنى الخليلات ، ويحتفظ بجيش . . . له من القوة ما يكفى لخوض . . . معركة على مسرح فيرونا »(٣٨) .

وكانت أهم هذه الإمارات سكسونيا . وقد دالت دولة فنها ومجدها يوم تحالف أميرها الناخب فردريك أوغسطس الثانى مع ماريا تريزا ضد فردريك الأكبر ، فقصف الملك القاسى درسدن ودمرها عام ١٧٦٠ وفر الناخب إلى بولنده بصفته ملكها أوغسطس الثالث ، ثم مات فى ١٧٦٣ . وورث حفيده فردريك أوغسطس الثالث الإمارة الناخبة وهو فى الثالثة عشرة ، واكتسب لقب (العادل) ، وحول سكسونيا إلى مملكة (١٨٠٦) ، واحتفظ طوال تقلبات كثيرة بعرشه إلى أن مات (١٨٢٧) .

ويدخل كارل أويجن ، دوق فورتمبرج ، قصتنا فى المقام الأول باعتباره صديقاً ثم عدواً لشيلر . وقد فرض الضرائب على رعاياه ببراعة لاينضب معينها ، وباع عشرة آلاف من جنوده لفرنسا ، واحتفظ ببلاط كان فى رأى كازانوفا « ألمع بلاط فى أوربا »[٣٩] ، حوى مسرحاً فرنسياً ، وأوبرا إيطاليه ، وسلسلة من المحظيات . ويعنينا أكثر منه فى قصتنا كارل أوجسط ، دوق ساكسى — فايمار الحاكم من ١٧٧٥ إلى ١٨٢٨ ؛ ولكننا سنراه فى مظهر أكثر بهاء وهو محاط بنجوم أناروا سماء ملكه — فيلاند ، وهردر ، وجوته ، وشيلر . وكان واحداً من فريق « المستبدين المستنيرين» الصغار الذين ساهموا فى هذا العصر فى نهضة ألمانيا حين شعروا بتأثير فولتير وبالمثال الذى ضربه فردريك . ونهج نهج هؤلاء رؤساء الأساقفة الذين حكموا مونستر وكولون وترير وماينز وفورتزبورج — بامبرج باستكثارهم من المدارس والمستشفيات ، وحدهم من إسراف البلاط ، وتخفيفهم من الفوارق الطبقية ، وإصلاحهم السجون ، وتقديمهم الإعانات للفقراء ، وتحسينهم أحوال الصناعة والتجارة . كتب أدموند بيرك يقول « ليس من السهل أن نجد أو نتصور حكومات أكثر اعتدالا وتسامحاً من هذه الإمارات الكنسية »[٤٠] .

على أن الفوارق الطبقية كانت تؤكد فى أكثر الدول الألمانية باعتبارها جزءاً من أسلوب الضبط الاجتماعى . فكان النبلاء والاكليروس وضباط الجيش وأرباب المهن والتجار والفلاحون يؤلفون طبقات منفصلة ؛ وداخل كل فئة من هؤلاء درجات ومراتب صلبت كل منها ذاتها باحتقار المرتبة

الأدنى منها . وكان زواج الفرد خارج طبقته أمراً مستحيلا تقريباً ، ولكن بعض التجار والماليين اشتروا النبالة . واحتكر النبلاء المناصب العليا فى الجيش والحكومة ، وقد اكتسب كثيرون منهم امتيازاتهم ببسالتهم أو كفايتهم ولكن الكثيرين كانوا عالة على المجتمع ، لا يفضلون الحلل التى يرتدونها ، يتنافسون على المكان الاجتماعى المقدم فى البلاط ، ويتبعون الموضات الفرنسية فى اللغة والفلسفة والخليلات .

ومما يذكر بالفخر لأمراء ألمانيا الغربية وأساقفتها ونبلائها أنه لم يحل عام ١٧٨٠ حتى كانوا قد أعتقوا فلاحيهم الأقنان ، وبشروط يسرت الانتشار الواسع للرخاء فى الريف . وقد ذهب رانبهولد لنتس إلى أن الفلاحين مخلوقات أفضل — أكثر بساطة ووداً وفطرية — من التجار الذين يحصون الدراهم أو شباب النبلاء الذين يختالون كبرا[٤١] . وقد صورت سيرة هينريش يونج الذاتية (١٧٧٧) حياة القرية فى كدها اليومى وفى مهرجاناتها الموسمية فى صورة مثالية ؛ ووجد هردر أغانى الفلاحين الشعبية أصدق وأعمق من شعر الكتب ؛ ووصف جوته فى كتابه (الشعر والحقيقة) الاحتفال بموسم صنع الخمر بأنه « يغمر بالفرح إقليماً بأسره » من صواريخ وغناء ونبيذ[٤٢] . كان هذا جانباً من المشهد الألمانى ؛ أما الجانب الآخر فكان الجهد الشاق والضرائب المرتفعة والنساء يشخن فى الثلاثين والأطفال الأميين يرتدون الأسمال ويتسولون فى الشوارع . قالت إيفا كونيج لليسنج فى ١٧٧٠ « فى إحدى المحطات تزاحم حولى ... ثمانون شحاذاً ... وفى ميونخ جرت ورائى أسر بأكملها وأفرادها يصيحون بأننى بالتأكيد لن أتركهم يموتون جوعاً»[٤٣] .

لقد كانت الأسرة فى القرن الثامن عشر أهم من الدولة أو المدرسة . أو المدرسة . وكان البيت الألمانى المصدر والمركز للتهذيب الخلقى ، والنظام الاجتماعى ، والنشاط الاقتصادى . ففيه يتعلم الطفل أن يطيع أباً صارماً ، ويلوذ بأم محبة ، ويشارك فى سن مبكرة فى مختلف الواجبات البناءة التى تملأ فراغ اليوم . وقصيد شيلر « أغنية الجرس » تعطينا صورة مثالية ترى فيها « الزوجة الشديدة التواضع ... تحكم دائرة الأسرة بحكمة ، وتدرب

البنات ، وتكبح تهور الأولاد ، وتعكف فى كل لحظة من فراغها على نولها»[٤٤] . وكانت الزوجة خاضعة لزوجها ، ولكنها معبودة أبنائها . أما خارج البيت ، إلا فى قصور الأمراء ، فكان الرجال عادة يقصون النساء عن حياتهم الاجتماعية ، ومن ثم كان حديثهم ينحو إلى الأملال أو البذاءة . أما فى قصور الأمراء فكان هناك كثير من النساء المثقفات المهذبات السلوك . ويرى إكرمان أن بعضهن « يكتبن بأسلوب رائع ويفقن فى هذا كثيراً من أشهر مؤلفينا»[٤٥]. وكان على نساء الطبقة العليا فى ألمانيا ، كما فى فرنسا ، أن يتعلمن الأغماء جزءاً من بضاعتهن ، والاستعداد لذرف الدموع دليلا على رقة شعورهن .

أما أخلاق البلاط فقد اقتدت بالمثل الفرنسية فى الشراب والقمار والفسق والطلاق . تقول مدام دستال إن النبيلات من النساء كن يبدلن أزواجهن « فى غير مشقة وكأنهن يرتبن أحداث تمثيلية » ، وكن يفعلن هذا « بقليل من مرارة النفس»[٤٦] . وضرب الأمراء المثل فى السلوك اللاأخلاقى ببيع جنودهم للحكام الأجانب ؛ وهكذا بنى حاكم هسى — كاسل قصراً أنيقاً ، وأنفق على بلاط مترف ، من حصيلة اتجاره فى جنوده . وبلغ مجموع ما باعه الأمراء الألمان — أو ما « أقرضوه » على حد تعبيرهم — خلال الثورة الأمريكية ثلاثين ألف جندى لانجلتره مقابل ٥٠٠,٠٠٠ جنيه ؛ ومن هؤلاء ١٢,٥٠٠ لم يعودوا قط[٤٧] . ولم يبد ألمان القرن الثامن عشر خارج بروسيا ميلا يذكر للحرب وهم يتذكرون أهوال القرن السابع عشر . ويبدو أن « الخلق القومى» يمكن أن يطرأ عليه التغيير من قرن لآخر .

وكان الدين فى ألمانيا أطوع للدولة منه فى الأقطار الكاثوليكية . كان منقسماً إلى ملل ونحل ، فحرم بذلك من حبر أعظم مرهوب ينسق عقيدته واستراتيجيته ودفاعه ؛ وكان قادة الدين يعينهم الأمير ، ودخل الدين يعتمد على مشيئته . وكان إيماناً قوياً فى الطبقتين الوسطى والدنيا ؛ ولم يتأثر بموجات الإلحاد التى تدفقت من انجلتره وفرنسا غير النبلاء والمفكرين وبعض الأكليروس . وكان إقليم الراين أكثره من الكاثوليك ، ولكن فى هذا الإقليم بعينه شهدت هذه الحقبة قيام حركة تتحدى سلطة البابوات فى جرأة .

وبيان ذلك أنه فى ١٧٦٣ نشر يوهان نيكولاوس فون هونتايم ، أسقف تريير المساعد ، متخفياً وراء اسم مستعار هو يوستينوس فبرونيوس ، رسالة باللاتينية فى « حالة الكنيسة ، وسلطة بابا روما الشرعية » وترجم الكتاب من اللاتينية إلى الألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، وأحدث ضجة فى جميع أرجاء غربى أوربا . وقد قبل « فبرونيوس » سيادة البابا ، ولكن على أنها سيادة شرف وإدارة تنفيذية ؛ فالبابا غير معصوم ، وينبغى أن يتاح استئناف قراراته أمام مجمع عام تكون له السلطة التشريعية النهائية فى الكنيسة . وكان المؤلف سيء الظن بالتأثير المحافظ المستور للبلاط البابوى (الكيوريا) ، — وألمع إلى أن التركيز المفرط للسلطة الكنسية تمخض عن حركة الإصلاح البروتستنتى ؛ وقد تيسر اللامركزية رجوع البروتستنت إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية . وفى مسائل القانون البشرى ، لا الإلهى ، يحق للأمر اءالعلمانيين أن يرفضوا طاعة البابوية ، ولهم — إن لزم الأمر — حق فصل كنائسهم القومية عن روما . وأدان البابا الكتاب (فبراير ١٧٦٤) ، ولكنه أصبح « كتاب صلاة للحكومات » (٤٨) وقد رأينا تأثيره على يوزف الثانى .

ومال رؤساء أساقفة كولون وتريير وماينز وسالزبورج لآراء « فبرونيوس » ، فقد رغبوا فى الاستقلال عن البابا استقلال الإمارات الأخرى عن الامبراطور . وعليه فى ٢٥ سبتمبر ١٧٨٦ أصدروا « بيان إيمس التمهيدى » (قرب كوبلنتز) الذى كان خليقاً بأحداث حركة إصلاح بروتستنتى جديدة لو أخرج إلى حيز التنفيذ :

« إن البابا أعلى سلطة فى الكنيسة وسيظل أعلى سلطة فيها . . . ولكن الامتيازات (البابوية) التى لا تنحدر عن القرون المسيحية الأولى بل هى مبنية على المراسيم الإيزادورية الباطلة ، والتى تنتقص من قدر الأساقفة . . . لم يعد فى الإمكان أن تعد قانونية ، فهى تنتمى إلى اغتصابات الكيوريا الرومانية ؛ وللأساقفة الحق (مادامت الاحتجاجات السلمية لاتجدى) فى صيانة حقوقهم الشرعية تحت حماية الامبراطور الألمانى — الرومانى .

ويجب ألا يكون هناك بعد اليوم أى استئنافات (من الأساقفة) أمام روما . . وألا تتلقى الطرق (الدينية) أى توجيهات من رؤساء أجانب ، ولا أن تحضر مجامع عامة خارج ألمانيا . ويجب ألا ترسل أية تبرعات لروما . . . وألا تملأ روما الوظائف الكنسية الشاغرة ذات الدخول ، بل تملأ بانتخاب قانونى للمرشحين الوطنيين . . . وينبغى أن ينظم هذه الأمور وغيرها مجمع قومى ألمانى» (٤٩) .

ولم يؤيد الأساقفة الألمان هذا الإعلان خوفاً من قوة الكيوريا المالية ، ثم انهم ترددوا فى الاستعاضه عن سيادة روما النائية بسلطة الأمراء الألمان المباشرة والأصعب تفادياً . وهكذا انهارت الثورة الوليدة . وعدل هونتهايم عن أقواله (١٧٨٨) ، وسحب رؤساء الأساقفة بيانهم التمهيدى (١٧٨٩) ، وعادت الأمور كلها تسير سيرتها الأولى .

٤ — عصر التنوير الألمانى

ولكن ليس بكل معنى العبارة فالتعليم ، باستثناء الإمارات الكنسية ، كان قد انتقل من سيطرة الكنيسة إلى سيطرة الدولة . فأساتذة الجامعات تعينهم الحكومة وتدفع رواتبهم (فى تقتير مخجل) ، ولهم وضع الموظفين العموميين . ومع أن جميع المدرسين والطلاب كان يشترط عليهم الإقرار بأنهم يدينون بمذهب الأمير ، إلا أن الكليات الجامعية ، حتى سنة ١٧٨٩ ، كانت تتمتع بقدر متزايد من الحرية الأكاديمية . وحلت الألمانية محل اللاتينية لغة للتعليم . وكثرت المقررات الدراسية فى العلوم والفلسفة . وتوسع فى تعريف الفلسفة (فى جامعة كونجزبرج على عهد كانط) بأنها « القدرة على التفكير ، وعلى البحث فى طبيعة الأشياء دون تغرضات أو مذهبية» (٥٠) . وقد طلب كارل فون تسيدلتس وزير التربية المخلص فى عهد فردريك الأكبر ، إلى كانط أن يقترح طرقاً « لصد الطلاب فى الجامعات عن دراسات « أكل العيش » . وإفهامهم أن القليل الذى يتعلمونه من القانون ، لا بل اللاهوت والطب . سيكون أيسر استيعاباً وآمن تطبيقاً لو ملكوا ناصية المعرفة الفلسفية »(٥١) .

وقد حصل الكثير من فقراء الطلاب على معونة حكومية أو أهلية لمواصلة التعليم الجامعى ، وإنها لقصة مبهجة تلك التى روى فيها إكرامان كيف كان جيرانه الرحماء يمدون إليه يد المعونة فى كل خطوة من خطى تطوره [٥٢] . ولم يكن بين جماعة الطلاب تفرقة طبقية [٥٣] . فكل خريج يسمح له بأن يحاضر تحت رعاية الجامعة مقابل أى رسم يستطيع جمعه من المستمعين ، وقد بدأ كانط حياته المنهنية على هذا النحو ؛ وكانت منافسة المعلمين الجدد لقداماهم تحفز هؤلاء على أن يكونوا مستعدين فى كل لحظة . وقد حكمت مدام دستال على الجامعات الألمانية الأربع والعشرين بأنها « أرقى الجامعات علماً فى أوربا . فليس فى أى قطر ، ولا حتى فى انجلتره ، وسائل بهذه الكثرة للتعليم أو للارتقاء بقدرات الإنسان إلى الكمال . » . ومنذ عصر الإصلاح البروتستنتى تفوقت الجامعات البروتستنتيه على الكاثوليكية تفوقاً لا جدال فيه ، ويرتكز مجد ألمانيا الأدبى وفخرها على هذه المعاهد »[٥٤] .

وانتشر الإصلاح التعليمى وشاع فى الجو . فأصدر يوهان بازدوا — مستلهماً قراءته لروسو — فى ١٧٧٤ كتاباً من أربعة مجلدات عنوانه « المبادىء » رسم مخططاً لتعليم الأطفال بطريق المعرفة المباشرة بالطبيعة ؛ فيجب أن يكتسبوا الصحة والعافية بالألعاب والتمرينات الرياضية ؛ وأن يتلقوا الكثير من تعليمهم فى الهواء الطلق بدلا من أن يلزموا مكاتبهم ؛ وأن يتعلموا اللغات لا بالأجرومية والصم بل بتسمية الأشياء والأفعال التى يصادفونها فى خبراتهم اليومية ؛ وأن يتعلموا الأخلاق بتأليف جماعاتهم وتنظيمها ؛ وأن يتهيأوا للحياة بتعلم حرفة ما . والدين يدخل فى المنهج لا بالصورة القديمة الغالبة ؛ وكان بازدو يتشكك فى عقيدة التثليث جهاراً [٥٥] وأنشأ فى دساو (١٧٧٤) معهداً خيرياً نموذجياً أخرج تلاميذ ، صدمت الكبار « وقاحتهم ، وسلاطتهم ، وسعة علمهم وخيالهم » [٥٦] ، ولكن هذا « التعليم التقدمى » ، كان متسقاً مع حركة التنوير ، فانتشر سريعاً فى طول ألمانيا وعرضها .

وكانت التجارب فى مضمار التعليم جزءاً من الاختمار الفكرى الذى

اضطربت به البلاد بين حرب السنين السبع والثورة الفرنسية . فكثرت الكتب والجرائد والمجلات والمكتبات المتنقلة وأندية القراءة كثرة ملؤها الحماسة . وانبثقت الحركات الأدبية العديدة ، ولكل منها أيديولوجيتها ومجلتها وقادتها . وكانت أول جريدة يومية ألمانية « داى لبتزج ذيتونج » قد بدأت عام ١٦٦٠ ، فلم يحل عام ١٧٨٤ حتى كان هناك ٢١٧ جريدة يومية وأسبوعية فى ألمانيا . وفى ١٧٥١ بدأ ليسنج يحرر القسم الأدبى من «فوسيك ديتونج » فى برلين ؛ وفى ١٧٧٢ أصدر ميرك وجوته وهردر « أنباء فرانكفورت الأدبية» ؛ وفى ١٧٧٣ — ٨٩ جعل فيلاند من«در تيوتش مركر» أكثر المجلات الأدبية فى ألمانيا نفوذاً . وكان هناك ثلاثة آلاف مؤلف ألمانى فى ١٧٧٣ ، وستة آلاف فى ١٧٨٧ ، وفى ليبزج وحدها ١٣٣ . وكثيرون منهم كانوا كتاباً يعملون بعض الوقت . وربما كان ليسنج أول ألمانى تعيش من الأدب سنين كثيرة . وكان جل المؤلفين فقراء ، لأن حق التأليف لم يحمهم إلا داخل إماراتهم ؛ واختزلت الطبعات المسروقة أرباح المؤلف والناشر على السواء اختزالا شديداً . وقد خسر جوته من كتابه جوتز فون برليشنجن وكان ربحه ضئيلا من قصته «آلام فرتر» ، وهى أعظم انتصار أدبى لذلك الجيل . ويعد تفجر الأدب الألمانى أحد الأحداث العظمى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . فحين كتب دالامبر من بوتسدام فى ١٧٦٣ لم يجد فى المطبوعات الألمانية شيئاً يستحق الذكر [٥٧] ؛ ولكن ما وافى عام ١٧٩٠ حتى كانت ألمانيا تنافس فرنسا بل ربما تبزها فى العبقرية الأدبية المعاصرة. وقد لاحظنا احتقار فردريك للغة الألمانية لأنها جشاء غليظة تؤذيها الحروف الساكنة ؛ ومع ذلك فإن فردريك نفسه ، بهزيمته الرائعة لهذا العدد الكبير من أعدائه ، قد ألهم ألمانيا العزة القومية التى حفزت الكتاب الألمان على استعمال لغتهم والوقوف أنداداً لأمثال فولتير وروسو . فلم يحل عام ١٧٦٣ حتى كانت الألمانية قد هذبت نفسها وأضحت لغة أدبية مستعدة للتعبير عن حركة التنوير الألمانى .

ولم يكن هذا التنوير وليداً بتوليا . فهو الثمرة المؤلمة التى تمخضت عنها الربوبية الانجليزية مقترنة بالتفكير الحر الفرنسى

على أرض مهدتها عقلانية كريستان فون فولف المعتدلة . وكانت تفجرات الربوبية الكبرى التى فجرها تولاند وتندال وكولنز ووستن وولستن قد تمت ترجمتها إلى الألمانية قبيل عام ١٧٤٣ ، وما وافى عام ١٧٥٥ حتى كانت « رسائل » جريم تبث أحدث الأفكار الفرنسية بين الصفوة المثقفة من الألمان . وتوفر فى ١٧٥٦ من أحرار الفكر فى ألمانيا نفر أتاح اصدار « معجم لأحرار الفكر » . وفى ١٧٦٣ — ٦٤ أصدر بازدوف كتابه (محبة الصدق) الذى رفض أى وحى إلهى غير وحى الطبيعة ذاتها . وفى ١٧٥٩ بدأ كريستيان فريدرش نيقولاى ، وهو تاجر كتب برلينى ، « رسائل عن احدث ثمرات الأدب » ؛ وقد ظلت هذه الرسائل التى أثرتها مقالات بأقلام ليسنج وهردر وموسى مندلسون حتى عام ١٧٦٥ مناراً أدبياً لحركة التنوير يحارب التطرف فى الأدب والسلطة فى الدين .

وشاركت الماسونية فى الحركة فتأسس أول محفل للماسون بهمبورج فى ١٧٥٣ ، ووتلته محافل أخرى ؛ وكان من أعضائها فردريك الأكبر ، وفرديناند دوق برنزويك ، وكارل أوجست دوق ساكسى — فايمار ، وليسنج ، وفيلاند ، وهردر ، وكلوبشتوك ، وجوته ، وكلايست . وكانت هذه الجماعات بوجه عام تميل إلى الربوبية ، ولكنها تحاشت النقد العلنى للإيمان التقليدى . وفى ١٧٧٦ نظم آدم فايسهاويت ، أستاذ القانون الكنسى فى إنجولشتات ، جمعية سرية شقيقة ، سماها « برفكتيبيلستن » ، ولكنها اتخذت بعد ذلك الاسم القديم (المستنيرين) وقد اتبع مؤسسها ، وهو يسوعى سابق ، المنهج الذى جرت عليه جماعة اليسوعيين ، فقسم رفاقها إلى درجات من الاطلاع على أسرارها وأخذ عليهم العهد بطاعة قادتهم فى حملة « لتوحيد جميع الرجال القادرين على التفكير المستقل » ، ولجعل الإنسان « آية من آيات العقل ، فيبلغ بذلك أسمى درجات الكمال فى فن الحكم » . [٥٨] وفى ١٧٨٤ حظر كارل تيودور ، ناخب بافاريا ، جميع الجمعيات السرية ، فلقيت « طائفة المستنيرين » حتفها فى سن مبكرة .

وتأثر بحركة التنوير حتى الأكليروس . فطبق يوهان سملر أستاذ الفلسفة

فى هاله « النقد الأعلى » على الكتاب المقدس . فزعم (على العكس تماماً من الأسقف فاربورتن) أن العهد القديم لا يمكن أن يكون موحى به من الله ، لأنه — إلا فى مرحلته الأخيرة — تجاهل الخلود . وألمع إلى أن المسيحية قد حرفها عن تعاليم المسيح لاهوت القديس بولس الذى لم ير المسيح قط ؛ ثم نصح اللاهوتيين بأن ينظروا إلى المسيحية على أنها صورة عابرة من صور جهد الإنسان فى بلوغ حياة فاضلة . فلما رفض كارل بارت وغيره من تلاميذه العقيدة المسيحية بأكملها إلا الإيمان بالله ، عاد سملر إلى إيمانه السنى ، واحتفظ بكرسى اللاهوت من ١٧٥٢ إلى ١٧٩١ . ووصف بارت المسيح بأنه معلم عظيم فقط . « مثل موسى ، وكونفوشيوس ، وسقراط ، وسملر ، ولوثر ، ومثلى أنا » [٥٩] كذلك سوى يوهان إيبر هارت بين سقراط والمسيح ، وقد طرد من وظيفة القسوسية اللوثرية ، ولكن فردريك عينه أستاذاً للفلسفة فى هاله . وقسيس آخر يدعى ف . أ . تيلر اختزل المسيحية إلى الربوبية ، ودعا لعضوية كنيسته أى إنسان مؤمن بالله ، بما فى ذلك اليهود [٦٠] ، أما يوهان شولتز ، الراعى اللوثرى ، فقد أنكر لاهوت المسيح ، ولم ير فى الله أكثر من « الأساس الكافى للعالم » [٦١] ، وقد طرد من وظيفته فى ١٧٩٢ .

هؤلاء المهرطقون المفصحون عن هرطقاتهم كانوا قلة قليلة ؛ ولعل المهرطقين الصامتين كانوا كثيرين . أما وقد رحب هذا العدد الكبير من رجال الدين بالعقل ، وكان الدين فى ألمانيا أقوى كثيراً منه فى انجلترة أو فرنسا وكانت فلسفة فولف قد أمدت الجامعات بهذا التوفيق بين العقلانية والدين ، فإن التنوير الألمانى لم يتخذ صورة متطرفة . ولم يسع إلى تدمير الدين بل إلى تخليصه من الأساطير والسخافات وسلطان رجال الدين — وهى أمور جعلت الكاثوليكية فى فرنسا مبعث سرور عظيم للشعب وسخط شديد لجماعة الفلاسفة ، وقد فطن العقلانيون الألمان — وهم يتبعون روسو لا فولتير — إلى ما للدين من إغراء قوى للعناصر العاطفية فى الإنسان ؛ ثم إن النبلاء الألمان ، الأقل جهراً بارتيابيتهم من الفرنسيين ، ساندوا الدين معواناً للأخلاق والحكم . وجاءت الحركة الرومانتيكية فكبحت زحف العقلانية . ومنعت ليسنج من أن يكون لألمانيا ما كانه فولتير من قبل لفرنسا .

٥ — جوتهولت ليسنج

١٧٢٩ — ٨١

كان جده الأعلى عمدة لبلدة فى سكسونيا ، وظل جده أربعة وعشرين عاماً عمدة على كامينتس ، وكتب دفاعاً عن التسامح الدينى ؛ وكان أبوه الراعى اللوثرى الأول فى كامينتس ، وكتب دروساً فى تعليم العقيدة بالسؤال والجواب حفظها ليسنج عن ظهر قلب . أما أمه فكانت ابنة الواعظ الذى تقلد أبوه من قبل منصب الراعى لكنيسته . وكان تصرفاً طبيعياً منها أن تنذره للقسوسية ، وطبيعياً منه بعد أن أتخم بالتقوى أن يتمرد .

وكان تعليمه المبكر فى البيت وفى مدرسة ثانوية بمدينة مايسين مزيجاً من التأديب الألمانى والآداب الكلاسيكية ، ومن اللاهوت اللوثرى والكوميديا اللاتينية . يقول «كان تيوفراستوس ، وبلاوتوس ، وترينس ، عالمى الذى درسته بابتهاج» (٦٢) ، وحين بلغ السابعة عشرة بعث إلى ليبزج على منحة دراسية . فوجد المدينة أكثر إثارة للاهتمام من الجامعة ؛ وانغمس فى بعض حماقات الشباب ، وعشق المسرح ووقع فى غرام إحدى الممثلات ، وسمح له بالدخول وراء الكواليس ، وتعلم وسائل تقوية التأثير المسرحى ؛ وفى التاسعة عشرة كتب تمثيلية ، ووفق فى جهوده فأخرجت . فلما سمعت الأم بنبأ هذه الخطيئة بكت ، واستدعاه الأب إلى البيت غاضباً. ولكنه سرى عنهما بابتساماته ، وأقنعهما بسداد ديونه . وحين وقعت أخته على قصائده وجدتها بذيئة إلى حد مذهل وأحرقتها ؛ فرمى ثلجاً فى صدرها ليخفف من حماستها . ثم أعيد إلى ليبزج ليدرس الفلسفة ويصبح أستاذاً ، ولكنه وجد الفلسفة قاتلة ، واقترض ديوناً عجز عن الوفاء بها ، ثم هرب إلى برلين (١٧٤٨) .

هناك عاش حياة الأديب الذى يلتقط رزقه يوماً بيوم — يراجع الكتب ، ويترجم ، ويشترك مع كريستلوب ميليوس فى تحرير مجلة مسرحية لم تعمر . وما إن بلغ التاسعة عشرة حتى أصبح مدمناً للتفكير الحر . فقرأ سبينوزا ووجده برغم هندسته لا يقاوم . وألف مسرحية (١٧٤٩) عنوانها

« الروح الحر » ، قابلت بين تيوفان القسيس الشاب اللطيف ، وآدراست الحر التفكير الخشن الصخاب الذى تغلب عليه إلى حد ما صفات الأوغاد . هنا انتصرت المسيحية فى الجدل . ولكن فى هذه الفترة أو حولها كتب ليسنج لأبيه يقول « ليس الإيمان المسيحى بالشىء الذى ينبغى للمرء أن يتقبله من أبويه بتسليم » (٦٣) وألف الآن تمثيلية أخرى (اليهود) ناقشت التزاوج بين المسيحيين واليهود . فهنا عبرانى غنى شريف لا اسم له إلا « المسافر » . ينقذ حياة نبيل مسيحى وابنته ، فيعرض النبيل عليه الزواج من ابنته مكافأة له ، ولكنه يعدل عن عرضه حين يميط اليهودى اللثام عن حقيقة جنسه ؛ ويوافق اليهودى على أن الزواج لو تم لكان غير سعيد . ولم يتعرف ليسنج إلى موسى مندلسون الذى رأى فيه تجسيداً للفضائل التى كان قد خلعها على « المسافر » إلا بعد خمس سنين (١٧٥٤) وذلك أثناء مباراة للشطرنج .

وفى بواكير عام ١٧٥١ كلف فولتير أو سكرتيره ليسنج بأن يترجم إلى الألمانية مادة أراد الفيلسوف المتغرب أن يستعملها فى دعوى رفعها على أبراهام هيرش ، وسمح السكرتير لليسنج أن يستعير جزءاً من مخطوط كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » . وفى تاريخ لاحق من تلك السنة ذهب ليسنج إلى فتنبرج وأخذ المخطوط معه . وخشى فولتير أن تستعمل هذه النسخة غير المصححة فى إصدار طبعة مسروقة ، فأرسل إلى ليسنج طلباً عاجلا بأسلوب مهذب لرد الأوراق . واستجاب ليسنج ، ولكنه أنكر النغمة المتعجلة ، وربما كان هذا سبباً فى تشويه خصومته التالية لأعمال فولتير وخلقه .

ونال ليسنج درجة الأستاذية من جامعة فتنبرج عام ١٧٥٢ . فلما عاد إلى برلين شارك فى دوريات شتى بمقالات اتسمت بكثير من التفكير الإيجابى والأسلوب اللاذع ، فما حل عام ١٧٥٣ حتى كان قد اكتسب قراء بلغوا من الكثرة حداً يلتمس له معه العذر فى أن ينشر وهو فى الرابعة والعشرين طبعة جمعت كل أعماله فى ستة مجلدات . وقد اشتملت على تمثيلية جديدة اسمها « الآنسة سارة سامبسن » كانت من معالم تاريخ المسرح الألمانى . وكان

المسرح الألمانى إلى هذا التاريخ قد أخرج كوميديات وطنية ، ولكن ندر أن أخرج مأساة وطنية . لذلك ناشد ليسنج زملاءه كتاب التمثيليات أن يتحولوا عن النماذج الفرنسية إلى النماذج الانجليزية ويكتبوا مآسيهم هم . وامتدح ديدرو لدفاعه عن الكوميديا العاطفية ومأساة الطبقة الوسطى ، ولكن تمثيلية « الآنسة سامبسن » استوحاها من انجلتره — من « التاجر اللندنى » لجورج ليللو (١٧٣١) و « كلاريسا » لصموئيل رتشردسن (١٧٤٨) .

ومثلت المسرحية فى فرانكفورت — على — الأدور عام ١٧٥٥ ، ولقيت قبولا حسناً . وقد احتوت كل عناصر الدراما ؛ بدأت بإغواء ، واختتمت بانتحار ، ووصلتهما بنهر من الدموع . والوغد مليفونت (الحلو المظهر) هو افلايس فى قصة رتشردسن ؛ تمرس بسلب الفتيات بكارتهن ، ولكنه يستنكر الزواج بواحدة ؛ يعد سارة بالزواج — ويهرب معها ، ويعاشرها معاشرة الأزواج ، ثم يسوف فى الزواج ؛ وتحاول خليلة سابقة له أن تسترده ، وتخفق . فتدس السم لسارة . ويصل أبو سارة ، مستعداً لأن يغفر كل شيء ويقبل ميلفونت صهراً له ، ولكنه يجد ابنته تحتضر أما ملفونت فينتحر مخالفاً بذلك طبيعته ، وكأنه يطبق ملاحظة ليسنج الساخرة : إن الأبطال فى المآسى لايموتون من شيء إلا من الفصل الخامس (٦٤) .

وخيل إليه أن فى استطاعته الآن أن يرتزق من الكتابة للمسرح ، ولما لم يكن فى برلين مسارح فإنه رحل إلى ليبزج (١٧٥٥) ثم اندلعت حرب السنين السبع . فأقفل المسرح ، وكسدت سوق الكتب ، وبات ليسنج مفلساً . فعاد إلى برلين ، وشارك فى مجلة نيقولاى « رسائل عن أحدث ثمرات الأدب » بمقالات سجلت قمة جديدة فى النقد الأدبى الألمانى . تقول رسالته التاسعة عشرة « إن القواعد هى ما يشاء أساتذة الفن مراعاته » وفى ١٧٦٠ غزا الجيش النمساوى الروسى برلين . ففر ليسنج إلى برزلاو حيث عمل سكرتيراً لقائد بروسى . وخلال السنين الخمس التى أقامها هناك اختلف إلى الحانات ، وقامر ، ودرس سبينوزا ، وآباء المسيحية القدامى ، وفنكلمان ، وكتب « لا وكون » . ثم عاد إلى برلين فى ١٧٦٥ . وفى ١٧٦٦ دفع بأشهر كتبه إلى المطبعة .

وهذا الكتاب « لاوكون ، أو على التخوم بين التصوير والشعر » استلهم حافزه المباشر من كتاب فنكلمان « أفكار عن محاكاة الآثار الإغريقية فى التصوير والنحت » (١٧٥٥) . وبعد أن كتب ليسنج نصف مخطوطه وصله كتاب فنكلمان « تاريخ الفن القديم » (١٧٦٤) ، فقطع بحثه وكتب يقول ، « لقد ظهر كتاب الهر فنكلمان فى تاريخ الفن . ولن أجرؤ على التقدم خطوة أخرى قبل أن أقرأ هذا الكتاب » [٦٥] واتخذ نقطة انطلاقة من مفهوم فنكلمان عن الفن الإغريقى الكلاسيكى متمثلا فى الوقار الهادىء والفخامة المطمئنة ، ووافق على زعم فنكلمان أن مجموعة تماثيل اللاوكون المحفوظة بقاعة الفاتيكان للفنون احتفظت بهذه الصفات رغم الألم القتال (اشتبه لاوكون ، كاهن أبوللو فى طروادة ، فى أن هناك يونانيين يختبئون فى « حصان طروادة » ، فقذفه برمح ، ولكن الإلهة أثينا الحابية لليونان أقنعت بوسيدن أن يطلع من البحر ثعبانين ضخمين التفا حول الكاهن وولديه التفافاً قاتلا) . وقد ظن فنكلمان أن مجموعة لاوكون — التى تعد الآن عملا من أعمال نحاتين رودسيين فى القرن الأخير قبل المسيح — تنتمى إلى عصر فيدياس الكلاسيكى .

أما لماذا خلع فنكلمان ، الذى شاهد هذا الأثر ودرسه صفة الجلال المطمئن على ملامح الكاهن المشوهة فذلك سر غامض . وقد قبل ليسنج الوصف لأنه لم ير التمثال قط [٦٦] . ووافق على أن المثال خفف من تعبير الألم ؛ ثم راح يتساءل عن سبب هذا الانضباط الفنى ، وأراد استنباطه من قيود الفن التشكيلى الأصيلة الصحيحة .

ثم تمثل بقول الشاعر الإغريقى سيمونيدس إن « التصوير شعر صامت ، والشعر تصوير بليغ » [٦٧] . وأضاف أن الإثنين مع ذلك يجب أن يلزما حدودهما الطبيعية : فالتصوير والنحت ينبغى أن يصفا الأشياء فى المكان ، لا أن يحاولا قص قصة ، أما الشعر فينبغى أن يروى أحداثاً فى الزمان ، لا أن يحاول وصف أشياء فى المكان . وينبغى أن يترك الوصف المفصل للفنون التشكيلية ، فإذا ورد فى الشعر ، كما فى « فصول » طومسن أو « ألب » هالر ، قطع السرد وشوش الأحداث . « ومعارضة هذا الذوق الفاسد

ومناقضة هذه الآراء التى لا أساس لها ، هوو الهدف الرئيسى للملاحظات التالية »(٦٨) . ولكن سرعان ما نسى ليسنج هذا الهدف ، وتاه فى نقاش مستفيض لكتاب فنكلمان فى تاريخ الفن . هنا كانت تعوزه الخبرة والكفاية ، وكان لتمجيده الجمال المثالى باعتبارة هدف الفن أثر معطل على التصوير الألمانى . ثم إنه خلط بين التصوير والنحت ، وطبق عليهما جميعاً المعايير الخاصة بالنحت فى المقام الأول ، وبهذا شجع شكلية أنطون رفائيل منجز الجامدة . بيد أن أثره على الشعر الألمانى كان بركة ؛ فقد حرره من الأوصاف المسهبة ، والنزعة الوعظية المدرسية ، والتفصيل الممل ، وأرشده إلى الحركة والشعور . وقد أقر جوته شاكراً بالتأثير المحرر لكتاب ليسنج « لاوكون » .

ووجد ليسنج نفسه أكثر تمكناً من عمله حين انتقل (ابريل ١٧٦٧) إلى همبورج كاتباً وناقداً مسرحياً براتب قدره ثمانمائة طالر فى العام . وهناك أخرج تمثيليته الجديدة . « منا فون بارنهيلم » . وبطل التمثيلية — الميجر تلهايم — العائد من الحرب بأكاليل الغار إلى أملاكه يظفر بخطبة منا الحسناء الغنية . غير أن الحظ الذى قلب له ظهر المجن ، والدسائس المعادية التى لاحقته ، يهويان به إلى درك الفقر ، فينسحب من الخطبة لأنه لم يعد الزوج الصالح لوريثة ثروة ضخمة . ويختفى ، ولكنها تطارده وتتوسل إليه أن يتزوجها ، فيرفض . وإذ تدرك السبب تدبر خدعة تبيت بها معدمة ولكن فى صورة جذابة ؛ ويعرض الميجر الآن نفسه زوجاً لها ويدخل رسولان فجأة يعلنان كل من ناحيه أن منا وتلهايم قد استردا ثروتهما . ويبتهج الجميع ، وحتى الخدم يدفعون على عجل إلى الزواج . والحوار مرح ، والشخوص بعيدة التصديق ، والحبكة منافية للعقل — ولكن كل الحبكات تقريباً منافية للعقل .

وفى اليوم الذى شهد افتتاح المسرح القومى بهمبورج (٢٢ أبريل ١٧٦٧) أصدر ليسنج نشرة قدم بها لمقالاته فى نظرية الدراما وقد علقت هذه المقالات دورياً ، طوال العامين التاليين ، على التمثيليات التى أخرجت فى ألمانيا ، وعلى نظرية الدراما فى أعمال الفلاسفة . وقد اتفق مع أرسطو على القول بأن الدراما أسمى أنواع الشعر ، وقبل فى تناقض مندفع القواعد التى وضعها أرسطو فى كتابه « فى الشعر » :

« لست أتردد فى الاعتراف . . . بأنى أعده معصوماً مثل « مبادىء » (٦٩) اقليدس (الذى لم يعد الآن معصوماً) . ومع ذلك توسل إلى مواطنيه أن يكفوا عن تبعيتهم لكورنيى وراسين وفولتير ، وأن يدرسوا فن الدراما كما هو معلن فى شكسبير (الذى تجاهل قواعد أرسطو) . وقال إنه يشعر ان فى الدراما الفرنسية اسرافاً فى الشكلية لايسمح بإحداث ذلك « التنفيس » أوتطهير العواطف الذى وجده أرسطو فى الدراما اليونانية ؛ وذهب إلى أن شكسبير قد حقق هذا التطهير على نحو أفضل فى الملك لير ، وعطيل ، وهاملت بحدة الحركة وقوة لغته وروعتها . وقد أكد ليسنج ضرورة توفر عنصر الاحتمال ، ناسياً منديل ديدمونه . فكاتب الدراما القدير يتجنب الاعتماد على المصادفات والتفاهات ، فيبنى بالتدريج كل شخص من شخوصه بحيث تصدر الأحداث بالضرورة عن طبيعة الأشخاص المعنيين . وقد وافق كتاب الدراما فى فترة حركة « شتورم أوند درانج (الاقتحام والجهاد) على اتخاذ شكسبير مثلا أعلى ، وحرروا الدراما الألمانية فى ابتهاج من الدراما الفرنسية . وألهمت الروح القومية التى تصاعدت بانتصارات فردريك وهزيمة فرنسا نداء ليسنج ودعمته ، وسيطر شكسبير على المسرح الألمانى قرابة قرن من الزمان .

غير أن تجربة همبورج انهارت لأن الممثلين تنازعوا فيما بينهم ولم يتفقوا إلا على الاستياء من مقالات ليسنج النقدية . فشكا فريدرش شرودر من أن « ليسنج لم يستطع قط أن يفرغ لمشاهدة عرض كامل للمسرحية ؛ فهو يخرج ويدخل ، أو يتحدث إلى معارفه ، أو يستسلم للتفكير ، ومن السمات التى تثير سروره العابر يكون صورة هى من نسج عقله ولا تمت إلى الواقع بسبب » (٧٠) وهذا الحكم المميز أجاد وصف حياة ليسنج وعقله المتمردين .

والآن هل يجدر بنا أن نقف به فى منتصف طريقه لنلقى عليه بنظرة ؟ كان ربعة ، منتصب القامة فى كبرياء ، قوياً لدنا بفضل التمرين الرياضى المنتظم ، مليح القسمات ، أزرق العينين فى دكنة ، بنى الشعر فاتحه محتفظاً بلونه هذا حتى مماته . وكان دافئاً فى صداقاته ، حاراً فى عداواته . لا يسعده شىء كالجدل ، فإذا اشتبك فيه أثخن الجراح بقلم حاد . كتب يقول « ليبدأ

الناقد بالبحث عن شخص يستطيع الاختلاف معه . وهكذا يلج موضوعاً ويوغل فيل شيئاً فشيئاً ، ثم يقفو الباق هذه الخطوة نتيجة طبيعية لها ، وأنا أعترف صراحة بأنى أخترت أولا المؤلفين الفرنسيين لهذا الغرض ، لاسيما المسيو فولتير » [٧١] — وقد اقتضى هذا الاختيار قدراً كافياً من الشجاعة . وكان متحدثاً ذكياً ولكنه مندفع ، حاضر الجواب ، لديه عن كل شيء أفكار بلغت من الكثرة والقوة مبلغاً لم يتح له أن يضفى عليها النظام أوالاتساق أو الفعالية الكاملة . وكان يستمتع بالبحث عن الحقيقة أكثر من الوهم الخطر بأنه وجدها . ومن هنا جاءت أشهر ملاحظاته :

« ليست الحقيقة التى يملكها الرجل — أو يعتقد أنه يملكها — هى التى تجعل له قيمة ، بل الجهد المخلص الذى بذله للوصول إليها . لأنه ليس بامتلاك الحقيقة بل بالبحث يطور المرء تلك الطاقات التى فيها وحدها كماله المطرد النمو . فالتملك يجعل العقل راكداً كسولا متكبراً . ولو أن الله احتوى فى يمناه الحقيقة كلها ، ولم تحتو يسراه إلا الحافز الدائم الحركة نحو الحقيقة ، علماً بأنى سأخطىء دائماً أبدا — ثم قال لى « اختر ! » لأحنيت رأسى فى اتضاع أمام يسراه وقلت « أبتاه ، أعطنى هذا ! فالحقيقة الخالصة لك أنت وحدك »[٧٢] .

وبقيت له من تجربة همبورج الفاشلة صداقتان غاليتان ، إحداهما مع إلبز رايماروس ، ابنة هرمان رايماروس أستاذ اللغات الشرقية فى أكاديمية همبورج ، التى جعلت من بيتها ملتقى لأرقى الجماعات ثقافة فى المدينة . وأنضم ليسنج إلى ندوتها ، واختلف إليها مندلسون وياكوبى أثناء وجودهما فى المدينة ، وسوف نرى الدور الحيوى الذى لعبته هذه الجماعة فى تاريخ ليسنج . أما الصداقة الثانية التى كانت أوثق حتى من هذه فصداقته لإيفا كونيج يقول ليسنج إن هذه السيدة التى كانت زوجاً لتاجر حرير وأما لأربعة أطفال « ذكية تفيض حيوية ، وهبت لباقة المرأة وكياستها » ، وأنها « كانت لا تزال محتفظة ببعض نضارة الشباب وفتنته »[٧٣] ، وقد جمعت هى أيضاً

من حولها صالوناً من الأصدقاء المثقفين ، كان ليسنج يحتل مكان الصادرة منهم . فلما رحل زوجها إلى البندقية فى ١٧٩٩ قال لليسنج ، « إنى أترك أسرتى وديعة بين يديك » . ولم يكن هذا بالترتيب الحكيم ، لأن الكاتب المسرحى لم يكن له ما يملكه إلا العبقرية ، وكان مديناً بألف طالر . وفى أكتوبر من ذلك العام قبل دعوة من الأمير كارل فلهلم فرديناند حاكم برنزويك ليضطلع بأمانة مكتبة الدوقية فى فولفنيوتل ، التى تقلص سكانها إلى ستة آلاف نسمة منذ أن نقل دوقها الحاكم مقره إلى برنزويك (١٧٥٣) على سبعة أميال منها ، ولكن مجموعة كتبها ومخطوطاتها كانت فى رأى كازانوفا « ثالث أعظم مكتبة فى العالم » (٧٤) واتفق على أن ينقد ليسنج ستمائة طالر فى العالم ويخصص له مساعدان وخادم ، ويعطى سكناً مجانياً فى قصر الدوق القديم ؛ وفى مايو ١٧٧٠ استقر فى بيته الجديد .

غير أنه لم يكن أمين مكتبة ناجحاً ، ومع ذلك فقد أبهج رئيسه باكتشافه بين المخطوطات بحثاً مشهوراً مفقوداً بقلم بيرنجار الثورى (٩٩٨ — ١٠٨٨) يتشكك فيه فى عقيدة استحالة خبز القربان وخمرة إلى جسد المسيح ودمه . وقد افتقد فى حياته القاعدة ، التى عاشها الآن ،الكفاح والحافز اللذين وجدهما فى همبورج وبرلين . ثم إن انكبابه على قراءة الخطوط الرديئة فى الضوء الضعيف أضر عينيه وأصابه بنوبات من الصداع ، وبدأت صحته تتداعى . فعزى نفسه بكتابة مسرحية جديدة سماها « إميليا جالوتى» أفصحت عن الضيق بامتيازات الطبقة الارستقراطية وأخلاقها .فإميليا هذه ابنة جمهورى متحمس ، يشتهيها سيدهما أمير جواستاللا فيقتل خطيبها بأمره ، ثم يخطفها إلى قصره ؛ فيعثر عليها أبوها ، ويطعنها طعنات مميتة استجابة لإلحاحها ، ثم يستسلم لبلاط الأمير ويحكم عليه بالإعدام ، بينما الأمير سادر فى غيه لا يختلج إلا لحظة . وحرارة المسرحية وبلاغتها أنقذتا خاتمتها ، فأصبحت مأساة محببة على خشبة المسرح الألمانى ، وقد أرخ جوته بعرضها الأول (١٧٧٢) بعث الأدب الألمانى من رقدته . ورحب بعض النقاد بليسنج شكسبيراً ألمانياً .

وفى أبريل ١٧٧٥ ذهب ليسنج إلى إيطاليا مرافقاًلليوبولد أمير برنزويك ، وقضى ثمانية أشهر يستمتع بالحياة فى ميلان والبندقية وبولونيا ومودينا

وبارما وبياتشنتسا وبافيا وتورين وكورسيكا وروما ؛ وهناك قدم إلى البابا بيوس السادس ، وربما شاهد تمثال لاوكون متأخراً . وفى فبراير ١٧٧٦ كان قد عاد إلى فولفنبوتل . وفكر فى الاستقالة ، ولكنه أقنع بالبقاء فى منصبه بعلاوة قدرها مائتا طالر فوق راتبه ، وبمائة جنيه ذهبى فرنسى (لوى دور) فى العام بوصفه مستشاراً لمسرح مانهايم . وعرض الآن وهو فى السابعة والأربعين على الأرملة إيفا كونيج أن تصبح زوجاً له وأن تحضر بأولادها معها . فحضرت ، وتزوجا (٨ أكتوبر ١٧٧٦) . وظلا عاماً يتمتعان بحياة سعيدة هادئة . وفى عشية الميلاد من عام ١٧٧٧ ، ولدت طفلا مات فى الغد . وبعد ستة عشر يوماً ماتت الأم أيضاً ، وفقد ليسنج طعم الحياة .

ولكن الجدل حفظ عليه حياته . ففى أول مارس ١٧٦٨ ودع هرمان رايماروس الحياة مخلفاً لزوجته مخطوطاً ضخماً لم يجرؤ قط على طبعه . وقد مررنا فى غير هذا الموضع [٧٥] من الكتاب مرور الكرام بهذا «الدفاع عن المؤمنين العقلانيين» . وكان ليسنج قد اطلع على شطر من هذا المؤلف الممتاز ، فطلب إلى السيدة رايماروس أن تسمح له بنشر أجزاء منه ، فوافقت . وكان له بصفته أميناً للمكتبة سلطة نشر أى مخطوط فى المجموعة . فأودع مخطوط «الدفاع» فى المكتبة ، ثم نشر جزءاً منه فى ١٧٧٤ بعنوان «تسامح الربوبيين . . . بقلم كاتب مجهول» . فلم يثر أى ضجة . ولكن الراسخين فى الأمور الروحية أثارهم القسم الثانى فى مخطوط رايماروس الذى أصدره ليسنج فى ١٧٧٧ بعنوان «مزيد من بحوث الكاتب المجهول عن الوحى» . وقد زعم هذا القسم أنه لا يمكن لأى وحى موجه لشعب واحد أن يظفر بقبول جميع الناس فى عالم تتنوع أجناسه وأديانه هذا التنوع الكبير ، فالذين سمعوا إلى الآن بالكتاب المقدس ؛ اليهودى — المسيحى ، بعد ألف وسبعمائة سنة ، ليسو إلا أقلية من البشر ، وإذن فلا يمكن قبوله تنزيلا من الله للنوع الإنسانى . ثم نشر قطعة أخيرة من المخطوط بعنوان «أهداف المسيح وتلاميذه» (١٧٧٨) لم تصور المسيح ابناً لله بل صوفيا متحمساً شارك رأى بعض اليهود فى أن العالم المعروف يومها قد أشرف على نهايته ، وسيعقبه قيام

ملكوت الله على الأرض؛ وقد فهمه الرسل على هذا النحو (فى زعم رايماروس)، لأنهم أملوا فى أن يبوءوا عروشاً فى هذا الملكوت القادم. فلما انهار الحلم بصرخة المسيح اليائسة على الصليب « إلهى إلهى لماذا تركتنى » — اخترع الرسل (كما ظن رايماروس) خرافة قيامته إخفاء لهزيمته، وصوروه بصورة ديان العالم المكافىء المنتقم.

وهاجم اللاهوتيون الذين صدموا أجزاء « مخطوط فولفنبوتل » هذه فى نيف وثلاثين مقالا فى الصحف الألمانية. واتهم يوهان ملكيور جوتسى كبير رعاة همبورج ليسنج بأنه موافق سراً على مزاعم « الكاتب المجهول »، وحض الكنيسة والدولة جميعاً على عقاب هذا المنافق. أما الخصوم الأكثر اعتدالا فقد وبخوا ليسنج على نشره بالألمانية المفهومة للقراء شكوكاً كان من الواجب الإفصاح عنها، إن جاز الإفصاح إطلاقاً، باللاتينية لفئة قليلة من القراء. ورد ليسنج فى إحدى عشرة نشرة (١٧٧٨) نافست « رسائل بسكال الإقليمية » فى تهكمها المرح — ونكتتها الذكية الفتاكة. يقول هينى « لم يسلم منه رأس، وما أكثر الرءوس التى أطاح بها لمجرد العبث الخالص، ثم دفعته شقاوته إلى رفعها علانية ليرى الناس أنها فارغة »[٧٦]. وقد ذكر ليسنج مهاجميه بأن حرية الحكم والنقاش عنصر حيوى فى برنامج حركة الإصلاح البروتستنتى؛ ثم إن للشعب الحق فى كل المعرفة المتاحة له، وإلا لكان بابا واحد من بابوات روما خيراً من مائة نبى بروتستنتى. وعلى أية حال فإن قيمة المسيحية (فى زعمه) ستبقى حتى لو كان الكتاب المقدس مجرد وثيقة بشرية وكانت معجزاته مجرد قصص خرافية ورعة أو أحداث طبيعية. وصادرت حكومة الدوق أجزاء مخطوط فولفنبوتل ومخطوط رايماروس، وأمرت ليسنج بألا ينشر المزيد دون موافقة الرقيب البرنزويكى.

فلما ألزم ليسنج الصمت على منبره اتجه إلى خشبة المسرح فألف أروع تمثيلياته. وكان قد أعسر مرة أخرى إثر النفقات التى تحملها بسبب مرض زوجته وموتها، فاقترض ثلاثمائة طالر من يهودى همبورجى ليوفر الوقت اللازم للفراغ من مسرحية « ناثان الحكيم. وقد اختار

مكاناً لأحداثها مدينة أورشليم أبان الحملة الصليبية الرابعة . وأما ناثان هذا فتاجر يهودى ورع له زوجة وسبعة أبناء يذبحهم المسيحيون الذين أتلفت الحرب الطويلة أخلاقهم . وبعد ثلاثة أيام يأتيه راهب بطفلة مسيحية ماتت أمها لتوها ، وكان أبوها — الذى قتل فى المعركة مؤخراً — قد أنقذ ناثان من الموت فى مناسبات عديدة . ويسمى ناثان الطفلة ريكا ، ويربيها كأنها ابنته ، ولا يلقنها إلا التعاليم الدينية التى يجمع عليها اليهود والنصارى والمسلمون.

وبعد ثمانية عشر عاماً ، وبينما كان ناثان غائباً لقضاء بعض مصالحه ، احترق بيته ؛ وينقذ فارس شاب من فرسان المعبد ريكا ثم يختفى دون التعريف بشخصه ؟ وتحسبه ريكا ملاكاً معجزاً . ويبحث ناثان بعد عودته عن المنقذ ليكافئه ، فيسبه هذا لأنه يهودى . ولكن ناثان يقنعه بالمجىء لتقبل شكر ريكا وعرفانها . فيحضر ، ويقع فى غرامها وتبادله الحب ، ولكنه حين يعرف أنها مسيحية المولد ولم ترب كمسيحية يسائل نفسه ألا يلتزم بيمين الفروسية بتبليغ الأمر إلى بطريرك أورشليم . ثم يشرح مشكلته للبطريرك دون ذكر أسماء الأفراد ، ويحدس البطريرك أنهما ناثان وريكا ، فيقسم أنه قاتل ناثان لا محالة . ثم يرسل راهباً ليتجسس على اليهودى ، ولكنه هو الراهب ذاته الذى جاء بريكا إلى ناثان قبل ثمانية عشر عاماً ؛ وقد لحظ طوال هذه السنين حكمة التاجر المشربة بالعاطفة ، فيخبره بالخطر الذى يتهدد حياته ، ويحزنه ذلك الحقد الدينى الذى يجعل الناس قتله سفاكين للدماء إلى هذا الحد .

ثم يقع صلاح الدين ، حاكم القدس الآن ، فى ضائقة مالية . فيرسل فى طلب ناثان بأمل الاقتراض منه . فيحضر ناثان ، ويفطن إلى حاجة صلاح الدين ، فيعرض السلفة قبل أن تطلب منه . أما السلطان ، العليم بما اشتهر به ناثان من حكمة ، فيسأله أى الأديان الثلاثة أفضل فى رأيه . ويجيب ناثان بقصة حورها بحكمة من القصة التى رواها بوكاشيو ونسبها للملكى صادق اليهودى الاسكندرى. تقول القصة إن خاتماً نفيساً كان يتوارثه جيل بعد جيل دليلا

على الوارث الشرعى لضيعة غنية . ولكن فى أحد هذه الأجيال يحب الأب أبناءه الثلاثة حباً يستوى حرارة وصدقاً ، فيأمر بصنع ثلاثة خواتم متشابهة ، ويعطى كل ابن خاتماً سراً ، وبعد موته يتنازع الأبناء على أى الخواتم هو لأاصيل والحقيق ، ثم يحتكمون إلى القضاء — حيث ظل الأمر معلقاً لم يفصل فيه إلى اليوم . فأما الأب المحب فهو الله ، وأما الخواتم الثلاثة فهى اليهودية والمسيحية والإسلام ، والتاريخ لم يفصل بعد فى أمر هذه الأديان وأيها هو شريعة الله الحقة . ويدخل ناثان تغييراً جديداً على القصة : فالخاتم الأصلى كان المفروض أنه يجعل لابسه إنساناً فاضلا ، ولكن بما أن أحداً من الابناء الثلاثة لايفضل غيره من الناس ، فمن المحتمل أن يكون الخاتم الأصلى قد فقد ، فكل خاتم — أى كل دين — حقيقى بقدر ما يجعل لابسه فاضلا . ويعجب صلاح الدين بجواب ناثان إعجاباً شديداً فيقوم ويعانقه — وعقب هذا الحديث الفلسفى يظهر مخطوط عربى يتبين منه أن فارس المعبد وريكا ولدان لأب واحد . فيحزنان لأنهما لايستطيعان الزواج ، ولكنهما يفرحان لأن فى استطاعتهما الآن أن يحب أحدهما الآخر كأخ وأخت ينالان بركة ناثان اليهودى وصلاح الدين المسلم .

أكان ناثان صورة صاغها على غرار موسى مندلسون ؟ هناك أوجه شبه بين الإثنين كما سنرى فى فصل لاحق ، ومن المحتمل ، برغم أوجه الخلاف الكثيرة ، أن ليسنج وجد فى صديقه الكثير مما ألهمه تلك الصورة المثالية لتاجر القدس . وربما رسم ليسنج اليهودى والمسلم بتعاطف أكثر مما رسم المسيحى مدفوعاً برغبته الشديدة فى التبشير بالتسامح ؛ ففارس المعبد فى أول لقاء مع ناثان فظ فى تعصب ، والبطريرك (أهو ذكرى ليسنج لجوتسى؟) لاينصف فى صورته هذه الأساقفة الرحماء المستنيرين الذين كانوا آنئذ يحكمون ترير وماينز وكولون . وأنكر جمهور ألمانيا المسيحى التمثيلية حين نشرت فى ١٧٧٩ لأنه رآها غير منصفة ؛ وانضم إلى هذا النقد العديد من أصدقاء ليسنج . فلم تصل تمثيلية « ناثان الحكيم » إلى خشبة المسرح إلا فى عام ١٧٨٣م فى الليلة الثالثة كان المسرح خالياً . وفى ١٨٠١ لقيت

نسخة معدلة أعدها شيلر وجوته قبولا حسناً فى فايمار ، وبعدها ظلت من التمثيليات المحببة فى المسارح الألمانية طوال قرن كامل .

وقبل أن يموت ليسنج بعام أصدر نداءه الأخير للتفاهم ، وصاغه فى عبارات دينية ، كأنما أراد أن يلين جانب المقاومة ويقيم جسراً بين الأفكار القديمة والجديدة . وهذا المقال المسمى « تربية النوع الإنسانى» من بعض نواحيه يبرر الأفكار القديمة ؛ ثم ندرك أن الدفاع إنما هو دعوة لحركة التنوير . فالتاريخ بجملته يمكن أن ينظر إليه على أنه رؤيا مقدسة ، وتربية تدريجية للنوع الإنسانى . وكل دين عظيم كان مرحلة فى هذه الإنارة المتدرجة الخطوات ، فهو ليس كما افترض بعض الفرنسيين خدعة يخدع بها رجال الدين الأنانيون السذج من الناس ، إنما هو نظرية عالمية قصد بها تمدين البشرية ، وغرس الفضيلة والتهذيب والوحدة الاجتماعية . فى إحدى مراحله (مرحلة العهد القديم) حاول الدين جعل الناس فضلاء بأن وعدهم بطيبات الدنيا فى عمر مديد ؛ وفى مرحلة أخرى (مرحلة العهد الجديد) حاول التغلب على التناقض المثبط للعزائم بين الفضيلة والنجاح فى هذه الدنيا بوعده بثواب الآخرة ؛ وفى كلتا الحالتين خوطب الناس على قدر فهمهم المحدود فى ذلك الوقت . وكل دين فيه نواة غالية من الحقيقة ، ربما كان الفضل فى تقبل الناس لها ذلك الغلاف من الخطأ الذى جعلها سائغة . فإذا كان اللاهوتيون قد أحاطوا المعتقدات الأساسية شيئاً فشيئاً بعقائد عسيرة الفهم ، كالخطيئة الأصلية والتثليث ، فإن هذه التعاليم أيضاً هى رموز للحقيقة وأدوات للتربية . فالله يمكن تصوره على أنه قوة واحدة لها وجوه ومعان كثيرة ؛ والخطيئة أصلية بمعنى أننا كلنا مولودون بنزوع لمقاومة الشرائع الأخلاقية والاجتماعية [٧٧] . ولكن المسيحية فوق الطبيعية ليست سوى خطوة فى تطور العقل البشرى ، وستأتى مرحلة أعلى حين يتعلم النوع الإنسانى أن يعقل ، وحين يصبح الناس من القوة ووضوح الرؤية بحيث يفعلون الصواب لأنهم يرونه صواباً ومعقولا ، لا طمعاً فى ثواب مادى أو سماوى . وقد بلغ بعض الأفراد تلك المرحلة ، وهى لم تتوفر للنوع الإنسانى إلى الآن ولكنها «آتية ، آتية لاريب فيها . . . زمان رسالة جديدة خالدة ! » [٧٨] وكما أن

الفرد المتوسط يلخص فى نموه التطور الفكرى والخلقى للنوع ، فكذلك يمر النوع فى بطء خلال التطور الفكرى والخلقى للفرد الأعلى . وإذا شئنا التعبير بطريقة فيثاغوريه ، قلنا ان كلا منا يولد من جديد ، ثم يولد من جديد ، حتى تكتمل تربيته — أى تكيفه مع العقل ٥

ترى ماذا كانت آراء ليسنج النهائية فى الدين ؟ لقد قباه معيناً هائلا للفضيلة ، ولكنه أنكره نسقاً من العقائد القطعية التى تفرض قبولها وإلا كانت الخطيئة والعقاب والعار الاجتماعى . وكان فكره عن الله أنه الروح الباطن للحقيقة ، المسبب للتطور والمتطور هو ذاته ؛ ورأى فى المسيح أكمل إنسان مثالى ، ولكنه ليس تجسيداً لهذا الإله إلا مجازاً ؛ وقد تطلع إلى زمن يختفى فيه اللاهوت كله من المسيحية ، فلا يبقى إلا مبدأ أخلاقى سام من العطف الصبور والأخوة العالمية . وفى مسودة خطاب إلى مندلسون صرح بالتزامه برأى سبينوزا فى أن الجسم والعقل هما الظاهر والباطن لحقيقة واحدة ، وصفتان لجوهر واحد متطابق مع الله . وقال لياكوبى « ان المفاهيم التقليدية عن الإله لم يعد لها وجود عندى ، وانا لا أطيقها ، لا أطيقها كلها ! لا أعرف غير هذا »(٧٩) ؛ وفى ١٧٨٠ طلب إليه ياكوبى الذى زاره فى فولفنبوتل أن يساعده فى الرد على سبينوزا وتفنيد آرائه ، فصدمه جواب ليسنج : « ليس هناك فلسفة غير فلسفة سبينوزا . . . ولو خيرت فى أن أتسمى باسم آخر لما عرفت غير إسمه »(٨٠) .

وقد ترك ليسنج وحيداً فى أخريات عمره بسبب هرطقاته وضراوته أحياناً فى الجدل . وبقى له بعض الأصدقاء فى برنزويك يختلف إليهم بين الحين والحين للحديث ولعب الشطرنج . وكان أبناء زوجته يعيشون معه فى فولفنبوتل ، وقد خصص لهم التركة الصغيرة التى خلفتها كاملة . ولكن خصومه شهروا به فى طول ألمانيا وعرضها ملحداً رهيباً . فتحداهم ، وتجاسر على معارضة الرجل الذى يدفع له راتبه ، ذلك أن كارل فلهلم فرديناند ، الذى أصبح الآن (١٧٨٠) دوقاً على برنزويك ، زج فى السجن يهودياً

شاباً آثار سخطه . فزار ليسنج الفتى فى سجنه ، ثم اصطحبه إلى منزله بعد ذلك ليسترد عافيته .

أما عافيته هو فكانت قد ولت . وغشى بصره الآن حتى لم يكد يقوى على القراءة . وكان يعانى من الربو ، وضعف الرئتين ، وتصلب الشرايين . وفى ٣ فبراير ١٧٨١ بينما كان فى زيارة لبرنزويك أصابته نوبة ربو شديدة ، وبصق دماً . وأوصى أصحابه قائلا : حين ترونى مشرفاً على الموت ، استدعوا موثقاً ، وسأعلن أمامه اننى أموت على غير دين من الأديان السائدة [٨١] . وفى ١٥ فبراير بينما كان راقداً فى فراشه اجتمع نفر من أصحابه فى الحجرة المجاورة . وفجأة فتح باب حجرته ، وظهر ليسنج ، منحنى الظهر مهزولا ، ورفع قلنسوته محيياً ، ثم خر على الأرض صريعاً بسكتة دماغية . وأذاعت مجلة لاهوتية أن الشيطان حمله عند موته إلى الجحيم كأنه فاوست آخر باع روحه [٨٢] . ولم يخلف من المال إلا أقل القليل ، فاضطر الدوق إلى دفع نفقات جنازته .

لقد كان البشير بأعظم عصور ألمانيا الأدبية . ففى عام موته نشر كانط كتابه الخطير « نقد العقل الخالص » ونشر شيلر أول تمثيلياته . وكان جوته يرى فى ليسنج المحرر العظيم ، وأبا التنوير الألمانى . قال جوته موجهاً الخطاب إلى طيف ليسنج « فى الحياة كرمناك إلها من الآلهة ؛ أما الآن وقد مت فإن روحك تسيطر على جميع النفوس » .

٦ — رد الفعل الرومانتيكى

كان جوته يتحدث باسم أقلية صغيرة ؛ أما السواد الأعظم من الشعب الألمانى فتشبثت بتراثه الدينى ، ورحب بالشاعر الذى تغنى بإيمانهم رجلا ملهماً من السماء . فبعد أن أثار هندل مشاعر إرلنده على الأقل بأنغام « المسيا » السمائية بست سنوات ، أسر فريدرش جوتليب كلوبشتوك قلب ألمانيا بالقصائد الحماسية الأولى من ملحمته (المسيا) (١٧٤٨ — ٧٣) .

وقد ولد كلوبشتوك فى ١٧٢٤ قبل مولد ليسنج بخمس سنين ، وعاش اثنين وعشرين سنة بعده . وقد أصبح ليسنج رجلا حر الفكر وهو ابن القسيس ، أما كلوبشتوك ابن المحامى فقد اتخذ من نظم ملحمة شعرية عن حياة المسيح أهم رسالة لحياته . وبلغ من تحمسه الشديد لموضوعه أنه نشر الأقسام الثلاثة الأولى من الملحمة وهو لايزال فتى فى الرابعة والعشرين . وقد فتنت هذه الأبيات السداسية التفاعيل ، غير المقفاة ، جمهوراً من القراء بلغ من عرفانهم أنهم أرسلوا الرسائل من جميع أرجاء ألمانيا لابنة عمه حين تقدم لخطبتها بعد سنة يناشدونها أن تقبل الخطبة ، ولكنها رفضتها . بيد أن فردريك الخامس ملك للدنمرك - استجابة لتوصية وزيره يوهان فون برنشتورف - دعا كلوبشتوك للحضور والإقامة فى البلاط الدنمركى وإكمال ملحمته نظير أربعمائة طالر فى العام . وفى طريق الشاعر إلى كوبنهاجن راقته إحدى المعجبات الدنمركيات ، واسمها مارجريتا مولر ؛ وفى ١٧٥٤ تزوجها ، وفى ١٧٥٨ ماتت فحطمت قلبه وأظلمت شعره . وقد خلد ذكراها فى القسم الخامس عشر من « المسيا » وفى بعض من أعمق قصائده الشعبية تأثيراً . وأقام فى كوبنهاجن عشرين سنة ، ثم ذهبت حظوته عند الملك بعد طرد برنشتورف ، فعاد إلى همبورج ، وفى ١٧٧٣ نشر آخر أجزاء ملحمته الضخمة .

وكان مطلعها دعاء هو صدى لملتن ، ثم روت فى عشرين قسماً القصة المقدسة ، ابتداء من تأملات المسيح على جبل الزيتون وانتهاء بصعوده إلى السماء . وبعد أن أنفق كلوبشتوك فى كتابة ملحمته وقتاً قارب ما أنفقه المسيح لكى يعيشها ، اختتمها بتسبحة تفيض حمداً وشكراً لله :

ها أنذا قد بلغت هدفى ! ان الفكرة المثيرة
ترف خلال روحى . وذراعك القادرة على كل شىء
ربى وإلهى هى وحدها التى هدتنى
عبر أكثر من قبر مظلم قبل أن أبلغ
ذلك الهدف البعيد ! أنت أيها الرب شفيتنى ،
وأنزلت فيضاً جديداً من الشجاعة على قلبى المتخاذل ،

الذى كان فى صحبــة حميمــة مع المــوت ؛
وكنت إذا شخصت إلى الأهــوال لم تلبث
أشكالها المظلمة أن تتوارى ، لأنك تحميى ؛
لقد اختفت سريعاً . . . . يا مخلصى ، لقد تغنيت
بوعــد رحمتــك . ووطئــت قــدمــاى
طريق المخيف ، وكل رجائى فيك أنت ؛ (٨٣)

ورحبت ألمانيا السنية الإيمان بملحمة « المسيا » كأفضل شعر كتب إلى يومها بالألمانية . وينبئنا جوته عن مستشار فى فرانكفورت كان يقرأ الأقسام العشرة الأولى « كل سنة فى أسبوع الآلام ، وبهذه الطريقة ، ينعش روحه طوال العام » . أما جوته فلم يكن يستطيع الاستمتاع بالملحمة إلا بنبذ شروط معينة لا تتخلى عنها ثقافة تسير قدماً إلا على مضض (٨٤) . وقد سكب كلوبشتوك ورعه بغزارة فى شعره حتى أصبحت قصيدته سلسلة متعاقبة من الغنائيات والكوراليات الباخية أكثر منها الرواية المتدفقة التى يجب أن تكونها الملحمة ؛ وليس من اليسير علينا أن نتتبع تحليقاً عاطفياً استغرق عشرين قسماً وخمسة وعشرين سنة .

وكما أن فولتير ولد نقيضه فى روسو ، كذلك جعل ليسنج بارتيابيته ، وعقلانيته ، ونزعته الفكرية ، ألمانيا تشعر بحاجتها إلى كتاب يدركون مقابل هذا مكان وحقوق الوجدان ، والعاطفة ، والخيال ، والغموض ، والرومانس ، والعنصر فوق الطبيعى فى حياة البشر .

وقد أصبحت عبادة « الحساسية » عند بعض ألمان هذه الفترة ، لاسيما النساء منهم ، ديناً كما أصبحت موضة . وكان فى دارمشتات « حلقة لذوى الحساسية » جعل أعضاؤها من العاطفة والتعبير الوجدانى مبدأ وشعيرة . وكان روسو هو « مسيا » هذه النفوس . وفاق تأثيره فى ألمانيا تأثير فولتير بمراحل ؛ واعترف به هردر وشيلر ينبوعاً للإلهام ؛ وكان كتاب كانط « نقد العقل العلمى » مشرباً بروسو ، أما جوته

فقد بدأ بروسو « الشعور هو كل شيء » وانتقل إلى فولتير « فكر فى أن تحيا » ، ثم انتهى إلى ضرب رأسيهما بعضهما ببعض . وجاء فى غضون ذلك شعراء الوجدان من انجلتره : جيمس طومسون ، ووليم كولنز ، وإدورد ينج ، وقصاصا الوجدان رتشردسن رستيرن . وقد أثارت مختارات توماس برسى من روائع الشعر الإنجليزى القديم ، وديوان مكفرسن (من الشعر المنثور الذى زعم أنه ترجمة لشعر « أوسيان » من مخطوطات غالية قديمة) الاهتمام بشعر العصر الوسيط و غموضه وروما نسيته ؛ وبعث كلوبشتوك وهاينريش فون جرستنبرج إلى الحياة فيثولوجية اسكندناوه وألمانيا السابقة للمسيحية .

وكان يوهان جيورج هامان ، قبل عام ١٧٨١ ، قائد الثورة على العقل . ولد مثل كانط فى مدينة كونجزبرج الغائمة السماء ، وأشربه أبوه الوجدان الدينى بشدة ، وتلقى علومه فى الجامعة ، ثم كافح وهو فقير واشتغل معلماً خاصاً ، ووجد عزاءه فى إيمان بروتستنتى يثبت لكل لطمات حركة التنوير . وكان يقول إن العقل ليس إلا جزءاً من الإنسان ، حديث التطور وليس أساسياً ؛ أما الغريزة ، والحدس ، والوجدان ، فهى أعمق منه ، والفلسفة الحقة تقيم نفسها على طبيعة الإنسان وجوانبه كلها . واللغة ليست فى أصلها حصيلة للعقل بل منحة من الله للتعبير عن الوجدان . والشعر أعمق من النثر . والأدب العظيم لا يكتب بمعرفة القواعد والأسباب ومراعاتها ، بل بتلك الخاصية التى لا يمكن تعريفها وهى العبقرية التى تتجاوز كل القواعد مهتدية بالوجدان .

ووافق فريدريش ياكوبى هامان وروسو . وقال ان فلسفة سبينوزا منطقية جداً إذا كنت تقبل المنطق ، ولكنها زائفة لأن المنطق لاينفذ أبداً إلى قلب الحقيقة ، التى لاتتكشف إلا للوجدان والإيمان . فوجود الله لا يمكن إثباته بالعقل ، ولكن الوجدان يعرف أنه بدون الإيمان بالله تكون حياة الإنسان عبثاً مأساوياً يائساً .

بهذا التمجيد للوجدان والشعر شحنت الروح التيوتونية لتطلق تحليقات

من الأدب الخصب الخيال جعلت النصف الثانى من القرن الثامن عشر فى ألمانيا مذكراً بحرارة انجلتره وخصوبة إنتاجها على عهد اليزابث . فكثرت مجلات الشعر ، التى عانت قصر العمر المألوف ، وكتب يوهان هاينريش فوس قصة رقيقة بالشعر سماها « لويزه » (١٧٨٣ — ٩٥) فضلا عن قيامه بترجمة هومر وفرجل وشكسبير ، وقد كسبت هذه القصة محبة الألمان وحفزت جوته لينافسها . وظفر سالومون جسنر بقراء دوليين أقبلوا على غنائياته الرقيقة ورعوياته النثرية . ومس ما تياس كلوديوس قلوب مائة ألف أم بأغانيه الريفية عن الحياة العائلية ، مثل أغنيته المسماه « تهويدة تغنى على ضوء القمر » :

نامى الآن ياصغيرتى !
لـــم تبكـــين؟
ناعمـــة هى الراحة ،
وحلوة فى ضوء القمر .
وسيقبل النعاس عما قليل
وبــــلا ألــــم .
إن القمر يفرح بالأطفال
ويحبك [(٨٥)] .

أما جوتفريد بورجر فقد أوتى كل فضائل العبقرية الرومانسية . كان ابناً لراعى كنيسة . وأرسل إلى خاله فى جوتنجن ليدرس القانون ، ولكن حياته الفاجرة أفضت إلى تركه الكلية . وفى ١٧٧٣ نال غفران جميع الناس لخطاياه بقصيدته الشعبية « لينوره » . وحبيب لينوره هذه يرحل مع جيش فردريك إلى حصار براغ . وفى كل صباح تنتفض من أحلامها وتسأله « يافلهلم ، أأنت عديم الإيمان ، أم أنت ميت؟ وإلى متى يبطىء قدومك ؟ » وتضع الحرب أوزارها ، ويعود الجند ، ويلقاهم الزوجات والأمهات والأبناء بالفرح والشكر لله :

وراحت تستفسر من الجميع فى ذلك العرض ،

وتسأل كل واحد عن اسمه ،
ولكن أحداً لم يعطها جوابا ،
لا أحد ممن عادوا ،
فلما مضى كل الجنود ،
مزقت شعرها الفاحم ،
وارتمت على الأرض
فى نوبات أليمة من اليأس القاتل .

وتقول لها أمها إن « ما يفعله الله يفعله حسناً » ، وتجيب لينوره بأن هذا وهم ، وتطلب لنفسها الموت . . . وتحدثها الأم عن النعيم والجحيم ، وترد لينوره بأن النعيم أن تكون مع فلهلم ، والجحيم أن تحرم منه ، وتروح تهذى طوال نهارها . فإذا جن الليل وقف فارس ببابها ، وهو لا يذكر اسمه ، بل يأمرها بأن تأتى معة وتكون عروسه . فتمتطى خلفه جواده الأسود ، وتركب الليل كله . ثم يصلان إلى جبانة ، وترقص الأشباح من حولها . وفجأة ينقلب الفارس جثة هامدة ، وتجد لينوره أنها متشبثة بهيكل عظمى . وبينما هى تتأرجح بين الحياة والموت تنوح الأرواح بهذه الكلمات :

صبراً ، صبراً ! حتى حين ينفطر القلب !
لاتنازعى الله فى سمائه !
لقد جردت من جسدك ؟
فليسبغ الله رحمته على روحك [٨٦] ،

٧ — الزوبعية

اندفعت الحركة الرومانتيكية من ورع كلويشتوك ورقة جسنر إلى النزعة الفردية الخارجة على تقاليد الاحترام ، إلى تمرد الشباب الألمانى وجهاده فى نشوة الثورة الأخلاقية والاجتماعية . ذلك أن ارستقراطية البلاطات الجامدة المتصلبة وعقائدية الوعاظ المتهافتة وجشع طبقة رجال الأعمال وتكالبهم الكثيب على المال ، وأساليب البروقراطيين المطردة المملة المبلدة للشعور ،

وحذلقة العلماء وغرورهم — كل أولئك أثار سخط شباب الألمان الواعين بقدراتهم المغموطين مكانتهم . وقد أصاخوا السمع لصيحة روسو طلباً للطبيعية والحرية ، ولكنهم لم يعبأوا بتمجيده « للإرادة العامة » ووافقوه على رفض المادية ، والعقلانية ، والحتمية ، ووافقوا ليسنج على تفضيل انحرافات شكسبير القوية عن القواعد ، على كلاسيكية كورنيي وراسين المقيدة للحركة . وأساغوا ذكاء فولتير وظرفه ، ولكن المكان الذى اجتازه تراءى لهم صحراء جرداء . وقد طربوا لتمرد المستعمرات الأمريكية على انجلترا . كتب جوته وهو يستعيد ذكرى هذه الحقبة « تمنينا للأمريكيين النجاح كله ، وبدأ اسما فرانكلين وواشنطن يسطعان ويتألقان فى سماء السياسة والحرب »[٨٧] . هؤلاء المتمردون المجاهدون أحسوا نشوة المراهقة الجسمية واليقظة العقلية ، وشكوا من كابوس الشيوخ على الشباب ، والدولة على النفوس . كانوا مع الأصالة ، والتجربة المباشرة والتعبير الطليق ، واعتقد بعضهم أن عبقريتهم تعفيهم من القانون . وأحسوا أن الزمن فى صفهم ، وأن المستقبل القريب سيشهد انتصارهم . يقول جوته « أوه ، لقد كانت حقبة سعيدة حين كنت أنا وميرك شابين ! »[٨٨] .

وأعرب بعض هؤلاء المتمردين عن فلسفتهم بتحدى تقاليد الزى وإحلال تقاليد من عندهم محلها ، فكان كرستوف كاوفمان يسير عارى الرأس ، مشعث الشعر ، مفتوح القميص حتى السرة[٨٩] . ولكن هذا كان حالة شاذة ، وإذا استثنينا حالة انتحار أو حالتين ، فإن أكثر أبطال الحركة اجتنبوا هذا العرض المقلوب لزيهم . وكان بعضهم ميسوراً . وكان جوته نفسه واحداً من أسلاف الزوبعية بمسرحيته جوتز فون برليشنجن (١٧٧٣) ، وفى السنة التالية أصبحت قصته « آلام فرتر » لواء الرومانتيكية الخفاق . وانضم شيلر إلى الحركة فأصدر « اللصوص » (١٧٨١) ، ولكن هذه النفوس المعقدة ، المتطورة ، سرعان ما تركت الحملة ليضطلع بها شباب أكثر التهاباً وأضعف جذوراً .

وكان يوهان ميرك أحد الآباء المؤسسين للحركة وكل الشواهد تدل على أنه كان سليم العقل قوى البدن ، وكان قد أتم دراسته بالجامعة ، وأصبح شخصاً أثيراً فى بلاط هسى — دار مشتات ، ثم عين رئيساً عاماً لصيارفة الجيش ، واشتهر بالذكاء الحاد والكفاءة العملية . وحين التقى به جوته فى ١٧٧١ وقع من نفسه موقعاً حسناً ، فاشترك معه ومع هردر فى تمويل مجلة نقدية تسمى «أنباء فرانكفورت الأدبية » ، ومن هنا لقب «الفرانكفورتيين» [٩٠] الذى أطلق أول الأمر على المتمردين . وإذ كان ميرك خبيراً بدنيا الأعمال والسياسة ، ورحالة جاب أرجاء المانيا وتنقل فى أنحاء روسيا ، فقد شهد وانتقد انتقاداً لاذعاً غرور الغنى ، وملل العيش فى قصور الملوك والأمراء ، واستغلال الفلاحين . فلما ألفى نفسه عاجزاً عن إصلاح هذه الأحوال ، بات متألماً ساخراً . وقد سماه جوته « مفستوفيليس ميرك » ، واتخذ من نفسه ومن ميرك نماذج لأدوار الأبطال فى فاوست . واضطرب عقل ميرك لهزائمه فى عمله وتعاسته فى زواجه . ووقع فى حبائل الدين ، فأنقذه منها دوق ساكسى — فايمار استجابة لرجاء جوته . ثم بات فريسة لاكتئاب لا يبرحه ، وقتل نفسه وهو لا يزال فى الخمسين (١٧٩١) .

وأكثر مأساة حتى من هذه الحياة كانت حياة راينهولد لنتس . وكان ابناً لراعى كنيسة لوثرى فى ليفونيا ، أثر فى أعصابه الضعيفة ، ومزاجه السريع الإثارة ، فى طفولته التأكد على عقيدتى الخطيئة والجحيم [٩١] . وأعانه حينا استماعه إلى محاضرات كانط فى كونجزبرج ؛ وقاده كانط إلى كتابات روسو ، فقال لنتس بعد قليل عن « هلويز الجديدة » إنها خير كتاب طبع إطلاقاً فى فرنسا . وفى ستراسبورج التقى بجوته ، فبهرته شخصيته الإيجابية ، وقلده فى الفكر والأسلوب ، وكتب أشعاراً غنائية اشبهت أشعار جوته إلى حد أنها ضمنت فى بعض طبعات أعمال جوته . ثم مضى إلى زيزنهايم ، ووقع (بعد جوته) فى غرام فردريكه بريون ، ونظم القصائد الحارة فى مديحها . وأكد لها أنها أن لم تستجب لحبه فهو قاتل نفسه ، فلم تفعل ولم يفعل . ثم انتقل إلى فايمار ، وصادقه جوته ، وحسد جوته على نجاحه ، وسخر من علاقة جوته بشارلوته فون شتاين ، وطلب إليه الدوق ان يرحل

عن الدوقية . . وكان شاعراً ومسرحياً موهوبا . وتمثيليته المسماة « الجند » نقدت نقداً لاذعا الفوارق الطبقية والحياة البورجوازية ، وشخصيتها المحورية فتاة من الطبقة الوسطى تتطلع عبثاً إلى الزواج من ضابط . ثم تنقلب مومسا وتتحرش بأبيها الذى لم تتعرف عليه فى الشوارع . وإذ كان لنتس مفتقراً إلى الثبات والاستقرار افتقاراً أعجزه عن العثور على مكان مرموق فى الحياة ؛ فقد راح يهيم متنقلا من وظيفة إلى وظيفة ومن إخفاق إلى إخفاق ، ويعانى نوبات من الجنون ، ويحاول الانتحار غير مرة ، وأخيراً مات مجنوناً (١٧٩٢).

أما مكسمليان فون كلنجر فكان أذكى دعاة الحركة . ندد بالدنيا وارتقى فيها إلى مكان مرموق ، وأطلق لقلمه العنان فى الحديث العنيف فى تمثيلياته ، ثم أصبح أميناً لجامعة دوربات ، واستمتع بكل آثام الشباب وحماقاته وعمر حتى التاسعة والسبعين . وعنه كتب جوته بيته الذى نم عن حسن إدراك وفطنة : « فى الصبايا نحب ما هن عليه ، أما فى الفتيان فنحب ما يرجى أن يكونوه » . وقد أعطت أشهر تمثيلية كتبها كلنجر وهو فى الرابعة والعشرين (١٧٧٦) « شتورم أوند درانج » اسمها ومزاجها للزوبعية . وترى فيها المتمردين الأوربيين يتغربون فى أمريكا أملا فى أن يجدوا منافذ حرة لنزعاتهم الفردية ؛ أما لغتها فلغة العاطفة المشبوبة وقد جمحت ؛ وأما دعوتها فدعوة العبقرية التى تحررت من كل القواعد . وقد حارب كلنجر فى الجيشين النمساوى والروسى ، وتزوج ابنة غير شرعية لكاترين الكبرى ، وهبطت ثورته أخيراً حين تولى منصب الأستاذية ، ثم تجمد عموداً من أعمدة الدولة .

وأما فلهلم هاينزى فقد توج الحركة برواية « أردنجهللو » (١٧٨٧) التى جمعت بين الفوضوية ، والعدمية ، والشيوعية ، والفاشية ، واللامبالاة بالأخلاق ، وإرادة القوة ، فى مهرجان صاخب من الشهوانية والجريمة ، يقول البطل إن الجريمة ليست بجريمة إن كانت شجاعة ؛ وما من جريمة حقيقية غير الضعف ، وأصدق الفضائل شجاعة الجسم والإرادة ؛ والحياة

إظهار للغرائز الإساسية ، ونحن نخطىء إذا دمغنا هذه الغرائز باللا أخلاقية . وهكذا يغوى أردنجللو ويقتل إذا لاحت له الفرصة أو دفعته النزوة ، ويرى فى عواطفه المشبوبه الطليقة من كل قيد أسمى قوانين الطبيعة . وهو يصف بطولات هانيبال ويمجده إنساناً أعلى ويتساءل : « ما قيمة مليون من الرجال الذين لم يحظوا طوال حياتهم بساعة واحدة كساعاته — بالقياس إلى هذا الرجل الفرد ؟ » [٩٢] وهو يقيم مجتمعاً شيوعياً تسوده شيوعية النساء وحق الانتخاب للنساء وعبادة قوى الطبيعة باعتبارها الدين الأوحد .

فى دوامة الزوبعية (شتورم) المضطربة هذه خلعت بعض الأفكار الغالبة على هذه الحركة طابعها وتأثيرها . فمعظم قادتها أتوا من الطبقة الوسطى ، وبدأوا ثورتهم احتجاجاً على امتيازات الحسب والنسب ، ووقاحة ذوى المناصب ، وبذخ الأحبار الذين ينعمون بطيبات العيش على حساب عشور الفلاحين . وقد أجمعوا على الرثاء لحظ الفلاح العاثر — حراً كان أو قناً — وتصوير خلقه فى صورة مثالية . وأهابوا بالنساء أن ينبذن موضاتهن وأطواقهن وعواطفهن الهشة وإغماءاتهن وتقواهن الخانعة الذليلة ، ودعوهن للمجىء والمشاركة فى الحياة المثيرة التى يحياها العقل المحرر من الأغلال ، والذكر الجوال . وأعادوا تعريف الدين بأنه إلهام سماوى فى نفس عبقريتها جزء من الحافز الخلاق والسر المبدع فى الدنيا . ووحدوا بين الطبيعة والله ، وانتهوا إلى أن الإنسان يكون إلهياً إذا كان طبيعياً . واتخذوا من أسطورة فاوست المنحدرة من العصر الوسيط رمزاً للجوع الفكرى والطموح الملتهب الذى يحطم كل حواجز التقاليد أو الاعراف أو الأخلاق أو القوانين . وهكذا نرى « مالرمولر » يكتب قبل جوته بزمان مسرحية سماها « فوستس لوبن » « لأنى عرفت فيه من البداية رجلا عظيماً . . . يحس بقوته كلها ، ويشعر باللجام الذى قيده به القدر ، ويحاول أن يخلعه ، وتتوفر له شجاعة الإطاحة بكل شىء يقف فى طريقه » [٩٣] .

وقد وسمت حماسة الزوبعية وشططها هذه الحركة بأنها تعبير عن المراهقة الفكرية ، وصوت أقلية قضى عليها بأن يعلو صوتها ثم يخبو . ولم تكسب

الحركة أى تأييد شعبى ، لأن التقاليد والشعب يساند الواحد منهما الآخر دائماً . فلما وجد أتباع الحركة أنفسهم بغير قاعدة فى بنيان الحياة الألمانية ، تصالحوا مع الأمراء ، وأملوا — كما أمل جماعة الفلاسفة — أن يقود الحكام المستنيرون الطريق إلى التحرر الفكرى والإصلاح الاجتماعى . وأدرك هردر وجوته وشيلر الحركة فى شبابهم ، ثم انسحبوا من نارها الآكلة ، وقلموا أظافرهم وأطبقوا أجنحتهم ، وتقبلوا حماية أدواق فايمار الكرام شاكرين .

٨ — الفنانون

كان ألمان العصر الذى نحن بصدده أنداداً فى الفن للفرنسيين والإيطاليين. فلقد نقلوا الباروك عن إيطاليا والروكوك عن فرنسا ، ولكنهم أعطوا إيطاليا فنكلمان ومنجز ، وآثر ملوك فرنسا وملكاتها الألمان المغتربين أمثال دافيد رونتجن ، و « جان » ريزنر ، وآدم فايسفايلر ، على صناع الأثاث الفاخر الفرنسيين ؛ من ذلك أن لويس السادس عشر دفع ثمانين ألف جنيه ثمناً لمكتب من صنع رونتجن [٩٤] . وحفل المقر الملكى فى ميونخ ، وقصر فردريك الجديد فى بوتسدام ، وبيوت أثرياء الألمان ، بالأثاث الضخم الدقيق النقوش ، حتى وفد طراز أخف فى نهاية العصر من صنع الانجليزيين تشيندیل وشيراتن . وكانت مصانع ما يسن قد أضرت بها الحرب ، ولكن نمفنبرج ولودفجزبرج وبوتسدام وغيرها من المراكز واصلت صناعات البرسلان والخزف ، وأشرقت رفوف الألمان ومدافئهم وموائدهم ومكاتبهم بصغار التماثيل المرحة الرشيقة الرقص والغناء والتقبيل .

وعلى نطاق أوسع ظهر نحت للتماثيل جدير بالإعجاب . شديد الاهتمام من ذلك أن مارتن كلاور نحت تمثالا نصفياً لجوته فى أيام فايمار الأولى — بدا فيه متشوفاً ، براق العين ، واثق النفس [٩٥] . ولم يبلغ لودفج ، بن مارتن ، هذا الإتقان فى تمثاله الذى نحته لشيلر [٩٦] ، وأفضل منه تمثال شيلر المعروض الآن فى ميدان بشتوتجارت من صنع يوهان فون دانيكر . أما سيد النحت الألمانى فى هذا العصر فيوهان جوتفيلد شادوف ، الذى أصبح مثالا للبلاط فى برلين عام ١٧٨٨ . وفى ١٧٩١ نحت رأساً لفردريك ،

وفى ١٧٩٣ صنع له تمثالا كامل الطول ؛ وفى ١٨١٦ صب بالبرونز « فردريكا » (٩٧) أصغر — وهو رائعة لاينساها من شهدها . وصب البرونز « مركبة النصر » لبوابة براندنبرج ، وكاد يبلغ روعة الجمال الكلاسيكى فى المجموعة الرخامية التى نحتها لولية العهد الأميرة لويزة وأختها فريدريكه .

وكثر المصورون فى ألمانيا كثرة أتاحت لها أن تنزل لإيطاليا عن اثنى عشر منهم ثم يبقى لها بعد ذلك مصورون أكفاء « من ذلك أن عدد المصورين من أل تيشباين الذين جمعتهم رابطة الفرشاة كان كبيراً بحيث يسهل علينا الخلط بينهم . فأحدهم وهو يوهان هاينريش تيشباين المصور فى بلاط هسى — كاسل رسم صورة بديعة لليسنج . أما ابن أخيه يوهان فريدريش تيشباين ، فرسم فى كاسل وروما ونابلى وباريس وفيينا ولا هاى، ودساو وليبزج وسانت بطرسبرج ، وصور مجموعة ساحرة لأبناء الدوق كارل أوجست أمير ساكسى — فايمار . وأما يوهان هاينريش فلهلم تيشباين فعاش فى إيطاليا (١٧٨٧ — ٩٩) ، ورسم صورة مشهورة « جوته فى كمبانيا روما » ثم عاد ليصبح مصور البلاط لدوق أولدنبورج .

وكان من مصادر « الزوبعية » « الألمانية المنحازة لإيطالية آدم فريدريش أويزر ، النحات ، الرسام ، النقاش ، المعلم ، وداعية اصلاح الفن على الأصول الكلاسيكية . وقد عاش فنكلمان معه زمناً فى درسدن ، وانتقد رسمه ، وأعجب بخلقه ، وقال « إنه يعرف كل ما يستطيع الإنسان أن يعرفه خارج إيطاليا » (٩٨) وفى ١٧٦٤ عين أويزر مديراً لأكاديمية الفنون فى ليبزج ، وزاره جوته هناك وانتقلت إليه عدوى الحمى الإيطالية .

ويحتل مكان الصدارة بين الفنانين الذين بقوا فى ألمانيا دانيل شودوفيكى ، وكان بولندياً . ولد فى دانزج ، وترك يتيماً ، فتعلم أن يكسب قوته بصنع الرسوم والمحفورات والصور . وفى ١٧٤٣ انتقل إلى برلين وأصبح ألمانيا فى كل شىء إلا اسمه . وقد روى حياة المسيح فى منمنمات رائعة أذاعت صيته فى طول البلاد وعرضها ، ثم رسم بمزاج فولتيرى « جان كالاس وأسرته » وتكاثر الطلب على رسومه حتى إنه لم ينشر أى أثر أدبى كبير فى بروسيا

سنين طوالا دون أن تزينه رسوم من صنعه . وفى أروع محفوراته صور أسرته : فصور نفسه هو و مكب على عمله ، وزوجته تشرف فى اعتزاز على أبنائه الخمسة ، ثم جدران البيت تكسوها الصور . ورسم بالطباشير الأحمر صورة لوته (شارلوته) كستنر ، التى أحبها جوته وفقدها . وترى فى عمله رشاقة فى الخط ورقة فى الشعور تميزه عن هوجارت ، الذى كثيراً ما قورن به لكثرة ما صوره من مناظر الحياة المألوفة ؛ ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة ما قورن به لكثرة ما صوره من مناظر الحياة المألوفة ؛ ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة . وكثيراً ما استلهم فاتو ؛ وفى صورته « لقاء فى حديقة الحيوان[٩٩] » ترى ولع فاتو بالهواء الطلق وتموج ثياب النساء الخلاب .

وقد ترك أنطون جراف صورة لشودوفيكى[١٠٠] — يفيض ابتسامات وعقصاً ولحماً مكتنزاً — وصورة لنفسه[١٠١] وهو يتطلع من فوق لوحته ولكنه مكتمل الزينة كأنه يتأهب للذهاب إلى حفلة رقص . وقد أفرغ حيوية أكثر على لوحته الجميلة لزوجته[١٠٢] ، والتقط غرور الممثلة كورونا شروتر[١٠٣] وجلل بالثياب المذهبة جسد السيده هوفرات بومى الفضفاض[١٠٤] .

وآخر قائمة المصورين فى نصف القرن الذى نحن بصدده هو آزموس ياكوب كارستنز ، الذى استوعب دعوة فنكلمان نصاً وروحاً ، وأكمل الإحياء الكلاسيكى فى التصوير الألمانى . ولد فى شلزفج ، وتعلم فى مدارس كوبنهاجن وإيطاليا ، ومارس عمله فى لوبك وبرلين على الأخص ، ولكنه عاد إلى إيطاليا فى ١٧٩٢ ، ووجد المتعة الكبرى فى تأمل أطلال النحت والعمارة القديمين . ولم يعرف أن الزمن قد نزح اللون من الفن اليونانى فلم يبق إلا على الخط ؛ وعليه أحال فرشاته إلى قلم كما فعل منجز ، ولم يستهدف إلا الشكل الأكمل . وقد أزعجته العيوب البدنية التى شابت أجساد نماذجه التى يصورها فى مرسمه ، فقرر أن يركن إلى خياله ؛ وأبهجه أن يصور الأرباب اليونانية والمناظر المستقاة من الميثولوجيا اليونانية كما تخيلها هو وفنكلمان . ومن هذه انتقل إلى تصوير دانتى وشكسبير . وكان ولعه بالخط والشكل يفتقد دائماً اللون والحياة ، وحتى حين كان يبلغ فى رؤياه لأشباه الإله رؤيا تقرب

من رؤيا ميكلانجلوا ، كما نرى فى لوحة « مولد النور »[١٠٥] ، فإننا لا نستطيع الثناء عليه إلا لأنه تذكر صور كنيسة السستين بالدقة التى تذكر بها موتسارت موسيقاها . وردت روما على محبته بمحبة مثلها ، وأتاحت لعمله (١٧٩٥) العرض فى أوسع وأشهر المعارض التى أتيحت لأى فنان حديث . وهناك مات بعد ثلاث سنين غير متجاوز الرابعة والأربعين . ولا غرو فالفن كالجنس قد يكون ناراً آكله .

وغلب مزاج الكلاسيكية الجديدة على الزخرفة المعمارية لبوتسدام وبرلين فى عهد فردريك الأكبر . وكان قد بدأ قصره الجديده فى ١٧٥٥ ، ولم يسمح للحرب بأن تعوقه عن المضى فى المشروع . فشارك فى تصميمه ثلاثة معماريين — بورنيج ، وجونتارد ، ومانجر ؛ فمزجوا الكلاسيك بالباروك فى صرح مهيب يذكر بقصور روما القديمة ، أما الزخارف الداخلية فقد نافسوا فيها أبدع نماذج الروكوك الفرنسى . وكان للكنيسة الفرنسية فى برلين رواق معمد كلاسيكى ، فأضاف إليه جونتارد وتلميذه جبورج أونجر برجا كلاسيكياً (١٧٨٠ — ٨٥) . وزاد أونجر برلين جلالا بتشييد مكتبة ملكية فى ١٧٧٤ — ٨٠ . أما بوابة براند نبورج التى بناها كارل لانجهانز فى ١٧٨٨ — ٩١ فقد قلدت تقليداً سافراً مداخل الأكروبول الفخمة ؛ وقد نجت بالجهد من التدمير فى الحرب العالمية الثانية ، ولكنها فقدت « الكدريجة الشهيرة . وهى العربة ذات الجياد الأربعة التى توجها بها شادوف .

كانت مدن ألمانيا أخرى تنحت الآثار المخلدة لأمراء البيوت المالكة والنبلاء والرفات ، فزينت أخت فردريك فلهلميه مدينة بايرويت بقصر زين بالروكوك الساحر (١٧٤٤ — ٧٣) . وفى كاسل صمم سيمون لوى دورى (١٧٦٩ وما بعدها) صالة الرقص الفخمة والحجرة الزرقاء فى قلعة حاكم هسى — كاسل . وفى الراين قرب دسلدورف بنى نيكلاوس فون بيجاجى قلعة بنرات الفخمة (١٧٥٥ — ٦٩) ، وبنى فليب دلا جبيير لودفجز بورج قصر مونريبو الجميل (١٧٦٢ — ٦٤) .

٩ — بعد باخ

أسعدت ألمانيا بالموسيقى وتأثرت بها أكثر من أى أمة أخرى باستثناء إيطاليا . فالأسرة التى خلت من الآلات الموسيقية كانت شذوذاً وكانت المدارس تعلم الموسيقى تعليمها للدين والقراءة سواء بسواء تقريباً . وكانت الموسيقى الكنيسية آخذة فى الاضمحلال لأن العلم والفلسفة ، والمدن والصناعة ، كانت تصرف العقول عن الدين إلى الدنيا ، وظلت الترانيم اللوثرية العظيمة تجلجل ، ولكن الأغنية أخذت تتحول من الكوارس الكنسية إلى الليدات والتمثيليات الغنائية والأوبرا . وقد افتتح يوهان بيتر شولتس عهداً جديداً فى الأغنية بـ «أغان فى فوكستن» (١٧٨٢) ؛ وبعدها حظيت ألمانيا بزعامة لا تنازع فى استخدام الموسيقى فى الشعر الغنائى .

وقد شجع التحسين الآلى الذى أدخل على البيانوا انتشار الحفلات الموسيقية وظهور مهرة العازفين على الآلات . وغزا العازفون أمثال يوهان شوبرت ، وآبت فوجلر ، ويهان هوملى ، المدن الكثيرة بأدائهم الموسيقى . فنى ١٠ مارس ١٧٨٩ قام هومل الذى لم يتجاوز الأحد عشر ربيعاً بعزف على البيانو فى درسدن ؛ ولم يدر أن موتسارت سيكون بين السامعين ؛ وخلال الحفلة رأى أستاذه السابق وتعرف عليه ؛ فما إن فرغ من عزف قطعته حتى شق طريقه بين الجمع المصفق وعانق موتسارت فى عبارات حارة تفيض بالولاء والبهجة[١٠٦]. واكتسب آبت (أعنى آبوت ، أى الأب الدينى) فوجلر لقبه هذا برسامته قسيساً (١٧٧٣) ؛ وفى ما نهايم كان قسيس البلاط ومدير الموسيقى معاً . وكان فى التأليف الموسيقى من أكثر كتاب القرن أصالة وتأثيراً ؛ وفى العزف على الأرغن أثار غيرة موتسات ؛ وفى التعليم كان صاحب الفضل فى تكوين فيبر وميربير ؛ ثم أضحك ما نهايم وهو ممثل للبابا بلبسه الجوارب الطويلة الزرقاء وحمله كتاب صلواته مع موسيقاه ، وبجعله جمهوره أحياناً ينتظره ريثما يفرغ من صلاته .

وكان أوركسترا ما نهايم الآن فرقة من ستة وسبعين موسيقياً منتقين ،

يقودهم بكفاية كرستيان كانا بيش معلماً وقائداً وعازفاً منفرداً على الكمان . وقد أثر عن اللورد فورد ابس قوله إن ألمانيا تبز سائر الأمم لسببين : الجيش البروسى وأوركسترا مانهايم . ويليه شهرة أوركسترا جيفاندهاوس بليبزج . وكانت الحفلات الموسيقية عملاقة تحوى ثلاثة أو أربعة أو أحياناً ستة كونشرتوات فى برنامج واحد . والقوم يحيونها فى كل مكان — فى المسارح والكنائس والجامعات والقصور والحانات والمتنزهات . ونافست السمفونية الآن الكونشرتو فى الربرتوار الأوركسترالى ، وما وافت سنة ١٧٧٠ — حتى قبل مجىء هايدن — حتى حظيت السمفونية بقبولها كأرقى ألوان الموسيقى الآلية (١٠٧) .

ونصف المؤلفين الموسيقيين فى هذه الحقبة منحدرون من قلب يوهان سبستيان باخ القوى وصلبه المكين . أنجبت له زوجته الأولى سبعة أطفال ، أحرز اثنان منهم — فلهلم فريدمان وكارل فليب إمانويل — سمعة دولية . وأنجبت له زوجته الثانية ثلاثة عشر طفلا برز فى عالم الموسيقى منهم اثنان هما يوهان كرستوف فريدرش ويوهان كرستيان . ثم أنجبت يوهان كسرستوف فريدرش مؤلفاً موسيقياً صغيراً هو فلهلم فريدرش ارنست باخ ؛ وهكذا أعطى يوهان سبستيان باخ العالم خمسة رجال ضمنوا لهم مكاناً فى تاريخ الموسيقى . يضاف إلى هؤلاء أحد أقربائه الأبعدين واسمه يوهان ارنست باخ ، درس على الأستاذ فى ليبزج ، وأصبح رئيساً لفرقة المرتلين فى فايمار ، وترك عدة مؤلفات موسيقية ليجر عليها النسيان ذيوله .

أما فلهلم فريدمان باخ فقد ولد فى فايمار . والقسم الأول من مؤلف أبيه « الكلافير الوسيط » كتب لتعليمه . وقد سار حثيثاً فى دراسته ، ولم يناهز الستة عشر عاماً حتى كان يؤلف الموسيقى . فلما بلغ الثالثة والعشرين عين عازفا اللارغن بكنيسة صوفيا بدرسدن ، ولما كانت واجباته فى هذه الوظيفة هينة فقد ألف عدة صوناتات وكونشرتوات وسمفونيات . ثم ازداد راتباً وشهرة حين اختير (١٧٤٦) عازف أرغن فى كنيسة ليفراون بهاله . وأقام هناك ثمانية عشر عاماً ، ومن هنا تلقيبه «باخ هاله» . وكان مولعاً بالشراب لا يعلو على ولعه به إلا ولعه بالموسيقى . ثم استقال فى

١٧٦٤ ، وظل عشرين عاماً يهيم متنقلا من بلد إلى بلد ، ويقيم بالجهد أوده بالعزف فى حفلات موسيقية وبتعليم التلاميذ . وفى ١٧٧٤ استقر فى برلين حيث مات فى ضنك عام ١٧٨٤ .

وكان كارل فليب إيمانويل باخ أعسر ، فاضطر إلى قصر عزفه على الأرغن والبيانو . وفى ١٧٣٤ حين بلغ العشرين التحق بجامعة فرانكفورت ، وهناك حظى بصحبة جيورج فليب تليمان ، الذى كان أحد عرابيه يوم عماده وأعطاه جزءاً من اسمه . وفى ١٨٣٧ عزف بعض مؤلفاته أمام جمهور ضم فردريك وليم الأول ملك بروسيا . ولما علم بأن ولى العهد فردريك يحب الموسيقى ، قصد راينزبرج وقدم نفسه إليه دون أن يظفر بثمرة عاجلة ؛ ولكن فى ١٧٤٠ عينه فردريك ، الذى أصبح الآن ملكاً ، عازفاً على الصنج فى أوركسترا الكنيسة ببوتسدام . ولكنه ضاق بمصاحبة ناى فردريك الهوائى المزاج وقبول سلطته الملكية فى الموسيقى . وبعد أن قضى فى الأوركسترا ستة عشر عاماً ، اعتزل ليفرغ للتعليم . وقد حدد كتابه « بحث فى العزف الحقيقى على الكلافير » (١٧٥٣ وما بعدها) بداية تقنية البيانو الحديثة ، وكان لهذا الكتيب الفضل فى اكتساب هايدن البراعة الفنية فى العزف على البيانو ، وبسببه قال موتسارت عن « باخ برلين » هذا : « إنه أبونا ، ونحن صبيته ؛ والذين يعرفون منا أى شىء على وجهه الصحيح ، فإنما تعلمناه منه ، ووغد ذلك الطالب الذى لايعترف بهذا »(١٠٨) . وقد خرج إيمانويل فى مؤلفاته عامداً على أسلوب أبيه الكونترابنطى ، مؤثراً تناولا متجانس الصوت وخطا ميلوديا أبسط . وفى ١٧٦٧ قبل وظيفة المدير لموسيقى الكنيسة فى همبورج ، وهناك أنفق الإحدى وعشرين سنة الباقية فى أجله . وفى ١٧٩٥ جاء هايدن إلى همبورج ليراه ، ولكنه وجد أن أعظم أبناء يوهان سبستيان قد مضى على موته سبع سنين .

أما يوهان كريستوف فريدرش باخ فقد درس على أبيه وفى جامعة ليبزج ، ثم عين فى الثامنة عشرة (١٧٥٠) موسيقار الحجرة فى بوكسبورج ، لفلهلم كونت شاومبورج — ليه . وحين بلغ السادسة والعشرين أصبح مديراً للموسيقى . أما الحدث العظيم الذى وقع له فى عامه الثامن والعشرين فهو

مجيء هردر (١٧٧١) مبشراً ؛ وقد زوده هردر بنصوص ملهمة للأوراتوريوات والكنتاتات ، والأغاني ؛ واتبع يوهان كرستوف أساليب أبيه وروحه ، ثم ضاع في خضم تغيرات الدهر وتقلباته .

وعلى النقيض منه كان ولاء الإبن الأصغر ، يوهان كرستيان باخ ، لإيطاليا . بعث إلى برلين وهو لايتجاوز الخامسة عشرة عند موت أبيه ، وهناك بذل له أخ غير شقيق ، يدعى فلهلم فريدمان ، العون وقام على تعليمه . وحين بلغ التاسعة عشرة ذهب إلى بولونيا ، حيث أدى الكونت كافاليري أجوستينوليتا نفقات دراسته على الأب مارتيني ؛ وقد افتتن الشاب بالحياة الإيطالية والموسيقى الكاثوليكية ، فدخل في المذهب الكاثوليكي ، وظل ست سنوات يخص الكنيسة أولا بمؤلفاته الموسيقية . وفي ١٧٦٠ عين عازف أرغن في كتدرائية ميلان ، وأصبح « باخ ميلان » . ثم أثارت الأوبرا الإيطالية أثناء ذلك طموحه للتفوق في الموسيقى غير الدينية كما تفوق في الموسيقى الكنسية ، فأخرج الأوبرات في تورين ونابلي (١٧٦١) ؛ وشكا رؤساؤه الميلانيون من أن رشاقة هذه المؤلفات تتنافر مع مركزه في الكتدرائية . فنقل يوهان كرستيان مقامه إلى لندن (١٧٦٢) ، حيث حظيت أوبراته عادة بعروض طويلة الأمد . وما لبث أن عين رئيساً للموسيقى عند الملكة شارلوت صوفيا ، ورحب بالصبي موتسارت ذي الأعوام السبعة عند مجيئه إلى لندن في ١٧٦٤ ، وراح يلهو معه على البيانو . وأحب الصبي هذا الموسيقي الذي اكتمل نضجه الآن ، وأخذ عنه الكثير من الألماعات في تأليف الصوناتات والأوبرات والسمفونيات . وفي ١٧٧٨ ذهب باخ إلى باريس ليقدم أوبراه « أماديس الغاليين » ، وهناك التقى ثانية بموتسارت . وكان ابتهاج فتى الثانية والعشرين به كابتهاجه قبل خمسة عشر عاماً . كتب فولفجانج لأبيه يقول « إنه رجل أمين ينصف الناس ، وأنا أحبه من كل قلبي »(١٠٩) .

ويمكن القول على الجملة أن أسرة باخ هذه ابتداء من فايت باخ الذي مات في ١٦١٩ ، وانتهاء بفلهلم فريدرش إرنست باخ الذي مات في ١٨٤٥ ، هي أبرز الأسر في تاريخ الثقافة . فمن بين نحو ستين من هؤلاء الباخيين

المعروفة أسماؤهم من أقرباء يوهان سبستيان ، كان ثلاثة وخمسون موسيقيين محترفين ، وكان ثمانية من أسلافه وخمسة من أخلافه من وزن كاف لتبرير نشر مقالات عنهم فى قاموس للموسيقى (١١٠) . وقد ظفر عدد من الأبناء فى حياتهم بصيت ذائع وشهرة فاقت ما تمتع به يوهان سبستيان . ولا يعنى هذا أنهم احتكروا الشهرة الموسيقية ، فالموسيقيون الأفذاذ كانوا كالعادة يلقون المديح الأعظم وهم أحياء ، ثم يجر عليهم النسيان ذيوله حين يموتون ؛ وقد نافس مؤلفون موسيقيون مثل كارل فريدرش فاش وكرستيان فريدرش شوبارت أبناء باخ فى ذيوع اسمهم .

وإذا نحن رجعنا النظر إلى هذا النصف الثانى من القرن الثامن عشر لحظنا بعض الخطوط الخاصة فى التطور الموسيقى . فاتساع مساحة البيانو وازدياد قوته حررا الموسيقى من خضوعها للألفاظ وشجع المؤلفات للموسيقى الآلية ؛ ثم إن إقبال الجماهير المتزايد على الحفلات الموسيقية ، وتقلص هيمنة الكنيسة ، بعدا بالمؤلفين عن بوليفونية يوهان سبستيان باخ وقربهم من هارمونيات خلفائه الأسهل تذوقاً . وعمل تأثير الأوبرا الإيطالية على تفوق الميلوديا حتى فى قطع الموسيقى الآلية ، بينما أحدثت الليدات ، بحركة مضادة ، تعقيداً جديداً فى الأغنية . وبلغت الثورة على الأوبرا الإيطالية ذروتها فى جلوك ، الذى أراد إخضاع الموسيقى للدراما ، ولكنه بالعكس أضفى السمو على الدراما بالموسيقى . وعلى درب آخر طورت الثورة « المسرحية الغنائية » ، التى بلغت أوجها فى « الناى السحرى» . وانتقل الكونشرتو جروسو إلى الكونشرتو الموضوع لآلة منفردة واحدة وأوركسترا ، واتخذت الصونات شكلها الكلاسيكى فى كارل فليب إمانويل باخ وهايدن ، وتطورت الرباعية إلى السمفونية . وهكذا تهيأ كل شىء لبيتهوفن .

١٠ — الشيخ فرتز *

فوق كل هذه الحياة المنوعة : حياة السياسة والدين والصناعة واللهو والموسيقى والفن والعلم والفلسفة والبر والأثم — كان يلوح طيف البطل الشائخ الذى لقبته ألمانيا « الشيخ فرتز » — لا حباً بل تكريماً له بوصفه أعجب وأدهش

تيوتونى فى عصره . فهو لم يقنع بحكم مملكته وأوركسنراه ، بل حسد قلم فولتير وتاقت نفسه إلى الظفر بالثناء عليه شاعراً ومؤرخاً . وقد خلف للأجيال التالية ثلاثين مجلداً من كتاباته : سبعة فى التاريخ ، وستة فى الشعر ، وثلاثة فى الأبحاث العسكرية ، واثنين فى الفلسفة ، واثنى عشر فى الرسائل ، كلها بالفرنسية . أما أشعاره فأكثرها من النوع العابر سريع الزوال ، ولم يعد القراء يذكرونها . ولكنه كان من كبار المؤرخين فى جيله . فنى بواكير ملكه كتب تاريخ أسلافه — « مذكرات فى تاريخ أسرة براند نبورج» (١٧٥١) . وقد زعم لنفسه الحياد كما يزعم أكثر المؤرخين : « لقد ارتفعت فوق كل الأهواء والميول ، ونظرت إلى الأمراء والملاك والأقرباء نظرى إلى أناس عاديين » ، [١١١] ولكنه ارتفع إلى ذروة الحماسة والنشوة وهو يصف الناخب الأكبر فردريك وليم .

أما رائعته الأدبية فهى « تاريخ عصرى» الذى سجل حكمه . وقد بدأه عقب انتهاء الحرب السيليزية الأولى (١٧٤٠ — ٤٢) ، وواصل كتابته على فترات حتى أخريات عمره . وقد ضمنه تاريخ العلم والفلسفة والأدب والفن ، ربما متأثراً بفولتير — وإن كان قد كتب جانباً كبيراً من هذا الكتاب قبل أن يظهر كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » و « مقاله فى الأعراف» وقد اعتذر عن تضييعه حيزاً فى كتابه على « بلهاء يلبسون الأرجوان ، ودجاجلة يحملون التيجان . . . أما تتبع الكشف عن الحقائق الجديدة ، وتفهم أسباب التغيير فى الأخلاق والعادات ، ودراسة الطرق التى قشعت بفضلها ظلمة الهمجية من عقول الناس — فهذه بالتأكيد موضوعات جديرة بأن تشغل جميع المفكرين » . [١١٢] وقد اثنى على هوبز ولوك والمؤلهة فى انجلتره ، وعلى توماسيوس وفولف فى ألمانيا ، وفونتينيل وفولتير فى فرنسا . « هؤلاء العظماء وتلامذتهم كالوا للدين ضربة قاضية . وبدأ الناس يمحصون ما كانوا يعبدونه بغباوة ، وأطاح العقل بالخرافة . . وكسبت الربوبية أتباعاً كثيرين ، وهى العبادة البسيطة للكائن الأعظم » . [١١٣] وإذ كان فردريك يحتقر الحكومة الفرنسية ويحب الأدب الفرنسى ، فإنه فضل ملحمة فولتير «الهنريادة» على الألياذه ، وفضل راسين على سوفوكليس وسوى بين بوالو وهوراس ،

وبين بوسويه وديموستين . وسخر من لغة ألمانيا وأدبها ، وامتدح فنها المعمارى ؟ وشق على نفسه ليبرر غزوه سيليزيا ، فقال انه أحس أن لرجل الدولة أن ينتهك الوصايا العشر أن اقتضته ذلك مصالح دولته الحيوية « فخير أن يحنث الملك بعهده من أن يهلك الشعب »[١١٤] — وهذا الهلاك — كما أمل أن تصدقه — هو الخطر الذى تهدد بروسيا فى ١٧٤٠ ؛ وقد اعترف بأنه اقترف أخطاء كثيرة فى قيادة جيشه ، ولكنه رآه أمراً لا ضرورة له أن يسجل فراره مولفتز . وهذان المجلدان فى جملتهما يقفان على قدم المساواة مع أفضل الكتابات التاريخية عن أوربا الحديثة قبل جبون .

وما إن وضعت حرب السنين السبع أوزارها حتى عكف فردريك على كتابة « تاريخ حرب السنين السبع » . وكان كقيصر يتطلع إلى أن يكون خير مؤرخ لحملاته ، وكقيصر تحاشى الحرج فتكلم عن نفسه بضمير الغائب ، وهنا أيضاً حاول — ربما بعذر أفضل — أن يبرر المبادرة الجريئة التى بدأ بها الحرب . وقد امتدح ألد أعدائه ، ماريا تريزا ، فى كل ما يتصل بحكمها الداخلى ، أما فى علاقاتها الخارجية فقد أدان هذه المرأة المتكبرة « التى استبد بها الطمع فأرادت أن تبلغ هدف المجد من كل طريق »[١١٥] ووسط سجل الحملات ، المحايد إلى حد لا بأس به ، توقف ليندب أمه التى ماتت فى ١٧٥٧ وشقيقته التى لحقت بها فى ١٧٥٨ . والصفحة التى وصف فيها فلهلمنية واحة من الحب فى بيداء خربة من الحرب .

وقد خلص إلى أن التاريخ أستاذ عظيم تلاميذه قليلون : « ان فى طبيعة البشر ألا يتعلم إنسان من التجربة . وحماقات الآباء تضيع هدراً على الأبناء ، وكل جيل لا بد مقترف حماقاته »[١١٦] « كل من يقرأ التاريخ بإمعان يدرك أن المشاهد ذاتها كثيراً ما تتكرر ، وأنه لا حاجة بنا إلا لتغيير أسماء الممثلين »[١١٧] . ولكنا حتى لو استطعنا أن نتعلم ، فإننا سنظل عرضة للمصادفة التى لا يمكن التنبؤ بها . « إن هذه المذكرات تقنعنى أكثر فأكثر بأن كتابة التاريخ إن هى إلا تجميع لحماقات الناس وضربات الحظ . فكل شىء يدور حول هذين الموضوعين »[١١٨] .

وقد حاول مرتين (١٧٥٢ و ١٧٦٨) فى « وصية أخيرة » أن ينقل لورثته بعض الدروس المستفادة من تجربته الخاصة . فحثهم على دراسة أهداف الدول المختلفة ومواردها ، والوسائل المتاحة لحماية بروسيا وتنميتها . وحذا حذو أبيه فى تأكيده على الحاجة لأحكام ضبط الجيش ، وحذر خلفاءه من الإنفاق فوق ما يسمح به الدخل ؛ وتنبأ بالمتاعب السياسية التى ستحيق بفرنسا لسفهها المالى ؛ ونصح بزيادة الإيرادات لا بفرض ضرائب جديدة بل بحفز إنتاجية الاقتصاد . وينبغى حماية كل الأديان ما التزمت الهدوء والسلام — رغم أن « جميع الأديان إذا فحصها المرء وجدها ترتكز على نسق من الخرافة غير معقول قليلا أو كثيراً »[١١٩]. إماسلطة الملك فيجب أن تكون مطلقة ، ولكن على الملك أن يعد نفسه أول خادم للدولة . ومادامت بروسيا فى خطر من صغر حجمها وسط دول كبيرة كروسيا وفرنسا والامبراطورية النمساوية المجرية ، فإن من واجب الملك أن يغتنم أى فرصة ليوسع بروسيا ويوحدها — ويحسن أن يكون ذلك بفتح سكسونيا وبروسيا البولندية وبومرانيا السويدية : « أن أول شغل شاغل للأمير هو أن يصون سلطته ، أما الثانى فهو أن يوسع رقعته . وهذا يقتضى المرونة وسعة الحيلة . . . وستر المطامع الخفية يكون بإعلان الميول السلمية حتى تأتى اللحظة المواتية . تلك طريقة جميع رجال الدولة العظماء »[١٢٠] .

وينبغى أن يعد الملك خلفه للحكم . فيهيىء له التعليم على يد رجال مستنيرين لا رجال كنسيين ، لأن هؤلاء يشحنون رأسه بخزعبلات يقصد بها أن يكون أداة طيعة فى يد الكنيسة[١٢١] . وتعليم كهذا من شأنه أن يخرج عقلا ضعيفاً سرعان ما تسحقه مسئوليات الدولة . « ذلك ما رأيته ، وإذا استثنيت ملكة المجر (ماريا تريزا) وملك سردينيا (شارل إ يمانويل) ، فإن كل ملوك أوربا ليسوا سوى بلهاء مشهورين »[١٢٢] . وقد كتب هذا وإليزابث تحكم روسيا . وكانت « وصية » ١٧٦٨ أكثر تأدباً ، لأن كاترين كانت قد أثبتت علو همتها ، وتنبأ فردريك الآن بأن روسيا ستكون أخطر دولة فى أوربا[١٢٣] .

فلما شاخ بدأ يسائل نفسه إن كان ابن أخيه ووريثه المحتمل — فردريك

فلهلم الثانى — صالحاً لوراثة الحكم . كتب إليه يقول « إننى أشفق من أجلك ولكن على أن أفكر فى الاحتفاظ بما أصنع ، فإن كنت كسولا خاملا ذاب فى يديك كل ما جمعته بالجهد والمشقة »[١٢٤] . وفى ١٧٨٢ كتب وقد ازداد تشاؤما « لو أن ابن أخى لان وتراخى بعد موتى ، لما بقى شىء اسمه بروسيا فى ظرف عامين »[١٢٥] . وقد تحققت النبوءة فى فيينا عام ١٨٠٦ ، لا لأن فردريك وليم الثانى كان رخوا لينا ، بل لأن نابليون كان صلباً قاسياً .

وقد بات فردريك ذاته فى عقده الأخير قاسياً إلى حد لا يحتمل . فاختزل قدراً كبيراً من الحرية التى سمح بها للصحافة قبل ١٧٥٦ . كتب ليسنج إلى نيقولاى فى ١٧٦٩ يقول « إن حريتكم البرلينية تتقلص . . إلى حرية جلب ما تشاءون جلبه إلى السوق من سخافات ضد الدين . . . ولكن ليرفع إنسان صوته نيابة عن الرعايا ، وضد الاستغلال والاستبداد ... وعندها ستتبين سريعاً أى دول أوربا أكثرها اليوم عبودية وذلا » . [١٢٦] وكره هردر وطنه بروسيا ، وانصرف فنكلمان فى « رعب » عن ذلك « البلد المستبد »[١٢٧] . وحين زار جوته برلين فى ١٧٧٨ أدهشته عدم شعبية الملك . ومع ذلك كان الشعب يبجل فردريك شيخاً لم يضن طوال خمسة وأربعين عاماً بيوم واحد فى سبيل خدمة الدولة .

وقد برته الحرب كما براه السلم . وكثرت واشتدت عليه نوبات النقرس والربو ، والمغص والبواسير ، وزادت أوجاعه حدة لولعه بالوجبات الثقيلة والأطعمة الحريفه . وفى ٢٢ — ٢٥ أغسطس ١٧٧٨ استعرض جيشه السيليزى قرب برزلاو . وفى اليوم الرابع والعشرين ظل على صهوة جواده ست ساعات بردائه العسكرى العادى والمطر يهطل غزيراً ، وعاد إلى مسكنه مبللا يرتعد من البرد . ولم يستعد عافيته بعدها قط . وفى يونيو ١٧٨٦ أرسل فى طلب الدكتور تسمرمان من هانوفر . وتوقف عن تعاطى العقاقير التى وصفت له ، وآثر الأحاديث المرحلة عن الأدب والتاريخ ، ولكى يلزمه تسمرمان الهدوء وصف له كتاب جبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية

وسقوطها »[١٢٨] . وتفاقمت أوصابه بالاستسقاء ، وأحدثت القطوع التى أجريت له لتخفيف الانتفاخات غرغرينة . ثم أطبق عليه الالتهاب الرئوى فاكتمل الحصار ، وفى ١٧ أغسطس ١٧٨٦ مات فردريك وهو فى الرابعة والسبعين . وكان قد طلب أن يدفن فى حديقة « صانسوسى » قرب قبور كلابه وحصانه الحبيب ، ولكن أمر رحيله هذا الذى أصدره على البشرية أغفل ، فدفن إلى جوار أبيه فى كنيسة الحامية ببوتسدام . وحين جاء نابليون ووقف أما قبر فردريك بعد أن هزم الروسيين فى يينا قال لقواد جيشه « لو كان على قيد الحياة لما كنا هنا »[١٢٩] .

الفصل الحادى والعشرون

كانط

١٧٢٤ — ١٨٠٤

١ — مقدمه

لعل كانط ماكان ليظهر قط لولا وجود فردريك الأكبر . ذلك أن كتابيه « نقد العقل الخالص » و « الدين فى حدود العقل وحده » يسرت صدورهما شكوكية فردريك وتسامحه الدينى ؛ فلم ينقض على موت فردريك عامان حتى أخرجت الحكومة البروسية كانط .

كان كانط كفردريك ربيباً لحركة التنوير ، وقد تشبث بولائه للعقل حتى النهاية — رغم كل ذبذبته الاستراتيجية ، ولكنه أيضاً كروسو كان جزءاً من الحركة الرومانتيكية ، مكافحاً للتوفيق بين العقل والوجدان ، وبين الفلسفة والدين ، وبين الفضيلة والثورة . وقد أشربه أبواه النزعة التقوية ، ثم هجنها بعقلانية كرستيان فون فولف ؛ واستوعب هرطقات جماعة الفلاسفة ؛ وهجنها بـ « اعتراف قسيس سافوا بالإيمان » فى كتاب روسو « إميل » ؛ وورث سيكولوجية لوك وليبنتس وباركلى وهيوم الدقيقة البارعة ، واستخدمها فى محاولة لينقذ العلم من هيوم ، وينقذ الدين من فولتير . وقد رتب حياته بانتظام بورجوازى ، ورحب بالثورة الفرنسية . وإذ عاش منفرداً فى بروسيا الشرقية ، فإنه أحس ولخص كل تيارات عصره العقلية .

ولد فى كونيجزبرج (٢٢ أبريل ١٧٢٤) النائية عن فرنسا ، المولعة بالوضوح والمعتمة بضباب البحر . وقد أثيرت بعض الشكوك حول أصل أسرته الاسكتلندى ، ولكن كانط نفسه يخبرنا أن جده « فى ختام القرن

الماضى هاجر من اسكتلنده إلى بروسيا ، ولا أدرى لم »[١] . وتزوج أبوه يوهان جيورج كانط من آنا رويتر ، وكان إمانويل (ومعناها الله معنا) رابع أبنائهم الأحد عشر . وقد اتخذ اسمه الأول من قديس يوم ميلاده ، ثم غير اسم الأسرة من Cant إلى Kant ليمنع الألمان من أن ينطقوه «تسانت»[٢] وقد نشأت الأسرة كلها على مذهب التقويين ، الذى كان كالمثودية الانجليزية يشدد على الإيمان والتوبة والالتجاء رأساً إلى الله ، بعكس العبادة اللوثرية التقليدية فى الكنيسة بقسيس وسيط .

وكان أحد وعاظ التقويين قد أنشأ فى كونيجزبرج «كلية فردريكية» . والتحق إمانويل بها من سن الثامنة إلى السادسة عشرة . وكان اليوم المدرسى يبدأ فى الخامسة والنصف صباحاً بنصف ساعة من الصلاة ، وكل حصة فى الصف تختم بالصلاة ؛ وخصصت ساعة كل صباح لتعليم الدين ، مع التشديد على نيران الجحيم ؛ وكان التاريخ يدرس أساساً من العهد القديم ، واليونانية من العهد الجديد . وحده.ويوم الأحد يكرس أكثره للعبادة . لقد كان تعليماً أثمر الفضيلة فى بعض خريجيه ، والنفاق فى آخرين ، وربما روحاً كئيبة فى معظمهم . وقد أنكر كانط فيما بعد هذه الجرعة الثقيلة من التقوى والإرهاب ، وقال ان الخوف والرعدة يغلبانه حين يتذكر تلك الأيام[٣] .

وفى ١٧٤٠ انتقل إلى جامعة كونيجزبرج . هنا كان أحب المدرسين إليه مارتن كنوتسن الذى عرف كانط بـ «عقلانية» فولف رغم كونه تقويا . وكان كنوتسن قد قرأ للربوبيين الانجليز ، وأدانهم ولكنه ناقش آراءهم ، وترك بعض الشكوك الربوبية فى واحد من تلاميذه على الأقل . فلما دعى كانط بعد قضاء ست سنين فى الجامعة ليرسم قسيساً لوثريا ، رفض الدعوة رغم ما وعد من ترقية قريبة إلى وظيفة مربحة[٤] . وعاش بدلا من ذلك تسع سنين رقيق الحال يعلم أبناء الأسرة الخاصة ويواصل دراسته . وكان اهتمامه حتى ١٧٧٠ بالعلم لا باللاهوت « وكان لوكريتيوس من أحب المؤلفين إليه »[٥] .

وفى ١٧٥٥ نال كانط درجة الدكتوراه ، وسمح له بأن يحاضر فى الجامعة

بوصفه « معلماً خاصاً » لا يكافأ إلا بالرسوم التى يقرر الطلبة دفعها . وظل خمسة عشر عاماً فى هذا الوضع القلق. وخلال هذه البداية الطويلة الأمد رفضت طلباته لوظيفة الأستاذية مرتين . وظل فقيراً ، يتنقل من نزل إلى نزل ، ولا يجرؤ على الزواج ، ولا يسكن بيتاً خاصاً به حتى بلغ التاسعة والخمسين[٦]. وقد حاضر فى مواضيع كثيرة التباين ، ربما ليجتذب عدداً أكبر من الطلاب ، وكان عليه أن يحاضر بلغة واضحة ليتيسر له العيش . ولا بد أن كانط المعلم كان يختلف تماماً عن كانط المؤلف الذى اشتهر بغموضه . وقد وصفه هردر ، الذى كان أحد تلاميذه (١٧٦٢ — ٦٤) بعد ثلاثين عاماً ، محتفظاً له بذكرى ملؤها العرفان بالجميل ، فقال :

« أسعدنى الحظ بمعرفة فيلسوف كان معلمى . ففى مقتبل عمره تحلى بشجاعة الشباب المرحة ، وأعتقد أن هذه الشجاعة لازمته حتى الشيخوخة . وكان جبينه الواضح المفكر مستقراً للبشر والسرور الذى لايكدر صفوه مكدر ، وكان حديثه حافلا بالأفكار شديد الإيحاء ؛ وفى متناوله الضحك والدعابة الذكية والخيال الفكه ؛ ومحاضراته تجمع بين التعليم والترفيه الكثير . وبالروح ذاتها التى انتقد بها ليبنتس وفولف وباومجارتن . . . وهيوم ، بحث فى القوانين الطبيعية التى قال بها نيوتن وكبلر والفزيائيون . وبهذا الأسلوب تناول كتابات روسو . . . ولم يكن لأى عصبة أو ملة ، ولا تحيز أو إجلال لاسم من الأسماء ، أدنى تأثير عليه مقابل نشر الحقيقة ودعمها . وكان يشجع سامعيه على التفكير لأنفسهم ويضطرهم فى رفق إلى هذا التفكير ؛ أما الاستبداد فكان غريباً على طبعه . وهذا الرجل الذى أذكر اسمه بأعظم عرفان وتبجيل هو إيمانويل كانط ، وصورته ماثلة أمامى ، وهى محببة إلى نفسى »[٧] .

ولو أردنا أن نتذكر كانط على الأخص من واقع عمله قبل أن يبلغ السابعة والخمسين (١٧٨١) لوجب أن نرى فيه العالم أكثر من الفيلسوف — رغم أن هذين المصطلحين لم يكونا بعد منفصلين . وأول أعماله المنشورة « خواطر من التقييم الحقيقى للقوى الديناميكية ، ١٧٤٧ » نقاش علمى عن قوة الجسم أثناء حركته وهل تقاس (كما زعم ديكارت وأويلر) بالكتلة

مضروبة فى السرعة ، أو (كما زعم ليبنتس) بالكتلة مضروبة فى مربع السرعة ؛ وهو انجاز ممتاز لفتى فى الثالثة والعشرين . وتلا هذا بعد سبع سنوات مقال فى زمن دوران الأرض اليومى وهل يتغير بالمد والجزر . وفى العام نفسه نشر كانط بحثاً عن الأرض وهل بسبيلها إلى الشيخوخة ؛ هنا أعرب كانط عن القلق الذى يساور عصرنا الحديث على فقد الشمس بعض طاقتها كل يوم على تجمد أرضنا فى المستقبل .

وفى بحث رائع نشر عام ١٧٠٥ قدم الشاب الجرىء ذو الحادية والثلاثين عاماً « التاريخ الشامل للطبيعة ، ونظرية السماوات» . وقد نشر الكتاب غفلا من اسم المؤلف وأهدى إلىفردريك الأكبر ؛وربما خاف كانط أن يلحقهأذى من رجال اللاهوت وأمل فى أن يبسط الملك عليه حمايته ، وقد رد جميع عمليات الأرض والسماء إلى قوانين آلية ، ولكنه أكد أن النتيجة ، بما فيها من تناسق وجمال ، تثبت وجود عقل أسمى . ولكى يفسر كانط أصل المنظومة الشمسية اقترح « الفرض السديمى» . قال :

« انى أزعم أن كل مادة المنظومة الشمسية . . . كانت فى بداية الأشياء كلها متحللة إلى عناصرها الأولية ، وأنها ملأت كل الفضاء . . . الذى تدور فيه الآن الأجسام المكونة منه . . . وفى فضاء مملوء على هذا النحو ، لا يمكن أن يدوم هدوء شامل إلا لحظة . . . فالعناصر المشتتة الأكثف نوعاً ، بحكم قوتها الجاذبة ، تجمع من حولها كل المـادة الأقل وزناً نوعياً ؛ وهذه العناصر هى الأخرى ، مع المادة التى وحدتها معها ، تتجمع فى النقط التى توجد فيها جسيمات من نوع أكثر كثافة ، وهذه بالمثل تنضم إلى جسيمات أكثف . وهلم جرا . . .

« ولكن للطبيعة قوى أخرى ، . . . بفعلها تتنافر هذه الجسيمات ، وهى التى تحدث — بصراعها مع الجاذبيات — تلك الحركة التى هى بمثابة الحياة الدائمة للطبيعة . . . وقوة التنافر هذه تظهر فى مرونة الأبخرة ، وتدفق الأجسام القوية الرائحة ،وانتشار جميع المواد الكحولية . وهذه القوة هىالتى بفعلها تحيد تلك العناصر التى قد تكون ساقطة إلى النقطة التى تجتذبها . . .

عن حركتها فى خط مستقيم ؛ وسقوطها العمودى يكون فى حركة دائرية حول المركز الذى تسقط نحوه » [٨] .

واعتقد كانط أن جميع النجوم تجمعت أو هى بسبيل التجمع — فى مثل هذه المنظومات من الكواكب والشموس ، وقد أضاف عبارة ذات مغزى « أن الخليقة لا تكتمل أبداً ، انها لا تكف عن مواصلة السير »[٩]. وهذا الفرض السديمى الذى افترضه كانط فى ١٧٥٥ ، وكذلك التعديل الذى أدخله عليه لا بلاس (١٧٩٦) ، حافل بالصعوبات كمعظم ماتلاه من النظريات فى أصل الكون ، ومع ذلك يقول فيه فلكى حى شهير « إنى أعتقد أن بحث كانط عن أصل الكون كان أبدع تلخيص موضوعى للعلم حتى ذلك الوقت » [١٠] . أما بالنسبة لنا فإن دلالة البحث تكمن فى بيانه أن كانط لم يكن ميتافيزيقياً غيبياً بل رجلا فتن بالعلم ، وكافح للتوفيق بين المنهج العلمى والعقيدة الدينية . وهذا لب جهوده حتى النهاية » .

وفى ١٧٥٦ ، حين هزته كارثة زلزال لشبونة التى وقعت فى ١٧٥٥ — كما هزت فولتير — إلى أعماق فلسفته ، نشر كانط ثلاث مقالات عن الزلازل ومقالا عن نظرية فى الرياح . وفى ١٧٥٧ نشر « مجملا لمجموعة محاضرات فى الجغرافيا الطبيعية وبياناً عنها » ،وفى ١٧٥٨ نشر « نظرية جديدة فى الحركة والسكون . فلما اتسعت دائرة اهتماماته أرسل إلى المطبعة رسائل قصيرة عن موضوعات التفاؤل (١٧٥٩) ، والقياس المنطقى (١٧٦٢) ، و أمراض الرأس (١٧٦٤) . وقد ألمع فى هذه الرسالة إلى أن تقسيم العمل المتزايد قد يقضى إلى الجنون نتيجة التكرار الرتيب الممل . وفى ١٧٦٣ انتقل إلى اللاهوت ببحث عنوانه « الدعامة الوحيدة الممكنة للبرهنة على وجود الله » ؛ وواضح أنه كان مبلبل الخاطر لاهتزاز إيمانه الدينى . وفى ١٧٦٤ ، بعد ثمانى سنين من نشر بيرك رسالة مماثلة ، قدم « ملاحظات على الشعور بالجميل والجليل » .

ومرت به أوقات خطر له فيها أن يوسع فرضه فى أصل الكون التطورى

ليشمل علم الأحياء ؛ وكان على علم بأن الأشكال الجديدة تطورت من القديمة بفعل تغيرات فى ظروف الحياة [١١] ، وقبل الرأى القائل بأن تشريح الإنسان كان فى الأصل ميسراً لحركة أرجل أربع [١٢] . ومع ذلك أحجم عن فكرة البيولوجية القائمة كلها على المذهب الآلى » . «كذلك مرت بى أوقات سرت خلالها فى هذه الدوامة مفترضاً هنا ميكانيكا طبيعية عمياء أساساً للتفسير . واعتقدت أننى أستطيع استكشاف طريق أسلكه إلى المفهوم البسيط الطبيعى . ولكننى كنت دائماً أنتهى إلى تحطيم سفينة العقل ، ومن ثم آثرت المغامرة فى محيط الأفكار الذى لا حدود له »[١٣] . وكان رودلف راسبي (مؤلف رحلات البارون مونتشاوزن) قد اكتشف مؤخراً مخطوط ليبنتس المفقود منذ زمن طويل « مقالات جديدة فى الفهم البشرى» ونشره فى ١٧٦٥ ، واستطاع كانط أن يقرأه بالفرنسية ، وقد أسهم فى تحويله إلى نظرية المعرفة . على أنه لم يهجر اهتمامه بالعلم هجراناً تاماً ، فقد كتب فى تاريخ متأخر (١٧٨٥) مقالا عنوانه « فى براكين القمر» . غير أن الصراع الباطن بين دراساته العلمية ولا هوته الموروث حفزه إلى التماس التوفيق بينهما فى الفلسفة .

ويحتمل أن يكون من العوامل التى وجهته هذه الوجهة الجديدة عرض (١٧٧٠) منصب أستاذ المنطق والميتافزيقا عليه . وكان الراتب ضئيلا لرجل بلغ السادسة والأربعين وهو ١٦٧ طالرا فى العام ، زيد ببطء إلى ٢٢٥ فى ١٧٨٦ ؛ وقد رفعت الراتب خدمات عارضة أداها بوصفه « سناتورا » و « أقدم أساتذة الكلية » فى ١٧٨٩ إلى ٧٢٦ طالرا وكانت التقاليد تقضى بأن يلقى الأستاذ الجديد خطاباً افتتاحياً باللاتينية . واختار كانط موضوعاً عسيراً هو « فى شكل ومبادىء العالم المحسوس والعالم المعقول » . واستعمل كانط المصطلحات « المدرسية » التى كانت لاتزال سائدة فى الجامعات الألمانية . وقصد بالعالم المحسوس العالم كما تدركه الحواس ، وسوف يسميه أيضاً فيما بعد بعالم الظواهر . أما العالم المعقول . فيقصد به العالم كما يدركه الذهن أو العقل ، وسوف يسميه بعد ذلك العالم « النومينى» . ونحن نحاول فهم العالم المحسوس بأن نطبق عليه المفاهيم الذاتية للزمان والمكان بواسطة الرياضة والعلوم ؛ والعالم المعقول بتجاوز الحواس عن طريق العقل

والميتافيزيقا إلى مصادر العالم المحسوس وأسبابه فوق الحسية . هنا أرسى كانط نظريته الأساسية : وهي أن الزمان والمكان ليسا شيئين موضوعين أو محسوسين بل شكلين من أشكال الإدراك الحسي أصيلين في طبيعة العقل وبنيانه ؛ وأن العقل ليس متلقياً وناتجاً سلبياً للأحاسيس ، بل هو عامل إيجابي — له طرائق وقوانين عمل أصيلة لتحويل الأحاسيس إلى أفكار .

وقد عد كانط هذا البحث الجوهري « النص الذي سيفصل القول فيه في الكتاب التالي » وتدل هذه العبارة الواردة في خطاب حرره في ١٧٧١ إلى ماركوس هرتس على أن الفيلسوف كان الآن يخطط لكتابة « نقد العقل الخالص » . وبعد اثنتي عشرة سنة من العكوف على ذلك البحث الضخم نشره على الناس في ١٧٨١ ، وأهداه لكارل فون تسيدلتس وزير التعليم والشئون الدينية في عهد فردريك الأكبر . وكان تسيدلتس ، كما كان الملك ، ربيب حركة التنوير ، ونصيراً لحرية النشر . وقد قدر كانط أن حمايته ستكون مفيدة جداً إذا استشف اللاهوتيون وراء ألفاظه الغامضة واستنتاجاته السنية في ظاهرها تحليلا من أشد التحليلات التي تلقاها اللاهوت المسيحي تدميراً .

٢ — نقد العقل الخالص ، ١٧٨١

إذا وجد العالم هذا الكتاب عسيراً فقد يكون السبب منهج العمل الذي انتهجه كانط . كتب إلى موسى مندلسون (١٦ أغسطس ١٧٨٣) يقول : مع أن الكتاب « ثمرة تأمل شغلني على الأقل اثني عشر عاماً ، فإنني أكملته بأقصى سرعة في أربعة أشهر أو خمسة ، باذلا أبلغ العناية بمحتوياته ، ولكن دون اهتمام يذكر بالعرض أو بتيسير فهمه للقارىء — وهو قرار لم أندم عليه قط ، وإلا فلو تباطأت وحاولت صياغته في شكل أكثر شعبية لما اكتمل العمل إطلاقاً في أغلب الظن »(١٤) . إن الوضوح يقتضي الوقت ، ولم يكن كانط واثقاً من أنه يملك الوقت . وقد حذف عمداً بعض الأمثلة الموضحة

مخافة أن يتضخم كتابه ؛ « فهذه ليست ضرورية إلا من وجهة النظر الشعبية ، وهذا الكتاب لا يمكن أبداً جعله صالحاً للاستهلاك الشعبي » (١٥) . وهكذا كتب كانط لأهل حرفته ، وركن إلى غيره فى تبسيطه وتخفيفه ليصلح للهضم . ومع أن كرستيان فون فولف كان قد سبقه فى التأليف الفلسفى بالألمانية ، إلا أن تلك اللغة كانت لاتزال على جفافها فى التعبير عن ظلال التفكير ، ولم تكن قد استقرت على مصطلحات فنية فى الفلسفة . وكان على على كانط فى كل خطوة تقريباً أن يخترع ترجمة ألمانية لمصطلح لاتينى ، وفى كثير من الحالات حتى اللاتينية كانت تفتقر إلى مصطلحات تفى بالفوارق الدقيقة التى أراد التعبير عنها . وقد أربك قراءه بخلعه المعانى الجديدة على الألفاظ القديمة ، وبنسيانه أحياناً تعاريفه الجديدة . والصفحات المائة الأولى واضحة وضوحاً لا بأس به ، أما باقى الكتاب فحريق فلسفى لا يبصر فيه القارىء غير الخبير شيئاً غير الدخان .

وقد احتاج العنوان نفسه إلى إيضاح . فأنى للقارىء أن يعرف أن « نقد العقل الخالص » معناه تمحيص نقدى حصيف للعقل مستقلا عن التجربة ، و « النقد لم يعن التحليل والعرض فحسب ، بل الحكم أيضاً ، كما يستفاد من سالف اللفظة اليونانى (بمعنى يحكم) . وقد قصد كانط أن يصف الحس ، والإدراك الحسى والفكرة والعقل ، وأن يقرر لكل منها حدودها واختصاصاتها الصحيحة . ثم أمل أن يبين أن فى استطاعة العقل أن يعطينا المعرفة مستقلا عن أى خبرة مؤيدة ، كما هى الحال فى معرفتنا أن ستة مضروبة فى ستة تساوى ستة وثلاثين ، أو أنه لا بد أن يكون للمعلول علة . تلك أمثلة لـ « العقل الخالص » — أعنى المعرفة القبلية أو الأولية ، أى المعرفة التى لا تتطلب برهاناً من التجربة . يقول : « إن ملكة المعرفة الحاصلة من المبادىء القبلية يمكن أن نسميها العقل الخالص ، والبحث العام فى قدرتها وحدودها (يؤلف) نقد العقل الخالص » (١٦) . وقد اعتقد كانط بأن بحثاً كهذا سينطوى على كل مشكلات الميتافيزيقا ؛ وكان على ثقة من أنه « ما من مشكلة ميتافيزيقية واحدة لم تحل ، أو لم يقدم

مفتاح حلها على الأقل » فى هذا النقد [١٧] . وذهب إلى أن الخطر الوحيد الذى يخشاه « ليس خطر تفنيد آرائى بل عدم فهمى» [١٨] .

فما الذى جره يا ترى إلى خوض هذه المغامرة البطولية ؟ قد يظن أن اعلاء حركة التنوير الفرنسية من شأن العقل — وزعم جماعة الفلاسفة أن الإيمان يجب أن يخضع للعقل — وما حاق باللاهوت المسيحى نتيجة لهذا من دمار ، كان السبب الذى جعل كانط يصمم على دراسة أصل العقل وعمله وحدوده . وقد لعب ذلك الحافز دوره ، كما ورد فى مقدمة كانط للطبعة الثانية [١٩] ، ولكن المقدمة ذاتها أوضحت بجلاء أن العدو الذى استهدفه هو هذه التوكيدية الإيقانية (الدجماطيقية) بكل ألوانها — أى كل مذاهب الفكر التقليدية والمبتدعة على السواء ، التى ينشئها عقل لم يخضع للامتحان . وقد لقب كرستيان فون فولف بـ « أعظم الفلاسفة الدجماطيقيين قاطبة » لأنه اضطلع بإثبات عقائد المسيحية ، وفلسفة لبنتس بالعقل وحده . وكل المحاولات التى تبذل للبرهنة على صدق الدين أو كذبه بالعقل الخالص هى فى نظر كانط صور من الدجماطيقية ؛ وقد حكم بـ « دجماطيقية الميتافزيقا » على كل مذهب فى العلم أو الفلسفة أو اللاهوت لم يخضع أولا لامتحان نقدى للعقل ذاته .

وقد اتهم تفكيره هو ، حتى عام ١٧٧٠ ، بأنه مدان بهذه الدجماطيقية . يقول إن ما أيقظه من هذه التأملات غير الممحصة هو قراءته لهيوم — ربما كتابه « بحث فى الفهم البشرى » الذى ظهرت ترجمة ألمانيا له فى ١٧٥٥ . وكان هيوم قد زعم أن كل تدليل يعتمد على فكرة العلة ، وأننا فى التجربة الفعلية لاندرك العلة إدراكاً حسياً بل التعاقب وحده ؛ وإذن فكل العلم والفلسفة واللاهوت يرتكز على فكرة — علة ليست غير فرض ذهنى لاحقيقة مدركة حسياً . كتب كانط يقول « أعترف بصراحة أن ملاحظة ديفد هيوم هى التى قطعت على سباتى الدجماطيقى منذ سنين طويلة ووجهت أبحاثى فى مجال الفلسفة النظرية فى اتجاه مختلف كل الاختلاف» [٢٠] . فكيف يمكن إنقاذ مفهوم العلة من المكان الوضيع ، مكان الفرض غير اليقينى ، الذى

خلفه فيه هيوم ؟ يقول كانط أنه لا سبيل إلى ذلك إلا ببيان أنه قبلى ، مستقل عن الخبرة ، واحد من تلك المقولات ، أو أشكال الفكر ، التى وإن كانت ليست بالضرورة فطرية ، إلا أنها جزء من التركيب الفطرى للعقل(*). ومن ثم صمم على التغلب على دجماطيقية فولف وارتيابية هيوم جميعاً بنقد — أى بتمحيض نقدى — يصف فى الوقت نفسه سلطة العقل ويحددها ويحييها. وهذه المراحل الثلاث — الدجماطيقية ، والارتيابية ، والنقد — هى فى نظر كانط المراحل الثلاث الصاعدة فى تطور الفلسفة الحديثة.

وفى ولع بالتعاريف ، والتمييزات ، والتصنيفات ، وباستخدام للألفاظ الطويلة اختصاراً للكلام ، قسم كانط المعرفة كلها إلى معرفة تجريبية (تعتمد على التجربة) وأخرى ترانسندنتالية (مستقلة عن التجربة ومن ثم متجاوزة لها) . وقد وافق على أن المعرفة كلها « تبدأ » بالتجربة ، بمعنى أن إحساساً ما لا بد أن يسبق وينبه عمليات الفكر ، ولكنه يعتقد أنه فى اللحظة التى تبدأ فيها التجربة فإن تركيب العقل يشكلها بما تأصل فيه من أشكال « الحدس » (الإدراك الحسى) أو الإدراك العقلى . وأشكال « الحدس » الأصيله هى الصور المشتركة بين الجميع ، والتى تتخذها التجربة فى إحساسنا الظاهر كمكان ، وفى حساسيتنا الباطنة كزمان .

وبالمثل توجد أشكال فطرية من الإدراك العقلى أو الفكر ، مستقلة عن التجربة وهى تشكلها . وقد سماها كانط المقولات ، وقسمها بتناسق أولع به وحرص عليه حرصاً شديداً إلى أربع مجموعات ثلاثية : ثلاث مقولات للكم — هى الوحدة والكثرة وجملة الكل ؛ وثلاث مقولات للكيف — هى الوجود والسلب وحد التناهى ؛ وثلاث مقولات قوائم للإضافة هى الجوهر فى مقابل العرض ، والسببية فى مقابل التلازم ، والمشاركة أو التفاعل ؛

(*) ذكر كانط فى خطاب لجارف فى ١٧٩٨ تفسيراً لاحقاً لـ « يقظته » هذه . قال : « إن تناقضات العقل الخالص (الصعوبات التى ينطوى عليها الإيمان بالله أو عدم الإيمان به ، أو حرية الإراده ، أو الخلود) . . . هى التى بدأت ايقاظى من سـباتى الدجماطيقى وساقتنى إلى نقد العقل » (٢١) .

وثلاث مقولات قوائم للجهة — هى الإمكان فى مقابل الاستحالة، والوجود فى مقابل العدم ، والضرورة فى مقابل العرضية . وكل إدراك حسى يندرج تحت واحد أو أكثر من هذه الأشكال أو القوالب الأساسية للفكر . فالإدراك الحسى إحساس تترجمه الأشكال الفطرية للزمان والمكان ، والمعرفة إدراك حسى تحوله المقولات إلى حكم أو فكرة . والتجربة ليست قبولا سلبياً لانطباعات موضوعية على حواسنا ، إنما هى حصيلة العقل المؤثر إيجابياً على خامة الإحساس .

وقد حاول كانط أن يعارض ارتيابية هيوم فى العلية ، وذلك بأن عد علاقة العلة والمعلول شكلا حقيقياً من أشكال الفكر لا حقيقة موضوعية ؛ وهى بهذه الصفة مستقلة عن الخبرة وليست خاضعة لعدم يقينية الأفكار التجريبية . ولكنها مع ذلك جزء ضرورى من كل تجربة ، لأننا لا نستطيع فهم التجربة بدونها . ومن ثم فإن « إدراك العلة العقلى » ينطوى على صفة الوجوب ، التى لا يمكن لأى تجربة أن تعطيها » (٢٢) . وقد ظن كانط أنه بـ « خفة القلم » هذه أنقذ العلم من ذلك القيد المذل ، قيد الاحتمال ، الذى قضى عليه به هيوم . بل انه زعم أن العقل البشرى لا الطبيعة — هو الذى ينشىء « قوانين الطبيعة » الشاملة ، وذلك بإضفائه على بعض تعمياتنا — كالتعميات الرياضية — صفات من الشمول والوجوب لاتدرك موضوعها إدراكاً حسياً . « إننا نحن الذين ندخل ذلك الترتيب والانتظام على المظهر الذى نسميه « الطبيعة » . وما كنا لنجدهما قط فى المظاهر لو لا أننا نحن أنفسنا بحكم طبيعة عقلنا ، وضعناهما فى الأصل هناك » (٢٣) و « قوانين الطبيعة ليست كيانات موضوعية بل مركبات عقلية نافعة فى معالجة التجربة » .

وكل معرفة تتخذ شكل الصور أو المثل ، والمثالى بهذا المعنى على صواب : فالعالم « بالنسبة لنا » ليس إلا أفكارنا . وما دمنا لانعرف المادة إلا كأفكار وبواسطة الأفكار ، فالمادية إذن مستحيلة منطقياً ، لأنها تحاول أن ترد المعلوم مباشرة (الأفكار) إلى المجهول أو المعلوم بطريق غير مباشر . ولكن المثالى يخطىء إذا اعتقد أنه لا شىء « موجود » إلا صورنا ، لأننا نعلم أن الصور

يمكن إحداثها بالأحاسيس ، ونحن لا نستطيع تفسير كل الأحاسيس دون أن نفترض ، لكثير منها ، علة خارجية . وبما أن معرفتنا مقتصرة على الظواهر أو المظاهر — أى على الشكل الذى يتخذه السبب الخارجى « بعد» أن تشكله أساليب إدراكنا الحسى والعقلى — فإننا لا نستطيع أبداً أن نعرف الطبيعة الموضوعية لتلك العلة الخارجية [٢٤] ، ولا بد أن تظل بالنسبة لنا شيئاً — فى — ذاته ، ملغزا ، « نومينا » يدرك عقلياً ولا يدرك حسياً على الإطلاق . فالعالم الخارجى موجود ولكنه فى حقيقتـــه المطلقة مجهول لا يمكن معرفته » [٢٥] .

والنفس أيضاً حقيقية ولكن لا يمكن معرفتها . ونحن لا ندركها حسياً على الإطلاق بوصفها كياناً مضافاً إلى الحالات العقلية التى ندركها حسياً ، وهى الأخرى « نومين» يدرك عقلياً بالضرورة باعتبارها الحقيقة التى من وراء الذات الفردية ، والحس الأخلاقى ، وأشكال العقل وعملياته . والإحساس بالذات يمتزج مع كل حالة عقلية ،ويوفر الاستمرارية والهوية الشخصية .والوعى بالذات «وعى الذات الاستبطانى» هو أوثق تجاربنا قاطبة ، ولاسبيل إلى إدراكه عقلياً كشىء مادى بأى جهد بطولى من جهود المخيلة [٢٦] . ويبدو من المستحيل أن تؤثر نفس لا مادية فى جسد مادى ، وأن تتأثر به ، ولكن لنا أن نعتقد أن الحقيقة المجهولة والكامنة وراء المادة « قد لا تكون مع ذلك شديدة الاختلاف فى طبيعتها » من ذلك الشىء — فى — ذاته ، الباطن ، الذى هو النفس [٢٧] .

وليس فى استطاعتنا بالعقل الخالص أو النظرى أن نثبت (كما حاول فولف) أن نفس الفرد خالدة ، أو أن الإرادة حرة ، أو أن الله موجود ؛ ولكننا أيضاً لا نستطيع بالعقل الخالص أن ندحض هذه المعتقدات (كما خطر لبعض الشكاك أن يفعلوا) فالعقل والمقولات مهيأة للتعامل مع الظواهر أو المظاهر فقط ، الظاهرة أو الباطنة ، ولا نستطيع تطبيقهما على الشىء — فى — ذاته ، أى على الحقيقة التى من وراء الأحاسيس أو النفس التى من وراء الأفكار. فإذا حاولنا إثبات عقائد الدين أو دحضها وقعنا فى أغلاط (فى البرهان)

أو أغاليط (مغالطات) أو نقائض — تناقضات ملازمة . كذلك ينتهى بنا الأمر إلى استحالات كهذه إذا قلنا إن العالم كان له بداية أو لم يكن ، أو إن الإرادة حرة أو غير حرة ، أو إن كائناً واجباً أو كائناً أعلى موجود أو غير موجود . وعبر كانط فى بلاغة غير معهودة فيه عن البرهان الغائى [٢٨] . ولكنه خلص إلى أن « قصارى ما يستطيع هذا البرهان إثباته هو « مهندس » . . . تعوقه دائماً أشد التعويق تكيفية المادة التى يشتغل بها ، لا « خالق » . . يخضع لفكرته كل شىء » [٢٩] .

ومع ذلك فكيف نستطيع الرضى بمثل هذه النتيجة المحيرة — وهى أن حرية الإرادة ، والخلود ، والله ، هذه كلها لا يمكن إثباتها أو نفيها بالعقل الخالص ، يقول كانط إن فى باطننا شيئاً أعمق من العقل ، هو شعورنا الذى لا يقبل التفنيد بأن الوعى ، والعقل ، والنفس ، ليست مادية ، وأن الإرادة حرة إلى حد ما ، وإن يكن على نحو غامض ولا منطقى ؛ ونحن لانستطيع أن نقنع طويلا بالنظر إلى العالم على أنه تسلسل لا معنى له من التطور والفناء دون مغزى خلقى أو عقل أصيل . فكيف نستطيع تبرير إرادة الإيمان فينا ؟ من جهة (كما يقول كانط) بالجدوى الفعلية للإيمان — لأنه يقدم لنا بعض الهداية فى تفسير الظواهر ، ويوفر لنا شيئاً من السلامة الفلسفية والسلام الدينى ، يقول :

« إن أشياء العالم يجب النظر إليها » كأنها « تلقت وجودها من عقل أسمى ففكرة (الله) هى فى الحقيقة مدرك عقلى موجه ، لا مدرك عقلى مباشر (هى فرض يعين على الكشف والفهم ، ولكنها ليست برهاناً) . . . ففى ميدان اللاهوت يجب أن ننظر إلى كل شىء « كأن » جماع المظاهر كلها (العالم المحسوس ذاته) له أساس واحد ، أسمى ، كلى الاكتفاء ، وراء ذاته — هو عقل موجود بذاته ، مبتكر ، مبدع . لأنه فى ضوء هذه الفكرة ، فكرة العقل المبدع ، نوجه الاستخدام التجريبى « لعقلنا » بحيث نحصل على أقصى امتداد مستطاع له . . والمفهوم المحدد الوحيد الذى يعطينا إياه العقل النظرى الخالص عن الله هو ، بأدق معنى ، مفهوم « ربوبى » ؛ أى أن العقل لا يحدد الصحة

الموضوعية لمثل هذا المفهوم ، إنما هو يعطينا فقط الفكرة عن شيء هو الأساس للوحدة الأسمى والواجبة لكل الحقيقة التجريبية » [٣٠] .

ولكن المبرر الأشد إلزاماً للاعتقاد الديني ، في رأى كانط ، هو أن هذا الاعتقاد لا غنى عنه للأخلاقية و « لولا أن هناك كائناً أصلياً متميزاً عن العالم ، ولو كان العالم . . . بغير خالق ، ولو كانت إرادتنا غير حرة ، ولو كانت الروح . . . فانية كالمادة ، إذن لفقدت الأفكار والمبادىء الأخلاقية « كل صحتها » [٣١] . وإذا شئنا للصفة الأخلاقية والنظام الاجتماعي إلا يعتمدا كلية على الخوف من القانون ، فلا بد لنا من دعم الإيمان الديني ، ولو بوصفه مبدأ منظماً ، ويجب أن نسلك ، كأننا نعرف « أن هناك إلهاً ، وأن نفوسنا خالدة ، وأن إرادتنا حرة »[٣٢] . أضف إلى ذلك ، أننا إعانة للفكر والأخلاق — مبررون في تمثيل سبب العالم بلغة تشبيهية لطيفة دقيقة . (بغيرها لا نستطيع تصور أى شيء متصل بهذا السبب) أعنى ككائن ذى فهم ، ومشاعر سرور وأستياء ، ورغبات ومشيئات تقابلها » [٣٣] .

وهكذا يختتم كتاب « النقد » الشهير ، مخلفاً مذاهب الفكر المتعارضة وقد سرى عنها وأثار استياءها . لقد أصبح في وسع الشكاك أن يزعموا أن كانط برد اللاإدرية ، وأن يزدروا إرجاعه الله إلى مكانته السابقة مكملا للشرطة . ووبخه اللاهوتيون المصدومون على تسليمه بهذا القدر الكبير للكفار ، واغتبطوا لأن الدين خرج — فيما بدا لهم — حياً من رحلته الخطرة داخل متاهة عقل كانط . وفى ١٧٨٦ وصف كارل راينهولت هذه الضجة الكبرى فقال :

«لقد حكم الدجماطيقيون على كتاب « نقد العقل الخالص» : بأنه محاولة شاك يقوض يقينية المعرفة كلها . الشكاك بأنه قطعة من التبجح المستعلى تضطلع بإقامة صورة جديدة من الدجماطيقية على أنقاض مذاهب سابقة ؛ وفوق الطبيعيين بأنه حيلة مبيتة بدهاء لإزاحة الأسس التاريخية للدين ، ولاقاه المذهب الطبيعي دون جدل عنيف ؛ والطبيعيون بأنه دعامة جديدة لفلسفة الإيمان المحتضرة ؛ وحكم عليه الماديون بأنه إنكار مثالى النزعة لحقيقة

المادة ؛ والروحانيون بأنه قصر لا مبرر له للمعرفة كلها على العالم المادى مستتر تحت اسم ميدان التجربة . . . » [٣٤] .

وهاجمت مدارس الفكر هذه كلها تقريباً الكتاب فأذاعت بذلك شهرته ولو بتجريحه . وأعلت من قدرة كل العوامل حتى عسر فهمه الذى جعله تحدياً يتعين على كل عقل عصرى أن يقبله . وسرعان ما جرت مصطلحات كانط وألفاظه الطويلة على كل لسان مثقف .

ولم يستطع كانط أن يفهم لم عجز نقاده عن فهمه . ألم يعرف كل مصطلح أساسى مراراً وتكراراً ؟ (بلى ، وما أشد التباين فى تعاريفه !) وفى ١٧٨٣ رد على الهجمات بإعادة صياغة « النقد » فيما خاله صورة أبسط ، وسمى رده فى تحد « مقدمة لكل ميتافيزيقا مستقبلة قادرة على الظهور كعلم » . وزعم فى هذا الرد أنه قبل كتابة « نقد العقل الخالص » لم تكن هناك ميتافيزيقا ميتافيزيقا حقيقية على الإطلاق ، لأنه ما من مذهب قدم لنفسه بتمحيص ناقد لأداته — وهى العقل . فإذا كان بعض القراء عاجزين عن فهم كتاب « النقد » فقد يكون السبب أنهم ليسوا على مستواه تماماً ؛ « وفى هذه الحالة على القارىء أن يستخدم مواهبه العقلية فى شىء آخر » ، وعلى أى حال «ما من حاجة تدعو كل إنسان لدراسة الميتافيزيقا »[٣٥] . لقد كان فى الأستاذ العجوز دعابة وكبرياء ، وفيه حدة فى الطبع أيضاً . على أن « المقدمة » باتت كلما أو غلت عسرة عسر كتاب النقد الأصلى .

واتصل الجدل فى ظل حكومة فردريك الأكبر المتسامحة . وكان كانط قد كتب فى كتابه « نقد العقل الخالص » فقرات بليغة عن شرف العقل ، وعن حقه فى حرية التعبير [٣٦] . وفى ١٧٨٤ ، حين كان لا يزال مطمئناً إلى حماية فردريك وتسيدلتس ، نشر مقالا عنوانه (ما التنوير ؟) . وقدعرف التنوير بأنه حرية الفكر واستقلاله ، واتخذ شعاراً ونصيحة القول المأثور « تجرأ على أن تعرف » . وأبدى أسفه على تخلف التحرر الفكرى نتيجة لمحافظة الأغلبية على القديم . « فإذا سألنا

هل عائشون فى عصر مستنير ؟ فالجواب لا » ، إنما نحن نعيش فى « عصر التنوير » « ثم حيا فردريك باعتباره عنوان حركة التنوير الألمانى وحاميها ، والملك الوحيد الذى قال لرعاياه « فكروا كما تشاءون »[٣٧] .

ولعله كتب هذا الكلام مؤملا أن خليفة فردريك سيلزم سياسة التسامح . ولكن فردريك وليم الثانى (١٧٨٦ — ٩٧) كان أكثر اهتماما بقوة الدولة منه بحرية العقل . فلما أعدت طبعة ثانية من « نقد العقل الخالص » (١٧٨٧) عدل كانط بعض فقراته ، وحاول التخفيف من حدة هرطقاته بمقدمة طابعها الاعتذار . قال « وجدت من الضرورى أن أنفى المعرفة (بالأشياء فى ذواتها) لأفسح مجالا للإيمان . . . فالنقد وحده يستطيع أن يقطع جذور المادية والقدرية والكفر والإلحاد والتعصب والخرافة »[٣٨]. وكان محقاً فى هذا الحذر . ففى ٩ يوليو ١٧٨٨ أصدر يوهان كرستيان فون فولنر ، وزير الإدارة اللوثرية « مرسوماً دينياً » رفض التسامح الدينى صراحة باعتباره مسئولا عن التحلل الخلقى ، وهدد بالطرد من منابر الكنائس أو كراسى الجامعات كل الوعاظ أو المدرسين المنحرفين عن المسيحية التقليدية . فى هذا الجو الرجعى نشر كانط « نقده » الثانى .

٣ — نقد العقل العملى ، ١٧٨٨

وما دام كتاب « النقد » الأول زعم أن العقل الخالص لا يستطيع أن يثبت حرية الإرادة ، وما دامت الأخلاقية — فى رأى كانط — تحتاج إلى هذه الحرية ، فإن عمليات العقل بدت وقد تركت الأخلاقية ، كاللاهوت ، دون أساس عقلى . بل أسوأ من هذا أن حركة التنوير قوضت الأساس الدينى للأخلاق بالتشكيك فى وجود إله مثيب معاقب . فأنى للحضارة أن تبقى حية إذا انهارت عمد الأخلاقية التقليدية هذه ؟ وأحس كانط أنه هو نفسه ، بوصفه تلميذاً صريحاً للتنوير ، ملتزم أخلاقياً بالعثور على أساس عقلى ما لناموس أخلاقى . وعليه ففى مقال تمهيدى عنوانه « المبادىء الأساسية لميتافيزيقا الأخلاق » (١٧٨٥) رفض محاولة أحرار الفكر إقامة الأخلاقية على

تجربة الفرد أو النوع ؛ فمثل هذا الاشتقاق البعدى خليق بأن يسلب المبادىء الأخلاقية تلك الكلية وذلك الإطلاق اللذين هما فى رأيه شرط للمبدأ الأخلاقى السليم . ثم أعلن بما تميز به من ثقة بالنفس : « أنه من الواضح أن المفاهيم الأخلاقية كلها مستقرة ومتأصلة قبلياً فى العقل كلية » (٣٩) . وقد استهدف كتابه الثانى الكبير « نقد العقل العملى » العثور على ذلك المستقر والأصل وإيضاحه . فسيحلل العناصر القبلية فى الأخلاقية كما حلل الكتاب الأسبق فى النقد العناصر القبلية فى المعرفة .

يزعم كانط أن لكل فرد ضميراً ، إحساساً بالواجب ، وعياً بقانون أخلاقى آمر . « شيئان يملآن العقل بالإعجاب والرهبة المتجددين المتعاظمين أبدا . . . السموات المرصعة بالنجوم من فوقنا ، والقانون الأخلاقى فى داخلنا »(٤٠) . وكثيراً ما يتعارض هذا الشعور الأخلاقى برغباتنا الحسية ، ولكننا ندرك أنه عنصر أسمى فينا من طلب اللذة . وهو ليس ثمرة التجربة ، إنما هو جزء من بنائنا النفسى الأصيل ، مثل المقولات ؛ وهو محكمة باطنية حاضرة فى كل شخص من كل جنس (٤١) . وهو مطلق الحكم ، يأمرنا أمراً غير مشروط ، وبغير استثناء أو عذر ، بأن نفعل الحق من أجل الحق ، كغاية فى ذاته ، لا كوسيلة للسعادة أو الثواب أو لخير غيره . فأمره مطلق .

وهذا الأمر المطلق يتخذ شكلين : « اعمل بحيث تستطيع قاعدة إرادتك أن تظل على الدوام صادقة كمبدأ للتشريع العام » ؛ أسلك بحيث إذا سلك الغير مثلك سار كل شيء على ما يرام ، وهذه (الصيغة المعدلة من القاعدة الذهبية — أى التى تأمر بمعاملة الناس كما تحب أن يعاملون) هى « القانون الأساسى للعقل العملى الخالص » (٤٢) ، وهى « الصيغة لإرادة خيرة خيرا مطلقاً (٤٣) . وفى صيغة ثانية ، « اعمل بحيث تعامل الإنسانية ، سواء ممثلة فى شخصك أو فى شخص أى إنسان آخر ، وفى كل حالة ، كغاية لا كمجرد واسطة اطلاقاً » (٤٤) ، — فى هذه الصيغة الثانية أعلن كانط مبدأ أشد ثورية من أى شيء احتواه الإعلان الأمريكى أو الفرنسى لحقوق الإنسان .

والأحسان بالالتزام الخلقى دليل إضافى على قدر من حرية الإرادة .

فأنى يكون لنا هذا الشعور بالواجب لو لم نكن أحراراً فى أن نعمل أو لا نعمل ، ولو كانت أفعالنا مجرد حلقات فى سلسلة لاتنفصم من العلة والمعلول الميكانيكيين؟ والشخصية بدون الإرادة الحرة عديمة المعنى ؛ وإذا كانت الشخصية عديمة المعنى كانت الحياة كذلك ، وإذا كانت الحياة عديمة المعنى كان الكون كذلك [٤٥] . ويدرك كانط بمنطق الحتمية الذى يبدو ولا مهرب منه ، فكيف يستطيع الاختيار الحر أن يتدخل فى عالم موضوعى يبدو محكوماً بقوانين ميكانيكية (كما يعترف كانط) ؟ [٤٦] وجوابه عن هذا السؤال بلغ الغاية فى الغموض والإبهام . فهو يذكرنا بأن القانون الميكانيكى مركب عقلى ، نظام يفرضه العقل ، بواسطة مقولته العلية ، على عالم المكان والزمان ذريعة للتعامل معه باتساق . وما دمنا قد قصرنا المقولات على عالم الظواهر ، ومادمنا قد سلمنا بأننا لانعرف كنه العالم النومينى — الشىء — فى — ذاته الكائن خلف الظواهر — فأننا لانستطيع الزعم بأن القوانين التى نركبها للظواهر تصدق أيضاً على الحقيقة المطلقة . وبما أننا سلمنا أننا لانعرف ، فى ذواتنا ، إلا الذات الظاهرية — عالم المدركات الحسية والصور فقط — ولا نعرف كنه النفس الباطنة والنومينية ، فإننا لانستطيع الزعم بأن قوانين العلة والمعلول التى يبدو أنها تحكم أفعال أبداننا (بما فيها أمخاخنا) تنطبق أيضاً على إرادات الحقيقة الروحية المطلقة الكائنة وراء عملياتنا العقلية . فوراء ميكانيكيات العالم الظاهرى للمكان وللأفكار فى الزمان قد تكون هناك حرية فى العالم النومينى الذى بلا مكان ولا زمان ، عالم الحقيقة المطلقة — الظاهرة أو الباطنة . وأفعالنا وأفكارنا تتحدد بمجرد دخولها عالم الأحداث المادية أو العقلية المدركة حسياً ؛ وقد تظل حرة فى أصلها فى النفس غير المدركة حسياً ؛ « وهكذا يمكن للحرية والطبيعة أن توجدا معاً »[٤٧] ، وليس فى إمكاننا إثبات هذا ، ولكن يجوز لنا شرعاً أن نفترضه متضمناً بحكم طبيعة حسنا الأخلاقى الآمرة ؛ وبدونه تموت حياتنا الأخلاقية .

على أى حال (فى رأى كانط) ، لم لا ينبغى أن نقدم العقل العملى على النظرى؟ أن العلم ، الذى يبدو أنه يجعلنا آلات ذاتية الحركة ، هو فى النهاية مضاربة — مقامرة على الصحة الدائمة لنتائج ومناهج لاتفتأ تتغير . ونحن

على حق إذا شعرنا بأن الإرادة فى الإنسان أهم من الذهن ، فالذهن أداة صاغتها الإرادة للتعامل مع العالم الخارجى والميكانيكى ، وما ينبغى أن يكون السيد المتسلط على الشخصية التى تستخدمه (٤٨) .

ولكن إذا كان الحس الأخلاقى يبرر افتراضنا قدر من الإرادة الحرة ، فإنه يبرر أيضاً اعتقادنا بخلود النفس ، ذلك أن حسنا الأخلاقى يستحثنا إلى كمال تحبطه المرة بعد المرة دوافعنا الحسية ، ونحن لا نستطيع تحقيق هذا الكمال فى حياتنا على الأرض ؛ فإذا كان هناك عدل فى العالم فلا بد أن نفترض أننا سنمنح حياة متصلة بعد الموت لاكتمالنا الأخلاقى . وإذا كان هذا يفترض أيضاً وجود إله عادل ، فإن هذا أيضاً يبرره العقل العملى . فالسعادة الأرضية لا تتفق دائماً والفضيلة ، ونحن نشعر أن التوازن بين الفضيلة والسعادة سيصحح فى مكان ما ، وهذا لا سبيل إليه إلا إذا افترضنا وجود إله يحقق هذه المصالحة ، وعليه فإن وجود سبب للطبيعة كلها ، متمايز عن الطبيعة ذاتها ، محتوياً لمبدأ . . . الإنسجام الدقيق بين السعادة والفضيلة ، هذا أيضاً من مسلمات « العقل العملى (٤٩) .

وقد عكس كانط النهج التقليدى المألوف . فبدلا من أن يستنبط الحس الأخلاقى والناموس الأخلاقى من الله (كما فعل اللاهوتيون من قبل) ، استنبط الله من الحس الأخلاقى . ويجب أن نتصور واجباتنا لا على أنها « أوامر تعسفية لإرادة غريبة عنا » بل قوانين أساسية لكل إرادة حرة فى ذاتها » . على أنه مادامت تلك الإرادة والله كلاهما ينتميان إلى العالم النوميني ، فينبغى أن نتقبل هذه الواجبات على أنها أوامر إلهية ولن ننظر إلى الأفعال (الأخلاقية) على أنها إلزامية لأنها أوامر الله، ولكنا سنعدها أوامر الهية لأن فينا إلتزاماً باطنياً نحوها » (٥٠) .

وإذا كان هذا التفكير « الإرادى» (العنيد) يشوبه بعض الغموض ، فقد يكون السبب أن كانط لم يكن شديد التحمس لمحاولته التوفيق بين فولتير وروسو . فقد مضى « نقد العقل الخالص » شوطاً أبعد حتى من فولتير فى الاعتراف بأن العقل الخالص لايستطيع إثبات حرية الإرادة ،

أو الخلود ، أو الله . ولكن كانط كان قد وجد فى تعاليم روسو — عن تهافت العقل ، وأولية الوجدان ، وانبثاق الدين من الحس الأخلاق للإنسان — مهرباً مستطاعاً من اللاإرادية ، والتحلل الخلقى ، وبوليس فولتر . ورأى أن روسو أيقظه من « السبات العقائدى » فى الأخلاق كما أيقظه هيوم فى الميتافيزيقا [٥١] . فكان كتابه الأول فى النقد ينتمى إلى حركة التنوير ، والثانى إلى الحركة الرومانتيكية ، ومحاولة الجمع بين الإثنين كانت من أبرع الإنجازات فى تاريخ الفلسفة . وقد عزا هاينى المحاولة إلى الحرص على حاجات عامة الشعب : لقد رأى الأستاذ خادمه الأمين لامبه يبكى على موت الله ؛ « فرق له قلب إمانويل كانط ، وأثبت أنه ليس فيلسوفاً عظيماً فحسب ، بل إنساناً طيباً أيضاً ، وقال بمزيج من العطف والتهكم : « يجب أن يكون للامبه العجوز إله ، وإلا فلن يستطيع أن يكون سعيداً . . . أما من جهتى أنا فإن العقل العملى يستطيع أن يضمن وجود الله »[٥٢] .

٤ — نقد الحكم ، (١٧٩٠)

ولابد أن كانط نفسه كان غير راض عن براهينه ، لأنه فى كتابه « نقد الحكم » عاد إلى مشكلة الآلية مقابل الإرادة الحرة ، وتقدم إلى مشكلة الصراع بين الآلية والقصد ، وأضاف إليها مقالات معقدة فى الجمال ، والجلال ، والعبقرية ، والفن . وهو مزيج لا يثير الشهية .

أما ملكة الحكم هذه ، « فهى عموماً ملكة التفكير فى الجزء على أنه محتوى فى الكل » ، وهى إدراج شىء أو فكرة أو حدث تحت صنف أو مبدأ أو قانون . لقد حاول كتاب « النقد » الأول أن يدرج جميع الأفكار تحت المقولات الكلية القبلية ، وحاول الثانى إدراج جميع المفاهيم الأخلاقية تحت حس أخلاقى قبلى كلى ، أما الثالث فاضطلع بالعثور على مبادىء قبلية لأحكامنا الجمالية (الإستطيقية) — فى النظام أو الجمال أو الجلال فى الطبيعة أو الفن ، [٥٣] «انى أجرؤ على الأقل فى أن تنهض صعوبة حل معضلة ، فى طبيعتها مثل هذا التعقيد ، عذراً يبرر بعض الغموض الذى لا يمكن تجنبه فى حلها »[٥٤] .

ان الفلسفة « الدجماطيقية » قد حاولت من قبل أن تجد عنصراً موضوعياً في الجمال ؛ أما كانط فيشعر أن هنا ، على الأخص ، يكون العنصر الذاتي هو الغالب . فليس هناك شيء جميل أو جليل إلا أن يجعله الوجدان كذلك . ونحن نصف بالجمال أي شيء يعطينا تأمله لذة منزهة — أي لذة مجردة من رغبة شخصية ؛ فنحن نستمد إشباعاً جمالياً ، وجمالياً فقط ، من غروب الشمس ، أو من لوحة لرفائيل ، أو كتدرائية ، أو زهرة ، أو حفلة موسيقية ، أو أغنية . ولكن لم تعطينا أشياء أو تجارب بعينها هذه اللذة المنزهة ؟ لعل السبب أننا نرى فيها اتحاداً في الأجزاء يؤدي وظيفته بنجاح في كل متناسق . وفي حالة الجليل تلذنا العظمة أو القوة التي لا تهددنا بخطر ؛ وهكذا نشعر بالجلال في السماء أو البحر ، إلا إذا هددنا اضطرابهما بالخطر .

ويزداد تقديرنا للجمال أو الجلال بقبولنا الغائية — أي بتبيننا في الكائنات الحية موائمة أصيلة بين الأجزاء وحاجات الكل ، وبشعورنا بحكمة إلهية في الطبيعة وراء التناسق والانسجام ، والعظمة والقوة . ولكن العلم يهدف إلى عكس هذا تماماً — وهو أن يثبت أن الطبيعة الموضوعية كلها تعمل بقوانين ميكانيكية ، دون خضوع لأي قصد خارج عنها ، فكيف السبيل إلى التوفيق بين هذين المدخلين إلى الطبيعة؟ بقبولنا الآلية والغائية جميعاً بقدر ما تساعداننا كمبدئين موجهين ، كفرضين ييسران الفهم أو البحث . فالمبدأ الآلي يساعدنا على الأخص في البحث في المواد غير العضوية ، أما المبدأ الغائي فهو خير عون لنا في دراسة الكائنات الحية . ففي هذه الكائنات قوى للنمو والتوالد تعيي التفسير الميكانيكي ؛ فهناك توفيق واضح بين الأجزاء وأغراض العضو أو الكائن ، كاستخدام المخالب للقبض والعيون للإبصار . ومن الحكمة الإقرار بأنه لا الآلية ولا الغائية يمكن إثبات صدقهما صدقاً كلياً . والعلم نفسه ، بمعنى من المعاني ، هو غائي ، لأنه يفرض في الطبيعة ترتيباً ، وانتظاماً ، ووحدة معقولة ، « كأن » عقلاً إلهياً نظمها ويبقى عليها [(٥٥)] .

وقد اعترف كانط بالصعوبات الكثيرة التي تعترض النظر إلى الإنسان

والعالم على أنهما حصيلة تدبير إلهى : « إن أول شيء كان يقتضى تدبيره بجلاء فى نظام يوضع بحيث يحقق كلا غائياً للكائنات الطبيعية على الأرض هو موطنها — التربة أو العنصر الذى يراد لها أن تزكو عليه أو فيه . ولكن التعمق فى طبيعة هذا الشرط الأساسى للإنتاج العضوى كله يظهر أثراً لأى علل إلا تلك التى تعمل دون غاية إطلاقاً ، بل تنزع فى الواقع إلى التدمير دون أن يكون القصد منها تشجيع تكوين الأنواع والنظام والغايات . والبر والبحر لا يحويان فقط آثار كوارث قديمة العهد هائلة حلت بهما وبكل ما زخرا به من كائنات حية ، ولكن تكوينهما بجملته — طبقات اليابس وخطوط سواحل البحر — يحمل كل المظاهر الدالة على أنه نتيجة قوى عنيفة قهارة لطبيعة تعمل فى فوضى» [٥٦] .

ومع ذلك أيضاً ، فإننا لو تخلينا عن كل فكرة فى وجود هدف فى الطبيعة لسلبنا الحياة كل معناها الأخلاقى ، فتصبح سلسلة حمقاء من ولادات مؤلمة وميتات معذبة ، ليس فيها للفرد ولاللأمةولاللنوع شيءمؤكد إلاالهزيمة. فلابد لنا من أن نؤمن بغاية إلهية ولو للاحتفاظ بسلامة عقولنا — وما دامت الغائية لاتثبت غير صانع مكافح بدلا من خيرية إلهية كلية القدرة ، فلا بد إذن من أن نرسى إيماننا فى الحياة على حس أخلاقى لا يبرره غير الاعتقاد باله عادل . بهذه العقيدة نستطيع أن نعتقد — وأن كنا لا نستطيع أن نثبت بالبرهان — ان البار هو الغاية النهائية للخليقة ، وأنه أنبل ثمرة للتدبير العظيم الملغز [٥٧] .

٥ — الدين والعقل ١٧٩٣

لم يكن كانط قانعاً قط بلاهوته الا « كأنى » المتردد . ففى ١٧٩١ ، فى كتيب عنوانه « عن تهافت جميع المحاولات الفلسفة فى الإلهيات» أعاد القول إن « عقلنا عاجز كل العجز عن تبصيرنا بالعلاقة بين العالم . . . والحكمة السامية » . وأضاف إلى هذا تحفظاً ، ربما لنفسه ، فقال : « على الفيلسوف ألا يلعب دور المحامى الخاص فى هذا الأمر ؛ وعليه ألا يدفع عن أى قضية

يعجز عن فهم عدالتها، ولا يستطيع إثباتها بطرق التفكير الخاصة بالفلسفة»[٥٨]

ثم عاد الى المشكلة فى سلسلة من المقالات أفضت به إلى تحدى الحكومة البروسية تحدياً سافراً . وطبعت أولى هذه المقالات وعنوانها « فى الشر المتأصل » فى « مجلة برلين الشهرية » عدد أبريل ١٧٩٢ . وأذن الرقيب بنشرها على أساس « أن « العلماء المتعمقين فى التفكير هم وحدهم الذين يقرءون كتابات كانط » [٥٩] . ولكنه رفض نشر المقال الثانى « فى الصراع بين مبادىء الخير والشر للسيطرة على الإنسان » . ولجأ كانط إلى حيلة . ذلك أن الجامعات الألمانية كان لها امتياز اعتماد الكتب والمقالات للنشر ؛ فقدم كانط المقال الثانى والثالث والرابع إلى كلية الفلسفة بجامعة يينا (وكان يشرف عليها آنئذ جوته وكارل أوجست دوق فايمار ، ، وكان شيلر أحد أساتذتها) ، وأذنت الكلية بالنشر ، وبهذا طبعت المقالات الأربع كلها فى كونجزبرج عام ١٧٩٣ بعنوان « الدين فى حدود العقل وحده » .

والسطور الأولى تعلن الفكرة الرئيسية السائدة فيها : « بقدر ما تبنى الأخلاق على مفهوم الإنسان كفاعل حر ، هذا الإنسان الذى — بسبب حريته هذه — يتعامى بعقله عن رؤية القوانين غير المشروطة ، فإن هذه الأخلاق فى غير حاجة إلى فكرة كائن آخر من فوقه ليجعله يدرك واجبه ، ولا إلى حافز غير القانون ذاته يجعله يؤديه . . . ومن هنا فإن الأخلاق من أجل ذاتها هى لاتحتاج إلى دين على الإطلاق » [٦٠] . ويعد كانط بطاعة السلطات ، ويسلم بالحاجة إلى الرقابة ، ولكنه يشدد على « ألا تسبب الرقابة أى اضطراب فى مجال العلوم » [٦١] فغزو اللاهوت للعلم ، كما حدث فى حالة جاليليو ، « قد يعطل جميع جهود العقل البشرى . . . ويجب أن يتمتع اللاهوت الفلسفى بكامل الحرية على قدر ما يمتد إليه علمه »[٦٢] .

ويستنبط كانط مشكلات الأخلاق من وراثة الإنسان لنوازع الخير والشر . « لا حاجة لإقامة الدليل صورياً على أن نزعة الفساد لا بد متأصلة فى الإنسان وذلك لكثرة الأمثلة الصارخة التى تضعها الخبرة أمام

أعيننا »[٦٣]. وهو لا يوافق روسو على أن الإنسان يولد خيراً أو كان خيراً فى « حالة الطبيعة » ، ولكنه يتفق معه فى إدانة « رذائل الحضارة والمدنية» لأنها « أشد عيوب أذى» [٦٤] ، « والواقع أن هذا السؤال مازال بغير جواب ، وهو ، ألا تكون أسعد فى حالة غير متحضرة . . . مما نحن فى حالة المجتمع الراهنة » [٦٥] ما فيه من استغلال ونفاق وخلل أخلاقى وتقتيل بالجملة فى الحرب. وإذا شئنا أن نعرف طبيعة البشر الحقيقية فيكفى أن نلاحظ سلوك الدول.

ولكن كيف بدأ « الشر المتأصل فى طبيعة البشر» ؟ . انه لم يبدأ بسبب « الخطيئة الأصلية » ، « فلا ريب فى أن أشد التفسيرات كلها سخفاً لذيوع هذا الشر وانتشاره فى جميع أفراد وأجيال نوعنا هو التفسير الذى يصفه ميراثاً منحدراً إلينا من أبوينا الأولين»[٦٦] . وربما كانت النوازع « الشريرة » قد تأصلت فى الإنسان تأصلا قوياً لأنها كانت ضرورية للبقاء فى الأحوال البدائية ، وهى لاتصبح رذائل إلا فى المدنية — فى المجتمع المنظم ، وفيه لا تحتاج إلى القمع بل إلى الضبط[٦٧] . « فالميول الطبيعية ، إذا نظرنا إليها فى ذاتها ، خيرة ، أى أنها لا تلام ، ومحاولة القضاء عليها ليست عديمة الجدوى فحسب ، بل ضارة ومستحقة للوم . والأولى أن نروضها ، وبدلا من أن يصطدم بعضها ببعض يمكن أن ينسق بينها لتنسجم فى كل يسمى السعادة [٦٨] . والخير الأخلاقى هو أيضاً غريزى ، كما يدل على ذلك الحس الأخلاقى فى جميع الناس ، ولكنه فى أول الأمر ليس إلا حاجة ، لابد من تنميتها بالتعليم الأخلاقى والتهذيب الشاق . وأفضل الأديان ليس الذى يفوق غيره فى التمسك الدقيق بالعبادة الطقسية ، بل أعظمها تأثيراً فى الناس ليحيوا حياة أخلاقية [٦٩] . والدين القائم على العقل لا يبنى نفسه على وحى إلهى ، بل على إحساس بالواجب يفسر على أنه أقدس عنصر فى الإنسان [٧٠] . ومن حق الدين أن ينظم نفسه على هيئة كنيسة [٧١] . وله أن يحاول تحديد عقيدته بالأسفار المقدسة ، وأن يعبد ، بحق ، المسيح بوصفه أعظم البشر شبهاً بالله ، وأن يعد بالجنة وينذر بالنار [٧٢] ، و « لا يمكن تصور دين لا يحتوى على اعتقاد بحياة آخرة » [٧٣] . ولكن لا ينبغى أن يكون ضرورياً للمسيحى أن يؤكد إيمانه بالمعجزات ، أو بلاهوت المسيح ، أو بالتكفير عن خطايا البشر بصلب المسيح ، أو بالحكم المقدر على الأرواح بالجنة

أو النار بالنعمة الإلهية تمنح دون نظر إلى الأعمال الصالحة أو الشريرة(٧٤) . و « من الضرورى أن نغرس بعناية بعض أشكال الصلاة فى أذهان الأطفال (الذين لا يزالون فى حاجة إلى حرفية الدين » (٧٥) . ، ولكن صلاة الضراعة « التى يتوسل بها لكسب النعمة الإلهية وهم خرافى» (٧٦) .

أما حين تنقلب كنيسة ما مؤسسة لإكراه الناس على الإيمان أو العبادة ؛ وحين تزعم لنفسها الحق الأوحد فى تفسير الكتاب المقدس وتعريف الأخلاقية ، وحين تكون كهنوتها يدعى لنفسه سبل الاتصال وحده بالله والنعمة الإلهية ؛ وحين تجعل من عبادتها مجموعة طقوس سحرية لها قوى معجزية ؛ وحين تصبح ذراعاً للحكومة وأداة للطغيان الفكرى ؛ وحين تحاول أن تتسلط على الدولة وتستخدم الحكام العلمانيين مطايا للطمع الكهنوتى — عندها يثور العقل الحر على كنيسة كهذه ، ويبحث خارجها عن ذلك الدين العقلى الخالص ، الذى هو السعى لبلوغ الحياة الأخلاقية (٧٧) .

وقد تميز هذا الأثر الكبير الأخير من آثار كانط بالتذبذب والغموض الطبيعيين فى رجل لا ولع له بحياة السجون . ففيه الكثير من الحشو «السكولاستى» ، ويشوبه العجيب من تشقيقات المنطق ومن اللاهوت المفرق فى الخيال . ومع ذلك فالعجب العجاب فى رجل بلغ التاسعة والستين ، أن يظل مبدياً مثل هذه القوة فى الفكر والقول ، ومثل هذه الشجاعة فى صراعه مع قوى الكنيسة والدولة مجتمعة . وقد بلغ الصراع بين الفيلسوف والملك ذروته حين (أول أكتوبر ١٧٩٤) أرسل إليه فردريك وليم الثانى الأمر التالى الصادر من المجلس الملكى :

« إن شخصنا البالغ السمو قد لاحظنا طويلا باستياء شديد كيف تسىء استخدام فلسفتك لتقوض وتحط من قدر الكثير من أهم وألزم تعاليم الأسفار المقدسة والمسيحية ، وكيف أنك على التحديد ، فعلت هذا فى كتابك « الدين فى حدود العقل وحده » . . . ونحن نطالبك فوراً بجواب غاية فى النزاهة ، ونتوقع أنك فى المستقبل ، تجنباً لسخطنا الشديد ، لن يبدر منك ما يسىء كهذا الذى بدر . بل على العكس فإنك طبقاً لمقتضيات

واجبك ستستخدم مواهبك وسلطتك لكى يتحقق هدفنا الأبوى أكثر فأكثر . أما إذا تماديت فى المقاومة فلك أن تتوقع بالتأكيد أن تجر عليك المقاومة عواقب وخيمة »(٧٨) .

ورد كانط رداً ملؤه الاسترضاء . فذكر أن كتاباته لم يوجهها إلا للدارسين واللاهوتيين ، الذين ينبغى صيانة حرية تفكيرهم لصالح الحكومة ذاتها . وقال إن كتابه قد سلم بقصور العقل فى الحكم على الأسرار النهائية للإيمان الدينى . ثم اختتم بتعهد بالطاعة : « إننى بوصفى خادم جلالتكم المخلص كل الإخلاص أعلن هنا إعلاناً قاطعاً اننى منذ الآن سأمتنع كلية عن جميع التصريحات العلنية عن الدين ، الطبيعى منه والموحى ، سواء فى المحاضرات أو المؤلفات . » فلما مات الملك (١٧٩٧) أحس كانط أنه فى حل من وعده ؛ ثم ان فردريك وليم الثالث عزل فولنر (١٧٩٧) وألغى الرقابة ، وأبطل المرسوم الدينى الصادر فى ١٧٨٨ . وبعد هذه المعركة أجمل كانط نتائجها فى كتيب سماه « صراع الملكات » (١٧٩٨) ، كرر فيه دعواه بأن الحرية الأكاديمية لا غنى عنها للنمو الفكرى للمجتمع . ونحن إذا نظرنا إلى الأمر فى جوهره ، تبين لنا أن الأستاذ القصير القامة ، القابع فى ركن قصى من أركان المعمورة ، قد انتصر فى معركته ضد دولة تملك أقوى جيش فى أوربا . وستنهار الدولة عما قريب ، ولكن ما وافى عام ١٨٠٠ حتى كانت كتب كانط أبلغ الكتب تأثيراً فى حياة ألمانيا الفكرية .

٦ — المصلح

واعتزل إلقاء المحاضرات فى ١٧٩٧ (بعد أن بلغ الثالثة والسبعين) ، ولكنه واصل نشر المقالات فى الموضوعات الحيوية حتى ١٧٩٨ . وظل على صلة بالشئون العالمية رغم عزلته . فلما اجتمع مؤتمر بازل عام ١٧٩٥ ليرتب صلحاً بين ألمانيا وأسبانيا وفرنسا ، اغتنم كانط الفرصة (كما فعل من قبل الأبيه سان — بيير مع مؤتمر أوترخت فى ١٧١٣) لينشر كراسة عنوانها « فى السلام الدائم » .

وقد استهلها استهلالا متواضعاً بوصفه « السلام الأبدى» شعاراً يليق بجبانة الموتى ، وأكد للساسة أنه لايتوقع منهم أن يروا فيه أكثر من مجرد « معلم نظرى متحذلق عاجز عن إلحاق أى خطر بالدولة» .[٧٩] وبعد أن نحى مواد الصلح المبرم فى بازل جانباً باعتبارها مواد تافهة قصد بها مسايرة الظروف ، وضع بوصفه لجنة مؤلفة من رجل واحد — « ست مواد أولية » تجمل الشروط الأساسيةللسلام الدائم : فحرمت المادة الأولى جميع التحفظات والملاحق السرية لأى معاهدة . وحظرت المادة الثانية على أى دولة أن تستولى على أخرى أو تسيطر عليها . وطالبت المادة الثالثة بالتخلص تدريجياً من الجيوش الدائمة . وذهبت المادة الرابعة إلى أنه لا يجوز لأى دولة « أن تتدخل بالقوة فى دستور دولة أخرى» . وطالبت المادة السادسة كل دولة تخوض حرباً مع أخرى بألا « تسمح بأعمال عدائية من شأنها أن تجعل الثقة المتبادلة مستحيلة ، فى حالة إبرام سلام فى المستقبل ، كالاستعانة بالقتلة يغتالون أو يدسون السم . . . والتحريض على الفتنة فى دولة العدو» .

وإذ كان من غير المستطاع ابرام صلح طويل الأمد بين دول لاتعترف بحدودلسيادتها ، فإنهلا بدمن بذل الجهودالحثيثةلتطوير نظام دولى، وإيجاد بديل للحرب بهذه الطريقة . ومن ثم وضع كانط بعض « المواد المحددة » للسلام الدائم . أولا ، « يجبأن يكون دستور كل دولة جمهورياً . ذلك أن الملكيات والارستقراطيات تنزع إلى الحروب المتكررة ، إذ أن الحاكم والنبلاء هم عادة فى مأمن من فقد أرواحهم وثرواتهم فى الحرب ، لذلك يبادرون إلى خوضها بوصفها « تسلية الملوك » ؛ أما فى الجمهوريات « المواطنون هم المسئولون عن قرار إعلان الحربأو عدم إعلانها ، « وهم الذين سيتحملون العواقب» ، ومن ثم « فليس من المحتمل أن يغامر مواطنو دولة (جمهورية) فى أى وقت بلعبة غالية التكلفة إلى هذا الحد » [٨٠] . ثانيا « يجب أن يبنى كل حق دولى على أساس اتحاد فدرالى بين الدول الحرة »،[٨١] وألا يكون هذا الاتحاد دولة عظمى ، « فالواقع أن الحرب ليست سيئة سوءاً لابرء منه كسوء الملكية العالمية » [٨٢] . فينبغى أن يقرر كل شعب حكومته الخاصة

به ، ولكن على كل دولة بمفردها (على الأقل .. دول أوربا) أن تتجمع فى اتحاد كنفدرالى تخول له سلطة التحكم فى علاقاتها الخارجية . والمثل الأعلى الذى لابد من التمسك به هو أن تمارس الدول القانون الأخلاقى الذى تطالب به مواطنيها . فهل يمكن أن تسفر مغامرة كهذه عن شر أعظم مما ينجم عن الممارسة الدائمة للخداع والعنف الدوليين؟ لقد راود كانط الأمل بأن مكيافللى سيثبت فى نهاية المطاف أنه مخطىء ، وليس هناك من داع للتضارب بين الأخلاقية والسياسة ، ذلك أن « الأخلاق وحدها هى القادرة على قطع العقدة التى لاتقوى السياسة على فكها » [٨٣] .

وواضح أن كانط كان مخدوعاً فى أمر الجمهوريات (التى شاركت بعد ذلك فى أبشع الحروب قاطبة) ؛ ولكن ينبغى أن نقرر أنه كان يعنى بـ « الجمهورية » الحكومة الدستورية لا الديمقراطية الكاملة . فلقد كان عديم الثقة بالدوافع المتهورة التى تحفز رجالا لا تكبحهم قيود [٨٤] ، وكان يخشى إطلاق حق التصويت للجميع باعتباره تسليطاً للأغلبيات الجاهلة على الأقليات التقدمية والأفراد الخارجين على الإجماع [٨٥] . ولكن كانت تغيظه الامتيازات الموروثة ، وخيلاء الطبقة ، والقنية التى تطوق كونجزبرج ، ورحب بالثورة الأمريكية التى أخذت ، فى رأيه ، تكون اتحاداً فدرالياً من دويلات مستقلة ، على غرار النظام الذى اقترحه لأوربا . وناصر الثورة الفرنسية بحماسة تقرب من حماسة الشباب ، حتى بعد مذابح سبتمبر وحكم الإرهاب .

ولكنه ، شأن أتباع التنوير جميعاً تقريباً ، آمن بالتعليم أكثر مما آمن بالثورة . فى هذا المجال ، كما فى مجالات كثيرة ، أحس بتأثير روسو والحركة الرومانتيكية . « يجب أن نسمح للطفل منذ نعومة أظفاره بكامل الحرية من جميع النواحى . . . شريطة ألا يتدخل فى حرية غيره» [٨٦] . على أنه تحفظ بعد قليل فى هذه الحرية الكاملة ، وسلم بأن قدراً من الضبط ضرورى فى تكوين الخلق ؛ « فإهمال الضبط شر أعظم من إهمال الثقافة ، لأن إهمال الثقافة يمكن علاجه فى الحياة فيما بعد » [٨٧] . أما أفضل ضبط فهو العمل . وينبغى مطالبة الطفل به فى جميع مراحل تعليمه . والتربية

الأخلاقية لا غنى عنها ، وينبغى أن تبدأ فى مرحلة مبكرة . وإذ كانت الطبيعة البشرية تحتوى بذرة الخير والشر كليهما ، فإن كل تقدم أخلاقى رهن باقتلاع الشر وغرس الخير ، ولا يكون هذا بالثواب والعقاب ، بل بالتشديد على مفهوم الواجب » .

والتعليم الذى تقوم به الدولة ليس أفضل من التعليم الذى تقوم به الكنيسة ، فالدولة ستسعى إلى تكوين المواطنين المطيعين اللينين المتعصبين لوطنهم . والأفضل ترك التعليم للمدارس الخاصة التى يرأسها معلمون مستنيرون ومواطنون مشربون بروح الخدمة العامة [٨٨] . لذلك أشاد كانط بمبادىء ومدارس يوهاك بازروف . وأسف على ما تتسم به مدارس الدولة وكتبها المدرسية من تحيز للقومية ، وتطلع إلى زمن تعالج فيه جميع الموضوعات بحيدة ونزاهة . وفى ١٧٨٤ نشر مقالا بعنوان « أفكار لتاريخ عام من وجهة نظر عالمية » ؛ وقد أجمل المقال تقدم البشرية من الخرافة إلى التنوير ، ولم يفسح للدين إلا دوراً صغيراً ، وطالب بمؤرخين يرتفعون فوق التعصب القومى .

وقد أدفأ فؤاده بالإيمان بالتقدم ، الأخلاقى منه والفكرى ، كما أدفأ جماعة الفلاسفة أفئدتهم . ففى ١٧٩٣ وبخ موسى مندلسون على قوله أن كل تقدم يلغيه تقهقر . « فى الإمكان الاستشهاد بأدلة كثيرة على أن النوع الإنسانى بوجه عام ، لاسيما فى زماننا بالقياس إلى الأزمنة السابقة كلها ، قد سار خطوات لايستهان بها نحو حياة أفضل من الناحية الأخلاقية . ولا ينقض هذا القول حالات التوقف المؤقتة . وصراخ القائلين بأن النوع الإنسانى ينحط باستمرار منشؤه بالضبط أن المرء حين يقف على درجة أعلى من الأخلاقية يمتد بصره إلى مدى أبعد أمامه فيكون حكمه على حالة الناس كما هم ، بالقياس إلى ما ينبغى أن يكونوا ، حكماً أشد صرامة »[٨٩] .

فلما بدأ كانط آخر عقد فى عمره (١٧٩٤) أصاب تفاؤله المبكر شىء من الإظلام . ربما بسبب الرجعية فى بروسيا وتحالف الدول على فرنسا الثائرة . فانطوى على نفسه ، وكتب سراً ذلك الأثر الذى نشر بعد وفاته ، والذى قدر له أن يكون وصيته الأخيرة للنوع الإنسانى .

٧ — بعد الموت

كان فى بدنه من أضأل الرجال فى جيله حجماً — لا يجاوز طوله خمسة أقدام إلا قليلا ، يزيده قصراً تقوس إلى الأمام فى عموده الفقرى . وكان يشكو ضعفاً فى رئتيه ، ووجعاً فى معدته ، ولم يطل عمره إلا بفضل تغذية منتظمة معتدلة . ومما يتفق وطبيعته أنه وهو فى السبعين كتب مقالا عنوانه « فى قدرة العقل على التحكم فى الشعور بالمرض بقوة العزيمة » . وكان يؤكد على حكمة التنفس من الأنف ؛ فالمرء يستطيع التغلب على الكثير من نزلات البرد ، وغيرها من العثرات بإقفال فمه [٩٠] . ومن ثم كان فى مسيراته اليومية يمشى وحيداً تجنباً للحديث . ثم يمضى إلى فراشه بانتظام فى العاشرة ، ويستيقظ فى الخامسة ، ولم يستغرق فى النوم إلى ما بعدها مرة على مدى ثلاثين عاماً (كما يؤكد لنا) [٩١] . وقد فكر فى الزواج مرتين ، ثم أحجم مرتين . ولكنه لم يكن عزوفاً عن عشرة الناس ؛ فقد اعتاد أن يدعو ضيفاً أو ضيفين ، غالباً من تلاميذه ، دون أى امرأة قط — لمشاركته غداءه فى الواحدة بعد الظهر . وكان أستاذاً للجغرافيا ، ولكن ندر أن تحرك خارج كونجزبرج ، ولم يرقط جبلا ، ولعله لم ير البحر قط على قربه منه [٩٢] . وقد شد من أزره طوال محنة الفقر والرقابة عزة نفس لم تلن إلا ظاهرياً لأى سلطان غير سلطان عقله . وكان كريم النفس سمحاً ، ولكنه صارم فى أحكامه ، يفتقد روح الفكاهة الخليق بأن ينقذ الفلسفة من الغلو فى الجد . وكان حسه الأخلاقى أحياناً يبلغ من الرهافة حد التزمت الذى يسىء الظن بكل اللذات حتى تثبت أنها فاضلة .

ولقد بلغ من قلة اكتراثه بالدين المنظم أنه لم يختلف إلى الكنيسة إلا إذا اقتضته ذلك واجباته الجامعية [٩٣] . ويبدو أنه لم يصل قط فى حياته بعد الرشد [٩٤] . روى هردر أن تلاميذ كانط بنوا شكوكيتهم الدينية على تعليم كانط [٩٥] . وقد كتب كانط إلى مندلسون يقول « صحيح حقاً أننى أفكر بأوضح اقتناع ، وبغاية الرضى ، فى أشياء كثيرة ليس لدى الشجاعة أبدا على قولها ، ولكنى لا أقول أبدا أى شىء لا أعتقده »[٩٦] .

وكان حتى آخر سنى حياته يجاهد لتحسين عمله ، وفى ١٧٩٨ أخبر صديقاً : « إن العمل الذى أشغل به نفسى الآن يجب أن يتناول الانتقال من الأساس الميتافيزيقى للعلوم الطبيعية إلى الفيزياء . فلا بد من حل هذه المشكلة ، وإلا كان هنا فجوة فى نسق الفلسفة النقدية» . (٩٧) ولكنه فى ذلك الخطاب وصف نفسه بأنه « قد عجز عن العمل الذهنى» . ودخل حقبة طويلة من اضمحلال البدن ، والأوجاع المتراكمة ، وشعور الوحشة الذى يصاحب شيخوخة العزب . ووافته المنية فى ١٢ فبراير ١٨٠٤ . ودفن فى كتدرائية كونجزبرج ، فيما يعرف الآن بـ « ستواكانطيانا » ، (مثوى كانط) ونقشت على قبره كلماته « السماء المرصعة بالنجوم من فوقى ، والقاموس الأخلاقى فى باطنى» .

وقد خلف عند موته خليطاً كبيراً من الكتابات نشرت على أنها « أثر منشور بعد وفاة مؤلفه » فى ١٨٨٢ — ٨٤ . وفى إحداها وصف « الشيء — فى — ذاته » — الطبقة السفلية المجهولة من وراء الظواهر والأفكار — بأنه « ليس شيئاً حقيقياً ، . . . ولا حقيقة موجودة ، بل مجرد مبدأ . . . للمعرفة القبلية التركيبية للعيان — الحسى المتعدد (٩٨)» . وقد سماه ... « أى شيئاً لا وجود له إلا فى فكرنا » . وقد طبق هذه الارتيابية ذاتها على فكرة الله :

«ليس الله جوهراً موجوداً خارجى ، بل مجرد علاقة أخلاقية فى باطنى . . . والأمر المطلق لا يفترض جوهراً يصدر أوامره من عل ، ويتصور إذن على أنه خارجى ، بل هو أمر أو نهى من عقلى أنا . . . والأمر المطلق يمثل الواجبات الإنسانية كأوامر إلهية لا بالمعنى التاريخى ، كأن (كائناً إلهياً) قد أصدر أوامر للناس ، بل بمعنى أن العقل . . . له القدرة على الأمر بسلطة شخص إلهى وعلى هيئته . . . « وصورة كائن كهذا ، يجثو أمامه الجميع . . . الخ . تنبعث من الأمر المطلق ، وليس العكس . . . ان الكائن الأعلى ... هو من خلق العقل ... لا جوهر خارج عنى » (٩٩) .

وهكذا انتهت الفلسفة الكانطية التى تشبثت بها المسيحية طويلا ، فى ألمانيا ثم بعدها فى انجلتره ، باعتبارها آخر وأفضل أمل للألوهية ، بتصور كئيب لله يراه خيالا نافعاً نماه العقل البشرى ليفسر المطلقية الواضحة للأوامر الأخلاقية .

أما خلفاء كانط الذين كانوا يجهلون هذا الأثر الذى خلفه بعد موته ، فقد أشادوا به منقذ المسيحية ، والبطل الألمانى الذى قتل فولتير ؛ وغلوا فى تمجيد إنجازه غلوا غلب تأثيره على تأثير أى فليسوف من المحدثين . وتنبأ أحد تلاميذه وهو كارل رانهولت بأنه لن يمضى قرن حتى تنافس شهرة كانط شهرة المسيح [١٠١] . وقبل الألمان البروتستنت كلهم (باستثناء جوته) زعم كانط بأنه أحدث « ثورة كوبرنيقية » فى علم النفس : فبدلا من أن يكون الفكر (الشمس) هو الذى يدور حول الشيء (الأرض) ، جعل الأشياء تدور حول الفكر ، ويعتمد عليه . وقد أرضى غرور الذات الإنسانية أن يقال لها إن أساليبها الفطرية فى الإدراك الحسى هى المقومات المحدده لعالم الظواهر . وخلص فشته (حتى قبل وفاة كانط) إلى أن العالم الخارجى من خلق العقل ، واستهل شوبنهاور — الذى قبل تحليل كانط — بحثه الضخم « العالم كإرادة وفكرة » بهذا الإعلان « إن العالم فكرتى » — وهو إعلان أثار بعض الدهشة فى مدام دستال .

واغتبط المثاليون لأن كانط كان قد جعل المادية مستحيلة منطقياً ببيانه أن العقل هو الحقيقة الوحيدة المعروفة لنا مباشرة . وسعد الصوفيون لأن كانط كان قد قصر العلم على الظواهر ، وأقصاه عن العالم النومينى والحقيقى حتماً ، وترك هذه المملكة الغامضة (التى أنكر فى دخيلة نفسه وجودها) متنزهاً خاصاً للاهوتيين والفلاسفة . أما الميتافزيقا ، التى كان جماعة «الفلاسفة» الفرنسيين قد أقصوها عن الفلسفة ، فقد رد لها اعتبارها حكماً للعلوم كلها ، وأقر جان بول لاشتير لألمانيا بسيادة الهواء ، بعد أن أقر لبريطانيا بسيادة البحر ، ولفرنسا بسيادة اليابس . وبنى فشته وشيلنج وهيجل القلاع الميتافيزيقية على مثالية كانط الترانسند نتالية ، وحتى رائعة شوبنهاور اتخذت نقطة انطلاقها

من تشديد كانط على أولوية الإرادة . قال شيلر « انظر كيف هيأ غنى واحد أسباب الرزق لمجموعة من المتسولين» [١٠١] .

كذلك أحس الأدب الألمانى هو أيضاً تأثير كانط سريعاً ، لأن فلسفة عصر تكون على الأرجح أدب العصر الذى يليه . ففرق شيلر برهة فى مؤلفات كانط ، وكتب خطاباً ملؤه الإجلال للمؤلف ، وبلغ فى مقالاته النثرية غموضاً يقرب من الغموض الكانطى . وأصبح الإبهام واللبس موضة فاشية فى الكتابة الألمانية ، وشعار نبالة يشهد بعضوية حامله فى تلك الطائفة العتيقة ، طائفة نساجى خيوط العناكب . قال جوته « إن التأمل الفلسفى ، على العموم ، أذى للألمان ، لأن من شأنه أن يجعل أسلوبهم غامضاً عسيراً مبهماً . وكلما قوى تعلقهم بمدارس فلسفية بعينها ازدادت كتابتهم سوءاً » [١٠٢] .

ويتردد المرء فى اعتبار كانط كاتباً رومانتيكياً ، ولكن الفقرات الأدبية الغائمة التى كتبها فى الجمال والجلال غدت من الينابيع التى انبثقت منها الحركة الرومانتيكية . ولقد انبعثت محاضرات شيلر فى يينا « ورسائله فى تربية الإنسان الاستطيقية » (١٧٩٥) — وهى معالم على طريق تلك الحركة — من دراسته كتاب كانط « نقد الحكم » . وقد هيأ التفسير الذاتى النزعة لنظرية كانط فى المعرفة أساساً فلسفياً لمذهب الفردية الرومانتيكية الذى نشر لواءه مزهواً فى حركة « شتورم » (الزوبعية) . وعبر تأثير كانط الأدبى إلى انجلتره ، فتأثر به كولبردج وكارليل ، ثم عبر إلى انجلتره الجديده ، وأعطى اسماً لحركة إمرسن وثورو — الترانسندنتالية [١٠٣] . لقد هز أستاذ الجغرافيا القصير القامة المحدودب الظهر العالم وهو يطأ أرض « متنزه الفيلسوف» فى كونجزبرج . وما من شك فى أنه قدم للفلسفة وعلم النفس أشق ما عرفه التاريخ إلى الآن من تحليل لعملية المعرفة .

★ ★ ★


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى والعشرون

الطرق إلى فايمار

١٧٣٣ — ٨٧

١ — أثينة ألمانيا

ترى لم أختار اسمى عصور الأدب الألمانى فايمار دون غيرها وطناً له ؟ ان ألمانيا لم يكن لها عاصمة واحدة تتركز فيها ثقافتها كما كانت الحال فى فرنسا وانجلتره ، ولم تكن تملك ثروة مركزة لتمويل هذه الثقافة . وكانت حرب السنين السبع قد أضعفت برلين وليبزج ، أما درسدن فكادت تدمرها تدميراً ؛ وأما همبورج فقد بذلت مالها أولا للأوبرا ، ثم للمسرح . وفى ١٧٧٤ كانت فايمار ، عاصمة دوقية ساكسى — فايمار —آيزيناخ ، بلدة هادئة يسكنها نحو ٦,٢٠٠ نسمة ، وحتى بعد أن ذاع صيتها أشار إليها جوته بـ « هذه العاصمة الصغيرة التى تضم — كما يقول الناس على سبيل المزاح عشرة آلاف شاعر وبعض السكان » [1] فهل مجدها يا ترى بناه افراد عظام ؟ .

لقد حكمت فايمار من ١٧٥٨ إلى ١٧٧٥ ابنة أخت فردريك الأكبر ، وهى المرأة المرحة ، الدوقة الأرملة آنا أماليه ، التى ترملت وهى فى الثامنة عشرة بموت زوجها الدوق قسطنطين ، وأصبحت وصية على والدها كارل أوجست الذى لم يتجاوز العام الواحد . وإليها يرجع الفضل فى فتح باب بين الحكومة والأدب بدعوتها فيلاند للحضور والقيام على تهذيب أبنائها (١٧٧٢). وكانت واحدة من نساء عديدات مثقفات حفزن الشعراء والمسرحين

والمؤرخين تحت قيادتها وحتى موتها فى ١٨٠٧ بإغراء الجنس والمديح ، وقد حولت بيتها بعد عام ١٧٧٦ صالوناً ، شجعت فيه استعمال الألمانية لغة للأدب — رغم أن الجميع كانوا يتكلمون الفرنسية أيضاً .

وفى ١٧٧٥ كان بلاط فايمار يضم نحو اثنى عشر شخصاً واتباعهم . وقد وجد الشاعر الكونت كرستيان تسوشتولبرج فى هذا البلاط جواً ساراً خالية من الكلفة فى ذلك العام الذى وصل فيه جوته . يقول « إن الدوقة العجوز (وكانت يومها فى السادسة والثلاثين) هى الفطنة المجسمة ، وهى مع ذلك لطيفة وطبيعية جداً . أما الدوق فغلام عجيب ، كله وعد وتبشير ، وكذلك أخوه . ثم هنالك الكثير من الأشخاص الممتازين ».[٢] وفى ١٧٨٧ وصف شيلر « نبيلات فايمار » بأنهن « شديدات الحساسية وقل أن تجد بينهن واحدة لم تخض تجربة غرام ، وجميعهن يحاولن غزو القلوب . . . فهنا حكومة هادئة لا تكاد تحس بها ، تسمح لكل إنسان بأن يحيا ، وأن يصطلى فى الهواء والشمس . وإذا كان بالمرء ميل إلى المرح فكل الفرص متاحة له »[٣] .

وتقلد كارل أوجست حكم الدوقية فى ٣ سبتمبر ١٧٧٥ حين بلغ الثامنة عشرة . وما لبث أن اتخذ له زوجة بعد أن أجرى معاشاً على خليلته[٤] ، والزوجة هى لويزه أميرة هسى — دارمشتات ، ثم اقتنص جوته فى الطريق ، وكان يمارس الصيد فى ضراوة ، ويسوق مركبته فى تهور مخترقاً شوارع المدينة الهادئة ، ويتنقل على عجل بين النساء ؛ ولكن تهوره كبحه عقل نضج ببطء حتى بلغ القدرة على الحكم الصائب . وقد درس الزراعة والصناعة وبسط رعايته عليهما ، وشجع العلوم ، وأعان الأدب ، وجاهد لخير إمارته وشعبها . واستمع إلى مدام دستال التى جابت ألمانيا فى ١٨٠٣ تقول : « ليس بين الإمارات الألمانية كلها إمارة تشعرنا أكثر من فايمار بمزايا الدويلة حتى يكون أميرها رجلا قوى الفهم قادراً على السعى لإسعاد جميع طبقات رعاياه دون أن يفقد شيئاً من طاعتهم . . . ومواهب الدوق الحربية يحترمها الجميع ، وحديثه المثير المشرب بالتفكير يذكرنا على الدوام بأنه ربيب فردريك

العظيم . ولسمعته وسمعة أمه الفضل فى اجتذاب ألمع رجال العلم والثقافة إلى فايمار . ولأول مرة أصبح لألمانيا حاضرة أدبية كبرى»[٥] .

٢ — فيلاند : ١٧٣٣ — ١٧٧٥

كرستوف مارتن فيلاند هو أقل الرجال الأربعة ، الذين أذاعوا صيت فايمار ، شهرة بين الناس ، ولكن لعله كان أجدرهم بالحب . وقد عزفت على قيثارته كل مؤثرات جيله تقريباً ووفقت نغماتها كل بدوره . كان ابناً لراعى كنيسة فى أوبرهولتسهايم (قرب بيبراخ فى فورتمبرج) فنشىء على التقوى واللاهوت . فلما اكتشف الشعر جعل الرجل الفاضل كاوبشتوك مثله الأعلى ، ثم تحول إلى فولتير ترفيهاً عن نفسه . ثم وجد فى بلدة فارتهاوزن القريبة منه مكتبة الكونت فون شتاديون الضخمة ، فنهل من الأدبين الفرنسى والانجليزى ، ونفض عنه قدراً كبيراً من اللاهوت ، حتى لقد هزأ بإيمان صباه فى رواية سماها « دون سلفيو فون روزالفا » (١٧٦٤) . ونشر مترجمات نثرية لعشرين من مسرحيات شكسبير (١٧٦٢ — ٦٦) ، فأتاح بذلك لألمانيا لأول مرة نظرة إلى شكسبير ككل ، ويسر لكتاب التمثيليات الألمان مهرباً من الصيغة الكلاسيكية التى اتخذتها الدراما الفرنسية . وكان فنكلمان وآخرون أثناء ذلك يبشرون بالدعوة بالهيلينية ، وصاغ فيلاند لنفسه صورته الخاصة من هذه الدعوة فاتخذ نغمه أبيقورية خفيفه فى كتابه « قصص هزلية » (١٧٦٥) ، وجعل رجلا اغريقياً وهمياً البطل لأهم عمل نثرى ألفه وهو « تاريخ أجاثون » (١٧٦٦ — ٦٧) ، الذى وصفه ليسنج بأنه « الرواية الوحيدة اللائقة بالرجال المفكرين »[٦] .

وقد أراد فيلاند (البالغ ثلاثة وثلاثين عاماً) فى صفحاتها المطوفة أن يبسط فلسفته فى الحياة ، متمثلة فى المغامرات الجسدية والعقلية لرجل أثينى من عصر بركليس . قال فى المقدمة « لقد اقتضت خطتنا تصوير بطلنا وهو يجتاز شتى المحن » ، وهى محن من شأنها أن تربى الإنسان على الأمانة والحكمة دون الالتجاء إلى الحوافز أو الدعائم الدينية [٧] . وأجاثون (أى الطيب) ،

الشاب الوسيم ، يقاوم محاولة إحدى كاهنات دلفى لإغوائه ، وبدلا من ذلك يشعر نحو العذراء الساذجة « بسوخى» (النفس) بحب نقى وإن كان مشوباً . ويدخل عالم السياسة ، فيشمئز من تعصب الأحزاب ، ويندد بالناخبين لافتقارهم إلى المبدأ ، ثم ينفى من أثينا.وفيما هو يهيم فى جبال اليونان يقع على لفيف من النسوة التراقيات يحتفان بعيد باخوس برقصات شهوانية عنيفة ؛ فيحسبنه باخوس ، ويكدن يخنقنه بعناقهن ، ثم تنقذه عصابة من القراصنة ، تبيعه عبداً فى أزمير لهبياس ، وهو أحدسوفسطائى القرن الخامس ق . م . ويشرح فيلاند فلسفة السوفسطائيين فى سخط فيقول :

« ان الحكمة التى جعل منها السوفسطائيون مهنة لهم كانت من حيث الكيف كما كانت من حيث الأثر النقيض للحكمة التى جهر بها سقراط . فالسوفسطائيون علموا فن إثارة أهواء الرجال(بالخطابة) ؛ بينما غرس سقراط فن سيطرة الإنسان على أهوائه . وقد بينوا كيف يظهر الإنسان أمام الناس حكيماً فاضلا ، أما هو فقد بين كيف يكون الإنسان كذلك . وهم شجعوا شباب أثينا على محاولة السيطرة على الدولة ، أما هو فبين لهم أنهم سينفقون نصف عمرهم ليتعلموا كيف يحكمون ذواتهم . وكانت فلسفة سقراط تفخر بالحياة مجردة من الغنى ، أما فلسفة السوفسطائيين فكانت تعرف كيف تحقق الغنى . كانت كيسة ، خلابه ، متقلبة ، تجدت العظماء . . . وعبثت بالنساء ، وتملقت كل شخص ينقدها ثمن التملق . كانت فى كل مكان لاتحس الغربة ، لها الحظوة فى البلاط ، وفى مخادع النساء ، ومع الطبقة الارستقراطية ، وحتى مع طبقة الكهان ، فى حين أن تعاليم سقراط . . . يحكم عليها الفضوليون بأنها عديمة النفــع ، والمتبطلون بأنها عديمة المذاق ، والأتقياء بأنهــا خطرة . » (٨)

وتتمثل فى هبياس كما يصوره فيلاند كل أفكار السوفسطائين ورذائلهم . فهو فيلسوف ، ولكنه حرص على أن يكون مليونيراً أيضاً . وهو يعتزم

أن ينشىء أجاثون المستقيم الخلق على أسلوب أبيقورى فى التفكير والعيش . ويزعم أن أحكم سياسة ينتهجها الإنسان أن يجرى وراء الأحاسيس اللذيذة ، و « كل اللذات هى فى حقيقتها حسية » [٩] . وهو يضحك من أولئك الذين يحرمون أنفسهم من لذات هذه الحياة الدنيا أملا فى مباهج السماء التى قد لا تتحقق أبداً . « فمن ذا الذى رأى مرة أولئك الأرباب ، وتلك المخلوقات الروحية ، التى يؤكد (الدين) وجودها ؟ « فهذا كله حيلة يخادعنا بها الكهنة [١٠] . ويدين أجاثون هذه الفلسفة لأنها تتجاهل العنصر الروحى فى الإنسان وحاجات النظام الاجتماعى . ويقدمه هبياس إلى داناى المرأة الغنية الجميلة ، ويشجعها على اغوائه ، ويخفى عنه ماضى داناى حين كانت محظية . وترقص المرأة وتحمل أجاثون رشاقة جسدها مع سحر حديثها وموسيقى صوتها على أن يقدم لها حبه الخالص الطاهر . وتفسد داناى على هبياس مؤامرته إذ ترد حب أجاثون بمثله . ذلك أنها بعد أن تقلبت فى أحضان رجال كثيرين تجد تجربة وسعادة جديدتين فى حب أجاثون . وهى تتطلع إلى أن تبدأ مع أجاثون حياة جديدة أكثر طهراً بعد أن سئمت غرامياتها العديمة العاطفة . فتشتريه من هبياس ، وتعتقه ، وتدعوه لمقاسمتها ثروتها ؛ ولكن هبياس يبوح لأجاثون بماضى داناى وهى محظية انتقاماً منها . فيركب أجاثون البحر إلى سيراكيوز .

وهناك يكتسب سمعة طيبة بالحكمة والنزاهة ، فيصبح الوزير الأول للدكتاتور ديونيسيوس . وقد تخلى الآن عن بعض مثاليته :

« فلم يعد يحلم كما كان بتلك المثاليات الرفيعة عن طبيعة البشر . أو قل إنه انتهى إلى معرفة البون الشاسع بين الإنسان الميتافيزيقى ، الذى يفكر فيه المرء أو يحلم به فى خلوته المتأملة ، أو الإنسان الفطرى وهو خارج لتوه فى بساطته الفجة من يدى الطبيعة الأم ، وبين الإنسان الزائف الذى جعله المجتمع والقوانين والآراء والحاجات والتبعية والصراع المتصل بين رغباته وظروفه ، وبين مصلحته ومصلحة غيره ، وما يترتب على ذلك من ضرورة إخفاء مقاصده الحقيقية وسترها باستمرار — أقول إن هذا كله

يجعل الإنسان كاذباً ، منحطاً ، مشوهاً ، متنكراً وراء مئات الصور الخداعة وغير الطبيعية . ولم يعد ذلك المتحمس ، الفتى الذى كان يخيل له أن تنفيذ مشروع عظيم سهل يسير كتصوره . وقد تعلم أن على المرء ألا يتوقع الكثير من الآخرين ، وألا يعتمد كثيراً على تعاونهم معه ، و(أهم من ذلك كله) ألا يثق كثيراً بنفسه . . . وتعلم أن أكثر الخطط كمالا هى فى الغالب أسوؤها (وأنه) لاشىء فى العالم الأخلاقى ، كما فى العالم المادى ، يتحرك فى خط مستقيم ، وبالاختصار أن الحياة أشبه برحلة بحرية يتعين فيها على الربان أن يكيف مسيره وفق هوى الريح والجو ، ولا يطمئن أبداً إلى أن التيارات المعاكسة لن تعطله أو تجنح بمركبه ؛ وأن كل شىء رهن بهذا : وهو أن يضع نصب عينيه ميناء الوصول الذى يقصده رغم مئات الانحرافات عن الطريق » (١١) .

ويخلص أجاثون الخدمة لسيراكيوز وينجز بعض الإصلاحات ، ولكن مؤامرة فى القصر تخلعه ، فيعتزل فى تارنتوم . وهناك يرحب به صديق قديم لأبيه هو الفيلسوف والعالم الفيثاغورى أرخيتاس (ازدهر ٤٠٠ — ٣٦٥ ق . م) الذى يحقق حلم أفلاطون بالملك الفيلسوف . وهناك يعثر على حبيبة صباه بسوخى ، ولكنها للأسف متزوجة من ابن أرخيتاس ، ثم يتبين أنها أخت أجاثون . على أن داناى يؤتى بها (بعصا الروائى السحرية) من أزمير إلى تارنتوم ، وقد هجرت عاداتها الأبيقورية لتحيا حياة العفة والبساطة . ويطلب إليها أجاثون أن تغفر له بعد أن أدرك أنه أثم بهجرانه أياها ، فتعانقه ، ولكنها ترفض الزواج منه ، فقد عولت على التكفير عن انحرافات الماضى بحياة الزهد والتعفف فى ما بقى لها من أجل . وتختم القصة بأجاثون قانعاً قناعة لا تصدق بأن يعد المرأتين أختين له ٥

والكتاب تشوبه عشرات المآخذ . فبناؤه مفكك ؛ ومصادفاته ذرائع كسولة للتهرب من الصنعة الروائية ؛ وأسلوبه لطيف ولكنه شديد الاطناب ؛ وفى كثير من الفقرات يبتعد الفاعل عن الفعل حتى ينسى ؛ وقد هنأ أحد النقاد المؤلف بعيد ميلاده بأن تمنى له حياة طويلة طول جمله . ولكن « تاريخ

أجاثون » برغم هذا يعد من أعظم آثار عصر فردريك . وقد دلت استنتاجاته على أن فيلاند قد اصطلح مع الدنيا ، وأن فى الاستطاعة الآن أن يوكل إليه تعليم الشباب المندفع المتوتر وترويضه . فعين فى ١٧٦٩ أستاذاً للفلسفة فى إيرفورت . ومنها أصدر بعد ثلاث سنين « المرآة الذهبية » وهو كتاب بسط فيه أراءه فى التربية . وأفتتنت به آنا آماليا ، فدعته ليجرب نظرياته التربوية مع أبنائها . فذهب ، وأنفق ما بقى من عمره فى فايمار ، وفى ١٧٧٣ أنشأ مجلة (الرائد الألمانى) ، التى ظلت جيلا (١٧٧٣ — ٨٩) تحت قيادته أعظم المجلات الأدبية نفوذاً فى ألمانيا . وكان النجم الفكرى لفايمار حتى أتى جوته ، وحين اقتحم الكاتب الشاب الجرىء المدينة فى ١٧٧٥ ، رحب به فيـــلاند دون شعور بالغيرة . وسيظل صديقه مدى ست وثلاثين سنة .

٣ — جوته بروميثيوس : ١٧٤٩ — ٧٥

١ — نشأته

تقلبت على يوهان فولفجانج فون جوته شتى التجارب منذ كان يجوب شوارع فرانكفورت — على — المين وهو واع بأنه حفيد عمدتها ، حتى سبعينياته التى كان لأحاديثه العارضة فيها الفضل فى إذاعة اسم كاتب سيرته إكرمان (كما أذاع جونسون اسم بوزويل) ، واستوعب كل ما وسع الحياة والحب والرسائل ان تمنحه ، راداً إياه — فى عرفان — حكمة وفنا .

وكانت فرانكفورت « مدينة حرة » ، يسودها التجار والأسواق ، ولكنها إلى ذلك المقر الذى خصصه الأباطرة لتتويج الملوك الألمان وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة . وفى ١٧٤٩ كان يسكنها ٣٣,٠٠٠ نسمة جلهم تقى مهذب بشوش الوجه . وكان مولد جوته فى منزل متين ذى طوابق أربعة (دمره حريق فى ١٩٤٤ ثم أعيد بناؤه فى ١٩٥١) . وكان أبوه يوهان كاسبار جوته ابن خياط وفندق ميسور الحال ، وقد دمر يوهان كاسبار مستقبله السياسى بالكبر والخيلاء ، واعتزل مهنة المحاماة مؤثراً حياة الدراسة الهاوية فى مكتبته

الأنيقة . وفى ١٧٤٨ تزوج كاتارينا اليزابث ، ابنة يوهان فولفجانج تكستور عمدة فرانكفورت . ولم ينس ابنها قط أنه عن طريقها ينتسب إلى الإشراف من غير حملة الألقاب ، الذين حكموا المدينة أجيالا قبل ذلك . قال لأكرمان وهو فى الثامنة والسبعين ، « نحن أشراف فرانكفورت كنا نعد أنفسنا دائماً مساوين لطبقة النبلاء ؛ وحين احتوت يداى إجازة النبالة (التى منحت له عام ١٧٨٢) لم أر أنى ظفرت بشىء أكثر مما كنت أملك منذ زمن طويل ».(١٢) وكان يحس أن « الأوغاد فقط هم المتواضعون »(١٣) .

وكان أكبر أطفال ستة ، لم يتجاوز الطفولة منهم غيره هو وأخته كورنيليا ؛ فى تلك الأيام كان الحنان الأبوى الكبير يعد عناء باطلا . ولم يكن بيتهم بالبيت السعيد ؛ فالأم لطيفة الطبع تميل إلى الفكاهة والشعر ، ولكن الأب حاكم صارم متزمت أقصى عنه قلوب أطفاله بخشونة طبعه وضيق خلقه . يقول جوته مستعيداً ذكرى طفولته « لم يكن فى الإمكان نمو علاقته سارة مع أبى» (١٤) . وربما اكتسب جوته منه كما اكتسب من تجربته عضواً فى مجلس شورى الدوق بعض التصلب الذى بدا عليه فى أخريات حياته . وربما أخذ عن أمه روحه الشاعرة وحبه للدراما . وقد بنت فى بيتها مسرحاً للعرائس ؛ ولم يفق ابنها قط من افتتانه بهذا المسرح .

وتلقى الأطفال تعليمهم المبكر على يد أبيهم ، ثم من معلمين خصوصيين . واكتسب فولفجانج الإلمام بقراءة اللاتينية واليونانية والانجليزية وبعض العبرية ، والقدرة على التحدث بالفرنسية والإيطالية . وتعلم أن يعزف على الهاربسيكورد والفيولنشيللو ، ويرسم ويصور بالألوان ، ويركب الخيل ويثاقف ويرقص ، ولكنه اتخذ الحياة خير معلم له . فارتاد كل نواحى فرانكفورت بما فيها حى اليهود ؛ وسدد النظرات الغرامية للفتيات اليهوديات الحسان ، وزار مدرسة يهودية ، وحضر حفلة ختان ، وكون لنفسه فكرة عن أيام اليهود المقدسة (١٥) . وأضافت إلى تعليمه أسواق فرانكفورت إذ جلبت إلى المدينة وجوهاً وسلعاً غريبة دخيلة ، وكذلك أضاف الضباط الفرنسيون فى بيت جوته إبان حرب السنين السبع . وفى ١٧٦٤ شهد الصبى ذو الخمسة

عشر ربيعاً تتويج يوزف الثانى ملكاً على الرومان ؛ وقد حفظ كل صغيرة وكبيرة فى الحفل ، وانفق عشرين صفحة على وصفه فى سيرته الذاتية (١٦).

وحين ناهز الرابعة عشرة وقع فى أول غرام من غرامياته الكثيرة التى أثمرت نصف شعره. وكان فى تلك الآونة قد اشتهر ببراعته فى قرض الشعر ، فطلب إليه بعض الصبية ممن اختلط بهم أحياناً أن يكتب خطاباً منظوماً بأسلوب فتاه موجهاً إلى فتى ؛ فأحسن كتابته ، مما حملهم على أن يرتبوا تسليمه لعضو مقيم من جماعتهم على أنه مرسل إليه من حبيبته . وأراد الصبى أن يرد على الشعر بالشعر ولكن أعوزته الكفاية وخانته القوافى ، فطلب إلى جوته أن ينظم له رداً . فوافق ، وعرفاناً بجميله دفع العاشق نفقات نزهة خرجت فيها الجماعة إلى فندق فى إحدى ضواحى المدينة . وكانت الخادمة صبية مراهقة تدعى مرجريته — أو جرتشن اختصاراً ، وقد أطلق جوته اسمها على بطلة تمثيليته « فاوست » . وربما هيأته القصص الغرامية التى قرأها ، والرسائل التى كتبها ، لتذوق سحر الأنوثة فى الصبايا . كتب وهو فى الستين يقول « إن أول نوازع الحب فى شاب غشيم يتجه اتجاهاً روحياً بحتاً . ويبدو أن الطبيعة ترغب فى أن يدرك أحد الجنسين بحواسه الجمال والطيبة فى الجنس الآخر . وهكذا تكشف لى عالم جديد من الجميل والرائع بمرأى هذه الفتاه وبميلى الشديد لها » .(١٧) ولم يفقد ذلك العالم بعدها قط ؛ فكانت المرأة بعد المرأة تحرك روحه الحساسة ، وتحركها غالباً بالتبجيل كما تحركها بالرغبة ؛ فحين كان فى الثالثة والسبعين وقع فى غرام فتاه فى السابعة عشرة .

وغلبه الارتباك لحظة وأعجزه عن التحدث إلى ساحرته . « ذهبت إلى الكنيسة مدفوعاً بحبى لها . . . ورحت خلال الخدمة البروتستنتية الطويلة أحدق فيها بملء عينى » .(١٨) ثم رآها ثانية فى فندقها جالسة فى المغزل . كما جلست جرتشن أخرى فى فاوست . واتخذت هى الخطوة الأولى الآن ، ووقعت فى ابتهاج الخطاب الغرامى الثانى الذى اصطنعه كأنه مرسل من فتاة . ثم قبض على واحد من الجماعة كان جوته قد أوصى جده به ، وهو يزيف سندات ووصايا ؛ فنهى فولفجانج أبواه عن مزيد من الاتصال بهؤلاء

الصبية ، ورحلت جرتشن إلى مدينة بعيدة ، ولم يرها جوته بعدها قط . وقد تضايق كثيراً حين علم أنها قالت «كنت أعامله دائماً على أنه طفل » [١٩] .

وكان الآن (١٧٦٥) راضياً تمام الرضى بالرحيل عن فرانكفورت ودراسة القانون فى جامعة ليبزج ،وراح ككل شاب طلعة يقرأ قراءات واسعة خارج الموضوعات المقررة لدراسته . وكان قد تصفح « قاموس بيل التاريخى النقدى» فى مكتبة أبيه ، وخرج منه بأذى كبير لإيمانه الدينى ؛ « ما إن وصلت إلى ليبزج حتى حاولت أن أتحرر كلية من صلتى بالكنيسة»[٢٠] . ثم أنفق فترة فى التنقيب فى الغيبيات والخيمياء وحتى السحر ، وهذا أيضاً دخل فى مسرحية « فاوسمت» . ثم جرب الحفر وصنع الرواسم من الخشب ، ودرس مجموعة الصور المعروضة فى درسدن ؛ وتكررت زياراته للمصور أويزر فى ليبزج . وقد ألم بكتابات فنكلمان بطريقة أويزر ، وعن هذه الكتابات وكتاب ليسنج « اللاوكون » تلقى أولى نفحات إجلاله للطراز الكلاسيكى . وكان هو وطلاب آخرون يعدون استقبالا حاراً لفنكلمان فى ليبزج حين وافاهم نبأ مصرعه فى تريست (١٧٦٨) .

وكان الإحساس بالجمال هو الغالب فى مدخله إلى العالم . ففى الدين لم يحب غير أسراره المقدسة ، المثيرة ، الغنية بالألوان . ولم يحب الفلسفة كما كتبها الفلاسفة ، باستثناء سبينوزا ؛ وكان يرتعد من المنطق ويهرب من كانط . وقد أحب الدراما ، وكتب مسرحية لا قيمة لها فى ليبزج ، ودأب على قرض الشعر كل يوم تقريباً ، حتى وهو يستمع إلى محاضرات القانون . والقصائد التى نشرها باسم « أغانى ليبزج» مكتوبة بأسلوب أناكريون ، فيها عبث ولهو ، وأحياناً إثارة وشبق :

ومع ذلك فأنا قانع تملؤنى الفرحة
إن هى جادت فقط ببسمتها الحلوة ،
أو إن استعملت وهى على المائدة
قدمى حبيبها وسادة لقدميهــا ؛

أو أعطتني التفاحة التي قضمتها ،
أو الكأس التي شربت منها ،
وكشفت عن ثديها المكنون
حين تنشد ذلك قبلتي [٢١] .

أكانت هذه مجرد مني؟ لافيا يبدو . ذلك أنه كان قد وجد في ليبزج رأساً جميلا — رأس آنيت شونكويف — راغباً في أن يلج على الأقل الدهليز إلى الحب . وكانت أبنة تاجر خمور يقدم وجبة الظهر للطلاب . وكان جوته يتناول طعامه هناك مراراً فاشتهاها . واستجابت لحرارة عاطفته بتحفظ حكيم ، وسمحت لرجال آخرين بأن يتقربوا منها ، فبدأ يغار ، وأخذ يتجسس عليها ؛ وتشاجرا ثم تصالحا ، وتشاجرا وتصالحا ، ثم تشاجرا وافترقا . ولقد ذكر نفسه حتى في هذه النشوات أنه حفيدعمدة ، وأن باطنه قرينا — هو حافز ودافع لجني نهم يطالب بالحرية في سبيل الاكتمال التام إلى مصيره المحتوم . وقبلت آنيت خطيباً غيره .

ورأى جوته في هذا هزيمة له ، وحاول نسيانها بالانغماس في اللذات. « لقد فقدتها حقاً وكان للجنون الذي انتقمت به لخطئي من نفسي بالعدوان على طبيعتي الجسدية بشتى الطرق المسعورة ، لألحق بعض الأذى بطبيعتي الخلقية — أقول كان له ضلع كبير جداً في إصابتي بالأمراض البدنية التي خسرت بسببها بعضاً من أفضل سني عمري» . [٢٢] واستسلم للاكتئاب ، وأصابه عسر هضم عصبي ، وابتلى بورم مؤلم في عنقه ، واستيقظ ذات ليلة على نزيف كاد يقضي عليه . وغادر ليبزج دون أن يظفر بدرجته الجامعية ، وقفل إلى فرانكفورت (سبتمبر ١٧٦٨) ليواجه تأنيب الأب ومحبة الأم .

ثم تعرف أثناء فترة نقاهته الطويلة إلى سوزانه فون كلتنبرج ، وكانت تقوية مورافية ، لطيفة ، عليلة . «كان صفاؤها وهدؤ عقلها لا يبرحانها قط ، وكانت تنظر إلى مرضها نظرتها إلى عنصر ضروري في وجودها الأرضي

العابر » [٢٣] . وقد وصفها بعد سنين وصفاً فيه تعاطف وبراعة فى « اعترافات روح جميلة » . التى أدخلها فى كتابه « ولكنه سجل فى غير مبالاة مزاعمها من أن قلقه واكتئابه سببهما اخفاقه فى المصالحة مع الله . « كنت أعتقد منذ حداثتى إننى على علاقة طيبة جداً مع إلهى — لا بل انى تخيلت . . . انه قد يكون مديناً لى بدين لم يوفه بعد ، لأننى كنت من الجرأة بحيث رأيت أن عليه لى مأخذا يقتضى أن أغتفره له . وكان هذا الغرور قائماً على حسن نيتى الذى لا حد له ، وهو ماكان خليقاً بإلهى أن يعيننى عليه معونة أفضل كما بدا لى . وللقارىء أن يتصور كم من المرات دخلت فى منازعات مع أصدقائى حول هذا الموضوع ، ولكنها كانت تنتهى دائماً بغاية المودة والصفاء » [٢٤] .

ومع ذلك مرت به لحظات متفرقة من التقوى ، إلى حد الاختلاف إلى بعض جلسات الإخوان الموارفيين ، ولكن نفره من هؤلاء القوم البسطاء[٢٥] ، « ضعف ذكائهم » ، وسرعان ما ارتد إلى الجمع المتقطع بين الإيمان بوحدة الوجود والشك العقلانى .

وفى أبريل ١٧٧٠ رحل إلى ستراسبورج أملا فى نيل درجته القانونية . ووصفه زميل من الطلاب (وهو فى الحادية والعشرين) بأنه « فتى وسيم الوجه ، له جبين رائع وعينان واسعتان متقدتان « ولكنه أردف » ان التعامل مع هذا الشاب لن يكون أمراً يسيراً ، إذ يبدو أن له طبعاً جموحاً غير مستقر »[٢٦] . وربما كان مرضه الطويل سبباً فى إثارة أعصابه ؛ وكان « قرينه » أشد اقلاقاً له من أن ينيله الهدوء والاستقرار ، ولكن أى شاب تسرى النار فى دمه يستطيع أن ينعم بالهدوء ؟ وحين وقف أمام الكتدرائية الكبرى حياها بشعور الوطنية ، لا بوصفها كاثوليكية بل « معماراً ألمانياً ، معمارنا ، فالإيطاليون لا يستطيعون المفاخرة بشىء نظيرها ، وأقل منهم الفرنسيون » [٢٧] (ولم يكن قد رأى بعد إيطاليا ولا فرنسا) . « وصعدت وحيداً إلى أعلى قمة فى البرج . . . وغامرت من هذا العلو بأن أخطو إلى الخارج على افريز لا يكاد يبلغ ياردة مربعة . وقد أوقعت هذا الرعب

والعذاب على نفسى مراراً وتكراراً حتى أصبحت التجربة فى نظرى أمراً غير ذى بال » . (٢٨) وقد لاحظ أحد أساتذته أن « الهر جوته كان يسلك بأسلوب جعل الناس ينظرون إليه نظرتهم إلى دعى كاذب من أدعياء العلم ، وخصم مسعور لكل تعليم دينى . والرأى الذى أجمع عليه الكل تقريباً أن فى رأسه برجاً ناقصاً »(٢٩) .

وعملت التجارب الجديدة الكثيرة على تأجيج ناره . فقد التقى بهردر مرات خلال إقامته فى ستراسبورج . وكان هردر الذى يكبره بخمس سنوات ، هو الطرف المسيطر فى هذه اللقاءات ؛ وقد وصف جوته نفسه ، فى نوبة تواضع عارضة ، بأنه « كوكب » يدور حول شمس هردر . وأزعجته نزعة هردر الدكتاتورية ، ولكنه حفزه إلى قراءة الأغانى الشعبية القديمة ، وكتاب مكفرسن « أوسيان » ومسرحيات شكسبير (فى ترجمة فيلاند) . ولكنه قرأ أيضاً فولتير وروسو وديدرو ثم درس مقررات فى الكيمياء والتشريح والولادة ، فضلا عن مواصلة دراسة القانون . . . ثم انه واصل دراسته للنساء .

ذلك انه شعر بفتنتهن بكل ما فى الشاعر من حساسية مرهفة ، وكل ما فى الشباب من توهج كهربى . وبعد هذه الحقبة بسبعة وأربعين عاماً أخبر إكرمان بأنه يعتقد أن للأشخاص تأثيراً مغنطيسياً غامضاً على غيرهم ، وأكثره عن طريق تباين الجنس (٣٠) . فكانت تحركه خطرات الفتيات الخفيفة الرشيقة ، وموسيقى أصواتهن وضحكهن ، ولون أثوابهن وحفيفها ؛ وكان يحسد الزهرة التى كن أحياناً يزين بها مشدهن أو شعرهن على التصاقها بهن . وكانت الواحدة تلو الأخرى من هذه المخلوقات السحرية تستنفر دمه ، وتكبر فى خياله ، وتحرك قلمه . لقد أحب من قبل جرتشن وآنيت ، وعما قليل سيكون هناك لوته وللى وشارلوته ، ثم منا وأولريكه . أما الآن ، فى زيزنهايم (قرب ستراسبورج) ، فكانت افتنهن قاطبة — فردريكه بريون .

كانت الإبنة الصغرى (تسعة عشر ربيعاً فى ١٧٧١) لراعى كنيسة

المدينة ، الذى شبهه جوته بقسيس ويكفيلد الفاضل الذى روى جولد سمث قصته . والصفحات التى كتبها جوته عن فردريكه فى سيرته الذاتية هى أروع ما كتب فى حياته من نثر [٣١] . وكان يركب مراراً من ستراسبورج ليستمتع بما اتسمت به هذه الأسرة الريفية من بساطة لم تفسدها الحضارة . وكان يصطحب فردريكه فى نزهات طويلة لأنها كانت ترسل نفسها على سجيتها فى الهواء الطلق . وقد أحبته ، ومنحته كل ما طلب . « فى خلوة فى الغابة تعانقنا بعاطفة عميقة ، وتبادلنا أخلص التأكيدات بأن كلا منا يحب الآخر من أعماق قلبه ». [٣٢] ولكن سرعان ما راح يعترف لصديق بأن « المرء لا تزداد سعادته مثقال ذرة بنيله ما تمنى » .

وكان خلال ذلك يكتب باللاتينية رسالة الدكتوراه التى أكدت (كما أكد فبرونيوس) حق الدولة فى الاستقلال عن الكنيسة . وقد نالت موافقة الكلية الجامعية ؛ ونجح فى الامتحانات ؛ وفى ٦ أغسطس ١٧٧١ نال درجة الليسانس فى القانون . وجاء أوان الرحيل عن ستراسبورج . فركب إلى زيزنهايم ليودع فردريكه ، « وحين مددت إليها يدى وأنا على صهوة جوادى ، اغرورقت عيناها بالدموع . وأحسست بضيق شديد . . . وبعد أن نجوت آخر الأمر من انفعال الوداع ، تمالكت نفسى تماماً ومضيت فى رحلة هادئة مطمئنة » . [٣٣] أما تقريع الضمير فجاء بعد ذلك . « لقد انتزعت جريتشن منى ؛ وهجرتنى آنيت ؛ أما الآن فكنت مذنباً لأول مرة . فقد جرحت أحب قلب جرحاً فى الصميم ؛ وكانت فترة الندم الكئيب مع افتقادى ذلك الغرام المنعش الذى كنت قد ألفته — فترة عذاب أليم . . » [٣٤] انه شعور أنانى إلى حد محزن ، ولكن من منا ، فى تجارب الحب وزلاته ، لم يجرح قلباً أو قلبين قبل أن يظفر بقلب ؟ وماتت فردريكه دون أن تتزوج ، فى ٣ أبريل ١٨١٣ .

٢ — جوتز وفرتر

لم يمارس حامل أجازة القانون الجديد مهنة المحاماة فى فرانكفورت إلا كرهاً وكان يزور دارمشتات بين الحين والحين ، وأحس تأثير تمجيدها

للعاطفة فى وجدانه . وجاز الآن فترة من رد الفعل الشديد ضد فرنسا ، وضد الدراما الفرنسية وقواعدها الصارمة ، وحتى ضد فولتير . وراح يسيغ أكثر فأكثر شكسبير الذى عرض على خشبة المسرح طبيعة الإنسان حلالا كانت أو حراماً . فى هذا المزاج ، وفى عنفوان الشباب وحيويته ، كان مهيأ للحركة الزوبعية . فتعاطف مع رفضها للسلطة ، وإعلائها للغريزة فوق العقل ، وللفرد البطل فوق الجماهير الحبيسة فى سجن التقاليد . وهكذا كتب « جوتز فون برليشنجن » فى ١٧٧٢ — ٧٣ .

وكانت انجازاً ممتازاً من فتى فى الثالثة والعشرين : دراماً جمعت بين الحب والحرب والخيانة فى قصة تنبض بالحماسة للحرية ، وتنضح حيوية ، وتشد الانتباه من أولها لآخرها . أما جوتز هذا ففارس أطاح الرصاص بيمناه فى المعركة وهو فى الرابعة والعشرين (١٥٠٤) ؛ فركبت فى ذراعه يد حديدية أعانته على استعمال سيفه قاطعاًبتاراً كما كان من قبل ، وإذ رفض الاعتراف بأى سيد إلا الإمبراطور ، فقد أصبح واحداً من أولئك « البارونات اللصوص » الذين ادعوا باسم الحرية أن لهم مطلق السلطة على أرضهم إلى درجة سلب عابرى السبيل وشن الحروب الخاصة . وفى ١٤٩٥ أصدر الأمبراطور مكسمليان الأول مرسوماً يحرم الحروب الخاصة ، وإلا كان عقاب المذنب مزدوجاً — النفى بأمر الإمبراطور والحرم بأمر الكنيسة . ورفض جوتز ذو اليد الحديدية النفى لأنه يخالف الحقوق المتوارثة ، ودارت التمثيلية أول الأمر حول الصراع بين الفارس المتمرد وأمير بامبرج الأسقف . وإذ كان جوته يحب النساء أكثر كثيراً من حبه للحرب ، فإنه ركز الاهتمام على أوليده فون فالدورف التى إلهب جمالها وثراؤها رجالا كثيرين بالرغبة المشبوبة المستهترة . فى سبيلها نقض أدلبرت فون فايزلنجن ، وهو فارس « حر » آخر ، تحالفه مع جوتز وفسخ خطبته لماريا أخت جوتز ، وانحاز إلى الأسقف . ولعل جوته تذكر — فى حب فايزلنجن المتذبذب — عدم وفائه هو . وأرسل نسخة من التمثيلية إلى فردريكه بيد صديق قائلا « سيسرى عن فردريكة المسكينة بعض الشىء أن ترى العاشق الخائن يموت بالسم » (٣٥) .

وقد حور المؤلف التاريخ ليطوعه لمسرحيته ، فجوتفريد فون برليشنجن لم يبلغ فى نبله وشهامته مبلغ جوتز كما صوره جوته ؛ ولكن تعديلات كهذه تعد من قبيل الجواز الشعرى ، شأنها شأن القوافى المشوهة . كذلك يغتفر لجوته ذلك الحديث الخشن المشهور الذى أجراه على لسان بطله تعبيراً عن الفحولة . وحين أخرجت المسرحية فى برلين (١٧٧٤) أدانها فردريك الأكبر « تقليداً بغيضاً » لتلك « البربرية » التى رآها هو فى شكسبير ، كما رآها فولتير ؛ ثم دعا المسرحيين الألمان أن يلتمسوا نماذجهم فى فرنسا . وقد وافق هردر فردريك أول الأمر ، وقال لجوته « لقد دمرك شكسبير » (٣٦) ، ولكنه بعث بالنسخة المنشورة إلى أصدقائه مشفوعة بالتقريظ العظيم . « أمامكم ساعات من السحر . فهناك قدر غير عادى من القوة والعمق والإخلاص الألمانى الأصيل فى التمثيلية ، وإن كانت بين الحين والحين لا تعدو أن تكون تدريباً ذهنياً » (٣٧) . أما الجيل الأصغر فقد حيا جوته بوصفه أسمى تعبير عن حركة « شتورم » وطاب للقراء الألمان أن يسمعوا أخبار فرسان العصر الوسيط ، ورموز الخلق الألمانى الجبار . ولذ البروتستنت أن يسمعوا أصداء لوثر فى « الأخ مارتن » ، الذى يشكو من أن نذوره الفقر والعفة والطاعة نذور غير طبيعية ، والذى يصف المرأة بأنها « فخر الخليقة وتاجها » ، ويهش للخمر لأنها « تبهج قلب الرجل » ، ويقلب قولا مأثوراً قديماً بقوله أن « البهجة أم الفضائل كلها » (٣٨) . وحتى أبو جوته ، الذى اضطر أن يعاونه فى مهنة المحاماة والذى رأى فيه صورة لتدهور سلالة أبيه ، اعترف بأنه ربما كان فى الغلام خير رغم كل شىء .

وفى مايو ١٧٧٢ كان على المحامى الشاب أن يذهب فى مهمة قضائية إلى فتسلار ، مقر محكمة الاستئناف الامبراطورية . وراح يجول بين الحقول والغابات ومخادع النساء غير مكترث البته بالقانون ، وهو يرسم ويكتب ويستوعب . وفى فتسلار التقى بكارل فلهلم يروزاليم ، الشاعر والمتصوف ، وجيورج كرستيان كستنر ، وهو موثق وصفه جوته بأنه « يتسم بالسلوك الهادىء الرصين ، وبوضوح الرؤية ، . . . وبالنشاط الرزين الذى لا يكل » (٣٩) ،

وبلغ من ثقته بالترقى فى وظيفته أنه كان مرتبطاً بفتاة ليتزوجها . وقد وصف كستنر جوته وصفاً فيه سماحة وكرم :

« هو فى الثالثة والعشرين ، والإبن الوحيد لأب غنى جداً . وقد تقرر — وفقاً لمشيئة أبيه — أن يمارس المحاماة فى المحكمة هنا ، أما مشيئته هو فهى أن يدرس هومر وبندار وأى شىء آخر توحى به عبقريته وذوقة وقلبه . . . والحق أنه صاحب عبقرية أصيلة ، ورجل على خلق . وهو صاحب خيال ذو حيوية خارقة ، ويعبر عن نفسه بالصور والتشبيهات . . . ومشاعره عنيفة ، ولكنه يملكها عادة . وقناعاته نبيله ، وهو برىء تماماً من الهوى ويسلك كما يحب دون أن يعبأ إن كان سلوكه هذا يسر غيره ، أو هو السلوك العصرى ، أو السلوك المباح . وكل ألوان القهر بغيضة فى نظره . وهو يحب الأطفال ، وفى وسعه أن يلاعبهم ساعات بطولها . . . إنه رجل ممتاز تماماً »[٤٠] .

وفى ٩ يونيو ١٧٧٢ التقى جوته بخطيبة كستنر فى حفلة رقص ريفية ، واسمها شارلوته بوف . ثم زارها فى الغد ، ووجد فى الأنوثة فتنة جديدة . أما لوته هذه التى كانت يومها فى العشرين فهى أكبر الأخوات فى أسرة من أحد عشر طفلا . وكانت الأم ميتة والأب مشغولا بكسب قوته ؛ وقامت لوته بدور الأم للأطفال الكثيرين . ولم تؤثر بهجة الفتاة الصحيحة البدن ونضارتها فحسب ، بل زادت عليهما جاذبية المرأة الشابة التى تؤدى فى بساطة وأناقة هندام مهام وظيفتها بكفاءة وحب وبشاشة . وسرعان ما وقع جوته فى غرامها ، فما كان فى استطاعته أن يظل طويلا بغير صورة أنثى تدفىء خياله . ورأى كستنر الموقف ، ولكنه لثقته مما يملك أبدى تسامحاً كريماً . أما جوته فقد سمح تقريباً بمزايا الخطيب المنافس ، ولكن لوته كانت دائماً تصده ، وتذكره بأنها مخطوبة . وأخيراً طلب إليها أن تختار بينهما ، ففعلت ، ورحل جوته عن فتسلار فى الغد (١١ سبتمبر) دون أن تختلج كبرياؤه إلا لحظة . وظل كستنر صديقه الوفى حتى مماته .

وقبل أن يعود جوته إلى فرانكفورت توقف فى ايرنبرايشتاين على الرين ، وهى موطن جيورج وصوفى فون لا روش . وكان لصوفى ابنتان « سرعان

ما جذبتنى بشدة كبراهما مكمسليانه ، وإنه لإحساس لذيذ جداً حين يبدأ غرام جديد فى التحرك داخلنا قبل أن يخمد القديم تماماً . فعند غروب الشمس يود المرء أن يرى القمر يطلع على الجانب المقابل » (٤١) . على أن مكسمليانه تزوجت بيتر برنتانو ، وولدت بنتاً رشيقة اسمها بتينا ، وقعت فى غرام جوته بعد خمسة وثلاثين عاماً . وراض جوته نفسه على حياة فرانكفورت والمحاماة. ولكنه لم يرتض هذه الحياة تماماً ، فقد فكر حيناً فى الانتحار . يقول :

«كنت أملك فيما أملك من مجموعة كبيرة من السلاح خنجراً جميلا جيد الصقل . وكنت أضعه كل ليلة بجوار فراشى ، وقبل أن أطفىء الشمعة جربت إن كان فى استطاعتى أن أفلح فى إغماد السن الحاد بوصتين فى قلبى . فلما لم أوفق فى هذه المحاولة قط ، أقلعت أخيراً عن الفكرة بضحكى من نفسى ، وكففت عن كل أوهامى ووساوسى ، وصممت على أن أعيش .

«ولكى أستطيع هذا العيش فى بشر اضطررت إلى حل مشكلة أدبية ، تتحول فيها كل مشاعرى الماضية . . . إلى ألفاظ . فجمعت لهذا الغرض العناصر التى كانت تعتمل فى سنوات ، واستحضرت فى ذهنى الحالات التى أثرت فى وعذبتى أشد تأثير وعذاب ؛ ولكن شيئاً لم ينته إلى شكل محدد . فقد افتقدت الحدث ، أو الأسطورة ، التى يمكن فيها أن ترى هذه الحالات كلا متكاملا» (٤٢) .

وقدم محام من زملائه فى فتسلار هذا الحدث الذى يدمج هذه العناصر . ففى ٣٠ أكتوبر ١٧٧٢ قتل فلهلم يروزاليم نفسه يأساً من حبه لزوجة صديق له ، بعد أن استعار مسدساً من كستنر . قال جوته وهو يستحضر الحدث « وبمجرد سماعى بنبأ موت يروزاليم . . . . تشكلت خطة « فرتر » فى ذهنى ، وتسابق الكل معاً من جميع الجوانب» (٤٣) . ربما ، ولكنه لم يبدأ تأليف الكتاب إلا بعد خمسة عشر شهراً . وواصل أثناء ذلك مغازلته لمكسمليانه برنتانو — التى كانت قد انتقلت مع زوجها إلى فرانكفورت — بمثابرة وإصرار جعلا الزوج يحتج ، فانسحب جوته .

وشتتت جهده ألوان مختلفة من المشروعات الأدبية المخفقة . فقد داعب

فكرة قص قصة اليهودى التائه من جديد ، وخطط زيارة يقوم بها اليهودى لسبينوزا ، وأن يبين أن الشيطان كما تدل جميع الظواهر منتصر على المسيح فى العالم المسيحى (٤٤) ، ولكنه لم يزد على عشر صفحات فى « اليهودى التائه » . ثم نظم هجائيات فى ياكوبى ، وفيلاند ، وهردر ، ولنتس ، ولا فاتر ، ولكنه وفق رغم ذلك فى كسب صداقتهم . وشارك فى كتاب لا فاتر فى الفراسة ، سمح له بأن يفحص قسمات دماغه ، وكانت النتائج مرضية لغروره . وكان حكم السويسرى « إن هنا ذكاء ، مع حساسية تؤججه . لاحظ الجبين النشيط . . . والعين السريعة النفوذ والفحص والافتتان . . . والأنف ، الذى يكفى فى ذاته إعلاناً عن الشاعر . . مع الذقن الفحل ، والأذن القوية المتسعة — فمن ذا الذى يرتاب فى العبقرية الكامنة فى هذا الدماغ ؟(٤٥) ومن ذا الذى يستطيع تطبيق هذه المقاييس الدماغية ؟ » على أن ياكوبى قال إن هذا ممكن ، لأنه بعد أن زار جوته فى يوليو ١٧٧٣ وصفه فى رسالة إلى فيلاند بأن « عبقرى من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، رجل به مس من الجن ، كتب عليه أن يسلك وفق أوامر الروح الفردى »(٤٦) .

وأخيراً ، فى فبراير ١٧٧٤ ، كتب جوته الكتاب الذى أذاع اسمه فى طول أوربا وعرضها ، « آلام الفتى فرتر » . وكان قد أطال التفكير فيه ، وأطال ترديده فى تأملاته وخياله ، حتى لقد أطلقه الآن كما يقول « فى أربعة أسابيع . . . اعتزلت الناس كلية ، ومنعت زيارة أصحابى »(٤٧). قال لأكرمان بعد خمسين سنة « كان ذلك خلقاً غذوته بدم قلبى كما يفعل طائر البطريق »(٤٨). وقد قتل فرتر ليمنح نفسه السلام .

وكان ملهماً فى إنجاز الكتاب . اشتعمل شكل الرسائل ، محاكاة لقصة رتشردسن « كلاريسا » وقصة روسو « جولى » من جهة ، ومن جهة أخرى لأن هذا الشكل كان ملائماً للإفصاح عن العاطفة وتحليلها ، وربما لأنه فى هذا الشكل استطاع أن يستعمل بعض الرسائل التى كتبها من فتسلار لأخته كورنيليا أو لصديقه ميرك . وصدم شارلوته وكستنر بإطلاقه اسمها الفعلى

« لوته على بطلة حب واضح أنه يصف غرام جوته بعروس كستنر ، وكستنر يقابله فى القصة « البرت» الذى صوره المؤلف فى إطراء . وحتى اللقاء فى المرقص ، وزيارة الغد ، كانا فى القصة كما كانا من قبل فى الواقع . « منذ ذلك اليوم تستطيع الشمس والقمر والنجوم أن تسير سيرتها فى هدوء ، ولكنى لا أعى بنهار ولا بليل ، وكل العالم من حولى يتلاشى . . . لم يعد عندى صلوات أتلوها إلا لها »[٤٩] . على أن فرتر ليس جوته بالضبط : فهو أكثر عاطفية ، وأميل إلى البكاء والكلام المتدفق والرثاء لنفسه . ولكى يقود المؤلف القصة إلى نهايتها الفاجعة ، اقتضاه ذلك أن يغير فرتر من جوته إلى فلهلم يروزاليم . أما اللمسات الأخيرة فهى تحكى تاريخ ما حدث : يستعير فرتر ، كما استعار يروزاليم ، مسدس البرت لينتحر به ، وقصة ليسنج « إميليا جالوتى » ملقاة على مكتبه وهو يموت . « ولم يصحبه كاهن » إلى قبره .

كانت قصة «آلام الفتى فرتر» (١٧٧٤) حدثاً فى تاريخ الأدب وتاريخ ألمانيا . فقد عبرت عن العنصر الرومانسى فى الحركة الزوبعية ودعمته ، كما عبرت قصة « جوتز فون برليشنجن » من قبل عن العنصر البطولى . واستقبلها الشباب المتمرد بالمديح والمحاكاة ، وارتدى بعضهم السترة الزرقاء والصدرة الصفراء البرتقالية كفرتر ، وبكى بعضهم كفرتر ، وانتحر بعضهم باعتبار الانتحار الشيء « العصرى» الوحيد الذى يجب عمله . واحتج كستنر على الولوغ فى أسراره . ولكن لم يلبث ان هدىء ، ولم يقل لنا أحد ان شارلوته شكت حين قال لها جوته « ان اسمك تنطقه آلاف الشفاه المعجبة بكل اجلال »[٥٠]. ولم يشارك رجال الدين الألمان فى هذا الاستحسان . وأدان واعظ همبورجى القصة لأنها دفاع عن الانتحار . اما الراعى جوتسى ، عدو ليسنج ، فقد حمل على الكتاب ، وأدانه ليسنج لعاطفيته المفرطة وافتقاره إلى القصد الكلاسيكى[٥١] . وفى عشاء عام لأم القس ى. ك. هازنكمبف جوته فى مواجهته على « تلك القطعة الشريرة من الكتابة » ، ثم أردف « ليهد الله قلبك الضـــال » ! وأفحمه جوته بجواب

هادىء : « اذكرنى فى صلواتك »[٥٢] . وكان الكتيب أثناء ذلك يكتسح أوربا فى مترجمات عديدة ، منها ثلاثة فى فرنسا خلال سنوات ثلاث ؛ واعترفت الآن فرنسا لأول مرة بأن فى ألمانيا أدباً .

٣ — الملحد الشاب

كان لرجال الدين بعض العذر فى القلق على جوته ، لأنه كان فى هذه المرحلة يجهر بعداء الكنيسة المسيحية . كتب كستنر فى ١٧٧٢ يقول « انه يجل الدين المسيحى ؛ ولكن ليس فى الصورة التى يصوره بها لاهوتيونا . . . انه لا يتردد على الكنيسة ، ولا يتناول القربان ، ونادراً ما يصلى . »[٥٣] وكان جوته يكره على الأخص تأكيد المسيحية على الخطيئة والندم[٥٤] ، ويؤثر أن يأثم دون ندم . كتب إلى هردر (حوالى ١٧٧٤) يقول « ليت تعليم المسيح كله لم يكن هذا الهراء الذى يثير سخطى بصفتى بشراً ، مخلوقاً مسكيناً محدوداً ذا رغبات وحاجات ! »[٥٥] ووضع مخططاً لمسرحية عن بروميثيوس رمزاً للإنسان يتحدى الآلهة ، ولكنه لم يزد على مقدمة صدمت ياكوبى وأبهجت ليسنج . وما بقى منها هو أكثر تفجرات جوته المعادية للدين تطرفاً . يقول بروميثيوس :

غط سماءك يازيوس بالضباب الملبد بالغيوم ،
وإله — كما يلهو طفل يقطع رؤوس الشوك
على شجر البلوط وقمم الجبال !
فأنت لابد تارك أرضى قائمة .
وكوخى ، الذى لم تبنه ،
ومدفأتى التى تحسدنى على توهج نارها .
لست أعرف تحت السماء من هو أفقر منكم أيها الآلهه !
إنكم تغذون جلالتكم بالجهد من الضحايا وصلوات الرغبات .
ولولا حمق الأطفال والمتسولين المتعللين بالآمال
لماتت هذه الجلالة جوعاً .

حين كنت طفلا لا أعرف فى ماذا أفكر ،
كانت عيناى الضالتان تتطلعان إلى الشمس ،
كأن لها أذناً تصيخ السمع إلى شكاتى ،
أو قلباً كقلبى يرق لنفس معناة .
فمن ترى أعانني على غطرسة الطاغية ؟
ومن أنقذنى من الموت ، من العبودية ؟
أليس هو قلبى المقدس المضطرم ،
هو الذى صنع هذا كله وحده ،
ولكنه لحداثته وطيبته ولأنه كان مخدوعاً ،
فهو يرفع الشكر لذلك النائم هناك ؛
أمجدك ؟ لماذا ؟
هل خففت مرة أحزان المثقلين بالهموم ؟
هل كفكفت مرة دموع المعذبين ؟
ألم يفطرنى بشرا ؟
ذلك الزمان الجبار والقدر السرمدى —
سيداى وسيداك . . .
ها أنذا قاعد هنا . أصنع الرجال على شاكلتى ،
سلالة شبيهة بى .
تحزن وتبكى . تفرح وتمرح ،
وتزدريك كما أزدريك .

ثم انتقل جوته ببطء من حضيض الإلحاد المغرور هذا إلى « حلولية » سبينوزا الأكثر تهذيباً . روى لافاتر أن « جوته قال لنا أشياء كثيرة عن سبينوزا ومؤلفاته ... فقد كان رجلا غاية فى الإنصاف والاستقامة والفقر ... وكل الربوبيين المحدثين قد أخذوا آراءهم عنه أولا . . . وأضاف جوته أن رسائله أطرف ما عرف العالم كله عن الاستقامة وحب البشر »[٥٦] ،

وبعد اثنين وأربعين عاماً قال جوته لكارل تسلتر إن أكثر الكتاب تأثيراً فيه هم شكسبير وسبينوزا ولينايوس [٥٧] وفى ٩ يونيو ١٧٨٥ كتب إلى ياكوبى يتسلمه كتابه « فى تعاليم سبينوزا » ، وتكشف مناقشته لتفسير ياكوبى لهذه التعاليم عن دراسة مستفيضة للفيلسوف — القديس اليهودى . كتب يقول « إن سبينوزا لا يبرهن على وجود الله ، انه يبرهن على أن الوجود (حقيقة المادة — العقل) هو الله . فليرمه غيرى لهذا السبب بالإلحاد ، أما أنا فأميل إلى أن أصفه وأثنى عليه رجلاً تقياً جداً ، لا بل مسيحياً جداً ! . . . وأنا آخذ عنه أصح المؤثرات فى تفكيرى وسلوكى » [٥٨] .

وقد علق جوته فى سيرته الذاتية على رده على ياكوبى بقوله : « كنت لحسن الحظ قد أعددت نفسى . . . بعد أن انتحلت إلى حد ما أفكار وعقل رجل خارق للعادة . . . وهذا العقل ، الذى كان قد أثر فى تأثيراً حاسماً جداً ، وكتب له أن يؤثر تأثيراً عميقاً جداً فى أسلوب تفكيرى كله ، هو سبينوزا . ذلك أننى بعد أن بحثت فى العالم عبثاً عن وسيلة لتطوير طبيعتى الغريبة ، وقعت فى النهاية على كتاب « الأخلاق » لهذا الفيلسوف . . . فوجدت فيه مسكناً لعواطفى المشبوبة ، وتفتحت أمامى نظرة واسعة حرة تشرف على العالم الحسى والخلقى . . . ولم تبلغ بى الجرأة قط مبلغ الاعتقاد بأنى فهمت كل الفهم رجلا . . . ارتقى ، بدراساته الرياضية والربانية ، إلى ذرى الفكر ، رجلا يلوح ان اسمه حتى فى يومنا هذا ، يعين الحد الذى تقف عنده كل المحاولات التأملية » [٥٩] .

وقد أضاف مزيداً من الدفء لعقيدته الأسبينوزية فى الحلول (وحدة الوجود) بولعه الشديد بالطبيعة ، ولم يكن هذا الولع ابتهاجاً فحسب بمرأى الحقول النضرة أو الغابات الغامضة أو النباتات والأزهار المتكاثرة فى تنوع غزير ، بل إنه عشق أيضاً حالات الطبيعة الأكثر صرامة ، وأحب أن يشق طريقه خلال الريح أو المطر أو الثلج ، ثم صعوداً إلى قمم الجبال الخطرة . وكان يتحدث عن الطبيعة كأنها أم يرضع من صدرها رحيق الحياة ونكهتها . وقد عبر فى ملحمة من الشعر المنثور سماها « الطبيعة » (١٧٨٠) ، بوجدان

ديني ، عن استسلامه المتواضع للقوى الخلاقة المدمرة التي تكتنف الإنسان ، واندماجه السعيد فيها :

« الطبيعة ! انها تكتنفنا وتحضرنا — ونحن لا نستطيع الخطو خارجها ، ولا التعمق في داخلها . انها تتلقانا ، دون توسل إليها ولا تحذير ، في حلبة رقصها ، ثم ترافقنا في رقص سريع حتى تنهك قوانا ونخر من بين ذراعيها . .

« انها لا تفتأ تخلق الأشكال الجديدة ، فما هو موجود الآن لم يكن موجوداً قط من قبل ، وما فات لن يعود ؛ الكل جديد ، ومع ذلك فهو دائماً القديم .

انها تبدو وكأنها دبرت كل شيء للفردية ، ولكنها لا تعبأ مثقال ذرة بالافراد ، انها بانية أبداً ، هادمة أبداً ، ومصنعها لا سبيل للوصول ليه . . .

انها تملك الفكر ، وهي تتأمل باستمرار ، لا كإنسان ، بل كالطبيعة . أن لها عقلا كلي الشمول خاصاً بها ؛ وما من أحد يستطيع النفوذ إليه . . .

انها تسمح لكل طفل بأن يعبث بها ، ولكل أحمق بأن يحكم عليها ، والآلاف تعثر أقدامهم ولا يرون شيئاً ، ان فرحتها بالكل .

انها رحيمة ، وأنا أثني عليها وعلى كل أعمالها . انها حكيمة هادئة . لا يستطيع المرء أن يستخلص منها أي تفسير ، أو ينتزع منها عطية لا تعطيها بمشيئتها الحرة .

لقد وضعتني هنا ، وسوف تقودني بعيداً . وأنا أوكل إليها نفسي ، ولها أن تفعل بي ما تشاء . فهي لن تكره صنعة يدها »[٦١] .

وفي ديسمبر ١٧٧٤ توقفت الدوق كارل أوبست بفرانكفررت في الطريق بحثاً عن عروس في كارلسروهي . وكان قد قرأ « جوتز فون برليشنجن » وأعجبته ، فدعا مؤلفها للقائه . وذهب جوته ، ووقع من نفس الدوق موقعاً طيباً . وساءل الدوق نفسه ألا يجوز أن يصبح هذا العبقري الوسيم المهذب نجماً ساطعاً في بلاط فايمار . وكان عليه أن يعجل بالرحيل ، ولكنه طلب إلى جوته أن يلتقي به ثانية في رجوعه من كالسروهي .

كان جوته كثير الكلام عن القدر ، قليله جداً عن المصادفة . ولعله لو سئل لأجاب إن القدر — لا المصادفة — هو الذى جاء به إلى الدوق ، وأنه هو الذى صرفه عن حسن للىشوثيان إلى مخاطر فايمار وفرصها المجهولة . أما للى هذه فكانت ابنة تاجر غنى فى فرانكفورت . وقد دعى جوته إلى حفل استقبال فى بيتها بعد أن أصبح الآن سبعاً من سباع المجتمع الراقى . وعزفت للى على البيانو عزفاً رائعاً ، واتكأ جوته على ركن منه وراح يحدق على مهل فى مفاتنها ذات الستة عشر ربيعاً وهى تعزف . « كنت أحس انى أشعر بقوة جذابة غاية فى الرقة . . . ثم ألفنا أن نلتقى . . . وأصبحنا الآن ولا غنى للواحد عن صاحبه . . . وملكنى شوق لاسبيل إلى مقاومته »(٦١). فما أسرع ما ترتفع هذه الحمى الشهيرة ، التى فجرتها حساسية شاعر . قبل أن يدرك معنى ما فعل ، كان قد خطبها رسمياً (ابريل ١٧٧٥) . أما للى التى ظنت أنها اقتنصته وأمنته ، فراحت تعابث غيره . وشهد جوته ذلك فغلت مراجل غيظه .

فى هذه الفترة بالضبط مر صديقان هما الكونت كرستيان والكونت فريدريش تسو شتولبرج بفرانكفورت فى طريقهما إلى سويسرة . واقترحا على جوته أن ينضم إليهما . وحثه أبوه على الذهاب ومواصلة الرحلة إلى إيطاليا . « وانفصلت عن للى بعد أن أفضت إليه ببعض السر ولكن دون أن استأذن قبل الرحيل »(٦٢) .

وقد بدأ الرحلة فى مايو ١٧٧٥ ، والتقى بالدوق ثانية فى كارلسروهى ، فدعاه بصفة نهائية إلى فايمار . ومضى إلى زيورخ ، حيث التقى بلافاتير وبودمير . وتسلق سانت جوتهارد وتطلع باشتياق إلى إيطاليا ، ثم تسلطت على خياله من جديد صورة للى ، فترك أصحابه ويمم شطر وطنه ، وفى سبتمبر كانت للى بين زراعيه . ولكنه ما أن خلا إلى نفسه فى حجرة حتى عاوده خوفه القديم من الزواج سجناً وركوداً . وأنكرت للى تردده ، فاتفقا على فسخ خطبتهما ، وفى ١٧٧٦ تزوجت برنهارت فون توركهايم .

أما الدوق الذى ألم بفرانكفورت فى طريق عودته من كارلسروهى

فقد عرض على جوته أن يرسل إليه عربة تقله إلى فايمار . ووافق جوته ، ودبر أمره ، وانتظر اليوم الموعود . ولكن العربة لم تأت . أفكان ذلك عبثاً وخديعة ؟ وبعد أن قضى أياماً من التلبث المغيظ انطلق فى رحلته إلى إيطاليا . ولكن العربة الموعودة لحقته فى هيدلبرج ، وقدم مبعوث الدوق التفسيرات والاعتذارات ، فقبلها جوته . وفى ٧ نوفمبر ١٧٧٥ وصل إلى فايمار ، وكان يومها فى السادسة والعشرين ، ممزقاً كعادته دائماً بين إله الغرام والقدر ، تهفو نفسه إلى النساء ولكنه مصمم على أن يصير إنساناً عظيماً .

٤ — هردر ١٧٤٤ — ١٧٧٦

لم يمض شهر على وصول جوته إلى فايمار حتى أنهى إلى الدوق اقتراحاً مشفوعاً بموافقته الحارة ، هو اقتراح فيلاند بأن تعرض على يوهان جوتفريد هردر وظيفة المشرف العام على اكليروس الدوقية ومدارسها . ووافق الدوق . أما هردر فقد ولد بمورنجن فى بروسيا الشرقية (٢٥ أغسطس ١٧٤٤) ؛ فهو من حيث الجغرافيا وضباب البلطيق قريب إمانويل كانط . وكان أبوه معلماً فقيراً وقائد فرقة ترتيل تقوى النزعة . وهكذا كان للصبى أوفر نصيب من الشدائد . فمنذ كان فى الخامسة كان يشكو ناسورا فى عينه اليمنى . واضطرته ضرورة المشاركة بعد قليل فى موارد الأسرة إلى ترك المدرسة والاشتغال سكرتيراً وخادماً لسبستيان تريشو ، الذى كان يكسب رزقاً طيباً بتأليف كتيبات فى التقوى . وكان لديه مكتبة استوعبها يوهان . فلما بلغ الثامنة عشرة أرسل إلى كونجزبرج لإزالة الناسور ولدراسة الطب فى الجامعة . على أن الجراحة أخفقت ، وقلبت فصول التشريح معدة الشاب فانصرف عن الطب إلى اللاهوت .

وتصادق مع هامان الذى كان يعلمه الانجليزية مستعملا هاملت نصاً ، وحفظ هردر المسرحية كلها تقريباً عن ظهر قلب . واختلف إلى محاضرات كانط فى الجغرافيا والفلك وفلسفة فولف . وبلغ من حب كانط له أنه أعفاه من الرسم الذى يحصل من الطلبة نظير حضورهم المحاضرات . وكسب هردر قوته بالترجمة وتدريس التلاميذ الخصوصيين ، ثم قام بالتدريس فى مدرسة

الكتدرائية بمدينة ريجا من سن العشرين إلى الخامسة والعشرين . وحين بلغ الحادية والعشرين رسم قسيساً لوثريا ، وفى الثانية والعشرين أصبح ماسونيا (٦٣) ، وفى الثالثة والعشرين عين مساعداً للراعى فى كنيستين قرب ريجا . ودخل عالم النشر فى الثانية والعشرين بكتاب فى الأدب الألمانى الحديث ، ثم أضاف إليه جزءاً ثانياً وثالثاً بعد عام . وراعت ثقافة المؤلف الشاب كانط وليسنج ونيقولاى ولا فاتر — وامتدحوا دعوته إلى أدب قومى متحرر من الوصاية الأجنبية .

واستبق هردر الموضة « الفرترية » بوقوعه فى غرام يائس بامرأة متزوجة . واشتدت معاناته من الاكتئاب والغم فى بدنه وعقله ، فمنحه رؤساؤه أجازة ينقطع فيها عن عمله ، ووعدوه بأن يوظفوه من جديد براتب أعلى عند عودته . واقترض مالا ، ثم غادر ريجا (٢٣ مايو ١٧٦٩) ولم يرها ثانية قط . وركب البحر إلى نانت ، وأقام فيها أربعة أشهر ، ثم مضى إلى باريس والتقى بديدرو ود الامبير ، ولكن أحداً لم يستطع اقناعه بالانحياز إلى التنوير الفرنسى .

وذلك أن ميله الفطرى كان جمالياً (استطيقيا) أكثر منه عقلياً . ففى باريس بدأ بجمع الشعر البدائى ، ووجد فيه متعة تفوق ما فى أدب فرنسا الكلاسيكى . وقرأ كتاب مكفرس : « أوسيان » فى ترجمة ألمانية ، وحكم بأن هذه التقليدات البارعة أروع من معظم الشعر الانجليزى الحديث بعد شكسبير . ثم بدأ فى ١٧٦٩ مقالات فى النقد الفنى والأدبى أطلق عليها اسم (الغياض) ، ونشر ثلاثة مجلدات منها فى حياته بعنوان (غابات من النقد) . وفى فبراير ١٧٧٠ أنفق أربعة عشر يوماً فى اتصال مثمر مع ليسنج فى همبورج . ثم صاحب أمير هولشتين — جوتورب معلماً ورفيقاً . وجاب معه ألمانيا الغربية . وفى كاسل التقى برودلف راسبى ، أستاذ الآثار والمؤلف القادم لكتاب « قصة البارون مونتشاوزن عن أسفاره وحملاته العجيبة فى روسيا » (١٧٨٥) . وكان راسبى قد استرعى اهتمام ألمانيا بكتاب توماس برسى « مخلفات من الشعر الانجليزى القديم » سنة ظهوره (١٧٦٥) .

وتقوى هردر فى إيمانه بأن واجب الشعراء أن يهجروا الدعوة الفنكلمانية اللسنجية لتقليد الكلاسيكيات اليونانية ، وأنه أخلق بهم أن يتشبثوا بالمنابع الشعبية لتقليد أمتهم فى الشعر الفولكلورى والتاريخ القصصى الغنائى .

وانتقل هردر مع الأمير إلى دارمشتات ، فالتقى بجماعة « الحساسين » فيها . وراقه إعلاؤهم شأن العاطفة ، وخص بالتقدير عواطف كارولينية فلاخسلاند ، الأخت اليتيمة لزوجة عضو المجلس الخاص اندرياس فون هسى ، ودعى هردر للوعظ فى كنيسة محلية ، فسمعته ، وتأثرت بوعظه ، وتمشيا معاً فى الغابات ، وتلامست أيديهما فانعطف قلبه ، وعرض عليها الزواج ولكنها نبهته إلى أنها تعيش على صدقة أختها ، وأنها لن تستطيع أن تدفع له مهراً ، ورد هو بأنه مثقل بالدين ، وأن المستقبل أمامه غامض جداً ، وأنه ملتزم بمرافقة الأمير . وتعاهداً بألا تكون خطبة رسمية ، ولكنهما اتفقا على تبادل الحب بالرسائل . ثم رحلت جماعته إلى مانهايم فى ٢٧ أبريل ١٧٧٠ .

فلما وصلوا إلى ستراسبورج ترك هردر الأمير رغم شوقه لرؤية إيطاليا . ذلك أن الناسور الذى فى غدته الدمعية سد القناة الدمعية الموصلة إلى المنخر فأصابه بألم لا يهدأ . ووعده الدكتور لوبشتين أستاذ أمراض النساء فى الجامعة بأن الجراحة ستزيل الانسداد فى ثلاثة أسابيع . واستسلم هردر ، دون مخدر ، للثقب المتكرر لقناة خلال العظم إلى ممر الأنف . ولكن الجرح بدأ يتلوث ، وظل هردر ستة أشهر تقريباً حبيس حجرته فى الفندق وقد فت فى عضده فشل الجراحة ، وران عليه اكتئاب بسبب شكوكه فى مستقبله . فى هذه الحالة النفسية من المعاناة والتشاؤم ، التقى بجوته (٤سبتمبر ١٧٧٠) . ويذكر جوته هذه الفترة فيقول « أتيح لى أن أحضر الجراحة وأن أكون نافعاً فى نواحى كثيرة »[٦٤]. وقد ألهمه رأى هردر القائل بأن الشعر ينبثق غريزياً فى الشعب ، لا من « بضعة رجال مهذبين مثقفين »[٦٥]. وحين رحل هردر وقد نفد ما معه من مال ، « اقترض جوته مبلغاً من أجله » رده هردر فيما بعد .

ثم قبل على مضض دعوة من الكونت فلهلم تسوليبي ، حاكم إمارة شاومبورج — ليبي الصغيرة في شمال غربي ألمانيا ، ليعمل واعظاً لبلاطه ورئيساً للمجلس الكنسي في عاصمته المتواضعة بوكيبورج . وفي أبريل ١٧٧١ غادر هردر استراسبورج ، وزار كارولينه في دارمشتات وجوته في فرانكفورت ، ووصل إلى بوكيبورج في الثامن والعشرين . فوجد الكونت حاكماً « مستبداً مستنيراً » من طراز إداري صارم ، أما المدينة فكانت قروية في كل شيء إلا الموسيقى ، التي كان يحسن تزويدها بها يوهان كريستوف فريدريش باخ ، وراض هردر نفسه على الانفصال عن التيار الرئيسي للفكر الألماني ، ولكن الكتب التي أصدرها في مكانه الصغير أثرت تأثيراً قوياً في ذلك التيار ، وأسهمت في تشكيل الأفكار الأدبية للحركة الرومنسية . وقد أكد للكتاب الألمان أنهم إن التمسوا الإلهام في جذور الأمة وحياة الشعب فسوف يأتي الوقت الذي يبزون فيه الفرنسيين في كل ما حققوه . وقد تحققت هذه النبوءة في الفلسفة والعلم .

وقد ظفر بحثه في أصل اللغة (١٧٧٢) بالجائزة التي قدمتها أكاديمية برلين عام ١٧٧٠ . ومع أن هردر كان يجهر بتدينه مخلصاً ، إلا أنه رفض الفكرة التي تزعم أن اللغة من صنع الله وحده ؛ وقال إنها من صنع البشر ، وأنها نتجت طبيعياً من عمليات الإحساس والتفكير . وألمع إلى أن اللغة والشعر كانا واحداً باعتبارهما تعبيرين عن الانفعال ، وأن الأفعال ، المعبرة عن الفعل ، كانت أول أقسام الكلام » . وفي مجلد آخر سماه « فلسفة أخرى مضافة إلى فلسفات التاريخ » (١٧٧٤) عرض التاريخ على أنه « الفلسفة الطبيعية للأحداث المتعاقبة » فكل حضارة هي وجود بيولوجي له مولده وشبابه ونضجه وانحلاله وموته ؛ ويجب أن تدرس من وجهة نظر عصرها ، دون تحيزات مبنية على بيئة وعصر آخرين . وقد أعجب هردر إعجاب الرومانتيكيين عموماً بالعصور الوسطى لأنها زمان الخيال والوجدان ، والشعر والفن الشعبيين ، والبساطة والسلام الريفيين ؛ وعلى نقيض ذلك كانت أوربا بعد النهضة عبارة عن عبادة للدولة ، وللمال ، وللترف الحضري ، وللتكلف والافتعال ، وللرذيلة . وانتقد التنوير لأنه عبادة لوثن العقل ، وقارن بينه وبين ثقافات

اليونان والرومان مقارنة لا تخدم التنوير . ولقد أبصر هردر يد الله كما أبصرها بوسويه فى العملية التاريخية كلها ، ولكن الواعظ المفوه كان أحياناً ينسى لاهوته ، ويرى أن « التغيير العام للعالم كان يقوده الإنسان أقل كثيراً مما يقوده قدر أعمى »(٦٦) .

وحمله شعوره بالوحدة إلى أن يطلب إلى كارولينه وزوج أختها أن يأذنا له بالحضور والزواج منها رغم ضآلة دخله . فوافقا ، وزف الحبيبان فى دارمشتات فى ٢ مايو ١٧٧٣ . ثم عادا إلى بوكيبورج ، واقترض هردر بعض المال ليجعل دار القسيس بيتاً مبهجاً لزوجته . وقد بذلت له زوجته الخدمة والحب الخالص مدى الحياة . وبفضل وساطتها انقشع الفتور الذى ران من قبل على المودة بين هردر وجوته ، وحين وجد جوته نفسه فى موقف يسمح له بتزكية الراعى لوظيفة أسخى عطاء ، أسعده أن يفعل ذلك . وفى أول أكتوبر ١٧٧٦ وصل هردر وكارولينه إلى فايمار ، وانتقلا إلى البيت الذى أعده لهما جوته . ولم يبق الآن سوى عضو واحد ليكتمل عقد الرباعى الذى سيضع شهرة فايمار .

٥ — شيلر فى سنى تطويفه ١٧٥٩ — ١٧٨٧

ولد يوهان كريستوف فريدريش شيلر فى ١٠ نوفمبر ١٧٥٩ بمدينة مارباخ فى فورتمبرج . وكانت أمه ابنة صاحب فندق الأسد ، وأبوه جراحاً — ثم ضابط برتبة الكابتن -- فى جيش الدوق كارل أويجين ؛ وكان يتنقل مع فوجه ، ولكن زوجه أقامت أكثر الوقت فى لورش أولود فجزبرج . وفى هاتين المدينتين تلقى فريدريش تعليمه . وقد نذره أبواه للقسوسية ، ولكن الدوق اقنعهما بأن يبعثا به وهو فى الرابعة عشرة إلى كارلسشولى (مدرسة كارل) فى لود فجزبرج (ثم فى شتوتجارت) ، حيث يعد أبناء الضباط لمهنة المحاماة أو الطب أو الجندية . وكان نظام المدرسة نظاماً عسكرياً صارماً ، والدراسات مجافية لطبيعة غلام فيه حساسية مرهفة تقرب من حساسية الفتيات . وكان رد فعل شيلر أن تشرب كل ما وجد إليه سبيلا من

الأفكار الثورية ، ثم صبها (١٧٧٠ — ١٧٨٩) فى مسرحية « اللصوص » التى فاقت جوتز فون برليشنجن تعبيراً عن الحركة الزوبعية .

وفى ١٧٨٠ تخرج شيلر فى الطب ، وأصبح جراحاً لفوج فى شتوتجارت. وكان راتبه ضئيلا ، وسكن حجرة واحدة مع الملازم كايف . وكانا يجهزان طعامهما وأكثره من السجق والبطاطس والخس ، ثم النبيذ فى المناسبات السارة . وقد شق على نفسه ليكون رجلا له كل حس الجندى بالمعركة والجعة والمواخير ، وزار المومسات اللاتى يختلفن إلى المعسكر(٦٧) ؛ ولكنه لم يكن يسيغ الابتذال والسوقية ، فالنساء فى نظرته المثالية أسرار غامضة مقدسة يجب أن يدنو منها الرجل فى إجلال ورعدة . وكانت صاحبة الدار واسمها لويزة فيشر أرملة فى الثلاثين ، ولكنها إذا عزفت على الهاربسيكورد « فارقت روحى جسدى الترابى الفانى »(٦٨) ، وتمنى لو « اننى التصقت إلى الأبد بشفتيك » . . . لا تشرب أنفاسك »(٦٩) . وهى طريقة مبتكرة فى الانتحار .

وحاول عبثاً أن يجد ناشراً لمسرحية « اللصوص » ، فلما أن أخفق ، وفر واقترض ثم طبعها على نفقته (١٧٨١) . وقد أدهش نجاحها الناس حتى مؤلفها ذا الإثنين والعشرين ربيعاً . وفى رأى كارليل أنها بدأت « عصراً فى الأدب العالمى »(٧٠) ، ولكن ألمانيا الوقور صدمها أن المسرحية لم تترك ناحية من نواحى الحضارة الراهنة إلا أدانتها . وذكرت المقدمة التى صدر بها شيلر تمثيلته أن نهايتها تبين عظمة الضمير وأذى التمرد .

وخلاصة التمثيلية أن كارل مور ، وهو الإبن البكر للكونت المسن مكسمليان فون مور ، يخصه أبوه بحبه لما اتسم به من مثالية وسماحة خلق ؛ ومن ثم يحسده ويبغضه أخوه فرانتز . ويرحل كارل ويدخل جامعة ليبزج ، ويتشرب مشاعر التمرد التى تضطرب بها صدور شباب أوربا الغربية . فلما الح الدائنون فى مطالبته بالدين ، راح يندد بعباد المال القساة الذين «يلعنون الصدوقى الذى يقصر فى الحضور إلى الكنيسة بانتظام ، ومع أن تقواهم لا تخرج عن عد مكاسبهم ، المجلوبة بالربا ، على مذبح الكنيسة ذاته »(٧١) .

ثم يفقد كل إيمان بالنظام الاجتماعى القائم ، وينضم إلى عصابة من اللصوص ، ويصبح زعيماً لها ، ويقسم يمين الولاء لها حتى الموت ، ثم يهدىء ضميره بلعب دور روبن هود . ويصفه أحد أفراد العصابة بهذه العبارات :

« انه لايقتل كما نقتل طمعاً فى شىء يسلبه ، أما المال . . . فيبدو أنه لايعبأ به مثقال ذرة ، فثلث الغنيمة الذى هو حق خالص له يعطيه لليتامى ، أو ليعين به شباب الكلية المبشرين بمستقبل مرموق . أما إذا وقع فى براثنه عين من أعيان الريف الذين يسومون فلاحيهم سوء العذاب كأنهم الأنعام ، أو وغد يرفل فى فاخر الثياب ممن يعوجون القضاء ليخدم مآربهم . . . أو أى رجل من هذا النوع — عندها يا بنى يتجلى على فطرته ثائراً هادراً كأنه شيطان رجيم »[٧٢] .

ويندد كارل برجال الدين لأنهم يتملقون السلطان ويعبدون صنم المال سراً ، « وخيرهم لايتردد فى أن يخون الثالوث الأقدس كله فى سبيل عشرة شواقل »[٧٣] .

ويدبر فرانتس فى غضون هذا ابلاغ الكونت فى رسالة كاذبة أن كارل مات . ويصبح فرانتس الوريث لثروة أبيه ، ويتقدم لخطبة أميليا التى تحب كارل حياً أو ميتاً . ويدس فرانتس السم لأبيه ، ويهدىء وخز ضميره بالإلحاد : « لم يثبت بعد أن فوق هذه الأرض عيناً ترقب كل ما يجرى عليها . . . ليس هناك إله »[٧٤] . ويسمع كارل بجرائم أخيه ، فيقود عصابته إلى قلعة الأب ويضرب حصاراً على فرانتس ، فيتضرع هذا إلى الله مستميتاً فى التماس العون ، فإذا لم يصله عون قتل نفسه . وتقدم أميليا نفسها لكارل شريطة أن يقلع عن حياة اللصوصية ؛ وهو تواق إلى هذا ، غير أن أتباعه يذكرونه بتعهده البقاء معهم حتى الموت . فيحترم تعهده ، وينصرف عن أميليا ؛ ولكنها تتوسل إليه أن يقتلها ، فيستجيب لها ، وبعد أن يرتب أن ينال عامل فقير المكافأة المرصودة للقبض عليه ، يستسلم للقانون وللمشنقة .

وهذا كله بالطبع هراء . فالشخوص والأحداث يستحيل تصديقها ،

والأسلوب منمق طنان ، والخطب لاتطاق ، والفكرة عن المرأة مثالية على نحو رومانسي . ولكنه هراء قوى . ذلك أن فينا كلنا تقريباً تعاطفاً خفياً مع أولئك الذين يتحدون القانون ؛ فنحن أيضاً نحس أنفسنا أحياناً وقد ضيقت علينا الخناق وأرهقتنا آلاف القوانين والأوامر التى تكبلنا أوتغرمنا وقد طال اعتيادنا على المنافع التى وهبنا إياها القانون حتى أننا لنأخذها قضايا مسلمة ؛ ونحن لا نشعر بتعاطف طبيعى مع الشرطة حتى نقع ضحية من ضحايا التمرد على القانون . ومن ثم وجدت التمثيلية المطبوعة قراء متحمسين واستحساناً حاراً ، ولم تمنع شكاوى الوعاظ والمشرعين ، الذين زعموا أن شيلر مجد الجريمة ، أحد النقاد من أن يحييه لأنه يعد بأن يصبح شكسبيراً « ألمانيا »[٧٥] ، ولا منعت المخرجين من أن يقترحوا إخراج المسرحية .

وعرض البارون فولفجانج هريبرت فون دالبرج أن يقدمها على المسرح القومى بمانهايم إذا وضع لها شيلر نهاية أسعد . ففعل : واقتضى التعديل أن يتزوج مور أميليا بدلا من أن يقتلها . وتسلل شيلر من شتوتجارت دون أن يستأذن الدوق كارل أو بجين قائده الحربى ليحضر العرض الأول للمسرحية فى ١٣ يناير ١٧٨٢ . وأقبل الناس من فورمز ودارمشتات وفرانكفورت وغيرها من المدن ليشهدوا التمثيل.ولعب أوجست افلاند دور كارل ، وكان من ألمع ممثلى الجيل ؛ وأبدى النظارة استحسانهم بالصياح والتشيج ، ولم تلق مسرحية ألمانية أخرى من قبل مثل هذا الاحتفاء[٧٦] ، وكانت قمة فى الحركة الزوبعية . وبعد المسرحية كرم الممثلون شيلر وتودد إليه ناشر من مانهايم ، وشق عليه أن يعود إلى شتوتجارت ويستأنف حياته جراحاً للفوج . وفى شهر مايو تسلل ثانية إلى ما نهايم لشهد عرضاً آخر لمسرحية « اللصوص » ، وليناقش مع دالبرج الخطط لمسرحية ثانية . فلما أن عاد ثانية إلى فوجه ، وبخه الدوق وحظر عليه تأليف المزيد من التمثيليات .

ولم يقو على تقبل هذا الحظر . ففى ٢٢ سبتمبر ١٧٨٢ هرب إلى مانهايم فى صحبة صديق يدعى أندرياس سترايشر . وهناك قدم لدالبرج تمثيلية جديدة سماها « مؤامرة فييسكو فى جنوه » . وقرأها على الممثلين ،

فحكموا بأنها هابطة هبوطاً مؤسفاً عن مستوى « اللصوص » ، وقال والبرج أنه قد يخرج المسرحية إذا راجعها شيلر ؛ فعكف شيلر أسابيع على هذه المهمة ، ولكن دالبرج رفض حصيلة هذا الجهد . ووجد شيلر نفسه لا يملك فلساً . وأنفق ستر ايشر على إعاشته النقود التي ادخرها ليدرس الموسيقى في همبورج . فلما نفدت ، رحب شيلر بدعوة للإقامة في باورباخ في كوخ تملكه السيدة هنرييتا فون فولتسوجن . وهناك كتب تمثيلية ثالثة سماها « الدسيسه والحب » . ووقع في غرام الآنسة لوته فون فولتسوجن البالغة من العمر ستة عشر ربيعاً . ولكنها آثرت عليه منافساً في حبها . وظفرت « فييسكو » التي نشرت في غضون هذا بتوزيع جيد . وندم دالبرج ، وأرسل إلى شيلر دعوة ليكون كاتب التمثيليات المقيم لمسرح مانهايم براتب قدره ثلاثمائة فلورن في العام . فوافق (يوليو ١٧٨٣) .

ونعم شيلر بعام من السعادة القلقة رغم كثرة ديونه التي عجز عن سدادها ورغم ماأ صيب به مرة من مرض خطير . وعرضت فييسكو على المسرح أول مرة في ١١ يناير ١٧٨٤ ، وقد أفسدها ما أصر عليه دالبرج من نهاية سعيده سعادة لا يمكن تصديقها ، ولم تثر المسرحية أى حماسة من النظارة . بيد أن « الدسيسة والحب « كانت أفضل بناء ، وأقل خطباً ، وأظهرت حساً متزايداً بالمسرح ؛ وقد رأى فيها البعض ، من وجهة النظر المسرحية ، أفضل المآسى الألمانية قاطبة[٧٧] . وبعد أن فرغ الممثلون من العرض الأول (١٥ أبريل ١٧٨٤) ضج النظارة بتصفيق صاخب حمل شيلر على أن يقوم من مقعده في إحدى المقصورات وينحني للجمهور .

كانت سعادته مفرطة قصيرة الأجل . ذلك أنه لم يكن بطبيعته صالحاً للتعامل مع الممثلين ، الذين كانوا على شاكلته تقريباً في عصبيتهم ؛ فقد قسا في الحكم على آدائهم ، ولامهم على عدم حفظ أدوارهم حفظاً دقيقاً[٧٨] . ولم يستطع أن يكمل تمثيلية ثالثة سماها « دون كارلوس » في الزمن المشروط . فلما أن قارب عقده « كاتباً للمسرح » الانتهاء في سبتمبر ١٧٨٤ رفض دالبرج تجديده . ولم يكن شيلر قد ادخر شيئاً ، فعاد من جديد يواجه الإملاق والدائنين الذين فرغ صبرهم .

فى هذه الفترة أو نحوها نشر بعض « الرسائل الفلسفية » التى تدل على أن الشكوك الدينية قد أضيفت إلى مشكلاته الاقتصادية . فهو لم يستطع تقبل اللاهوت القديم ، ومع ذلك اشمأزت روحه الشاعرة من الإلحاد المادى ، كذلك الذى عبر عنه دولباخ فى كتابه « مذهب الطبيعة » (١٧٧٠) . ولم يعد قادراً الآن على أن يصلى ، ولكنه كان يحسد القادرين على الصلاة ؛ وقد وصف فى إحساس بالخسارة الفادحة ذلك العزاء الذى يهبه الدين لآلاف النفوس فى ظروف الألم والحزن والاحتضار [٧٩] . على أنه احتفظ بإيمانه بحرية الإرادة ، وبالخلود ، وبإله مجهول ، بانياً هذا كله ، كما بناه كانط ، على الوجدان الأخلاقى . وقد أعرب فى عبارة لاتنسى عن مبدأ المسيح الأخلاقى « حين أبغض أنتزع شيئاً من نفسى ، أما حين أحب فإننى أزيد ثراء بما أحب . والصفح معناه أن أتلقى ثروة فقدت . وكراهة البشر إنما هى انتحار بطىء »[٨٠] .

وسط هذه الظروف المعقدة جمل كرستيان جوتفريد كورنر حياة شيلر بصداقة من أروع الصداقات فى تاريخ الأدب . ففى يونيو ١٧٨٤ أرسل إلى شيلر من ليبزج رسالة تنم على الإعجاب الحار ، مشفوعة بصور له ، ولخطيبته منا شتوك ، وأختها دوراً ، وخطيب دوراً لودفج هوبر ، ومحفظة جيب طرزتها منا . أما كورنر هذا فقد ولد فى ١٧٥٦ (قبل مولد شيلر بثلاثة أعوام) لراعى كنيسة القديس توماس التى قاد فيها باخ قبل جيل الكثير من الموسيقى الخالدة . وقد نال الشاب أجازته فى القانون وهو فى الحادية والعشرين ، وكان الآن مستشاراً لمجلس الكنيسة الأعلى فى درسدن . وأخر شيلر رده حتى ٧ ديسمبر ، إذ كان مرهقاً بمتاعبه وهمومه . ورد عليه كورنر يقول « نحن نقدم لك صداقتنا دون تحفظ ، فاحضر إلينا بأسرع ما تستطيع »[٨١] .

وتردد شيلر . وكان قد كون صداقات فى مانهايم ، ووقع فى غرام العديدات ، لا سيما (١٧٨٤) شارلوته فون كالب ، التى تزوجت قبل

ذلك بعام واحد . وفى دارمشتات ، فى ديسمبر ١٧٨٤ ، التقى بالدوق كارل أوجست أمير ساكسى — فايمار ، وقرأ عليه الفصل الأول من « دون كارلوس » ، ونال لقب Rat أو المستشار الفخرى ، ولكن لم يصله أى عرض بمكان فى سماء فايمار . ومن ثم فقد قرر أن يقبل دعوة كرونر لليبزج . وعليه ، ففى ١٠ فبراير ١٧٨٥ أرسل إلى المعجب الذى لم يعرفه بعد نداء عاطفياً يظهره قريباً من نقطة الانهيار .

« فى الوقت الذى يهرع فيه نصف سكان مانهايم إلى المسرح . . . أطير إليكم أيها الأصدقاء الأعزاء . . . فمنذ أن تلقيت خطابكم الأخير لم تبرحنى قط الفكرة بأننا مخلوقون بعضنا لبعض ، لا تسيئوا الظن بصداقتى إذ تبدو متعجلة بعض الشىء . فالطبيعة تطرح الكلفة فى رضاها عن بعض الكائنات . والنفوس النبيلة ترتبط بخيط رقيق كثيراً ما يتبين أنه طويل البقاء .

« فإذا ما التمستم العذر لرجل تدفىء قلبه أفكار عظيمة ولكنه لم ينجز غير أفعال صغيرة ؛ رجل لايستطيع إلى الآن إلا أن يحدس من حماقاته أن الطبيعة رصدته لشىء ما ، ويطالب بالحب الذى لاحدود له ، وهو مع ذلك يجهل ما فى وسعه أن يقدمه رداً على هذا الحب ؛ ولكنه رجل يستطيع أن يحب شيئاً ما يتجاوز شخصه ، ولا يعذبه شىء كرؤيته نفسه بعيداً كل البعد من أن يكون ما يشتهى أن يكونه ؛ أقول إذا تطلع رجل هذه طبيعته إلى صداقتكم فإن صداقتنا ستكون أبدية ، لأننى أنا ذلك الرجل . فلعلكم ستحبون شيلر ، حتى إن كان تقديركم للشاعر قد تضاءل » .

وقد توقف عن إكمال هذا الخطاب ، ولكنه استأنفه فى ٢٢ فبراير :

« لاأستطيع المقام بعد اليوم فى مانهايم . . . فلا بد لى من زيارة ليبزج والتعرف إليكم . إن نفسى متعطشة لغذاء جديد — لناس أفضل — للصداقة ، والمودة ، والمحبة . لا بد أن أكون قريباً منكم ، وبفضل حديثكم وصحبتكم ستنتعش روحى الجريحة . . . يجب أن تهبونى حياة جديدة ، وسأصبح خيراً مما كنت فى أى وقت مضى . سأكون سعيداً — إننى لم أنعم بالسعادة قط إلى الآن . . أتراكم ترحبون بمقدمى ؟ » [٨٢] .

ورد كورنر فى ٣ مارس يقول « سنستقبلك بأذرع مفتوحة » ثم نقد ج. ى. جوشن الناشر الليبزجى بعض المال ليرسل إلى شيلر مقدم أتعابه عن مقالات مستقبله [٨٣] . فلما أن وصل الشاعر إلى ليبزج (١٧ مارس ١٧٨٥ كان كورنر غائباً فى درسدن ، ولكن خطيبته ، وأختها ، وهوبر ، ادفأوا شيلر بالطعام والحفاوة البالغة . وأحبه جوشن لتوه ، وكتب يقول « لاأستطيع أن أصف لك مبلغ عرفان شيلر واستجابته حين تبذل له النصيحة الناقده ، ومبلغ جهاده فى سبيل تطوره الخلقى » [٨٤] .

والتقى كورنر بشيلر أول مرة فى ليبزج فى أول يوليو ، ثم قفل إلى درسدن . وكتب إليه شيلر يقول « لقد جمعت السماء بيننا بطريقة عجيبة ، وصداقتنا معجزة . » ولكنه أردف أنه أشرف على الإفلاس من جديد [٨٥] . فبعث إليه كورنر بالمال ، والطمأنينة ، والنصيحة :

« إن كنت فى حاجة إلى المزيد فاكتب لى وسأرسل لك أى مبلغ برجوع البريد . أننى لو كنت ذا ثراء طائل ، وكان فى استطاعتى . . . أن أرفعك فوق العوز والحاجة لضروريات الحياة فى يوم من الأيام ، لما جرؤت على أن أفعل هذا ، فأنا عليم بأنك قادر على كسب ما يفى بكل حاجاتك بمجرد أن تشرع فى العمل . ولكن اسمح لى — على الأقل سنة واحدة — بأن أعفيك من ضرورة العمل . فنى استطاعتى أن أدبر هذا دون إعسار ، وفى استطاعتك أن ترد لى المال إن شئت حين تسمح بذلك ظروفك » [٨٦] .

وزاد من قدر هذا الجود أن كورنر كان يجهز نفسه للزواج . وزف العروسان بدرسدن فى ٧ أغسطس ١٧٨٥ . وفى سبتمبر لحق بهما شيلر وعاش معهما ، أو على حسابهما ، حتى ٢٠ يوليو ١٧٨٧ . فى هذه الفترة أو نحوها — ربما وسط سعادة العروسين — كتب أشهر قصائده « أغنية للفرح » التى أصبحت تاج السمفونية التاسعة. وكلنا يعرف ميلودية بيتهوفن المؤثرة، ولكن القليلين منا ، خارج ألمانيا ، من يعرفون كلمات شيلر . وقد بدأت بنداء للمحبة الشاملة ، وانتهت بدعوة للثورة :

أيتها الفرحة المنبثقة من لهب سماوى
يا ابنة الفردوس ،
إننا نقبل إلى هيكلك
ملتهبين بتلك النار المقدسة .
أنت صاحبة التعاويذ التى وحدت
من باعدت التقاليد الرهيبة بينهم ،
كل الناس يصبحون أخوة
حيث يمتد جناحاك الرفيقان .

الكورس : نحن نجمع الملايين بين أحضاننا ،
ونرسل قبلتنا إلى الدنيا بأسرها !
أيهاالأخوة ، ان وراء السماء المرصعة بالنجوم
يسكن أب محب .
من جرب النعيم المقيم
فى صداقة الأصدقاء ،
ومن ظفر بعذراء محبوبة
ليشاركنا فى ابتهاجنا .
ومن سبى قلبا
يملكه دون الناس أجمعين —
ومن أخفق ، فلينصرف
عن جماعتنا باكيا .

الكورس : كل ساكن للكون الكبير
يقدم الإجلال للمبحة
وهى تتقدم الطريق إلى النجوم
حيث يملك الآله المجهول .
إن القلوب الباسلة الرازحة تحت الآلام
تمد يد العون حينما يبكى الأبرياء .
والعهد الذى لا يخذل أبدا

والوفـــاء للصـــديق والعـــدو !
وتحدى الملوك ، والروح الجريئة ،
وإن كلفتنا المال والدم أيها الأخوة ،
التيجـــان لأشـــرف مستحقيها
والموت لكل سلالة الكذابين !

الكورس : اقفـــل الدائـــرة المقـــدسـة
وأقســـم بـــالخمـــرة الذهبيـــة !
أقسم بالوفاء بهذه العهود المقدسة
أقســـم بـــرب الفـــلك .

وظل كورنر يعول شيلر عامين أملا فى أن يصوغ الشاعر فى شكل لائق تلك المسرحية التى قصد بها تصوير الصراع بين فليب الثانى وابنه كارلوس « ولكن شيلر طال توانيه وتسويفه للتمثيلية حتى فقد المزاج الذى بدأها به ، ولعل ازدياد اطلاعه على التاريخ غير نظرته إلى فليب ؛ ومهما يكن الأمر ، فقد غير الحبكة حتى افتقدت الوحدة والتسلسل . » وفى غضون هذا (فبراير ١٧٨٧) وقع فى غرام هنرييتا فون أرنيم ، واستهلكت الخطابات الغرامية مداد قلمه ، بينما كانت هى تتصيد خطيباً أغنى منه . وأقنع كورنر شيلر بأن يعتكف فى إحدى الضواحى حتى يفرغ من مسرحيته . وأخيراً تمت (يونيو ١٧٨٧) ، وعرض مسرح همبورج أن يخرجها . وانتعشت معنوية شيلر وكبرياؤه ، فلعله الآن يرى جديراً بالانضمام إلى كوكبة الأدباء المتألقة حول الدوق كارل أوجست ، أما كورنر الذى تنفس الصعداء فقد وافقه على أنه ليس للشاعر مستقبل فى درسدن . ثم إن شارلوته فون كالب كانت فى فايمار ، بغير زوج ، تغريه بالمجىء . وعليه ، ففى ٢٠ يوليو ، وبعد الكثير من عبارات الوداع ، ركب شيلر منطلقاً من درسدن إلى حياة جديدة . فوصل فايمار فى الغد ، وهكذا اكتمل عقد الزمرة العظمى .

الفصل الثالث والعشرون

فايمار إبان ازدهارها

١٧٧٥ — ١٨٠٥

١ — تتمة لفيلاند : ١٧٧٥ — ١٨١٣

حين رأى موتسارات فيلاند فى مانهايم عام ١٧٧٧ قال فى وصف وجهه أنه « قبيح إلى حد مخيف ، تغشاه ندوب الجدرى ، وله أنف طويل ، . . . وفيما خلا هذا فهو . . . رجل موهوب جداً . . . والناس يحدقون فيه كأنه قد هبط من السماء » [١] . وقد كرهه طيور النوء الهائجون أنصار الحركة « الزوبعية » لأنه سخر من انتشاءاتهم المتمردة ؛ أما فايمار فأحبته لأنه لطف نقده اللاذع بالكياسة وبغفران عام للنوع الإنسانى ، ولأنه احتمل فى رضى تفجر النجوم الجديدة مراراً فى سماء الأدب بينما كان فى استطاعته أن يدعى لنفسه مكان الصدارة . وقد خلد جوته ذكره فى سيرته الذاتية بشعور العرفان بصنيعه [٢] . أما شيلر فقد خاله فى أول لقاء بينهما مغروراً محزوناً ، ولكن « الموقف الذى اتخذه منى للتو يدل على الثقة والحب والتقدير » [٣] .

وقال الشاعر الكبير للشاعر الفتى « سنفتح عما قليل قلبينا الواحد للآخر ، وسيساعد كل منا صاحبه بدوره » [٤] ، وقد أثبت وفاءه بهذا الوعد ، « إننى وفيلاند نتقارب أكثر كل يوم . . . ولا تفوته مناسبة لا يذكرنى فيها بكلمة طيبة » [٥] .

وقد وفق فيلاند فى منافسته للوافدين الجدد بإصداره فى ١٧٨٠ رواية شعرية اسمها « أوبرون » تحكى قصة فارس تنقذه عصا أمير الجان السحرية من مائة جنية ومن شراك مفاتن ملكة اشتدت بها حرارة العشق . وحين

اضطر جوته إلى الجلوس لمصور يرسم صورته وأراد أن يقعد ساعة دون حركة ، طلب إلى فيلاند أن يقرأ عليه أجزاء من هذه الملحمة . يقول فيلاند « لم أشهد قط إنساناً سعد بعمل إنسان آخر كما سعد جوته » [٦] . وقد ترجم جون كوينسي آدمز القصيدة وهو سفير للولايات المتحدة فى بروسيا فى ١٧٩٧ — ١٨٠١ ، واقتبس منها جيمس بلانشيه نص أوبرا فيبر (١٨٢٦) .

واحتوى عدد مارس ١٧٩٨ من مجلة فيلاند « الرائد الألمانى الجديد» مقالة يحتمل أنها بقلم فيلاند — تنبأت بالأحداث المقبلة على نحو يلفت النظر . فقد لاحظت الفوضى التى تردت فيها فرنسا منذ ١٧٨٩ ، وأوصت بتعيين دكتاتور لها ، كما وقع فى الأزمات التى تعرضت لها روما الجمهورية ؛ ورشحت بونابرت الشاب ، الذى كان يواجه المتاعب يومئذ فى مصر ، بوصفه صالحاً لهذه المهمة بشكل واضح . وحين فتح نابليون ألمانيا فعلا التقى بفيلاند فى فايمار وفى ايرفورت (١٨٠٨) ، وتحدث معه فى أدب اليونان والرومان وتاريخهم ، وكرمه فيمن كرم من الكتاب الألمان بوصفه أعظمهم بعد جوته [٧] .

وفى ٢٥ يناير ١٨١٣ كتب جوته فى يوميته « دفن فيلاند اليوم » ثم أنهى النبأ إلى صديق فى كارلسباد قائلا : « لقد تركنا صديقنا الطيب فيلاند . . فنى ٣ سبتمبر احتفلنا كما ألفنا كل عام بعيد ميلاده الثمانين بمظاهر الابتهاج. لقد كان فى حياته توازن بديع بين الهدوء والنشاط . فلقد اسهم بقدر هائل فى ثقافة الأمة العقلية فى ترو وأناة ملحوظين ، دون أى نضال مشبوب أو صراخ عال » [٨] .

٢ — هردر والتاريخ : ١٧٧٧ — ١٨٠٣

كتب شيلر فى يوليو ١٧٨٧ « لقد تركت هردر لتوى . . . أن حديثه رائع ، ولغته دافئة قوية ، ولكن مشاعره يراوحها الحب والكره » [٩] .

وكانت واجهات هردر فى فايمار متنوعة ، فلم تتح له متسعاً من الوقت للتأليف . فكان بصفته قسيساً خاصاً للدوق يقوم بواجبات العماد ، والتثبيت

فى الإيمان ، وعقد الزيجات والإشراف على الجنازات لأسرة الدوق وبلاطه .
وبصفته المراقب العام للدوقية كان يشرف على سلوك الأكليروس وتعييناتهم ،
ويحضر اجتماعات مجلس الكنيسة ويلقى عظات فيها من سلامة العقيدة القدر
الذى تسمح به شكوكه الخاصة . وكانت مدارس الدوقية تحت إدارته ،
فأصبحت نموذجاً تحتذيه ألمانيا كلها . هذه المسئوليات مضافاً إليها ناسوره
وسوء صحته عموماً ، جعلته سريع الغضب وصبغت حديثه بين الحين والحين
بما سماه جوته « اللدغة الخبيثة » [١٠] . وقد ظل ثلاث سنين (١٧٨٠ — ٨٣)
هو وجوته يتجنب أحدهما صاحبه ؛ وقد أنكر الدوق بعض عظات هردر .
قال جوته « بعد عظة كهذه لم يبق أمام أى أمير إلا الاعتزال » [١١] .
وقال فيلاند اللطيف الطبع معلقاً فى ١٧٧٧ « وددت لو قام بينى وبين هردر
اثنا عشر هرماً » [١٢] ، وتعلمت فايمار أن تلتمس المعاذير « الاكلينيكية »
لقسيسها الشبيه بدين سويفت ، وردت زوجته اللطيفة كارولينه على بعض
لدغه . وفى ٢٨ أغسطس ١٧٨٣ اغتنم جوته اتفاق وقوع عيد ميلاده وعيد
ميلاد ابن هردر البكر فى يوم واحد ليدعو آل هردر للعشاء . واصطلح
عضو المجلس الخاص والمراقب العام ، وكتب جوته يقول ان « السحب
الكثيبة التى فرقت بيننا طويلا قد انجلت ، وإلى الأبد فى اعتقادى » [١٣] .
وبعد شهر أضاف « لست أعرف رجلا أنبل قلباً أو أسمح وروحاً » [١٤] ،
وذكر شيلر فى ١٧٨٧ أن « هردر شديد الإعجاب بجوته — بل هو يكاد
يعبده » . [١٥] وأصبح فيلاند وهردر فى الوقت المناسب صديقين متفاهمين [١٦] ،
وكان هذان ، لا جوته ولا شيلر ، هما اللذين قادا الحديث فى صالون آنا
أماليا واكتسبا قلب الدوقة الأرملة [١٧] .

وواصل هردر وسط واجباته الإدارية البحث فى الشعر البدائى ، وجمع
عينات منه من نيف وعشرة شعوب ، ومن أورفيدس إلى أوسيان ، ونشرها
فى « مختارات سماها Volksliede « أغانى شعبية » (١٧٧٨) أصبحت ينبوعاً
من ينابيع الحركة الرومانتيكية فى ألمانيا . وبينما كان جوته يتهيأ لعودة إلى
المثل والأشكال والأساليب الكلاسيكية ولضبط العقل للعاطفة ، كان هردر
يبشر بالانتفاض على عقلانية القرن الثامن عشر وشكلية القرن السابع عشر
والعودة إلى إيمان العصر الوسيط وأساطيره وأناشيده وأساليب حياته .

وفى ١٧٧٨ عرضت الأكاديمية البافارية جائزة لأفضل مقال « فى آثار الشعر فى عادات الأمم وأخلاقها » . وفاز مقال هردر ونشرته الأكاديمية فى ١٧٨١ . وقد تتبع المقال ما رآه المؤلف تدهوراً للشعر بين العبرانيين واليونان والأوربيين الشماليين ، من التعبير الملحمى المبكر عن التاريخ والمشاعر والأفكار الشعبية فى إيقاعات طليقة فياضة ، إلى تدريب « مصقول » ومدرسى ، بعد المقاطع ، ويلوى القوافى ، ويقدس القواعد ، ويضيع حيوية الشعب وسط مظاهر الافتعال المميته التى تشوب حياة الحضر . وزعم هردر أن النهضة الأوربية قد انتزعت الأدب من الشعب وحبسته بعيداً فى قصور الملوك والأمراء ، وأن الطباعة قد احلت الكتاب محل المنشد الحى . وفى مقال آخر « فى روح الشعر العبرى» (١٧٨٣) اقترح هردر قراءة سفر التكوين على أنه شعر لا علم ، وكان قد تمكن من العبرية بجهده الخاص ؛ وألمع إلى أن شعراً كهذا يستطيع أن يحمل بالرمزية من الحقيقة قدر ما يحمله العلم بـ « الواقع » .

ولقد كافح إيمانه الدينى للصمود رغم سعة اطلاعه على الكتب العلمية والتاريخية . ففى عامه الأول فى فايمار اشتبه بعضهم فى أنه ملحد ، حر الفكر ، سوسينى ، صوفى [١٨] . وكان قد قرأ أجزاء « مخطوطة فولفنبوتل » لريماروس ، التى نشرها ليسنج ، وتأثر بها تأثراً كفى لتشكيكه فى لاهوت المسيح [١٩] . ولم يكن ملحداً ، ولكنه وافق على وحدة الوجود التى قال بها سبينوزا . قال لياكوبى فى ١٧٨٤ « لست أتبين إلها من وراء العالم المادى» [٢٠] وقد حذا حذو ليسنج فى دراسة سبينوزا والدفاع عنه ، « يجب أن أعترف أن هذه الفلسفة تسعدنى جداً » [٢١] . وقد كرس لسبينوزا الفصول الأولى من رسالة عنوانها « أحاديث عن الله » (١٧٨٧) ، ففى هذا البحث فقد الله صورته الذاتية وأصبح قوة الكون وروحه ، الذى لا سبيل إلى معرفته إلا فى نظام العالم والوعى الروحى للإنسان [٢٢] . على أن هردر فى دراساته الموجهة إلى الأكليروس قبل الصفة الخارقة لمعجزات المسيح ، وخلود النفس [٢٣] .

ثم جمع العناصر المتفرقة لفلسفته وجعل منها كلا منسقاً نسبياً فى رائعة ضخمة سماها فى تواضع « أفكار نحو فلسفة فى تاريخ الإنسان » ، وهى

كتاب من كتب القرن الثامن عشر البزرية الخطيرة . صدر فى أربعة أجزاء فى ١٧٨٤ و ١٧٨٧ و١٧٩١ . وإشراف مشروع ضخم كهذا على التمام وسط مسئوليات هردر الرسمية يقوم شاهداً على الخلق القوى والزوجة الصالحة . وآية ذلك ماكتبه هردرإلى هامان فى ١٠ مايو ١٧٨٤ : « لم أؤلف طوال حياتى كتاباً كهذا وانا نهب للكثير من المتاعب وأسباب الإرهاق من الداخل ودواعى الإزعاج من الخارج ، بحيث أستطيع القول إنه لو لا أن زوجتى ، التى هى « المؤلف الحقيق » لكتبى ، ولولا جوته الذى نظر مصادفة فى الجزء الأول — أقول لولا أنهما لم يفترا عن تشجيعى وحثى ، لظل كل شىء فى مثوى الكائنات التى لم تر النور»[٢٤] .

ويستهل الجزء الأول بقصة للخليقة ، دنيوية فى صراحة ، مبنية على الفلك والجيولوجيا المعروفين ، دون لجؤ للكتاب المقدس إلا بوصفه شعراً . وقد زعم أن الحياة لم تنشأ من المادة ، لأن المادة ذاتها حية . والجسم والعقل ليسا جوهرين منفصلين متضادين . إنما هما صورتان لقوة واحدة ، وكل خلية فى كل جسم حى تحتوى الصورتين إلى حد ما . وليس هناك قصد خارجى يمكن رؤيته فى الطبيعة ، ولكن هناك قصداً باطنياً — هو « التصميم الكامل » والباعث لكل بذرة أن تتطور إلى كائن نوعى بكل ما لها من أجزاء معقدة مميزة . وهردر لا يقول بأن الإنسان تطور من الحيوانات الدنيا ، ولكنه يراه عضواً فى المملكة الحيوانية ، يناضل كغيره من الكائنات للطعام والبقاء . وقد أصبح الإنسان إنساناً باتخاذه القامة المنتصبة ، مما طور فيه جهازاً للحس قائماً على البصر والسمع لا على الشم والذوق ؛ فغدت قوائمه الأمامية أيدى ، حرة فى القبض ، والاستعمال ، والاحتواء ، والتفكير . وأسمى ثمرات الله أو الطبيعة هو الذهن الواعى ، الفعال بتفكير وحرية ، المكتوب له الخلود .

ويبدأ الجزء الثانى من « الأفكار» بفرض يزعم أن الإنسان بطبيعته خير ، ويجدد القول بالتفوق والسعادة النسبيين للمجتمعات البدائية ، ويستنكر الفكرة الكانطية — الهيجلية فيما بعد — التى تزعم أن الدولة هى هدف التطور البشرى. وقد احتقر هردر الدولة كما عرفها . كتب يقول « فى الدول العظمى لابد

أن يتضور المئات جوعاً لكى يزهو فرد واحد ويتقلب فى النعيم ؛ أن عشرات الألوف يظلمون ويساقون إلى الموت لكى يستطيع أحمق أو عاقل متوج واحد أن يحقق حلمه »(٢٥) .

وفى الجزء الثالث امتدح هردر أثينا على ديمقراطيتها النسبية التى أتاحت للحضارة أن تنتشر فى كثير من طبقات السكان . أما روما التى أقامت ثراءها على الفتح والرق فقد طورت حضارة ضيقة خلفت الشعب فى الفقر والجهل . فى هذا التاريخ كله لم ير هردر أى « عناية إلهية » ، فهو أشر من أن يكون من عند الله . فالله ، الواحد مع الطبيعة ، يدع الأمور تجرى فى أعنتها وفق القانون الطبيعى وغباوة البشر . ومع ذلك فبحكم صراع البقاء ذاته ينبعث بعض التقدم من الفوضى ؛ فيطور العون المتبادل ، والنظام الاجتماعى ، والأخلاق ، والقانون ، كوسائل للبقاء ، ويتحرك الإنسان فى بطء صوب إنسانية رحيمة . لا لأن هناك خطاً متصلا للتقدم ، فهذا غير ممكن ، لأن كل حضارة قومية هى كيان فريد ، له طابعه المتأصل ، ولغته ، ودينه ، وناموسه الخلقى ، وأدبه وفنه ، وكل حضارة — شأنها شأن أى كائن حى — إذا استثنينا ما يطرأ عليها من حوادث عارضة — تنحو للنمو إلى نهايتها القصوى الطبيعية ، التى تضمحل بعدها وتموت . وليس هناك ضمان لتفوق الحضارات اللاحقة على السابقة ، ولكن اسهامات كل حضارة تنقل على نحو أفضل إلى الحضارات التى تخلفها ، وهكذا ينمو التراث الإنسانى .

والجزء الرابع يمتدح المسيحية أما للمدنية الغربية . فالبابوية الوسيطة حققت هدفاً نافعاً يكبحها استبدادية الحكام والنزعة الفردية للدول ؛ والفلاسفة المدرسيون ، وان نسجوا نسيجاً واهياً أجوف بألفاظ ثقيلة ، إلا أنهم أرهفوا أدوات العقل ولغته ، وجامعات العصر الوسيط جمعت وحفظت ونقلت الكثير من ثقافة اليونان والرومان ، بل بعض علوم العرب والفرس وفلسفتهم . وهكذا أصبح المجتمع الفكرى أكبر عدداً وأرهف حساً من أن يقوى عليه سدنة السلطة ، وتحطمت أغلال العرف ، وأعلن العقل الحديث تحرره .

وحقق هردر فيما بين الجزئين الثالث والرابع من « الأفكار » حلمه الذى طال تأجيله برؤية إيطاليا . ذلك أن يوهان فريد ريش هوجو فون ذالبرج ، المستشار الكاثوليكى الخاص لرئيس أساقفة ترير الناخب ، دعا هردر ليصحبه فى رحلة كبرى تدفع له فيها كل نفقاته . وأذن له دوق ساكسى — فايمار ، وكارولينه ، بالغياب ؛ فغادر فايمار فى ٧ أغسطس ١٧٨٨ . فلما لحق بدالبرج فى أوجزبرج وجد أن خليلة دالبرج عضو هام فى الجماعة . واجتمع على هردر وجودها ومطالبها ، وسوء صحته ، لتنغص عليه رحلته . وفى أكتوبر وصلت آنا أميليا إلى روما . فترك هردر دالبرج وانضم إلى بطانتها . وقد استلطف انجليكا كاوفمان استلطافاً أكثر مما ترضى عنه كارولينه ، وأسرفت رسائل كارولينه فى الكلام عن جوته والميل إليه . وعاد هردر لدغه ، وكان قد سمع أنباء عن حياة جوته فى روما . وكتب يقول « ان رحلتى هنا كشفت لى لسوء الحظ عن حياة جوته الأنانية على نحو أوضح مما كنت أتمنى ، وهى حياة فى صميمها لاتعبأ بالغير على الإطلاق . إنه لايملك غير هذا ، فلندعه وشأنه إذن . . » [٢٦] .

وعاد إلى فايمار فى ٩ يوليو ١٧٨٩ . وبعد خمسة أيام سقط الباستيل ، وغير هردر خططه فى التأليف . فأكمل الجزء الرابع من «الأفكار» ، ثم نحى الكتاب جانباً ، وكتب بدلا منه « رسائل لتقدم الإنسانية (١٧٩٣ — ٩٧) . وقد بدأها بتقريظ حذر للثورة الفرنسية ، ورحب بانهيار الإقطاع الفرنسى ، ولم يذرف دموعاً على علمنة الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا [٢٧] ، وحين انطلق الدوق وجوته لمواجهة الفرنسيين عند فالمى ، وعادا يجرران أذيال الهزيمة ، حبس هردر هذه « الرسائل » الأولى ، وخصص الباقى للثناء على الموتى من العباقرة الذين لا خوف من الثناء عليهم .

ولم يفقد فى شيخوخته شيئاً من لذة الصراع الفكرى . فقابل نقد كانط لكتاب « الأفكار » بهجوم حاد على « نقد العقل الخالص » . ووصف الكتاب بأنه تلاعب رهيب بالألفاظ الميتافيزيقية الأشباح ، مثل « الأحكام التركيبية القبلية » ، وأنكر ذاتية المكان والزمان ، واتهم كانط بأنه أعاد إلى علم النفس فكرة الملكات ، التى زعم الفلاسفة

المدرسيون أن العقل ينقسم إليها . ثم المع ، فى تنبئو ، إلى أن الفلسفة قد تختط طريقاً جديداً بالتحليل المنطقى للغة—لأن الاستدلال ما هو إلا حديث باطنى .

وقد وافق جوته إلى حد كبير على نقد هردر لكانط ، ولكن هذا لم يعصمه من لدغة نصيبه منه بين الحين والحين . فحين أقام كلاهما تحت سقف واحد فى ڤينا عام ١٨٠٣ قرأ جوته على جماعة كان هردر واحداً منها أجزاء من مسرحيته الجديدة « الإبنة الطبيعية » (أى غير الشرعية) . وأثنى هردر على المسرحية للآخرين ، ولكن حين سأله المؤلف رأيه لم يستطع مقاومة الرد بتورية عن الصبى الذى ولدته خليلة جوته فقال : « انى أحب ابنك الطبيعى أكثر من ابنتك الطبيعية » ولم يستطب جوته الدعابة . وبعد ها لم يلتق الرجلان قط . واعتكف هردر فى خلوة بيته بفايمار ، ومات هناك فى ١٨ ديسمبر ١٨٠٣ — قبل شيلر بعامين ، وقبل فيلاند بعشرة ، وقبل جوته بتسعة وعشرين ودفن بأمر الدوق كارل أوجست — الذى كثيراً ما ضايقه هردر — بمراسم التكريم الكبير فى كنيسة القديسين بطرس وبولس.

٣ — جوته عضو المجلس الخاص
١٧٧٥ — ٧٦

لقى جوته فى فايمار ترحيباً من الجميع إلا السياسيين . كتب فيلاند إلى لافاتر فى ١٣ نوفمبر ١٧٧٥ « لابد لى من انبائك بأن جوته معنا منذ الثلاثاء الماضى ، وأنه لم تنقض ثلاثة أيام حتى شعرت بمحبة عميقة لهذا الشخص الرائع — فأنا أنفذ إلى أعماقه وأحسه وأفهمه تماماً — على نحو تستطيع أن تتخيله أفضل كثيراً مما أستطيع أن أصفه» [٢٨] . وفى الشهر نفسه كتب أحد رجال الحاشية إلى والدى جوته يقول « فكرا فى ابنكما كأوثق صديق لدوقنا العزيز ، . . . وهو محبوب إلى حد العبادة أيضاً من جميع السيدات من فضليات النساء فى هذه المنطقة »[٢٩] .

بيد أن سماء فايمار لم تخل من غيوم . ذلك أن الدوق كان يستطيب الصيد العنيف والإفراط فى الشراب ، وقد صاحبه جوته فيهما جميعاً أول الأمر ،

فاتهم كلوبشتوك الشاعر علانية بأنه يفسد أميراً فاضلا . وخشيت لويزه أن يقصى جوته زوجها عنها ، مع أن حقيقة الأمر أنه استخدم تأثيره لبرد الدوق إلى الدوقة رغم أن زواجهما لم يكن زواج حب . وتشكك بعض الموظفين في جرته باعتباره تابعاً متطرفاً من اتباع الحركة « الزوبعية » ذا معتقدات وثنية وأحلام رومانسية . وهجم على فايمار عدد من أنصار تلك الحركة — لنتن ، وكلنجو ، وغيرهما — وقدموا أنفسهم باعتبارهم أصدقاء جوته ، وطالبوا بالغنيمة . وحين استلطف جوته بيتا ذا حديقة خارج بوابة المدينة ولكنه قريب من قلعة الدوق — أفقد كارل أوجست جوته بعض عطف الرأى العام بإخلائه شاغلى البيت تمكيناً لجوته من الانتقال إليه (٢١ أبريل ١٧٧٦) . هناك تخفف الشاعر من مراسم البلاط ، وتعلم كيف يزرع الخضر والأزهار . وظل ثلاثة أعوام يسكن البيت على مدار السنة ، ثم فى الصيف فقط حتى ١٧٨٢ ، حين انتقل إلى قصر فسيح فى المدينة لينصرف إلى واجباته المتزايده بصفته عضواً فى الحكومة .

كان الدوق قد فكر فيه شاعراً ، ودعاه إلى فايمار ليكون كوكباً من كواكب الأدب فى بلاطه . ولكنه رأى أن مؤلف مسرحية ثائرة ورواية غرامية باكية ، هذا الكاتب الذى ناهز السادسة والعشرين ، أخذ يصبح رجلا ذا حكم عملى سديد . وعليه فقد عين جوته فى « مكتب للأشغال » ، وطلب إليه أن ينظر فى حالة المناجم فى المينا وفى تشغيلها . وقام جوته بالمهمة بهمة وذكاء حملا كارل أوجست على التصميم على ضمه للمجلس الخاص الذى يدير شئون الدوقية . واحتج عضو قديم على تدفق الشعر على المجلس على هذا النحو الفجائى ، وهدد بالاستقالة . ولكن الدوق والدوقة الأرملة هدءا ثائرته ، وفى ١١ يونيو ١٧٧٦ أصبح جوته « عضو المجلس المختص بالتفويض الدبلوماسى » براتب سنوى قدره ألف ومائتا طالر . فقلل من مغازلاته للسيدات . وقد كتب فيلاند لمبرك فى ٢٤ يناير يقول « منذ أمد طويل ، من اللحظة التى قرر فيها أن يكرس نفسه للدوق وشئون الدوق ، راح يسلك بحكمة مبرأة من الخطأ وبحذر الرجل الخبير بأمور الدنيا » [٣٠] . وفى ١٧٧٨ رقى إلى منصب وزير الحرب ، وكان يومها

منصباً هادئاً ، ثم إلى العضوية الكاملة للمجلس الخاص فى ١٧٩٩ . وقد حاول بعض الإصلاح ، ولكنه وجد نفسه معوقاً بالمصالح المكتسبة فى القمة ، واللامبالاة العامة فى القاعدة ، وما لبث هو نفسه أن بات محافظاً تام المحافظة . وفى ١٧٨١ عين رئيساً لغرفة الدوقية . وفى ١٧٨٢ خلع عليه يوزف الثانى براءة النبالة ، وغدا « فون » جوته . قال لأكرمان بعد خمسة وأربعين عاماً « فى تلك الأيام كنت أشعر بغاية الرضى عن نفسى بحيث اننى لوكنت رقيت أميراً لما وجدته تغييراً ذا بال »[٣١] .

وامتزجت بمستقبله السياسى قصة غرام كانت أبقى وأحر وآلم حب فى حياته . استمع إلى وصف الدكتور يوهان تسمرمان لإحدى مرضاه وصفاً لا يمت إلى الطب بسبب فى نوفمبر ١٧٧٥ .

« ان للبارونه فون شتين ، زوجة البارون ورئيس الخياله ، عيوناً نجلاء سوداء رائعة الجمال . وصوتها رقيق خافت . ولا يفوت أحداً أن يلحظ على وجهها سمات . . . الرزانة ، ودماثة الطبع ، واللطيف . . . والفضيلة ، والحساسية العميقة . أن آداب السلوك فى البلاط ، التى تملك ناصيتها إلى حد الكمال ، تحولت فيها إلى بساطة رفيعة نادرة . وهى نقية جداً ، ذات سمو روحى مؤثر يكاد يبلغ حد النشوة . ولا يستطيع المرء من مشيتها الأنيقة ومهارتها فى الرقص التى تقرب من مهارة المحترفين ان يستشف نور القمر الهادىء المطمئن . . . الذى يملأ قلبها بالسلام . أنها فى الثالثة والثلاثين ، ولها عدة أطفال . وأعصابها ضعيفة . ووجنتاها ورديتان ، وشعرها فاحم ، وبشرتها . . . إيطالية اللون »[٣٢] .

وقد ولدت شارلوته فون شارت فى ١٧٤٢ ، وتزوجت البارون يوسياس جوتلوب فون شتين فى ١٧٦٤ . وفى ١٧٧٢ بلغ مجموع ما أنجبت من أطفال سبعة ، مات منهم أربعة . وحين التقى بها جوته كانت لاتزال تعانى من الحمل المتكرر ، وامتزج إحساسها بالضعف بما فطرت عليه من تواضع وحياء . ورفعها جوته فى خياله إلى السماء ، ولا غرو فقد كان فيه دم شاب وخيال شاعر ، ألف تجميل الواقع ونيط به هذا التجميل ، ومع ذلك لم يجاوز

ما قاله طبيبها فى تمجيدها . فقد كانت شيئاً جديداً فى بستان وروده النسائية : كانت ارستقراطية ، كأنما ركب السلوك المهذب فى فطرتها ، ورآها جوته كأنها من النفائس المذخورة فى قدس النبالة . وكان من ثمرات علاقتهما أنها نقلت إليه آداب طبقتها ، وعلمته ضبط النفس ، والطبيعية ، أوالاعتدال ، والمجاملة . وكانت شاكرة حبه إياها لأنه رد إليها اهتمامها بالحياة ، ولكنها قبلت هذا الحب كما تقبل امرأة كريمة المربى إعجاب فتى يصغرها بسبع سنين — باعتباره آلام النمو لروح متشوف يبحث عن التجربة وتحقيق الذات .

ولم يكن حباً من أول نظرة ، فبعد أن انضم إلى زمرة فايمار بستة أسابيع كان لايزال يقرض الشعر عن « الجميلة للى » شونمان (٣٣) . ولكن فى ٢٩ ديسمبر ١٧٧٥ ، لاحظ الدكتور تسمرمان تنبه جوته إلى « فضائل ومفاتن جديدة فى شارلوته » . وما حل ١٥ يناير حتى كان يحاول مقاومة افتتانه الوليد بها ، فقال لها « انى مسرور لأنى أبعد عنك وأفطم نفسى منك » ، ولكن لم يواف ٢٨ يناير حتى كان قد ألقى السلاح ، وكتب إليها يقول « ياملاكى الحبيب ، لن آتى إلى البلاط . ان بى من شعور السعادة ما لا أطيق معه كثرة الخلق . . . فأسمحى لى أن أحبك كما أفعل » . ثم كتب فى ٢٣ ٢٣ فبراير « يجب أن أخبرك أيتها المختارة بين النساء أنك ألقيت فى قلبى حباً يملؤنى بهجة »(٣٤) .

وردت برسائل كثيرة ، ولكن لم يبق منها غير واحدة من هذه الحقبة : « لقد عزلت نفسى بعيداً عن العالم ، ولكنه الآن يعود إلى عزيزا ، وعزيزا بسببك . ان قلبى يبكتنى وأنا أشعر انى أعذب نفسى وأعذبك . فقبل ستة أشهر كنت على أتم استعداد للموت ، وأنا لم أعد الآن مستعدة للقائه » (٣٥) . وملكته النشوة . فقال لفيلاند « ليس من تفسير لما تفعله هذه المرأة بى . . . إلا إذا قبلت نظرية التقمص . أجل ، لقد كنا يوماً ما رجلا وزوجته ! (٣٦) واتخذ لنفسه امتياز الأزواج فى الشجار والمصالحة . كتبت شارلوته إلى تسمرمان فى مايو ١٧٧٦ تقول : « لقد تركنى ثائراً قبل أسبوع ، ثم عاد بحب طاغ . . . فماذا هو صانع بى فى النهاية ؟ (٣٧) ويبدو أنها أصرت على أن يظل حبهما أفلاطونياً ، أما هو فكان به من حرارة العشق مالا يجعله

يترك حبهما عند هذا الحد ، فقال لها « ان امتنع على العيش معك فإن حبك لن ينفعني بأكثر من حب غيرك الغائبات عني »[٣٨] . ولكنه أردف فى الغد «اصفحي عني أنني آلمتك . وسأحاول بعد اليوم أن أحتمل الألم وحدى »[٣٩] .

وشعر بالوحشة حين ذهبت إلى بيرمونت النائية فى الشمال للعلاج ، ولكنها زارته فى المينا وعند عودتها (٥ — ٦ أغسطس ١٧٧٦) . وكتب فى ٨ أغسطس يقول «كان لحضورك أثر عجيب فى . . . وحين أفكر أنك كنت هنا فى كهفى معى ، وإننى أمسكت بيدك وأنت تنحنين على . . . أرى صلتك بى مقدسة وغريبة معاً . . . فليس هناك كلام يعبر عنها ، وأعين الرجال لاتبصرها »[٤٠] . وكان لايزال حاراً فى حبه لها بعد أن انقضى على لقائهما الأول قرابة خمس سنين . ففى ١٢ سبتمبر ١٧٨٠ كتب وهو وحيد فى زلباخ «كلما استيقظت من أحلامى وجدتنى مازلت أحبك وأصبو إليك . والليلة بينما كنا راكبين ورأينا النوافذ المضاءة فى بيت أمامنا ، قلت فى نفسى ليتها هناك لتضيفنا . ان هذا المكان جحر حقير ، ومع ذلك فلو أننى استطعت أن أعيش هنا فى هدوء طوال الشتاء معك لأحببته كثيراً[٤١] . ثم كتب فى ١٢ مارس ١٧٨١ :

« لقد امتزجت روحانا امتزاجاً جعلنى كما تعلمين مربوطاً بك رباطاً لافكاك منه ، ولن يفصلنا علو ولاعمق . وددت لوكان هناك قسم ما أو سر مقدس ما يربطنى بك على نحو مرئى ووفقاً لقانون ما . لكم يكون هذا رائعاً ! ولا شك أن فترة الاختبار كفانى طولها لانعام التفكير الواجب فى الأمر . . . أن اليهود يربطون زنارا حول أذرعتهم أثناء الصلاة . وهكذا أربط على ذراعى زنارك العزيز حين أوجه صلاتى إلياك ، وأرغب إليك فى أن تنقلى إلى طيبتك وحكمتك واعتدالك وصبرك » .

وقد فسر بعضهم « فترة الاختبار» المنصرمة ، بأنها تشير إلى أن شارلوته أسلمت جسدها إليه »[٤٢] ، ومع ذلك كتب إليها بعد ست سنوات يقول .

« ياعزيزتى لوته ، أنت لا تعلمين أى عنف أوقعته بنفسى وما زلت أوقعه : وكيف أن فكرة عدم امتلاكى إياك . . . ترهقنى وتفنينى »[٤٣] . فإذا كان غرامهما قد اكتمل حقاً فإن السر قد كتم أحسن كتمان . وقد احتمل البارون فون شتين ، الذى عمر حتى ١٧٩٣ ، هذه العلاقة الغرامية بمجاملة جنتلمان من أهل القرن الثامن عشر . وكان جوته يختم خطاباته بين الحين والحين بعبارة « تحياتى إلى شتين»[٤٤] .

وقد تعلم أن يحب أطفالها أيضاً ، وكلما امتد به العمر اشتد شعوره بحرمانه من أطفال له . وفى ربيع ١٧٨٣ أقنعها بأن تسمح لابنها فرتز ذى السنين العشر بالإقامة معه فى زورات طويلة ، وحتى بمصاحبته فى رحلات طويلة . وفى أحد خطاباتها لفرتز (سبتمبر ١٧٨٣) يظهر جانب الأمومة فيها ، وتتكشف قلوب البشر الكامنة خلف واجهة التاريخ المجردة من عواطف البشر .

« انى عظيمة الابتهاج لأنك لم تنسنى وأنت منطلق فى هذا العالم الجميل ، وأنك تكتب إلى بحروف لا بأس بها وإن لم يكن رسمها حسناً جداً . ومادمت تعتزم الإقامة أطول مما توقعت ، فإنى أخشى ألا تبدو ثيابك حسنة المظهر جداً . فإذا اتسخت واتسخت أنت أيضاً ، فاطلب إلى عضو المجلس الخاص جوته فقط أن يلقى بفرتزى الصغير الحبيب فى الماء . . . حاول أن تستمتع بفرصتك الطيبة ، واجتهد أن تسر عضو المجلس بسلوكك ، ووالدك يرغب إلى أن اقرئك تحيته »[٤٥] .

فإذا وافى عام ١٧٨٥ كان غرام جوته قد هدأت فورته فى فترات صمت طويلة . وفى مايو ١٧٨٦ شكت شارلوته من أن « جوته يفكر كثيراً ولا يقول شيئاً »[٤٦] . وكانت الآن تناهز الرابعة والأربعين ، أما هو ففى السابعة والثلاثين ، وكان آخذاً فى الانطواء على نفسه . كثير التردد على يينا هروباً من بلاط فايمار والتماساً لتجدد الشباب بين الطلاب . وكان قد اعتاد دائماً أن ينعش نفسه بالطبيعة ، فيتسلق قمة بروكن (وهى قمة ارتفاعها ٣,٧٤٧ قدماً فى جبال هارتس ، اقترنت منذ أمد بعيد بأسطورة فاوست) ، ويخرج فى

رحلات مع الدوق فى سويسره (سبتمبر ١٧٧٩ إلى يناير ١٧٨٠) . وكان أحياناً وهو يسترجع الماضى يشعر « بأننى خلال السنوات العشر الأولى من حياتى فى الوظيفة والبلاط بفايمار لم أكد أنجز شيئاً »(٤٧) فى مضمار الأدب أو العلم . ولكن كان من الخير تهجين الشاعر بالأدارى ، وتأديب الغنى الذى كاد التدليل يفسده ، والعاشق الخائن ، بتبعات المنصب وبطء الانتصار فى الحب . وقد أفاد من كل تجربة ونما مع كل هزيمة . « أن خير ما فى ، هو ذلك السكون الباطنى العميق الذى أعيش فيه وأنمو ، رغم العالم ، والذى بفضله أكتسب مالا يقوى العالم على انتزاعه منى أبدا »(٤٨) . فلم يكن شيء يضيع هدراً عليه ، وكل شيء وجد التعبير عنه فى مكان ما فى كتاباته ، وأخيراً أصبح خير ما حوته ألمانيا المفكرة منصهرا فى كل متكامل .

وينتمى إلى هذه الحقبة قصيدتان من أعظم قصائده : أولاهما مزاوجة بين الفلسفة والدين ، وبين الشعر والنثر ، فى قصيدة « الطبيعة» . وثانيتهما أعظم أشعاره الغنائية كمالا . وهى الثانية من قصائده المسماة « أنشودة الجوالين فى الليل » التى نقشها على جدران كوخ الصيد فى ٧ سبتمبر ١٧٨٠ (٤٩) ربما فى حالة من حالات الشوق القلق :

على قمم التلال كلها
ران السكـــون ؛
وعلى ذرى الأشجار
لاتـــكاد تسمـــــع
نفســـاً يـــــتردد ؛
الطير نيام فى الغابات
مهلا : فأنت أيضاً
ستهجع مثلها سريعاً(٥٠) .

وهناك قصيدة من قصائد جوته العاطفية المشهورة الأخرى تنتمى إلى هذه المرحلة من مراحل تطوره : وهى قصيدة « ملك العفاريت» الحزينة وضع لها شوبرت لحناً موسيقياً . فتى عبر شاعر عن إحساس الطفل بالكائنات

الخفية المنتشرة فى الطبيعة تعبيراً أقوى مما فى هذا الخيال السريع ، خيال الطفل المشرف على الموت ، الذى يرى « ملك العفاريت» آتياً ليخطفه من بين ذراعى أبيه ؟ .

فى هذه الحقبة أيضاً كتب جوته ثلاث مسرحيات نثرية : « اجمونت (١٧٧٥) وافجينى فى تاوريس (١٧٧٩) وتورقواتو تاسو (Torquato Tasso) (١٧٨٠) — وهى ثمر كاف لخمس سنين قضاها فى خضم السياسة . ولم تخرج « إجمونت» على المسرح إلا فى ١٧٨٨ ، أما إفجينى فقدمت على مسرح فايمار فى ٦ أبريل ١٧٧٩ (قبل العرض الأول لأوبرا جلوك التى بهذا الاسم بستة أسابيع (؛ ولكن جوته غير فيها وبدل ، ونظمها شعراً ، أثناء مقامه فى روما ، بحيث يحسن النظر إليها على أنها نتاج لمرحلة جوته الكلاسيكية . كذلك أعاد صياغة « تاسو» ونظمها شعراً فى إيطاليا ، ولكنها تدخل هنا جزءاً من افتتان جوته بشارلوته فون شتين . ففى ١٩ أبريل ١٧٨٢ كتب إليها يقول : « كل كلام تاسو موجه إليك »[٥١] . وصدقت كلامه ، فطابقت بينها وبين ليونورا ، وبين جوته وتاسو ، وبين كارل أوجست ودوق فرارا .

وقد تلقف جوته الأسطورة التى زعمت أن انهيار عقل تاسو فى بلاط فرارا قد اشتد ، ان لم يكن قد نشأ أصلا ، عن غرام تعس بأخت لألفونس الثانى (حكم ١٥٥٩ — ٩٧)[٥٢] . وما من شك فى أن جوته كان يفكر فى نفسه حين وصف ما يدور فى فكر تاسو الشعرى :

ان عينه قلما تطيل النظر إلى هذا المشهد الأرضى ،
أما أذنه فرهفة السمع لأنغام الطبيعة .
وأما صدره فيتلقى للتو فى ابتهاج
ما يقدمة التاريخ وتأتى به الحياة ،
ثم يجمع الأشتات المتفرقة ويربط بينها
ويبعث حسه الذكى الحياة فى الموتى .
وهكذا يغرينا الرجل العجيب

وهـــو يتحـــرك فى عـــالمـــه المسحـــور
بأن نطـــوف معـــه ونشـــاركه فـــرحه .
وهو يبـــدو كأنه يدنو منـــا ، إلا أنه يظل
بعيداً كما كان ، فإذا اتفـــق ووقعت عينـــه
علينـــا رأى الأشـــباح فى مـــكاننـــا (٥٣)

وقد تكون ليونورا ، الأميرة الجليلة التى ترتضى حب الشاعر ولكنها تأمره بأن يكبح حماسته ويراعى اللياقة ، هى شارلوته فون شتين تضبط غرام جوته المشبوب فى هذا العالم الفاسق ويعلن تاسو — وهنا يتكلم الشاعران كلاهما :

كل ما يصل إلى القلب مـــن أغنيـــتى
فيتردد صداه فيه ، إنما أدين به لواحـــد ،
وواحـــد فقط ! فلم يحـــم حول روحى
طيف غـــامض ، يتقـــدم تـــــاره
فى سناء باهـــر ، ثم يتـــوارى ثانيـــــة .
فأنا نفسى ، بعينى رأس ، أنا الذى أبصرت
مثـــال كل فضيلة وكل جمـــــال (٥٤)

وأما الدوق الفونسو فهو شبيه كارل أوجست فى صبره على غضبات الشاعر وغرامياته وأحلام يقظته ، وهو مثله يحزنه تباطؤ الشاعر فى الفراغ من رائعة موعودة :

بعد كل خطوة بطيئة يدع عمله ،
لايفتأ يبدل ويغير ، ولا طاقة له على الانتهاء(٥٥) .

وهو وصف صادق لكتابة جوته المنجمة وإبطائه وتسويفه فى إنجاز « فلهم ما يستر » و« فاوست» . وأميرة أخرى تمتدح الفونسو كارل أوجست على إتاحته الفرصة لتاسو — جوته لينضج بممارسته لشئون الدنيا وهنا تعلو أبيات مشهورة :

« إن الموهبة تكون نفسها فى سكون »
والشخصية تتشكل فى نهر العالم »(٥٦) .

ولكن التلازم بين الشاعرين يتضاءل فى النهاية : فتاسو لايبدى شيئاً من قدرة جوته على السباحة فى نهر العالم ، فيغرق فى مملكة أحلامه ويضرب بالحذر واللياقة عرض الحائط ، ويحتضن الأميرة المذهولة بين ذراعيه ، ويجن جنونه حين تنتزع نفسها من ضمته ومن حياته . ولعل جوته أحس بأنه كان قد وقف على شفا هذا الجرف .

وكثيراً ما فكر فى إيطاليا ملاذاً يعتصم به من موقف يهدد سلامة عقله . وفى نحو هذه الفترة فى الصيغة الأولى لـ « فلهلم ما يستر » نظم لمينون أغنية شوق ولهفة تلائم آماله أكثر من آمال مينون :

أتعرف البلد الذى تزهـــر فيه أشجار الليمـــون ،
حيث تتوهج ثمار البرتقال الذهبية فى الأوراق الداكنة ،
حيث يهب النسيم العليل من السماء الزرقـــاء ،
حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة النار السامقة
حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة الغار السامقة
أتعرفـــه جيـــداً ؟ هنـــــاك ! هنـــــاك !
اشتهى يـــاحبيـــبى ان انطلـــــق معـــك !

لقد كانت فايمار جميلة ، ولكنها لم تكن دافئة . ثم ان هموم المنصف كدرت روح الشاعر ، « أنها لوسيلة مرة من وسائل كسب القوت أن يضطر المرء إلى محاولة خلق التناغم والانسجام بين نشازات العالم »[٥٧] . وقد أضنته حياة البلاط ، « ليس بينى وبين هؤلاء القوم ولا بينهم وبينى شيء مشترك يربطنا »[٥٨] . وكانت قد وقعت بعض الجفوة بينه وبين الدوق لعجزه عن مسايرة خطى الدوق فى الصيد والغزل ، وغرامه الكبير الوحيد قد براه الزمن وكثرة الشجار . فأحس أنه لابد له من التحرر من هذه الأصفاد الكثيرة ، والبحث عن اتجاه ونظرة جديدين . فطلب إلى الدوق أن يمنحه أجازة ، فاستجاب الدوق ، ووافق على أن يواصل دفع راتب جوته . ورغبة فى توفير مبلغ إضافى من المال باع جوته لجوشن ، الناشر الليبزجى ، حق نشر طبعة من مجموعة مؤلفاته . ولم يبع جوشن إلا ٦٠٢ نسخة ، فخسر ١،٧٢٠ طالرا فى هذه المغامرة .

وفى أول سبتمبر ١٧٨٦ كتب جوته إلى شارلوته من كارلسباد يقول :

« الآن وداعاً أخيراً ، أريد أن أكرر لك أنى أحبك حباً جماً . . . وأن تأكيدك لى انك تجدين من جديد لذة فى حبى يجدد فرحة حياتى . لقد احتملت الكثير فى صمت إلى الآن ، ولكنى لم أرغب فى شىء بأحر مما رغبت فى أن تتخذ علاقتنا صورة لايقوى عليها أى ظرف . فإذا لم يكن هذا ممكناً ، فلن ارتضى أن أسكن حيث تكونين ، بل أوثر أن أكون وحيداً فى ذلك العالم الذى انطلق إليه الآن[٥٩] .

٤ — جوته فى إيطاليا : ١٧٨٦ — ٨٨

واتخذ له فى رحلة اسماً مستعاراً هو « المسيو جان — فليب مولر » لأنه أراد التحرر من مضايقات الشهرة . وكان فى السابعة والثلاثين ، ولكنه ذهب بتطلع يفوق حتى تطلع الشباب وترقبه المرح ، وباستعداد يفضل كثيراً استعداد الشباب ، لأنه كان ملماً ببعض تاريخ إيطاليا وفنها . وفى ١٨ سبتمبر كتب إلى هردر يقول «آمل أن أعود شخصاً مولوداً من جديد» وكتب إلى كارل أوجست « أرجو أن أعيد معى إنساناً تطهر تماماً وتجهز تجهيزاً أفضل كثيراً من ذى قبل » . وإلى هذين وإلى غيرهما من الأصدقاء أرسل « رسائل من إيطاليا » مازالت تحوى نبض الحياة الإيطالية السريع . وقد قدمها بالشعار القديم « Auch in Arkadien -هوأيضاً كان الآنفى أركاديا . وقد رأينا فى موضع آخر من الكتاب مبلغ شكره على ضوء الشمس . فقد صاح عند دخوله إيطاليا » إنى أومن بالله من جديد ! »[٦٠] ولكنه أحب الشعب الإيطالى أيضاً ، وجوههم وقلوبهم الطلقة ، وطبيعية حياتهم ، وحرارة حديثهم ومرحه . وإذ كان عالماً كما كان شاعراً ، فإنه لاحظ الخصائص الخاصة بالظواهر الجوية ، والتكوينات الجيولوجية ، والعينات المعدنية ، وأنواع الحيوان والنبات ، وأحب حتى السحالى المارقة فوق الصخور .

وبلغ من شدة شوقه للوصول إلى روما أنه مر مرور الكرام بفنيسيا ولمبارديا وتسكانيا ولكنه تلبث فى فتشنتسا وقتا كفى لأشعاره ببساطة معمار بلاديو وقوته الكلاسيكيتين . وعاد يؤكد من جديد نفوره من الطراز القوطى .

« لقد تحررت إلى الأبد — ولله الحمد — من كل ميل إلى تلك الأعمدة الشبيهة بقصبات التدخين ، وقلاعنا الصغيرة المتوجة بأبراج الكنائس ، والأطراف المورقة لمبانينا ! . . . لقد فسح بلاديو أمامى الطريق لكل . . . فن »(٦١) .
وعاد بهذا الطريق إلى فتروفيوس الذى درسه فى طبعة أشرف عليها جاليانى ، صاحبنا الظريف القادم من نابلى وباريس . واستحال الطراز الكلاسيكى الآن غراماً عنده ، يلون كتاباته وفكره ، ويعيد صياغة بعض أناجيه القديم ، مثل « افجينى » و « تاسو » فى قالب وخط كلاسيكيين . وفى البندقية بدت قصور الباروك فى عينيه مسرفة فى البهرج ، مفرطة فى الأناقة النسائية ؛ لابل إنه انصرف عن واجهات النهضة إلى أطلال العمائر والتماثيل الكلاسيكية فى المتاحف . ولكن دمه الحار تجاوب مع لون فيرونيزى وتتسيانو وكبريائهما .

وقد بحث فى فرار عبثاً عن القصر الذى حبس فيه تاسو . وبعد أن قضى ثلاثة أيام فى بولونيا وثلاث ساعات فقط فى فلورنسة انطلق حثيثاً عبر بروجه وتيرنى وتشيتا دى كاستيللو ، وفى ٢٩ أكتوبر ١٧٨٦ ركب إلى روما مخترقاً « البورتا ديل بوبولو » (بوابة الشعب) وأحس الآن بلحظة عابرة من التواضع « كل الطرق مفتوحة أمامى لأنى أسير بروح التواضع »(٦٢) .

وإذ لم يكن قد تمكن بعد من لغة الحديث الإيطالية ، فقد بحث عن الجالية الألمانية ، لاسيما الفنانين الألمان ، لأنه تطلع إلى أن يتعلم على الأقل أصول الرسم والتصوير والنحت . وأعجبت انجليكا كاوفمان بحماسته ووسامته فرسمته فى صورة أبرزت شعره الأسود وجبينه العالى وعينيه الصافيتين . وارتبط بصداقة حميمة مع يوهان هاينريش فلهلم تيشباين . الذى أسلمه لنا فى لوحته الشهيرة « جوته فى الريف »(٦٣) . يستلقى فى استرخاء كأنه فتح أركاديا . وكان جوته قد راسل هذا المصور قبل حضوره إلى إيطاليا بزمن طويل ، ثم التقيا لأول مرة فى ٣ نوفمبر ، حين اجتمعا فى « بياتسا سان بيترو (ميدان القديس بطرس) . وتعرف الشاعر على الفنان ، وقدم إليه نفسه ببساطة « أنا جوته »(٦٤) ، ووصفه تيشباين فى خطاب إلى لافاتر بهذه العبارات :

« وجدته تماماً كما توقعت . ولم يدهشني غير الرزانة والهدوء فى رجل له هذه الحساسية الناشطة ، ثم قدرته على الاسترخاء والتصرف بحرية فى جميع الظروف . وما يسرنى أكثر حتى من هذا هو بساطة حياته . فكل ما طلبه منى كان فى إعداد حجرة صغيرة يستطيع أن ينام فيها ويعمل دون إزعاج ؛ ثم أبسط الطعام . . . وهو يجلس الآن فى تلك الحجرة الصغيرة عاكفاً على قصة « افجينى » من الصباح الباكر إلى الساعة التاسعة . ثم يخرج لدراسة روائع الفن »(٦٥) .

وكثيراً ما كان تيشباين مرشداً له فى جولاته هذه ، ورتب تزويده بما طلب من الرسوم ، وحصل له على نسخ من الصور الأكثر شهرة . وقد رسم جوته بنفسه رسوماً تخطيطية للصور التى أراد تذكرها بنوع خاص . ثم جرب النحت ، ونحت رأساً لهرقول . واعترف بأنه غير موهوب فى الفنون التشكيلية ، ولكنه شعر أن هذه التجارب تعطيه إحساساً أفضل بالشكل ، وتساعده على تصور ما يريد وصفه(٦٦) . ثم أكب على كتاب فنكلمان « تاريخ الفن القديم » ، « هنا على الطبيعة أجده ثميناً جداً . . . والآن يستطيع عقلى فى النهاية أن يتسامى إلى أعظم وأنقى إبداعات الفن فى مأمن هادىء »(٦٧). « إن تاريخ العالم كله يربط نفسه بهذه البقعة ، وأحسبنى ولدت . . . ولادة جديدة صادقة منذ اليوم الذى دخلت فيه روما . . . أظننى تغيرت إلى الصميم »(٦٨) . ويبدو أنه استمتع خلال ذلك بالفن الحى الذى قدمته الموديلان « اللذيذات » اللائى جلسن للمصورين فى مراسمهم(٦٩) . وأنهت إقامته فى روما ذلك التخلص من النزعة الرومانتيكية الذى بدأ بمسئوليات المنصب . وبدأ الآن تمرد جوتز على القانون ، ودموع فرتر ، فى نظر جوته الذى أخذ ينضج كأنها أمارات عقل غير متزن ، « ان الرومانتيكية مرض ، والكلاسيكية صحة »(٧٠) . وقد كان فى تحمسه الجديد للآثار الرخامية والأعمدة والتيجان والقواصر الكلاسيكية والخطوط النقية للتماثيل اليونانية مسحة رومانتيكية . « إذا شئنا حقاً نموذجاً نحتذيه ، فعلينا دائماً أن نرجع إلى قدماء اليونان ، الذين يتمثل فى أعمالهم دائماً جمال الإنسان »(٧١) . وقد رأى جوته ، كلما رأى فنكلمان ، الجانب « الأبوللونى » للحضارة

والفن اليونانيين فقط — تمجيد الشكل والقصد ، وكاد الآن يتجاهل تلك النشوة « الديونيسية » التى لونت الخلق والدين والحياة اليونانية تلويناً دافئاً جداً ، والتى أعربت فى جوته ذاته عن نفسها خلال « قرينه » وغرامياته .

فى هذا الوجد الكلاسيكى أعاد كتابة « افجينى فى تاوريس » شعراً (١٧٨٧) ، واعتزم أنه ينافس راسين ، لا بل يوريبيدس نفسه . وإذ كان قلبه لا يزال محتفظاً بجمرات النار التى أضرمتها فيه شارلوته فون شتين ، فقد سكب فى أحاديث الأميرة اليونانية شيئاً من رقة البارونة الألمانية وتمالكها نفسها . وروى القصة القديمة جداً ، بكل ما فيها من تعقيدات الميثولوجية والأنساب ، وزاد من حدة الدراما بتصويره الملك السكوذى تصويراً متعاطفاً ، وأقدم على تغيير الخاتمة لتتوافق مع الفكرة — النادرة بين اليونان — التى تزعم أن على الإنسان التزامات حتى للبرابرة (الهمج أوغير اليونان) . ولا يستطيع تقدير انجاز جوته حق قدره إلا الذين يقرءون الألمانية بطلاقة ، ومع ذلك قال ايبوليت تين ، وهو رجل فرنسى ، وناقد فذ ، خبير على على الأرجح بدرامات راسين : « انى لا أفضل أى عمل أدبى حديث على درامة جوته افجينى فى تاوريس »(٧٢) .

وقد أحيت ذكريات شارلوته فى هذه المسرحية ، ثم فى « تاسو» « أكثر منها ، اللتين أعاد كتابتهما فى روما ، شعوره من نحوها . لقد أصابها بجرح عميق هروبه المفاجىء إلى إيطاليا وتركه ولدها فى عهدة خادم ، فأعادت فرتز لفورها ، وطالبت جوته برد كل الرسائل التى كتبتها له . فكتب معتذراً من روما (٨ و١٣ و ٢٠ ديسمبر ١٧٨٦) ، وبعثت إليه (١٨ ديسمبر) بتذكرة فيها لوم « حلومر» فكان رده (٢٣ ديسمبر) « ليس فى طاقتى أن أصف لك كيف يدمى قلبى أنك مريضة ، ومريضة بسبب غلطتى . فاصفحى عنى . لقد صارعت أنا نفسى الموت والحياة ، وما من لسان يقوى على النطق بما كان يعتمل فى داخلى . « وأخيراً لانت . فكتب لها أول فبراير ١٧٨٧ « الآن أستطيع أن أنصرف إلى عملى وأنا أسعد مزاجاً لأننى تسلمت منك رسالة تقولين فيها انك تحبين رسائلى وتبتهجين بها » .

فى ذلك الشهر ذهب هو وتيشباين إلى نابلى وإرتقى فيزوف مرتين ؛ وفى محاولته الثانية غطى ثوران صغير للبركان رأسه وكتفيه بالرماد . ووجد متعة عظمى فى الأطلال الكلاسيكية فى بومبى ، وبهت للجلال البسيط الذى رآه فى المعابد اليونانية ببايستوم . فلما عاد إلى روما ركب البحر إلى بلرمو ، ومضى ليدرس المعابد الكلاسيكية فى سجستة وجرجنتى (أجرجنتو) ، ووقف فى المعبد اليونانى بتاورمينا ، ثم قفل إلى روما فى شهر يونيو . فلما تعاظم افتتانه بـ « أروع مدينة فى العالم كله »[٧٣] . أقنع الدوق كارل أوجست بأن يواصل دفع راتبه حتى نهاية ١٧٨٧ . فلما ان نفدت المهلة راض نفسه ببطء على العودة إلى الشمال . فغادر روما فى ٢٥ أبريل ١٧٨٨ ، وسافر على مهل عبر فلورنسه وميلان وكومو حتى بلغ فايمار فى ١٨ يونيو. وكان كل يوم يتساءل كيف يستقبل الدوق ، والحاشية ، وشارلوته ، رجلا يحس أنه تبدل إنساناً آخر .

٥ — جوته فى الانتظار ١٧٨٨ — ١٧٩٤

كان الدوق قد عين رئيساً جديداً للمجلس بموافقة الشاعر الغائب ؛ والآن أعفى جوته بناء على طلبه من جميع واجباته الرسمية عدا منصب وزير التعليم ، ولم يخدم المجلس بعدها إلا بصفة استشارية . وكان الدوق لطيفاً معه ، ولكنه كان قد اتخذ اخصاء غيره ، ثم إنه لم تعجبه العواطف الشبيهة بالنزعات الجمهورية التى استشفها من « إجمونت » بعد أن أعاد الشاعر كتابتها . أما جمهور القراء فقد نسى جوته أوكاد ؛ وأقبل على شاعر جديد يدعى شيلر ، وصفق بحماسة لتمثيلية « اللصوص » الزاخرة بروح التمرد والعنف الذى اتسمت به الحركة « الزوبعية » ، والذى بدأ الآن سخيفاً فجا فى عين شاعر يتأهب للتبشير بالنظام والقصد الكلاسيكيين . وأما شارلوته فون شتين فقد استقبلته ببرود . وأنكرت طول غيابه ، وتمهله فى العودة ، وتحمسه المتصل لإيطاليا ، ولعلها سمعت بـ « موديلات » روما . كتبت تقول إن لقاءهما الأول عقب وصوله كان « زائفاً كل الزيف فى طابعه ، ولم نتبادل شيئاً غير الملل »[٧٤] . ورحلت لتقيم فترة فى كوخبرج ، وصار جوته حراً فى التفكير فى كرستيانه فولبيوس .

وقد دخلت هذه الفتاة حياته فى ١٢ يوليو ١٧٨٨ إذ حملت إليه رسالة من أخيها . وكانت فى الثالثة والعشرين ، تعمل فى مصنع للأزهار الصناعية ، وراع جوته منها روحها النضرة ، وعقلها البسيط ، وأنوثتها المتفتحة . فدعاها إلى بيته ذى الحديقة لتعمل مديرة للبيت ، وما لبث أن جعلها خليلة له . ولم تنل حظاً من التعليم ، وقال « انها لاتستطيع فهم الشعر إطلاقاً[٧٥] ، ولكنها استسلمت له فى ثقة واطمئنان ، ومنحته تحقيق ذاته الجسدى الذى أنكرته عليه شارلوته فيما يبدو . وفى نوفمبر ١٧٨٩ ، حين أوشكت أن تصبح أما ، أخذها إلى بيته فى فايمار ، وجعلها زوجته علانية فى كل شىء إلا الإسم . وصدمت شارلوته والحاشية لتجاوزه الحدود الطبقية وعدم إخفائه العلاقة المحرمة . وقد أحزنه كثيراً هو وكرستيانه هذا الموقف ، ولكن الدوق المتمرس بالخليلات قام عراباً للطفل الذى ولد فى عيد الميلاد ١٧٨٩ ، وعمده فى أغسطس هردر الصارم ، الغفور رغم صرامته .

أما جوته ، الذى كثيراً ماكان عاشقاً ، ولكنه الآن فقط كان أباً ، فقد وجد الكثير من السعادة فى « الرجل الصغير » و « المرأة الصغيرة » . ودبرت له أمر بيته ، واستمعت إليه فى حب حتى وهى لاتفهمه ، ومنحته الصحة والعافية . قال لصديق منذ اجتازت هذه العتبة أول مرة لم ينلنى منها غير الفرح »[٧٦] . ولم ير فيها عيباً غير حبها للخمر حباً فاق حتى حبه ، وما أفضى إليه هذا أحياناً من المرح والقصف الذى لا يمكن السيطرة عليه . وكانت تختلف إلى المسرح ، وترتاد حفلات الرقص الكثيرة ، بينما يظل جوته فى البيت ويخلد ذكرها فى « المراثى الرومانية » Romische Elegien (١٧٨٩ — ٩٠) ، التى كتبها على طريقة بربروتيوس وبأخلاقيات كاتوللوس . وليس فى هذه « المراثى الرومانية » شىء حزين ، إنما تشتق اسمها هذا من بحر المراثى « elegiac » الذى تتناوب فيه البحور السداسية والخماسية التفاعل ؛ وهى لاتتصل بروما بل بأرملة طروب — نستشف من ورائها كرستيانه نفسها :

« كل ما تحويه أسوارك المقدسة أى روما الخالدة
يشغى بالحياة ، ولكنه فى ناظرى ساكن ميت .

أواه ، منذا يوشوش فى أذنى ؟ متى أشهد فى النافــذة
ذلك القد الجميل الذى يحيى وإن أحرق ؟
لا تندمى ياحبيبتى على أنك استسلمت هكذا سريعاً !
ثقى بى ، أراك غير جريئة ؛ إنما أشعر بالإجــلال . .
ان الاسكندر وقيصر وهنرى وفردريك ، هؤلاء الجبابرة ،
يودون أن يخلعوا على نصف المجد الذى ظفروا به
لو أننى وهبتهم ليلة واحدة على الأريكة التى أرقد عليها ؛
ولكنهم وا أسفاه يقعدهم ليل أوركوس فى قسوة .
فاغتبط إذن ، أيها الحى ، ناعماً فى بيتك المنور بالحب
قبل أن تبلل موجة «ليذى» الحزينة قدمك الهاربة »(٧٧)

وربما كانت تلك الأرملة الجميلة ذكرى من أيام روما ، ولكن دفء هذه الأبيات مبعثه كرستيانه . على أية حال ألم يكن يدرس الفن ؟

على أنه مما يعيننى على الدرس أيضاً أن أرسم
بيد حساسة تلافيف صدرها الجميــلة وأدع
الأنامل الحكيمة تنزلق هابطة على الفخذ النــاعم ،
لأننى هكذا أتمكن من صنعة النحات القديم ، وأتأمل ،
وأقــارن ، وأتعــلم أن آتى وأبصـــر
بعين شاعرة ، وأشعر بيد مبصرة(٧٨) .

ولم يرق نبيلات فايمار هذا العرض المرخص لمفاتنهن ، وحزنت شارلوته الوقور على انحدار بطلها « جالاهاد » لا بل ان كارل أوجست ذاته انزعج قليلا ، ولكن سرعان ما هدأت نفسه . وعندما كانت الدوقة الأرملة عائدة من إيطاليا أرسل الدوق جوته إلى البندقية ليصحبها إلى أرض الوطن . وطال مقامه هناك (مارس إلى يونيو ١٧٩٠) طولا ضايقه ، وتاق إلى كرستيانة ، وصب جام غيظه من الباعة الإيطاليين ووسائل النظافة الإيطالية فى « الابجرامات الفينيسية » — وهى ، أقل أعماله اغراء بالقراءة .

فلما عاد من البندقية وجد أن الثورة الفرنسية تبعث النشوة فى شباب ألمانيا ، والخوف فى حكامها . وكان الكثيرون من أصحابه ، وفيهم فيلاند

وهردر ، يصفقون للإطاحة بالاستبدادية الملكية فى فرنسا . أما جوته ، الذى أدرك أن كل العروش مهددة بالخطر ، فقد اتخذ موقفه إلى جوار الدوق ، وأشار عليه بالحيطة وقال إن أناساً كثيرون جداً « يجرون وفى أيديهم منفاخ بينما يلوح لى أن الأجدر بهم أن يبحثوا عن أباريق الماء البارد للسيطرة على النار[٧٩]. وأطاع أمر كارل أوجست له بأن يصحبه فى حملة الحلف الأول ضد فرنسا . وحضر معركة فالمى (٢٠ سبتمبر ١٧٩٢) ، ووقف هادئاً تحت النيران ، وشارك فى الهزيمة . وقد سجل ضابط ألمانى فى يوميته أن الشاعر — عضو المجلس الخاص ، حين طلب إليه التعليق على الحدث أجاب « منذ اليوم ومن هذا الموضع يبدأ عصر جديد فى تاريخ العالم »[٨٠] . وليس لدينا ما يؤيد هذه القصة . ومهما يكن من أمر ، فإن جوته هاجم الثورة بقوة حين عاد إلى فايمار ، وكانت تدخل فترة شططها ووحشيتها (١٧٩٢ — ٩٤) .

ورسخت هذه التطورات فى جوته ذلك التحول الطبيعى ، تحول العقل الآخذ فى النضج ، من التلذذ بالحرية إلى حب للنظام . وشعر جوته انه إذا كان فى استطاعة أى أحمق أن يكون مبتكراً ، فإن فى استطاعة أى أحمق أن يحيا كما يشاء »[٨١] منتهكاً العادات أو القوانين فى اطمئنان لأن غيره يراعونها . ولم يشعر بتحمس للديمقراطية ، فلو أتيح لنظام كهذا أن يمارس فعلا لكان معناه تسلط الغفلة والجهل والخرافة والهمجية . لقد كان لطيفاً سمحاً فى نطاق دائرته ، ينفق بعض دخله على أعمال البر المستورة[٨٢] ، ولكنه كان ينكمش من الجماهير . فإذا وجد بين الجماهير أو الأغراب انطوى على نفسه فى كبرياء وأحجام ، وكان يجد سعادته الوحيدة فى بيته . فى سنى القلاقل هذه (١٧٩٠ — ٩٤) ران عليه سبات كئيب أيقظته منه لمسة شباب شيلر المتحمس ومنافسة قلمه .

٦ — شيلر فى الانتظار ١٧٨٧ — ١٧٩٤

كان جوته فى إيطاليا حين وصل شيلر إلى فايمار . واعترف الشاعر المعسر بغيرته من عضو المجلس الخاص الغائب . «بينما هو يرسم فى إيطاليا ، يبذل النكرات

من الناس العرق من أجله كأنهم دواب الحمل . أنه يبعثر هناك راتباً قدره ١,٨٠٠ طالر ، وهنا عليهم أن يضاعفوا كدهم ليحصلوا على نصف هذا المال »(٨٣) . وفى ١٢ أغسطس ١٧٨٧ كتب بروح أكثر تعاطفاً .

« يتكلم الكثيرون هنا عن جوته فى شىء من الحب ، بل انهم أكثر حباً له وإعجاباً به إنساناً أكثر منه مؤلفاً . ويقول هردر إنه أوتى حكماً شديد الوضوح وعمقاً كبيراً فى الوجدان ، وعواطف نقية جداً . وجوته فى رأى هردر مبرأ من كل روح للدس والوقعية ، وهو لم يؤذ أحداً قط . . . وهو فى معاملاته السياسية يتصرف بصراحة وجرأة . . . ويقول هردر أن جوته أحق بالإعجاب كرجل دنيا منه شاعراً . . . وأن له عقلا يتسع لأى شىء »(٨٤) .

وكان الدوق غائباً حين حضر شيلر ، ولكن أنا أماليا وشارلوته فون شتين استقبلتاه استقبالا حاراً . وأخبره فيلاند أنه « ينقصه الصقل والوضوح والذوق »(٨٥) ، وتطوع بأن يصقله ، وسرعان ما أخذ الشاعر المتحمس يكتب المقالات لمجلة فيلاند « الرائد الألمانى » . وقد وجد ترفيهاً أحر مع شارلوت فون كالب ، التى كان لها كشارلوته الأخرى زوج واسع الأفق « ان الناس أخذوا يهمسون فى صوت عال بعض الشىء حول علاقتى بشارلوته . . . وقد كتب لى الهر فون كالب . وسيحضر فى آخر سبتمبر ، وسيؤثر وصوله كثيراً فى ترتيباتى . وصداقته لى لم يطرأ عليها تغيير ، وهو أمر مدهش ، لأنه يحب زوجته ، ويعلم بصلتى الحميمة بها . . . ولكنه لا يمكن أن يشك لحظة واحدة فى وفائها . . . ومازال كما كان ، الرجل الأمين الطيب القلب»(٨٦) .

وفى ٢٧ أغسطس ١٧٨٧ عرضت « دون كارلوس » أول مرة فى همبورج . وكان بشيلر من الولع بفايمار ما منعه من الذهاب لحضور العرض . وقد استقبلت تمثيليته هـــذه وهى أولى تمثيلياته الشعرية ، بالمديح والذم كليهما لأنها استسلام لأسلوب المأساة الفرنسية ، ولكن يعوزها الوحدة المسرحية التى تتطلبها قواعد أرسطو . وقد استهلت بالصراع بين فليب الثانى وابنه على حب اليزابيث أميرة فالوا ، ثم انتقل مركز الاهتمام فى منتصف التمثيلية

إلى كفاح الأراضي الواطئة للتحرر من السيادة الإسبانية ومن قسوة ألفا . وحاول شيلر أن يرسم صورة محايدة لفليب ، وقد صفق القراء البروتستنت لهذا النداء الذي وجهه المركيز بوزا إلى الملك :

يا صاحب الجلالة ،
لقد مررت مؤخراً بأرض فلاندر وبرابانت —
أقاليم كثيرة غنية موفقة ،
تزخر بشعب باسل عظيم أمين !
قلت في نفسي انه لشيء رائع حقاً
أن يكون الإنسان أباً لشعب كهذا !
ثم تعثرت قدمي فوق كومة من عظام رجال محترقة !
فليتك ترد لنا كل ما حرمتنا منه ،
وتدع السعادة تتدفق من نبع خيرك
لأنك قوى كريم النفس ؛ دع عقل الإنسان
ينضج في ملكك الشاسع . . . ويصبح
ملكاً حقاً بين مئات الملوك ! . . .
دع كل فرد من رعيتك يصبح ما كانه يوماً ما —
الغاية والهدف لرعاية المليك واهتمامه ،
لا يربطه واجب غير محبة الأخ لأخيه »[٨٧]

وهجر شيلر الدراما طويلا رغم نجاح دون كارلوس . وكان قد كتب إلى كورنر في ١٧٨٦ يقول « ان التاريخ يدخر لي مع كل يوم تال مغريات جديدة . . . وددت لو لم أدرس شيئاً غيره طوال عشر سنوات متصلة ؛ أظنني كنت أصبح مخلوقاً من نوع آخر . أترى أنه مازال أمامي متسع من الوقت للتعويض عما فقدت؟ »[٨٨] ولم يكن في استطاعته أن يعول نفسه ، فضلا عن أن يعول أسرة ، من حصيلة مسرحيات عارضة قد تذبل وتموت

موتاً مبكراً حتى بعد أن تحظى بعرض أول يصفق له النظارة . فلعل كتاباً ناجحاً فى التاريخ يكسبه من الشهرة العلمية ما يكفى للظفر بأستاذية فى جامعة يينا . هناك لن يبعد عن فايمار بأكثر من أربعة عشر ميلا ، وسيبقى فى نطاق سلطة الدوق وكرمه .

وعليه ، فبعد أن فرغ من « دون كارلوس » عكف على تأليف « تاريخ سقوط الأقاليم الواطئة المتحدة » . وإذ كان لا يقرأ الهولندية ، فقد اعتمد على مراجع ثانوية جمع من رواياتها تصنيفاً غير ذى قيمة باقية . وانتقد كورنر المجلد الأول (١٧٨٨) بأمانته المعهودة : « ان العمل الراهن ، مع كل مزاياه ، لا يحمل طابع تلك العبقرية التى أنت ميسر لها »[٨٩] . وتخلى شيلر عن الكتاب ، ولم يصدر مجلد ثان فى موضوعه .

وفى ١٨ يوليو ١٧٨٨ عاد جوته من إيطاليا ، وفى سبتمبر التقى بشيلر فى ضاحية رود ولشتات . وكتب شيلر إلى كورنر يقول : « ان الفكرة العظيمة التى كونتها عنه لم تنقص مثقال ذرة . . . ولكنى أشك فى أننا سنتقارب تقارباً وثيقاً يوماً ما . . . انه يسبقنى بمراحل . . . فلا يمكن أن نلتقى على الطريق . وقد سارت حياته كلها من بدايتها فى اتجاه معاكس لاتجاه حياتى . وعالمه ليس عالمى . وأفكارنا فى بعض النقاط متعارضة تعارضاً تاماً »[٩٠] . والحق أن الشاعرين كانا يبدوان وكأن العناية قصدت بهما أن يكره الواحد صاحبه . فجوته ، ذو التسعة والثلاثين ، قد وصل ونضج ، أما شيلر ، ذو التسعة والعشرين ، فكان يتسلق ويجرب ؛ ولم يتفقا إلا فى الأنانية المتعالية . كان أصغرهما من غمار الشعب ، رقيق الحال ، يكتب الشعر القريب من الثورية ؛ أما الآخر فكان غنياً ، رجلا ذا مكانة ومنصب مرموق ، عضواً فى المجلس الخاص يستنكر الثورة . وكان شيلر قد خرج لتوه من حركة « الزوبعية » ؛ كان صوت الوجدان والعاطفة والحرية والرومانس ؛ إما جوته ، الذى تولع باليونان ، فكان بكل ميوله مع العقل ، والقصد ، والنظام ، والأسلوب الكلاسيكى . على أية حال ليس من الطبيعى فى عالم المؤلفين أن يحب بعضهم بعضاً ، فهم إنما يسعون للظفر بذات الجائزة .

فلما أن عاد جوته وشيلر إلى فايمار لم يكن يفصل مسكنيهما غير مسيرة قصيرة ، ولكنهما لم يتصلا الواحد بالآخر . وساءت العلاقة بينهما بظهور نقد شيلر المناوىء لتمثيلية جوته « إجمونت» وقرر جوته أن أثينا الصغيرة » لا تتسع لكليهما . فنى ديسمبر ١٧٨٨ زكى شيلر إلكرسى فى التاريخ بجامعة يينا . وقبل شيلر المنصب مسروراً وزار جوته ليشكره ، ولكنه كتب إلى كورنر فى ٢٩ فبراير ١٧٨٩ :

لو طالت عشرتى لجوته لشقيت بها . فهو لا يهش حتى لأصدق أصدقائه ، ولا شيء يربطه . وأنا أومن حقاً أنه أنانى من الدرجة الأولى . وقد أوتى موهبة تطويق أعناق الناس بمجاملات صغيرة وكبيرة ، ولكنه يفلح دائماً فى أن يظل هو نفسه حراً . . . وأنا أنظر إليه على أنه تجسيد لنظام مدروس جيداً من الأنانية التى لا حد لها . وينبغى ألا يطيق الناس مخلوقاً كهذا بقربهم . وأنا أبغضه لهذا السبب ، وإن لم أملك إلا الإعجاب بعقله ، والتفكير فيه بسمو . لقد بعث فى مزيجاً عجيباً من البغض والحب»(٩١) .

وفى ١١ مايو ١٧٨٩ تسلم شيلر عمله فى يينا ، وفى ٢٦ مايو ألقى « خطاب الافتتاح» وموضوعه « ما التاريخ العالمى وما الهدف من دراسته » ؟ وإذ كان الدخول مجاناً ، فقد تبين أن الحضور يفوق كثيراً ما تتسع له الحجرة المخصصة ، وانتقل الأستاذ مع جمهوره فى هرج ومرج إلى قاعة فى الطرف الآخر من المدينة . وقد لقيت هذه المحاضرة ثناء مستطابا ، « فقد غنى لى الطلبة سريناداً فى تلك الليلة وهتفوا لى ثلاثا (٩٢) . غير أن عدد من سجلوا أسماءهم لحضور المحاضرات كان صغيراً — وكان الحضور نظير رسم يدفعه الطالب ، ومن ثم كان دخل شيلر من التدريس ضئيلا .

فأضاف إليه بالكتابة . وفى ١٧٨٩ — ٩١ أصدر على ثلاث دفعات « تاريخ حرب الثلاثين » . هنا وجد اليسر على الأقل من حيث اللغة ، وإن منعته مضايقات شديدة مرة أخرى من الرجوع إلى المصادر الأصلية ، وشوه حبه لإصدار الأحكام والتفاسف القصة وقطعها . ومع ذلك فقد رحب فيلاند بالكتاب دليلا على « قدرة شيلر على أن يرتفع إلى مستوى هيوم وروبرتسن

وجبون »[٩٣] . وبيعت سبعة آلاف نسخة من المجلد الأول فى السنة الأولى لصدوره .

وشعر شيلر الآن أن فى استطاعته إشباع شوقه إلى بيت خاص به ، وإلى امرأة تمنحه حبها ورعايتها . وكان قد أتيح له لمحة خاطفة لشارلوته وكارولينه فون لنجفيلد فى ما نهايم عام ١٧٨٤ . ثم رآهما ثانية فى رودولشتات فى ١٧٨٧ ، وكانت « لوته » تعيش هناك مع أمها ، أما كارولينه ، الشقية فى زواجها ، فكانت تسكن فى البيت المجاور . وكتب شيلر إلى كورنر يقول : [٩٤] « انهما لذيذتان رغم أنهما غير جميلتين ، وهما تسرانى غاية السرور . وهما مطلعتان على أدب العصر ، وتتوفر الأدلة على تمتعهما بتعليم راق جداً . وهما عازفتان ماهرتان على البيانو» . وأنكرت السيدة لنجفيلد فكرة زواج ابنتها من شاعر مملق ، ولكن كارل أوجست نفحه بمعاش صغير قدره مائتا طالر ، وأنعم عليه دوق ساكسى — ميننجن بشعار النبالة . وقد نبه لوته إلى أن فيه عيوباً كثيرة ، فقالت أنها لحظتها ، ولكنها أضافت « ان الحب حب الناس كما نجدهم ، وقبول مواطن ضعفهم إن وجدت بقلب محب» .[٩٥] وزفا فى ٢٢ فبراير ١٧٩٠ ، واتخذا منزلا متواضعاً فى يينا . وأتته لوته بدخلها البالغ مائتى طالر فى العام ، وأنجبت له أربعة أطفال ، وأثبتت خلال شدائده كلها أنها الزوجة الصابرة الحنون . كتب يقول « ان قلبى يسبح فى السعادة ، وعقلى يستمد قوة وعافية جديدتين»[٩٦] .

وعكف على عمله بهمة ، يعد محاضرتين كل أسبوع ، ويكتب المقالات ، والقصائد ، والتاريخ . وظل شهوراً يكد ويكدح أربع عشرة ساعة فى اليوم[٩٧] . وفى يناير ١٧٩١ أصيب بنوبتين من « الحمى النزلية » جلبتا معهما آلاماً فى المعدة وبصقاً للدم . وظل طريح الفراش ثمانية أيام ومعدته ترفض كل طعام . وأعان الطلبة لوته على العناية به و « تنافسوا أيهم يسهر معى . . . . وبعث إلى الدوق بست زجاجات من نبيذ ماديرا المعتق الذى أفادنى مع بعض النبيذ المجرى»[٩٨] . وفى شهر مايو أصابه « تشنج رهيب ، مصحوب بأعراض الاختناق ، فتراءى لى أن ساعتى قد دنت . . . ووعت

احبائى ، وظننتنى راحلا عن الدنيا فى أى لحظة . . . وخففت عنى كثيراً بجرعات قوية من الأفيون والكافور والمسك واستعمال عوامل التبثر»(٩٩) .

وأزعج أصحابه شائعة كاذبة بموته ، وصلت حتى كوبنهاجن . وهناك — بناء على اقتراحين من كارل راينهولت وينز باجيزن — وهما نبيلان دانمركيان — عرض الدوق فردريش كوستيان أمير هولشتين — أوجستنبورج والكونت إرنست فون شيملمان على شيلر منحة سنوية قدرها ألف طالر على مدى ثلاث سنين . فقبلها شاكراً . وأعفته الجامعة من التدريس ولكنه ظل يحاضر فرقة خاصة صغيرة . ثم خصص بعض فراغه الجديد ، بناء على اقتراح من راينهولت ، لدراسة فلسفة كانط التى قبلها كاملة تقريباً ، وهو ما أضحك جوته وأثار اشمئزاز هردر ، وربما ألحق بعض الأذى بشعر شيلر .

ونشر الآن (١٧٩٣) مقاله الطويل « فى الكياسة والكرامة » الذى استهل التربية الرومانسية « للروح الجميلة » . وقد عرف هذه الروح الجميلة بأنها تلك التى « ينسجم فيها العقل والحواس ، والواجب والميل ، وتجد هذه كلها التعبير الخارجى فى الكياسة »(١٠٠) . ولا بد أن المتبرعين الكوبنهاجيين قد هالهم أن يتلقوا ، كبعض الرد على منحتهم ، كتيباً عنوانه « رسائل فى التربية الجمالية (الاستطيقية) للإنسان » (١٧٩٣ — ٩٤) . وقد بدأ شيلر بفكرة كانط عن الإحساس بالجمال كتأمل نزيه للصور المتناسقة ، ثم زعم (مع شافتسبرى) أن « الشعور الذى ينميه الجميل يهذب السلوك » ويصبح الحس الجمالى هو والفضيلة واحداً . وأنه لعزاء أن نقرأ ، فى هذا الرأى المنبعث من أيام فايمار المزدهرة ان شيلر (كجوته) رأى أن جيله منحل ، غارق فى انحطاط خلقى سحيق »(١٠١) .

فلما عاد من الفلسفة إلى الشعر وجد عناء فى استحضار « تلك الجرأة والنار المضطرمة التى كنت أملكها من قبل ، .. لقد أفسدنى الجدل النقدى»(١٠٢) . ولكنه أصر على أن « الشاعر هو الإنسان الأصيل الوحيد ، وليس أفضل الفلاسفة إلا كاريكاتورا إذا قيس به »(١٠٣) ، ورفع

وظيفة الشاعر فى تعليم البشر والتسامى بهم إلى مستوى الإلهام السماوى . وقد وصف فى قصيدة غنائية طويلة « الفنانون ١٧٨٩ » الشعراء والفنانين بأنهم يرشدون النوع الإنسانى إلى وحدة الجمال مع الفضيلة والحق . وفى قصيدة أخرى «آلهة اليونان» (١٧٨٨) امتدح اليونان على حساسيتهم الجمالية وإبداعاتهم الفنية ، وزعم ، فى إبهام حذر ، إن العالم بات كئيباً قبيحاً منذ حلت المسيحية محل الهيلينية . وكان واقعاً الآن تحت سحر جوته كما وقع جوته من قبل تحت سحر فنكلمان .

ولعل تصوير شيلر وجوته الرومانسى لليونان القديمة كان هروباً من المسيحية . فشيلر ينتمى إلى التنوير رغم بعض الفقرات الورعة ، شأنه فى ذلك شأن جوته ؛ وقد قبل إيمان القرن الثامن عشر بالخلاص عن طريق العقل البشرى لا النعمة الإلهية . واحتفظ باعتقاد ربوبى فى الله — شخصى فى الشعر فقط — وخلود غامض . ورفض الكنائس كلها البروتستنتية منها والكاثوليكية . ولم يكن يطيق المواعظ حتى مواعظ هردر . وقد كتب بيتين شهيرين فى اجرام عنوانه (عقيدتى) يقول فيهما :

أى دين أعترف به ؟ ولاواحد من كل
الأديان التى تذكرها لى . ولم ؟ بسبب الدين (١٠٤) .

وكتب إلى جوته فى ٩ يوليو ١٧٩٦ يقول « ان الطبيعة السليمة الجميلة — كما تقول أنت نفسك — ليست فى حاجة إلى ناموس أخلاقى ، إلا إلى قانون لطبيعتها ، ولا إلى ميتافيزيقا سياسية . وكان فى وسعك أن تضيف أيضاً أنها ليست فى حاجة إلى إله ، ولا فكرة خلود تدعم وتصون بها ذاتها» . ومع ذلك كان فيه عوامل من الخيال والرقة ردته صوب المسيحية :

« اننى أجد أن المسيحية تحتوى فعلا على الأصول الأولى لكل ما هو أسمى وأنبل ؛ وصورها الخارجية المختلفة لا تبدو لنا بغيضة منفرة إلا لأنها تعبيرات سيئة عن الأسمى . . ولم يشدد أحد تشديداً كافياً على ما يمكن أن يكونه هذا الدين لعقل جميل أو على الأصح ما يمكن أن يفهمه منه

عقل جميل . وهذا يفسر نجاح هذا الدين نجاحاً كبيراً مع الطبائع الأنثوية ، وأنه فى النساء فقط يمكن احتماله إطلاقاً »[١٠٥] .

لم يكن شيلر كجوته مركباً من حيث بدنه للوثنية الخالصة . كان وجهه مليحاً ولكنه شاحب ، وقوامه فارعاً ولكنه نحيل هش . وكان يخشى تقلبات الجو اليومية ويؤثر القعود فى حجرته يدخن ويتنشق . وكان يقابل بينه وبين جوته مقابلة الفكرة ضد الطبيعة ، والخيال ضد العقل ، والعاطفة ضد الفكر الموضوعى[١٠٦] . وكان يجمع بين الحياء والكبرياء ، يخشى الخصومة ولكنه يرد دائماً على الهجوم ؛ سريع الغضب فاقد الصبر أحياناً ، [١٠٧] ربما لأنه كان عليماً بأن عمره ينفد ؛ يكثر النقد للغير ويحسدهم أحياناً [١٠٨]. وكان يميل إلى استخراج العبرة عن كل شىء ، وإلى الضرب على وتر مثالى عال . ومما يريح نفوسنا أن نراه يستمتع بغراميات قصة ديدرو «الحلى الواشية » [١٠٩] . وقد أجاد تحليل موهبته فى خطاب مبكر إلى جوته :

« لقد غلبنى عقل الشاعر عموماً حين كان ينبغى أن أفلسف . وغلبنى عقل الفيلسوف حين كنت أريد الشعر . وحتى الآن كثيراً ما يحدث أن يقتحم الخيال تجريداتى ، والفكر الهادىء نتاجى الشعرى . ولو استطعت السيطرة على هاتين القوتين بحيث أعين لكل منهما حدودها (كما كان جوته يفعل) لبقى لدى أمل فى التطلع إلى مصير سعيد . ولكن حين بدأت أعرف طاقاتى المعنوية واستخدمها على الوجه الصحيح ، هاجمنى المرض للأسف وهددنى بتقويض قواى البدنية »[١١٠] .

وعاوده المرض بعنف فى ديسمبر ١٧٩٣ ؛ ثم تماثل للشفاء ، ولكن إحساسه بأنه لاشفاء له منه وأنه يجب أن يتوقع نوبات راجعة أورثه الكآبة . فى ١٠ ديسمبر كتب إلى كورنر يقول « إننى أكافح هذا الشعور بكل قوى عقلى . . . ولكنى أصد دائماً . . . فإن غموض مستقبلى ؛ . . . والشكوك فى عبقريتى التى لايدعمها ولا يشجعها الاتصال بغيرى ، والافتقار التام لذلك الحديث العقلى الذى أصبح ضرورة لا غنى لى عنها » ؛ تلك كانت الأفكار الملازمة لمحنته الجسدية . وراح يتطلع فى تشوق ، من يينا لفيمار ،

إلى جوته الذى ينعم بعافية يحسد عليها ، ذلك « العقل السليم فى الجسم السليم » وأحس شيلر انه هناك يوجد الرجل الذى يستطيع أن يعطيه الحافز والدعم ، لو أن الجليد القائم بينهما ذاب ، وسقط حاجز الأميال الأربعة عشر الذى يفصل بينهما !

٧ — شيلر وجوته ١٧٩٤ — ١٨٠٥

وسقط الحاجز لحظة حين حضر الرجلان فى يونيو ١٧٩٤ جلسة عقدتها جمعية التاريخ الطبيعى فى يينا . فلما التقى شيلر بجوته وهما يغادران القاعة ، قال معلقاً أن العينات البيولوجية المعروضة فى المؤتمر تعوزها الحياة ، ولا ولا يمكنها أن تعين مشاهدها حقاً على فهم الطبيعة . ووافق جوته مشدداً ، وتجاذبا الحديث حتى بلغا بيت شيلر . وقال جوته فيما بعد مستعيداً ذكرى اللقاء « وأغرانى الحديث بالدخول معه وشرحت له . . . « تحور النباتات» — وهى مقالة زعم فيها جوته أن جميع النباتات تنويعات من نمط أولى واحد . وأن كل أجزاء النبات تقريباً تنويعات أو تطويران للورقة . « واستمع . . . إلى هذا كله بكثير من الاهتمام وبفهم واضح ، ولكن ما إن فرغت حتى هز رأسه وقال لى « ليست هذه تجربة ، إنما هى فكرة » ، أى أنها نظرية لم تثبتها الملاحظة أو الاختبار . وغاظ التعليق جوته ، ولكنه رأى أن لشيلر عقلا مستقلا ، فازداد احترامه له . أما زوجة شيلر « التى أحببتها وقدرتها منذ طفولتها ، فقد بذلت قصاراها لتوثق تفاهمنا المتبادل »[١١١] .

وفى مايو ١٧٩٤ كان شيلر قد وقع عقداً بالإشراف على تحرير مجلة أدبية شهرية «تسمى داى هورين والهوراى » فى المتيولوجيا الإغريقية ربات الفصول . وكان يأمل أن يجند للمجلة كانط ، وفشته ، وكلوبشتوك ، وهردر ، وياكوبى ، ويايجزين ، وكورنر ، ورايهولت ، وفلهلم فون همبولت ، وأوجست فلهلم فون شليجل ، ثم جوته — أفضل صيد يطمع فى اقتناصه . وفى ٣ يونيو أرسل إلى فايمار رسالة موجهة إلى « السيد الكريم المحتد ، الرفيع المقام ، المكرم ، عضو المجلس الخاص » ، تحتوى على نشرة تمهيدية للمجلة المقترحة ، وأضاف : « أن الورقة المرافقة تعرب عن

رغبة عدد من الرجال الذين يقدرونك تقديراً بغير حدود فى أن تشرف الدورية بمقالات من قلمك ، يجمع الكل بصوت واحد على عظم قيمتها . ونحن نشعر ياصاحب السعادة بأن موافقتك على دغم هذا المشروع ستكون ضماناً لنجاحه »(١١٢) . ورد جوته بأنه يسره المشاركة بمقالاته . وأنه « على ثقة من أن الاتصال الأوثق بالرجال الأصلاء الذين يؤلفون لجنتكم سيبعث حياة جديدة فى كثير مما هو راكد الآن فى باطنى(١١٣) .

وهكذا بدأ تراسل يعد من ذخائر تاريخ الأدب ، وصداقة اتصلت إحدى عشرة سنة — حتى موت شيلر — فيها من تبادل الاحترام والعون ما ينبغى أن يدخل فى تقديرنا للنوع الإنسانى . وربما كان أكثر هذه الرسائل الباقية كشفاً — وعددها ٩٩٩ — هى الرسالة الرابعة (٢٣ أغسطس ١٧٩٤) ، التى حلل فيها شيلر — بعد عدة لقاءات مع جوته جمعت بين المجاملة والصراحة وبين التواضع والاعتزاز بالنفس ، الفارق بين عقليهما . قال :

« إن أحاديثى الأخيرة معك حركت كل ذخيرة أملكها من الأفكار . . . فكثير من الأشياء التى لم أستطع أن أصل فيها إلى تفاهم خاص مع نفسى تلقت ضوءاً جديداً غير متوقع من تأملى لعقلك (فهكذا أسمى التأثير العام لأفكارك على) . . لقد أعوزنى التجسيد لعدد من أفكارى التأملية ، وأنت وضعتنى على الطريق المفضى إليه . وأسلوبك الهادىء الواضح فى النظر إلى الأشياء يعصمك من التيه فى الطرق الجانبية التى كثيراً ما يشرد بى فيها تأملى وخيالى المستبد . ان حدسك الصائب يدرك كل الأشياء ، ويدركها على نحو أكمل كثيراً مما ينشده المرء فى عناء بالتحليل . . . وعقول كعقلك قل أن تعرف إلى أى حد بعيد نفذت وتغلغلت ، وأنه ما من داع يذكر يدعوها للاستعارة من الفلسفة ، التى لا تستطيع فى الواقع إلا أن تتعلم منها . . . ومع أننى فعلت هذا على بعد ، إلا اننى طالما راقبت المسار الذى سلك فيه عقلك . . أنت تبحث عن الضرورى فى الطبيعة ، ولكنك . . . تنظر إلى الطبيعة بوصفها كلا حين تحاول جعل الضوء يلقى على أجزائها الفردية ، أنت تبحث عن تفسير الفرد فى جماع مظاهرها المتنوعة (١١٤) .

أما رد جوته (٢٧ أغسطس) فقد تجنب فى ذكاء تحليل عقل شيلر :

« ماكنت لأتلقى بمناسبة عيد ميلادى الذى وقع هذا الأسبوع هدية أجمل من رسالتك التى تلخص فيها حياتى بيد ودود ، وتشجعنى فيها بتعاطفك على استخدام قدراتى استخداماً أكثر مثابرة ونشاطاً . وسيكون من دواعى سرورى أن أكشف لك حين تتاح لى الفرصة ماكانه حديثك لى ، وكيف أننى أنا أيضاً أعد تلك الأيام مرحلة متميزة فى حياتى ، لأنه يبدو لى اننا لانملك بعد هذا اللقاء غير المتوقع إلا أن نطوف فى دروب الحياة معاً » .

وتابع جوته هذه الرسالة (٤ سبتمبر) بدعوة لشيلر ليحضر إلى فايمار وينفق معه أياماً فيها . « سيكون فى استطاعتك أن تشرع فى أى عمل تشاء دون أن يزعجك أحد . وسنتجاذب الحديث معاً فى أوقات ملائمة . وفى ظنى اننا لن نفترق دون أن تحقق بعض الكسب . وعليك أن تعيش هنا تماماً كما تحب ، وكما لوكنت فى بيتك ما أمكن ذلك » . ولم يتردد شيلر فى القبول ، ولكنه حذر جوته قائلا « ان تشنجات الربو التى أعانى منها تلزمنى الفراش طوال الصباح لأنها لاتسمح لى بأى راحة فى الليل » . وهكذا كان شيلر ضيف جوته وعليله تقريباً من ١٤ إلى ٢٨ سبتمبر . وأعتنى أكبر الرجلين بالشاعر العليل عناية رفيقه ، وحماه من المضايقة ، وبذل له النصح فى أمر غذائه ، وعلمه حب الهواء الطلق . كتب شيلر (٢٩ سبتمبر) بعد عودته إلى يينا يقول « أجدنى فى بيتى مرة أخرى ، ولكن أفكارى لاتزال فى فايمار . ولا بد لى من وقت طويل أحل فيه خيوط كل الأفكار التى أيقظتها فى » . ثم (٨ أكتوبر) ، ناشده بما عهد فيه من تحمس « يبدو لى انه من الضرورى أن نصل فوراً إلى قدر من التفاهم الواضح حول أفكارنا عن الجميل » .

ثم تلا ذلك شهور ثلاثة من التحضير للعدد الأول من مجلة « هورين » الذى صدر فى ٢٤ يناير ١٧٩٢ ، والثانى فى أول مارس . والأعداد الباقية شهرياً على مدى ثلاث سنين ؛ وكتب جوته من فايمار (١٨ مارس) يقول « إن الناس يتهافتون عليها ، ويتخاطفون أعدادها ، ولما كنا لنطمع فى أكثر

من ذلك لهذه البداية » . وفى ١٠ أبريل كتب شيلر لجوته يقول « لقد كتب لى كانط خطاباً ودياً جداً ، ولكنه طلب مهلة لإرسال مقالاته . . . ويسرنى أننا أغرينا الطائر العجوز بالانضمام إلينا . » وطلب جوته أن تنشر مقالاته غفلا من التوقيع ، لأنها اشتملت على عدد من « مراثيه الرومانية » ، وكان عليماً بأن نزعتها الشيقة القوية ستبدو غير لائقة بعضو فى المجلس الخاص .

وفى حماسة النجاح المتهورة أقنع شيلر جوته بأن يشترك معه فى إصدار دورية أخرى « التقويم السنوى للشعر » صدرت كل سنة من ١٧٩٦ إلى ١٨٠٠ . وأطرف ما احتوته هو الأبجرامات المسماة Xenien والتى صاغها الشاعران على غرار ابجرامات مارتيال Xenia (اكسنيا) التى كانت تكتب هدايا للضيوف . وقد وصف شيلر المشروع لكرونر فقال : « ان العملية كلها تجميع لأبجرامات ، كل منها مقطع شعرى من بيتين . وهى فى أكثرها هجائيات عنيفة شيطانية ، موجهة بصفة خاصة ضد المؤلفين وأعمالهم ، يتخللها هنا وهناك ومضات خاطفة من الأفكار الشعرية أو الفلسفية . فسيكون هناك عدد لا يقل عن ستمائة من هذه المقطوعات »(١١٥). وكان جوته قد اقترح هذه الفكرة ذريعة لرد اللطمات إلى نقادهما ، وللسخرية من المؤلفين المغرورين وأصحاب الميول البورجوازية ، ولتنبيه جمهرة القراء الألمان إلى الاهتمام بالأدب اهتماماً أشد . وعزما على أن يطلقا هذه « الهدايا » على معسكر الرجعيين « كالثعالب المشتعلة الذيول » . (١١٦) وكانت الأبجرامات بلا توقيع ، وكان بعضها نتاجاً مشتركاً للمتآمرين كليهما . وإذ كان الكثير من هذه الذيول المشتعلة موجهاً ضد مؤلفين طواهم النسيان أو جدليات لا يذكرها الناس الآن ، فإن الزمن أطفأ نارها ؛ ولكن واحداً منها بقلم جوته يستحق منا التنويه الخاص :

« جاهد دائماً فى سبيل الكل ، وإذا لم تستطع أنت نفسك أن تصبح كلا ، فاربط نفسك إلى كل ما يوصفك جزءاً تابعاً » .

وهناك إبجرام آخر يعزى عادة إلى شيلر يفصل الفكرة :

« أتخاف الموت؟ أتريد الحياة دون أن تموت؟ إذن عش فى الكل !

فسوف يبقى بعد أن تموت بزمن طويل . » وقد جر عليهما الجزء الهجائى من الاكزامات هجمات مضادة آلمت شيلر واضحكت جوته . ونصح جوته شيلر بأن يجعل من عمله الرد الوحيد على هذا الهجوم . « بعد مغامرتنا المجنونة فى الاكزامات ، علينا أن نحرص على العكوف على أعمال الفن العظيمة الجليلة دون غيرها ، وأن نخزى جميع خصومنا بتحويل طبائعنا المتقلبة إلى صور نبيلة »(١١٧) .

وهكذا كان ، فنى سنى صداقتهما النامية تلك كتب جوته وشيلر بعضاً من اروع قصائدهما : فكتب جوته « عروس كورنت » و « الأله والبايدير » ؛ وكتب شيلر « المسيرة » (١٧٩٥) و « كراكى أبيكوس » (١٧٩٧) و « أنشودة الناقوس » (١٨٠٠) . وأضاف شيلر مقالا كبيراً فى « الشعر الساذج العاطفى » (١٧٩٥) — وطلع جوته على الناس بقصته « تلمذة فلهلم ما يستر » (١٧٩٦) .

وقد عنى شيلر بالشعر الساذج العاطفى ، ذلك الشعر المنبعث عن الإدراك الحسى الموضوعى مقابل الشعر الذى ينشئه الوجدان التأملى ؛ وكان فى طويته يقارن بين جوته وشيلر . أما الشاعر «الساذج» فليس بسيطاً ولاسطحياً ولا مخدوعاً ، إنما هو شاعر توافق فى يسر مع العالم الخارجى بحيث لايشعر بأى تعارض بينه وبين الطبيعة ، بل يجد طريقه إلى الواقع بالحدس المباشر غير المتردد : ويستشهد شيلر بهومر وشكسبير مثالين على فكرته . وكلما أصبحت المدنية أكثر تعقيداً وافتعالا فقد الشعر هذه المباشرة الموضوعية والانسجام الذاتى ؛ ودخل الصراع النفسى ، وكان على الشاعر أن يقتنص من جديد بالخيال والوجدان هذا التوافق والاتحاد بين النفس والعالم — كمثل أعلى يتذكره أو يتطلع إلى تحقيقه ؛ ويغدو الشعر عندئذ تأملياً ، يلبد الفكر سماءه(١١٨) . وكان شيلر يعتقد أن معظم الشعر اليونانى من النوع الساذج أو المباشر . ومعظم الشعر الحديث حصيلة التنافر والتفكك والشك . والشاعر المثالى هو الذى يصهر المدخلين جميعاً — البسيط والتأملى — فى رؤية واحدة وصورة شعرية واحدة . وقد ذكر جوته فيما بعد أن هذا المقال أصبح مصدراً للجدل بين الأدب والفن الكلاسيكيين والرومانتيكيين .

ونمو فكرة « تلمذة فلهلم ما يستر » من بدايتها إلى تمام تنفيذها يوضح منهج جوته فى الخلق . فقد تصور القصة فى ١٧٧٧ ، وأتم الكتاب الأول فى ١٧٧٨ ، ثم نحاه جانباً ، ولم يكمل الكتاب الثانى حتى يوليو ١٧٨٢ . ثم عكف على الكتاب الثالث حتى نوفمبر من ذلك العام ، وعلى الرابع حتى نوفمبر ١٧٨٣ ؛ أما الكتابان الخامس والسادس فقد امتد بهما الزمن ثلاث سنين خرى . وقد أطلق على الكتب الستة « انطلاق فلهلم ما يستر المثير » وقرأ أجزاء منها على بعض أصحابه ، ثم طرحها جانباً . وعاد إلى القصة فى ١٧٩١ بإلحاح من هردر وآنا آماليا ، وأضاف إليها كتابين فى ١٧٩٤ ، ثم عرض المخطوط المتعاظم على شيلر ، الذى رد بانتقادات واقتراحات وتشجيع كلما وافاه المؤلف بصفحات جديدة ، وكأنها صورة لقابلة تعين الأم على ولادة فات أوانها . وأخيراً ، فى ١٧٩٦ ، دفع جوته بالمؤلف كله إلى المطبعة . لا عجب إذن أن كانت الحصيلة النهائية مشوهة تشوهاً طفيفاً ، ضعيفة البناء ، « دهنية » القوام ، مهوشه ، ممتازة فى أجزاء فقط ، وفى عكسها لتردد جوته بين الاهتمامات المتضاربة ، والمثل العليا الغامضة . لقد كان الحسم والثقة بالنفس ، اللذان نعته بهما شيلر ، هما الستار المتكبر للتذبذب والصراع الداخليين .

وقد عبر الكتاب عن فترة التلمذة فى النقابات الحرفية الألمانية ، وخلال زمن الوصاية هذا أصبح فلهلم « معلماً » فموضوع القصة المطوف إذن هو هو تلمذة فلهلم البطيئة الأليمة فى نقابة الحياة . وبسبب مسارح العرائس التى أحبها جوته طفلا ، واهتمامه المتصل بالمسرح ، ربط القصة بفرقة من الممثلين تجتاز مدناً كثيرة وتتقلب عليها عشرات الغير دروساً فى الحياة وصوراً لأساليب العيش الألمانية . وإذ كان وفياً لعدم وفائه فقد أدخل بطله إلى مسرح الأحداث بهجراته خليلته ماريانه . وفلهلم ليس بالشخصية الفتانه . فهو يترك نفسه تساق من موقف لآخر أو من فكرة لأخرى على هوى الظروف أو بقوة الشخصية المفروضة عليه ، والمرأة هى التى تقوم بالمبادرة فى غرامياته . ولد بورجوازياً ، ومن ثم فهو يتعثر إعجاباً بالرجال النبلا

المولد ، ويأمل فى تواضع أنهم فى يوم ما سيعترفون بارستقراطية العقل . أما فيلينه فأكثر جاذبية منه : فهى ممثلة جميلة تشب بخفة من عشق إلى عشق ، ولكنها تجمل تطويفها الغرامى بمرح معد وعدم وعى بالإثم يحلها من خطيئتها . أما مينون الصغيرة ففريدة فى بابها ، تتبع أباها الشيخ فى إحساس بالواجب وهو يعزف عزفاً غير بارع على قيثارته فى جولات يجمع فيها الدراهم . ويقول جوته فى وصفها أنها تتكلم « المانية ركيكة جداً »[119] . ولكنه يجرى على لسانها تلك الأغنية الرائعة « أتعرف ذلك البلد » . وهى تقع فى غرام المراهقة بفلهلم الذى يحبها حبه لطفلة ، وتموت هى حزناً حين تراه بين ذراعى تريزا . وقد التقطها امبرواز توما من بين هذه الصفحات الثمانمائة ليجعل منها أوبرا حزينة ممتعة (١٨٦٦) .

وامتدح شيلر رصانة أسلوب القصة وصفاءه ، وما فى وصف الفرقة التمثيلية الجوالة من صدق ومطابقة للحياة ، ولكنه أشار إلى تناقضات فى الترتيب الزمنى ، وشبه استحالات سيكولوجية ، وانتهاكات للذوق ، وأخطاء فى التصوير والتصميم »[120] . واقترح تغييرات فى الحبكة ، وأولى بأفكاره عن النحو الذى ينبغى أن تختم عليه القصة[121] . وقال له جوته مؤكداً ، « انى بالتأكيد سامتثل لرغباتك المنصفة مااستطعت[122] . ولكنه اعترف لأكرمان ، بعد ثلاثة وثلاثين عاماً ، بأنه بذل قصاراه ليحمى قصته من تأثير شيلر[123] . وكان نقاد آخرون أقل تعاطفاً ؛ فوصف أحدهم الكتاب بأنه ماخور متجول ، وشكت شارلوته فون شتين قائلة « حين يتناول جوته العواطف السامية يقذفها دائماً ببعض الأقذار ، وكأنما يريد بذلك أن ينكر على الطبيعة البشرية أى طموح إلى القداسة »[124] . على أن القصة لم تستحق هذه الانتقادات العشوائية ، ففيها الكثير من الصفحات السارة ، ومازال فى استطاعتها أن تثير شوق القراء الذين تحرروا من ضجيج العالم وصخبه .

وفى ٢٣ مارس ١٧٩٦ ذهب شيلر إلى فايمار مرة أخرى ضيفا على جوته . هناك عملا معاً فى خدمة المسرح . وكان جوته مديراً صارماً ، يختار التمثيليات المراد عرضها ، ويدرب الممثلين . « فاستبعد كل ماكان كئيباً

أو ضعيفاً أو باكياً أو هش العاطفة ، كما استبعد تماماً كل ماكان مخيفاً أو مرعباً أو نابياً »[١٢٥] . أما الجمهور فاقتصر عادة على البلاط ، إلا حين يدعى بعض الطلاب من يينا . وقد عاق أوجست فون شليجل على هذا الوضع تعليقاً لاذعاً « أن لألمانيا مسرحين قوميين — فيينا بجمهور من خمسين ألف مشاهد ، وفيمار من خمسين »[١٢٦] .

وعاد شيلر إلى يينا فى ١٢ أبريل ، وقد حفزه اتصاله المجدد بالمسرح لينصرف عن التاريخ والفلسفة والشعر العارض إلى الدراما . ولقد طالما فكر من قبل فى تأليف مسرحية عن فالنشتين ، فحثه جوته على الشروع فيها . وفى نوفمبر ذهب جوته إلى يينا ، وعاش حيناً فى اتصال يومى بشيلر . فلما عاد جوته إلى فيمار كتب إليه يقول « لايفتك أن تستغل أفضل أوقاتك ، حتى تمضى قدماً بمأساتك ، ليتسنى لنا أن نشرع فى مناقشتها »[١٢٧] .

وبينما كان شيلر عاكفاً على تأليف « فالنشتين ، شحذ روح المنافسة فى جوته نجاح « لويزه » (١٧٩٥) التى ألفها يوهان هينريش فوس قصة ريفية شعرية تمثل الحياة والعواطف الألمانية — فجرب هذا اللون المحبب ، ونشر فى ١٧٩٨ — « هيرمان ودوروتيا » . أما هيرمان فهو الإبن القوى السليم ، الخجول الهادىء ، لأب صفراوى المزاج وأم حنون يديران « الخان الذهبى » ومزرعة واسعة فى قرية قريبة من الراين . ويصل إلى علمهم أن مئات من اللاجئين قادمون من بلدة على التخوم استولى عليها الفرنسيون ، فتجهز الأسرة رزما من الثياب والطعام ، يحملها هيرمان إلى اللاجئين . ويجد بينهم صبية لها « نهدان بارزان » و « كاحلان رائعان »[١٢٨] تقدم للاجئين العون وأسباب الراحة . فيهيم بها ، وبعد شدائد لابد منها ، يصطحبها إلى بيته ويقدمها إلى أبويه بوصفها عروسه . ويروى الشاعر القصة فى أبيات متدفقة من البحر السداسى التفاعيل ، وصور الحياة الريفية الموجزة تضفى رواء على القصة ، وقد ابهجت النداءات لطرد الغزاة الفرنسيين الألمان المتحمسين لوطنهم والذين وجدوا مسرحيتى جوته « إفجينى » و « تاسو » غريبتين عويصتين . واكسبت الملحمة الصغيرة شعبية جديدة لمؤلف لم يظفر منذ « فرتر » إلا بقلة من القراء خارج دوقية ساكسى فايمار .

أما شيلر فكان نجمه فى صعود من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٠ . ففى ٢٨ نوفمبر ١٧٩٦ كتب إلى كورنر يقول « مازلت أطيل الفكر جاداً فى « فالنشتين » ، ولكن العمل التعس مازال أمامى بلا شكل ولا نهاية . « وقد بدأ المسرحية نثراً ، ثم نحاها ، ثم استأنفها شعراً . وكان على الإلمام بالمادة من الدراسات التى قام بها ليؤلف كتابه « تاريخ حرب الثلاثين » ، ولكنها بلغت من الوفرة والتعقيد فى الشخوص والأحداث مبلغاً أكرهه على الإقلاع عن محاولة ضغطها فى خمسة فصول . وقرر أن يقدم للدراما بتمهيد (برولوج) من فصل واحد سماه « معسكر فالنشتين » ، وأن يقسم الباقى إلى تمثيليتين . وشرحت الأولى مؤامرة خلع القائد المتمرد ، ووازنتها بغرام ملتهب بين ابنة فالنشتين وابن زعيم فى المؤامرة . وإما الدراما النهائية والأساسية فستكون « موت فالنشتين » .

فلما قرأ جوته التمهيد « راعه التصوير الواقعى لمعسكر الجيش ، والإعداد البارع للتطورات اللاحقة ، فأصر على عرض « معسكر فالنشتين » على مسرح فايمار (١٢ أكتوبر ١٧٩٨) قبل أن يكتمل القسم الأول ؛ وربما كانت هذه الطريقة ذكية لإلزام الشاعر بالعكوف على مهمته . وفى مطالع ١٧٩٩ ذهب شيلر إلى فايمار لإخراج التمثيلية الأولى ، فعرضت أول مرة فى ٣٠ يناير ولقيت قبولا حسناً . وعاد إلى يينا وراح يعكف بشكل محموم على « موت فالنشتين » . ويكشف خطاب فى ١٩ مارس ١٧٩٦ عن الحالة النفسية لكاتب خرج لتوه من أتون الخلق « لقد طالما روعتنى اللحظة التى سأفرغ فيها من عملى ، مع شدة رغبتى فى مجىء تلك اللحظة ؛ والواقع أننى أشعر بأن حريتى الراهنة أسوأ من حالة العبودية التى كنت أعانيها إلى الآن . فقد ذهب الآن الجمهور الذى اجتذبنى حتى الآن وألزمنى هذا هذا الواجب ، وأنا أحس كأننى معلق فى الهواء إلى مالا نهاية » .

وجاء ما يكفى من الإثارة مع التدريبات والعرض الأول (٢٠ أبريل ١٧٩٩) لموت فالنشتين . وكان نجاحها كاملا . وحتى جمهور فايمار النقاد أحس أنه شهد رائعة من روائع العرض الدرامى . ووصل شيلر الآن

إلى قمة تطوره . لقد قصر الخطب وكثف الحركة ، ورسم كل الشخوص الهامة بحيوية وقوة ، وجمع كل خيوط الحبكة معاً فى الخاتمة الفاجعة — وهى ذلك الموت المخزى لرجل عظيم دمره الطمع والكبرياء اللذان لاحدود لهما . وأحس شيلر أن فى وسعه الآن أن يقف على قدم المساواة مع جوته[١٢٩]، وكان على حق فى مضمار الدراما . وأضاف الدوق مائتى طالر لمعاش شيلر ، ربما بناء على اقتراح من جوته ، ودعاه للإقامة فى فيمار . وهكذا انتقلت الأسرة فى ٣ ديسمبر ١٧٩٩ إلى بيت قريب جداً من بيت جوته ، حتى أن الشاعرين ظلا حينا يلتقيان كل يوم [١٣٠] .

وكان شيلر خلال ذلك قد زج بنفسه فى مسرحية أخرى بعد أن حفزه انتصاره . كتب إلى كورنر فى ٨ مايو ١٧٩٩ يقول « شكراً لله ! لقد وقعت وقعت فعلا على موضوع جديد لمأساة » ودرس لهذه التمثيلية « مارياستيوارت» الخلفية التاريخية ، ولكن لم يدع أنه يكتب التاريخ ، فقد نوى أن يكتب تمثيلية يستخدم فيها التاريخ مادة وخلفية . فرتب من جديد الأحداث والتسلسل الزمنى ليخدما الاتساق والتأثير الدراميين ؛ وأكد على العناصر غير السارة فى خلق اليزابث ، وجعل من مارى بطلة مبرأة من كل دنس تقريباً ، ثم أتى بالملكتين وجهاً لوجه فى مواجهة درامية . والتاريخ لايعرف هذا اللقاء ، ولكن المشهد من أقوى المشاهد فى أدب المسرح . فلما أن عرضت فى فايمار فى ١٤ يونيو ١٨٠٠ انتشى شيلر مرة أخرى بنجاحه . وما وافى شهر يوليو حتى كان عاكفاً على تمثيلية « عذراء أورليان » . هنا أيضاً عدل التاريخ ليخدم هدفه : فبدلا من حرق العذراء صور جان دارك هاربة من آسريها الانجليز ، مندفعة إلى المعركة لتنقذ ملكها ، لاقية حتفها وهى منتصرة على ساحة القتال . وكان العرض الأول فى ليبزج (١٨ سبتمبر ١٨٠١) أعظم انتصار ظفر به شيلر طوال حياته .

أكان جوته يغار من صعود نجم صديقه فجأة على المسرح الألمانى؟ لقد اغتبط بهذا الصعود ، وظل بعد مضى ثمانية وعشرين عاماً يحكم على « موت

فالنشتين» بأنها « عظيمة حتى انك لاتجد لها نظيراً من نوعها » (١٣١) . على أنه لم يرفع قدر منافسه فى الشعر إلى المقام الذى رفعه إليه فى الدراما ، فقد أحس أن شيلر كدر صفاء شعره بالفلسفة ، وأنه لم يملك قط ناصية موسيقى الشعر تماماً (١٣٢) . وحين أراد بعض المعجبين بشيلر أن يقدموا على مسرح فايمار تعبيراً عن تقديرهم له ، منع جوته هذا العرض بحجة أن فيه غلواً فى التباهى (١٣٣) . وفى يوليو ١٨٠٠ ذهب إلى يينا للخلوة والدرس ، بينما ظل شيلر فى فايمار ، ولكن فى ٢٣ نوفمبر كان شيلر لايزال يتكلم عن جوته بعبارات الصداقة التى لم تشبها شائبة . وكان رأيه فى جوته أنه « أعظم رجل موهوب منذ شكسبير . . . وطوال سنى صداقتنا الحميمة الست لم يخامرنى أدنى شك فى نزاهته . لقد اتصف بأسمى صفات الصدق والإحساس بالشرف ، وأعمق الجد فى السعى إلى ما هو حق وخير »(١٣٤) . ثم أردف « وددت لو استطعت أن أبرر جوته بمثل هذه الحرارة من جهة علاقاته الأسرية ! . . . فبسبب أفكار خاطئة عن مقومات السعادة البيتية ، وخوف منكود من الزواج ، انزلق إلى ورطة تضنيه وتشقيه فى بيته ذاته ، وهو أضعف وألين قلباً من أن يتخلص منها . ذلك مغمزه الوحيد . » وقد أبت زوجة شيلر كغيرها من سيدات فايمار أن تستقبل كرستيانه فى بيتها ، وندر أن ذكر شيلر كرستيانه فى اتصالاته القائمة بجوته .

على أن هذه الصداقة بين « الديوسقورين » — كما كانا يلقبان أحياناً — رغم ما شابها من صدوع ، أثبتت على الأقل أن الانسجام ممكن بين عبقرية كلاسيكية وأخرى رومانتيكية . كانا يبعثان الرسائل الواحد لصاحبه كل يوم تقريباً ، ويتناولان العشاء معاً مراراً ، وكثيراً ما وضع جوته مركبته تحت تصرف شيلر ؛ وأهدى شيلر « شطراً من الطلب الذى سلمه الساعة تاجر النبيذ الذى أتعامل معه »(١٣٥) . كتب جوته فى ٢٠ أبريل ١٨٠١ : « لنتمشَ معاً قرب المساء » ، وكتب فى ١١ يونيو « وداعاً . بلغ تحياتى الرقيقة لزوجتك العزيزة ، واشرح صدرى عند عودتى (من جوتنجن) باطلاعى على بعض ثمرات جهدك » ؛ وفى ٢٨ يونيو ١٨٠٢ : « سيصلك مفتاح حديقتى وبيتى ؛ وأريدك أن تمضى هناك ما أمكنك من الأوقات

السعيدة » . وبعد موت شيلر باثنين وعشرين عاماً قال جوته لأكرمان ، «كان من حسن حظى . . . ان وجدت شيلر ، لأننا رغم اختلاف طبائعنا فإن ميولنا كانت تتجه إلى نقطة واحدة ، مما وثق صلتنا إلى حد استحال معه حقيقة على الواحد أن يعيش بدون الآخر» (١٣٦) .

وقد عوقهما المرض فى سنوات صداقتهما الأخيرة . ففى الشهور الثلاثة الأولى من سنة ١٨٠١ كان جوته يشكو العصبية ، والأرق ، والأنفلونزا العنيفة ، والخراريج التى أقفلت عينيه حيناً . وفى إحدى مراحل مرضه طالت غيبوبته حتى توقعت فايمار موته . وفى ١٢ يناير كتبت شارلوته فون شتين لولدها فرتز تقول : لم أكن أدرى أن صديقى السابق جوته ما زال عزيزاً جداً على ، وأن مرضاً خطيراً قهره منذ تسعة أيام سيهزنى إلى الأعماق » (١٣٧) . وأخذت أوجست ، ابن كرستيانه ، إلى بيتها فترة لتخفف الأعباء التى ألقاها مرض جوته على خليلته التى كانت تبذل له العناية دون كلل . وكان إبلاله بطيئاً إليماً . كتب إلى شارلوته يقول « صعب على المرء أى يجد طريقه إلى العودة (١٣٨) .

وفى ١٨٠٢ اشترى شيلر بيتاً فى فايمار لقاء ٧,٢٠٠ جولدن ، وكان الآن ميسوراً بفضل الحصيلة المتزايدة من مسرحياته الممثلة والمنشورة ؛ وساعده جوته ، وكان وقتها فى يينا ،على بيع البيت الذى كان يسكنه هناك . وفى ١٧ مارس ١٨٠٣ أخرج شيلر « عروس مسينا » ، وهى محاولة — اعترف بها لنفسه (١٣٥) — لمنافسة مسرحية سوفوكليس « أوديب» بتصوير النضال بين أخوين يعشقان امرأة يتبين أنها أختهما مستعيناً بكورس مقسم . ولم تحز المسرحية الرضى . وجاز جوته بنكسة مماثلة حين أخرج فى ١٨٠٣ « الإبنة الطبيعية » (أى غير الشرعية) .

وكان بين المشاهدين لعرض من عروض « الأبنة الطبيعية » سيدة لامعة هوائية هى جرمين نكر ، مدام دستال ، التى كانت تجمع مادة لكتابها « فن ألمانيا » وقد رأت شيلر أول مرة فى ديسمبر ١٨٠٣ :

« فى صالون دوق ودوقة فايمار ، فى جماعة جمعت بين الاستنارة

والنبالة . وكان يجيد قراءة الفرنسية ، ولكنه لم يتكلمها قط من قبل . وقد عبرت في شيء من التحمس عن تفوق نظامنا المرامى على ما عداه من الأنظمة قاطبة ، فلم يرفض منازلتى دون أن يشعر بأى ضيق لما يجد من مشقة وبطء في التعبير عن نفسه بالفرنسية . . . وسرعان ما اكتشفت الكثير جداً من الأفكار خلال عقبة ألفاظه ، وراعتنى جداً بساطة خلقه . . . فقد وجدته شديد التواضع ، . . . شديد الحيوية ، حتى لقد أخذت على نفسى العهد منذ تلك اللحظة بصداقة له ملؤها الإعجاب» [١٤٠] .

وقد أعد شيلر جوته للتعرف إليها ! « إنها تمثل الثقافة الفكرية لفرنسا في نقائها . . . ولا يعيبها غير تدفقها المفرط . ولابد للمرء أن يحول نفسه إلى جهاز سمع مركز واحد لكى يتابعها » [١٤١] . وأتى بها إلى جوته في ٢٤ ديسمبر . وكتب جوته يقول : « ساعة لذيذة جداً . لم أجد فرصة للنطق بكلمة . أنها تجيد الحديث ، ولكن بإسراف شديد . » وكانت روايتها عن اللقاء مطابقة لروايته مع تغيير طفيف ، فقد قالت إن جوته أكثر من الكلام حتى لم تجد فرصة للنطق بمقطع واحد[١٤٢] . وقد كان كتابها بمثابة كشف أماط لفرنسا اللثام عن المانيا « موطن الفكر » . كتبت تقول « لا يعقل ألا يكون الكتاب الألمان ، وهم أكثر الرجال في أوربا اطلاعاً وتفكيراً ، جديرين بلحظة انتباه تبذل لأدبهم وفلسفتهم »[١٤٣] .

واعتزم شيلر أن يسترد جمهوره الذى رفض « عروس مسينا » ، فاختار بناء على اقتراح جوته موضوعاً لدرامته التالية قصة وليم تل الشعبية : وسرعان ما عكف على الموضوع في لهفة وانفعال . قال جوته في ١٨٢٠ مستحضراً تلك الفترة ، وبعد أن جمع كل المادة الضرورية قعد للعمل ... ولم يبرح مقعده حتى فرغ من المسرحية . فإذا غلبه التعب أسند رأسه على ذراعه وأغفى هنيهة . . . وبمجرد أن يستيقظ كان يطلب . . . قهوة سوداء قوية ليظل يقظاً . وهكذا فرغ من المسرحية بعد ستة أسابيع[١٤٤] .

وقبل شيلر أسطورة شائعة — على أنها تاريخ — عن وليم تل قائد ثورة

السويسرين على النمسا فى ١٣٠٨ . كانت الثورة حقيقية ، وكذلك كان جسلر الوكيل النمساوى المكروه . وتروى الأسطورة أن جسلر تعهد لوليم تل بالعفو الكامل إذا أثبت براعته المشهورة فى استعمال القوس والسهام بإصابته تفاحة على رأس ولده . ووضع تل سهمين فى منطقته ، وأصاب التفاحة بأولهما . وسأله جسلر عم كان يريده بالآخر ؛ وأجاب تل «كنت أريدك أنت إن أصاب الأول ولدى » . ولقيت المسرحية الاستحسان فى فايمار فى ١٧ مارس ١٨٠٤ وفى كل مكان عرضت فيه بعدها بقليل ، وتبنتها سويسره جزءاً من تقاليدها القومية . فلما نشرت المسرحية بيع منها سبعة آلاف نسخة فى بضعة أسابيع . وأصبح اسم شيلر الآن أوسع ذيوعاً من اسم جوته .

ولكن أجله دنا ، إذ لم يبق له فى الحياة غير شهور . ففى يوليو ١٨٠٤ أصابته نوبة من المغص اشتدت حتى خشى طبيبه أن يموت وتمنى هو الموت. ثم تماثل للشفاء ببطء ، وشرع فى تأليف مسرحية أخرى اسمها « ديمتريوس» (« ديمترى الكاذب » الذى يذكره تاريخ روسيا) . وفى ٢٨ أبريل ١٨٠٥ رأى جوته آخر مرة ، ومن ذلك الاجتماع عاد جوته إلى بيته وأصيب هو الآخر بإصابة خطيرة بالمغص . وفى التاسع والعشرين بدأ مرض شيلر الأخير . كتب هينريش فوس يقول : « غارت عيناه فى رأسه ، وكان كل عصب فيه ينتفض متقلصاً » (١٤٥) . واتمرت عليه توترات الجهد الأدبى الضارة ، والتهاب أمعائه ، واعتلال رئتيه . قال جوته فيما بعد « إن شيلر لم يسرف فى الشراب قط ، وكان شديد الاعتدال فيه ، ولكنه اضطر فى ساعات ضعفه البدنى إلى تنشيط قواه بالمسكر»(١٤٦) . وفى ٩ مايو قابل شيلر الموت بهدوء عجيب : فقد ودع زوجته وأطفاله الأربعة وأصدقائه ، ثم نام ، ولم يستيقظ ثانية . وأظهر تشريح جثته الرئة اليسرى وقد أتلفها السل تماماً ، والقلب منحلا ، والكبد والكلية والأمعاء كلها مصابة . وقا الطبيب للدوق « فى هذه الظروف لاتملك غير العجب من أن الرجل المسكين استطاع أن يعيش كل هذا العمر»(١٤٧) .

وكان جوته عندئذ فى حال من المرض لم يجرؤ معها إنسان على أن ينبئه بموت شيلر . وفى ١٠ مايو أفضت إليه كرستيانه بالنبأ وهى تنشج ، وكتب إلى تسلتر يقول «كنت أظن اننى أفقد حياتى أنا ، فإذا أنا أفتقد صديقاً كان نصف وجودى ذاته» [١٤٨] . ووصل بما بقى له من وجوده إلى تمام تحقيق ذاته .

* * *



الفصل الرابع والعشرون

جوته « نسطورا »(*)

١٨٠٥ — ١٨٣٢

١ — جوته ونابليون

أحسن بنا — ونحن مقيدون بحدودنا المقررة — أن نترك جوته معلقا عند هذه النقطة ، وعلى قلمه فاوست وفى شيخوخته الحكمة ، أم أن نلاحق هذا الأولمبى — الذى لا يكف عن التطور — إلى نهايته ، مقلبين الصحائف مضحين بالوقت ؟ « إن الحكمة السرمدية تجذبنا إلى العلا » . (١)

فى ١٤ أكتوبر ١٨٠٦ هزم نابليون البروسيين فى يينا . وكان الدوق كارل أوجست ، المتحالف مع بروسيا ، قد قاد جيشه الصغير ضد الفرنسيين فى تلك المعركة . ودخل الأحياء المدحورون فايمار ، وأعقبهم الغالبون الجياع ، فنهبوا المحال واحتلوا بيوت الناس . واستولى ستة عشر جنديا الزاسيا على بيت جوته ، وأعطتهم كرستيانه الطعام والشراب والفراش . فى تلك الليلة اقتحم البيت جنديان آخران ثملا بالخمر ، فلما افتقدا الأسرة فى الطابق الأسفل ، صعدا عدوا إلى حجرة جوته ، ولوحا بسيفيهما فى وجهه ، وطالباه بمكان للنوم ، ووقفت كرستيانه حائلا بين الجنديين ورفيقها ، وأقنعتهما بالخروج ثم أرتجت الباب . وفى الخامس عشر من الشهر وصل نابليون إلى فايمار وأعاد النظام إلى نصابه ، وصدرت التعليمات بعدم إزعاج « الأديب الكبير » وبضرورة اتخاذ جميع الإجراءات لحماية جوته العظيم وبيته . (٢) ومكث معه المارشالات لان ونيه وأوجروا برهة ثم رحلوا معتذرين مجاملين . وشكر جوته كرستيانه على شجاعتها وقال لها « إن أذن الله سنكون زوجا وزوجة » وفى ١٩ أكتوبر تزوجا . أما أمه الطيبة التى احتملت فى حب جميع مثالبه ، وفى تواضع جميع مفاخره ، فقد جددت بركاتها لهما . ثم ماتت فى ١٢ سبتمبر ١٨٠٨ ، وورث جوته نصف تركتها .

---

(١) أى المرشد الحكيم المتقدم فى السن (المترجم) .

وفى أكتوبر ١٨٠٨ رأس نابليـــون مؤتمرا من ستة ملوك وثلاثة وأربعين أميرا فى أرفورت ، وأعاد رسم خريطة ألمانيا ، وحضر الدوق كارل أوجست المؤتمر واصطحب جوته فى بطانته . وطلب نابليون إلى جوته أن يزوره فى ٢ أكتوبر ، وذهب الشاعر ، وأنفق ساعة مع الغازى ، وتالبران ، وقائدين ، وفريدريش فون مولر ، وهو قاضى فايمارى . وهنأه نابليون على عافيته (وكان جوته يومها فى التاسعة والخمسين) ، واستفسر عن أسرته ، ثم دخل فى نقد جرىء لفرتر . وقد عاب الدرامات الشائعة التى تؤكد على القضاء والقدر « فلم الحديث عن القضاء والقدر ؟ إن السياسة هى القضاء والقدر ... ما قول المسيو جوته فى هذا ؟ » ولا علم لنا بجواب جوته ولكن مولر روى أن نابليون قال لقواده معلقا بينما جوته يبرح الحجرة « هاكم رجلا ! » [٣] .

وفى ٦ أكتوبر عاد نابليون إلى فايمار ، واصطحب معه فرقة ممثلين من باريس من بينهم تالما العظيم . ومثلوا فى مسرح جوته مسرحية فولتير « موت قيصر » وعقب الحفلة انتحى نابليون بجوته جانبا وناقش معه التراجيديا ، فقال «إن الدراما الجادة تصلح جدا لأن تكون مدرسة للأمراء كما هى مدرسة الشعب ، لأنها من بعض نواحيها فوق التاريخ ... يجدر بك أنت أن تصور موت قيصر صورة أبهى مما صوره فولتير ، وتبين كم كان قيصر (نابليون) سيسعد العالم لو أن الشعب أتاح له الوقت لإنفاذ خططه السامية . «ثم بعد قليل » لابد أن تأتى إلى باريس ! إنى أوجه إليك هذا الرجاء المشدد ! ستتاح لك هناك نظرة أوسع للعالم ، وستجد ذخيرة من الموضوعات لشعرك » [٤] وحين مر نابليون بفايمار ثانية عقب تقهقره المشئوم من موسكو طلب إلى السفير الفرنسى أن يبلغ جوته تحياته .

وأحس الشاعر أنه فى بونابرت قد التقى ، على حد تعبيره ، بـ « إعظم فكر شهده العالم » [٥] إلى الآن . وقد وافق تماماً على حكم نابليون لألمانيا ، فلم يكن هناك ألمانيا على أية حال (كما كتب جوته فى ١٨٠٧) إنما هى خليط من الدويلات ، أما الإمبراطورية الرمانية المقدسة

فقد نفذ قضاء الله فيها فى ١٨٠٦ ، وبدا لجوتة أن من الخير أن تتوحد اوربا ، لا سيما تحت رأسة رجل ألمعى كبونابرت . ولم يغتبط بهزيمة نابليون فى واترلو ، مع أن دوقه قاد أفواج فايمار مرة أخرى ضد الفرنسيين . لقد كانت ثقافته واهتماماته أشمل وأعم من أن يتيحا له الشعور بالكثير من الزهو الوطنى ، ولم يستطع أن يستشعر فى نفسه الميل لتأليف الأغانى ذات الحماسة القومية رغم كثرة ما طلب إليه . قال لا كرمان وهو فى الثمانين :

« أنى لى أن أؤلف أغانى الحقد وأنا لم أشعر بشىء من الكره ؟ وأقول فيما بينى وبينك أننى لم أكره الفرنسيين قط وإن شكرت الله على خلاصنا منهم . وأنى لى ، أنا الذى أرى الحضارة والهمجية الشيئين الوحيدين اللذين لهما مغزى ، أن أبغض أمة هى من أكثر أمم الأرض ثقافة ، أمة أدين لها بجزء عظيم من ثقافتى ؟ على أية حال أرى أن مسألة الكراهية بين الأمم هذه شىء غريب . فأنت ستجدها دائما أقوى وأشد مما تكون ضراوة فى المراتب الدنيا من المدنية . ولكن يوجد مستوى تختفى فيه كلية ، ويقف عليه الإنسان فوق الأمم إذا جاز التعبير ، ويحس أفراح شعب مجاور أو أتراحه كأنها أفراحه هووأتراحه . ولقد كان هذا المستوى يلائم طبيعتى ، ولقد بلغته قبل أن أبلغ الستين بزمن طويل »[(٦)] .

ألا ليت كل دولة غنيت بمليون من هؤلاء « الأوربيين الصالحين ! » .

٢ — فاوست : الجزء الأول

لم يقبل جوتة دعوة نابليون أياه للانتقال إلى باريس أو للكتابة عن قيصر ، ذلك أنه طالما احتضن فى ذهنه وفى مخطوطاته موضوعاً أثاره إثارة أعمق حتى من أعظم مستقبل سياسى : الا وهوصراع النفس لبلوغ الفهم والجمال ، وهزيمة النفس بسبب قصر عمر الجمال وروغان الحقيقة ، والسلام المستطاع للنفس ، بتضييق الهدف وتوسيع الذات . ولكن كيف

السبيل إلى تخيل هذا كله فى قصة رمزية عصرية وشكل درامى ؟ لقد ظل جوته يحاول تحقيق هذا الهدف ثمانية وأربعين عاما .

وكان قد تعلم قصة فاوست (٧) فى طفولته من كتيبات القصص الشعبية ومسارح الدمى ، ورأى صوراً لفاوست والشيطان على جدران حانة آورباخ فى ليبزج . وتطفل هو نفسه فى شبابه على السحر والخيمياء ؛ وامتزج بحثه الدءوب عن الفهم بتصوره لفاوست ، ودخلت قراءته لفولتير وإلمامه بتهكمات هردر فى تصويره لمفستوفيليس ، وأعطت جريتشن التى أحبها فى فرنكفورت ، وفردريكه بريون التى هجرها فى زيزنهايم ، لمارجريت أسمها وصورتها .

ويتجلى عمق تأثر جوته بقصة فاوست ، وتباين الأشكال التى اتخذتها فى فكره ، إذا علمنا أنه شرع فى تأليف المسرحية فى ١٧٧٣ فلم يفرغ منها إلا فى ١٨٣١ . وحين التقى بهردر فى ١٧٧١ كتب فى ترجمته الذاتية :

« أخفيت عنه فى تكتم شديد اهتمامى بشخوص معينة أصلت جذورها فى وكانت تشكل نفسها شيئاً فشيئا فى صورة شعرية . وتلك هى جوتزفون برليشنجن وفاوست . . . فمسرح عرائس فاوست ذو المغزى كان يجلجل ويتردد فى باطنى بأنغام كثيرة . كذلك كنت قد طوفت فى شتى ضروب العلم ، وانتهيت فى فترة مبكرة من حياتى إلى تبين بطلانه . ثم إننى جربت كل أساليب العيش فى الحياة الواقعية ، وكنت دائماً أعود منها ضيق النفس غير راض عنها . هذه الأشياء وغيرها حملتها معى وسعدت بها فى ساعات العزلة ولكن دون أن أكتب شيئاً » (٨) .

وفى ١٧ سبتمبر ١٧٧٥ كتب إلى مراسل يقول : « أحسست بانتعاش هذا الصباح وكتبت مشهداً فى مسرحيتى فاوست » (٩) . وفى تاريخ لاحق من ذلك الشهر سأله يوهان تسمرمان عن سير المسرحية . « فأتى بحقيبة مملوءة بمئات من قطع الورق وألقاها على المائدة . وقال : هاك فاوستى » (١٠) . وحين ذهب إلى فايمار (نوفمبر ١٧٧٥) كان أول شكل للدراما قد اكتمل (١١) . ولكنه نحاها لأنه لم يرض عنها ، ولم تصل « فاوست الأصلية »

هذه قط إلى المطبعة إلا فى ١٨٨٧ حين وجدت فى فايمار [١٢] نسخة خطية نسختها الآنسة فون جوشهاوزن . وراح ينفخ ويوسع فيها طوال خمسة عشر عاما أخرى . وأخيراً نشرها (١٧٩٠) باسم «شذره من فاوست» تبلغ الآن ثلاثا وستين صفحة ، [١٣] وكان هذا أول شكل مطبوع لأشهر مسرحية منذ هاملت .

على أن جوته ظل غير راض عنها ، فأسقط الموضوع حتى ١٧٩٧ .وفى ٢٢ يونيو كتب إلى شيلر يقول « أعتزمت أن أستأنف كتابة « فاوستى .«» مفككا ماطبع منها ، مرتبا إياه فى كتل كبيرة . . . معداً تطور المسرحية إعدادا أو فى ..... كل ماأريدة أن تتفضل بتقليب الأمر فى فكرك فى ليلة من لياليك النابغية — وتخبرنى بما تتطلبه من المسرحية بوصفها كلا ، وتفسر لى أحلامى تفسير نبى صادق . ورد عليه شيلر فى الغد . « أن ازدواج الطبيعة البشرية ،ومحاولة الإنسان الفاشلة للجمع بين العنصر الإلهى والعنصر الجسدى ، لا تغيب عن البصر أبداً . . . أن طبيعة الموضوع ستكرهك على تناوله فلسفيا ، وعلى الخيال أن يكيف نفسه لخدمة فكرة عقلية . »أما خيال جوته فكان غاية فى الخصوبة ، وأما تجاربه الناصعة الذكرى فكثيرة جدا ، لذلك أدخل الكثير منها فى «شذرة من فاوست» فضاعف بذلك من حجمها ؛ وفى ١٨٠٨ أذاع على العالم ما نسميه الآن الجزء الأول من فاوست .

وقبل أن ينطق دميته بكلمة ، صدر الدراما بإهداء رقيق إلى أصدقائه الموتى ، وبفصل تمهيدى هزلى « برولوج فى المسرح » بين المدير والمؤلف والمضحك ، و « برولوج فى السماء » يراهن الله فيه مفستوفيليس على أن فاوست لا يمكن أن يظفر به الإثم بصفة دائمة . ثم يتكلم فاوست أخيراً فى فى أبسط شعر هزلى :

« أجهدت نفسى فى دراسة الفلسفة والشريعة والطب ، وتعمقت أيضاً — ويالالحسرة فى دراسة علوم الدين ، بجد لا يعتوره فتور وهمة لا تعرف الكلال . ثم أرانى — أنا البليد المسكين — بعد هذا كله لم أتقدم شبرا ولم أخط نحو العرفان خطوة .

« سميت الأستاذ والدكتور ، وقضيت زهاء عشر سنوات وسط تلاميذى أخادعهم وأغرر بهم وأذهب بهم ذات اليمين وذات الشمال . ثم أرانا بعد هذا كلة لم نزل عاجزين عن أن ندرك شيئاً أو أن نلم بشىء[١٤] » (*)

وقد تبين أن البحر الرباعى التفاعيل ، المنحدر من تمثيليات هانز زاكس القصيرة ، هو الوزن المترقرق اللائق لدراما هذبت الفلسفة بالفكاهة .

وفاوست هو بالطبع جوته ، حتى فى كونه رجلا فى الستين ، لم يزل كجوته ينتشى فى الستين بحسن المرأة ورشاقتها . وتطلعه المزدوج إلى الحكمة والجمال هو روح جوته الصميم ، وقد تحدى تطلعه الآلهة المنتقمة بوقاحته ، ولكنه كان نبيلا . لقد قال فاوست وجوته نعم للحياة ، الروحية والحسية ، الفلسفية والمرحة ، وعلى النقيض من ذلك كان مفستوفيليس (وهو ليس ابليس بل فيلسوف إبليس فقط) شيطان الإنكار والشك ، كل تطلع فى نظره هراء ، وكل حس إنما هو هيكل عظمى يكسوه جلد . وقد كان جوته فى لحظات كثيرة هذا الروح الساخر أيضاً . وإلا لما استطاع أن يسبغ عليه هذا الذكاء وهذه الحياة . ويبدو مفيستوفيليس أحياناً صوت التجربة ، والواقعية والعقل ، يكبح رغبات فاوست وأوهامه الرومانسيـــة ، والحق ، كما قال جوته لاكرمان « إن شخصيه مفستوفيليس ... حصيلة حية لخبرة واسعة بالدنيا »[١٥] .

وفاوست لا يبيع روحه بغير شروط ، فهو لايوافق على أن يقذف به فى الجحيم إلا إن أراه مفيستوفيليس لذة فيها من الإشباع الدائم له ما يحبب له معايشتها إلى الأبد :

« لئن جاء اليوم الذى أرقد فيه على فراش الكسل والراحة ، . . . فليكن ذلك اليوم آخر عمرى ! ... ولو مرت بى لحظة من الزمن وكانت من الحسن بحيث قلت لها أن « لاتبرحى فما أحلاك ! إذن فتهيىء لى سلاسلك وأغلالك ... هنالك أرحب بالموت » ...(**)

(*) الترجمة للدكتور عوض محمد : فاوست : لجنة التأليف والترجمة والنشر ص (٧)

(**) فاوست : د . محمد عوض محمد ، ص ٥٨

وبهذا الشرط يبرم فاوست حلقة مع دمه ويصيح فى استهتار «هلم نطفىء الآن ظمأ رغباتنا المتأججة فى بحر من الشهوات »(١٦) .

ويأخذه مفيستوفوليس إلى مارجريت— « جريتشن » فيجد فيها فاوست كل فتنة البساطة التى تولى مع المعرفة وتعود مع الحكمة . ويتودد إليها بالجواهر والفلسفة :

« مارجريت : قل لى مارأيك فى الديانة ؟ لست أنكر أنك من أطيب الناس وأحسنهم . لكنى أخشى أن تكون قليل الإيمان .

فاوست : دعى هذا ياحبيبتى ! أنت ترينى متيماً بك ؛ أود أن أبذل من أجل حبك لحمى ودمى ،وما أريد لعمرى أن أسلب أحدا دينه ومعتقده .

مارجريت : هذا خطأ . يجب على الإنسان أن يؤمن بالدين ! ... قل لى : هل تعتقد وتؤمن بالله ؟

فاوست : أيتها الحبيبة ! من ذا الذى يستطيع أن تبلغ به الجرأة والقحة أن يقول « أنا أعتقد بالله » ...

مارجريت : إذن فأنت لا تؤمن بالله ؟

فاوست : لاتسيئى فهم أقوالى أيتها الحبيبة : أى الناس يقدر أن ينطق بإسمه ؟ وأيهم يستطيع أن يقول « أنا لاأؤمن به ؟ وأى الورى يحس ويبصر ، ويسمع ، ويعى ، ثم يجرؤ أن يقول « أنا لاأؤمن به » ؟ ذلك القابض على كل شىء والممسك كل شىء ؟ أليس هو الممسك لى ولك ولنفسه ! أما تنظرين إلى السماء كيف رفعت وإلى الأرض كيف سطحت ؟ . . . وإلى هذه النجوم الزهر تسبح فى السماء ، مرسلة ضياءها الأبدى المحبوب ؟ ... فمن هذا كله فاملأى قلبك حتى يطفح ... بتلك السعادة ، ويستنير بذلك النور . وعندئذ فلتسميه كما تشائين ، ولتدعيه بما يحلو لك من الأسماء : السعادة . أو القلب أو الحب أو الرب . أما أنا فما له اسم عندى . وكل همى أن أحسه وأستشعره . فالشعور هو كل شىء ! وما الإسم إلا صدى لاطائل تحته ، أو غمام يستر عن أبصارنا محيا الشمس البديع .

مارجريت : هذا كله حسن وجميل ... لكنى مازلت قلقة لأنى أرى قدماك فى المسيحية غير راسخة .

فاوست . ولم أيتها الطفلة العزيزة ![17] » (*) .

وهى لا تتأثر بحلوليته الغامضة ، بل بالصورة الجميلة والثياب الرائعة التى خلعها سحر مفيستوفوليس على شبابه المجدد .وهى تنشد على مغزلها أنشودة ملؤها الحنين الحزين(**) .

« أنا — صبحى ومسائى
فى عذاب وبلاء ،
واعنائى ! واشــقائى !
هل لدائى من دواء ؟
كيف لا يشــتد سخطى
كيف لا يزداد كربى
كيف لا يحــزن قلبى
وحبيب القلب ناء ؟
بان صــفو العيش عنى
قرح التســهيد جفنى ،
لم يســكن نار حزنى
دمع عينى وبكائى .
قد نبا عــنى الرقاد
وبرى جســمى السهاد
آه ! قد طال البعــاد
وشــفائى فى اللقاء .

(*) فاوست ، ترجمة د . محمد عوض محمد ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(**) مترجمة بتصرف بقلم د . محمد عوض محمد : فاوست ص ٢٤٤

فتى يسمح دهرى
ويرينى وجه بدرى
قد أضل الحب فكرى
والهوى أعضل داء :
أوما يدنو الحبيب
فأرى العيش يطيب ؟
الهوى أمر عجيب
منه سقمى ودوائى ؟
ما أحلاه إذا ما
ثغره ابدى ابتساما !
قد حكى البدر التماما
فى سناء وبهاء .
آه لو أشفىَ بلثمة
منه أو أحظى بضمة !
ثم يقضى الدهر حكمه
بهلاكى وفنائى (١٨) .

وبقية القصة يعرفها الغرب كله ، ولو من جونو فقط . فارجريت تعطى أمها شرابا منوما لا تفيق منه لكى تقبل هى حبيبها وتغيب عن الوعى دون رقيب . ويقتل فاوست فالتين أخا مارجريت فى مبارزة ثم يختفى ؛ أما مارجريت فتقتل طفلها العديم الأب خزيا وحسرة ، فيقبض عليها ويحكم عليها بالإعدام . ويزورها فاوست فى زنزانتها ويرجوها أن تهرب معه ، فتعانقه ، ولكنها ترفض مغادرة زنزانتها . ويجذب مفيستوفيليس فاوست بعيدا ، بينما يصيح صوت من السماء « كتبت لها النجاة » .

ولم يدرك جمهور القراء — إلا ببطء — أن فاوست ١٨٠٨ هذه أروع دراما وأجمل شعر أنتجتهما ألمانيا إلى ذلك التاريخ . ولكن قلة من أصحاب العقول اليقظة فطنوا للتوالى أنها جديرة بأن تتبوأ مكانها بين شوامخ الأدب العالمى . وشبه فريدريش شليجل جوته بدانتى ، وسوى جان بول رشتر بينه وبين شكسبير ، ورفعه فيلاند فى دنيا الشعر إلى مقام السيادة الذى ارتفع إليه نابليون فى دنيا الحكم والحرب [١٩] .

٣ — نسطور عاشقاً

فى السنوات ١٨١٨ — ٢١ دخل جوته فى غرامين مثيرين ، فضلا عن صلته ببتينا برنتانوا . ففى ٢٣ أبريل ١٨٠٧ جاءت بتينا ذات الاثنين وعشرين ربيعا إلى الشاعر المسن بخطاب تقديم من فيلاند . وكانت حفيدة صوفى فون لاروش التى أحبت فيلاند من قبل ، وابنة مكسمليانه برنتانو التى غازلت جوته فى شبابها * وقد أحست أن لها دالة الحفيدة على قلب جوته . ولم تلبث بعد أن دخلت حجرته أن ألقت بنفسها بين ذراعيه . وقبلها هو على أنها طفلة ، وبعدها كان يراسلها بهذا المعنى ، ولكنه طوى رسائله على أحدث قصائده الغزلية ، ومع أنها لم تكن موجهة إليها إلا أنها عدتها بوحاً بغرام مشبوب ، وأضفت عليها ذلك اللون فى كتابها « رسائل جوته إلى طفلة» الذى نشرته فى ١٨٣٥ .

أما ملهمة أكثر هذه القصائد فهى فلهلمينا هرتسليب . وكافت منا ، كما دعاها جوته بعد قليل ، ابنة كتبى فى يينا . وقد عرفها طفلة ، ولكنها فى عام ١٨٠٨ كانت فى التاسعة عشرة ، فتاة خجولا ، رقيقة ، مشرقة . وكانت تتلقف كل كلمة يفوه بها ، وتتحسر على أن شيخوخته ومكانته الاجتماعية تمنعانها من عشقه وتملكه . وأدرك هو شعورها ، واستجاب له ونظم لها الصونيتات ، موريا على اسمها كقلب محب ، ولكنه تذكر أنه لم يمض على زواجه من كرستيانه إلا زمن قصير . ويلوح أنه كان يفكر فى منا وهو يصور أوتيلييه الخجول الودود ، المشدودة الأعصاب ، فى قصته « الانجذابات العاطفة ١٨٠٩ » .

وهذه القصة الممتازة ، في رأى مؤلفها [٢٠] ، خير قصصه المنثور ، فهي أفضل تنظيما وأكثر تماسكا في روايتها من أى من تطويفات فلهلم مايستر . وهنا نلاحظ قول جوته لأكرمان (٩ فبراير ١٨١٩) : « ليس في قصة (الانجذابات العاطفة) بأسرها سطر لم أعشه أنا نفسى حقيقة وفعلا ، ووراء النص معان أكثر كثيرا مما يستطيع أى إنسان استيعابه من قراءة واحدة » . والواقع أن عيب الكتاب أن فيه من جوته أكثر مما يجب ، ومن التفلسف الجارى على ألسنة لا يتوقع أن يجرى عليها قدر أكبر مما ينبغى .

(مثال ذلك أنه يجعل الفتاة أوتيلييه تحتفظ بيومية يودع فيها بعضا من أنضج التأملات كقوله « لا سبيل إلى الدفاع عن أنفسنا أمام التفوق العظيم في إنسان غيرنا سوى سبيل الحب [٢١] . ولكن احتواء هذا الكتاب على هذا القدر الكثير من جوته هو الذى يجعله دافئاً بالحياة غنياً بالفكر : لأن شارلوتة القصة هي أيضا شارلوته فون شتين ، تغرى ولكنها تأبى أن تخون زوجها ، ولأن الكبتن هو جوته العاشق لزوجة صديقه ، ولأن إدورد ، الزوج ذا الخمسين المقيم بأوتيلييه هو جوته المفتن بمنا هرتسليب ، ولأن القصة هى محاولة جوتة تحليل حساسيته الشبقة .

وقد قصد هنا أن يفكر في الجاذبية الجنسية بلغة كيميائية . وربما اتخذ عنوان كتابه من « الإنجذابات العاطفية » الذى نشره الكيميائى السويدى العظيم توربرن أولوف برجمان في ١٧٧٥ . والكبتن يصف لادورد وشارلوته انجذابات جزئيات المادة وتنافراتها وتجمعاتها فيقول : « ينبغى أن تريا بنفسيكما هذه الجواهر — التى تبدو ميتة جداً وهى مع ذلك زاخرة بالنشاط والقوة — تعمل أمام عيونكما ، يبحث بعضها عن بعض . . . ويمسك ويسحق ويلتهم ويدمر بعضها بعضاً ، ثم يعود إلى الظهور فجأة . . . في صور نضرة ، مجددة ، غير متوقعة . » [٢٢] فحين يدعو ادورد صديقه الكبتن ، وتدعو شارلوته إبنة أخيها أوتيلييه ، للإقامة معهما في زيارات طويلة ، يهيم الكبتن بشارلوته ، وإدورد بأوتيلييه . وحين يتصل إدورد بزوجته جنسياً يفكر في أوتيلييه ، وتفكر

شارلوته فى الكبتن ، فى ضرب من الزنا السيكولوجى : ويبدو الوليد عجيب الشبه بأوتيلييه ، وتحنو أوتيلييه على الطفل كأنه طفلها . ثم تتركه ليغرق كأنما جاء ذلك مصادفة ، وتحملها تأنيب الضمير على أن تضرب عن الطعام حتى الموت . ويموت إدورد حسرة ، ويختفى الكبتن ، وتبقى شارلوته على قيد الحياة ، ولكنها ميتة روحياً .

ويخلص فيلسوف فى المدينة إلى أن « الزواج هو البداية والنهاية لكل ألوان الحضارة . أنه يروض المتوحشين ، ويمنح أكثر الناس ثقافة ، خير فرصة للرقة ودماثة الخلق . وينبغى أن يكون غير قابل للفسخ لأنه يجلب من السعادة الكثير ، ما يجعل متاعبه العارضة لا وزن لها [٢٣] » : على أن أحد شخوص القصة يقترح بعد أربع صفحات من هذا القول زواج التجربة الذى لا يتجاوز العقد فيه فى المرة خمس سنوات .

وفى ١٨١٠ نلتقى بجوتة فى كارلسباد يستشفى بمياهها ويغازل شاباتها ، بينما تظل كرستيانه التى مضى على زواجها أربعة أعوام فى البيت تغازل الشبان . فقد تتيمت بالشاعر ذى الحادية والستين عاما يهودية حسناء سمراء تدعى ماريانه فون إيبنبرج ، ثم هرب منها إلى الشقراء سلفى فون تسيجزار : وفى قصيدة وجهها إلى سلفى يدعوها « الأبنة الخليلة ، الحبيبة ، البيضاء النحيفة القوام »[٢٤] ، وقد أرسلت إليه كرستيانه نداءات تناشده الوفاء :

« وهل وصلت بتينا وتلك السيدة فون أيبنبرج إلى كارلسباد ؟ يقولون هنا إنه من المتفق عليه أن تكون زلفى وآل جوترز هناك أيضاً . فلذا أنت صانع وسط كل معابثاتك ؟ ما أكثرها ! ولكنك لن تنسى أقدمها عهداً ، أليس كذلك ؟ فكر فى قليلا أيضا ، بين الحين والحين ، إنى أريد الوثوق بك ثقة تامة ، مهما قال الناس . لأنك كما تعلم الوحيد الذى يفكر فى إطلاقاً » [٢٥] . و يبعث إليها بهدايا صغيرة .

وقد وجد وقتا كل يوم تقريبا لكتابة شىء من الشعر أو النثر . وحوالى عام ١٨٠٩ بدأ يكتب سيرته الذاتية ، وقد سماها « الخيال والحقيقة من حياتى » واعترف العنوان اعترافا جميلا بأنه بين الحين والحين ، عن عمد أو غير عمد ،

ربما مزج الخيال بالواقع . أما غرامه بشارلوته بوف فقد مسه مسا خفيفا رقيقا ، ولكنه كان أكثر إفاضة فى قص غرامه بفردريكه بريون ، وكانت المرأتان لا تزالان على قيد الحياة . ثم حالى فى براعة وأريحية الكثير من أصدقاء شبابه — لنتس ، وبازدوف ، ومرك ، وهردر ، وياكوبى ، ولافاتر . أما عن نفسه فقد تكلم فى تواضع ، وقد شكا فى ملاحظاته الخاصة من أن كاتب السيرة الذاتية يتوقع منه الناس أن يعترف بنقائصه ولا يعلن عن فضائله [٢٦] . والكتاب تاريخ فكر أكثر منه تاريخ حياة ، والأحداث فيه قليلة والتأملات وفيرة . أنه أعظم كتبه النثرية »

وفى ١٨١١ تلقى من بيتهوفن خطاب إعجاب مع «مقدمة موسيقية لأجمونت». والتقى الشاعر والمؤلف الموسيقى فى تبلتز فى يوليو ١٨١٢ ، وعزف بيتهوفن لجوته وكان يتمشى معه . وإذا صدقنا الروائى أوجست فرانكل ، « كان الناس فى المتنزه — أينما ذهبا — يفسحون لهما الطريق باحترام ويحيونهما . وقال جوته وقد غاظته هـــذه المقاطعات المستمرة : « يا لها من مضايقة ! لا أستطيع أبدا تجنب هذا الأمر . » وأجاب بيتهوفن بابتسامة «لا يضايقك هذا يا صاحب السعادة ، فلعلى أنا المقصود بالاحترام . » وكتب جوته إلى تسلتر (٢ سبتمبر ١٨١٢) : « لقد أذهلتنى موهبة بيتهوفن ، ولـكن شخصيته للأسف لا يمكن السيطرة عليها إطلاقا . إنه ليس مخطئا ... فى اعتباره العالم بغيضا ، ولكن هذا الموقف لا يجعل هذا العالم أكثر إمتاعا لا له ولا لغيره . وكثير من هذا الموقف يلتمس له العذر فيه بسبب مؤسف هو أنه يفقد قدرته على السمع . » [٢٧] أما تعليق بيتهوفن على جوته فكان « ما أشد صبر الرجل العظيم على ! وما أعظم الخير الذى أسداه إلى ! ولكن « جو البلاط يلائمه أكثر مما ينبغى . » [٢٨]

لقد كانت مظاهر البلاط وسلوكه جزءا من حياة جوته الرسمية ، لأنه كان لا يزال يمارس نشاطه فى الإدارة . أما حياته البيتية فقد فقدت سحرها . فأوجست ابنه ، الذى بلغ الثانية والعشرين فى ١٨١٢ ، كان ضعيف المواهب لا أمل فى إنقاذه ، وكرستيانة باتت بدينة مدمنة للشراب ، وكان لها بعض العذر ، لأن مغازلاته للنساء لم تتوقف . فخلال زياراته لفرانكفورت ، كثيرا

ما كان يقيم فى فيلا يوهان فون فلليمير الواقعة فى إحدى الضواحى ، وكان يعجب بماريانه زوجة فلليمير . وفى صيف ١٨١٢ أنفق أربعة أسابيع تقريبا معهما . وكانت مريانه فى الحادية والثلاثين ، ولكنها كانت فى ريعان جمالها الأنثوى . وكانت تغنى أشعار جوتة العاطفية وألحان موتسارت غناء ساحرا ، وتنظم الشعر الرفيع ، وتتبادل مع جوته سلسلة من القصائد محاكاة لحافظ والفردوسى وغيرهما من شعراء الفرس (وكان حافظ قد ترجم إلى الألمانية فى ١٨١٢) . وفى بعض القصائد شهوانية سافرة وحديث عن الفرح المتبادل فى العناق الجسدى ، ولكن هذا الترخص قد يكون مجرد انحراف شعرى . والتقى الثلاثة مرة أخرى فى سبتمبر بهيدلبرج ، وكان الشاعران يخرجان معا فى مسيرات طويلة ، وكتب جوته اسم مريانه بحروث عربية فى التراب حول نافورة القلعة . ولم يلتقيا قط بعد ذلك اليوم ، ولكنهما ظلا يتراسلان طوال السبعة عشر عاما الباقيـــة من حياته . ويبدو أن فلليمير زاد اعتزازا بروجته لأنها فتنت رجلا بهذه الشهرة ، ولأنها عارضت شعر جوته بقصائد لا تقل روعة عن قصائده . وضمن جوته أشعارها وأشعاره فى « الديوان الشرقى الغربى » الذى نشره فى ١٨١٩ .

وبينما هو ماض فى مراسلاتة نثرا وشعرا ماتت كرستيانه (٦ يونيو ١٨١٦) . وسجل جوته فى يوميته : «كان صراعها مع الموت رهيبا ... خواء وصمت قاتل فى باطنى ومن حولى . » [٢٩] وران على هذه السنوات اكتئاب عميق . وحين زارته شارلوته كستنر ، حبيبة صباه التى فقدها ، والتى كانت الآن زوجـــة فى الرابعة والستين لعضو المجلس الناجح كستنر الهانوفرى ، فى صحبة ابنتها (٢٥ سبتمبر ١٨١٦) لم يستشعر أى عاطفة تختلج بين جوانحه ، وكان حديثه كله حديثا تافها مجاملا . ولكن فى ١٨١٧ ، تزوج ابنه أوجست من أوتيلييه فون بوجفيش ، بعد أن قطع حياة كلها خلاعة وفسق ، ودعاه جوته ليسكن معه ، وأتت أوتيلييه بمرح الشباب إلى البيت ، وما لبثت أن أعطت الشاعر المسن أحفادا أنبضوا قلبه بالحياة من جديد .

وأعانته على ذلك أولريكه فون لفتزوف ، وكانت إحدى بنات ثلاث

لأماليا فون لفتزوف التي عرفها جوته في كارلسباد . والتقى في أغسطس ١٨٢١ بأولريكه في مارينباد ، وقد قالت فيما بعد مسترجعة ذكرى هذا اللقاء : «لما كنت قد أقمت سنوات في مدرسة داخلية فرنسية بستراسبورج ، وكنت لا أتجاوز السابعة عشرة ، فإنني لم أسمع قط بجوته ، ولا خطر لي أنه رجل مشهور وشاعر فحل . وعلى ذلك لم أشعر قط بالخجل من السيد العجوز الودود ... وفي غد ذلك اليوم ذاته طلب إلى أن أتمشى معه ... وكان يصحبني معه في نزهته كل صباح تقريبا . » (٣٠) وعاد إلى مارينباد في ١٨٢٢ ، و « طوال ذلك الصيف أبدى لي جوته غاية الود » . وبعد عام التقيا في كارلسباد ، وسرعان ما أثارا القيل والقال في منتجع المياه المعدنية . وكان الشاعر الآن قد قرر أن حبه أكثر من الحب الأبوي . وألح الدوق كارل أوجست على أولريكه في أن تتزوج جوته ، ووعدها إن فعلت بأن يمنح أسرتها في فايمار بيتا جميلا ، وأن تحصل بعد موت الشاعر على معاش قدره عشرة آلاف طالر في العام (٣١) . ورفضت الأم وابنتها . وقفل جوته محزونا إلى فايمار ، وأغرق خيبة أمله في المداد . وعمرت أولريكه حتى أوفت على الخامسة والتسعين .

في ذلك العام، عام ١٨٢١ الذي قاد جوته لأولريكه ، جاءه في فايمار كارل تسلتر — مدير الموسيقى في برلين — بتلميذ في الثانية عشرة يدعى فيلكس مندلسون . وكان تسلتر قد فتح روح جوته على عالم الموسيقى ، بل أنه علمه التأليف الموسيقي . وأذهلت براعة عازف البيان الصغير الشاعر العجوز وأبهجته ، فأصر أن يمكث معه أياما . وقد كتب فيلكس في ٦ نوفمبر يقول : « في كل صباح يقبلني مؤلف « فاوست » و « فرتر » . وفي العصر أعزف له قرابة ساعتين ، وبعض العزف فوجات من باخ ، وبعضه من ارتجالي . وفي ٨ نوفمبر أقام جوته حفل استقبال ليقدم فيلكس إلى مجتمع فايمار الراقي . وفي ١٠ نوفمبر كتب فيلكس : « في كل عصر يفتح البيان ويقول : لم أسمعك قط اليوم . تعال وأسمعني شيئا من الضوضاء . ثم يجلس إلى جواري ويصغي . لا تتصور كم هو عطوف ودود . » فلما أراد تسلتر أن يرجع فيلكس إلى برلين ، أقنعه جوته بأن يترك تلميذه أياما أخرى . وكتب الصبي

السعيد «وعلت الآن أصوات الشكر لجوته من كل ناحية ، ولثمت أنا والبنات شفتيه ويديه . وطوقت أوتيليه دون بوجفيش عنقه بذراعيها ، ولما كانت جميلة جدا ، وهو يغازلها طوال الوقت ، فقد كان الأثر رائعا » (٣٢) . إن في التاريخ لحظات سعيدة تتوارى خلف درامة المأساه ، وتحت ملاحظة المؤرخين .

٤ — العالم

ولنعد الآن إلى سنوات صباه ، حين بدأ بحثه الذى امتد طوال حياته فى العلم ، باهتمام يقظ ولذة تلتهم كل شيء . وقليلون منا من يعرفون أن جوته كرس للبحث والمؤلفات العلمية وقتاً أكثر مما كرس الكل شعره ونثره مجتمعين (٣٣) . وكان قد درس الطب والفيزياء فى ليبزج ، والكيمياء فى ستراسبورج : ثم بدأ دراسة التشريح فى ١٧٨١ ، وظل سنوات يضرب فى أرجاء ثورنجيا جامعاً للعينات المعدنية والنباتيـة ويرقب التكوينات الجيولوجية . وكان فى أسفاره لايلحظ الرجال والنساء والفن فحسب ، بل الحيوان والنبات والظواهر البصرية والمتيورولوجية أيضا . وقد قام بدور رائد فى إنشاء المختبرات فى يينا . وكان يشتد فرحه بانتصاراته فى العلم أو حزنه بهزائمه فيه ، اشتدادة بنجاحه أو إخفاقه فى الأدب .

وقد استحدث شيئا فى دراسة الطقس . ذلك أنه نظم محطات للرصد الجوى فى دوقية ساكسى — فايمار ، وأعان على إنشاء محطات أخرى فى طول ألمانيا وعرضها (٣٤) ، وأعد التعليمات اللازمة لها . وكتب المقالات فى « نظرية الطقس » و « أسباب تذبذبات البارومتر » وأقنع الدوق كارل أوجست بأن يشرع فى اقتناء المجموعات التى كانت النواة لمتحف علم المعادن فى يينا ، وبعد أن درس الطبقات الجيولوجية فى إلمينا وذهب إلى أنها تؤيد نظرية أبراهام فرنر التى زعمت أن جميع التكوينات الصخرية على القشرة الأرضية نتيجة لفعل المياه البطئ . (ويجب أن تقرن هذه النظرية « النبتونية » بالنظرية «البركانية» التى تقول بالتغيير نتيجة للحركات العنيفة). وكان من أوائل من ألمعوا إلى أن عمر الطبقات قد يقرر من المتحجرات

المطمورة فيها ، ومن دافعوا عن الرأى القائل بأن الجلاميد الهائلة الموزعة الآن توزيعا شاذا فى المرتفعات قد قذفتها هناك موجات من الجليد هابطة من المنطقة القطبية الشمالية(٣٥) .

وفى ١٧٩١ — ٩٢ نشر جوته فى مجلدين « مقالات فى البصريات » ، وكتب يقول «كان هدفى تجميع كل ماهو معروف فى هذا الميدان ، والقيام بكل التجارب بنفسى ، منوعا فيها قدر الاستطاعة ، ميسراً متابعتها ، مراعيا أن تكون فى متناول الشخص العــادى (٣٦) . وقد أجرى خلال السنوات من ١٧٩٠ إلى ١٨١٠ مالا يحصى من التجارب لتفسير اللون ، وما زال متحف جوته بفايمار يحتفظ بالأدوات التى استعملها . وظهرت الحصيلة فى ١٨٠٠ فى مجلدين كبيرين يحتويان النصوص ، ومجلد للوحات ، تحت هذا العنوان « فى نظرية اللون » . وكان هذا أكبر آثاره عالما .

وقد درس الألوان باعتبارها ناشئة لا عن التركيب الكيميائى للأشياء فحسب ، بل عن تكوين العين وعملها . وحلل تكييف الشبكية للظلام والنور ، وفسيولوجية العمى اللونى ، وظواهر أطياف الون والصور التلوية ، وآثار تناقضات الألوان وتجمعاتها فى الإحساس وفى التصوير . وحسب اللون الأخضر — خطأ — مزيجا من الأصفر والأزرق . (وهما يمتزجان هكذا حقا على لوحة ألوان الرسام ، ولكن حين يتحد الأزرق والأصفر فى الطيف ينتج عنهما الرمادى والأبيض) . وقد أعاد إجراء الكثير من التجارب التى ورد وصفها فى « بصريات » نيوتن (١٧٠٤) ، فوجد فى عدة حالات نتائج تختلف مما ذكر فى ذلك الكتاب ، وخلص إلى اتهام نيوتن بعدم الكفاية وبالغش أحيانا (٣٧) . وقد عارض رأى نيوتن فى أن الون الأبيض تأليف من عدة ألوان ، وذهب إلى أن اتحاد الألوان ينتج عنه بانتظام اللون الرمادى لا الأبيض . ولكن نتائجه لم يقبلها لامعاصروه ولا من أتوا بعده فى ميدان البصريات . فقد اثنوا على تجاربه ورفضوا الكثير من نظرياته . وفى ١٨١٥ أرسل إليه آرثر شوبنهاور مقالا دافع فيه بكفاية عن فكرة نيوتن فى أن الأبيض تأليف من عدة ألوان — وكان شوبنهاور يعجب بجوته شاعرا

وفيلسوفا ؛ ولم يغتفر له الشيخ فعلته قط . وزاد الرفض العام لنظريته فى الألوان سنيه الأخيرة قتاما .

وكان طبيعيا لرجل كجوته ، حساس إلى هذا الحد أن يستهويه عالم النبات . فحين زار بادوا فى ١٧٨١ أبهجته الحدائق النباتية ، ففيها وجد مجموعة أغنى وأكثر تنوعا من كل ما رأى فى حياته . وشاهد مدى اختلاف نباتات الجنوب عن نباتات الشمال ، فصمم على دراسة تأثير البيئة على شكل النبات ونموه . كذلك لم يشعر قط بمثل هذا الشعور العميق بقدرة الطبيعة الملغزة العارمة على تطوير كل نوع — بما تفرد به من حيث التركيب والنسيج واللون والخط — من بزور تبدو بسيطة متشابهة . فيالها من خصوبة ، ويالها من قدرة على الابتكار ! ولكن أهناك بعض عناصر مشتركة فى كل تنوع الأفراد ، وفى كل تطور الأعضاء والأجزاء ؟ وخطر له أن هذه الأجناس والأنواع والأشكال هى تحورات من نموذج أصلى أساسى ، وأن هذه النباتات كلها ، مثلا ، شكلت على غرار نموذج أساسى أصيل — حتى وإن كان متخيلا — أو نبات أول ، هو أم النبات جميعا . وكتب إلى هردر يقول « إن هذا القانون ذاته يمكن تطبيقه على كل حى » أى على الحيوانات كما يطبق على النباتات ، فالحيوانات هى أيضا تحورات من أصل بنائى واحد[٣٨] . وكما أن الكائن الحى الفرد ، بكل تفرده ، هو محاكاة لنمط أول ، كذلك قد تكون أجزاء الكائن تحورات لشكل أساسى واحد . ولاحظ جوته فى بادوا نخيله (بالميطة) كانت أوراقها فى مراحل مختلفة من التطور ؛ فدرس مراحل الانتقال المرئية من أبسط ورقة إلى مروحة السعف الكاملة الرائعة ؛ وتصور فكرة مؤداها أن جميع تركيبات النبات — باستثناء المحور أو الساق — هى تحورات ومراحل للورقة(*) .

وبعد عودة جوته إلى فايمار نشر نظريته فى كتيب من ست وثمانين صفحة عنوانه « محاولة قام بها س . ف . جوته عضو المجلس الخاص لدوقية ساكسى — فايمار ، لتفسير تطور النباتات » (١٧٩٠) .

(*) كان كاسبار فريد ريش فولف قد خلص إلى هذه النتيجة فى ١٧٦٨ .

وضحك علماء النبات من الكتيب وقالوا إنه أحلام شاعر ، ونصحوا الشاعر بأن يلزم حرفته . [٣٩] فلم يكذبهم ، وصاغ آراءه من جديد ، فى قصيدة سماها « تحور النباتات » وتجمعت الأدلة والمؤيدون للنظرية شيئاً فشيئاً .

وفى ١٨٣٠ قدم إتيين جوفروا سانتللير مقال جوته لأكاديمية العلوم الفرنسية ، وأشاد به أثراً من آثار البحث الدقيق والخيال الخلاق يؤيده تقدم علم النبات [٤٠] .

وألمع جوته (١٧٩٠) فى محاولة لتطبيق نظريته على التشريح إلى أن الجمجمة ليست سوى تحور وتتمة للفقرات ، تحتوى المخ كما يحتوى العمود الفقرى على الحبل الشوكى ، وليس هناك اليوم اتفاق على هذه الفكرة . ولكن إنجازاً ذكياً أكيـــداً يرجع الفضل فيه إلى جوته فى التشريح — وهو إثباته وجود العظمة البينفكية فى الإنسان (وهى العظمة التى تتوسط عظمتى الفك العلوى والتى تحمل القواطع العلوية) . وكان علماء التشريح قد تبينوا وجود هذه العظمة فى الحيوان ، ولكنهم ارتابوا فى وجودها فى الإنسان ، وكان لاكتشاف جوته الفضل فى تضييق الخلاف البنيانى بين الإنسان والقرد .

استمع إلى الشاعر يعلن نجاحه فى خطاب من بيتا إلى شارلوته فون‌شتين مؤرخ ٢٧ مارس ١٧٨٤— العاشق والعالم ممتزجين معاً : « سطور إلى حبيبتى لوته ، أقرئها تحية الصباح ... لقد منحت شعوراً بالرضى يبهجنى . ذلك أنى اهتديت إلى كشف تشريحى جميل وهام فى وقت معاً . وسيكون لك نصيبك فيه ، ولكن لا تنبسى بكلمة عنه » . [٤١] وأذاع كشفه فى مقال خطى أرسله إلى مختلف العلماء فى ١٧٨٤ بعنوان « محاولة قائمة على علم العظام المقارن ، لإثبات أن العظمة البينفكية فى الفك الأعلى يشترك فيهـــا الإنسان والحيوانات العليا » وكانت هذه «أول رسالة كتبت من قبل يمكن أن توصف بحق بأنها تدخل فى باب التشريح المقارن ، وهى إذن معلم فى

تاريخ هذا العلم »[٤٢] (وقد نشر المشرح الفرنسى فيلكس فيك دازير هذا هذا الكشف ذاته فى السنة نفسها ١٧٨٤) .

كتب جوته فى رسالته: « أن الانسان شديد الشبه بالحيوان الأعجم ... فكل مخلوق إنما هو نغمة أوتحوير فى تآلف ألحان عظيم »[٤٣] وقد ذهب كثيرون من العلماء والفلاسفة الذين سبقوه إلى أن الإنسان جزء من مملكة الحيوان ونظم قصيدة سماها « تطور الحيوانات » ولكنه لم يكن من دعاة التطور بالمعنى الداروينى . فقد افترض ثبات الأنواع اتباعاً لمذهب لينايوس ، وهكذا لم يكن « النبات الأول » الذى قال به نباتاً بدائياً فعلياً تطورت منه جميع النباتات ، إنما كان مجرد نمط عام كانت كل النباتات تحويرآت له ولم يكن رأيه كرأى معاصريه لامارك وإرازمس دارون فى أن الأنواع متطورة من أنواع أخرى بالانتخاب البيئى لأشكال واحدة .

فهل كان جوته عالماً حقيقياً ؟ ليس بالمعنى الاحترافى . لقد كان هاوياً غيوراً مستنيراً ، وعالماً بين القصائد والروايات والغراميات والتجارب الفنية والواجبات الإدارية .

وقداستخدم أجهزة كثيرة وجمع مكتبة علمية كبيرة ، ولاحظ ملاحظات مفيدةوتجارب دقيقةوشهدهلمهولتز بالدقةالواقعيةللعمليات والتجارب الموضوعية التى وصفها جوته[٤٤] . وقد تجنب التفسيرات الغائية . ولكن العلماء المحترفين لم يقبلوه عالماً ، لأنهم نظروا إليه هاوياً يعتمد على الحدس والفروض بثقة مفرطة . وكان ينتقل بسرعة أكثر مما ينبغى من موضوع أو تحقيق إلى آخر لامسا كلا منها نقطة خاصة ، دون أن يبلغ فى أى منها مسحا للميدان فى إلا فى البصريات ونظرية اللون . ولكن كان هناك شئ مثالى وبطولى فى إصراره المتشعب المتعدد الأشكال . وقال إكرمان فى ١٨٢٥ : « سيبلغ جوته عامه الثمانين بعد بضع سنوات ، ولكنه لم يكل من الأبحاث والتجارب ، فهو لا يفتأ جاداً فى أثر تأليف كبير[٤٥] . وربما كان الشاعر محقا فى رأيه أن الهدف الأكبر للعالم ينبغى ألا يكون إمداد الرغبات القديمة بأدوات جديدة ، بل توسيع الحكمة بالمعرفة فى سبيل إثارة الرغبة .

٥ — الفيلسوف

كان فى الفلسفة ، كما كان فى العلم ، عاشقاً لا أستاذاً محترفا — مع أنه صاحب الفضل فى تعيين فشته وشيلنج وهيجل فى كراسى الفلسفه بيينا . وكان قليل الاهتمام جداً بجدليات المذاهب الفلسفية ، ولكنه كان معنيا أشد العناية بتفسير الطبيعة ومعنى الحياة . وكلما تقدم به العمر بات بفضل العلم والشعر حكيما ، وقد وجد الأنارة عن « الكل » من كل شىء ، وكل لحظة ، وكل جزء : « كل عابر ليس إلا رمزاً » (٤٦) و « الأقوال المأثورة العارضة » التى خلفها عند موته دون أن تطبع ، تنضح بالحكمة فى كل صفحة .

ولم يقدم أى نسق منطقى ، ولكنه ألمع ، براجماتيا إلى « أنه لا حقيقى إلا ما هو مثمر » (٤٧) وإلى أنه « فى البدء كان الفعل (لا الـكلمة) » (٤٨) فنحن نجد الحقيقة فى الفعل أكثر مما نجدها فى الفكر ، وينبغى أن يكون الفكر أداة للعمل ، لا بديلا عنه . ولم يولع بكانط كما أولع به شيلر ، فقد اعترف بأن الطبيعة النهائية للحقيقة تتجاوز علمنا ، ولكنه لم يشعر أن هذا يلزمه بسنية العقيدة ، بل على العكس أوصى بتجاهل ما لا يمكن معرفته ، « إن ما لا سبيل إلى سبر أغواره ليست له قيمة عملية » ، والعالم المحسوس كاف لحياتنا (٤٩) ولم تساوره أى ريب أو مخاوف معرفية حول الاعتراف بوجود عالم خارجى . كتب لشيلر بعد أن قرأ كانط وشيلنج يقول « أنى أسلم مختاراً بأن ما ندركه حسيا ليس الطبيعة (فى ذاتها) ، بل إن الطبيعة تفهم طبقاً لصور وملكات معينة لفكرنا .... ولكن توافق طبائعنا العضوية مع العالم الخارجى . . . (يدل على) تصميم من الخارج ، وعلاقة نحو الأشياء » (٥٠) « وكثيرون يقاومون الاعتراف بالحقيقة ، لا شىء إلا لأنهم لو قبلوه لانهاروا » (٥١) .

ولكن جوته رفض المادية رفضه للمثالية الذاتية . وقال إن « مذهب الطبيعة » الذى قال به دولباخ « بدا لنا [نحن الطلاب فى ستراسبورج] شديد القتام . . . رهيبا كالموت ، حتى لقد وجدنا فى إطاقة وجوده عناء ونكدا ، وكنا نرتعد فرقا منه كأنه عفريت » . (٥٢) كان هذا فى شبابه ،

ولكنه أحس به أيضاً فى شيخوختـــه وهو يكتب إلى كنيبل فى ٨ ابريل ١٨١٢ :

« إن الرجل الذى لايدرك هذه الحقيقة : ولا يسمو إلى هذه الرؤية ، وهى أن الروح والمادة ، للنفس والجسد ، الفـــكر والامتداد ، ... إنما هما مقوما الكون التوأمان الضروريان ، وسيظلان كذلك أبد الدهر ، وإن لهذين الاثنين حقوقا متساوية ، ومن ثم يمكن اعتبارهما فى وجودهما معاً ممثلين لله ؛ أقول أن رجلالايدرك هذا خير له أن ينفق عمره فى ثرثرة أهل الدنيا ولغوهم الفارغ .

وهذا بالطبع هو سبينوزا ، وجوته يتبع سبينوزا إلى الحتمية — «نحن ننتمى إلى قوانين الطبيعة ، حتى أن تمردنا عليها [٥٣] ، ولكنه أحيانا يميل إلى الاتفاق مع كانط على أن « حياتنا ، مثلها مثل الكون الذى ننتمى إليه ، تتألف على نحو ملغز من الحرية والضرورة . » [٥٤] وكان يشعر بقوة قضاء وقدر تعمل فيه — صفات تفرض نمره وتقرره ، ولكنه يتعاون معها ، كما يتعاون عامل حر يخدم قضية تحركه وتحتويه .

أما دينه فتجميد للطبيعة ، ورغبة فى التعاون مع قواها الخلاقة — قدرتها الإنتاجية المتعددة الأشكال ومثابرتها العنيدة ؛ على أنه استغرق زمناً طويلا ليكتسب صبرها . وقد شخص « الطبيعة » على نحو مبهم ، فرأى فيها فكراً وإرادة ، ولكنه فكر يختلف تماماً عن فكرنا ، وإرادة محايدة فى غير اكتراث كأنها تحايد بين ناس وبراغيث . فليس للطبيعة مشاعر أخلاقية بالمعنى الذى نقصده من التزام الجزء بالتعاون مع الكل ، لأنها « هى» الكل . وفى قصيدته « الإلهى » (١٧٨٢) وصف جوته الطبيعة بأنها بغير شعور ولا رحمة . فهى تدمر كما تعمر بإسراف . «كل مثاكم العليا لن تمنعنى (جوته) من أن أكون أصيلا ، صالحاً وطالحاً ، كالطبيعة » [٥٥] ، ومبدؤها الأخلاقى الوحيد هو : عش واجعل غيرك يعيش . وقد سلم جوته بحاجة كثير من النفوس إلى سند فوق طبيعى ، ولكنه لم يشعر بمثل هذه الحاجة إلا فى أخريات عمره. « من عنده الفن أو العلم فهو يملك (ما يكفى من)

الدين ؛ أما من ليس عنده فن أو علم فهو فى حاجة إلى الدين » (٥٦) . انى بصفتى شاعراً وفناناً أشعر بتعدد الآلهة (فأشخص قوى الطبيعة المنفصلة) ، أما فى دورى عالماً فأناأميل إلى الحلولية (أىأرى إلهاً واحداً فى كل شىء)(٥٧)

وإذا كان « وثنياً ثابتاً عامداً » فى الدين والأخلاق ، فقد خلا من الإحساس بالخطيئة ، ولم يشعر بحاجة إلى إله يموت كفارة عنه ، (٥٨) وأنكر كل حديث عن الصليب . وقد كتب إلى لافاتر فى ٩ أغسطس ١٧٨٢ يقول « لست عدواً للمسيحية ، ولا مضاداً لروح المسيحية ، ولكنى قطعاً لا — مسيحى . . . أنك تقبل الإنجيل ، كما هو ، على أنه حقيقة إلهية . حسناً ، ما من صوت مسموع من السماء يمكن أن يقنعنى بأن امرأة يمكن أن تحبل بطفل دون رجل ، وأن رجلا ميتاً يقوم من قبره . وأنا أعد هذه كلها تجديفات على الله وعلى إعلانه ذاته فى الطبيعة » (٥٩) . وضيق عليه لافاتر الخناق (كما يروى لنا جوته) و « أخيراً سألنى السؤال العسير » إما مسيحى وأما ملحداً « فصارحته بأنه ان لم يترك لى مسيحيتى كما اعتززت بها إلى ذلك الحين ، فنى استطاعتى أن أنحاز دون تردد إلى صف الإلحاد ، خصوصاً وأننى أرى أنه ما من إنسان يعرف على التحديد المعنى المقصود من كل من هذين اللفظين » (٦٠) . وقد ذهب جوته إلى أن « الدين المسيحى ثورة سياسية جهيضة انقلبت أخلاقية » (٦١) وفى الأدب « مئات الصفحات التى فيها من الجمال والفائدة ، مثل ما فى الأناجيل (٦٢) ، ومع ذلك أعد الأناجيل الأربعة كلها حقيقية لا غبار على صحتها ، ففيها يتجلى البهاء المنعكس للقوة السامية التى انبثقت من شخص المسيح وطبيعته ، الذى كان إلهياً ماظهرت الألوهية فى الأرض . . . وأنا أنحنى أمامه بوصفه المظهر الإلهى لأسمى مبدأ للفضيلة » (٦٣) . ولكنه اعتزم أن يعبد الشمس كما يعبد المسيح ، باعتبارها مظهراً معادلا من مظاهر القوة الإلهية (٦٤) . وقد أعجب بلوثر ، وامتدح حركة الإصلاح البروتستنتى لتخطيها أغلال التقاليد ، ولكنه أسف على انتكاسها إلى العقائدية المتزمته (٦٥) . وخامره شعور بأن البروتستنتية ستعانى من افتقارها إلى المراسم الملهمة المكونة للعادات ، ورأى أن الكاثوليكية

حكيمة سمحة فى رمزها للعلاقات والتطورات الروحية بالأسرار المقدسة البالغة الوقع فى النفوس (٦٦) .

أما آراء جوته فى الخلود فقد تغيرت مع السنين . ففى ٢ فبراير ١٧٨٩ كتب إلى فريدريش تسو شتولبرج يقول . « أما أنا فأتمسك بوجه عام بتعاليم لوكريتيوس ، وأقصر نفسى وكل آمالى على هذه الحياة » . ولكنه فى ٢٥ فبراير ١٨٢٤ قال لاكرمان « لا أريد اطلاقاً أن أستغنى عن سعادة الأيمان بحياة مستقبلة ؛ والحق انى أقول مع لورنتسو دى مديتشى ان الذين لا رجاء لهم فى حياة أخرى هم موتى حتى فى هذه الحياة » ؛ وفى ٤ فبراير ١٨٢٥ ؛ «انى راسخ الاقتناع بأن روحنا شىء لايقبل الفناء اطلاقاً » (٦٧) . وقرأ زفيد نبورج ، وقبل فكرة عالم الروح (٦٨) ، وداعب آمال تقميص الأرواح . ودرس القبلانية وبيكوديللا ميراندولا ، بل رسم البروج أحياناً لكشف الطالع (٦٩) . وكلما تقدم به العمر ازداد تسليمه بما للإيمان من حقوق .

« إذا توخيت الدقة فى التعبير ، قلت إنه لايمكننى أن أصل إلى معرفة لله إلا المعرفة التى أستقيها من الرؤية المحدودة المتاحة لمدركاتى الحسية على هذا الكوكب المفرد . ومعرفة كهذه إنما هى شظية من شظية . ولست أسلم أن هذه المحدودية ، التى تصدق على ملاحظتنا للطبيعة ، يجب أن تصدق فى ممارسة الإيمان . فالعكس هو الصحيح . ولعل معرفتنا ، وهى ناقصة بالضرورة ، تتطلب الإضافة والاستكمال بفعل من أفعال الإيمان »(٧٠) .

وفى ١٨٢٠ أسف على تأليفه « برومثيوس » المتمرد أيام شبابه ، لأن شباب المتطرفين يومئذ كانوا يستشهدون به ضده (٧١) . وقد انصرف عن فشته حين اتهم فشته بالإلحاد (٧٢) . وكان رأيه الآن « انه من واجبنا ألا نخبر غيرنا بأكثر مما فى قدرتهم تلقيه . فالإنسان لا يفهم إلا ما يناسبه » (٧٣) .

وكما تغيرت آراؤه فى الدين ، كذلك تغير مفهومه للأخلاق مع تقدم عمره . فحين كان يظفر بنشاط الشباب وكبريائه فسر الحياة بأنها ليست سوى

مسرح لتنمية الذات والظهور . « ان هذه الرغبة الملحة فى أن أرفع ما استطعت هرم حياتى الذى أعطيته وأرسيت قاعدته لى ، ترجح كل ما عداها ، ولا تكاد تسمح بلحظة انتكاس »(٧٤) . وقد رأيناه يجرح نفوساً رقيقة فى هذه العملية . ولكنه حين نضج بفضل المنصب السياسى أدرك أن الحياة البشرية عملية تعاونية ؛ وأن الفرد إنما يحيا بالمساعدة المتبادلة ؛ وأن الأفعال الأنانية — وان ظلت القوة الأساسية — إلا أنه لا بد من أن تحدها حاجات الجماعة . ففاوست فى قسمها الأول هى النزعة الفردية متجسدة ؛ وفى قسمها الثانى يجد « الخلاص » وسلامة الروح ، بالعمل للصالح العام . وفلهم مايستر فى « تلمذته » يحاول تعليم ذاته وإنماءها وإن كان بحكم طبيعته وتدريبه كثيراً ما يعين اخوانه ؛ وفى « تطويفاته » يحاول تحقيق المزيد من سعادة المجتمع . وقد غض جوته من الوصية بمحبة الأعداء، ولكنه عرف النبل بنبل فى قصيدة من أروع قصائده :

« ليكن الإنسان نبيلا
معيناً وطيباً
فذلك وحده
هو الذى يميزه
عن سائر الكائنات
التى نعرفها . . .
ان الطبيعة
مجردة من العواطف
تشرق شمسها
على الأشرار والأبرار ،
ويضىء القمر والنجوم
على الصالحين والطالحين .
والرياح والسيول ،
والرعد والبرد ،

تهدر فى طريقها ،
تنتزع وتكتسح أمامها
واحداً بعد واحد . . .
ولا مناص لنا كلنا بحكم القوانين
العظمى ، الأبدية الصارمة ،
من أن نكمل دورة وجودنا .
ولكن الإنسان وحده
يستطيع المحال ،
فهو يميز ،
ويختار ، ويحكم ؛
ويستطيع أن يطيل مكث
اللحظة العابرة .
هو وحده القادر على
ان يثيب الخير ،
ويعاقب الشر ،
ويشفى وينقذ ،
ويصدق النصح
للخطاة والضالين
فليكن الإنسان النبيل
معيناً وطيباً .

ولكي يكون الإنسان نبيلا عليه أن يحذر المؤثرات المفسدة ، و « الكل مؤثر إلا ذواتنا » [٧٥] . « دعك من دراسة المعاصرين والذين يحاربونك ؛ بل أدرس عظماء الماضى الذين احتفظت آثارهم بقيمتها ومكانتها قروناً . فالرجل الموهوب حقاً ينحو هذا النحو بحكم طبيعته ، والرغبة فى التنقيب فى أعمال الأسلاف العظام علامة صادقة على الموهبة السامية » ،[٧٦] وعليك باحترام المكتبات وإجلالها لأنها التراث الذى خلفه هؤلاء الرجال . « ان

المرء حين يتأمل مكتبة ما يشعر كأنه فى حضرة رأس مال هائل يأتى فى صمت بفائدة لاتقدر »[٧٧] . ولكن الفكر بغير الخلق أسوأ كثيراً من الخلق بغير الفكر ، « فكل ما يحرر العقل دون أن يمنحنا السيطرة على أنفسنا مؤذ »[٧٨] . خطط لحياتك ، ولكن حاول الموازنة بين الفكر والعمل ؛ فالفكر بغير العمل مرض . « فلأن تعرف حرفة وتمارسها يزودك بثقافة أكثر مائة مرة من نصف المعرفة »[٧٩] . « وما من بركة تعدل بركات العمل »[٨٠] وفوق كل شيء كن « كلا » أو انضم إلى كل « أن النوع الإنسانى وحده هو الإنسان الحق ، ولا يستطيع الفرد أن يفرح ويسعد إلا إذا امتلك شجاعة الشعور بنفسه فى الكل »[٨١] .

وهكذا نرى الفنى الذى ورث أسباب الرغد والأمن ، والذى أضحك طلاب ستراسبورج على لباسه المترف الغريب ، قد تعلم بفضل الفلاسفة والقديسين وتجارب الحياة أن يفكر فى الفقراء بعطف ، وأن يتمنى لوتقاسم المحظوظون من الناس ثرواتهم مع الفقراء بسخاء أكثر . وينبغى أن تفرض الضرائب على النبلاء بنسبة دخولهم ، وأن يتيحوا لاتباعهم الإفادة من « المنافع التى تهيئها المعرفة والرجاء المتزايدان »[٨٢] وقد أحس جوته بما يحس به البورجوازيون من حسد لأصحاب النبالة بالميلاد حتى بعد أن طبق صيته آفاق أوربا . « فى المانيا لاتتاح فرصة الحصول على . . . ثقافة شخصية مكتملة الجوانب للنبـــلاء »[٨٣]. وكان يراعى جميع فروض الاحـــترام المألوف فى سلوكه مع رؤسائه . وكل الناس يعرفون ما وقع لجوته وبيتهوفن فى تبلتز ، فى يوليو ١٨١٢ ؛ ولكن المصدر الوحيد لهذه القصة هو بتينا برنتانوفون آرنيم ، غير الموثوق بروايتها ، التى ادعت أنها تنقل عن رواية بيتهوفن :

« يستطيع الملوك والأمراء حقاً أن يخلعوا الألقاب والأوسمة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يصنعوا عظماء الرجال الذين يجب إذن النظر إليهم بإجلال . وحين يجتمع اثنان مثل جوته ومثلى ، فلا بد لهؤلاء السادة من ذوى الحسب

والنسب أن يفقهوا معنى العظمة عند أمثالنا . فبالأمس التقينا بالأسرة الامبراطورية (النمساوية) كلها ، وخلص جوته ذراعه من ذراعي ليقف جانباً . أما أنا فكبست قبعتي على رأسي واخترقت الجمع في أكثف نقطة وذراعاى تتدليان على جانبي . واصطف الأمراء وأفراد الحاشية في صفين ؛ ورفع دوق فايمار قبعته لى ، وحيتني الامبراطورة أولا . وقد أضحكني أن أرى الموكب يمر أمام جوته الذى وقف على جنب وقبعته في يده . وقد عنفته بعدها بقسوة على ما أتاه [٨٤] .

وسيختلف انفعالنا بهذه القصة باختلاف عمرنا . فلقد شعر جوته بأن الارستقراطية العاملة بنشاط وبروح خدمة الجماعة تهيء خير الحكومات الممكنة آنئذ فى أوربا ، وتستحق الاحترام الواجب للنظام والضبط الاجتماعين . وينبغي اصلاح المفاسد ، ولكن فى غير عنف أو اندفاع ؛ فالثورات تكلف أكثر مما تساوى ، وتنتهى عادة إلى حيث بدأت . ومن ثم يقول مفستوفيليس لفاوست :

« وا أسفاه ! إليك عنى ! كف عن الثرثرة حول ذلك الشجار بين الطغيان والرق ! انه يضايقنى . فما إن ينته حتى يبدأ من جديد مع المهزلة كلها » [٨٥] .

ومن ثم يقول جوته لأكرمان فى سنة ١٨٢٤ : « صحيح انى لم أكن صديقاً للثورة الفرنسية . فلقد كانت أهوالها عاجلة جداً . . . على حين لم تكن آثارها النافعة منظورة بعد . . . ولكننى بالمثل لم أكن متعاطفاً مع الحكم التعسفى الذى سبقها . وكنت حتى فى ذلك الوقت مقتنعاً بأنه ما من ثورة هى غلطة الشعب . بل هى دائماً غلطة الحكومة » [٨٦] . وقد رحب بنابليون نعمة على النظام فى فرنسا وأوربا بعد عقد حفل بالاضطرابات . وكان يتشكك فى الديمقراطية لأنه « ما من شىء أسوأ من الجهل النشيط » [٨٧] ، و « محال أن نتصور أن الحكمة يمكن أن تكون فى يوم من الأيام صفة شعبية » [٨٨] .

ثم سخر من تذبذب السلطان بين الأحزاب . « أن الناس يتقلبون فى

السياسة كما يتقلبون على فراش المرض من جنب إلى جنب أملا فى مزيد من الراحة فى رقادهم »[٨٩] . وقد عارض حرية النشر بحجة أنها تعرض المجتمع والحكومة للإزعاج المستمر على يد كتاب يعوزهم النضج والشعور بالمسئولية . وبدت له الصرخة المطالبة بالحرية ، فى أواخر عمره ، مجرد جوع المحرومين من المناصب للسلطان والمغانم . « ان الهدف الأوحد هو نقل القوة والنفوذ والثراء من يد إلى اليد التالية . وما الحرية إلا كلمة السر التى يهمس بها المتآمرون المتسترون ، وصيحة المعركة الصاخبة يصيح بها الثوار السافرون ، لا بل شعار الاستبدادية ذاتها وهى تسوف جماهيرها الخاضعة على العدو واعدة إياها بالخلاص من الطغيان الخارجى إلى الأبد »[٩٠] .

لقد وفى جوته كل الوفاء بواجب الكبار ، بقيامه بوظيفة الكابح لطاقة الصغار .

٦ — فاوست : الجزء الثانى

ولقد سكب فلسفته التى تقدم بها العمر فى الجزء الثانى من فاوست . ففى خاتمة الجزء الأول كان قد ترك « نفسه الثانية » ، محطمة يائسة ، فى قبضة مفستوفيليس — الشهوة تعاقب على افراطها . ولكن ، أكان ممكناً أن يكون هذا كل شىء ، وأن يكون جماع الحكمة ؟ ان فاوست لم يكن قد خسر رهانه كل الخسران ، فالشيطان لم يعثر له بعد على أية متعة تهدىء نضاله وتملأ حياته . فهل ثمة أشباع كالذى يتوق إليه فى أى مكان ؟ لقد كافح جوته طوال أربعة وعشرين عاماً ليجد للقصة تتمة وقمة تحويان أو ترمزان إلى النتائج التى خلص إليها تفكيره ، وتسبغان على بطله خاتمة نبيلة ملهمة .

وأخيراً . وحين بلغ الثامنة والسبعين ، تصدى للمهمة . ففى ٢٤ مايو ١٨٢٧ كتب إلى تسلتر الذى شاخ كما شاخ هو وكان مزمعاً أن يموت معه : « أود أن أعترف لك فى هدوء . . . بأننى عاودت العكوف على فاوست . . فلا تخبر بذلك أحداً » . وكانت خاتمة بايرون المثيرة فى حرب اليونان التحريرية

قد حركت مشاعر جوته ؛ فالآن يستطيع أن يجعل بايرون ، فى شخص « يوفوريون » (ومعناه السعادة) ، بن فاوست وهيلانة يمثل شفاء العقل العصرى ، الممزق الحائر ، بفضل اتحاده مع جمال اليونان القديمة الهادىء . ومن ثم راح يكد ويكدح فى ساعات الصباح ، فلا يبلغ من ذلك غير صفحة واحدة على أحسن تقديره ، حتى أفضى لأكرمان فى أغسطس ١٨٣١ ، قبل موته بسبعة شهور ، بأن المهمة المضنية قد تمت — بعد أن انقضت تسع وخمسون سنة على تصوره إياها أول مرة . وكان قد كتب يقول « أسعد الناس من استطاع وصل نهاية حياته ببدايتها » [٩١] . وقال الآن « أيا كان مقدار ما بقى لى من الحياة فنى وسعى أن أعده منذ الآن منحة ، ولست فى الحق أبالى ان كنت سأنجز فوق ما أنجزت أم لا » [٩٢] .

ولا يستطيع المرء أن يسترسل اليوم فى قراءة كل الجزء الثانى من فاوست إلا فى ثقة واطمئنان أعوام ثمانين . فابتداء من المنظر الافتتاحى الذى يصف فيه فاوست ، بعد استيقاظه بين حقول الربيع ، شروق الشمس ببلاغة لم تبل جدتها ، تقف حركة القصة المرة بعد المرة للتغزل فى جمال الطبيعة أوالتغنى بعظمتها أو رهبتها ؛ وقد أجاد المؤلف الوصف . ولكنه أسرف فيه ؛ فجوته المبشر بالانضباط الكلاسيكى يأثم هنا ضد شعار « القصد فى القول » . ذلك أنه صب فى الدراما كل شىء تقريباً تراكم بغير نظام فى ذاكرته الجياشة : الميثولوجيات اليونانية والألمانية ، وليدا والبجعة ، وهيلانة وركبها ، والساحرات ، والفرسان ، والجنيات ، والأقزام والحيوانات الخرافية ، والأقزام البشرية ، وحوريات الغاب ، والسيرانات ، ومقالات الجيولوجية « النبتونية » ، والخطب الطويلة يلقيها الرسل ، والفيات بائعات الزهر ، وحوريات الحدائق ، والحطابون ، — والمهرجون القصار السمان ، والسكارى ، وأتباع الفرسان ، ووكلاء الإقطاعيين ، والنظار ، ثم سائق مركبة حربية وأبو هول ، ومنجم وإمبراطور ، وآلهة الحقول وفلاسفة ، وكراكى أبيكوس ، و« رجل قصير » (قزم) صنعه فجنر تلميذ فاوست كيميائياً . والخليط أشد تحيراً وإرباكاً من الدغل المدارى ،

لأنه يضيف العنصر فوق الطبيعي إلى الطبيعي ، ويسبغ على كل شيء موهبة الخطابة أو الغناء .

وما أعظم الراحة التي نستشعرها حين نظهر هيلانة في الفصل الثالث ، وهي ما تزال على نحو معجز إلاهة بين النساء ، تغزو قلوب الرجال برشاقة حركتها أو بلحظ عينيها . وتتخذ القصة قوة جديدة ، ويرتفع الكورس إلى نبرة سوفوكلية ، حين تسمع هيلانه ان منيلاوس رغبة في عقاب « الجمال الوقح المتغطرس » أمر بأن تسلم هي ووصيفاتها إلى شهوات قبيل « بربري» يغزو بلاد اليونان من الشمال . أما زعيمهم ففاوست نفسه ، الذي انقلب بحيلة مفستوفيلية فارساً من فرسان العصور الوسطى ، مليح القد والصورة واللباس . ويبلغ جوته ذروة فنه الدرامي حين يصف لقاء هيلانه وفاوست — اليونان القديمة تواجه ألمانيا الوسيطة . فليتحد الإثنان ! تلك هي الفكرة الرئيسية في القصة . ويفتتن فاوست ككل الرجال فيلقي عند قدمها بكل ما وهبه السحر والحرب من مال وقوة . وتستسلم هي لتوسلاته ، فهذا المصير على أي حال لم يكن شراً من الموت . ولكن منيلاوس يقترب مع جيشه فيقطع عليهما نعيمهما . وفي لمح البصر ينقلب فاوست من الغرام إلى الحرب ، ويستنفر رجاله ويقودهم إلى غزو اسبرطه (وهذه ذكرى « الفرنجة» يغزون المورة في القرن الثالث عشر) .

ثم يتغير المشهد ، فقد مرت السنون سراعاً ، وإذا يوفوريون شاب سعيد يشرح صدر فاوست وهيلانه بـ« العناق والمزاح اللعوب والنداءات المرحة » [٩٣] . قافزاً في استهتار من جرف إلى جرف ، وأبواه يحذرانه في رفق ، راقصا في عنف مع الحوريات اللائي افتتن بحسنه (بايرون في إيطاليا) ، ويمسك بواحدة منهن في جذل ؛ فإذا هي تنفجر مشتعلة بين ذراعيه . وحين يسمع في ترحيب ناقوس الحرب يدق ، يندفع خارجاً ، فيهوى من منحدر قائم ، ويدعو أمه وهو يموت لتلحق به في العالم السفلي .

« هيلانه (لفاوست) ويلاه ! ان حكمة قديمة يتحقق في صدقها — فزفاف المال إلى الجمال لا يدوم أبدا . ان رباط الحياة يتمزق كما يتمزق

رباط الحب ، فوداعاً لهما جميعاً وأنا أبكيهما فى عذابى ، وعلى صدرك أرتمى مرة أخرى ، فتلقينى يا برسيفونى أنا وولدى . (تعانق فاوست ؛ ويتلاشى جسمها وتبقى الثياب والنقاب بين ذراعيه) » .

وهكذا يختتم الفصل الثالث ، وهو أجمل فصول هذا الجزء الثانى من فاوست . وهو الجزء الذى بدأ جوته بكتابته ، وسماه « هيلانه » ، وظل حيناً يفكر فيه على أنه كل كامل قائم بذاته ؛ ولو تركه كذلك لكان خيراً له . فهنا ارتفع جوته لآخر مرة إلى قمة شعره بجهد بطولى لاستنهاض ما بقى له من قوى ، مازجا الدراما بالموسيقى كما جرى اليونان على عهد بركليس ، نافخاً الحياة والحرارة فى شخوص قصة رمزية معقدة لشفاء العقل العصرى.

ومن ذلك العلو الشاهق ينزلق الجزء الثانى من فاوست إلى حرب بين امبراطور وغريم ينافسه على العرش الرومانى المقدس . ويحقق فاوست ومفستوفليس بحيلهما السحرية النصر فى الحرب للإمبراطور ؛ ويطلب فاوست وينال جزاء له مساحات كبيرة من ساحل الامبراطورية الشمالى ، مضافاً إليها ما يسعه انتزاعه من الأرض من براثن البحر . وفى الفصل الخامس نرى فاوست وقد بلغ المائة سيدا على ملك شاسع ، ولكنه لم يصبح بعد سيداً على نفسه . وذلك أن كوخاً لزوجين من الفلاحين هما فليمون وباوكيس تحجب المنظر من قصره ؛ فيعرض عليهما بيتاً أفضل فى موقع آخر ، ولكنهما يرفضان ؛ فيطلب إلى مفستوفيليس وعملائه أن يطردوهما ؛ ولكنهم يلقون المقاومة ، فيشعلون النار فى الكوخ ؛ ويموت الزوجان العجوزان رعباً . ولا يلبث فاوست أن تطوف به رؤى الأرواح المنتقمة ، عجائز شمطاوات اسمهن الفقر ، والذنب ، والهم ، والحاجة ، والموت ؛ وينفخ الهم فى وجهه فيعميه . وتنتشله من اليأس فكرة فيها شىء من الإيثار ؛ فيأمر مفستوفيليس وشياطينه بأن يقيموا السدود على البحر ، ويجففوا المستنقعات ، ويبنوا على الأرض الجديدة ألف بيت وسط الحقول الخضراء ؛ ويتخيل هذه الأرض المنتزعة من البحر ، ويشعر بأنه ان استطاع « مع شعب حر أن يقف على أرض حرة » لقال أخيراً لهذه اللحظة العابرة « لاتبرحى لأنك جميلة جداً » (٩٤) . ويسمع أصوات الفؤوس والمعاول ، فيظن

أن مشروعه الضخم يتقدم ؛ أما الحقيقة فهي أن الشياطين تحفر قبره . ويأخذ منه الإرهاق كل مأخذ ، فيخر صريعاً على الأرض ؛ فيشمت فيه مفيستو فيليس بينما يهيأ حشد من الشياطين لحمل روح فاوست إلى الجحيم ؛ ولكن جيشاً من الملائكة ينقض من السماء ، وبينما يتسلى مفستوفيليس بالإعجاب بسيقانهم ، يرفع الملائكة رفات فاوست . وفي السماء نرى فاوست الذي ألبس جسداً نورانياً تستقبله بالتحية جريتشن الممجدة الآن ، والتي تتوسل إلى الأم العذراء قائلة : « هبيني أن أعلمه ! » وتأمرها العذراء بأن تقوده صعداً ، ويختتم كورس سحري المسرحية بهذا النشيد :

« كل عابر
ليس إلا رمزاً ؛
وكل ناقص لم يكمل
يبلغ الكمال هنا »
وما لا يمكن وصفه
يتحقق ها هنا
السرمدي الأنثوي
يجذبنا صعداً وقدماً .

٧ — التمام : ١٨٢٥ — ١٨٣٢

في ١٨٢٣ أصبح يوهان بيتر إكرمان ، البالغ واحداً وثلاثين عاماً ، سكرتير جوته ؛ وبدأ يدون حديث الشيخ للأجيال القادمة وتحتوي حصيلة هذا الجهد « أحاديث مع جوته » (ثلاثة مجلدات ١٨٣٦ — ٤٨) ، التي راجعها جوته جزئياً ؛ من ذخائر الحكمة أكثر مما نجده عند معظم الفلاسفة .

وفي سبتمبر ١٨٢٥ احتفلت فايمار بالذكرى الخمسين لتولي كارل أوجست العرش وحضر جوته الاحتفال . وأمسك الدوق بيده وتمتم قائلا له معاً إلى آخر نسمة »[٩٥] . وفي ٧ نوفمبر احتفل البلاط بالذكرى الخمسين

لقـــدوم جوته إلى فايمار ، وأرسل إليـــه الدوق خطاباً أذيع أيضاً على الشعب :

« ببالغ السرور أود أن أنوه بالذكرى الخمسينية لهذا اليوم يوبيلا لا للخادم الأكبر لدولتى فحسب ، بل لصديق صباى الذى رافقنى طوال تقلبات الحياة بثابت المحبة والولاء والوفاء . وإنى لمدين فى نجاح أهم مشروعاتى لمشورته الواعية ولتعاطفه الذى لاينى وخدمته النافعة . وإنى لأعد ضمى اياه لشخصى بصفة دائمة مفخرة من أعظم مفاخر ملكى »[٩٦] .

ثم أقبلت سنوات الشيخوخة الحزينة حين يختفى الصديق تلو الصديق ؛ فى ٢٦ أغسطس ١٨٢٦ ، بعد عيد ميلاد جوته السابع والسبعين بيومين ، أرسلت شارلوته فون شتين ، وهى فى الرابعة والثمانين ، آخر ما نعرف من رسائل لحبيبها منذ نصف قرن : « كل تمنياتى الصادقة وبركاتى بمناسبة هذا اليوم . وأتوسل إلى الملائكة الحارسة فى المحفل السماوى أن تأمر بمنحك أيها الصديق الأعز كل خير وجميل . وإننى مازلت المخلصة لك فى رجاء وبلا خوف ، وأنا أسألك أن تهبنى عطفك السمح خلال الفسحة القصيرة التى بقيت لى فى الأجل »[٩٧] . ثم ماتت فى ٦ يناير ١٨٢٧ ، فلما سمع جوته بالنبأ بكى . وفى ١٥ يونيو ١٨٢٨ مات الدوق ، وعرفت فايمار أن عصرها الذهبى أخذ يولى . واستعد جوته لدوره بالعكوف على فاوست بنشاط محموم . ولكن الدور لم يكن دوره بعد . ذلك أن أوجست ، ابنه الوحيد الباقى على قيد الحياة ، بعد أربعين سنة من الفشل ، وعشرين من الفسق ، مات فى روما فى ٢٧ أكتوبر ١٨٣٠ . وقد أظهر تشريح جثته أن حجم كبده خمسة أضعاف الحجم العادى . فلما أبلغ جوته بالنبأ قال (باللاتينية) « لم أكن أجهل أنى أنجبته إنساناً فانياً »[٩٨] . وكتب يقول « حاولت إغراق نفسى فى العمل وقد ألزمت نفسى بالمضى فى المجلد الرابع من كتاب « الشعر والحقيقة »[٩٩] .

وحين بلغ الثمانين بدأ يحد من مجال اهتماماته . فى ١٨٢٩ كف عن قراءة الصحف . وكتب إلى تسلتر يقول « لست أستطيع البدء بإنبائك بما اكتسبته من

وقت وما أنجزته من أعمال خلال الأسابيع الستة التي تركت فيها جميع الصحف الفرنسية والألمانية دون أن أفتحها » [١٠٠] « سعيد من كان عالمه في بيته » [١٠١] . وقد حظى بالمحبة والرعاية من أرملة أوجست ، أوتيليه ، واستشعر البهجة بأطفالها . ولكنه كان أحياناً يعتكف حتى عنهم ويطلب الخلوة التامة ويثنى على الوحدة لأنها المواسية والمحك للعقل المثقف .

ولقد أفصح وجهه الآن عن أعوامه الثمانين : غضون عميقة عبر الجبين وحول الفم ، وشعر فضى يتراجع ، وعيون هادئة متسائلة ؛ ولكن عوده ظل مستقيماً وصحته جيدة . وكان يفخر بأنه اجتنب القهوة والتبغ وكلاهما مذموم في رأيه لأنه سم زعاف . وكان معجباً بطلعته وبكتبه ، يستطيب ثناء الناس عليه صراحة ، ولا يبذله إلا ضنيناً به . بعث إليه شاعر شاب في ١٨٣٠ بديوان شعر ، فرد عليه جوته ينبئه بتسلمه رداً لاذعاً قال فيه « تصفحت كتيبك . ولكنى نحيته لأن على المرء في وباء من أوبئة الكوليرا أن يحمى نفسه من المؤثرات المضعفة » [١٠٢] . وكان يضيق بأصحاب الكفايات الهزيلة ، وازداد ضيقه بالناس أكثر فأكثر كلما أكرهته الشيخوخة على الانطواء على نفسه ، وقد اعترف بهذا فقال « كل من ظننى لطيفاً من واقع مؤلفاتى ألفى نفسه مخدوعاً أشد الخداع حين احتك برجل فيه برود وتحفظ [١٠٣] . ووصفه زواره بأنه بطىء الانفراج ، فيه شىء من التكلف والتصلب ربما نتيجة لارتباكه ، أو لضنه بالوقت ينتزع من واجباته . ومع ذلك فإن كثيراً من رسائله تدل على الرقة ومراعاة مشاعر الآخرين .

وطبق صيته الآن آفاق أوربا . وأشاد به كارليل — قبل موت جوته بزمن طويل — فحلا من فحول الأدب العالمى . وأهدى بايرون « ورنر» إليه ، وأهدى برليوز « هلاك فاوست» إلى « المونسنيور جوته » ؛ وأرسل إليه الملوك الهدايا . ولكن قراءه في ألمانيا كانوا قله ، والنقاد مناوئين له ، وانتقص منافسوه من قدره ورموه بأنه عضو في مجلس الأمير مغرور يدعى أنه شاعر وعالم . وأدان ليسنج « جوتز» و « فرتر » لأنهما هراء رومانسى ؛ واحتقر كلوبشتوك « ارمان ودوروتيا » لأنه كتاب عادى لا امتياز فيه ،

و«افجيني» لأنه تقليد جامد لليونان . ورد جوته بعبارات متكررة من الاحتقار لألمانيا — لمناخها ، ومناظرها الطبيعية ، وتاريخها ، ولغتها ، وفكرها . وشكا من أنه أضطر « للكتابة بالألمانية ، وهكذا . . . أهدر الحياة والفن على أسوأ مادة »[١٠٤] . وقال لأصحابه ان « هؤلاء الألمان الحمقى » يستحقون تماماً هزيمتهم على يد نابليون فى يينا [١٠٥] ، وقد جاء دور المانيا لتضحك منه حين انتصر الحلفاء على بونابرت فى ووترلو .

وإذ انسلخ عن نهر الأدب الرئيسى (النهر الرومانتيكى) فى شيخوخته ، فقد عزى نفسه باحتقار ازداد عمقاً للعالم والإنسان . « تبدو الحياة كلها — إذا نظرنا إليها من قمم العقل — كأنها مرض خبيث ، والعالم كأنه مستشفى للمجانين » [١٠٦] . وكتب إلى تسلتر فى ٢٦ مارس ١٨١٦ « قبل أيام وقعت على نسخة من أول طبعة لآلام فرتر ، وبدأت ترتفع من جديد تلك الأغنية التى طال إسكاتها . وشق على أن أفهم كيف استطاع رجل أن يطيق العالم أربعين سنة مع أنه تبين سخفه حتى فى صباه » [١٠٧] . ولم يتطلع إلى أى تحسين ذى بال فى المستقبل . « ان الناس لا يعيشون إلا ليكدر ويقتل بعضهم بعضا . كذلك كان ، وكذلك هو اليوم ، وكذلك سيظل إلى أبد الدهر » [١٠٨] ، وكان يرى كما يرى معظمنا بعد الستين أن الجيل الجديد منحط . « ان هذه الخيلاء التى لاتصدق ، والتى يشب عليها الشباب ، ستتمخض بعد بضع سنوات عن أعظم الحماقات . . . ومع ذلك فهناك الكثير الذى يتحرك وينشط ، وقد يكون مبعث اغتباط فى السنين القادمة [١٠٩] » .

وفى ١٥ مارس ١٨٣٢ أصيب بنزلة برد وهو راكب عربته فى نزهة . ثم بدا أنه تماثل للشفاء فى الثامن عشر من الشهر ، ولكن فى اليوم العشرين كانت الإصابة قد نزلت إلى صدره ، وألهبته حمى النزله ، وشوه الألم وجهه . وفى الثانى والعشرين لاحظ أن الربيع بدأ ، وقال « لعل هذا يعيننى على البرء . « وكانت الحجرة قد أظلمت لأراحة عينيه ؛ فاعترض قائلا « أدخلوا مزيداً من الضوء » . وإذ كان لا يزال ضيقاً بالظلام أمر خادمه قائلا « افتح ستارة النافذة الأخرى ليدخل مزيد من الضوء . » وكانت هذه

فيما يبدو آخر كلماته . وكان قد قال لأوتيلييه « أيتها المرأة الصغيرة ، ناوليني كفك الصغيره » ومات بين ذراعيها قابضاً على يدها ظهر يوم ٢٢ مارس ١٨٣٢ بالغاً اثنتين وثمانين سنة وسبعة شهور (١١٠) .

ورأى اكرمان جثمانه في الغد :

« كان الجسد عارياً إلا من كفن أبيض . . . وأزاح الخادم الملاءة فأذهلني ما رأيت في أطرافه من بهاء إلهي . وكان الصدر قوياً ، عريضاً ، مقبباً ، والذراعان والفخذان ممتلئة مفتولة في رقة ؛ والقدمان أنيقتين وفي أكمل هيئة ؛ ولم يكن في الجسم كله أثر لا لشحم ولا لنحول ولا لتحال . فقد رقد أمامي رجل كامل في أجمل صورة ؛ وأنستني بهجة المنظر لحظة أن الروح الخالدة قد فارقت هذا المسكن » (١١١) .

وهكذا اختتم عصر عظيم ، ابتداء من انتصار فردريك الكئيب في ١٧٦٣ ، ومروراً بليسنج وكانط ، وفيلاند وهردر ، وانتهاء بشيلر وجوته . ولم يوفق العقل الألماني منذ لوثر إلى مثل هذا النشاط والتنوع والثراء في التفكير المستقل . ولم يكن بالكارثة على ألمانيا أنها لم تكن امبراطورية مترامية كامبراطورية بريطانيا مستغرقة في الفتح والتجارة ؛ ولا ملكية ممركزة كالملكية الفرنسية تمزقها فشل الحكومة ؛ ولا استبدادية كاستبدادية روسيا تتخم نفسها بالأرض أو تخدر نفسها بالماء المقدس . ان ألمانيا — من الناحية السياسية — لم تكن قد ولدت بعد ، ولكنها في الأدب كانت تتحدى العالم الغربي ، وفي الفلسفة تقود هذا العالم .

★ ★ ★



الفصل الخامس والعشرون

اليهـــود

١٧١٥ — ١٧٨٩

كفاح الحياة

قال روسو :

أن اليهود يقدمون لنا مشهداً عجيباً . فقد ماتت قوانين صولون، ونوما، وليكورجوس ؛ أما شرائع موسى ، الأقدم بكثير ، فما زالت حية . وقد بادت أثينا ، واسبرطة ، وروما ، ولم تترك خلفاً على الأرض ، أما صهيون التي دمرت فلم تفقد بنيها ؛ فقد احتفظوا بكيانهم ، وهم يتكاثرون ، وينتشرون في أرجاء العالم . . . وهم يخالطون كل الشعوب دون أن يذوبوا فيها[1] ؛ وليس لهم حكام ، ومع ذلك فهم دائماً شعب» .

وربما كان بقاء ناموس راجعاً لالحكمته الأصلية بقدر جدواه في حفظ النظام والاستقرار بين جماعات تعيش في خطر وسط عقائد معادية وشرائع أجنبية . ففي الشتات كان على الكنيس (المجمع) أن يقوم بما تقوم به الكنيسة والحكومة ، وربط الحاخامات بين أفراد شعبهم في وحدة متماسكة خلال جميع التقلبات والغير بإعطائهم بركة إيمان ديني فخور لناموس نظم كل منحى من مناحي الحياة اليهودية وأصبحت الأسفار الموسوية الخمسة الدستور — وأصبح التمود المحكمة العليا — لدولة غير منظورة .

وفقد العداء لليهودية بعض قواعده الدينية باضمحلال الاعتقادات السنية . وقد عرف المسيحيون ممن ألموا بطرف من التاريخ أن كل شعب تقريباً من الشعوب المسيحية ، في فترة أوأخرى ، اضطهد المهرطقين بالقتل

الجماعى جيلا بعد جيل أو دواوين التفتيش أو المذابح المنظمة . وعرف فولتير هذا[٢]، وندد المرة بعد المرة باضطهاد المسيحيين لليهود، وأثنى على ما رآه فى اليهود من «أسلوب فى الحياة رزين منظم، ومن زهد، وكد» وأدرك أن اليهود الأوربيين أقبلوا على التجارة لأن حرمانهم من تملك الأرض «أعجزهم عن التوطن بصفة دائمة — أى مأمونة — فى أى بلد» [٣] . ومع ذلك فقد انقلب فولتير عدواً لليهود عداوة لا هوادة فيها . ذلك أنه تورط فى معاملات غير موفقة مع رجال المال اليهود . فعند رحيله إلى انجلتره حمل معه صكوكاً على المصرف اللندنى «مدينا» ، الذى أفلس أثناء ذلك وهو مدين لفولتير بعشرين ألف فرنك [٤] . وفى برلين كلف ابراهام هيرش — كما أسلفنا — بشراء سندات هبطت قيمتها فى سكسونيا ، بقصد استيرادها (بطريقة غير قانونية كما حذره هيرش) إلى بروسيا ليسترد قيمتها هناك بربح يبلغ خمسة وستين فى المائة [٥] . وتشاجر الفيلسوف ورجل المال ، واحتكما إلى القضاء ، وانتهيا بالكراهية المتبادلة . وفى مقال فولتير عن «الأعراف» أطلق لحقده العنان فوصف العبرانيين القدامى بأنهم «أمة حقيرة ، وشعب من اللصوص ، فظيع ، رجس ، ناموسه ناموس المتوحشين ، وتاريخه نسيج من الجرائم ضد الإنسانية» .[٦] واعترض قسيس كاثوليكى بأن هذا اتهام وحشى إلى حد مضحك [٧] . ونشر يهودى برتغالى عالم يدعى إسحاق بنتو فى ١٧٦٢ «تأملات» فيها نقد للفقرات المعادية لليهود والواردة فى مقال بعنوان «اليهود» فى القاموس الفلسفى ؛ واعترف فولتير بأنه «أخطأ فى وصم أمة بأسرها برذائل أفراد»، ووعد بحذف الفقرات المهينة فى الطبعات القادمة ؛ ولكنه غفل عن الوفاء بوعده[٨] . وكان موقف الكتاب الفرنسيين عموماً ضد فولتير فى هذا الأمر [٩] . وتكلم روسو على اليهود بتعاطف مشرب بالفهم[١٠] .

ولم يكن لليهود فى فرنسا حقوق مدنية قبل الثورة ، ولكنهم أنشأوا جماعات ناجحة وخرجوا زعماء ذوى نفوذ ، اشترى أحدهم اقطاعية اشتملت على أميان ؛ واستعمل حقه الإقطاعى فى تعيين قساوسة الكتدرائية ، فاحتج الأسقف ، ولكن برلمان باريس أيد الإقطاعى اليهودى (١٧٨٧) واعترفت الحكومة الفرنسية شاكرة بمساعدة الماليين اليهود لها فى حروب الوراثة

الأسبانية والبولندية ، ولعب اليهود دوراً كبيراً فى إحياء شركة الهند الشرقية بعد انهيار مغامرة « لو » فى ١٧٢٠ [١١] . وكان يهود بوردو ذوى ثراء عريض ؛ واشتهر تجارهم ومصرفيوهم بنزاهتهم وجمودهم ؛ ولكنهم اعتزوا بأصلهم الصفاردى ، ونجحوا فى اقصاء جميع اليهود الاشكنازيين عن بوردو .

ولم يكن فى أسبانية القرن الثامن عشر يهود سافرون . ففى مطالع حكم البوربون الأسبان استغلت جماعات صغيرة منهم استنارة فليب الخامس المزعومة لاستئناف شعائر العبادة اليهودية سراً ، واكتشفت حالات كثيرة ، وأعدم ديوان التفتيش بين عامى ١٧٠٠ و ١٧٢٠ ثلاثة يهود فى برشلونه ، وخمسة فى قرطبة ، وثلاثة وعشرين فى طليطلة ؛ وخمسة فى مدريد . واحفظت الديوان هذه الاكتشافات فهب ينشط من جديد ، وبلغ عدد الدعاوى التى نظرتها محاكمه بين عامى ١٧٢١ و ١٧٢٧ أكثر من ثمانمائة بتهمة اليهودية من بين ٨٦٨ دعوى ، وأحرق خمسة وسبعون ممن أدينوا . أما بعد ذلك فالحالات المثيلة كانت نادرة جداً . وفى سنوات الديوان الختامية ، (١٧٨٠ — ١٨٢٠) حاكم الديوان الأسبانى نحو خمسة آلاف متهم ، لم يرم منهم باليهودية غير ستة عشر ، وكان عشرة منهم أجانب [١٢] . وظلت قوانين أسبانيا تحرم من المناصب المدنية أو الحربية جميع الأشخاص الذين لايستطيعون إثبات نقاء دمائهم من كل أثر علق به من أسلاف يهود . وقد شكا المصلحون من أن هذا الشرط حرم الجيش والحكومة الأسبانيين من خدمات الكثير من الرجال الأكفاء . وفى ١٧٨٣ خفف شارلى الثالث هذه القوانين [١٣] .

أما فى البرتغال فقد أحرق ديوان التفتيش سبعة وعشرين يهودياً لرفضهم الارتداد عن الديانة اليهودية (١٧١٧) [١٤] . وقد وفد على لشبونه فى ١٧١٢ قادماً من ريودجانيرو أنطونيو دا سيلفا ، الذى كان فى رأى سوذى أفضل كتاب المسرحيات البرتغال ؛ فقبض عليه هو وأمه فى ١٧٢٦ لأنهما يهوديان ، وأحرقت الأم ، واستعطف الإبن فأطلق سراحه ،

ويبدو أنه ارتد بعد ذلك ، لأنه أحرق فى ١٧٣٩ ولما يعد الخامسة والثلاثين [١٥] ثم أنهى المركيز دبومبال بإصلاح من اصلاحاته الكثيرة كل تفرقة بين المسيحيين القدامى والمحدثين (الذين اعتنقوا المسيحية) (١٧٧٤) [١٦] .

أما فى إيطاليا فقد سبقت البندقية غيرها إلى تحرير اليهود ، ففى ١٧٧٢ أعلن أن يهود الجمهورية أحرار متساوون مع سائر السكان . وتخلفت روما ، وكان الغيت (حى اليهود) هناك أسوأ أحيائهم فى أوربا . وزادت خصوبة الإنجاب الشديدة التى شجعها الأحبار من الفقر والقذارة ، وأتت على يهود روما فترة كان عشرة آلاف منهم يسكنون فى حيز لايزيد على كيلو متر مربع واحد [١٧] . وكان نهر تيبر يفيض على ضفافه كل عام فيغمر شوارع الحى الضيق ويملأ الحجرات السفلى بالطين الموبوء . واحترف يهوديو روما الخياطة لحرمانهم من أكثر الحرف ؛ ففى ١٧٠٠ كان ثلاثة أرباع الذكور البالغين منهم خياطين [١٨] ، فبدأوا بذلك عادة تحدرت بينهم حتى أيامنا هذه . وفى ١٧٧٥ أصدر بيوس السادس مرسوماً بابوياً جدد فيه القديم من المحظورات على اليهود وأضاف إليها جديداً : فحرم عليهم ركوب العربات ، وترتيل المراثى فى الجنائز ، وإقامة الشواهد على قبور موتاهم [١٩] . وكان على يهود روما أن ينتظروا مجىء نابليون ليحررهم من هذه القيود .

وأما فى النمسا فقد أحست ماريا تريزا أن التقوى تلزمها بحبس اليهود فى أحياء ضيقة بعينها ، وبحرمانهم من الحرف والمناصب وتملك العقارات [٢٠] ، ولكن ابنها يوزف الذى مسه التنوير الفرنسى اقترح على مجلس الدولة فى ١٧٨١ مشروعاً « يفيد به المجتمع من طبقة الإسرائيليين الكبيرة فى أراضينا الوراثية » (النمسا والمجر وبوهيميا) وذلك بتشجيعهم على أن يتعلموا — وبعد ثلاثة أعوام يشترط عليهم أن يستعملوا — اللغة القومية فى جميع الشئون القانونية أو السياسية أو التجارية . ويجب ألا « يضايق اليهود على أى وجه فى ممارسة شعائرهم أو عقائدهم » . وينبغى دعوتهم للاشتغال بالزراعة ، ولدخول ميدان الصناعة والتجارة ، ولممارسة الفنون — على أن يظل محظوراً عليهم أن يصبحوا معلمى حرف فى النقابات الحرفية ، لأن هذا يتطلب حلف يمين الولاء للعقيدة المسيحية . ثم تلغى كل أسباب التفرقة المهنية ، وكل

القيود المفروضة إلى ذلك الحين على اليهود ، « وكذلك كل العلامات الظاهرة أيا كانت» . واعترض مجلس الدولة والمديرون الإقليميون على البرنامج لأنه فضفاض مفاجىء بحيث لايقبله الشعب . وقدم يوزف حلا وسطاً ، فأصدر فى ٢ يناير ١٧٨٢ « ترخيص تسامح » ليهود فيينا والنمسا السفلى : فنالوا بمقتضاه حق إدخال أبنائهم مدارس الدولة وكلياتها ، والتمتع بالحرية الاقتصادية إلا أن يتملكوا العقارات ؛ ولكن حرم عليهم التنظيم الطائفى المستقل ، وبناء المجامع فى العاصمة ، ومنعوا من سكنى مدن معينة — ربما لأن العداء لليهود فيها كان مستحكماً إلى درجة خطرة . ونصح يوزف رعاياه المسيحيين باحترام أشخاص اليهود وحقوقهم باعتبارهم اخواناً لهم ، وكل إهانة أو عنف يعامل به يهودى « سيعاقب مقترفه عقاباً صارماً » ، ويجب أن يمنع إدخالهم فى المسيحية بالإكراه . وما لبث الإمبراطور أن أصدر تراخيص مماثلة لبوهيميا ومورافيا وسيليزيا النمساوية . وقد قدر لليهود مساهماتهم فى خزانته ، فخلع النبالة على عدة يهود ، واستخدم عدداً منهم ما ليين للدولة[٢١].

ولكن إصلاحاته — كما ذكر المبعوث الفرنسى إلى فيينا — « اثارت صيحة استنكار عامة . . . والتسهيلات الكبيرة الممنوحة لليهود يراها الناس مفضية بلا ريب إلى خراب الدولة »[٢٢] . وشكا التجار المسيحيون من المنافسة الجديدة ، وأدان القساوسة المراسيم لأنها تتسامح مع الهرطقة السافرة ، واعترض بعض الحاخامات على اختلاف الأطفال اليهود إلى مدارس الدولة مخافة أن تفتن الشباب عن اليهودية . ولكن يوزف أصر على موقفه ، وقبل أن يموت بسنة وسع « ترخيص التسامح» ليضم غاليسيا أيضاً ، وكانت إحدى مدنها ، وهى برودى ، تضم خلقاً كثيراً من اليهود (١٨,٠٠٠) حتى لقد لقبها الإمبراطور أورشليم الحديثة . وعند موت يوزف (١٧٩٠) كانت فيينا قد عودت نفسها على النظام الجديد ، ومهدت الأرض لثقافة فيينا اليهودية المسيحية الرائعة التى ازدهرت فى القرن التاسع عشر .

ويمكن القول عموماً إن حظ اليهود فى الأقطار الإسلامية كان خيراً من

حظهم فى الأقطار المسيحية . وقد وصفت الليدى مارى ورتلى مونتجيو ، ربما فى شىء من المبالغة حالهم فى تركيا عام ١٧١٧ فقالت :

« إن اليهود . . . يتمتعون بسلطان لايصدق فى هذا البلد . فلهم امتيازات كثيرة يفوقون فيها جميع الأهالى الأتراك أنفسهم . . . لأنهم يحاكمون طبقاً لقوانينهم . وقد استقطبوا كل تجارة الإمبراطورية فى أيديهم ، وذلك بفضل ما يربطهم من وحدة وثيقة من جهة ومن جهة أخرى لبلادة الترك وافتقارهم إلى الجد والاجتهاد . ولكل باشا مساعده اليهودى الذى يدير أعماله . . . وهم الأطباء ، والوكلاء ، والمترجمون ، لأكابر القوم أجمعين . . . وكثير منهم ذووثراء عريض »[٢٣] .

والبون شاسع بين حظ هؤلاء وحظ اليهود القلائل الموجودين فى روسيا — لاسيا فى « أقاليم التخوم » المواجهة لبولنده — عند وفاة بطرس الأكبر . وفى ١٧٤٢ أمرت الإمبراطورة اليزابث بتروفنا بأن « يرحل فوراً من أمبراطوريتنا كلها . . . جميع اليهود . . . ولا يسمح لهم منذ الآن بدخول امبراطوريتنا بأية حجة . . . ما لم . . . يعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب الرومى» . وما حلت سنة ١٧٥٣ حتى كان قد طرد قرابة ٣٥,٠٠٠ يهودى[٢٤] وتشفع بعض رجال الأعمال الروس لدى الإمبراطورة لتخفف من صرامة المرسوم ، محتجين بأن طرد اليهود قد أحدث كساداً فى اقتصاد الأقاليم لأنه حول التجارة منها إلى بولنده وألمانيا ، ولكن اليزابث لم تلن لها قناة .

فلما أن تربعت العرش كاترين الثانية أرادت أن تسمح بدخول اليهود من جديد ، ولكنها أحست بأن هذا العرش يهتز من تحتها اهتزازاً لاتجرؤ معه على التصدى لمعارضة رجال الدين . غير أن التقسيم الأول لبولنده أوصل المشكلة إلى مرحلة جديدة . فما العمل فى ٢٧,٠٠٠ يهودى طال مقامهم فى ذلك الجزء من بولنده الذى ظفرت به روسيا الآن ؟ لذلك أعلنت كاترين (١٧٧٢) أن « الجماعات اليهودية المقيمة فى المدن والأقاليم التى أدمجت الآن فى الإمبراطورية الروسية تترك لتتمتع بجميع الحريات التى تملكها الآن »[٢٥] . وسمح لهؤلاء اليهود البولنديين بقسط كبير من الحكم الذاتى ، وأجيز لهم

شغل المناصب البلدية ، ولكن حرم عليهم الهجرة من « نطاق الاستيطان » (الأقاليم البولندية السابقة) إلى داخل روسيا . وفى ١٧٩١ أبيح لليهود أن يستوطنوا أقاليم خرسون وتاوريدا وإكاترينوسلاف سبيلا إلى التعمير السريع لهذه الأقاليم المفتوحة حديثاً وتيسير الدفاع عنها . وكان العداء الإقتصادى لليهود الذى يلقونه من معظم رجال الأعمال الروس ، والعداء الدينى الذى يلقونه من عامة الروس ، يجعلان الحياة أثناء ذلك شاقة خطرة على اليهود فى الإمبراطورية .

وفى ١٧٦٦ كان يسكن بولنده ٦٢١,٠٠٠ يهودى [٢٦] . وقد صدق أوغسطس الثانى وأغسطس الثالث على « امتيازات» الحماية التى منحها لهم الحكام السابقين ، ولكن هذين الحاكمين السكسونيين ، المشغولين بمملكتين ومذهبين دينيين (فضلا عن خليلاتهما) ، لم يتح لهما وقت يذكر للتصدى لذلك العداء العرقى الذى استشعرته الجماهير البولندية نحو اليهود . ففرضت الحكومة عليهم ضرائب إضافية ، وحاول الإقطاعيون الهبوط بهم إلى درك الإقنان ، وكلفهم الحكام المحليون ثمناً باهظاً لحمايتهم من عنف الغوغاء . وندد القساوسة باليهود لأنهم « متشبثون بكفرهم » وطالب مجمع كنسى عقد فى ١٧٢٠ بأن تحظر الحكومة « بناء المجامع الجديدة لليهود وترميم القديمة منها» . وكرر مجمع عقد فى ١٧٣٣ مبدأ العصر الوسيط القائل بأن المبرر الوحيد للتسامح مع اليهود هو أنهم قد يصلحون « أداة للتذكير بعذابات المسيح ، ومثلا يضرب — بعبوديتهم وبؤسهم — للعقاب العادل الذى ينزله الله بالكافرين »[٢٧] .

وفى ١٧١٦ نشر عبرانى دخل فى المسيحية يدعى سيرافينوفتش كتاباً اسماه « فضح الشعائر اليهودية » اتهم فيه اليهود باستعمال دم المسيحيين لشتى الأغراض السحرية : لتلطيخ أبواب المسيحيين ، ولمزجه بالفطير الذى يأكلونه فى الفصح ، ولغمس قطعة قماش فيه محتوية على تعزيمة يقصد بها حماية بيت أو انجاح تجارة . . . وتحدى اليهود سيرافينوفتش أن يثبت صحة دعاواه ، وجمعوا مجلساً من الحاخامات والأساقفة ليستمعوا إليه ، ولكنه لم يمثل أمام المجلس ، بل أعاد نشر كتابه [٢٨] . وقد اتهم اليهود غير مرة بقتل

الأطفال للحصول على دم مسيحى ، واستدعى يهود بولنديون لمحاكمتهم على تهم كهذه فى ١٧١٠ و ١٧٢٤ و ١٧٣٦ و ١٧٤٧ و ١٧٤٨ و ١٧٥٣ و ١٧٥٦ و ١٧٥٩ و ١٧٦٠ ، وعذبوا فى حالات كثيرة ، حتى الموت أحياناً ، وسلخت جلود بعضهم أحياء ، ومات بعضهم بالخازوق موتاً بطيئاً . . . [٢٩] وفزع اليهود المروعون إلى البابا بندكت الرابع عشر ليكف عنهم هذه الاتهامات ، وعرضت أدلة الإثبات والنفى على الكردينال كامبانيللى ، وبعد أن تلقى تقريراً من القصر البابوى فى وارسو ، أصدر مذكرة مؤداها أنه لم يثبت فى حالة من هذه الحالات أنهم مذنبون . وأيدت محكمة ديوان التفتيش بروما مذكرة الكردينال . وكتب السفير البابوى للحكومة البولندية (١٧٦٣) يقول « ان الحبر الأقدس ، بعد فحص كل الأسس التى قام عليها اتهامهم بهذا الشذوذ — وهو أن اليهود يحتاجون إلى الدم البشرى لتجهيز فطيرهم ، خلص إلى أنه ما من دليل يثبت صحة ذلك الاتهام المغرض » [٣٠] . وكان البابا انوسنت الرابع قد أصدر حكماً مماثلا فى ١٢٤٧ . ولكن الاتهام بالشذوذ لم يتوقف .

وكان الخوف من المذابح عنصراً يتردد فى حياة اليهود البولنديين . ففى ١٧٣٤ و ١٧٥٠ و ١٧٦٨ تألفت جماعات من القوزاق والفلاحين الأرثوذكس الروس الذين نظموا على شكل عصابات مثيرة للشغب ، وشنت الغارات على كثير من المدن والقرى فى أقاليم كييف وفولهينيا وبودوليا ، وينهبون الضياع ويقتلون اليهود . وفى ١٧٦٨ حمل المغيرون « مرسوماً ذهبياً » نسب زوراً وبهتاناً إلى كاترين الثانية ، ويدعوهم إلى « استئصال شأفة البولنديين واليهود ، الذين يدنسون ديانتنا المقدسة » ، وذبحوا فى مدينة واحدة هى أومان عشرين ألف بولندى ويهودى . وجردت كاترين جيشاً روسياً يتعاون مع القوات البولندية على قمع المغيرين [٣١] .

أما فى المانيا فإن اليهود كانوا يعيشون فى أمن ورخاء نسبيين وإن عانوا من شتى المعوقات فى الحياة الاقتصادية والسياسية . فقد فرضت عليهم ضرائب خاصة فى معظم الإمارات [٣٢] . ولم يسمح القانون إلا لعدد محدود من اليهود بالعيش فى برلين ، ولكن القانون لم ينفذ بدقة ، فزادت الجالية

البرلينية عدداً ومالا ، وقامت مستوطنات مماثلة فى همبورج وفرانكفورت. وبلغ عدد من اختلف من التجار اليهود إلى سوق ليبزج فى ١٧٨٩ نيفا وألف تاجر[٣٣] . واستخدم الحكام الألمان ، وحتى الأمراء — الأساقفة الكاثوليك منهم ، اليهود لإدارة شئونهم المالية أو لتموين جيوشهم . وقد أدى يوزف أوبنهايمر (١٦٩٢ — ١٧٣٨) المعروف باسم « اليهودى سوس » هذه المهام وغيرها لناخب بالاتين فى مانهايم ، ولكارل الكسندر دوق فورتمبرج . وكان لذكائه واجتهاده الفضل فى إثرائه وإثراء الدوق ، وفى اكتسابه الكثير من الأعداء . وقد اتهم بالغش فى دار ضرب النقود ، ولكن مجلساً من المحققين برأ ساحته ، فرقى عضواً فى مجلس الدوق الخاص ، حيث لم يلبث أن أصبح القوة المسيطرة . وقد ابتكر ضرائب جديدة ، وأنشأ احتكارات ملكية ، وقبل على ما يبدو الرشا — التى اقتسمها مع الدوق[٣٤] . فلما اقترح الدوق ايداع جميع أموال الكنيسة فى مصرف مركزى للدولة ، انضم رجال الدين البروتستنت مع الإشراف فى معارضة الدوق ووزيره . وفى ٣ مارس ١٧٣٧ مات الدوق فجأة ، فقبض قادة الجيش والزعماء المدنيون على أوبنهايمر وكل يهود شتوتجارت ، وحوكم أوبنهايمر وادين ، وفى ٣ فبراير ١٧٣٨ خنق وعلقت جثته فى قفص فى ميدان عام[٣٥] .

ذكرنا من قبل جولات جوته فى حى اليهود بفرانكفورت . وقد اشتقت أسرة من أقدم الأسرات هناك اسمها الأخير ، وهو روتشيلد ، من الدرع الحمراء التى ميزت مسكنها . وفى ١٧٥٥ أصبح ماير أمشيل صاحب الدرع الحمراء رب الأسرة بعد وفاة أبويه ، وكان فى الحادية عشرة من عمره . وكانت كثرة الدويلات الألمانية ، وكل لها عملتها المستقلة ، قد جعلت تغيير النقود ضرورة متكررة للمسافرين ؛ وتعلم ماير فى صباه معادلات النقود بين الدويلات ، فكان يتقاضى رسماً صغيراً على كل تحويل . ثم درس علم العملات هواية جانبية وجمع العملات النادرة ، وأرشد جماعاً آخر هو الأمير فلهلم الهاناوى وحصل منه على لقب « وكيل التاج » الذى ساعده فى عمله بفرانكفورت . ثم تزوج

فى ١٧٧٠ ، وأنجب خمسة أبناء ، أنشأوا فيما بعد فروعاً لشركة روتشيلد فى فيينا ونابلى وباريس ولندن . واكتسب ماير سمعة الحكم السديد والنزاهة والجدارة بالثقة . فلما ان خلف فلهلم أمير هاناو أباه حاكماً على هسى كاسل ، ازداد تعامل ماير أمشيل مع القصر ، فما وافى عام ١٧٩٠ حتى بلغ دخله السنوى ثلاثة آلاف جولدن — وهو ما يعادل دخل أبى جوته الثرى ستمائة مرة (٣٦) . ونمت ثروة الأسرة نمواً سريعاً خلال حروب الثورة الفرنسية ، وشغل ماير بتموين الجيوش ، وعهد إليه بإخفاء أموال الأمراء وأحياناً باستثمارها .

وواصل اليهود فى الأراضى الواطئة واسكندناوه تمتعهم بحرية نسبية . وازدهرت جماعة أمستردام اليهودية . ولم تعرف الأحياء المقصورة على اليهود فى الدنمرك ، فقد تنقل اليهود بحرية وسمح بالزيجات المختلطة . وفى ألتونا ، المدينة التجارية الواقعة وراء نهر ألب من همبورج ، والتى كانت أنئذ ملكاً للدنمرك ، عاشت جالية من أغنى الجاليات اليهودية فى أوربا . وفى السويد بسط جوستاف الثالث حمايته على اليهود فى ممارستهم السلمية لشعائرهم .

ووجد كثيرين من اليهود الهاربين من الاضطهاد فى بولنده وبوهيميا الملجأ فى انجلتره . وزاد عددهم من ٦,٠٠٠ فى ١٧٣٤ إلى ٢٦,٠٠٠ فى ١٨٠٠ ، وكان نصيب لندن منهم ٢٠,٠٠٠ . وكانوا يعيشون فى فقر مدقع ، ولكنهم رعوا فقراءهم وتكفلوا بنفقات مستشفياتهم (٣٧) . وكان تعقب اليهود ومطاردتهم رياضة محببة للناس ، اضمحلت حين تعلم اليهود الملاكمة وغدا أحدهم بطل الملاكمة القومى (٣٨) . وقد أقصى شرط حلف يمين الولاء للمسيحية اليهود عن الوظائف المدنية والحربية . وأصبح سامسون جدعون أحد محافظى بنك انجلتره بعد أن قبل الدخول فى المسيحية . وفى ١٧٤٥ ، حين كان الشاب المطالب بالعرش يزحف على لندن بجيش اسكتلندى أخذ على نفسه العهد بخلع جورج الثانى ورد آل ستيوارت إلى العرش ، فأصاب الذعر جماهير الشعب بعد أن فقدوا الثقة فى أمن الحكومة وسلامها وهددوا بالتزاحم على المصرف لاسترداد ودائعهم ، فى هذا الظرف قاد

جدعون التجار والأعيان اليهود لإنقاذ المصرف ، فتدفقت أموالهم الخاصة فيه ، وتعهدوا بقبول بنكنوت المصرف بالقيمة الإسمية فى معاملاتهم التجارية ووفى المصرف بالتزاماته ، وأعيدت الثقة ، ورد المطالب بالعرش على أعقابه (٣٩) .

وأعربت وزارة الأحرار (الهوجز) عن تقديرها لصنيع اليهود بتقديمها مشروع قانون إلى البرلمان (١٧٥٣) يبيح الجنسية والمواطنة لجميع اليهود المولودين فى الخارج والذين أقاموا فى انجلترا أو ارلنده ثلاثة أعوام ؛ (أما اليهود المولودين هناك فكانوا يكتسبون الجنسية بالمولد (٤٠) . ووافق اللوردات والأساقفة على المشروع ، ووافق عليه أعضاء مجلس العموم بأغلبية ستة وتسعين صوتاً مقابل خمسة وخمسين . ولكن الشعب البريطانى الذى لم يكن له كبير علم أو فهم للدور الذى لعبه اليهود فى إنقاذ المصرف هب معارضاً مشروع القانون معارضة ساحقة . وانهالت الاحتجاجات على البرلمان من كل مدينة فى بريطانيا تقريباً ، وأجمعت المنابر والحانات على إدانته ، وشكا التجار من أن منافسة اليهود لهم فى التجارة ستصبح أمر لايحتمل . وكان الشتم والإهانة فى الشوارع نصيب الأساقفة الذين صوتوا للمشروع ؛ وبعثت الأساطير القديمة التى ادعت قتل اليهود للمسيحيين طبقاً لشعائرهم ، وأذيعت مئات النشرات والقصائد الشعبية والصور الكاريكاتورية والأهاجى الساخرة ، وزين النساء ثيابهن وصدورهن بالصلبان ولبسن أوشحة تحمل هذا الشعار « لايهود ، المسيحية إلى الأبد » (٤١) . وخاف زعماء الأحرار الهزيمة فى الانتخاب القادم فحصلوا على إلغاء القانون (١٧٥٤) .

٢ — العزاء الصوفى

ولاذ كثير من اليهود ، لاسيما فى بولنده ، بأسباب العزاء فوق الطبيعى هرباً من معاناتهم الأرضية . وأتلف بعضهم بصرهم بإدمان قراءة التلمود ، وفقد بعضهم عقولهم فى القبلانية ، وظل بعض « السبطائيين » يؤمنون بألوهية صبطاى زيفى رغم ارتداد هذا المسيح الكاذب وموته ، وانصرفوا عن اليهودية التلموذية إلى الآمال والطقوس المهرطقة . وأقنع يانكيف ليبوفتش ،

الذى أصبح معروفاً باسم يعقوب فرانك الذى أطلقه عليه الترك ، مئات من اليهود البولنديين بأن روح زيفى تقمصته ، وعلمهم عقيدة شبيهة بهرطقة مسيحية لطيفة تصورت الثالوث مؤلفاً من الله الآب ، ومريم أم ، والمسيح ابنهما ، وأخيراً قاد اتباعه إلى الكنيسة الكاثوليكية (١٧٥٩) .

وأنقذت الحركة « القاصدية » اليهود البولنديين بعض الإنقاذ من حالتهم الوضعية . وكان مؤسس « عقيدة التقوى» هذه اسرائيل بن ألعازر ، المعروف باسم بعل شم — توب (« السيد الصالح لاسم الله ») ، واختصاراً باسم « بشت» الجامع لأول حروف اسمه الكامل . وكان يجوب البلاد معلماً للأطفال ، وعاش فى فقر تجمله البهجة ، وكان يصلى بانتشاء ويشفى المرضى شفاء « معجزياً » بالأعشاب الجبلية . وقد طلب إلى اتباعه ألا يعيروا طقوس المجمع والمعرفة التلمودية كبير اهتمام ، وان يقتربوا إلى الله رأساً فى شركة متواضعة ولكنها حميمة ، وان يبصروا الله ويحبوه فى شتى صور الطبيعة ومظاهرها ، فى الصخور والأشجار ، وفى حالات اليسر والألم ؛ وأمرهم بأن يستمتعوا بالحياة فى الحاضر بدلا من البكاء على خطايا الماضى وآلامه . وكانت أقواله المأثورة البسيطة أحياناً تشبه أقوال المسيح . « شكا بشت أن ابنه ترك الله ، وسأله قائلا : يا معلم ، ماذا أصنع؟ وأجابه بشت : أحبه أكثر مما فعلت فى أى وقت»[٤٢] .

والحركة القاصدية فى بولنده تقابل من بعض الوجوه حركات الأخوان الموافيين . والتقويين الألمان ، والمثوديين الانجليز ؛ فقد اتفقت مع هذه الحركات على اخراج الدين من المعبد وإدخاله إلى القلب ، ولكنها رفضت النسك والاكتئاب ، وأمرت اتباعها بأن يرقصوا ، ويستمتعوا بعناق أزواجهم ، لا بل بالشراب بين الحين والحين إلى حد النشوة .

فلما مات بعل شم — توب (١٧٦٠) تولى رعاية قطيعه ، وأحياناً جز صوفه ، [٤٣] سلسلة من « الصديقين » . وحارب التلموديون السنيون بزعامة عالم متعصب من فلنا يدعى إيليا بن سليمان « القاصدين » بالنصح والحرم ، ولكن عددهم زاد بانهيار بولنده (١٧٧٢ — ٩٢) ، ولم يختتم القرن حتى كانوا يعدون ١٠٠,٠٠٠ نسمة [٤٤] .

وما كان لحياة مطاردة على الأرض على هذا النحو ، ونفوس مثبتة في السماء إلى هذا الحد ، ان تسهم بقسط كبير في الأدب الدنيوى أو العلم أو الفلسفة . وكان اليهود في كل بلد تقريباً ممنوعين من الالتحاق بالجامعات بحكم القسم بالولاء للعقيدة المسيحية المشترط على جميع الطلاب . ثم ان ناموس موسى حرم عليهم ممارسة فن التصوير وبلد تذوقهم الفنى . وإذ كانوا يكتبون بالعبرية التى لاتفهمها غير قلة قليلة ، أو باليديدية التى لم تكن بعد قد أصبحت لغة أدبية ، فقد افتقدوا الحافز لإنتاج أى أدب خلاف الشروح الدينية أو السفاسف الشعبية . وثمة اسهام بارز واحد أسهموا به في الفنون العملية في هذا العصر : فقد اخترع يعقوب رودريج بريرٍ ، وهو أحد يهود بوردو ، لغة إشارات للصم والبكم ، فأثنى عليه ديدرو ودالامبير وروسو وبوفون . ثم شاعر يهودى واحد أنار هذه الظلمة .

وقد ولد الشاعر موسى حايم لونساتو في إيطاليا (١٧٠٧) لوالدين أتاح لهما بعض اليسر أن يحسنا تعليمه . وقد أخذ عن الشعراء اللاتين ، وعن الشعراء الإيطاليين من أمثال جوارينى ، براعة في الأوزان الشعرية مكنته من أن يسبغ على شعره العبرى من الإيقاع المتدفق والسحر الرقيق ما لم يعرف في تلك اللغة منذ أيام يهوذا هاليفى . وحين بلغ السابعة عشرة كتب مسرحية عن شمشون والفلسطينيين . ثم أقبل على دراسة « الزهر » ، وهو كتاب القبلانية المقدسة ، فافتتن خياله بأوهامه الصوفية ، فأدار بعضها شعراً ، وأدارت هى رأسه فخيل إليه انه ملهم من السماء . فكتب « زهرا » ثانيا ، وأذاع انه المسيح الذى وعد به اليهود . فحرمه حاخامات البندقية (١٧٣٤) . ففر إلى فرانكفورت — على المين ، حيث أجبره الحاخامات على الوعد بالإقلاع عن أوهامه بأنه المسيح المنتظر . وانتقل إلى أمستردام حيث رحبت به الجالية اليهودية ، وهناك كسب قوته كما كسبه سبينوزا بصقل العدسات ، ثم استأنف دراساته القبلانية . وفي ١٧٤٣ ألف مسرحية عبرية « لا — ى أشاريم تهيللا (مجداً للأبرار) كان حظها التقريظ ممن كانوا أكفاء للحكم عليها ، برغم التجريدات التى استخدمها شخوصاً للمسرحية .

ومؤدى المسرحية أن الجهل المستشرى بين العوام ، يدعمه المكر والخداع ، يولد الحماقة ، التى تحبط الحكمة مراراً ، وتحرم الكفاية من تاجها ، حتى ينتصر العقل والصبر فى النهاية على الخداع بالكشف عن الحقيقة ، على أن « الحقيقة » كان يقصد بها القبلانية . وفى ١٧٤٤ ذهب إلى فلسطين ، أملا فى آن ينادى به المسيح المنتظر ، ولكنه مات فى عكا بالطاعون (١٧٤٧) وهو فى التاسعة والثلاثين . وكان آخر صوت فصيح لعصر اليهودية الوسيط ، كما كان أول صوت كبير ليهودية تنبعث من العزلة الواقية إلى الاحتكاك بالفكر الحديث .

٣ — موسى مندلسون

كان جد فيلكس مندلسون من أنبل شخصيات القرن الثامن عشر ، وكان صديقاً وخصماً لكانط ، وصديقاً وملهماً لليسنج . وكان أبوه مناحم مندل كاتباً ومعلماً بمدرسة يهودية فى دسو . وهناك ولد « موسى الثالث» فى ٦ سبتمبر ١٧٢٩ ، وشب مشغوفاً بالدرس حتى لقد أصابه شغفه هذا بتقوس مستديم فى العمود الفقرى . فلما بلغ الرابعة عشرة أوفد إلى برلين لمزيد من دراسة التلمود . وهناك اتبع بحذافيره تقريباً أمر التلمود الذى نصه «كل الخبز بالملح ، واشرب الماء بمقدار ، ونم على الأرض اليابسة ، وعش عيشة الحرمان ، وليكن الناموس شغلك الشاغل »[٤٥] . وظل سبع سنين قانعاً بسكناه فى إحدى العليات يعلم رغيف خبزه الأسبوعى بخطوط تحدد جرايته اليومية [٤٦] ، ويكسب الرزق الضئيل بنسخ الوثائق بخطه الأنيق . وفى برلين أكب على آثار موسى بن ميمون ، ووجد الشجاعة فى حياة « موسى الثانى» ذاك وتعلم منه ومن الحياة أن ينزل بكبريائه إلى التواضع وبحدة طبعه إلى اللطف والمجاملة . وعلمه رفقاؤه البرلينيون اللاتينية والرياضيات والمنطق ، وقرأ لوك فى ترجمة لاتينية ، وانتقل إلى ليبنتس وفولف ، ولم يلبث أن عشق الفلسفة . ثم تعلم كتابة الألمانية فى نصاعة رقيقه ندر أن تجد لها نظيراً فى أدب وطنه فى جيله .

وانتهت أيام فقره حين أصبح فى الحادية والعشرين معلماً خاصاً فى أسرة صاحب مصنع حرير فى برلين يدعى إسحاق برنهارت ، وبعد أربع سنوات عين محاسباً بالشركة ثم مندوباً متجولا لها ، وأخيراً شريكاً فيها . وقد احتفظ بصلة العمل هذه بنشاط حتى نهاية عمره ، لأنه اعتزم ألا يعتمد فى رزقه على رواج كتبه وحصيلتها من المال . والراجح انه التقى بليسنج فى ١٧٥٤ ، على لعبة شطرنيج فيما يبدو ، وهكذا بدأت صداقة اتصلت حتى موت ليسنج رغم ما بينهما من خلافات فلسفية . كتب ليسنج إلى صديق آخر فى ١٦ أكتوبر ١٧٥٤ يقول : « ان مندلسون رجل فى الخامسة والعشرين ، اكتسب دون أى تعليم جامعى معلومات كبيرة فى اللغات والرياضيات والفلسفة والشعر . وانى لأتطلع فيه إلى مفخرة لأمتنا إذا أتاح له اخوانه فى الدين أن يصل إلى درجة النضج . . . وأن صراحته وروحه الفلسفية ليجعلانى أعده سلفاً ، اسبينوزا ثانيا » (٤٧) . أما مندلسون فكان يقول ان كلمة ود أو نظرة محبة من ليسنج تطرد عنه كل حزن أو غم (٤٨) .

وفى ١٧٥٥ رتب ليسنج نشر كتاب مندلسون « أحاديث فلسفية » ، الذى شرح ودافع عن كلا من سبينوزا وليبنتس . وفى العام ذاته تعاون الصديقان على كتابة مقال « بوب ميتافيزيقيا ! » زعما فيه أن هذا الشاعر الانجليزى لم يكن له فلسفة من بنات أفكاره ، وكل ما فعله أنه نظم فلسفة ليبنتس شعراً . وفى ١٧٥٥ أيضاً نشر مندلسون « رسائل فى الوجدان » ، وقد سبق هذا كانط فى رأيه أن الإحساس بالجمال مستقل كل الاستقلال عن الشهوة . وقد اكسبت هذه الكتب المنشورة اليهودى الشاب الترحيب فى برلين بين « الإخوان الفلاسفة الذين لم يكونوا على تمام الصفاء والرزانة » . وعن طريق ليسنج التقى بفردريش نيقولاى ، ودرس هو ونيقولاى اليونانية معاً ، وما لبث أن بدأ يقرأ أفلاطون فى لغته الأصلية . ثم ساعد نيقولاى فى إنشاء مجلة سميت « مكتبة الآداب البحتة والفنون الجميلة » ، وأسهم فى هذه المجلة وغيرها من المجلات بمقالات كان لها تأثير قوى فى الأفكار السارية فى نقد الأدب والفن .

وأحس مندلسون الآن بقدر من الأمن والطمأنينة يتيح له أن يقيم بيتاً

خاصاً به . ففى ١٧٦٣ ، وهو فى الثالثة والثلاثين ، تزوج فروميت جوجنهايم البالغة خمسة وعشرين ربيعاً . وكان كلاهما قد بلغ سن النضج الفكرى ، فأثمر اتحادهما الكثير من السعادة . وفى شهر العسل بدأ العمل فى مسابقة قدمت فيها أكاديمية برلين جائزة لأفضل مقال يتناول هذا الموضوع « هل العلوم الميتافيزيقية تقبل الأدلة كالعلوم الرياضية » . وكان من المتسابقين إمانويل كانط . وفاز مقال مندلسون (١٧٦٣) ، فأتاه بخمسين دوقاتية وبشهرة دولية .

وكان بين المتسابقين توماس آبت ، وهو أستاذ فى فرانكفورت — على الأودر . وفى رسائل كثيرة تبادلها مع مندلسون أعرب عن شكوكه فى خلود الروح ، وأسف على أن فقدان ذلك المعتقد قد يقوض الناموس الأخلاقى ويحرم التعساء من آخر عزاء لهم . وبعض الفضل راجع إلى هذه الرسائل فى وضع مندلسون لأشهر كتبه قاطبة « فيدون » . وقد صاغه على مثال نموذجه الأفلاطونى فى شكل حوار وفى أسلوب ميسر . فروح الإنسان (كما يزعم) متمايزة من المادة بشكل واضح ، إذن لنا أن نعتقد أنها لاتشارك الجسد مصيره ؛ وإذا كنا نؤمن بالله فإننا لانستطيع الافتراض بأنه يخدعنا إذ يغرس فى عقولنا أملا دون أن يكون له أساس من الحقيقة . يضاف إلى هذا (وهو ما سيذهب إليه كانط) ان للروح حافزاً طبيعياً نحو كمال الذات ؛ وهذا لايمكن تحقيقه فى حياتنا ؛ ولا بد أن الله يسمح للروح بأن تحيا بعد موت الجسد. وقد شعر مندلسون بأنه « بدون الله ، والعناية الإلهية ، والخلود » تفقد كل طيبات الحياة قيمتها فى نظرى وتصبح حياتنا على الأرض . . . أشبه بالتيهان فى الريح والمطر دون أمل يعزى التائه بالعثور على غطاء ووقاء فى الليل »[٤٩]. وبراهين الكتاب هشة ، ولكن أسلوبه أبهج قراء كثيرين ، ولاح أن الكاتب ظفر باستعادة سحر محاورات أفلاطون ، والواقع أن لقب « أفلاطون الألمانى » اسماً ثانياً لمندلسون. وطبعت من الكتيب خمس عشرة طبعة وترجم إلى جميع اللغات الأوربية تقريباً كما ترجم إلى العبرية ، وكان فى جيله أوسع الكتب انتشاراً فى ألمانيا باستثناء القصص . وشارك هردر وجوته فى تقريظه .

وزار لافاتر مؤلفه ، وفحص رأسه ووجهه ، وأعلن أن كل نتوء وخط فيه يشى بروح سقراط[٥٠] .

وأشاد المسيحيون على اختلاف مذاهبهم باليهودى البليغ ، والتمس منه راهبان بندكتيان النصيحة الروحية . ولكن فى ١٧٦٩ أثار لافاتر ، الذى كان لاهوتياً غيوراً كما كان عالماً فى الفراسة ، ضجة بتوجيهه نداءاً علنيا لمندلسون أن يدخل فى المسيحية . ورد مندلسون فى « (١٧٧٠) فسلم بعيوب الديانة اليهودية والحياة اليهودية ، ولكنه ذكر أن عيوباً كهذه تنشأ فى كل ديانة فى أثناء تاريخها ، وطلب إلى لافاتر أن يفكر فى الشدائد التى عاناها اليهود فى الأقطار المسيحية ، ثم أضاف : « أن الذى يلم بما نحن عليه الآن من حال ، ان كان له قلب رحيم ، سيفهم أكثر مما فى وسعى التعبير عنه » . واختتم بهذه العبارة « اننى لوطيد الثقة بالعناصر الأساسية فى إيمانى . . . بحيث أشهد الله على اننى سأثبت على عقيدتى الأصلية ما لم تتخذ روحى طبيعة أخرى » [٥١] وتأثر لافاتر ، واعتذر بتواضع عن توجيهه هذا النداء[٥٢] . ولكن نفراً كبيراً من المعلقين شهروا بمندلسون متهمينه بالكفر ، وأدانه بعض اليهود السنيين لتسليمه بأن هناك نقائض تسلك إلى الشعائر اليهودية[٥٣] . وظل الجدل حينا يثير من النقاش أكثر مما تثيره السياسة القومية أو تدهور صحة فردريك .

وعانت صحة مندلسون نفسه من هذه الضجة ، فاضطر طوال شهور من عام ١٧٧٢ أن يكف عن أى نشاط ذهنى . فلما استعاد عافيته كرس من وقته قدراً أكبر للتخفيف من آلام إخوانه فى الدين . وحين تهيأت بعض أقاليم سويسره لفرض مزيد من القيود على اليهود طلب إلى لافاتر أن يتدخل فى الأمر ، ففعل ، وكان موفقاً فى شفاعته . وحين وضعت سلطات درسدن خطة لطرد مئات من اليهود استعان مندلسون بصداقة تربطه بموظف محلى للحصول على الأمان لهم[٥٤] . وبدأ فى ١٧٧٨ نشر ترجمته للأسفار الموسوية الخمسة ، وأصدرها فى ١٧٨٣ ، فأثارت عاصفة جديدة . ولكى يكتب بعض الشروح على النص كلف هرتس هومبرج بالمهمة ، وكان مرتبطاً بيهود من برلين مبتوتى الصلة تماماً بالمجمع اليهودى . وحرم الترجمة أحبار عديدون ، ولكنها شقت طريقها إلى الجاليات اليهودية ؛ وتعلم شباب

اليهود الألمانية منها ، وتحرك جيل اليهود التالى للمشاركة النشيطة فى الحياة الفكرية لألمانيا . ونشر ليسنج خلال ذلك (١٧٧٩) مسرحيته « ناثان الحكيم » ، التى فسرها القراء على أنها تمجيد لصديقه اليهودى .

أما وقد بلغ مندلسون قمة الشهرة والنفوذ ، فإنه أقنع ماركوس هرتس بأن يترجم إلى الألمانية كتاب « الدفاع عن اليهود » الذى وجهه منسى بن اسرائيل إلى الشعب الانجليزى فى ١٦٥٦ . وأضاف إلى الترجمة مقدمة فى « خلاص اليهود »(١٧٨٢) ، ناشد فيها الأحبار أن يتخلوا عن حقهم فى الحرم . وأتبع هذا فى ١٧٨٣ بكتاب بليغ سماه « أورشليم ، أو فى السلطة الدينية والديانة اليهودية » ، أعاد فيه تأكيد إيمانه اليهودى ، وأهاب باليهود أن يخرجوا من عزلتهم وانطوائهم ويدلوا بدلوهم فى الثقافة الغربية ، وحث على الفصل بين الكنيسة والدولة ، وأدان أى إكراه فى الدين ، وذهب إلى أن الحكم على الدول يكون بقدر اعتمادها على الإقناع لا القوة . وكتب كانط ، الذى كان هو الآن أيضاً فى أوج شهرته ، إلى المؤلف رسالة تستحق أن يفرد لها مكان فى سجلات الصداقة . قال :

« انى أعد هذا الكتاب بشير إصلاح عظيم لن يؤثر فى شعبك فحسب بل فى الشعوب الأخرى . فلقد وفقت فى الجمع بين دينك وبين قدر من حرية الضمير لم يتصور أحد أنه ميسور . . . ثم انك فى الوقت نفسه أبنت فى كثير من الوضوح والدقة ضرورة حرية الضمير التى لاحدود لها فى كل دين ، بحيث أن كنيستنا (اللوثرية) ستضطر آخر الأمر إلى النظر فى أن تزيل من وسطها كل شىء من شأنه إقلاق الضمير أو إكراهه »[٥٥] .

وهاجم الكتاب الزعماء السنيون مسيحيين كانوا أو يهوداً ، ولكنه أسهم إلى حد هائل فى تحرير اليهود وتغريبهم .

فى عام ١٧٨٣ لم يكن مندلسون قد تجاوز الرابع والخمسين ، ولكنه كان دائماً رقيق البنية معتل الصحة ، وقد أحس أنه لم يبق له من الأجل كثير . وفى أخريات سنية ألقى على أبنائه وعلى بعض أصحابه محاضرات حدد فيها عقيدته الدينية ، وقد نشرت فى عام ١٧٨٥ باسم « ساعات الصباح أو محاضرات فى وجود الله » . وفى آخر سنة من عمره صدمه أن يقرأ فى كتاب

ألفه ياكوبى أن صديقه العزيز ليسنج ، والذى كان قد فارق الحياة ، اتبع طويلا عقيدةسبينوزا فى وحدة الوجود ، فلم يستطع أن يصدق الخبر ، وكتب دفاعاً حاراً عن ليسنج عنوانه « إلى أصدقاء ليسنج » . وفيما هو حامل المخطوط إلى الناشر أصيب بنزلة برد ؛ وأثناء مرضه ذاك أصيب بسكتة دماغية أودت بحياته فى ٤ يناير ١٧٨٦ . واشترك المسيحيون مع اليهود فى إقامة تمثال له فى مسقط رأسه دسو .

لقد كان واحداً من أكثر الشخصيات تأثيراً فى جيله . فقد خرج شباب اليهود من عزلتهم بعد أن الهمتهم كتاباته وعبوره الناجح للفواصل الدينية ، ولم يلبثوا أن تركوا بصماتهم على الأدب والعلم والفلسفة . فذهب ماركوس هرتس إلى جامعة كونجزبرج فى طلب الطب ؛ والتحق بعدة فصول دراسية لكانط ، وأصبح المساعد والصديق لفيلسوف المعرفة العظيم . وهو الذى توقف فى منتصف قراءته « نقد العقل الخالص » مخطوطاً مخافة أن يصاب بالجنون إذا مضى فى القراءة إلى النهاية . فلما نقل إلى برلين ، اشتغل بالطب وكثر زبائنه ، وألقى محاضرات فى الفيزياء والفلسفة على جمهور من المسيحيين واليهود . وافتتحت زوجته الجميلة المثقفة هنرييتا صالوناً كان فى نهاية القرن ملتقى هاماً لمفكرى برلين ؛ وإليه اختلف فلهلم فون همبولت ، وشلايرماخر ، وفريدريش شليجل ، وميرابو الابن . . . ولعل اختلاط الأفكار الذى تمخضت عنه هذه اللقاءات ماكان ليسر مندلسون . فقد دخل عدد من أبنائه فى المسيحية . واشترك ابنتان من بناته مع هنرييتا هرتس وغيرها فى « رابطة للفضيلة » تحترم « الانجذابات العاطفية » أكثر من الولاء الزوجى . وكان لهنرييتا علاقة غرام بشلايرماخر ؛ وهجرت دوروتيا مندلسون زوجها لتصبح خليلة فزوجة وفية لفريدريش شليجل ، وأخيراً تابعة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ؛ كذلك أعتنقت هنرييتا مندلسون العقيدة الرومانية ، وجعل أبراهام مندلسون أبناءه ، ومنهم فيلكس ، يعمدون فى الكنيسة اللوثرية ؛ وزعم الحاخامات السنيون أنهم كانوا على حق فى مخاوفهم . ولكن هذه كانت نتائج عارضة للحرية الجديدة ؛ أما النواحى الأبقى على الزمن فى تأثير مندلسون فقد ظهرت فى تحرير اليهود فكرياً واجتماعياً وسياسياً .

٤ — نحو الحرية

وفى هذه الحقبة اتخذ التحرير من الناحية الفكرية ، شكل « الهسقلة » — وهى كلمة كانت تعنى الحكمة ، ولكنها أصبحت فى هذا السياق ترمز إلى التنوير اليهودى ، أو تمرد عدد متزايد من اليهود على سيطرة الأحبار والتلمود ، وتصميمهم على أن يندمجوا اندماجاً نشيطاً فى تيار الفكر الحديث . وتعلم هؤلاء المتمردون الألمانية ، وتعلم بعضهم الفرنسية — لا سيما فى أسر التجار أو الماليين ؛ وقرأوا مؤلفات أحرار الفكر الألمان أمثال ليسنج ، وكانط ، وفيلاند ، وهردر ، وشيلر ، وجوته ؛ وكثيرون نقبوا فى أعمال فولتير ، وروسو ، وديدرو ، وهلفتيوس ، ودولباخ . ووقع انقسام بين اليهود المتحررين المقبلين على الحداثة ، واليهود المحافظين الذين شعروا بأن الولاء للتلمود والمجمع هو الطريق الأوحد للحفاظ على الوحدة الدينية والعرقية والأخلاقية للشعب اليهودى .

وانتشرت حركة الهسقلة من ألمانيا جنوباً إلى غاليسيا والنمسا ، وشرقاً إلى بوهيميا وبولنده وروسيا . وزاد من سرعتها فى النمسا ترخيص التسامح الذى أصدره يوزف الثانى ، والذى دعا اليهود إلى دخول المدارس غير اليهودية . فلما عارض الأحبار المحافظون ، ناشدهم شاعر يهودى هامبورجى يدعى نفتالى فيسيلى ، فى بيان يهودى بليغ ، أن يباركوا اشتراك اليهود فى التعليم العلمانى ؛ وحث الجيل الصاعد على أن يحلوا العبرية والألمانية محل اليبدية ، وأن يدرسوا العلوم والفلسفة كما يدرسون التوراة والتلمود . وقد رفض أحبار النمسا آراءه ؛ ولكن قبلها زعماء اليهود فى تريسته والبندقية وفرارا وبراغ . ومنذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا أسهم اليهود فى العلم والفلسفة والأدب والموسيقى والقانون بقدر يفوق كثيراً نسبتهم إلى عدد السكان .

وأعانت التطورات الفكرية والاقتصادية على تحرير اليهود . فنشر الدارسون الكاثوليك من أمثال رتشرد سيمون المعارف الربانية بين طلاب الكتاب المقدس ؛ وألف لاهوتى بروتستنتى يدعى جاك باناج كتاباً مشرباً بروح الود يسمى « تاريخ ديانة اليهود » (١٧٠٧) . وجمع نمو التجارة

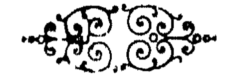
والمالية بين المسيحيين واليهود فى اتصالات أججت أحياناً نار الخصومة العرقية ، ولكنها كثيراً ما خففت منها . ولعب الماليون اليهود فى عدة حكومات أدواراً تجلت فيها روح العون والوطنية .

وارتفعت الآن أصوات مسيحية تقترح انهاء الاضطهاد الدينى ، فنى ١٧٨١ نشر كرستيان فاهلم دوم ، وكان صديقاً لمندلسون ، بناء على اقتراحه نبذة خطرة الأثر سماها « فى تحسين الأحوال المدنية لليهود فى ألمانيا » . وكانت المناسبة نداء وجهه يهود الالزاس إلى مندلسون يطلبون إليه كتابة احتجاج على القيود المفروضة عليهم . واضطلع دوم بالمهمة ، ووسعها إلى نداء عام لتحرير اليهود . . ووصف فى تفصيل مؤثر ، المعوقات التى يعانيها اليهود فى أوربا ، وأشار إلى فداحة الخسارة التى خسرتها الحضارة الغربية لأنها لم تفد فائدة تذكر من مواهب اليهود العقلية — « ان مبادىء التفرقة هذه ، المنافية للإنسانية والسياسية على حد سواء ، تحمل طابع العصور المظلمة ، وهى غير جديرة بتنوير عصرنا هذا » (٥٦) واقترح دوم السماح لليهود بحرية العبادة الكاملة وبالالتحاق بمعاهد التعليم ، وبممارسة جميع المهن والحرف ، وبإعطائهم جميع الحقوق المدنية ، ويستثنى منها مؤقتاً اختيارهم للمناصب وهو ما لم يكونوا بعد مهيئين له .

وأثارت الرسالة التعليق فى أقطار كثيرة ، فاتهمه بعض خصومه بأنه باع قلمه لليهود ، ولكن العديد من رجال الدين البروتستنت سارعوا إلى الدفاع عنه . وأيده المؤرخ السويسرى يوهان فون مولر ، وطلب ترجمة أعمال موسى بن ميمون إلى الألمانية أو الفرنسية . واكتسبت حركة التحرير دفعاً من براءة التسامح الصادرة فى ١٧٨٢ بالنمسا ومن تحرير اليهود السياسى فى الولايات المتحدة (١٧٨٣) . واستجابت الحكومة الفرنسية استجابة هزيلة برفع الضرائب الشخصية (١٧٨٤) التى أثقلت كواهل اليهود . واشترك المركيز ميرابو مع ماليرب فى تحقيق هذا التخفيف ، وساعد الحركة ابنه الكونت ميرابو بمقاله « عن مندلسون والإصلاح السياسى لليهود »

(١٧٨٧) ودفع الأب هنرى جريجوار الحركة بكتابته مقالا نال جائزة فى مسابقة عن « الأحياء المادى والخلقى والسياسى لليهود » (١٧٨٩) .

على أن التحرير السياسى النهائى لم يأت إلا مع الثورة . فقد احتواه ضمنا إعلان حقوق الإنسان الذى أذاعته الجمعية الوطنية (٢٧ أغسطس ١٧٨٩)، وفى ٢٧ سبتمبر ١٧٩١ وافقت الجمعية التأسيسية على إعطاء كامل الحقوق المدنية ليهود فرنسا . وجاءت جيوش الثورة أو جيوش نابليون بالحرية ليهود هولنده فى ١٧٩٦ . وليهود البندقية فى ١٧٩٧ ، وما ينز فى ١٧٩٨ ، وروما فى ١٨١٠ ، وفرانكفورت فى ١٨١١ . وهكذا اختتمت حقبة العصور الوسطى بالنسبة لليهود .



الفصل السادس والعشرون

من جنيف إلى استوكهولم

١ — السويسريون : ١٧٥٤ — ١٧٩٨

ان الذين استمتعوا منا بالهدوء وسط جنة الطبيعة فى سويسرة ، وبالإلهام من شجاعة شعبها وأمانته ، يشق عليهم أن يدركوا أن من تحت الخلق الهادىء ، والفلاحة الصابرة ، والصناعة المستقرة التى أعجبت بها أوربا يومها وتعجب بها الآن ، كانت تكمن الصراعات الطبقية — صراعات بين الجنس والجنس . وبين اللغة واللغة ، وبين العقيدة والعقيدة ، وبين الأقليم والأقليم ، وبين الطبقة والطبقة . وكان السويسريون فى نطاقهم المتواضع قد اقتربوا جداً من تحقيق ذلك المثل الأعلى الذى صوره الأب سان — بيير وحلم به روسو وكانط : وهو الاتحاد الكونفدرالى يعقد بين دويلات مستقلة فى شئونها الداخلية ، ملتزمة بالعدل الموحد فى علاقاتها بالعالم المحيط بها . ففى ١٧٦٠ تكون الاتحاد الهلفيتى لدعم الولاء للأمة أكثر من الأقاليم . ولتوحيد الحركات المبعثرة للإصلاح السياسى .

وقد قدر فولتير — الذى كان يعيش عن كثب — سكان سويسرا فى ١٧٦٧ بـ ٧٢٠,٠٠٠ نسمه [1] . وكان أكثرهم يفلح الأرض أو يزرع الكروم ، ويسطب المنحدرات إلى ما يقرب من قمم الجبال . وكانت صناعة النسيج فى نمو مطرد لا سيما فى اقليم سانت جالن وكانتون زيوريخ ؛ وكانت مراكز صناعية أخرى بسبيلها إلى التشكل فى جلاروس ، وبرن ، وبازل ؛ أما جنيف ونويشاتل فكانتا المركزين العظيمين لصناعة الساعات . وأنشأ الوكلاء المنتشرون فى أرجاء أوربا من لندن إلى الآستانة (التى كان بها ثمانية وثمانون

منهم) لجنيف تجارة صادر حققت الثراء السريع للمدينة الواقعة على الرون . وكثرت المصارف لأن الماليين السويسريين كانوا قد اكتسبوا سمعة دولية بالأمانة .

وكانت أغلب الكفاءات ، كما هي الحال فى كل بلد ، مركزة فى أقلية من الرجال ، فأدى هذا إلى تركيز الثروة . وكانت الكانتونات بصفة عامة تحكمها أوليجركيات تسلك مسلك أى طبقة حاكمة . فالإشراف رعاة أسخياء للآداب والعلوم والفنون ولكنهم يقاومون كل خطوة للتوسع فى حق الانتخاب . وقد اتهم جبون ، الذى كان يسكن لوزان ، أوليجركية برن بأنها تثبط الصناعة فى الأقاليم التابعة لها ، وتبقى على هبوط مستوى المعيشة فيها عملا بالمبدأ القائل « ان الرعايا الفقراء المطيعين خير من الأغنياء المتمردين »[٢]. وقد نظمت جماعات لإلغاء الامتيازات الاقتصادية أو السياسية غير مرة ، ولكنها صدت بقوة الدولة والكنيسة المتحالفتين[٣] . واضطربت أحوال جنيف آنا بعد آن نتيجة حرب الطبقات طوال القرن الثامن عشر . وساد فيها سلام نسبى من ١٧٣٧ إلى ١٧٦٢ ، ولكن احراق المجلس البلدى لكتاب إميل (١٧٦٢) فجر الدعوة لتوسيع حق التصويت . وعضد الحركة روسو وفولتير ، بعد جدل كثير نزلت طبقة الإشراف للطبقات الوسطى عن قسط صغير فى الحكم .

وقد خلف هذا ثلاثة أرباع السكان مجردين تماماً من حق التصويت — الوطنيون (أو الأهالى) وهم الأشخاص المولودون فى جنيف ولكن الأبوين من غير الوطنيين . وهؤلاء حرموا أيضاً من معظم المهن ، ومن المناصب الحربية ، ومن الارتقاء معلمين فى النقابات الحرفية ؛ وقد منعوا من توجيه الملتمسات إلى المجلس الأكبر والمجلس الأصغر اللذين يحكمان الجمهورية . غير أنهم أثقلوا بالضرائب . وفى ٤ أبريل ١٧٦٦ ذهب وفد من « الوطنيين » إلى فرنيه وطلبوا إلى فولتير أن يساعدهم فى نيل حق التصويت . فقال لهم : « يا أصدقائى ، انكم تؤلفون أكثر الطبقات عدداً فى مجتمع مستقل كادح ، وأنتم ترسفون فى العبودية ولاتطلبون إلا أن تتمتعوا بمزاتكم الطبيعية ، أى أن تمنحوا هذا الطلب المتواضع لا أكثر . وسأعينكم بكل ما أملك من نفوذ . . .

فإذا أكرهتم على الرحيل عن وطن يثرى على حساب كدكم ، فسأستطيع تقديم العون لكم وحمايتكم فى مكان آخر »(٤) .

ولكن الطبقتين الارستقراطية والبورجوازية اتحدتا فى مقاومة نداء « الوطنيين » ، وكل ما استطاعه فولتير هو أن يرحب فى مستعمرته الصناعية بكل من وفد عليه من الصناع الساخطين (١٧٦٨) . وفى ١٧٨٢ هب الوطنيين فى ثورة أطاحت بطبقة الإشراف وأقامت حكومة نيابية . ولكن النبلاء استنجدوا بفرنسا وبرن وسردينيا ؛ فتدخلت هذه الدول ، وأخمد التمرد ، وردت الأوليجركية إلى الحكم . وكان على الوطنيين أن ينتظروا مجىء الثورة الفرنسية لتأتيهم بالحرية .

وأنجبت الكانتونات فى ثلث القرن الذى نحن بصدده بعض الشخصيات ذات الشهرة الدولية . فكان يوهان هاينريش بستالوتسى أحد الأفراد النادرين الذين يتخذون العهد الجديد مرشداً للسلوك . وقد اتفق مع روسو على أن المدنية أفسدت الإنسان ، ولكنه أحس أن الإصلاح يمكن أن يأتى لا عن طريق القوانين والنظم الجديدة ، ولكن بإعادة تكوين السلوك الإنسانى بالتربية . ومن ثم كان طوال حياته يرحب بالأطفال لاسيما الفقراء منهم ، وخصوصاً المشردين ؛ يؤويهم ويعلمهم ، ويطبق فى تعليمهم المبادىء التحررية التى احتواها كتاب روسو « إميل » ، مع أفكار من عنده . وقد بسط آراءه فى كتاب كان أكثر الكتب انتشاراً بين قراء ذلك الجيل . فالبطلة فى كتابه « ليونهارد وجرترود » (١٧٨١ — ٨٥) تصلح قرية بأسرها بمحاولة معاملة الناس كما لو كان المسيح يعاملهم ، وبتعليم أطفالها فى مراعاة صابرة لغرائزهم واستعداداتهم الفطرية . ومن رأى بستالوتسى أن يعطى الأطفال من الحرية القدر الذى تسمح به حقوق الآخرين . فينبغى أن يبدأ التعليم المبكر بالقدوة ، وأن يعلم الطفل بالأشياء والحواس ، والخبرة ، لا بالكلمات أو الأفكار أو الصم . وقد مارس بستالوتسى طرائقه فى مدارس سويسرية شتى ، ولا سيما فى ايفردون . وهناك زاره تاليران ، ومدام دستال ، وغيرهما ؛ ومنها انتشرت نظرياته فى طول أوربا وعرضها . على أن جوته شكا من أن

مدارس بستالوتسى تكون أشخاصاً فردى النزعة ، وقحاء ، مغرورين ، متمردين [٥] .

وهناك انجليكا كاوفمان ، المولودة فى كانتون جريزون ، والتى نافست مدام فيجيه لبرون بوصفها أشهر فنانة فى جيلهما . فكانت تجيد الرسم ، فضلا عن إتقانها العزف ، حتى وهى فى الثانية عشرة ، إجادة حملت الأساقفة والنبلاء على أن يجلسوا إليها لتصورهم . وفى الثالثة عشرة (١٧٥٤) اصطحبها أبوها إلى إيطاليا حيث واصلت دراساتها ، واحتفى بها القوم أينما ذهبت تقديراً لمهاراتها وإعجاباً بسحر شخصها . وحين دعيت إلى انجلتره عام ١٧٦٦ أثارت ضجة بتصويرها جاريك . وأغرم السير جوشوا رينولدز جداً بـ « الآنسة اينجل » ، وصورها ، فصورته بدورها . وقد شاركت فى إنشاء الأكاديمية الملكية للفنون ، التى كلفتها هى وغيرها فى ١٧٧٣ بتزيين كتدرائية القديس بولس . وفى ١٧٨١ قفلت إلى روما ، حيث (١٧٨٨) سلكت جوته فى عداد أصدقائها الأوفياء . وماتت هناك فى ١٨٠٧ ، وكان مأتمها الذى نظمه كانوفا حدثاً من أحداث العصر ، وشيعها مجتمع الفنانين بأكمله إلى مثواها الأخير .

أما أبرز شخصيات الجيل السويسرية بعد روسو فهو يوهان كاسبار لافاتر . ولد فى زيورخ فى ١٧٤١ ، وأصبح راعياً بروتستنتياً ، واحتفظ طوال حياته بأحر الولاء للمسيحية التقليدية . وقد رأينا محاولاته لهداية جوته ومندلسون . ولكنه لم يكن دجماطيقيا ، فقد احتفظ بصداقاته عبر الحدود الدينية والقومية ، واحترمه كل من عرفه ، وأحبه الكثيرون [٦] . وقد ألف كتباً فيها ورع صوفى ، وشرح سفر الرؤيا شرحاً مغرباً فى الخبال ، وآمن بالقوى المعجزية للصلاة ولكاليوسترو ، وأعطى زوجته علاجات « تنويمية » عملا بإرشادات مزمير . وكان أخص دعاواه أن خلق الإنسان يمكن الحكم عليه من ملامح وجهه ومحيط دماغه . فأثار اهتمام جوته وهردر بآرائه ، وقد أسهما بمقالات لكتابه « شذرات فى الفراسة » (١٧٧٥ — ٧٨) وقد درس نظرات الأفراد البارزين ، وأدمغتهم ، وأشكالهم ، وربط بين ملامح الجمجمة والوجه وصفات نوعية للعقل والخلق . وقد قبلت

تحليلاته واستنتاجاته على نطاق واسع ، ولكنها الآن مرفوضة بوجه عام . على أن المبدأ العام الذى نادى به ، وهو أن الصفات السيكولوجية تشارك (مع الهواء والبيئة والغذاء والمهنة الخ . .) فى تشكيل الجسم والوجه ، مازال يحوى قدراً كبيراً من الحقيقة ، فكل وجه إنما هو ترجمة ذاتية .

وكان لافاتر جزءاً من حركة إزهار شملت روسو ، والشاعر والعالم ألبرشت فون هالر ، والشاعر والمصور سلومون جسنر ، والمؤرخ يوهان فون مولر ، وهوراس دسوسير ، الذى بدأ رياضة تسلق الجبال بارتقائه جبل مون بلان فى ١٧٨٧ بعد محاولات اتصلت سبعة وعشرين عاماً . وأحست الكنتونات خلال ذلك برياح الثورة تهب عليها عبر الحدود من فرنسا . وفى ١٧٩٧ انضم فردريك سيزار ولا هارب ، الذى كان معلماً خاصاً لحفيدى كاترين الكبرى ، إلى بيتر أوخس عضو نقابة التجار فى بازل ، فى دعوة حكومة الثورة الفرنسية لتساعد هما على إنشاء جمهورية ديمقراطية فى سويسرة . وقد مهدت الطريق لهذه الخطوة ثورات محلية فى برن وفو (يناير ١٧٩٨) ؛ فعبر جيش فرنسى الحدود فى ٢٨ يناير ، ورحب به أكثر السكان السويسريين محرراً لهم من الأولجركية . وفى ١٩ مارس أعلنت « جمهورية هلفيسية واحدة لاانقسام لها » . فأطاحت بكل امتيازات الكانتونات والطبقات والأشخاص ، وجعلت سويسره كلها سواء أمام القانون . وكانت زيورخ أطول الأقاليم مقاومة ، وفى الهياج الشديد الذى تلا ذلك أصيب بطلق نارى الشيخ الأمين لافاتر (١٧٩٩) ، فمات فى ١٨٠١ متأثراً بجرحه تأثراً بطيئاً .

٢ - الهولنديون : ١٧١٥ ١٧٩٥

اعجب الناس جميعاً بالهولنديين . وقد وصف المسرحى الدنمركى هولبرج ، الذى زار الأقاليم المتحدة (هولندة) و « بلجيكا » فى ١٧٠٤ ، هذه البلاد وصفاً تحمس فيه على الأخص لقنواتها التى كانت زوارقها كما قال « تنقلنى من مكان لآخر » فى هدوء عذب و « تمكننى من إنفاق كل ليلة فى مدينة كبيرة ، حتى أننى كنت أستطيع فى الأمسية ذاتها أن أذهب إلى

الأوبرا أو المسرح عقب وصولى رأساً »[٧]. وقد أعربت عن مثل هذا السرور الليدى مازى ورتلى مونتجيو بعد اثنى عشر عاماً فقالت :

« ان هذا البلد كله (هولنده) يبدو وكأنه حديقة فسيحة الأرجاء : فالطرق كلها حسنة الرصف ، تظللها على الجانبين صفوف الأشجار ، وتحفها قنوات واسعة غاصة بالزوارق الغادية الرائحة . . . وكل الشوارع (فى روتردام) . . . معتنى بنظافتها جداً . . . حتى أننى جلت بأرجاء المدينة كلها تقريباً أمس ، متنكرة ، فى خفى دون أن تنالنى لوثة قذرر واحدة ، وترى الخادمات الهولنديات يغسلن الطوار . . . بعناية تفوق عناية خادماتنا بغسل غرف نومنا . ومراكب التجار تصل (على القنوات) حتى أبواب البيوت. والدكاكين والمتاجر نظيفة بهية إلى حد مدهش ، غاصة بمقادير هائلة من السلع الجميلة »[٨] .

على أن هذه التقارير الوردية وصفت هولنده قبل أن تحس بالآثار الاقتصادية لانتصارها على لويس الرابع عشر فى حرب الوراثة الأسبانية . ففيها أراقت دمها ومالها إلى ما يقرب الانهاك ؛ فتضخم دينها العام ، وفقدت كثيراً من تجارة النقل التى ذهبت إلى حلفائها العسكريين الذين كانوا رغم تحالفهم العسكرى معها منافسين لها فى التجارة — وإلى ألمانيا . وهبطت أرباح شركة الهند الشرقية من أربعين فى المائة فى ١٧١٥ إلى اثنى عشر ونصف فى المائة فى ١٧٣٧ ، وأرباح شركة الهند الغربية الهولندية من خمسة فى المائة فى ١٧٠٠ إلى اثنين فى المائة فى ١٧٤٠[٩] . وجرت حرب السنين السبع مزيداً من الأذى. ذلك أن مصرفيي أمستردام أثروا بفضل القروض المرتفعة الفائدة التى أقرضوها للدول المتحاربة ، ولكن صلح ١٧٦٣ أنهى هذه النعمة الكبرى ، فأفلس كثير من المصارف الهولندية ، وتضرر نتيجة لذلك كل مشروع تجارى كبير . كتب بوزويل الذى كان فى هولنده فى ١٧٦٣ يقول « ان الكثير من كبريات المدن تضعضعت إلى حد محزن . . . وأنت تلتقى بجموع من القراء الذين يتضورون جوعاً وهم عاطلون[١٠] » . وزيدت الضرائب فأفضى ذلك إلى هجرة رأس المال والعناصر البشرية الصلبة ؛

وفى هذه الفترة امتزجت دماء المستعمرين الهولنديين والألمان فى جنوب أفريقيا وانبعث البوير ببطء نتيجة الامتزاج .

وجاء الانتعاش بفضل خلق الهولنديين وجدهم وأمانتهم . فقد عكف شعب هادىء قوى مدبر على فلاحة أرضه ، وتشحيم طواحين هوائه ، ورعى أبقاره ، وتنظيف معامل ألبانه ، وإنتاج ألوان لذيذة من الجبن الشهى الكريه الرائحة ؛ وكانت هولنده سباقة بين دول أوربا فى مضمار الزراعة العلمية [١١] . واستعادت دلفت سوق البرسلان الذى فقدته . واسترد مصرفيو أمستردام الهولنديون واليهود ما اشتهروا به من جدارة بالثقة وقدرة على التصرف ؛ فأقرضوا المال بقليل من الفائدة والمخاطرة ، وحصلوا على عقود رابحة بدفع رواتب الجند وتموينهم ؛ ولجأت الحكومات ورجال الأعمال إلى أمستردام طلباً للقروض ، وندر أن ردوا فارغين ؛ وطوال ذلك القرن المضطرب كله تقريباً كانت بورصة أمستردام المركز المالى للعالم الغربى . كتب آدم سمث حوالى عام ١٧٧٥ يقول : « إن إقليم هولنده . . . بالنسبة إلى مساحة أرضه وعدد سكانه ، بلد أغنى من انجلترة » [١٢] .

وأكثر ما راع فولتير فى ١٧٢٥ [١٣] كان تعايش مختلف الأديان تعايشاً لم يكدر صفوه مكدر . فهنا كان كاثوليك سنيون وكاثوليك جانسنيون (ألم يكن جانسن نفسه هولندياً ؟) ، وبروتستنت أرمينيون من القائلين بحرية الإرادة ، وبروتستنت كلفنيون من القائلين بالقضاء والقدر ، ومعمدانيون من القائلين بتجديد العماد ، وسوسينيون ، وإخوان مورافيون ويهود ، ثم حفنة من أحرار الفكر يصطلون فى دفء التنوير الفرنسى [١٤] . وكان أكثر القضاة من البروتستنت ، ولكنهم «كانوا يأخذون النقود بانتظام من الكاثوليك » كما يقول مؤرخ هولندى « للأغضاء عن ممارستهم شعائر دينهم والسماح لهم بشغل مناصبهم » [١٥] . وكان الكاثوليك الآن ثلث السكان الذين بلغ عددهم ثلاثة ملايين . أما الطبقات العليا ، الملمة بأديان كثيرة بفضل اشتغالها بالتجارة ، فقد تشككت فى هذه الأديان كلها ، ولم تسمح لها بالتدخل فى القمار ، والشراب ، والشره فى الطعام ، وشىء من الفسق المتستر على الطريقة الفرنسية [١٦] .

وكانت الفرنسية لغة المثقفين . وكثرت المدارس ، واشتهرت جامعة ليدن بدراساتها فى الطب التى أحيت ذكر بويرهافى العظيم . وكان فى كل المدن جمعيات للفنون ، ومكتبات ، و « قاعات للخطابة » تعقد مباريات دورية فى الشعر . وكان تجار التحف الهولنديون يتمتعون بشهرة أوربية بكنوزهم وتزييفاتهم [١٧] . وكان عصر الفن الهولندى الذهبى قد ولى بموت هوبيما (١٧٠٩) ، ولكن كورنيلس تروست كان على الأقل صدى يردد عظمته . وربما كان أروع نتاج الفن الهولندى فى هذا العصر هو الزجاج الرقيق المنقط أو المحفور بأبر من الماس [١٨] . وكانت أمستردام عشاً للناشرين ، بعضهم شرفاء وبعضهم قراصنة . وهبط النشاط الخلاق فى الأدب إلى مستوى منحط النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ولكن حوالى ١٧٨٠ غذت حركة إحياء للأدب شاعراً مطبوعاً هو فلليم بلدرديك .

ويروى بوزويل أن صديقاً له أخبره أنه سيجد الهولنديين « سعداء فى غباتهم »[١٩] ؛ ولكن بوزويل كتب من أوترخت يقول « اننا نعقد اجتماعات متألقة مرتين فى الأسبوع ، وحفلات خاصة كل مساء تقريباً . . وفى زمرتنا سيدات جميلات محبوبات هن من الكثرة بحيث لاتستطيع الصحائف الكثيرة أن توفيهن حقهن من الثناء » [٢٠] وأروع الصفحات فى مذكرات بوزويل السريعة الموجزة عن هولنده تلك التى تصف غرامه المتردد بزيليده أو « حسناء زويلين» — وهى ايزابيللا فان تويل . وكانت تنتمى إلى أسرة عريقة مرموقة ؛ فأبوها « سيد زويلين وفستبروك » كان أحد حكام إقليم أوترخت . وقد تلقت من التعليم فوق ما تحتمل ، فباتت تجهر بهرطقتها فى فخر ، وهزأت بالتقاليد ، والأخلاق ، والدين ، ومراتب الشرف . ولكنها فتنت الناس جميعاً بحسنها ومرحها وصراحتها المثيرة . وقد أحجمت عن الزواج المهذب الوفى ، وكتبت تقول « لو لم يكن لى أب ولا أم لما تزوجت . . ولا غتبطت كل الاغتباط بزوج يتخذنى كخليلته ؛ ولقلت له « لاتنظر إلى الوفاء على أنه واجب . فما ينبغى أن يكون لك غير حقوق العاشق وغيرته » [٢١] . فأجاب بوزويل أشد الفاسقين إلحاحاً فى أوربا « يا للعار يا زيليدتى ، أى أوهام هذه » ولكنها أصرت على موقفها « إنى

لأوثر أن أكون غسالة لحبيبى ، وأن أسكن علية ؛ على حرية أسرنا الكبيرة الجرداء وآداب سلوكها المهذب»[٢٢] .

وجازت زيليدة سلسلة من العلاقات الغرامية التى خلفتها وحيدة مثخنة بجراح لاتبرحها . وراحت تهدىء أعصابها بالأفيون وهى بعد فى الرابعة والعشرين . وحين بلغت الثلاثين (١٧٧١) تزوجت سان — هياسنت دشاريير ، وهو معلم خاص سويسرى ، وذهبت لتعيش معه قرب لوزان . فلما وجدته قاصراً من الناحية الفكرية . وقعت فى أربعيناتها فى حب رجل يصغرها بعشر سنين ، فقضى وطره منها ثم هجرها . والتمست التنفيس فى كتابة قصة اسمتها «كاليست» (١٧٨٥ — ٨٨) ، طرب لها سانت — بيف أى طرب . وحين بلغت السابعة والأربعين ، التقت فى باريس ببنجامن كونستان . وكان فتى فى العشرين ، فأغوته بفكرها (١٧٨٧) وكتب يقول «إن لمدام شاريير أسلوباً غاية فى الأصالة والحيوية فى النظر إلى الحياة ، واحتقاراً عميقاً جداً للتعصب ، وفكراً بالغ القوة ، وتفوقاً على أوساط الناس عارماً محتقراً . . . حتى أننى على غرابة أطوارى وتكبرى مثلها . . . وجدت فى حديثها لذة لاعهد لى بها قط . . وقد انتشينا باحتقارنا للنوع الإنسانى»[٢٣] . وسار الحال على هذا المنوال حتى عام ١٧٩٤ حين وجد بنجامن نشوة جديدة مع مدام دستال . وأعتكفت زيليدة فى عزلة مرة ؛ وماتت فى الخامسة والستين ؛ بعد أن خلقت حواء الحياة الدنيا واستنفدته .

ولو شاءت لوجدت غذاء للتشاؤم فى التاريخ السياسى للأقاليم المتحدة فى القرن الثامن عشر . ذلك أن حكم البلاد بعد موت وليم الثالث (١٧٠٢) احتكرته أولجركية من كبار رجال الأعمال انصرفوا إلى فرض الضرائب على الشعب ومحاباة الأقرباء والدس والتآمر . كتب كاتب هولندى فى ١٧٣٧ يشكو هذه الحال فقال «ان المواطنين ممنوعون من المشاركة فى الحكومة . . . ولا يطلب منهم نصيحة ولا رأى فى إدارة شئون الدولة »[٢٤] . وقد تكشف العجز الحربى لهذا النظام حين دخلت هولنده حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٣) فغزاها جيش فرنسى ولم يلق مقاومة تذكر ، وسلمت

مدن كثيرة دون جدال . كتب المرشال دنواى يقول « علينا أن نتعامل مع شعب غاية فى اللطف والكرم »[٢٥] على أنهم لم يكونوا كلهم كذلك ، فقد ارتفعت أصوات معظم المواطنين مطالبة بزعيم حربى ينقذ البلاد على نحو ما فعل وليم الثالث فى ١٦٧٢ ، ونصب سليله غير المباشر ، وليم الرابع أمير أورانج ، حاكماً للأقاليم السبعة ، وقائداً للجيش ، وأميراً للبحرية (٣ مايو ١٧٤٧) ؛ وفى أكتوبر جعلت هذه المناصب وراثية فى أسرته ، ومعنى ذلك أن الملكية أعيدت فى واقع الأمر ، غير أن وليم الرابع كان فيه من التمسك بالخلق المسيحى مالا يجعله قائداً حربياً صالحاً ؛ فلم يستطع أن يعيد النظام إلى الجيوش ، وتوالت الهزائم يقفو بعضها بعضا ، وفى معاهدة إكس — لا — شابل (١٧٤٨) كانت هولنده محظوظة لاحتفاظها بأراضيها سليمة ، ولكنها عادت خربة من الناحية الاقتصادية ومات وليم بالحمرة وهو فى الأربعين (١٧٥١) ، وقامت أرملته الأميرة آن — بالوصاية على العرش إلى أن ماتت (١٧٥٩) ، ثم حكم لودفج إرنست أمير برنزويك — فولفنبوتل البلاد حكماً صارماً كفئاً حتى بلغ وليم الخامس سن الرشد (١٧٦٦) .

وفى الحرب الدائرة بين انجلتره والمستعمرات الأمريكية احتجت هولنده على عدوان البريطانيين على السفن الهولندية ، وانضمت إلى روسيا فى « الحياد المسلح» المبرم فى ١٧٨٠ ؛ وأعلنت انجلتره عليها الحرب ، واستولت على جميع السفن الهولندية تقريباً ، وفى معاهدة باريس (١٧٨٣) (١٨٧٣) كادت مصالح هولنده أن تغفل ، فنزلت عن نجاباتام (فى جنوبى الهند) لانجلترة ، وسمحت للانجليز بحرية الملاحة فى جزر الملقا . وهكذا لم تعد هولنده تلعب دوراً بين الدول .

ودمرت هذه الخطوب شعبية وليم الخامس . ثم ان نجاح الثورة فى أمريكا حفز الأفكار الديمقراطية فى الأراضى الواطئة ، وأفضى إلى قيام حزب «الوطنيين» المناهض للأسرة الحاكمة . وكانت القلة صاحبة المال تمتص ثروة الأمة المتناقصة خلال كل تغيير فى الحكومة امتصاصاً ألجأ رجالا كثيرين إلى التسول ونساء كثيرات إلى البغاء فى المدن التى كانت يوماً ما

مزدهرة يسودها النظام.وفى ١٧٨٣. تكونت سراً جماعات من « الرماةالأحرار» فى أمستردام ولاهاى للاعداد للثورة . وفى ١٧٨٧ استولى « الوطنيون » على السلطة ، ولكن وليم الخامس أعيد إلى عرشه بفضل تدخل بروسيا المسلح. ثم نفخت الثورة الفرنسية الحماسة من جديد فى أفئدة الوطنيين ، فدعوا فرنسا لتخف لنجدتهم . وعليه ففى ١٧٩٤ غزت الجيوش الفرنسية هولنده ، وبطشت بالجيش الهولندى ، وفر وليم الخامس إلى انجلتره ، وانضم أنصار الثورة الهولنديون إلى الفرنسيين فى تنظيم الجمهورية البتافية (١٧٩٥—١٨٠٦) . وفى ١٨١٥ أعاد ابن وليم الخامس بيت أورنج — نيساو إلى السلطة باسم الملك وليم الأول ، وأسلاله يتربعون على عرش هولنده اليوم (١٩٦٧) .

٣ — الدنمركيون : ١٧١٥ — ١٧٩٧

بلغ عدد سكان الدنمرك حسب أول تعداد رسمى للبلاد (١٧٦٩) ٨٢٥,٠٠٠ نسمة ، يضاف إليهم ٧٢٧,٦٠٠ فى النرويج التى ظلت خاضعة للملوك الدنمراكيين حتى ١٨١٤ . وكان كل الفلاحين تقريباً فى النرويج يملكون أراضيهم ، وفيهم كبرياء ككبرياء الفيكنج . أما الدنمرك فكان نصف فلاحيها أقناناً ، والنصف الآخر خاضعين للرسوم الإقطاعية . وجهد الملوك لكبح جماح هذا الإقطاع ، ولكنهم كانوا معتمدين مالياً على الإشراف ، واستمرت القنية حتى ١٧٨٧ . فى هذا النظام لم تلق التجارة ولا الصناعة تشجيعاً يذكر ، ولم تنم طبقة وسطى ذات شأن ؛ وأفاد فتح قناة كيل (١٧٨٣) الإنجليز والهولنديين أكثر مما أفاد الدنمركيين . وفى ١٧٩٢ كانت الدنمرك أول دولة أوربية تلغى النخاسة فى ممتلكاتها .

وكما سيطر النبلاء على الدولة كذلك سيطرت الكنيسة على المنابر والطباعة ، وأملت أن تسيطر على العقول أيضاً . فحرمت الرقابة الصارمة التى امتدت من ١٥٣٧ إلى ١٨٤٩ كل ما يطبع أو يقال مما لا يتفق والتعالم اللوثرية القويمة ؛ وصودر الكثير من الكتب غير اللاهوتية ، كقصة جوتة «آلام فرتر» لأنها خطر يهدد الأخلاق العامة . وزاد من القيود المعطلة لنمو الأدب استعمال الألمانية فى البلاط ، واللاتينية فى الجامعات ، والفرنسية فى الآداب

البحتة — التي لم يكد يوجد منها شيء . وكان تدشين الأدب الدنمركي بالتأليف باللغة القومية . وإدخال بصيص من التنوير إلى الدنمرك . من مآثر ألمع دنمركي في القرن الثامن عشر .

وتستطيع كل من النرويج والدنمرك أن تنسب إليها لودفج فون هولبرج ، لأنه ولد في برجن (٣ ديسمبر ١٦٨٤) . وبعد أن تلقى العلم في المدرسة اللاتينية المحلية . عبر الماء ليلتحق بجامعة كوبنهاجن . ولكن سرعان ما نضب ماله ، فقفل إلى النرويج واشتغل مدرساً خصوصياً في أسرة قسيس ريفي . فلما أن ادخر ستين طالرا انطلق ليرى الدنيا من حوله . فنراه في ١٧٠٤ في هولنده ، وفي ١٧٠٦ — ١٧٠٨ كان يعلم نفسه في مكتبات أكسفورد . فلما عاد إلى كوبنهاجن ألقى محاضرات لم تأته بأكثر كثيراً من تعليم الذات ، وعاش أثناء ذلك على التدريس الخصوصي ، واغتذى بالطموح . وفي ١٧١٤ عينته الجامعة أستاذاً دون راتب ، غير أن منحة خاصة أتاحت له الجولان عامين في ربوع إيطاليا وفرنسا ، على قدميه أكثر الوقت . فلما آب من أروع رحلة بين الرحلات الرائعة كلها ، عين أستاذاً للميتافيزيقا ، وهي مادة أبغضها ، ثم للاتينية والبيان ، وأخيراً (١٧٣٠) للتاريخ والجغرافيا اللذين أحبهما .

ولقد خلق الأدب الدنمركي في لحظات فراغه . فحتى زمنه لم يكن في الدنمركية شيء سوى الأغاني الشعبية والفارصات والترانيم والكتب العقيدية الشعبية . وألف هولبرج مكتبة صغيرة من القصائد والهجاءات والقصص والأبحاث بالدنمركية في السياسة والقانون والتاريخ والعلوم والفلسفة . ولم ينافسه غير فولتير في تعدد جوانبه . وقد استعمل الهزل كما استعمله فولتير ليسوط به الأساتذة المزهوين من عباد الدراسات الكلاسيكية ، والمحامين الذين يقيدون حركة العدالة بأغلال الدقائق التقنية ، ورجال الدين المتزاحمين بالمناكب على المال والمنصب ، والأطباء الذين ييسرون دخول المرضى إلى الأبدية . وتناول كل أعمدة المجتمع هؤلاء تقريباً بالتشهير في أول آثاره الأدبية الكبرى ، وهو ملحمة ساخرة سماها بيدر بارس (١٧١٩) . وأوجع بعض كبار الدنمركيين وخز هذا الهجاء ، فناشدوا الملك فردريك الرابع

أن يصادر الكتاب باعتباره ضاراً بالأخلاق مستهزئاً بالقساوسة ؛ وقرىء على الملك أول قسم فى الملحمة كطلبه ، فحكم بأنها « عمل برىء مسل » ، غير أن المجلس الملكى أحاط هولبرج بأنه كان خيراً لو أن القصيدة لم تكتب قط (٢٦) .

وعلى ذلك انصرف إلى المسرح . فنى ١٧٢٠ افتتح ممثل فرنسى اسمه إتيين كابيون فى كوبنهاجن أول مسرح دنمركى . فلما افتقد المسرحيات الدنمركية الجديرة بالإخراج استورد الدرامات من فرنسا وألمانيا . غير أنه استشف من «بيدر بارس» أن هولبرج يملك المواد والموهبة اللازمة للكوميديا ، فلجأ إليه ليمد المسرح الجديد بتمثيليات باللغة العامية ، ولم ينقض عام حتى كان هولبرج قد ألف خمس تمثيليات ، وفى ثمانية أعوام ألف عشرين ، كلها غنى فى صور الأعراف والعادات المحلية غنى حمل خلفه العظيم آدم أو هلنشليجر على أن يقول فيه « إنه عرف كيف يصور الحياة البورجوازية لمدينته كوبنهاجن بأمانة عظيمة بحيث لو انشقت الأرض وابتلعت هذه المدينة ، وبعد مائتى عام أميط اللثام عن كوميديات هولبرج ، لاستطاع المرء أن يعيد بناء العصر منها ، على نحو ما نعرف أيام روما القديمة من أطلال بومبى وهركيولانيوم (٢٧) »

ونقل هولبرج القوالب والأفكار عن بلوتوس وترنس وموليير والكوميديا ديللارتى التى شهدها فى إيطاليا . وبعض كوميدياته تمثيليات من فصل واحد ذات موضوعات تافهة فقدت قوة دفعها ، مثل « رحلة سجاناريل إلى أرض الفلاسفة »(٢٨) . وبعضها مازال يحتفظ بقوته ، مثل « يبى رجل التل » التى نعرف منها أن الفلاحين حين يظفرون بالسلطة يكونون أشد بغياً من سادتهم . وبعضها تمثيليات مكتملة الطول مثل « رازموس مونتانوس » ، وهى هجائية مرحة تسخر بتنطع العلماء ، وبغطرسة اللاهوتيين وبجهل العوام ، مع مسحه خبيثة من صراحة الريفيين وصدقهم ، مثل قول لسبيد لأبيها بعد أن سمعت بأن خطيبها عائد من الجامعة « إذن فقد صدق حلمى . . لقد حلمت اننى نمت معه البارحة » (٢٩) على أن مسرح كوبنهاجن

رغم هذه الكوميديات المرحة أغلق أبوابه فى ١٧٢٧ لافتقاره إلى الدعم الشعبى . وكان آخر ما مثل فوق خشبته مسرحية هولبرج « مأتم الكوميديا الدنمركية » .

لقد صدم زملاءه من أساتذة الجامعة بالكتابة للمسرح ؛ أما الآن فقد ألان جانبهم بمؤلفات تاريخية يسرت للقراء الدنمركيين ثمرات الدراسات الأوربية الغربية . وكانت كتبه « تاريخ للدنمرك » (١٧٣٢ — ١٧٣٥) ، تاريخ عام للكنيسة » (١٧٢٧ — ١٧٤٧) ، و « تاريخ لليهود » مصنفات ، ولكنها متقنة . والتمس هولبرج التخفف من هذه الجهود فى رائعته . « رحلة نيلس كليم السفلية » (١٧٤١) . وقد كتبها نثراً لاتينياً لتصل إلى القراء الأوربيين ، فوصلت ، ولكن بطريق الترجمة : ترجمها ينز باجيزبن إلى الدنمركية فطبعت الترجمة ثلاث مرات ، وظهر منها بالألمانية عشر طبعات ، بالسويدية ، والهولندية ، والانجليزية ، ثلاث ، وبالفرنسية والروسية اثنتان ، وبالمجرية واحدة . هذه « الرحلة السفلية » هى التى جعلت هولبرج« سويفت الدنمرك » و « فولتيرها » معاً .

والقصة تروى أن الضوضاء المنبعثة من كهف تثير فضول نيلس ، فيصمم على استقصاء مصدرها ويدليه أصحابه بحبل ينقطع ، « وبسرعة مذهلة دفع بى إلى أعماق الهاوية »(٣٠) . ثم يعثر فى قشرة الأرض على مساحة مكشوفة أو قبة سماوية فيها شمس وكواكبها السيارة ، ونجوم كثيرة . ويسقط صوب أحد هذه الكواكب فيصبح قمراً تابعاً له ويدور حوله عاجزاً ، ولكنه يمسك بنسر يحمله حتى يهبط فى رفق على الكوكب بوتو (أى يوتو يا) مقلوبة) . هنا يجد الأشجار هى النوع السائد ، وهى غنية بعصارتها العاقلة ، ولسوء الحظ «كانت الشجرة التى تسلقتها . . . هى زوجة العمدة » (٣١) . ولبوتو بعض القوانين الممتازة . فالناس الذين « يتجادلون علانيــة حول صفات الكائن الأعظم وما هيته ينظر إليهم على أن بهم مساً من الجنون» ، فيعالجون بفصدهم لتهبط حماهم ، ثم يحبسون حتى «يفيقوا من هذا الهذيان»(٣٢) . والأمهات فى بوتو يرضعن أطفالهن — وهى فكرة سبقت بعشرين سنة دعوة روسو للأمهات لإرضاع أطفالهن من ثديهن . وفى إقليم كوكليكو

تحكم النساء الدولة ، ويعنى الرجال بشئون البيت أو يصبحون بغايا ، وللملكة « حريم » من ثلاثمائة شاب وسيم . وينفق الفلاسفة فى كوكليكو وقتهم فى محاولة الوصول إلى الشمس ، ولا يهتمون اهتماماً يذكر بشئون الدنيا . وفى إقليم ميكولاك تجد الناس كلهم ملحدين ، « يقارفون أى شر يستطيعون إخفاءه عن الشرطة » (٣٣) ويقع نيلس على كتاب بعنوان « رحلة تانيان إلى العالم السفلى » يصف أوربا وعاداتها الغريبة : الرءوس التى تكسوها البواريك الضخمة ، والقبعات المحمولة تحت الأذرع (كما كان يفعل نبلاء فرنسا) ، « والكعكات الصغيرة أو القرابين تحمل مروراً بالشوارع ويقول الكهان إنها آلهة ، والناس الذين خبزوها . . . يحلفون على الإيمان بأن هذه القرابين خلقت الدنيا »(٣٤) .

وقد اشتملت « الرحلة السفلية » على انتقادات للعقيدة المسيحية ، ودعت إلى إطلاق حرية العبادة لجميع المذاهب ، ولكنها أوصت بالإيمان بالله ، وبالجنة ، وبالنار ، باعتبارها ركائز ضرورية لناموس أخلاقى لاتفتأ تهاجمه مطالب النفس والجسد هجوماً شرساً (٣٥) . ورقى الملك فردريك الخامس المصلح الذى انصلح أمره بارونا فى ١٧٤٧ ؛ واستمتع هولبرج بلذة التمرد فى شبابه والرضى عنه فى شيخوخته التى اختتمت سنة ١٧٥٤ . ومازال إلى اليوم إمام الأدب الدنمركى .

على أن البعض قد يخصون بهذا المقام يوهان إيفالد الذى ضارعت حياته حياة بايرون وكيتس وشلى مغامرة ومعاناة وقصراً . وقد ولد فى كوبنهاجن فى ١٧٤٣ لقسيس لوثرى ، وتمرد على المتزمتين من الكبار ، ووقع فى غرام آرنسى هوليجارد وهو فى السادسة عشرة ، وهجر مهنة اللاهوت لأنه استبطأ ثمراتها ، وتطوع فى الجيش البروسى ثم النمساوى ، وصمم على الظفر بالثروة والمجد اللذين ينيلانه آرنسى عروساً . ولكن الحرمان والمرض أتلفا صحته ، فعاد إلى كوبنهاجن واللاهوت ، وتزوجت أرنسى ثروة أعجل ، وسكب إيفالد قلبه فى الشعر والنثر . فكتب أول مأساة دانمركية أصيلة

سماها « روالف كراجى »(١٧٧٠) ، وبلغ قمة الشعر الدنمركى فى القرن الثامن عشر بمسرحية « موت بالدر » (١٧٧٣) وهى دراما ملحمية بالشعر . على أن جهده لم يأته إلا بالكفاف ، فاعتكف فى عزلة ريفية ، وراح يجتر سلسلة من الأوصاب ، ثم أنعشه معاش من الحكومة آخر الأمر . وقد رد على الصنيع بتمثيلية « صيادى السمك » (١٧٧٦) التى احتوت أغنية شعبية وطنية مطلعها « وقف الملك كرستيان إلى جوار الصارى العالى » التى أصبحت أنشودة الدنمركيين القومية المفضلة [٣٦] . وكانت دعوة إيفالد إلى المجد ، ووداعه للحياة ، ومات فى ١٧٨١ إثر مرض طويل أليم غير متجاوز الثامنة والثلاثين . ويعده السكندنافيون « من أعظم شعراء الشمال الغنائيين ، بل ربما أعظمهم قاطبة » [٣٧] .

وبتقدم القرن الثامن عشر أصبح التاريخ السياسى للدنمرك جزءاً من الدراما الحديثة المتصلة ابدا بين التقاليد المتوارثة والتجربة . وقد مزج كرستيان السادس (حكم ١٧٣٠ — ٤٦) بين القوى المتعارضة . فدفع هو ووزراؤه التنمية الاقتصادية قدماً باستجلاب الغزالين والنساجين لإنشاء صناعة النسيج ، وبتكوين الشركات القومية للاتجار مع آسيا وأمريكا ، وبفتح مصرف كوبنهاجن (١٧٤٤) . ونشروا التعليمين الابتدائى والثانوى ، وأسسوا الأكاديميات لتشجيع الأدب والعلم . على أنهم جددوا قانوناً قديماً يلزم بحضور خدمات الصلاة اللوثرية ، وأغلقوا جميع المسارح وصالات الرقص ، ونفوا الممثلين ، ومنعوا الحفلات التنكرية .

وأبقى فردريك الخامس (حكم ١٧٤٦ — ٦٦) ابن كرستيان على هذه القوانين ولكنه خفف من وطأتها بروحه اللطيفة وحبه للذات الحسية . ففى ١٧٥١ استقدم من هانوفر يوهان هارتفج أرنست فون برنشتورف ، الذى وفق وهو رئيس للوزراء فى رفع مستوى الأمانة والكفاءة فى الإدارة ، وأصلح شأن الجيش والبحرية ، وأبعدهما عن حرب السنين السبع ، وحرك مياه الثقافة الدنمركية الراكدة بجلب الأساتذة والشعراء والفنانين والعلماء ؛ وقد رأينا كلوبشتوك يقبل هذه الدعوة . وفى ١٧٦٧ توج الكونت فون

برنشتورف سياسته الخارجية السلمية بإقناع كاترين الكبرى بتوقيع اتفاقية نزلت بمقتضاها للدنمرك عن هولشتين — جوتورب .

ومات فردريك الخامس فى الثالثة والأربعين (١٧٦٦) بعد أن أنهكته لذاته . وقد زوج ابنه كرستيان السابع (حكم ١٧٦٦ — ١٨٠٨) على عجل وهو بعد فى السابعة عشرة من كارولين ماتيلدا أخت جورج الثالث ملك انجلترة . وقد أفاضت اشراقاً على حياة العاصمة الاجتماعية ، ولكن زوجها نصف المجنون أهملها إيثاراً لحياة الخلاعة ، وانزلقت كاترين إلى غرام مأساوى مع طبيب البلاط يوهان فريدريش شترونزى . وكان ابنا لأستاذ لاهوت فى هاله ، فدرس فيها الطب ، وفقد إيمانه الدينى كما يفقده أكثر الأطباء . وقد دان بحظوته عند الملك لبراعته فى علاج العواقب الاكلينيكية لغراميات الملك ، وعند الملكة لتوفيقه فى الأتيان بكرستيان السابع إلى فراشها بما يكفى لإنجاب وريث للعرش . فلما تردى عقل الملك فى درك الاكتئاب وعدم المبالاة ، وزادت سلطة الملكة فى الحكومة ، وسمحت لطبيبها بإدارة سياستها كما سمحت له بالاستمتاع بحظوتها فغدا (١٧٧٠) حاكم الدولة الفعلى . وخرجت الأوامر من القصر الملكى ممهورة من شترونزى باسم الملك « غير المتمالك قواه العقلية » . وطرد برنشتورف ، فاعتكف بهدوء فى ضياعه بألمانيا .

وكان شترونزى قد قرأ مؤلفات جماعة « الفلاسفة » الفرنسيين ، وعلى مبادئهم نوى أن يشكل الحياة الدنمركية من جديد . فألغى استغلال النبلاء لامتيازاتهم ، وأنهى الرقابة على المطبوعات ، وأسس المدارس ، وطهر المصالح الحكومية من الرشوة والاستغلال . وأعتق الأقنان ، وحرم التعذيب القضائى . وأعلن التسامح لجميع الأديان ، وشجع الآداب والفنون ، وأصلح القانون والمحاكم والبوليس ، والجامعة ، والمالية ، ووسائل حفظ الصحة البلدية . . . ثم ألغى معاشات كثيرة تخفيفاً من الدين العام ، ورصد دخول المؤسسات الدينية للإنفاق على الأغراض العامة .

ولكن النبلاء تآمروا ليسقطوه ، واستغلوا حرية النشر لاستنزاف شعبيته .

وكره الأتقياء من الدنمركيين التسامح الديني لأنهم رأوه كفراً ، ورددت أحاديثهم عن شتروينزى أنه أجنبي دخيل ليس لسلطته سند غير فراش الملكة . وفى ١٧ يناير ١٧٧٢ اقنع لفيف من ضباط الجيش الملك بأن شترويبزى والملكة يبيتان قتله فوقع أمراً بالقبض عليهما . ورحلت كارولين إلى كرونبورج قلعة هاملت . أما شترويبزى فألقى فى السجن ، وبعد خمسة أسابيع من المعاناة اعترف بزناه مع الملكة . وفى ٢٨ أبريل ١٧٧٢ قطع إرباً على مقصلة على مرأى من جمهور محبذ لهذا العقاب . وسمح لكارولين بعد إلحاح جورج الثالث بالاعتكاف فى تسلليه بها نوفر ، حيث ماتت فى ١٠ مايو ١٧٧٥ وهى بعد فى الرابعة والعشرين .

وقلد المتآمرون الفائزون الحكم لأوفى جولد برج ، المعلم الخاص للأمير فردريك . وقد قاد جولد برج خلال اثنى عشر عاماً من الحكم حركة انتفاض وطنية على النفوذ الأجنبي فى الحكومة واللغة والتعليم ، وفتح باب المناصب للعامة ، وأعاد القنية ، والتعذيب القضائى ، وسيادة الكنيسة اللوثرية ، والتوجيه الدينى للجامعة . ووكلت الشئون الخارجية لأندرياس بيتر فون برنشتورف ، ابن أخى الكونت فون برنشتورف ومحسوبه . فلما نصب الأمير فردريك نفسه وصياً (١٧٨٤) طرد جولد برج : وأصبح اندرياس فون برنشتورف رئيس الوزراء وظل كذلك إلى يوم مماته . وبإرشاده الحكيم ألغيت القنية ثانية (١٧٨٧) ، وأنهيت النخاسة فى الممتلكات الدنمركية ، وأطلقت حرية القيام بالمشروعات الاقتصادية . فلما مات برنشتورف (١٧٩٧) كانت الدنمرك قد ثبتت أقدامها على الطريق إلى ذلك الرخاء السلمى الذى جعلها محسودة من العالم كله .

٤ — السويديون

١ — السياسة : ١٧١٨ — ٧١

كانت حياة شارل الثانى عشر المثيرة مأساة للسويد . ذلك أن مراميه لم تسترشد بموارد وطنه بل بظمئه للمجد . وقد احتمله الشعب السويدى بشجاعة وهو يأتى على قوتهم البشرية وثروتهم ، ولكنهم كانوا يدركون قبل موته

بزمان أن مصيره الفشل المحقق . فقد نزلت السويد بمقتضى معاهدات ستوكهولم (١٧١٨ — ٢٠) عن دوقيتى بريمن وفردن لهانوفر ، وعن الجزء الأكبر من بومرانيا لبروسيا . وبمقتضى صلح نيستاد (١٧٢١) نزلت عن ليفونيا واستونيا وانجرمانلاند وكاريليا الشرقية لروسيا . وقضى على سلطة السويد على أرض القارة ، وأكرهت على التقهقر إلى شبه جزيرة غنية بالمعادن وصلابة الخلق القومى ، متطلبة الجهد الشاق والمهارة المثابرة ثمناً للحياة.

وقد أضعفت هزيمة شارل شوكة الملكية ، وأتاحت للنبلاء أن يستردوا سيطرتهم على الحكومة . فأعطى دستور ١٧٢٠ السلطة الغالبة لمجلس نيابى أو «دايت» مؤلف من أربع « طبقات» أو مجالس . مجلس نبلاء « ريدارهوس» قوامه رؤساء الأسر النبيلة كلها ؛ ومجلس قساوسة — من الأساقفة مضافاً إليهم نحو خمسين مندوباً ينتخبهم اكليروس الأبرشيات من بينهم ؛ ومجلس سكان المدن ، من نحو تسعين مندوباً يمثلون الموظفين الإداريين وأقطاب رجال الأعمال فى المدن ؛ ومجلس فلاحين ، من مائة مندوب تقريباً يختارون بواسطة المزارعين من ملاك الأرض الأحرار ومن بينهم . وكانت كل طبقة تجلس منفصلة عن غيرها ، ولا يمكن أن يصبح أى مشروع قانوناً ما لم توافق عليه ثلاث طبقات ؛ ولم يكن لطبقة الفلاحين فى حقيقة الأمر قوة تشريعية إلا بموافقة طبقتين أخريين . وخلال اجتماعات المجلس النيابى كانت «لجنة سرية » من خمسين نبيلا ، وخمسة وعشرين قسيساً ، وخمسة وعشرين نائباً عن المدن تحضر مشروعات القوانين جميعها ، وتختار الوزراء ، وتهيمن على السياسة الخارجية . وقد أعفى النبلاء من الضرائب ، واحتكروا حق شغل مناصب الدولة العليا [٣٨] . فإذا لم يكن المجلس منعقداً سير دفة الحكم «راد» (مجلس) من ستة عشر أو أربعة وعشرين رجلا يختارهم المجلس النيابى ويسألون أمامه . وكان الملك يرأس هذا المجلس وله صوتان ، وفيما عدا هذا لم يكن له سلطة التشريع . وتضافرت روسيا وبروسيا والدنمرك لتأييد هذا الدستور لأنه يحبذ سياسة السلام ويكبح النزعات الحربية للملوك الأقوياء .

ولم تعد الملكية وراثية بل أصبحت انتخابية . وبعد موت شارل الثانى

عشر (٣٠ نوفمبر ١٧١٨) كان مآل العرش بالوراثة إلى كارل فريدريش دوق هولشتين جوتورب ، وهو ابن لأخت شارل الكبرى ؛ ولكن المجلس النيابى المنعقد فى يناير ١٧١٩ لأول مرة فى عشرين سنة ، أعطى التاج لأولريكا اليانورا وهى أخت أخرى لشارل ، بعد أن وافقت على التخلى عن سياسة الاستبداد الملكى التى مارسها أخوها . ولكن حتى مع هذه الموفقة تبين أنها عسيرة القياد . وفى ١٧٢٠ اقنعت بالنزول عن العرش لزوجها الحاكم فردريك الأول أمير هسى — كاسل الذى أصبح الآن فردريك الأول ملك السويد . وبفضل الإرشاد الحكيم الذى بذله الكونت آرفيد برنهارد هورن — وكان مستشاراً للدولة — أتيح للسويد ثمانية عشر عاماً من السلام لتبرأ فيها من جراح الحرب .

غير أن الأباة من السويديين سخروا من سياسته السلمية ولقبوا أشياعه « الطواقى » وهم يعنون بهذا اللقب انهم خرفون نيام بينما تتراجع السويد إلى المؤخرة فى ركب الدول . وقام ضد هؤلاء حزب « القبعات » الذى كونه الكونت كارل جيلنبورج ، وكارل تسين ، وغيرهما . وتسلط هذا الحزب على المجلس النيابى فى ١٧٣٨ ، وحل جيلنبورج محل هورن . وإذ كان مصمماً على إعادة السويد إلى سابق مكانتها بين الدول ، فإنه جدد التحالف المتقادم مع فرنسا التى أرسلت معونتها المالية للسويد لقاء معارضتها لمطامع روسيا ؛ وفى ١٧٤١ أعلنت الحكومة الحرب على روسيا ، أملا فى استرداد أقاليم البلطيق التى استولى عليها بطرس الأكبر ، ولكن لا الجيش ولا البحرية كانا معدين الأعداد الكافى ، وقد أعجز المرض رجال البحرية . وسلم الجيش فنلنده كلها أمام الزحف الروسى . على أن القيصرة اليزابث ، الحريصة على كسب تأييد السويد ، وافقت على رد معظم فنلنده إذا عين ابن عمها ادولفس فردريك أمير هولشتين — جوتوب للعرش السويدى . وبهذه الشروط أنهى صلح آبو الحرب (١٧٤٣) . فلما مات فردريك الأول (١٧٥١) ارتقى ادولفس فردريك العرش .

ولم يمض وقت طويل حتى علمه مجلس الطبقات انه ملك بالاسم

لا بالفعل . فقد نازعه حقه فى تعيين النبلاء الجديد، أو اختيار أعضاء بلاطه ، وهدد بالاستغناء عن توقيعه ان اعترض على التوقيع على قوانين أو وثائق معينة . وكان الملك رجلا لين العريكة ، ولكن كان له زوجة متكبرة آمرة هى لويزة أولريكا أخت فردريك الأكبر . وحاول الملك والملكة الثورة على سلطة المجلس . ولكن الثورة أخفقت ، وعذب عملاؤها وقطعت رءوسهم أما الملك فعفى عنه لأن الشعب كان يحبه . وأما لويزه فعزت نفسها بحب الأدب وبرزت فى مضاره . وقد صادقت لينايوس وجمعت من حولها لفيفاً من الشعراء والفنانين نشرت خلالهم أفكار التنوير الفرنسى . وعين المجلس النيابى معلماً جديداً لابنها ذى الأعوام العشرة ، وأصدر إليه تعليمات بأن يحيط ملك المستقبل جوستافس الثالث بأن الملوك فى الدول الحرة لا يحتفظون بعروشهم إلا إذا سمح لهم بشروط ، وأنهم إنما تخلع عليهم الأبهة والجلال « لتشريف المملكة لا لأجل الشخص الذى يتفق أن يشغل المكان الأول فى الموكب » وأنه » بما أن بريق البلاط ووهجه « قد يضللهم بأوهام العظمة ، فإنهم يحسنون صنعاً أن هم تفقدوا أكواخ الفلاحين بين الحين والحين ، ورأوا الفقر الذى يدفع تكاليف الأبهة الملكية »(٣٩) .

وفى ١٢ فبراير ١٧٧١ مات أدولفس فردريك ودعا المجلس جوستافس الثالث ليأتى من باريس ويمتثل لمراسم الملكية .

٢ — جوستافس الثالث

كان أكثر الملوك جاذبية بعد هنرى الرابع ملك فرنسا . وإذ كان وسيماً مرحاً ، عاشقاً للنساء والفنون والسلطة ، فقد لمع وتوهج خلال تاريخ السويد كأنه الشحنة الكهربية دافعاً إلى الحركة كل العناصر الحيوية فى حياة الأمة . وكان قد أحسن تعليمه على يد كارل تسين ، ودللته أمه المولعة به . وكان من حيث الفكر نابغاً مرهفاً ، ومن حيث الخيال والحس الجمالى موفور الحظ ، لا يستقر على حال لفرط طموحه وكبريائه ، فليس من اليسير أن يكون المرء أميراً متواضعاً . ونقلت إليه أمه عشقها للأدب الفرنسى ، فقرأ فولتير بنهم ، وبعث إليه بعبارات الاحترام ، وحفظ الهنريادة عن ظهر

قلب . وكان السفير السويدى فى باريس يوافيه بكل مجلد من « الموسوعة » عند صدوره . ودرس التاريخ باهتمام وافتتان ، وأطربته سير جوستافس فازا ، وجوستافس أدولفس ، وشارل الثانى عشر ؛ وبعد أن قرأ عن هؤلاء الرجال لم يطق أن يكون ملكاً خاملا . وفى ١٧٦٦ ، زوجه المجلس للأميرة صوفيا مجدلينا ابنة فردريك الخامس ملك الدنمرك دون أن يؤخذ رأيه ، ولا رضى أبويه . وكانت خجولا دمثة الطبع تقية ترى المسرح مكاناً للإثم ؛ أما هو فكان شكاكاً ، يحب الدراما ، ولم يغتفر قط للمجلس إقحامه فى هذا الزواج المتنافر . وهدأ المجلس ثائرته مؤقتاً بمنحة طيبة تتيح له الرحلة إلى فرنسا (١٧٧٠ — ٧١) .

وتوقف فى كوبنهاجن ، وهمبورج ، وبرنزويك ، ولكن باريس كانت مقصده . وتحدى غضب لويس الخامس عشر بزيارة شوازيل المنفى ، وانتهك التقاليد بزيارة مدام دوبارى فى قصرها الريفى فى لوفيسين . والتقى بروسو ، ود الامبير ، — وما رمونتيل ، وجريم ، ولكن ظنه فيهم خاب وكتب لأمه يقول « تعرفت إلى جميع الفلاسفة ، وإنى لأجد كتبهم ألطف كثيراً من أشخاصهم »[٤٠] وسطع نجماً من نجوم الشمال فى صالونات السيدات جوفران ودودفان ود لسبيناس ودبينييه ونكير . وتلقى وسط انتصاراته نبأ يفيده انه أصبح ملك السويد . فلم يتعجل الرجوع ، بل أقام فى باريس ردحاً أتاح له الحصول على معونات مالية كبيرة للسويد من حكومة فرنسا المشرفة على الإفلاس ، و ٣٠٠,٠٠٠ جنيه لاستعماله الشخصى فى ترويض أعضاء مجلس الأمه . وفى الطريق إلى أرض الوطن توقف ليرى فردريك الأكبر الذى أنذره بأن بروسيا ستدافع — بالسلاح إن اقتضى الأمر — عن ذلك الدستور السويدى الذى قيد سلطات الملك تقييداً شديداً .

ووصل جوستافس إلى ستوكهلم فى ٦ يونيو . وفى الرابع عشر افتتح أول مجلس أمة فى عهده بكلام جميل أشبه بذلك الذى افتتح به ملك آخر معوق ، هو جورج الثالث ، برلمانه الأول فى ١٧٦٠ . قال « إننى وقد ولدت ونشأت بين ظهرانيكم تعلمت منذ نعومة أظفارى أن أحب وطنى ، وإنى لأعده أعظم امتياز أننى ولدت سويدياً ، وأكبر شرف أن أكون المواطن الأول

لشعب حر»[٤١] . وقد أكسبته بلاغته ووطنيته تجاوباً حاراً من الأمة ، ولكنهما لم تحركا قلوب رجال السياسة . وفاز حزب الطواقى — أصدقاء الدستور وروسيا — الذين تمولهم كاترين الثانية بأربعين ألف جنيه ، بأغلبية فى ثلاث من مجالس الطبقات الأربع . ورد جوستافس باقتراض ٢٠٠,٠٠٠ جنيه من المصرفيين الهولنديين ليشترى انتخاب مرشحه رئيساً للمجلس . ولكن كان عليه أن ينتظر تتويجه ، فراجعت مجالس الطبقات التى يسيطر عليها حزب الطواقى يمين التتويج ليربط الملك بتعهد يلتزم فيه بقرار « أغلبية مجالس الطبقات » وأن تكون الكفاية وحدها أساساً لجميع الترقيات . وقاوم جوستافس نصف عام هذه الخطوة نحو الديمقراطية ، وأخيراً وقع (مارس ١٧٧٢) ، ولكنه فى دخيلة نفسه اعتزم الإطاحة بهذا الدستور الكريه لأول بادرة تسنح له .

وقد مهد أرضه بتوطيد شعبيته . ففتح أبوابه للجميع ، و « أغدق الهبات كأنه يتلقاها » ، ولم يصرف أحداً غير راض . وقد وافقه نفر من قادة الجيش على أنه لايستطيع تخليص السويد من تسلط روسيا وبروسيا — اللتين كانتا فى هذا الوقت بالذات (٥ أغسطس ١٧٧٢) تقطعان أوصال بولنده — إلا حكومة مركزية قوية لايعوق حركتها مجلس أمة مرتش . وساهم فرجيين السفير الفرنسى بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ دوقاتيه فى نفقات الانقلاب . وفى ١٨ أغسطس رتب جوستافس أن يقابله ضباط الجيش فى الترسانة صباح الغد . وجاء مائتان منهم . فطلب إليهم أن ينضموا إليه فى الإطاحة بنظام حكم فاسد قلق يد عمه أعداء السويد ، فوافقوا كلهم على أن يتبعوه إلا واحداً . أما الخارج على الإجماع ، وهو رودبيك الحاكم العام ، فقد ركب مخترقاً شوارع ستوكهلم داعياً أفراد الشعب إلى حماية حريتهم ، ولكنهم ظلوا غير مكترثين ، لأنهم كانوا معجبين بجوستافس ، ولم يحبوا هذا المجلس الذى كان فى رأيهم يستر أوليجاركية من النبلاء ورجال الأعمال وراء أشكال ديمقراطية . وقاد الملك الشاب (وقد بلغ السادسة والعشرين) الضباط إلى ثكنات حرس ستوكهلم فتحدث إليهم حديثاً بلغ من الإقناع مبلغاً جعلهم

يتعهدون بتأييده . وبدأ انه يكرر خطوة فخطوة الطريقة التى أوصلت كاترين الثانية إلى السلطة قبل عشر سنوات .

فلما التأم شمل مجلس الأمة فى ٢١ أغسطس وجد ساحته يحيط بها الرماة والقاعة نفسها قد احتلها الجنود . ووبخ جوستافس فى خطاب صنع التاريخ مجالس الطبقات لأنها لوثت نفسها بالتناحر الحزبى والرشوة الأجنبية ، وأمر بأن يقرأ عليها الدستور الجديد الذى أعده معاونوه . وقد احتفظ هذا الدستور بملكية مقيدة ، ولكنه وسع سلطات الملك ، فخول له الهيمنة على الجيش والبحرية والعلاقات الخارجية ، وله وحده حق تعيين الوزراء وإقالتهم ، ولا يجتمع مجلس الأمة إلا بدعوة منه ، وله أن يفضه متى شاء ، ولا يناقش المجلس إلا ما قدمه له الملك ، ولكن لا يصبح مشروع قانوناً دون موافقة المجلس ، ويحتفظ المجلس بالإشراف على المالية عن طريق مصرف السويد وحق فرض الضرائب . وليس للملك أن يخوض حرباً هجومية دون موافقة المجلس . والقضاة يعينهم الملك ثم يصبحون غير قابلين للعزل ، ويحمى حق « الهابياس كوريس » كل الأشخاص المعتقلين من تعطيلات القضاء . وطلب جوستافس إلى النواب أن يقبلوا هذا الدستور ، وأقنعتهم أسنة الحراب فقبلوه ، وأقسموا يمين الولاء . وشكر الملك المجلس وفضه واعداً بدعوته من جديد خلال ستة أعوام . واختفى حزبا الطواقى والقبعات . وقد تم الانقلاب فى سرعة لم يرق فيها دم ، وبرضى الشعب على ما يلوح . « وقد هتفوا لجوستافس محرراً لهم وأغرقوه دعاء . . . وتعانق الناس وهم يذرفون دموع الفرح »[٤٢]. واغتبطت فرنسا ، أما روسيا وبروسيا فهددتا بالحرب لرد الدستور القديم . ولكن جوستافس لم يهتز ، وتراجعت كاترين وفردريك ، مخافة أن تعرض الحرب مغانمهما البولندية للخطر .

وسلك جوستافس فى العقد التالى مسلك الملك الدستورى — أى أنه خضع للقانون الموضوع . وقام بإصلاحات نافعة . وتبوأ له مكاناً بين حكام القرن « المستبدين المستنيرين » . وأشاد به فولتير باعتباره « الوريث الجدير باسم جوستافس العظيم »[٤٣] . وأما طورجو الذى كان يعانى الإحباط فى

فرنسا . فقد طاب نفساً حين رأى سياساته الاقتصارية تنجح فى السويد ، حيث أجيزت حرية التجارة فى الغلال ، وأطلق عقال الصناعة من نظم النقابات الحرفية التى شلت حركتها . وحفز التجارة تنظيم الموانى الحرة على البلطيق ومدن الأسواق الحرة فى الداخل . واستشير ميرابو الأب فى تحسين الزراعة ، وكلف لرسييه ولا ريفيير بوضع خطة للتعليم العام (٤٤) . وأرسل جوستافس إلى فولتير نسخة من الأمر الذى كفل حرية النشر (١٧٧٤) ، وكتب يقول : « إنك أنت الذى يجب أن تسدى إليك الإنسانية الشكر على تحطيم تلك العقبات التى ألقاها الجهل والتعصب فى طريق تقدمها(٤٥) وقد أصلح القانون والقضاء ، وألغى التعذيب ، وخفف العقوبات ، وثبت العملة . ثم خفف الضرائب على الفلاحين ، وأعاد تنظيم الجيش والأسطول ، ومنح التسامح لجميع المذاهب المسيحية ولليهود فى ثلاث مدن كبرى منهيا بذلك احتكار المذهب اللوثرى لتقوى السويديين ؛ فلما ان دعا مجلس الأمة للانعقاد فى ١٧٧٨ ، وافق المجلس على سنوات حكمه الست الأولى دون أن يخرج صوت واحد على الإجماع وكتب جوستافس إلى صديق له « لقد بلغت أسعد مراحل حياتى العملية . فأفراد شعبى مقتنعون بأننى لا أبغى شيئاً غير زيادة رفاهيتهم وتوطيد دعائم حريتهم »(٤٦) .

٣ — التنوير السويدى

وفى زحمة هذا النشاط التشريعى والإدارى ، أسهم الملك بكل قلبه فى ذلك التفجر الرائع للآداب والعلوم ، الذى أوقف السويد على قدم المساواة مع التطورات الفكرية الأوربية فى القرن الثامن عشر ؛ وكان هذا عصر لنايوس فى النبات ، وشيليه وبرجمان فى الكيمياء ، وقد أشدنا بذكرهما فى غير هذا الموضع — ولكن ربما كان من واجبنا أن ندرج فى قائمة العلم رجلا من ألمع السويديين فى زمانه ، وهو إمانويل سويدنبورج ، لأنه اشتهر أول ما اشتهر بوصفه عالماً . فقد أنجز عملا أصيلا فى الفيزياء والفلك والجيولوجيا والبليونتولوجيا وعلم المعادن والفسيولوجيا وعلم النفس . وحسن المضخة الهوائية باستعمال الزئبق ؛ وإجاد وصف المغنطيسية

والوميض الفوسفورى ؛ واقترح نظرية سديمية قبل كانط ولا بلاس بزمان ؛ وسبق البحث الحديث فى الغدد الصماء . وبين قبل أى عالم آخر بمائة وخمسين عاماً أن حركة المخ متزامنة مع التنفس لامع النبض . وحدد مكان عمليات العقل الراقية فى سحاء المخ ، وحدد لأجزاء معينة من المخ وظيفة التحكم فى أعضاء معينة من الجسم (٤٧) . وخطب مجلس النبلاء فى النظام العشرى ، وإصلاح العملة ، وموازنة التجارة . وبدا أن عبقريته كلها موجهة إلى العلم . ولكنه حين خلص إلى أن دراساته تقوده إلى نظرية ميكانيكية للعقل والحياة ، وأن هذه النظرية مفضية إلى الإلحاد ، انتقص على العلم بقوة وتحول إلى الدين . وفى ١٧٤٥ بدأ يرى رؤى للجنة والنار ، وانتهى به الأمر إلى تصديق هذه الرؤى حرفياً ، فوصفها فى رسـالته « السماء وعجائبها والجحيم » وأخبر قراءه الذين يعدون بالألوف أنهم فى الجنة لن يكونوا أرواحاً مجردة من جسومها بل رجالا ونساء حقيقيين من لحم ودم ، يستمتعون بمباهج الحب الجسدية والروحية . جميعاً . ولم يعظ ، ولا ألف مذهباً أو شيعة ، ولكن تأثيره انتشر فى طول أوربا وعرضها ، فتأثر به ويسلى ، ووليم بليك ، وكولردج ، وكارليل ، وإمرسن ، وبراوننج ، وأخيراً (١٧٨٨) كون اتباعه «كنيسة أورشليم الجديدة » .

على أن السويد رغم معارضته أسلمت عقلها أكثر فأكثر للتنوير . وسرعان ما أسفر استيراد المؤلفات الفرنسية والانجليزية أو ترجمتها عن علمنة للثقافة وتهذيب للذوق والأشكال الأدبية . ووجدت النزعة التحررية الجديدة فى عهد جوستافس الثالث وأمه قبولا واسعاً فى الطبقتين الوسطى والعليا ؛ حتى بين كبار رجال الدين ، الذين بدأوا يبشرون بالتسامح وبعقيدة ربوبية بسيطة (٤٨) . وكانت الشعارات السائدة فى كل مكان هى « العقل » ، و « التقدم » ، و « العلم » و « الحرية » و « الحياة الطيبة هنا على الأرض » . ونظم لينايوس وغيره الأكاديمية الملكية السويدية للعلوم فى ١٧٣٩ ، وأسس كارل تسين الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة فى ١٧٣٣ . وكانت الأكاديمية الملكية للآداب البحتة قد عاشت فترة قصيرة على عهد الملكة لويزة أولريكا ، فأحياها جوستافس (١٧٨٤) بوقف سخى ، ووجهها لمنح مدالية كل عام

قيمتها عشرون دوقاتية لأفضل إنتاج سويدى فى التاريخ أو الشعر أو الفلسفة ، وفاز هو نفسه بأول جائزة كوفىء بها على ثنائه على لنارت تورشتنسن ألمع قواد جوستافس أدولفس . وفى ١٧٨٦ أسس الملك ، (على حد قوله) «أكاديمية جديدة لتهذيب لغتنا وصقلها ، على غرار الأكاديمية الفرنسية ، ويطلق عليها اسم الأكاديمية السويدية ، وتتألف من ثمانية عشر عضواً. «وأمدت هذه الأكاديمية هى وأكاديمية الآداب البحتة بالمال اللازم لصرف المعاشات للدارسين والمؤلفين السويديين (٤٩). وكان جوستافس يساعد شخصياً رجال الأدب أو العلم أو الموسيقى ؛ وقد أشعرهم بأن جوده حق لهم ، ورفعهم إلى مقام اجتماعى جديد بدعوتهم إلى بلاطه ، ثم حفزهم بمنافسته إياهم .

وكان فى السويد دراما قبل عهده ، لا سيما بتشجيع من أمه ، ولكنها كانت تزود بالممثلين الفرنسيين الذين يقدمون المسرحيات الفرنسية . فصرف جوستافس الفرقة الأجنبية ، واستنهض المواهب الوطنية لإخراج تمثيليات لمسرح سويدى حقاً . وتعاون هو نفسه مع يوهان فيلاندر فى تأليف أوبرا « تيطس وبيليه » ، وعرضت أول مرة فى ١٨ يناير ١٧٧٣ ، واستمر عرضها ثمانى وعشرين ليلة . ثم انصرف الملك إلى السياسة ثمانية أعوام . غير انه عاد إلى تناول القلم من جديد فى ١٧٨١ وألف سلسلة من التمثيليات مازالت تحتفظ بمكانة مرموقة فى الأدب السويدى . وأولى هذه التمثيليات — المسماة (أريحية جوستافس أدولفس ، ١٧٨٢) — كانت فاتحة الدراما السويدية . وكان الملك يستقى موضوعاته من سجلات التاريخ ، وقد علم شعبه تاريخ أمتهم كما علم شكسبير الانجليزى . وفى ١٧٨٢ بنى على حساب الدولة مسرح منيف للدراما والموسيقى . وكان جوستافس يكتب مسرحياته نثراً ، ثم يصوغها يوهان كلجرين شعراً ، ثم يدفعها إلى مؤلفين موسيقيين أجانب ليضعوا موسيقاها . وهكذا أصبحت تمثلياته أوبرات . وكانت أشهى ثمرات هذا التعاون « جوستاف أدولف وإيبا براهى» التى أحيت ذكرى قصة غرام القائد العظيم ، وجوستاف فازا ، التى وصفت تحرير أول جوستاف للسويد من الحكم الدنمركى .

وبفضل هذه القيادة الملكية ، وبفضل ثلاث جامعات (أوبصالا ،

وآبو ، ولوند) دخلت السويد حركة تنويرها الخاصة . ومهد للحركة أولوف فون دالين بتمهيد أديسونى (أى على طريقة جوزف أديسون) بكتابته غفلا من التوقيع ، ونشره دوريا (١٧٣٣ — ٣٤) مجلة دنسفنسكا أرجوس » التى ناقش فيها كل شىء إلا السياسة ، بأسلوب صحيفة سبكتيتور المهذب ، وابتهج كل قارىء تقريباً بما كتب ، ووافق مجلس الأمة على إجازة الكاتب الذى طلع الآن من مخبئه . وعينته الملكة لويزه أولريكا شاعراً للبلاط ومعلماً لابنها الذى أصبح جوستافس الثالث . فقيد المنصب شاعريته وبلدها ، ولكنه أتاح له من الوقت والمال ما أعانه على كتابة رائعته فى تاريخ السويد ، وهو أول تاريخ نقدى لمملكة السويد .

وكانت أطرف الشخصيات فى كوكبة الشعراء الجديدة امرأة تسمى هدفيج نوردنفليشت ، وهى للسويد قريع لسافو ، وأسباسيا ، وشارلوت برونتى فى أوطانهن . وقد أفزعت أبويها المتزمتين بقراءتها المسرحيات والشعر ، فعاقباها ، ولكنها لم تنته ، وكتبت شعراً فيه من الحلاوة والفتنة ما أكرههما على أن يروضا نفسيهما على هذه الفضيحة . ولكنهما أجبراها على الزواج من ناظر ضيعتهما ، وكان رجلا حكيماً دميم الوجه ، قالت « كنت أحب أن أصغى إليه فيلسوفاً ، ولكن منظره عاشقاً كان لا يحتمل »[٥٠]. وتعلمت أن تحبه ، ولكنه لم يلبث أن مات بين ذراعيها بعد زواجهما بثلاث سنين . وأنهى قسيس وسيم حدادها بخطبتها ، فأصبحت زوجاً له ، واستمتعت « بأسعد حياة تتاح لإنسان فان فى هذا العالم الناقص » ، ولكنه مات بعد سنة ، وكادت هدفيج تجن حزناً عليه . فاعتكفت فى كوخ على جزيرة صغيرة ، وبثت حزنها فى قصائد حظيت بقبول حسن حملها على الانتقال إلى ستوكهولم حيث ظلت تصدر كل سنة (١٧٤٤ — ٥٠) « حكماً للنساء ، بقلم راعية من الشمال » وأصبح بيتها صالوناً يلتقى فيه صفوة المجتمع والفكر . وحذا حذوها الشعراء الشبان أمثال فردريك جليلنبورج وجوستاف كروتز فى اتخاذ الأسلوب الفرنسى الكلاسيكى وفى اعتناق التنوير . وفى ١٧٥٨ ، حين بلغت الأربعين ، وقعت فى غرام يوهان فشرشتروم . وكان فى الثالثة والعشرين ، واعترف لها بأنه يحب امرأة غيرها ، ولكنه حين رأى

هيدفيج وحيدة مبتئسة عرض عليها الزواج . فرفضت هذه التضحية ، وحاولت إغراق نفسها حلا للمشكلة ، فأنقذت ، ولكنها ماتت بعد ثلاثة أيام. ومازالت « راعية الشمال » علماً من أعلام الأدب السويدى .

وحذا كروتز حذو خيالها الرومانسى المحلق بمجموعة رقيقة جداً من الأغانى سماها « أتيس وكاميللا » (١٧٦٢) ، ظلت سنين كثيرة أعظم ما يعجب به القراء من قصائد فى هذه اللغة . فكاميللا ، بوصفها كاهنة لديانا ، تنذر للعفة ، ولكن أتيس الصياد يراها فتهفو نفسه إليها ويضرب فى الغابات يائساً . وتتحرك عاطفة كاميللا أيضاً فتسأل ديانا « أليس ناموس الطبيعة مقدساً قداسة أمرك ؟ » ثم تصادف أيلا جريحاً فتعنى به وتخفف ألمه ، فيلعق يدها ، ويتوسل إليها أتيس أن تهبه امتيازات مماثلة ، فتوبخه ، فيقفز من جرف عال طلباً للموت ، ولكن كيوبيد يعترض سقطته ، وتحنو عليه كاميللا وترضى بعناقه ، غير أن ثعباناً ينشب نابه فى صدرها المرمرى ، فتموت بين ذراعى أتيس . ويمص أتيس السم من جرحها فيشرف على الموت . وتلين قناة ديانا ، فتردهما إلى الحياة ، وتحل كاميللا من نذورها العذرية ، وينتهى كل شىء نهاية سعيدة . وقد أشاد بهذه القصيدة الرعوية المثقفون السويديون كما أشاد بها فولتير ، ولكن كروتز انصرف إلى السياسة وأصبح مستشاراً للسويد .

وإذا كانت هدفيج نورد نفليشت هى سافو السويد ، فإن كارل بلمان كان روبرت بيرنز السويد . نشأ فى أحضان العز والتقوى ، ولكنه تعلم أن يفضل أغانى الحانات المرحة على ترانيم بيته الكئيبة . ففى الحانات كانت حقائق الحياة والوجدان تعلن دون اكتراث بالتقاليد واللياقة ؛ وفيها يعرى الخمر كل نفس فتتيح للحقيقة أن تتكشف بين الوهم والغضب . وكان أكثر الشخصيات بعثاً للأسى فى هذا الحطام البشرى يان فريدمان ، الذى كان يوماً ما صانع ساعات البلاط ، والذى حاول الآن أن ينسى فى الشراب فشل زواجه . وأكثرها مرحاً ماريا كيلشتروم ، ملكة الأعماق السفلى . وقد غنى بلمان أغانيهم معهم ، وألف الأغانى عنهم ، وأنشدها أمامهم على أنغام موسيقى من تأليفه . وقد شاب بعض أغانيه شىء من التحلل ، فوبخه

كيلجرين ، الأمير غير المتوج لشعراء العصر . ولكن حين أعد بلمان « رسائل فريدمان » للطبع (١٧٩٠) قدم كلجرين لهذه الرسائل الشعرية بمقدمة حماسية ، وحظى الكتاب بجائزة من الأكاديمية الملكية السويدية . واستمع جوستافس الثالث إلى بلمان فى سرور ، ولقبه « أناكريون الشمال » ومنحه وظيفة شرقية فى الحكومة . على أن اغتيال الملك (١٧٩٢) ترك الشاعر بغير مورد ، فتردى فى مهاوى الفقر ، وحبس للدين ، ثم أفرج عنه بمعونة أصدقائه . وبينما كان مشرفاً على الموت بالسل وهو فى الخامسة والخمسين أصر على زيارة حانته الأثيرة لآخر مرة ، وراح يغنى فيها حتى بح صوته . ولم يلبث أن وافته منيته فى ١١ فبراير ١٧٩٥ . ويعده البعض « أكثر الشعراء السويديين أصالة » و « بالإجماع أعظم شاعر فى زمرة الشعراء » الذين شرفوا هذا العهد [٥١] .

ولكن الرجل الذى أقر معاصروه بأنه لا يفضله سوى الملك فى حياة العصر الفكرية هو يوهان هنريك كيلجرين . كان ابنا لقسيس ، ولكنه تنكر للعقيدة المسيحية ، وسار فى ركاب التنوير الفرنسى ، ورحب بكل لذائذ الحياة ومتعها بأقل قدر من الندم . وكان أول كتبه « ضحكى »، أغنية طويلة للفرح ، بما فيه أفراح العشق ؛ وقد أشاد كيلجرين بالضحك باعتباره « العلامة الوحيدة الإلهية المميزة للبشرية» وناشده أن يصحبه حتى آخر أيامه [٥٢] . وفى ١٧٧٨ ، وهو فى السابعة والعشرين ، اشترك مع كارل بيتر لنجرين فى تأسيس مجلة « بريد ستوكهولم» ، وقد جعل قلمه المرح هذه المجلة الصوت الغالب فى الحياة العقلية السويدية على مدى سبعة عشر عاماً ؛ وفى صفحاتها بسط التنوير الفرنسى سلطانه كاملا ، وشرف الأسلوب الكلاسيكى باعتباره اسمى معيار للتفوق . وسخرت المجلة من الرومانسية الألمانية ، وامتدحت خليلات كلجرين فى قصائد أفزعت المحافظين فى البقاع النائية . على أن اغتيال مليكه المحبوب انتزع من فلسفة اللذة التى دان بها الشاعر . وفى ١٧٩٥ أفلت منه زمام إحدى علاقاته الغرامية فعمقت حتى أصبحت حباً صادقاً . وبدأ كيلجرين يعترف بحقوق الرومانس ، والمثالية ، والدين ، وعدل عن إدانته لشيكسبير وجوته ، ورأى أن رأس الحكمة قد يكون مخافة

الله (رغم كل شيء) . على أنه حين مات (١٧٩٥) غير متجاوز الرابعة والأربعين . طلب ألا تقرع لموته نواقيس[٥٣] وهكذا عاد فى النهاية ابنا لفولتير .

ومن النواحى الساحرة فى خلقه استعداده لفتح أعمدة مجلته لمعارضى آرائه . وكان أعنفهم توماس توريلد : الذى أعان الحرب على التنوير باعتباره الإعجاب الفج بالفكر السطحى . وقد روع توريلد ستوكهولم وهو فى الثانية والعشرين بكتابه « العواطف المشبوبة » الذى قال عنه إنه « يحوى القوة الكاملة لفلسفتى والبهاء كله لخيالى — طليقاً ، نشوان ، رائعاً » . وصرح بأن « حياته بأسرها مكرسة . . . للكشف عن الطبيعة وإصلاح العالم »[٥٤] . والتف حوله نفر من الأدباء المتمردين الذين أججوا نارهم بوقود الحركة الزوبعية وفضلوا كلوبشتوك على جوته ؛ وشكسبير على راسين ، وروسو على فولتير . فلما أخفق توريلد فى كسب جوستافس لصفه ، هاجر إلى انجلترة (١٧٨٨) ، وغذى روحه بجيمس طومسن ، وإدوارد يونج ، وصموئيل رتشردسن ، وانضم إلى المتطرفين الذين ناصروا الثورة الفرنسية . وفى ١٧٩٠ قفل إلى السويد ونشر دعوة سياسية حملت الحكومة على نفيه . وبعد أن قضى عامين فى ألمانيا سمح له بالعودة إلى السويد حيث استكان إلى كرسى فى الجامعة .

وقد لمع فى سماء الأدب نجوم آخرون . منهم كارل جوستاف آف ليوبولد الذى سر الملك بما اتسم به شعره من شكل كلاسيكى وطابع مهذب . ومنهم بنجت ليدنر الذى آثر الرومانس كما آثره توريلد . وقد طرد من جامعة لوند لمغامراته الطائشة (١٧٧٦) ، ثم واصل دراساته وانحرافاته فى روشتوك ، فوضع على ظهر سفينة مبحرة إلى جزر الهند الشرقية . ولكنه هرب منها ، وعاد إلى السويد ، وأثار انتباه جوستافس بديوان من القصص الخرافية الشعرية ؛ وقد عين سكرتيراً للكونت كرويتز فى سفارة باريس وهناك درس النساء أكثر من السياسة ، فأرسل إلى وطنه ، حيث مات

فقيراً فى الخامسة والثلاثين (١٧٩٣) . وقد كفر عن حياته بثلاثة دواوين تضطرم بنار بايرونية . ثم هنالك شاعرة متواضعة هى آنا ماريا لنجرين ، زوجة مساعد كيلجرين فى تحرير مجلة بريد ستوكهولم . فقد أسهمت فيها بشعر أكسبها ثناء خاصاً من الأكاديمية الملكية السويدية . ولكنها لم تسمح لربة شعرها أن تعوقها عن أداء واجباتها المنزلية ؛ وفى قصيدة موجهة إلى ابنة وهمية نصحتها بأن تتجنب السياسة والمجتمع وتقنع بواجبات البيت ومباهج الحياة البيتية .

ونسأل الآن : هل قامت فى الفن السويدى أى حركة تتجاوب مع الأدب والدراما ؟.. قليلا ما ... ومن أمثلتها أن كارل جوستاف التسينى زخرف بالروكوك (حوالى ١٧٥٠) القصر الملكى الذى بناه أبوه نيقودموس تسين فى ١٦٩٣ - ٩٧ . وجمع مجموعة وافرة من الصور والتماثيل هى الآن جزء من متحف ستوكهولم القومى . وحفر يوهان طوبياس زرجيل بالأسلوب الكلاسيكى تمثالا لفينوس وآخر لفون سكران (وهو إله الحقول والقطعان) ، وخلد فى الرخام ملامح يوهان باش الغليظة . وكان هناك أربعة مصورين فى أسرة باش : لورنتس الأكبر ، وأخوه يوهان ، وأخته أولريكا ، ولورنتس الأصغر ، وصور كل منهم الملكية والنبالة ، وكانوا جانباً متواضعاً فى التنوير الرائع الذى ازدان به هذا الحكم .

٤ - الاغتيـــال

كان الملك ذاته هو الذى ختم هذا الازدهار الرائع ختاماً حزيناً . ذلك أن الثورة الأمريكية التى عضدتها فرنسا أعظم تعضيد بدت له خطراً يتهدد كل الملكيات . فوصف المستعمرين بأنهم « رعايا متمردون » وأقسم أنه لن يعترف بهم أمة حتى يحلهم ملك انجلترة من يمين الولاء له [٥٥] . وراح فى العقد الأخير من عمره يحكم زمام السلطة الملكية أكثر فأكثر . ويحيطها بالاحتفالات والمراسم ، ويقصى معاونيه الأكفاء ذوى العقول المستقلة ليحل محلهم خداماً له يمتثلون لرغباته دون تردد أو معارضة . وبدأ يقيد الحرية التى منحها للمطبوعات . وحين وجد زوجته امرأة غبية خاملة إنغمس فى

مغازلات (٥٦) صدمت الرأى العام الذى كان يتوقع من ملوك السويد أن يكونوا للأمة قدوة فى المحبة والولاء الزوجيين . ثم نفر الشعب بتقريره احتكار الحكومة لتقطير المسكرات ، وتهرب الفلاحون الذين ألفوا أن يقطروا شرابهم بأنفسهم من هذا الاحتكار بعشرات الحيل . وقد أنفق مالا متزايداً على الجيش والبحرية ، وكان يتأهب بشكل ظاهر للحرب مع الروسيا . فلما جمع مجلس الأمة مرة ثانية (٦ مايو ١٧٨٦) افتقد فى طبقاته ذلك الإجماع الذى وافق به مجلس ١٧٧٨ على قوانينه ، ورفض المجلس مقترحاته كلها تقريباً ، أو عدلها تعديلا أفقدها قيمتها ، فاضطر الملك إلى إلغاء احتكار الحكومة لتقطير الخمور . وفى ٥ يوليو فض المجلس وقرر أن يحكم البلاد دون موافقته .

وكانت هذه الموافقة طبقاً لدستور ١٧٧٢ ضرورية فى أى حرب إلا الحرب الدفاعية . وكان جوستافس ينوى الهجوم على روسيا . فما السبب ؟ لقد علم أن روسيا والدنمرك قد وقعتا (١٢ أغسطس ١٧٧٤) معاهدة سرية للعمل الموحد ضد السويد . وزار كاترين الثانية فى سانت بطرسبرج فى ١٧٧٧ ، ولكن تظاهرهما بالصداقة لم يخدع المضيفة ولا ضيفها . فلما تكاثرت انتصارات روسيا على تركيا ، خشى جوستافس إذا لم يقم بعمل لإنهائها أن توجه الامبراطورية عاجلا جيوشها الضخمة غرباً بأمل إخضاع السويد لمشيئتها على نحو ما فعلت ببولنده ؛ فهل من سبيل لإحباط تلك الخطة ؟ لاسبيل فى رأى الملك إلا أن تعان تركيا بهجوم جناحى على سانت بطرسبرج . وساعده السلطان على اتخاذ هذا القرار بعرضه على السويد إعانة قدرها مليون قرش كل سنة على امتداد السنوات العشر التالية إذا انضمت إليه فى الجهد المبذول لكبح جماح كاترين . وعلل الملك نفسه بأن السويد قد تستطيع الآن أن تسترد ما أسلمته لبطرس الأكبر فى ١٧٢١ . وعليه ففى ١٧٨٥ بدأ جوستافس فى تجهيز جيشه وبحريته للحرب . وفى ١٧٨٨ أرسل إلى روسيا انذاراً نهائياً طالب فيه برد كاريليا وليفونيا للسويد ، وبرد القرم لتركيا . وفى ٢٤ يونيو أبحر قاصداً فنلنده . وفى ٢ يوليو ، تولى فى هلسنجفورس قيادة قواته المتجمعة ، وشرع فى الزحف على سانت بطرسبرج .

ولكن الحظ خانه فى كل شىء فالأسطول أوقفه أسطول روسى صغير فى معركة غير حاسمة تجاه جزيرة هوجلاند (١٧ يوليو) . وتمرد فى الجيش ١١٣ ضابطاً ، متهمين الملك بأنه حنث بعهده بألا يشن حرباً هجومية دون موافقة مجلس الأمة ، ووافدوا مبعوثاً إلى كاترين يعرضون عليها أن يضعوا أنفسهم تحت حمايتها وأن يتعاونوا معها فى جعل فنلنده السويدية والروسية دولة مستقلة . وجردت الدنمرك على عجل خلال ذلك جيشاً يهاجم جوتبورج ، أغنى مدينة فى السويد . وتقبل جوستافس هذا الغزو باعتباره تحدياً يستنفر شعبه ، ووجه نداءه إلى الأمة لاسيما الفلاحين الصلاب أهل مناطق التعدين المسمين « ديلز » ليعطوه جيشاً جديداً أكثر ولاء له ، وذهب بشخصه مرتدياً الزى الذى يتميز به رجال الديلز ليخطبهم من فناء الكنيسة فى قرية مورا وهو الفناء الذى التمس فيه جوستافس فازا معونتهم فى ١٥٢١ . واستجاب الشعب ، وتألفت أفواج المتطوعين فى مائة مدينة ، وفى سبتمبر ركب الملك الذى كان يقاتل لأجل حياته السياسية ٢٥٠ ميلا فى ثمان وأربعين ساعة ، وشق طريقه إلى جوتبرج ، واستنفز الحامية لتواصل دفاعها ضد اثنى عشر ألف من الدنمركيين الذين يحاصرونها . وتحول الحظ إلى جانبه . ذلك أن بروسيا التى كرهت أن تترك السويد تخضع لروسيا هددت بشن الحرب على الدنمرك ، فانسحب الدنمركيون من الأرض السويدية . وعاد جوستافس ظافراً إلى عاصمته .

أما وقد اشتد ساعده بجيش جديد موال له فقد دعا مجلس الأمة للانعقاد فى ٢٦ يناير ١٧٨٦ . وأيد سبعمائة عضو من أعضاء مجلس النبلاء — وعددهم ٩٥٠ — الضباط المتمردين ، ولكن المجالس الأخرى — القساوسة ، وأهل المدن ، والفلاحين — ناصروا الملك بأغلبية ساحقة . وأعلن جوستافس الحرب السياسية على النبلاء بتقديمه لمجلس الأمة « قانوناً للوحدة والأمن » ألغى كثيراً من امتيازات الطبقة الارستقراطية ، وفتح باب المناصب كلها تقريباً [illegible] ، وأعطى الملك سلطات ملكية مطلقة فى التشريع والإدارة والحرب [illegible] الطبقات الثلاث الدنيا القانون ، أما طبقة النبلاء فقد رفضته [illegible] . واعتقل جوستافس واحداً وعشرين نبيلا ، [illegible]

الكونت فردريك آكسل فون فرسن والبارون كارل فردريك فون بكلين — وأحدهما رجل شريف الخلق غير فعال ، والآخر ذكي غادر . ولكن سلطة المال ظلت فى يد مجلس الأمة ، وكانت موافقة المجالس الأربعة جميعها شرطاً لإقرار الاعتمادات المالية . ووافقت مجالس الطبقات الثلاث الدنيا على المال الذى طلبه الملك — للفترة التى يراها ضرورية — لمواصلة الحرب ضد روسيا ، أما مجلس النبلاء فرفض أن يوافق على الاعتمادات لأكثر من سنتين . وفى ١٧ أبريل دخل الملك مجلس النبلاء ، واتخذ مقعد الرئيس ، وطلب إلى النبلاء أن يوافقوا على قرار المجالس الثلاثة الأخرى . ورجحت كفة الرافضين ، ولكن الملك أعلن أن اقتراحه فاز . وشكر النبلاء على تأييدهم الكريم ، ثم خرج بعد أن خاطر باغتياله بأيدى النبلاء الساخطين .

وأحس الآن أنه مطلق اليد فى خوض الحرب . فأعاد فيما بقى من عام ١٧٨٩ بناء الجيش والأسطول . وفى ٩ يوليو ١٧٩٠ التقت بحريته بالبحرية الروسية فى الجزء السفنسكوندى من خليج فنلنده ، وأحرز أعظم نصر حاسم فى تاريخ السويد البحرى ، وخسر الروس ثلاثاً وخمسين سفينة و ٩,٥٠٠ رجل . واستعدت كاترين الثانية لعقد الصلح وهى ما تزال مشغولة بالترك ، فوافقت بمقتضى معاهدة فارالا (١٥ أغسطس ١٧٩٠) على أنها جهودها للهيمنة على سياسة السويد ، وأعيدت الحدود إلى ماكانت عليه قبل الحرب . وفى ١٩ أكتوبر ١٧٩١ أقنعها جوستافس بأن تبرم معه حلفاً دفاعياً تعهدت فيه بأن ترسل للسويد كل عام ٣٠٠,٠٠٠ روبل .

ولا ريب فى أن خوف العدوين القديمين المشترك من الثورة الفرنسية حولهما إلى هذه المشاركة الجديدة . وتذكر جوستافس فى عرفان أن فرنسا كانت الصديق الوفى للسويد طوال ٢٥٠ عاماً ، وأن لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر أمداه بمعونة بلغت ٣٨,٣٠٠,٠٠٠ جنيه بين عامى ١٧٧٢ و ١٧٨٩ . واقترح تأليف عصبة من الأمراء والملوك تغزو فرنسا وتعيد الملكية إلى سابق قوتها ، وأوفد هانز آكسل فون فرسن (وهو ابن عدوه الكونت فون فرسن) ليدبر فرار لويس السادس عشر من باريس ،

وذهب بنفسه إلى إكس – لا – شابل ليقود جيش الحلفاء ، وسمح للمهاجرين الفرنسيين بالالتجاء إلى معسكرة . وقدمت كاترين المال دون الرجال . ورفض ليوبولد الثانى التعاون ، وقفل جوستافس إلى ستوكهولم ليحمى عرشه .

ذلك أن النبلاء الذين قضى على سيادتهم السياسية لم يرتضوا الهزيمة ، وكانوا يرون فى حكم جوستافس الاستبدادى انتهاكاً صريحاً للقانون الذى أقسم من قبل على مساندته . وأطال يعقوب انكارشتروم التفكير فى سقوط طبقته ، « لقد فكرت كثيراً فى أنه قد يكون هناك سبيل مشروع لجعل الملك يحكم وطنه وشعبه بمقتضى القانون ومحبة الخير ، ولكن كل الأدلة قامت ضدى . . . فخير أن يغامر إنسان بحياته فى سبيل المصلحة العامة » ، وفى ١٧٩٠ حوكم بتهمة التحريض « لقد عقدت هذه المحنة . . . عزمى على أن أموت خيراً من أن أحيا حياة تعسة ، حتى إن قلبى الذى طبع فى غير هذا على الحساسية والمحبة انقلب قاسياً أشد القسوة فيما يتصل بهذه الفعلة الشنيعة »(٥٧). وانضم بكلين – كونت كارل هورن – وغيره إلى المؤامرة التى بيتت قتل الملك .

وفى ١٦ مارس ١٧٩٢ ، وهو تاريخ يذكر بقيصر ذكرى مشئومة ، تلقى جوستافس رسالة تحذره من الذهاب إلى مرقص تنكرى حددت له تلك الليلة فى المسرح الفرنسى . وذهب الملك نصف مقنع ، ولكن الأوسمة التى حملها على صدره كانت تشى بمقامه . فتعرف عليه أنكارشتروم ، وأطلق عليه النار ، ثم فر هارباً . وحملوا جوستافس إلى مركبة مضوا بها إلى القصر الملكى مخترقين جمعاً هائجاً مضطرباً . وكان ينزف نزفاً خطراً ، ولكنه علق مداعباً بأنه أشبه بباباً يحمل فى موكب يخترق طرق روما . ولم يمض على الهجوم ثلاثة ساعات حتى قبض على أنكارشتروم ، ثم على رؤوس المؤامرة أجمعين بعد أيام . واعترف هورن بأن المؤامرة تضم مائة متآمر .

وطالبت الجماهير بإعدامهم ، وأوصى جوستافس بالترفق بهم . فجلد أنكارشتروم ، وقطع رأسه ، ومزق جسده أرباعاً ، وأفسح لجوستافس فى الأجل عشرة أيام ، فلما أنبئ بأن لم يبق له فى الحياة غير ساعات ، أملى وثائق بتعيين هيئة وصاية تحكم البلاد والعاصمة . ثم مات فى ٢٦ مارس ١٧٩٢ بالغاً من العمر خمسة وأربعين عاماً . وبكته الأمة كلها تقريباً . لأنها تعلمت أن تحبه رغم أخطائه ، وأدركت أن السويد تحت قيادته عاشت عصراً من أمجد العصور فى تاريخها .

....





CHAPTER XVI

1. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 372; *cf.* Macdonald, Duncan, *The Religious Attitude to Life in Islam*, 126.
2. Lane, Edward W., *Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I, 148; Macdonald, Duncan, *Development of Muslim Theology*, 283; Wherry, E. M., *Commentary on the Quran*, I, 281.
3. Macdonald, D., *Religious Attitude*, 126.
4. Doughty, Charles M., *Travels in Arabia Deserta*, II, 99.
5. Halsband, Robert, *Life of Lady Mary Wortley Montagu*, 73.
6. Lane-Poole, Stanley, *Story of Turkey*, 319.
7. Burton, Sir Richard, *Personal Narrative of a Pilgrimage to Al-Madinah and Meccah*, II, 94.
8. Letter of Apr. 18, 1717, in Montagu, *Letters*, I, 318.
9. Letter of Apr. 1, 1717, in same, 286.
10. Friedländer, L., *Roman Life and Manners*, II, 201.
11. Frederick, *Mémoires*, I, 55.
12. Sir Wm. Petty, *Political Arithmetic* (1683).
13. Halsband, 74.
14. See *The Age of Louis XIV*, 425-26.
15. Lane, I, 272.
16. Lane-Poole, *Cairo*, 180.
17. Lane, I, 98.
18. *Ibid.*, 66.
19. *Enc. Brit.*, I, 618a.
20. *Ibid.*, XV, 816d.
21. Toynbee, *A Study of History*, I, 162.
22. Browne, Edward G., *Literary History of Persia*, IV, 135.
23. *Ibid.*, 136; Sykes, Sir Percy, *History of Persia*, II, 260.
24. *Ibid.*, 267.
25. *Enc. Brit.*, XII, 705b; Pope, Arthur U., *Survey of Persian Art*, IV, 470, 497-506.
26. Sykes, II, 201.
27. Pope, Arthur U., *Introduction to Persian Art*, 140.
28. Browne, E. G., IV, 282.
29. *Ibid.*, 292-96.

CHAPTER XVII

1. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 207.
2. Lyashchenko, Peter, *History of the National Economy of Russia*, 271-73.
3. *Ibid.*
4. Réau, Louis, *L'Art russe*, II, 88.
5. Florinsky, M. T., *Russia: A History and an Interpretation*, I, 575.
6. Mavor, James, *Economic History of Russia*, I, 477.
7. Reau, II, 88.
8. Mavor, I, 498-99.
9. Bernal, J. D., *Science in History*, 360.
10. Coxe, Wm., *Travels in Poland, Russia, Sweden, and Denmark*, I, 281-82.
11. Castéra, J., *History of Catherine II*, 174.
12. Dorn, *Competition for Empire*, 70.
13. Florinsky, I, 600; Brückner, A., *Literary History of Russia*, 113.
14. Coxe, *Travels*, I, 322.
15. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 250.
16. Pougin, Arthur, *Short History of Russian Music*, 10 f.
17. Réau, II, 55.
18. Brückner, 78.
19. Waliszewski, K., *History of Russian Literature*, I, 57.

20. Wiener, Leo, *Anthology of Russian Literature*, I, 224-29.
21. Rambaud, Alfred, *History of Russia*, II, 170.
22. Waliszewski, *Peter the Great*, 224.
23. Waliszewski, *Russian Literature*, 83.
24. *Ibid.*
25. 85.
26. Catherine the Great, *Memoirs*, 60.
27. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 47.
28. *Ibid.*
29. 25.
30. Kluchevsky, V. O., *History of Russia*, IV, 354.
31. Catherine, *Memoirs*, 58.
32. Gooch, G. P., *Catherine the Great*, 11.
33. *CMH*, VI, 317.
34. Carlyle, *History of Frederich the Second*, V, 294.
35. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 34.
36. Kluchevsky, IV, 358.
37. Casanova, *Memoirs*, I, 33-34.
38. *CMH*, VI, 658.
39. Catherine, *Memoirs*, 28.
40. *Ibid.*, 44-45.
41. 29-30.
42. 54.
43. 62.
44. 63.
45. 65.
46. *CMH*, VI, 659
47. Waliszewski, *Romance*, 78.
48. *Ibid.*
49. Kluchevsky, IV, 360.
50. Castera, 122-23.
51. Waliszewski, *Romance*, 91.
52. Catherine, *Memoirs*, 203.
53. Castéra, 89.
54. Walpole, H., *Memoirs of the Reign of King George III*, I, 145.
55. Catherine, *Memoirs*, 208.
56. Gooch, *Catherine*, 8.
57. Catherine, 301.
58. *Ibid.*, 240.
59. 255 f.
60. Waliszewski, *Romance*, 102; Crocker, *The Embattled Philosopher*, 378.
61. Catherine, 271-74; Waliszewski, *Romance*, 119.
62. *Ibid.*, 125.
63. Catherine, 282.
64. Waliszewski, *Romance*, 145.
65. *Enc. Brit.*, XVII, 645b
66. Castéra, 153.
67. Rambaud, II, 175.
68. Kluchevsky, IV, 366.
69. Castéra, 147, 157.
70. *Ibid.*, 156; *CMH*, VI, 328.
71. Kluchevsky, IV, 362.
72. Castéra, 152.
73. Waliszewski, *Romance*, 166.
74. *Ibid.*, 166; Castéra, 158.
75. Waliszewski, 166.
76. *Ibid.*, 164.
77. Gooch, *Catherine*, 16.
78. Catherine, 343.
79. *Ibid.*
80. Waliszewski, *Romance*, 176.

CHAPTER XVIII

1. Letter of Catherine to Potemkin, Aug. 2, 1762, in Catherine, *Memoirs*, 347.
2. Kluchevsky, IV, 371.
3. Catherine, 345.
4. Kluchevsky, IV, 371.
5. Catherine, 345.
6. Florinsky, I, 502.
7. *CMH*, VI, 663.
8. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 199.
9. *Ibid.*
10. Catherine, 370.
11. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 303.
12. Rambaud, II, 207.
13. Florinsky, I, 504.
14. Brandes, *Voltaire*, 253.
15. Florinsky, I, 504.
16. Catherine, 263-72.
17. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 97.
18. Waliszewski, *Romance*, 383-88. Gooch, *Catherine*, 38.
19. Waliszewski, 4-6.
20. Masson, *Memoirs*, 98.
21. *Ibid.*
22. Catherine, 360.
23. *Ibid.*, 20.
24. Lewis, D. B. W., *Four Favorites*, 197.
25. Catherine, 376.
26. *Ibid.*, 48.
27. Gooch, *Catherine the Great*, 45.
28. Masson, *Memoirs*, 116.
29. Waliszewski, *Romance*, 448.
30. Masson, 118.
31. Parton, *Life of Voltaire*, II, 386; Gooch, 58.
32. Voltaire, letter of May 18, 1767, in Desnoiresterres, VI, 380.
33. Parton, II, 388.
34. Desnoiresterres, VI, 380.
35. Letter of Sept. 7, 1764.
36. Crocker, *Embattled Philosopher*, 373.
37. Diderot, *Oeuvres*, 28.
38. In Ellis, Havelock, *The New Spirit*, 47.
39. Morley, John, *Diderot*, II, 113.
40. *Ibid.*, 114.
41. In Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 242.
42. Crocker, 380.
43. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 215.

44. Padover, *Revolutionary Emperor*, 161.
45. Sainte-Beuve, II, 216.
46. Catherine, 365.
47. Castéra, 226; *cf.* Waliszewski, *Romance*, 371-82
48. Coxe, *Travels in Poland*, III, 156; Castéra, 385.
49. Quoted by Voltaire in *Philosophical Dictionary*, II, 102.
50. Florinsky, I, 511; *CMH*, VI, 686.
51. In Gooch, *Catherine*, 69.
52. Voltaire to Catherine, Feb. 26, 1769.
53. In Rambaud, II, 206.
54. Voltaire, *Phil. Dict.*, art. "Power."
55. Mavor, *Economic History of Russia*, I, 241; Rambaud, II, 211.
56. Waliszewski, *Romance*, 365.
57. Garrison, F., *History of Medicine*, 400.
58. Castéra, *Catherine*, 297; Rambaud, II, 212.
59. Mavor, I, 313-14.
60. *Ibid.*, 472.
61. *CMH*, VI, 690.
62. Waliszewski, *Romance*, 298.
63. Lyashchenko, 273.
64. Mavor, I, 204-08.
65. Gershoy, 125.
66. Catherine, *Memoirs*, 385.
67. Gershoy, 123.
68. Florinsky, I, 567-68.
69. Waliszewski, *Romance*, 321.
70. [illegible]
71. Rambaud, II, 192; *Cambridge History of Poland*, II, 103.
72. Gooch, *Catherine*, 63.
73. Rambaud, II, 192.
74. *CMH*, VI, 674.
75. Quoted by George Bancroft in *Literary and Historical Miscellanies*, 359.
76. Gooch, *Catherine*, 51.
77. Lewis, *Four Favorites*, 213.
78. *Ibid.*, 179.
79. 215; Bain, R. N., *The Last King of Poland*, 175.
80. Florinsky, I, 531.
81. Catherine, 15.
82. Gilbert, *Prince de Ligne*, 139; Waliszewski, *Romance*, 209.
83. Castéra, 575.
84. Gooch, *Catherine*, 96.
85. Reddaway, *Frederick the Great*, 340.
86. Waliszewski, *Romance*, 233, 287.
87. *Ibid.*, 388.
88. Catherine, 377.
89. *CMH*, VI, 696.
90. Waliszewski, *Romance*, 237.
91. Wiener, *Anthology of Russian Literature*, I, 272-76.
92. *Ibid.*, 385.
93. 390.
94. 381.
95. Waliszewski, *History of Russian Literature*, 103.
96. Brückner, *Literary History of Russia*, 102.
97. *Ibid.*, 115.
98. 116.
99. 105-07.
100. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 342.
101. Réau, *L'Art russe*, II, 111.
102. *Ibid.*, 68.
103. Waliszewski, *Romance*, 349.
104. *Enc. Brit.*, XIX, 747b.
105. Waliszewski, *Romance*, 346.
106. Réau, II, 76.
107. *Ibid.*
108. 79.
109. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 93.
110. Gilbert, *Prince de Ligne*, 143.
111. Brückner, 112.
112. Morley, John, *Diderot*, II, 128; Rambaud, II, 245.
113. *Ibid.*, 247.
114. Masson, *Memoirs*, 303-06.
115. Catherine, 20.
116. Masson, 66.
117. Gooch in introd. to Catherine, *Memoirs*, 10.
118. Otto Hötzsch in *CMH*, VI, 701.

CHAPTER XIX

1. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 37.
2. Goodwin, *The European Nobility*, 161.
3. Waliszewski, *Poland the Unknown*, 127.
4. Bain, R. Nisbet, *The Last King of Poland*, 22; Friedländer, L., *Roman Life and Manners*, II, 162.
5. Bain, 43.
6. *Cambridge History of Poland*, II, 75.
7. *Ibid.*, 76-77; Coxe, Wm., *Travels in Poland*, II, 125.
8. *New CMH*, VII, 374; Lewinski-Corwin, E. H., *Political History of Poland*, 286.
9. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 73.
10. Bain, *Last King of Poland*, 100.
11. *Ibid.*, 59.
12. 31-32.
13. See *The Age of Louis XIV*, 374, 385-87.
14. *CHP*, II, 24.
15. Lewinski-Corwin, 289.
16. Bain, *Last King*, 55.
17. *Ibid.*, 56.
18. Aldis, *Madame Geoffrin*, 248.
19. Florinsky, *Russia*, I, 517.
20. Aldis, 251.
21. *Ibid.*, 282.
22. *CHP*, II, 116; Bain, 161.
23. Bain, *Last King*, 121.
24. Rambaud, *History of Russia*, II, 188.
25. *CHP*, II, 118.
26. *CHP*, II, 97-98; Bain, 77-78.

27. Rambaud, II, 188.
28. Bain, *Last King*, 78.
29. *CHP*, II, 120.
30. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Superstition," Sec. III.
31. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 267.
32. *CHP*, II, 102.
33. *Ibid.*, 103.
34. *Ibid.;* Bain, 108.
35. Bain, *Last King*, 108.
36. *Ibid.*, 2.
37. *Enc. Brit.*, XVIII, 143d.
38. Treitschke, *Life of Frederick the Great*, 164.
39. *CMH*, VI, 670.
40. Lewis, D. B. W., *Four Favorites*, 202.
41. Gershoy, 180.
42. Morley, John, *Life of Voltaire*, in Voltaire, *Works*, XXIb, 346; Florinsky, I, 537.
43. Coxe, *Travels in Poland*, I, 159.
44. Bain, *Last King*, 121.
45. *CHP*, II, 181-82.
46. Bain, 102.
47. *CHP*, II, 181-83.
48. *Ibid.*, 135.
49. Bain, *Last King*, 249.
50. *Ibid.*, 278.
51. *CHP*, II, 155.

CHAPTER XX

1. In Gooch, *Frederick the Great*, 65.
2. MacLaurin, C., *Mere Mortals*, 105.
3. Mowat, R. B., *The Age of Reason*, 61.
4. Gooch, *Frederick*, 121.
5. Mann, Thos., *Three Essays*, 213.
6. Sir James Harrison in Gooch, *Frederick*, 149.
7. In Rolland, *Musical Tour*, 214.
8. *New York Times*, Mar. 10, 1929.
9. Frederick, letter of Oct. 30, 1770, in Voltaire and Frederick, *Letters*, 314.
10. Crocker, Lester, *Age of Crisis*, 133.
11. Gooch, *Frederick*, 138.
12. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 86.
13. Voltaire and Frederick, *Letters*, 249.
14. Frederick to Voltaire, July 2, 1759, and Oct. 31, 1760, in *Letters*, 256, 270.
15. Bertaut, J., *Napoleon in His Own Words*, 463.
16. Treitschke, *Life of Frederick*, 182.
17. In Hazard, Paul, *European Thought in the 18th Century*, 333.
18. *Sainte-Beuve*, *Portraits of the 18th Century*, II, 344.
19. *Ibid.*, 347.
20. In Mowat, 105.
21. Morley, in Voltaire, *Works*, XXIb,195.
22. Sainte-Beuve, I, 220-21.
23. Voltaire and Frederick, *Letters*, 282.
24. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, IV, 179n.
25. Frederick to Voltaire, Feb. 10, 1767.
26. Chesterfield to his son, *Letter.*, June 23, 1752.
27. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 299.
28. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 106; Gershoy, 75.
29. Paulsen, *German Education*, 142.
30. Gershoy, 284.
31. Carlyle, *Friedrich*, VII, 201.
32. Gershoy, 76; Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 297.
33. *Ibid.*, 299.
34. Bruford, W. H., *Germany in the 18th Century*, 186.
35. *CMH*, VI, 718
36. Gershoy, 84.
37. Frederick, *Testament* (1768), in *CMH*, VI, 723.
38. Bruford, 22.
39. Casanova, *Memoirs*, I, 349.
40. Burke, *Thoughts on French Affairs*, in *Reflections on the French Revolution*, 296.
41. Pascal, Roy, *The German Sturm und Drang*, 75-76.
42. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 163.
43. Sime, James, *Lessing*, II, 131.
44. Schiller, *Poems*, 219-20, In *Works*.
45. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, 79.
46. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 44.
47. Bruford, 39.
48. *Enc. Brit.*, IX, 132b.
49. Padover, *Revolutionary Emperor*, 289. Campbell, Thos., *The Jesuits*, 611.
50. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 404
51. Smith, N. K., *Commentary to Kant's "Critique of Pure Reason,"* 6.
52. Eckermann, introduction.
53. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 118.
54. *Ibid.*, 116-17.
55. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 251. In *Works*.
56. F. C. Schlosser in Monroe, Paul, *Textbook in the History of Education*, 580.
57. Morley in Voltaire, *Works*, XXIb, 153.
58. Nettle, *Mozart and Masonry*, 9.
59. Robertson, J. M., *Short History of Free thought*, II, 318.
60. *Ibid.*
61. 331.
62. Sime, *Lessing*, I, 27.
63. Garland, H. B., *Lessing*, 154.
64. *Ibid.*, 118.
65. Lessing, *Laocoön*, 190; Ch. xxvi, *ad. init.*
66. Bosanquet, *History of Aesthetic*, 221n.
67. Lessing, *Laocoön*, 56.
68. *Ibid.*, 57.

69. Sime, II, 4.
70. *Ibid.*, 55.
71. Lessing, *Hamburgische Dramaturgie*, No. 70, in Garland; 64.
72. Lessing, *Sämtliche Schriften*, X, 53, in Sime, II, 206.
73. Sime, II, 85.
74. Casanova, II, 271.
75. See *The Age of Voltaire*, 502.
76. Sime, II, 348.
77. Lessing, *Education of the Human Race*, No. 74 (Harvard Classics, Vol. XXXII, 212).
78. *Ibid.*, Nos. 85-86.
79. Brandes, *Goethe*, I, 434; Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 190.
80. Sime, II, 300; Brandes, *Goethe*, I, 434.
81. Sime, II, 346.
82. *Ibid.*, 330.
83. Klopstock, *The Messiah, ad finem.*
84. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 79; II, 5. In *Works*.
85. *Penguin Book of German Verse*, 175.
86. *Ibid.*, 178-90.
87. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 350. In *Works*.
88. Eckermann, 370 (Feb. 18, 1829).
89. Boehn, Max von, *Modes and Manners*, IV, 238.
90. Pascal, Roy, *The German Sturm und Drang*, 5.
91. *Ibid.*, 31.
92. Francke, Kuno, *History of German Literature*, 312.
93. *Ibid.*, 310.
94. Boehn, 124.
95. Schloss Tiefurt, near Weimar.
96. Schlossmuseum, Weimar.
97. Sanssouci Palace, Potsdam.
98. Winckelmann, II, 36.
99. Leipzig, Museum der Bildenden Künste.
100. Munich, Neue Pinakothek.
101. Dresden Gemäldegalerie.
102. Winterthur, Museum des Kunstvereins.
103. Schlossmuseum, Weimar.
104. Dresden Gemäldegalerie.
105. Weimar Museum.
106. Jahn, *Mozart*, III, 235.
107. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 589.
108. *Grove's Dictionary of Music*, I, 175.
109. Jahn, II, 65.
110. *Grove's*, I, 145-55, 177-81.
111. Gooch, *Frederick*, 298.
112. Frederick, *Mémoires*, I, 56 f.
113. Gooch, 309.
114. *Ibid.*, 305.
115. 319.
116. 323.
117. Frederick, *Mémoires*, I, 56.
118. Gooch, *Frederick*, 319.
119. *Ibid.*, 280.
120. 292.
121. 287.
122. 287.
123. 291.
124. 89.
125. 294.
126. In Hauser, Arnold, *Social History of Art*, II, 602.
127. Pascal, Roy, *Sturm und Drang*, 42.
128. MacLaurin, *Mere Mortals*, 201.
129. Gooch, *Frederick*, 110.

CHAPTER XXI

1. Paulsen, *Immanuel Kant*, 26n.
2. Überweg, F., *History of Philosophy*, II, 139.
3. T. M. Greene in introd. to Kant, *Religion within the Limits of Reason Alone*, *xxviii*.
4. *Ibid.*, *xxx*.
5. Paulsen, *Kant*, 37.
6. Wilson, E. C., *Immanuel Kant*, 3.
7. Herder, *Briefe zur Beförderung der Humanität*, in Paulsen, *Kant*, 40.
8. Williams, H. S., *History of Science*, III, 27-28.
9. Lovejoy, Arthur, *The Great Chain of Being*, 266.
10. Harlow Shapley in Wilson, *Immanuel Kant*, 51.
11. Kant, *Critique of Judgment*, II, 78; Paulsen, 272n.
12. Überweg, II, 150.
13. Paulsen, 272n.
14. In Smith, N. K., *Commentary*, *xix*.
15. Kant, *Critique of Pure Reason*, 1st ed., 13 (preface).
16. *Critique of Judgment*, I, 3.
17. *Pure Reason*, 1st German ed., 10 (preface).
18. *Pure Reason*, 2d German ed., *xliii*.
19. *Ibid.*, *xxx*, *xxxiv*.
20. *Prolegomena to Any Future Metaphysics*, 9 (preface).
21. In Paulsen, 96.
22. *Pure Reason*, 1st Germ. ed., 112.
23. *Ibid.*, 125; *Prolegomena*, No. 36.
24. *Pure Reason*, 42.
25. *Ibid.*, 307, 375.
26. *Pure Reason*, 2d Germ. ed., 131-33, 136, 139, 143.
27. *Ibid.*, 428.
28. First ed., 622-23.
29. *Ibid.*, 627.
30. 671-73, 675.
31. 468.
32. 683-92, 698.
33. 700.
34. Karl Reinhold in Paulsen, 114.
35. *Prolegomena*, 13 (preface).
36. *Pure Reason*, first ed., 298, 752.

37. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 337.
38. *Pure Reason*, 2d ed., *xxx, xxxiv*.
39. Kant, *Fundamental Principles of the Metaphysics of Ethics*, 35.
40. Kant, *Critique of Practical Reason*, 313.
41. *Ibid.*, 248, 259.
42. 142.
43. *Fundamental Principles*, 68.
44. *Ibid.*, 57.
45. *Practical Reason*, 108-9, 146.
46. *Pure Reason*, 2d ed., 571-73.
47. *Ibid.*, *xxviii*, 566-69, 580-81; *Practical Reason*, 164 f.
48. *Ibid.*, 259 f.
49. 260.
50. *Pure Reason*, 1st ed., 819.
51. Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 25.
52. Heine, H., *Religion and Philosophy in Germany*, in Paulsen, 8a.
53. *Critique of Judgment*, I, 18, 15.
54. *Ibid.*, [illegible]
55. 46.
56. *Critique of Judgment*, II, 89.
57. *Ibid.*, 117.
58. Kant, *Werke*, VI, 129, in Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 39.
59. Überweg, II, 141.
60. Kant, *Religion within the Limits of Reason Alone*, 3.
61. *Ibid.*, 8.
62. 8.
63. 28.
64. 29.
65. Kant, *Education*, No. 19.
66. Kant, *Religion*, 35.
67. Kant, "Conjectural Beginning of the History of Man," in Überweg, II, 186.
68. Kant, *Religion*, 51.
69. *Ibid.*, 147, 159-61.
70. 142-43.
71. 91.
72. 63.
73. 117.
74. 57, 134.
75. 186.
76. 183-85.
77. 153, 164-65, 168, 112.
78. *Ibid.*, *xxxiv*.
79. Kant, *A Philosophical Treatise on Perpetual Peace*, 10.
80. *Ibid.*, 28.
81. 32.
82. *Practical Reason*, 341n.
83. *Perpetual Peace*, 78.
84. Paulsen, 351.
85. *Perpetual Peace*, 29-30; Smith, N. K., *Commentary*, *lvii*.
86. *Education*, No. 30.
87. *Ibid.*, No. 7.
88. Paulsen, 374.
89. *Practical Reason*, 326n.
90. *Ibid.*, introd. by T. G. Abbott, *xliii*.
91. *Ibid.*, *xliv*.
92. Paulsen, 45.
93. *Ibid.*, 47; Klinke, *Kant for Everyman*, 105.
94. Stuckenberg, *Life of Kant*, 340-54, in Robertson, J. M., *Freethought*, II, 343.
95. Robertson, II, 345.
96. Letter of Apr., 1766, in *Religion within the Limits of Reason Alone*, introd., *xxxvi*.
97. Paulsen, 52.
98. Vaihinger, *The Philosophy of "As if,"* 313.
99. *Ibid.*, 316-17.
100. Witte, *Schiller*, 46.
101. Schiller, *Poems*, 290.
102. Eckermann, 79 (Apr. 14, 1824).
103. Emerson, lecture of 1842 on "The Transcendentalist," in Wilson, E. C., *Immanuel Kant*, 23.

CHAPTER XXII

1. Eckermann, 138 (Apr. 27, 1825).
2. Lewisohn, L., *Goethe*, I, 134.
3. Schiller to Körner, Aug. 8 and Sept. 10, 1787, in Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 140-43.
4. Brandes, *Goethe*, I, 307.
5. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 101.
6. Francke, *History of German Literature*, 253.
7. Wieland, *History of Agathon*, I, *xxiv*.
8. Francke, 255.
9. *Agathon*, I, 123 (Book III, Ch. ii).
10. *Ibid.*, Book III, Ch. iii.
11. In Francke, 258.
12. Eckermann, 285 (Sept. 26, 1827).
13. Mann, Thos., *Three Essays*, 8.
14. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 385. In *Works*.
15. *Ibid.*, 155 f.
16. 209-30.
17. 178.
18. 175.
19. 233.
20. 318.
21. Goethe, *Works*, VII, 27.
22. *Truth and Fiction*, I, 306. In *Works*.
23. *Ibid.*, 367.
24. 368.
25. Brandes, *Goethe*, I, 71.
26. Autobiography of Heinrich Jung-Stilling in Lewisohn, I, 49.
27. In Ludwig, Emil, *Goethe*, 31.
28. *Truth and Fiction*, I, 407.
29. In Ludwig, 42.
30. Eckermann, 291 (Oct. 8, 1827).
31. E.g., *Truth and Fiction*, II, 43.
32. *Ibid.*, 75.
33. Letter of June, 1771, in Lewisohn, I, 57.

34. *Truth and Fiction*, II, 120.
35. *Ibid.*, 143.
36. Brandes, I, 140.
37. Ludwig, 57.
38. Goethe, *Götz von Berlichingen*, Act I, Sc. ii.
39. *Truth*, II, 167.
40. From Kestner's diary, in Lewisohn, I, 71.
41. *Truth*, II, 188.
42. *Ibid.*, 214
43. 214.
44. Brandes. I, 273.
45. In Ludwig, 87.
46. Lewisohn, I, 101.
47. *Truth*, II, 216-17.
48. Eckermann, 52 (Jan. 2, 1824).
49. Goethe, *Werther*, letters of July 19 and 21 and Aug. 30, 1771.
50. Goethe, letter to Kestner, Nov. 20, 1774, in Lewisohn, I, 105.
51. Sime, *Lessing*, II, 200.
52. Lewisohn, I, 101.
53. Kestner, letter to Hennings, Nov. 18, 1772, in Pascal, *German Sturm und Drang*, 108.
54. *Truth*, Book XII.
55. In Ludwig, 94.
56. Lavater's diary, June 28, 1774, in Lewisohn, I, 99.
57. Goethe's letter of Nov. 12, 1816, in Lewisohn, II, 262.
58. Lewisohn, I, 295.
59. *Truth*, II, 261, 309.
60. Translation in Carus, Paul, *Goethe*, 245-47.
61. *Truth*, II, 318, 327.
62. *Ibid.*, 366.
63. Clark, Robert, *Herder*, 160.
64. *Truth*, II, 11.
65. *Ibid.*, 16.
66. In Pascal, *German Sturm und Drang*, 225.
67. Heiseler, B. von, *Schiller*, 49.
68. Schiller, *Poems*, 7. In *Works*.
69. *Ibid.*, 9.
70. Carlyle, *Life of Schiller*, 15. In *Works*.
71. Schiller, *The Robbers*, Act I, Sc. ii.
72. *Ibid.*, II, iii.
73. *Ibid.*
74. V, i.
75. Heiseler, 47.
76. Ungar, Frederick, *Friedrich Schiller*, 34.
77. Witte, *Schiller*, 131.
78. Heiseler, 83.
79. Schiller, *Philosophical Letters*, p. 376 (Letter I). In *Works*.
80. *Ibid.*, 385 (Letter IV).
81. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 12.
82. *Ibid.*, 13-16.
83. Heiseler, 85.
84. *Ibid.*
85. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 30-33.
86. Körner to Schiller, July 8, 1785, in *Correspondence*, I, 36.

CHAPTER XXIII

1. Einstein, *Mozart*, 19.
2. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 291. In *Works*.
3. Schiller to Körner, July 28 and Aug. 29, 1787.
4. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 85.
5. *Ibid.*, 90, 168.
6. Wieland, *Oberon*, introd.
7. Brandes, *Goethe*, II, 266-69.
8. Lewisohn, II, 209.
9. Schiller and Körner, I, 85.
10. Pascal, *German Sturm und Drang*, 17.
11. *Ibid.*, 18.
12. 17.
13. Goethe to Jacobi, Nov. 12, 1783.
14. Goethe to Lavater, December, 1783.
15. Schiller and Körner, I, 85.
16. Clark, *Herder*, 240.
17. Bancroft, Geo., *Literary and Historical Miscellanies*, 173.
18. Herder to Hamann, Jan. 13, 1777, in Pascal, 95.
19. Clark, *Herder*, 274-77.
20. Herder to Jacobi, Feb. 6 and Dec. 30, 1784, in Pascal, 104.
21. Pascal, 104.
22. Clark, 340.
23. Pascal, 106.
24. Clark, 303.
25. *Ibid.*, 322.
26. 357.
27. 368.
28. Lewisohn, I, 133.
29. *Ibid.*
30. 153.
31. Eckermann, 285 (Sept. 26, 1827).
32. Lewisohn, I, 134.
33. *Ibid.*, 135.
34. 137-40.
35. 141.
36. 146.
37. 150.
38. Goethe to Charlotte von Stein, May 24, 1776.
39. Lewisohn, I, 151.
40. *Ibid.*, 156.
41. 222.
42. Brandes, I, 335.
43. Lewisohn, I, 327.
44. *Ibid.*, 236.
45. 271.
46. 306.
47. Eckermann, 251 (Apr. 25, 1827).
48. Goethe's diary, in Lewisohn, I, 215.
49. Ludwig, 440.
50. Translation by Longfellow.
51. Lewisohn, I, 232.

52. See *The Age of Reason Begins*, 259-65.
53. Goethe, *Tasso*, Act I, Sc. ii.
54. *Ibid.*, II, i.
55. I, ii.
56. *Ibid.*
57. Letter of Apr. 24, 1783, in Lewisohn, I, 266.
58. Ludwig, 155.
59. Lewisohn, I, 309.
60. Ludwig, 217.
61. Letter of Oct. 8, 1786, in *Letters from Italy*, 177.
62. Ludwig, 222.
63. Städelsches Museum, Frankfurt.
64. Lewisohn, I, 320.
65. *Ibid.*, 322.
66. Eckermann, 133, 201 (Jan. 30, 1825, and Jan. 18, 1827).
67. *Letters from Italy*, Dec. 3, 1786, and Feb. 16, 1787.
68. *Ibid.*, Dec. 1 and 3, 1786.
69. Feb. 3, 1787, in Lewisohn, I, 327.
70. In McKinney and Anderson, *Music in History*, 511.
71. Eckermann, 213 (Jan. 29, 1827).
72. Taine, *Philosophy of Art*, in Brandes, *Goethe*, I, 457.
73. Letter of Dec. 13, 1786, in Lewisohn, I, 323.
74. Lewisohn, I, 353.
75. Brandes, I, 469.
76. Lewisohn, I, 257.
77. Goethe, *Poetical Works*, 34-42. In *Works*.
78. Lewisohn, I, 368.
79. Ludwig, 300.
80. Brandes, II, 50.
81. Letter of Jan. 3, 1781, in Lewisohn, I, 229.
82. Examples in Lewisohn, I, 101-2, 186-88, 196-97, 229, 379.
83. Ludwig, 246.
84. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 112.
85. *Ibid.*, 89 (Aug. 28, 1787).
86. Letters of July 28 and Aug. 18, 1787.
87. *Don Carlos*, Act III, Sc. x.
88. Schiller to Korner, Apr. 15, 1786.
89. Körner to Schiller, November, 1788.
90. Schiller to Körner, Sept. 12, 1788.
91. Schiller and Körner, *Correspondence*, II, 330.
92. Letter of May 28, 1789.
93. Carlyle, *Life of Schiller*, 103. In *Works*.
94. Letter of Dec. 7, 1787.
95. Heiseler, 114.
96. Letter of Mar. 1, 1790.
97. Heiseler, 119.
98. Schiller to Körner, Feb. 22, 1791.
99. Letter of May 24, 1791.
100. Schiller, *Essays*, 203. In *Works*.
101. *On the Aesthetic Education of Mankind*, Letters VII and X in *Essays*, 45, 53.
102. Letter of May 5, 1792.
103. Ludwig, 326.
104. Schiller, *Poems*, 272. In *Works*.
105. Schiller to Goethe, Aug. 17, 1795, in Schiller and Goethe, *Correspondence*, I, 88-89.
106. *On Naive and Sentimental Poetry*.
107. Eckermann, Oct. 7, 1827.
108. *Cf.* letter to Körner, Aug. 29, 1787.
109. Schiller to Goethe, Aug. 23, 1794.
110. Schiller to Goethe, Aug. 31, 1794.
111. Goethe, "Happy Incident," in Carlyle, *Life of Schiller*, 305. In *Works*.
112. Schiller and Goethe, *Correspondence*, I, 1.
113. *Ibid.*, 5.
114. 6.
115. Schiller to Körner, Feb. 1, 1796.
116. In Ungar, *Schiller*, 129.
117. *Ibid.*, 140.
118. Schiller, *Essays*, 286, 321. In *Works*.
119. *Wilhelm Meisters Lehrjahre*, I, 324.
120. Schiller to Körner, Dec. 9, 1794, Feb. 22, 1795, June 15, 1795, July 2, 1796.
121. Letters of July 2-9, Oct. 9, and Oct. 23, 1796.
122. Goethe to Schiller, July 7, 1796.
123. Eckermann, Mar. 23, 1829.
124. Ludwig, 385-86.
125. Eckermann, Mar. 22, 1825.
126. Lewes, G. H., *Life of Goethe*, II, 202.
127. Goethe to Schiller, Jan. 18, 1797.
128. *Hermann and Dorothea*, 56-57. In *Works*.
129. Brandes, II, 470.
130. Schiller to Körner, Jan. 5, 1800.
131. Eckermann, July 23, 1827.
132. Heiseler, 143.
133. Ludwig, 386.
134. Schiller to Charlotte Schimmelmann.
135. Goethe to Schiller, Feb. 28, 1801.
136. Eckermann, Oct. 7, 1827.
137. Lewisohn, I, 61.
138. Letter of Jan. 20, 1801.
139. Heiseler, 170.
140. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 182.
141. Schiller to Goethe, Dec. 21, 1803, in Lewisohn, II, 92.
142. *Ibid.*
143. Staël, 23-24.
144. Lewisohn, II, 293.
145. Heiseler, 189.
146. Eckermann, Jan. 18, 1827.
147. Witte, *Schiller*, 38.
148. Goethe to Zelter, June 1, 1805, in Lewisohn, II, 107.

CHAPTER XXIV

1. *Cf.* final lines of *Faust*, Part II.
2. Brandes, *Goethe*, II, 250.
3. Recollections of Friedrich von Müller, in Lewisohn, II, 161.
4. Brandes, 263-64.
5. *Ibid.*

6. Eckermann, Mar. 15, 1829.
7. For the historical background of the Faust legend see *The Reformation*, 852.
8. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 21-22. In *Works*.
9. Lewisohn, I, 123.
10. *Ibid*.
11. Eckermann, Feb. 10, 1829.
12. Brandes, 305.
13. In the *Gesamtausgabe* by Breitkopf and Härtel.
14. Translation by Albert Latham in Everyman's Library ed. of *Faust*.
15. Eckermann, Jan. 10, 1825.
16. Latham's translation, p. 52.
17. *Ibid*., 117-19.
18. 116.
19. Brandes, 229.
20. Lewisohn, II, 174.
21. *Elective Affinities*, English tr., 335. In *Works*.
22. *Ibid*., 180.
23. 218.
24. Ludwig, 427.
25. *Ibid*., 429.
26. 453.
27. Lewisohn, II, 202-4.
28. Ludwig, [illegible]
29. Lewisohn, II, 250.
30. *Ibid*., 303.
31. [illegible].
32. 306-8.
33. Ungar, Frederick, *Goethe's World View*, 9.
34. Magnus, Rudolf, *Goethe as a Scientist*, 221.
35. *Ibid*., *xvi-xviii*, 209.
36. 167.
37. 178.
38. Goethe's letter of May 17, 1787.
39. Magnus, 73.
40. *Ibid*., 78; Brandes, 462.
41. *Ibid*., 429.
42. Magnus, 42.
43. Ludwig, 188.
44. Magnus, 136.
45. Eckermann, Apr. 16, 1825.
46. Ungar, *Goethe's World View*, 31.
47. *Ibid*., 77.
48. *Faust*, Part II, line 1754.
49. Ungar, *Goethe's World View*, 9, 105.
50. Letter of Jan. 6, 1798.
51. Ungar, 99.
52. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 108. In *Works*.
53. Quoted in Mann, *Three Essays*, 49.
54. *Truth and Fiction*, Part III, Book 11.
55. Ludwig, [illegible].
56. Ungar, *Goethe's World View*, 47.
57. *Ibid*.
58. *Truth and Fiction*, II, 272-73.
59. Lewisohn, I, 255.
60. *Truth and Fiction*, Book XIV.
61. Ungar, *Goethe's World View*, 47.
62. *Ibid*., 41.
63. 37.
64. 57.
65. 43-45; Smith, Preserved, *Age of the Reformation*, 712.
66. *Truth and Fiction*, II, 311 f.
67. Ungar, *Goethe's World View*, 55.
68. Ludwig, 206.
69. *Ibid*., 457.
70. Recollections of Johann Falk, in Lewisohn, II, 210.
71. Goethe to Zelter, May 11, 1820.
72. Brandes, I, 437.
73. Ungar, *Goethe's World View*, 81.
74. *Ibid*., 6.
75. Eckermann, Apr. 2, 1829.
76. Ungar, 167.
77. *Ibid*., 129.
78. 139.
79. 16.
80. 89.
81. *Truth and Fiction*, I, 421.
82. *Wilhelm Meisters Lehrjahre*, Book VII, Ch. iii.
83. *Ibid*., Book V, Ch. iii.
84. Carus, *Goethe*, 168.
85. *Faust*, Part II, Act II.
86. Eckermann, Jan. 4, 1824.
87. Ungar, *Goethe's World View*, 59.
88. Eckermann, Feb. 13, 1829.
89. Ungar, 141.
90. *Ibid*.
91. 91.
92. Lewisohn, II, 438.
93. *Faust*, Part II, p. 341.
94. *Ibid*., 407.
95. Friedrich von Müller, in Lewisohn, II, 370.
96. *Ibid*., 371.
97. 376.
98. 430.
99. Goethe to Zelter, Dec. 14, 1830.
100. Lewisohn, II, [illegible].
101. Ungar, *Goethe's World View*, 111.
102. Mann, *Three Essays*, 63.
103. *Truth and Fiction*, II, 246.
104. Ludwig, 293.
105. *Ibid*., 472.
106. In Mann, 47.
107. Lewisohn, II, 254.
108. In Friedell, Egon, *Cultural History of the Modern Age*, I, 272.
109. In Mann, 64.
110. We have followed the account given by K. W. Müller in 1832, in Lewisohn, II, 449 f.
111. Eckermann, 572.

CHAPTER XXV

1. In Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, II, 240.

2. See "Sermon of Rabbi Akib," and art. "Jews" in *Philosophical Dictionary*.
3. *Ibid.*, Sec. III.
4. Sec. IV.
5. See *The Age of Voltaire*, Ch. xiii, Sec. VII.
6. Cf. Black, J. B., *The Art of History*, 49-50.
7. Graetz, H., *History of the Jews*, V, 346.
8. Gay, *Voltaire's Politics*, 352.
9. Graetz, V, 347.
10. Rousseau, *Emile*, 267-68.
11. Sombart, W., *The Jews and Modern Capitalism*, 56.
12. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, III, 308-11.
13. Altamira, *History of Spain*, 462.
14. Parton, *Life of Voltaire*, I, 161.
15. Bell, Aubrey, *Portuguese Literature*, 280.
16. Lea, III, 310.
17. Abbott, G. F., *Israel in Europe*, 209.
18. Abrahams, I., *Jewish Life in the Middle Ages*, 224.
19. *Ibid.*
20. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 252.
21. *Jewish Encyclopedia*, XII, 434; Padover, 253 f; Graetz, V, 357.
22. Padover, 257.
23. Letter of May 17, 1717, in Montagu, Lady Mary W., *Letters and Works*, II, 321.
24. Dubnow, S. M., *History of the Jews in Russia and Poland*, I, 255-58. Florinsky, *Russia*, I, 490
25. Dubnow, I, 307
26. *Ibid.*, 189.
27. 169-71
28. 173
29. 172-79.
30. 179-80.
31. 182-86.
32. Roth, Cecil, *The Jewish Contribution to Civilization*, 28.
33. Sombart, 23.
34. *Jew. Enc.*, XIX, 418a.
35. *Ibid.*, 415-18.
36. Corti, Egon C., *Rise of the House of Rothschild*, I, 19.
37. George, M. Dorothy, *London Life in the 18th Century*, 127.
38. Besant, Sir Walter, *London in the 18th Century*, 178.
39. Roth, 242.
40. Finkelstein, Louis, ed., *The Jews*, I, 260.
41. Besant, 180.
42. Browne, Lewis, *The Wisdom of Israel*, 551.
43. Dubnow, I, 233.
44. *Ibid.*, 232 f.; Baron, Salo, *Social and Religious History of the Jews*, II, 54 f.; Graetz, V, 374 f, Howe and Greenberg, *Treasury of Yiddish Stories*, 15 f.
45. Graetz, V, 294.
46. Hensel, S., *The Mendelssohn Family*, 4.
47. Sime, *Lessing*, I, 133.
48. Graetz, V, 298.
49. In Wolf, A., *History of Science . . . in the 18th Century*, 781.
50. Graetz, V, 309.
51. *Ibid.*, 311.
52. Hensel, 10.
53. Graetz, V, 317.
54. *Jew. Enc.*, VIII, 481d.
55. Graetz, V, 365.
56. *Ibid.*, 355.

CHAPTER XXVI

1. Voltaire, *Works*, 1b, 302.
2. In Herold, J., *The Swiss without Halos*, 106.
3. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 290.
4. Parton, *Life of Voltaire*, II, 458.
5. Lewisohn, II, 238-39.
6. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 240-46, 252, 375, 398-404. In *Works*.
7. Holberg, Ludwig, *Selected Essays*, p. 48 (Epistle 48).
8. Lady Mary Wortley Montagu, letters of Aug. 3 and 5, 1716, in *Letters and Works*, II, 226-27.
9. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, I, 237.
10. *Boswell in Holland*, 288.
11. Cumming, Ian, *Helvétius*, 50.
12. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 81.
13. Parton, *Life of Voltaire*, I, 152.
14. Blok, P. J., *History of the People of the Netherlands*, Part V, 174 f.; Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 353.
15. Blok, V, 183.
16. *Ibid.*, 92.
17. 86.
18. Dillon, Edw., *Glass*, 295 f.; Sitwell, S., *The Netherlands*, 147.
19. George Dempter to Boswell, Aug. 26, 1763.
20. *Boswell in Holland*, 93.
21. *Ibid.*, 317.
22. Herold, *Mistress to an Age*, 143.
23. *Ibid.*, 144.
24. Blok, V, 56.
25. *Ibid.*, 108
26. Horn, F. W., *History of the Literature of the Scandinavian North*, 187.
27. Freedley and Reeves, *History of the Theatre*, 268.
28. Holberg, *Seven One-Act Plays*, 165-87.
29. Matthews, Brander, *The Chief European Dramatists*, 705.
30. Holberg, *Journey of Niels Klim to the World Underground*, 10
31. *Ibid.*, 18.
32. 32.

33. 109.
34. 191.
35. 109.
36. Translation by Longfellow, in Van Doren, Mark, *Anthology of World Poetry*, 981.
37. Horn, *Scandinavian Literature*, 217.
38. Goodwin, A., *European Nobility*, 136.
39. *CMH*, VI, 762.
40. Bain, R. N., *Gustavus III*, I, 56.
41. *CMH*, VI, 768.
42. Bain, *Gustavus III*, I, 124.
43. Andersson, Ingvar, *History of Sweden*, 281.
44. Higgs, *The Physiocrats*, 87.
45. Bain, *Gustavus III*, I, 163.
46. *CMH*, VI, 776.
47. *Enc. Brit.*, XXI, 653d; Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 460, 108.
48. Gustafson, Alrik, *History of Swedish Literature*, 112, 136.
49. Bain, *Gustavus III*, I, 260; Horn, 355.
50. Bain, II, 239.
51. Horn, 359 f.
52. Gustafson, 139 f.
53. Bain, *Gustavus III*, II, 286-88; Gustafson, 139 f.
54. Horn, 369.
55. Bain, II, 210.
56. *Ibid.*, I, 38.
57. *Ibid.*, II, 157.



فهرس

الجزء الثالث

الكتاب الرابع

الصفحة

الصفحة

الكتاب الخامس

الصفحة

صفحة

الفصل الثالث والعشرون :

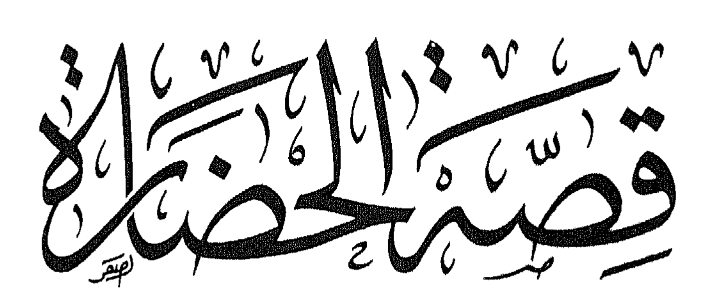
الفصل الرابع والعشرون :

جوته « نسطور » (١٨٠٥ — ١٨٣٢)

الفصل الخامس والعشرون :

الصفحة





ول وايريل ديورانت

روسو والثورة

تاريخ الحضارة في فرنسا، وإنجلترة، وألمانيا
من ١٧٥٦ إلى ١٧٨٩

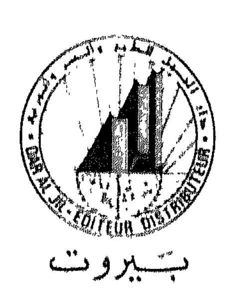
ترجمة
فؤاد أندراوس

الجزء الرابع من المجلد العاشر



تونس

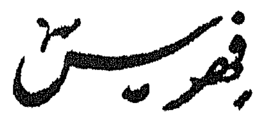
٤٢



بيروت

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي : دار جيلاب - بيروت - لبنان



الجزء الرابع من المجلد العاشر

الكتاب السادس

إنجلتره جونسن : ١٧٥٦ - ٨٩

صفحة

صفحة

الكتاب السابع

انهيار فرنسا الإقطاعية

صفحة

صفحة

* * *


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتاب السادس

انجلترة جونسن

١٧٥٦ .. ٨٩



الفصل السابع والعشرون

الثورة الصناعية

١ - أسبابها

لم بدأت الثورة الصناعية أول ما بدأت فى انجلتره ؟ لأن انجلتره كانت قد انتصرت فى حروب عظمى على القارة وحفظت فى الوقت نفسه أرضها من خراب الحرب ، ولأنها حققت السيطرة على البحار فظفرت بمستعمرات وفرت لها الخامات واحتاجت إلى السلع المصنوعة ؛ ولأن جيوشها وأساطيلها ، وسكانها المتزايدين . هيأوا لها سوقاً متسعة للمنتجات الصناعية ؛ ولأن النقابات الحرفية عجزت عن تلبية هذه المطالب المتسعة ؛ ولأن مكاسب التجارة المترامية الحدود كدست رأسمال يبحث عن وجوه جديدة للاستثمار ؛ ولأن انجلتره سمحت لنبلائها — ولثرواتهم بالاشتغال بالتجارة والصناعة ؛ ولأن إحلال الرعى تدريجياً محل فلاحة الأرض أجبر الفلاحين على النزوح من الحقول إلى المدن حيث زادوا من عدد العمال المتاحين للمصانع ؛ ولأن العلم فى انجلتره كان يوجهه رجال ذوو نزعة عملية ، فى حين كان على القارة منصرفاً أغلبه إلى البحث المجرد ؛ وأخيراً لأن انجلتره كان لها حكومة دستورية حساسة لمصالح التجارة ، شاعرة على نحو غامض بأن السبق فى الثورة الصناعية سيحقق لانجلتره الزعامة السياسية للعالم الغربى طوال حقبة قرن أو يزيد .

أما سيطرة بريطانيا على البحار فكانت قد بدأت بهزيمتها الأرمادا الأسبانى ، وامتدت هذه السيطرة بفضل الانتصارات على هولندة فى الحروب الانجليزية الهولندية ، وعلى فرنسا فى حرب الوراثة الاسبانية ، ثم جاءت حرب السنين السبع فكادت تجعل تجارة المحيط حكراً على بريطانيا . وكان

للبحرية البريطانية التى لاتقهر الفضل فى تحويل القنال الانجليزى إلى ما يشبه الخندق المائى الحالى لهذا «الحصن الذى شيدته الطبيعة . . ليدرأ عنها شر المرض وذراع الحرب »[١] (كما قال شكسبير) . فلم يعف الاقتصاد الانجليزى من نهب الجنود المغيرين وسلبهم فحسب ، بل غذته وحفزته حاجات الجيوش البريطانية وجيوش الحلفاء المحاربة فى القارة ، ومن هنا هذا التوسع الزائد فى صناعات النسيج والمعادن ، والحاجة لآلات تزيد من سرعة الإنتاج ولمصانع تستكثر منه .

وسهلت السيطرة على البحار فتح المستعمرات . وكانت كندا وأغنى بقاع الهند المثمرة التى وقعت من نصيب انجلتره فى حرب السنين السبع . وأكسبت رحلات كرحلات الكبتن كوك (١٧٦٨ — ٧٦) الامبراطورية البريطانية جزائر أفادتها من الناحية الاستراتيجية فى الحرب والتجارة وثبت انتصار رودنى على دجراس (١٧٨٢) — السيطرة البريطانية على جميكا ، وبربيدوس ، وجزر البهاما . ثم ظفرت بنيوزيلنده فى ١٧٨٧ ، وباستراليا فى ١٧٨٨ . وأتاحت تجارة المستعمرات وغيرها من أقطار ما وراء البحار للصناعة البريطانية سوقاً أجنبية لا ينافسها فيها منافس فى القرن الثامن عشر. وكانت التجارة مع المستوطنات الانجليزية فى أمريكا الشمالية تستخدم ١,٠٧٨ — سفينة و ٢٩,٠٠٠ ملاح[٢] . وازدهرت لندن وبرستل ولفربول وجلاسجو ثغوراً هامة لتجارة الأطلنطى هذه . وأخذت المستعمرات السلع المصنوعة وأرسلت عوضاً عنها الطعام والتبغ والتوابل والشاى والحرير والقطن والخامات والذهب والفضة والأحجار الكريمة . وقيد البرلمان استيراد المصنوعات الأجنبية بفرض الرسوم العالية عليها وثبط تنمية صناعات المستعمرات أو الصناعات الأرلندية المنافسة لصناعات بريطانيا . ولم تقم مكوس داخلية (كتلك التى عرقلت سير التجارة الداخلية فى فرنسا) عقبة فى سبيل انتقال السلع فى أرجاء انجلتره واسكتلنده وويلز . وكانت هذه الأقاليم أوسع منطقة للتجارة الحرة فى غربى أوربا . وحظيت الطبقتان العليا والوسطى برخاء عظيم جداً ، وبقدرة شرائية كانت حافزاً إضافياً للإنتاج الصناعى .

ولم تكن النقابات الحرفية كفؤا لتلبية حاجات الأسواق المتسعة فى الداخل والخارج . لقد أسست أولا لسد حاجات البلدة وما حولها ، وغلت يدها نظم عتيقة ثبطت الابتكار والتنافس والاقتحام ، ولم تكن معدة لجلب المواد الخام من مصادر نائية ، أو للحصول على رأس المال اللازم للإنتاج الموسع ، أو لحساب الطلبات من الخارج أو الحصول عليها أو تلبيتها . وحل محل معلم النقابة الحرفية شيئاً فشيئاً « مقاولون » ومتعهدون يعرفون كيف يجمعون المال ، ويتوقعون الطلب أو يخلقونه ، ويحصلون على الخامات ، وينظمون الآلات والعمال للإنتاج لأسواق فى كل أركان المسكونة .

أما المال فقد جاء من أرباح التجارة أو الأعمال المالية ، ومن غنائم الحرب ، ومراكب القرصنة ، ومن التعدين أو استيراد الذهب أو الفضة ، ومن الثروات الكبيرة التى تحققت فى تجارة الرقيق أو فى المستعمرات . كان الانجليز يرحلون عن بلادهم فقراء ، فيعود بعضهم أغنياء . فى تاريخ مبكر (١٧٤٤) أتيح لخمسة عشر رجلا عائدين من جزر الهند الغربية من المال ما يكفى لشراء انتخابهم للبرلمان[٣] . وما وافى عام ١٧٨٠ حتى كان « النوابون » Nabobs الذين أثروا فى الهند قوة فى مجلس العموم ، والكثير من هذا المال المجلوب كان متاحاً للاستثمار . وبينما كان النبلاء فى فرنسا ممنوعين من الاشتغال بالتجارة أو الصناعة ، كان نظراؤهم فى انجلترا معفين من هذا الحظر ، ونمت الثروة المتأصلة فى الأرض بفضل استثمارها فى المشروعات التجارية ؛ من ذلك أن دوق بردجووتر غامر بميراثه فى تعدين الفحم . وأودع آلاف البريطانيين مدخراتهم فى المصارف التى كانت تقرض النقود بفوائد منخفضة . وانتشر مقرضو المال فى كل مكان ؛ فقد اكتشف المصرفيون أن أيسر طرق الأثراء هى التعامل فى نقود غيرهم . فكان فى لندن عشرون مصرفاً فى ١٧٥٠ ، وخمسون فى ١٧٧٠ ، وسبعون فى ١٨٠٠[٤] . وعد بيرك اثنى عشر مصرفاً خارج لندن فى ١٧٥٠ ؛ وفى ١٧٩٣ كان هناك أربعمائة[٥] . وأضافت النقود الورقية إلى الالقاح المخصب ، فبلغت فى ١٧٥٠ اثنين فى المائة من العملة وفى ١٨٠٠ بلغت عشرة فى المائة[٦] . وغامرت الأموال المختزنة بالاستثمار حين نشرت التجارة والصناعة أرباحهما المتصاعدة .

واحتاجت الحوانيت والمصانع المتكاثرة إلى رجال . وتعاظم المدد الطبيعى من العمال بفضل العدد المتزايد من الأسر الريفية التى لم تعد قادرة على كسب قوتها من الفلاحة . وطالبت صناعة الصوف المزدهرة بالصوف ؛ وانتزع المزيد من الأرض من الفلاحة وخصص للرعى ؛ وحلت الأغنام محل الرجال ؛ ولم تكن قرية « أوبرن » (التى حزن عليها جولد سمث (القرية المهجورة الوحيدة فى بريطانيا . ففى الفترة من ١٧٠٢ إلى ١٧٦٠ كان هناك ٢٤٦ قانوناً برلمانياً يصرح بنزع اربعمائة فدان من الزراعة . ومن ١٧٦٠ إلى ١٨١٠ كان هناك ٢.٤٣٨ قانوناً ، تأثرت بها خمسة ملايين فدان تقريباً(٧) . ولما تحسنت الآلات الزراعية . لم تعد الملكيات الصغيرة مرغوبة ، لأنها عجزت عن استعمال الآلات الجديدة أو دفع ثمنها ، فباع الألوف من المزارعين أراضيهم وأصبحوا أجراء فى مزارع واسعة أو فى مصانع ريفية أو فى المدن . وأنتجت المزارع الكبيرة المزودة بطرائق وتنظيم وآلات أفضل غلة للفدان أكثر من مزارع الماضى ، ولكنها كادت تمحو كل أثر للمزارعين الأحرار ، أو الفلاحين الملاك ، الذين كانوا الدعامة الاقتصادية والحربية والأخلاقية لانجلتره . وزادت أثناء ذلك الهجرة من ايرلنده والقارة اعداد الرجال والنساء والأطفال المتنافسين على الاشتغال فى المصانع .

ولم يلعب العلم إلا دوراً متواضعاً فى التحول الاقتصادى الذى طرأ على انجلتره القرن الثامن عشر . وقد استعان وات ببحوث ستيفن هيلز فى الغازات ، وجوزف بلاك فى الحرارة والبخار ، على تحسين الآلة البخارية . وكانت جمعية لندن الملكية يتألف أكثرها من رجال عمليين يحبذون الدراسات التى يرجى تطبيقها على الصناعة . كذلك كان استعداد البرلمان البريطانى لمراعاة الاعتبارات المادية ؛ ومع أن ملاك الأرض كانوا مهيمنين عليه ، فإن العديد منهم شاركوا فى التجارة أو الصناعة ، وكان أكثر الأعضاء ميالين إلى قبول الهدايا واستجابة إلى الالتماسات من رجال الأعمال لتخفيف القيود التى فرضتها الحكومات السابقة على الاقتصاد . وظفر المدافعون عن حرية المشروعات وحرية التجارة — وترك الأجور والأسعار حرة فى الصعود أو الهبوط طبقاً لقوانين العرض والطلب — هؤلاء ظفروا بتأييد عدة زعماء

برلمانيين ؛ فتحطمت ببطء الحواجز القانونية المعوقة لانتشار التجارة والمصنوعات . وهكذا تحققت جميع الشروط اللازمة لتفوق انجلتره فى الثورة الصناعية .

٢ — مقوماتها

كانت العناصر المادية للثورة الصناعية هى الحديد والفحم والنقل والآلات والطاقة والمصانع . ولعبت الطبيعة دورها بتزويدها انجلتره بالحديد والفحم وسيولة الطرق . ولكن الحديد على الصورة التى جلب بها من المناجم كانت تتخلله الشوائب التى لابد من إزالتها بصهره بالنار . كذلك كان الفحم تختلط به الشوائب التى أزيلت بتسخينه أو « طهوه » حتى يستحيل إلى «الكوك» وتحول خام الحديد المحمى المنقى لدرجات متنوعة بالكوك المحروق إلى حديد مشغول أو زهر أو صلب .

ورغبة فى زيادة الحرارة بنى ابراهام داربى (١٧٥٤ وما بعدها) أفراناً عالية تزود فيها النار بهواء إضافى من منفاخ تشغله ساقية . وفى ١٧٦٠ استعاض جون سميتن عن المنفاخ بمضخة هواء مضغوط تشغلها المياه من جهة والبخار من جهة أخرى ؛ ورفع تيار الضغط العالى الثابت إنتاج الحديد الصناعى من اثنى عشر طناً إلى أربعين طناً للفرن فى اليوم(٨) . ورخص الحديد رخصاً أتاح استعماله فى مئات النواحى الجديدة ؛ مثال ذلك أن رتشرد رينولدز بنى فى ١٧٦٣ أول سكة حديد معروفة — وكانت طرقاً حديدية يسرت إحلال المركبات محل خيول الحمل فى نقل الفحم والحديد .

وبدأ الآن عصر ساد فيه كبار صناع الحديد المشهورون الذين سيطروا على المسرح الصناعى وأثروا ثراء طائلا باستخدامهم الحديد فى أغراض بدت غريبة تمام الغرابة على ذلك المعدن . مثال ذلك أن جون ولكنسن وأبراهام درابى الثانى أقاما أول قنطرة حديدية على نهر سفرن (١٧٧٩) . وأضحك ولكنسن انجلترة حين اقترح بناء سفينة حديدية . وقال بعضهم إنه جن . ولكنه وقد اعتمد على المبادىء التى أرساها أرخميدس . ركب

بألواح معدنية أول سفينة حديدية عرفها التاريخ (١٧٨٧) . وأقبل رجال الأعمال من الخارج ليشاهدوا ويدرسوا المصانع الكبرى التى أقامها ولكنسن ، أو رتشرد كرونشى أو أنتونى بيكن . وأصبحت برمنجهام القريبة من طبقات هائلة من الفحم والحديد أهم مركز لصناعة الحديد فى انجلتره . ومن هذه الورش تدفق إلى ورش انجلتره ومصانعها الجديد من العدد والآلات الأكثر قوة واحتمالا والأحق بالاطمئنان إليها .

وكان الفحم والحديد ثقيلين غاليي النقل إلا بالماء . وأتاح الساحل الغنى بالفجوات العميقة للنقل البحرى الوصول إلى الكثير من مدن بريطانيا الكبرى. وكان لابد من احداث ثورة فى وسائل النقل لجلب المواد والمحاصيل إلى المدن البعيدة عن الساحل والأنهار الصالحة للملاحة وظلت حركة البضائع على البر شاقة رغم شبكة الطرق الرئيسية Turnpikes التى بنيت بين ١٧٥١ و ١٧٧١ . (وقد اشتق اسمها من الأبواب الدوارة turnstiles المرشوقة بالمناخس التى تعوق المرور حتى تدفع المكوس) [٩] . وقد ضاعفت طرق المكوس هذه سرعة العبور ونشطت التجارة الداخلية . وحل محل خيول الحمل عربات تجرها الخيل ، وأخلى السفر على ظهور الخيل مكانه لمركبات البريد . على أن الطرق الرئيسية تركت لأصحاب المشروعات الحرة ليصونوها وسرعان ما تدهورت حالها .

إذن ظلت حركة التجارة تؤثر الطرق المائية . لذلك ظهرت الأنهار لتحمل السفن الثقيلة ، وربطت الأنهار والمدن بالقنوات . وقد تحول جيمس برندلى ، الذى لم يكن له حظ من التعليم النظامى أو الفنى ، من مركب طواحين غير متعلم إلى أشهر مهندس قنوات فى جيله ، إذ حل بميله الميكانيكى مشاكل تمديد القنوات خلال الأهوسة والأنفاق وفوق السقايات . وفى ١٧٥٩ — ٦١ شق قناة جلبت إلى مانشستر الفحم من مناجم دوق بردجووتر فى ورسلى ، فأنقص هذا إلى النصف ثمن الفحم فى مانشستر ، ولعب دوراً رئيسياً فى جعل تلك المدينة حاضرة صناعية . وكان من أجمل المناظر فى انجلترة القرن الثامن عشر منظر مركب تمخر مياه قناة برندلى — بردجووتر الممتدة بسقاية تعلو تسعة وتسعين قدماً فوق نهر ايرويل فى بارتن . وفى

١٧٦٦ بدأ برندلى شق قناة الجراند ترنك التى ربطت نهرى ترنت ومرزى فتتحت بذلك طريقاً مائياً عبر وسط انجلترة من البحر الإيرلاندى إلى بحر الشمال . وربطت قنوات أخرى نهر ترنت بالتيمز ، وما نشستر بلفربول ؛ ولم تنقضى ثلاثون سنة حتى خفضت مئات القنوات الجديدة تكاليف نقل التجارة فى بريطانيا تخفيضاً كبيراً .

أما وقد توفر الثورة الصناعية المواد والوقود والنقل ، فقد بقى عليها بعد ذلك أن تستكثر من السلع . وكان الطلب على الآلات اللازمة لتعجيل الإنتاج على أشده فى المنسوجات . فالناس فى حاجة إلى الكساء ؛ والجنود والبحارة كان يجب تموينهم بالأزياء الخاصة بهم . وكان القطن يدخل انجلترة بمقادير تتزايد بسرعة — ثلاثة ملايين رطل فى ١٧٥٣ . واثنان وثلاثون مليوناً فى ١٧٨٩[١٠] . ولم يكن فى طاقة العمل اليدوى أن يصنع بضائع معقولة فى الوقت الذى يلبى فيه الطلب . إن تقسيم العمل الذى كان قد تطور فى حرف الكساء أوحى باختراع الآلات وشجعه .

وكان جون كاى قد بدأ ميكنة النسيج بفضل مكوكه الطائر (١٧٣٣) ، ولويس بول ميكن الغزل بطريقة البكر (١٧٣٨) . وفى ١٧٦٥ غير جيمس هارجريفز ، وهو من أهالى مدينة بلاكبيرن بلانكاشير وضع عجلة الغزل فجعلها أفقية بدل أن تكون رأسية ، وركب عجلة فوق أخرى ، وشغل ثمانى منها ببكرة واحدة وسير ، ونسج ثمانية خيوط فى وقت واحد ؛ ثم أضاف مزيداً من القوة لمزيد من المغازل حتى استطاع مغزله Spinning jenny (وجنى هو اسم زوجته) أن ينسج ثمانين خيطاً فى وقت واحد . وخشى الغزالون اليدويون أن تفقدهم هذه البدعة حرفتهم وقوتهم . فحطموا آلات هارجريفز فهرب لحياته إلى نوتنجهام حيث أتاح نقص العمال لمنازله أن تركب . فلما حانت سنة ١٧٨٨ كان عددها فى بريطانيا قد بلغ عشرين ألفاً . وكانت عجلة الغزل بسببها إلى أن تصبح حلية رومانسية .

وفى ١٧٦٩ وفق رتشرد آركرايت بناء على اقتراحات ميكانيكيين شتى فى تطوير « إطار مائى » تستطيع قوة الماء بواسطته أن تحرك ألياف القطن

بين سلسلة متعاقبة من البكرات تجذب وتمد الألياف فتجعلها خيطاً أكثر إحكاماً وصلابة . وحوالى عام ١٧٧٤ جمع صموئيل كرومتن بين مغزل هارجريفز وبكرات آركرايت فى آلة هجين لقبها ظرفاء الانجليز « بغلة كرومتن » : فكانت حركة المغازل المتعاقبة إلى الخلف وإلى الإمام بالتناوب تمد الخيط وتفتله وتلفه فتجعله أرفع وأقوى ؛ وقد ظلت هذه الطريقة إلى وقتنا هذا المبدأ الذى تقوم عليه أعقد آلات الغزل والنسيج . وكانت المغزلة القديمة (الجنى) والإطار المائى يصنعان من الخشب ، أما البغلة فقد استخدمت البكرات والعجلات المعدنية بعد ١٧٨٣ ، وأصبحت من المتانة بحيث تحتمل سرعة التشغيل الآلى وضغطه .

وكانت الأنوال الآلية التى تشغل بالكرانك والأثقال تستعمل من قبل فى ألمانيا وفرنسا ، ولكن حدث فى ١٧٨٧ أن شيد إدموند كارترايت فى دونكاستر مصنعاً صغيراً شغل فيه عشرون نولا بقوة الحيوان المحركة . وفى ١٧٨٩ استبدل بهذا المحرك آلة بخارية . وبعد عامين اشترك مع بعض أصدقاء من مانشستر فى إنشاء مصنع كبير يدار فيه أربعمائة نول بالبخار . وهنا أيضاً ثار العمال ، فأحرقوا المصنع وسووه بالأرض وهددوا بقتل مؤسسيه . وبنيت فى العقد التالى أنوال آلية كثيرة ، حطم المشاغبون بعضها ونجا بعضها وتكاثر ، وانتصرت الآلات .

وكان مما أعان انجلترا على الصناعة توافر القوة المائية المتولدة من أنهار كثيرة يغذيها المطر الغزير . فأقيمت الطواحين والمصانع فى القرن الثامن عشر فى الريف أكثر مما أقيمت فى المدن على أنهار يمكن بناء سدود عليها تحدث مساقط للمياه لها من القوة ما يكفى لإدارة عجلات كبيرة . هنا قد يتساءل شاعر ألم يكن من الخير لو لم يحل البخار قط محل الماء قوة محركة ، وأن تختلط الصناعة بالزراعة فى الريف بدلا من أن تحشد فى المدن . ولكن وسيلة الإنتاج الأكثر فاعلية وربحاً تزيح الوسيلة الأقل ، وقد وعدت الآلة البخارية (التى تألقت هى أيضاً — إلى وقت قريب — بوهج رومانسى) بأن تنتج أو تنقل من السلع والذهب أكثر مما شهد العالم فى أ زمان مضى .

ولقد كانت الآلة البخارية ذروة الثورة الصناعية لاثمرة لها تماماً . ولا داعي للرجوع بالذاكرة إلى هيرو الاسكندرى (٢٠٠ م ؟) ، لأن دنتن بابين وصف جميع مكونات ومبادىء آلة بخارية عملية فى ١٦٩٠ . ثم صنع تومس سافرى مضخة يديرها البخار فى ١٦٩٨ . وطورها تومس نيوكومن (١٧٠٨ — ١٢) إلى آلة يكثف فيها تيار متدفق من الماء البارد البخارى المولد من الماء المحمى ، ويدفع فيها تناوب ضغط الهواء كباساً إلى أعلى وأسفل ؛ هذه « الآلة الهوائية » ظلت الآلة القياسية حتى حولها جيمس وات إلى آلة بخارية حقيقية فى ١٧٦٥ .

وكان وات بخلاف معظم مخترعى ذلك الجيل طالباً كما كان رجلا عملياً . كان جده معلم رياضيات ، وأبوه معمارياً وبناء سفن وقاضياً بلدة جرينوك فى جنوب غربى اسكتلنده . ولم يحظ جيمس بتعليم جامعى ، ولكنه كان ذا تطلع خـ ق واستعداد ميكانيكى . ويعرف نصف العالم قصته مع عمته التى وبخته قائلة « لم أر قط ولداً خاملا مثلك . . . فإنك لم تنطق بكلمة واحدة طوال هذه الساعة ، بل نزعت غطاء تلك الغلاية ، ثم أعدته إلى مكانه ، ثم أمسكت تارة قلنسوة وتارة ملعقة فضية فوق البخار ملاحظاً كيف يتصاعد من البزبوز ، وممسكاً بالقطرات محصياً إياها[١١] » . وفى القصة رائحة الأسطورة ، ولكن مخطوطاً خلفه جيمس وات بخط يده يصف تجربة فيها « ثبت الطرف المستقيم لأنبوب على بزبوز غلاية شاى » ، وجاء فى مخطوط آخر : « أخذت أنبوبة زجاجية ملوية وأدخلتها فى فم غلاية شاى ، وغمرت الطرف الآخر فى ماء بارد »[١٢] .

وحين بلغ وات العشرين (١٧٥٦) حاول أن يبدأ عمله فى جـ سجو صانعاً للأدوات العلمية . وأبت عليه نقابات حرف المدينة الرخصة بحجة أنه لم يكمل فترة التلمذة كلها ، ولكن جامعة جلاسجو أعطته ورشة داخل أرضها . واختلف إلى محاضرات الكيمياء التى يلقيها جوزيف بلاك ، وكسب صداقته ومساعدته ، واهتم خاصة بنظرية بلاك فى الحرارة الكامنة[١٣] .

ثم تعلم الألمانية والفرنسية والإيطالية ليقرأ الكتب الأجنبية بما فيها كتب الميتافيزيقا والشعر . وقد راع السير جيمس روبيسن تنوع معلوماته . وكان يعرفه فى تلك الآونة (١٧٥٨) . فقال « رأيت صانعاً ولم أتوقع أكثر من هذا . ولكنى وجدت فيلسوفاً »(١٤) .

وفى ١٧٦٣ طلبت إليه الجامعة أن يصلح نموذجاً من آلة نيوكومن كان يستعمل فى تدريس الفزياء . وأدهشه أن يجد ثلاثة أرباع الحرارة التى تمد بها الآلة تضيع هباء . فبعد كل ضربة كباس تفقد الأسطوانة الحرارة من جراء استعمال الماء البارد لتكثيف كمية البخار الجديدة التى تدخل الأسطوانة ، فقد كان قدر كبير من الطاقة يتبدد حتى حكم أكثر أصحاب المصانع بأن الآلة غير مجزية . واعتزم وات تكثيف البخار فى وعاء منفصل لا تؤثر درجة حرارته المنخفضة فى الأسطوانة التى يتحرك فيها الكباس . وزاد هذا « المكثف » كفاءة الآلة فى نسبة الوقود المستعمل إلى العمل المؤدى قرابة ثلاثمائة فى المائة . يضاف إلى هذا أن الكباس بفضل اصلاح وات للآلة أخذ بحركه تمدد البخار لا الهواء ؛ لقد صنع وات آلة بخارية لامراء فيها .

أما الإنتقال من الخطط والنماذج إلى التطبيق العملى فقد أفنى اثنى عشر عاماً من حياة وات . ولكى يصنع عينات ويحدث تحسينات متعاقبة فى آلته اقترض أكثر من ألف جنيه ، أكثرها من جوزف بلاك . الذى لم يفقد إيمانه به قط . وتنبأ جون سميتن ،وكان هو نفسه مخترعاً ومهندساً . بأن آلة وات لا يمكن «تعميم استعمالها أبداً لصعوبة تصنيع أجزائها بالدقة الكافية »(١٥) . وفى ١٧٦٥ تزوج وات . وكان عليه أن يكسب مزيداً من المال . فنحى اختراعه وعكف على أعمال المساحة والهندسة ، فرسم تصميمات الثغور والكبارى والقنوات . وخلال ذلك قدمه بلاك إلى جون روبك الذى كان يبحث عن آلة أكثر فاعلية من آلة نيوكومن لضخ الماء من مناجم الفحم التى تمد بالوقود مصانع الحديد التى يملكها فى كارون . وفى ١٧٦٧ وافق على أن يدفع ديون وات ويزوده برأس المال اللازم لصنع آلات طبق مواصفات وات . وذلك لقاء ثلثى الأرباح التى تتحقق من التركيبات

أو المبيعات . ورغبة فى حماية استثمارهما طلب وات فى ١٧٦٩ إلى البرلمان براءة اختراع تعطيه دون غيره حق إنتاج آلته ، فمنح البراءة حتى عام ١٧٨٣ . وأقام هو وروبك آلة بخارية قرب أدنبره ، ولكن صنعة الحدادين الرديئة تسببت فى فشلها ؛ وفى بعض الحالات كانت الأسطوانات التى صنعت لوات أكبر فى قطرها ثمن بوصة فى طرف منها فى الآخر .

وباع روبك نصيبه فى الشركة إلى ماثيو بولتن (١٧٧٣) بعد أن فتت النكسات فى عضده . وبدأ الآن ارتباط ملحوظ فى تاريخ الصداقة كما هو ملحوظ فى تاريخ الصناعة . ذلك أن بولتنى لم يكن مجرد إنسان يجرى وراء الربح ، فلقد بلغ اهتمامه بتحسين طرائق الإنتاج وميكانيكياته حداً أنفقه ثروته فى هذا السبيل . ففى ١٧٦٠ تزوج وهو فى الثانية والثلاثين من امرأة غنية ، وكان فى وسعه أن يتقاعد ويعيش على دخلها ، ولكنه بدلا من هذا بنى فى سوهو قرب برمنجهام مصنعاً من أكبر مصانع انجلترا ، يقوم بصنع أنواع كثيرة من الأدوات المعدنية من مشابك الأحذية إلى الثريات . وكان يعتمد على القوة المائية لتشغيل الآلات فى مبانى مصنعه الخمسة ثم اعتزم أن يجرب قوة البخار . وكان على علم بأن وات أثبت عدم كفاية آلة نيوكومن ، وأن آلة وات فشلت بسبب الأسطوانات التى ثقبت بغير دقة . فغامر مغامرة محسوبة مفترضاً أن هذا العيب يمكن التغلب عليه . وفى ١٧٧٤ نقل آلة وات إلى سوهو ، وفى ١٧٧٥ لحق بها وات . ومد البرلمان أجل البراءة من ١٧٨٣ إلى ١٨٠٠ .

وفى ١٧٧٥ أخترع كبير الحدادين ولكنسن قضيب ثقب أسطوانياً مجوفاً مكن بولتن ووات من إنتاج آلات ذات قوة وكفاية لم يسبق لهما نظير . وسرعان ما أخذت الشركة الجديدة تبيع الآلات البخارية لأصحاب المصانع والمناجم فى طول بريطانيا وعرضها . وقد زار بوزويل سوهو فى ١٧٧٦ وكتب يقول :

« لقد تفضل على مستر هكتور بمرافقتى لرؤية مصانع مستر بولتن الكبرى . . . وودت لو كان جونسن معنا ، لأنه كان مشهداً كان يسرنى

أن أتأمله على ضوء علمه . ولقد كانت ضخامة بعض الآلات وتعقدها خليقة بأن تكون قريباً لعقله الجبار . ولن أنسى ما حييت عبارة مستر بولتن التي قالها لى « إننى ياسيدى أبيع هنا ما يريد العالم كله أن يملكه — القوة المحركة » . وكان يشتغل بمصنعه نحو سبعمائة نفس . وقد رأيت فيه « زعيم قبيلة حديدياً ، وبدا أنه أب لقبيلته »(١٦) .

على أن آلات وات البخارية كانت لاتزال ناقصة ، وقد جاهد على الدوام لتحسينها . ففى ١٧٨١ سجل اختراعاً تحول فيه حركة الكباس المتناوبة إلى حركة دوارة ؛ مما جعل الآلة البخارية صالحة لإدارة المكنات العادية . وفى ١٧٨٢ سجل آلة بخارية ثنائية العمل ، يتلقى فيها طرفا الأسطوانة دفعين من الغلاية والمكثف . وفى ١٧٨٨ سجل اختراع « ضابط على شكل بلية طياره » ينظم تدفق البخار ليزيد من السرعة المتماثلة فى الآلة . وخلال سنوات التجريب هذه كان مخترعون آخرون يصنعون آلات منافسة ، وكان على وات أن ينتظر حلول عام ١٧٨٣ حتى تسدد مبيعاته ديونه وتبدأ فى أن تؤتى ثمراتها . فلما انتهت فترة براءته اعتزل العمل النشيط ، وواصل العمل فى شركة بولتن ووات أبناؤهما . وتسلى وات بالاختراعات الصغيرة ، واستمتع بشيخوخة رضية ، ومات ١٨١٩ وقد بلغ الثالثة والثمانين .

وكان هناك اختراعات أخرى كثيرة فى هذا العصر الزاخر الذى « يملك كل معلم صناعة فيه تقريباً اختراعاً جديداً من بنات أفكاره ، ويدخل كل يوم تحسينات على مخترعات غيره »(١٧) على حد قول الدين تكر . وتوصل وات نفسه إلى طريقة لاستخراج النسخ المطابقة باستعمال حبر غروى وضغط الصفحة المكتوبة أو المطبوعة على فرخ مبلل من الورق الرفيع (١٧٨٠) : وطبق أحد موظفيه المدعو وليم مردوك آلة وات البخارية على الجر ، وصنع نموذجاً لقاطرة سرعتها ثمانية أميال فى الساعة (١٧٨٤) ، وقاسم مردوك رجلا فرنسياً يدعى فليب لوبون أمتياز استعمال غاز الفحم فى الإضاءة ، وأنار بهذه الطريقة خارج مصنع سوهو (١٧٩٨)، والمنظر المحورى للاقتصاد الانجليزى فى نهاية القرن الثامن عشر هو منظر الآلة البخارية تقود المسيرة

وتزيد السرعة ، وتسخر نفسها للآلات فى عشرات الصناعات ، وتصرف مصانع الغزل والنسيج عن قوة الماء إلى قوة البخار (١٧٨٥ وما بعدها) ، وتغير وجه الريف ، وتغزو المدن ، وتحجب السماء بغبار الفحم وأبخرته ، وتختبىء فى أحشاء المراكب لتسبغ قوة جديدة على سيادة انجلترة على البحار .

واقتضى الأمر عنصرين آخرين لجعل الثورة تامة ، المصانع ورأس المال . وكانت مقومات الصناعة — وهى الوقود والقوة المحركة والمواد والآلات والعمال — تتعاون على خير وجه إذا جمعت فى مبنى أو مصنع واحد ، وفى تنظيم وضبط واحد ، تحت رئيس واحد . لقد كانت المصانع موجودة من قبل ؛ ولكنها الآن تكاثرت عدداً وحجماً لأن السوق الموسعة تطلبت الإنتاج المنتظم الواسع النطاق ، وأصبح « نظام المصنع » علماً على النظام الجديد فى الصناعة . فلما أصبحت الآلات الصناعية والمصانع غالية التكلفة ، قوى سلطان الرجال والمؤسسات القادرة على جمع رأس المال أو تقديمه ، وتسلطت المصارف على المصانع ، واتخذ المركب كله اسم الرأسمالية — وهو اقتصاد يسيطر عليه الممولون . أما وقد توافرت كل حوافز الاختراع والمنافسة ، وتحررت المشروعات الصناعية تحرراً متزايداً من قيود النقابات الحرفية والمعوقات التشريعية ، فإن الثورة الصناعية تهيأت لتشكل من جديد وجه بريطانيا وسماءها وروحها .

٣ — ملابساتها

كان على صاحب العمل والعامل كليهما أن يغيرا عاداتهما ومهاراتهما وعلاقاتهما . فأما صاحب العمل الذى أخذ يتعامل مع عمال لايفتأ عددهم فى ازدياد ، وفى دورة أسرع لرأس المال ، فقد فقد الصلة الحميمة بهم ، واضطر أن ينظر إليهم لا بوصفهم معارف عاكفين على عمل مشترك ، بل يشتغلون جزئيات فى عملية لايحكم عليها إلا بالأرباح . وكان معظم الحرفيين قبل ١٧٦٠ فى ورش النقابات أو فى بيوتهم حيث لاتكون ساعات العمل صارمة لاتلين ، وحيث يسمح بفترات للراحة ؛ وفى عهد أسبق كانت هناك عطلات دينية تحرم الكنيسة فيها كل عمل يأتى بربح . وعلينا ألا نتمثل حال الرجل

من عامة الشعب قبل الثورة الصناعية فى صورة مثالية ؛ ولكننا لانخطىء إذا قلنا أن المشاق التى تعرض لها آنئذ كانت تخفف منها التقاليد ، والتعود ، والهواء الطلق فى كثير من الحالات . فلما تقدم التصنيع خفف من عناء العامل تخفيض ساعات العمل ، وزيادة أجره ، واتساع قدرته على الحصول على نصيب من السلع التى ازداد تدفقها من الآلات . ولكن نصف القرن الذى حدث فيه الانتقال من الحرفة والبيت إلى المصنع بعد ١٧٦٠ ، كان لعمال انجلتره نصف قرن حافلا بالذل اللا إنسانى الذى كان أحياناً شراً من العبودية .

كان أكثر المصانع فى تلك الفترة يشترط اثنتى عشرة ساعة إلى أربع عشرة من العمل فى اليوم على مدى ستة أيام فى الأسبوع [١٨] . وكانت حجة أرباب العمل أنه لامفر من الاحتفاظ بالعامل ساعات طويلة لأنه لايمكن الاعتماد عليه فى الحضور بانتظام : ذلك أن عمالا كثيرين كانوا يسرفون فى الشراب يوم الأحد اسرافاً يعوقهم عن الحضور إلى المصنع يوم الإثنين ؛ وكان هؤلاء — بعد أن يشتغلوا أربعة أيام يلزمون بيوتهم فى الثلاثة الباقية . وقد فسر آدم سمث هذه الظاهرة فقال « أن الجهد المفرط خلال أربعة أيام من الأسبوع هو فى حالات كثيرة السبب الحقيقى للتبطل فى الأيام الثلاثة الباقية » ؛ ونبه إلى أن اطالة فترة العمل أو الزيادة فى سرعته قد تؤدى إلى الانهيار البدنى أو العقلى ؛ وأردف « أن الرجل الذى يعتدل فى العمل اعتدالا يمكنه من أن يعمل باستمرار لايحتفظ بصحته أطول من غيره فحسب بل أنه على مدى السنة يؤدى أكبر قدر من العمل » [١٩] .

أما الأجور الحقيقية فلا يمكن بالطبع قياسها إلا مرتبطة بالأسعار . ففى ١٧٧٠ كان رغيف الخبز الذى يزن أربعة أرطال فى نتنجهام يباع بنحو ستة بنسات ، ورطل الجبن أو لحم الخنزير بأربعة ، ورطل الزبد بسبعة . وقد حسب آدم سمث حوالى عام ١٧٧٣ متوسط أجر العامل اللندنى بعشرة شلنات ، وفى المراكز الأصغر بسبعة ، وفى إدنبره بخمسة [٢٠] . وقال آرثر يونج حوالى عام ١٧٧٠ أن الأجر الأسبوعى للعامل الصناعى الانجليزى

يتفاوت جغرافياً من ستة شلنات وستة بنسات إلى أحد عشر شلناً . وظاهر أن الأجور كانت أقل كثيراً بالنسبة للأسعار منها الآن ، ولكن بعض العمال اشتغلوا بعض الوقت بالعمل الزراعي . وبعد ١٧٩٣ ، حين بدأت انجلتره حربها الطويلة مع فرنسا الثائرة ، ارتفعت الأسعار بأسرع كثيراً من ارتفاع الأجور ، وبات الفقر مدقعاً .

وأوصى كثير من اقتصاديي القرن الثامن عشر بخفض الأجور حفزاً للتشغيل المتصل . وحتى أرثر يونج صرح بهذا الرأى ، وهو الذى أزعجه ما شهده من فقر فى بعض أقاليم فرنسا : « لا يجهل إلا أبله أنه لابد من الإبقاء على فقر الطبقات الدنيا وإلا لما نشطت أبدا »[٢١] . أو كما قال ج. سمث :

« من الحقائق التى يعرفها جيداً كل خبير بهذا الموضوع أن العوز ، إلى حد ما ، يحفز على الاجتهاد ، وأن الصانع (أى العامل اليدوى) الذى يستطيع العيش على شغل ثلاثة أيام ، سيظل متبطلا سكران بقية الأسبوع . ويمكننا على العموم أن نؤكد منصفين أن خفض الأجور فى صناعة الصوف سيكون بركة على الشعب ، وان يضار منه الفقراء حقيقياً . وبهذه الطريقة قد نصون تجارتنا ، وندعم دخولنا ، ونصالح الشعب بالإضافة إلى هذه المنافع »[٢٢] .

واستخدمت النساء والأطفال فى المصانع ، عادة لأداء العمليات التى لاتحتاج إلى مهارة . وكانت بعض النساجات الماهرات يتقاضين أجوراً لاتقل عن أجور أزواجهن ، ولكن الأجور العادية لعاملات المصانع بلغت فى المتوسط ثلاثة شلنات وستة بنسات — ولم تزد على نصف أجور العمال إلا فيما ندر[٢٣] . وكانت مصانع الغزل والنسيج وحدها فى ١٧٨٨ تشغل ٥٩.٠٠٠ امرأة و ٤٨٠٠٠ طفل[٢٤] . وكان السير روبرت بيل يستخدم نيفا وألف طفل فى مصانعه بلانكاشير[٢٥] . ولم يكن تشغيل الأطفال بدعاً فى أوربا ، فقد كان أمراً مسلماً به فى المزارع والصناعة الأسرية . وإذ كان التعليم العام أمراً لم يرض عنه المحافظون لأنه يفضى إلى فائض فى المتعلمين

وندرة فى العمال اليدويين ، فإن قلة قليلة جداً من الانجليز فى القرن الثامن عشر هى التى رأت ضيراً فى ذهاب الأطفال إلى المصنع بدلا من المدرسة . وحين كانت الآلات من البساطة بحيث يستطيع الأطفال أن يقوموا عليها ، رحب أصحاب المصانع بالغلمان والفتيات ذوى الأعوام الخمسة أو يزيد . وكان المسئولون فى الأبرشيات الذين ضاقوا بالإنفاق على الأيتام أو أطفال الفقراء يجهزونهم لرجال الصناعة مغتبطين ، أحياناً فى أفواج من خمسين أو ثمانين أو مائة ؛ وفى حالات عدة كانوا يشترطون أن يأخذ صاحب العمل طفلا معتوهاً واحداً فى كل عشرين طفلا[٢٦] . وكان يوم العمل العادى للعمال الأطفال يتراوح بين عشر ساعات وأربع عشرة . وكثيراً ماكانوا يسكنون جماعات ، وفى بعض المصانع كانوا يعملون فى ورديات من اثنتى عشرة ساعة ، بحيث ندر أن توقفت الآلات أوخلت الأسرة من شاغليها . وكان النظام يحفظ باللطم أو الركل . وقد وجد المرض ضحايا عاجزين عن درئه فى صبيان المصانع هؤلاء ؛ وكثير منهم أصابه العمل بتشوهات فى جسده أو الحوادث بعاهات مقعدة ، ومنهم من قتل نفسه . وكان فى بعض الرجال من رقة الشعور ما يكفى لذم تشغيل الأطفال هذا ، على أن هذا التشغيل تقلص لا لأن الناس أصبحوا أكثر رحمة ، بل لأن الآلات أصبحت أشد تعقيداً .

وأخضع الأطفال والنساء والرجال فى المصانع لظروف ونظم لم يعرفوها من قبل . وكانت المبانى فى حالات كثيرة تشيد على عجل دون توخ للمتانة ، مما أعان قطعاً على كثرة الحوادث وتفشى المرض . وكانت القواعد صارمة ، وانتهاكاتها تعاقب بغرامات قد تفقد العامل أجر يومه [٢٧] . وكانت حجة أرباب العمل أن العناية الواجبة بالآلات وضرورة التنسيق بين مختلف العمليات ، والعادات المتسيبة لسكان لم يألفوا النظام أو السرعة — كل هذا يتطلب ضبطاً صارماً إذا أريد ألا تقضى الفوضى والتبديد على الأرباح وترفع سعر المنتجات بحيث تخرجها من السوق فى داخل البلاد وخارجها . واحتمل العمال الانضباط لأن الصانع العاطل كان يواجه الجوع والبرد هو وأسرته ، وكان العامل المشتغل يعرف أن العمال العاطلين يتوقون

إلى أخذ وظيفته ، ومن ثم كان من مصلحة رب العمل أن يكون هناك «وعاء» من المتعطلين يأخذ منه البدائل للعمال المقعدين أو الساخطين أوالمرفوتين. وحتى العامل الكفء الحسن السير والسلوك كان يواجه الرفت إذا تشبعت السوق المتاحة بـ «إنتاج زائد» يفوق قدرتها الشرائية ، أو إذا وضع السلام نهاية لاستعداد الجيوش المبارك لطلب مقادير متزايدة من السلع واستهلاكها بأسرع ما يمكن »

وكان العمال فى ظل نظام النقابات الحرفية محميين بالأوامر النقابية أوالبلدية ، أما فى حركة التصنيع الجديدة فلم يجدوا حماية تذكر من القانون أو أى حماية إطلاقاً . وكانت دعوة الفزيوقراطيين لتحرير الاقتصاد من التنظيم قد تقدمت فى انجلتره كما تقدمت فى فرنسا ؛ وأقنع أصحاب الأعمال البرلمان بأنهم لايستطيعون مواصلة عملياتهم أو التصدى للمنافسة الأجنبية ما لم تترك الأجور لتحكمها قوانين العرض والطلب . وكان قضاة الصلح يحتفظون من قبل ببعض الأشراف على الأجور فى مصانع القرى ، أما فى المصانع بعد ١٧٥٧ ، فلم يكن لهم أى اشراف[٢٨] . ولم تر الطبقتان العليا والوسطى مبرراً للتدخل فى شئون أقطاب الصناعة ، وكان فيض الصادرات المتعاظم يفتح أسواقاً جديدة للتجارة البريطانية ؛ وكان الانجليز القادرون على الشراء مسرورين بوفرة المصنوعات .

ولكن العمال لم يصيبوا قسطاً من هذا الثراء فقد ظلوا — رغم تكاثر السلع بفضل الآلات التى يقومون عليها — فقراء عام ١٨٠٠ كما كانوا قبل قرن[٢٩] . ثم انهم لم يعودوا يملكون أدوات حرفتهم ، ولم يكن لهم نصيب يذكر فى تصميم السلعة المنتجة ، ولم ينالوا كسباً من توسع السوق التى يغذونها . وزادوا فقراً على فقر بمواصلة الأنجاب المرتفع الذى يؤتى ثماره فى المزرعة ؛ ووجدوا أكبر عزاء لهم فى الشراب والجنس ، وظلت نساؤهم يقومن بعدد من يلدن من الأطفال . وانتشر الفقر المدقع ؛ وارتفعت المصروفات المخصصة لإغاثة الفقراء من ٦٠٠,٠٠٠ جنيه فى ١٧٤٢ إلى ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه فى ١٧٨٤[٣٠] . ولم تستطع الزيادة فى الإسكان أن

تساير هجرة العمال الصناعيين أو تكاثرهم ، وكثيراً ما أكرهوا على العيش في مساكن متداعية تتزاحم في شوارع ضيقة كئيبة ؛ وعاش بعض العمال في أقباء زادت رطوبتها من أسباب المرض . ولم يحل عام ١٨٠٠ حتى كانت كل المدن الكبرى قد قامت فيها أحياء فقيرة مزدحمة باتت ظروف العيش فيها أسوأ من أي ظروف عرفت في تاريخ انجلتره السابق .

وحاول العمال تحسين ظروفهم بالمشاغبات أو الاضطرابات أو التنظيم ، فهاجموا المخترعات التي تهددهم بالبطالة أو العمل الشاق والأجر الحقير . وقرر البرلمان في ١٧٦٩ اعتبار تخريب الآلات جناية[٣١] . ولكن العمال في مصانع لانكاشير تجمعوا رغم ذلك عام ١٧٧٩ في حشد من الغوغاء تعاظم من خمسمائة رجل إلى ثمانية آلاف ؛ ثم جمعوا الأسلحة النارية والذخيرة ؛ وصهروا الأطباق البيوترية ليصنعوا منها الأعيرة . وأقسموا أن يدمروا كل آلة في انجلتره . وفي بولتن حطموا مصنعاً وأجهزته تحطيماً تاماً ؛ وفي أولدم اقتحموا عنوة مصنع نسيج روبرت بيل (أبي السير روبرت الوزير) ، وحطموا أجهزته الغالية . وكانوا في طريقهم للهجوم على مصنع آركرايت في كرامفورد حين لحق بهم الجنود المرسلون من لفربول ، ففروا للفور مدحورين . وقبض على بعضهم وحكم عليهم بالشنق . وعالل قضاة الصلح هذا بأن « تدمير الآلات في هذا البلد لن يكون إلا الوسيلة لنقلها إلى البلاد الأخرى . . . مما يؤذي تجارة بريطانيا[٣٢] . وطالب « صديق للفقراء » مجهول الهوية إلى العمال أن يتحلوا بمزيد من الصبر « أن كل التحسينات بواسطة الآلات ينجم عنها أول الأمر بعض المصاعب لأشخاص بعينهم . . . أو لم يكن أول أثر للمطبعة هو حرمان الكثير من النساخين من حرفهم ؟ »[٣٣].

وحرم القانون تأليف الاتحادات العمالية بهدف المساومة الجماعية ؛ ومع ذلك وجدت « جمعيات العمال المهرة » التي يرجع بعضها إلى القرن السابع عشر . وفي القرن الثامن عشر كثر عددها لاسيما بين صناع النسيج . وكانت أولا أندية اجتماعية أو جمعيات لتبادل المنافع ، ولكنها بتقدم القرن أصبحت أكثر عدواناً ، ونظمت أحياناً الاضرابات حين كان البرلمان يرفض

ملتمساتها . مثال ذلك أن السنتين ١٧٦٧ — ٦٨ شهدتا اضرابات للملاحين والنساجين وصانعى القبعات والخياطين وطاحنى الزجاج ؛ وصاحب العديد من هذه الاضرابات العمالية عنف مسلح من الطرفين[٣٤] . وقد أجمل آدم سمث النتائج حتى ١٧٧٦ :

« ليس من العسير أن نتكهن بانتصار أحد الفريقين حتماً » فى النزاع فى جميع الظروف العادية ، وإكراهه الفريق الآخر على الامتثال لشروطه ، فأرباب الأعمال يستطيعون لقلة عددهم أن يتكتلوا بأسهل كثيراً من العمال ، والقانون . . . لا يحرم تجمعاتهم ، فى حين يحرم تجمعات العمال . وليس لدينا قوانين برلمانية تمنع التكتل لخفض أجور العمال ، ولكن القوانين الكثيرة تمنع التكتل لرفعها . وفى جميع هذه النزاعات يستطيع أصحاب المصانع الصمود زمناً أطول بكثير . . . وكثير من العمال لايستطيعون العيش وهم متعطلون ولو أسبوعاً واحداً ، وقليلون يستطيعونه شهراً ونادر من يستطيعونه سنة »[٣٥] .

وأنفذ أصحاب العمل مشيئتهم سواء فى المصانع أو فى البرلمان ؛ ففى ١٧٩٩ قضى مجلس العموم بعدم شرعية أى اتحادات ترمى إلى الحصول على أجور أعلى أو إلى تغيير ساعات العمل ، أو إلى انقاص كمية العمل المطلوبة من العمال . ويعاقب العمال الداخلون فى تكتلات كهذه بالسجن ويؤمن المبلغون عن هؤلاء العمال[٣٦] .

٤ — عواقبها

كانت نتائج الثورة الصناعية هى تقريباً كل شىء تلاها فى انجلتره إذا استثنينا الأدب والفن ؛ وليس فى الاستطاعة إيفاء هذه النتائج حقها من الوصف إلا إذا كتبنا تاريخاً للقرنين الأخيرين . على اننا يجب أن نلفت النظر ولو إلى القمم البارزة لعملية التغير المستمرة والتى لم تنته بعد .

١ — تغير الصناعة نفسها بتكاثر المخترعات والآلات — وهى عملية من الكثرة بحيث تختلف طرائقنا الحاضرة فى إنتاج السلع وتوزيعها عن

طرائق عام ١٨٠٠ أكثر من اختلاف هذه عن الطرائق التى سادت قبلها بألفى عام .

٢ — انتقال الاقتصاد من النقابات الحرفية المنظمة والصناعات الأسرية إلى نظام الاستثمار الرأسمالى والمشروعات الحرة . وكان آدم سمث الصوت البريطانى للنظام الجديد ، وأسبغ بت الثانى على النظام التكريس الحكومى فى ١٧٩٦ .

٣ — تصنيع الزراعة — أى الاستعاضة عن المزارع الصغيرة بمساحات كبيرة من الأرض تدار رأسمالياً ، وتستخدم الآلات والكيمياء والقوة الميكانيكية على نطاق واسع لإنتاج الطعام والألياف لسوق قومية أودولية — هذا التصنيع ماض فى طريقه اليوم . والمزرعة التى كانت تفلحها الأسرة تنضم إلى النقابات الحرفية فى ركب ضحايا الثورة الصناعية .

٤ — تشجيع العلم وتطبيقه وبثه . وقد انصب التشجيع أولا على البحوث العملية ولكن الدراسات فى العلم البحت أفضت إلى نتائج عملية هائلة ، ومن ثم فقد مولت البحوث النظرية أيضاً ، وأصبح العلم هو الطابع المميز للحياة الحديثة كما كان الدين للحياة الوسيطة .

٥ — أعادت الثورة الصناعية (لانابليون كما توقع بيت الثانى) رسم خريطة العالم بضمانها سيادة بريطانيا على البحار وعلى أكثر المستعمرات جلباً للأرباح على مدى ١٥٠ عاماً . وقد عززت الأمبريالية لأنها حملت انجلتره — ثم غيرها من الدول الصناعية — على فتح أصقاع أجنبية تستطيع أن توفر الخامات أو الأسواق أو التسهيلات للتجارة أو الحرب . وأكرهت الشعوب الزراعية على التصنيع وتقوية نفسها عسكرياً لتحصل على حريتها أوتصونها ، وخلقت روابط اقتصادية أو سياسية أو حربية جعلت الاستقلال وهمياً والتكافل واقعياً .

٦ — غيرت انجلتره طابعاً وحضارة بتكثير سكانها ، وتصنيع نصفها ، وتحريكها شمالا وغرباً إلى مدن مجاورة لمناجم الفحم أو الحديد ، أو للطرق

المائية أو البحر ؛ وهكذا نمت ليدز وشفيلد ونيوكاسل وما نشستر وبرمنجهام وليفربول وبرستل . . . وقد حولت الثورة الصناعية مناطق شاسعة من انجلتره ، ومن غيرها من الدول المصنعة ، إلى بقع ملطخة من الأرض تنفث دخان المصانع وتختنق بالغازات والغبار ، وأرسبت الخبث البشرى فى أحياء قذرة مدخنة بائسة .

٧ — ميكنت الحرب ووسعتها وجردتها من الطابع الشخصى ورفعت قدرة الإنسان على التدمير أو القتل بدرجة هائلة .

٨ — فرضت تحسيناً وسرعة فى المواصلات والنقل وبهذا يسرت تكتلات صناعية أكبر وسهلت التحكم فى مناطق أوسع من رأس مال واحد .

٩ — ولدت الديمقراطية برفعها طبقة رجال الأعمال إلى مكانة الثراء المهيمن ، وإلى التفوق السياسى نتيجة تدريجية لذلك . ولأحداث هذا الانتقال الخطير للسلطة ورغبة فى حمايته ، جندت الطبقة الجديدة تأييد قطاع متزايد من الجماهير ، واثقة من أن فى الإمكان الاحتفاظ بولائها بالهيمنة على وسائل الإعلام وتلقين المبادىء . ولكن رغم هذه الهيمنة أصبح شعب الدول الصناعية أفضل الجماهير إعلاماً فى التاريخ الحديث .

١٠ — وإذا كانت الثورة الصناعية المتطورة تتطلب مزيداً من التعليم فى العمال والمديرين ، فإن الطبقة الجديدة مولت المدارس والمكتبات والجامعات على نطاق لم يحلم به أحد من قبل . وكان الهدف تدريب الذكاء التقنى ، وكانت الحصيلة الجانبية توسعاً لم يسبق له نظير فى الذكاء العلمانى .

١١ — نشر الاقتصاد الجديد السلع وأسباب الرفاهية بين نسبة من السكان تفوق كثيراً أى نظام سابق لأنه لم يكن من سبيل أمامه لصيانة إنتاجيته المطردة الارتفاع إلا بقوة شرائية مطردة الاتساع فى الشعب .

١٢ — أرهفت العقل الحضرى ، ولكنها بلدت الحس الجمالى ؛ وأصبحت مدن كثيرة قبيحة المنظر قبحاً يغم النفوس وفى النهاية أقلع الفن نفسه عن نشدان الجمال . وكان من آثار إسقاط الارستقراطية عن عرشها — زوال حفظة المعايير والأذواق وحكمتها ، وهبوط مستوى الأدب والفن .

١٣ — رفعت الثورة الصناعية أهمية الاقتصاد ووضعه ، وأفضت إلى التفسير الاقتصادى للتاريخ ، وعودت الناس على التفكير بلغة العلة والمعلول الماديين ، وأفضت إلى نظريات ميكانيكية النزعة فى علم الأحياء نحواها محاولة تفسير جميع عمليات الحياة على أنها أفعال ميكانيكية .

١٤ — تضافرت هذه التطورات فى العلم ، والنزعات الشبيهة بها فى الفلسفة ، مع الأحوال الحضرية والثراء المتسع ، على إضعاف العقيدة الدينية .

١٥ — غيرت الثورة الصناعية من الأخلاقية . إنها لم تغير طبيعة الإنسان ولكنها أعطت قوى وفرصاً جديدة لغرائز قديمة نافعة بدائياً ، مكدرة اجتماعيا . وأكدت حافز الكسب إلى حد بدا فيه مشجعاً ومكثفاً لأنانية الإنسان الفطرية . لقد كانت الغرائز غير الاجتماعية تجد كابحاً لجماحها فى سلطة الوالدين ، وفى التعليم الأخلاقى فى المدارس ، وفى التلقين الدينى . ولكن الثورة الصناعية أضعفت هذه الكوابح كلها . وكانت الأسرة فى النظام الزراعى هى وحدة الإنتاج الاقتصادى كما كانت وحدة الاستمرار العرقى والنظام الاجتماعى ؛ وكانت تعمل جماعة على الأرض خاضعة للنظام الذى يفرضه الأبوان والفصول ؛ وقد علمت التعاون وشكلت الخلق . أما النزعة الصناعية فقد جعلت الفرد والشركة هما وحدتى الإنتاج ، وفقد الأبوان والأسرة الأساس الاقتصادى لسلطتهما ووظيفتهما الأخلاقية . وإذ أصبح تشغيل الأطفال غير مجز فى المدن لم يعد للأطفال نفع اقتصادى . وانتشر ضبط النسل ، وأكثر انتشاره بين الأفراد الأكثر ذكاء ، وأقله بين الأقل ذكاء ، مما أحدث نتائج غير متوقعة للعلاقات العرقية والسلطة الثيوقراطية : وإذ حرر تحديد الأسرة والأجهزة الميكانيكية المرأة من هموم الأمومة وواجبات البيت ، فقد جذبت إلى المصانع والمكاتب ؛ وكان التحرير معناه التصنيع . وإذ استغرق الأبناء فترة أطول حتى يصلوا إلى الاعتماد على ذواتهم اقتصادياً فإن الفترة التى طالت بين النضج البيولوجى والاقتصادى جعلت العفة السابقة للزواج أشق ، وحطمت الناموس الأخلاقى الذى كان ممكناً فى المزرعة بفضل النضج الاقتصادى المبكر ، والزواج المبكر ، والعقوبات الدينية

ووجدت المجتمعات الصناعية نفسها منساقة على غير هدى فى فترة فاقدة لحس المسئولية الأخلاقية ، بين ناموس أخلاقى يحتضر وآخر جديد لم يتشكل بعد .

وما تزال الثورة الصناعية ماضية فى طريقها قدماً ، وليس فى قدرة عقل واحد أن يستوعبها فى جميع مظاهرها ، أو أن يصدر حكماً أخلاقياً على نتائجها . ولقد ولدت مقادير وأنواعاً جديدة من الجرائم ، وألهمت العلماء كل ما اتصف به المبعوثون الدينيون والراهبات من اخلاص وتفان ، وأنتجت المبانى القبيحة ، والشوارع الكئيبة ، والأحياء الفقيرة القذرة ، ولكن هذه لم تكن مستمدة من صميمها ، وهو احلال القوة المكنية محل الجهد البشرى . وهى الآن تهاجم شرورها ، لأنها وجدت أن الأحياء الفقيرة القذرة تكلف أكثر من التعليم ، وأن التخفيف من الفقر يثرى الأغنياء . وفى استطاعة المعمار الوظيفى والبراعة الميكانيكية — كما نرى فى الكبارى مثلا — أن يخلقا جمالا يزاوج بين العلم والفن . وأخذ الجمال يصبح مجزياً ، والتصميم الصناعى يتبوأ مكانه بين فنون الحياة وأسباب تجميلها .

* * *



الفصل الثامن والعشرون

المسرحية السياسية

١٧٥٦ — ٩٢

١ — البنية السياسية

كانت الثورة الصناعية أهم عملية أساسية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر فى انجلترا ، والصراع السياسى أكثر الدرامات اثارة فيها . فقد جعل عمالقة الخطابة الانجليزية — شاثام ، وبيرك ، وفوكس ،وشريدان — هؤلاء جعلوا مجلس العموم مسرحاً لصراعات مريرة خطيرة بين البرلمان والملك ، وبين البرلمان والشعب ، وبين انجلتره وأمريكا ، وبين ضمير انجلتره وحكام الهند الانجليز ، وبين انجلتره والثورة الفرنسية . وكان البناء السياسى اطار المسرحية وأداتها .

كانت حكومة بريطانيا العظمى ملكية دستورية ، بمعنى أن الملك كان يوافق ضمناً على أن يحكم وفق القوانين الراهنة والممارسات التقليدية ، وألا يضع قوانين جديدة دون موافقة البرلمان . أما الدستور فلم يكن وثيقة بل تراكماً للسوابق باستثنائين ، أولهما المجناكارتا الذى وقعه الملك يوحنا فى ١٢١٥ ، والثانى نشأ حين أرفق مؤتمر وستمنستر فى ١٦٨٩ (الذى عرض تاج انجلتره على وليم أورنج وزوجته مارى) بهذا العرض « قانونا يعلن حقوق وحريات الرعية ويسوى مسألة وراثة التاج » وقد أكد « قانون الحقوق » هذا كما سمى اختصاراً ، أن « سلطة وقف القوانين أو تنفيذالقوانين بأمر ملكى دون موافقة البرلمان غير قانونيه » وأن « جباية المال للتاج أو لاستعماله بدعوى الحق الملكى الخاص ، دون إذن البرلمان . . . عمل غير قانونى » ثم أردف : « ونظراً إلى الثقة الكاملة بأن . . . أمير أورنج سوف

يحميهم (أى البرلمان) من انتهاك حقوقهم التى أكدوها هنا ، ومن أى اعتداءات أخرى على دينهم وحقوقهم وحرياتهم ، فإن . . اللوردات الروحيين والزمنيين ونواب العموم . . يقررون أن يكون وليم وماري ، أمير وأميرة أورنج ، وأن ينادى بهما ملكاً وملكة على انجلتره وفرنسا وارلندة . » ومعنى هذا إن وليم الثالث ومارى الثانية بقبولهما العرش قبلا ضمنا القيود التى وضعتها أرستقراطية انجلتره المزهوة القوية على سلطة الملك بهذا التصريح. وحين عرض البرلمان فى « قانون تسوية » لاحق (١٧٠١) ، وبشروط معينة ، التاج على « الأميرة صوفيا » (الهانوفرية) وورثتها البروتستنت « افترض أنها هى وهؤلاء الورثة وافقوا بقبولهم العرش على « قانون للحقوق » سلبهم كل الحق فى وضع القوانين إلا بموافقة البرلمان . وبينما كانت جميع دول أوربا تقريباً حتى ١٧٨٩ يحكمها ملوك مستبدون يضعون القوانين ويلغونها ، كان لانجلتره حكومة دستورية امتدحها الفلاسفة وحسدها نصف العالم .

وقد قدر تعداد ١٨٠١[1] سكان بريطانيا العظمى بتسعة ملايين نسمة ينقسمون إلى الفئات التالية :

١ — فى القمة ٢٨٧ نبيلا ونبيلة زمنيين (علمانيين) بوصفهم رؤساء أسر مجموعها نحو ٧,١٧٥ شخصاً . وكان داخل هذه الفئة مراتب فى ترتيب تنازلى : أمراء الدم (الملكى) ، وأدواق ، وماركيزات ، وايرلات ، وفيكونتات ، وبارونات . وانحدرت هذه الألقاب إلى الإبن الأكبر جيلا بعد جيل .

٢ — ستة وعشرون أسقفاً — « لوردات روحيون » وكان من حقهم هم واللوردات الزمنيون الـ ٢٨٧ أن يجلسوا فى مجلس اللوردات . وقد ألف هؤلاء معاً — وجملتهم ٣١٣ أسرة — طبقة النبلاء الأصليين ، ويصح استعمال لقب « لورد » لهم جميعاً إلا الأدواق والأمراء . وكان من الممكن اكتساب نبالة دون ذلك رسمية ، ودون حق توريثها ، بفضل التعيين فى الوظائف العليا فى الحكومة أو الجيش أو البحرية ؛ ولكن كان المتبع عادة أن يعين فى هذه الوظائف أشخاص رفعوا إلى مقام النبالة من قبل .

٣ — نحو ٥٤٠ بارونتا ، وزوجاتهم ، يحق لهم أن يضعوا لقب « سير » و« ليدى » فى صدر أسمائهم الأولى ، وأن يورثوا هذين اللقبين .

٤ — نحو ٣٥٠ فارساً وزوجاتهم يحق لهم استعمال اللقبين السابقين ، دون توريثهما .

٥ — نحو ستة آلاف « سكواير » Squires (e) وهم الـ « gentry » أو الطبقة الكبرى من ملاك الأرض الرئيسيين . وكان البارونيتات ، والفرسان ، وهؤلاء الملاك ، وزوجاتهم ، يؤلفون « الطبقة الدنيا من النبلاء » ويندرجون بوجه عام هم وكبارهم فى الطبقة « الارستقراطية » .

٦ — نحو عشرين ألف « سيد » (جنتلمان « أو سيدة » (ليدى) يعيشون على دخول دون عمل يدوى ، لهم شعارات نبالة ، ومفروض أنهم من أصل كريم « gentle » — أى ولدوا فى مجموعة الأسر العريقة المقبولة « gens » .

٧ — وأسفل هؤلاء جميعاً جاءت بقية السكان ، الأكليروس الأدنى ، وموظفوا الدولة ، ورجال الأعمال ، والمزارعون ، وأصحاب المتاجر ، ومهرة الصناع ، والعمال ، والجنود ، والبحارة ، كذلك نحو ١٠٤,٠٠٠ من المعدمين الذين يتلقون المعونة من الدولة ونحو ٢٢٢,٠٠٠ من « المتشردين ، والغجر ، والأشرار ، واللصوص ، والمحتالين ، ومزيفى العملة البخسة ، داخل السجون أو خارجها ، وعامة البغايا» [٢] .

وقد هيمنت الطبقة الأرستقراطية على الحكومة ، دون أن تلقى من المقاومة إلا العارضة بفضل ثرائها (وقد أصاب النبلاء الـ ٢٨٧ تسعة وعشرين فى المائة من الدخل القومى فى ١٨٠١)[٣] ، وبروزها فى الوظائف العليا مدنية أو حربية ، وهيبة عراقتها ، وهيمنتها على الانتخابات البرلمانية والتشريع ، وكانت انجلترا من ناحية النظام الانتخابى مقسمة إلى أربعين اقليماً أو مقاطعة ريفية (Counties) و ٢٠٣ مدينة ذات ممثلين (boroughs) . وكان يستثنى من حق التصويت النساء ، والمعدمون ، والمجرمون المحكوم عليهم ، والكاثوليك الرومان ، والكويكرز ، واليهود ، واللاأدريون ، وغيرهم ممن

لايستطيعون حلف يمين الولاء لسلطان الكنيسة الانجليزية وعقائدها . ولم يكن حق التصويت للبرلمان مخولا فى الأقاليم إلا للملاك البروتستنت الذين يدفعون ضريبة سنوية قدرها أربعون شلناً ، ومجموعهم نحو ١٦٠,٠٠٠ . ولما كان التصويت علنياً ، فإن قليلين جداً من الناخبين كانوا يجرءون على تأييد أى مرشح غير الذى رشحه كبار ملاك الإقليم ، ومن ثم لم يكترث بالتصويت الا نفر قليل نسبياً من الناخبين ، وكان الكثير من الإنتخابات يتقرر بترتيب يتفق عليه الزعماء دون اقتراع على الإطلاق . وكان كبار ملاك الأرض يرون أن من الإنصاف لهم — وهم يراهنون بالكثير فى سياسة الحكومة ومصير الأمة — أن يكون تمثيلهم فى البرلمان متناسباً مع ثروتهم . وقد وافق على هذا الرأى معظم صغار الملاك .

أما المدن فقد تمثل فيها تنوع مربك من الأنماط الانتخابية . فى مدينة وستمنستر (وسط لندن حالياً) كان هناك نحو تسعة آلاف ناخب ، وفى مدينة لندن كما كانت مكونة آنئذ ستة آلاف ؛ وفى برستل خمسة آلاف ؛ ولم تضم أكثر من ألف ناخب سوى اثنتين وعشرين مدينة[٤] وفى اثنتى عشرة مدينة كان التصويت من حق جميع الذكور؛ وفى معظم المدن الباقية اقتصر على ذوى الأملاك ؛ وفى عدة مدن كان المرشحون ينتخبهم « تكتل » بلدى عرف بأنه « أوبلجركية حضرية من المحامين والتجار والسماسرة وصانعى الجعة ، تحصنت فى تكتل ينتخب ذاته ، وخولت له براعة ملكية الهيمنة وحده على أملاك المدينة »[٥]. وكان بعض هذه التكتلات يعطى صوته للمرشح (أو المرشحين) الذى يدفع راعيه (أو راعيهم) أغلى ثمن . فى ١٧٦١ أعلنت مدينة صدبرى صراحة عن بيع صوتها ؛ وفى الانتخاب التالى عرضت بلدية أكسفورد رسمياً أن تعيد انتخاب أعضائها فى البرلمان إذا دفعوا ديون البلدية [٦] . وكان امتياز اختيار المرشح فى بعض المدن يملكه بحكم العادة أفراد أو أسر معينة لاتسكن هناك بالضرورة ، وآية ذلك أن اللورد كاملفورد كان يفاخر بأنه لوشاء لاستطاع أن ينتخب ساقيه الزنجى للبرلمان[٧] . وكانت « دوائر الجيب » هذه تباع أحياناً كالسلع . فاشترى اللورد أجرمونت مدهرست ودفع فيها ٤٠,٠٠٠ جنيه[٨] وفى بعض « الدوائر

الفاسدة Rotten boroughs » كانت حفنة من الناخبين تستطيع أن تبعث إلى البرلمان نائباً أو أكثر فى حين لم يكن نصيب مدينة لندن غير أربعة . وحتى حين كان حق التصويت للجميع تقريباً وكان العامل الذى يحسم الانتخاب عادة هو الرشوة أو العنف أو إثمال الناخب العنيد بالخمر إلى درجة تعجزه عن الأدلاء بصوته [٩] . وقد سيطر ١١١ « راع » على الانتخابات بمختلف الوسائل فى ٢٠٥ مدينة[١٠] . وبلغ عدد الناخبين نحو ٨٥,٠٠٠ فى المدن ، و ١٦٠,٠٠٠ فى الأقاليم — والجملة ٢٤٥,٠٠٠ .

من هذه الانتخابات المتباينة جاء أعضاء مجلس العموم البالغ عددهم ٥٥٨ عضواً فى ١٧٦١ . فأرسلت أسكتلنده خمسة وأربعين ، وأقاليم انجلتره وويلز أربعة وتسعين ، والمدن ٤١٥ ، والجامعتين نائبين عن كل . وكان مجلس اللوردات يضم آنئذ ٢٢٤ من كبار النبلاء ، علمانيين أو روحيين ، وكان « الامتياز البرلمانى » يشمل حق البرلمان فى إقرار مشروعات القوانين المقدمة للتشريع ، وفى فرض الضرائب وبهذا يملك « قوة المال » ، وفى الحكم على مسوغات الأشخاص الذين يطالبون بقبولهم فى عضويته ، وأن يعاقب — بالسجن إن شاء — أى ضرر يلحق بأعضائه أو أى عصيان لقواعده ؛ وأن يتمتع بكامل حرية الكلام ، بما فى ذلك الحصانة من العقاب على الألفاظ التى يتفوه بها فى البرلمان .

أما انقسام الأعضاء إلى محافظين Tories وأحرار whigs فكان فى ١٧٦١ قد فقد تقريباً كل دلالة ، وكان الانقسام الحقيقى بين المؤيدين والمعارضين لـ « الحكومة » الحالية ، أو الوزراء ، أو الملك . وكان المحافظون بوجه عام يحمون مصالح ملاك الأرض ؛ والأحرار على استعداد بين حين وحين للنظر فى رغبات طبقة رجال الأعمال ؛ وفيما خلا ذلك كان كلا المحافظين والأحرار محافظين على السواء . ولم يشرع أحد الحزبين قوانين لمصلحة الجماهير .

والمشروع لايصبح قانوناً إلا إذا وافق عليه مجلسا البرلمان ووقعه الملك ، وكان الملك يملك « الحق الملكى الخاص » أى السلطات ، والامتيازات ،

والحصانات الممنوحة له بحكم العرف والقانون الانجليزيين . فكان له سلطات حربية : فهو القائد الأعلى للجيش والبحرية ، يستطيع اعلان الحرب ، ولكنه يحتاج إلى المخصصات البرلمانية ليخوضها ؛ ويستطيع المفاوضة لإبرام المعاهدة وعقد الصلح . وكان له بعض الحقوق التشريعية ، فهو يستطيع الامتناع عن الموافقة على مشروع أقره البرلمان — ولكن كان فى استطاعة البرلمان أن يحمله على الموافقة بما يملك من قوة المال ، وعلى ذلك لم يمارس ذلك الحق اطلاقاً بعد ١٧١٤ ؛ وكان يستطيع الإضافة إلى القوانين بالتصريح لم يمارس ذلك الحق اطلاقاً بعد ١٧١٤ ؛ وكان يستطيع الإضافة إلى القوانين بالتصريح أو بالأوامر الصادرة من مجلسه الخاص ، ولكنه لايستطيع تغيير القانون العام ، أو استحداث جريمة جديدة ؛ أما المستعمرات فيستطيع أن يشرع لها كما يشاء . وكان له سلطات تنفيذية . فله وحده أن يدعو البرلمان أو يؤجله أو يفضه ، وكان يعين الوزراء الذين يوجهون السياسة والإدارة . وكان بعض الضجة التى اصطخبت فى العقود الأولى (١٧٦٠ — ٨٢) من حكم جورج الثالث الذى امتد ستين عاماً يدور حول مدى حق الملك فى اختيار الوزراء وتقرير السياسة .

وقد ضيق حق الملك فى التشريع ولم يكن ممكناً جعل المشاريع التى يقترحها وزراؤه على البرلمان قانوناً إلا بإقناع مجلسى البرلمان كليهما بقبولها . وكان هذا يتم بالمساومات السياسية ، أو بالوعد بالمناصب أو المعاشات أو بقبضها ، أو بالرشوة (فى ١٧٧٠ كان أكثر من ١٩٠ عضواً فى مجلس العموم يملكون وظائف تعيين فى الحكومة) . أما الأموال والمكافآت التى تتطلبها هذه العمليات فكان أكثرها يأتى من « القائمة المدنية » للملك ، وهى حساب نفقاته لشخصه ولأسرته (المخصصات الملكية) ، ولبيوته وخدمه ، وللرواتب التى يدفعها ، وللمعاشات الممنوحة على سبيل المكافأة . وقد خصص البرلمان لجورج الثالث ٨٠٠,٠٠٠ جنيه فى العام لهذه القائمة المدنية ؛ ولكنه كثيراً ما تجاوز هذا المبلغ فى نفقاته ؛ وفى ١٧٦٩ أضاف البرلمان ٥١٣,٥١١ جنيهاً ، وفى ١٧٧٧ أضاف ٦١٨,٣٤٠ جنيهاً ليدفع الديون الملكية . وكان بعض مال الملك يستخدم فى شراء الأصوات فى الانتخابات البرلمانية[11] ،

وبعضه لشراء الأصوات فى البرلمان نفسه . وفى حالات كثيرة كانت الاعتمادات التى يوافق عليها البرلمان للخدمات السرية ترد إلى البرلمان على هيئة رشاوى. فإذا أضفنا إلى هذه التجارة الملكية المال الذى ينفقه فى الانتخابات أو التشريع « النوابون » العائدون إلى انجلتره بثروة جمعوها فى الهند ، أو رجال الأعمال الساعون إلى عقود حكومية أو إلى تفادى تدخل الحكومة ، اكتملت لنا صورة للفساد السياسى منقطعة النظير غربى الأودر ، تكشف عن طبيعة البشر كشفاً لا يشرح الصدور .

وينبغى أن نلاحظ هنا بعض التفاصيل الصغيرة للنظام البريطانى . فقد فرضت الضرائب على جميع ملاك الأرض كباراً أو صغاراً ، وربما كان هذا عاملا من عوامل الاحترام الذى أبداه عامة الشعب نحو طبقة النبلاء . ولم يسمح البرلمان بجيش دائم — بل سمح بمليشيا فقط ؛ وكان هذا عاملا صغيراً فى ثراء انجلتره المتفوق فى وقت كانت فرنسا تنفق فيه على جيش دائم عدته ۱۸۰,۰۰۰ مقاتل وبروسيا ۱۹۰,۰۰۰ ، وروسيا ۲۲٤,۰۰۰ . على أنه فى زمن الحرب كانت القوات المسلحة تجند دون هوادة سواء بالتطوع أو الإكراه ، وكانت انتهاكات الحرية الشخصية نتيجة لهذه العادة ، وألوان القسوة الموحشة فى حياة الجيش والبحرية ، أطيافاً قاتمة تلوث المسرح الانجليزى .

وفى رأى بلاكستون (حوالى ۱۷٦٥) أن بناء انجلتره السياسى كان خير ما سمحت به طبيعة الناس وتعليمهم فى تلك الحقبة . وقد استشهد بالرأى القديم القائل بأن خير أنواع الحكم ما جمع بين الملكية والارستقراطية والديمقراطية ، وقد وجد هذه كلها « مجتمعة اجتماعاً حسناً وموفقاً » فى الدستور البريطانى . يقول :

« فبما أن السلطة التنفيذية للقوانين عندنا مخولة لشخص فرد ، فإن لها كل مزايا القوة والنجاز التى توجد فى أكثر الملكيات استبداداً ؛ وبما أن تشريع المملكة موكول إلى سلطات متميزة ثلاث ، مستقلة كل الاستقلال بعضها عن بعض ؛ أولا الملك ، ثانياً اللوردات الروحيين والزمنيين الذين

يؤلفون مجلساً أرستقراطياً من أشخاص اختيروا لتقواهم أو عراقتهم أو حكمتهم أو بسالتهم أو ثرائهم ؛ ثالثاً مجلس العموم الذى يختاره أفراد الشعب اختياراً حراً من بينهم ، مما يجعله نوعاً من الديمقراطية ؛ وبما أن هذه الهيئة الكلية التى تحركها مختلف الدوافع والتى تعنى بمختلف المصالح . . . لها التصرف الأعلى فى كل شيء ، فلا يمكن أن يكون هناك عمل مزعج يحاوله أى فرع من الفروع الثلاثة إلا حال دونه الفرعان الآخران ؛ لأن كل فرع مسلح بسلطة سلبية تكفى لصد أى بدعة تراها غير لائقة أو خطرة . هنا إذن تكمن سيادة الدستور البريطانى ، وتكمن على خير ما يمكن للمجتمع[١٢] .

وقد تبتسم لنزعة المحافظة المشوبة بحب الوطن لفقيه قانونى شامخ ينظر إلى الأمر من موقعه العالى المريح ، ولكن أغلب الظن أن حكمه كانت تكرسه تسعون فى المائة من الشعب الانجليزى أيام جورج الثالث .

٢ — أبطال الدراما

كان أشخاص الدراما من أشهر من حواهم التاريخ الانجليزى . فعلى القمة جورج الثالث الذى تربع على العرش طوال الأعوام المنحوسة (١٧٦٠ — ١٨٢٠) التى مرت بانجلتره خلال الثورتين الأمريكية والفرنسية وحروب نابليون . وكان أول الملوك الهانوفريين المولودين فى انجلتره ، أول من نظر إلى نفسه كرجل انجليزى ، وأول من استغرقه الاهتمام بالشئون الانجليزية . وهو حفيد جورج الثانى ، وابن فردريك لويس أمير ويلز العتيد الذى كان قد مات فى ١٧٥١ . وكان ملك المستقبل جورج الثالث آنئذ فى الثانية عشرة من عمره . وخافت عليه أمه ، أوجستا أميرة ساكسى — جوتا من « شباب الطبقة العليا الأراذل سيء التربية » الذين كانت تلقاهم ، فعزلته عن مثل هذه المعاشرات ، ونشأته — واحداً من ثمانية أطفال — فى عزلة مانعة عن الألعاب والأفراح والضجيج والتفكير فى أترابه وفى جيله . ومن ثم شب هياباً ، كسولا ، متديناً ، سيء التعليم ، تعساً . وقد قال لأمه اللوامه » لو أننى رزقت ولداً لما جعلته تعساً كما تجعليننى[١٤]» . وقد بثت فيه احتقارها لجده لأنه أطاق تسيد البرلمان ، وكانت تردد على مسامعه المرة بعد المرة ، «كن ملكاً يا جورج ! » — وأهابت به أن ينتزع قيادة الحكم النشيطة من جديد .

وهناك رواية متواترة كثيراً ما يشوبها الشك تنسب إلى الفتى شرف التأثر بكتاب بولنجبروك « مفهوم الملك الوطنى » (١٧٤٩) الذى حث الحكام على « أن يحكموا ولا يكتفوا بأن يملكوا » وأن يسنوا القوانين لتحسين الحياة الانجليزية [١٥] (مع « السماح للبرلمان بأن يحتفظ بالسلطات التى يملكها » . وقد وصف اللورد وولد جريف جورج فى عام ١٧٥٨ ، وكان أحد معلميه ، بأنه « أمين غاية الأمانة ، ولكنه يفتقد ذلك السلوك الصريح المفتوح الذى يجعل الأمانة صفة محببة . . . وهو لا يفتقر إلى العزيمة ، ولكنها مشوبة بعناد شديد . . . وفى طبعة ضرب من الشعور بالتعاسة . . . مما سيكون مصدراً لقلق دائم »[١٦] . وقد لازمته هذه الصفات إلى نهاية الحقبة التى كان عقله فيها سليماً .

وبعد أن مات أبو جورج وثقت الأرملة صداقتها بجون ستيوورت ، ايرل بيوت ، أمين الأرواب فى البيت الأميرى . وكان بيوت فى الثامنة والثلاثين فى ١٧٥١ ، متزوجاً منذ خمسة عشر عاماً بمارى ورتلى مونتجيو ابنة الليدى مارى مونتجيو الشهيرة . وفى الأعوام الأخيرة السابقة لارتقاء جورج العرش اتخذ بيوت كبيراً لأمنائه ومعلميه . وكان معجباً بعلم هذا الاسكتلندى ونزاهته ، وتقبل مشورته شاكراً ، ولقى منه التشجيع على اعداد نفسه للقيادة العدوانية فى الحكم . وحين خطر للأمير الشاب أن يعرض الزواج على حسناء فى الخامسة عشرة تدعى الليدى ساره لينوكس ، أذعن فى حزن ولكن فى محبة لنصح بيوت بوجوب زواجه من أميرة أجنبية تعينه على دعم تحالف سياسى نافع . وكتب إليه يقول « انى أسلم مستقبلى بين يديك ، وأمنه نفسى من التفكير حتى فى غرامى الحبيب ، وأجتر حزنى فى صمت ، دون أن أكدرك بعد اليوم اطلاقاً بهذه القصة التعسة ؛ لأنه لو فرض على الخيار بين فقد صديقى أو حبيبتى ، لضحيت بالأخيرة يقيناً ، لأننى أقدر صداقتك فوق أى متعة أرضية »[١٧] وقد أخذ جورج بيوت معه حين ارتقى العرش .

وشهد ملكه خطوباً وكوارث من أفجع ما منيت به انجلترا فى تاريخها ، وعليه وقع جانب من التبعة . ومع ذلك كان هو ذاته دون ريب رجلا مسيحياً ،

وإنساناً مهذباً عادة ، قبل لاهوت الكنيسة الإنجلكانية ، وتمسك بطقوسها فى إخلاص وتواضع ، ووبخ واعظاً للبلاط امتدحه مرة فى عظة . وقد حاكى خصومه السياسيين فى استعمال الرشوة ، وبز معلميه فى هذا المضمار ، ولكنه كان مثالا فى الفضيلة فى حياته الخاصة . وفى جيله الذى اشتهر بالإباحية الجنسية أعطى انجلتره قدوة فى الوفاء الزوجى كانت النقيض لخيانات أسلافه وانحرافات أخوته وأبنائه . وكان آية فى اللطف والعطف فى كل شيء إلا الدين والسياسة ، بسيط العادات والميول وإن كان مسرفاً فى العطاء . وقد منع القمار فى بلاطه ، وكد وكدح فى الحكم بعزيمة صادقة ، فكان يهتم بالتفاصيل الدقيقة ، ويبعث بتعليماته لمساعديه ووزرائه مراراً كل يوم . ولم يكن بيورتانيا متزمتاً مكتئباً ، فقد أحب المسرح والموسيقى والرقص . ولم تعوزه الشجاعة : فقد حارب خصومه السياسيين بعناد طوال نصف قرن ؛ وواجه جمهوراً عنيفاً من الرعاع ببسالة فى ١٧٨٠ ، واحتفظ برباطة جأشه خلال محاولتين للاعتداء على حياته . وقد أقر فى صراحة بعيوب تعليمه ، وظل إلى النهاية بريئاً نسبياً من الأدب والعلم والفلسفة . وإذا كان ضعيف العقل بعض الشيء فلعل ذلك مرده التواء فى الجنينات أو إهمال فى معلميه ، كما كان مرده مئات الضغوط التى تكتنف الملك .

ومن مآخذه أنه كان يغار من الأكفاء النزاعين إلى الاستقلال برأيهم ويشك فيهم . فلم يستطع قط أن يغتفر لوليم بت الأول ما شعر به من تفوق فى الرؤية والفهم السياسيين ، وفى نفوذ الحكم ، وفى قوة الخطابة وبلاغتها. وقد سبق أن رأينا[١٨] سيرة هذا الرجل الفذ منذ دخوله البرلمان (١٧٣٥) حتى انتصاره فى حرب السنين السبع . وكان فى استطاعته أن يكون متغطرساً عنيداً — أكثر كثيراً من جورج الثالث ؛ فقد شعر أنه هو الحارس الحقيقى للإمبراطورية التى خلقت تحت قيادته ؛ فلما التقى الملكان — الملك الإسمى والملك الفعلى — تلا اللقاء صراع بينهما على العرش . وكان بت رجلا نزيهاً لم تلوثه الرشوة التى استشرت من حوله ، ولكنه لم يفكر فى السياسة إلا بلغة المنعة القومية ، ولم يسمح لأى عاطفة رحمة أن تثنى عزمه على احراز التفوق الأعظم لانجلتره . وقد لقب « العامى العظيم » لا لأنه فكر فى تحسين ظروف

وأحوال عامة الشعب بل لأنه كان أعظم رجل فى مجلس العموم ؛ على أنه انبرى للدفاع عن الأمريكيين وشعب الهند ضد ظلم الانجليز وكان كالملك يكره النقد « غير مبال للنسيان أو الصفح » (١٩) وكان يأبى أن يخدم الملك إلا إذا استطاع أن يسيطر عليه ، وقد استقال من الوزارة (١٧٦١) حين أصر جورج الثالث على انتهاك اتفاق انجلتره مع فردريك وعقد صلح منفرد مع فرنسا . وإذا كان قد قهر فى النهاية فإن العدو الذى قهره لم يكن غير النقرس .

ويضارع تأثير بت فى السياسة الانجليزية تأثير إدموند بيرك فى الفكر الانجليزى . وقد اختفى بت من المسرح فى ١٧٧٨ ، وظهر عليه بيرك فى ١٧٦١ ، وظل يشد انتباه المثقفين من الانجليز فى فترات متقطعة حتى عام ١٧٩٤ ، وربما كان مولده فى دبلن (١٧٢٩) لأحد المحامين عقبة فى طريق كفاحه للمنصب والسلطة السياسيين ، فهو لم يكن انجليزياً إلا بالتبنى ، ولا عضواً فى أى أرستقراطية إلا أرستقراطية الذهن . ولا بد أن كثالكة أمه وأخته كان لها دخل فى عطفه طوال حياته على كاثوليك انجلتره وايرلنده ، وتأكيده الذى لا ينى على الدين بوصفه حصناً لا غنى عنه للأخلاق والدولة . وقد تلقى تعليمه المدرسى فى مدرسة للكويكر فى باليتور ، وفى كلية ترنتى بدبلن . وتعلم من اللاتينية ما يكفى للإعجاب بخطب شيشرون وجعلها الأساس لأسلوبه البلاغى .

وفى ١٧٥٠ انتقل إلى انجلتره ليدرس القانون فى « مدل تميل » . وقد امتدح القانون فيما بعد لأنه (علم يعين على شحذ الفهم وتنشيطه أكثر من جميع ألوان المعرفة مجتمعة» ولكنه ذهب إلى أنه « لا يصلح لفتح مغاليق العقل وتحريره بذات القدر بالضبط ، اللهم إلا فى أشخاص محظوظى المولد »(٢٠) وحوالى ١٧٧٥ قبض أبوه عنه الراتب الذى يمده به بحجة أنه يهمل دراسة القانون مؤثراً عليها هوايات أخرى . ويبدو أن ادموند كان قد هوى الأدب ، وكان يختلف إلى مسارح لندن وأنديتها الخطابية ، وسرت أسطورة زعمت أنه هام بالممثلة الشهيرة بيج ووفنجتن . كتب إلى صديق

فى ١٧٥٧ يقول : « لقد كسرت كل قاعدة ، وأهملت كل لياقة » ، ووصف « أسلوب حياته » بأنه تتنوع فيه مختلف الخطط ، فأنا فى لندن ، وأنا فى أنحاء نائية من الريف ، وأنا آخر فى فرنسا ، وعما قريب فى أمريكا أن استجاب لى الله » . وفيما خلا هذا لا نعرف عن بيرك شيئاً فى سنى الاختبار والتجريب تلك ، اللهم إلا أنه فى ١٧٥٦ ، فى تعاقب غير مؤكد ، نشر كتابين رائعين وتزوج .

وأحد الكتابين عنوانه « دفاع عن المجتمع الطبيعى ، أو نظرة إلى ألوان الشقاء والشر التى يجرها على البشر كل نوع من أنواع المجتمع الاصطناعى ، خطاب إلى اللورد — بقلم كاتب نبيل متوفى » . والمقال الذى بلغت صفحاته نحو خمس وأربعين ، هو فى عنوانه ادانة قوية لكل أنواع الحكم . فيه من النزعة الفوضوية أكثر كثيراً مما فى مقال روسو « الأصل فى عدم المساواة » الذى ظهر قبل ذلك بسنة فقط . وقد عرف بيرك المجتمع الطبيعى بأنه « مجتمع أساسه الرغبات والغرائز الفطرية لا أى نظام وضعى »[٢١] . « فتطور القوانين كان انحطاطا »[٢٢] ، وما التاريخ إلا سجلا للمجازر والغدر والحرب[٢٣] ، والمجتمع السياسى متهم بحق بأكبر قسط من هذا الدمار »[٢٤] . وكل الحكومات تتبع المبادىء المكيافللية ، وترفض كل الضوابط الأخلاقية ، وتعطى المواطنين مثالا مفسداً للجشع والخديعة واللصوصية والقتل[٢٥] . والديمقراطية فى أثينا وروما لم تأت بعلاج لشرور الحكم ، لأنها سرعان ما انقلبت دكتاتورية بفضل قدرة زعماء الدهماء على الظفر بإعجاب الأغلبيات الساذجة . أما القانون فهو الظلم مقنناً ، فهو يحمى الأغنياء المتبطلين من الفقراء المستغلين[٢٦] ، ويضيف إلى ذلك شراً جديداً — هو المحامون[٢٧] « لقد أحال المجتمع السياسى الكثرة ملكاً للقلة » . فانظر إلى حال عمال المناجم فى انجلتره ، وفكر ملياً أكان من الممكن أن يوجد شقاء كشقائهم فى مجتمع طبيعى — أى قبل وضع القوانين — أفينبغى رغم ذلك أن نقبل الدولة ، كما نقبل الدين الذى يساندها ، على أنها قد استلزمتها طبيعة الإنسان ؟ كلا على الإطلاق .

« ان كانت نيتنا أن نخضع عقلنا وحريتنا للاغتصاب المدنى ، فإنه لا سبيل أمامنا إلا الامتثال بكل ما نستطيع من هدوء للأفكار والتصورات السوقية (الشعبية) المرتبطة بهذا ، واعتناق لاهوت السوقة وسياستهم سواء بسواء أما إذا رأينا هذه الضرورة وهمية لا حقيقية ، فإننا سننبذ أحلامهم عن المجتمع كما ننبذ رؤاهم عن الدين ، ونحرر أنفسنا حرية كاملة »[٢٩] .

وفى هذا رنين شجاع وإخلاص غاضب من راديكالى شاب ، فتى متدين روحاً ولكنه يرفض اللاهوت المقرر ، شديد الإحساس بما رأى فى انجلترە من فقر وانحطاط ، وصاحب موهبة واعية بذاتها ولكنها لم تزل بغير مكان ولا مقام فى خضم العالم . وكل فتى يقظ يمر بهذا الطور فى طريقه إلى المنصب ، والثراء ثم النزعة المحافظة المرتاعة التى سنجدها فى كتاب بيرك « تأملات فى الثورة فى فرنسا » . ونلاحظ أن مؤلف « الدفاع » تخفى وراء اسم مجهول ، حتى إلى حد ادعاء الموت . وقد فهم كل القراء تقريباً ، بما فيهم وليم وربرتن وايرل تشسترفيلد الكتيب على أنه هجوم صادق على الرذائل الشائعة[٣٠] ، ونسبه الكثيرون إلى الفيكونت بولنجيروك ، لأن عبارة « كاتب نبيل متوفى » تنطبق عليه إذ كان قد مات عام ١٧٥١ . وبعد نشر المقال بتسع سنوات رشح بيرك نفسه للانتخاب فى البرلمان . وخشى أن تؤخذ فورة أيام الشباب حجة عليه ، فأعاد طبع المقال فى ١٧٦٥ بمقدمة جاء فى قسم منها « أن الغرض من القطعة الصغيرة التالية كان أن تبين أن . . . الأدوات (الأدبية) ذاتها التى استخدمت لتدمير الدين قد تستخدم بنجاح مماثل لقلب الحكومة »[٣١] . وقد قبل معظم كتاب سيرة بيرك هذا التفسير على أنه تفسير صادق مخلص ، ونحن لانستطيع أن نوافقهم على رأيهم ، ولكنا نستطيع أن نفهم جهد المرشح السياسى لحماية نفسه من تحامل الشعب. فمن منا يكون له مستقبل لوعرف ماضيه ؟

ويعدل « الدفاع » بلاغة ويفوقه حذقاً وبراعة مؤلف بيرك الآخر الذى نشره فى ١٧٥٦ وعنوانه « تحقيق فلسفى فى أصل الجليل والجميل » ، وقد أضاف إليه فى طبعة ثانية « مقال فى الذوق » ولسنا نملك إلا الإعجاب

بشجاعة الشاب ذى السبعة والعشرين عاما الذى عالج هذه الموضوعات المحيرة قبل « لاوكون » لسبنج بعقد كامل . ولعله استرشد باستهلال الجزء الثانى من كتاب لوكريتويس عن « الطبيعة » الذى نصه « يطيب لك حين تلطم الرياح الأمواج فى خضم عجاج أن تشهد من البر ما يكابده إنسان آخر من عنت شديد ، لا لأنه مبعث بهجة أن تشهد شدة أى إنسان ، بل لأنه جميل أن ترى من أى الشرور أنت نفسك قد نجوت» . ومن ثم يكتب بيرك : « ان العواطف المشبوبة التى تنتمى لحفظ الذات تدور حول الألم والخطر ؛ فهى ببساطة عواطف مؤلمة حين تؤثر أسبابها فينا تأثيراً مباشراً ، وهى مبهجة حين يكون لدينا فكرة عن الألم والخطر دون أن نكون فعلا فى ظروف كهذه . . . وكل ما يثير هذا الابتهاج أسميه جليلا» . ويلى ذلك أن « كل الأعمال المتسمة بالعظيم من الجهد والنفقة والبهاء جليلة . . وكذلك كل الصروح الفائقة الغنى والأبهة . . . لأن العقل وهو يتأملها يطبق أفكار عظم المجهود اللازم لإنتاج مثل هذه الأعمال على الأعمال ذاتها »[٣٢] . والغموض والظلام والخفاء كلها تعين على انبعاث إحساس بالجلال ، ومن هنا حرص معمارى العصر الوسيط على ألا يسمحوا إلا للضوء الخافت المصفى بالتسلل إلى كتدرائياتهم . وقد أفاد القصص الروما نتيكى من هذه الأفكار كما نرى فى قصة هوراس ولبول « قلعة أوترانتو» (١٧٦٤) أو قصة آن رادكلف « خفايا أودلفو » (١٧٩٤) .

يقول بيرك « ان الجمال اسم سأطلقه على كل صفات فى الأشياء تثير فينا إحساساً بالمحبة والحنان ، أو أى عاطفة حارة أخرى قريبة الشبه بهما[٣٣] . وقد رفض رد الكلاسيكيين هذه الصفات إلى الانسجام والوحدة والتناسب والتماثل ؛ فكلنا نتفق على أن البجعة جميلة مع أن عنقها الطويل وذيلها القصير غير متناسبين مع جسمها . والجميل يكون عادة صغيراً (وبهذا يكون نقيضاً للجليل) .

« لست أتذكر الآن شيئاً جميلا لا يتصف بالنعومة »[٣٤] ، فالسطح المكسر أو الخشن ، والزاوية الحادة أو النتوء الفجائى ، كلها تضايقنا وتحد من سرورنا حتى فى أشياء تكون جميلة لولا هذا « ومظهر الغلظ والقوة

مؤذ جداً للجمال . أما مظهر الرقة ، لا بل الهشاشة ، فيكاد يكون أساسياً للجمال »[٣٥] . واللون يزيد من الجمال لا سيما إذا كان متنوعاً مشوقاً ، دون أن يكون وهاجاً أو قوياً . . . ولم يسأل بيرك هل المرأة جميلة لأنها صغيرة الحجم ناعمة رقيقة مشرقة ، أم أن هذه الصفات تبدو جميلة لأنها تذكرنا بالمرأة ، التي هي جميلة لأنها تشتهى .

على أية حال كانت جون نوجنت مشتهاة ، فتزوجها بيرك فى سنة ١٧٥٦ المثمرة هذه . وكانت ابنة طبيب إرلندى . وكانت كاثوليكية ، ولكنها لم تلبث أن ارتضت الإنجليكانية مذهباً . وقد لطف طبعها الدمث الرقيق من مزاج زوجها الغضوب .

وفتحت الأبواب أمام بيرك بفضل تأثير أسلوب « الدفاع » و« التحقيق » ان لم يكن تأثير حججهما . فعينه مركيز روكنجهام سكرتيراً له ، رغم أن دوق نيوكاسل حذره قائلا ان بيرك إرلندى متوحش ، وستيوارتى ، وبابوى ويسوعى مستخف[٣٦] . وفى أواخر عام ١٧٦٥ أنتخب بيرك لعضوية البرلمان عن دائرة وندوفر بفضل نفوذ اللورد فيرنى ، « الذى كان يمتلكها »[٣٧] . وفى مجلس العموم اشتهر العضو الجديد بأنه خطيب مفوه وان لم يكن مقنعاً . كان صوته أجش ، ولهجته هيبرنية (أى إرلندية) ، وإيماءاته تعوزها الرشاقة ، ونكته سوقية أحياناً ، واتهاماته حارة مشبوبة فى غير موجب . ولم يدرك الناس — إلا حين قرءوا له — انه انما يخلق أدباً وهو يتكلم — وذلك بفضل تمكنه من اللغة الانجليزية ، وأوصافه الناصعة ، وسعة معرفته وشروحه ، وقدرته على تطبيق الرؤية الفلسفية على قضايا الساعة . ولعل هذه المزايا كانت معوقات فى مجلس العموم . ويروى لذ جولد سمث أن بعض سامريه «كانوا يحبون أن يروه يتسلل كالثعبان إلى موضوعه »[٣٨] ولكن كثيرين غيرهم ضاقوا ذرعاً بأسرافه فى التفاصيل ، وباستطراداته النظرية ، وبخطبه المنمقة ، وبجمله المتكررة الضخمة ، وبتحليقاته فى أجواء التأنق الأدبى ؛ فهم يريدون الاعتبارات العملية

والموضوعية المباشرة ؛ لقد امتدحوا بيانه ، ولكنهم تجاهلوا نصيحته . ومن ثم نرى جونسن يرد على بوزويل الذى شبه بيرك بالصقر فيقول : « أجل يا سيدى ولكنه لا يصيد شيئاً »[٣٩] وقد ظل إلى نهاية حياته العملية تقريباً يدافع عن سياسات لا يسيغها الشعب ، ولا الوزارة ، ولا الملك . قال : « أنا عليم بأن الطريق الذى أسير فيه ليس طريق الترقى إلى المنصب الرفيع »[٤٠] .

ويبدو أنه خلال سنوات تسلقه قرأ كثيراً وقرأ بفطنة وتمييز . وقد وصفه أحد معاصريه بأنه موسوعى يفيد كل إنسان من ذخيرته العلمية . وقد أثنى عليه فوكس ثناء لا حد له إذ قال : « لو أنه (أى فوكس) وضع فى كفة كل المعلومات السياسية التى تعلمها من الكتب ، وكل ما اكتسبه من العلم ، وكل ما علمته الخبرة بالدنيا وشئونها ، ثم وضع فى الكفة الأخرى الفائدة التى اكتسبها من تعليم صديقه المبجل وحديثه ، لاحتار أيهما يفضل »[٤١] أما جونسن — وهو الضنين بالمدح عادة — فقد اتفق مع فوكس فقال : « لن تستطيع الوقوف خمس دقائق مع ذلك الرجل تحت ظلة أثناء المطر ، ولكنه لابد مقتنع بأنك كنت تقف مع أعظم رجل رأيته فى حياتك »[٤٢] .

وقد انضم بيرك إلى ندوة جونسن — رينولدز حوالى عام ١٧٥٨ . ونذر أن التحم فى نقاش مع المناظر الذى لا يقهر ، ربما لأنه كان يخشى من حدة طبعه هو كما يخشى من حدة طبع جونسن ؛ ولكنه حين فعل ، نكص « الخان الأكبر » (جونسن) على عقبيه . وحين مرض جونسن ، وذكر بعضهم بيرك ، صاح الدكتور « ان هذا الفتى يستنفر كل قواى ؛ ولو رأيت بيرك الآن لكان فى ذلك القضاء على »[٤٣] . ومع ذلك كان الرجلان متفقين على معظم القضايا الأساسية فى السياسة والأخلاق والدين . فقد قبلا حكم بريطانيا الأرستقراطى مع أن كليهما كان من العامة ؛ واحتقرا الديمقراطية لأنها تتويج للكفايات الهزيلة ؛ ودافعا عن المسيحية التقليدية والكنيسة الرسمية بوصفهما معقلين للأخلاق والنظام لا بديل لهما . ولم يفرق بين الرجلين غير ثورة المستعمرات الأمريكية . وقد وصف جونسن نفسه بأنه محافظ (تورى) ، ورمى الأحرار (الهوجز) بأنهم مجرمون وحمقى ؛

أما بيرك فزعم أنه حرى ، ودافع عن مبادىء المحافظين دفاعاً أقوى وأفضل تبريراً من أى رجل فى التاريخ الانجليزى .

وبدا أحياناً أنه يؤيد أكثر عناصر النظام القائم عرضة للاعتراض والمساءلة فقد عارض إحداث تغييرات فى قواعد انتخاب الأعضاء أو سن القوانين ؛ ورأى أن الدوائر الانتخابية « العفنة » أو دوائر « الجيب » (أى التى يتحكم فيها شخص أو أسرة واحدة (لا غبار عليها ما دامت ترسل رجالا أكفاء مثله إلى البرلمان . وبدلا من توسيع حق التصويت . رأى أنه « بخفض العدد سيزداد ثقل ناخبينا واستقلالهم »(٤٤) . ومع ذلك احتضن عشرات القضايا التحررية . ودافع عن حرية التجارة قبل آدم سمث ، وهاجم النخاسة قبل ولبرفورس . ثم نصح بإزالة المعوقات السياسية المفروضة على الكاثوليك ، وأيد التماس المنشقين على الكنيسة الرسمية أو يمنحوا كامل حقوقهم المدنية . وحاول أن يلطف من صرامة قانون العقوبات الوحشية ويخفف من الأعباء التى تنؤ بها حياة الجندى . ودافع عن حرية المطبوعات وإن كتوى هو نفسه بنارها . ووقف يذود عن إيرلنده وأمريكا والهند فى وجه أغلبيات شوفينية . وناصر البرلمان على الملك بصراحة وجرأة أفقدتاه كل أمل فى المنصب السياسى الرفيع . وقد تختلف معه فى آرائه ودوافعه ، ولكن لن نستطيع الشك فى شجاعته .

وقد كلفته آخر حرب شعواء شنها فى حياته العملية — وهى حربه على الثورة الفرنسية — صداقة رجل طالما كان موضع حبه وإعجابه . وكان هذا الرجل وهو تشارلز جيمس فوكس يرد على محبته بمثلها ويقاسمه أخطار المعركة فى كثير من القضايا ، ولكنه كان يختلف عنه فى كل صفة من صفات العقل والخلق تقريباً إلا الإنسانية والشجاعة . فبيرك إرلندى ، فقير ، محافظ ، متدين ، متمسك بالأخلاق ؛ وفوكس انجليزى ، غنى ، راديكالى ، لا يبقى من الدين إلا على القدر الذى يتفق والقمار والشراب والخليلات والثورة الفرنسية . كان ثالث أبناء هنرى فوكس ولكنه آثرهم عنده ، وقد ورث الأب ثروة ، وبددها ، ثم تزوج ثروة ثانية ، وجمع ثالثة وهو كبير

صيارفة القوات المسلحة ، وأعان بيوت على شراء بعض أعضاء مجلس العموم ، وأثيب بلقب البارون هولند ، وشهر به خصومه (مختلساً عاماً للملايين لاتفسير لضياعها »[٤٥] أما زوجته كارولين لينوكس فكانت حفيدة تشارلز الثانى من لويز دكيرواى ، وهكذا جرى فى عروق تشارلز جيمس الدم المخفف للملك استيوارتى خليع وامرأة فرنسية ذات مبادىء أخلاقية متسامحة . وكانت أسماؤه ذاتها ذكريات استيوارتية ، ولا بد أنها كانت تخدش مسامع الهانوفريين .

وحاولت الليدى هولند أن تنشىء أبناءها على النزاهة والشعور بالمسئولية ، أما اللورد هولند فقد تسامح مع تشارلز فى كل نزواته ، وقلب من أجله الحكم المأثورة رأساً على عقب : « لاتعمل اليوم أبدا ما تستطيع تأجيله إلى الغد ، ولا تقم بنفسك أبداً بعمل تستطيع أن تجعل إنساناً غيرك يقوم به لك » . وما كاد الصبى يناهز الرابعة عشرة حتى أخذه أبوه من كلية إيتن فى رحلة أوربية طاف بها على أندية القمار والمنتجعات المعدنية ، ورتب له خمسة جنيهات انجليزية فى الليلة للعب القمار . وعاد الفتى إلى إيتن مقامراً راسخ القدمين ، وواصل اللعب فى اكسفورد . وقد وجد متسعاً من الوقت لإدمان الاطلاع على الآداب الكلاسيكية والانجليزية على السواء ، ولكنه غادر اكسفورد بعد عامين لينفق عامين فى الرحلات وتعلم الفرنسية والطليانية ، وبدد ١٦,٠٠٠ جنيه فى نابلى ، وزار فولتير فى فرنيه ، وتلقى منه قائمة بكتب تنيره فى اللاهوت المسيحى[٤٧] . وفى ١٧٦٨ اشترى له أبوه دائرة انتخابية ، واتخذ تشارلز مقعداً فى البرلمان وهو فى التاسعة عشرة . وكان هذا مخالفاً كل المخالفة للقانون ، ولكن المعجبين من النواب بسحر الشاب الشخصى وتراثه المرتقب كانوا من الكثرة بحيث لم ينجح أى احتجاج على عضويته . وبعد عامين ، وبفضل نفوذ أبيه ، عين وزيراً للبحرية فى وزارة اللورد نورث . وفى ١٧٧٤ مات الأب والأم وابن أكبر منه ، وغدا تشارلز المتصرف الوحيد فى ثروة عريضة .

وقد شاب مظهره البدنى فى سنوات نضجه من التسيب ما شاب أخلاقه . فجواربه مرخاة الأربطة ، وسترته وصدرته مجعدتان ، وقميصه مفتوح عند

العنق ، ووجهه منتفخ محتقن بالإسراف فى الطعام والشراب ، وكرشه المتضخم يوشك أن يندلق على ركبتيه وهو جالس . وحين نازل وليم آدم فى مبارزة رفض نصيحة شاهده بأن يتخذ الوقفة الجانبية المعتادة ، إذ قال « انني غليظ فى ناحية غلظى فى الأخرى »(٤٨) ولم يحاول إخفاء عيوبه . وكان من الأقاويل الشائعة عنه أنه أثبت أنه ضحية محببة للنصابين والمحتالين من المقامرين . وذات مرة (فى رواية جبون) قامر اثنتين وعشرين ساعة فى جلسة واحدة خسر فيها ٢٠٠,٠٠٠ جنيه . ومن أقوال فوكس أن أعظم اللذات فى الحياة بعد الربح هى الخسارة (٤٩) . وكان يملك اسطبلا لخيول السباق ، ويراهن بمبالغ كبيرة عليها ، وقد كسب منها أكثر مما خسر (كما يريدنا أن نصدق)(٥٠) .

وكان أحياناً متسيباً فى مبادئه السياسية تسيبه فى مبادئه الخلقية وهندامه ؛ فقد سمح غير مرة لمنافعه أو خصومته الشخصية أن تقرر مسلكه . وكان أميل إلى الكسل ، ولم يكن يعد خطة أو مشروعات قوانينه البرلمانية بالعناية والدرس اللذين تميز بهما بيرك . وكان يملك فى ميدان الخطابة مزايا قليلة ، ولم يلتمس غيرها . وكثيراً ماكانت خطبه عديمة الشكل كثيرة التكرار ، صادمة للنجاة أحياناً . يقول عنه رتشرد بورسن «كان يقذف بنفسه فى معمعان جمله ويكل إليه تعالى مهمة اخراجه منها »(٥١) . ولكنه وهب من سرعة البديهة وقوة الذاكرة ما جعله بالإجماع أقدر مناقش فى مجلس العموم . كتب هوراس ولبول « ان تشارلز فوكس أسقط ساتوون (شاتام) العجوز عن عرش الخطابة »(٥٢) .

وكان معاصرو فوكس متسامحين فى أخطائه لأن كثيرين شاركوه فيها ، وقد أجمعوا تقريباً على الشهادة بفضائله . فقد ظل معظم حياته بعد عام ١٧٧٤ أميناً للقضايا التحررية مضحياً فى سبيلها تضحيات تستهين بالترقى فى المنصب وبالشعبية . أما بيرك الذى كان يحتقر الرذيلة فقد أحب فوكس رغم ذلك لأنه رآه مخلصاً فى غير أنانية للعدالة الاجتماعية والحرية الإنسانية . قال بيرك « أنه رجل خلق ليحب ، ذو طبع غاية فى البراءة والبساطة والصراحة وحب الخير ، نزيه فى اسراف ، له مزاج لطيف سمح إلى حد الإفراط ،

ليس فى كيانه بأسره ذرة حقد واحدة [٥٣] وقد اتفق معه جبون فقال « لعله لم يوجد مخلوق أكثر منه تجرداً من لوثة الحقد أو الغرور أو الكذب» [٥٤] . ولم يمتنع على هذه الجاذبية التلقائية والسحر الفطرى فى الرجل غير جورج الثالث .

وارتبط ببيرك وفوكس فى قيادة عنصر الهوجز التحررى إرلندى ثان هو رتشرد برنزلى شريدان . وقد نشر جده توماس شريدان الأول مترجمات عن اليونانية واللاتينية ، وكتاباً سماه « فن التورية» ، ربما سرت عدواه إلى حفيده . أما أبوه توماس شريدان الثانى فكان فى رأى البعض لايفوقه غير جاريك ممثلا ومديراً للمسرح . وقد تزوج فرانسيس تشيمبرلن ، وكانت كاتبة مسرحية وروائية ناجحة . ونال الدرجات العلمية من دبلن وأكسفورد وكمبردج ، وحاضر فى كمبردج فى التعليم ؛ وكان الواسطة فى الحصول على معاش ملكى لجونسن ، وحصل على معاش لنفسه . وألف كتاباً مسلياً عن « حياة سويفت» وغامر بنشر « قاموس عام فى اللغة الانجليزية » (١٧٨٠) ولما ينقض على نشر قاموس جونسن غير خمسة وعشرين عاما . وأعان ابنه على إدارة مسرح درورى لين ، وشهده يصعد فى دنيا الرومانس والأدب والبرلمان .

وهكذا أتيحت لرتشرد عناصر التفوق الفكرى والدراما فى بيئته ان لم يكن فى دمه . وقد ولد فى دبلن (١٧٥١) ، وحين بلغ الحادية عشرة أوفد إلى هارو حيث أقام ست سنين واكتسب تعليماً كلاسيكياً جيداً ؛ وحين بلغ العشرين ردد صدى جده بنشره مترجمات عن اليونانية . وفى عام ١٧٧١ ذاك بينما كان يعيش فى باث مع والديه ، هام حباً بوجه إلزابث آن لنلى الجميلة وصوتها ، وكانت فى السابعة عشرة ، تغنى فى الحفلات الموسيقية التى يقدمها أبوها المؤلف توماس لنلى . والذين رأوا لوحة من اللوحات التى رسمها لها جينزبرو [٥٥] يدركون أنه لم يكن أمام رتشرد من سبيل إلا الهيام والانتشاء ، ولا أمامها هى أيضاً إذا صدقنا أخته ، إذ رأته فتى مليحاً محبباً على نحو لا يقاوم . «كان خداه يشرقان ببريق العافية ، وعيناه أبدع العيون

فى العالم . . . وله قلب رقيق محب . . . وقد شرح صدر أفراد الأسرة وأبهجهم ما اتسمت به كتاباته فيما بعد من خيال عابث وظرف أصيل ودعابة لا تؤذى . لقد أعجبت به ، بل أوشكت أن أعبده . وما كنت لأتردد فى أن أضحى بحياتى من أجله »[٥٦] .

وكان لألزابث آن خطاب كثيرون ، ومنهم تشارلز أخو رتشرد الأكبر ، وقد ضايقها أحدهم واسمه الميجر ماثيوز ، وكان غنياً ولكنه متزوج ، واشتدت مضايقته حتى أفضت بها إلى تعاطى الأفيون بغية قتل نفسها . ثم تماثلت للشفاء ، ولكنها فقدت كل رغبة فى الحياة حتى أنعش حب رتشرد روحها المعنوية من جديد . وهدد ماثيوز باغتصابها ، فهربت مع شريدان إلى فرنسا بدافع الخوف والحب معاً ، وتزوجته (١٧٧٢) ، ثم لجأت إلى دير قرب ليل فى حين عاد رتشرد إلى انجلتره ليسترضى أباه وأباها . ونازل ماثيوز فى مبارزتين ، وقد أبقى على حياة ماثيوز فى الأول بعد أن انتصر عليه ، أما فى الثانية فقد أعجز خصمه عن النزال لأنه كان ثملا بالخمر ، وهبط بالمبارزة إلى درك المصارعة ثم عاد إلى باث ملطخاً بالدم والخمر والوحل . وتبرأ منه أبوه ، ولكن توماس لنلى أعاد الزابث آن من فرنسا وبارك زواجها (١٧٧٣) .

وشرع رتشرد وهو فى الثانية والعشرين فى جمع المال بكتابة التمثيليات إذ أبت عليه كبرياؤه أن يترك زوجته تعوله بالغناء أمام الجمهور . وهكذا أخرجت أولى تمثيلياته « المزاحمون » فى ١٧ يناير ١٧٧٥ فى كوفنت جاردن ، وكان حظها سيئاً تمثيلا واستقبالا ، ثم وفق شريدان إلى ممثل أكفأ يلعب الدور الرئيسى ، وكان العرض الثانى (٢٨ يناير) بداية لسلسلة من الانتصارات المسرحية التى حققت الشهرة والثراء لشريدان . وسرعان ما راحت لندن كلها تتحدث عن السير انتونى أبسوليوت ، والسير لوشس أوترجر ، والآنسة ليديا لانجويش ، وتقلد خلط السيدة مالا يروب بين الألفاظ[٥٨] * .

---

* يستشهد المؤلفان بعبارات خلطت السيدة مالابروب بعض ألفاظها خلطا مضحكا ، فقالت illiterate بدلا من obliterate ، و Allegory بدلا من alligator . (المترجم)

وكان شريدان يملك معينا لاينضب من النكت فى رأسه ، ينثرها على كل صفحة ، ويخلع الذكاء والظرف على الخدم والاتباع ، ويجعل الحمقى يتكلمون كالفلاسفة . ولامه النقاد لأن شخوصه لم تكن دائماً متوافقة مع حديثها ، ولأن النكت والدعابات التى تفرقع فى كل مشهد وتتدفق فى كل فم تقريباً قد أثلمت لذعها بالأفراط ؛ لا ضير ، فقد استطاب النظارة هذا المرح ، وهم يستطيبونه إلى يومنا هذا .

ثم أحرزت مسرحيته « القهرمانة » نجاحا أعظم حتى من نجاح «المزاحمين» ، وقد قدمت أول مرة فى ٢ نوفمبر ١٧٧٥ على مسرح كوفنت جاردن ، واستمر عرضها خمسا وسبعين ليلة فى موسمها الأول ، فحطمت بذلك الرقم القياسى الذى حققته « أوبرا الشحاذ » فى ١٧٢٨ ، وهو ثلاث وستون ليلة . وهالت هذه المنافسة المثيرة ديفد جاريك الذى كان يمثل على مسرح دروری لين ، ولكنه لم يستطع أن يجد رداً سريعاً لاذعاً أفضل من إحياء « الاكتشاف» وهى تمثيلية من تأليف أم شريدان التى ماتت قبيل ذلك . وانتشى شريدان بخمرة النجاح ، فعرض على جاريك أن يشترى نصيب النصف الذى يملكه فى دروری لين ؛ وأحس جاريك بأنه يتقدم فى العمر ، فوافق نظير ٣٥,٠٠٠ جنيه ؛ وأقنع شريدان حماه وصديقاً له أن يساهم كل منهما بمبلغ ١٠,٠٠٠ جنيه ؛ أما هو فدفع ١,٣٠٠ جنيه نقداً ، ثم جمع الباقى بقرض (١٧٧٦) . وبعد عامين جمع ٣٥,٠٠٠ جنيه أخرى ، وأصبح مالكاً للمسرح هو وشركاؤه ، ثم تولى إدارته .

وظن الكثيرون أن ثقته بنفسه جاوزت الحد ، ولكن شريدان انتقل إلى نصر آخر حين أخرج (٨ مايو ١٧٧٧) « مدرسة الفضائح» وهى أعظم مسرحيات القرن الثامن عشر نجاحاً . واصطلح أبوه الآن معه بعد أن كان غاضباً عليه منذ فر بحبيبته قبل خمس سنوات . وتلا هذه الانتصارات فترة توقف فى صعود نجم شريدان . ذلك أن العروض التى قدمت على دروری لين تبين أن الجمهور لايقبل عليها ، وروع الشركاء شبح الإفلاس . وأنقذ شريدان الموقف بمهزلة « فارص » سماها « الناقد » وهى هجاء للدرامات

الفاجعة ونقاد الدراما المقنطعين . على أن بطأه المألوف تدخل ، فلم يكن قد كتب المشهد الأخير مع أن الافتتاح المحدد لم يبق عليه غير يومين . واستطاع حموه وآخرون بخدعة أن يستدرجوه إلى حجرة فى المسرح ، وأعطوه ورقاً وقلماً وحبراً وخمراً ، وأمروه بالفراغ من التمثيلية ، وحبسوه فى الحجرة ؛ فخرج ومعه النهاية المطلوبة ، فجربها الممثلون ووجدت وافية بالغرض ، وكان العرض الأول (٢٩ أكتوبر ١٧٧٩) ابتسامة أخرى جاد بها الحظ على الإرلندى المتحمس .

ثم تلفت من حوله باحثاً عن عوالم جديدة يغزوها ، وقرر أن يدخل البرلمان . ودفع لناخبى ستافورد خمسة جنيهات انجليزية لكل صوت ، وفى ١٧٨٠ اتخذ مكانه فى مجلس العموم لبراليا متحمساً . وشارك فوكس وبيرك فى اتهام وارن هيستنجز ، وفى يوم واحد رائع سطع نوره فحجب نورهما جميعاً . وكان أثناء هذا يعيش مع زوجته المثقفة فى هناءة وبذخ ، مشهوراً بحديثه ، وظرفه وحيويته ، ولطفه ، وديونه . وقد لخص اللورد بايرون هذه العجيبة فقال « كل ما فعله شريدان ، أو يريد أن يفعله ، رائع ، والأفضل من نوعه دائماً . لقد كتب أفضل كوميديا ، وأفضل دراما . . . وأفضل فارص . . . وأفضل خطاب (مونولوج عن جاريك) ، وتتويجاً لهذا كله ، ألقى أفضل خطبة ... تصورها الناس أوسمعوها فى هذا البلد »[٥٩] . ثم إنه كان قد ظفر بحب أحب نساء انجلترة إلى القلوب واحتفظ بهذا الحب .

كان شريدان كله الخيال والشعر ، ومن العسير أن نصوره فى عالم وليم بت الثانى وفى جيله نفسه ، ذلك الرجل الذى لم يعترف إلا بالواقع ، وسما فوق العاطفة وحكم بغير بلاغة . وقد ولد (١٧٥٩) فى أوج مجد أبيه ، وكانت أمه أخت جورج جرنفيل ، رئيس الوزراء ١٧٦٣ — ٦٥ ؛ رضع السياسة منذ حداثته ، وترعرع فى جو البرلمان . وإذ كان هشاً عليلا فى طفولته ، فقد أبعد عن ممارسات المدارس « الخاصة » الصارمة واتصالاتها المهيئة لحياة المجتمع ، فربى فى البيت بإشراف أبيه الدقيق ، الذى علمه طريقة الإلقاء بأن جعله يتلو شكسبير أو ملتن كل يوم . فما ناهز العاشرة حتى كان دارساً

كلاسيكياً ومؤلفاً لمأساة . ثم أرسل إلى كمبروج حين بلغ الرابعة عشرة ، فلم يلبث أن مرض ، فعاد إلى بيته ، وبعد عام ذهب ثانية ، وإذ كان ابناً لشريف من كبار الأشراف فقد تخرج أستاذاً فى الآداب عام ١٧٧٦ دون امتحان . ثم درس القانون فى لنكولنزان ، ومارس المحاماة برهة قصيرة ، ثم رشح للبرلمان فى الحادية والعشرين عن دائرة جيب يهيمن عليها السير جيمس لوذر . وكان خطابه الافتتاحى فى البرلمان مؤيداً تأييداً قوياً لما اقترحه بيرك من اصلاحات اجتماعية حتى أن بيرك وصف بأنه « ليس شظية من الشجرة العجوز (أى سر أبيه) بل هو الشجرة العجوز بعينها »[٦٠] .

وإذ كان الإبن الثانى لأبيه ، فإنه لم ينل غير ٣٠٠ جنيه راتباً سنوياً ، مع معونة بين الحين والحين من أمه وأخواله ؛ وقد شجعت هذه الظروف البساطة الصارمة فى سلوكه وخلقه . فتجنب الزواج لأنه نذر نفسه بجملته للسعى إلى السلطان . ولم يلذه قمار ولا مسرح . ومع أنه فى مرحلة لاحقة أفرط فى الشراب تهدئة لأعصابه بعد صخب السياسة وضجيجها إلا أنه اكتسب شهرة بنقاء الحياة ونزاهة المقصد ؛ وكان فى وسعه أن يشترى ، دون أن يكون فى وسع أحد أن يشتريه . وما سعى قط إلى الثراء ، وندر أن بذل تنازلات للصداقة ، ولم تكتشف غير قلة حميمة ، وراء تحفظه البارد وضبطه لمشاعره ، ما يخفى من مرح ودود ، بل من حنان ومحبة فى بعض الأحايين .

وفى مطامع عام ١٧٨٢ ، حين أوشكت وزارة اللورد نورث على الاستقالة ضمن « الصبى » — كما لقب بعض النواب بت فى تعطف — أحد خطبه اعلاناً فيه شىء من الغرابة : « أما عن نفسى ، فلا يمكن أن أتوقع أن أكون عضواً فى حكومة جديدة ، ولكن لوكانت هذه العضوية فى متناولى فإننى أراه لزاماً على أن أعلن أننى لن أقبل أبداً منصباً ثانوياً »[٦١] ، أى أنه لن يقبل منصباً أدنى من المقاعد الستة أو السبعة التى ألفت ما أصبح يسمى « مجلس الوزراء » . فلما عرضت الوزارة الجديدة أن تعينه نائباً لوزير خزانة إرلنده بمرتب ٥,٠٠٠ جنيه فى العام رفض ، وواصل العيش على إيراده البالغ ٣٠٠ جنيه . وكان واثقاً من التقدم ، وأمل أن يظفر به بفضل كفايته الشخصية ، فعكف على العمل بهمة ، وأصبح أكثر أعضاء مجلس

العموم اطلاعاً فى ميادين السياسة الداخلية ، والصناعة ، والمالية ». وبعد عام من اعلانه الفخور قصده الملك لا ليكون مجرد عضو فى الحكومة بل ليرأسها . ولم يحظ رجل قط قبله برآسة الوزارة وهو فى الرابعة والعشرين ؛ وقل من الوزراء من ترك على التاريخ الانجليزى بصمة أعمق مما ترك ».

٣ — الملك ضـــد البرلمـــان

اختتم جورج الثانى ملكه الذى استغرق ثلاثة وثلاثين عاماً بشعور من النفور البين من السياسة الإنجليزية « لقد سئمت حتى الموت كل هذا الهراء الأبله ، وأتمنى من كل قلبى أن يأخذ الشيطان كل أساقفتكم ، وأن يأخذ الشيطان وزراءكم ، وأن يأخذ الشيطان برلمانكم ، وأن يأخذ الشيطان الجزيرة كلها ، على أن أخرج منها وأذهب إلى هانوفر »[٦٢] . وقد ألفى راحته فى ٢٥ أكتوبر ١٧٦٠ ، ودفن فى كنيسة وستمنستر .

ولقى ارتقاء جورج الثالث العرش يوم وفاة جده الترحيب الحماسى من كل الانجليز تقريباً ما عدا قلة مازالت تواقة إلى أسرة ستيوارت . كان فى الثانية والعشرين ، فتى وسيماً ، مجتهداً ، متواضعاً . (كان أول ملك انجليزى منذ حكم هنرى السادس يسقط من لقبه دعوى السيادة على فرنسا) . وفى خطابه الأول للبرلمان أضاف إلى النص الذى أعده له وزراؤه كلمات ما كان أحد سلفه الهانوفريين يستطيع أن يفوه بها : « اننى وقد ولدت وربيت فى هذا البلد لأفخر بأننى بريطانى » . كتب هوراس وليول يقول : انالملك الشاب يبدو عليه كل مظهر اللطف . ففيه كثير من الكياسة الذى يخفف من الوقار الشديد ، وطيبة فائقة تتفجر فى جميع المناسبات »[٦٣] . وقد زاد من حب الشعب له بالإعلان الذى أصدره فى ٣١ أكتوبر « لتشجيع التقوى والفضيلة ، ولمنع وعقاب الرذيلة ، والتبذل واللا أخلاقية » . وفى ١٧٦١ تزوج شارلوت صوفيا أميرة مكلنبورج — ستريلتس ، وقد ارتضى

خلوها من الجاذبية ، فأنجب منها خمسة عشر طفلا ، ولم يجد وقتاً لخيانتها . وكان هذا أمراً لا سابقة له فى الملوك الهانوفرين .

ولم يحب حرب السنين السبع ، يوم كان فى الرابعة من عمره ، وأحس أن فى الإمكان الوصول إلى تسوية ما مع فرنسا . ولكن وليم بت الأول ، وزير الدولة للإدارة الجنوبية ، والشخصية المسيطرة فى وزارة الدوق نيوكاسل ، أصر على مواصلة الحرب حتى توهن فرنسا وهنا أمل لها معه فى تحدى الامبراطورية التى خلقتها الانتصارات البريطانية فى كندا والهند ؛ وقد ألح فوق ذلك على ألا يعقد صالح إلا برضى فردريك الأكبر حليف انجلتره . وفى مارس ١٧٦١ عين الأيرل بيوت وزير دولة للإدارة الشمالية ، وشرع فى تنفيذ خطة لعقد صلح منفرد . وعبثاً قاوم بت ، فاستقال فى ٥ أكتوبر . وطيب جورج خاطره بمعاش قدره ٣,٠٠٠ جنيه له ولوريثه ، ولقب الشرف لزوجته التى أصبحت الآن البارونة شاتام . وقد رفض بت (حتى عام ١٧٦٦) النبالة لنفسه لأنه لوحصل عليها لأبعدته عن ساحة عراكه المحببة وهى مجلس العموم . وإذ كان قد أبدى احتقاره للمعاشات ، فقد انتقد بشدة على قبوله هذه الرواتب ، ولكنها كانت أقل مما كان يكسب ، وقد نال آخرون أكثر كثيراً منها مع أنهم كانوا يكسبون أقل منه كثيراً .

وفى ٢٦ مايو ١٧٦٢ اعتزل الدوق نيوكاسل منصبه بعد أن شغل مكاناً مرموقاً فى السياسة طوال خمسة وأربعين عاماً . وبعد ثلاثة أيام خلفه بيوت وزيراً أول . واتخذت الآن أهداف الملك الشاب شكلا ودفعاً . فرأى هو وبيوت أن من حق الملك أن يقرر الخطوط الكبرى للسياسة لا سيما فى الشئون الخارجية . أضف إلى ذلك أنه كان تواقاً إلى كسر سلطان بعض الأسر الغنية على الحكومة . وفى ١٧٦١ ، حث عضو قديم فى حزب الأحرار يدعى وليم بلتنى ، إيرل باث ، فى نبذة غفل عن اسم كاتبها ، الملك على ألا يقنع بـ « ظل الملكية » بل يستعمل « امتيازاته القانونية » فى كبح جماح « الدعاوى غير القانونية للأولجركية المتحزبة »(٦٤) .

وكانت الأغلبية فى مجلس العموم تذهب إلى أن على الملك أن يختار وزراءه من الزعماء المعترف بهم للحزب أو العصبة الفائزة فى الانتخابات . وأصر جورج على حقه الشرعى فى اختيار وزرائه دون اعتبار للحزب ، ودون قيود عليه إلا مسئوليته أمام الشعب . وكان الأحرار هم الذين دبروا ارتقاء ناخب هانوفر لعرش انجلترة ، وكان بعض المحافظين قد تفاوضوا مع الاستيوارتيين المنفيين . لذلك لم يكن بد من أن يقتصر جورج الأول والثانى فى اختيار وزرائهما على الأحرار ، وكان أكثر المحافظين قد اعتزلوا فى ضياعهم . ولكنهم فى ١٧٦٠ قبلوا الأسرة المالكة الجديدة ، وأقبلوا فى نفر كبير ليقدموا ولاءهم للملك البريطانى المولد .

ورحب بهم جورج ، ولم ير مبرراً لعدم تعيينه المحافظين الأكفاء كما يعين الأحرار الأكفاء فى المناصب الوزارية . واحتج الأحرار بأنه لو كان الملك حراً فى اختيار الوزراء وتقرير السياسة دون أن يكون مسئولا أمام البرلمان لكان هذا انتهاكاً لمرسوم الحقوق الصادر فى ١٦٨٩ ، ولصعدت سلطة الملك من جديد إلى المستوى الذى ادعاه تشارلز الأول ، ولبطل مفعول ثورتى ١٦٤٢ و ١٦٨٨ . ان للنظام الحزبى عيوبه ، ولكنه (فى رأى الزعماء) لا غنى عنه للحكومة المسئولة ، فهو يوفر لكل وزارة معارضة تراقبها ، وتنتقدها ، وتستطيع (إذا شاء الناخبون) أن تحل محلها رجالا مهيأين لتغيير اتجاه السياسة دون الإخلال باستقرار الدولة . وهكذا تكونت الخطوط لأول صراع كبير بين القوى فى الحكم الجديد .

وتحمل بيوت وطأة المعركة . وكان أكثر النقد يعنى الملك ، ولكنه لم يعنى أمه ، فاتهمتها الأهاجى الخفيفة الساخرة بأنها خليلة بيوت ، وأثار هذا التشهير الملك فغضب غضبة مضرية . وعقد بيوت صلحاً منفرداً مع فرنسا ، ثم كف عن تقديم المعونة المالية لبروسيا ليكره فردريك على الإذعان ، فوصفه فردريك بالوغد الخسيس ، وواصل القتال . أما الشعب الانجليزى فرغم سروره لأن الحرب وضعت أوزارها إلا أنه ندد بالصلح لأنه أفرط فى اللين مع فرنسا المغلوبة ؛ وسخط بت عليه ، وتنبأ بأن فرنسا

التي خرجت من الحرب ببحريتها سليمة لم يمسها سوء ستستأنف الحرب على انجلتره عما قليل — وهو ما فعلته فى ١٧٧٨ . وصدق مجلس العموم على المعاهدة ، بأغلبية ٣١٩ ضد ٦٥ . واغتبطت أم جورج بانتصار الإرادة الملكية وقالت « ان ابنى الآن ملك على انجلتره حقاً وفعلا»[٦٦] .

كان الملك الجديد حتى الآن يشتهر بالنزاهة . ولكنه حين رأى الأحرار يشترون الأصوات البرلمانية ، ويستأجرون الصحفيين لمهاجمة سياساته ، صمم على أن يبزهم فى هذا المضمار . فسخر ماله وقوة رعايته لإغراء المؤلفين من أشباه سمولت بالدفاع عن أهداف الوزارة وتصرفاتها . ولعل بيوت كان يفكر فى أمثال هذه الخدمات حين أقنع الملك فى يوليو ١٧٦٢ بأن ينفح صموئيل جونسن بمعاش ، ولم يخب ظنه فى الكاتب . ولكن ما من متشيع للوزير استطاع أن يضارع خطب جون ولكس اللاذعة الذكية ، أو هجائيات تشارلز تشرشل الضارية ، أو قدح « جونيوس » الغفل من التوقيع . « وظهرت الآن كل يوم ، نثراً وشعرا ، طعون فى البلاط فاقت فى جرأتها وغلها أى طعن نشر لسنوات كثيرة»[٦٧] .

وأخذ البرلمان نقود الملك وأعطاه أصواتاً ، ولكنه كره كبير وزرائه ، لأنه اسكتلندى لم يرق إلى مقام السلطة جزاء على خدمة طويلة لحزب من الأحزاب فى مجلس العموم . واشتد شعور الكراهية لاسكتلنده فى انجلتره التى لم تزل تذكر غزو ١٧٤٥ الاسكتلندى . ثم أن بيوت كان قد أغدق الغنائم السياسية على بنى جلدته : فعين روبرت آدم معمارياً للبلاط ، وآلن رمزى مصوراً للبلاط (متجاهلا رينولدز) ؛ وأجرى معاشاً على جون هيوم الكاتب المسرحى الاسكتلندى ، فى حين ضن على توماس جراى بكرسى الأستاذية . وأعربت جماهير لندن عن شعورها بشنوق جزمة عسكرية ثقيلة jackboot أو احراقها (كناية عن Bute) وبالهجوم على مركبة الوزير ، فكان يضطر إلى إخفاء وجهه حين يختلف إلى المسرح . ونفرت أهل الريف منه ضريبة فرضها على عصير التفاح (السيدر) ، فبات بيوت أبغض وزير وعاه التاريخ الانجليزى . فلما أن عجز عن التصدى لهذا السيل

الجارف ، وتحطم بدناً وروحاً ، وأدرك أنه لايصلح لمعارك السياسة ودسائسها ، استقال (٨ ابريل ١٧٦٣) بعد أقل من سنة وهو كبير وزراء الملك .

أما خلفه جورج جرنفل فعانى من خطوب ثلاثة : فقد هاجمه فى الصحف جون ولكس الذى لا يقهر (١٧٦٣ وما بعدها) ؛ وحصل على موافقة البرلمان (مارس ١٧٦٥) على قانون الدمغة الذى كان أول ما نفر المستعمرات الأمريكية ؛ وأصيب فى عهده جورج الثالث بأول نوبات جنونه . ذلك أن اخفاق بيوت واستقالته حطما أعصاب الملك وفلا عزيمته ، ولم يسبغ عليه زواجه أى سعادة ، وكان جرنفل معتداً برأيه إلى حد مؤلم ، لا بل يكاد يكون مسيطراً . ثم تماثل جورج للشفاء بعد قليل ، ولكنه لم يعد بعدها يشعر بأن فيه من العافية ما يكفى لمقاومة أوليجركية الأحرار التى هيمنت على معظم البرلمان والصحافة . فلجأ إلى حل وسط ، ودعا المركيز روكنجهام — وهو من الأحرار — لتأليف وزارة جديدة .

وشرع المركيز بموافقة البرلمان خلال سنة عدة قوانين مهدئة ، ربما عملا باقتراحات أشار بها سكرتيره إدموند بيرك . فألغيت أو عدلت ضريبة الدبس (السيدر) ، وألغيت ضريبة الدمغة ، وأعان التجارة إبرام معاهدة مع روسيا ، وهدىء الهياج الذى نشب حول ولكس ؛ ويبدو أن هذا التشريع لم تسخر الرشوة لدفعه قدماً . أما الملك فقد ساءه إلغاء الضريبة ، والتنازلات التى قدمت لولكس ؛ وعليه ففى ١٢ يوليو ١٧٦٦ أقال وزارة روكنجهام ، وعرض النبالة على بت ، وطلب إليه أن يضطلع بالحكم . ووافق بت .

غير أن « نائب العموم العظيم » كانت صحته قد تضعضعت ، وكذلك عقله . وضحى الآن بما بقى له من شعبيته بقبوله لقب إيرل شاتام ، فتخلى بذلك عن مكانه فى مجلس العموم . وكان له فى هذا بعض العذر : فقد أحس بأنه أضعف من أن يثبت لتوترات مجلس العموم وصراعاته ، أما مجلس اللوردات فسيتاح له فيه فراغ أكثر وسيكون التوتر فيه أقل . واتخذ منصباً هادئاً نسبياً هو منصب وزير الخاتم الملكى ، وسمح لصديقه دوق جرافتن

أن يشغل منصب الرئيس الأعلى للخزانة ، وهو أبرز المناصب الوزارية اسمياً . على أن زملاء بت لاحظوا أنه يقرر السياسة دون أن يشاورهم أو رغم معارضتهم ، وقد تنفس كثيرون الصعداء حين ذهب إلى باث ملتمساً تهدئة آلام النقرس الذى يشكوه . وقد حقق هذا الهدف ولكن بعقاقير شوشت عقله . فلما عاد إلى لندن لم يكن فى حال تسمح له بالاهتمام بالسياسة . وفى أكتوبر ١٧٦٨ استقال ، وأصبح جرافتن كبيراً للوزراء .

فى فترة الفوضى السياسية هذه (١٧٦٦ — ٦٨) تكتل لفيف عرفوا بـ « أصدقاء الملك » ليدعموا أهداف الملك . فأرشدوا جورج فى توزيع الغنائم لقاء تأييد نائليها لسياسته ، واستخدموا كل وسيلة لانتخاب مرشحين وتقديم وزراء موالين للآراء الملكية . فلما تورط جرافتن فى مصاعب وأخطاء فاضحة ضاعفوا من ارتباكه حتى استقال (٢٧ يناير ١٧٧٠) . وفى ١٠ فبراير أحرزوا أعظم نصر لهم إذ بدأ فردريك نورث سنى خدمته الاثنتى عشرة وزيراً للخزانة (وهو المعروف لنا باللورد نورث ، وإن لم يرث هذا اللقب إلا فى ١٧٩٠) .

كان نورث رجلا ضعيفاً وإن لم يكن شريراً . وإحساسه بالولاء والرحمة هو الذى أبقاه فى منصبه وأكسبه مكاناً غير كريم فى التاريخ . وقد ابتسم له الحظ لأنه كان ابن إيرل جلفورد ، فحظى بكل مزايا التعليم والاختلاط بالمجتمع الراقى ، وأصبح نائباً فى مجلس العموم ولما يجاوز الثانية والعشرين ، واحتفظ بمقعده فيه قرابة أربعين عاماً . واكتسب صداقة الكثيرين بفضل تواضعه ولطفه ودماثته وظرفه * ولكنه اتبع الجانب المحافظ فى ثبات غالى فيه حتى لم يسر أحداً سوى الملك . فقد أيد قانون الدمغة وطرد ولكس ، وواصل الحرب مع أمريكا (إلى مراحلها الأخيرة) ودافع عن سياسات جورج الثالث حتى وهو يشك فى حكمتها ، وعد نفسه عاملا للملك ،

* شكا خطيب من أن نورث ينام أثناء الخطبة ، فأجاب نورث بأن من الظلم أن يعاب عليه تناول دواء قدمه له السيد الموقر بنفسه . وطالب عضو غاضب برأسه فرد بأنه يسره أن يسلمه شريطة الايكره على أن يقبل بديلا رأس العضو(٦٨) .

لا عاملا للبرلمان فضلا عن أن يكون عاملا للشعب ؛ ويبدو أنه كان مخلصاً فى اعتقاده أن للملك الحق الشرعى فى اختيار وزرائه وتوجيه السياسة . وبفضل نورث ولباقته فى سياسة مجلس العموم — وبفضل استخدام الأموال التى أقرها البرلمان — حكم جورج الثالث انجلتره طوال عقد من ذلك القرن ، وعن طريق عملاء نورث اشترى المقاعد والأصوات ، وباع المعاشات والمناصب ، وأعان الصحفيين بالمال ، وحاول أن يقيد الصحافة بالأغلال . وأنه لحلك لشجاعته وعناده أن تتطلب هزيمته تكتل جهود جون ولكس ، و « جونيوس » ، وبيرك ، وفوكس ، وشريدان ، وفرانكلن ، وواشنطن ضده ليقهروه .

٤ — البرلمان ضد الشعب

نقرأ فى يومية جبون بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٧٦٢ : « تناول الكولونيل ولكس الغداء معنا . . . ونادر أن ألتقيت فى حياتى برفيق خير منه . فقد أوتى حيوية لا ينضب معينها وذكاء وروح فكاهة لا حد لهما ، وقدراً وافراً من المعرفة ، ولكنه كان ممعناً فى الخلاعة والمجون مبدأ وممارسة على حد سواء : فخلقه معيب ، وحياته تلوثها كل الموبقات ، وحديثه طافح بالتجاديف والبذاءة ثم هو فخور معتز بهذه الأخلاق — لأن الخجل ضعف تغلب عليه منذ أمد بعيد . وقد أخبرنا هو نفسه أنه مصمم فى فترة الانشقاق العام أن يصبح ثرياً »(٦٩) .

هذا رأى محافظ كان يقترع فى صف الحكومة طوال الأعوام الثمانية التى كان فيها عضواً فى مجلس العموم ، ولم يستطع أن يتعاطف بسهولة مع عدو سافر للبرلمان والملك ، فياض بالحيوية . . . على أن ولكس لو سئل لسلم بمعظم هذه التهم . ذلك أنه كان قد نبذ أخلاقيات المسيحية كما نبذ لاهوتها . واستمتع بالجهر بمذهبه فى اللذة أمام نواب يشاركونه أخلاقه ولكنهم يفزعون من صراحته .

كان جون ولكس ابنا لمقطر ملت فى كلاركنويل بشمالى لندن . تلقى تعليماً حسناً فى أكسفورد ولايدن ، كفى لإثارة دهشة جونسن من إلمامه بالآداب الكلاسيكية ومن تأدبه بـ « آداب السادة » [٧٠] فلما بلغ العشرين تزوج « سيدة تكبرنى مرة ونصفا » ، ولكنها « ذات ثراء عريض » [٧١] وكانت من جماعة المنشقين على الكنيسة الإنجلكانية ، تميل إلى التقوى المكتئبة ؛ فأقبل على الشراب والخليلات . وحوالى عام ١٧٥٧ انضم إلى السير فرانسيس داشوود ، وبب دودنجتن ، وجورج سلوين ، والشاعر تشارلز تشرشل ، وإيرل ساندوتش الرابع فى « ناد لنار الجحيم » يلتئم شمله فى دير مدمنهام البندكتى على ضفاف التيمز قرب مارلو . هناك راحوا وهم ينتحلون صفة « رهبان مدمنهام المجانين » يقلدون فى سخرية الطقوس الكاثوليكية بإقامة « قداس أسود » للشيطان ، ويطلقون العنان لميولهم التجديفية الشهوانية [٧٢] .

وأنتخب ولكس نائباً للبرلمان عن دائرة ايلزبرى (١٧٥٧) بفضل نفوذ رفاقه وبإنفاق ٧٠٠٠ جنيه . وانضم أولا لبت الأب ، ثم لخصوم بيوت بعد عام ١٧٦٠ . ولما كان بيوت يعين بالمال مجلة سمولت « البريطانى » ، فقد بدأ ولكس ، مستعيناً بتشرشل ، فى يونيو ١٧٦٢ اصدار مجلة أسبوعية معارضة سماها « بريطانى الشمال » اكتسبت قراء كثيرين بفضل حيوية أسلوبها وخفته ، وضراوة هجماتها على الوزارة . وفى عدد منها نفى فى إسهاب — أى أنه أذاع — الشائعة التى أرجفت بأن بيوت خالل أم الملك . وفى العدد ٤٥ (٢٣ أبريل ١٧٦٣) ندد ببيوت لأنه خرق اتفاق انجلتره مع بروسيا بإبرامه صلحاً منفرداً مع فرنسا ، وبادعائه ، فى « خطاب العرش» الذى ألقاه الوزير باسم الملك ، أن هذه المعاهدة باركها فردريك الأكبر .

« أن هذا الأسبوع قد أعطى الجمهور مثالا على وقاحة الوزارة — هو أشد ما حاولته وزارة من قبل تسيباً واستهتاراً . . . على البشرية . ذلك أن « خطاب الوزير » الذى ألقاه الثلاثاء الماضى لانظير له فى سجلات تاريخ هذا البلد . ولست أدرى هل الدجل والخداع أعظم على الملك أم على الأمة . فكل صديق لهذا البلد لابد يحزن لأن ملكاً أوتى هذا العدد الكبير من الخلال

العظيمة المحببة . . . يمكن حمله على التصديق باسمه المقدس على أبغض القرارات ، وعلى أشد التصريحات العامة حيفا . . . وأنا واثق من أن جميع الأجانب ، لا سيما ملك بروسيا ، سينظرون إلى الوزير نظرة الازدراء والاشمئزاز ، فقد جعل مليكنا يصرح بالآتى : « لقد تحققت كل توقعاتى تحققاً كاملا بفضل النتائج الطيبة التى جناها حلفاء تاجى المختلفون من المعاهدة النهائية وقد أقنعت الدول المشتبكة فى حرب مع أخى الفاضل ملك بروسيا بالموافقة على شروط التسوية التى وافق عليها ذلك الملك العظيم » والمغالطة المخزية فى هذه العبارة كلها ظاهرة للناس جميعاً ، لأنه من المعروف أن ملك بروسيا . . . قد خذله رئيس وزراء انجلتره الاسكتلندى خذلاناً خسيساً . . . أما عن تصديق البرلمان « تصديقاً كلياً » الذى هو موضع فخر ينطوى على غرور شديد ، فإن العالم يعرف كيف تم الحصول عليه . والدين الكبير على « القائمة المدنية » . . . يعلن بوضوح تام صفقات الشتاء»[٧٣] .

ومع أن ولكس كان قد فسر « خطاب الملك » على أنه فى الحقيقة خطاب بيوت ، إلا أن جورج الثالث فهم المقالة على أنها إهانة شخصية ، وأمر اللوردين هاليفاكس واجرمونت ، وزيرى الدولة آنئذ — بالقبض على جميع الأشخاص الضالعين فى نشر العدد ٤٥ من « بريطانى الشمال » . فأصدرا أمراً عاماً بالاعتقال — أى أمراً لا يسمى الأشخاص الذين يعتقلون ، وبناء على عباراته الغامضة زج فى السجن تسعة وأربعون شخصياً منهم ولكس (٣٠ ابريل ١٧٦٣) ، رغم دعوى الحصانة بوصفه نائباً فى البرلمان ، ووضع طابع المجلة واسمه وليمز فى المشهرة ، ولكن حشداً من الناس هتفوا له شهيداً وجمعوا ثمانى جنيه لإعانته . وطلب ولكس إلى محكمة الدعاوى العامة أمراً قضائياً من أوامر « هابياس كوربس » ، وحصل عليه ، ودافع عن قضيته ، ونال من قاضى القضاه تشارلز برات (وكان صديقاً لبت) أمراً بإطلاق سراحه تأسيساً على أن اعتقاله فيه انتهاك لحق عضو البرلمان ، ورفع ولكس الدعوى على هاليفاكس وآخرين للقبض غير القانونى والأضرار بماله ، وحصل على تعويض قدره ٥٠٠٠ جنيه وأنهت إدانة برات

للتفويضات العامة ذلك الاستعمال السيء للسلطة الذى أبغضه البريطانيون بغض الفرنسيين لأوامر القبض المختومة .

وشاء ولكس أن يعاند القدر ، فاشترك مع توماس بوتر (ابن رئيس أساقفة كنتربرى) فى تأليف « مقال عن المرأة » وهو معارضة شعرية ساخرة لقصيدة بوب « مقال عن الإنسان (الرجل) » . وكان خليطاً من البذاءة والتجديف ، مزوداً بحواش تنبىء بعلم الشاعر الواسع وتنسج على المنوال ذاته ، ونسب المقال إلى الأسقف وليم وربرتن ، الذى كان قد أضاف هوامش لقصيدة بوب . وطبع المقال الصغير فى مطبعة ولكس فى بيته ، لكنه لم ينشر ، غير أن ثلاثة عشرة نسخة طبعت خصيصاً لبضعة أصدقاء ، وحصل وزراء الملك على تجارب الطبع ، وأقنعوا إيرل ساندوتش بأن يقرأها على مجلس اللوردات ، ففعل الإيرل (١٥ نوفمبر) ، الأمر الذى أضحك الأشراف ، وكانوا عليمين بما اشتهر به ساندوتش من خلاعة وتهتك . ويخبرنا وليول بأنهم « لم يستطيعوا الاحتفاظ برزانتهم » وساندوتش ماض فى القراءة ، ولكنهم وافقوا على أن القصيدة « قذف فاضح بذىء فاسق » . وطلبوا إلى الملك أن يقدم ولكس للمحاكمة بتهمة التجديف . وحين أخبر ساندوتش ولكس بأنه سيموت إما شنقاً أو من مرض سرى ، أجاب « ذلك يامولاى اللورد رهن بمن أعانق — مبادئك أم خليلتك »(٧٥) .

وفى ذلك اليوم ذاته — يوم ١٥ نوفمبر — قام ولكس فى مجلس العموم ليسجل شكوى من إهدار حقه البرلمانى بالقبض عليه . ولكن المجلس صوت ضده ، وأمر البرلمان الجلاد بأن يحرق علناً العدد ٤٥ من « بريطانى الشمال » . وفى اليوم السابع عشر تحدى صموئيل مارتن ولكس للمبارزة ، وكان قد سبه فى ذلك العدد . فالتقيا فى هايد بارك ، وجرح ولكس جرحاً خطيراً ، وألزم الفراش شهراً . وأدان أهالى لندن مارتن باعتباره قاتلا مأجوراً ، وأحدثوا شغباً حين حاول الجلاد أن يحرق العدد ٤٥ ، وأصبح الهتافان « ولكس والحرية » و « العدد الخامس والأربعون » شعارين على تمرد شعبى صاعد ضد الملك والبرلمان(٧٦) . ثم حاول اسكتلندى مسعور قتل ولكس ،

فرحل إلى فرنسا (٢٦ ديسمبر) . وفى ١٩ يناير ١٧٦٤ طرد رسمياً من البرلمان . وفى ٢١ فبراير صدر ضده حكم فى محكمة «كنجز بنش» بأنه مذنب بإعادة طبع العدد ٤٥ وبطبع «مقال عن المرأة» ، ودعى للمثول وتلقى الحكم عليه ، فلم يحضر ؛ وفى أول نوفمبر أعلن أنه خارج على القانون .

وظل ولكس أربع سنوات شريداً فى فرنسا وإيطاليا يخشى أن يسجن سجناً مؤبداً إن عاد إلى انجلتره . وفى روما التقى مراراً بفنكلمان ، وفى نابلى قابل بوزويل الذى وجده رفيقاً مسليا : «ان سخرياته المرحة الحية فى المواضيع الأخلاقية حركت روحى المعنوية حركة ليست غير سارة»[٧٧] . وفى طريقه عودا إلى باريس زار ولكس فولتير فى فرنيه ، وسحر أظرف رجل فى أوربا بظرفه وخفة روحه .

ثم فتح رجوع الأحرار إلى السلطة بزعامة وكنجهام وجرافتن لوكس باب الأمل فى العفو عنه . وتلقى تأكيدات سرية بأنه لن يمس بسوء إذا لزم الصمت . فعاد إلى انجلتره (١٧٦٨) وأذاع من لندن ترشيحه للبرلمان . فلما أن خسر تلك المعركة ، التمس انتخابه للبرلمان من مدلسكس ، وحصل على أغلبية كبيرة بعد حملة صاخبة ؛ وكانت تلك المقاطعة التى تحول أكثرها حضراً (وهى تضم الآن شمال غربى لندن) معروفة بميولها الراديكالية وعدائها للرأسمالية الصاعدة . وفى ٢٠ ابريل مثل ولكس أمام المحكمة متوقعاً إلغاء الحكم بخروجه على القانون ؛ وألغى الحكم ؛ ولكن حكم عليه بغرامة قدرها ألف جنيه وبالسجن اثنين وعشرين شهراً . فأنقذه حشد غاضب من ضباط الشرطة وحملوه فى موكب نصر طافوا به شوارع لندن . وبعد أن هرب من المعجبين ، سلم نفسه للسجن فى سانت جورجز فيلدز . وتجمع الغوغاء هناك فى ١٠ مايو وأرادوا اطلاق سراحه ثانية . فأطلق الجند النار على مثيرى الشغب ، وقتل منهم خمسة وجرح خمسة عشر .

وفى ٤ فبراير ١٧٦٩ طرده مجلس العموم ثانية ، فانتخبته دائرة مدلسكس ثانية (١٦ فبراير) ، وطرد من جديد ، فعادت مدلسكس وانتخبته

١٣ابريل) ، هذه المرة بأغلبية ١,١٤٣ صوتاً ضد٢٩٦لهنرى لوتريل ؛ وأعطى البرلمان المقعد للوتريل على أساس أن ولكس بعد أن طرد من البرلمان فقد أهليته شرعاً للنيابة فى دورة ذلك البرلمان . وهوجم لوتريل وهو يغادر مجلس العموم ؛ ولم يجرؤ على الظهور فى الشوارع[٧٨] . وأرسلت سبع عشرة مقاطعة ومدن كثيرة خطابات موجهة إلى العرش تشكو من أن حقوق الملاك الأحرار فى اختيار ممثليهم فى مجالس العموم قد انتهكت انتهاكاً صارخاً . أما الملك الذى كان قد أيد الطرد بقوة فقد تجاهل الالتماسات ، وقال عضو يدعى الكولونيل اسحاق باريه فى البرلمان أن تجاهل الالتماسات « قد يعلم الشعب التفكير فى الاغتيال »[٧٩] * . وخلع جون هورن توك ، الذى أسلم إيمانه لسخر فولتير ، ثوبه الدينى وصرح بعد إقصاء ولكس مراراً بأنه سيصبغ رداءه (رداء القساوسة) الأسود بالحمرة .

وتزعم توك تنظيم « جماعة المؤيدين لملتمسى الحقوق » (١٧٦٩) التى كان هدفها العاجل اطلاق سراح ولكس ، وأداء ديونه ، ورده إلى البرلمان . ونشرت الجماعة الدعوة فى محافل عامة لحل البرلمان الراهن لفساده الذى لا يرجى صلاحه ، ولعدم استجابته للإرادة العامة ؛ وطالبت ببرلمانات سنوية تنتخب بالتصويت العام للذكور البالغين ، وبمسئولية الوزارات أمام البرلمان فى سياستها ومصروفاتها[٨٠] . ونادت بأن على كل مرشح أن يقسم اليمين بألا يقبل أى ضرب من ضروب الرشوة ، ولا أى وظيفة أو معاش أو مكافأة أخرى من التاج ، وبأن على كل عضو أن يدافع عن آراء ناخبى دائرته ولو ناقضت آراءه ، وبضرورة رفع المظالم عن ايرلنده ، وبأن يكون للمستعمرات الأمريكية وحدها حق فرض الضرائب على شعبها[٨١] .

وفى يوليو ١٧٦٩ ، رفع وليم تكفورد عمدة لندن وكبار موظفيها الرسميين إلى الملك خطاباً يلوم مسلك وزرائه لأنه هادم للدستور الذى أعطى بموجبه بيت هانوفر عرش انجلتره . وفى ١٤ مايو ١٧٧٠ أرسلوا إلى الملك احتجاجاً استخدم لغة الثورة : « ان أغلبية أعضاء مجلس العموم — الواقعين

---

* سميت مدينة ولكس — باريه فى بنسلفانيا باسم ولكس وباريه اللذين ناصرا قضية المستعمرات فى البرلمان بقوة « د ».

تحت التأثير الخفى والخبيث الذى أحبط كل النوايا الحسنة وأوحى بكل النوايا السيئة فى جميع الحكومات المتعاقبة — هؤلاء حرموا شعبكم من أعز حقوقهم . لقد اقترفوا عملا أفدح تدميراً فى عواقبه من فرض تشارلز الأول ضريبة السفن ، أو سلطة منح المعاشات التى ادعاها جيمس الثانى لنفسه »(٨٢) .

وقد ناشد الخطاب الملك أن يعيد « الحكومة الدستورية . . . وأن تقصى أولئك الوزراء الأشرار عن مجالسك إلى الأبد »(٨٣) وأن يحل البرلمان الحالى . أما الملك المحنق فقد صاح ويده على سيفه « دون ذلك سيفى هذا »(٨٤) . وبدت لندن لا باريس قاب قوسين من الثورة فى ١٧٧٠ .

فى هذه الدوامة الملتهبة من دوامات السياسة قذف « جونيوس » بأشد الرسائل إثارة للفتنة فى تاريخ انجلترا . وقد أفلح فى إخفاء هويته حتى عن ناشريه إخفاءاً تاماً ، حتى أنه إلى يومنا هذا لا يعرف أحد من هو ، وان حزر معظمهم أنه السير فيليب فرانسيس ، الذى سنلتقى به الخصم اللدود لوارن هيستنجز . وكان المؤلف قد وقع بعض رسائله باسم « لوشس » ، وبعضها باسم « بروتس » ، أما الآن فقد انتحل الاسم الأوسط « لوشس جونيوس بروتس » الذى يقول ليفى انه خلع ملكاً (حوالى ٥١٠ ق . م .) وأسس الجمهورية الرومانية . وتدل فحولة لغة هذه الرسائل على أن « جونيوس » أوتى تعليم السادة وإن لم يؤت حسن أدبهم . والراجح أنه كان غنياً ، لأنه لم يتقاض أجراً على رسائله التى وسعت قوتها ونقدها اللاذع من توزيع صحيفة « المعلن العام » توسيعاً غل الربح الوفير ، وهى الصحيفة التى ظهرت فيها من ٢١ نوفمبر ١٧٦٨ إلى ٢١ يناير ١٧٧٢ .

وفى مقاله « إهداء للأمة الانجليزية » الذى صدر به المؤلف « رسائل جونيوس » (١٧٧٢) أعلن هدفه وهو « تأكيد حرية الانتخاب ، والدفاع عن حقكم أنتم دون غيركم فى اختيار ممثليكم » واتخذ نقطة انطلاقه اقصاء ولكس المتكرر ، واعتقال كل من له صلة بالعدد ٤٥ من « بريطانى الشمال » بأمر اعتقال عام . « أن حرية الصحافة هى الحصن المنيع لجميع الحقوق المدنية والسياسية والدينية للرجل الانجليزى ، وحق المحلفين . . . جزء أساسى من

دستورنا » ومن هذه الزاوية انتقد المؤلف أسس الحكومة البريطانية : « ان سلطة الملك ، واللوردات ، ونواب العموم ، ليست سلطة تعسفية . فهم ليسوا إلا الأمناء على التركة لا مالكيها . والملكية المطلقة قائمة فينا نحن . . . وأنا موقن بأنكم لن تتركوا لمشيئة سبعمائة شخص ، أفسدهم التاج على نحو مفضوح ، الفصل فى مستقبل سبعة ملايين من نظرائهم ، أيكونون أحراراً أم عبيداً »[٨٥] .

ومضى جونيوس يتهم حكومة جرافتن (١٧٦٨ — ٧٠) ببيع المناصب وإفساد البرلمان بالانعامات والرشا . هنا أصبح الهجوم مباشراً وبلغ من الاحتدام حداً يشعر بأنه تصميم على الانتقام لإساءة أو إهانة شخصية .

« تقدم أيها الوزير الفاضل وقل للعالم بأى نفوذ زكى مستر هاين لمثل هذه الإمارة الخارقة على رضى جلالته ، وماذا كان ثمن الامتياز الذى اشتراه ؟ . . . انك تعرض نخبة الرعاية الملكية للمزاد . . . أو تظن أن فى الإمكان أن تفلت هذه الكبائر دون اتهام ؟ أنها حقاً مصلحتك إلى الدرجة القصوى أن تحتفظ بمجلس العموم الحالى . فهم إذ باعوا الأمة جملة ، سيحمونك ولا ريب فى التجزئة . لأنهم وهم يناصرون جرائمك يرعون أيضاً جرائمهم هم »[٨٦] .

واستمر الهجوم بعد استقالة جرافتن بزمن طويل ، كما نقرأ فى الرسالة المؤرخة ٢٢ يونيو ١٧٧١ .

لست أستطيع بأى مظهر مهذب من مظاهر اللياقة أن أصفك بأنك أنذل وأخس رجل فى المملكة . لا ياسيدى ، فلست أحسبك كذلك . فسيكون لك منافس خطر فى ذلك الضرب من الشهرة . . . مادام هناك رجل واحد حى يحسبك جديراً بثقته ، صالحاً لأن يوكل إليك أى قسط فى حكومته . »

وبدا أن هذا وصف لجورج الثالث ذاته بأنه « أخس رجل فى المملكة » وكان جونيوس قد عمد من قبل فى الرسالة الخامسة والثلاثين إلى مهاجمة الملك « بإباء وحزم ، ولكن دون احترام » : « سيدى ، ان الخطب الذى

منيت به حياتك . . . أنك لم تكن لتلم قط بلغة الحقيقة حتى سمعتها فى شكاوى شعبك . على أن الوقت لم يفت لتصحيح خطأ تعليمك » . وينصح جونيوس جورج بأن يقيل وزراءه المحافظين ، ويسمح لولكس بأن يشغل المقعد الذى انتخب له . « أن على الملك ان كان يفتخر بسلامة حقه فى التاج أن يتذكر أنه اكتسب بثورة . وأنه قد يضيع بأخرى»[٨٧] .

وقبض على هنرى وودفول الذى نشر هذه الرسالة فى صحيفة « المعلن العام » بتهمة القذف المحرض على الفتنة . ورفض المحلفون إدانته وهم يعكسون مشاعر الطبقة الوسطى ، فأفرج عنه بعد دفع المصاريف . وكان جونيوس قد بلغ الآن قمة تهوره وقوته . ولكن الملك صمد للهجوم ، ودعم مركزه بتعيينه لرياسة الوزارة اللورد نورث اللطيف الثابت الجأش . وواصل جونيوس رسائله حتى ١٧٧٢ . ثم ترك ساحة القتال . ويلاحظ أنه فى ١٧٧٢ ترك السر فيليب فرانسيس وزارة الحربية (التى كان جونيوس قد أظهر معرفة وثيقة بشئونها) ورحل إلى الهند .

وتنتمى الرسائل إلى التاريخ الأدبى لانجلتره كما تنتمى إلى تاريخها السياسى ، ذلك أنها مثال حى على الأسلوب الذى كان فى قدرة الكثير من رجال السياسة البريطانيين أن يرتفعوا أو يتدنأوا إليه حين يلهبهم الغضب ويحميهم التخفى وراء الأسماء المستعارة . فهنا انجليزية رفيعة اختلطت بالسب ، ولكن السب ذاته آية فى الطعن المرهف . أو الإجرام الحاد . ولست تجد هنا شفقة ، ولا سماحة ، ولا تفكيراً فى أن الحزب الذى ينتمى إليه رامى الاتهام يشارك المتهم خطيئته وذنبه . ونحن نتعاطف مع السر وليم دراير الذى كتب يقول رداً على رسالة جونيوس المؤرخة ٢١ يناير ١٧٦٩ « أن المملكة تشغى بعدد غفير من اللصوص المجرمين الذين يسطون على خلق الأفراد وفضيلتهم بحيث لم يعد إنسان شريف واحد فى مأمن ، لاسيما لأن هؤلاء القتلة الحقراء الجبناء يطعنون فى الظلام دون أن تكون لديهم الشجاعة للتوقيع بأسمائهم الحقيقية على كتاباتهم الشريرة الحقودة »[٨٨] .

وقد تميز تحرك الصحافة البريطانية صوب حرية ونفوذ متعاظمين بصراع آخر فى هذه السنوات . ذلك أن بعض الجرائد بدأت حوالى ١٧٦٨ فى طبع تقارير عن الخطب الكبرى التى تلقى فى البرلمان . وكان أكثر هذه التقارير متحيزاً وغير دقيق ، وبعضها وهمياً ، وبعضها محشواً بالبذاءات . وفى فبراير ١٧٧١ شكا الكولونيل جورج أونسلو إلى مجلس العموم من أن مجلة أشارت إليه بعبارة « الوغد الحقير » و « ذلك الحشرة التافهة الخسيسة » فأمر المجلس فى ١٢ مارس بالقبض على الطابعين . فقاوموا ، وقبضوا على من أرادوا اعتقالهم وأتوا بهم إلى عضوين فى البلدية (أحدهما ولكس) وبراس كروسبى عمدة لندن . وأبطل العمدة محاولة اعتقال الطابعين بحجة أن مراسيم المدينة تحظر اعتقال لندنى إلا بناء على أمر اعتقال يصدره أحد قضاة المدينة . فأمر البرلمان بسجن العمدة فى برج لندن ، ولكن جماهير العامة هبوا يؤيدونه ، وهاجموا مركبات النواب ، وهددوا الوزراء ، وصفروا للملك استهزاء ، ثم أغاروا على مجلس النواب . فأطلق سراح العمدة ، وهتف له جمع غفير . واستأنفت الصحف تقاريرها عن المناقشات البرلمانية . وكف البرلمان عن توجيه الاتهام للطابعين . وفى ١٧٧٤ بدأ لوك هانسارد بموافقة البرلمان ينشر فوراً وبدقة يوميات مجلس العموم ، وواصل نشرها حتى وفاته فى ١٨٢٨ .

وقد أثر الانتصار التاريخى الذى أحرزته الصحافة البريطانية فى طابع المناقشات البرلمانية ، وأسهم فى جعل النصف الثانى من القرن الثامن عشر العصر الذهبى للبلاغة الانجليزية . وأصبح الخطباء أشد حذراً ، وربما أكثر رغبة فى الإثارة ، حين شعروا أن الناس يستمعون إليهم فى طول الجزر البريطانية وعرضها . وغدا بعض التقدم صوب الديمقراطية أمراً لا مفر منه بعد أن اتسع انتشار الإعلام والفكر السياسيين ، ووجدت طبقة رجال الأعمال ، والمجتمع المفكر ، والراديكاليون الصاعدون ، فى الصحافة صوتاً ازداد جرأة وفاعلية زيادة مطردة ، حتى قهر الملكية ذاتها . واستطاع الناخبون أن يعرفوا الآن إلى أى حد أحسن نوابهم الدفاع عنهم وعن مصالحهم فى وضع القوانين وإلغائها . لقد استمر الفساد ولكنه تقلص ، لأنه كان فى الإمكان فضحه بجهر أكثر . وغدت الصحافة سلطة ثالثة قادرة أحياناً على حفظ التوازن بين الطبقات فى الأمة أو فى الأحزاب فى البرلمان . وأصبح للرجال القادرين على شراء الصحف أو الهيمنة عليها قوة تعدل قوة الوزراء .

على أن الحرية الجديدة كمعظم الحريات أسيء استعمالها مراراً ، فباتت أحياناً أداة تسخرها أهداف أشد أنانية وتحزباً ، ومعارضة أشد سوقية وعنفاً ، من أي أهداف أو معارضة ظهرت من قبل في البرلمان ، عندها استحقت النعت الذي نعتها به شاتام — « الفاجرة المرخصة »[٨٩] وكان إلزاماً أن يؤديها هي الأخرى صوت رابع هو الرأي العام ، الذي كانت الصحافة مع ذلك جزئياً مصدره ، وفي حالات كثيرة مضللة ، وأحياناً صوته . وبدأ الرجال والنساء المجردون من الألقاب يجهرون بآرائهم في السياسة وأساليب الحكم بعد أن تسلحوا بمعرفة أوسع ، وتجمعوا في محافل عامة . ونافست مناقشاتهم بين الحين والحين مناقشات البرلمان أثراً في التاريخ . واستطاع الآن المال أن يطالب بحق الحكم كشرف الأصل سواء بسواء ، وبين الفريقين المتصارعين يسمع صوت الشعب بين الحين والحين .

أفرج عن ولكس في ١٧ ابريل ١٧٧٠ ، فأضيئت بيوت كثيرة كأنما تحتفل بعيد ، وعلق العمدة على منزله لافتة تحمل كلمة « الحرية » في حروف ارتفاعها ثلاث أقدام[٩٠] . ولم يلبث ولكس أن انتخب عضواً في البلدية ثم عمدة ، وفي ١٧٧٤ انتخبته مدلسكس مرة أخرى للبرلمان . ولم يجرؤ النواب الآن على أن يحرموه مقعده ، فاحتفظ به طوال الانتخابات حتى ١٧٩٠ . وتزعم لفيفاً صغيراً من « الراديكاليين» في البرلمان ، طالبوا بالإصلاح البرلماني وبإعطاء « الطبقات الدنيا » حق التصويت .

« ينبغي في رأيي أن يتاح لكل عامل حر في هذه المملكة حق تمثيله في البرلمان وينبغي بتر دوائر الحضر الحقيرة التافهة ، التي نصر على وصفها بأنها الجزء العفن في دستورنا ، وأن يسمح للمدن التجارية الغنية الآهلة بالسكان — مثل برمنجهام ومانشستر وشفيلد وليدز وغيرها — بإرسال نوابها لمجلس الأمة العظيم . . . أريد ياسيدي برلماناً انجليزياً يعبر عن الإحساس الحر ، غير المتحيز ، لسواد الشعب الانجليزي»[٩١] .

وقد انتظر البرلمان ستة وخمسين عاماً لتقبل هذه الإصلاحات .

ورفض ولكس أن يرشح نفسه للانتخاب في ١٧٩٠ ، ثم اعتزل الحياة العامة . ومات في ١٧٩٧ وقد بلغ السبعين ، فقيراً كما ولد ، لأنه كان شديد الأمانة في جميع مناصبه[٩٢] .

٥ — انجلترة ضد أمريكا

فى ١٧٥٠ بلغ سكان المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا الشمالية قرابة ١,٧٥٠,٠٠٠ نسمة، أما سكان انجلترة وويلز فكانوا نحو ٦,١٤٠,٠٠٠ (٩٣) ولما كان معدل النمو فى المستعمرات أعلى بكثير منه فى الوطن الأم، فإن المسألة لم تكن إلا مسألة وقت حتى يتمرد الإبن على أبيه . وكان مونتسكيو قد تنبأ بأن هذا سيحدث فى ١٧٣٠، بل إنه تنبأ بالضبط بأن الانفصال ستسببه القيود المفروضة على التجارة الأمريكية . وحوالى ١٧٤٧ تنبأ المركيز دارجنسن بأن المستعمرات ستثور على انجلترة وتكون جمهورية وتصبح إحدى الدول العظمى . وبعد أن انتزعت انجلترة كندا من فرنسا فى حرب السنين السبع بقليل قال فرجين لرجال انجليزى : « ستندم انجلترا سريعا على أنها أزالت السكابح الوحيد الذى يستطيع أن يبقى على خوف مستعمراتها . فهى لم تعد فى حاجة لحمايتها ، وستطالب انجلترة المستعمرات بالمساهمة فى الأعباء التى عملت على إثقالها بها، وسترد المستعمرات بالقضاء على كل تبعية لانجلترة » (٩٤) .

وكان التاج البريطانى يدعى سلطة نقض القوانين التى توافق عليها مجالس المستعمرات . ولم يلجأ التاج كثيرا لاستعمال تلك السلطة، ولكن حين وافق مجلس كارولينا الجنوبية على قانون يفرض ضريبة باهظة على استيراد العبيد، « لشعوره بالخطر الاجتماعى والسياسى العظيم الناجم عن تكاثر العبيد الهائل فى المستعمرة » ألغى التاج القانون لأن « تجارة العبيد من أربح فروع التجارة الإنجليزية » (٩٥) أما فى الشئون الاقتصادية فقد ادعى البرلمان حق التشريع للإمبراطورية البريطانية كلها، وكانت قوانينه عادة تحابى الوطن الأم على حساب المستعمرات . وكان هدفه جعل أمريكا مصدراً للسلع التى لا تنتج بسهولة فى انجلترة، وسوقا للمصنوعات البريطانية (٩٦) . وقد ثبط نمو صناعات المستعمرات التى ستنافس صناعات انجلترة فحظر على سكان المستعمرات صناعة الأقمشة، والقبعات، والبضائع الجلدية، والمنتجات الحديدية(٩٧) . وهكذا أعلن ايرل شاتام، الذى كان فيما خلا هذا كبير

الود للمستعمرات ، أنه ان يسمح بأن يضع مسمار واحد فى أمريكا دون إذن البرلمان [٩٨] . ومنعت المستعمرات من إنشاء أفران الصلب أو مصانع القاطرات .

وفرضت قيود عديدة على التجار الأمريكيين فهم لا يسطيعون شحن البضائع إلا فى السفن الإنجليزية ، ولا بيع التبغ والقطن والحرير والبن والسكر والأرز وكثير غيرها من السلع إلا للممتلكات البريطانية ،ولا استيراد البضائع من القارة الأوروبية إلا بعد أن ترسى على ساحل انجلتره ، وبعد أن تدفع مكس الميناء، ثم تنقل إلى سفن بريطانية . وحماية لتصدير المصنوعات الصوفية الإنجليزية إلى المستعمرات الأمريكية ، حرم على تجار المستعمرات بيع مصنوعات المستعمرات الصوفية خارج المستعمرة التى أنتجتها[٩٩] . وفرض البرلمان ضريبة باهظة (١٧٣٣) على واردات أمريكا من السكر أوالدبس (المولاس) المجلوبة من أى مصدر غير المصادر البريطانية . وتفادى المستعمرون لا سيما فى مساتشوستس بعض هذه اللوائح بالتهريب ، وببيع الغلات الأمريكية خفية للأمم الأجنبية ؛ وحتى للفرنسيين أثناء حرب السنين السبع . ولم يمتثل لشرط المرور بالثغور الإنجليزية إلا عشرة فى المائة أونحوه من كميات الشاى التى تستورد سنـــويا للمستعمرات الأمريكية ؛ وجملتها ١٫٥٠٠٫٠٠٠ رطل . وكان قدر كبير من الوسكى الذى تنتجه معامل تقطير مساتشوستس فى ١٧٥٠ ، وعددها ثلاثة وستون ، يستعمل السكر والمولاس المهربين إليها من جزر الهند الغربية الفرنسية[١٠١] .

وتبريرا لهذه القيود قال البريطانيون أن الأمم الأوروبية الأخرى فوضت نظيرها على مستعمراتها ، حماية لأهلها أو مكافأة لهم ، وأن الغلات الأمريكية تتمتع باحتكار فعلى للسوق الإنجليزية بفضل إعفائها من رسوم الاستيراد ، وأن انجلتره جديرة ببعض العائد الاقتصادى نظير تكاليف الحماية التى وفرتها بحريتها لسفن المستعمرات ؛ وجيوشها للمستعمرين ضد الفرنسيين والهنود فى أمريكا . وكان طرد القوة الفرنسية من كندا والقوة الأسبانية من فلوريدا قد حرر الإنجليز من أخطار طالما هددتهم ، ومن ثم شعرت انجلتره أن لها

الحق فى أن تطلب إلى أمريكا أن تعينها على سداد الدين الباهظ — البالغ ١٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنية — الذى استدانته بريطانيا العظمى فى حرب السنين السبع . ورد المستعمرون بأنهم قدموا عشرين ألف جندى لتلك الحرب ، وأنهم هم أنفسهم اقترضوا دينا بلغ ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه .

على أية حال قررت انجلترا أن تفرض الضرائب على المستعمرين . ففى مارس ١٧٦٣ اقترح جرنفل على البرلمان المطالبة بلصق طابع دمغة على جميع مايصدر فى المستعمرات من وثائق قانونية ، ومستندات ، ودبلومات ، وورق لعب ، وكمبيالات ، وعقود ، ورهون ، وبوالص تأمين ، وجرائد ، ويقتضى دفع رسم عن طابع الدمغة للحكومة البريطانية . وأشار باترك هنرى فى فرجينيا ، وصموئيل آدمز فى مساتشوستش ، برفض هذه الضريبة بحجة أن الإنجليز بحكم تقاليدهم الموروثة — الجنا كارتا ، والعصيان الكبير لتشارلز الأول ، و« ملتمس الحقوق — لا يحق فرض ضريبة عليهم إلا بموافقتهم أو بموافقة ممثليهم الشرعيين . فكيف يتأتى إذن أن تفرض على المستعمرين الإنجليز ضريبة من برلمان ليس لهم فيه ممثلون ؟ ورد البريطانيون بأن صعوبات السفر والمواصلات تجعل تمثيل الأمريكيين فى البرلمان أمرا غير ممكن عمليا ، وقالوا أن الملايين من الإنجليز البالغين ظلوا قرونا يقبلون فى ولاء أن يفرض البرلمان الضرائب عليهم رغم أنهم لم يكن لهم صوت فى انتخابه ، وقد أحسوا بما ينبغى أن يحس به الأمريكيون — وهو أنهم ممثلون فعلا فى البرلمان ، لأن أعضاءه يعدون أنفسهم ممثلين للامبراطورية البريطانية كلها .

غير أن المستعمرين لم يقتنعوا . وإذا كان البرلمان قد احتفظ بلسطة فرض الضرائب مرتكزا للهيمنة على الملك ، فإن المستعمرات دافعت عن حقها دون سواها فى فرض الضرائب على ذواتها بديلا وحيدا للظلم المالى يقع عليهم من رجال لم يروهم قط ولا وطئت أقدامهم قط التراب الأمريكى . وتهرب المحامون من شرط استعمال الوثائق المدموغة ، ووضعت بعض الصحف صورة جمجمة ميت فى المكان الذى يفترض أن تظهر عليه الدمغة ، وبدأ الأمريكيون يقاطعون البضائع البريطانية ، وألغى التجار طلباتهم من المنتجات

البريطانية . ورفض بعضهم سداد ديونهم لانجلترة حتى يلغى قانون الدمغة[١٠٢] . وأخذت عذارى المستعمرات العهد على أنفسهن بألا يقبلن خطابا لايندون بقانون الدمغة [١٠٣] . واشتد سخط الشعب حتى بلغ إثارة الشغب فى عدة مدن ؛ ففى نيورك شنقت دمية تمثل الحاكم (وهو معين من قبل الملك) ، وفى بوسطن أحرق بيت مساعد الحاكم ، توماس هتشنسن ، وأكره موزعو الدمغـــة على الاستقالة من وظائفهم تحت التهديد بشنقهم . وشعر التجار البريطانيون بوقع المقاطعة ، فطالبوا بإلغاء القانون . وأرسلت الالتماسات إلى الحكومة من لندن وبرستل وافربول وغيرها من المدن ، مقررة أن كثيرين من رجال الصناعة الإنجليز سيفلسون إن لم يلغ القانون ، وكان الآلاف من العمال قد طردوا فعلا للافتقار إلى الطلبات من أمريكا . وربما كان من قبيل الإقرار بهذه الالتماسات أن يعود بت بعد مرض طويل إلى البرلمان عودة درامية ويصرح قائلا (١٤ يناير ١٧٦٦) « رأيى أن هذه المملكة لا حق لها فى فرض ضريبة على المستعمرات » . وقد سخر من « الفكرة التى تزعم أن المستعمرات ممثلة فعلا فى المجلس » فلما قاطعه جورج جرنفل زاعما أنه يلمح بتشجيع الفتنة رد بت فى تحد قائلا « إنى مغتبط لأن أمريكا قد قاومت » [١٠٤] .

وفى ١٨ مارس أقنع اللورد روكنجهام البرلمان بإلغاء ضريبة الدمغة . ورغبة فى استرضاء « أصدقاء الملك » أضاف إلى الإلغاء « قانونا له صفـــة الإعلان » يؤكد من جديد سلطة الملك فى أن يضع بموافقة البرلمان قوانين ملزمة للمستعمرات ، وسلطة البرلمان فى فرض الضرائب على المستعمرات البريطانية . وقبل الأمريكيون الإلغاء ، وتجاهلوا قانون الإعلان . وأصبحت المصالحة الآن ممكنة . ولكن فى يوليو سقطت وزارة روكنجهام ، وفى وزارة جرافتن التى تلتها جدد تشارلز تاونسهند ، وزير الماليـــة ، محاولة إلزام المستعمرات بدفع نفقات القوات الإدارية والحربية اللازمة لحمايتها من اختلال النظام فى داخلها أو الهجوم عليها من الخارج . ففى ١٣ مايو ١٧٦٧ اقترح على البرلمان فرض رسوم جديدة على الزجاج والرصاص والورق والشاى ، الذى تستورده أمريكا ، على أن يستخدم الملك حصيلة هذه الرسوم فى دفع رواتب الحكام والقضاة الذين يعينهم لأمريكا ، فإذا كان هناك فائض وجه

للانفاق على الجنود الريطانيين هناك . ووافق البرلمان . ومات تاونسهند بعدها بشهور .

وقاوم الأمريكيون الرسوم الجديدة باعتبارها ضرائب مقنعة . وكانوا يتحكمون فى جنود الملك وحكامه بجعلهم معتمدين إلى حد كبير فى إعالتهم على الأموال التى توافق عليها مجالس المستعمرات ، فتسليم قوة المال هذه للملك معناه تسليم إدارة الحكومة الأمريكية للسلطة الملكية ، وأجمعت المجالس على الحض على مقاطعة البضائع البريطانية من جديد ، ولقيت الجهود المبذولة لجمع الرسوم الجديدة مقاومة عنيفة ، وحاول اللورد نورث حلا وسطا بإلغاء جميع الرسوم التى فرضها تاونسهند فيما عدا رسما على الشاى قدره ثلاثة بنسات على الرطل ، وأرخى المستعمرون مقاطعتهم ، ولكنهم صمموا على ألا يشربوا من الشاى إلا المهرب . فلما حاولت ثلاثة سفن تملكها شركة الهند الشرقية تفريغ ٢٨٩ صندوقا من الشاى فى بوسطن ، صعد إلى السفن خمسون مستعمرا حانقا متنكرين فى زى هنود الموهوك ، وتغلبوا على مقاومة ملاحيها ، وأفرغوا شحنتها فى البحر (١٦ ديسمبر ١٧٧٣) . وعطلت حوادث الشغب فى ثغور أمريكية أخرى المزيد من الجهود لتفريغ شاى الشركة .

وبقية القصة أكثر يخص أمريكا ، ولكن الدور الذى لعبه فيها ساسة بريطانيا وخطباؤها وكتابها ورأيها العام هو عنصر حيوى فى تاريخ انجلتره . وكما أن أقلية كبيرة نشيطة فى أمريكا طالبت بالولاء للوطن الأم ولحكومته ، فإن أقلية فى انجلتره يمثلها فى البرلمان شاتام ، وبيرك ، وفوكس ، وهوراس ولبول ، وولكس ، ناضلت لإقرار سلام بشروط فى مصلحة أمريكا ، بينما كان الجمهور عموما يؤيد الإجراءات الحربية التى اتخذتها وزارة اللورد نورث . ورأى البعض فى انقسام الرأى العام الإنجليزى على هذا النحو إحياء للمعارضة التى قامت بين الملكيين والبرلمانيين فى ١٦٤٢ . وناصرت الكنيسة الإنجليزية الحرب ضد المستعمرين مناصرة كاملة ، وكذلك الميثوديون سيرا وراء زعيمهم ويسلى ، ولكن كثيرا من المنشقين غير هؤلاء أسفوا على هذا الصراع لأنهم

تذكروا أن أغلبية من المستعمرين تحدرت من جماعات منشقة . ووافق جون جونسون على إدانة المستعمرات ، ولكن ديفد هيوم حذر بريطانيا وهو على وشك الموت من أن محاولة إكراه أمريكا ستفضى الى كارثة[١٠٥] أما أصحاب المصالح التجارية فقد مالوا إلى تأييد الملك لأن طلبات الحرب تجلب لهم الأرزاق . وقال بيرك فى حزن أن الحرب « قد أصبحت بديلا للتجارة حقا ... والطلبات الضخمة على الإمدادت والبضائع من كل نوع ... ترفع معنوية عالم التجارة ، وتغرى التجار بألا يروا فى الحرب الأمريكية نكبتهم بقدر ما هى مورد ثرائهم » [١٠٦] .

وخشى الأحرار أن تقوى الحرب المحافظين على حزبهم ، والملك على البرلمان ، وفكر أحد الأحرار وهو دوق رتشموند فى الرحيل إلى فرنسا فرارا من الاستبداد الملكى[١٠٧] وكان فى مسلك جورج الثالث مايبرر مثل هذه المخاوف بعض التبرير . فقد اضطلع بمهمة الحرب كاملة ، حتى بتفاصيلها الحربية ، وأطاع اللورد نورث والوزراء الآخرون قيادة الملك وإن ناقض هذا رأيهم الخاص فى حالات كثيرة ، وأحس الملك أنه لو نجح الأمريكيون لواجهت انجلترة الثورة فى مستعمرات أخرى ، ولانحصرت آخر الأمر فى جزيرتها ، على أن اللورد شاتام حذر البرلمان من أن قمع أمريكا سيكون انتصارا لمبادىء تشارلز الأول وجيمس الثانى . وفى ٢٠ نوفمبر ١٧٧٧ ، بعد أن عانت الجيوش البريطانية هزائم كثيرة فى أمريكا ، وكانت فرنسا تعين المستعمرات بالمال ، استمع شاتام وهو قادم إلى مجلس اللوردات كأنما من القبر إلى « خطاب العرش » الوزارى بضيق متعاظم ، وقام ليلقى خطابا يعد من أروع ما سجلته البلاغة البريطانية من خطب ، ففيه اجتمع التاريخ والأدب . قال :

« إننى يا سادتى الاوردات أقف لأعرب عن مشاعرى عن هذا الموضوع البالغ الجد والخطر .. فلست أستطيع الموافقة على خطاب أعمى ذليل يوافق ويحاول أن يكرس الإجراءات الرهيبة التى هالت فوقنا العار والخذلان — والتى جلبت الخراب إلى أبوابنا .. هذه أيها السادة لحظة خطرة هائلة !

ليس الوقت وقت تزلف .. فلطف التزلف لا يجـدى الآن ... ومن الضرورى الآن إعلام العرش بلغة الصدق .. هذا أيها السادة واجبنا ، انه الوظيفة الأصلية لهذا الاجتماع النبيل ، المعتمد فى انعقاده على سمعتنا بالأمانة والوفاء بالوعود فى هذا البرلمان ، وهو المجلس الوراثى للتاج . فمن هو الوزير — وأين هو الوزير — الذى جرؤ على أن يقترح على العرش تلك اللغة العنيدة ، غير الدستورية التى ألقيت اليوم منه ؟ إن اللغة التى اعتدناها من العرش هى طلب المشورة من البرلمان ... أما اليوم ، وفى هذا الطارىء البالغ الخطورة ، فإنه لم توضع ثقـة فى مشورتنا الدستورية ، ولم تطلب نصيحة من عناية البرلمان الرصينة المستنيرة ، ولكن التاج ، من ذاته ووحده ، يعلن تصميما باتا على مواصلة إجراءات ... مملاة ومفروضة علينا ... جلبت الخراب والاحتقار على هذه الإمبراطورية التى كانت بالأمس مزدهرة بالأمس فقط ، كان فى استطاعة انجلترة أن تثبت أمام العالم كله ، أما الآن فليس هناك أحد بلغ من المسكنة ما يغريه بتقديم الإحترام لها . . . »

« أيها السادة ، انكم لن تستطيعوا قهر أمريكا . . قد تزدادون غلوا فى بذل النفقة والجهد المفرطين ، وقد تجمعون وتكومون كل ما تستطيعون شراءه أو اقتراضه من معونة ، وقد تتاجرون وتقايضون مع كل ملك المانى حقير ضئيل يبيع رعاياه ويرسلهم إلى الذبح . . ، قد نفعلون هذا كله ، ولكن جهودكم تظل إلى الأبد باطلة عاجـزة — ويضاعف من بطلانها وعجزها هذا العون المرتزق الذى تعتمدون عليه ، لأنه يهيج عقول أعدائكم إلى حد الكراهية التى لا شفاء منها . ولو كنت أمريكيا ، كما أنا انجليزى ، ورأيت جندياً أجنبياً يرسى فى أرض وطنى ، لما وضعت سلاحى — أبداً = أبداً — أبداً — أبداً ! [١٠٨] .

أما بيرك فقد سخرّ كل ملكات جد له فى محاولة ثنى البرلمان والوزارة بحد سياسة القوة ضد أمريكا . وقد مثل من ١٧٧٤ إلى ١٧٨٠ فى البرلمان مدينة برستل التى عارض تجارها الحـرب مع أمريكا أول الأمر [١٠٩] ، كذلك كان فى هذه الفترة وكيلا براتب لولاية نيويورك [١١٠] . ولم ينكر حق البرلمان فى فرض الضرائب على المستعمرات كما أنكره شاتام ، ولم يؤيد

لجوء المستعمرين إلى نظريات تجريدية فى « الحق الطبيعى » . ولكنه نزل بالمسألة إلى حيث يستطيع الرجال العمليون أن يفهموه : فهل فرض الضرائب على أمريكا ممكن عملياً ؟ وفى خطابه عن الضرائب الأمريكية (١٩ أبريل ١٧٧٤) لم يكتف بأدانة قوانين تاونسهند بل أدان أيضاً ضريبة البنسات الثلاثة على الشاى ، وحذر من أن إضافة ضرائب على القيود الصناعية والتجارية المفروضة فعلا على أمريكا ستحمل المستعمرين على المضى فى ثورة من شأنها أن تمزق الإمبراطورية البريطانية الوليدة وتلوث سمعة البرلمان .

فلما هزم فى هذه القضية جدّد فى ٢٢ مارس ١٧٧٥ طلب المصالحة . وقال إن التجارة مع أمريكا قد تضاعفت عشر مرات بين عامى ١٧٠٤ و ١٧٧٢ [١١١] ثم تساءل أمن الحكمة تمزيق تلك التجارة وربما التضحية بها بالحرب ؟ وقال أنه يخشى أن الحرب مع المستعمرين ستترك انجلتره معرضه للهجوم من عدو أجنبى ، وهو ما حدث فى ١٧٧٨ . ووافق على أن تمثيل الأمريكيين فى البرلمان جعله البحر أمراً غير ممكن عمليا ، ولكنه أكتفى بأن يطالب بالا تعتمد انجلتره على الضرائب بل على المنح الاختياريه من مجالس المستعمرات ، وقد تزيد هذه المنح على حصيلة الضرائب المباشرة بعد خصم نفقات جمعها بالقوة [١١٢] .

على اقتراحه هذا رفض بأغلبية ٢٧٠ ضد ٧٨ ، ولكن كان عزاء له أن يكسب لقضيته بلاغة وحذق تشارلز جيمس فوكس ، وهكذا بدأت صداقة وثقت عراها الثورة الأمريكية وفصمتها الثورة الفرنسية . وقد وصف جيبون خطاب فوكس الذى ألقاه فى ٣١ أكتوبر ١٧٧٦ بأنه أقدر ما ألقاه فى حياته من خطب ، وذهب هوراس ولبول إلى أنه « من أروع خطب فوكس وأشدها حيوية » [١١٣] وقد وقف ولبول فى وصف دعاة المصالحة ، ورثى لانهيار الحنكة السياسية البريطانية فى ظل حكومة اللورد نورث ، وفى ١١ سبتمبر ١٧٧٥ كتب إلى هوراس مان يقول :

« تقرر أن يجتمع البرلمان فى العشرين من الشهر القادم ويصوت على إرسال ٢٦,٠٠٠ بحار . فياله من قرار دموى ! ليت شعرى بأى صنوف

العذاب لابد من صيانة الحرية فى أمريكا ! وفى انجلتره ما الذى يستطيع انقاذ الحريه ؟ إيه انجلتره المجنونه ، المجنونة ! أى جنون أن تنبذ كنوزها ، وتضيع ثروتها الطائلة ، وتضحى بحريتها ، ليكون ملكها الحاكم المطلق لصحارى لا نهاية لها فى أمريكا ، وجزيرة فى أوربا مفتقره إلى المال ، منزوحة السكان ، ومن ثم فاقدة الأهمية ! » [١١٤] .

على أن الذى أقنـــع الشعب الإنجليزى ، ثم حكومته ، بأفكار السلام لم تكن حماسة شاتام ولا بيرك ولا فوكس ، بل انتصارات المستعمرات وتحركاتها الدبلوماسية . وكان استسلام بورجوين فى ساراتاجوا (١٧ أكتوبر ١٧٧٧) نقطة التحول ، ولأول مـــرة قدرت إنجلتره تحذير شاتام « لن تستطيعوا قهر أمريكا » فلما اعترفت فرنسا بـــ « ولايات أمريكا المتحدة » وانضمت إلى الحرب ضـــد إنجلتره (٦ فبراير ١٧٧٨) أيد رأى الساسة الفرنسيين رأى شاتام ، وأضيف ثقل الأسلحة الفرنسية والبحرية الفرنسية المجددة إلى العبء الملقى على كاهل الأمة البريطانية بل أن اللورد نورث ذاته تخاذل ، ورجا الأذن له بالإستقالة ، ولكن الملك الذى أغرقه بهباتة أمره بالبقاء فى منصبه .

وشعر الكثيرون من الإنجليز البارزين أنه لن يستطيع اقناع المستعمرات بالعدول عن تحالفها مع فرنسا إلى الإتحاد مع انجلتره ثانية إلا حكومة يتزعمها ايرل شاتام . ولكن جورج أبى أن يستمع لهذا الرأى . فقد قال لنورث « أنى أصرح تصريحاً قاطعاً بأنه ما من شىء يحملنى على التعامل شخصياً مع اللورد شاتام » [١١٥] وجاءالأيرل إلى مجلس اللوردات لآخر مرة فى ٧ أبريل ١٧٧٨ مستنداً إلى عكازين وابنه وليم ، وقد اكفهر وجهه إيذانا بدنو منيته ، وضعف صوته حتى لم يكد يسمع . وعاد ينصح بالمصالحة ، ولكنه عارض « تقطيع أوصال هذه المالكية العريقة النبيلة جداً » بمنح الاستقلال لأمريكا[١١٦] ورد الدوق رتشموند بأن هذا المنح وحده هو السبيل إلى رد أمريكا عن عن حلفها مع فرنسا . وحاول شاتام أن ينهض ويتكلم ثانية ، ولكنه سقط مصاباً بنوبة فالج ، ومات فى ١١ مايو ١٧٧٨ وقرر البرلمان أن يشيع فى

جنازة عامة وأن يقام له قبر ونصب فى كنيسة وستمنستر . لقد كان بإجماع الناس أعظم الانجليز فى جيله .

وتلاحقت الأحداث لتكمل الكارثة التى تنبأ بهـا . ففى يونيو ١٧٧٩ انضمت أسبانيا إلى فرنسا فى الحرب ضد انجلترە ؛ وحاصرت جبل طارق وأرسلت أسطولها ليشارك فى الهجوم على السفن البريطانية . وفى أغسطس دخل أسطول صغير مشترك قوامه سفن فرنسية وأسبانية القنـال الإنجليزى ؛ واتخذت إنجلترە أهبتها فيما يشبه الحمى لمقاومة الغزو ، غير أن المرض أعجز أسطول العدو وأكرهه على الالتجاء إلى برست . وفى مارس ١٧٨٠ اتحدت روسيا والدنمرك والسويد فى اعلان بالحيـاد المسلح » أقسم على مقاومة ما درجت عليه انجلترە من اعتلاء ظهور السفن المحايده بحثا عن بضائع العدو ، ولم تلبث دول محايدة أخرى أن وقعت الإعلان . واستمر تفتيش الإنجليز للسفن الهولندية ، وقد وجد الدليل على اتفاقات سرية بين مدينة امستردام ومفاوض أمريكى . وطالبت إنجلترە بمعاقبة موظفى امستردام ولكن الحكومة الهولندية رفضت ، فأعلنت عليها إنجلترە الحـرب (ديسمبر ١٧٨٠) . وأصبحت الآن كل دول البلطى والاطلنطى تقريباً متحالفة على إنجلترە التى كانت بالأمس متسلطة على جميع البحار .

وعكس مزاج البرلمان تكاثر الكوارث . وتصاعد الاستياء من إحباط الملك لرغبة وزيره فى إنهاء الحرب . ففى ٦ أبريل ١٧٨٠ كان جون دننج قد قدم لمجلس العموم اقتراحا يعلن « أن نفوذ التاج ازداد ، وهو فى ازدياد ، وينبغى الحد منه » ، ووافق المجلس على الاقتراح بأغلبية ٢٣٣ صوتاً ضد ٢١٥ . وفى ٢٣ يناير ١٧٨١ اتخذ بت الإبن كرسيه فى المجلس ، وفى خطابه الثانى ندد بالحرب مع أمريكا ناعتا أياها بأنهـا « جد ملعونة ، شريرة ، همجية ، قاسية ، منافية للطبيعة ، ظالمة ، شيطانية » (١١٧) . ورحب فوكس مبتهجاً ببت فى صفوف المعارضة ، غير متوقع أن هذا الفتى سيكون عما قليل أقوى أعدائه .

وفى ١٩ أكتوبر ١٧٨١ استسلم اللورد كورنواليس لواشنطن فى يوركتاون.

وصاح اللورد نورث « رباه ، لقد انتهى كل شيء ! » ولكن الملك أصر على مواصلة الحرب . وفى فبراير ومارس ١٧٨٢ جاءت الأنباء بأن الأسبان استولوا على منورقة ، والفرنسيين على عدد من جزر الهند الغربية . وارتفعت الأصوات الغاضبة فى الاجتماعات العامة التى انعقدت فى طول إنجلترة وعرضها مطالبة بالسلام . وهبطت أغلبية نورث فى مجلس العموم إلى اثنين وعشرين ، ثم إلى تسعة عشر ، ثم إلى واحد — فى التصويت على اقتراح « بأن المجلس لا يستطيع بعد الآن وضع ثقته فى الوزراء الحاليين » (١٥ مارس ١٧٨٢) ، ووضع هذا سابقة تاريخية لطريقة البرلمان فى الالزام بتغيير الوزارة . وفى ١٨ مارس كتب نورث إلى جورج الثالث رسالة أنبأه فيها فى الواقع أن السياسة الملكية نحـــو أمريكا ، ومحاولة توطيد سيادة الملك على البرلمان ، كليهما قد فشل .

« إن جلالتكم على بينة من أن الملك الجالس على عرش هـــذا البلد لا يستطيع إن كان حصيفا أن يعارض القرار المدروس الذى يستقر عليه مجلس العموم . . . لقد أعرب أعضاء البرلمان عن مشاعرهم ، ومشاعرهم — صائبة كانت أم مخطئة — لابد فى النهاية أن تكون لها الغلبة . إن جلالتكم لن تفقدوا أى كرامة لو سلمتم »(١١٨) .

وفى ٢٠ مارس ١٧٨٢ ، بعد اثنتى عشرة سنة من الخدمة الصابرة والخضوع ، استقال اللورد نورث . وكتب جورج الثالث الذى تحطمت روحه خطاب اعتزال ولكنه لم يرسله . وقبل وزارة من الأحرار المنتصرين : روكنجهام ، وإيرل شلبيرن ، وتشارلز جيمس فوكس ، وبيرك ، وشريدان . ولما مات روكنجهام (أول يوليو) خلفه شلبيرن وزيرا للخزانة . واستقال فوكس وبيرك وشريدان الذين كانوا يكرهون شلبيرن . وشرع شلبيرن فى الترتيبات اللازمة لإبرام معاهدة صلح (باريس ، ٣٠ نوفمبر ١٧٨٢ ، باريس وفرساى ٢٠ يناير و ٣ سبتمبر ١٧٨٣) نزلت انجلترة بمقتضاها عن منورقة وفلوريدا لأسبانيا ، وعن السنغال لفرنسا ، ولم تقتصر على الاعتراف باستقلال المستعمرات الأمريكية بل بحقها فى جميع الأراضى الواقعة بين الأليجنى وفلوريدا والمسسبى والبحيرات العظمى .

وكان الشعب الإنجليزى تواقا للسلام، ولكن ساءه النزول عن هذه الأقاليم الكثيرة للمستعمرات ، وبلغ النقد الموجه لشلبيرن من لمرارة حدا حمله على تقديم استقالته (٢٤ فبراير ١٧٨٣) ولما كان الشقاق بين شلبيرن وفوكس قد قسم حزب الأحرار إلى شيع لم يكن لإحداها من القوة مايتيح لها الهيمنة على البرلمان ، فقد وافق فوكس على تشكيل وزارة ائتلاف مع عدوه القديم اللورد نورث . وأصبح بيرك صيرفيا للقوات المسلحة ثانية . أما شريدان الذى لم يفق من ديونه قط فقد عين وزيرا للخزانة . وكان فوكس وبيرك يفحصان منذ فترة مسلك الإنجليز فى الهند، واحتل ذلك البلد الآن محل أمريكا بوصفه أشد المشاكل إلحاحا فى السياسة البريطانية .

٦ — انجلترة والهند

كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد أعيد تنظيمها فى ١٧٠٩ باسم الشركة المتحدة لتجار انجلترة المتجرة مع الهند الشرقية » . وقد خولها المرسوم الذى حصلت عليه من الحكومة البريطانية احتكار التجارة البريطانية مع الهند . وكان يدير شئونها رئيس وأربعة وعشرون مديرا ينتخبهم سنويا « مجلس الملاك » لكل مساهم فيه بخمسمائة جنيه أو أكثر صوت واحد . وقد أصبحت الشركة فى الهند منظمة حربية كما كانت منظمة تجارية ، وقاتلت الجيوش الهولندية والفرنسية والوطنية للظفر بنصيب من امبراطورية المغول المتهاوية ، وفى حرب من هذه الحروب استولى سراج الدولة ، حاكم البنغال ، على كلكتا من الشركة ، وحبس ١٤٦ أوربيا فى « جحر كلكتا الأسود » — وهو حجرة طولها ثمانية عشر وعرضها أربعة عشر قدما ، ليس فيها غير طاقتين صغيرتين ، ومات من السجناء ١٢٣ أثناء الليل (٢٠ — ٢١ يونيو ١٧٥٦) من الحر أو الاختناق .

وقاد روبرت كلايف حاكم قلعة سانت ديفيد قوة صغيرة لاسترداد كلكتا للشركة وشارك فى المؤامرة التى دبرها مير جعفر ، وهو نبيل فى بلاط سراج الدولة ، للاطاحة بهذا الحاكم ، ثم استطاع بتسعمائة أوربى و ٣٠٠ر٢ جندى من الوطنيين أن يهزم خمسين ألف مقاتل فى بلاسى (٢٣ يونيو ١٧٥٧)

وأعدم سراج الدولة ، وعين مير جعفر مكانه حاكما على البنغال . ودخل كلايف العاصمة مرشداباب دخول الفاتحين ، وبدت له مدينة لا تقل عن لندن حجما وربما أكثر منها ثراء . ورأى فى خزانة الحاكم أكداسا لا تصدق من الروبيات والجواهر والذهب والفضة وغيرها من الذخائر . فلما طلب إليه أن يحدد مكافآته عن تنصيب جعفر حاكما ، طلب ١٦٠٫٠٠٠ جنيه لنفسه ، ٥٠٫٠٠٠ لجيشه وبحريته ، ٢٤٫٠٠٠ جنية لكل عضو من أعضاء مجلس إدارة الشركة ، و١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه تعويضا عن الخسائر التى لحقت بأملاك الشركة فى كلكتا . وهذه هى المناسبة التى أشار اليها كلايت حين أنبأ مجلس العموم أنه يعجب من اعتداله[119]. وقدتلقى من مير جعفر هدايا جملة قيمتها ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه [120] واعترف به حاكما بريطانيا للبنغال .

أما الشركة فقد اعترف بها مالكة مطلقة لمساحة حول كلكتا مقدارها ٨٨٢ ميلا مربعا نظير دفع إيجار سنوى قدره ٢٧٫٠٠٠ جنيه لمير جعفر . وفى ١٧٥٩ وافق مير جعفر على أن يحوّل لكلايف كل عام الإيجار المدفوع من الشركة لقاء العون الذى قدمه له فى إخماد فتنة .

فلما أمنت الشركة شر المنافسة ، راحت تستغل الرعايا الخاضعين لحكمها فى غير شفقة واستعانت بأسلحتها المتفوقة لتكره الحكام الهنود على دفع ثمن باهظ لقاء الحماية البريطانية . وإذ كان كبار موظفيها بمنأى عن إشراف الحكومة البريطانية ، وبمأمن حصين من الواصل العشر شرق السويس فقد حققوا أرباحا ضخمة من التجارة ، وعادوا إلى انجلترة سراة فى وسع الرجل منهم أن يشترى « دائرة جيب » أو عضوا فى البرلمان دون أن تضار ثروته ضررا بالغا .

وعاد كلايف إلى انجلترة فى ١٧٦٠ وقد بلغ الخامسة والثلاثين متوقعا أن ينعم فيها بالشهرة والثراء « فاشترى من الدوائر الانتخابية مايكفى للسيطرة على جبهة فى مجلس العموم ، وانتخب هو نفسه نائبا عن شروزبرى . غير أن بعض مديرى شركة الهند الشرقية الذين شعروا أنه سرق فوق ماتبرره سنه ، اتهموه باستخدام وثائق مزورة فى تعامله مع سراج الدولة ، ومير جعفر . غير أن نبأ وصل إلى لندن بأن الثورات الوطنية ، وفساد الموظفين

وارتشاءهم ، وعجز الإدارة — كلها تهدد مركز الشركة فى الهند ، فأعيد كلايف على عجل إلى كلكتا (١٧٦٥) حاكما للبنغال . وهناك كافح لوقف الفساد بين مساعديه ، والتمرد بين جنده ، وانتفاضات الحكام الوطنيين المتكررة على الشركة . وفى ١٢ أغسطس ١٧٦٥ أقنع شاه علم المغولى بأن يعطى الشركة الإشراف المالى المطلق على ولايات البنغال ، وبهار ، وأوريساء التى تضم من السكان ثلاثين مليونا وتغل إيرادا سنويا قدره ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . وهذا ، بالإضافة إلى انتصار كلايف فى بلاسى ، خلق الامبراطورية البريطانية فى الهند .

وبعد أن تحطمت صحة كلايف من جراء نضال امتد عامين ، عاد إلى انجلترة فى يناير ١٧٦٧ . وتجدد هجوم بعض مديرى الشركة عليه ، وأيد الهجوم موظفون كان قد كبح محاولات ابتزازهم للمال . ثم شارك نبأ مجاعة كبرى فى الهند ، وهجمات الوطنيين على معاقل الشركة ، فى إحداث ذعر هوى من جرائه نفر من أقطاب الإنجليز بخسائر فادحة . وفى ١٧٧٢ فحصت لجنتان برلمانيتان شئون الهند . فأماطتا اللثام عن ضروب من الابتزاز والقسوة جعلت هوراس ولبول يصيح : « لقد فقنا الأسبان فى بيرو ! لقد قتلنا ، وخلعنا الحكام ، ونهبنا ، واغتصبنا .. أجل ، فما قولكم فى مجاعة البنغال التى هلك فيها ثلاثة ملايين من الأنفس وسببها احتكار موظفى شركة الهند الشرقية للمؤن ؟ » [١٢١] وفى ١٧٧٣ طالبت إحدى لجنتى الفحص كلايف بأن يفسر لمجلس العموم الطرق التى استخدمها والمكاسب التى حققها فى الهند . فسلم لهم بجميع الوقائع تقريبا ، وكان دفاعه عنها أن العادات المحلية وضرورات الموقف بررتها ، ثم أضاف أن على الأعضاء حين يجيئون ليدينوا شرفه ألا ينسوا شرفهم . وصوت المجلس بأغلبية ١٥٥ ضد ٩٥ بأنه تلقى ٢٣٤٫٠٠٠ جنيه خلال إدارته الأولى للبنغال ، ولكنه « فى الوقت نفسه أدى لوطنه فى الواقع خدمات جليلة جديرة بالثناء » [١٢٢] وبعد عام انتحر كلايف غير متجاوز التاسعة والأربعين (٢٢ نوفمبر ١٧٧٤) :

وفى ١٧٧٣ استصدر اللورد نورث من البرلمان قانونا تنظيميا أقرض الشركة سلفة مقدارها ١٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه لينقذها (هى ومساهميها من النواب)

من الإفلاس ، وأخضع جميع الأقاليم التى تحكمها الشركة فى الهند لرآسة البنغال على أن تكون هى بدورها مسئولة أمام الحكومة البريطانية وعين وارن هيستنجز حاكما على البنغال .

وكان قد ارتقى إلى منصبه هذا من أصول متواضعة . فقد ماتت أمه وهى تلده ، وانطلق أبوه إلى حياة المغامرة ثم الموت فى جزر الهند الغربية . وأرسل أحد أعمامه الغلام إلى مدرسة وستمنستر ، ولكن العم مات فى ١٧٤٩ ، وأبحر وارن وهو فى السابعة عشرة طلباً للثراء فى الهند . وتطوع فى الخدمة العسكرية تحت قيادة كلايف ، وشارك فى استرداد كلكتا ، وأبدى اجتهادا وكفاية فى الإدارة ، فعين فى المجلس الذى يدير شئون الشركة فى البنغال . وفى ١٧٦٤ عاد إلى انجلتره . وبعد أربعة أعوام أقنعه المديرون بالإنضمام إلى مجلس مدراس . وفى طريقه إلى الهند التقى بالبارون إيمهوف وزوجته ماريون التى أصبحت خليلة هيستنجز ثم زوجته . وقد أبلى فى مدراس ، وفى ١٧٧٤ بدأ حكمه المضطرب واليا على البنغال .

وعكف على عمله بهمة ، ولكن أساليبه كانت دكتاتورية ، وكان فى بعض تصرفاته ما أتاح للسر فليب فرانسس مادة لتوجيه الهجمات إليه فى مجلس البنغال ، كما وجهها بيرك بعد ذلك فى البرلمان . ذلك أنه حين أعادت قبائل المراتا الشاه علم إلى عرش المغول فى دلهى فحول إليهم ملكية الأقاليم التى خصصها له كلايف من قبل فى كورا والله اباد ، باع هيستنجز هذه الأقاليم إلى حاكم أود ، لقاء خمسين لك من الروبيات (٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ؟) وكلف جنود الشركة بمساعدة الحاكم فى استعادة الإقليم . وسمح له بالاستعانة بجنوذ الشركة فى غزو وتملك إقليم روهلخند ، الذى كان حاكمه مدينا له (على حد قول هذا) ، وتسلمت الشركة مبلغا كبيرا لقاء استخدام هؤلاء الجنود . وكان فى تصرف هيستنجز خرق واضح للأوامر الصادرة إليه من مديرى الشركة [١٢٣] ، ولكن هؤلاء المديرين كانوا يقدرون أى حاكم بمقدار المال الذى يبعث به إلى انجلتره .

واتهم موظف هندى يدعى ننكومار هيستنجز بقبوله الرشوة ، وصدق

فرانسس وغيره من أعضاء المجلس التهمة ، وادعوا أنه « ما من ضرب من ضروب الاختلاس رأى الحاكم المحترم أن من المعقول الامتناع عنه » (١٢٤) ،

وقبض على ننكومار بتهمة تزوير ، وأدين ، وأعدم (١٧٧٥) . واشتبه فى أن هيستنجز قد استخدم نفوذه فى التأثير على قاضى القضاه السير ايليا ايمبى (وكان زميلا له فى الدراسة فى ونشستر) ليوقع على المتهم عقوبة صارمة على نحو غير مألوف . وفى ١٧٨٠ رقى هيستنجز ايمبى إلى وظيفة إضافية تغل له ٦٫٥٠٠ جنيه فى العام . وقد أفضى تراشق هيستنجز وفرانسس بالتهم إلى مبارزة جرح فيها فرانسس جرحا خطيرا .

ثم رأى حيدر على ، مهراجا ميسور ، فى الخلافات بين هيستنجز ومجلسه فرصة لطرد الشركة من الهند . فهاجم حصون الشركة بدعم من الفرنسيين ، وأحرز بعض الانتصارات المنذرة بالخطر (١٧٨٠) . فأرسل هيستنجز الجند والمال من البنغال لمقاومته ، ومات حيدر على (١٧٨٢) ولكن ابنه تيبو صاحب واصل الحرب حتى انهزم نهائيا فى ١٧٩٢ . ولعل رغبة هيستنجز فى تمويل هذه الحملات هى التى ألجأته إلى حيل لجمع المال أفضت إلى اتهامه .

ذلك أنه طالب شايت سنغ ، راجا بنارس ، بإعانة حرب تضاف إلى الدخل الذى كان ذلك الإقليم يدفعه للشركة سنويا . واعتذر الراجا بعجزه عن الاستجابة . فقاد هيستنجز قوة صغيرة إلى بنارس (١٧٨١) ، وخلع سنغ واقتضى مثلى الدخل من خلفه . ثم إن حاكم أوده المتراخى فى سداد ما فرضته عليه الشركة ، أوضح أن فى استطاعته السداد إذا ساعدته الشركة على إلزام أمه وجدته ، بيجومى (أميرتى) أوده ، بتسليمه بعض التركة التى خلفها لهما أبوه وقدرها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . وكانت أمه قد سلمته من قبل مبلغا كبيرا بعد أن تعهد بألا يطلب المزيد ، وبذلت الشركة مثل هذا التعهد رغم اعتراض هيستنجز . ونصح هيستنجز الحاكم بتجاهل التعهد وأرسل جنود الشركة إلى فيظبار ، وأكره خدام الأميرتين الأغوات بالتعذيب والتجويع على تسليم الثروة (١٧٨١) ، فدفع الحاكم منها ديونه للشركة . (١٢٥)

وعاد السر فيليب فرانسس أثناء ذلك إلى انجلتره بعـد أن شفى من جراحه (١٧٨١) ، وشرح للمديرين ولأصدقائه فى البرلمان ما اعتبره الجرائم التى اقترفها هيستنجز . وفى ١٧٨٢ وجه مجلس العموم اللوم إلى هيستنجز وغيره من وكلاء الشركة لأنهم « فى حالات عديدة تصرفوا بطريقة بغيضة مجافية لشرف الأمة وسياستها » ، ثم أمر المديرين باستدعائهم وأصدر المديرون الأمر ، ولكن مجلس المؤسسين أبطلة ، ربما لأن ثورة ميسور كانت مستمرة .

وفى نوفمبر ١٧٨٣ قدم تشارلز جيمس فوكس للبرلمان ، بوصفه وزير دولة للشئون الخارجية فى الوزارة الائتلافية ، « مشروع قانون لإصلاح الهند » او ووفق عليه لوضع شركة الهندالشرقية تحت هيمنة مندوبين تعينهم الوزارة . وعلت شكوى النقاد بانالقانون سيتيح للأعضاء الأحرار (الهويجز) أمثال فوكس وبيرك معينا من الغنائم تأتيهم بها هذه الرعاية . ومر القانون من مجلس العموم، ولكن الملك أرسل إلى مجلس اللوردات يقول أنه سيعد أى رجل يصوت للمشروع عدوا له ، فصوتوا ضده بأغلبية ٩٥ إلى ٧٦. وأودع نواب العموم احتجاجا رسميا يقرر أن هذا التدخل الملكى فى التشريع عدوان صارخ على حق أعضاء البرلمان . وأقال الملك الوزارة الائتلافية (١٨ ديسمبر ١٧٨٣) مدعيا أنها فقدت ثقة البرلمان ، ودعا وليم بت ، الذى كان فى الرابعة والعشرين . لتأليف حكومة جديدة . وحل جورج الثالث البرلمان معتقدا أن فى استطاعته الفوز فى انتخاب قومى (٢٣ مارس ١٧٨٤) وأمر عملاءه ببث الرغبات والعطايا الملكية بين الناخبين ضمانا لعودة أغلبية محافظة . وجاء البرلمان الذى التأم شمله فى ١٨ مايو مؤيدا لبت والملك تأييدا ساحقا .

كان بت نابغة فى الحكم والإدارة السياسيين وقد حقق له تفانيه البالغ فى أداء الواجب ، وإلمامه المفصل بدقائق الأمور ، وما عود نفسه عليه من التأمل الدقيق والحكم الحذر ، تفوقا سرعان ماسلم به كل زملائه الوزراء تقريبا . وأصبح لانجلتره الآن لأول مرة « رئيس » وزراء بعد روبرت

ولبول (الذى كان ابنه قد أطلق عليه هذا اللقب فى ١٧٧٣) [١٢٦] ، لأن زملاء بت لم يكونوا يتخذون أى إجراء هام دون موافقته . والواقع أنه أنشأ « حكومة مجلس الوزراء » — ومؤداها المداولة الجماعية والمسئولية الموحدة لكبار الوزراء تحت رياسة واحدة . ومع أن بت تقلد المنصب مؤيدا للسلطة الملكية ، إلا أن جده واجتهاده ، وسعة معلوماته رفعته شيئا فشيئا إلى مكان كان فيه مرشدا للملك أكثر منه تابعا . وبعد نوبة الجنون الثانية التى أصابت الملك (١٧٨٨) كان بت هو الذى حكم انجلتره فعلا .

وقد مكنه إلمامه غير العادى بالتجارة والمال من إصلاح خزانة أنهظها خوض حربين ضروسين فى جيل واحد إنهاظا خطرا . وكان بت قد قرأ آدم سمث ، ثم استمع إلى التجار ورجال الصناعة ، فخفض الرسوم على الواردات ، وعقـد بعد المفاوضة مع فرنسا معاهدة تنص على خفض التعريفات الجمركية (١٧٨٦) ، وشرح صدر أقطاب الصناعة بتصريحه بأن الصناعيين ينبغى أن يكونوا عموما معفين من الضرائب ثم عوض عن هذا بفرض الضرائب على الاستهلاك على الأوشحة والشاش والقفازات والقبعات والشموع والأرائك والملح والنبيذ والآجر والقرميد والورق والشبابيك ، وقد لجأت بيوت كثيرة إلى تكسية بعض نوافذها بالخشب خفضا للضريبة [١٢٧] . فما وافى عام ١٧٨٨ حتى ووزنت الميزانية ، ونجت انجلتره من الإفلاس الحكومى الذى كان مفضيا بفرنسا إلى الثورة .

وكان بت قبل الانتخاب قد قدم للبرلمان « مشروع قانون الهند الأول » الذى هزم . فقدم الآن مشروعا ثانيا : خلاصته أن يدير مجلس إشراف يعينه الملك العلاقات السياسية لشركة الهند الشرقية ، أما العلاقات والرعاية التجارية فتترك فى أيدى الشركة خاضعة لحق النقض الملكى . وأقر البرلمان المشروع (٩ أغسطس ١٧٨٤) وظل يهيمن على الشئون البريطانية — الهندية حتى ١٨٥٨ .

أما فوكس وبيرك فقد رأيا فى هـذا الترتيب استسلاما مخزيا لشركة اشتهرت بالفساد والإجرام . وكان لبيرك أسباب خاصة تدعوه للسخط . ذلك أن راعيه اللورد فرنى ، وأخاه رتشرد بيرك ، وقريبه وليم بيرك ،

كانوا من قبل مستثمرين فى شركة الهند الشرقية ، ثم نزلت بهم خسائر فادحة من جراء تقلبات أسهمها[١٢٨] . وحين ذهب وليم بيرك إلى الهند زكاه ادموند لدى السر فيليب فرانسس قائلا أنه يحبه حبا جما . فعين وليم صرافا للرواتب ، وتبين أنه « لا يقل فسادا عن غيره » [١٢٩] .

وحين عاد فرانسس إلى انجلتره أفضى إلى بيرك وفوكس برأيه فى إدارة هيستنجز ، وكان من المصادر الذى استقى منها بيرك معرفته غير العادية بالشئون الهندية . ولعل هجوم الهويجز اللبراليين على هيستنجز كان بعض مادفعهم إليه الرغبة فى تشويه سمعة وزارة بت والإطاحة بها [١٣٠] .

وفى يناير ١٧٨٥ استقال هيستنجز وعاد إلى انجلتره . وراوده الأمل فى أن تشفع له السنون الطويلة التى أنفقها فى الإدارة ، وإصلاحه مالية الشركة حتى استطاعت الوفاء بديونها ، وإنقاذه للقوة البريطانية فى مدراس وبومباى ، فى معاش يثاب به ، إن لم يكن فى لقب نبالة يشرف به . وفى ربيع ١٧٨٦ طلب بيرك إلى مجلس العموم تقديم السجلات الرسمية لحكم هيستنجز فى الهند . ورفض تقديم بعض هذه السجلات ، وأعطاه الوزراء بعضها الآخر . وفى ابريل طرح أمام المجلس بيانا بالتهم الموجهة إلى حاكم البنغال السابق ، وقرأ هيستنجز على المجلس ردا مفصلا . وفى يونيو قدم بيرك تهماً تتصل بحرب روهلخند ، وطلب توجيه الاتهام إلى هيستنجر ، ولكن مجلس العموم رفض تقديمه للمحاكمة . وفى ١٣ يونيو روى فوكس قصة شايت سنغ ، وطلب تقديم هيستنجز للمحاكمة . وفاجأ بت مجلس وزرائه بالإدلاء بصوته فى صف فوكس وبيرك ، وحذا حذوه كثيرون من الوزراء الأعضاء فى حزبه ، ولعله رسم هذه السياسة ليفصل الوزارة عن مصير هيستنجز . وووفق على اقتراح تقديمه للمحاكمة بأغلبية ١١٩ إلى ٧٩ . وقطع سير الدراما تأجيل البرلمان وحفظ القضايا الأخرى ، ولكنها استؤنفت باستحسان عظيم فى ٧ فبراير ١٧٨٧ ، يوم ألقى شريدان خطابا قال فوكس وبيرك وبت فيه أنه أفضل خطاب سمع فى مجلس العموم طوال تاريخه [١٣١] ، (عرض على شريدان ألف جنيه نظير نسخة مصححة من الخطاب ، ولكنه لم يجد قط وقتا للقيام بهذه المهمة ، ولا نعرف الخطاب الا من الخلاصات المخفضة)

وقد روى شريدان قصة سلب أميرتى أوده ونهبهما بكل ما أوتى من فن رجل ولد للمسرح ، وبكل ماتضطرم به نفس رومانسية من غيرة وحماسة . وبعد أن استغرق فى خطابه أكثر من خمس ساعات ، طالب بتوجيه الاتهام الى هيستنجز . . وصوت بت ثانية فى صف المحاكمة ، ووفق على الاقتراح بأغلبية ١٧٥ الى ٦٨ . وفى ٨ فبراير عين المجلس لجنة من عشرين — على رأسهم بيرك وفوكس وشريدان — لإعداد بنود الاتهام . وقدمت البنود ، وفى ٩ مايو أمر المجلس « المستر بيرك ، باسم مجلس العموم . . أن يذهب إلى محكمة مجلس اللوردات ويوجه الاتهام للسيد وارين هيستنجز . . . بالجرائم والانحرافات الجسيمة » . وقبض على هيستنجز وجىء به أمام اللوردات ، ولكن أطلق سراحه بكفالة .

ثم بدأت محاكمته ، بعد أن تعطلت طويلا ، فى ١٣ فبراير ١٧٨٨ فى قاعة وستمنستر . وكل عشاق الأدب سيتذكرون وصف ماكولى الرائع [١٣٢] للحشد التاريخى : اللوردات جلوسا وهم فى فرائهم وذهبهم بوصفهم المحكمة العليا للمملكة ، وأمامهم هيستنجز شاحب اللون مريضا ، وقد بلغ عمره الثالثة والخمسين ، وطوله خمسة أقدام وست بوصات ، ووزنه ١٢٢ رطلا ، والقضاة تتوج هاماتهم بواريك تغطى آذانهم ، والأسرة المالكة ، وأعضاء مجلس العموم ، والشرفات غاصة بالسفراء والأميرات والدوقات ، ومسز سيدونز بجمالها المهيب ، والسر جوشوا رينولدز وسط العديد من وجوه القوم الذين صورهم ، وفى جانب جلست اللجنة التى سميت الآن « المديرين » تتأهب لتقديم حجج الاتهام . ثم قرأ الكتبة بيان التهم وجواب هيستنجز ، وراح بيرك فى أقوى خطاب ألقاه فى حياته ، على مدى أربعة أيام ، يصب فوق رأس المتهم سيلا متدفقا من الاتهامات . وأخيرا ، فى ١٥ فبراير ، دوى فى القاعة التاريخية صوته مجلجلا يطالب فى حماسة بالاتهام :

إنى أتهم السيد وارين هيستنجز بجرائم وانحرافات جسيمة ،
إنى أتهمه باسم نواب بريطانيا العظمى ... الذين خان ثقتهم البرلمانية ..

إنى أتهمه باسم شعب الهند ، الذى هدم قوانينه وحقوقه وحرياته ، ودمر ثرواته ، وأقفر وطنه وخربه .

إنى أتهمه باسم قوانين العـــدل الأزلية التى انتهكها ، وبمقتضى هذه القوانين . . .

إنى اتهمه باسم الطبيعة البشرية ذاتها ، والتى اعتدى عليها بقسوة ، وألحق بها الأذى وظلمها فى الجنسين جميعا ، وفى كل عمر للناس ، ومقام ، ومركز ، وحال من أحوال الحياة (١٣٣) .

ومضت المحاكمة تتخللها عشرات المقاطعات ، وبيرك ، وفوكس ، وشريدان ، وغيرهم يروون قصة ولاية هيستنجز . فلما شاع أن شريدان سيقدم الدليل فى قضية بيجومى أوده ، ظهر ٣ يونيو ، غصت الشوارع المؤدية إلى قاعة وستمنستر من الثامنة صباحا بالناس ، وفيهم كثير من علية القوم ، وكلهم تواق للعثور على وسيلة الدخول للقاعة . وباع البعض ممن حصلوا من قبل على تصريحات بالدخول تصريحاتهم بخمسين جنيها إنجليزيا (١,٥٠٠ دولار ؟) للتصريح . وفهم شريدان أن القوم يتوقعون منه أداء دراميا ، فأداه . وخطب فى أربع جلسات ، وفى آخر يوم (١٣ يونيو ١٧٨٨) ، بعد أن ظل يخطب خمس ساعات ، وقع إعياء بين ذراعى بيرك الذى عانقه . أما جبون الذى كان فى الشرفة فقد وصف شريدان بأنه « ممثل قدير » ولاحظ أن الخطيب كانت تبدو عليه امارات العافية حين ألم به المؤرخ صباح الغد (١٣٤) .

وكان ذلك الخطاب قمة المحاكمة . وكانت كل تهمـــة من قائمة التهم الطويلة تقتضى البحث والتحقيق ؛ ولم يتعجل اللوردات مهمتهم ، ولعلهم تباطأوا ليزيلوا الأثر الذى خلفته البلاغـــة ، ويدعوا الاهتمام بالقضية ينصرف إلى أحداث أخرى ، وجاءت الأحداث ، فقد جن الملك جورج فى أكتوبر ١٧٨٨ ، وجن على نحو خطير تماما ، إذ فدحه ضغط المحاكمة وسوء سلوك ولده . فقد كان جوروج أوغسطس فردريك ، أمير ويلز ، فتى بدينا ، طيب القلب ، سمح النفس ، متلافا ، عاشقا للنساء ، وكان

قد احتفظ بسلسلة متصلة من الخليلات ، وتجمعت عليه ديون أداها أبوه أو الأمة . وفى ١٨٧٥ تزوج سراً بالسيدة ماريا آن فتز هربرت ، الكاثوليكية الرومانية التقية ، التى ترملت من قبل مرتين ، وكانت تكبر الأمير بست سنين . واقترح الأحرار بزعامة فوكس تأليف مجلس وصاية يرأسه الأمير ، الذى ظل ساهرا ليلتين فى انتظار اعلان بعدم أهلية الملك، ولكن جورج الثالث شوش الموقف بفترات من سلامة العقل قطعت حالة جنونه ، وكان خلالها يتحدث عن جاريك وجونسن ، ويغنى لقطات من هندل ، ويعزف على الناى . وفى مارس ١٧٨٩ شفى ، ونضا عنه سترته الضيقة ، واستأنف مراسم الحكم .

وجاءت الثورة الفرنسية بمنصرف آخر عن المحاكمة . فقد تخلى بيرك عن مطاردة هيستنجز وخف لنجدة مارى أنطوانيت . وأتى تطرف خطبه وغلوها على البقية الباقية من شعبيته ، وراح يشكو من تسلل أعضاء البرلمان إلى خارج القاعة متى بدأ الكلام . وكان أكثر الصحف يناوئه، وقد اتهمها بأن ٢٠٠,٠٠٠ جنيه قد استخدمت فى شراء الصحفيين ليهاجموه ويدافعوا عن هيستنجز ؛ وما من شك فى أن شطرا كبيرا من ثروة هيستنجز قد أنفق فى هذا السبيل [١٣٥] ولابد أن بيرك لم يفاجأ حين برأ مجلس اللوردات ساحة هيستنجز (١٧٩٥) فى نهاية المطاف ، بعد مضى سنوات ثمان على الاتهام . وكان شعور الناس العام أن الحكم عادل : صحيح أن المتهم كان من نواحى كثيرة مذنبا ، ولكنه استنقذ الهند لانجلترة ، وعوقب بمحاكمة حطمت صحته وآماله ، وخلفته ملوث السمعة مفلسا .

وعمر هيستنجز بعد موت جميع متهميه . وأنقذته شركة الهند الشرقية من الافلاس بالموافقة على اعطائه منحة قدرها ٩٠,٠٠٠ جنيه . فاسترد ضيعة أسرته الوراثية فى ديلز فورد ، وأصلحها ، وعاش فى بذخ شرقى. وفى ١٨١٣ طلب إليه الادلاء بشهادته عن شئون الهند أمام مجلس العموم، فقوبل فيه بالتصفيق والاجلال ، ونوه بخدماته ، ومحيت أوزاره مع الزمن . وبعد أربع سنوات رحل عن هذه الدنيا ، ولم يبق حيا من جيله الصخاب غير فرد واحد — هو الملك الأعمى المعتوه .

٧ — انجلتره والثورة الفرنسية

بعد أن أوشك بيرك على استنفاد قوته فى الحرب ضد شركة الهند الشرقية ، ناصب الثورة الفرنسية العداء الشخصى ، وخلال هذه الحملة الجديدة شارك بقسط كبير فى الفلسفة السياسية .

وكان قد تنبأ بالثورة قبل نشوبها بعشرين عاما ؛ « بهذا الضيق والحيرة البالغين تنوء كل مالية فرنسا ، وتفوق نفقتها مواردها فى كل ناحية ، بحيث لم يعد مناص لكل إنسان . . . نظر فى شئونها بأقل اهتمام أو علم ، من أن يترقب فى كل لحظة حدوث اضطراب هائل فى النظام بأجمعه ليس من اليسير التكهن بآثاره على فرنسا بل على أوربا جميعها » (١٣٦) . وفى ١٧٧٣ زار فرنسا ، وفى فرساى رأى مارى أنطوانيت وكانت آنئذ زوجة لولى العهد ، ولم ينس قط رؤياه تلك للجمال الغض والسعادة النضرة والكبرياء الشابة . وقد خلص إلى رأى طيب فى النبالة الفرنسية ، وأطيب منه فى الكهنوت الفرنسى . وصدمته دعوة جماعة الفلاسفة المناوئه للكثلكة ، بل المناوئة للدين فى حالات كثيرة ، وحين عاد إلى انجلتره حذر مواطنيه من الألحاد لأنه « أبشع وأقسى لطمة يمكن أن توجه إلى المجتمع المتمدن » (١٣٧) .

فلما أن اندلعت نيران الثورة أفزعه ذلك التهليل الذى لقيته من صديقه فوكس ، الذى هتف لسقوط الباستيل باعتباره « أعظم حدث وقع فى العالم و... أفضله (١٣٨) . وكانت الأفكار الراديكالية المنبعثة من الحملات التى شنها ولكس وجمعية مؤيدى ملتمس الحقوق قدانتشرت فى انجلتره ببطء . واقترح كاتب مغمور فى ١٧٦١ الشيوعية دواء لكل الأدواء الاجتماعية إلا تكاثر السكان الذى خشى أن يبطل كل الجهود المبذولة للتخفيف من الفقر. (١٣٩) وتكونت فى ١٧٨٨ جمعية لإحياء ذكرى ثورة ١٦٨٨ ، وضمت بين أعضائها نفرا بارزا من رجال الدين والنبلاء . فلما إلتأم شملها فى ٤ نوفمبر ١٧٨٩ ، بلغ انفعالها و تأثرها بواعظ موحد يدعى رتشرد برايس حداً جعلها تبعث

برسالة تهنئة للجمعية الوطنية فى باريس ، معربة عن الأمل فى أن « المثل العظيم الذى ضربته فرنسا » قد « يشجع أمما أخرى على توكيد الحقوق الثابتة لبنى الإنسان» [١٤٠] ووقع الرسالة ايرل ستانهوب الثالث ، رئيس الجمعية ونسيب وليم بت .

وأثارت العظة والرسالة مخاوف بيرك وغضبه.وكان ناهز الستين ووصل إلى حقه فى أن يكون محافظ النزعة . وكان رجلا متدينا يملك ضيعة كبيرة . لذلك لم ير فى الثورة الفرنسية « أدهش ثورة وقعت فى العالم إلى يومنا هذا » [١٤١] فحسب ، بل أعتى عدوان على الدين والملكية والنظام والقانون. وفى ٩ فبراير ١٧٩٠ أخبر مجلس العموم أنه لو حدث أن أى صديق له وافق على أى إجراءات من شأنها أن تدخل إلى انجلترة ديمقراطية كتلك التى تتشكل فى فرنسا ، لأنكر صداقته مهما طال رسوخها وعزت مكانتها . وهدأ فوكس الخطيب بإطرائه المشهور لبيرك كأفضل معلم له . وتأجلت القطيعة بينهما حينا .

وفى نوفمبر ١٧٩٠ نشر بيرك « تأملات فى الثورة فى فرنسا » على شكل رسالة (بلغ طولها ٣٦٥ صفحة) إلى « سيد فى باريس » وأصبح بيرك الآن بطل انجلترة المحافظة ، وهو الذى كان قد تزعم الأحرار خلال الثورة الأمريكية ؛ وأعرب جورج الثالث عن ابتهاجه بخصمه القديم . وغدا الكتاب إنجيل الملوك والأرستقراطيات فبعثت كاترين الكبرى ، التى كانت يوما ما صديقة جماعة الفلاسفة وحبيبتهم ، تهنئاتها للرجل الذى كان قد نوى خلعهم عن عروشهم . [١٤٢] .

وقد استهل بيرك كتابه بالإشارة إلى الدكتور برايس وجمعية إحياء ذكرى الثورة . ثم أسف أسفا شديدا على دخول رجال الدين حلبة المناقشات السياسية ، وقال إن مهمتهم إرشاد النفوس إلى المحبة المسيحية لا إلى الإصلاح السياسى . وأنه لا يثق بحق تصويت الذكور العام الذى يدافع عنه برايس، فرأيه أن الأغلبية ستكون أشد طغيانا من الملوك ، وأن الديمقراطية ستنحط إلى حكم الغوغاء ، فالحكمة ليست فى الكثرة بل فى الخبرة . والطبيعة

لاتعرف شيئا عن المساواة ، وما المساواة السياسية إلا أكذوبة بشعة لا يسفر بها الأفكار الكاذبة والتطلعات الباطلة فى رجال كتب عليهم السير فى المسالك المجهولة للحياة الشاقة إلا عن تفاقم عدم المساواة الحقيقى ، الذى لن تقوى إطلاقا على إزالته » (١٤٣) . والأرستقراطية لا محيص عنها ، وكلما أعرقت أجادت أداء وظيفتها ، وهى أن توطد فى صمت ذلك النظام الاجتماعى الذى بدونه يستحيل الإستقرار والأمان والحرية (١٤٤) . والملكية الوراثية نظام حسن لأنها تهب الحكومة وحدة واستمراراً بدونهما تتردى علاقات المواطنين القانونية والإجتماعية فى سبيل محموم مضطرب . والدين حسن لأنه يهيمن على كبح تلك الدوافع غير الإجتماعية التى تستعر كأنها النار من تحت سطح الحضارة ، والتى لا سبيل إلى ضبطها إلا بالتعاون المتواصل بين الدولة والكنيسة ، وبين القانون والعقيدة ، وبين الخوف والإحترام ، وأولئك الفلاسفة الفرنسيون الذين قوضوا الإيمان الدينى بين صفوف شعبهم المتعلمة إنما يتلون بحماقة تلك اللجم التى حالت بين الرجال وبين أن يصبحوا وحوشا .

وقد أسخط بيرك انتصار الغوغاء فى فرساى على « ملك معتدل شرعى » وعلى معاملته « بضراوة وعدوان وإهانة فاقت أى شىء » ثار به شعب على أشد المغتصبين خروجاً على القانون وأكثر الطغاة تعطشاً للدماء (١٤٥) . وهنا تقع الصفحة الشهيرة التى إنتشينا لها فى شبابنا :

« لقد مضت الآن ستة أو سبعة عشر عاماً منذ رأيت ملكة فرنسا فى فرساى وكانت يومها زوجة ولى العهد ، والحق أنه ما من منظر أبهج من هذا حط على هذا الكوكب الذى بدت وكأنها لا تمسه إلا مساً رفيقاً . لقد رأيتها فوق الأفق بقليل ، تجمل وتبهج الدائرة الراقية التى همت بالتحرك فيها — ساطعة كنجمة الصبح ، فياضة بالحياة ، والبهاء ، والفرح . أية ثورة تلك ! وأى قلب يجب أن تضمه جوانحى حتى أتأمل دون إنفعال ذلك السمو وذلك السقوط ! (*) لم يخطر ببالى يوم كانت تجمع بين ألقاب التبجيل وألقاب

(*) يعنى إكراه الغوغاء فى فرساى لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت على العودة معهم إلى باريس والسكنى فى قصر التويلرى تحت رقابة الشعب (٥ — ٦ أكتوبر ١٧٨٩) .

الحب المتحمس ، البعيد ، المشرب بالإحترام ، أنها ستضطر يوماً ما إلى حمل ذلك الترياق القاطع ضد الخزى ، المخفى فى ذلك الصدر ، ولا خطر ببالى أننى سأعيش لأرى خطوباً كهذه نصيبها فى أمة من الرجال البواسل ، أمة من رجال كلهم شرف وكلهم شهامة . كنت أظن أن عشرة آلاف سيف لابد قافزة من أغمادها لتثأر حتى لنظرة واحدة تهددها بالإهانة . ولكن عصر الفروسية ولى ، وخلفه عصر السوفسطائيين والإقتصاديين والحسابين ، وانطفأ مجد أوربا إلى الأبد » [١٤٦] .

وضحك السر فيليب فرانسس على هذا كله وقال إنه هراء رومانسى ، وأكد لبيرك أن ملكة فرنسا إمرأة فاجرة لعوب [١٤٧] . وكذلك رآها كثير من الإنجليز الوطنيين ، على أن هوراس ولبول أكد أن بيرك صور مارى أنطوانيت « بالضبط كما بدت لى أول مرة رأيتها وهى ولية للعهد » [١٤٨] .

فلما واصلت الثورة مسيرها واصل بيرك هجومه فنشر «رسالة لعضو فى الجمعية الوطنية » (يناير ١٧٩١) اقترح فيها أن تتحد حكومات أوربا لكبح جماح الثورة ورد ملك فرنسا إلى سلطته التقليدية . وروع الاقتراح فوكس ، وفى ٦ مايو ، فى مجلس العموم ، انتهى الصديقان اللذان حاربا كتفا إلى كتف فى حملات كثيرة جدا بتفرق طريقهما تفرقا دراميا . فقد كرر فوكس ثناءه على الثورة . ولكن بيرك قام محتجا وقال « ليس من الحكمة فى أى وقت ، خصوصا فى سنى هذه ، أن أستفز الأعداء ، أو أعطى فرصة لأصدقائى ليتخلوا عنى ، ولكن إذا كان ولائى القوى الثابت للدستور البريطانى يضعنى فى هذه الورطة فإنى على استعداد لركوب هذه المغامرة . » فأكد له فوكس أن الخلافات فى الرأى بينهما لا تنطوى على فصم لأواصر الصداقة . وأجاب بيرك « كلا كلا ، إن فيها فقدا للأصدقاء . إنى أعرف ثمن سلوكى . . لقد انتهت صداقتنا . » [١٤٩] ولم يعد بعدها للكلام مع فوكس إلا رسميا فيما أكرها عليه من اتحاد الموقف فى محاكمة هيستنجز .

وقد قدم بيرك فى كتاباته عن الثورة الفرنسية تعبيراً كلاسيكياً لفلسفة محافظة . وأول مبادئها عدم الثقة بمنطق فرد أيا كان ذكاؤه إذا تعارض

مع تقاليد النوع الإنسانى . فكما أن الطفل لا يستطيع فهم أسباب المحاذير والنواهى الأبوية ، فكذلك لا يستطيع الفرد ، وما هو إلا طفل بالقياس إلى النوع ، أن يفهم دائماً أسباب العادات والأعراف والقوانين التى تجسد تجربة أجيال كثيرة . والحضارة تستحيل « إذا إرتكزت ممارسة جميع الواجبات الأخلاقية ، وأسس المجتمع ، على جعل أسبابها ومبرراتها واضحة ثابتة بالبرهان لكل فرد » . (١٥١) لا بل حتى « الأحكام المسبقة » لها فائدتها ، فهى تحكم سلفاً على المشكلات الحاضرة على أساس الخبرة الماضية .

فالعنصر الثانى من عناصر المحافظة إذن هو « حق التقادم » : فالتقليد أو المؤسسة يجب إحترامها إحتراماً مضاعفاً وعدم تغييرها إلا نادراً إذا كانت مكتوبة فعلا أو مجسمة فى نظام المجتمع أو هيكل الحكومة . والملكية الفردية مثال على حق التقادم وعدم معقولية الحكمة فى الظاهر . فإنه ليبدو من غير المعقول أن تملك أسرة واحدة ثروة كبيرة وأخرى ثروة ضئيلة ، وأمعن فى اللامعقولية أن يسمح للمالك بتوريث ثروته لخلفه الذين لم يحركوا أصبعاً فى كسبها ، ومع ذلك تبين بالتجربة أن الناس بوجه عام لن ينهضوا للعمل والدرس ، ولا للتحضير الشاق المكالف ، ما لم يصفوا ثمرات جهودهم بأنها ملكهم الخاص ، لهم أن ينقلوها لغيرهم ، إلى حد كبير ، كما يشاءون . وقد أثبتت التجربة أن تملك الثروة أفضل ضمان يكفل حكمة التشريع واستمرار الدولة .

فليست الدولة مجرد تجمع أشخاص فى مكان ما فى لحظة ما ، إنما هى تجمع أفراد على مدى الزمن المستطيل « إن المجتمع هو حقاً تعاقد ... شركة لا بين الأحياء فحسب ، بل بين الأحياء ، والأموات ، والذين سيولدون »(١٥١) . وذلك الإستمرار هو وطننا . فى هذا الكل الثلاثى قد تكون الأغلبية الراهنة أقلية بمضى الزمن ، ويجب على المشرع أن يراعى حقوق الماضى (خلال « حق التقادم ») وحقوق المستقبل ، رعايته لحقوق الحاضر الحى . والسياسة هى ، أو ينبغى أن تكون ، فن المواءمة بين أهداف الأقليات المتضاربة وصالح الجماعة المستمرة . يضاف إلى هذا أنه ليس هناك حقوق مطلقة ، فما هذه إلا تجريدات ميتافيزيقية لا تعرفها الطبيعة ، وليس هناك إلا الرغبات ، والقوى ، والظروف ، و « الظروف تضفى على كل مبدأ سياسى لونه المميز

وأثره الفارق » [١٥٢] والمصلحة أهم أحياناً من الحقوق « ينبغى أن تكيف السياسة لا وفق الحجج البشرية [المجردة] بل وفق الطبيعة البشرية ، التى ليس العقل فيها إلا جزءاً وليس أكبر جزء على الإطلاق [١٥٣] . « يجب أن ننتفع بما يوجد من مواد [١٥٤] » .

هذه الإعتبارات كلها يوضحها الدين . قد لا تكون عقائد دين من الأديان وأساطيره ومراسمه متفقة مع عقلنا الفردى الحاضر ، ولكن هذا ليس بذى بال إذا إتفقت وحاجات المجتمع الماضية والحاضرة والمستقبلة . والتجربة قاطعة فى أن عواطف الناس المشبوبة لا يمكن السيطرة عليها إلا بتعاليم الدين وشعائره « إذا نحن كشفنا عريناً [أطلقنا غرائزنا] بنبذ ذلك الدين المسيحى الذى كان ... مصدراً عظيما للمدنية بيننا .. فإننا نخشى (ليقيننا بان الفكر لا يطيق فراغاً) أن تحل محله خرافة خرقاء ، مؤذية ، محطة [١٥٥] » .

ورفض كثير من الإنجليز نزعة بيرك المحافظة باعتبارها تمجيداً للركود [١٥٦] ، ورد عليه توماس بين بقوة فى كتابه « حقوق الإنسان (١٧٩١ — ٩٢) . ولكن إنجلتره التى عاصرت شيخوخة بيرك رحبت عموماً بعبادته للسلف . فلما مضت الثورة الفرنسية فى طريقها قدماً إلى مذابح سبتمبر ، وإعدام الملكة والملك ، وحكم الإرهاب ، شعرت الكثرة العظمى من البريطانيين بأن بيرك أحسن التنبؤ بعواقب التمرد والكفر ، وتشبثت إنجلتره قرناً كاملا بدستورها ، دستور الملك ، والأرستقراطية ، والكنيسة الرسمية ، وبرلمان يفكر بلغة السلطات الإمبراطورية لا الحقوق الشعبية رغم أنها تخلصت من دوائرها الإنتخابية ، العفنة ووسعت حق التصويت . وبعد الثورة عادت فرنسا من روسو إلى مونتسكيو ، وصاغ جوزف دميستر آراك بيرك للفرنسيين التائبين صياغة جديدة .

وواصل بيرك إلى النهاية حملته من أجل حرب مقدسة ، واغتبط حين أعلنت فرنسا الحرب على بريطانيا العظمى (١٧٩٣) . وأراد جورج الثالث أن يثيب عدوه القديم على خدماته الأخيرة فيرفعه إلى مقام النبالة ويخلع

عليه لقب اللورد بكنزفيلد الذى شرفه دزرايلى فيما بعد . فرفض بيرك ، ولكنه قبل معاشاً قدره ٢,٥٠٠ جنيه (١٧٩٤) . فلما بدأ الحديث يتردد عن اجراء مفاوضات مع فرنسا ، أصدر «أربع رسائل عن سلام مع قتلة الملوك» (١٧٩٧ وما بعدها) ، طالب فيها بحرارة أن تستمر الحرب . ولم يطفىء لهيب ناره غير الموت (٨ يوليو ١٧٩٧) . واقترح فوكس أن يدفن فى كنيسة وستمنستر ، ولكن بيرك كان قد ترك تعليمات بأن يشيع فى جنازة غير رسمية ويدفن فى كنيسة بكنزفيلد الصغيرة . وقد ذهب ماكولى إلى أنه أعظم انجليزى منذ ملتن — وهو رأى ربما تجاهل شاتام ؛ أما اللورد مورلى فقد وصفه فى حذر أكثر ، بأنه «أعظم أساتذة الحكمة المهذبة فى لغتنا»، (١٥٧) وهو رأى لعله تجاهل لوك . على أية حال كان بيرك تجسيداً لما تاق إليه المحافظون عبثاً طوال عصر العقل — رجلا استطاع الدفاع عن العرف بالبراعة التى دافع بها فولتير من قبل عن العقل .

٨ — الأبطال يتقاعدون

حين تقدمت الثورة الفرنسية وجد تشارلز جيمس فوكس نفسه واحداً من أقلية متضائلة فى البرلمان وفى الوطن . وانحاز كثيرون من حلفائه إلى الرأى القائل بوجوب انضمام انجلترا إلى بروسيا والنمسا فى مقاتلة فرنسا ، وبعد إعدام لويس السادس عشر وجد فوكس نفسه وقد انقلب على الثورة ، ولكنه ظل على معارضته الدخول فى الحرب . فلما اندلعت الحرب رغم ذلك عزى نفسه بالشراب ، وبقراءة الآداب القديمة ، وبالزواج (١٧٩٥) من السيدة الزابث أرمستد ، خليلته السابقة (وخليلة اللورد كافندش ، واللورد دارنى ، واللورد كولمونلى) ، التى أدت عنه ديونه (١٥٨) . وقد رحب بصلح أميان (١٨٠٢) ، وقام برحلة فى فرنسا ، فاستقبل هناك بأسباب التكريم الحكومية والشعبية ، واستقبله نابليون مواطناً للحضارة . وفى ١٨٠٦ تقلد وزارة الخارجية فى «وزارة جميع المواهب» ، وقد جاهد ليحتفظ بالسلام مع فرنسا ، وأيد تأييداً قاطعاً حملة ولبرفورس على تجارة الرقيق . وحين تناهى إليه نبأ مؤامرة دبرت لاغتيال نابليون أرسل إلى

الامبراطور تحذيراً بطريق تاليران ، ولعل فوكس كان واجداً سبيلا للتوفيق بين طمع بونابرت وأمن انجلتره لولا انهيار صحته . ولكن فى يوليو ١٨٠٦ أعجزه داء الاستسقاء ، وأخفقت سلسلة من الجراحات المؤلمة فى وقف سير المرض ؛ فتصالح مع الكنيسة الرسمية ، وفى ١٣ سبتمبر مات مبكياً عليه من أصدقائه وأعدائه ، وحتى من الملك . لقد كان أوفر رجال جيله حظاً من المحبين .

وسبقه إلى أقباء كنيسة وستمنستر بت الإبن الذى شاخ قبل أوانه . فقد وجد هو أيضاً أنه لن يستطيع احتمال خطو الحياة السياسية السريع إلا بنشوة السكر تنسيه همومه من حين إلى حين . وكانت سلامة عقل جورج الثالث القلقة مشكلة دائمة ، فكل صراع خطير فى وجهات النظر بين الملك ووزيره قد يخل باتزان الرأس المتوج بأمير ويلز وصياً ، يطرد بت ويستدعى فوكس ليحل محله . وعليه فقد تخلى بت عن خططه فى الإصلاح السياسى ، وسحب معارضته لتجارة الرقيق ، حين وجد أن فى هاتين المسألتين ، كما فى كثير غيرهما من المسائل ، كان جورج مصمماً بروح المشاكسة على تخليد الماضى . وركز بت عبقريته على التشريع الاقتصادى ، الذى خدم فيه الطبقة الوسطى الصاعدة . ثم قاد انجلتره على كره شديد — فى حرب ضد من سماهم « أمة من الملحدين »[١٥٩] ولم يحسن البلاء وزيراً للحرب . فحين خشى أن يغزو الفرنسيون أرلنده ، حاول تهدئة الأرلنديين ببرنامج من الوحدة البرلمانية والتحرير الكاثوليكى ، ولكن الملك تصلب ، واستقال بت (١٨٠١) . ثم عاد (١٨٠٤) ليرأس وزارته الثانية . ولم يكن كفؤاً لمقارعة نابليون ، فلما جاء نبأ نصر الفرنسيين فى أوسترلتز (٢ ديسمبر ١٨٠٥) ذلك النصر الذى جعل نابليون سيد القارة ، انهار بت جسداً وروحاً . وحين وقع بصره على خريطة كبيرة لأوربا قال لصديق له « اطو هذه الخريطة ، فلن يكون هناك حاجة إليها هذه السنين العشر »[١٦٠] . ومات فى ٢٣ يناير ١٨٠٦ ، فقيراً فقراً مشرفاً ، غير متجاوز السادسة والأربعين .

ثم اقتضت الحياة وقتاً أطول لتقضى على شريدان . وكان قد انضم إلى برك وفوكس فى الدفاع عن أمريكا وفى خوض معركة هيستنجز ، وأيد فوكس فى التصفيق للثورة الفرنسية . غير أن الزوجة التى كان سحرها ودماثة

طبعها حديثاً محبباً بين أصدقائه ، والتي جعلت من جمالها منبر خطابة لتعينه على الظفر بكرسي في البرلمان ، هذه الزوجة ماتت بالسل وهي في الثامنة والثلاثين من عمرها (١٧٩٢) . فانهار شريدان . وقال أحد معارفه عنه « رأيته الليلة بعد الليلة يبكي كأنه طفل »(١٦١) وقد وجد بعض العزاء في الفتاة التي أنجبتها له ، ولكنها ماتت في السنة ذاتها . وفي شهور الحزن تلك واجه مهمة إعادة بناء مسرح دروري لين الذي لم يعد مأموناً لقدمه وتداعي مبانيه . ولكي يمول هذه العملية تحمل نفقات باهظة . وكان قد عود نفسه العيش المترف ، الذي عجز دخله عن الإنفاق عليه . لذلك استدان ليواصل أسلوب حياته . وحين كان دائنوه يحضرون إليه ليطالبوه بديونهم كان يحتفي بهم كأنهم اللوردات ، ويقدم إليهم الشراب والتحية المهذبة والنكتة الذكية ثم يصرفهم في حال من الرضى يكاد ينسى الدائن دينه . وقد ظل نشيطاً في البرلمان حتى ١٨١٢ حين أخفق في إعادة انتخابه . وكان من قبل يتمتع بالحصانة من الاعتقال بصفته عضواً في مجلس العموم ، أما الآن فقد أطبق عليه دائنوه ، واستولوا على كتبه ، وصوره ، ومجوهراته ، وأخيراً أوشكوا على حمله إلى السجن لولا أن طبيبه حذرهم من أن شريدان قد يموت في الطريق . ثم قضى نحبه في ٧ يوليو ١٨٠٦ وهو في الخامسة والستين . وقد عاوده الغنى في مأتمه ، لأن سبعة لوردات وأسقفا شيعوه إلى مقبرة وستمنستر .

أما الملك نصف المجنون فقد عمر بعدهم أجمعين ، بل عمر حتى رأى انتصار انجلترة في واترلو وإن لم يعلم به . وقد أدرك بحاول عام ١٧٨٣ أنه أخفق في محاولته جعل الوزراء مسئولين أمامه لا أمام البرلمان . وأضنته صراعاته الطويلة التي لم يكن كفؤ لها مع مجلس العموم ، وأمريكا ، وفرنسا . وفي ١٨٠١ و ١٨٠٤ و ١٨١٠ انتكس إلى جنونه ، وظفر في النهاية بالملك الشعبية التي حرمها أيام كفاحه ، مشوبة بالشفقة على رجل رأى انجلترة تصاب بالهزائم الكثيرة ولم يتح له أن يشهد انتصارها . وكان في موت ابنته أدبليا (١٨١٠) الأثيرة لديه ما أكمل القطيعة بينه وبين دنيا الواقع . وفي ١٨١١ كف بصره وبات مجنوناً جنوناً لاشفاء منه ، وظل معزولا تفرض عليه الحراسة حتى مات (٢٩ يناير ١٨٢٠) .

الفصل التاسع والعشرون

الشعب الانجليزى

١٧٥٦ – ٨٩

١ – أساليب الحياة الانجليزية

حسبنا هذا القدر عن الحكومة ، فلننظر الآن فى أحوال الشعب . أولا تأمل أشكال بنيتهم . فما من شك فى أن رينولدز تسامى بها ، فأظهرنا غالباً على المحظوظين حملة ألقاب النبالة . وأضفى على أجسادهم البدنية بهاء من أرواب الشرف وشاراته . ولكن استمع إلى جوته يصف الانجليز الذين شاهدهم فى فايمار ! « يا لهم من قوم ملاح الوجوه رائعى السمت ! » – وأقلقه الخوف من أن يصرف هؤلاء البريطانيون الشبان ، المملوءون ثقة فى أنفسهم ، الذين تفيض عنهم السلطة عفواً ، الفتيات الألمان عن الافتنان بالرجال الألمان(١) . وقد احتفظ كثيرون من هؤلاء الشبان بقوامهم حتى تقدم بهم العمر ، ولكن الكثيرين انتفخت كروشهم وخدودهم حين خلفوا ملاعب مدارسهم إلى لذات المائدة ، وتفتحوا كأنهم الورود الحمراء القانية ، وكافحوا فى هدأة الليل ذلك النقرس الذى غذوه أثناء النهار المرح . وقد ضاع شيء من الخشونة الاليزابيثية فى القصف الذى رافق عودة الملكية . أما النساء الانجليزيات فقد أصبحن أجمل مما كن فى أى وقت مضى ، على لوحات الرسامين على الأقل : قسمات دقيقة . وشعر تجمله الأزهار والأشرطة ، وأسرار غامضة يغلفها الحرير ، وقصائد من الشعر كلها رشاقة وجلال .

وكانت فوارق الزى الطبقية فى طريقها إلى الزوال بفضل ما جد من وفرة فى الثياب القطنية التى تنتجها المصانع المتكاثرة . ولكنها ظلت على

حالها فى المناسبات الرسمية . وقد ركب اللورد ديرونتووتر إلى موضع إعدامه فى سترة قرمزية وصدرية موشاة بالذهب[٢] . أما البواريك فكانت دولتها تدول ، ثم اختفت حين فرض بت الثانى الضرائب على المسحوق الذى يزيل رائحتها الكريهة ، ولكنها عمرت على رءوس الأطباء ، والقضاة ، والمحامين ، وعلى رأس صموئيل جونسن ؛ وقنع معظم الرجال الآن بشعرهم الطبيعى يلمونه على أقفيتهم فى ضفيره معقودة بشريط . وحوالى ١٧٨٥ أطال بعض الرجال سراويلهم من الركبة إلى ربلة الساق ؛ وفى ١٧٩٣ تركوها تصل إلى الكاحل تقليداً للهان — كيلوط الفرنسيين الظافرين ، وهكذا ولد الرجل العصرى . أما النساء فظللن يغطين صدورهن بالمخرمات حتى يشرفن على الاختناق ، ولكن التنورة المطوقة أخذت تفقد ذيوعها وعرضها ، وبدأت الفساتين تتخذ تلك الخطوط الانسيابية التى استهوتنا أيام الشباب .

أما النظافة فلم تكن من الإيمان إلا فيما ندر ، لأن الماء كان ترفا . فالأنهار جميلة ولكنها عادة ملوثة ، وكان التيمز أشبه بالمصرف[٣] . وكان الماء يفرغ فى مواسير ببيوت لندن ثلاث مرات فى الأسبوع نظير ثلاثة شلنات للكوارتر[٤] ، وكان لبعض المنازل مراحيض آلية ، وقليل منها كان له حمامات بماء جار . وكان معظم المراحيض (التى درج القوم على تسمية الواحد منها أريحا) خارج الأسوار ، مبنية فوق حفر مكشوفة ترسل نزها خلال التربة إلى آبار يأتى منها قدر كبير من ماء الشرب[٥] . على أن العناية بالصحة العامة أخذت تتحسن ، والمستشفيات تكثر ، وهبطت وفيات الأطفال من أربعة وسبعين فى كل مائة مولود عام ١٧٤٩ إلى واحد وأربعين عام ١٨٠٩[٦] .

ولم يكن أحد من الناس يشرب الماء إذا استطاع الحصول على شراب أكثر أمناً . وكانت الجعة تعد طعاماً ، لا غنى عنه لأى عمل شاق ، أما النبيذ فدواء مفضل ، وأما الوسكى فموقد متنقل ، وأما السكر فخطيئة عرضية ، ان لم تكن جزءاً ضرورياً لمسايرة المجتمع . قال الدكتور جونسن « أذكر الأيام التى كان فيها جميع الأشخاص المهذبين من أهل لتشفيلد

يسكرون كل ليلة ، ولم يسؤ رأى الناس فيهم لسكرهم هذا »[٧] .
وكان بت الثانى يحضر إلى مجلس العموم مخموراً ، واللورد كورنواليس يذهب إلى الأوبراء ثملا[٨] . وكان بعض سائقى عربات الأجرة يزيدون دخولهم بطواف الشوارع فى جوف الليل والتقاط السادة « المبسوطين » وتوصيلهم لبيوتهم . ثم تناقص السكر بتقدم القرن ، واضطلع الشاى ببعض مهمة تدفئة الأوصال وإطلاق الألسنة . وزادت واردات الشاى من مائة رطل عام ١٦٦٨ إلى أربعة عشر مليون رطل عام ١٧٨٦[٩] . وكانت مشارب القهوة الآن تقدم الشاى أكثر من القهوة .

أما وجبات الطعام فكانت شهية ، دامية ، هائلة الحجم . وكان الغداء يقدم حوالى الساعة الرابعة عصراً لعامة القوم ، ثم أخر شيئاً فشيئاً إلى السادسة باقتراب القرن من نهايته . وقد يهدىء رجل مستعجل جوعه بشطيرة (ساندوتش) . وقد اتخذت هذه البدعة اسمها من إيرل ساندوتش الرابع الذى ألف أن يتناول شريحتين من الخبز بينهما لحم متحاشياً قطع القمار بالغداء . أما الخضروات فتؤكل على مضض . وقد قال جونسن لبوزويل فى ١٧٧٣ « ان التدخين انتهت موضته » ، ولكن القوم كانوا يتناولون التبغ نشوقاً . وشاع استعمال الأفيون مسكناً أو علاجاً .

وكان فى وسع الرجل الانجليزى وهو على المائدة أن يشرب حتى ينطلق لسانه ، وعندها قد يضارع الحديث نظيره فى صالونات باريس ظرفاً ويبزه جوهراً . وذات يوم (٩ ابريل ١٧٧٨) اجتمع فيه جونسن ، وجبون ، وبوزويل ، وآلن رمزى ، وغيرهم من الأصدقاء ، فى بيت السر جوشوا رينولدز ، قال الدكتور (جونسن) ملاحظاً « أشك فى إمكان جمع شمل لفيف كهذا الذى يجلس حول هذه المائدة فى باريس فى أقل من نصف سنة »[١٠] . وكانت المحافل الارستقراطية تؤثر الحديث الظريف على حديث العلماء ، وتفضل سلوين على جونسن . وكان جورج سلوين أوسكار وايلد القرن الثامن عشر . وقد طرد من أكسفورد (١٧٤٥) لأنه « زعم فى زندقته أنه يتقمص شخصية المخلص المبارك ، ولأنه سخر من سر التناول المقدس»[١١] ،

ولكن هذا لم يحل بينه وبين الحصول على وظائف شرفية مجزية فى الإدارة الحكومية ، أو الجلوس والنوم فى مجلس العموم من ١٧٤٧ إلى ١٧٨٠ . وكان له العديد من الأصدقاء ، ولكنه لم يتزوج قط . وكان والوعاً بمشاهدة تنفيذ أحكام الإعدام ، ولكنه تغيب عن مشهد إعدام رجل كان سميا لتشارلز جيمس فوكس ، عدوه السياسى الذى كان يتطلع إلى رؤيته يتأرجح على حبل المشنقة — قال « انى حريص على ألا أحضر « البروفات » أبدا »[١٢] . وقد ظل هو وهوارس ولبول صديقين حميمين طوال ثلاثة وستين عاماً دون أن تكدر صفو صداقتهما سحابة أو امرأة .

أما الذين لم يستمتعوا بمناظر الإعدام فكان فى وسعهم أن يتخيروا ما طاب لهم من بين عشرات الملاهى الأخرى ، من لعبة الورق المسماه « هويست » أو مشاهدة قتال الطيور ، إلى سباقات الحفل أو النزال بين خصوم للظفر بجائزة . وكان الكريكت الآن اللعبة القومية . وكان الفقراء يبددون أجورهم فى الحانات ، والأغنياء يقامرون بثرواتهم فى الأندية أو البيوت الخاصة . ويقول ولبول عن جلسة قمار فى بيت الليدى هرتفورد « إننى خسرت ستة وخمسين جنيهاً فى لحظات »[١٣] . وقد أطلق جيمس جلراى ، فى رسومه الكاريكاتورية الشهيرة على أمثال هؤلاء المضيفات « بنات فرعون »[١٤] * . وكان تقبل الخسائر فى هدوء أول الصفات المطلوبة فى الرجل الانجليزى المهذب . حتى ولو انتهى به الأمر إلى اطلاق الرصاص على رأسه .

ولقد كان ذلك العالم عالم الرجل ، قانونياً واجتماعياً وأخلاقياً . فكان الرجال يستمتعون بمعظم لذاتهم الاجتماعية مع غيرهم من الرجال ، ولم ينظم ناد لعضوية الجنسين حتى عام ١٧٧٠ . وكان الرجال يثبطون الثقافة والفكر فى النساء ، ثم يشكون من عجز النساء عن الحديث المثقف . ومع ذلك وفقت بعض النساء فى تثقيف عقولهن . فتعلمت السيدة اليزابث كارتر التكلم باللاتينية والفرنسية والإيطالية والألمانية ، ودرست العبرية والبرتغالية

---

* هناك تورية فى كلمة Faro التى قد تعنى فرعون Pharaoh أو لعبة من ألعاب الورق (الفوعونية) : المترجم .

والعربية ، وترجمت ابكتيتس بدراية باليونانية ظفرت بثناء جونسن . وقد احتجت على عزوف الرجال عن مناقشة الأفكار مع النساء ، وكانت إحدى السيدات اللائي جعلن « ذوات الجوارب الزرقاء » (أى النساء المثقفات) حديث المثقفين من أهل لندن .

وقد أطلق هذا اللقب أول مرة على الاجتماعات المختلطة فى بيت السيدة اليزابث فزى بشارع هرتفورد بحى مايفير . فى هذه اللقاءات المسائية حظر لعب الورق وشجع النقاش فى الأدب . والتقت السيدة فزى ذات يوم ببنيامين ستيلنجفليت ، الذى اشتهر فترة قصيرة بأنه شاعر وعالم نباتى وفيلسوف ، فدعته إلى حفل استقبالها القادم ، فاعتذر بأنه لا يملك ملابس تصلح لأن يحضر بها حفلة . وكان يرتدى جورباً أزرق . فقالت له « لا تهتم باللباس ، تعال لابسا جواربك الزرقاء » . وذهب . ويروى بوزويل « ان حديثه كان غاية فى الروعة حتى . . . ألف القوم أن يقولوا . . « لا نفعل شيئاً بدون الجوارب الزرقاء » ، وهكذا ثبت اللقب شيئاً فشيئاً »[١٥] ، وأصبح يطلق على جماعة السيدة فزى « جماعة الجوارب الزرقاء » Bas Bleu Society . وكان يختلف إليهم جاريك وولبول ، وذات مساء روع جونسن الحاضرين جميعاً بحديث من أحاديثه الفخمة الطنانة .

أما « ملكة الزرق » كما لقبها جونسن فهى إليزابث روبنسن مونتاجيو . وكانت زوجة إدورد مونتاجيو ، حفيد إيرل ساندوتش الأول وقريب إدورد ورتلى مونتاجيو ، زوج السيدة مارى الهوائية التى نوهنا بها فى صفحات سالفة[١٦] . وكانت اليزابث مفكرة ، ودارسة ، ومؤلفة ، وقد دافع مقالها «كتابات شيكسبير وعبقريته » (١٧٦٩) فى سخط عن الشاعر القومى ضد نقد فولتير القاسى . وكانت غنية فى وسعها أن تضيف زوارها على مستوى رفيع . وقد جعلت من الحجرة الصينية التى فى بيتها الواقع فى ميدان باركلى الملتقى المحبب لمفكرى لندن وحسانها ، فأم الندوة رينولدز وجونسن وبيرك وجولدسمث وجاريك وهوراس ولبول وفانى بيرنى وهانا مور ؛ وهناك التقى الفنون بالمحامين ، والأساقفة بالفلاسفة ، والشعراء بالسفراء . وكان « الطاهى البارع » الذى استخدمته السيدة مونتاجيو يطهو لهم من الطعام

ما يشرح صدورهم جميعاً ، ولكن لم يكن يقدم للجماعة مسكر ، وكان السكر محظوراً . وكانت تلعب دور الراعية لبراعم المؤلفين ، وتنثر هباتها يمنة ويسرة . وفتح غيرها من سيدات لندن — كالسيدة ثريل ، والسيدة بوسكاوين ، والسيدة مونتاجو — بيوتهن للموهبة والجمال . وغدا المجتمع اللندنى مزدوج الجنس ، وبدأ ينافس باريس فى شهرة صالوناته وعبقريتها .

٢ — الأخلاق الانجليزية

يقول آدم سمث «فى كل مجتمع رسخ فيه التمييز بين مراتب الناس يوماً رسوخاً تاماً ، كان هناك على الدوام مخططان أو نظامان للأخلاق ساريان فى وقت معاً ، يمكن أن يسمى الواحد الصارم أو المتزمت ، والآخر المتحرر ، أو ان شئت المتحلل . أما الأول فتعجب به وتبجله عامة الشعب بوجه عام ، وأما الثانى . . . فيلقى تقديراً واعتناقاً أكثر ممن نسميهم المجتمع العصرى »[١٧] وقد وصف جون وسلى ، الذى كان ينتمى للطبقة المتزمتة ، الأخلاق الانجليزية فى ١٧٥٧ بأنها خليط من التهريب ، والإيمان الكاذبة ، والفساد السياسى ، والسكر ، والقمار ، والغش فى المعاملات ، والخداع والتحايل فى المحاكم ، والخنوع فى رجال الدين ، ومحبة العالم بين الكويكرز ، واختلاس أموال البر سراً[١٨] . وتلك شنشنة نعرفها منذ القدم .

وكان التمييز بين الجنسين يومها كما هو اليوم غير كامل إطلاقاً . فحاول بعض النساء أن يكن رجالا ، وكدن ينجحن فى هذه المحاولة ؛ ونسمع عن حالات تنكر فيها النسوة فى هيئة الرجال واحتفظن بهذا المظهر الخداع حتى مماتهن ؛ والتحق بعضهن بالجيش أو البحرية بوصفهن رجالا ، وكن يسكرن ويدخن ويشتمن كالرجال ، ويقاتلن فى المعارك ، ويحتملن الجلد بشجاعة الرجال[١٩] . وحوالى ١٧٧٢ انتشر الغنادير Macaronis فى شوارع لندن . وكانوا شباناً أرسلوا شعورهم فى خصلات معقوصة طويلة ، يلبسون ثياباً غالية ذات ألوان لافتة للنظر و « يعاشرون البغايا بغير حرارة » ، وقد وصفهم ساوين بأنهم « ضرب من الحيوان لا هو بالذكر ولا بالأنثى ، ولكنه جنس بين بين »[٢٠] وكان للواط مواخيره ، رغم أن الأفعال الجنسية الشاذة كان عقابها الإعدام ان اكتشفت وثبت ارتكابها .

وقد زكا المعيار الأخلاقى المزدوج . فكانت مئات المواخير ترفه عن الرجال المتفحخين ، ولكن هؤلاء الرجال كانوا يسمون انعدام العفة فى المرأة جريمة لا يكفر عنها غير الموت . فانظر إلى جولد سمث الرقيق يقول : « إذا تدنت امرأة جميلة إلى اتيان الحماقة ثم اكتشفت بعد الأوان أن الرجال خوافون — فأى تميمة تستطيع أن تهدىء اكتئابها ، وأى حيلة يمكن أن تمحو ذنبها ؟ لا حيلة تجدى لإخفاء ذنبها ، ولموراة عارها عن أعين الناظرين ، ولإتاحة الندم لحبيبها وإشعاره بالوجيعة — لا حيلة إلا الموت»[٢١].

وقد نصحوا بالزواج الباكر واقياً من هذه الكوارث وأجاز القانون زواج البنات فى الثانية عشرة ، والصبيان فى الرابعة عشرة . وتزوج معظم نساء الطبقات المتعلمة صغاراً وأجلن انحرافاتهن ، ولكن المعيار المزدوج كان يكبح جماحهن . استمع إلى جونسن يقول فى الزنا (١٧٦٨) : « ان اختلاط الأنساب لب هذه الجريمة ، فالمرأة التى تحنث بعهود الزواج أشد اجراماً من الرجل الحانث بعهوده . حقاً ان الرجل مجرم أمام الله ، ولكنه لا يؤذى امرأته أذى بالغاً جداً ان لم يهنها ، أى إذا تسلل مثلا إلى مخدعها لفرط فى شهوته . على الزوجة يا سيدى ألا يسوءها هذا كثيراً . ولن أستقبل فى بيتى ابنة لى هربت من زوجها لهذا السبب . وينبغى للزوجة أن تحاول اصلاح حال زوجها ببذل المزيد من الاهتمام بإرضائه : سيدى ، ان الرجل لن يترك زوجته حتى فى حالة واحدة من مائة حالة ، ويذهب إلى مومس ، ما لم تهمل زوجته فى امتاعه »[٢٢] .

وكانت الفكرة المسلم بأنها شىء عادى تماماً فى حلقة بوزويل وأصحابه هى أن يختلف الرجال إلى المومسات بين الحين والحين . وكان الزنا فى الطبقة الارستقراطية — وحتى فى الأسرة المالكة — واسع الانتشار . فكان الدوق

جرافتن يعاشر نانسى بارسونز علانية وهو كبير الوزراء ، ويصحبها إلى الأوبرا على مرأى من الملكة[٢٣] . أما الطلاق فنادر ، ولا سبيل للحصول عليه إلا بقانون برلمانى ، ولما كان هذا يكلف « عدة آلاف من الجنيهات » فإنه كان ترف الأغنياء . ولم يسجل فى الفترة من ١٦٧٠ إلى ١٨٠٠ غير ١٣٢ إذن بالطلاق[٢٤] . وكان الظن بوجه عام أن أخلاق العامة خير من أخلاق أشرافهم ، ولكن جونسن ذهب إلى العكس (١٧٧٨) : « لا يقل الزنا والخيانة الزوجية بين الزراع عنهما بين النبلاء » و « على قدر ما لاحظت ، كلما علا مقام السيدات وازددن ثراء ، كن أفضل تهذيباً وأكثر عفة »[٢٥] . وقد صور أدب ذلك العصر الفلاح ، كما نرى فى فيالدنج وبيرنز ، يشارك كل نهاية أسبوع تقريباً فى الحفلات الصاخبة ويسرف فى الشراب ، وينفق نصف أجره فى الحانات ، وبعضه على المومسات . لقد كانت كل طبقة تأثم وفق طرائقها ومواردها .

وكان الفقراء يقتتلون بقبضات أيديهم وبالنبابيت ، والأغنياء بالطبنجات والسيوف . وكانت المبارزة مسألة تتصل بالشرف فى طبقة النبلاء . فقد بارز فوكس آدم ، وشلبيرن فولرتن ، وبت الثانى تيرنى ؛ وكان عسيراً على المرء أن يجوز حياة النبالة دون جرح واحد على الأقل . وتشهد القصص الكثيرة على هدوء السادة البريطانيين ورباطة جأشهم فى هذه اللقاءات . وقد أكد اللورد شلبيرن لشاهديه اللذين ساورهما القلق حين أصابه جرح فى أصل فخذه « لست أظن أن الليدى شلبيرن سيزيدها هذا الجرح سوءا »[٢٦] .

وشر من تحلل الأخلاق الجنسية ما شاع من ضراوة الاستغلال الصناعى : ذلك الاستهلاك القاسى للحياة الإنسانية فى سبيل التكالب على الأرباح ؛ واستخدام الأطفال فى سن السادسة فى المصانع أو تطهير المداخن ؛ وافقار الآلاف من الرجال والنساء فقراً مدقعاً يكرههم على بيع أنفسهم إلى عبودية لا أجر لها نظير الرحلة إلى أمريكا ؛ والحماية الحكومية لتجارة الرقيق باعتبارها مصدراً غالباً من مصادر ثروة انجلتره .

وكان التجار يبحرون إلى أفريقيا من لفربول وبرستل ولندن — كما

يبحر غيرهم من هولنده وفرنسا — فيشترون الزنوج ويقتنصونهم ، ويشحنونهم إلى جزر الهند الغربية ، ويبيعونهم هناك ، ثم يعودون إلى أوربا بشحنات رابحة من السكر أو التبغ أو الروم . وبحلول عام ١٧٧٦ كان التجار الانجليز قد حملوا إلى أمريكا ثلاثة ملايين من العبيد ، يضاف إليهم ٢٥٠,٠٠٠ ماتوا فى الرحلة وقذف بهم فى البحر . وقد منحت الحكومة إعانة سنوية قدرها ١٠,٠٠٠ جنيه للشركة الأفريقية وخليفتها « الشركة المنظمة » لدعم قلاعهما ومحطاتهما فى أفريقيا ، بحجة أنهما « أنفع ماكونه تجارنا من شركات لهذه الجزيرة »(٢٧) . وحظر جورج الثالث (١٧٧٠) على حاكم فرجينيا « أن يوافق على أى قانون يحرم أو يعوق استيراد شحنات العبيد على أى وجه »(٢٨) . وفى ١٧٧١ كان فى انجلتره نحو أربعة عشر ألف زنجى جلبهم سادتهم المستعمرون أو أبقوا منهم ، وقد استخدم بعضهم خدماً فى البيوت دون أن يكون لهم حق فى تقاضى الأجور(٢٩) ، وبيع البعض فى مزادات علنية ، كما حدث فى لفربول عام ١٧٦٦(٣٠) . على أن محكمة انجليزية قضت فى ١٧٧٢ بأن العبد يصبح حراً تلقائياً فى اللحظة التى يطأ فيها أرض انجلتره(٣١) .

ثم تنبه ضمير انجلتره ببطء إلى التناقض بين هذه التجارة وأبسط أوامر الدين أو الأخلاق . فندد بها ألمع العقول فى بريطانيا : جورج فوكس ، ودانيال ديفو ، وجيمس طومسن ، ورتشرد ستيل ، والكسندر بوب ، ووليم بالى ، وجون وسلى ، ووليم كوبر ، وفرنسيس هتشسن ، ووليم روبرتسن ، وآدم سمث ، وجوسيا ودجوود ، وهوراس ولبول ، وصموئيل جونسن ، وادموند بيرك ، وتشارلز جيمس فوكس . أما أول معارضة منظمة للرق فقد قامت بها طائفة الكويكرز فى انجلتره وأمريكا ؛ ففى ١٧٦١ حرموا من عضويتهم كل مشتغل بهذه التجارة ؛ وفى ١٧٨٣ كونوا جمعية « لإغاثة وتحرير العبيد الزنوج فى جزر الهند الغربية ، ولتثبيط تجارة الرقيق على ساحل أفريقيا »(٣٢) . وفى ١٧٨٣ ألف جرانفل شارب لجنة للتعجيل بإلغاء تجارة الرقيق ؛ وفى ١٧٨٩ بدأ وليم ولبرفورس حملته الطويلة فى مجلس العموم لإنهاء التجارة الانجليزية فى العبيد . وقد أقنع

التجار المجلس المرة بعد المرة بتأجيل مشروعه ، ولم يصدر المجلس القانون الذى حرم على أى سفينة أن تحمل عبيداً من أى ثغر فى الممتلكات البريطانية بعد أول مايو ١٨٠٧ ، أو لأى مستعمرة بريطانيه بعد أول مارس ١٨٠٨ ، إلا عام ١٨٠٧ .

أما فى ميدان الأخلاق السياسية فإن انجلتره كانت الآن فى الحضيض . فقد زكا نظام الدوائر الانتخابية العفنة ؛ وعرض الدهاقنة من ولاة الهند السابقين لها أثماناً باهظة . وقد أسف فرانكلن أسفاً شديداً على نشوب الحرب الأمريكية لسبب غريب : « لم لم يتركونى أمضى فى طريقى ؟ لو أنهم (أى المستعمرين) أعطونى ربع المال الذى أنفقوه على الحرب ، لحصلنا على استقلالنا دون أن نريق قطرة دم . كنت أشترى البرلمان كله ، وحكومة بريطانيا بأسرها »[٣٤] . واستشرى الفساد فى الكنيسة ، والجامعات ، والقضاء ، والوظائف المدنية ، والجيش والبحرية ، ومجالس الملك . وكان النظام العسكرى أشد صرامة منه فى أى بلد أوربى آخر[٣٥] ربما باستثناء بروسيا ، فإذا سرح المقاتلون لم يتخذ أى اجراء لتيسير انتقالهم إلى حياة نافعة ملتزمة بالقانون .

أما الأخلاق الاجتماعية فقد تأرجحت بين الطيبة الأصيلة فى الفرد الانجليزى ووحشية الغوغاء المستهترة . وقد وقعت فى الفترة من ١٧٦٥ إلى ١٧٨٠ تسع فتن كبرى ، وكلها تقريباً فى لندن ، وسنرى مثلا منها بعد قليل . وكانت الحشود تهرول للفرجة على مشهد الشنق كأنهم فى يوم عيد ، وقد يرشون الجلاد ليعنف فى جلد سجين[٣٦] . وكان قانون العقوبات أشد القوانين صرامة فى أوربا . أما اللغة فى جميع الطبقات تقريباً فكانت تنحو إلى العنف والسوقية . واشتبكت الصحف فى معارك رهيبة من القدح والافتراء . وكان الكل تقريباً يقامرون ، ولو فى اليانصيب القومى ، والكل تقريباً يشربون حتى يثملوا .

واتحدت عيوب الخلق الانجليزى مع صفته الأساسية — وهى النشاط الشديد والعافية العارمة . وقد أنفقها الفلاح وعامل المصنع فى العمل الشاق ،

وأبدتها الأمة فى كل أزمة إلا واحدة . فمن هذه العافية انبثقت الشهية المفرطة ، وروح المرح ، واللجوء إلى المومسات والمشاجرات فى الحانات والمبارزات فى الميادين ، وعنف المناقشات البرلمانية ، والقدرة على المعاناة فى صمت ، ومفاخرة كل انجليزى بأنه بيته قلعته التى لايسمح باقتحامها إلا بمقتضى القانون . وحين هزمت انجلترة فى هذا العصر ، كان الذى هزمها هم الانجليز الذين ازدرعوا فى أمريكا ذلك الولع الانجليزى بالحرية . وقد لاحظت مدام دوفان وضوح الفروق بين الأفراد فى الانجليز الذين التقت بهم ، والذين لم تبصر معظمهم قط . قالت «كلهم نسيج وحده ، ولا تجد منهم اثنين على شاكلة واحدة . أما نحن (الفرنسيين) فعلى النقيض منهم تماماً ، فإذا رأيت فرداً من حاشيتنا فكأنك رأيت الكل »[٣٧] . وقد وافق على رأيها هوراس ولبول فقال «من المؤكد أنه ما من بلد آخر ينجب كما تنجب انجلترة هذا العدد الكبير من الشخصيات المنفردة المتميزة »[٣٨] ثم انظر إلى الرجال الذين رسمهم رينولدز : فهم لاينفقون إلا فى الاعتزاز بوطنهم وطبقتهم ، وفى تورد وجوههم ، وفى تصديهم الجسور للعالم . لقد كانت سلالتهم سلالة قوية حقاً .

٣ — الإيمان والشك

ظلت الجماهير الانجليزية وفية لعقيدتها المسيحية فى مختلف صورها . وكان أوسع الكتب قراءة بعد الكتاب المقدس «الأعياد والأصوام» تصنيف نلسن . وهو دليل للسنة الكنسية[٣٩] . وقد طبع كتاب جونسن «صلوات وتأملات» الذى نشر بعد وفاته أربع طبعات فى أربع سنين . وكان الدين فى الطبقات العليا يحظى بالاحترام بوصفه وظيفة اجتماعية ، ومعواناً على الأخلاق ، وذراعاً للحكومة ، ولكنه كان قد فقد تصديق الفرد له فى دخيلة نفسه وضاع كل سلطان له على السياسة . وكان الملك يعين الأساقفة ، أما القساوسة فيعينهم كبار ملاك الأرض ويجرون عليهم أرزاقهم . وكان هجوم الربوبيين على الدين قد هدأت فورته إلى حد مكن بيرك من أن يتساءل فى ١٧٩٠ «من ممن ولدوا فى السنين الأربعين الأخيرة

قرأ كلمة واحدة مما كتبه كولنز ، وتولاند ، وتندال ، وتشب ، ومورجن ، إلى آخر تلك السلالة التي سمت نفسها أحرار الفكر؟ » [٤٠] .

ولكن إذا لم يكن أحد قد انبرى للرد عليه فربما لأن هؤلاء المتمردين كانوا قد كسبوا المعركة ، وأن المتعلمين لم يبالوا الموضوعات القديمة لكونها قد بت فيها وماتت . وقد وصف بوزويل جيله في ١٧٦٥ (ناسياً عامة الشعب) بأنه « عصر اشتد ولع الناس فيه بالشكوكية حتى لكأنهم يفاخرون بتضييق دائرة إيمانهم ما استطاعوا »[٤١] . وقد رأينا سلوين يسخر من الدين في أكسفورد ، وولكس في مدمنام آبي . وقد روت الليدي هستر ستانهوب أن بت الإبن « لم يذهب إلى الكنيسة قط في حياته »[٤٢] . ولن يكن فرضاً على الواعظ أن يكون مؤمناً بما يعظ . كتب بوزويل في ١٧٦٣ يقول « بين رجال الدين كثيرون من غير المؤمنين الذين إذ رأوا الدين مجرد نظام سياسي فهم ينظرون إلى الوظيفة الكهنوتية ذات الدخل نظرتهم إلى أي وظيفة مدنية ، ويسهمون بجهودهم للإبقاء على هذا الوهم المفيد »[٤٣] . يقول جبون « ان اقرارات العقيدة القويمة ، ومواد الإيمان ، يوقعها رجال الدين العصريون بزفرة أو بابتسامة »[٤٤] .

وقد أتاحت الأندية الخاصة تخفيفاً من الامتثال العلني لعقيدة الكنيسة . فانضم كثيرون من الطبقة الارستقراطية لمحفل أوآخر من محافل الماسون الأحرار . وقد أدانت هذه المحافل الإلحاد لسخفه ، واشترطت في أعضائها إيماناً بالله ، ولكنها غرست فيهم التسامح في الخلافات القائمة على غير ذلك من عقائد الدين[٤٥] . وفي جمعية برمنجهام القمرية كان رجال الصناعة من أمثال ماثيوبولتن وجيمس وات وجوسيا ودجوود يستمعون دون فزع إلى هرطقات جوزف بريستلي وإرازمس داروين[٤٦] . على أن ضجة الربوبية كانت قد ولت ، وقبل جميع أحرار الفكر تقريباً هدنة لايتدخلون بمقتضاها في الدعوة للإيمان ما دامت الكنيسة تغضي شيئاً ما عن الإثم . وتجنبت الطبقات العليا الإنجليزية — بما فطرت عليه من حس بالنظام والاعتدال — ذلك التطرف المستهتر الذي اندفعت إليه حركة التنوير الفرنسية ، فقد أدركت

ما بين الدين والحكم من وحدة حميمة ، وأوتيت من القصد ما عصمها من إحلال نظام بوليسى لا آخر له محل أخلاقية غيبية .

وإذ كان الأساقفة الانجليكان الآن خداماً للدولة كما كان الكرادلة الكاثوليك ، فقد رأوا أن لهم الحق فى قسط من متع الدنيا . وقد هجا كوبر فى أبيات لاذعة[٤٧] رجال الدين الذين كانوا يتهافتون تهافت رجال السياسة على الوظائف الدينية الأكثر مغنماً أو الملحقة بوظائفهم ؛ ولكن غير هؤلاء كثيرون عاشوا حياة العكوف الهادىء على واجباتهم ، وعديدون كانوا المدافعين الأكفاء المتبحرين عن الإيمان . وقد كشف كتاب بالى « مبادىء الفلسفة الأخلاقية والسياسية » (١٧٨٥) عن روح سمحة ذات أفق واسع وتسامح عقيدى ، وعرض كتابه « البراهين على المسيحية » (١٧٩٤) عرضاً مقنعا البرهان القائم على القصد فى الكون . وقد لقى الترحيب فى صفوف الأكليروس رجال ذوو ميول للتحرر الفكرى ما داموا يعظون بجوهر الدين ويكونون القدوة الأخلاقية فى مجتمعاتهم[٤٨] .

أما المنشقون على الكنيسة الإنجليكانية — من معمدانيين ومشيخيين ومستقلين (بيورتان) — فقد تمتعوا بالتسامح الدينى ماداموا متمسكين بمسيحية التثليث ؛ ولكن حظر شغل الوظائف السياسية أو الحربية ، أوالالتحاق بجامعة أكسفورد أو كمبردج ، على من لايعترف بالكنيسة الإنجليكانية وموادها التسع والثلاثين . واستمر انتشار الميثودية بين الطبقات الدنيا . وفى ١٧٨٤ فصمت هذه الكنيسة عراها الواهية مع الكنيسة الرسمية . ولكنها كانت أثناء ذلك قد بثت « الحركة الإنجيلية » فى قلة من رجال الدين الانجليكان ، الذين أعجبوا بزعيمها وسلى ، ووافقوه على أن الإنجيل ينبغى أن يبشر به بالضبط كما سلم إلينا فى العهد الجديد ، دون تنازلات للنقد العقلانى أو النصى .

وظل تذكر إنجلترة لمؤامرة البارود والثورة الكبرى ، وحكم جيمس الثانى ، يبقى فى سجلات الدولة على تلك القوانين القديمة التى شرعت ضد اتباع كنيسة روما الكاثوليكية . ولم يعد أكثر هذه القوانين يطبق ، ولكن

معوقات كثيرة ظلت مفروضة على الكاثوليك . فهم مثلا لايستطيعون شراء أو وراثة أرض شرعياً إلا بالتحايل القانونى ويدفع ضريبة مضاعفة على أملاكهم . وقد حظر عليهم الخدمة فى الجيش والبحرية ، واحتراف المحاماه ، والتصويت أوالترشيح للبرلمان ، وجميع المناصب الحكومية . ومع ذلك كان عددهم فى ازدياد . وفى ١٧٨٦ كان منهم سبعة من كبار النبلاء ، واثنان وعشرون بارونيتاً و ١٥٠ « جنتلماناً » . وكان يحتفل بترتيل القداس فى البيوت الخاصة ، ولم يسجل غير حالتين أو ثلاث من حالات الاعتقال عقاباً على هذه الجريمة طوال الستين عاماً التى حكمها جورج الثالث .

وفى ١٧٧٨ قدم السير جورج سافيل للبرلمان مشروع قانون هدفه « التخفيف عن الكاثوليك » فهو يبيح شراء الكاثوليك الأرض ووراثتهم لها ، والتطوع فى القوات المسلحة دون التخلى عن مذهبهم . وأجيز المشروع ، ولم يلق معارضة تذكر من الأساقفة الإنجليكان فى مجلس اللوردات . ولم يكن ينطبق إلا على انجلتره ، ولكن فى ١٧٧٩ — اقترح اللورد نورث تطبيقه على اسكتلنده . فلما بلغ نبأ هذا الاقتراح اقليم السهول الاسكتلندية ، اندلعت الفتن فى إدنبره وجلاسجو (يناير ١٧٧٩) ، وأحرقت عدة بيوت يسكنها الكاثوليك وسويت بالأرض ، ونهبت وحطمت حوانيت التجار الكاثوليك ، كذلك هوجمت بيوت البروتستنت الذين أعربوا عن عطفهم على الكاثوليك — مثل المؤرخ روبرتسن — ولم يخمد أوار الفتنة إلاحين أذاع قضاة إدنبره أن قانون التخفيف عن الكاثوليك لن يطبق على اسكتلنده .

ثم تبنى عضو اسكتلندى فى البرلمان يدعى اللورد جورج جوردن قضية « لابابوية فى انجلتره » ففى ٢٩ مايو ١٧٨٠ رأس اجتماعاً لـ « جمعية البروتستنت » التى خططت لمسيرة جماهيرية لتقديم ملتمس بإلغاء قانون التخفيف الصادر فى ١٧٧٨ . وفى ٢ يونيو أحاط ستون ألف رجل يرتدون أشرطة زرقاء معقودة بقبعاتهم بمبنى البرلمان واعتدى على كثير من الأعضاء وهم فى طريقهم إلى المبنى ، وحطمت مركبات اللوردات ما نسفيلد وثيرلو وستورمونت ، ووصل بعض اللوردات النبلاء إلى كراسيهم بغير باروكاتهم

شعثاً يرتعدون خوفاً[٤٩] . ودخل جوردن وثمانية من أتباعه مجلس العموم ، وقدموا ملتمساً ، قيل إنه يحمل ١٢٠,٠٠٠ توقيع ، يدعو لإلغاء القانون ، ويطالب بإجراء عاجل هو البديل الوحيد لغزو الغوغاء للمجلس . فقاوم الأعضاء ، وأرسلوا فى طلب الجند لكبح جماح الغوغاء ، وغلقوا جميع الأبواب ، وأعلن قريب لجوردن أنه قاتله فى اللحظة التى يقتحم فيها القاعة دخيل ، ثم وافق المجلس على رفع الجلسة حتى ٦ يونيو . ووصل الجند وأفسحوا طريقاً للأعضاء ليعودوا إلى بيوتهم . وأتلفت محتويات كنيستين كاثوليكيتين تخصان قساوسة سردينيين وباقاريين ، وكوم أثاثهما فى نار أشعلت فى الشوارع . ثم تفرق الجمع ، ولكن فى ٥ يونيو نهب القائمون بالشغب كنائس أجنبية أخرى وأحرقوا عدة بيوت خاصة .

وفى ٦ يونيو عاد الغوغاء إلى التجمع ، واقتحموا سجن نيوجيت ، وأطلقوا سراح السجناء ، واستولوا على ترسانة سلاح ، وساروا وهم مسلحون مخترقين شوارع العاصمة . وتحصن النبلاء بمتاريس فى بيوتهم . وهنا هوراس ولبول نفسه على حمايته دوقة فى « قاعته » بميدان باركلى[٥٠] . وفى ٧ يونيو نهب وأحرق المزيد من البيوت ، واقتحم الرعاع معامل تقطير الخمور ، وأطفأوا ظمأهم بغير قيود ، واحترق نفر منهم وهم رقود سكارى فى الأبنية المحترقة . ورفض قضاة لندن المخول لهم وحدهم السلطة القانونية على الحرس البلدى أن يأمروهم بإطلاق النار على الجمع . واستنفر جورج الثالث ماليشيا المواطنين ، وأمرهم بإطلاق النار كلما استعمل الرعاع العنف أو هددوا باستعماله . وظفر عضو البلدية جون ولكس بالعفو من الملك ، وفقد شعبيته لدى الجماهير ، إذ امتطى جواداً وانضم إلى المليشا فى محاولة تفريق الجمع . فلما هاجم المشاغبون المليشيا أطلقوا عليهم الرصاص فقتلوا منهم اثنين وعشرين ، ولاذ الباقون بالفرار .

وفى ٩ يونيو اندلعت الفتنة من جديد ونهبت البيوت وأحرقت — سواء الكاثوليكية أو البروتستنتية ، ومنع جنود الإطفاء من إخماد النيران[٥١] ، وأخمد الجند الفتنة بعد أن قتل فيها ٢٨٥ رجلا وجرح ١٧٣ ؛ وقبض على

١٣٥ من المشاغبين ، وشنق واحد وعشرون . وقبض على جوردن وهو يفر إلى اسكتلنده ، وأثبت أنه لم يكن له ضلع فى حوادث الشغب ، فأفرج عنه ، وحصل بيرك على موافقة مجلس العموم على إعادة تأكيد قانون التخفيف عن الكاثوليك فى انجلتره . ووسع قانون صدر فى ١٧٩١ التسامح الشرعى فى شئون العبادة والتعلم الكاثوليكيين ، ولكن الكنائس الكاثوليكية حظر عليها أن يكون لها برج أو جرس (٥٢) .

٤ — بلاكستون وبنتام والقانون

زعم فقيه ضليع أن « نشر كتاب بلاكستون « التعليقات » يعد من بعض الوجوه أبرز حدث فى تاريخ القانون »(٥٣) وهذا رأى فيه تحيز للوطن ، ولكنه يعيننا على بيان مبلغ الرهبة والإجلال اللذين كان الطلاب المتحدثون بالإنجليزية ، حتى عصرنا هذا ، يتناولون بهما كتاب « تعليقات على قوانين انجلترة » الذى نشره وليم بلاكستون فى أربعة مجلدات وألفى صفحة فى ١٧٦٥ — ٦٩ . وقد اثنى عليه القراء رغم حجمه هذا أو بسببه ، أثراً جليلا من آثار العلم والحكمة ، فكان كل لورد يقتنيه فى مكتبته ، وأحبه جورج الثالث حباً جماً بوصفه تمجيداً للملوك .

أما بلاكستون هذا فكان ابن تاجر لندنى أتاح له ثراؤه أن يعلم ابنه فى اكسفورد ثم يرسله إلى « المدل تمبل » ليمارس المحاماه — وقد ردت محاضراته فى اكسفورد (١٧٥٣ — ٦٣) تناقضات القوانين وسخافاتها إلى شىء من النظام والمنطق ، ثم بسطت النتيجة بوضوح وتشويق . وفى ١٧٦١ أنتخب عضواً فى البرلمان ، وفى ١٧٦٣ عين محامياً عاماً للملكة شارلوت ، وفى ١٧٧٠ بدأ خدمته قاضياً فى محكمة الدعاوى العامة . وإذ كان مدمناً للدرس كارهاً للحركة ، فقد أصابه تحلل هادىء تدريجى ولكنه سابق لأوانه ، ومات فى ١٧٨٠ بالغا السابعة والخمسين .

وكان لرائعته الكبرى فضائل محاضراته : الترتيب المنطقى ، والعرض الناصع ، والأسلوب الرشيق . وقد امتدحه خصمه اللدود جريمى بنتام ،

لأنه الرجل الذى « علم القضاء أن يتكلم لغة الدارس والجنتلمان ، وهذب ذلك العلم العصبى ، ونفض عنه غبار المنصب ونسيج المناكب»[٥٤] . وقد عرف بلاكستون القانون بأنه « قاعدة للعمل يمليها كائن أعلى »[٥٥] ، وكان يدين بتصور مثالى مستقر للقانون ، يراه مؤدياً فى مجتمع ما الوظيفة التى تؤديها قوانين الطبيعة فى العالم ؛ وكان ميالا إلى التفكير فى قوانين انجلتره على أنها تضارع قوانين الجاذبية فى جلالها وخلودها .

وقد أحب انجلتره والمسيحية على الصورة التى وجدهما عليها ، وما كان ليسلم بأى عيب فى واحدة منهما . وكان أكثر سنية من الأسقف واربرتن ، وأكثر ملكية من جورج الثالث . « ليس ملك انجلتره أكبر قاض للأمة فحسب ، بل هو بالضبط القاضى الوحيد لها . الذى له أن يرفض أى مشروعات قوانين ، ويبرم أى معاهدات ، . . . . ويعفو عن أى جرائم شاء ، إلا إذا كان الدستور قد نص بصراحة أو بحكم النتيجة المنطقية الواضحة على استثناء أو قيد ما »[٥٦] ووضع بلاكستون الملك فوق البرلمان وفوق القانون . فليس الملك « غير قادر على ارتكاب الخطأ فحسب ، بل حتى على التفكير الخطأ » — وهى عبارة عنى بها بلاكستون أنه ليس هناك قانون فوق الملك يمكن أن يدان به الملك . ولكنه أبهج كبرياء انجلتره بأسرها حين عرف « الحقوق المطلقة لكل انجليزى : حق الأمن الشخصى ، وحق الحرية الشخصية ، وحق الملكية الشخصية »[٥٧] .

وقد سر جيل بلاكستون سروراً عظيماً بتصوره القانون الانجليزى نظاماً صالحاً على الدوام لأنه فى النهاية مبنى على الكتاب المقدس بوصفه كلمة الله . ولكن هذا التصور ثبط تطوير القضاء الانجليزى وإصلاح قانون العقوبات والسجون ؛ غير أن من مفاخره أنه امتدح جهود هوارد التى بذلها لتحسين الأحوال فى السجون البريطانية[٥٨] .

وقد فهم هوارد المسيحية لا على أنها نظام قانونى بل نداء للقلب . ذلك أن الأحوال فى السجن المحلى أفزعته حين عين مأموراً فى بدفورد (١٧٧٣) فالمأمور ومساعدوه لا رواتب لهم ، ورزقهم على ما يقتضون من السجناء

من رسوم ؛ فكان السجين إذا قضى مدة عقوبته لا يفرج عنه إلا بعد أن يدفع جميع الرسوم المطلوبة منه ، وكان الكثيرون يظلون رهن السجن شهوراً بعد أن تبين للمحكمة براءتهم . وقد وجد هوارد فى رحلاته من مقاطعة إلى مقاطعة مظالم مماثلة أو أسوأ . فكان المدينون الذين يقصرون فى الوفاء بدينهم ، والمذنبون لأول مرة ، يلقون معاً فى مكان واحد مع مدمنى الجريمة . وكان أكثر السجناء يوثقون بالأغلال التى تثقل أو تخف حسب الرسم الذى يدفعونه. وكانت جراية السجين فى اليوم خبزاً ثمنه بنس أو بنسان ، فإذا أراد مزيداً من الطعام فعليه أن يدفع ثمنه أو يعتمد فيه على الأقرباء أو الأصدقاء . أما الماء فجرايته للسجين ثلاثة بنسات فى اليوم للشرب والاغتسال . ولا يزود السجناء بوسائل للتدفئة فى الشتاء ، أما فى الصيف فتهوية لاتذكر . وكان النتن الذى يفوح من هذه الزنزانات من الشدة بحيث ظل لاصقاً بثياب هوارد بعد خروجه منها بزمان . وكانت « حمى السجون » وغيرها من الأمراض تفتك بالكثير من السجناء ، وكان البعض يموت بالجوع البطىء[٥٩] . وفى سجن نيوجيت بلندن كان خمسة عشر إلى عشرين سجيناً ينزلون حجرة طولها ثلاثة عشر وعرضها خمسة وعشرون قدماً .

وفى ١٧٧٤ قدم هوارد للبرلمان تقريره عن خمسين سجناً زارها ، ووافق مجلس العموم على قانون يشترط الإصلاحات الصحية فى السجون ، وتوفير الرواتب للسجانين ، والإفراج عن جميع السجناء الذين لم تجد هيئة المحلفين الكبرى شكاوى مقدمة للمحكمة ضدهم . وفى ١٧٧٥ — ٧٦ زار هوارد سجون القارة ، فوجد سجون هولنده خيرها تجهيزاً وترفقاً نسبياً بالسجناء ، ومن أسوئها سجون هانوفر التى يحكمها جورج الثالث . وقد أيقظ ضمير الأمة من سباته نشر كتاب هوارد « حالة السجون فى انجلتره وويلز . . . ووصف لبعض السجون الأجنبية » (١٧٧٧) . فوافق البرلمان على تخصيص صندوق لـ « مؤسستين إصلاحيتين» تبذل فيهما محاولة لإصلاح السجناء بالمعاملة الفردية والعمل الخاضع للملاحظة ، والتعليم الدينى . واستأنف هوارد رحلاته ، وروى نتائجها فى طبعات جديدة من كتابه . وفى ١٧٨٩ جاب أنحاء روسيا ، وفى خرسون أصيب بحمى المعسكرات

ومات (١٧٩٠) . ولم تثمر جهوده للإصلاح إلا نتائج متواضعة . فقانون ١٧٧٤ أهمله معظم السجانين والقضاة . ولم تظهر أوصاف سجون لندن فى ١٨٠٤ و ١٨١٧ أى تحسين منذ عصر هوارد ، « لعل الأحوال أصبحت أسوأ لا أحسن »[٦٠] ، وكان على الإصلاح أن ينتظر . ووصف دكنز لسجن نيو مارشالسيا فى قصته « دوريت الصغيرة » (١٨٥٥ .

أما جريمى بنتام فإن جهوده المتنوعة لإصلاح القانون والحكومة والتعليم بذل أكثرها بعد هذه الفترة ، ولكن كتيبه « مقال صغير عن الحكومة » (١٧٧٦) مكانه هنا ، لأنه فى المقام الأول نقد لبلاكستون . فقد احتقر عبادة الفقيه للتقاليد الموروثة ، وذكر أن « مارسخ الآن كاى يوماً بدعة »[٦١] ، ونزعة المحافظة الحاضرة إنما هى تبجيل للراديكالية الماضية ؛ إذن فالذين يدعون إلى الإصلاحات لايقلون وطنية عن أولئك الذين يرتعدون فرقاً لفكرة التغيير . « فى ظل حكومة القوانين ما هو شعار المواطن الصالح ؟ أن يطيع فى دقة وأن ينفذ فى حرية »[٦٢] . وقد رفض بنتام رأى بلاكستون فى السيادة الملكية ؛ فالحكومة الصالحة توزع السلطات ، وتشجع كلا منها على كبح شطط غيرها ، وتسمح بحرية الصحافة ، والتجمع والمعارضة السلميتين . والثورة فى نهاية المطاف قد تحدث للدولة ضرراً أقل مما يحدثه الخنوع المبلد للطغيان[٦٣] . وقد نشر هذا الكتيب سنة الإعلان الأمريكى للاستقلال .

وقد شرح بنتام فى هذا المقال ذاته « مبدأ السعادة الأعظم » الذى أطلق عليه جون ستيوارت مل فى ١٨٦٣ اسم « مذهب المنفعة » . « أن أعظم سعادة لأكبر عدد هو مقياس الحق والباطل »[٦٤]، وينبغى الحكم على جميع المقترحات والممارسات الأخلاقية والسياسية بمقتضى « مبدأ المنفعة » هذا ، لأن « وظيفة الحكومة أن تزيد من سعادة المجتمع »[٦٥]. وقد اقتبس بنتام « مبدأ السعادة » هذا من هلفتيوس ، وهيوم ، وبريستلى ، وبكاريا ،[٦٦] وتكونت وجهة نظره العامة من قراءته لجماعة الفلاسفة[٦٧] .

وفى ١٧٨٠ ألف كتاب « مقدمة لمبادىء الأخلاق والتشريع » الذى نشره فى ١٧٨٩ ، وضمنه عرضاً لأفكاره أكثر تفصيلا وفلسفة . وقد رد

كل فعل واع إلى الرغبة فى اللذة أو الخوف من الألم ، وعرف السعادة بأنها « الاستمتاع باللذة ، والأمان من الألم »[٦٨]. ولاح أن هذا يبرر الأنانية المطلقة ، غير أن بنتام طبق مبدأ السعادة على الأفراد كما طبقه على الدول . فهل أفضى فعل الفرد إلى أعظم قدر من السعادة له ؟ فى رأيه أن الفرد فى المدى البعيد ينال أعظم لذة أو أقل ألم بتوخيه الإنصاف مع اخوانه البشر .

وقد مارس بنتام ما بشر به ، لأنه كرس حياته لسلسلة طويلة من مقترحات الإصلاح : التصويت العام للذكور البالغين المتعلمين ، والاقتراع السرى ، والبرلمانات السنوية ، وحرية التجارة ، والنظافة الصحية العامة ، وتحسين أحوال السجون ، وتطهير القضاء ، وإلغاء مجلس اللوردات ، وتحديث القانون وجمعه وتنسيقه فى لغة مفهومة لغير القانونيين ، وتوسيع القانون الدولى (وبنتام هو مخترع هذا المصطلح)[٦٩] . وقد خرج إلى النور الكثير من هذه الإصلاحات فى القرن التاسع عشر ، وأكثر الفضل فى ذلك لمجهود « اتباع مذهب المنفعة » و « الراديكاليين الفلاسفة » من أمثال جيمس وجون ستيوارت مل ، وديفد ريكاردو ، وجورج جروت .

كان بنتام آخر صوت من أصوات حركة التنوير ، والمعبر بين فكر القرن الثامن عشر المحرر وإصلاحات القرن التاسع عشر . ولقد وثق بالعقل ثقة أكثر حتى من ثقة جماعة الفلاسفة به ، وظل عزباً لآخر حياته مع أنه كان أحب الرجال وألطفهم . وحين مات (٦ يونيو ١٨٣٢) وهو فى الرابع والثمانين أوصى بأن تشرح جثته فى حضرة أصدقائه . فشرحت ، ومازال هيكله محفوظاً فى الكلية الجامعية بلندن ، مرتدياً ثياب بنتام المألوفة[٧٠]. وغداة موته وقع الملك « قانون الإصلاح » التاريخى الذى جسد الكثير من مقترحاته .

٥ — المسرح

(١) التمثيل

كان هذا النصف الثانى من القرن الثامن عشر غنياً فى المسرح فقيراً فى الدراما . فقد شهد لفيفاً من أروع الممثلين فى التاريخ ، ولكنه لم ينجب غير

كاتبين مسرحيين اثنين أفلتت أعمالهما من منجل الحاصد : شريدان الذى ودعناه منذ هنيهة ، وجولد سمث الذى سيختص بركن تحت سماء الأدب . وربما كان هذا القحط فى التمثيليات الجادة سبباً ونتيجة للإحياء الشكسبيرى الذى استمر حتى نهاية القرن .

وقد عانى الكتاب المسرحيون من أذواق النظارة . فقد كان هناك نقاش كثير للتقنية والفن التمثيليين ، ونقاش قليل للتقنية والفن التأليفيين . وكان أجر المؤلف ، وهو فى الغالب مكافأته المادية الوحيدة ، حصيلة الحفلة الثالثة ، وإن كان هناك حفلة ثالثة . على أن بعض الممثلين والممثلات أثروا ثراء رؤساء الوزارة . وكان فى استطاعة المتافين المأجورين أن يقضوا على أى مسرحية جيدة بافتعالهم الضوضاء المعادية ، أو أن يجعلوا المسرحية الحقيرة تنجح نجاحاً مثيراً . ولم يظفر بعروض تمتد عشرين ليلة فى موسم واحد إلا أكثر المسرحيات حظاً . وكانت الحفلات تبدأ فى السادسة أو السادسة والنصف ، وتحتوى عادة على مسرحية من ثلاث ساعات ، وتمثيلية هزلية ساخرة « فارص » أو إيمائية « بانتومايم » . أما المقاعد فتكلف من شلن إلى خمسة ، ولا حجز إلا بإرسال خادم يشترى التذكرة ويشغل المقعد حتى يحضر السيد أو السيدة . وكانت كل المقاعد بنوكا بغير ظهور[٧١] ، وكان بعض النظارة المقربين يجلسون على خشبة المسرح حتى أنهى جاريك هذا العبث المنكر (١٧٦٤) . أما الإضاءة فكلها بالشموع فى ثريات « تظل مضاءة طوال البرنامج . وكانت الملابس قبل عام ١٧٨٢ هى ملابس القرن الثامن عشر الانجليزية دون اعتبار لزمان المسرحية أو مكانها . فكان كاتو ، وقيصر ، ولير ، يبدون فى سراويل للركبة وشعور مستعارة .

وازدهر المسرح ، سواء فى لندن أو فى « الأقاليم » ، رغم معارضة رجال الدين ومنافسة الأوبرا والسرك . وكانت بات وبرستل ولفربول ونتنجهام وما نشستر وبرمنجهام ويورك وإدنبره ودبلن تملك مسارح جيدة ؛ وكان لبعضها فرقها الخاصة ، وإذ كانت الفرق الكبرى تجوب البلاد ، فإن كل مدينة تقريباً شهدت التمثيل الجيد . وقد أثارت لندن المنافسة الحادة بين مسرحين رئيسيين . فى ١٧٥٠ مثل : كلاهما « روميو وجوليت » كل

ليلة فى ذات الأسبوعين ، وأدى الأدوار الرئيسية سبرانجو بارى وسوزانا كبر فى مسرح كوفنت جاردن ، وجاريك ومس بيلامى فى مسرح دوررى لين . ثم كان لصموئيل فوت مسرحه الصغير فى هايماركت ، حيث تخصص فى التقليد الهجاء ، وكانت تقليداته لجاريك شقاء طال أمده فى حياة ديفد.

ولم تشهد خشبة المسرح الانجليزى قط من قبل هذا العدد الغفير من الممثلين الأفذاذ . وقد استهل تشارلز ماكلين هذا العصر المجيد فى ١٧٤١ بإخراجه تمثيليات شيكسبير ؛ وكان أول ممثل قدم شيلوك شخصية جادة وإن ظل وغداً لا يرحم (ولم يمثل شيلوك بشىء من العطف حتى جاء هنرى إرفنج) . ثم اختتم جون فليب كمبل هذا الإحياء الشكسبيرى الذى استغرق قرناً كاملا . وكانت أعظم ساعات تجاليه حين مثل هو وأخته ساره مسرحية مكبث على مسرح درورى لين فى ١٧٨٥ .

وازدانت خشبة المسرح الآن بنفر من الممثلات الجديرات بالذكر . منهن بج وفنتن التى وهبت الجمال المثير فى قوامها وطلعتها ، ولكنها عاشت عيشة منحلة ، وأصابتها النقطة فى منتصف التمثيلية (١٧٥٧) وماتت قبل أوانها غير متجاوزة السادسة والأربعين (١٧٦٠) . ثم كتى كلايف التى ظلت تمثل مع فرقة جاريك اثنتين وعشرين سنة ، وقد أدهشت لندن بأخلاقها التى كانت مضرب المثل ، وبعد أن هجرت خشبة المسرح (١٧٦٩) عاشت ست عشرة سنة فى بيت أعطاها إياه هوراس ولبول فى تويكنام . أما مسز هانا برتشارد فكانت تحتل مكان الصدارة بين الممثلات التراجيديات قبل أن تبزها مسز سيدونز فى أداء دور الليدى مكبث ؛ وقد أفنت عمرها فى التمثيل ، ولم تقرأ كتاباً قط (فيما روى) ؛ وقد وصفها جونسن بأنها « بلهاء ملهمة » [٧٢] ، ولكنها عمرت بعد الكثيرات من الحسان ، وظلت تمثل حتى قبل موتها ببضعة شهور . وتألقت مسز فرانسس آبنجتن فى أدوار بياتريس وبورشيا ، وأوفيليا ، وديدمونه ، ولكن أشهر أدوارها كان دور الليدى تيزل فى مسرحية « مدرسة الفضائح » ، وقد اكتسبت مارى روبنسن اسمها الشعبى « بردیتا » بفضل اجادتها تمثيل ذلك الدور فى « قصة الشتاء » ؛

وكانت خليلة لأمير ويلز وغيره من العشاق الأقل شأناً ، وصورها رينولدز وجينزبرو وورومني .

أما ربة المسرح الواعية بقدرها فكانت ساره كمبل سيدونز . ولدت لممثل جوال فى خان بويلز (١٧٥٥) ، وتزوجت فى الثامنة عشرة بالممثل وليم سيدونز ، ثم لمعت وهى فى التاسعة عشرة فى مسرحية أوتواى « فينيسيا المصونة » . ثم استخدمها جاريك بعد سنة ، ولكن النقاد حكموا بأن « قدراتها لاترقى إلى مستوى المسرح اللندنى » . ونصحها هنرى وودوارد الذى كان يمثل الأدوار الهزلية لجاريك بأن تعود إلى مسارح الريف فترة . ففعلت ، وظلت ست سنوات تمثل فى البنادر . فلما أن دعيت ثانية إلى دروري لين عام ١٧٨٢ ، أدهشت كل إنسان بتطورها ممثلة . وكانت البادئة بارتداء زى العهد الذى تمثله فى أدوارها . ولم يلبث جاريك أن فضلها فى تمثيل الأدوار الشكسبيرية ، وبهتت لندن من الجلال والأسى اللذين سمت بهما بدور الليدى مكبث . وقد اكتسبت حياتها الخاصة احترام وصداقة كبار معاصريها ، وكتب جونسن اسمه على هدب ثوبها فى اللوحة التى صورها فيها رينولدز ربة للمأساة ، وقد وقع من نفسه « بالغ تواضعها وكياستها » حين زارته[٧٣] . وواصل اخوان وأخت لها واثنتان من بنات اخوتها مشاركة أسرة كمبل فى المسرح حتى ١٨٩٣ . وبفضلها وبفضل جاريك ارتفع مقام الممثلين الاجتماعى ، حتى فى بلد كانجلتره جعل من الفوارق الطبقية روح الحكومة وأداتها .

(ب) جاريك

كل الذين عرفوا أخبار جونسن يذكرون أن ديفد جاريك ولد فى لتشفيلد (١٧١٧) ، والتحق بمدرسة جونسن فى ايديال (١٧٣٦) ، ورافقه فى هجرتهما التاريخية إلى لندن (١٧٣٧) . وإذ كان يصغر جونسن بسبع سنين ، فإنه لم يكسب قط صداقة جونسن الكاملة ، لأن أكبر الرجلين سناً لم يستطع أن يغفر الديفد كونه ممثلا وغنياً .

فلما بلغ جاريك لندن انضم إلى أخيه فى استيراد النبيذ وبيعه . واقتضاه هذا زيارات متكررة للحانات ، وهناك التقى بالممثلين ، فاستهواه حديثهم ؛ وتبع بعضهم إلى ابسويتش حيث سمحوا له بلعب أدوار صغيرة . وتعلم فن التمثيل بسرعة فائقة حتى اضطلع بعد قليل بتمثيل الدور الرئيسى فى « رتشرد الثالث » فى مسرح غير مرخص بجودمانز فيلدز بالطرف الشرقى للندن . وقد استطاب ذلك الدور لأنه كان ضئيل الحجم مثل الملك الأحدب ، ولأنه استمتع بالموت على خشبة المسرح وقد لقى أداؤه من حسن الاستقبال ما جعله يهجر تجارة الخمور ، الأمر الذى أخزى أقاربه فى لتشفيلد وأحزنهم . ولكن وليم بت الأب ذهب وراء الكواليس ليهنئه . أما الكسندر بوب ، الذى كان صاحب عاهة مثل رتشرد ، فقد قال لمشاهد آخر ، « إن هذا الفتى لم يكن له نظير قط ، ولن يكون له منافس أبدا »[٧٤]. فهنا ممثل سكب كل جسمه وروحه فى الدور الذى يؤديه ؛ ممثل تقمص رتشرد الثالث بوجهه وصوته ويديه وهيكله المحطم وعقله الماكر وأهدافه الشريرة ؛ ممثل لا يكف عن لعب دوره حين يتكلم الآخرون ، وينساه بمشقة إذا ترك خشبة المسرح . وسرعان ما غدا حديث رواد مسارح لندن ، فذهب علية القوم لمشاهدته ، وتعشى معه اللوردات ، وكتب توماس جراى يقول « فى جودمانز كفيلدز اثنا عشر دوقاً كل ليلة »[٧٥] وأعلن آل جاريك يلتشفيلد فى زهو قرابة ديفد لهم .

ثم جرب بعد هذا دور لير (١١ مارس ١٧٤٢) ، ففشل ؛ فلقد كان فيه من نشاط الحركة ما منعه من تمثيل دور شيخ فى الثمانين ، ولم يكن قد اكتسب وقار الملوك . على أن الفشل هذبه وتبين أنه عظيم النفع له . فأقلع عن لعب الدور حينا ، ودرس المسرحية ، ودرب نفسه على تعبيرات سحنة لير التعس ، ومشيته الهزيلة ، وبصره المضعضع ، ونبراته الحادة الباكية . وفى ابريل عاود التجربة . ورأى النظارة أنه تغير تماماً ، فبكوا وهتفوا ، ذلك أن جاريك خلق دوراً آخر من الأدوار التى ستذكر الناس باسمه قرابة قرن من الزمان . وصفق الناس جميعاً إلا جونسن الذى انتقد التمثيل زاعماً أنه مجرد بانتومايم ، وهوراس ولبول الذى زعم أن فى تعبيرية جاريك غلوا ،

وجراى الذى أسف على الهبوط من الانضباط الكلاسيكى إلى الانفعالية والعاطفية الرومانتيكيتين . وشكا الدارسون من أن جاريك لم يمثل نصاً شكسبيرياً خالصاً بل طبعة مراجعة منقحة ، أحياناً بقلم جاريك نفسه ؛ فنصف أبيات رتشرد الثالث كما مثلها كتبه كولى كبر (٧٦) ، وآخر فصل فى « هاملت » كما مثله قد غير فيه وبدل ليقدم خاتمة رقيقة للمأساة .

فى ذلك الموسم (١٧٤١ — ٤٢) لعب جاريك ثمانية عشر دوراً — وهو عمل جبار يدل على ملكات خارقة فى التذكر والتركيز . وكان إذا مثل امتلأ المسرح برواده ؛ فإذا لم يكن له دور خلا نصفه . وعانت المسارح المرخصة من تناقص روادها . وأكره مسرح جودمانز فيلدز بتدابير من وراء الستار على أن يغلق أبوابه . فوقع جاريك لموسم ١٧٤٢ — ٤٣ عقداً مع مسرح درورى لين حين أسقط فى يده بدون خشبة المسرح ؛ نظير ٥٠٠ جنيه — وكان راتباً قياسياً لممثل . ثم رحل إلى دبلن أثناء ذلك لموسم الربيع . وكان هندل قد استهوى أهل المدينة لتوه بأوراتوريو « المسيا » (١٣ ابريل ١٧٤٢) ؛ فغزاها الآن جاريك وبج وافنجتن بشكسبير . فلما عادا إلى لندن أقاما فى معيشة واحدة ، واشترى جاريك خاتم الخطبة . ولكن غاظها منه شحه . وغاظه منها إسرافها . فبدأ يسائل نفسه أى زوجة تراها منبعثة من ماضى بج الخلط . واحتفظ بالخاتم ، ثم افترقا (١٧٤٤) .

ولقد كان تمثيله فى درورى لين استهلالا لعهد جديد فى الفن . كان يبذل لكل دور يؤديه قصارى طاقته وحرصه المتواصل على أن تتوافق كل حركة من حركات جسمه وكل نبرة من نبرات صوته مع شخصية الدور ؛ ولقد بث الحيوية كلها فى رعب مكبث وفزعه ، حتى ظل هذا الدور ، أكثر من أى من أدواره الأخرى ، باقياً فى ذاكرة الشعب . وأحل محل الأسلوب الخطابى الذى جرى عليه قدامى التراجيديين كلاماً أكثر طبيعية . وقد أحرز حساسية فى تعبير الشخصية كانت تتغير مع أيسر تغيير فى التفكير أو المزاج فى النص . قال جونسن ملاحظاً بعد سنوات ، « إن ديفد يبدو أكثر سناً مما هو بكثير ، لأن وجهه كانت مهمته ضعف مهمة أى رجل آخر ، فهو

لا يستقر أبداً »[٧٧] . ثم هناك تعدد قدراته ، فقد لعب الأدوار الكوميدية تقريباً بكل العناية والكمال اللذين بذلهما فى لعب دور مكبث أو هملت أولير .

وبعد أن قضى جاريك خمسة مواسم ممثلا وقع (٩ ابريل ١٧٤٧) عقداً يقسم إدارة دروری لين بينه وبين جيمس ليسى : فيضطلع ليسى بالأعمال الإدارية ، ويختار جاريك التمثيليات والممثلين ويدير البروفات . وخلال فترة إدارته التى امتدت تسعة وعشرين عاماً أخرج خمساً وسبعين مسرحية مختلفة ، وكتب هو نفسه مسرحية (بمشاركة جورج كولمان) ، وراجع أربعاوعشرين تمثيلية لشكسبير ، وألف عدداً كبيراً من المقدمات ، والخواتيم ، والفارصات ، وكتب للصحف مقالات غفلا من الإمضاء تدعم عمله وتشيد به . وكان يقدر المال . وكيف اختياره للمسرحيات وفق أعظم قدر من السعادة لأعظم عدد من رواد المسرح . وقد أحب التصفيق كما لابد أن يحبه الممثلون والكتاب ورتب الأدوار ليحظى بأكثره . وكان رأى ممثليه أنه مستبد بخيل ، وشكوا من أنه يغمطهم أجورهم بينما هو يثرى . ولقد أقر النظام والانضباط بين أفراد فيهم غيرة وإفراط فى الحساسية ويشرف كل منهم على العبقرية أو يطيل التفكير فيها . وكانوا يتذمرون ، ولكن أبهجهم أن يبقوا معه ، لأنه ما من فرقة أخرى أبلت هذا البلاء الحسن فى التصدى لرياح الحظ وتقلبات الذوق .

وفى ١٧٤٩ تزوج جاريك إيفا ماريا فايجل ، وهى راقصة من فيينا قدمت إلى انجلتره باسم « الآنسة فيووليت » وظفرت بالتصفيق والاستحسان الحار على أدائها فى باليهات الأوبرا . وكانت كاثوليكية تقية ، وظلت كذلك ، وقد ابتسم جاريك لاعتقادها بقصة القديسة أورسولا والأحد عشر ألف عذراء[٧٨] . ولكنه احترم إيمانها لأنها عاشت أمينة لناموسه الأخلاقى . ولقد فعلت الكثير بمحبتها ووفائها لتخفيف التوتر الذى تنطوى عليه حياة الممثل المدير . فأغدق ثراءه عليها ، واصطحبها فى سياحات بالقاهرة ، وابتاع لها بيتاً غالياً فى قرية هامتن . وهناك ، وفى بيته اللندنى على أدلفى تراس ، كان يستضيف زائريه فى بذخ ، وأسعد الكثير من اللوردات وكبار

الأجانب أن ينزلوا ضيوفاً عليه . وهناك كان يقصف ويمرح مع فانى بيرنى . وآوى هانا مور .

وفى ١٧٦٣ اعتزل التمثيل إلا فى المناسبات الخاصة . قال « الآن سأقعد وأقرأ شكسبير »[٧٩] . وفى ١٧٦٨ اقترح وخطط وأشرف على أول مهرجان لشكسبير فى ستراتفورد — أن — ايفن . وواصل إدارته لدروري لين ، ولكنه وجد غضبات الممثلين ومشاجراتهم تزداد ضغطاً على أعصابه الشائخة . وعليه ففى مطلع عام ١٧٧٦ باع نصيبه فى الشركة لرتشرد برنسلى شريدان ، وفى ٧ مارس أعلن أنه سيتقاعد بعد قليل . وظل ثلاثة أشهر بعد هذاالإعلان يقوم بتمثيل الوداع لأدواره الحبيبة ويحظى بسلسلة من الانتصارات لعل ممثلا آخر لم يعرفها قط على امتداد التاريخ . وقد أثار رحيله عن خشبة المسرح من الحديث فى لندن قدر ما أثارته الحرب مع أمريكا . وفى ١٠يونيو ١٧٧٦ اختتم حياته المسرحية بإعانة مالية وهبها لصندوق الممثلين العجزة .

ومد له فى الأجل ثلاث سنين أخر . ثم مات فى ٢٠ يناير ١٧٧٩ بالغا الثانية والستين . وفى أول فبراير حمل جثمانه إلى كنيسة وستمنتسر على أكتاف أفراد من أرفع نبلاء بريطانيا ، ووورى ركن الشعراء عند قدمى تمثال شكسبير .

٦ — لنــدن

بدت لندن أول مرة لجونسن (١٧٣٧) فى صورة ملؤها الاشمئزاز الشديد الغيور على الفضيلة .

« الحقد هنا يأتمر مع السلب وسوء الحظ ، ويثور رعاع أحياناً ، ويشب حريق أحياناً ، وطغام أوباش يختبئون هنا .

ويجوس محام يلتمس فريسة ، وبيوت هاوية ترعد من فوقك ، وامرأة كافرة تغرقك حديثاً يزهق روحك[٨٠] .

(*) الليدى مارى ورتلى مونتجيو ؟

هذه بالطبع كانت بعض جوانب لندن اختيرت وقوداً لغضب الشباب الذى لم يجد له مكاناً بعد .

ولكن جونسن وصف لندن بعد ذلك بثلاث سنوات بأنها « مدينة اشتهرت بالثراء والتجارة ووفرة الخيرات وبكل لون من ألوان الكياسة والأدب ، ولكنها تعج بأكوام القذارة التى لو رآها إنسان متوحش لأخذته الدهشة »(٨١) . ذلك أن السلطات البلدية فى ذلك الحين كانت تترك مهمة تنظيف الشوارع للمواطن ، الذى أوصى بأن يحتفظ بالمظهر الأنيق للرصيف — أو التراب — أمام منزله . وفى ١٧٦٢ رتبت قوانين وستمنستر للرصف تنظيف البلدية للشوارع ، وجمع القمامة ، ورصف الطرق الرئيسية وترميمها ، وإنشاء نظام للمجارى تحت الأرض . وسرعان ما نهجت أقسام أخرى من لندن هذا النهج . فكانت الطرقات المرتفعة تحمى المشاة ، والبالوعات تصرف مياه الشوارع . وشقت الشوارع الجديدة فى خطوط مستقيمة ، وبنيت البيوت بناء أصلب وأمتن ، وأطلقت العاصمة الوقور رائحة ألطف .

وخلت المدينة من مصلحة عامة للحريق ، ولكن شركات التأمين احتفظت بفرق خاصة للإطفاء بالخراطيم ، للحد من خسائرها . وكان تراب الفحم والضباب أحياناً يتضافران ليلبدا المدينة بغطاء قاتم صفيق يستحيل على المرء معه أن يميز صديقه من عدوه . فإذا انجابت السماء أشرقت بعض الشوارع الحوانيت الزاهية . وفى حى الستراند كانت أكبر وأغنى المتاجر فى أوربا تعرض وراء نوافذها منتجات نصف العالم . وغير بعيد منها قامت مئات الحوانيت التى تشغى بعشرات الحرف ، ثم انبثت هنا وهناك الفواخير ومصانع الزجاج ودكاكين الحدادين ومعامل الجعة . وأسهمت ضوضاء الصناع والتجار ، والعربات والجياد ، والباعة الجائلين والمغنين فى الطرقات ، فى ضجيج الحياة وفى الإحساس بها . فإذا أراد المرء مكاناً أهدأ وهواء أنقى ففى وسعه أن يمشى الهوينا فى حديقة سانت جيمس ، أو يتطلع إلى السيدات الفاتنات يطوحن تنانيرهن الفضفاضة ذات اليمين وذات الشمال ويعرضن أحذيتهن الحريرية فى البلمل . وفى الصباح يستطيع المرء شراء الحليب الطازج من فتيات يحلبن الأبقار على عشب الحديقة . وفى المساء قد

يجوس كبوزويل بحثاً عن فتاة من بنات الهوى أو ينتظر هبوط الليل الذى يستر كثرة من الأوزار . وأكثر بعداً ناحية الغرب يستطيع أن يركب جواداً أو عربة فى هايد بارك . ثم هناك منتجات اللهو الكبرى . فوكسهول بحشودها الزاهية ، وأفدنة حدائقها وممَاشيها المشجرة ، ورانلاج بقاعتها الفسيحة المدرجة ، حيث عزف موتسارت وهو طفل فى الثامنة .

وكان للفقراء مشارب للجعة ، وللطبقتين الوسطى والعليا أندية ، وللجميع حانات . فكان هناك حانة « البورز هد » و « المايتر » حيث كان يتعشى الخان الأكبر (جونسن) . وحانة الجلوب الحبيبة إلى قلب جولدسمث . وحانة الشيطان التى رفهت عن نفر من مشاهير الرجال من (بن) جونسن إلى (صموئيل) جونسن . وكان هناك مكانان باسم « تيركس هد » (رأس التركى) أحدهما حانوت قهوة فى الستراند ، والآخر حانة فى شارع جرارد . أصبحت مقراً لـ « النادى » . وكانت النساء يختلفن إلى الحانات كالرجال ، وبعضهن معروضات للبيع . وفى أندية كنادى هوايت أو نادى ألماك (الذى أصبح نادى بروكس) كان سراة القوم يستطيعون الشراب ولعب القمار فى خلوة مع نفر مختار . ثم هناك المسارح بكل ما تتيحه منافساتها من إثارة ويبعثه نجومها من تألق وبهاء .

وقامت المواخير على مقربة من المسارح . فشكا الوعاظ من أنه « إلى التمثيليات والفواصل الموسيقية المذكورة تختلف عادة أعداد غفيرة من سفلة القوم وعاطليهم وشذاذهم ، وبعد أن ينتهى التمثيل ينطلقون إلى بيوت الدعارة »[٨٢] . وكانت أكثر الطبقات التى فى طاقتها الاختلاف إلى المومسات تتعامل معهن تعامل الزبائن الدائمين ، وتجمع على الأغضاء عن هذه العادة باعتبارها لا محيص عنها فى الحالة الراهنة لتطور الذكور . وكان هناك بعض الغوانى الملونات اللاتى اجتذبن الزبائن حتى من طبقة النبلاء . ويصف بوزويل اللورد يمبروك وقد أنهكت قواه بعد ليلة قضاها فى ماخور للسود[٨٣] .

واستمر وجود الأحياء الفقيرة المزدحمة ، ولم يكن أمراً غير عادى أن تعيش أسرة من أسر الطبقات الدنيا فى حجرة واحدة من حجرات المبنى .

وكان أفقر القوم يسكنون أقباء رطبة غير مدفأة ، أو عليات يتسرب الماء من أسطحها ؛ والبعض ينامون على أسرة فى الجدران وفى مداخل البيوت أو تحت السقائف . قال جونسن للآنسة رينولدز إنه « وهو عائد إلى مسكنه نحو الساعة الأولى أو الثانية صباحاً كثيراً ما رأى أطفالا فقراء ينامون على العتبات والأكشاك وأنه ألف أن يضع بنسات فى أيديهم ليشتروا بها فطورهم »[٨٤] . وأخبر قاض جونسن أن أكثر من عشرين لندنياً فى الأسبوع يموتون جوعاً[٨٥] . وكانت الأوبئة تتفشى فى المدينة بين آن وآن . ومع ذلك ازداد سكانها من ٦٧٤,٠٠٠ عام ١٧٠٠ إلى ٩٠٠,٠٠٠ فى ١٨٠٠[٨٦] ، ربما بسبب هجرة الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً ، وبسبب نمو التجارة والصناعة .

وغص التيمز وأرصفته بالسفن التجارية وشحناتها . كتب معاصر يقول « إن سطح التيمز بأكمله يغص بصغار السفن ، والصنادل ، والزوارق ، والمراكب الخفيفة ، الغادية الرائحة ، وتحت الكبارى الثلاثة غابة من الصوارى تمتد أميالا بطولها حتى ليخيل إليك أن سفن العالم كله قد احتشدت هنا »[٨٧] . وقد أضيف كبريان جديدان فى هذه الفترة : بلاكفرايرز وباترسى . وقد رسم المصور كاناليتو الذى قدم إلى لندن من البندقية (١٧٤٧ و ١٧٥١) مناظر بهية للمدينة وللنهر ؛ وأتاحت النسخ المطبوعة من هذه المناظر للأوربيين المتعلمين التعرف على نمو لندن التى أصبحت أهم ثغر فى العالم المسيحى .

ولم يعرف التاريخ منذ أيام روما القديمة مدينة بلغت هذه المبلغ من الاتساع والثراء والتعقد (باستثناء القسطنطينية) . فى قصر سانت جيمس الملك والملكة وحاشيتاهما ، والبلاط ومراسمه ؛ وفى الكنائس الأساقفة السمان يتمتمون بعبارات منومة ، والمصلون المتضرعون يسترنحون من عناء الواقع ويطلبون العون الإلهى . وفى البرلمان اللوردات وأعضاء مجلس العموم يمارسون لعبة السياسة ويباذقهم أرواح البشر ؛ وفى قصر العمدة يضع العمدة ومعاونوه ذو البزة الرسمية اللوائح الخاصة بالكنائس والمواخير ، ويتساءلون عن السبيل إلى السيطرة على الوباء القادم أو شغب الغوغاء التالى ؛ وفى الثكنات الجنود يقامرون ويفسقون وينجسون الهواء ؛ وفى الحوانيت

الخياطون يقوسون ظهورهم ، والسباكون يستنشقون الرصاص ، والصاغة والساعاتيون والأساكفة والحلاقون والخمارون يهرولون لتلبية مطالب السيدات والسادة ؛ وفى جراب ستريت أو فليت ستريت الكتاب المأجورون يتملقون زبائنهم ، ويسقطون الوزارات ، ويتحدون الملك ؛ وفى السجون رجال ونساء يموتون بالعدوى أو يرقون إلى جرائم أشد نكرا ؛ وفى المبانى الحقيرة والأقباء قوم جياع عاثرو الحظ مهزومون يستكثرون من أشباههم فى شوق وبغير توقف .

ورغم هذا كله أحب جونسن وكاتب سيرته لندن . فقد أعجب بوزويل بـ « الحرية والنزوات . . . والشخصيات العجيبة ، وبما فى دنيا التجارة واللهو من شدة الزحام والعجلة والصخب ، وبالعدد الغفير من الملاهى العامة ، والكنائس الرفيعة والأبنية الباذخة ، ورضى المرء وهو ينفذ ما يحلو له من خطط دون أن يعرفه أو يلحظه أحد »[٨٨] — هذا الانغمار فى الزحام انغماراً حامياً حانياً للشخصية المجهولة . أما جونسن الذى استطاب وعمق « التدفق الشديد لحديث لندن » فقد حسم الأمر بسطر واحد كان حجة فى بابه « إذا مل إنسان لندن فقد مل الحياة »[٨٩] .

* * *



الفصل الثلاثون

عصر رينولــدز

١٧٥٦ – ٩٠

---

١ – الموسيقيون

أولعت انجلترة بالموسيقى الرائعة ، ولكنها عجزت عن إنجابها .

لقد تكاثر تذوقها . فى اللوحة التى رسمها زوفانى « أسرتا كوبر وجور » نرى الدور الذى لعبته الموسيقى فى البيوت الراقية . ونسمع عن مئات المغنين والعازفين الذين جمعوا معاً لحفلة تخليد ذكرى هندل فى ١٧٨٤ . وقد أعلنت « المورننج كرونكل » فى عدد ٣٠ ديسمبر ١٧٩٠ اعلاناً للشهور التالية عن سلسلة من « حفلات موسيقية يؤديها المحترفون » ، وسلسلة أخرى من « حفلات للموسيقى القديمة » ، و « حفلات موسيقية للسيدات المتبرعات » فى أمسيات الآحاد ، وعن أوراتوريوات مرتين فى الأسبوع ، وست حفلات حفلات للموسيقى السمفونية يقودها المؤلف بشخصه – جوزف هايدن[١] . وهذا ينافس ثروة لندن الموسيقية اليوم . وكما أن البندقية ألفت من اليتامى فرقاً للإنشاد ، فكذلك كان « أطفال المبرة » فى كتدرائية القديس بولس يحيون حفلات موسيقية سنوية كتب هايدن عنها يقول :

« لم تؤثر فى أى موسيقى أخرى فى حياتى هذا التأثير الشديد »[٢] ، وكانت الحفلات الموسيقية والأوبرات الخفيفة تقدم فى قاعة رانيلاج وفى حدائق ما ريلبون . وقدمت اثنتا عشرة جمعية من هواة الموسيقيين حفلات عامة . وذاع حب الانجليز للموسيقى ذيوعاً اجتذب الكثير من العازفين

والمؤلفين إلى الجزيرة — جيمنياني ، وموتسارت ، وهايدن . ويوهان كرستيان باخ ، ومكث فيها باخ ولم يرحل عنها .

وفتر الميل إلى الأوبرا الجادة فى انجلتره بعد أن أتخمها هندل . ثم عاد شىء من التحمس لها حين استهل جوفانى مانتزولى موسم ١٧٦٤ بأوبرا « اتسيو » ، وقد وصف بيرنى صوته بأنه « أقوى وأضخم سوبرانو سمع على مسرحنا منذ فارينللى »(٣) وكان هذا على ما يبدو آخر انتصار للأوبرا الإيطالية فى انجلتره فى ذلك القرن . فلما احترقت دار الأوبرا الإيطالية فى لندن (١٧٨٩) اغتبط هوراس ولبول وتمنى ألا يعاد بناؤها أبداً (٤) .

وإذا كان العهد قد خلا من المؤلفين الموسيقيين الجديرين بالذكر فإنه أنجب مؤرخين موسيقيين بارزين صدرت أعمالهما فى ذات السنة (١٧٧٦) « سنة العجائب » التى ظهر فيها كتاب « اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية » و « ثروة الأمم » . فضلا عن الإعلان الأمريكى للاستقلال . فكتاب السر جون هوكنز ذو الأجزاء الخمسة « التاريخ العام لعلم الموسيقى وممارسته » عمل ينبىء عن دراسة مدققة . ومع أنه هو نفسه لم يكن موسيقياً (إذ كان محامياً عاماً ثم قاضياً) فإن معاييره ثبتت وسط تقلبات الرأى الناقد . أما المؤرخ الثانى « تشارلز بيرنى » فكان عازف أرغن فى كتدرائية القديس بولس وأكثر معلمى الموسيقى زبائن فى انجلتره . وقد أكسبته طلعته الوسمية وشخصيته المحبوبة فضلا عن ثقافته المتعددة صداقة جونسن وجاريك وبيرك وشريدان وجبون ورينولدز — الذى رسم له لوحة جذابة دون أن يتقاضى عنها أجراً(٥) . وقد جاب أرجاء فرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا ليجمع المواد لكتابه « التاريخ العام للموسيقى » . وتكلم كلام خبير على المؤلفين الموسيقيين الذين كانوا يومها على قيد الحياة . وحوالى ١٧٨٠ قال ان « شيوخ الموسيقيين يشكون من غلو شبابهم ، وشبابهم يشكو من جفاف الشيوخ وخشونتهم »(٦) .

٢ — المعماريون

اشتبك البناءون الانجليز الآن فى منافسة ساخنة بين الإحياء القوطى والإحياء

الكلاسيكى . ذلك أن بهاء الكتدرائيات القديمة ، وفخامة الزجاج الملون الآثارية ، والأطلال المكسوة باللبلاب والمتخلفة من أديرة العصر الوسيط فى بريطانيا ، كل أولئك حفز الخيال ليصور العصور الوسطى فى صورة الكمال ، وتوافق مع الانتقاض الرومانتيكى المتزايد على طراز الثنائيات الكلاسيكية ، والأعمدة الجامدة ، والقواصر الثقيلة . فاستخدم هوراس ولبول سلسلة من معمارى المرتبة الثانية ليعيدوا بناء بيته « ستروبرى هل » فى توبكنام بطراز وحلية قوطيين (١٧٤٨ — ٧٣) ، وأنفق أعواماً من الاهتمام البالغ ليجعل من بيته الحفيظ على الطراز المضاد للطراز البلاديوى . وكان يضيف إليه الحجرات عاماً بعد عام حتى اكتمل له منها اثنتان وعشرون وبلغ طول إحداها — وهى « قاعة الفنون » التى ضمت مجموعات تحفه — خمساً وستين قدماً . وغلب عليه استعمال الشرائح الخشبية المكسوة بالجص بدلا من الحجر . ويتضح لنا — حتى من أول نظرة — ما هذا الطراز من هشاشة قد تغتفر فى الحلية الداخلية ولكنها لا تغتفر فى البناء الخارجى . وقد وصف سلوين قصر ستروبرى هل هذا بأنه « قوطى هش مثل كعكة الزنجبيل »[٧] ، وقدر ظريف آخر أن ولبول عمر بعد تهدم ثلاثة مجموعات من الأسوار المفرجة التى[٨] اقتضى الأمر ترميمها المرة بعد المرة .

على أن بلاديو وفتروفيوس ظلا رغم هذه التجارب الربين الحارسين للعمارة الانجليزية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كما كانا فى نصفه الأول . وقد تدعمت الروح الكلاسيكية بفضل الحفائر التى أجريت فى هركولانيوم وبومبي ، وذاعت بفضل الأوصاف المنشورة عن الأطلال الكلاسيكية التى عثر عليها فى أثينا وتدمر وبعلبك . ودافع السر وليم تشيمبرز عن الرأى البلاديوى فى كتابه « بحث فى العمارة المدنية » (١٧٥٩) وعزز النظرية بالتطبيق حين أعاد تشييد « سومرست هاوس » (١٧٧٦ — ٨٦) بواجهة عريضة فيها النوافذ بطراز النهضة والأروقة الكورنثية المعمدة .

ثم وفدت من اسكتلنده أسرة لامعة من اخوة أربعة هم جاك وروبرت وجيمس ووليم آدم ليهيمنوا على العمارة الانجليزية فى نصف القرن الذى نحن بصدده . وقد ترك روبرت أقوى البصمات على جيله . فقد أنهى دراسته

فى جامعة إدنبره ، ثم أنفق ثلاث سنين فى إيطاليا حيث التقى ببرانيزى وفنكلمان . وقد لاحظ أن القصور الخاصة التى امتدحها فتروفيوس قد اختفت من روما ، وانتهى إليه أن واحداً منها مازال سليماً نسبياً ، وهو قصر دقلديانوس فى سبالاتو (وهى الآن سبليت فى يوغوسلافيا) فاتخذ سمته إلى تلك العاصمة الدلماشية العتيقة ، وأنفق خمسة أسابيع يقيس ويرسم ، ثم ألقت السلطات القبض عليه ظناً منها أنه جاسوس ، ثم أفرج عنه ، وألف كتاباً عن أبحاثه ، وقفل إلى انجلترة وقد عقد العزم على استعمال الطرز الرومانية فى العمارة البريطانية . ففى ١٧٦٨ استأجر هو وأخوته مساحة من الأرض المنحدرة بين الستراند والتمز لتسعة وتسعين عاماً ، وشيدوا فوقها « أدلفى تراس » الشهير — وهو حى من شوارع بديعة وبيوت جميلة فوق جسر تدعمه البواكى والعقود الرومانية الضخمة ؛ هنا عاش بعض الدراميين الكبار ، من جاريك إلى برنارد شو . كذلك صمم روبرت بعض القصور المشهورة ، مثل قصر « بيوت » المسمى لوتن هو (أى بيت لوتن ، على ثلاثين ميلا شمالى لندن) . قال جونسن « هذا أحد الأماكن التى لا أندم على أننى جئت لأشهدها[٩] » ، ومعروف أنه كان رجلا عسير الإرضاء .

وقد انتصرت الطرز الكلاسيكية بوجه عام على الأحياء القوطى ، وشيد كثير من قصور هذا العهد الكبرى ، مثل كارلتن هاوس بلندن ، وهيروود هاوس بيوركشير ، بالطراز الكلاسيكى الحديث . ولم يعمر ولبول ليشهد عودة الطراز القوطى مكللا بالنصر والبهاء فى دارى البرلمان (١٨٤٠ — ٦٠) .

٣ — ودجوود

لم يقنع الأخوة آدم بتصميم المبانى وما احتوته فى داخلها ، بل صنعوا بعضاً من أجمل أثاث العصر . غير أن ألمع الأسماء فى هذا المضمار هو اسم توماس تشبنديل ، الذى نشر فى ١٧٥٤ وهو فى السادسة والثلاثين كتاب « مرشد الجنتلمان ونجار الأثاث» ، الذى كان لفن صناعة الأثاث ماكانه

كتاب رينولدز « أحاديث » لفن التصوير . وكانت المنتجات التى تفرد بها هى المقاعد ذات « الظهور الشريطية » الرقيقة والقوائم الجذابة . ولكنه أبهج النبلاء والنبيلات فى عهد جورج الثالث كذلك بالخزائن ، والمكاتب ، والمناضد ، ودواليب الكتب ، والمرايا ، والموائد ، والأسرة ذات الأعمدة الأربعة — وكلها أنيق ، وأكثرها مبتكر ، هش رقيق عموماً .

وظلت هذه الرقة طابع فن منافسه جورج هبلوايت ، وخلفهما توماس شيراتون . ويبدو أنهم اعتنقوا نظرية بيرك التى زعمت أن الجمال يجب أن يكون هشاً رقيقاً ، فى الفن كما هو فى الحياة . أما شيراتون فقد دفع الخفة والرشاقة إلى الذروة ، وتخصص فى الخشب الملون وغيره من المنتجات البديعة التجزع . وكان يصقلها فى أناة ، ويلونها فى رقة ، ويكفتها أحياناً بزخارف معدنية . وقد أورد فى « قاموس الأثاث » (١٨٠٢) قائمة حوت ٢٥٢ من « كبار صناع الأثاث » يشتغلون فى لندن أوقربها . ونافست الطبقات العليا فى انجلتره الآن نظائرها الفرنسية فى صقل أثاثها وتجهيزاتها الداخلية .

وكانوا أسبق من الفرنسيين فى تصميم الحدائق والبساتين . وقد لقب لانسلوت براون « Capability » (أى القدرة) لأنه كان يفطن بسرعة كبيرة للقدرات التى تتيحها أرض زبونه للتصميمات الغريبة — والغالية ؛ وبهذه الروح صمم الحدائق فى بلنهيم وكيو . واتجهت موضة الحدائق الآن إلى الطراز الدخيل ، أو غير المتوقع ، أو البهى المنظر . واستعملت نماذج مصغرة من الهياكل القوطية والباجودات الصينية زخارف خارجية ؛ وأدخل السروليم تشيمبرز فى زخرفة حدائق كيو (١٧٥٧ — ٦٢) الهياكل القوطية ، والجوامع المغربية ، والباجودات الصينية (المتعددة الأدوار) . وكانت الجرار الجنائزية حليات محببة للحدائق ، تضم أحياناً رفات أصدقاء رحلوا عن هذه الدنيا .

أما فنون الخزف فقد تطورت تطوراً كاد يكون ثورياً . فكانت انجلتره تنتج زجاجاً لا يقل جمالا عن أى زجاج مصنوع فى أوربا[١١] . وكانت مصانع الخزف فى تشلسى وداربى تصنع الأشكال المبهجة بالبرسلان ، بطراز سيفر عادة . ولكن أنشطة مراكز الخزف كانت « المدن الخمس »

فى ستافوردشير — لا سيما بير سليم وستوك — أن — ترنت . وقبل مجىء جوسيا ودجوود كانت هذه البضاعة فقيرة فى طرائقها ومكاسبها ؛ وكان الخزافون اجلافاً جهلة ، قذفوا وسلى بالوحل حين وعظهم أول مرة ، وكانت بيوتهم عششاً وسوقهم تسدها طرقات لا سبيل إلى اختراقها . وفى ١٧٥٥ اكتشفت فى كورنوول رواسب غنية من الكاولين — وهو طفل أبيض قاس كالذى يستعمله الصينيون ؛ ولكن الموقع كان يبعد مائتى ميل عن المدن الخمس .

وقد بدأ ودجوود وهو فى التاسعة من عمره (١٧٣٩) العمل على دولاب الخزاف . ولم يتلق من التعليم إلا القليل ، ولكنه قرأ كثيراً . وألهمته دراسته لكتاب «كايلوس» «مختارات من الآثار المصرية والأترورية واليونانية والرومانية والغالية» (١٧٥٢ — ٦٧) الطموح إلى تقليد الأشكال الخزفية الكلاسيكية ومنافستها . وفى ١٧٥٣ بدأ العمل بمصنعه الخاص فى « أيفى هاوس» وبنى حوله قرب بير سليم مدينة أطلق عليها اسم إتروريا . وبهمة المحارب وبصيرة رجل الدولة شن حرباً على الظروف التى عوقت هذه الصناعة . ورتب وسيلة أفضل لنقل الكاولين من كورنوول إلى مصانعه ، وشن حملة لإصلاح الطرق وشق القنوات ، وأسهم فى دفع نفقاتها ، وصحت نيته على أن يفتح مسالك من المدن الخمس إلى العالم . وكانت سوق الخزف الجميل الانجليزية حتى ذلك العهد يسيطر عليها خزف مايسن وديلفت وسيفر ، فاستولى ودجوود على السوق المحلية ، ثم على جانب كبير من السوق الأجنبية ، وما وافى عام ١٧٦٣ حتى كانت مصانع خزفه تصدر كل عام ٥٥٠,٠٠٠ قطعة لأوربا وأمريكا الشمالية . وأوصت كاترين الكبرى على طقم للمائدة من ألف قطعة .

وبحلول عام ١٧٨٥ كانت مصانع خزف ستافوردشير تشغل ١٥,٠٠٠ عامل . وأدخل ودجوود تخصص العمل ، وأرسى الانضباط فى المصنع ، ودفع أجوراً حسنة ، وبنى المدارس والمكتبات . وكان يصر على جودة الصناعة ، وقد وصفه كاتب ترجم له قديماً بأنه كان يدب فى أرجاء ورشته عه ساقه الخشبية ، ويحطم بيده كل إناء يظهر به أى عيب صغير ؛ وفى مثل هذه الحالات كان يكتب بالطباشير عادة على مقعد الصانع المهمل هذا

التحذير « هذا لايرضى جوسيا ودجوود »[١١] وابتكر العدد الدقيقة ، وجلب الآلات البخارية لتحريك مكناته . ونتيجة لإنتاجه الواسع للخزف التجارى ، بطل الاستعمال العام لمعدن البيوتر فى انجلترہ . وتفاوت إنتاجه بين مواسير الفخار لمجارى لندن ، وأبدع وأدق الأوانى للملكة شارلوت. وكان يقسم أوانيه المعروضة للبيع إلى « النافع » و « الزخرفى » ولصنع الخزف الزخرفى كان يقلد النماذج الكلاسيكية فى غير مواربة ، كما يرى فى فازاته العقيقية الفاخرة ، ولكنه طور أيضاً أشكالا من بنات أفكاره ، خصوصاً خزف اليشب الشهير ذا الأشكال الإغريقية المنقوشة نقشاً رقيقاً باللون الأبيض على أرضية زرقاء .

وقد جاوز اهتمامه وحماسته الخزف بكثير . فهدته تجاربه التى أجراها للعثور على أخلاط من التراب والكيماويات أكثر إرضاء له ، وعلى طرائق أفضل للحريق ، إلى اختراع « البيرومتر » لقياس درجات الحرارة المرتفعة . وإتاح له هذا الاختراع وغيره من البحوث عضوية الجمعية الملكية (١٧٨٣) وكان عضواً سباقاً فى جمعية إلغاء الرق ، وقد صمم ختمها وصنعه . وقام بحملة لتعميم حق التصويت للذكور وللإصلاح البرلمانى ، وناصر المستعمرات الأمريكية من بداية ثورتها إلى نهايتها . ورحب بالثورة الفرنسية بشيراً بفرنسا أسعد حالا وأعظم رخاء .

وقد هدته فطنته إلى تكليف جون فلاكسمان بعمل الرسوم الجديدة المهذبة لخزفه ومن هذه المهمة انتقل فلاكسمان إلى توضيح أعمال هومر وأسخيلوس ودانتى برسوم قائمة على أساس من فن رسامى الفازات اليونان . وهى رائعة فى خطوطها ، ولكنها لافتقارها إلى الجسم واللون لاتزيد فى جاذبيتها عن جاذبية المرأة مجردة من اللحم . وانتقل بعض هذا البرود إلى تماثيل فلاكسمان ، كما نرى فى تمثاله لنلسن فى كتدرائية القديس بولس ، ولكنه فى تمثال « كيوبيد وما ربيسا »[١٢] الرخامى حقق أشكالا فابضة بالحياة فى عمل من أفضل تقليدات التماثيل الكلاسيكية . ثم أصبحت التماثيل الجنائزية

مجال تخصصه . فأقامها لتشاترتن فى برستل ، ولرينولدز فى كتدرائية القديس بولس ، ولباولى فى كنيسة وستمنستر . وقام فى انجلتره بالدور الذى قام به كانوفا فى إيطاليا — وهو المحاولة الكلاسيكية الحديثة لالتقاط رشاقة براكستيليس الناعمة الشهوانية من جديد .

وهناك جمال أقل ، وحياة أكثر ، فى التماثيل النصفية التى نحتها جوزف نولكنز لأعلام الإنجليز . وقد ولد فى لندن لأبوين فلمنكيين ، ودرس فيها حتى بلغ الثالثة والعشرين ، ثم قصد روما ، حيث عاش واشتغل عشر سنين يبيع العاديات الأصلية والمزيفة[١٣] . فلما عاد إلى انجلتره ، نحت تمثالا نصفياً لجورج الثالث وفق فيه توفيقاً لم يلبث أن كثر الطلب عليه . فجلس إليه ستيرن وجاريك وفوكس وبت الثانى ، كذلك جلس إليه جونسن ، وكان فى ذلك ما أسفوا عليه أحياناً ، لأن نولكنز لم يجامل أحداً فى نحت تمثاله . وقد سخط جونسن قائلا ان المثال أظهره وكأنه تعاطى مسهلا[١٤] .

كان العصر عصر حفارين شعبيين ، وكان الجمهور شديد الاهتمام بالشخصيات القوية التى وطئت مسرح السياسة وغيره من المسارح ، وقد نثرت فى طول انجلتره وعرضها نسخ مطبوعة من صور أشكالهم ووجوههم وكادت رسوم جيمس جلرى الكاريكاتورية تبلغ فى أذاها مبلغ رسائل جونيوس ؛ وقد اعترف فوكس بأن هذه الرسوم أنزلت به « أذى أكثر من المناقشات فى البرلمان »[١٥] . وصور توماس رولاند سن الرجال وحوشاً ، ولكنه رسم أيضاً مناظر طبيعية مبهجة ، وأضحك أجيالا عديدة بكتابه « سياحات الدكتور سنتاكس » . أما بول ساند باى وإدموند داير فقد طورا الرسم بالألوان المائية حتى كاد يبلغ القمة فى الصقل .

وكان البريطانيون العائدون من سياحتهم الكبرى (فى أوربا) يجلبون معهم نسخ الرسوم المطبوعة والمحفورات والصور الزيتية وغيرها وغيرها من التحف ، وانتشر تذوق الفن ، وتكاثر الفنانون ، ورفعوا هاماتهم ، وأجورهم ، ومكانتهم فى المجتمع ، وأنعم على بعضهم بلقب الفروسية . ومنحت جمعية تشجيع الفن والصناعة والتجارة (١٧٥٤) المبالغ الطيبة

جوائزة للفنانين الوطنيين ، ونظمت المعارض . وعرض المتحف البريطانى مجموعاته فى ١٧٥٩ . وفى ١٧٦١ أفتتحت جمعية قائمة بذاتها للفنون معارض سنوية . وما لبثت أن انقسمت إلى محافظين ومجددين . فألف المحافظون أكاديمية لندن الملكية بمرسوم و ٥,٠٠٠ جنيه من جورج الثالث . وجعلوا جوشوا رينولدز رئيساً لها ثلاثة وعشرين عاماً . وهكذا بدأ العصر العظيم للتصوير الانجليزى .

٤ — جوشوا رينولدز

وكان قائد المسيرة هورتشرد ولسن ، الذى ولد لقسيس ويلزى ؛ وقدم إلى لندن فى الخامسة عشرة من عمره ، وكسب قوته برسم الأشخاص . وفى ١٧٤٩ قصد إيطاليا ، وفيها وفى فرنسا استوعب تراث نيقولا بوسان وكلود لوران ، وتعلم أن يؤثر تصوير الأحداث التاريخية والمناظر الطبيعية على تصوير الأشخاص . فلما عاد إلى انجلتره رسم مناظر طبيعية مشرقة الجو ولكنها مكدسة بالأرباب والربات وغيرها من الأطلال الكلاسيكية . وتميزت بالجمال صورة « نهر التمز فى تويكنام »(١٦) التى تلتقط روح نهار صيف انجليزى — المستحمون يسترخون ، والأشجار والزوارق الشراعية لايكاد يحركها النسيم المترقرق . غير أن الانجليز لم يقبلوا على شراء صور المناظر الطبيعية ؛ فقد أرادوا لوحات تخلد وجوههم فى عنفوانهم . ولكن ولسن أصر على رأيه ، وعاش فقيراً فى حجرة نصف مؤثثة فى توتنام كورت رود ، وخفف مرارته بالشراب . وفى ١٧٧٦ أنقذته الأكاديمية الملكية إذ عينته أميناً لمكتبتها . وخلف له موت أخ له ثروة صغيرة فى ويلز ، فأنفق سنيه الأخيرة هناك مغموراً حتى لقد أغفلت الصحف كلها نبأ موته (١٧٨٢).

وعلى النقيض من هذا كانت حياة رينولدز فى فنه مهرجاناً موصولا من أسباب التشريف والثراء . فقد أسعده الحظ بمولده (١٧٢٣) لقسيس ديفونشيرى يدير مدرسة لاتينية ويعشق الكتب التى عثر بينها على « مقال فى فن فنون التصوير» (١٧١٩) من تأليف جوناثان رتشردسن : وقد ألهبه الكتاب رغبة فى أن يكون مصوراً ووافقه أبواه العطوفان على اختياره ارضاء

له ، فأوفداه إلى لندن ليتتلمذ على توماس هدسن ، وهو رجل ديفونى تزوج بابنة رتشردسن وكان يومها أروج مصور للأشخاص فى انجلتره . وفى ١٧٤٦ مات أبوه ، وأقام الفنان الشاب مع أختيه فى بلدة هى اليوم بليمث . فى ذلك الثغر الشهير التقى بالملاحين وضباط البحرية وصورهم وكون صداقات غالية . فلما كلف الكبتن أوجستس كيبل بحمل الهدايا إلى داى الجزائر ، عرض على جوشوا أن ينقله مجاناً إلى مينورقة ، لأنه علم أن الشاب يتوق للدرس فى إيطاليا . ومن مينورقة شق رينولدز طريقه إلى روما (١٧٥٠) .

وأقام بإيطاليا ثلاث سنين يرسم وينسخ الصور . وجهد ليكتشف الطرق التى استعملها ميكلانجو ورفائيل فى حذقهما للخط واللون والضوء والظل والنسيج والعمق والتعبير والمزاج . وقد دفع الثمن . فبينما كان ينسخ رفائيل فى بعض حجرات الفاتيكان غير المدفأة أصيب ببرد وأنه أضر بأذنه الداخلية . ثم انتقل إلى البندقية ، حيث درس تتسيانو ، وتنتوريتو ، وفيرونيزى ، وتعلم كيف يضفى وقار الأذواج البنادقة على أى إنسان يصوره . وفى طريق عودته إلى وطنه توقف شهراً فى باريس ، ولكنه وجد فى فن التصوير الفرنسى المعاصر من الأنوثة ما لا يسيغه ذوقه . وبعد أن قضى شهراً فى ديفون استقر به المقام مع أخته فرانسيس فى لندن (١٧٥٣) ، وهناك أقام ما بقى من عمره .

وللتو تقريباً استرعى الأنظار بصورة أخرى للكبتن كبيـــل[١٧] — وسيماً متحمساً ، آمراً ناهياً ، هنا أعيد التقليد الفانديكى حتى تصبح اللوحات صوراً متألقة للارسقراطية . ولم يمضى عامان حتى بلغ عدد زبائنه ١٢٠ زبوناً ، واعترف به القوم أبرع مصور فى انجلتره . وكان عيبه التيسير . فقد أصبح شديد الاستغراق والخبرة بتصوير الأشخاص حتى افتقد الوقت والمهارة لرسم الصور التاريخية أو الأسطورية أو الدينية . وقد أجاد رسم بعضها ، مثل « الأسرة المقدسة » و « رباب الحسن الثلاث »[١٨] ولكن الهامة لم يكن فيها . كذلك لم يكن بزبائنه حاجة إلى هذه الصور ، فقد كانوا كلهم تقريباً بروتستنتا يستنكرون الصور الدينية لأنها تشجع عبادة الأوثان فيما يزعمون ؛ وقد أحبوا الطبيعة ، ولكنهم أحبوها ذيلا تلحق به أشخاصهم

أو رحلات صيدهم ، وكانوا يتمنون أن يروا أنفسهم دائمي الشباب على جدرانهم ، مخلفين انطباعاً قوياً على ذراريهم . ومن ثم أقبلوا على رينولدز ، ألفان منهم عدداً ، وأرسلوا إليه أزواجهم وأبناءهم ، وأحياناً كلابهم . ولم ينصرف أحد من هؤلاء حزيناً ، لأن خيال رينولدز اللطيف استطاع دائماً أن يعوضهم عما حرمتهم الطبيعة .

ولم يحدث على مدى التاريخ أن حفظ جيل أو طبقة حفظاً كاملا كذلك الذي تراه في لوحات رينولدز الباقية وعددها ٦٣٠ « فهنا رجال الدولة الذين عاشوا في ذلك العصر المفعم حيوية : هنا بيوت في مهرجان من اللون[١٩] ، وبيرك في اكتئاب عاجله وهو بعد في الثامنة والثلاثين ، وفوكس مستكرشاً ، حزيناً ، هماماً في الرابعة والأربعين . . . وهنا الكتاب : ولبول ، وستيرن ، وجولد سمث[٢٠] وهو يبدو حقيقة مثل « بل المسكين » ، وجبون بوجنتيه الممتلئتين اللتين حسبتهما المركيزة دودفان — التي لم تبصر إلا بيديها — مقعدة طفل »[٢١] وبوزويل [٢٢] فخوراً كأنه خلق جونسن ، ثم جونسن نفسه ، مصوراً في حب خمس مرات ، وجالساً في ١٧٧٢ إلى رينولدز ليرسم له أشهر ما رسم من صور الرجال [٢٣] . وهنا أعلام المسرح : جاريك « بين ربتي التراجيديا والكوميديا المتنافستين » ، وماري روبنسن في دور برديتا ، والسيدة آبنتن في دور ربة الكوميديا ، وساره سيدونز في دور ربة التراجيديا[٢٤] ، وقد نقد أحد المتحمسين رينولدز سبعمائة جنيه (١٨،٢٠٠ دولار ؟) ثمناً لهذه الرائعة الفاخرة .

ويغلب على هذا المتحف الذي لاضريب له كثرة عدد النبلاء — أولئك الذين أعطوا نظاماً اجتماعياً لشعب نزاع إلى الفردية ، واستراتيجية ظافرة للسياسة الخارجية ، ودستوراً مقيداً للملك فانظر إليهم أول الأمر في صباهم الحلو . كصورة توماس استر ذي الاثني عشر ربيعاً — هذه الصورة التي رسمها رينولدز واسمها « الصبي الأسمر » تتحدى صورة « الصبي الأزرق » التي رسمها جنيزبرو . ثم ورءت خصور الكثيرين منهم بعد أن ولت أيام الشباب الخطرة ، مثل أوجسطس كبيل ذاته الذي كان رائع السمت وهو كبتن في ١٧٥٣ ، ولكنه انتفخ كثيراً وهو أميرال في ١٧٨٠ . وقد وفق

رينولدز برغم هذه البدانات ، وبرغم الحرير والمخرمات التى اكتسوا بها ، فى تحويل الشجاعة والكبرياء غير الملموستين إلى لون وخط . خذ مثلا جسم اللورد هينفيلد المتين وشخصيته القوية ، يبدو جسوراً فى اللون الأحمر البريطانى ، ممسكاً بالمفتاح إلى جبل طارق الذى دافع عنه دفاعاً مستميتاً ضد حصار الأسبان والفرنسيين الذى امتد أربعة أعوام .

وهكذا تنتهى بنا المسيرة إلى أولئك الربات بين النساء « الدياى جينايكون » اللائى وجدهن رينولدز فى زوجات النبلاء البريطانيين وبناتهم . وإذ كان عزباً فقد كان حراً فى أن يحبهن جميعاً بعينيه وفرشاته ، ويقوم اعوجاج أنوفهن ، ويهذب قسماتهن ، ويرتب شعورهن الهائشة ، ويخلع عليهن بهاء وجلالا بلباس فضفاض رقيق فى خفة الزغب ، خليق بأن يجعل فينوس تواقة إلى كساء عريها . فانظر إلى الليدى اليزابث كبيل ، مركيزة تافيستوك ، وقد ارتدت ثياب القصور التى لبستها قبل سنين يوم كانت إشبينة للعروس الملكة شارلوت ، ترى ماذا تكون بغير تلك الطيات من الحرير الملون تطوق ساقين لا يمكن على أية حال أن تختلفا كثيراً عن ساقى زانتيب (زوجة سقراط) ؛ وكان رينولدز أحياناً يجرب ما تستطيع فرشاته أن تصنع بالمرأة وهى فى ثياب بسيطة ؛ فصور مارى بروس دوقة رتشموند فى عباءة عادية تخيط رسماً فى وسادة[٢٥] ؛ هذا وجه يمكن أن يلم بأحلام فيلسوف . وفى ما يقرب من هذه البساطة فى الملبس والصورة الجانبية الملائكية نرى السيدة بوفرى تصغى إلى السيدة كريوى[٢٦] . وكان هناك جمال أعمق حتى من هذا فى وجه إيما جلبرت ، كونتيسة مونت ادجكوم ، الهادىء الرقيق[٢٧] ، وقد دمرت هذه اللوحة الجميلة بفعل غارات العدو فى الحرب العالمية الثانية .

وكان لكل هؤلاء النسوة تقريباً أطفال ، لأنه كان جزءاً من التزام الارستقراطية الاحتفاظ بالأسرة والملكية فى استمرار لاتنفصم عراه . وهكذا صور رينولدز الليدى اليزابث سبنسر ، كونتيسه بمبروك ، مع ابنها ذى السنين الست ، وهو الذى سيصبح فيما بعد اللورد هربرت[٢٨] ؛ وصور السيدة إدورد بوفرى مع ابنتها جورجيانا ذات السنين الثلاث[٢٩] ؛ وصور هذه الأنه ، بعد أن أصبحت دوقة ديفونشير (الحسناء المرحة التى اشترت

بالقبلات أصوات الناخبين لفوكس فى حملته لانتخابات البرلمان) مع ابنتها ذات السنين الثلاث ، وهى جورجيانا أخرى أصبحت فيما بعد كونتيسة كارليل[٣٠] .

وأخيراً ، وربما أكثرهن جميعاً جاذبية ، الأطفال أنفسهم ، متحف كامل منهم ، وكلهم تقريباً رسمه متفرداً كروح لاتكرار لها ، وفهمه بتعاطف فى تساؤل الصبى وعدم اطمئنانه . ويعرف العالم رائعة رينولدز فى هذا القطاع ، وهى « عصر البراءة »[٣١] ، التى رسمها فى ١٧٨٨ ، فى آخر سنى إبصاره ؛ بيد أن السرعة التى بلغ بها تفهمه للطفولة حدساً يكاد يكون صوفياً يمكن رؤيتها فى لوحه بجل جمالها عن الوصف رسمها فى ١٧٥٨ للورد روبرت سبنسر وهو فى الحادية عشرة[٣٢] . وبعدها راح يرسم الأطفال فى كل عمر : فى سنها الأولى الأميرة صوفيا ما تيلده ؛ وفى سنته الثانية الغلام وين مع حمله ؛ وفى الثالثة الآنسة باولز مع كلبها ؛ وفى الرابعة الغلام كريوى فى تقليد كامل لهنرى الثامن ؛ وفى نحو هذه السن« الفتاة بائعة الفراولة » [٣٣]؛ وفى الخامسة ولدا بروميل ، وليم وجورج (الذى أصبح فيما بعد يلقب « بو بروميل ») ؛ وفى السادسة الأمير وليم فردريك ؛ وفى السابعة اللورد جورج كونواى ؛ وفى الثامنة الليدى كارولين هوارد ؛ وفى التاسعة فردريك ، ايرل كارليل ؛ وهكذا قدما إلى الشباب والزواج والإنجاب .

وقد اعترف رينولدز بإيثاره زبائنه من ذوى الألقاب ، « ان التدرج البطىء للأشياء بالطبع يجعل الأناقة والتهذيب آخر آثار الغنى والساطة »[٣٤] ولا قبل إلا للأغنياء بدفع الجنيهات الثلاثمائة التى يطلبها أجراً عن « لوحة كاملة الطول مع طفلين »[٣٥] . أيا كان الأمر ، فإنه كان قد وقع على منجم ذهب ، وما لبث دخله أن ارتفع إلى ١٦,٠٠٠جنيه فى العام . وفى ١٧٦٠ اشترى بيتاً فى رقم ١٧ بميدان لستر ، وكان يومها أرقى أحياء لندن ، فأثثه تأثيثاً فاخراً ، وجمع له الصور من صنع قدامى الفنانين ، واتخذ مرسماً له قاعة فى سعة صالة الرقص . وكان لى مركبته الخاصة ، تجملها اللوحات المرسومة والعجلات المذهبة ، وطلب إلى أخته أن تركبها طائفة بالمدينة ، لأنه كان يعتقد أن مثل هذا الإعلان عن الثراء كفيل بأن يأتى بالمزيد[٣٦] .

وفى ١٧٦١ منح لقب الفروسية . وكان يلقى الترحيب فى كل مكان يحل به ضيفاً ، واستضاف هو نفسه أصحاب العبقرية والجمال والنبل ؛ وكان يلتقى على مائدته من رجال الأدب عدد يفوق ضيوف أى رجل آخر فى انجلترا[٣٧] . وقد أهداه جولد سمث قصيدته « القرية المهجرة » وأهداه بوزويل « حياة صموئيل جونسن » . ورينولدز هو الذى أسس فى ١٧٦٤ « النادى » ليتيح لجونسن منبراً من نظرائه .

ولا بد أنه أحب جونسن ، فقد رسم له صوراً كثيرة جداً . ورسم لنفسه أكثر . غير أنه لم يوهب وسامة الطلعة ، فقد كان وجهه شديد الحمرة به ندوب من جدرى أصابه فى طفولته ؛ وكانت ملامحه جافية ، وشفته العليا شوهتها كبوة فى مينورقة . وفى الثلاثين رسم نفسه وهو يظلل عينيه ويحاول اختراق تيه من الضوء والظل ليلتقط الروح الكامنة وراء وجه[٣٨] . ثم صور نفسه فى الخمسين وهو فى رداء الدكتوراه ، لأن جامعة أكسفورد كانت قد منحته لتوها الدكتوراه فى القانون المدنى . وأبدع هذه السلسلة صورته المحفوظة فى قاعة الصور القومية ، والتى رسمها حوالى ١٧٧٥ ، وفيها يبدو وقد غدا وجهه أكثر تهذيباً ، ولكن شعره خطه الشيب ، ويده مضمومة إلى أذنه ، لأنه كان فى طريقه إلى الصمم .

وحين أسست أكاديمية الفنون الملكية فى ١٧٦٨ انتخب رينولدز رئيساً لها بالإجماع . وظل خمسة عشر عاماً يفتتح موسمها بحديث إلى الطلاب . وكان بوزويل من الأصدقاء الذين جلسوا فى الصف الأمامى فى حديثه الأول (٢ يناير ١٧٦٩) . وقد أدهشت الكثيرين ممن استمعوا إلى هذه الأحاديث بلاغتها الأدبية ، وظن بعضهم أن بيرك أو جونسن كتبها له ، ولكن السير جوشوا كان قد تعلم الكثير من اتصالاته ، وأنشأ له أسلوباً وتفكيراً خاصين . وبالطبع شدد على أهمية الدرس بوصفه أكاديمياً ، واستنكر الفكرة التى تزعم أن العبقرية قد تغنى صاحبها عن التعلم وبذل الجهد الشاق ، وازدرى « شبح الإلهام هذا » ، وأصر على أن « الجهد هو الثمن الوحيد للشهرة الراسخة »[٤٠] . ثم انه « ينبغى اغتنام كل فرصة لاستنكار ذلك الرأى السوقى الباطل — وهو

أن القواعد اغلال تقيد العبقرية »[٤١] ويجب أن يمر التطور الطبيعى للفنان بمراحل ثلاث :

أولا : مرحلة الوصاية — تعلم القواعد ، والرسم ، والتلوين ، والتشكيل؛ ثانيا : دراسة كبار الفنانين الذين نالوا الاستحسان على طول الزمن ، وبطريق هذه الدراسات « تلتئم الآن أسباب الكمال المتناثرة بين مختلف الفنانين فى فكرة عامة واحدة تفضى إلى تعديل ذوق الطالب وتوسيع خياله ، والمرحلة الثالثة والأخيرة تحرر الطالب من الخضوع لأى سلطان إلا ما يرى بنفسه أن العقل يؤيده [٤٢] . وعندها فقط ينبغى له أن يجدد ويبدع ، « فإذا أحسن إرساء حكمه وإثراء ذاكرته ، استطاع أن يجرب قوة خياله دون أن يعروه خوف . والعقل الذى درب على هذا النحو يمكنه أن يشبع رغبته فى الحماسة المفرطة ويغامر باللعب على حدود الإغراب الشديد»[٤٣] .

وكان هوجارث قد رفض « قدامى الأساتذة » ولقبهم « الأساتذة السود » ، وأشار بتصوير الطبيعة تصويراً واقعياً . أما رينولدز فذهب إلى أن هذه الخطوة ينبغى أن تكون مجرد إعداد لفن أكثر مثالية . « ان الطبيعة نفسها يجب عدم الغلو فى نقلها . . ومطمح المصور الأصيل لابد أن يكون أوسع من هذا . فبدلا من محاولته الترويح عن البشر بالأحكام الدقيق لتقليداته ، عليه أن يحاول تحسينها بسمو أفكاره . . . وعليه أن يكافح لبلوغ الشهرة بأسره للخيال »[٤٤] . ان كل شىء فى الطبيعة ناقص قاصر عن ادراك الجمال ، وفى صميمه عيب أو نقص ما ، والفنان يتعلم أن يحذف هذه العيوب من ابداعاته ، وهو يجمع فى مثل أعلى واحد مزايا الكثير من الأشكال الناقصة ؛ « انه يصحح الطبيعة بذاتها ، وحالتها الناقصة بحالتها الأكثر كمالا . . وهذه الفكرة ، فكرة الحالة الكاملة للطبيعة ، التى يسميها الفنان « الجمال المثالى » هى المبدأ الرئيسى العظيم الذى تؤدى الأعمال العبقرية طبقاً له . ولكى يميز الفنان الناقص من الكامل ، والرفيع من الخسيس ، ولكى يدرب الخيال ويهذبه ويرفعه ، يجب أن يثرى نفسه بالأدب والفلسفة ، وبـ « حديث الرجال المثقفين والمبدعين»[٤٥] . وكذلك فعل رينولدز .

وفى ١٧٨٢ أصيب بالنقطة ، ثم شفى شفاء جزئياً من إصابته . وواصل التصوير سبع سنين أخرى . ثم غامت عينه اليسرى ، وسرعان ما فقدت البصر . وفى ١٧٨٩ بدأت اليمنى فى الضعف ، فوضع فرشاته ، وقد ملأه جزعاً وقنوطاً أن يضاف العمى الكامل تقريباً إلى نصف الصمم الذى ألجأه منذ سنته السابعة والعشرين إلى استعمال بوق للأذن . وفى ١٠ ديسمبر ١٧٩٠ ألقى آخر أحاديثه . وقد أعاد تأكيد إيمانه بالمبادىء الأكاديمية والمحافظة التى نادى بها فى أحاديثه الأقدم عهداً ، وجدد نصيحته بدرس الخط قبل اللون ، والمصورين القدامى قبل محاولة التجديد . ثم اختتم بالثناء الحار على ميكلانجلو :

« لو أتيح لى الآن أن أبدأ الحياة من جديد ، لاقتفيت خطى ذلك الفنان العظيم ، فلثم هدب ثوبه ، والتقاط الطفيف من مواطن كماله ، فيه فخر وامتياز كافيان لرجل طموح . . . ويخيل إلى ، فى شعور لا يخلو من الغرور ، أن هذه الأحاديث تشهد بإعجابى بهذا الرجل الملهم حقاً ، وأود أن تكون آخر كلمة أفوه بها فى هذه الأكاديمية ومن هـــذا المكان ، هى اسم ميكلانجلوا »[٤٦] .

وتوفى المصور الآسف فى ٢٣ فبراير ١٧٩٢ ، وشرف تسعة نبلاء بحمل رفاته إلى كتدرائية القديس بولس .

٥ — توماس جينزبرو

كان رينولدز رجل دنيا ، لا يتردد فى تقديم فروض الاحترام التى يقتضيها قبوله فى المجتمع ، أما جينزبرو فكان ذا نزعة فردية حارة ، تسخطه التضحيات التى تطالب بها شخصيته وفنه ثمناً للنجاح . وكان أبواه من المنشقين على الكنيسة الرسمية ، وورث توماس عنهما استقلال الروح دون أن يرث التقوى . وتروى القصص عن هروبه من المدرسة فى مسقط رأسه صدبرى ليجوب أرجاء الريف راسماً رسوماً تخطيطية للشجر والسماء ، وللماشية ترعى فى الحقول أو تشرب عند بركة . فلما فرغ من رسم جميع الأشجار فى منطقته وهو بعد فى الرابعة عشرة ، حصل على إذن من أبيه

ليذهب إلى لندن ويدرس الفن . وهناك درس نساء المدينة ، كما نستنتج من نصيحته التى بذلها فى تاريخ لاحق لممثل شاب : « لا تسرح فى شوارع لندن ، متوهماً أنك تلتقط لمحات من « الطبيعة » على حساب بدنك . تلك كانت أول مدرسة لى . وأنا عميق الخبرة بالنساء ، فاسمح لى إذن أن أحذرك »(٤٧) .

وفجأة ، وهو ما يزال فى التاسعة عشرة ، ألفى نفسه زوجاً لفتاة اسكتلندية فى السادسة عشرة تدعى مارجريت بور . وتجمع أكثر الروايات على أنها كانت ابنة غير شرعية لأحد الأدواق ، ولكنها كانت تملك دخلا قدره مائتا جنيه فى السنة(٤٨) . وفى ١٧٤٨ استقر بهما المقام فى ابسوتش . وهناك التحق بناد موسيقى لأنه كان مولعاً بالموسيقى ، وكان يعزف على عدة آلات — « اننى أرسم لوحات الأشخاص لأكسب قوتى ، ولمشاهد الطبيعة لأنى أحبها ، وأعزف الموسيقى لأننى لا أملك منع نفسى من العزف »(٤٩) وقد وجد فى مصورى « اللاند سكيب » (المناظر الطبيعية) الهولنديين دعماً لولعه بالطبيعة . وكافه فليب تكنيس ، حاكم قاعة لاند جارد القريبة منه ، بأن يصور القلعة ، والتلال المجاورة لها ، وهاروتش ، ثم نصحه بأن يلتمس عملاء أغنى وأكثر فى مدينة بات .

فلما أن بلغها جينزبرو (١٧٥٩) بحث عن الموسيقيين لا المصورين ، وسرعان ما أدخل يوهان سبستيان باخ فى عداد أصدقائه . ذلك أنه كان يملك روح الموسيقى وحساسيته ، وتراه فى لوحاته يحول الموسيقى إلى دفء للون ورشاقة الخط . وكان فى باث بعض مجموعات الصور جيدة ، فاستطاع الآن أن يدرس لوحات الطبيعة التى رسمها كلود لوران وجسبار بوسان ، ولوحات الأشخاص التى رسمها فانديك ، وأصبح الوريث وأسلوب فانديك الانجليزى — لوحات أشخاص تضيف رهافة بالغة فى الفن إلى تفرد الشخصية وأناقة الملبس .

وفى باث أنتج بعضاً من أفضل فنه . وكان آل شريدان يسكنونها ، فرسم جينزبرو زوجة رتشرد الشابة الفاتنة(٥٠) ثم أفاض كل صنعته الآخذة فى النضج على لوحه « النبيلة مسز جراهام »(٥١) التى أتاح له رداؤها الأحمر

بثناياه وطياته أن يبرز أرق تدريجات اللون والظل . وحين عرضت هذه اللوحة فى الأكاديمية الملكية بلندن (١٧٧٧) خيل لكثير من المشاهدين أنها تبز أى لوحة رسمها رينولدز . وحوالى عام ١٧٧٠ أضفى جينزبرو البهاء على صورة غلام يدعى جوناثان بتال ، وهو ابن تاجر حديد ، فغيره إلى « الصبى الأزرق » — وهى لوحه دفع فيها متحف صور هنتنجتن ٥٠٠,٠٠٠ دولار . وكان رينولدز قد أعرب عن اقتناعه بأنه لا يمكن رسم لوحة شخصية مقبولة باللون الأزرق ، وقبل غريمه الصاعد التحدى وانتصر؛ وأصبح اللون الأزرق بعدها لوناً مفضلا فى التصوير الانجليزى .

ورغب كل وجوه باث الآن فى أن يصورهم جينزبرو . ولكنه ، كما قال لصديق ، « لقد مللت تصوير الأشخاص ، وبى رغبة شديدة فى أن آخذ كمانى وأنطلق إلى قرية جميلة ، حيث أستطيع رسم مشاهد الطبيعة وأستمتع بالبقية الباقية من عمرى فى هدوء ودعة »(٥٢) . ولكنه عوضاً عن هذا نزح إلى لندن (١٧٧٤) واستأجر مسكناً فاخراً فى شومبيرج هاوس ، بشارع بل مل ، ودفع فيه ٣٠٠ جنيه فى السنة ، فهو لا يرضى بأن يتفوق عليه رينولدز فى مظهره . وتشاجر مع الأكاديمية على عرض صوره ، وظل أربع سنين (١٧٧٣ — ٧٧) رافضاً عرض لوحاته فيها ؛ وبعد عام ١٧٨٣ لم يتيسر مشاهدة لوحاته الجديدة إلا فى الافتتاح السنوى لمرسمه . وبدأ نقاد الفن حرباً غير كريمة من المقارنات بين رينولدز وجينزبرو . وكان رينولدز عموماً يفضل عليه . ولكن الأسرة المالكة آثرت جينزبرو ، فصور أفرادها جميعاً . ولم يلبث نصف الانجليز الذين يجرى فى عروقهم الدم الأزرق أن تقاطروا على شومبرج هاوس طلباً للخلود القلق فى الصور . ورسم جينزبرو الآن شريدان ، وبيرك ، وجونسن ، وفرانكلن ، وبلاكستون ، وبت الثانى ، وكلايف . . . ولكى يوطد مكانته ، ويدفع إيجاره ، راض نفسه على الانقطاع لرسم الأشخاص .

وقد وجده زبائنه رجلا صعب الإرضاء . من ذلك أن أحد اللوردات غالى فى خيلائه بينما كان جالساً إلى جينزبرو ، فصرفه دون أن يرسمه ، وكانت ملامح جاريك كثيرة الحركة والتغير (فهذا كان نصف سر تفوقه ممثلا)

بحيث لم يستطع المصور أن يجد تعبيراً يطول فترة تكفى للكشف عن الرجل ، ولقى هذا العنت فى تصوير صموئيل فوت ، منافس جاريك . وصاح جينزبرو تباً لهما من وغدين ! إن لها وجه كل إنسان إلا وجههما »[٥٣] ثم وجد صعوبة مختلفة فى تصوير السيدة سيدونز « لعن أنفك ياسيدتى ! أنه بلا نهاية »[٥٤] وكان يصفو مزاجه مع النساء ، فهو شديد الإحساس بجاذبيتهن الجنسية ، ولكنه تسامى بها إلى شعر من الألوان الناعمة والعيون الحالمة .

فلما أن فاض لديه المال بعد نفقات مسكنه الغالية رسم المناظر الطبيعية التى كان الطلب على لوحاتها قليلا . وكثيراً ما كان يضع زبائنه الجلوس . — أو الوقوف — ومن خلفهم منظر ريفى ، كما نرى فى لوحته « روبرت أندروز وزوجته » (التى بيعت بمبلغ ٣٦٤,٠٠٠ دولار فى مزاد عام ١٩٦٠). وإذ منعته زحمة العمل من الذهاب إلى الريف والرسم فى مواجهة الطبيعة الحية ، فقد جلب إلى مرسمه أصول الشجرة والحشائش البرية والأغصان والأزهار والحيوانات ؛ ثم نظمها فى لوحه [٥٥] — مع دمى ألبسها ثياباً لتبدو كأنها ناس ، ومن هذه الأشياء ؛ ومن ذكرياته ، ومن خياله ، رسم المناظر الطبيعية . وكان فيها نوع من الافتعال ، وشكلية وانتظام ندر أن يوجدا فى الطبيعة ، ومع ذلك فالنتيجة أوحت بجو من شذى الريف وسكينته ، وفى أخريات عمره رسم بعض « الصور الغريبة » التى لم يدع أنه توخى فيها الواقعية ، ولكنه أطلق العنان لمزاجه الرومانتيكى ؛ وفى إحداها ، وهى « فتاة الكوخ ومعها كلب وابريق «كل العاطفة التى تجيش بها لوحة جروز « الإبريق المكسور» وكلتا الصورتين رسمت فى ١٧٨٥ [٥٦] .

ولا يستطيع أن يقدر جينزبرو حق قدره غير فنان . كان فى أيامه يعد أقل قدراً من رينولدز ، ويعاب على رسمه أنه مهمل ، وعلى تكويناته أنها تفتقد الوحدة ، وعلى أشكاله أنها غير صحيحة الأوضاع ؛ ولكن رينولدز نفسه أثنى على التألق الخفيف الذى اتسم به تلوين مزاحمه . وكان يصاحب فن جينزبرو شعر وموسيقى لم يستطع مصور الأشخاص العظيم فهمه فى حرارة ، لقد كان لرينولدز عقل أكثر ذكورة ، وتفوق على منافسه فى رسم الرجال ؛ أما جينزبرو فكان روحاً أكثر رومانسية ، آثر تصوير النساء

والصبيان . لقد فاته التدريب الكلاسيكى الذى تلقاه رينولدز فى إيطاليا ، وافتقد الاتصالات المنبهة التى أثرت عقل رينولدز وفنه . وكان جينزبرو مقلاً فى قراءته ، قليل الاهتمامات الفكرية ، يتجنب جماعة الأدباء والظرفاء الذين التفوا حول جونسن . وكان سمح النفس ولكنه متهور نزاع إلى الانتقاد ، وما كان يمكن قط أن يستمع فى صبر لمحاضرات رينولدز أو أحكام جونسن . ومع ذلك احتفظ بصداقة شريدان إلى النهاية .

فلما تقدم به العمر ران عليه الغم والاكتئاب ، فالنفس الرومانسية تقف عاجزة أمام الموت ما لم تكن متدينة . وفى كثير من لوحات الطبيعة التى رسمها جينزبرو تقحم شجرة ميتة نفسها « تذكرة موت » وسط الورق الغض والعشب الوافر . ولعله ظن أن السرطان يخترمه ، وأحس بمرارة متزايدة لفكرة عذاب يستطيل إلى هذا الحد . وقبل أن يموت بأيام كتب رسالة مصالحة إلى رينولدز وطلب إلى أكبر الرجلين أن يزوره . وجاء رينولدز ، وتبادل الرجلان الحديث الودى وهما اللذان لم يتشاجرا بشخصيهما بقدر ما كانا موضوع نزاعات بين رجال أقل منهم شأناً . وحين افترقا قال جينزبرو « وداعاً حتى نلتقى فى الآخرة ، وفى صحبتنا فانديك »[٥٧] ومات فى ٢ أغسطس ١٧٨٨ بالغا الحادية والستين .

وشارك رينولدز شريدان فى حمل جثمانه إلى فناء كنيسة كيو . وبعد أربعة أشهر أثنى عليه رينولدز فى حديثه الرابع عشر ثناء منصفاً . وقد ذكر بصراحة العيوب كما ذكر الحسنات فى فن جينزبرو ، ولكنه أضاف « لو أتيح لهذه الأمة أن تنجب من العباقرة عدداً يكفى لإكسابنا الامتياز الرفيع ، امتياز « مدرسة انجليزية » ، فإن اسم جينزبرو سينحدر إلى الأجيال القادمة ، فى تاريخ الفن ، فناناً من الرعيل الأول فى تلك المدرسة الصاعدة »[٥٨]

أما جورج رومنى فقد كافح ليبلغ شعبية رينولدز وجينزبرو ، ولكن عيوب تعليمه وصحته وخلقه ألزمته مكاناً أكثر تواضعاً . وقد افتقد التعليم المدرسى بعد الثانية عشرة ، فاشتغل فى ورشة نجارة أبيه بلانكاشير حتى بلغ التاسعة عشرة . وقد أكسبته رسومه المال الذى تلقى به دروساً فى التصوير

من فنان متبطل فى بلدته . فلما بلغ الثانية والعشرين مرض مرضاً خطيراً ، فلما شفى تزوج ممرضته ، ولكنه لم يلبث أن ضاق بها ، فهجرها بحثاً عن رزقه ، ولم يرها سوى مرتين فى الأعوام السبعة والثلاثين التالية ، ولكنه كان يرسل إليها بعض مكاسبه . وقد كسب ما يكفى لزيارة باريس وروما ، حيث تأثر بالنزعة الكلاسيكية الحديثة . فلما عاد إلى لندن اجتذب رعاية رعاة الفن بقدرته على إلباس زبائنه فى رشاقة أو وقار . وكان منهم إيما ليون ، التى أصبحت فيما بعد الليدى هاملتن ، وقد بلغ من افتتان رومنى بجمالها انه صورها فى صورة إلاهة ، وكاساندرا ، وسورسى ، والمجدلية ، وجان دارك ، والقديسة . وفى ١٧٨٢ رسم صورة لليدى سذرلاند ، نقد عنها ١٨ جنيهاً ؛ وقد بيعت مؤخراً بمبلغ ٢٥٠,٠٠٠ دولار . وفى ١٧٩٩ عاد إلى زوجته محطم الجسد والعقل ، فعاودت تمريضه كما فعلت قبل أربع وأربعين سنة . وطال به الأجل ثلاثة أعوام من الشلل ، ثم مات فى ١٨٠٢ . وبفضله وبفضل رينولدز وجينزبرو انطلقت انجلترە الآن ، فى نصف القرن الذى نحن بصدده ، فى التصوير كما انطلقت فى السياسة والأدب ، فى تيار الحضارة الأوربية المتدفق .

* * *



الفصل الحادي والثلاثون

جيران إنجلترة

١٧٥٦ — ٨٩

١ — إرلندة جراتان

شرح رحالة انجليزى زار إرلنده فى ١٧٦٤ أسباب جنوح الفقراء إلى الإجرام فقال : « أى خوف من العدالة أو العقاب يمكن توقعه من فلاح إرلندى يتردى فى حال من التعاسة والفقر المدقع ، حال لو أن أول رجل صادفه ضربه على أم رأسه وأراحه إلى الأبد من حياته البائسة الضنكة لحق له أن يحسبه عملا ودياً جديراً بالثناء ؛ ... واحتمال الكثيرين منهم ... لحالتهم المزرية بصبر دليل كاف لدى على ما فى طبعهم من لطف فطرى »[1].

ولم يكن ملاك الأرض — ومعظمهم من البروتستنت — هم الظلمة المباشرين للفلاحين — ومعظمهم كاثوليك — ولا أشدهم ضراوة ، فالملاك كانو يعيشون عادة فى انجلتره لا يرون الدم الذى لطخ الإيجارات التى يبتزها الوسطاء الذين يؤجرون لهم أرضهم ؛ والوسطاء هم الذين استنزفوا كل درهم استطاعوا ابتزازه من الفلاحين ، حتى اضطر هؤلاء إلى أن يكتفوا فى غذائهم بالبطاطس وفى لباسهم بالأسمال .

وفى ١٧٥٨ ، سمح لإرلنده خمس سنين بتصدير الماشية إلى بريطانيا لأن المرض كان يفتك بالماشية فى انجلتره . فتحولت أفدنة كثيرة فى ارلنده — بما فيها الأرض المشاع التى كان المزارعون المقيمون يستعملونها من قبل — من الزراعة إلى رعى الأغنام أو الماشية ، فازداد الأغنياء غنى والفقراء فقراً . ثم أضافوا إلى مشكلاتهم بالزواج المبكر — « عند أول ميسرة » كما

قال السير وليم بتى[٢] ، ولعل الأمل راودهم فى أن أطفالهم لن يلبثوا أن يغطوا نفقاتهم ثم يعينوهم على دفع الإيجار . وهكذا ، ورغم ارتفاع نسبة الوفيات ، زاد سكان ايرلنده من ٣,١٩١,٠٠٠ عام ١٧٥٤ إلى ٤,٧٥٣,٠٠٠ عام ١٧٩١[٣] .

أما صورة الصناعة فأخذت فى الإشراق . ذلك أن الكثير من البروتستنت وبعض الكاثوليك قد أخذوا يحترفون إنتاج الأتيال أو الأصواف أو البضائع القطنية أو الحرير أو الزجاج . وفى الربع الأخير من القرن ، بعد أن حصل جراتان على تخفيف للقيود البريطانية المفروضة على رجال الصناعة الارلنديين وعلى التجارة الارلندية ، نشأت طبقة وسطى وفرت الركيزة الاقتصادية للسياسة التحريرية والنمو الثقافى . وغدت دبلن من أمهات المراكز فى التعليم والموسيقى والدراما والعمارة فى الجزر البريطانية . وكانت كلية ترنتى بسبيلها إلى أن تصبح جامعة ، تملك فعلا قائمة طويلة من الخريجين الممتازين . ولو أن ارلنده احتفظت بنجومها الساطعة فى أرض الوطن — بيرك ، وجولد سمث ، وشريدان ، وسويفت ، وباركلى — لسطعت جنباً إلى جنب مع ألمع الأمم فى ذلك العهد . وبعد عام ١٧٦١ جعل نائب الملك دبلن مقره الدائم بدلا من الاكتفاء بزيارات قصيرة مرة كل عام . وقامت الآن الصروح العامة الشامخة والقصور الأنيقة . ونافست مسارح دبلن مسارح لندن فى تفوق إخراجها ، وهنا رتلت « مسيا » هندل أول مرة ولقيت أول ترحيب (١٧٤٢) ، وأخرج شريدان التمثيليات الناجحة الكثيرة التى ألفت زوجته بعضها .

وكان الدين بالطبع هو القضية الطاغية فى ارلنده ، وقد حرم المنشقون — أعنى المشيخيين ، والمستقلين (البيورتان) ، والمعمدانين — من تقلد الوظائف الحكومية ومن عضوية البرلمان بمقتضى قانون الاختبار ، الذى اشترط فى الموظف أو عضو البرلمان قبول سر التناول طبقاً للطقس الانجليكانى . أما قانون التسامح الصادر فى ١٦٨٩ فلم يطبق على ارلنده . وعبثاً احتج مشيخيو ألستر على هذه القيود ، وهاجر الألوف منهم إلى أمريكا ، حيث قاتل كثيرون منهم بإخلاص فى صفوف جيوش الثوار .

وكان ثمانون فى المائة من سكان ارلنده كاثوليكا ، ولكن لم يكن جائزاً انتخاب أى كاثوليكى لعضوية البرلمان . ولم يملك أرضاً من الكاثوليك إلا قلة . وكان المستأجرون البروتستنت يعطون إيجارات مدى الحياه ، أما إيجارات الكاثوليك فلا تمتد أكثر من إحدى وثلاثين سنة ؛ وكان عليهم أن يدفعوا ثلثى أرباحهم إيجار[٤] . ولم يسمح بالمدارس الكاثوليكية ، ولكن المسئولين لم يطبقوا القانون الذى حرم على الإرلنديين التماس التعليم خارج وطنهم . وقبل بعض الطلاب الكاثوليك فى كلية ترنتى ، ولكنهم لم يستطيعوا نيل درجة علمية . وسمح بالعبادة الكاثوليكية ، ولكن لم يكن هنالك وسائل شرعية لإعداد القساوسة الكاثوليك ؛ على أنه جاز للطلاب أن يلتحقوا بالكليات اللاهوتية فى القارة . وقد اكتسب بعض هؤلاء الطلاب ما تحلى به الكهنوت فى فرنسا وإيطاليا من دماثة طبع وتحرر آراء ، فلما عادوا إلى ارلنده قسساً لقوا الترحيب على موائد البروتستنت المتعاملين ، وأعانوا على التخفيف من حدة التعصب على الجانبين . فلما أن دخل هنرى جراتان البرلمان الإرلندى (١٧٧٥) كانت حركة التحرير الكاثوليكى قد اكتسبت تأييد الألوف من البروتستنت سواء فى انجلتره أو فى ارلنده .

وفى ١٧٦٠ كان يحكم ارلنده نائب عن الملك يعينه ملك انجلتره وهو مسئول أمامه ، وبرلمان يسوده الأساقفة الانجليكان فى مجلس اللوردات ويسوده فى مجلس العموم ملاك الأرض وأرباب الرواتب الحكومية من الانجليكان . وكانت الانتخابات البرلمانية خاضعة لنظام الدوائر « العفنة » أو دوائر « الجيب» ذاته المتبع فى انجلتره . وكانت قلة من كبار الأسر تعرف باسم « المتعهدين » تملك أصوات دوائرها كما تملك بيوتها[٥] .

وكانت المقاومة الكاثوليكية للحكم الانجليزى متفرقة عديمة الفاعلية . ففى ١٧٦٣ راحت عصابات من الكاثوليك سموا « الصبيان البيض » — نسبة للقمصان البيضاء التى كانوا يرتدونها فوق ملابسهم — تجوب أنحاء الريف وتهدم سياجات الأراضى المسوره ، وتعجز الماشية ، وتهاجم جباة الضرائب أو العشور ؛ ولكن قبض على زعمائهم وشنقوا ، وفشل التمرد . وكانت حركة التحرير « القومى» أحسن حظاً . ففى ١٧٧٦ أخذ أكثر الجنود

البريطانيين من ارلنده ليحاربوا فى أمريكا ، وفى الوقت ذاته اعترى الاقتصاد الإرلندى الكساد لانقطاع التجارة مع أمريكا . واتقاء للثورة من الداخل أو الغزو من الخارج جند بروتستنت ارلنده جيشاً سموه « المتطوعين » . وازداد هؤلاء عدداً وسطوة حتى باتوا فى ١٧١٠ قوة رهيبة . وبفضل تأييد هؤلاء المسلحين الذين بلغ عددهم أربعين ألفاً ظفر هنرى فلود وهنرى جراتان بانتصاراتهما التشريعية .

وكان كلاهما ضابطاً فى جيش المتطوعين ، وخطيباً مفوهاً من أعظم الخطباء فى بلد استطاع أن يبعث ببيرك وريتشرد شريدان إلى انجلتره ويبقى فيه رغم ذلك معين لاينضب من البلاغة . ودخل فلود البرلمان الإرلندى فى ١٧٥٩ . وقد تزعم حملة للتخفيف عن الفساد فى مجلس كان نصف أعضائه مدينين بالفضل للحكومة . ولكن الرشوة الشاملة هزمته ، فاستسلم (١٧٧٥) بقبول وظيفة نائب الخازن نظير راتب قدره ٣,٥٠٠ جنيه .

فى ذلك العام أنتخبت دائرة فى دبلن هنرى جراتان لعضوية البرلمان . وسرعان ما تبوأ مكان فلود زعيماً للمعارضة . وقد أذاع برنامجاً طموحاً ، قوامه التخفيف عن الكاثوليك الإرلنديين وتحرير « المنشقين » من ربقة قانون الاختيار ، وإنهاء القيود الانجليزية على التجارة الإرلندية ، وتوطيد استقلال البرلمان الإرلندى . وقد سعى إلى هذه الأهداف بهمة وإخلاص ونجاح. مما جعله معبود الأمة سواء الكاثوليك والبروتستنت . وفى ١٧٧٨ حصل على الموافقة على قانون يمكن الكاثوليك من الحصول على إيجارات مدتها تسع وتسعون سنة ، ومن وراثة الأرض بالشروط التى يرثها البروتستنت . وبعد عام ، وبناء على إلحاحه ، ألغى قانون الاختبار ، وأمن للمنشقين كامل الحقوق المدنية . وقد أقنع هو وفلود البرلمان الإرلندى ونائب الملك بأن استمرار المعوقات البريطانية للتجارة الإرلندية من شأنه أن يؤدى إلى العنف الثورى . وكان اللورد نورث ، رئيس الحكومة البريطانية آنئذ ، يحبذ إلغاء هذه القيود ، ولكن رجال الصناعة الانجليز انهالوا عليه بوابل من الالتماسات ضد الإلغاء ، فأذعن لهم . وبدأ الإرلنديون يقاطعون البضائع البريطانية ، وتجمع « المتطوعون » أمام مبنى البرلمان الإرلندى وفى أيديهم

السلاح ، وعلى مدافعهم عبارة تقول « حرية التجارة أو هذا » . وسحب رجال الصناعة الانجليز معارضتهم بعد أن أضرت بهم المقاطعة ، وأصدر قانون حرية التجارة (١٧٧٩) .

ثم ألح جراتان بعد هذا فى طلب الاستقلال للبرلمان الإرلندى . فى مطالع عام ١٧٨٠ اقترح أن يكون الملك انجلتره وحده ، بموافقة برلمان ارلنده ، الحق فى التشريع لإرلنده ، وأن بريطانيا العظمى وإرلنده لا يوحدهما سوى رباط ملكهما المشترك ، ولكن اقتراحه هزم . فأعلن المتطوعون الذين اجتمع منهم فى دنجانون ٢٥,٠٠٠ مقاتل (فبراير ١٧٨٢) انه لا ولاء لانجلتره إلا إذا منحت إرلنده الاستقلال التشريعى . وفى مارس سقطت وزارة اللورد نورث التى شاخت وخلفه فى الوزارة روكنجهام وفوكس . وكان المركيز كورنواليس قد استسلم أثناء ذلك فى يوركتون (١٧٨١) ، وانضمت فرنسا وأسبانيا إلى أمريكا فى الحرب ضد انجلتره . ولم يكن فى وسع بريطانيا أن تواجه ثورة ارلندية فى هذا الوقت . وعليه فى ٦ ابريل ١٧٨٢ أعلن البرلمان الإرلندى بزعامة جراتان استقلاله التشريعى ، وبعد شهر وافقت انجلتره على هذا التنازل . وقرر البرلمان الإرلندى منحة لجراتان قدرها ١٠٠,٠٠٠ جنيه ، وكان رجلا فقيراً نسبياً ، فقبل نصفها .

كان هذا بالطبع انتصاراً لبروتستنت إرلنده لا لكاثوليكها . فلما شرع جراتان — بتأييد قوى من الأسقف الانجليكانى فردريك هرفى — فى حملة لإحراز قسط من التحرير للكاثوليك كان قصارى ما استطاعه (فيما يسميه المؤرخون « برلمان جراتان (هو الحصول على حق التصويت للملاك الكاثوليك (١٧٩٢) ، فحصلت هذه القلة على حق التصويت دون حق انتخابهم لعضوية البرلمان أو تعيينهم فى الوظائف البلدية أو القضائية . وذهب جراتان إلى انجلتره ، وحصل على انتخابه عضواً فى البرلمان البريطانى ، وهناك واصل حملته . ومات عام ١٨٢٠ ، قبل أن يجيز البرلمان قانون التخفيف عن الكاثوليك بتسعة أعوام ، وهو القانون الذى سمح للكاثوليك بعضوية البرلمان الإرلندى ، حقاً أن العدالة ليست عمياء فقط ؛ إنها أيضاً عرجاء .

٢ — الخلفية الاسكتلندية

عندما أدمج اتحاد عام ١٧٠٧ اسكتلنده مع انجلتره بواسطة برلمان مشترك، رددت لندن على سبيل النكتة أن الحوت قد ابتلع يونان (يونس) ؛ وعندما أدخل بيوت (١٧٦٢ وما بعدها) عشرين من الأسكتلنديين فى الحكومة البريطانية تذمر الظرفاء لأن يونان أخذ فى ابتلاع الحوت[٦] . أما من الناحية السياسية فإن الحوت انتصر . فقد ضاع النبلاء الاسكتلنديون الستة عشر ونواب العموم الخمسة والأربعون وسط ١٠٨ نبيلا و ٥١٣ نائباً انجليزياً . وأسلمت اسكتلنده سياستها الخارجية ، وإلى حد كبير اقتصادها ، إلى تشريع يسوده المال الانجليزى والعقول الانجليزية . ولم ينس البلدان عداءهما السابق . فالاسكتلنديون يشكون من أسباب التفرقة التجارية بين يونان والحوت ، وصموئيل جونسن ينوب عن الحوت فى عضة يونان بإصرار شوفينى .

وكانت اسكتلنده تضم فى عام ١٧٦٠ من السكان نحو ١,٢٥٠,٠٠٠ نسمة . وكانت نسبة المواليد عالية ، ولكن نسبة الوفيات لحقت بها . وقد كتب آدم سمث حوالى ١٧٧٠ يقول : « قيل لى إنه ليس من غير المألوف فى إقليم المرتفعات الاسكتلندية لأم ولدت عشرين طفلا ألا يبقى اثنان منهم أحياء»[٧]. وكان رؤساء القبائل فى الإقليم يملكون الأرض كلها تقريباً خارج المدن ، ويتركون الزراع فقراء فقراً بدائياً على تربة صخرية تبتلى بوابل من المطر ينهمر صيفاً وبثلوج الشتاء تهطل من سبتمبر إلى مايو . وقد زيدت الإيجارات مراراً — فرفعت فى إحدى المزارع من خمسة جنيهات إلى عشرين خلال خمسة وعشرين عاماً[٨] . وهاجر كثير من الفلاحين إلى أمريكا بعد أن رأوا أن لا مهرب من الفقر فى وطنهم ، وهكذا « يستطيع زعيم القبيلة الجشع أن يحيل صنيعته برية فقراء » على حد قول جونسن : [٩] وكان الملاك يحتجون بهبوط قيمة العملة ذريعة لرفع الإيجار . وكانت الأحوال أسوأ حتى من هذا فى مناجم الفحم والملح ، حيث كان العمال حتى عام ١٧٧٥ يربطون بأعمالهم حتى يموتوا[١٠] .

أما فى مدن إقليم المنخفضات فإن الثورة الصناعية جلبت الرخاء لطبقة وسطى متسعة ومغامرة . وانتشرت فى جنوب غربى اسكتلانده مصانع النسيج الكثيرة . وبفضل الصناعات والتجارة الخارجية زاد سكان جلاسجو من ١٢,٥٠٠ فى عام ١٧٠٧ إلى ثمانين ألفاً فى عام ١٨٠٠ ؛ وكانت تضم ضواحى غنية ، ومبانى ذات شقق فى أحياء فقيرة مزدحمة ، وجامعة ؛ وفى ١٧٦٨ — ٩٠ شقت قناة ربطت نهرى كلايد وفورث ، فأنشأت بذلك طريقاً تجارياً مائياً من أوله لآخره بين الجنوب الغربى الصناعى والجنوب الشرقى السياسى . وكانت ادنبره — التى ناهز سكانها خمسين ألفاً فى ١٧٤٠ — قلب حكومة اسكتلانده وثقافتها وموضاتها . وكانت كل أسرة اسكتلاندية ميسورة الحال تتطلع إلى قضاء جزء من السنة على الأقل فيها ؛ وإليها أتى بوزويل وبيرنز ، وفيها عاش هيوم وروبرتسن وريبورن ، وهنا ظهر محامون ذائعو الصيت مثل ايرسكينز ، وقامت جامعة ذات مكانة مرموقة ، وجمعية ادنبره الملكية . وهنا كان المقر الرئيسى للمسيحية الاسكتلندية .

وكان الكاثوليك الرومان قلة ، ولكن عددهم كان كما رأينا كافياً لإحداث الزعر فى بلد مازال يتجاوب بإصداء دعوة يوحنا فوكس . وكان للكنيسة الأسقفية أتباع كثيرون بين سراة القوم الذين أعجبهم الأساقفة الإنجليكان وطقوس التناول الانجليكانية . غير أن ولاء السواد الأعظم كان لكنيسة اسكتلنده ، « الكيرك البرزبتيريه » (المشيخية) التى رفضت نظام الأساقفة ، واختزلت الطقوس إلى أدنى حد ، ولم تقبل فى الدين والأخلاق حكماً غير حكم مجالس أبرشياتها ، وشيوخ أقسامها ، ومجامع أقاليمها ، وجمعيتها العامة . ولعله لم يوجد بلد آخر فى أوربا — باستثناء أسبانيا — تشرب شعبه اللاهوت بمثل هذا العمق . وكان فى استطاعة مجلس الكنيسة المؤلف من شيوخها وقسيسها أن يفرض الغرامات ويوقع العقوبات على المنحرفين المهرطقين ، وأن يحكم على الزناة بالوقوف واحتمال التوبيخ العلنى أثناء الخدمة الدينية ، وقد حاق بروبرت بيرنز وجين آرمر مثل هذا العقاب فى جلسة للكنيسة فى ٦ أغسطس ١٧٨٦ . وسيطر الإيمان بالاخرويات الكلفنية على عقول الجماهير فجعلت حرية الفكر خطراً على الحياة والأجساد ؛ غير

أن لفيفاً من القساوسة « المعتدلين » يتزعمهم روبرت ولسن وآدم فرجسون ووليم روبرتسن خففوا من تعصب الشعب تخفيفاً كفى لترك ديفد هيوم يموت موتة طبيعية .

وربما كان الدين الصارم لازماً للتصدى لعربدة شعب تدفعه قسوة البرد إلى الشرب حتى يثمل ، ويعانى من قسوة الفقر ما يجعل لذته الوحيدة فى الجرى وراء الجنس . وسيرة برنز دليل على أن الرجال كانوا يسكرون ويفسقون رغم الشيطان والقساوسة ، وأن الفتيات الراغبات لم يكن نادرات . وقد طرأ على القوم فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر اضمحلال ملحوظ فى الإيمان وفى التمسك بالفضائل التقليدية . ولاحظ وليم كريتش وهو مصور إدنبرى ، أن يوم الأحد فى سنة ١٧٦٣ كان يوم تعبد دينى ، ولكن فى ١٧٨٣ « لقى الحضور إلى الكنيسة إهمالا شديداً ، خصوصاً من الرجال » ، وكانت الشوارع فى الليل تضج بالشباب المنحل المشاغب « فى سنة ١٧٦٣ هناك خمسة مواخير أو ستة . . . وفى ١٧٨٣ ازداد عدد المواخير عشرين ضعفا ، وازداد عدد نسوة المدينة أكثر من مائة ضعف . وابتلى كل حى فى المدينة وضواحيها بأعداد غفيرة من الإناث اللاتى استسلمن للرذيلة »(١١) . وكانت لعبة الجولف تصرف الرجال عن الكنيسة إلى اللقاءات أيام الآحاد ، أما فى باقى أيام الأسبوع فالرجال والنساء يرقصون (وكان الرقص من قبل يعد خطيئة) ، ويذهبون إلى المسارح (وكان الذهاب إليها لا يزال يعد خطيئة) ، و يختلفون إلى سباقات الخيل ، ويقامرون فى الحانات والأندية .

وكانت الكنيسة أهم مصدر للديمقراطية والتعليم . فكان شعبها يختار شيوخها ، وكان ينتظر من القسيس (الذى يختاره عادة راع أو نصير) أن يدير مدرسة فى كل أبرشيه . وكان الجوع للتعليم شديداً . وكانت جامعة سانت أندروز ، من بين الجامعات الأربع ، قد اضمحلت ، ولكنها تزعم أنها تملك خير مكتبة فى بريطانيا . وقد وجد جونسن جامعة أبردين مزدهرة فى ١٧٧٣ . أما جامعة جلاسجو فضمت بين أساتذتها جوزف بلاك الفيزيائى ، وتوماس ريد الفيلسوف ، وآدم سمث الاقتصادى ، فضلا عن إيوانها لجيمس وات . وأحدث الجامعات الأربع هى جامعة إدنبره ، ولكنها كانت تضطرب بما أتت به حركة التنوير الاسكتلندى من إثارة .

٣ — التنوير الاسكتلندى

لا يمكن أن يعلل تفجر العبقرية الذى أضاء اسكتلنده بين مبحث هيوم « فى الطبيعة البشرية » (١٧٣٩) وكتاب بوزويل « حياة جونسن » (١٧٩١) ألا بنمو تجارتها مع انجلتره والعالم وتقدم الصناعة فى إقليم السهول . ففى الفلسفة نبغ فرانسيس هتشيسن ، وديفد هيوم ، وآدم فيرجسن ؛ وفى الاقتصاد آدم سمث ؛ وفى الأدب جون هيوم [١٢] ، وهنرى هيوم (اللورد كيمس) ، ووليم روبرتسن ، وجيمس مكفرسن ، وروبرت بيرنز ، وجيمس بوزويل ؛ وفى العلوم جوزف بلاك ، وجيمس وات ، ونيفل ماسكلين ، وجيمس هاتن ، واللورد مونبودو [١٣] ؛ وفى الطب جون ووليم هنتر : [١٤] هؤلاء كوكبة تضارع النجوم التى سطعت فى انجلتره حول « الدب الأكبر » (جونسن) ! وقد ألف هيوم وروبرتسن وغيرهما فى إدنبره « جمعية من الصفوة » للمناقشات الأسبوعية فى الأفكار . واتصل هؤلاء الرجال وأشباههم بالفكر الفرنسى لا الإنجليزى ، من جهة لأن فرنسا كانت منذ قرون مرتبطة باسكتلنده ، ومن جهة أخرى لأن الخصومة المستطيلة بين الانجليز والاسكتلنديين عاقت اندماج الثقافتين . وكان هيوم سيء الظن بالفكر الانجليزى فى جيله ، إلى أن صدر كتاب « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » فى عام موته فرحب بصدوره شاكراً .

ولقد وفينا من قبل ديننا لهتشسن وهيوم [١٥] . فلنلق الآن نظرة على عدو هيوم الكريم النفس ، توماس ريد ، الذى كافح لبرد الفلسفة من الميتافيزيقا المثالية إلى قبول واقع موضوعى . وقد ألف وهو يدرس فى أبردين وجلاسجو كتابه « بحث فى العقل البشرى حول مبادىء الفطرة السليمة » (١٧٦٤) ، وقبل أن ينشره أرسل المخطوطة إلى هيوم مشفوعة بخطاب مهذب يحمل تحياته ، ويشرح أسفه على اضطراره لمعارضة شكوكية صاحبه الأكبر سناً . ورد عليه هيوم بلطفه المعهود ، وطلب إليه أن ينشر الكتاب دون خوف من ملامة [١٦] .

وكان ريد قد سلم من قبل برأى باركلى القائل بأننا نعرف الأفكار فقط ،

ولا نعرف الأشياء أبداً . فلما أكد هيوم بمثل هذا الاستدلال أننا نعرف الحالات العقلية فقط ، دون أن نعرف مطلقاً « عقلا » ملحقاً بها ، أحس ريد أن مثل هذا التحليل المثقل بالتفاصيل غير الهامة يقوض كل تفرقة بين الصدق والكذب ، وبين الحق والباطل ، وكل إيمان بالله أو الخلود . وذهب إلى أنه اضطر لتنفيذ آراء هيوم اتقاء هذه الكارثة ، ولكى يفند آراء هيوم كان عليه أن يرفض باركلى .

وعليه فقد سخر من الفكرة القائلة بأننا لا نعرف غير أحاسيسنا وأفكارنا ، فنحن على العكس من هذا نعرف الأشياء مباشرة وللتو ، و « من الإسراف فى الرهافة » فقط أن نحلل تجربتنا مع وردة مثلا ، فنردها إلى حزمة من الأحاسيس والأفكار ، والحزمة حقيقية ؛ ولكن الوردة أيضاً حقيقية ، وهى تحتفظ ببقاء ثابت بعد أن تتوقف إحساساتنا بها . والصفات الأولية — كالحجم والشكل والصلابة والنسيج والثقل والحركة والعدد — تنتمى بالطبع إلى العالم الموضوعى ، ولا تتغير ذاتياً إلا بفعل الأوهام الذاتية ، وحتى الصفات الثانوية لها مصدر موضوعى بقدر ما تنشأ الأحاسيس الذاتية عن الأصول الطبيعية أو الكيميائية فى الشيء أو البيئة — الرائحة ، أو الطعم أو الدفء ، أو اللمعان ، أو اللون ، أو الصوت(١٧) .

والإدراك الفطرى السليم ينبئنا بهذا ؛ غير أن « مبادىء الإدراك الفطرى السليم ليست أهواء الجماهير الجاهلة ، إنما هى المبادىء الغريزية » التى يرشدنا تكوين طبيعتنا (أى الإدراك الذى نشترك فيه كلنا) إلى الإيمان بها ، والتى يتحتم علينا بالضرورة التسليم بها فى الشئون المشتركة للحياة (١٨) ، وبالقياس إلى هذا الإحساس العام الذى يختبر كل يوم ويؤكد ألف مرة ، تكون استدلالات الميتافيزيقا الخيالية مجرد لعبة يلعبها المرء فى وحدته التى يهرب فيها من العالم ؛ بل إن هيوم نفسه ، باعترافه ، كان يلقى عنه هذه اللعبة العقلية إذا غادر حجرة مكتبه(١٩) . ولكن هذا الرجوع إلى الحس المشترك برد الواقع إلى العقل : فليست الأفكار وحدها هى الموجودة ، فهناك كائن حى ، وعقل ، وذات ، لها الأفكار . واللغة نفسها شاهد على هذا الاعتقاد العام : فلكل لغة ضمير مفرد للمتكلم ؛ فـ « أنا » هو الذى يشعر ، ويتذكر ،

ويفكر ، ويحب . « لقد بدا أن من الطبيعى جداً التفكير فى أن « البحث فى الطبيعة البشرية » احتاج إلى مؤلف يكتبه ، ومؤلف فى غاية الذكاء والبراعة ، ولكن يقال لنا الآن أنه ليس إلا مجموعة من الأفكار اجتمعت معاً ورتبت نفسها بارتباطات وانجذابات معينة »[٢٠] .

وقرأ هيوم هذا كله بابتهاج وود ، ولم يستطع أن يقبل نتائج ريد اللاهوتية ، ولكنه احترم مزاجه المسيحى ، ولعله أحس بالراحة فى دخيلة نفسه حين عرف أن العالم الخارجى موجود على كل حال ، برغم باركلى ، وأن هيوم موجود برغم هيوم . كذلك استشعر الجمهور القارىء أيضاً الراحة ، واشترى ثلاث طبعات من كتاب ريد « البحث » قبل موته . وكان بوزويل من بين سرى عنهم ، فهو ينبئنا بأن كتاب ريد « هدأ عقلى الذى انتابه القلق الشديد من طول التفكير العويص بالأسلوب التجريدى الشكوكى »[٢١] .

وأضاف الفن اللون إلى عصر النور الاسكتلندى . فالأخوة « آدم » الأربعة الذين تركوا بصمتهم على العمارة الانجليزية ، كانوا اسكتلنديين . وقد هاجر ألن رمزى (بن الشاعر ألن رمزى) إلى لندن (١٧٥٢) بعد أن أخفق فى نيل التقدير فى وطنه ادنبره ، وبعد سنوات من الكدح عين « مصوراً عادياً » للملك ، مما أثار حفيظة الفنانين الانجليز . وقد رسم صورة حسنة لجورج الثالث[٢٢] ، وأحسن منها لزوجته هو[٢٣] . غير أن انخلاع ذراعه اليمنى أنهى احترافه للتصوير .

أما السر هنرى ريبورن فكان رينولدز اسكتلنده . وكان ابنا لرجل صناعة فى ادنبره ، علم نفسه التصوير بالزيت ، ورسم أرملة وارثة بلغ من رضائها عن صورتها أنها تزوجته ومهرته بثروتها . وبعد أن درس عامين فى إيطاليا عاد إلى ادنبره (١٧٨٧)، وسرعان ما تكاثر زبائنه فضاق وقته عن رسمهم ؛ رسم روبرتسن ، وجون هيوم ، ودوجالد ستيوارت ، وولتر سكوت ، وأفضل صوره صورة اللورد نيوتن — جسد هائل ، ورأس ضخم ، وشخصية من حديد امتزج بالبلسان . وعلى النقيض لاحظ الجمال المتواضع الذى وجده ريبورن فى زوجته[٢٤] . وكان أحياناً ينافس رينولدز

فى تصوير الأطفال ، كما نرى فى لوحته « أطفال دراموند » المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفنون . وقد أنعم على ريبورن بلقب الفروسية فى ١٨٢٢ ، ولكنه مات بعد عام بالغا السابعة والستين .

ثم تفوق التنوير الاسكتلندى فى مؤرخيه . فقد شارك آدم فيرجسن فى تأسيس دراسة علم الاجتماع والسيكولوجية الاجتماعية بكتابه « مقال فى تاريخ المجتمع المدنى » (١٧٦٧) الذى طبع سبع مرات فى حياته . والتاريخ — فى رأيه — لا يعرف الإنسان إلا عائشاً فى جماعات ، فإن شئنا فهم هذا الإنسان وجب أن نراه مخلوقاً اجتماعياً ولكنه متنافس — مركب من عادات اجتماعية ورغبات فردانية . وتطور الخلق والتنظيم الاجتماعى كلاهما تحدده تفاعل هاتين النزعتين المتعارضتين ، وندر أن تتأثر ا بأفكار الفلاسفة . والمنافسة الاقتصادية ، والخصومات السياسية ، وألوان التفرقة الاجتماعية ، والحرب ذاتها — كل أولئك مركب فى طبيعة البشر ، وسيظل كذلك أبد ، وهو يعمل بوجه عام على تقدم النوع الإنسانى .

وكان فيرجسن فى زمانه لا يقل شهرة عن آدم سمث ، ولكن صديقهما وليم روبرتسن فاقهما شهرة . ونحن يذكر أمنية فيلاند التى تمناها لشيلر مؤرخاً ، بأن « يرقى إلى مستوى هيوم ، وروبرتسن ، وجبون » [٢٥] . وقد تساءل هوراس ولبول فى ١٧٥٦ : « أيمكن أن يخطر لنا أننا نفتقد مؤلفين فى التاريخ مادام مستر هيوم ومستر روبرتسن أحياء ؟ . . ان كتابة روبرتسن تمتاز بأصفى ما قرأت أسلوباً وأعظمه نزاهة »[٢٦] . وكتب جبون فى « مذكراته » يقول : « ان إنشاء الدكتور روبرتسن الذى بلغ الكمال ، ولغته المشبوبة ، ووقفاته المحكمة ، أثرت فى إلى حد التطلع الطموح إلى تأثر خطواته يوماً ما »[٢٧] ، وقال « ان الطرب يهزنى كلما وجدت نفسى معدوداً ضمن ثالوث المؤرخين البريطانيين » مع هيوم وروبرتسن [٢٨] . وقد عد هذين المؤرخين مع جويكاردينى ومكيافللى أعظم المؤرخين المحدثين ، ثم وصف روبرتسن فى تاريخ لاحق بأنه « أول مؤرخى العصر الحاضر »[٢٩] .

كان روبرتسن ، مثل ريد ، قسيساً وابن قسيس . عين راعياً لكنيسة جلادزموير وهو فى الثانية والعشرين (١٧٤٣) ثم أنتخب بعد عامين لعضوية الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية . وأصبح فيها قائد المعتدلين ، وقد حمى المهرطقين أمثال هيوم . وبعد ست سنوات من الجهد الشاق والدرس الدءوب للوثائق والمراجع ، أصدر عام ١٧٥٩ « تاريخاً لاسكتلنده فى عهد الملكة مارى وجيمس السادس حتى ارتقائه عرش انجلتره » ، واختتم فى تواضع حيث بدأ هيوم كتابه « تاريخ انجلتره » . وقد أبهج الكتاب اسكتلنده لتجنبه عبادة مارى ملكة الاسكتلنديين ، وأبهج الانجليز بأسلوبه — رغم أن جونسن أضحكه أن يجد فيه بعض الألفاظ الثقيلة الجونسونية الطابع . وقد طبع الكتاب تسع طبعات فى ثلاثة وخمسين عاما .

على أن رائعة روبرتسن الكبرى كانت كتابه « تاريخ حكم الامبراطور شارل الخامس » (١٧٦٩) ذا المجلدات الثلاثة . وفى وسعنا الحكم على مدى السمعة التى حظى بها من الثمن الذى نقده عليه الناشرون وهو ٤,٥٠٠ جنيه بالقياس إلى ٦٠٠ جنيه تلقاها عن تأليف تاريخ اسكتلنده . وقد أثنت أوربا على الكتاب الجديد فى ترجماته المختلفة . وكانت كاترين الكبرى تحمله معها فى رحلاتها الطويلة ، وقد قالت « إننى لا أكف عن قراءته أبدا ، خصوصاً المجلد الأول منه »[٣٠] ، وقد أبهجها كما يبهجنا كلنا ذلك التمهيد الطويل الذى استعرض التطورات الوسيطة التى انتهت بمجىء شارل الخامس . والكتاب تقادم نتيجة الأبحاث اللاحقة ، ولكن ما من عرض لاحق للموضوع يمكن أن يباريه بوصفه أثراً أدبياً . ومن دواعى السرور أن نلاحظ أن الثناء الذى ظفر به الكتاب ، والذى كان أعظم كثيراً من النفريط الذى ناله « تاريخ » هيوم ، لم يوهن ما كان بين القسيس والزنديق من صداقة وود .

وأشهر من الإثنين جيمس مكفرسن ، الذى سوى جوته بينه وبين هومر ، ورفعه نابليون فوق هومر[٣١] ففى ١٧٦٠ أعلن مكفرسن الذى كان آنئذ فى عامه الرابع والعشرين أن ملحمة على شىء من الطول والروعة تحويها مخطوطات غيلية متفرقة سيضطلع بجمعها وترجمتها إن أتيح له مدد من المال . وجمع المال فيرجسن وهيوبلير (وهو قسيس مشيخى مفوه

من ادنبره) . وجاب مكفرسن واثنان من الدارسين الغيليين أرجاء المرتفعات الاسكتلندية وجزر الهبريد ، وجمعوا المخطوطات القديمة ، وفى ١٧٦٢ نشر مكفرسن كتابه « فنجال ، ملحمة قديمة فى ستة أجزاء . . . ألفها أوسيان ، بن فنجال ، وترجمت عن اللغة الغيلية » . وبعد عام نشر ملحمة أخرى ، اسمها « تيمورا » زاعم أنها من تأليف أوسيان ، وفى ١٧٦٥ نشر الملحمتين بعنوان « أعمال أوسيان » .

أما أوسيان هذا فهو كما تزعم الأسطورة (الإرلندية والأسكتلندية) الإبن الشاعر للمحارب فن ماكومهيل [٣٢] ، ويروون أنه عمر ثلاثمائة سنة ، وامتد به الأجل حتى أعرب عن معارضته الوثنية للاهوت الجديد المجلوب إلى إرلنده على يد القديس باتريك . وبعض القصائد المنسوبة له احتفظ بها فى ثلاثة مخطوطات من القرن الخامس عشر ، خصوصاً فى « كتاب لزمور » الذى جمعه جيمس ماكريجور فى ١٥١٢ ، وكان مكفرسن يملك هذه المخطوطات [٣٣] . وقد روى فنجال كيف دعا المقاتل الشاب ، بعد أن هزم غزاة ارلنده الأسكتلنديين ، هؤلاء الغزاه إلى مأدبة ونشيد سلام ، والقصة مروية رواية تنبض بالحياة ، يدفئها تغزل الاسكتلنديين فى الفتيات الإرلنديات . يقول أحد المقاتلين لمورنا ابنة الملك كورماك ما أشبهك بالثلج فوق المرج . ان شعرك كضباب كرومالا حين يتجعد فوق الربى ، حين يتألق لشعاع الغرب ! ونهداك صخرتان ناعمتان تريان من « برانو » ذى الجداول ، وذراعاك كعمودين ناصعى البياض فى أبهاء فنجال العظيم » [٣٤]. ثم نلتقى بنهود أخرى ، أقل تحجراً : « نهد أبيض » و « نهد نافر » و « نهد ممتلىء » [٣٥] ، وهى تلهى القارىء قليلا ، ولكن القصة لاتلبث أن تنصرف عن الحب إلى أحقاد الحرب .

وأثار « أوسيان » مكفرسن ضجة فى اسكتلنده ، وانجلتره ، وفرنسا ، وألمانيا . فرحب به الاسكتلنديون صفحة من ماضيهم الوسيط البطولى ، وكانت انجلتره مهيأة لتقبل رومانس الأسطورة الغيلية وهى التى كانت فى ١٧٦٥ ترحب بكتاب يرسى « مخلفات من الشعر الانجليزى القديم » . أما جوته فقد أرانا فى ختام « آلام فرتر » (١٧٧٤) بطله يقرأ للوتى ست

صفحات من أوسيان . وكانت تحوى قصة دورا العذراء الرقيقة يرويها أبوها أومين : كيف أغرتها « الأرض » الشريرة واقتادتها إلى صخرة فى البحر بوعدها بأن حبيبها أرمار سيلقاها هناك ، وكيف تركتها الأرض على الصخرة ، وما من حبيب أتى . « فرفعت صوتها ، ونادت على أخيها وأبيها : ارندال ! أرمين ! » وجدف ارندال لينقذها ، ولكن سهما أطلقه عدو مختبىء فتاك به ، وجاء حبيبها أرمار إلى الشاطىء ، وحاول أن يسبح إلى دورا ، « ولكن ريحاً عاصفة من التل طغت فجأة على الأمواج ، فغاص فى اليم ، ولم يطف بعدها » . أما الأب الذى كان أعجز وأضعف من أن يخف لنجدتها فأخذ يصرخ مرتعباً يائساً :

« على الصخرة التى يلطمها اليم سمعنا ابنتى تستغيث وهى وحيدة . وكانت صرخاتها مترددة عالية فما الذى فى وسع أبيها أن يفعله ؟ لقد وقفت على الشاطىء الليل كله وأبصرتها على ضوء القمر الكليل . . . وكان للريح ضجيج والمطر ينهمر وابلا على التل . وقبل أن ينبلج الصبح كان صوتها قد خفت ، ثم تلاشى كأنه نسيم المساء بين عشب الصخور . لقد قضت كمداً وحزنا .

« لقد ضاعت قوتى فى الحرب ، وسقطت كبريائى بين النساء ، وحين تهب العواصف العاتية ، وحين ترفع ريح الشمال الموج عالياً أجلس إلى الشاطىء الصاخب وأنظر إلى الصخرة القاتلة . وكثيراً ما أرى أشباح أطفالى على ضوء القمر الغارب . . . أما تكلم أحدكم رحمة بى ! » (٣٦) .

ولم يلبث أن ثار جدل حول الملحمة : فهل « أوسيان » حقاً ترجمة عن الملاحم الغيلية العتيقة ، أم أنه سلسلة من القصائد نظمها مكفرسن ودسها على شاعر ربما لم يعش قط ؟ لقد صدق دعوى مكفرسن هردر وجوته فى ألمانيا ، وديدور فى فرنسا ، وهيوبلير ولورد كيمز فى اسكتلنده . ولكن فى ١٧٧٥ أعلن صموئيل جونسن فى كتابه « رحلة إلى جزائر اسكتلنده الغربية » بعد تحقيقات فى الهبريد (١٧٧٣) رأيه فى القصائد الأوسيانية : « أعتقد أنها لم توجد قط فى أى صورة إلا الصورة التى رأيناها عليها . فلم

يستطيع المحرر ، أو المؤلف ، إبراز الأصل قط ، ولن يستطيع ذلك غيره كائناً من كان » [٣٧] . وكتب مفكرسن لجونسن يقول إن شيخوخة الرجل الانجليزى وحدها هى التى تحميه من تحديه للمبارزة أو من ضربه « علقه » . ورد جونسن « أرجو ألا تروقنى أبداً سفالة وشب عن كشف ما أعتقد أنه غش وزيف . . . لقد كان رأيى فى كتابك أنه منقول ، ومازال رأيى فيه كذلك . أما غضبك فإنى أتحداه » [٣٨] . وشارك هيوم وهوراس ولبول وغيرهما جونسن شكوكه . ولما طلب إلى مكفرسن أن يبرز الأصول التى زعم أنه ترجمها تباطأ ، ولكنه ترك عند موته مخطوطات ملاحم غيلية ، استعمل بعضها فى وضع حبكة قصائده وتقرير طابعها . وقد أخذ عن هذه النصوص الكثير من العبارات والأسماء ، ولكن الملحمتين كانتا من إنشائه .

على أن الغش لم يكن بالشدة أو الشناعة اللتين زعمهما جونسن : فلنسمه جوازاً شعرياً على نطاق واسع جداً . والملحمتان الشعريتان النثريتان ، إذا أخذناهما فى ذاتهما ، تبرران بعض ما حظيتا به من إعجاب . فقد أعربتا عن جمال الطبيعة وأهوالها ، وعن ضراوة الحقد ، وعن لذة الحرب . وكان فيهما نزعة عاطفية مسرفة فى الرقة ، ولكنهما جمعتا إليها بعض السمو الذى أوحى به السر توماس مالورى قبل ذلك فى قصيدته « موت آرثر » (١٤٧٠) . وقد صعدتا إلى قمة الشهرة على الموجة الرومانتيكية التى غمرت حركة التنوير .

٥ — آدم سمث

كان آدم سمث بعد هيوم أعظم شخصية فى التنوير الاسكتلندى . وقد مات أبوه قبل مولده (١٧٢٣) بشهور ، وكان مراقباً للجمارك فى كركلدى . وكانت المغامرة الوحيدة تقريباً فى حياة رجل الاقتصاد يوم خطفه الغجر وهو طفل فى الثالثة ثم تركوه على جانب الطريق بعد أن طوردوا . وبعد أن تلقى آدم بعض التعليم المدرسى فى كركلدى ، واختلف إلى محاضرات هتشسن فى جلاسجو ، ذهب إلى أكسفورد (١٧٤٠) حيث وجد المدرسين كسالى تافهين كما سيصفهم جبون فى ١٧٥٢ . وعلم سمث نفسه بالاطلاع ، ولكن سلطات الكلية صادرت النسخة التى اقتناها من مبحث هيوم فى الطبيعة

البشرية بحجة أن الكتاب لايصلح اطلاقاً لشاب مسيحى . وكفته سنة واحدة مع أساتذة الكآبة ؛ وكان أكثر حباً لأمه ، فعاد إلى كركلدى ، وواصل استغراقه فى القراءة . وفى ١٧٤٨ انتقل إلى ادنبره ، حيث حاضر مستقلا فى الأدب والبيان . وقد أعجبت محاضراته بعض ذوى النفوذ ، فعين فى كرسى المنطق بجامعة جلاسجو (١٧٥١) ، وأصبح بعد عام أستاذ الفلسفة الأخلاقية — التى شملت الأخلاق ، والقانون ، والاقتصاد السياسى . وفى ١٧٥٩ نشر استنتاجاته الأخلاقية فى كتابه « نظرية العواطف الأخلاقية » ، الذى حكم الكل بأنه « أهم كتاب كتب فى هذا الموضوع الشائق »[٤٠] متجاهلا فى هذا الحكم أرسطو وسبينوزا .

وقد استخلص سمث أحكامنا الأخلاقية من ميلنا التلقائى لتخيل أنفسنا فى موقف الغير ؛ فنحن بهذا نردد أصداء عواطفهم ، وبهذا التعاطف ، أو المشاركة الوجدانية ، نحمل على الاستحسان أو الاستهجان[٤١] . والحس الأخلاقى متأصل فى غرائزنا الاجتماعية ، أو فى العادات العقلية التى نتخذها بوصفنا أفراداً فى مجتمع ، ولكنه لايتعارض مع محبة الذات . وقمة التطور الأخلاقى للإنسان يبلغها حين يتعلم أن يحكم على نفسه كما يحكم على الآخرين ، « وأن يسوس نفسه طبقاً للمبادىء الموضوعية — مبادىء الإنصاف ، والقانون الطبيعى ، والحكمة ، والعدالة »[٤٢] . والدين ليس المصدر ولا الركيزة لعواطفنا الأخلاقية ، ولكن هذه العواطف تتأثر تأثراً قوياً بالإيمان بانبعاث الناموس الأخلاقى من إله فى يده الثواب والعقاب[٤٣] .

وفى ١٧٦٤ عين سمث — الذى بلغ الآن الحادية والأربعين — معلماً خاصاً ومرشداً يرافق الدوق بكليوتمش البالغ ثمانية عشر ربيعاً فى سياحة فى أوربا . وقد أتاح له الأجر الذى كان يتقاضاه فى هذه المهمة — وهو ٣٠٠ جنيه فى العام — الاطمئنان والفراغ اللذان أعاناه على تأليف رائعته التى بدأ كتابتها خلال إقامته فى تولوز ثمانية عشر شهراً . وقد زار فولتير فى فرنيه ، والتقى فى باريس بهلفتيوس ودالامبير وكرتيه وطورجو . فلما عاد إلى اسكتلنده عام ١٧٦٦ عاش السنوات العشر التالية قانعاً مع أمه فى كركلدى عاكفاً

على تأليف كتابه . وظهر الكتاب واسمه « بحث فى طبيعة ثروة الأمم وأسبابها» عام ١٧٧٦ ، وقد رحب به هيوم فى رسالة بعث بها إلى سمث ومات بعدها بقليل .

وكان هيوم نفسه فى مقالاته قد أعان على تشكيل آراء آدم سمث الاقتصادية والأخلاقية جميعاً . فقد سخر من « المذهب المركنتلى » الذى حبذ التعريفات الجمركية الحامية ، والاحتكارات التجارية ، وغيرها من الإجراءات الحكومية التى يراد بها ضمان زيادة الصادرات على الواردات ، والاستكثار من المعادن النفيسة باعتبارها الثروة الأساسية الأمة . وقال هيوم ان هذه السياسة أشبه بالجهاد لمنع الماء من بلوغ مستواه الطبيعى ، ثم عاد لتحرير الاقتصاد من « المعوقات التى لاتحصى عددها . . . والرسوم التى فرضها على التجارة جميع أمم أوربا وفاقتها كلها انجلتره فى هذا المضمار» (٤٤) . وكان سمث بالطبع على بينة من الحملة التى شنها كرتيه وغيره من الفزيوقراطيين الفرنسيين على اللوائح والأنظمة المعوقة للصناعة والتجارة والتى فرضتها نقابات الطوائف الحرفية والحكومات ، ومطالبتهم بسياسة من عدم التدخل تترك الطبيعة تجرى مجراها ، وتجد فيها جميع الأسعار والأجور مستواها فى منافسة حرة . وكانت الثورة الوليدة آنئذ فى أمريكا على القيود التى فرضتها بريطانيا على تجارة المستعمرات جزءاً من خلفية تفكير سمث . ولو استرشدت الحكومة البريطانية بحرية التجارة التى أشار بها لكان من الجائز ألا يشهد عام صدور كتابة « إعلان الاستقلال » الأمريكى .

وكان لسمث آراء فى النزاع بين بريطانيا وأمريكا . فعنده أن الاحتكار الانجليزى لتجارة المستعمرات « من الذرائع الخبيثة التى يستخدمها النظام المركنتلى » (٤٥) . وقد اقترح إعطاء أمريكا استقلالها دون مزيد من النزاع مادام المستعمرون يرفضون أن تجبى منهم الضرائب لدعم نفقات الامبراطورية البريطانية « وبهذا الفراق ، فراق الأصدقاء المتفاهمين ، لن تلبث المودة الطبيعية التى بين المستعمرين ووطنهم الأم . أن تنتعش بسرعة ، وقد تحملهم . على إيثارنا فى الحرب كما يؤثروننا فى التجارة ، وبدلا من أن يكونوا رعايا مزعجين مشاغبين يصبحون أوفى . . . وأكرم حلفاء لنا » (٤٦) . ثم أضاف

« لقد بلغ التقدم السريع الذى أحرزه ذلك البلد هذا المبلغ الكبير من الثروة والسكان والتحسين ، بحيث قد لا ينقضى أكثر من قرن إلا قليلا حتى يزيد ما تغله أمريكا من مال على حصيلة الضرائب البريطانية . وعندها ينقل مقر الامبراطورية — بالطبع نفسه إلى ذلك الجزء من الامبراطورية الذى ساهم بأكبر نصيب فى الدفاع عن الكل وفى دعمه » (٤٧) .

وقد عرف سمث ثروة أمة من الأمم لا بأنها مقدار الذهب أو الفضة الذى تمتلكه ، بل الأرض وتحسيناتها وغلاتها ، والشعب وجهده وخدماته ومهاراته وسلعه . وكانت نظريته أن أكبر الثروات المادية تكون نتيجة لأكبر الحريات الاقتصادية ، وهذا مع بعض الاستثناءات . وحب المنفعة الشخصية أمر عام بين جميع الناس ، ولكننا لو سمحنا لهذا الدافع القوى بالعمل بأقصى حرية اقتصادية لحفز من النشاط والجرأة والمنافسة ما يثمر من الثروات أكثر من أى نظام آخر عرفه التاريخ ، (وهذه الفكرة هى فحوى قصة مندفيل الخرافية على النحل (٤٨) . فى شرح تفصيلى) وقد آمن سمث بأن قوانين السوق — خصوصاً قانون العرض والطلب — ستنسق بين حرية المنتج ومصلحة المستهلك ؛ ذلك أنه لو حقق المنتج أرباحاً باهظة لدخل غيره الميدان نفسه ، ولأبقى التنافس المتبادل بينهما الأسعار والأرباح فى نطاق حدود معقولة . ثم ان المستهلك سيتمتع بضرب من الديمقراطية الاقتصادية . ذلك أنه بالشراء أو برفض الشراء سيقرر إلى حد كبير أى السلع تنتج ، وأى الخدمات تقدم وبأى مقدار وثمن ، بدلا من أن تملى الحكومة كل هذه الأمور .

واتباعاً للفزيوقراطيين (ولكن مع الحكم بأن نواتج العمل وخدمات التجارة ثروة حقيقية كنواتج الأرض) دعا سمث لإنهاء الرسوم الإقطاعية ، والقيود النقابية ، واللوائح الاقتصادية الحكومية ، والاحتكارات الصناعية أو التجارية ، لأنها جميعاً تحد من تلك الحرية التى تتيح التحرك بعجلات الإنتاج والتوزيع ، بسماحها للفرد بأن يعمل ، وينفق ، ويوفر ، ويشترى ، ويبيع كما يشاء . وعلى الحكومة أن تطلق حرية العمل دون تدخل منها ، وأن تترك الطبيعة — أى نوازع الناس الفطرية — تعمل طليقة ، وأن تسمح

للفرد بأن يدبر أمره بنفسه ، وأن يجد عن طريق التجربة والخطأ العمل الذى يستطيع أداءه ، والمكان الذى يستطيع شغله ، فى الحياة الاقتصادية ، وأن تدعه يغرق أو يعوم .

« إننا لو اتبعنا نظام الحرية الطبيعية هذا ، لكان على الملك (أو الدولة) ثلاثة واجبات تتطلب الاهتمام بها » . . . أولها واجب حماية المجتمع من عنف وغزو جماعات مستقلة أخرى ؛ وثانيها واجب حماية أى عضو فى المجتمع ، بجهد الاستطاعة ، من ظلم وقهر كل عضو آخر فيه ، أى واجب إرساء إدارة صارمة للعدالة ؛ وثالثها واجب الإنفاق على الأشغال العامة والمؤسسات العامة التى لا يمكن إطلاقاً أن يكون من مصلحة أى فرد ، أو أى نفر قليل من الأفراد ، القيام بها أو الإنفاق عليها [٤٩] .

هنا نجد صيغة الحكومة الجفرسونية ، والهيكل العام لدولة تتيح للرأسمالية الجديدة أن تنمو وتترعرع جداً .

على أن الصيغة كانت تنطوى على ثغرة . فما الرأى إذا كان منع الظلم يتضمن الالتزام بمنع استخدام الماكرين أو الأقوياء للسذج أو الضعفاء استخداما غير إنسانى ؟ وقد أجاب سمث : أن ظلماً كهذا لا ينجم إلا عن الاحتكارات المقيدة للمنافسة أو التجارة ، وقد عدت مبادئه لإلغاء الاحتكارات. ويجب أن نعتمد فى تنظيم الأجور على تنافس أرباب العمل على العمال ، وتنافس العمال على الأعمال ؛ وكل المحاولات التى تبذلها الحكومات لتنظيمها تحبطها قوانين السوق إن عاجلا أو آجلا . ومع أن العمل (لا الأرض كما أعتقد الفزيوقراطيون) هو المصدر الوحيد للثروة [٥٠] ، إلا أنه سلعة ، شأنه شأن رأس المال ، وهو خاضع لقوانين العرض والطلب . «كلما حاول القانون تنظيم أجور العمال ، كان التنظيم دائماً بخفض هذه الأجور لا رفعها » [٥١] ، وذلك لأنه «كلما حاولت الهيئة التشريعية تنظيم الفوارق بين السادة وعمالهم ، كان مستشاروها دائماً هم السادة » [٥٢] . وهذا الكلام كتب فى وقت كان فيه القانون الانجليزى يجيز لأرباب العمل ، ويحرم على العمال ، تنظيم أنفسهم حماية لمصالحهم الاقتصادية . وقد ندد سمث بهذا التحيز من جانب القانون ،

وتوقع حصول العمال على أجور أفضل لا بالتنظيم الحكومى بل بالتنظيم العمالى[٥٣] .

وكان رائد الرأسمالية المزعوم هذا دائم الإنحياز إلى العمال ضد أصحاب الأعمال . فحذر من مغبة ترك التجارة ورجال الصناعة يقررون سياسة الحكومة :

« ان مصلحة التجار . . . فى أى فرع من فروع التجارة أو الصناعات هو دائماً مختلف من بعض الوجوه بل متعارض مع مصلحة الجمهور . . . واقتراح أى قانون جديد ، أو أى تنظيم للتجارة ، يصدر عن هذه الطبقة ينبغى دائماً الاستماع إليه بغاية الحذر . . . فهو صادر عن طبقة من الناس . . . لهم بوجه عام مصلحة فى أن يخدعوا الجمهور بل أن يبغوا عليه ، وهم . . . فى مناسبات كثيرة خدعوه وبغوا عليه أيضاً »[٥٤] .

أهذا آدم سمث أم كارل ماركس ؟ غير أن سمث دافع عن الملكية الخاصة لأنها حافز لا غنى عنه للجرأة والمغامرة ، وآمن بأن عدد الأعمال المتاحة ، والأجور المدفوعة ، سيتوقف أولا وقبل كل شىء على تجميع رأس المال واستخدامه[٥٥] . ومع ذلك فقد دعا لرفع الأجور باعتبار هذا الرفع مجزياً لصاحب العمل والعامل على السواء[٥٦] ، وألح على إلغاء الرق على أساس أن « العمل الذى يؤديه الأحرار هو فى النهاية أرخص من ذلك الذى يؤديه العبيد »[٥٧] .

وحين ننظر إلى سمث ذاته ، فى مظهره ، وعاداته ، وخلقه ، نعجب كيف كتب رجل معزول على هذا النحو عن عمليات الزراعة والصناعة والتجارة فى هذه الموضوعات المعقدة المتخصصة بمثل هذه الواقعية والبصيرة والجرأة . لقد كان شارد الذهن كنيوتن ، قليل الاعتداد بالعرف والتقاليد ، ومع أنه كان عادة مهذباً لطيفاً ، فقد كان فى وسعه أن يقابل جلافة صموئيل جونسن برد سريع من كلمات أربع تتشكك فى شرعية نسب « الخان الأكبر » . وبعد نشر كتابه « ثروة الأمم » قضى عامين فى لندن حيث استمتع بالتعرف إلى جبون ورينولدز وبيرك » وفى ١٧٧٨ عين — رسول حرية التجارة هذا —

رئيساً للجمارك المتحصلة من استكلنده . وبعدها عاش فى ادنبره مع أمه ، وظل عزباً إلى النهاية . وقد ماتت أمه فى ١٧٨٤ ، ولحق بها فى ١٧٩٠ بالغا السابعة والستين .

وسر إنجازه الكبير ليس فى أصالة تفكيره بقدر ما هو فى التمكن من بياناته والتنسيق بينها ، وفى غنى مادته التوضيحية ، وفى التطبيق المنير للنظرية على الأحوال الجارية ، وفى أسلوبه البسيط الواضح المقنع ، وفى نظرته العريضة التى رفعت الاقتصاد من مرتبة « العلم الكئيب » إلى مستوى الفلسفة . وكان كتابه علامة عصر لأنه محص وفسر — ولم ينتج بالطبع — الحقائق والقوى التى أخذت تحول الاقطاعية والتجارية إلى الرأسمالية والمشروعات الحرة . وحين خفض بت الثانى الضريبة المفروضة على الشاى من ١١٩٪ إلى ١٢ ½٪ وحاول عموماً أن يحقق للتجارة حرية أكبر ، اعترف بدينه لكتاب « ثروة الأمم » . ويخبرنا اللورد روزبرى فى حديثه عن حفلة عشاء حضرها بت ، كيف أن الحاضرين على بكرة أبيهم قاموا وقوفاً حين دخل سمث وقال بت « سنظل واقفين حتى تجلس ، لأننا جميعاً تلاميذك »(٥٨) . وقد تنبأ السر جيمس مرى — بلتنى بأن كتاب سمث « سيقنع الجيل الحاضر ويحكم الجيل القادم » (٥٩) .

٥ — روبرت بيرنز

يقول أشعر شعراء اسكتلنده « إن دمى القديم الخسيس قد اندس إلى من أوغاد عاشوا منذ الطوفان » (٦٠) ولكننا لن نتقصى نسبه لأبعد من وليم بيرنز ، الذى لم يكن وغداً بل مزارعاً مستأجراً سريع الغضب شديد الاجتهاد. وفى ١٧٥٧ تزوج آجنس براون ، التى أهدته روبرت فى ١٧٥٩ . وبعد ست سنوات استأجر وليم مزرعة مساحتها سبعون فداناً فى ماونت أوليفانت ، وهناك عاشت الأسرة المتكاثرة عيشة التقتير فى بيت منعزل . وتلقى روبرت تعليمه فى البيت واختلف إلى مدرسة الأبرشيه ، ولكنه اشتغل فى المزرعة منذ بلوغه الثالثة عشرة . فلما ناهز الرابعة عشرة « أدخلتنى صبية جميلة ، لطيفة مرحة ، فى عاطفة حارة لذيذة أراها برغم خيبة الأمل المرة ، والحكمة

الثقيلة ، والفلسفة الغارقة فى الدرس ، أروع المباهج البشرية»[٦١] . وفى الخامسة عشرة التقى بـ « ملاك » ثان وسهر الليالى المحمومة مفكراً فيها . . وقد استحضر أخوه إلى الذهن أن « تعلق روبرت بالنساء اشتد كثيراً ، وكان دائماً ضحية حسناء تسترقه » [٦٢] .

وفى ١٧٧٧ وفى نوبة من الشجاعة المستهترة ، استأجر وليم بيرنز مزرعة لوخلى ، ومساحتها ١٣٠ فداناً ، فى تاربولتن ، التى تعاقد على أن يدفع فيها ١٣٠ جنيها فى العام . وأصبح روبرت الذى بلغ الآن الثامنة عشرة ، والذى كان أكبر أبناء سبعة ، العامل الأول فى المزرعة لأن وليم شاخ قبل الأوان بعد أن حطمه الكد الذى لا غناء فيه . وقد باعد بين الوالد والولد غلو الأول فى البيورتانية ، وانفتاح الآخر على ناموس أرحب . وتردد روبرت على مدرسة للرقص رغم منع أبيه له . قال الشاعر ذاكراً تلك الحقبة » ومن مثل التمرد ذاك شعر بضرب من الكراهية لى ، وكان هذا فى اعتقادى من أسباب ذلك الفسق الذى اتسمت به سنواتى المستقبلة » [٦٣] : وحين بلغ روبرت الرابعة والعشرين انضم إلى محفل ماسونى . وفى ١٧٨٣ صودرت المزرعة للتخلف فى دفع الإيجار . وكتل روبرت وأخوه جلبرت مواردهما الضئيلة ليستأجرا مزرعة مساحتها ١١٨ فداناً نظير تسعين جنيهاً فى العام ، وراحا يكدحان فوقها أربع سنين ولا يصيبان منها غير سبعة جنيهات لكل منهما فى العام لنفقاتهما الشخصية ؛ وهناك عالا أبويهما وشقيقاتهما وأشقاءهما . ثم مات الأب بالسل فى ١٧٨٤ .

وقرأ روبرت فى ليالى الشتاء الطويلة الكثير من الكتب ، ومنها تواريخ روبرتسن ، وفلسفة هيوم ، والفردوس المفقود . « اعطنى روحاً كروح بطلى المفضل ، شيطان ملتن » [٦٤] . فلما غاظته رقابة الكنيسة الاسكتلندية على الأخلاق لم يعز عليه أن ينبذ لاهوتها ويكتفى بإيمان غامض بالله والخلود . وقد سخر من أولئك « السنيين » ، الذين يؤمنون بيوحنا فوكس ، « ويخامره الظن بأن هؤلاء القساوسة كانوا فيما بين أيام الآحاد يأثمون خفية كما يأثم [٦٥] . وقد وصف فى قصيدة « المهرجان المقدس » (التى تدور حول اجتماع للإنعاش الدينى (سلسلة من الوعاظ يذمون الخطيئة ويهددون

بالجحيم ، بينما تنتظر المومسات فى ثقة خارج الاجتماع زبائنهن من جمهور المصلين .

واشتد بغض بيرنز لرجال الدين حين أوفد أحدهم مندوباً عنه ليوبخه ويغرمه عقاباً على معاشرته لبتى باتن دون أن يكون زوجاً لها . ثم استحال البغض غضباً حين وبخ مجلس كنيسة موكلين (١٧٨٥) مالك أرضه اللطيف ، جافن هاملتن ، على تخلفه المتكرر عن صلوات الكنيسة . وكتب الشاعر الآن أقذع أهاجيه « صلاة القديس ولى » التى سخرت من فضيلة وليم فشر المرائية ، وكان من شيوخ كنيسة موكلين . فصوره بيرنز يخاطب الله قائلا :

إنى أبارك وأحمد قدرتك التى لاضريب لها ،
إذ تركت الألوف فى الليل ،
لتأتى إلى هنا وأنا أمام ناظريك
طالباً عطاياك وأفضالك ناراً ونوراً ساطعاً
لهذا البيت كله . . .

رباه إنك عليم بأننى كنت البارحة مع مج . . .
لذلك أطلب عفوك مخلصاً . . .
أواه ! لا تكن هذه الفعلة لطخة دائمة
تلوث شرفى ،
ولن أرفع ساقاً خاطئة
فوقها مرة أخرى .
ثم لابد أن أعترف
بأننى كنت مع ابنة لبزى ثلاث مرات ،
ولكنى كنت يارب مخموراً فى يوم الجمعة ذاك
حين دنوت منها ،

وإلا فما كان عبدك
ليجرؤ على اغوائها قط . . .
ثم أذكر رباه أن جافن هاملتن يهجر الكنيسة ،
ويسكر ويحلف ويلعب الورق
ومع ذلك فقد كثرت حيله المحببة
للناس كبيرهم وصغيرهم ،
وهو يسرق قلوب الناس
من القس الذى اصطفاه الله . . .
رب أدنه فى يوم انتقامك ،
رب ابتل من استخدموه
ولا تغض عنهم فى مراحمك
ولا تستمتع إلى صلاتهم !
ولكن لأجل شعبك أهلكهم
ولا تبق منهم أحداً .
ولكن إذكرنى يارب وكل ما أملك
بمراحم أرضية وسماوية ،
حتى أضىء بالنعمة والثراء
ولا يبزنى فى ذلك أحد ،
وليكن لك كل المجد
آمين ، آمين !

ولم يجرؤ بيرنز على نشر هذه القصيدة فلم تصل إلى المطبعة إلا بعد موته بثلاث سنين .

وكان فى غضون هذا يتيح للكنيسة الكثير من المبررات لتقريعه ، فقد

لقب نفسه « زانياً محترفاً » (٦٦) . وكانت كل عذراء جديدة تثير عاطفته : «كلاو الفاتنة تطفو فوق الموجة اللؤلؤية » ، وجين آرمر ، وماری كامبل الهايلاندية ، وبجى تشالمرز ، و«كلارندا » ، وجنى كروكشانك ، وجنى الداليريه « مقبلة خلال الجاودار » و« الصغيرة الحلوه » دبورا ديفز ، وآجنس فلمنج ، وجنى جافرى ، وبجى كندى الساكنة « نهير دون الجميل » ، وجسى ليوارز ، وجين لوريمر (كلوريس) ، ومارى موريسن ، وآنا بارك ، وآنا ويلى ستيوارت ، وبجى طومسن — وغيرهن (٦٧). ولم يعوضه عن مشاق الحياة وخطوبها غير عيونهن المشرقة الضاحكه ، وأيديهن الناعمة وصدورهن الناصعة مثل « الثلج المتساقط » . وقد اعتذر عن تقلبه الجنسى بأن كل الأشياء فى الطبيعة تتغير ، فلم يكون الإنسان استثناء للقاعدة ؟ (٦٨) ولكنه حذر النساء من الثقة بوعود الرجل (٦٩) . ونحن نعلم أنه أنجب خمسة أطفال من زواجه ، وتسعة بغير زواج . قال « إن لى عبقرية فى الأبوة » وخيل إليه أنه لا شفاء له إلا أن يخصى (٧٠) . أما عن توبيخات القساوسة وقوانين اسكتلنده :

فلتتضافر الكنيسة والدولة لتنهيانى
عن فعل ما لا ينبغى أن أفعل .
فلتذهب الكنيسة والدولة إلى الجحيم
أما أنا فذاهب إلى حبيبتى آنا (٧١) .

فلما ولدت له بتى باتن طفلا (٢٢ مايو ١٧٨٥) عرض أن يتزوجها ، ولكن أبويها رفضا العرض . فانصرف عنها إلى جين آرمر وأعطاها تعهداً كتابياً بالزواج ، ولم تلبث أن حملت . وفى ٢٥ يونيو مثل أمام مجلس الكنيسة واعترف بمسئوليته . وقال إنه كان يعد نفسه متزوجاً من جين ، وأنه موف بعهده ؛ ولكن أباها رفض أن يزوجها لفلاح فى السابعة عشرة مثقل بطفل غير شرعى . وفى ٩ يوليو تاقى بيرنز من مقعده فى الكنيسة التوبيخ العلنى فى اتضاع . وفى ٣ أغسطس ولدت جين توأمين . وفى ٦ أغسطس قبل هو وجين التوبيخ أمام شعب الكنيسة و « أحلا من الفضيحة » وأقسم الأب ليستصدرن أمراً بالقبض على بيرنز ؛ فاختبأ الشاعر وخطط أن يركب البحر

إلى جميكا ، ولم ينفذ أمر القبض ، وعاد روبرت إلى مزرعته. فى ذلك الصيف ذاته وعد بأن يتزوج مارى كامبل وأن يصطحبها إلى أمريكا ؛ ولكنها ماتت قبل أن يستطيعا تنفيذ الخطة ؛ وقد أحيا بيرنز ذكراها فى قصيدتيه « مارى الهايلاندية » و « إلى مارى التى فى السماء » [٧٢] .

فى ذلك العام الحافل بالإنتاج (١٧٨٦) نشر فى كلمارنوك أول دواوين شعره بالإكتتاب . وحذف من الديوان القصائد التى قد تسىء إلى الكنيسة او أخلاقيات الشعب ، وأبهج قراءه بلهجته الأسكتلنديه وأوصافه لمشاهد الطبيعة المألوفة ؛ وسرّ الفلاحين برفع دقائق حياتهم إلى مستوى الشعر المفهوم . ولعل شاعراً من الشعراء لم يعبر قط كما عبر عن هذا التعاطف مع الحيوانات التى تشارك فى أعباء يوم الفلاح ، أو « الخروف الأبله » الحائر وسط الثلج المنهمر ، أو الفأر الذى أزاحه عن جحره المحراث القادم .

ولكنك يا جرذى لست الوحيد
الذى يثبت أن بعد النظر قد يكون باطلا ،
فكثيراً ما تخطىء أشد خطط الفيران والناس احكاما .

ويكاد يبلغ مبلغ هذه الأبيات فى جريها على الألسن مجرى الأمثال تلك التى تختم قصيدته المسماه « إلى قملة عند رؤيتها أخرى على قبعة سيدة فى الكنيسة » :

ألا ليت قوة من القوى تهبنا أن
نرى أنفسنا كما يرانا الغير [٧٣] .

ولكى يضمن بيرنز الترحيب بديوانه الصغير توجه بقصيدة سماها « ليلة سبت الفلاح » : قصور الفلاح يستريح بعد أسبوع من الكد الشديد ؛ وزوجته وأطفاله يلتفون به كل يحكى قصة من قصص نهاره ؛ وكبرى بناته تقدم لأبيها الخطيب الخجول فى تردد واحجام ؛ ثم المشاركة السعيدة فى الطعام البسيط ؛ والأب يقرأ الكتاب المقدس على أسرته ؛ ثم الصلاة الجماعية ؛ وإلى هذه الصورة السارة أضاف بيرنز مناجاة وطنية لـ « اسكتلنده ، أرضى ووطنى الحبيب ! » وبيع كل المطبوع من النسخ إلا ثلاثا وعددها ٦١٢ فى

أربعة أسابيع ، وبلغ صافى حصيلة بيرنز منها عشرين جنيها .

وكان قد فكر فى أن يستخدم هذه الحصيلة فى دفع أجر الرحلة إلى أمريكا ولكنه عدل وخصصها لفترة يقيمها فى أدنبره . فلما بلغها على جواد استعاره فى نوفمبر ١٧٨٦ اقتسم حجرة وسريرا مع فتى ريفى آخر . وكان يشغل الطابق الذى يعلوهما بعض المومسات الصاخبات . وفتح له الأبواب نقاد أدنبره الأدبيون ، فكان معبود المجتمع المهذب طوال موسم . ووصفه السر ولتر سكوت بهذه العبارات :

« كنت صبيا فى الخامسة عشرة عام ١٧٨٦ — ٨٧ حين وفد بيرنز أول مرة على أدنبره . . . ورأيته يوما فى بيت الأستاذ فيرجسون المحترم ، حيث التقى نفر من السادة ذوى الشهرة الأدبية . . وكان شخصه قويا عفيا ، فيه جهامة ريفية بغير جلافة ، عليه سيماء البساطة والصراحة الوقورين . وجهه ضخم والعين واسعة سوداء اللون ، تتألق . . . إذا تكلم . . . وكان فى مجلسه من هؤلاء الرجال ، وهم صفوة المثقفين فى جيلهم ووطنهم ، يعبر عن رأيه فى قوة بالغة ولكن دون أدنى صلف » (٧٥) .

وقد وجد التشجيع على إصدار طبعة مزيدة من قصائده . ولكى يضيف إلى ديوانه الجديد مزيدا من المادة اعتزم أن يضمنه قصيدة من مطولاته اسمها «الشحاذون المرحون» لم يجرؤ من قبل على طبعها فى ديوان كلمارنوك وقد وصفت القصيدة تجمعا للمتشردين ، والصعاليك ، والمجرمين ، والشعراء ، والعابثين ، والبغايا ، والعجزة ، والجنود المنبوذين ، فى خمارة نانسى جبسن بمدينة موكلين . ثم وضع بيرنز فى أفواههم أصرح السير الذاتية وأمعنها فى الخطيئة ، واختتم هذا الخليط بكورس مخمور :

« ما أتفه الذين يحميهم القانون !

إن الحرية مأدبة فاخرة !

وقصور الملوك لم تبن إلا للجبناء .

وما شيدت الكنائس إلا مسرة لرعاتها (٧٦) »

وهالت الدارس والواعظ هيو بلير فكرة نشر هذا الازدراء للفضائل

فأذعن بيرنز ، وسى بعد ذلك به نظم هذه القصيدة ، (٧٧) وقد احتفظ بها أحد أصدقائه ثم رأت النور فى ١٧٩٩ .

وباع المشرف الأدنبرى على النشر نحو ثلاثة آلاف نسخة ، خلص منها لبيرنز ٤٥٠ جنيها . فاشترى فرسا ركبها فى رحلة إلى إقليم المرتفعات (٥ مايو ١٧٨٧) ثم عبر نهر تويد ليرى طرفا من انجلترە . وفى ٩ يونيو زار أقاربه فى موسجيل ، وألم بجين آرمر ، فرحبت بمقدمه ، وحبلت مرة أخرى . فلما عاد إلى أدنبره التقى بمسز أجنيس ملهيوز . وكانت قد تزوجت جراحا من جلاسجو وهى فى السابعة عشرة ، ثم تركته فى الحادية والعشرين (١٧٨٠) مصطحبة أطفالها واستقرت فى العاصمة فى عيشة كريمة مدبرة . فدعت بيرنز إلى بيتها ، ووقع فى غرامها دون إبطاء ، ويبدو أنها لم تسلمه نفسها ، لأنه ظل مقيما على حبها ، وتبادلا الرسائل وقصائد الشعر ؛ وكان توقيعه عليها باسم « سيلفاندر » وتوقيعها « كلاريندا » . وفى ١٧٩١ قررت أن ترحل وتلحق بزوجها فى جميكا . وبعث إليها بيرنز أبياتا رقيقة على سبيل الوداع .

قبلة حارة واحدة ثم نفترق ،
وداع واحد ، ثم لا لقاء بعده !
لو لم نحب هذا الحب الرقيق ،
ولو لم نحب هذا الحب الأعمى ،
ولو لم نلتق ولو لم نفترق ،
لما تحطم قلبانا قط (٧٨) .

ولكنها وجدت زوجها يعيش مع ساقية زنجية ، فعادت إلى أدنبره . أما وقد عجز بيرنز عن إشباع عشقه لها ، فقد التمس الصحبة والقصف فى ناد محلى يسمى « المدافعين عن كروكلان » — رجال تعاهدوا على الدفاع عن مدينتهم . هناك كان الخمر والنساء هما الآلهة الحارسة » ، والفسق السيد المتسلط . وقد جمع بيرنز لأجلهم الأغانى الأسكتلندية القديمة وأضاف إليها من عنده ؛ ووجد بعضها طريقه إلى النشر سرا وغفلا عن اسم الشاعر عام ١٨٠٠ بعنوان « عرائس شعر كلدونيا المرحات » . وقد قضى على ترحيب

مجتمع أدنبره الراقى ببيرنز سريعا انتماؤه إلى هذا النادى ، وازدراؤه السافر للفوارق الطبقية (٧٩) ، وإعرابه الصريح عن الآراء المتطرفة فى الدين والسياسة .

ثم حاول الحصول على وظيفة جاب للضرائب . فلما صد عنها غير مرة ، راض نفسه على مغامرة جديدة فى الفلاحة . فى فبراير سنة ١٧٨٨ استأجر مزرعة إليسلاند ، الواقعة على خمسة أميال من دمفريز ، واثنى عشر من كريجنيتوك مدينة كارليل . وأقرض مالك المزرعة الشاعر ٣٠٠ جنيه ليبنى بئتا فى المزرعة ويسيج الحقل بعد أن وصف التربة فى غير مواربة بأنها « فى أسوأ حالات الإنهاك » (٨٠). واتفق على أن يدفع له بيرنز خمسين جنيها كل عام على امتداد ثلاث سنين ، ثم سبعين . وولدت جين آرمز أثناء ذلك توأمين (٣ مارس سنة ١٧٨٨) لم يلبثا أن ماتا . وتزوجها بيرنز قبل ٢٨ ابريل بقليل ،وأقبلت بطفلها الوحيد الذى بقى لها من أطفالها الأربعة الذين ولدتهم له لتخدمه زوجة ومديرة لبيته فى اليسلاند . وأنجبت له طفلا آخر سماه بيرنز « رائعتى فى ذلك النوع من الصناعة ،لأنى أرجو أن يكون « فام أو شانتر » إنجازى القياسى فى الميدان السياسى » (٨١) وفى سنة ١٧٩٠ توثقت علاقته بآنا بارك ،الساقية فى حانة دمفريز ، وفى مارس سنة ١٧٩١ ولدت له طفلا أخذته جين وربته مع أطفالها . (٨٢)

وكانت الحياة شاقة فى إليسلاند ، ولكنه واصل قرض الشعر الرائع . وهناك أضاف مقطعين شهيرين لأغنية سكارى قديمة سماها «الأيام الخوالى» وظل بيرنز يكدح حتى انهارت قواه كما انهارت قوى أبيه من قبل . واغتبط حين عين (١٤ يوليو سنة ١٧٨٨) مفتش إنتاج ، يجوب البلاد ليعاير البراميل ، ويفتش على أصحاب المطاعم ، والشماعين ، ويقدم تقاريره لمجلس إنتاج أدنبره . ويبدو أنه أرضى المجلس رغم كثرة شجاره مع جون باركيكورن . وفى نوفمبر سنة ١٧٩١ باع مزرعته بربح ، وانتقل مع جين والأطفال الثلاثة إلى بيت فى دمفريز .

وقد آذى شعور أهل المدينة الوقورين بتردده على الحانات ، وعودته مرارا إلى جين الصابرة وهو ثمل بالخمر . (٨٣) على أنه ظل شاعرا فحلا ،

فى تلك السنوات الخمس نظم هذه القصائد : يا ضفاف نهر دون الجميل ومروجه » و « إلى الأسكتلنديين الذين أريقت دماؤهم مع ولاس » و « حبيبتى أشبه بوردة حمراء حمراء » . وقد تبادل الرسائل مع السيدة فرانسس دنلوب ، التى كان يزورها أحيانا وكان فى عروقها أثارة من دم ولاس ، لأنه افتقد فى زوجته الرفيق الفكرى . وقد جاهدت هذه السيدة لترويض أخلاق برنز ولغته ، ولم يكن ذلك دائما لفائدة شعره . وكان أكثر تقديرا لأوراق البنكنوت من فئة الجنيهات الخمسة ، التى كانت توافيه بها بين الحين والحين . [٨٤]

وقد عرض وظيفته فى تفتيش الإنتاج للخطر بآرائه المتطرفة . فأشار على جورج الثالث فى خمسة عشر مقطعا رائعا أن يتخلص من وزرائه الفاسدين ، ونصح أمير ويلز (ولى العهد) بأن يكف عن فجوره ، وعن إسرافه فى لعب القمار مع تشارلى (فوكس) « إن شاء أن يرث العرش[٨٥] . وفى خطاب أرسله لصحيفة أدنبره « كورانت » صفق لإعلان الاستقلال الأمريكى . وفى سنة ١٧٨٩ كان « نصيرا متحمسا » للثورة الفرنسية . وفى سنة ١٧٩٥ فجر لغما على فوارق المراتب .

أبسبب الفقر الشريف
ينكس الفقير رأسه ويخزى ؟
إنا نمر بالعبد الجبان فلا نعبأ به ،
وإنا نجرؤ على أن نكون فقراء رغم هذا كله ! .
ورغم أن كوننا وكدحنا مجهولان مغموران .
أن المراتب ليست سوى خاتم الجنيه ،
أما الإنسان فهو الذهب رغم هذا كله .

* * *

إن الرجل الشريف ، وإن اشتد فقره
أمير القوم رغم هذا كله .

* * *

أترى ذلك الرجل الذى يلقبونه لوردا
والذى يختال فى مشيته ويحدق فى الناس ،
إنه ليس إلا غبيا أحمق رغم هذا
وإن انحنى المئات لأمره ونهيه

* * *

إذن لنصل ليأتى ذاك اليوم ،
وهو آت لاريب فيه رغم هذا كله ،
يوم يحقق العقل والكفاءة الانتصار فى كل الأرض قاطبة
إنه آت رغم هذا كله ،
يوم يقف الرجل أمام الرجل
إخوانا فى بقاع الأرض .

وتوالت الشكاوى على مجلس الانتاج تقول أن رجـــلا متطرفا كهذا ليس بالرجل الذى يصلح للتفتيش على الشماعين ومعايرة براميل الخمر ، ولكن أعضاء المجلس صفحوا عنه لحبه لاسكتلنده واشادته بها . وكانت الجنيهات التسعون التى أتته بها وظيفتـــه لا تكاد تتيح له الخبز والكأس ، وواصل تشرده الجنسى ، وفى ١٧٩٣ ولد له طفل من السيدة ماريا ريدل التى اعترفت بـ « قوة جاذبيتى التى لا تقاوم » وأضعف إدمانه الخمر عقله وكبرياءه آخر الأمر . فراح يرسل إلى أصدقائه خطابات الاستجداء على نحو ما كان يفعل موتسارت فى هذا العقد ذاته .(٨٦) ورددت الشائعات أنه مصاب بالزهرى ، وأنه عثر عليه ذات صباح قارس البرد فى يناير ١٧٩٦ ملقى وسط الثلوج وهو سكران .(٨٧) وقد انتقدت هذه الشائعات باعتبارها هرطقة لا سند لهـــا ، ويشخص الأطباء الاسكتلنديون مرض بيرنز الأخير بأنه حمى روماتزمية آذت قلبه .(٨٨) وقبل أن يموت بثلاثة أيام كتب إلى حميه يقول « أرجوك بالله أن ترسل السيدة آرمرالينا فوراً ، فزوجتى تتوقع كل ساعة أن تلزم الفراش . رباه ! أى موقف يمكن أن تقفه المرأة المسكينة وهى بغـــير صديق ! .(٨٩) ثم لزم فراشه ومات فى ٢١ يوليو ١٧٩٦ . وبينما كانوا

يوارونه التراب ولدت زوجته إبنا . وجمع أصدقاؤه بعض المال للعناية بها ، وقد عمرت إلى عام ١٨٣٤ لأنها كانت صلبة العود قوية القلب .

٦ - جيمس بوزويل (*)

١ - الشبـــل

كان يجرى فى عروقه الدم الملكى . فأبوه الكسند بوزويل ، سيد ضيعة أوخنلك فى ايرشيز والقاضى بمحكمة اسكتلنده المدنية العليا ، سليل لأيرل أران ، وهو جد بعيد لجيمس الثانى ملك اسكتلنده . أما أمه فتحدرت من إيرل افوكس الثالث ، وكان جد اللورد دارنلى ، الذى كان أبا جيمس السادس . وقد ولد جيمس بوزويل بأدنبره فى ٢٩ أكتوبر ١٧٤٠ . وكان بوصفه أكبر أبناء ثلاثة الوريث لضيعة أوخنلك المتواضعة (وكان ينطقها آفليك) ، ولكن بما أن أباه عمر حتى ١٧٨٢ ، فقد كان عليه أن يظل غير قانع بما يجريه عليه اللورد من دخل . وأصيب أخوه جون فى ١٧٦٢ بأولى نوبات الجنون العديدة وكان بوزويل نفسه فريسة لنوبات من الوهم التمس الشفاء منها فى غيبوبة الشراب ودفء أجساد النساء . وقد علمته أمة العقيدة

(*) كان اكتشاف يوميات بوزويل من أشد الأحداث إثارة فى تاريخ عصرنا الأدبى . وكان قد أوصى بأوراقه لورثته الذين رأوا فيها من الفضائح ما لا يسيغ نشرها . وقد عثر على رزمه منها تحتوى « يومية لندن » فى فتركيرن هاوس ، قرب أبردين ، عام ١٩٣٠ . واستكشف كنز أكبر من صناديق وخزانات قلعة مالاهايد قرب دبلن ، فى ١٩٢٥ - ٤٠ . واشترى الكولونل رالف ايشام معظم الأوراق ، ثم اشترتها منه جامعة ييل . وقد حققها الأستاذ فردريك أ . بوتل لشركة ماكجرو - هل للنشر ، وهى صاحبة الحق الوحيدة فى نشرها . . ونحن شاكرون للمحقق وللناشر الاذن لنا بنقل بعض الفقرات من اليومية . وقد ظهر كتاب الأستاذ بوتل « جيمس بوزويل : السنوات الأولى » بعد كتابة هذا الفصل . .

الكلفينة المشيخية التى كانت تنبض بدفء تفردت به . كتب فى تاريخ لاحق يقول « لن أنسى ما حييت ساعات الخوف التعسة التى تحملتها فى صباى نتيجة الأفكار الضيقة عن الدين ، بينما كان عقلى يمزقه رعب جهنمى »[٩٠] . وكان طوال حياته كلها يتذبذب بين الإيمان والشك ، وبين التقوى والإنغماس فى لذة الجنس . ولم يحقق قط أكثر من تكامل وقتى أو اطمئنان عابر .

وبعد أن تلقى الدروس فى البيت فترة أرسل إلى جامعة إدنبره ، ثم إلى جلاسجو ، حيث اختلف إلى محاضرات آدم سمث ودرس القانون . وفى جلاسجو التقى بالممثلين والممثلات وكان بعضهم كاثوليكياً . وبدا له أن مذهبهم أكثر من الكلفنية توافقاً مع الحياة المرحة ، وأعجبته بوجه خاص عقيدة المطهر التى تسمح للخاطىء بالخلاص بعد بضع دهور من الحريق . فركب جيمس فجأة واندلق إلى لندن (مارس ١٧٦٠) وانضم إلى كنيسة روما .

وأرسل الأب المفزع إلى إيرل أجلنتن يناشده أن يرعى جيمس ، وكان الرجل جاراً من جيرانه فى إيرشير يسكن لندن . وقال الايرل للشاب أنه ظل كاثوليكياً فلن يستطيع أبداً أن يمارس المحاماة ، أو يدخل البرلمان ، أو يرث أوخنلك . فنقل جيمس إلى اسكتلنده وكنيستها ، وعاش تحت سقف أبيه وبصره ، ولكن لما كان القاضى مشغولا ، فقد أفلح إبنه فى أن يلتقط عدوى مرض سرى »[٩١] وكانت أولى إصاباته الكثيرة بالمرض السرى . وخاف الأب أن يبدد الفتى الطائش ميراث أوخنلك على اللهو والعربدة حين يرثها ، فأقنعه لقاء راتب سنوى قدره مائة جنيه بأن يوقع وثيقة يكفل بمقتضاها إدارة التركة مستقبلا لأوصياء يعينهم بوزويل الأب .

وفى ٢٩ أكتوبر ١٧٦١ بلغ جيمس سن الرشد ، فضوعف راتبه السنوى . وفى مارس التالى حبلت منه جى دويج ، وفى يوليو جاز امتحان المحاماه . وفى أول نوفمبر ١٧٦٢ انطلق إلى لندن بعد أن ترك لبجى عشرة جنيهات (وقد ولدت طفلها بعد بضعة أيام ، ولكن بوزويل لم يره قط) .

وإتخذ له فى لندن غرفة مريحة فى داوننج ستريت . ولم يأت الخامس والعشرون من نوفمبر حتى شعر أنه « تعس حقاً لافتقاره إلى النساء » [٩٢] ، ولكنه تذكر مرضه المعدى ، ثم إن « أتعاب الجراحين فى هذه المدينـــة باهظة » [٩٣]. وعلى ذلك تجلد لحياة العفة « حتى أعثر على فتاة مأمونة ، أو تحبنى امرأة من نساء المجتمع العصرى » [٩٤] . وكان انطباعه عن لندن أنها تقدم كل لون من ألوان الغوانى ، « من السيدة الفخمة التى تتقاضى خمسين جنيهـــا فى الليلة إلى الحورية اللطيفة . . . . التى تســلم شخصها الجذاب لشرفك لقاء كوب من النبيذ وشلن واحد » [٩٥]. واتصل بـ « ممثلة مليحة » تدعى لويزة ، بدا له أن تمنعها الطويل يشهد بنظافتها الصحية . وأخيراً أغراها ، وحقق نشوة مخمسة ، « وقد صرحت بأننى أعجوبة » [٩٦] . وبعد ثمانية أيام اكتشف أنه أصيب بالسيلان . وفى ٢٧ فبراير شعر أنه شفى ، وفى ٢٥ مارس التقط مومساً من عرض الطريق و « باشرها وهـو مدرع » (بكيس واق) . وفى ٢٧ مارس « سمعت صلاة فى كنيسة سانت ونستن » وفى ٣١ مارس « تمشيت فى هايدپارك وأخذت أول بغى لقيتها » [٩٧] وتسجل « يومية لندن » التى خلفها بوزويل أمثال هذه المغامرات خلال الشهور الأربعة التالية — فى جسر وستمنستر ، وفى حانة « هد تافرن » التى كان يرتادها شكسبير ، وفى هايد بارك ، وفى حانة على الستراند ، وفى محاكم التمبل ، وفى بيت الفتاة .

وهذا بالطبع ليس إلا جانباً واحداً فى صورة رجل ، وحشد هذه الأحداث المتفرقة فى فقرة واحدة يعطى انطباعاً خاطئاً عن حياة بوزويل وخلقه . أما الجانب الآخر فهو « حبه الحار لعظماء الرجال » [٩٨]. وأول صيد له فى هذا كان جاريك ، الذى استطاب مدائح بوزويل وأحبه لتوه . ولكن جيمس كان يتطلع إلى الذرى الشامخة . وكان قد سمع فى إدنبره توماس شريدان يصف لوذعية صموئيل جونسن وحديثه الدسم . فقال لنفسه إن لقاء هذا القمة فى حياة لندن الأدبية سيكون « ضربا من المجد » .

وأعانته الصدفة على ما ينشد . ففى ١٦ مايو ١٧٦٣ كان بوزويل يشرب

الشاى فى مكتبة الكتبى توماس ديفز بشارع رسل ، وإذا « رجل ذو مظهر رهيب جداً » يدخل المكتبة . وتبين بوزويل شخصه من لوحة كان قد رسمها رينولدز لجونسن . فرجا ديفز ألا يبوح بأن وطنه اسكتلنده ، ولكن ديفز باح بالسر « فى خبث » للفور . ولم يفت جونسن أن يلاحظ أن اسكتلنده بلد طيب يقدم منه الإنسان . وجفل بوزويل . ثم شكا جونسن من أن جاريك ضن عليه بتذكرة مجانية للآنسة وليمز لتحضر تمثيلية معروضـــة ، وتجاسر بوزويل على أن يقول « سيدى ، لست أستطيع الإعتقاد بأن مستر جاريك يضن عليك بمثل هذا الشيء التافه . » وهنا انقض جونسن عليه بقوله « سيدى ، لقد عرفت ديفد جاريك زمناً أطول مما عرفته ، ولست أرى لك حقاً فى أن تكلمنى فى هذا الأمر » . ولم يكن فى هذا الجواب ما يبشر بصحبة مديدة . و « صعق » بوزويل و « أحس بالخزى » ، ولكن بعد مزيد من الحديث « اقتنعت بانه وإن كان فى مسالكه خشونة ، إلا أنه ليس فى طبعه لؤم » (٩٩) .

وبعد ثمانية أيام ، وبتشجيع من ديفز وبدعم من جرأته الصفيقة ، قدم بوزويل نفسه لجونسن فى شقته بالأنر تميل ، فاستقبله فى تلطف أن لم يكن فى ظرف كثير . وفى ٢٥ يونيو تعشى الدب والشبل معاً بحانة الميتر فى فليت ستريت « كنت فخوراً جداً بفكرة وجودى معه » وفى ٢٢ يوليو « خصصت لنا — أنا ومستر جونسن — غرفة فى مشرب تيركس هد » ثم كتب بوزويل فى يوميته « بعد هذا سأكتفى بتسجيل الذكريات الخاصة بمستر جونسن ، والجديرة بالتسجيل ، كلما طفت فى ذاكرتى » (١٠٠) وهكذا بدأت هذه السيرة الرائعة .

ولما رحل بوزويل إلى هولنده (٦ أغسطس ١٧٦٣) ليدرس القانون استجابة لألحاح أبيه ، كان إنسجام الأستاذ وتلميذه عظيما حتى لقد رافق جونسن ذو الثلاثة والخمسين بوزويل ذا الإثنين والعشرين إلى هاروبتش ليودعه عند رحيله .

ب — بوزويل خارج بريطانيا

واستقر به المقام فى أترخت ، حيث درس القانون ، وتعلم الهولندية والفرنسية ، وقرأ كل كتاب فولتير « فى الأعراف » (كما يقول) . وقد عانى أول الأمر من نوبة اكتئاب قاسية ، ووبخ نفسه على كونه زير نساء حقيراً ، وفكر فى الإنتحار . وألقى اللوم فى فجوره الأخير على فقده إيمانه الدينى . «كنت مرة كافراً » ، وسلكت مسلك الكافرين ؛ أما الآن فأنا جنتلمان مسيحى » [١٠١] .ووضع لنفسه « خطة محكمة » لأصلاح ذاته : فهو عازم على إعداد نفسه للقيام بواجبات اللورد الإسكتلندى » وعلى أن « يكون وفياً لكنيسة انجلترة » ، وأن يلتزم بالقانون الأخلاقى المسيحى « حذار من أن تتحدث عن نفسك » بل « إحترم نفسك . . . وستكون على العموم شخصية ممتازة » [١٠٢] .

ثم استعاد إهتمامه بالحياة حين وجد قبولا فى بيوت سراة الهولنديين . فكان فى زيه الآن « القرمز والذهب ، . . . والجوارب الحريرية البيضاء ، والخفان الجميلان . . . ومنديل برشلونى ، وعلبة أنيقة لخلة الأسنان » [١٠٣] وعلق قلبه بإيزابيللا فان تويل ، التى كان المعجبون بها يلقبونها « حسناء زويان » و« زليدة » أيضاً ، وقد نوهنا من قبل عنها واحدة من نساء كثيرات لامعات فى هولنده ذلك الجيل . ولكنها عزفت عن الزواج ، وأقنع بوزويل نفسه بأنه قد رفضها . ثم جرب حظه مع مدام جيلفنك ، الأرملة الحسناء ، ولكنه الفاها « لذيذة حصناء » [١٠٤] . وأخيراً « صممت على القيام برحلة إلى أمستردام واصطياد فتاه » . فلما أن بلغها « ذهبت إلى ماخور . . . وآذى شعورى أن أجدنى فى مهاوى الفجور الوضيع » وفى الغد « ذهبت إلى كنيسة اوستمعت إلى عظة حسنة . . . ثم تجولت مخترقاً المواخير الحقيرة فى أزقة قذرة » [١٠٥] . واستعاد « كرامة الطبيعة الإنسانية » حين تسلم من صديق خطاب تقديم إلى فولتير .

وكان قد وفى بوعده لأبيه بأنه سيدرس بجد فى أوترخت ؛ لذلك تلقى منه الإذن والمال للرحلة الكبرى المألوفة التى يتوج بها الجنتلمان الانجليزى

الشاب تعليمه . فودع زليدة ، وبالطبع كان فى عينيها دموع الحب ، وفى ١٨ يونيو ١٧٦٤ عبر الحدود إلى ألمانيا . وظل قرابة عامين بعدها يراسلها ويبادلها الثناء والنقد . وكتب من برلين فى ٩ يوليو يقول :

« بما أننا قد رفعنا الكلفة فيما بيننا تماماً يا زليده ، فيجب على أن أقول لك ان فى قدراً من الغرور . . . يكفى لتخيلى أنك كنت حقاً تحبيننى . . . وان فى من الأريحيه ما يسمح لى بتجنب خديعتك . . . فلست أود الزواج منك لأكون مالكاً . . . فلا بد لزوجتى من أن تكون شخصية مناقضة تماماً لعزيزتى زليده ، إلا فى الحب ، والأمانة ، ولطف الطبع »[١٠٦] .

ولم تجب . فعاود الكتابة فى ١ أكتوبر ، مؤكداً لها أنها تحبه ؛ ولم تجب ، فعاود الكتابة مرة أخرى فى ٢٥ ديسمبر .

« أيتها الآنسة ، إننى رجل متكبر ، وسأظل كذلك أبدا . وينبغى أن تفخرى بتعلقى بك . ولست أعلم إن كان ينبغى أن أكون فخوراً بالمثل بتعلقك بى . ان الرجال الذين يملكون قلوباً وعقولا مثلى نادرون ، أما المرأة الكثيرة المواهب فليست بهذه الندرة . . . وقد تستطعين أن توافينى بتفسير لمسلكك معى » [١٠٧] .

أما ردها فيستحق أن يفرد له مكان فى تاريخ المرأة . قالت :

« تلقيت رسالتك بفرح وقرأتها بشعور العرفان . . . وكل تعبيرات الصداقة تلك ، وكل تلك الوعود بالود الأبدى وبالذكرى الرقيقة أبدا ، والتى خلصت إليها (من كلامها السابق له) ، يعترف بها قلبى ويجددها فى هذه اللحظة . . . وقد واصلت تكرار القول . . . بأننى كنت عاشقة لك . . . وأنت تصر على أن أعترف بهذا . وقد صممت على أن تسمعنى أقوله وأردده . وأننى لأجد هذا نزوة فى غاية الغرابة من رجل لا يحبنى ويراه لزاماً عليه (بدافع اللياقة) أن يقول لى هذا بأصرح العبارات وأقواها . . . وقد صدمنى وأحزننى أن أجد ، فى صديق كنت أتصوره رجلا صغير السن موفور التمييز ، الغرور المراهق الذى يتصف به أحمق مأفون .

« يا عزيزى بوزويل ، لست مسئولة إطلاقاً عن أنه لم يحدث فى أى لحظة أن اضطرم فى صدرك حديثى أو لهجتى أو نظرتى . فإذا كان هذا قد حدث ، فانسه . . . ولكن لا تنسى ذكرى الأحاديث الكثيرة التى تبادلناها حين كان كلانا خلى البال كصاحبه : فكنت أنا مغتبطة جداً بتوهمى فى غرور أنك متعلق بى ، وكنت أنت سعيداً بالمثل بأن تعدنى صديقة — وكأن المرأة الكثيرة المواهب شىء نادر . . أقول احتفظ بهذه الذكرى ، وثق بأن لك حنانى ، وتقديرى ، بل أقول واحترامى ، على الدوام » [١٠٨] .

وقد أدبت بوزويل هذه الرسالة تأديباً عابراً ، فلزم الصمت عاماً . ثم كتب (١٦ يناير ١٧٦٦) من مارس إلى والد زليدة يطلب يدها « ألا يكون مؤسفاً ألا يتحقق ارتباط سعيد كهذا ؟ » [١٠٩] . ورد الوالد بأن زليدة تنظر فى عرض آخر . وبعد عام أرسل إليها بوزويل عرضاً مباشراً . فأجابت ، قرأت عبارات إعزازك المتأخرة بسرور ، وبابتسامة . حسناً ، إذن فقد أحببتنى مرة » [١١٠] — ثم رفضت عرضه .

وبينما كانت لعبة المراسلة هذه دائرة كان بوزويل قد جرب الكثير من الأقطار والنساء . ففى برلين شهد فردريك على ساحة العرض ، ولكنه لم يره أقرب من ذلك . وصحب إلى فراشه بائعة شوكولاته حبلى بدت له مرفأ سليماً . وفى ليبزج التقى بجيابرت وجوتشيد ، وفى درسدن زار « قاعة الصور الفخمة التى قيل لى إنها ارفع مثيلاتها فى أوربا » [١١١] . ثم هبط إلى سويسره بطريق فرانكفورت وماينز وكارلسروهى وستراسبورج . وقد رافقناه من قبل فى زيارته لروسو وفولتير . فى تلك الأيام المجيدة أخمدت هالة العبقرية وحمى الشهرة شهوة الشباب .

وفى أول يناير ١٧٦٥ غادر جنيف ليعبر الألب . وأنفق تسعة شهور مبهجة فى إيطاليا ، ورأى كل مدينة كبيرة ، وذاق طعم الأنثى فى كل وقفه ، وفى روما سعى للقاء فنكلمان ، ولثم قدم البابا فى خفها ، وصلى فى كتدرائية القديس بطرس ، والتقط عدوى مرضه المعضل من جديد . وارتقى فيزوف مع جون ولكس . وفى البندقية قاسم اللورد مونتستيوارت (بن ابرل بيوت)

محظيته ، وجدد إصابته بمرضه القديم . وخلال شهر قضاه فى سيينا تودد إلى يورتسيا سانسدونى ، خليلة صديقه مونتستيورات ، وحثها على ألا تسمح لأى عاطفة وفاء بأن تعترض كرمها ، لأن « سيدى اللورد فى فطرته مالايجعل الوفاء خلة يقدر على التحلى بها أو يتوقعها منك » (١١٢) .

على أن جانبه الأنبل تجلى فى مأثرته التالية . فقد استقل مركباً من ليفورنو إلى كورسيكا (١١ أكتوبر ١٧٦٥) . وكان باولى قد حرر الجزيرة من سلطان جنوه فى ١٧٥٧ وله ثمانى سنوات فى حكم الدولة الجديدة . والتقى به بوزويل فى سوللاكارو ، وقدم إليه رسالة تعريف من روسو . وقد ظن به التجسس أول الأمر « ولكنى سمحت لنفسى بأن أطلعه على مذكرة كتبتها فى المزايا التى تحققها بريطانيا العظمى من تحالف تبرمه مع كورسيكا » ، وبعدها كان يتغذى بانتظام مع الجنرال (١١٣) . وقد دون الكثير من الملاحظات التى أفادته بعد ذلك فى كتابه « وصف كورسيكا » (١٧٦٨) . وغادر الجزيرة فى ٢٠ نوفبر ، وسافر فى محاذاة الرفيرا إلى مارسليا ، وهناك وافاه « قواد طويل القامة مهذب » بفتاة « أمينة ، مأمونة ، نزيهة » (١١٤) .

وفى اكس — أن — بروفانس بدأ يوافى « اللندن كرونكل » بفقرات أنباء تنشر فى طبعات متلاحقة ابتداء من ٧ يناير ١٧٦٦ ، أعلمت الجمهور البريطانى بأن جيمس بوزويل يمد انجلتره بمعلومات مباشرة عن كورسيكا فلما وصل إلى باريس (١٢ يناير) أتاه نبأ من أبيه بأن أمه ماتت . وقد تكفل بمصاحبة صديقة روسو ، تريز لفاسير ، إلى لندن ؛ وقد أسلمت نفسها له فى الطريق ان كان لنا أن نصدق روايته . وتلبث فى لندن ثلاثة أسابيع . ورأى جونسن فى مناسبات عدة ، وأخيراً مثل أمام أبيه فى ادنبره (٧ مارس ١٧٦٦) . وكانت فترة السنوات الثلاث والشهور الأربعة التى قضاها فى الاستقلال والرحلة قد أعانت على إنضاجه . صحيح أنها لم تضعف من شهوته أو من غروره ، ولكنها وسعت معارفه وأفقه ، وأعطته اتزاناً وثقة بالنفس جديدين ، وأصبح الآن يلقب « بوزويل الكورسيكى » ، رجلا تغذى مع باولى ، عاكفاً على تأليف كتاب قد يدفع بانجلتره إلى مد يد العون إلى ذلك المحرر وجعل الجزيرة حصناً بريطانياً فى بحر استراتيجى ،

٢ — بوزويل فى وطنه

فى ٢٩ يوليو ١٧٦٦ رخص له بالاشتغال بالمحاماة فى اسكتلنده ، وتركزت إقامته طوال السنين العشرين التالية فى ادنبره ، وتخلل ذلك غزوات كثيرة للندن ، وواحدة لدبلن . وربما أعانه منصب أبيه قاضياً ، ولكن اعانته أيضاً سرعة بديهته فى النقاش ، فكثر زبائنه ، و « ربح خمسة وتسعين جنيهاً » فى أول شتاء ترافع فيه أمام المحاكم [(١١٥)] . وخالط السخاء المفرط تقديره لنفسه ، فكان يدافع عن أفقر المجرمين ، ويبدد بلاغته المنمقة على أشخاص إجرامهم واضح ، ويخسر معظم قضاياه ، وينفق كل أتعابه على الشراب ، ذلك بأنه بعد تلك الشهور المشمسة التى قضاها فى إيطاليا أحس بشتاء اسكتلنده يفرى عظمه ، ولم يبد أن هناك دواء لهذا البرد إلا الكحول .

ثم إنه واصل تشرده الجنسى . فاتخذ له خليلة تدعى المسز دوررز ، واستكمالا لخدماتها « كنت أنام الليل كله مع . . . فتاة من عرض الطريق » وسرعان ما « اكتشفت أنى ابتليت بعدوى المرض » [(١١٦)] وبعد ثلاثة أشهر ، وفى دوار الخمر ، « ذهبت إلى ماخور ، وأنفقت ليلة كاملة بين ذراعى بغى . . . وكانت فتاة رائعة ، قوية ، مرحة ، بغياً جديرة ببوزويل ، ان كان لابد لبوزويل من بغى » [(١١٧)] وأصابته عدوى أخرى . وكان واضحاً أن الزواج هو السبيل الأوحد لإنقاذه من التدهور البدنى والأخلاقى . فتودد إلى كاترين بلير ، ولكنها رفضته . ثم وقع فى غرام مارى آن بويد ، وكانت صبية إرلندية لها جسم إغريقى وأب غنى . وتبعها إلى دبلن (مارس ١٧٦٩) ، وفقد غرامه فى الطريق ، وسكر ، وألم ببغى ارلندية ، وأصيب مرة أخرى بمرض سرى [(١١٨)] .

وفى فبراير ١٧٦٨ دفع إلى المطبعة بمخطوط « تاريخ لكورسيكا ، يوميات رحلة إلى تلك الجزيرة ، ومذكرات باسكال باولى » ، وأثارت خيال إنجلترة،ناشدته بريطانيا لمديد المعونة لباولى ،وأعدت الرأى العام للموافقة على الإجراء الذى اتخذته الحكومة البريطانية بعد ذلك لإرسال السلاح والمؤن سراً إلى الكورسيكيين . وبيع من الكتاب عشرة آلاف نسخة فى انجلترة ، وترجم

إلى أربع لغات ، وأكسب بوزويل من الصيت الذائع فى القارة ما لم يظفر به جونسن . وفى ٧ سبتمبر ١٧٦٩ ظهر المؤلف فى مهرجان شكسبير بستراتفورد مرتدياً زى زعيم قبيلة كورسيكى ، وعلى قبعته كتبت عبارة «بوزويل الكورسيكى» ، وكان هذا لحفلة رقص تنكرية ، لذلك لم يكن يستحق تماماً ما لقى من هزء وسخرية .

وكانت ابنة خاله مرجريت مونجومرى قد صحبته إلى ارلنده ، واحتملت فى وداعة مغازلاته وعربدته الإرلندية . وكانت تكبره بسنتين ، ولم يكن فى مهرها البالغ ١٠٠٠ جنيه ما يجعلها زوجة كفؤاً لوريث أو خنلك (كما أكد بوزويل الأب) ، ولكن حين تأمل محبتها الصابرة لاح له أنها امرأة صالحة ستكون زوجة صالحة ، ثم ان اشتهاره بالفسق والسكر حد مجال اختياره . وكان القاضى نفسه يفكر فى الزواج ، مما يضع زوجة أب بين الوالد والولد ، وقد يبدد شطراً من التركة . والتمس بوزويل من أبيه ألا يتزوج ، ولكن الأب أصر ، فتشاجرا ، وفكر بوزويل فى الذهاب إلى أمريكا ، وفى ٢٠ يوليو ١٧٦٩ كتب إلى « بجى » مونجومرى يعرض عليها الزواج والذهاب معه إلى أمريكا والعيش على جنيهاته المائة فى العام وعلى فائدة جنيهاتها الألف . وأنذرها بأنه عرضة لنوبات من الاكتئاب . وردها (٢٢ يوليو) جدير بالتنويه :

« أنعمت التفكير ، كما أردت ، وأنا . . . أقبل شروطك . . . أن ج . ب . بجنيهاته المائة فى العام هو فى نظرى غالى القيمة تماماً كما لوكنت أملك ضيعة أو خنلك . . . ولما كنت خلواً من الطمع ، فإنني أوثر السعادة الحقة على مظهرها الفخم . . . فثق يا عزيزى جيمى أن لك صديقة على استعداد لبذل كل شىء فى سبيلك ، صديقة لم تشته قط الثروة إلا لتمنحها للرجل الذى ملك قلبها » (١١٩) .

وفى ١٩ نوفمبر تزوج الأب ، وفى ٢٥ نوفمبر تزوج الإبن . وأقام الزوجان الشابان بيتاً خاصاً بهما ، وفى ١٧٧١ استأجرا شقة من ديفد هيوم . وكافح جيمس للإقلاع عن السكر ، وجد فى عمله محامياً ، وسعد بالأطفال

الذين ولدتهم له زوجته . ويبدو أنها صدت تودده الزوجى خلال الشهور الأخيرة من حملها المتكرر ، ففى ٢٧ أكتوبر ١٧٧٢ ذهب إلى مومسى بعد أن « أفرط فى شرب النبيذ »[١٢٠] . وقد التمس لنفسه العذر بحجة أن التسرى أجازته التوراة . ثم عاد إلى الشراب ، وأضاف إليه القمار . جاء فى يومياته بتاريخ ٥ أكتوبر ١٧٧٤ « شربت حتى ثملت » وفى ٣ نوفمبر « شرب كثيرون منا من الغداء حتى العاشرة ليلا » وفى ٤ نوفمبر « ثملت جداً . . . وقعت على الأرض بعد عنف كثير » وفى ٨ نوفمبر « سكران مرة أخرى » وفى ٩ نوفمبر « كنت مريضاً جداً ، ولم أستطع مغادرة الفراش حتى الساعة الثانية تقريباً » وفى ٢٤ ديسمبر : « كنت سكران جداً . . . مكثت أكثر من ساعة مع مومسين فى مسكنها على سلم قذر ضيق فى حى البو . ووجدت طريقى إلى بيتى حوالى الثانية عشرة . لقد سقطت »[١٢١] . وغفرت له زوجته ، وبذلت له العناية فى أمراضه .

وكان لشربه الخمر أسباب كثيرة : كثرة قضاياه الخاسرة فى المحاماة ، والعنت الذى لقيه فى علاقته بأبيه ، وخزيه من خيانته الزوجية وشعوره بأنه لم يحقق أحلام عزوره ، واشمئزازه من الحياة فى اسكتلنده . وألف أن يهرب إلى لندن كل سنة تقريباً ، من جهة ليترافع فى قضايا له هناك ، ومن جهة أخرى ليستمتع بحديث جونسن ، ورينولدز ، وجاريك ، وبيرك . وفى ١٧٧٣ سمح له بالانضمام إلى « النادى » . وفى خريف ذلك العام جاب شوارع إدنبره فى فخر وإلى جواره الدكتور جونسن ، توطئة لرحلتهما إلى جزر الهبريد .

وظل فى رحلاته اللندنية هذه أول الأمر وفياً لزوجته ، وكان يكتب إليها فى شغف ، ولكن ما وافى عام ١٧٧٥ حتى كان قد استأنف إيثاره للعربدة الجنسية . وقد اشتد انشغاله بها حوالى نهاية مارس ١٧٧٦ يقول « فلما نزلت إلى الشارع ركبتنى شهوة الفسق ، ففكرت فى أن أخصص لها ليلة » . ولكن التخصيص امتد عدة ليال . « فكرت فى زوجتى الغالية بأعظم احترام وأحر محبة ، ولكن ساورتنى فكرة مشوشة بأن اتصالى الجسدى بالعاهرات لايمس حتى لها بسوء »[١٢٢] . ورده إلى رشاده مرض سرى جديد .

وقد جرت عليه هذه المغامرات ، و تبعيته لجونسن ، تعليقات ملؤها الازدراء من رجال كهوراس ولبول ، ونقداً لاذعاً (بعد موته) من ماكولى [١٢٣] ، ولكنها لم تتركه بغير صديق . « ان اتصافى بالكفاءة وكثرة المعارف يجعل الناس مغرمين بكسب مودتى » [١٢٤] وكان أكثر اللندنيين يوافقون بوزويل على أنه ليس لامرأة الحق فى رجل بأكمله . وإذا كان رجال كجونسن ورينولدز قد أحبوه ، وإذا كانت بيوت لندنية كثيرة قد فتحت له أبوابها ، فلا بد أنه كان يملك الكثير من السجايا المحببة . وقد عرف هؤلاء الرجال ذوو البصيرة الثاقبة أنه كان يتنقل من امرأة لأخرى ، ومن فكرة لفكرة ، تنقل المسافر المستعجل ، يخدش سطوحاً كثيرة دون أن ينفذ إلى لباب الأشياء ، ودون أن يشعر قط بالروح المرضوضة وراء لحم الضحية . وقد عرف هو أيضاً هذه الحقيقة فقال « ان لى فى الحق عقلا صغيراً مع كل كبريائى ، وما أشبه المعيتى بالوشى على الشاش » [١٢٥] . « ان فى أفكارى كلها نقصاً ، وسطحية . ولست أفهم شيئاً بوضوح ، وإلى القاع . فأنا ألتقط الشظايا ، ولكنى لست أملك فى ذاكرتى كتلة كاملة ذات كبر أيا كان » [١٢٦] .

ولكن تلك الشظايا وتلك الذاكرة ، هى التى كفرت عنه ، فقد عوض عن عيوبه بعبادته لذلك التفوق ، الذى لم يستطع تحقيقه لنفسه ، فى الآخرين ؛ بملازمتهم فى تواضع ، يتذكر كلماتهم وأفعالهم ، وأخيراً ، وببراعة عظيمة ، بوصفها فى ترتيب وفى ضوء ألفا صورة لاتبارى لرجل ولعصر . ليت القناع لا يمزق عنا إبدا — عن أجسادنا وعقولنا ، عن شهواتنا الدفينة وغرورنا الذى لاينى — مثل ما أمعن هذا الرجل ، نصف التابع الخانع نصف العبقرى ، فى الكشف عن نفسه للأجيال القادمة .

* * *

الفصل الثانى والثلاثون

المسرح الأدبى

١٧٥٦ – ٨٩

١ – الصحافة

كان فى الخلفية جرائد ، ومجلات ، وناشرون ، ومكتبات متنقلة ، ومسارح ، كلها تتكاثر فى اندفاع ، وتنقل صراعات الأحزاب والمواهب إلى جمهور لايفتأ يتعاظم . وقد ولدت الآن عدة مجلات : « المجلة الأدبية» ، و « مجلة النقد » فى ١٧٥٦ ، و « الدفتر العام » فى ١٧٦٠ . وبدأت صحيفة جونسن « الرامبلر» (الجوال) فى ١٧٥٠ ، وكانت « مجلة الجنتلمان » التى أطعمت جونسن فى سنوات كفاحه قد بدأت فى ١٧٣١ ، وقدر لها أن تعمر حتى ١٩٢٢ . وضاعفت جرائد لندن عددها ومجموع توزيعها فى هذه الفترة. وبدأت « المونيتر (المرشد) فى ١٧٥٥ ، و « النورث بريتن» فى ١٧٦١ ، والمورننج كرونكل فى ١٧٦٩ ، والمورننج هرلد فى ١٧٨٠ ،والديلى يونفبرسل رجستر فى ١٧٨٥ ، التى أصبحت التيمز فى ١٧٨٨ . ووقعت صحيفة « البيلك أدفرتايزر» على منجم ذهب بنشرها رسائل جونيوس « فارتفع توزيعها من ٤٧,٥٠٠ إلى ٨٤,٠٠٠ . وكانت معظم الصحف اليومية الأخرى تعيش على عدد ضئيل من القراء ؛ من ذلك أن توزيع التيمز فى ١٧٩٥ لم يزد على ٤,٨٠٠ . وكانت أكثر تواضعاً فى الحجم منها فى الكلام . فهى تصدر عادة فى أربع صفحات ، تفرد إحداها للإعلانات . وقد ظن جونسن فى ١٧٥٩ أن الإعلان فى الصحف قد بلغ حده النهائى .

« لقد زادت الإعلانات الآن زيادة جعلتها تقرأ باهمال شديد ، فأصبح من الضرورى لفت النظر بالوعود البراقة ، وبالبلاغة التى تكون أحياناً رائعة وأحياناً مثيرة للشفقة . فتاجر سائل التجميل مثلا يبيع غسولا يزعم أنه يمنع البثور ، ويزيل النمش ، ويطرى الجلد ، ويربل اللحم . . . وقد بلغت حرفة الإعلان الآن من الكمال ما لا يسهل معه اقتراح أى تحسين عليها ، ولكن بما أن كل فن ينبغى أن يمارس بالخضوع الواجب للصالح العام ، فلست أملك إلا أن أطرح الأمر على هؤلاء المتحكمين فى سمع الشعب بوصفه سؤالا أخلاقياً ، وهو : ألا يتلاعبون أحياناً بعواطفنا تلاعباً فيه الكثير من العبث والاستهتار ؟[1] .

وظل الطباعون والكتبيون والناشرون مختلطين اختلاطاً كبيراً فى حرفة واحدة . من ذلك أن روبرت ددسلى كان قد نشر أعمال بوب وتشسترفيلد ، فطبع الآن لولبول وجولدسمث . وكان لتوماس ديفز مكتبة يقبل المشترون عليها ، ويسمح فيها لهم بالتنقيب على مهل ؛ وقد ألف جونسن وغيره الاختلاف إليها لتصفح الكتب و « البصبصة » لزوجة الرجل الجميلة » وظفر وليم ستراهان بالشهرة بنشره قاموس جونسن ، وكتاب آدم سمث « ثروة الأمم » ، وكتاب جبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » ، وقد نشر الكتابان الأخيران فى « سنة العجائب» ١٧٧٦ . وأسست أكسفورد مطبعة كلارندن فى ١٧٨٠ . وكان الكتبيون ينقدون المؤلفين أجوراً طيبة عن الكتب الجيدة . ولكن كان فى استطاعتهم استخدام الكتاب المأجورين لإعداد المقالات والمصنفات لقاء أجور حقيرة . يقول كتبى فى قصة هنرى بروك « الأحمق الوجيه » (١٧٦٦) « فى استطاعتى تكاليف أحد هؤلاء السادة . . . الذين أنفق على تعليم الواحد منهم من المال أكثر . . . مما يعول أسرة كريمة إلى آخر الدهر — أستطيع تكاليف أحدهم بالكد كأنه حصان جر من الصباح إلى المساء لقاء أجر أقل مما استأجر به . . . حمالا أو ماسح أحذية ثلاث ساعات »[2] . وتكاثر المؤلفون حتى تشبعت بهم السوق ، واقتتلوا باستماته فى سبيل أجر ضئيل هزيل ، وتهاجوا بأقلام تنفث السم الزعاف . وأضافت النساء إلى المنافسة : المسز آنا باربولد ، وساره

فيلدنج ، والمسز أميليا أو باى ، والمسز اليزابث انتشبولد ، والمسز اليزابث مونتجيو ، وفانى بيرنى ، وهانا مور . ودخل قسيس ريفى فى المباراه وخرج منها بقصب السبق .

٢ — لورنس ستيرن

ولم يكن بالقسيس المطبوع ، فأبوه جندى ، وقد ظل عشر سنين يجر من وظيفة إلى أخرى ، وخلال هذه الفترة وبعدها التقط من العلم بالشئون العسكرية مامكنه من أن يجعل « العم طوبى » يتكلم على الحصارات والحصون كلام قائد محنك . أما أمه فقد وصفها بعد ذلك بأنها « ابنة بدال فقير يتبع المعسكر فى فلندر »[٣] . على أن جده الأعلى كان رئيس أساقفة يورك ، وقد وفقت أسرة ستيرن فى الحصول على منحة دراسية للورنس ألحقته بكمبردج . وهناك نال درجته الجامعية فى ١٧٣٧ ، ولكن نزيفاً رئوياً أصابه فى ١٧٣٦ أنذر بكفاح يخوضه مدى الحياه مع داء السل . ورسم قسيساً انجليكانياً (١٧٣٨) ، وعين فى ابرشية متواضعة فى ساتون — ان — ذ فورست ، قرب يورك . وفى ١٧٤١ تزوج اليزابث لملى ، وأخذها لتعيش معه فى بيته الحرب . وقد عهدت إليه بإيرادها السنوى البالغ أربعين جنيهاً . فاستثمر بعضه فى أرض ، ونما الإيراد .

وكانا فيما عدا هذا بائسين . فكلاهما مصاب بالسل ، وكلاهما خلق من أعصاب . وسرعان ما خلصت المسز ستيرن إلى أن « أوسع بيت فى انجلتره لا يمكن أن يضمهما معاً لكثرة هياجهما ونزاعهما »[٤] . وقد وصفتها ابنة عمها المثقفة اليزابث مونتجيو بأنها قنفذ نكد شكس « لا يستطيع المرء أن يتفادى الشجار معها إلا بالابتعاد عنها »[٥] ثم رزقا طفلين ، مات أحدهما ، أما الطفلة الثانية وهى ليديا فقد تعلقت بأمها تعلقاً واضحاً . وزادت تعاستهما حين جاءت إلى يورك أم ستيرن وأخته . وكانتا تعيشان فى فقر فى ارلنده ، والتمستا منه أن يعينهما بثمانية جنيهات فى العام من دخل زوجته . ولم تثر الفكرة أى حماسة . وأعطى ستيرن أمه بعض المال ورجاها أن تعود إلى ارلنده ، ولكنها ظلت فى يورك ، فلما قبض عليها بتهمة التشرد رفض ستيرن أن يدفع كفالة للإفراج عنها .

وبعد ثمانية عشر عاماً من الزواج المضنى أحس القسيس أن أى إنسان مسيحى حقاً سيسمح له بشىء من الزنا . وقد وقع فى غرام كاترين فورمانتيل، وأقسم لها قائلا « أحبك حب الجنون ، وسأظل أحبك إلى الأبد »[٦] . واتهمته زوجته بالخيانة ، فأنكر التهمة ، وأشرفت هى على الجنون حتى عهد بها وبليديا إلى رعاية « طبيب للمجانين » ، وواصل علاقته الغرامية .

وفى غمرة هذه الضجة كتب واحداً من أشهر الكتب فى الأدب الانجليزى . وقد رجاه أصدقاؤه الذين قرءوا طرفاً من مخطوطة الكتاب أن يحذف منه « التوريات النابية التى قد تكون مؤذية بحق ، خصوصاً لصدورها من قسيس» فحذف نحو ١٥٠ صفحة وهو آسف . ثم أرسل الباقى إلى المطبعة غفلا من اسمه ، ونشر الكتاب فى يناير ١٧٦٠ بهذا العنوان ، « حياة السيد ترسترام شاندى وآراؤه » . وقد بقى فى المجلدين من الفضائح والفكاهة الغريبة الطريفة ما جعلها الحدث الأدبى الهام لذلك العام فى لندن . وتردد صدى هذه الضجة فى فرنيه النائية ، فقال فولتير « كتاب مستهتر جداً ، وكتاب أصيل ، إنهم مجنونون به فى انجلترة »[٧] . وقال فيه هيوم « أنه خير ما كتب بقلم أى انجليزى فى هذه السنين الثلاثين رغم ما فيه من سوء »[٨] . وبيع مائتا نسخة من الكتاب فى بحر يومين فى يورك ، حيث كان اسم المؤلف الحقيقى سراً مذاعاً وحيث تبين القراء الكثير من الأشخاص المحليين فى شخوص القصة الكبار .

ومن العسير أن نصف الكتاب ، إذ ليس له شكل أو موضوع ، ولا رأس ولا ذيل . وعنوانه خدعة ، لأن « السيد » الذى يروى القصة ، والذى أزمعت أن تعرض « حياته وآراءه » لا يولد إلا فى صفحة ٢٠٩ من المجلد الرابع (من الطبعة الأصلية ذات المجلدات التسعة) . ومادة القصة هى ما حدث ، أو ما قيل ، بينما كان يحبل به ، وبينما كان ينمو على مهل فى بطن أمه . والصفحة الأولى هى خير الصفحات .

« وددت لو أن أبى أو أمى ، أو كليهما حقاً ، إذ أنهما كانا معاً ملزمين بالأمر الواجب على السواء ، أقول وددت لو أنهما فكرا فيما هما فاعلان حين أنجبانى ، فهل نظرا كما ينبغى أن ينظرا كم من الأمور يتوقف على

ما هما صانعان ، وأن المسألة لا تتصل بإنجاب كائن عاقل فحسب ، بل ربما اتخذ التكوين السليم لبدنه ، ومزاج هذا البدن ، ونبوغه وطبيعة ذهنه ذاتها ، ربما اتخذت هذه كلها طابعها من الأمزجة والميول الغالبة عليهما آنذاك ، ... ولو أنهما وزنا هذا كله وفكرا فيه كما ينبغي ، ثم تصرفا طبقاً لهذا ، لكنت يقيناً قد انبعثت إلى العالم شخصاً مختلفاً كل الاختلاف . قالت أمي « من فضلك يا عزيزى ، ألم تنس أن تملأ المنبه ؟ » — وصاح أبي . . . « رباه ! أهناك امرأة منذ خلق الله الدنيا تقاطع رجلا بسؤال غبي كهذا ؟ » .

ومن ذلك الحادث فصاعدا يتألف الكتاب من الاستطرادات . ذلك أن ستيرن لم يكن لديه حكاية يرويها ، ومن باب أولى حكاية الغرام التي هي مدار أكثر القصص ، إنما كانت رغبته أن يسلي نفسه وقراءه بالحديث الهوائي عن كل شيء ، ولكن دون نظام ؛ فكان يثب حول مشكلات الحياة جليلها وحقيرها وثب جواد مرح لعوب في حقل . وبعد أن كتب أربعة وستين فصلا خطر له أنه لم يكتب لكتابه مقدمة ، فأدخل المقدمة عند تلك النقطة ، وأتاح له هذا أن يسخر من نقاده . ووصف منهجه بأنه « أكثر المناهج تقوى ، لأنني أبدأ بكتابة الجملة الأولى ، ثم أتكل في مجيء الثانية على الإله القدير »[٩] وعلى التداعي الطليق في الباقي . ومن قبله صنع رابليه ما يشبه هذا ، وترك سرفانتس روزنانتي يقوده من حادث إلى حادث ، وجاب روبرث بيرتن العالم قبل تشريحه للاكتئاب ، أما ستيرن فقد رفع توافه الأمور إلى مقام المنهج ، وحرر جميع الروائيين من الحاجة إلى موضوع أو خطة .

ولقد أبهج طبقات بريطانيا ذات الفراغ أن ترى مقدار الضجة التي يمكن إثارتها حول لاشيء ، وكيف أن في الإمكان تأليف كتاب بالانجليزية الأنجلوا — سكسونية في عصر جونسن . أما البريطانيون الأشداء فقد رحبوا بالطرافة المرحة التي وجدوها في قسيس يتحدث عن الجنس وانتفاخ البطن ، والشق الذي في سروال العم طوبي . وفي مارس ١٧٦٠ ذهب ستيرن إلى لندن ليرشف رحيق نجاحه ، وأسعده أن يجد أن المجادين قد نفدا ، [illegible] أخذ

٦٣٠ جنيهاً نظيرهما ونظير مجلدين آخرين قادمين . لا بل ان « مواعظ مستر يوريك » التي نشرت بعد « تراسترام » بأربعة أشهر حظيت ببيع سريع حين عرف أن يوريك هو ستيرن . وأقبلت الدعوات على المؤلف من تشستر فيلد ، ورينولدز ، وروكنجهام ، لا بل من الأسقف واربرتن ، الذى فاجأه بخمسين جنيهاً انجليزياً ، ربما تفادياً من أن يزين الأسقف صفحة لاذعة الهجاء في مجلدات قادمة . واشترى ستيرن عربة وزوجين من الخيل ، وركبها في انتصار مرح عائداً إلى يورك ، حيث وعظ في كنيستها الكبرى . ثم رقى إلى قسوسية أكثر ثراء في كوكسولد ، على خمسة عشر ميلا من يورك ، فأخذ زوجته وابنته لتعيشا معه هناك ، وهناك كتب المجلدين الثالث والرابع من « ترتسترام » في يسر غير معقول .

وفي ديسمبر من ذلك العام ١٧٦٠ ذهب إلى لندن ليتابع طبع المجلدين . ووصل ترسترام الآن إلى رحلة الولادة بالجفت ، الأمر الذى شوه أنفه ، وعليه انطلق المؤلف في حديث مستفيض عن فلسفة الأنوف بأسلوب أكثر العلماء تفقهاً . فقال أحد الثقات إن أنف الطفل تحدده نعومة الثدى الذى يرضعه أو صلابته : « فالأنف حين يغوص فيه . . . كما يغوص في قطعة زبد كبيرة يرتاح ويتغذى ويسمن وينتعش ويحيا »(١٠) .

وبعد قضاء نصف عام في لندن عاد ستيرن إلى زوجته التي أخبرته أنها كانت أسعد حالا بدونه . فانطوى على مخطوطته ، وكتب المجلدين الخامس والسادس ، وفي هذين كاد ترسترام ينسى ، وشغل المسرح العم طوبي والجاويش تريم بذكرياتهما عن الحرب وقلاعهما اللعب . وفي نوفبر ١٧٦١ انطلق القسيس مرة أخرى إلى لندن ، في آخر يوم من العام شهد صدور المجلدين الخامس والسادس . وقد حظيا باستقبال حسن . وراح يغازل المسز البزابث فيزى ، إحدى النساء المثقفات ، وأقسم ليضحين بآخر مزقة من قسوسيته لقاء لمسة من يدها الملائكية !(١١) ثم أصيب بنزف رئوى ، وهرب إلى جنوبي فرنسا . وتلبث في باريس زمناً كفى لحضوره بعض حفلات العشاء في « مجمع الملحدين » الذى تزعمه دولباخ ، حيث استهوى ديدرو استهواء لم يفارقه . ولما سمع ستيرن أن زوجته مريضة ، وأن ليديا مصابة

بالربو ، دعاهما للحاق به فى فرنسا . واستقر ثلاثتهما قرب تولوز (يوليو ١٧٦٢) .

وفى مارس ١٧٦٤ ترك زوجته وابنته بموافقتهما وعاد إلى باريس ولندن وكوكسولد . وكتب الجزئين السابع والثامن من « ترسترام » ، وتسلم مقدما أتعابهما ، وأرسل جزءاً من الحصيلة لمسز ستيرن . وصدر الجزءان الجديدان فى يوليو ١٧٦٥ ، فلم يظفرا إلا بثناء متضائل ، ذلك أن النغمة الشانديه — الطربية أخذت تضعف . وفى أكتوبر بدأ ستيرن رحلة فى إيطاليا وفرنسا استغرقت ثمانية أشهر . وفى عودته للشمال انضم إلى أسرته فى برجنديه ، وطلبت الأسرة البقاء فى فرنسا ، فدفع نفقاتها وقفل إلى كوكسولد (يوليو ١٧٦٦) . وكتب الجزء التاسع فيما بين نوبات نزيفه ، وذهب إلى لندن ليشهد مولده (يناير ١٧٦٧)، واستمتع بالضجة التى أثارها طوافه حول حافة الجنس فى وصفه تودد العم طوبى لمسز ودمن . وكتب القراء المروعون إلى الصحف وإلى رئيس أساقفة يورك يطالبون بشلح هذا القسيس الفاجر وطرده ، ولكنه رفض أن يفعل . وجمع ستيرن خلال ذلك اكتتابات بلغت جملتها ١,٠٥٠ جنيهاً فى كتاب موعود سماه « رحلة عاطفية » وأرسل مزيداً من المال لزوجته وتودد إلى اليزابث دراير .

وكانت زوجة موظف فى شركة الهند الشرقية آنئذ (مارس ١٧٦٧) معين فى الهند . تزوجته وهى فى الرابعة عشرة ، وهو فى الرابعة والثلاثين . وأرسل إليها ستيرن كتبه ، واعتزم أن يتبعها بيده وقلبه . وظلا فترة يلتقيان كل يوم ، ويتبادلان الرسائل الرقيقة . والرسائل العشر المسماه « رسائل إلى إليز » تفضح عن الغرام الحزين الأخير يضطرب فى جوانح رجل يموت بالسل . « صحيح أننى فى الخامسة والتسعين بنية » ، وأنت لا تتجاوزين الخامسة والعشرين ، . . . ولكن ما أفتقده صبى سأعوضه فكاهة ومرحا . فما أحب سويفت حبيبته ستيلا ، ولا سكارون حبيبته مانتنون ، ولا وولر حبيبته ساكاريسا ، كما سأحبك وأتغنى بك ، يازوجتى المختارة !» — ذلك أن « زوجتى لا يمكن أن تعيش طويلا »[١٢]. وبعد عشر دقائق من إرسال هذا الخطاب أصابه نزف شديد ، وظل ينزف الدم حتى الرابعة صباحاً .

وفى ابريل ١٧٦٧ أبحرت المسز درايبر إلى الهند استجابة لدعوة زوجها . وظل ستيرن من ١٣ ابريل إلى ٤ أغسطس يدون « يومية لاليزا » وهى « مذكرات يومية بالمشاعر التعسة التى يحس بها شخص افترق عن سيدة يذوب شوقاً إلى لقائها » . « إنى أقبلك على أى شروط تعرضينها يا اليزا ! سوف أكون . . . منصفاً جداً ، وعطوفاً جداً نحوك ، ولن أكون بعد اليوم مستأهلا للتعاسة »[١٣] . وفى يومية ٢١ ابريل : « نزفت اثنتى عشرة أوقية من الدم » . وأخبره طبيب أنه مصاب بالزهرى ، فاعترض قائلا ان هذا « محال . . . ، لأننى لم أباشر الجنس أيا كان اطلاقه — حتى مع زوجتى ، . . . طوال هذه السنين الخمس عشرة » . « وقال الطبيب : لن نتجادل فى الأمر ، ولكن لابد لك من أخذ علاج بالزئبق »[١٤] . وأيد أطباء آخرون هذا التشخيص ، وأكد له أحدهم أن « لوثات الدم تظل كامنة عشرين عاماً » . فأذعن مؤكداً عفته .

وما وافى شهر يونيو حتى تماثل للشفاء وعاد إلى كوكسولد . وبينما كان يكتب « الرحلة العاطفية » أصيب بمزيد من نوبات النزف ، وأدرك أنه لن يمهل فى الأجل طويلا . فذهب إلى لندن ، وشهد صدور كتيبه (فبراير ١٧٦٨) ، واستمتع لآخر مرة بصحبة أصدقائه التى لم تفتر . وكما أن « ترسترام » ذكر القراء برابليه ، فكذلك عكس الكتاب الجديد التأثير المتصاعد لرتشردسن وروسو . غير أن فضيلة ستيرن كانت أقل مناعة من فضيلة رتشردسن ، ودموعه أقل حرارة وإخلاصاً من دموع روسو . ولعل هذا الكتاب ، وكتاب مكنزى « رجل الوجدان » (١٧٧١) ، هما اللذان أذاعا كلمتى « عاطفة Sentiment » و « عاطفى Sentimental » فى المجتمع الانجليزى . وقال بايرون ان ستيرن « يؤثر البكاء على حمار ميت على التخفيف عن أم حية »[١٥] .

وبينما كان ستيرن يستمتع بانتصاره الأخير فى لندن أصيب بنزلة برد تفاقمت حتى أصبحت التهاباً بليورياً . فكتب إلى سيدة تدعى المسز جيمس رسالة محزنة يطلب إليها أن ترعى ليديا ان توفيت زوجته . ووافته المنية فى ١٨ مارس ١٧٦٨ ، فى فندق بأولد بوند ستريت دون أن يكون إلى جواره صديق ، غير متجاوز الثانية والأربعين . وكان فيه إثارة من المشعوذ ، وقد

جعل من نفسه « مهرجاً للناظرين » ، ولكن فى استطاعتنا أن نفهم حساسيته للنساء ، والتوتر الذى فرضه زواج تعس على رجل أوتى هذه الأحاسيس المرهفة والصنعة الرقيقة . لقد قاسى كثيراً ، وأعطى كثيراً ، وكتب كتاباً من أغرب الكتب فى تاريخ الأدب قاطبة .

٣ — فانى بيرنى

وقد نافست امرأة النجاح الذى أحرزه فى ميدان القصص منافسة قصيرة الأمد . ولدت فى ١٧٥٢ لأب يدعى تشارلز بيرنى أصبح فيما بعد مؤرخاً للموسيقى . وقد ربيت على الموسيقى أكثر من الأدب ، فكانت لا تعرف القراءة حتى بلغت الثامنة[١٦] ، وماكان لأحد أن يحلم بأنها ستصبح كاتبة . وماتت أم فرانسس وهى فى التاسعة . ولما كان أغلب الموسيقيين الذين يعزفون فى لندن يختلفون إلى بيت أبيها ويجتذبون إليه شطراً كبيراً من صفوة المثقفين ، فإن فانى اكتسبت تعليمها بالاستماع إلى الكلام والموسيقى . واكتمل نضجها ببطء ، وكانت خجولا يعوزها الجمال ، واستغرقت أربعين سنة لتعثر على زوج ؛ وحين نشرت روايتها الشهيرة (يناير ١٧٧٨) كانت فى الخامسة والعشرين ، وبلغ من خشيتها أن تغضب الرواية أباها أنها أخفت نسبتها لها . وأحدثت الرواية ضجة ، واسمها « إفلينا ، أو دخول شابة إلى العالم » وأثار اغفال اسم المؤلف فضول الناس ، وأذاعت الشائعات أن كاتبتها فتاة فى السابعة عشرة . أما جونسن الذى أثنت عليه المقدمة فقد امتدح الرواية وزكاها للدكتور بيرنى . وشكت المسز تريل من فرط قصر الرواية . فلما علمت بالسر ذاع فى طول لندن وعرضها ، وأصبحت فانى شخصية بارزة فى المجتمع ، وقرأ الجميع كتابها ، وكان « أبى العطوف الصادق المحبة سعيداً جداً بسعادتى »[١٧] .

وسر فنها هذا الوصف — الذى أعانته ذاكرة متلبثة وخيال حى — للصورة التى تراءى بها المجتمع اللندنى لفتاة يتيمة فى السابعة عشرة رباها قسيس ريفى لا يمت بشبه قريب ولا بعيد للورنس ستيرن . وما من شك فى أن فانى هى أيضاً قد إنتشت بتمثيل جاريك ، وشعرت كما كتبت افلينا للوصى

عليها » يا له من أداء طبيعي ! وما أشد حيوية أسلوبه ! وأرشق حركاته ! وما أعجب ما تضطرم به عيناه من نار ومعنى ! . . . وحين رقص ، أواه لكم حسدت كلارند ا ! كدت أتمنى أن أثب إلى خشبة المسرح وأشاركهما الرقص [١٨] . أما لندن التي سئمت رذائلها فأحست أنها تتطهر بتلك الريح القوية التي تهب عليها من هذه الصفحات الشابة .

وقد ماتت تلك القصة التي حظيت بصيت ذائع يوماً ما ، ولكن اليومية التي دونتها فاني مازالت جزءاً حياً من الأدب والتاريخ الانجليزيين ، لأنها تتيح لنا نظرة عن كثب لمشاهير القوم من جونسون وجورج الثالث إلى هيرشل ونابليون . وقد عينت الملكة شارلوت الآنسة بيرني أمينة على ملابسها (١٧٨٦) ، وكانت فاني تلبس جلالتها وتخلع عنها ملابسها طوال السنوات الخمس التالية . ولكن الحياة المتكلفة الضيقة التي عاشتها المؤلفة كادت تخنقها ، وأخيراً أنقذها أصدقاؤها ، ففي ١٧٩٣ ، بعد أن ذوى شبابها ، تزوجت مهاجراً فرنسياً مفلساً هو الجنرال داربليه . وقد عالته بمؤلفاتها ودخلها ، وظلت عشر سنين تعيش معه في فرنسا بعيدة عن الأضواء يعزلها عن المجتمع عنف حروب الثورة وحروب نابليون . وفي ١٨١٤ سمح لها بأن تعود إلى انجلترا وتنال بركة أبيها لآخر مرة قبل موته في الثامنة والثمانين. وقد عمرت هي نفسها لهذه السن ، حتى أدركت عالماً مختلفاً كل الاختلاف ، عالماً لم يدرك أن جين أوستن الذائعة الصيت (التي ماتت ١٨١٧) إنما استلهمت الروايات المنسية التي ألفتها سيدة منسية ظلت حية ترزق حتى سنة ١٨٤٠ .

٤ — هوراس ولبول

قال « هذه الدنيا ملهاة لمن يفكرون ، ومأساة لمن يشعرون » [١٩] لذلك تعلم أن يبتسم للحياة ، بل أن يداعب نقرسه . وقد أرخ لجيله ، ولكنه غسل يديه منه . كان ابنا لرئيس وزارة ، ولكن السياسة لم تلذه . وكان يعشق النساء ، من فاني بيرني إلى أرقى الغراندوقات ، ولكنه أبى أن يكون له زوجة منهن ، ولا خليلة (على قدر علمنا) . درس الفلسفة ولكن كان رأيه

فى الفلاسفة أنهم لعنة القرن ومصدر ازعاجه . كاتبة وحيدة فقط أعجب بها إعجاباً بغير تحفظ لسلوكها المهذب وفنها الذى لا تكلف فيه — وتلك هى مدام دسفينييه ، وهى وحدها التى حاول محاكاتها ؛ وإذا كانت رسائله لم تظفر بفتنتها ورشاقتها ومرحها ، فإنها غدت أكثر كثيراً من رسائلها تاريخاً يومياً حياً للعصر الذى كتبت فيه ؛ ومع أنه سماها حوليات مستشفى المجاذيب[٢٠] ، فإنه كتبها بعناية ، أملا فى أن يمنحه بعضها ركناً فى ذاكرة الناس ؛ ولا غرو ، فحتى الفيلسوف الذى راض نفسه على الفناء يشق عليه الرضى بالنسيان .

وكان هوراشيو (وهو اسمه الذى عمد به فى ١٧١٧) أصغر أبناء خمسة ولدوا للسر روبرت ولبول ، رئيس الوزارة الشجاع الذى ضحى بسمعته لأنه آثر السلام على الحرب ، ولكنه لم يكد يؤذيها بإيثاره الزنا على الاكتفاء بزوجة واحدة[٢١] . ولعل المتقولين نسبوا هوراس حيناً لأب آخر انتقاماً لزوجته الأولى ، وهو كار ، لورد هرفى ، أخو الرجل المخنث جون ، لورد هرفى الإكورثى — الذى اتهم السر روبرت بمحاولة اغواء الليدى هرفى[٢٢] . وفى هذه المسائل من التعقيد مالا يسمح بإصدار الحكم عليها فى الحاضر ، وحسبنا أن نقول ان هوراس نشىء دون أن يرميه أقاربه بنسب منحرف . وقد عامله رئيس الوزراء بما يعامل به الرجل المشغول ولده من عدم المبالاه ، أما أمه فقد « دللته » (كما يروى) بـ « ولع شديد »[٢٣] وكان صبياً رائع الحسن ، يلبس لباس الأمراء ، ولكنه كان هشاً خجولا ، حساساً كأنه بنت . وحين ماتت أمه (١٧٣٧) خشى كثيرون أن يموت الفتى ذوالعشرين ربيعاً حزناً عليها . وسرى عنه السر روبرت بوظائف حكومية شرفية تفى بنفقات ولده على الثياب الفاخرة ، والعيش الأنيق ، ومجموعة التحف الغالية وأضمر هوراس الخصومة لأبيه إلى آخر حياته ، ولكنه كان يدافع عن سياسته دائماً .

وحين بلغ العاشرة أرسل إلى إيتن حيث تعلم اللاتينية والفرنسية وصادق الشاعر جراى . وفى السابعة عشرة التحق بكنجز كولدج بكمبردج ، وهناك تعلم الإيطالية وتشرب الربوبية من كونيرز مدلتن . وفى الثانية والعشرين

انطلق مع جراى فى رحلة يجوبان فيها إيطاليا وفرنسا دون أن ينال درجة جامعية. وبعد أن طوفا قليلا استقرا خمسة عشر شهراً فى فيلا بفلورنسه ضيفين على القائم بالأعمال البريطانى السير هوراس مان . ولم يلتق ولبول ومان بعدها قط ، ولكنهما ظلا يتراسلان طوال الخمس والأربعين السنة التالية (١٧٤١ — ٨٥) . وفى ريدجو اميليا تشاجر جراى وولبول ، لأن هوراس كان قد دفع كل نفقات إقامتهما ، ولم يستطع الشاعر أن يغتفر مظاهر الاحترام الشديد التى كان يختص بها ابن الرجل الذى يحكم انجلتره . ولام هوراس نفسه على هذا الوضع وهو يستحضر تلك الفترة «كنت صغيراً جداً ، شديد الولع بملاهىّ . . . شديد الانتشاء بالتدليل ، والغرور ، وغطرسة منصبى . . بحيث تعذر على الاهتمام والإحساس بمشاعر شخص حسبته أدنى منى مقاما ، شخص يخجلنى أن أقول إننى كنت أعرف أنه مدين لى بالفضل»[٢٤]. وافترقا ، وكاد ولبول يموت من الندم أو من التهاب اللوزتين المتقيح ، ورتب رحلة العودة لجراى . ثم تصالحا فى ١٧٤٥ ، وطبعت معظم قصائد جراى فى مطبعة ولبول بستروزى هل . وجلس ولبول فى هذه الفترة إلى الرسامة روزالبا كاريرا لتصوره فى لوحة جميلة بالباستل .

وقبل أن يصل ولبون إلى انجلتره (١٢ سبتمبر ١٧٤١) كان قد أنتخب عضواً فى البرلمان ، وهناك ألقى خطاباً متواضعاً لم يجد فتيلا ضد المعارضة التى كانت جادة فى إنهاء عهد وزارة أبيه الطويل الرخى . وظل يعاد إنتخابه بانتظام حتى ١٧٦٧ حين انسحب مختاراً من ميدان السياسة النشيطة . وكان بوجه عام يؤيد برنامج الهوجز التحررى : يقاوم توسيع السلطة الملكية ، ويوصى بحل وسط مع ولكس ، ويندد بالرق (١٧٥٠) قبل أن يولد ولبرفورس بتسع سنين . وقد عارض فى تحرير الكاثوليك الانجليز سياسياً بحجة أن « البابويين والحرية نقيضان »[٢٥]. ورفض حجة الأمريكيين ضد قانون الدمغة[٢٦] ، ولكنه دافع عن مطالبة المستعمرات الأمريكية بالحرية ، وتنبأ بأن أوج الحضارة القادم سيكون فى أمريكا[٢٧] . وكتب (١٧٨٦) يقول « من غير ميكيافللى يستطيع الزعم بأن لنا ظل حق فى شبر من الأرض فى الهند ؟ »[٢٨] وقد أبغض الحرب ، فلما أفلح الإخوان مونجولفييه فى

الطيران بالبللون لأول مرة (١٧٨٣) تنبأ فى فزع بانتشار الحرب إلى الجو وكتب يقول «أرجو ألا تكون هذه الشهب الميكانيكية غير لعب للعلماء أو العاطلين، وألا تحول إلى آلات تدمير للنوع الإنسانى، كما هى الحال فى كثير من الأحيان فى تحسينات العلم أو كشوفه»[٢٩].

ثم قرر أن ينفق أكثر وقته فى الريف حين وجد نفسه فى الأغلب الأعم يقف مع الجانب الخاسر، وعليه ففى ١٧٤٧ استأجر خمسة أفدنة وبيتاً صغيراً قرب تويكنام. وبعد عامين اشترى هذا الملك، وحول البناء إلى الطراز القوطى الحديث — كما رأينا. فى هذه القلعة التى طبعها بطابع القصر الوسيط جمع شتى التحف المتفردة فناً أو تاريخاً، وما لبث أن استحال بيته متحفاً يحتاج إلى قائمة بمحتوياته. ووضع فى حجرة مطبعة، طبع فيها أربعة وثلاثين كتاباً بما فيها كتبه طباعة أنيقة. وقد طلع على القراء — من ستروبرى فى أكثر الأحايين — بخطاباته الباقية إلى اليوم وعددها ٣,٦٠١ وكان له مائة صديق، تشاجر معهم كلهم تقريباً، ثم تصالح، وكان لطيفاً بقدر ما سمح به مزاجه العصبى المرهف. وكان يخرج الخبز واللبن كل يوم للسناجيب التى تتودد إليه. وكان يرعى وظائفه الشرفية ويسعى للمزيد منها، ولكن حين فصل ابن خاله هنرى كونواى من وظيفته اقترح ولبول أن يقتسم دخله معه.

وكان فيه ألف عيب، حشدها ماكولى بتفصيل كثير فى مقال ذكى جائر: لقد كان ولبول مغروراً، نيقاً، كتوماً، هوائياً، فخوراً بأجداده، مشمئزاً من أقاربه. وكانت فكاهته تنحو إلى الهجاء المقذع. وقد حمل إلى قبره، وفى التواريخ التى كتبها، احتقاره لكل الذين شاركوا فى خلع أبيه. وكثيراً ما عنف فى تحامله، كما نرى فى أوصافه لليدى بومفريت[٣٠] أو الليدى مارى ورتلى منتجيو[٣١]. وقد نحا به جسده الهش إلى طبيعة تشبه طبيعة الهاوى السطحى. وإذا كان ديدرو، فى عبارة سانت بوف المنيرة، أكثر الفرنسيين جميعا ألمانية، فان ولبول كان أكثر الانجليز جميعاً فرنسية.

وكان صريحاً شجاعاً فى الإعراب عن ميوله وآرائه غير المألوفة؛ ففرجل فى رأيه مضجر، ومن باب أولى رتشردسن وستيرن. وقال عن

دائتى انه « مشودى فى مستشفى المجاذيب »[٣٢] وتظاهر بأنه يحتقر كل المؤلفين ، وأصر كما أصر كنجريف على أنه يكتب كما يكتب جنتلمان لمزاجه ، لا كأديب أجير يعتمد على تسويق كلامه . ومن ثم نراه يكتب لهيوم قائلا : « أنت تعلم أننا فى انجلتره نقرأ كتب المؤلفين ولكن ندر أن نعبأ بهم أو لعلنا لا نعبأ بهم اطلاقاً . ونحن نراهم قد نالوا جزاء كافياً إذا راجت كتبهم ، ثم نتركهم بالطبع لكلياتهم وانغارهم ، وبهذه الطريقة لا يزعجنا غرورهم وسلاطتهم . . . وإننى ، وأنا أحد المؤلفين ، يجب أن أعترف بأن هذا المسلك معقول جداً ، لأننا فى الحق قبيل لا نفع فيه إطلاقاً »[٣٣] .

ولكنه هو أيضاً . باعترافه — كان مؤلفاً ، مغروراً مفرط الإنتاج . وإذ أحس الضجر فى قلعته ، فقد راح ينقب فى الماضى كأنه يبغى الغوص بجذور عقله فى أغنى طبقات تربته . فوضع «كتالوجاً بمؤلفى انجلترا الملكيين والنبلاء » (١٧٥٨) — فنبلهم يغتفر لهم اشتغالهم بالتأليف ، ورجال من الطراز الأول مثل بيكن وكلارندن يمكن أن يكونوا أهلا لأن يسلكوا فى هذه الطائفة . وطبع ثلاثمائة نسخة وزع معظمها هدايا ، وغامر درسلى بطبعة من ألفى نسخة ، فبيعت بسرعة ، وجاءت لوالبول بشهرة لابد أنها جعلته ينكس رأسه خجلا . ثم ضاعف خزيه بخمسة مجلدات عن « نوادر عن التصوير فى انجلتره (١٧٦٢ — ٧١) وهى تصنيف شائق ظفر بتقريظ من جبون .

ثم ألف رواية غرامية تحت للعصر الوسيط كأنه يتخفف من هذه التآليف العلمية المجهدة ، واسم الرواية « قلعة أوترانتو » (١٧٦٤) ، وقد أصبحت أما لألف قصة تروى عجائب وأحوالا خارقة . وقد جمع بين الأسرار الغامضة والتاريخ فى « الشكوك التاريخية حول حياة الملك رتشرد الثالث وملكه » فذهب كما ذهب آخرون بعده إلى أن رتشرد قد افترت عليه الرواية المتواتره وشيكسبير ؛ وقد وصف هيوم وجبون حججه بأنها غير مقنعة ، ولكن ولبول راح يرددها حتى مماته . ثم تحول إلى أحداث عرفها

معرفة خبير ، فكتب مذكرات عن حكمى جورج الثانى وجورج الثالث ، وهى مذكرات منيرة ولكنها متحيزة ، نظر فيها إلى جيله بمنظار أسود لأنه كان حبيس تغرضاته : « وزراء غادرون ، وأدعياء للوطنية ، وبرلمانات مسايرة ، وملوك غير معصومين »[٣٤] . « أننى أرى وطنى يسير إلى الخراب ، وما من إنسان فيه من العقل ما يحمله على إنقاذه »[٣٥] وقد كتب هذا الكلام عام ١٧٦٨ ، حين كان شاتام قد خلق لتوه الامبراطورية البريطانية . وبعد أربعة عشر عاماً ، حين بدا أن الملك واللورد نورث سيد مرانها ، خلص ولبول إلى هذه النتيجة « أننا منحطون انحطاطاً تاماً فى كل ناحية ، وهذا فى ظنى حال كل الدول المتهاوية »[٣٦] وبعد جيل هزمت الجزيرة الصغيرة نابليون . وقد بدا النوع الإنسانى كله لولبول معرض وحوش « فيه حيوانات قميئة ، قصيرة الأجل . . . مضحكة »[٣٧] ولم يجد فى الدين أى عزاء . وقد أيد الكنيسة الرسمية لأنها تساند الحكومة التى تدفع له رواتبه الشرفية. ولكنه لم يخف أنه ملحد[٣٨] « بدأت أرى أن الحماقة مادة ، ولا يمكن تدميرها . فإذا قضيت على شكلها ، اتخذت شكلا آخر »(٣٩) .

وظن حيناً أن فى استطاعته العثور على شىء يحفزه فى فرنسا (سبتمبر ١٧٦٥) . وفتحت له كل الأبواب ، فرحبت به مدام دودفان بديلا عن دالامبير . وكانت فى الثامنة والستين ، وولبول فى الثامنة والأربعين ، ولكن فارق السن اختفى حين التقت روحاهما المتقاربتان فى تبادل رقيق لليأس ، وسرها أن تجد ولبول موافقاً على معظم ما قاله فولتير ، ولكنه يود لو أحرق حياً ليمنعه من قوله ، لأنه كان يرتعد فرقاً حين يفكر فيما يحيق بحكومات أوربا إذا انهارت المسيحية . وقد انتقص من قدر فولتير ، ولكنه سخر من روسو . وهذه الرحلة إلى باريس هى التى كتب فيها الخطاب الذى زعم أن كاتبه هو فردريك الأكبر ، يدعو روسو للذهاب إلى برلين والاستمتاع بالمزيد من الاضطهادات . « لقد انتشرت النسخ كأنها الحريق ، وهأنذا أصبحت موضة سرت فى المجتمع »[٤٠] وقد خاف هيوم شخصية تهافتت عليها الصالونات . وتعلم أن يحب إثارة باريس المرحة القاسية ، ولكن كان عزاء له أن يجد « الفرنسيين أحقر منا نحن (الانجليز) عشر مرات »[٤١] .

وبعد أن عاد إلى وطنه (فى ابريل ١٧٦٦) بدأ تراسله الطويل مع مدام دودفان . وسنرى فيما بعد كيف أقلقه الخوف من أن تجعله محبتها له هزؤاً، ومع ذلك فأغلب الظن أن رغبته فى أن يراها من جديد هى التى حملته على العودة إلى باريس فى ١٧٦٧ و ١٧٦٩ و ١٧٧١ و ١٧٧٥ . وقد أنساه حبها عمره ، غير أن موت جراى (٣٠ يوليو ١٧٧١) ذكره بفنائه هو . ولكنه أدهش نفسه بأن عمر حتى ١٧٩٧ . ولم تكن له هموم مالية ، فدخله فى ١٧٨٤ كان ٨,٠٠٠ جنيه (٢٠٠,٠٠٠ دولار ؟) فى السنة(٤٢) ، وفى ١٧٩٦ ورث لقب اللورد أكسفورد . ولكن النقرس الذى ابتلى به مذ كان فى الخامسة والعشرين ظل ينغص عليه عيشه إلى النهاية . ونقرأ أن كتلا متجمعة من « الطباشير » كانت أحياناً تتفجر من أصابعه(٤٣) . وبات هزيلا معوق الحركة فى سنواته الأخيرة ، واقتضت حالته أن يحمله الخدم أحياناً من حجرة إلى حجرة ، ولكنه واصل العمل والكتابة ، وكان الزوار إذا ألموا به يعجبون لبريق الاهتمام فى عينيه ، وليقظة مجاملاته ، ومرح حديثه ، ونشاط ذهنه وصفائه . وكان كبار القوم يلمون به كل يوم تقريباً ليروا بيته المشهور ومجموعة تحفه المتنوعة ، ومنهم هانا مور فى ١٧٨٦ ، والملكة شارلوت فى ١٧٩٥ .

ولكن رحيله عن هذه الدنيا لم يكن فى ستروبرى هل ، بل فى بيته اللندنى بميدان باركلى ، وكان ذلك فى ٢ مارس ١٧٩٧ فى عامه الثمانين . ويبدو أنه كان نادماً على احتواء مذكراته ورسائله الكثير من الفقرات اللاذعة ، لذلك أمر بأن تحبس مخطوطاته فى صندوق لا يفتح « حتى يطالب بفتحه ايرل والدجريف الأول عند بلوغه الخامسة والثلاثين »(٤٤) وعليه لاتنشر المذكرات إلا فى عام ١٨٢٢ أو بعده ، حين يكون كل الذين قد يتأذون منها قد فارقوا هذه الحياة . وقد نشرت بعض الرسائل فى ١٧٧٨ ، ومزيد منها فى ١٨١٨ و ١٨٢٠ و ١٨٤٠ و ١٨٥٧ . . . وفى العالم القارىء بالانجليزية طولا وعرضا رجال ونساء قرأوا كل كلمة وردت فى تلك الرسائل ، وهم يقدرونها فيما يقدرون من أبهج ما خلفه القرن المنير من تراث .

٥ — إدورد جبون

كتب ولبول لأحد كبار المؤرخين ، وهو روبرتسن ، يقول « ان المؤرخين المجيدين أندر الكتاب أجمعين ، ولا غرابة فى هذا ! فالأسلوب الجيد ليس بالأمر الشائع جداً ، وأندر منه الإحاطة الدقيقة الشاملة بالحقائق ، فإذا اجتمع هذان ، فيا لها من صدفة ان أضيفت إليهما النزاهة والحياد ! »(٤٥) ولم يتوفر فى جبون الشرط الأخير تماماً ، ولكن هذا يقال أيضاً عن تاسيتوس ، وهو وحده الذى يمكن أن يقف معه على قدم المساواة بين أساطين المؤرخين .

أ — اعداده

كتب جبون ، أو بدأ كتابه ، ست سير ذاتيه ، أدمجها منفذ وصيته الأدبى ، وهو ايرل شفيلد الأول ، فى « مذكرات . (١٧٩٦) جيدة الحبك ، منقاة دون موجب ، وتعرف أحياناً باسم « السيرة الذاتية » . كذلك كان جبون يدون يومية ، بدأها فى ١٧٦١ وواصل تدوينها تحت عناوين مختلفة حتى ١٨ يناير ١٧٦٣ . وقد حكم العارفون على هذه المصادر الأولى لنشأته بأنها صحيحة إلى حد معقول ، إلا فيما يتصل بنسبه .

وقد أنفق ثمانى صفحات يفصل القول فى كرم محتده ، وقد أخذه عنه النسابون القساة (٤٦) . فجده إدورد جبون الأول كان أحد مديرى شركة البحار الجنوبية الذين قبض عليهم بتهمة الانحراف بعد أن تفجرت تلك « الفقاعة » (١٧٢١) . وصودرت كل ثروته التى قدرها بمبلغ ١٠٦,٥٤٣ جنيه ، فيما عدا ١٠,٠٠٠ جنيه . ويروى لنا المؤرخ أن على هذه البقية الباقية « بنى صرح ثروة جديدة . . . لا تقل كثيراً عن الأولى »(٤٧) ولم يكن موافقاً على زواج ابنه ادورد الثانى ، ومن ثم أوصى بمعظم ثروته لبنتيه كاترين وهستر وتزوجت بنت كاترين بإدورد اليوت ، الذى اشترى فيما بعد كرسياً فى البرلمان لإدورد جبون الثالث ، أما هستر فأصبحت تابعة غنية من أتباع وليم لو(٤٨) ، وغاظت ابن أخيها ردحاً طويلا بموتها البطىء . وقد تعلم ادورد الثانى على يد لو ، وأكمل تعليمه فى مدرسة ونشستر وفى كمبردج ، وتزوج

جوديت بورتن ، ورزق منها سبعة أطفال ، لم يجز سن الطفولة منهم غير إدورد الثالث .

وقد ولد فى بتن بإقليم صرى فى ٨ مايو ١٧٣٧ . وماتت أمه فى ١٧٤٧ بسبب حملها السابع ، فانتقل الأب إلى ضيعة فى الريف ببيتوريتن فى هامبشير ، على ثمانية وخمسين ميلا من لندن ، تاركاً الصبى فى رعاية خاله ببيت جده فى بتنى . هناك أكثر دارس المستقبل الانتفاع بالمكتبة الحافلة بالكتب . وقد قطعت أمراضه المتكررة تقدمه فى مدرسة ونشستر ، ولكنه كان يشغل أيام نقاهته بالقراءة النهمة وأكثرها فى التاريخ ، خصوصاً تاريخ الشرق الأدنى « ولم يلبث محمد (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون أن استرعوا انتباهى ، وأسلمنى كتاب إلى كتاب حتى طفت بكل تاريخ المشرق . وقبل أن أبلغ السادسة عشرة كنت قد أتيت على كل ماكتب بالإنجليزية عن العرب والفرس ، والتتار والترك »[٤٩] . ومن هنا هذه الفصول الرائعة عن محمد (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين ، والاستيلاء على القسطنطينية .

يروى أنه حين أرسل إلى كلية مجدلين بأكسفورد وهو فى الخامسة عشرة « وصلت إليها بذخيرة من المعرفة الواسعة قد تحير فقيهاً ، وبدرجة من الجهل يندى لها جبين تلميذ » وكان فيه من الهزال ما يمنعه من الانخراط فى الألعاب الرياضية ، ومن الحياء ما يصده عن الاختلاط الطبيعى بغيره من الطلاب . وكان من الجائز أن يكون تلميذاً نابغة لوقيض له معلم كفء : ولكنه على ماكان به من شغف بالتعليم افتقد الأستاذ الشغوف بالتعليم ، وكان أكثر المعلمين يسمحون لتلاميذهم بحضور المحاضرات أو التخلف عنها ، وبإنفاق نصف وقتهم فى « اغراءات البطالة »[٥٠] ومن ثم أغضوا عن « انحرافاته السلوكية ، والمعاشرات الردئية ، والسهر ، والإنفاق الطائش » ، وحتى الرحلات الترفيهية إلى باث أولندن . على أنه « كان فى من الحداثة والحياء ما يمنعنى من الاستمتاع بحانات كوفنت جاردن ومواخيرها كما يستمتع بها الكثير من طلاب اكسفورد حين يلمون بلندن »[٥١] .

وكان أساتذة الكلية كلهم من رجال الدين ، يعلمون ويسلمون بمواد

الكنيسة الانجلكانية التسع والثلاثين . وكان جبون ذا نزعة قتالية ، كثير السؤال لمعلميه . ولاح له أن الكتاب المقدس والتاريخ يبرران الكنيسة الكاثوليكية فى دعواها بالأصل الإلهى . وحصل له أحد معارفه على بعض الكتب المقاقة ، وأهمها كتاب بوسويه « عرض للعقيدة الكاثوليكية وتاريخ المذاهب البروتستنتية » ، هذه « حققت هدايتى ، ولا شك أننى وقعت فى يد نبيلة »[٥٢] . وباندفاع الشباب اعترف على كاهن كاثوليكى ، وقبل عضواً فى كنيسة روما (٨ يونيو ١٧٥٣) .

وأحاط أباه علماً بالأمر ، ولم يدهشه أنه دعى للعودة إلى وطنه ، لأن أكسفورد لم تكن تقبل الطلاب الكاثوليك ، وكان دخول بروتستنتى فى المذهب الكاثوليكى الرومانى — طبقاً لما يقول بلاكستون بعد « خيانة عظمى » . وما أسرع ما نفى الأب المروع الفتى إلى لوزان ، ورتب أن يقيم مع راع كلفنى . هناك عاش إدورد أولا فى حالة من العناد المتجهم . ولكن المسيو بافيار كان رجلا عطوفاً وأن أعوزه التسامح الدينى ، فاستشعر الصبى المحبة له فى بطء . ثم ان الراعى كان دارساً كلاسيكياً قديراً . وتعلم جبون أن يقرأ الفرنسية ويكتبها بطلاقة كالإنجليزية ، واكتسب معرفة طيبة باللاتينية . ولم يلبث أن استقبلته الأسر المثقفة التى كانت طباعها وحديثها تعليماً يفضل ما لقنته أكسفورد من قبل .

فلما تحسنت فرنسيته أحس نسائم العقلانية الفرنسية تهب على لوزان . واختلف بابتهاج إلى التمثيليات التى قدمها فولتير فى مونريون القريبة منه وهو بعد فى العشرين (١٧٥٧) . « وكنت أحياناً أتعشى مع الممثلين »[٥٣] . والتقى بفولتير ، وبدأ يقرأ فولتير ، وقرأ كتاب فولتير الحديث « مقال فى التاريخ العام » (مقال فى الأعراف) . وأكب على كتاب مونتسكيو « روح القوانين » (١٧٤٨) وأصبح كتاب « تأملات فى أسباب عظمة الرومان وتدهورهم » (١٧٣٤) نقطة الانطلاق لكتاب جبون « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » . أيا كان الأمر ، فإن تأثير الفلاسفة الفرنسيين ، فضلا عن قراءته لهيوم والربوبيين الانجليز ، قوضاً مسيحية جبون وكاثوليكيته

على السواء ، وأبطل قبول جبون للتنوير سرّ الانتصار الذى أحرزه بافيار للإصلاح البروتستنتى .

ولابد أن روحه انتشت حين التقى فى العام نفسه (١٧٥٧) بكل من فولتير وسوزان كورشو ، وكانت فى العشرين ، شقراء ، حسناء ، مرحة ، تعيش مع أبويها البروتستنتيين فى كراسى ، على أربعة أميال من لوزان ، وكانت الروح القائدة فى « جماعة الربيع » — وهى لفيف من خمس عشرة شابة أو عشرين يلتقين فى بيوت بعضهن البعض ، ويغنين ، ويرقصن ، ويمثلن الكوميديات ، ويغازلن الشباب فى حكمة وتعقل . ويؤكد لنا جبون أن « عفتهن لم تلوثها قط همسة فضيحة أو شبهة » . ولندعه يروى القصة : « فى زياراتها القصيرة لبعض أقربائها فى لوزان كان ظرف الآنسة كورشو ، وجمالها ، وسعة علمها ، محل إعجاب الجميع . وقد أثار فضولى نبأ هذه العجيبة . فرأيت ، وأحببت . وجدتها مثقفة دون تنطع ، مرحة فى حديثها ، نقية فى عاطفتها ، وشيقة فى طباعها . . . وكانت ثروتها متواضعة ، ولكن أسرتها محترمة . . . وقد أذنت لى بأن أزورها مرتين أو ثلاثاً فى بيت أبيها . وأنفقت أياماً سعيدة هناك . . . وقد شجع والداها هذه الصلة تشجيعاً كريماً فأشبعت حلمى بالسعادة العظمى »[٥٤] .

ويبدو أن خطبتهما عقدت رسمياً فى نوفبر ١٧٥٧[٥٥] ، ولكن موافقة سوزان كانت مشروطة بوعد جبون بالعيش فى سويسره[٥٦] . وفى غضون هذا أمره أبوه — الواثق بأن ابنه قد غدا الآن بروتستنتياً صالحاً — بأن يعود إلى وطنه ويستمع إلى الخطط التى وضعت له . ولم يكن جبون حريصاً على العودة ، لأن أباه كان قد اتخذ زوجة ثانية ، ولكنه أطاع ، ووصل لندن فى ٥ مايو ١٧٥٨ . « وسرعان ما تبينت أن أبى يرفض هذا الزواج الغريب ، وأنى سأكون مملقاً عاجزاً إذا أبى الموافقة . وبعد كفاح أليم أذعنت لإرادة أبى : تنهدت كعاشق وأطعت كابن »[٥٧] . ثم نقل تنهده إلى سوزان برسالة كتبها فى ٢٤ أغسطس . ورتب له أبوه راتباً سنوياً قدره ٣٠٠ جنيه . وكسبت زوج أمه عرفانه بصنيعها لأنها لم تنجب ، ولم يلبث أن نمت فى

قلبه محبتها . وأنفق شطراً كبيراً من دخله على الكتب ، و «كونت بالتدريج مكتبة كبيرة منتقاة ، هي ركيزة مؤلفاتي ، وخير عزاء لي في الحياة »[٥٨] .

وكان قد بدأ مقالاً في لوزان وأتمه في بوريتون (حيث كان ينفق الصيف) وعنوان المقال « في دراسة الأدب» : ، وقد نشر بلندن في ١٧٦١ وبجنيف في ١٧٦٢ . وإذ كان مكتوباً بالفرنسية ، يتناول أول ما يتناول الأدب والفلسفة الفرنسية ، فإنه لم يثر ضجة في انجلتره ، ولكنه استقبل في القارة استقبال إنجاز ممتاز لفتى في الثانية والعشرين . وقد احتوى بعض الأفكار ذات الدلالة في كتابة التاريخ . «ان تاريخ الامبراطوريات هو تاريخ شقاء الإنسان ، وتاريخ المعرفة هو تاريخ عظمته وسعادته . . . والاعتبارات الكثيرة تجعل هذا النوع الثاني من الدراسة غالياً في عيني الفيلسوف»[٥٩] . ومن ثم « إذا لم يكن الفلاسفة دائماً مؤرخين ، فمن المرغوب فيه على الأقل أن يكون المؤرخون فلاسفة »[٦٠] ، وقد أضاف جبون في « مذكراته » هذه العبارة « منذ شبابي الباكر تاقت نفسي إلى أن أكون مؤرخاً »[٦١] . وراح يفتش عن موضوع يلائم الفلسفة والأدب كما يلائم التاريخ . أما التاريخ في القرن الثامن عشر فلم يدع أنه علم من العلوم ، لا بل انه تاق إلى أن يكون فناً . أما جبون فأحسن بأنه يريد أن يكتب التاريخ بوصه فيلسوفاً وفناناً : يعالج موضوعات واسعة في منظور واسع ، ويسبغ على فوضى المواد دلالة فلسفية وشكلا فنياً .

غير أنه دعي فجأة من الدراسة إلى العمل . ذلك أن انجلتره تعرضت غير مرة خلال حرب السنين السبع لخطر الغزو من فرنسا . واستعداداً لهذا الطارىء كون أعيان الانجليز مليشيا تذود عن البلاد خطر الغزو أو التمرد . ولم يسمح إلا لذوي الأملاك بأن يكونوا ضباطاً . وعين جبون الأب ضابطاً كبيراً والإبن ضابطاً صغيراً في يونيو ١٧٥٩ . والتحق ادورد الثالث بفرقته في يونيو ١٧٦٠ ، وبقي معها حتى ديسمبر ١٧٦٢ فترات متقطعة ، يتنقل من معسكر إلى معسكر . ولم يكن بالرجل الصالح للحياة العسكرية ، وأصابه « الملل من رفاق لم يؤتوا معرفة الدارسين ولا طباع السادة المهذبين»[٦٢] .

وفى حياته العسكرية وجد صفنه يتمدد بما فيه من سائل . « اضطررت اليوم (٦ سبتمبر ١٧٦٢) لاستشارة الجراح المستر أندروز فى أمر علة أهملتها بعض الوقت ، وهى ورم فى خصيتى اليسرى يخشى أن تكون خطيرة»[٦٣] . ففصد وأعطى مسهلا ، ولم يسفر هذا العلاج إلا عن تخفيف مؤقت . وقد قدر لهذه « العلة » أن تعذبه حتى كانت القاضية عليه .

وفى ٢٥ يناير ١٧٦٣ انطلق فى رحلة إلى القارة . وتوقف برهة فى باريس حيث التقى بدلامبير ، وديدرو ، ورينال ، وغيرهم من نجوم حركة التنوير . «كان لى مكان خلال أربعة أيام فى الأسبوع . . . على الموائد المضيافة للسيدتين جوفران وبوكاج ، وهلفتوس الذائع الصيت ، والبارون دولباخ . . . ومرقت أربعة عشر أسبوعاً دون أن أحس بها ، ولكن لو كنت غنياً غير معتمد على أبى لأطلت المكث فى باريس وربما جعلتها مستقرى»[٦٤] .

وفى مايو ١٧٦٣ وصل إلى لوزان حيث أقام قرابة عام . ورأى الآنسة كورشو ، ولكن حين وجدها موفقة فى خطبتها ، لم يحاول أن يجدد صداقته بها . ويعترف فى هذه الزورة الثانية لسويسره قائلا « ان عادات المليشيا وتمثلى بمواطنى أفضيا بى إلى شىء من الإفراط الصاخب فى الشراب ، وقبل أن أرحل كنت قد فقدت عن جدارة رأى الناس الطيب فى ، وهو الرأى الذى ظفرت به فى أيام سلوكى الأفضل »[٦٥] . وقد خسر مبالغ كبيرة فى القمار ، ولكنه واصل دراساته اعداداً لإيطاليا ، مكباً على القديم من المداليات ، والعملات ، وأدلة السياح ، والخرائط .

وفى ابريل ١٧٦٤ عبر جبال الألب . وأنفق ثلاثة أشهر فى فلورنسة ، ثم مضى إلى روما . وأرشده مغترب استكلندى بين أطلال العصر الكلاسيكى القديم « فى جهد يومى امتد ثمانية عشر أسبوعاً » . يقول « فى روما ، وفى الخامس عشر من أكتوبر ١٧٦٤ ، بينما أنا جالس مستغرقاً فى تأملاتى وسط خرائب الكابتول ، وبينما الرهبان الحفاة يرتلون صلوات العشاء فى معبد جوبتر ، خطرت لى لأول مرة فكرة الكتابة عن اضمحلال وسقوط المدينة لا الامبراطورية »[٦٦] . وانتهى به التفكير إلى أن يرى فى ذلك التفسخ المدمر

« أعظم بل ربما أرهب مشهد فى تاريخ الإنسان »[٦٧] . وبعد أن ألم بنابلى ، وبادوا ، والبندقية ، وفتشنتسا ، وفيرونا ، عاد إلى لندن بطريق تورين وليون وباريس (« أسبوعان سعيدان آخران ») (٢٥ يوليو ١٧٦٥) .

وكان يقضى معظم وقته الآن فى بوريتون ، لذلك سمح لنفسه بأن يتلهى بالبدء فى كتابة تاريخ لسويسره بالفرنسية ، فلما رأى هيوم المخطوطة فى لندن ، كتب إلى جبون (٢٤ أكتوبر ١٧٦٧) يرجوه أن يستعمل الانجليزية ويتنبأ بأن الانجليزية ستبز عما قريب الفرنسية انتشاراً ونفوذاً ، ثم نبه جبون إلى أن استعماله للفرنسية أسلمه « إلى أسلوب فيه من الشاعرية والمجاز والإسراف فى التلوين أكثر مما تسمح به لغتنا فى المؤلفات التاريخية »[٦٨]. وقد اعترف جبون بعد ذلك قائلا « ان عاداتى القديمة ... شجعتنى على أن أكتب بالفرنسية لقارة أوربا ، ولكننى أنا نفسى كنت شاعراً بأن أسلوبى ، الذى كان يعلو على النثر ويدنو عن الشعر ، قد انحدر إلى أسلوب خطابى طنان شديد الاطناب »[٦٩] .

وخلف له موت أبيه (١٠ نوفمبر ١٧٧٠) ثروة وفيرة . وفى أكتوبر ١٧٧٢ اتخذ مقامه الدائم فى لندن . « وما ان استقر بى المقام فى بيتى ومكتبى حتى اضطلعت بتأليف المجلد الأول من تاريخى »[٧٠] .

وقد سمح لنفسه بألوان كثيرة من الترفيه — أمسيات فى بيت هوايت ، واختلاف إلى « نادى » جونسن ، ورحلات إلى برايتن ، وباث ، وباريس . وفى ١٧٧٤ أنتخب عضواً فى البرلمان عن « دائرة جيب » يتحكم فيها قريب له ، وقد لزم الصمت وسط المناقشات التى دارت فى مجلس العموم . وكتب (٢٥ فبراير ١٧٧٥) يقول « مازلت صامتاً . أن الأمر أرهب مما تصورت ، وفحول الخطابة يملأوننى يأساً ، وضعافهم يملأننى رعباً »[٧١] . غير أن « الدورات الست التى قضيتها فى البرلمان كانت لى مدرسة عامتنى الحكمة المهذبة ، وهى أولى فضائل المؤرخ وألزمها »[٧٢] وحين اكتنفه الجدل حول أمريكا ، صوت بانتظام فى جانب سياسة الحكومة ، ووجه للأمة الفرنسية « مذكرة تبريرية » (١٧٧٩) بسط فيها حجج انجلتره ضد مستعمراتها

الثائرة . وقد أجيز بمقعد فى مجلس التجارة والمزارع ، أتاه بسبعمائة وخمسين جنيهاً فى السنة . واتهمه فوكس بالتكسب من ذلك الفساد السياسى الذى أوضح أنه من أسباب اضمحلال روما[٧٣] . وقال الظرفاء ان جورج الثالث اشترى جبون مخافة أن يسجل اضمحلال وسقوط الامبراطورية البريطانية [٧٤] .

ب — الكتاب

كان شغل جبون الشاغل بعد عام ١٧٧٢ كتابه فى التاريخ ، وقد وجد من العسير عليه أن يفكر جدياً فى أى شىء سواه . « لقد بذلت محاولات كثيرة قبل أن أستقر على أسلوب وسط بين سجل الأخبار الممل والعرض الخطابى البليغ . وكتبت الفصل الأول ثلاث مرات ، والثانى والثالث مرتين ، قبل أن أرضى رضاء معقولا عن وقعها »[٧٥] . لقد عقد العزم على أن يجعل كتابه التاريخى أثراً أدبياً .

وفى ١٧٧٥ عرض جبون مخطوطة الفصول الستة عشر الأول على ناشر رفضها لأنها تكلفه ثمناً غالياً يحول دون النشر . واشترك كتبيان آخران هما توماس كولدويل ووليم ستراهان فى مغامرة طبع المجلد الأول من « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها» (١٧ فبراير ١٧٧٦) . وبيعت النسخ الألف بحلول ٢٦ مارس رغم أن الكتاب سعر بجنيه انجليزى (٢٦ دولاراً) . ونفدت طبعة ثانية من ألف وخمسمائة نسخة صدرت فى ٣ يونيو بعد صدورها بثلاثة أيام . «كان كتابى على كل خوان ، وعلى كل تسريحة تقريباً»[٧٦] . وأجمعت دنيا الأدب على الثناء عليه وهى على ما عهد فيها من تحاسد وتنابذ بمزقها . وبعث وليم روبرتسن إلى المؤلف بعبارات التحية السخية ، أما هيوم فقد كتب فى هذا العام الذى مات فيه إلى المؤلف رسالة يقول جبون إنها (أجزلت له المكافأة على جهد سنين عشر[٧٧] . وصرح هوراس ولبول غداة نشر الكتاب لوليم ميسن : « ها قد صدر للتو والساعة أثر من عيون الأدب حقاً » .

وقد استهل الكتاب استهلالا منطقياً وجريئاً بثلاثة فصول عميقة فصلت

الامتداد الجغرافى والتنظيم العسكرى والبناء الاجتماعى والتكوين القانونى للامبراطورية الرومانية عند موت مرقص أوريليوس (١٨٠ م .) وفى رأى جبون أن السنين الأربع والثمانين السابقة لهذا التاريخ قد شهدت الإمبراطورية فى أوج كفاية موظفيها ورضى شعوبها .

« لو أن إنساناً طلب إليه أن يحدد فترة فى تاريخ العالم كانت فيها حال النوع الإنسانى غاية فى السعادة والرخاء ، لاختار دون تردد الفترة التى امتدت من وفاة دوميشيان (٩٦) إلى تولى كومودس (١٨٠) . فقد كان ملك الامبراطورية الرومانية الشاسع محكوماً بسلطة مطلقة ، وبهدى من الفضيلة والحكمة . وكانت الجيوش تضبطها يد أربعة أباطرة متعاقبين ، جمعت بين الحزم والرفق ، وهم حكام فرضت شخصياتهم وسلطتهم الاحترام التلقائى . وصان أشكال الإدارة المدنية فى عناية ودقة الأباطرة نيرفا ، وتراجان ، وهادريان ، والانطونيان ، هؤلاء الذين كانت صورة الحرية مبعث ابتهاج لهم ، وسرهم أن يروا أنفسهم خدام القوانين والمسئولين . . . ولقيت جهود هؤلاء الملوك خير جزاء فى فخر الفضيلة الحق ، والبهجة العميقة ، يستشعرونها حين يرون السعادة العميقة التى كانوا صناعها »[٧٨] .

غير أن جبون أدرك « تزعزع السعادة التى تعتمد بالضرورة على خلق رجل واحد . ولعل اللحظة القاضية كانت وشيكة ، حين يسىء فتى اباحى أو طاغية حسود . . استعمال السلطة المطلقة »[٧٩] . لقد كان « الأباطرة الصالحون » تنتخبهم ملكية متبنية — فكل حاكم يورث سلطانه لعضو مختار ومدرب من حاشيته . وقد سمح مرقص أوريليوس بأن يرث السلطة الإمبراطورية ابنه الحقير كومودس ، وأرخ جبون اضمحلال الإمبراطورية منذ توليه العرش .

ثم ذهب جبون إلى أن ظهور المسيحية أعان على ذلك الاضمحلال . وهنا تخلى عن اتباع رأى مونتسكيو الذى لم يقل شيئاً كهذا فى كتابه « عظمة الرومان وانحطاطهم » ، إنما اتبع فولتير ، وكان موقفه عقلانياً خالصاً ، فقد تجرد من أى ميل للنشوة الصوفية أو الإيمان المملوء بالرجاء ،

وأعرب عن رأيه فى فقرة تشم فيها نكهة فولتيرية . قال : « ان شتى أساليب العبادة السائدة فى العالم الرومانى كانت كلها فى نظر الشعب سواء فى الصدق وفى نظر الفيلسوف سواء فى الكذب ، وفى نظر الحاكم سواء فى النفع . وهكذا أثمر التسامح انسجاماً دينياً »[٨٠] ، وكان جبون يتجنب عادة أى تعبير مباشر بعدائه للمسيحية ، فقد كانت لا تزال هناك قوانين فى سجلات انجلترة التشريعية تعد هذا التعبير جريمة خطيرة . مثال ذلك « إذا أنكر شخص نشىء على الديانة المسيحية ، كتابة » ، . . . صدق المسيحية ، كان عقابه إذا عاد . . . السجن ثلاث سنوات دون قبول كفالة عنه »[٨١] . ودرءاً لهذا العناء اتخذ جبون الألماع الخفى والتهكم الشفاف عنصرين من عناصر أسلوبه . ونوه فى حرص إلى أنه لن يناقش مصادر المسيحية الأولية وفوق الطبيعية ، بل سيكتفى بمناقشة العوامل الثانوية والطبيعية فى أصل المسيحية ونموها . وأدرج فى هذه العوامل الثانوية « أخلاقيات المسيحيين الطاهرة الصارمة » فى القرن المسيحى الأول ، ولكنه أضاف عاملا آخر « غيرة المسيحيين غيرة لا مرونة فيها (ولا تسامح ان جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير) »[٨٢] ومع أنه امتدح « وحدة الجمهورية المسيحية وانضباطها » ، فإنه لاحظ أنها « شيئاً فشيئاً كونت دولة مستقلة متعاظمة فى قلب الإمبراطورية الرومانية »[٨٣] ، وقد رد بوجه عام تقدم المسيحية فى أول عهدها إلى العملية الطبيعية لا إلى المعجزة ، ونقل الظاهرة من اللاهوت إلى التاريخ .

ولكن كيف أعانت المسيحية على اضمحلال روما ؟ أولا بإضعاف إيمان الشعب بالدين الرسمى ، وبذلك قوضت أساس الدولة التى سندها ذلك الدين وقدسها . (وهذا بالطبع كان بالضبط حجة اللاهوتيين على جماعة الفلاسفة) . وارتابت الحكومة الرومانية فى المسيحيين بحجة أنهم يؤلفون جماعة سرية معادية للخدمة العسكرية ، ويصرفون الناس عن الأعمال النافعة إلى التركيز على الخلاص السماوى . (فالرهبان فى رأى جبون كانوا رجالا متبطلين استسهلوا التسول والصلاة عن العمل) . أما الملل الأخرى فكان فى الاستطاعة التسامح معها لأنها كانت متسامحة ولأنها لم تعرض وحدة الأمة للخطر ، وكان المسيحيون هم الملة الجديدة الوحيدة التى نددت بسواها

من الملل وحكمت عليها بأنها شريرة هالكة ، وتنبأت صراحة بسقوط « بابل » — أى روما[٨٤] . وقد عزا جبون قدراً كبيراً من هذا التعصب لأصل المسيحية اليهودية ، وذهب مذهب تاسيتوس فى التنديد باليهود فى نقاط شتى فى روايته . وحاول أن يفسر اضطهاد نيرون للمسيحيين على أنه فى حقيقته اضطهاد لليهود[٨٥] ، وليس لهذه النظرية اليوم مؤيد . وكان أكثر توفيقاً فى اتباع رأى فولتير فى انقاص عدد المسيحيين الذين استشهدوا على يد الحكومة الرومانية ، فلم يزيدوا فى تقديره على الألفين على الأكثر ، ووافق فولتير على أن « المسيحيين ، على مدى خلافاتهم الداخلية (منذ قسطنطين) أوقعوا بعضهم ببعض من أعمال القسوة ما هو أفدح بكثير مما لا قوة من تعصب الكفار » ، وأن « كنيسة روما دافعت بالعنف عن الإمبراطورية التى اكتسبتها بالحيلة »[٨٦] .

وقد أثار هذان الفصلان الختاميان (١٥ — ١٦) ردوداً كثيرة اتهمت جبون بعدم الدقة ، أو التحريف ، أو عدم الإخلاص . أما جبون ففى تجاهل مؤقت لنقاده سمح لنفسه بالاستمتاع بأجازة طويلة فى باريس (مايو إلى نوفمبر ١٧٧٧) . ودعته سوزان كورشو التى أصبحت زوجة جاك نكير المصرفى ووزير المالية إلى بيتهم . وكانت الآن فى وضع مريح جداً بحيث لم يسؤها ما سبق من أنه « تنهد تنهد العاشق ، وأطاع طاعة الإبن » . أما المسيو نكير ، الذى لم تخالجه الغيرة قط ، فكثيراً ما كان يترك العاشقين السابقين وحيدين ويمضى إلى عمله أو فراشه . وشكا جبون قائلا « أيمكن أن يهينانى إهانة أقسى من هذه ؟ يا لها من طمأنينة وقحة ! » أما جرمين ، ابنة سوزان ، (وهى التى أصبحت فيما بعد مدام دستال (فقد طابت لها صحبته حتى لقد جربت ألاعيبها المنفتحة عليه (وهى بعد فى الحادية عشرة) وعرضت أن تتزوجه حتى تحتفظ به فى الأسرة[٨٧] . وفى بيت نكير التقى بالإمبراطور يوزف الثانى ، وفى فرساى قدم إلى لويس السادس عشر ، الذى قيل إنه شارك فى ترجمة المجلد الأول إلى الفرنسية . واحتفى به القوم فى الصالونات لا سيما صالون المركيزة دودفان ، التى وجدته « لطيفاً مؤدباً . . . أرقى من جميع الأشخاص الذين أعيش معهم تقريباً » ، ولكنها

حكمت على أسلوبه بأنه « منمق ، خطابى » ، وأنه « يجرى على طريقة أدبائنا المعترف بهم (٨٨) . وقد رفض دعوة من بنيامين فرانكلن ، ببطاقة ذكر فيها أنه مع احترامه للمبعوث الأمريكى رجلا وفيلسوفاً ، إلا أنه لايستطيع أن يراه أمراً ينسجم مع واجبه قبل مليكه أن يدخل فى أى حديث مع رجل من الرعايا الثائرين . ورد فرانكلين بأنه يكن من الاحترام الشديد للمؤرخ ما يجعله سعيداً — أن خطر لجبون يوماً أن يتخذ من اضمحلال الإمبراطورية البريطانية وسقوطها موضوعاً للتأليف — بأن يزوده ببعض المواد المتصلة بالموضوع »(٨٩) .

فلما عاد جبون إلى لندن ، أعد رداً على نقاده — « دفاع عن بعض فقرات وردت فى الفصلين الخامس عشر والسادس عشر من تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٩) وقد تناول خصومه اللاهوتيين فى إيجاز ورفق ، ولكنه احتد قليلا فى رده على هنرى ديفز ، وهو فتى فى الحادية والعشرين كان قد اتهم جبون فى كتاب من ٢٨٤ صفحة بأخطاء سببها عدم الدقة . وقد اعترف المؤرخ ببعض الأخطاء ولكنه أنكر « تعمد التحريف ، والأخطاء الجسيمة ، والانتحالات الذليلة »(٩٠) . واستقبل هذا « الدفاع » عموماً على أنه رد موفق . وبعدها لم يرد جبون على النقد إلا عرضاً فى « المذكرات » ، ولكنه وجد مكاناً لبعض المديح الذى أسبغه على المسيحية على سبيل المصالحة فى أجزاء الكتاب التالية .

وقد ازداد تأليفه سرعة بفقده كرسيه فى البرلمان (أول سبتمبر ١٧٨٠) ، فصدر المجلدان الثانى والثالث من « التاريخ » فى أول مارس ١٧٨١ وقد استقبلا استقبالا هادئاً . ذلك أن غزوات القبائل الهمجية كانت قصة قديمة ، أما المناقشات الطويلة المتخصصة للهرطقات التى أثارت الكنيسة المسيحية فى القرنين الرابع والخامس فلم يكن فيها ما يشوق جيلا من الشكاك الدنيويين . وكان جبون قد أرسل سلفاً نسخة من المجلد الثانى إلى هوراس ولبول ، فزار الآن ولبول فى ميدان باركلى ، وأحزنه أن يقال له « إن فى الكتاب إسهاباً كثيراً عن الأريوسيين والأونوميين وأشباه البلاجيين . . . بحيث أننى أخشى

أن القليلين سيصبرون على قراءة القصة رغم أنك كتبتها كأفضل ما يمكن كتابتها » . وكتب ولبول يقول « من تلك الساعة إلى الآن لم أره قط ، مع أنه اعتاد أن يزورنى مرة أو مرتين كل أسبوع »[٩١] . وقد وافق جبون فيما بعد على رأى ولبول[٩٢] .

واستعاد المجلد الثانى الحياة حين تصدره قسطنطين . وقد فسر جبون دخوله الشهير فى المسيحية على أنه عمل من أعمال الحنكة فى فن الحكم . ذلك أن الامبراطور كان قد أدرك أن تنفيذ أحكم القوانين أمر قاصر وغير مأمون ، وأنها قلما تلهم بالفضيلة ، وليس فى قدرتها دائماً أن تكبح جماح الرذيلة » . وفى وسط فوضى الأخلاق والاقتصاد والحكم فى الإمبراطورية الممزقة ، « قد يلحظ حاكم حصيف فى سرور تقدم دين يبث بين الناس نسقاً من المبادىء الخلقية نقياً خيراً شاملا للجميع ، مكيفاً لكل واجب وكل ظرف من واجبات الحياة وظروفها ، مزكى باعتباره إرادة الإله الأعلى وفكره ، منفذاً بتكريس من الثواب أو العقاب الأبديين »[٩٣] . أى أن قسطنطين أدرك أن العون المستمد من دين فوقطبيعى هو عون عظيم القيمة للأخلاق والنظام الاجتماعى والحكومة . ثم جرى قلم جبون بمائة وخمسين صفحة بليغة محايدة عن يوليان المرتد .

وقد ختم الفصل الثامن والثلاثين والمجلد الثالث بهامش امتدح ما تحلى به جورج الثالث من « حب خالص كريم للعلم وللبشر » . وفى يونيو ١٧٨١ ، وبمساعدة اللورد نورث ، أعيد انتخاب جبون للبرلمان ، حيث استأنف تأييده للوزارة . على أن سقوط اللورد نورث (١٧٨٢) أنهى حياة مجلس التجارة وأطاح بوظيفة جبون فيه ؛ « لقد جردت من راتب مريح مقداره ٧٥٠ جنيهاً فى العام »[٩٤] . فلما شغل نورث مكاناً فى وزارة ائتلاف (١٧٨٣) ، تقدم جبون بطلب وظيفة شرفية أخرى . ولكنه لم ينلها « ماكنت لأستطيع بغير دخل إضافى أن أحتفظ طويلا أو بحكمة وتدبر بأساوب الإنفاق الذى ألفته »[٩٥] . وقدر أن فى استطاعته الاحتفاظ بذلك الأساوب فى اوزان ، حيث كان لجنيهاته الاسترلينية ضعف قوتها الشرائية فى لندن . وعليه فقد

استقال من البرلمان ، وباع كل ممتلكاته المنقولة غير الشخصية ، فيما خلا مكتبته ، وفى ١٥ سبتمبر ١٧٨٣ رحل عن لندن « بدخانها وثرائها وضوضائها» قاصداً لوزان . وهناك قاسم صديقه القديم جورج ديفردان قصراً مريحاً . وأنا أشرف على منظر مترام يجمع بين الوادى والجبل والماء ، بدلا من الإطلال على حوش مبلط مساحته اثنا عشر قدماً مربعاً »(٩٦) . ووصلته كتبه الألفان بعد أن تأخرت قليلا ، فشرع فى تأليف المجلد الرابع .

وكان قد خطط أول الأمر أن ينهى « الاضمحلال والسقوط» بفتح روما عام ٤٧٦ . ولكنه بعد أن نشر المجلد الثالث « بدأت أتوق إلى الواجب اليومى ، إلى البحث النشيط الذى يسبغ على كل كتاب قيمة ، وعلى كل تحقيق هدفاً »(٩٧) . ومن ثم استقر رأيه على أن يفسر عبارة « الإمبراطورية الرومانية » على أنها تنتظم الإمبراطورية الشرقية كما تنتظم الغربية ، وأن يواصل قصته حتى يبلغ بها تدمير الحكم البيزنطى بفتح الأتراك للقسطنطينية عام ١٤٥٣ . وهكذا أضاف ألف سنة إلى مجال دراسته ، واضطلع بمئات المواضيع الجديدة التى تتطلب البحث الشاق المضنى .

وقد احتوى المجلد الرابع على فصول رائعة عن جستنيان وبلساريوس ، وفصل عن القانون الرومانى ظفر بمديح عظيم من فقهاء القانون ، وفصل ممل عن مزيد من الحروب التى استعرت بين اللاهوتيين المسيحيين . كتب ولبول يقول : « ليت المستر جبون لم يسمع قط بالمونوفيزيين (القائلين بطبيعة المسيح الواحدة) أو النساطره أو أى من هؤلاء الحمقى ! »(٩٨) . وقد تحول جبون فى المجلد الخامس فى تخفيف واضح إلى ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) وفتح العرب للإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وأغدق على النبى والخلفاء الحربيين كل التفهم المحايد الذى خانة فى حديثه عن المسيحية . وأعطته الحروب الصليبية موضوعاً مثيراً آخر فى المجلد السادس ، وكان استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية الذروة لمؤلفه والتاج الذى تكلل عمله .

وقد لخص جهوده فى الفصل الأخير فى جملة مشهورة : « لقد وصفت

انتصار الهمجية والدين »[٩٩] . ولم ير فى العصور الوسطى غير الفجاجة والخرافة وهو ما رآه فيها فولتير ، أستاذه الذى لم يقر بفضله . وقد صور حالة الخراب التى آلت إليها روما فى ١٤٣٠ واستشهد برثاء بودجو لها إذ قال « ليت شعرى أى خطب دهى بهاء الدنيا هذا ! أشد ما انهار ، وتغير ، وشاه منظرا ! » — رأى خراب الآثار والفن الكلاسيكيين أو تهدمهما ، وساحة روما وقد حجبها نمو الحشائش واحتلتها الماشية والخنازير . واختتم جبون فى حزن بهذه العبارة « وسط خرائب الكابتول خطر لى لأول مرة خاطر القيام بهذا العمل الذى أبهج ودرب عشرين سنة من حياتى تقريباً ، عمل أسلمه فى النهاية إلى فضول جمهور القراء وصراحتهم أيا كان قصوره عن أن يدرك مرامى» . وقد استحضر فى « مذكراته » تلك الساعة ، ساعة الخلاص المفعمة بالمشاعر المتناقضة :

« فى عشية السابع والعشرين من يونيو ١٧٨٧ ، بين الحادية والثانية عشرة ، كتبت آخر السطور فى آخر صفحة ، فى ظلة صيفية فى حديقتى ، وبعد أن وضعت قلمى تجولت مرات . . . فى ممشى مغطى من أشجار السنط ، يشرف على مشهد يجمع بين الريف ، والبحيرة ، والجبال . . . ولست أريد إخفاء مشاعر الفرح التى غمرتنى لاستعادتى حريتى ، وربما لتوطيد شهرتى . ولكن سرعان ما أذلت كبريائى وأشاعت فى عقلى اكتئاباً هادئاً ، فكرة فراق فراق الأبد لرفيق قديم أنيس ، وأنه أيا كان مصير كتابى مستقبلا ، فإن حياة المؤرخ لا محالة قصيرة مزعزعة »[١٠٠] .

جـ — الرجل

وصف المسيو بافيار جبون وهو فى السادسة عشرة بأنه « جسد قصير نحيل يعلوه رأس كبير »[١٠١] . وإذ كان يكره الرياضة ويحب الطعام[١٠٢] ، فإنه سرعان ما اكتسب استدارة فى الجسم والوجه ، وأصبح له كرش محترم يعتمد على ساقين نحيلتين ، أضف إلى ذلك شعراً أحمر جعده من الجنب وعقصه من الخلف ، وقسمات ملائكية لطيفة ، وأنفاً دقيقاً ، وخدين منتفخين ، وذقناً ملغدا ، وأهم من ذلك كله جبين عريض عال يعد بـ «الجزْات

عظيمة القدر والخطر» والجلال واتساع المرمى . وكان قريباً لجونسن فى شهيته ولولبول فى نقرسه . وقد تضخم صفنه بشكل مؤلم عاماً بعد عام حتى أبرزته سراويله الضيقة بروزاً مزعجاً . ولكنه رغم معايبه كان مغروراً بمظهره ولباسه ، وصدر المجلد الثانى من كتابه بصورته التى رسمها له رينولدز . وكان يحمل علبة نشوق فى خاصرته ، وينقر عليها نقراً خفيفاً إذا احتد أو أراد أن يصغى إليه سامعه . وكان أنانياً شأن أى رجل له هدف يستغرقه . ولكنه كان صادقاً « لقد وهبت مزاجاً بشوشاً ، وحساسية معتدلة (ولكن دون اسراف فى العاطفة) وميلا فطرياً للاسترخاء »[١٠٣].

وفى ١٧٧٥ أنتخب عضواً فى « النادى » . وكان كثير التردد عليه نادر الكلام فيه ، يبغض فكرة جونسن عن الحديث . وكان جونسن يعلق على « دمامة » جبون على نحو مسموع أكثر مما ينبغى[١٠٤] ، أما جبون فكان يصف هذا « الدب الأكبر » بأنه « علام حكيم » وأنه « عدولا يغفر » ، و « عقل متعصب تعصباً أعمى وإن كان قوياً ، يتلقف أى عذر ليبغض من يخالفون عقيدته ويضطهدهم »[١٠٥] . وأما بوزويل ، الذى لم يكن يشعر بشفقة على غير المؤمنين ، فقد وصف المؤرخ بأنه « إنسان دميم مغرور مقزز» ينغص على « منتدانا الأدبى » . ومع ذلك فلا بد أن جبون كان له أصدقاء كثيرون ، لأنه وهو فى لندن كان يتناول العشاء خارج بيته كل ليلة تقريباً .

وقد قدم من لوزان إلى لندن فى أغسطس ١٧٨٧ ليشرف على طبع المجلدات الرابع والخامس والسادس ، والتى صدرت فى عيد ميلاده الحادى والخمسين فى ٨ مايو ١٧٨٨ ، وأتته بأربعة آلاف من الجنيهات ، ويعد هذا من أعلى الأتعاب المدفوعة لمؤلف فى القرن الثامن عشر . يقول « ان خاتمة مؤلفى عمت قراءتها واختلف الحكم عليها . . . ومع ذلك يبدو على الجملة أن « تاريخ الاضمحلال والسقوط قد أصل جذوره سواء فى أرض الوطن أو خارجه ، ولعل ذمه سيستمر ربما بعد مائة عام »[١٠٦] . وكان آدم سمث قد وضعه فعلا « على رأس معشر الأدباء قاطبة ، الموجودين الآن فى

أوربا »[١٠٧] . وفى ١٣ يونيو ١٧٨٨ ، خلال محاكمة هيستنجز فى وستمنستر هول ، طاب لجبون أن يسمع من شرفة الزوار شريدان يشير فى خطاب من أروع خطبه إلى « صفحات جبون الوضاءة » (Luminous) [١٠٨] . وفى رواية غير محتملة التصديق أن شريدان زعم فيما بعد أنه قال (Voluminous) أى الغزيرة الإنتاج[١٠٩] ، ولكنها صفة لا يمكن أن تنعت بها الصفحات ، والصفة الأولى هى ولا ريب اللفظ المطابق لمقتضى الحال .

وفى يوليه ١٧٨٨ قفل جبون إلى لوزان . وبعد عام مات ديفردان مخلفاً بيته لجبون ما بقى من عمر المؤرخ . هنالك عاش جبون فى رغد ، يقوم على خدمته عدة خدم ويأتيه دخل قدره ١,٢٠٠ جنيه فى العام ، وشرب النبيذ الكثير ، وزاد نقرسه ومحيط خصره ، « من ٩ فبراير إلى أول يوليو ١٧٩٠ عجزت عن التحرك من بيتى أو مقعدى »[١١٠] . وإلى هذه الحقبة تنتمى الأسطورة التى زعمت أنه جثا عند قدمى مدام كروزاز يبوح لها بحبه ، وأنها طلبت إليه أن ينهض ، وأنه لم يستطع لثقل جسمه[١١١] . والمصدر الوحيد للقصة هو مدام جفليس التى وصفها سانت — بوف بأنها « امرأة خبيثة اللسان »[١١٢] ؛ وقد رفضت ابنتها القصة وقالت أن سببها هو الخلط بين الأشخاص »[١١٣] .

ثم قطعت الثورة الفرنسية على جبون هدوءه . وترددت المشاعر الثورية فى الأقاليم السويسرية ، وجاءت الأنباء بهياج مماثل فى انجلتره . وكان لجبون كل العذر فى خوفه من أن تسقط الملكية الفرنسية ، لأنه كان يستثمر ١,٣٠٠ جنيه فى قرض للحكومة الفرنسية[١١٤] . وكان قد كتب عام ١٧٨٨ ، فى نبوءة لم يوفق فيها ، أن الملكية الفرنسية « تقف ، كما يبدو ، على أساس من صخر الزمن ، والقوة ، والرأى ، تساندها أرستقراطية ثلاثية من الكنيسة والنبلاء والبرلمانات »[١١٥] ، وقد اغتبط حين أصدر بيرك كتابه « تأملات فى الثورة فى فرنسا » (١٧٩٠) ، وكتب إلى اللورد شفيلد محذراً من أى اصلاح فى النظام السياسى البريطانى ، « لو سمحتم بأدنى تغيير وأكثره تمويهاً فى نظامنا البرلمانى لقضى عليكم »[١١٦] . وراح الآن

يتحسر على نجاح جماعة الفلاسفة فى حربهم التى شنوها على الدين ، « لقد خطر لى أحياناً أن أكتب حواراً بين الموتى ، يتبادل فيه لوسيان وارزم وفولتير الاعتراف بخطر تعريض خرافة قديمة لاحتقار الجماهير العمياء المتعصبة »(١١٧) . وحث بعض زعماء البرتغاليين على ألا يتخلوا عن ديوان التفتيش خلال هذه الأزمة التى هددت كل العروش(١١٨) .

ورحل جبون عن لوزان (٩ مايو ١٧٩٣) وأسرع بالعودة إلى انجلتره ، من جهة هرباً من جيش الثورة الفرنسى المقترب من لوزان ، ومن جهة أخرى التماساً للجراحة الانجليزية ، ولسبب قريب هو تعزية اللورد شفيلد فى وفاة زوجته ، فوجد شفيلد فى شغل بالسياسة عجل بسلواه . كتب جبون يقول « شفى المريض قبل وصول الطبيب»(١١٩) . وأذعن المؤرخ نفسه الآن لأوامر الأطباء ، لأن قيلته كانت قد بلغت من التضخم « حجم طفل صغير تقريباً . . . إننى أزحف زحفاً بشىء من الجهد وكثير من عدم اللياقة »(١٢٠) وقد صرفت إحدى الجراجات جالوناً من « السائل المائى الشفاف » من الخصية المريضة . ولكن السائل تجمع ثانية ، وأخرج بزل ثان ثلاثة أرباع الجالون ، واستشعر جبون الراحة مؤقتاً ، واستأنف الخروج للعشاء . ولكن القيلة تكونت من جديد ، وباتت الآن عفنه . وفى ١٣ يناير بزلت للمرة الثالثة . وبدا أن جبون يتماثل للشفاء سريعاً ، وسمح له الطبيب بأكل اللحم ، وأكل جبون بعض الدجاج وشرب ثلاث أكواب من النبيذ . فأصابته آلام معوية شديدة حاول كما حاول فولتير تخفيفها بتعاطى الأفيون . ولكن فى ١٦ يناير مات بالغاً السادسة والخمسين .

د — المؤرخ

لم يكن جبون ملهماً فى مرآه ولا فى خلقه ولا فى سيرته ، فعظمته كلها انسكبت فى كتابه ، فى فخامة فكرته وشجاعتها ، فى الصبر على تأليفه والتفنن فيه ، وفى الجلال الوضاء الذى كلله كله .

أجل ، لقد صدق شريدان فيما قال . فأسلوب جبون وضاء بالقدر الذى يسمح به التهكم ، وقد ألقى الضوء أينما اتجه ، اللهم إلا حين يحجب الهوى

الهوى رؤيته . وقد شكلت أسلوبه دراساته اللاتينية والفرنسية ، فرأى الألفاظ الأنجلو — سكسونية البسيطة لاتناسب وقار مذهبه فى الكتابة ، وكثيراً ماكتب كأنه خطيب يخطب ، وما أشبهه فى هذا بليفى يشحذه هجاء تاسيتوس ، وببيرك تجلوه فكاهة بسكال الذكية . كان يوازن بين جمله بمهارة المشعوذ وجذله ، ولكنه أسرف فى تكرار لعبته هذه حتى قاربت الرتابة المملة أحياناً . وإذا كان أسلوبه يبدو فخماً طناناً ، فإنه الأسلوب اللائق بترامى موضوعه وبهائه — وهو تفتت أعظم امبراطورية شهدها العالم على مدى ألف عام . ومآخذ أسلوبه العرضية تتوه وسط زحف الرواية وقوة الأحداث ، والصور والأوصاف الكاشفة ، والتلخيصات الباترة التى تجمل قرناً بأسره فى فقره ، وتزاوج بين الفلسفة والتاريخ .

ولقد شعر جبون بعد أن اضطلع بهذا المبحث المترامى أن له الحق فى تضييق حدوده ويقول « إن الحروب ، وإدارة الأمور العامة . هما موضوعا التاريخ الرئيسيان »[١٢١] ، ومن ثم أغفل تاريخ الفن والعلم والأدب ، فلم يكن لديه ما يقوله عن الكتدرائيات القوطية أو المساجد الإسلامية ، ولا عن العلم أو الفلسفة العربيين ، وقد توج بترارك ، ولكنه مر بدانتى مرور الكرام . ولم يكد يلقى بالا إلى حال الطبقات الدنيا ، أو قيام الصناعة فى القسطنطينية أو فلورنسه فى العصر الوسيط . وفقد اهتمامه بالتاريخ البيزنطى التالى لموت هرقل (٦٤١) . وفى رأى بيورى « أن جبون أخفق فى إبراز حقيقة خطيرة ، هى أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت حتى القرن الثانى عشر حصن أوربا الحصين فى وجه الشرق ، كذلك لم يقدر أهميتها فى الحفاظ على تراث المدينة الإغريقية »[١٢٢] ، غير أن جبون فى نطاق الحدود التى رسمها لنفسه بلغ العظمة بربطه النتاج بالأسباب الطبيعية ، وبتحويله ضخامة مواده إلى ترتيب مفهوم ورؤية هادية للصورة بأكملها .

لقد كان علمه واسعاً كثير التفاصيل . فحواشيه ذخيرة من المعرفة تلطفها الفكاهة الذكية ، وقد درس أعوص جوانب العالم القديم ، بما فيه من طرق وعملات وموازين ومقاييس وقوانين ، ووقع فى أخطاء صححها

المتخصصون ، ولكن بيورى هذا الذى بين مآخذه أضاف : « لو أخذنا فى الاعتبار المدى الشاسع لمؤلفه لأدهشتنا دقته »[١٢٣] ولم يستطع أن ينقب فى المصادر الأصلية غير المنشورة (كما يفعل محترفو المؤرخين ممن يقتصرون على رقعة صغيرة من الموضوع والزمان والمكان) ، ولكى يتم عمله اقتصر على المادة المطبوعة ، واعتمد بصراحة على مراجع ثانوية مثل كتاب أوكلى « تاريخ المسلمين » أو كتابى تلمون « تاريخ الأباطرة » و « التاريخ الكنسى » ؛ وبعض المراجع التى اعتمد عليها مرفوضة الآن لأنها غير موثوق بها[١٢٤] ، وقد أفصح عن مصادره فى تفصيل أمين وشكر مؤلفيها ؛ من ذلك أنه قال فى هامش حين جاوز الفترة التى تناولها تلمون : « هنا علىّ أن أستأذن إلى الأبد من ذلك المرشد الذى لا يبارى »[١٢٥] .

ترى ما النتائج التى خلص إليها جبون من دراسته للتاريخ؟ إنا نراه أحياناً يتبع جماعة الفلاسفة الفرنسيين فى قبول حقيقة التقدم : « يجوز لنا أن نرتضى النتيجة السارة التى تذهب إلى أن كل عصر فى العالم زاد ومازال يزيد من ثروة النوع الإنسانى الحقيقية ، وسعادته ، ومعارفه ، وربما فضائله »[١٢٦] ، ولكنه فى لحظات أقل اشراقاً — وربما لأنه قد اتخذ الحرب والسياسة (واللاهوت) مادة للتاريخ — حكم على التاريخ بأنه « فى الحق لايعدو كثيراً أن يكون سجلا لجرائم الإنسان وحماقاته ونكباته » *[١٢٧] ولم ير فى التاريخ قصداً مرسوماً ؛ فالأحداث ثمرة أسباب لا موجه لها ، فهى متوازى أضلاع من قوى ذات أصل مختلف ونتيجة مركبة . وفى كل هذه المشاكل من الأحداث يبدو أن الطبيعة البشرية تظل دون تغيير . ولقد ابتلى النوع الإنسانى دائماً وسيظل دائماً مبتلى ، بالقسوة والمعاناه والظلم ، لأنها هذه كلها مركبة فى طبيعة البشر» ، ان الإنسان خليق بأن يخشى من ثورات إخوانه من البشر أكثر كثيراً مما يخشى اضطرابات الطبيعة العنيفة [١٢٩] .

(*) قارن فولتير «كل التاريخ ، باختصار ؛ ليس إلا . . . مجموعة جرائم وحماقات ونكبات . . . (١٢٨) .

لقد تاقت نفس جبون وهو ربيب التنوير إلى أن يكون فيلسوفاً ، أو على الأقل أن يفلسف التاريخ . « ان العصر المستنير يطالب المؤرخ بمسحة من الفلسفة والنقد »[١٣٠] . وكان يحب أن يقطع روايته بتعليقات فلسفية . ولكنه لم يزعم أنه يرد التاريخ إلى قوانين أو يصيغ « فلسفة للتاريخ » . على أنه اتخذ له موقفاً فى بعض المسائل الأساسية : فقد قصر تأثير المناخ على العصور الأولى اتخذ له موقفاً فى بعض المسائل الأساسية : فقد قصر تأثير المناخ على العصور الأولى من المدنية ، ورفض أن يكون العرق عاملا حاسماً[١٣١] ؛ وأقر ، فى حدود بتأثير الأفذاذ من الرجال . « أن أهم المشاهد فى الحياة البشرية تتوقف على أخلاق ممثل فرد . فقد يحتد عرق فى رجل واحد فيغير مصير أمم »[١٣٢] . وحين كان فى استطاعة قريش أن تغتال محمدا (صلى الله عليه وسلم) « كان من الجائز أن يغير رمح عربى تاريخ العالم »[١٣٣] . ولو لم يهزم شارل مارتل المغاربة فى تور(٧٣٢) لاكتسح المسلمون أوربا بأسرها ، « ولكان تفسير القرآن يدرس الآن فى مدارس أكسفورد ، ولكان تلاميذها يفسرون لشعب من المختونين قدسية الوحى الذى نزل على النبى وصدقه »[١٣٤] . على أنه لابد للفرد الفذ من أن يرتكز على سند واسع إن أراد أن يحرز أقصى نفوذ على عصره . « إن النتائج التى يحققها الإقدام الشخصى ضئيلة جداً ، إلا فى الشعر أو الرومانس ، بحيث يجب أن . . . يعتمد النصر على درجة المهارة التى يستعان بها لتجميع عواطف الجماهير المشبوبة وتوجيهها لخدمة رجل فرد »[١٣٥] .

صفوة القول أن « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » يمكن على الجملة أن يعد الكتاب الأعظم للقرن الثامن عشر ، وكتاب مونتسكيو « روح القوانين » أقرب منافس له . صحيح أنه لم يكن أكثر الكتب تأثيراً ، ولم يكن يكن فى تأثيره على التاريخ قريباً لكتاب روسو « العقد الاجتماعى » أو لكتاب آدم سمث « ثروة الأمم » ، أو لكتاب كانط « نقد العقل الخالص » . ولكنا إذا نظرنا إليه بوصفه أثراً أدبياً وجدناه لا يبارى فى جيله أو نوعه . فإذا سألنا كيف أتيح لجبون أن ينتج هذه الرائعة أدركنا أن السر كان فى

ذلك الارتباط الذى تصادف أن ربط بين الطموح والمال والفراغ والكفاية ؛ ولا ندرى متى يمكن أن نتوقع تكرار هذا الارتباط ثانية . لقد قال مؤرخ آخر لروما هو بارتولد نيبور « أن كتاب جبون لن يبزه كتاب أبدا »[١٣٦] .

— ٦ — تشاترتن وكوبر

من يظن الآن أن أحب الشعراء الانجليز الأحياء إلى قلوب الناس فى عام ١٧٦٠ هو تشارلز تشرشل ؟ كان ابنا لقسيس ، وقد رسم هو نفسه قسيساً أنجليكانياً ، غير أنه هوى مباهج لندن ، وصرف زوجته ، وغرق فى الديون ، ونظم قصيدة حظيت بالشهرة يوماً ما ، هى « الروسكياده » (١٧٦١) وأتاحت له الوفاء بديونه ، وتقرير معاش لزوجته ، و « أن يطلع على الناس فى زى لا دينى على نحو صارخ كفتى من فتيان لندن العصريين »[١٣٧] . وقد اتخذ قصيدته اسمها من كوينتس روسكيوس الذى سيطر على المسرح الرومانى أيام يوليوس قيصر ؛ وهجت القصيدة كبار ممثلى لندن ، وجعلت جاريك يجفل ؛ وذكر عن أحد ضحاياها أنه «كان يجرى فى شوارع المدينة كأنه ظبى جريح[١٣٨] . وقد انضم تشرشل إلى ولكس فى شعائر « مدمنهام آبى» الفاجرة ، وأعانه على تحرير صحيفة « النورث بريتون » ، وذهب إلى فرنسا ليقاسم ولكس منفاه ، ولكنه مات فى بولون (١٧٦٤) إثر سكرة فاجرة ، و بـ « لامبالاة أبيقورية »[١٣٩] .

وهناك قسيس آخر يدعى توماس بيرسى عاش حياة تليق برداثه الكهنوتى ، وأصبح أسقفاً على درومور فى ارلنده ، وترك بصمته على الأدب الأوربى حين استنقذ مخطوطاً قديماً من يد خادم كانت على وشك احراقه ، وقد أمده المخطوط بأحد المصادر لكتابه «آثار من الشعر القديم » (١٧٦٥) وراقت هذه القصائد القصصية الشعبية التى تنتمى لبريطانيا فى العصر الوسيط المخضرمين من القراء ، وشجعت الروح الرومانتيكية — التى طالما كبتتها النزعة العقلية والمزاج الكلاسيكى — على الأعراب عن نفسها شعراً وقصصاً وفناً . وقد أرخ ورد زورث من هذه الآثار ظهور الحركة الرومانتيكية فى الأدب الانجليزى . وكانت أشعار مكفرسن « أوسيان » ،

وقصائد تشاترتن ، وقصائد ولبول « قلعة أوترنتو » و « ستروبرى هل » ، وقصيدتا بكفورد « فاذك » و « فونتل آبى » — هذه كلها كانت أصواتاً شتى فى صيحة تدعو للوجدان والغموض والرومانس ، وتملكت العصور الوسطى الروح العصرية برهة .

وقد بدأ توماس تشاترتن محاولته لتشرب العصر الوسيط بإطالة النظر فى رقاق عتيقة عثر عليها عمه فى كنيسة ببرستل . وقد شب هذا الغلام الحساس الخصب الخيال — الذى ولد ببرستل (١٧٥٢) عقب موت أبيه — فى عالم من صنع خيالاته التاريخية . وقد درس قاموساً للألفاظ الأنجلو — سكسونية ، ونظم فى لغة خالها لغة القرن الخامس عشر قصائد ادعى أنه عثر عليها فى كنيسة سانت مارى راد كليف ، ونسبها إلى توماس راولى ، وهو راهب وهمى من رهبان القرن الخامس عشر . وفى ١٧٦٩ ، حين بلغ السابعة عشرة ، أرسل بعض « قصائد راولى » هذه إلى هوراس ولبول — الذى كان هو ذاته قد نشر « أوترانتو » زاعماً أنها من شعر العصر الوسيط الأصيل قبل ذلك بخمس سنوات . وأطرى ولبول القصائد ودعا لإرسال المزيد منها ، فأرسل تشاترتن المزيد ، وطلب العون على إيجاد ناشر ينشرها ، ووظيفة مجزية فى لندن . وعرض ولبول القصائد على توماس جراى ، ووليم ميسن ، فحكم كلاهما عليها بأنها مزيفة . وكتب ولبول إلى تشاترتن أن هذين الأديبين « غير مقتنعين إطلاقاً بصحة مخطوطه المزعوم » ونصحه بأن يطرح الشعر جانباً حتى يستطيع كسب قوته . ثم رحل ولبول إلى باريس ونسى أى يرد القصائد لصاحبها . وكتب تشاترتن فى طلبها ثلاث مرات ، وانقضت ثلاثة أشهر قبل أن تصله(١٤٠) .

وذهب الشاعر إلى لندن (ابريل ١٧٧٠) وسكن علية فى شارع بروك بهوبورن . وأرسل إلى دوريات شتى مقالات منحازة لواكس ، وبعض قصائد راولى ، ولكن حصيلة الأجر الذى تلقاه عنها (ثمانية عشر بنساً للقصيدة) كانت أقل من أن تقيم أوده ، فحاول الحصول على وظيفة مساعد جراح على باخرة تجارية أفريقية ولكنه أخفق — وفى ٢٧ أغسطس نظم وداعاً مراً للعالم :

وداعاً يا أكوام الآجر القذرة فى برستوليا ،
يا عشاق المال ، وعباد الخديعة والختل !
لقد ازدريتم الفتى الذى أعطاكم الأغانى القديمة ،
وأثبتم المعرفة بالمديح الفارغ .
وداعاً أيها الحمقى من الرؤساء السكارى ،
الذين هيأتكم الطبيعة مطية للفساد !
وداعاً أمى ! وكفى أنت يا روحى المضناة ،
ولا تدعى أمواج الحيرة والذهول تطغى على !
رحماك أيتها السماء إن أنا كففت عن العيش هنا ،
واغفرى لى هذه الفعلة الأخيرة من أفعال الشقاء .

ثم انتحر بشرب الزرنيخ بالغاً من العمر سبعة عشر عاماً وتسعة أشهر . ودفن فى قبر من قبور الفقراء المعدمين .

وقصائده تملأ اليوم مجلدين . ولو كان قد وصفها بأنها تقليد لا أصل فلربما اعترف له بأنه شاعر أصيل ، لأن بعض قصائد راولى لا تقل جودة عن معظم القصائد الأصلية من هذا النوع ذاته . وكان حين يكتب شعراً باسمه يستطيع نظم شعر هجائى يكاد يضارع شعر بوب ، كما نرى فى قصيدته « المثودى »[١٤١] ، أو فى سبعة عشر بيتاً — هى أهجى شعره كله — يسوط فيها ولبول متملقاً ذليلا غليظ القلب[١٤٢] . فاما أن نشرت مخطوطاته المتخلفة (١٧٧٧) اتهم المشرف على نشرها ولبول بأن عليه تقع بعض التبعة فى موت الشاعر ، ودافع ولبول عن نفسه بأنه لم يشعر بأى التزام بمساعدة مزيف مصر على التزييف[١٤٣] . وأصر بعض ذوى القلوب الرحيمة كجولد سمث على أن القصائد أصيلة لا مزيفة ، وضحك جونسن من صديقه ، ولكنه قال : « هذا أعجب شاب عرفته . غريب كيف كتب الجرو كلاماً كهذا »[١٤٤] . أما شلى فقد خلد ذكرى الفتى تخليداً موجزاً فى قصيدته « أدونيس »[١٤٥] ، وأما كيتس فقد نظم قصيدته « انديميون » فى ذكراه .

لقد هرب تشاترتن من واقع برستل ولندن والكئيب عن طريق أساطير العصر الوسيط والزرنيخ . أما وليم كوبر فقد هرب من لندن التى عشقها جونسن إلى البساطة الريفية ، والإيمان الدينى ، والجنون الدورى . وقد برىء جده من تهمة القتل وأصبح قاضياً ، وكان أبوه قسيساً انجليكانيا . وأمه تنتسب إلى الأسرة التى أنجبت جون دن . وقد ماتت وهو فى السادسة ، مخلفة له ذكريات حزينة لحدبها وحبها ، وحين أرسل له ابن عم له بعد ثلاثة وخمسين عاماً صورة قديمة لأمه استعاد فى قصيدة رقيقة[١٤٦] تلك الجهود التى كثيراً ما بذلتها لتهدىء المخاوف التى أظلمت ليالى طفولته .

وقد انتقل من هاتين اليدين الرقيقتين فى عامه السابع إلى مدرسة داخلية أصبح فيها المسخر الجبان لطالب متنمر أرهقه بكل ثقيل مذل من الواجبات . وأصيب بالتهاب فى عينيه ، فاضطر أن يظل أعواماً تحت رعاية رمدى . وفى ١٧٤١ ، حين بلغ العاشرة ، بعث إلى مدرسة وستمنستر فى لندن . وبدأ فى السابعة عشرة الاشتغال ثلاثة أعوام كاتباً فى مكتب محام بهوبورن . واكتمل الآن نضجه للرومانس ، وكانت ابنة عمه تيودورا كوبر تعيش بقربه ، فغدت معبودة أحلام يقظته . وحين بلغ الحادية والعشرين اتخذ له مسكناً فى « المدل تمبل » ، وفى الثالثة والعشرين سمح له بالاشتغال بالمحاماة . وإذ كان كارهاً للقانون ، شديد الاحجام أمام المحاكم ، فقد ابتلى بحالة من الوهم المرضى ، ازدادت عمقاً حين نهى تيودورا أبوها عن أى اتصال بابن عمها . ولم يرها كوبر بعدها قط ، ولم ينسها قط ، ولم يتزوج قط .

وفى ١٧٦٣ ، حين واجه ضرورة المثول أمام مجلس العموم ، انهارت أعصابه ، واختلط عقله ، وحاول الانتحار . وأرسله بعض أصحابه إلى مستشفى للأمراض العقلية فى سانت أولبنز . وأفرج عنه بعد ثمانية عشر شهراً ، وإثر العيش فى هنتنجدن قرب كمبردج معتزلا الناس تقريباً . وقال إنه الآن « لا يرغب فى أى صحبة إلا صحبة الله والمسيح »[١٤٧] . وقد قبل العقيدة الكلفينية بحذافيرها ، وأطال التفكير فى الخلاص والهلاك الأبدى . وألقت به الصدفة السعيدة بين يدى أسرة محلية كان إيمانها مجلبة للسلام والرحمة لا للخوف ، وأفرادها هم القس مورلى أنوين ، وزوجته مارى ،

وابنه وليم ، وابنته سوزانا . وقد شبه كوبر أب هذه الأسرة بالقس أدمز في قصة فيلدنج « جوزف أندروز » ، ووجد أما ثانية له في السيدة أنوين التي كانت تكبره بسبع سنين ، وقد عاملته هي وابنتها معاملة الإبن والأخ ، وأسبغتا عليه من عطف المرأة الرقيق ما كاد يجيب إليه الحياة من جديد . ودعته الأسرة للعيش معها ، ففعل (١٧٦٥) ووجد الشفاء في حياتها البسيطة .

ولكن هذا النعيم زال فجأة حين قتل الأب إثر سقطه من فوق جواده . وانتقلت الأرملة والإبنة إلى أولني في بكنجها مشير واصطحبتا معهما كوبر ، ليكونوا كلهم قريبين من الواعظ الإنجيلي الشهير جون نيوتن . وقد أقنع كوبر أن ينضم إليه في افتقاد المرضى وتأليف الترانيم . واحتوت إحدى « ترانيم أولني » هذه أبياتاً مشهورة :

إن الله يتحرك بطريقة خفية
ليصنع عجائبه ،
انه يزرع خطاه في البحر
ويركب فوق العاصفة[١٤٨] .

على أن مواعظ نيوتن المنذرة بنار الجحيم ، والتي « هزت توازن الكثيرين من أعضاء كنيسته » لم تهدىء من مخاوف الشاعر اللاهوتية بل زادتها حدة[١٤٩] . يقول كوبر « إن الله يبدو لى دائماً رهيباً إلا حين أراه تعالى وقد تجرد من شوكته لأنه أغمدها في جسد المسيح »[١٥٠] وعرض الزواج على السيدة أنوين ، ولكن نوبة ثانية من نوبات الجنون (١٧٧٣) حالت دون زواجهما ، ثم تماثل للشفاء بعد ثلاث سنين من العناية المشربة بالمحبة . وفي ١٧٧٩ رحل نيوتن عن أولني ، واتخذت تقوى كوبر مظهراً أكثر اعتدالا .

وأعانت نساء أخريات مارى أنوين على إبقاء الشاعر على صلة بالأرضيات . فتركت الليدى أوستن ، الأرملة المرحة ، بيتها اللندنى وقصدت أولني ، واتصلت بآل أنوين ، وجلبت المرح والحبور إلى بيت طال تركيزه على المآسى العارضة للحياة . وهذه السيدة هي التي روت لكوبر القصة التي

أحالها إلى « تاريخ جون جلبن المسلى »[١٥١] ، ورحلته الوعرة التى أكره عليها ، وأرسل صديق الأسرة هذه القصة الشعرية المرحة لاحدى الصحف ، وألقاها ممثل كان قد خلف جاريك على مسرح درورى لين هناك ؛ فغدت حديث لندن السائر ، وذاق كوبر طعم الشهرة لأول مرة . ولم يكن قد أخذ شاعريته من قبل مأخذ الجد ، ولكن الليدى أوستن حثته الآن على أن ينظم شعراً ذا قيمة . ولكن فى أى موضوع ينظمه ؟ أجابت فى أى شىء ، وأشارت إلى أريكة ، ثم فرضت عليه واجب إذاعة شهرتها فى شعره . وقد سره أن تأمره امرأة فاتنة ، فنظم قصيدة « الواجب » . وحين نشرت القصيدة عام ١٧٨٥ استقبلها الناس بالترحيب بعد أن ملوا الحرب والسياسة وصراع المدينة .

وكتابة أو قراءة ستة « كتب » عن أريكه واجب ثقيل حقاً ما لم يؤت المرء خلق « كريبيون » الإبن[١٥٢] ؛ ولكن كوبر كان لديه من الفطنة ما يكفى لاستخدامها نقطة انطلاق لا أكثر . فبعد أن جعل منها القمة فى قصة فكهة عن المقاعد ، تسلل إلى موضوعه المفضل الذى يمكن اجماله فى بيت القصيد الذى يقول « لقد صنع الله الريف ، أما الإنسان فصنع المدينة »[١٥٣] . وقد اعترف الشاعر بأن الفن والبلاغة مزدهران فى لندن ، وأثنى على رينولدز وشاتام ، وتعجب من العلم الذى « يقيس الذرة ويطوق العالم الآن »[١٥٤] . ولكنه وبخ « ملكة المدائن على عقابها بالموت بعض السرقات التافهة ، على حين تغدق أسباب التشريف على « مختلسى المال العام » . يقول :

من لى بكوخ فى برية شاسعة
يكتنفه ظل مترام لا حدود له ،
حيث لا تقرع سمعى بعدها
أنباء الظلم والخداع ،
ولا أخبار الحرب الخاسرة أو الظافرة ،
إن أذنى لتتأذى ، ونفسى لتشمئز ،
بما يأتى به كل يوم من أنباء

العدوان والمظالم التى تمتلىء بها الأرض[١٥٥] .

وقد روعه الاتجار بالرقيق ، وكان صوته أحد الأصوات الانجليزية الأولى التى ندددت بالرجل الذى :

يرى أخاه مذنباً بجريرة جلد
لونه غير لون جلده ؛ وإذ كان له
من القوة ما يمكنه من إنقاذ الباطل . .
فهو يدينه ويتملكه فريسة حلالا . . .
فما الإنسان إذن ؟ وأى إنسان له مشاعر البشر
يرى هذا ولا يحمر وجهه خجلا ،
ولا ينكس رأسه خزياً من مجرد الفكرة بأنه إنسان ؟[١٥٦]

ومع ذلك يختتم بهذه العبارة « انى مازلت أحبك رغم كل أخطائك يا انجلتره »[١٥٧] .

وقد أحس أن هذه الاخطاء تخف ان ثابت انجلتره إلى الدين وحياة الريف . « كنت ظبيا جريحاً ترك القطيع » أى أنه ترك لندن حيث « تدفعنا العاهرات بالمرافق »، ووجد شفاءه فى الأيمان والطبيعة . تعال إلى الريف ! وتأمل نهر أوز « يحتوى مخترقاً سهلا مستوياً » ، ثم هاتياك الماشية المطمئنة وكوخ الفلاح وساكنية الأشداء ، وبرج القرية يرمز للحزن والرجاء ! واستمع إلى رشاش مساقط المياه، وزقزة الطيور فى الصباح . إن لكل فصل أفراحه فى الريف ، فأمطار الربيع بركة ، وثلوج الشتاء نقية . وما أبهج السير الثقيل وسط الثلوج ثم التجمع حول نار المدفأة فى المساء ! » .

ولم يكتب كوبر شيئاً ذا بال بعد « الواجب» . وفى ١٧٨٦ انتقل ثانية إلى وستن أند روود القريبة ، وهناك كابد نصف عام آخر من الجنون . وفى ١٧٩٢ أصيبت السيدة أنوين بالفالج ، وظلت ثلاث سنين عليلة عاجزة ؛ فمرضها كوبر كما مرضته من قبل ، وفى آخر شهر فى حياتها كتب أبياته التى عنونها « إلى مارى أنوين » :

ان خصلك الفضية التى كانت يوماً ما حمراء مشرقة
ما زالت فى ناظرى أحب إلى

من أشعة الصبح الذهبية
يا عزيزتي ماري! (١٥٨)

وفي ١٧٩٤ ، حين أثقلته الهموم ، وأرهقه جهده في ترجمة غير موفقة لهومر ، التاثت عقله مرة أخرى ، فحاول الانتحار : ثم شفي ، وأعفاه من عيشة الضنك معاش حكومي قدره ٣٠٠ جنيه . ولكن ماري أنوين ماتت في ١٧ ديسمبر ١٧٩٦ ، وشعر كوبر أنه ضائع مهجور رغم أنه وجد صديقة جديدة في أخت تيودورا ، وهي الليدي هارييت كوبر هسكث . ولازمته المخاوف الدينية في أيامه الأخيرة ، ثم قضى نحبه في ٢٥ ابريل ١٨٠٠ بالغا الثامنة والستين .

وكان في عالم الأدب ينتمي إلى الحركة الرومانتيكية وفي عالم الدين إلى الحركة الإنجيلية . وقد اختتم عصر سيادة بوب على الشعر ومهد لوردزورث ، وأدخل في الشعر طبيعية في الشكل وصدقاً في المشاعر أوقف سيل الثنائيات المفتعلة الذي أطلقه « العصر الأوغسطي » على انجلتره . وكان دينه لعنة عليه لأنه صور له إلهاً منتقماً وجحيماً لا غفران فيه ، ومع ذلك فلعل الدين هو الذي دفع أولئك النسوة الرحيمات ، كما دفعتهن غرائز . الأمومة ، إلى الحدب على هذا « الظبي الجريح » في كل أحزانه وأفكاره السوداء .

٧ — أولفر جولدسمث

وكان لـ « بل المسكين » هو أيضاً مآسيه ، غير أنها لم تعمقها عقيدة سادية ، وخففت منها انتصارات في النثر والشعر وعلى خشبة المسرح .

كان أبوه خوريا انجليكانياً متواضعاً في قرية إرلندية ، يكسب أربعين جنيهاً في العام بإضافة الفلاحة إلى اللاهوت . فلما أن بلغ أولفر الثانية من عمره (١٧٣٠) رقي الخوري قسيساً لكيلكيني وست ، وانتقلت الأسرة إلى بيت يقع على طريق رئيسي قرب ليسوى ، التي غيرت في تاريخ لاحق اسمها في ضمير الشاعر إلى « أوبرن » حين نظم قصيدته « القرية المهجورة » .

والتحق جولدسمث بالمدرسة الأولية تلو المدرسة ، وكان أنصع ذكريات أيامه المدرسية تلك ذكرى أمين امدادات سابق في الجيش تحول معلماً ، ولم يستطع قط أن ينسى حروبه ، ولكنه كان إلى ذلك يروي لتلاميذه القصص الساحرة عن الجان وأرواح المنذرات بالموت والعفاريت . وحين بلغ

الصبي التاسعة أشرف على الموت من الجدرى ، وزاد هذا المرض على ذلك تشويهاً ابتلى به وجه من أقل الوجوه حظاً من الوسامة وهب لروح لطيفة محببة . وفى الخامسة عشرة التحق بكلية ترنتي فى دبلن طالباً معانا ، يرتدى ثوباً يميزه ، ويؤدى خدمات حقيرة ، ويلاحقه معلم مستبد بمضايقاته . فهرب إلى كورك ، مزمعاً أن يحاول الرحلة إلى أمريكا ، غير أن أخاه الأكبر منه « هنرى » أدركه ولاطفه فاقتنع بالعودة إلى الكلية . وتفوق أولفر فى الدراسات الكلاسيكية ، غير أن دراسة العلوم استعصت عليه ، ولكنه على أى حال أفلح فى نيل درجة البكالوريوس .

ثم تقدم بطلب لوظيفة كنسية صغيرة ، ولكنه أدهش الأسقف بما ارتداه من سراويل قرمزية واشتغل معلماً خاصاً بعد أن رفض طلبه ، وتشاجر مع تلميذه ، ويمم ثانية شطر كورك وأمريكا . فتدخل فى الأمر عم له أقرضه خمسين جنيهاً ليذهب إلى لندن ، وخسر أولفر المبلغ كله فى بيت للقمار . وقد أفزع أقرباءه لما لحظوا فيه من عجز وقلة حيلة ، ولكن سحرهم مرحه ونايه وأغانيه . وجمع له بعض المال للإنفاق على دراسته الطب فى إدنبره ثم فى ليدن . وقد حقق بعض التقدم ؛ ويقص علينا أنه كان فى باريس يختلف إلى محاضرات رورويل فى الكيمياء . ثم انطلق على مهل (١٧٥٥) يتجول فى أنحاء فرنسا ، وألمانيا ، وسويسره ، وشمالى إيطاليا ، يعزف على نايه فى المراقص الريفية ، ويظفر بوجبات طعام كيفما اتفق له ، ويتلقى الصدقات على أبواب الأديرة[١٥٩] . ثم عاد إلى انجلتره فى يناير ١٧٥٦ ومارس الطب فى لندن ، وصحح تجارب الطبع لصموئيل رتشردسن ، واشتغل معلماً بمدرسة فى صرى ، ثم استقر فى لندن كاتباً مأجوراً يقوم بأشتات من الأعمال الأدبية غير المنتظمة ويكتب المقالات للمجلات . وقد كتب فى أربعة أسابيع « حياة فولتير » . وفى ١٧٥٩ أقنع ددسلى بأن ينشر كتاباً سطحياً اسمه « تحقيق فى أحوال الثقافة الراقية فى أوربا » . وقد أساءت تعليقات التحقيق حول مديرى المسارح إلى جاريك إساءة لم ينسها قط . وزعم هذا التحقيق أن عصور الأدب الخلاق تنحو إلى أن تتلوها عصور نقد ، وتستنبط قواعد من أعمال المبدعين ، وتنزع إلى تقييد أسلوب الشعراء الجدد وتعويق خيالهم . وقد رأى جولدسمث أن أوربا كانت تمر بهذه الحال فى ١٧٥٩ .

وبعد عام كتب لصحيفة نيوبرى « ببلك لدجر » بعض « الرسائل الصينية » التى أعيد نشرها فى ١٧٦٢ بعنوان « مواطن العالم » . أما خطتها فقديمة : فهى تصور رحالة شرقياً يروى أساليب عيش الأوربيين فى ضحك واشمئزاز شديد ، فنرى « لاين تشى ألتانجى » يصف فى رسائله إلى صديق له فى وطنه ، أوربا مسرحاً فوضوياً للجشع والطمع والدسائس . وقد نشر جولدسمث الكتاب غفلا من اسمه ، غير أن أهل فليت ستريت (شارع الصحافة) تبينوا أسلوبه فى اللغة البسيطة ، والأوصاف النابضة بالحياة ، والنبرة اللطيفة المحببة ، فلما أحس بشهرته انتقل إلى مسكن أفضل فى رقم ٦ بشارع واين أوفس كورت . وكان قد أطرى جونسن فى « الرسائل الصينية » فجرؤ الآن على دعوة واضع المعجم إلى العشاء (وكان يسكن على جانب الطريق المقابل) . وحضر جونسن ، وبدأت من يومها صداقتهما المديدة (٣١ مايو ١٧٦١) .

وحدث فى يوم من أيام أكتوبر ١٧٦٢ أن تلقى جونسن رسالة عاجلة من جولدسمث يطلب فيها العون . فأرسل إليه جنيهاً ، وحضر بعد قليل ، فوجد أن جولدسمث يوشك أن يقبض عليه لعدم دفعه أجرة مسكنه : وسأل جونسن صديقه إن كان لديه شيء ذو قيمة يرهنه أو يبيعه . فأعطاه جولدسمث مخطوطاً عنوانه « قسيس ويكفيلد » . ويقول جونسن [١٦٠] . إنه طلب إلى صاحبة الدار أن تنتظر ، وقدم القصة إلى الكتبى جون نيوبرى ، وباعها له بستين جنيهاً ، ثم دفع بالنقود إلى جولدسمث ، فسدد هذا الإيجار واحتفل بهذه المناسبة بزجاجة من النبيذ . واحتفظ الكتبى بالمخطوط أربع سنين دون أن ينشره .

وفى ديسمبر ١٧٦٤ طلع جولدسمث بأول قصائده الكبرى « الرحالة أو إطلالة على المجتمع » وقد استعاد فيها جولاته فى القارة ، ووصف ما فى كل قطر من نقائص وفضائل ، ولاحظ أن كل بلد يحب نفسه خير بلاد الله . وفاخر بقوة انجلترة (التى كانت لتوها قد انتصرت فى حرب السنين السبع) . ووصف أعضاء البرلمان بهذين البيتين :

انى أشهد سادة الجنس البشرى يمرون

وفى مشيتهم شموخ ، وفى عيونهم تحد ؛

ولكنه أنذر بأن الجشع يلوث الحكم البريطانى ، وأن الحظائر المسيجة ، المنبثة بأنانية الأغنياء ، تفقر طبقة الفلاحين وتدفع أبناء انجلتره الشداد للهجرة إلى أمريكا . وكان قد أطلع جونسن على المخطوط ، فأضاف أبياتاً ستة معظمها قرب الخاتمة ، استخف فيها بتأثير السياسة على سعادة الفرد ، وأطرى المباهج البيتية البسيطة .

وقد أدهش نجاح القصيدة جميع الناس عدا جونسن الذى أعانها بتقريظ أذاعه وقال فيه « انه لم ننشر قط قصيدة بهذا الجمال منذ أيام بوب»[161] وهو قول تجاهل الشاعر جراى . وجنى الناشر ربحاً طيباً من الطبقات المعادة ، ولكنه لم ينقد الشاعر غير عشرين جنيهاً . وانتقل جولدسمث إلى مسكن أفضل فى « التمبل » ، واشترى ثياباً جديدة ظهر فيها بسراويل أرجوانية ، ومعطف قرمزى ، وشعر مستعار ، وعصا ، ثم استأنف فى مظهره الوقور هذا مهنة التطبيب . غير أن التجربة لم يحالفها التوفيق ، ثم رده نجاح « قسيس ويكفيلد » إلى حظيرة الأدب ثانية .

ذلك أن الكتبى الذى كان قد اشترى المخلوط من جونسن أحس أن شهرة جولدسمث الجديدة ستكون معواناً على تقبل القراء لهذه القصة الغريبة . وقد صدرت فى طبعة صغيرة فى ٢٧ مارس ١٧٦٦ ، فبيعت الطبعة فى شهرين ، وبيعت طبعة ثانية فى ثلاثة أشهر أخرى ، ولكن المبيع من القصة لم يغط نفقات الناشر إلا عام ١٧٧٤ . وفى تاريخ مبكر (١٧٧٠) زكاها هردرلجوته ، الذى رأى فيها « قصة من أفضل ما كتبى من قصص إلى الآن »[162] . وأمن ولتر سكوت على هذا الرأى[163] . أما واشنطن ايرفنج فقد تعجب من أن عزبا حرم الحياة الأسرية منذ طفولته استطاع أن يرسم « ألطف وأحب صورة للفضيلة الأسرية وكل ما يحبب الناس فى الحياة الزوجية »[164] . ولعل حرمان جولدسمث من الحياة الأسرية هو الذى حداه إلى أن يضفى على البيت هذه الصفات المثالية ، ولعل حياة العزوبة التى كان يحياها على مضض هى التى جعلته يتسامى بصفات الشباب من النساء ، ولعل غرامياته المجهولة هى التى دفعته إلى الإعلاء من قدر عفة المرأة لأنها أثمن من الحياة . وقد أمدته ذكرياته الحبيبة عن أبيه وأخيه

بصورة الدكتور برمروز ، الذى كان بوصفه « قسيساً ، ومزارعاً ، ورب أسرة . . . يجمع فى ذاته أعظم ثلاث شخصيات على هذه الأرض»[١٦٥] . وقد عادت جولاته هو تظهر فى شخص الإبن جورج ، الذى ختم رحلاته كما ختم جولدسمث نفسه كاتباً مأجوراً فى لندن . ان القصة بعيدة التصديق ، ولكنها ساحرة .

وسرعان ما نفدت حصيلة « الرحالة » و « قسيس ويكفيلد » ، ولاغرو فقد كان جولدسمث متلافاً لا يستقر المال فى يده لحظة ، يعيش دائماً فى المستقبل . وقد تطلع بعين الحسد إلى الشهرة والمال اللذين قد تأتى بهما مسرحية ناجحة فرصد قلمه لاقتحام هذا الميدان العسير من ميادين الأدب ، وسمى ثمرة جهده « الرجل الطيب» وعرضه على جاريك . وحاول جاريك أن ينسى التعليقات المهينة التى كتبها جولدسمث عنه من قبل ، ووافق على أن يخرج المسرحية . ولكنها كانت تسخر من الكوميديات العاطفية ، وهذة الكوميديات هى التى درت على جاريك الربح الوفير . فاقترح إدخال بعض التغييرات على المسرحية ، ولكن جولدسمث رفضها . ونقد جاريك المؤلف مقدماً أربعين جنيهاً ، ولكنه تباطأ تباطؤاً شديداً حمل المؤلف المتهور على عرض المخطوط على منافس لجاريك هو جورج كولمان الذى كان يدير مسرح الكوفنت جاردن . وانتقص ممثلو كولمان من قدرالمسرحية ، ولكن جونسن أيدها تأييداً قوياً ، وحضر بروفاتها ، وكتب المقدمة التى تلقى قبيل العرض . وعرضت أول مرة فى ٢٩ يناير ١٧٦٨ ، واستمر عرضها عشر ليال ، ثم سحبت باعتبارها ناجحة نجاحاً متوسطاً ، ومع ذلك بلغ صافى ما حصله المؤلف منها ٥٠٠ جنيه .

فلما أن جرى المال فى يد جولدسمث عاماً انتقل إلى شقة جميلة فى بريك كورت مخالفاً نصيحة جونسن ، وأثثها تأثيثاً ممتازاً اضطره إلى العودة للكتابة المأجورة ليغطى نفقاته . وأخرج الآن كتباً شعبية فى التاريخ — تاريخ روما ، واليونان ، وانجلتره . و « تاريخاً للطبيعة الحية » — وكلها فقير فى الدرس أثراه النثر الرشيق . وحين سأله بعضهم لم كتب كتباً كهذه أجاب

بأنها أعانته على قوته ، بينما أفضى به الشعر إلى التضور جوعاً . ومع ذلك ففى ٢٦ مايو ١٧٧٠ طلع على القراء برائعته « القرية المهجورة » التى نقد عنها مائة جنيه — وهو ثمن طيب فى ذلك العهد لقصيدة لا تجاوز سبع عشرة صفحة طولا . وقد نفدت منها أربع طبعات فى ثلاثة أشهر .

أما موضوعها فهجر الزراع للريف بعد أن أفقدتهم الحظائر المسيجة أرضهم . وقد رسمت صورة لقريته :

أى أوبرن الحلوه ! يا أجمل قرى السهل ،
حيث يقر الفلاح الكادح عينا بالعافية والخير الوفير

وخلعت القصيدة كل الألوان الوردية التى حلم بها خيال جولدسمث الحضرى على رخاء الفلاح الذى زعم أنه سبق هذه الحظائر المسيجة . وصف المناظر الريفية ، والأزهار المختلفة ، « والكوخ الظليل ، والمزرعة المحروثة » ورياضات القرية ومراقصها ، و « العذراء الخجول » والصبى المغمز ، والأسر السعيدة التى تسودها التقوى والفضيلة . ثم عاد يرى أباه يعظ كنيسة كيلكينى وست :

كان رجلا عزيزاً على الناحية كلها
يعيش فى رغد بأربعين جنيهاً فى العام —
وهو مبلغ كفاه لأن يطعم الشريد ،
وينقذ المتلاف ، ويؤوى الجندى المحطم ،
ويفتقد المرضى ، ويواسى المحتضرين .
كانت نظراته فى الكنيسة تجمل المكان الوقور
وهو يلقيها فى لطف ورقة دون افتعال ؛
ويخرج الحق من شفتيه قوياً جباراً ،
فيمكث الجهال ليصلوا بعد أن جاءوا ليستهزئوا ! .

أما معلم المدرسة الذى أدب الشاعر فى طفولته فقد تحول فى ذكرياته إلى مدرس « صارم الطلعة » .

ومع ذلك كان رحيماً ، فإذا عنف فى شىء

فلأن المحبة التى يكنها للعلم كانت خاطئة
ثم كان بارعاً فى الجدل باعتراف القسيس ،
فهو يواصله ولو كان مغلوباً
وكان بألفاظه الطويلة البليغة المرعدة
يبهر الريفيين الملتفين حوله محدقين
وتحديقهم يطول ، وعجبهم يشتد ،
لأن رأساً واحداً صغيراً حوى كل علمه .

وخيل لجولدسمث أن هذا الفردوس دمرته الحظائر المسيجة ، فاستحالت مزرعة الفلاح إلى أرض للرعى ،وفرت أسر الفلاحين إلى المدن أو المستعمرات ، وأخذ يجف ذلك النبع الريفى الذى تنبثق منه الفضيلة الصادقة .

الويل لبلد يتكدس فيه المال ويفسد الرجال ،
فهو فريسة لشرور وآفات لن تمهله طويلا

أما وقد كتب جولدسمث خير قصيدة جاد بها جيله ، فقد عاد الآن إلى الدراما . وفى ١٧٧١ عرض كولمان كوميديا جديدة سماها « تمسكنت فتمكنت» وتباطأ كولمان كما تباطأ جاريك من قبل ، حتى تدخل جونسن فى الأمر وأمر المدير تقريباً بإخراج التمثيلية . وكتب جاريك مقدمتها بعد أن تصالح مع جولدسمث . وبعد شدائد وضيقات كادت تحطم روح المؤلف ، أخرجت المسرحية فى ١٥ مارس ١٧٧٣ . وحضر جونسن ورينولدز وغيرهما من الأصدقاء حفلة الافتتاح وكانوا أول المصفقين . أما جولدسمث نفسه فكان أثناء ذلك يتجول فى حديقة سانت جيمس على غير هدى ، إلى أن عثر عليه بعضهم وأكد له أن مسرحيته لقيت نجاحاً عظيماً . وقد طال عرضها ، وجاءته الحفلات التى خصصت حصيلتها له بعام من الرخاء .

وكان قد ارتقى الآن بنفسه إلى مكانة لا يعلو عليه فيها سوى جونسن بين كتاب العصر الانجليزى ، بل لقد حقق الشهرة خارج وطنه . وكان شخصية قائده فى « النادى » ، وجرؤ على مخالفة جونسن مراراً . وذات مرة والحديث يدور حول قصص الحيوان الخرافية ، لاحظ أن من العسير

جداً أن تجعل السمك يتكلم كالسمك ، ثم قال لجونسن « وليس هذا بالأمر اليسير كما تحسبه ؛ لأنك لو شئت أن تجرى الكلام على ألسنة السمك الصغير لتكلم كله كما تتكلم الحيتان »[١٦٦] . وكان « الدب الأكبر » يخمشه ببراثنه أحياناً فى قسوة ، ولكنه أحبه رغم ذلك ، وقد رد جولدسمث المحبة بمثلها رغم حسده جونسن على تفوقه فى فنون الحديث . ولم يكن جولدسمث قد نظم معارفه ورتبها قط ، ولم يكن فى استطاعته الرجوع إليها بسرعة أو ذكاء ، قال جاريك « كان يكتب كما يكتب الملاك ، ويتحدث كما يتحدث بل المسكين »[١٦٧] . أما بوزيل فكان ينزع إلى الغض من قدر جولدسمث ، ولكن كثيراً من معاصريه — كرينولدز ، وبيرك ، وولكس ، وبرسى — احتجوا على هذا الغض لما فيه من ظلم[١٦٨] . وقد لوحظ أن جولدسمث كثيراً ما كان يحسن الحديث فى الاجتماعات التى يغيب عنها جونسن[١٦٩] .

وكانت لهجته فى الحديث ، وعاداته ، ومظهره — كلها تعاكسه . فهو لم ينس قط لهجته الأرلندية . وكان شديد الأهمال لهندامه ، يلهو أحياناً يلبس الملابس الزاهية المتعددة الألوان المتناقضة المظهر . وكان مغروراً مزهواً بما حصل من ألوان الثقافة ، ولم يعترف بتفوق جونسن عليه كاتباً ، وكان طوله خمسة أقدام وخمس بوصات ، وقد غاظه طول جونسن وضخامته ، وكانت طبيعته الطيبة تشرق من خلال وجهه القبيح . والصورة التى رسمها له رينولدز لم تخلع عليه جمالا ، فهنا شفتان غليظتان ، وجبين متراجع ، وأنف ناتىء ، وعينان قلقتان . وقد زاد الرسامون الكاريكاتوريون أمثال هنرى بنبرى فم أولفر اتساعاً وأنفه طولا ، ووصفته صحيفة « اللندن باكت » بأنه أورانجوتان[١٧٠] ، وسرت فى المدينة عشرات القصص عن أخطائه الفاضحة فى حديثه وسلوكه ، وعن حبه المستور للحسناء مارى هورنك .

أما أصدقاؤه فكانوا عليمين بأن عيوبه سطحية ، تخفى روحاً من الود ، والمحبة ، والكرم الذى كاد يدمر صاحبه ، وحتى بوزويل وصفه بأنه « أعظم من وجد من الرجال سماحة قلب ، أما وقد أتيح له الآن قدر كبير من الذهب مما غلته مسرحياته الفكاهية ، فإن جميع المعوزين يعتمدون عليه »[١٧١] . فإذا لم يعد لديه من المال ما يعطيه اقترض ليسد مطالب الفقراء

الذين التمسوا العون منه[١٧٢] . وقد رجا جاريك (الذى لم يكن قد استرد منه جنيهاته الأربعين) أن يقرضه ستين جنيهاً على ذمة مسرحية أخرى ، فوافاه بالمبلغ . وبلغت ديون جولدسمث عند موته ٢٠٠٠ جنيه . وتساءل جونسن « هل وجد قط فقير أولاه الناس هذه الثقة من قبل ؟ »[١٧٣] .

وفى ١٧٧٤ ، بينما كان على وشك الذهاب إلى أحد الأندية العديدة التى انتمى إليها ، أصابته الحمى . فأصر على أن يصف لنفسه الدواء ، ناسياً نصيحة بوكلبرك بأنه ينبغى ألا يصف الدواء إلا لأعدائه ، وتناول عقاراً مسجلا ، فساءت حاله . ودعى طبيب لعيادته ، ولكن وقت إنقاذه كان قد فات . وقضى نحبه فى ٤ ابريل غير متجاوز الخامسة والأربعين . والتف حول جثمانه حشد من الباكين ، وكانوا رجالا ونساء بسطاء يكادون يعتمدون فى قوتهم على صدقاته . ودفن فى فناء كنيسة « التمبل » ولكن أصحابه أصروا على أن يقام له نصب تذكارى فى وستمنستر آبى . ونحت نولكنز التذكار وكتب جونسن القبرية . وكان خيراً منها السطور التى كتبها الشاعر فى مسرحية « الرجل الطيب » إذ يقول « ما أشبه الحياة فى أعظم حالاتها وأفضلها بطفل شقى لابد من ملاطفته ومسايرته قليلا حتى ينام ، ثم ينتهى كل الهم والقلق »[١٧٦]

* * *



الفصل الثالث والثلاثون

صموئيل جونسن

١٧٠٩ — ٨٤

١ — النشأة المشوهة

١٧٠٩ — ٤٦

لقد كان نسيج وحده ، ومع ذلك كان نموذجياً ، فهو يختلف عن أي انجليزى فى زمانه ، ومع ذلك فهو خلاصة لجون بول جسداً وروحاً ، يبزه معاصروه فى جميع الميادين الأدبية (خلا تصنيف المعاجم) ومع ذلك فهو يسود عليهم جيلا بأسره ، ويملك عليهم دون أن يرفع شيئاً إلا صوته .

ولنلم الآن إلمامة سريعة بالضربات التى طرقته لتشكل طابعه الفريد . فلقد كان أول طفل ولد لمايكل جونسن ، الكتبى ، والطباع ، وتاجر الأدوات الكتابية فى لتشفيلد ، على ١١٨ ميلا من لندن . أما أمه فترق أرومتها إلى قوم بهم أثارة من نبالة . وكانت تبلغ السابعة والثلاثين حين تزوجت فى ١٧٠٦ ما يكل البالغ من العمر خمسين عاما .

وكان صموئيل غلاماً عليلا ، بلغ من ضعفه حين ولد أنه عمد للتو مخافة أن يكون مأواه الأبدى — ان مات بغير عماد — فى الأعراف ، مدخل الجحيم الكئيب . وسرعان ما بدت عليه إمارات « داء الملك » (الخنازيرى) . فلما أن بلغ ثلاثين شهراً أخذته أمه رغم أنها حامل فى ولدها الثانى فى الرحلة الطويلة إلى لندن لكى « تلمسه الملكة ليبرأ من الخنازيرى » وصنعت الملكة قصاراها ولكن المرض كلف جونسن الاكتفاء بعين واحده وأذن واحدة ، وشارك غيره من البلايا فى تشويه وجهه[1] . على أنه اشتد رغم ذلك عضلا

وهيكلا . ودعمت قوته كما دعمت ضخامته تلك النزعة الاستبدادية التى أحالت جمهورية الأدب إلى ملكية كما شكا جولدسمث . وقد ذهب صموئيل إلى أنه ورث عن أبيه « ذلك المزاج السوداوى الكريه الذى جعلنى مجنوناً طوال حياتى ، أو على الأقل غير متزن »[٢] . ولعل لوهمه المرضى أساساً دينياً لا بدنياً فقط ، كما كان الشأن مع كوبر ، فلقد كانت أم جونسن كلفنية راسخة تؤمن بأن الهلاك الأبدى قاب قوسين منها . وقد قاسى صموئيل من رهبة الجحيم إلى يوم مماته .

وعن أبيه أخذ مبادىء المحافظين ، والميول الاستيوارتية ، والشغف بالكتب . فكان يقرأ بعضهم فى مكتبة أبيه ، وقد قال لبوزويل فيما بعد ، «كنت فى الثامنة عشرة أعرف تقريباً قدر ما أعرفه الآن »[٣] . وبعد أن نال حظاً من التعليم الأولى انتقل إلى مدرسة لتشفيلد الثانوية ، وكان فى ناظرها « من الضراوة ما جعل الآباء الذين تعلموا على يديه يأبون إرسال أبنائهم إلى مدرسته »[٤] . على أنه حين سئل فى كبره كيف أتيح له أن يتمكن من اللاتينية على هذا النحو أجاب «كان معلمى يحسن ضربى بالسوط . ولولا ذلك يا سيدى لما أفلحت فى شىء»[٥] . وقد أعرب فى شيخوخته عن أسفه لإهمال العصا . « فى مدارسنا الكبرى اليوم يجلدون التلاميذ أقل مما كانوا يجلدونهم فى الماضى ، ولكن ما يتعلمونه فيها أقل ، فهم يخسرون فى طرف ما حصلوه فى الطرف الآخر »[٦] .

وفى ١٧٢٨ أتيح لأبويه من الموارد ما يسر لهما إرساله إلى اكسفورد ، وهناك راح يلتهم الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية ويزعج معلميه بعصيانه وتمرده . وفى ديسمبر ١٧٢٩ عجل بالعودة إلى لتشفيلد ، ربما لنفاد مال أبويه ، أو لأن وهمه المرضى قد قارب الجنون قربا أحوجه إلى العلاج الطبى . وعولج فى برمنجهام ؛ ثم ساعد أباه فى متجره بدلا من العودة إلى أكسفورد . فلما أن مات الأب (ديسمبر ١٧٣١) اشتغل صموئيل مدرساً مساعداً فى مدرسة بماركيت بوزوبرث . وسرعان ما مل هذا العمل بعد قليل ، فانتقل إلى برمنجهام . وسكن مع كتبى . وكسب خمسة جنيهات بترجمة كتاب

عن الحبشة ، وكان هذا مرجعاً بعيداً لقصته « راسيلاس » . وفى ١٧٣٤ ققل إلى لتشفيلد حيث كانت أمه وأخوه يواصلان العمل فى المتجر . وفى ٩ يوليو ١٧٣٥ ، قبل أن يتم السادسة والعشرين بشهرين ، تزوج إلزابث بورتر ، وكانت أرملة فى الثامنة والأربعين لها ثلاثة أطفال وتملك ٧٠٠ جنيه . وبمالها هذا افتتح مدرسة داخلية فى إديال القريبة منه . وكان من تلاميذه ديفد جاريك ، أحد صبية لتشفيلد ، ولكن لم يكن هناك ما يكفى لاستمالته إلى مهنة التعليم ، وكان التأليف يختمر فى باطنه . فكتب مسرحية سماها « أيرينى » ، وبعث بكلمة لأدورد كيف محرر « مجلة الجنتلمان » يشرح كيف يمكن تحسين تلك المجلة . وفى ٢ مارس ١٧٣٧ انطلق إلى لندن مع ديفد جاريك وجواد واحد ، ليبيع مأساته ويشق لنفسه طريقاً فى العالم القاسى .

على أن مظهره كان يعاكسه . كان نحيلا طويلا ، ولكن كان له هيكل ناتىء العظام جعله كتلة من الزوايا . وكان وجهه مبقعاً بندوب الداء الخنازيرى تهيجه مراراً انقباضة تشنجيه ، وكان جسمه عرضة لانتفاضات مزعجة ، وحديثه تؤكده حركات وإيماءات غريبة . وقد نصحه كتبى طلب عنده عملا بأن « يحصل على أنشوطة حمال ويحمل الحقائب »[٧] . والظاهر أنه تلقى بعض التشجيع من كيف ، لأنه فى يوليو عاد إلى لتشفيلد وأتى بزوجته إلى لندن .

ولم يكن خلواً من المكر . فحين هوجم كيف فى الصحف نظم جونسن قصيدة فى الدفاع عنه وأرسلها إليه ، فنشرها كيف ، وكلفه بمهام أدبية ، وانضم إلى ددسلى فى نشر قصيدة جونسن « لندن » (مايو ١٧٣٨) التى نقداه عشرة جنيهات ثمناً لها . وقد قلدت القصيدة فى غير مواريه « الهجائية الثالثة » لجوفنال ، ومن ثم أكدت الجوانب المؤسفة لمدينة لندن التى سرعان ما تعلم الكاتب أن يحبها ، كذلك كانت هجوما على حكومة روبرت ولبول ، الذى وصفه جونسن فيما بعد بأنه « خير وزير عرفته البلاد »[٨] . وكانت القصيدة من بعض نواحيها هجوماً غاضباً لشاب ظل غير واثق من قوت غده بعد أن قضى عاماً فى لندن . ومن هنا بيته المشهور « ان الكفاية تصعد ببطء لأن الفقر يوهنها »[٩] .

فى أيام الكفاح تلك جرب جونسن قلمه فى كل لون من ألوان الأدب. كتب « سير العظماء » (١٧٤٠) ، ودبج مقالات شتى لمجلة الجنتلمان ، منها تقارير وهمية عن المناقشات البرلمانية . وكان نشر المناقشات البرلمانية محظوراً حتى ذلك التاريخ ، فوقع كيف على حيلة ادعى بها أن مجلته إنما تسجل المناقشات فى « مجلس شيوخ مجنا لليبوتيا » . وفى ١٧٤١ اضطلع جونسن بهذه المهمة . ومن المعلومات العامة التى اجتمعت له عن سير النقاش فى البرلمان ألف خطباً نسبها إلى شخصيات كانت أسماؤهم تصحيفاً لأسماء كبار المجادلين فى مجلس العموم[١٠] . وكان فى هذه التقارير من مظهر الصدق ما أوقع فى روع الكثير من القراء أنها تقارير حرفية ، واضطر جونسن إلى أن ينبه سموليت (الذى كان يكتب تاريخاً لانجلترا) إلى عدم الاعتماد عليها كتقارير حقيقية . وذات مرة علق جونسن عن اطراء سمعه لخطبة نسبها إلى شاتام بقوله « هذه الخطبة كتبتها فى عليه بأكستر ستريت »[١١] . فلما أثنى بعضهم على حياد تقاريره اعترف قائلا « لقد أحسنت إنقاذ المظاهر إلى حد معقول ، ولكن حرصت على ألا يكون كلاب الهويجز هم الفائزين »[١٢] .

ترى كم كان أجره على عمله هذا ؟ لقد وصف كيف مرة بأنه « صراف بخيل » ، ولكنه صرح غير مرة بحبه لذكراه . وقد دفع له كيف تسعة وأربعين جنيهاً بين ٢ أغسطس ١٧٣٨ و ٢١ ابريل ١٧٣٩ ، وفى ١٧٤٤ قدر جونسن أن مبلغ خمسين جنيهاً فى العام « يفيض ولا ريب عن حاجات الحياة »[١٣] . غير أن الناس جروا على القول بأن جونسن كان يعيش فى تلك السنين فى فقر مدقع فى لندن . وقد اعتقد بوزويل أن « جونسن وسفدج بلغ بهما الأملاق أحياناً مبلغاً أعجزهما عن دفع إيجار مسكن ، فكانا يجوبان الشوارع ليالى بأكملها »[١٤] . وزعم ماكولى أن شهور الضنك تلك عودت جونسن قذارة الهندام و « شدة الشره » للطعام[١٥] .

وقد ادعى رتشرد سفيدج أنه ابن لأحد الأيرلات ، دون أن تقنع دعواه الناس ولكنه كان قد بات متبطلا لا يصلح لشىء حين لقيه جونسن فى ١٧٣٧ . وقد جابا الشوارع لأنهما أحبا الحانات أكثر مما أحبا مسكنيهما . ويذكر بوزويل « بكل ما يمكن من احترام ولياقة .» .

أن سلوك جونسن بعد مجيئه إلى لندن ، ومعاشرته لسفدج وغيره ، لم يكن فيهما شديد الالتزام بالفضيلة ، فى إحدى النواحى ، كما كان وهو أصغر سناً . وقد عرف عنه أن ميوله الغرامية كانت قوية عاتية إلى حد غير عادى . واعترف لكثير من أصدقائه أنه اعتاد أن يأخذ نساء المدينة إلى الحانات ، ويستمع إليهن وهن يروين سيرتهن . وباختصار يجب ألا نخفى أن جونسن ، كغيره من الرجال الطيبين الأتقياء الكثيرين (أكان بوزويل ذاكراً بنفسه وهو يقول هذا ؟) . . . لم يكن خلواً من النوازع التى كانت على الدوام « تشن حرباً على ناموس عقله » — وأنه فى معاركه معها كان يهزم أحياناً »[١٦] .

وقد رحل سفدج عن لندن فى يوليو ١٧٣٩ ومات فى سجن للمدنيين عام ١٧٤٣ . وبعد ذلك بعام أصدر جونسن « سيرة رتشرد سفدج » ، وهو كتاب وصفه هنرى فيلدنج بأنه « قطعة من الأدب لا تقل أنصافاً وإجادة عن أى قطعة قرأتها من نوعها »[١٧] . وكانت هذه السيرة إرهاصاً بكتاب جونسن « سير الشعراء » (وقد ضمنت فيه) . ونشرت السيرة غفلا من اسم الكاتب ، ولكن سرعان ما اكتشف أدباء لندن أن جونسن كاتبها . وبدأ الكتبيون يرون فيه الرجل المؤهل لتصنيف قاموس للغة الانجليزية .

٢ — القاموس : ١٧٤٦ — ٥٥

كتب هيوم قبل ذلك فى ١٧٤١ يقول « إنا لا نملك قاموساً للغتنا ، ولا نكاد نملك أجرومية متوسطة الجودة »[١٨] . وكان فى هذا مخطئاً ، لأن نثانائيل بيلى كان قد أصدر فى ١٧٢١ « قاموساً انجليزياً ايتمولوجيا جامعاً » ، وكان لهذا القاموس أسلاف قريبة الشبه بالمعاجم . ويبدو أن اقتراح تصنيف قاموس جديد جاء من روبرت ددسلى فى حضور جونسن ، الذى قال أعتقد أنى لن أضطلع به »[١٩] . ولكن حين انضم كتبيون آخرون إلى ددسلى وعرضوا ١,٥٧٥ جنيهاً على جونسن ان التزم بالمهمة ، وقع العقد فى ١٨ يونيو ١٧٤٦ .

وبعد إطالة الفكر وضع فى أربع وثلاثين صحيفة « خطة لقاموس للغة

الانجليزية » وطبعها . ثم أرسلها إلى عدة أشخاص منهم اللورد تشسترفيلد ، الذى كان يومها وزيراً للدولة ، ومعها ثناء مشرب بالأمل على نبوغ هذا الأيرل فى الانجليزية وغيرها من ضروب المعرفة . ودعاه تشسترفيلد للحضور ، فذهب جونسن ، ونفحه الأيرل بعشرة جنيهات وكلمة تشجيع . ثم قصده جونسن ثانية بعد حين ، فأبقاه منتظراً ساعة ، غادر بعدها المكان غاضباً ، وطلق فكرة إهداء قاموسه إلى تشسترفيلد .

وشرع فى مهمته على هون ، ثم ازداد همة ونشاطاً ، لأنه كان ينقد أجره منجماً . وحين وصل إلى كلمة Lexicographer (المعجمى) عرفها بهذه العبارة «كاتب للقواميس . كادح لا يؤذى أحداً» وكان الرجاء يحدوه بإنجاز العمل فى ثلاث سنوات . فاستغرق منه تسعا . وفى ١٧٤٩ انتقل إلى جف سكوير ، المقابل لفليتستريت ، واستأجر خمسة سكرتيرين أو ستة دفع من جيبه أجرهم ، وأقامهم بالعمل فى غرفة بالطابق الثالث . وقرأ أعلام كتاب القرن الواقع بين عامى ١٥٥٨ و ١٦٦٠ — ابتداء من ارتقاء إليزابث الأولى العرش إلى ارتقاء تشارلز الثانى ، فقد كان يعتقد أن اللغة الانجليزية بلغت فى تلك الحقبة أبعد شأوها ، وقصد أن يتخذ لغة الحديث الأليزابيثى — الاستيوارتى معياراً يرسى عليه قواعد الاستعمال الجيد للغة . وكان يضع خطاً تحت كل جملة يريد اقتباسها لإيضاح استعمال كلمة ما ، ودون فى الهامش الحرف الأول من الكلمة المراد تعريفها . وأصدر تعليماته لمعاونيه بأن ينسخوا كل جملة مخططة على جزازة منفصلة ، ويدخلوا هذه فى مكانها الأبجدى من قاموس بيلى ، الذى استعان به منطلقاً ومرشداً .

وخلال هذه السنين التسع اقتنص أجازات كثيرة من تعاريف قاموسه ، وكان أحياناً يستسهل نظم قصيدة عن تعريف لفظ . فنى ٩ يناير ١٧٤٩ نشر قصيدة من اثنتى عشرة صفحة عنوانها « بطلان الرغبات البشرية » ، وكانت كسابقتها « لندن » التى نظمها قبل عشر سنين تقليداً لجوفينال من حيث الشكل ، ولكنها عبرت بقوة هى قوته هو دون غيره . وقد ظل ساخطاً على فقره وعلى إهمال تشسترفيلد له :

فانظر أى شرور تعدو على حياة الأديب

الكدح ، والحسد ، والفقر ، والراعى المتفضل ، والسجن .
ثم ما أشد بطلان انتصارات المحارب !
تأمل تشارلز الثانى عشر ملك السويد :
ترك الاسم ، الذى كان يصفر لذكره وجه الدنيا ،
ليدل الناس على عبرة أو ليجمل قصة [٢٠] .

إذن فما أغبى الأمل فى طول العمر بينما نرى بطلان الشيخوخة وخديعتها وآلامها : كالعقل يشرد فى حكايات مكررة ، والحظ يهتز مع أحداث كل يوم ، والأبناء يتآمرون على الميراث ويتحسرون على تباطؤ الموت ، بينما « تغير أوصاب لا حصر لها على المفاصل ، وتضرب نطاقاً على الحياة ، وتضيق الخناق على هذا الحصار الرهيب »[٢١] . وما من سبيل للفرار من الآمال الباطلة والفناء المحقق إلا سبيل واحدة : هى الصلاة ، والإيمان بإله عنده الخلاص والثواب .

ومع ذلك كان لهذا المتشائم لحظات استمتع فيها بالسعادة . ففى ٦ فبراير ١٧٤٩ أخرج جاريك مسرحيته « أيرينى » . وكان حدثاً خطيراً فى نظر جونسن ، فاغتسل ، وشد على كرشه بصدرية قرمزية موشاة بمخرمات ذهبية ، وأزدهى بقبعة لها ذات الحلية ، وراح يرقب صديقه وهو يلعب دور محمد الثانى أمام السيدة كيبر التى لعبت دور أيرينى ، واستمر عرض المأساة تسع ليال ، وأتت لجونسن بحصيلة قدرها مائتا جنيه ، ولم تبعث بعدها قط ، ولكن ددسلى نقده مائة أخرى لقاء حق التأليف . وحقق الآن (١٧٤٩) من الشهرة والثراء ما أتاح له تأسيس ناد ، ليس هو « النادى» (Club) « الذى جاء بعدخمسة عشر عاماً ، بل « نادى آيفى لين» ، وهو اسم منقول عن الشارع الذى اعتاد فيه جونسن أن يلتقى فى حانة كنجز هد بهوكنز وسبعة أصحاب آخرين كل مساء ثلاثاء يأكلون البفتيك ويتبادلون الآراء المتحيزة . يقول جونسن « إلى هناك كنت أختلف دائماً »[٢٢] .

وكان فى كل ثلاثاء وجمعة ، من ٢١ مارس ١٧٥٠ إلى ١٤ مارس ١٧٥٢ ، يكتب مقالا صغيراً ينشره كيف تحت عنوان « الجوال » (رامبلر) ،

ويتقاضى على ذلك أربعة جنيهات فى الأسبوع . وكان المبيع من المقالات يقل عن خمسمائة نسخة ، وخسر كيف فى هذه المغامرة ، ولكنها حين جمعت فى كتاب طبع منه اثنا عشرة طبعة قبل وفاة جونسن . فهل نعترف بأننا لم نجد طرافة إلا فى عددين هما ١٧٠ و ١٧١[٢٣] ، وفيهما جعل جونسن مومساً تدل الناس على عبرة وتجمل قصة ؟ وقد شكا النقاد من إسراف الأسلوب، والألفاظ فى الطول على الطريقة اللاتينية ، ولكن بوزويل ، فيما بين أوزاره ، وجد عزاء وراحة فى حضن جونسن قراءه على التقوى[٢٤] .

وكان جونسن يعانى توتراً غير عادى فى تلك السنوات ، لأن ذهنه أرهقته التعاريف ، ومعنويته هبط بها تدهور حال زوجته . ذلك أن « تتى » راحت تهدىء آلام الشيخوخة والوحدة بالخمر والأفيون . وكثيراً ماكانت تقصى جونسن عن فراشها)[٢٥] . ونادراً ماكان يصطحبها حين يتناول طعامه خارج الدار . يقول الدكتور تيلر ، وكان يعرفهما معرفة وثيقة ، إنها « كانت البلاء الذى نكبت به حياة جونسن ، وكانت ثملة إلى درجة بشعة ، حقيرة من جميع الوجوه ، وكان جونسن يشكو مراراً . . . من وضعه مع زوجة كهذه »[٢٦] ، غير أن موتها (٢٨ مارس ١٧٥٢) أنساه عيوبها ، فبات مفتوناً بها بعد موتها فتنة أضحكت أصحابه . وأطرى فضائلها ، ورثى لوحدته ، ورجا أن تتشفع له عند المسيح[٢٧] . يقول بوزويل وهو يستحضر تلك الحقبة « لقد أخبرنى أنه كان عادة يخرج من داره فى الرابعة مساء ، وقل أن يعود إلا فى الثانية صباحاً . . . وكان منتجعه هو حانة ميتربفليت ستريت ، حيث كان يحب أن يطيل السهر »[٢٨] .

على أن جونسن كان يرهب الوحدة . ومن ثم فقد أتى بآنا وليمز إلى بيته فى جف سكوبر (١٧٥٢) ، وكانت شاعرة ولزية تكاد تفقد بصرها . ثم فشلت جراحة أجريت لعلاجها ، فكف بصرها تماماً . وقد مكثت مع جونسن حتى وفاتها (١٧٨٣) باستثناء فترات قصيرة تخللت هذه الفترة ، تشرف على إدارة البيت والمطبخ ، وتقطع شرائح الشواء — وتحكم على امتلاء الأقداح دون مرشد غير أصابعها . أما احتياجات جونسن الأخص فقد اتخذ لقضائها (١٧٥٣) خادماً زنجياً يدعى فرانك باربر ، ظل يلازمه

تسعة وعشرين عاما . وقد أدخله جونسن المدرسة ، وجهد ليجعلة يتعلم اللاتينية واليونانية ، وخلف له تركة لايستهان بها . واستكمالا لمقومات هذه المنشأة دعا جونسن طبيباً مهجوراً منبوذاً يدعى روبرت لفيت ليسكن معه (١٧٦٠) . وقد ألف ثلاثتهم بيتاً كثير الشجار ، ولكن جونسن كان شاكراً لصحبتهم .

وفى يناير ١٧٥٥ دفع بآخر فروخ «القاموس» إلى الطابع ، الذى حمدالله على قرب خلاصه من هذا العمل وهذا الرجل . ونمى إلى تشسترفيلد نبأ القاموس الوشيك الظهور ، وكان يأمل أن يصدره صاحبه بعبارة إهداء اه . وحاول أن يكفر عن قصر نظره فى الماضى بمقالين كتبهما لإحدى المجلات يرحب فيهما بالأثر الأدبى المرتقب ، ويطرى جونسن أديباً يسره أن يرتضيه حكماً لايرد فى استعمال الانجليزية الفصحى . غير أن المؤلف المعتز بكرامته أرسل إلى الأيرل (٧ فبراير ١٧٥٥) رسالة وصفها كارليل بأنها «نفخة بوق الحشر الذائعة الصيت التى أعلنت أن نظام رعاية الأدب يجب ألا تقوم له قائمة» :

سيدى اللورد :

أبلغنى صاحب مجلة «ورلد» مؤخراً أن فخامتكم كاتب المقالين اللذين زكيا قاموسى لجمهور القراء . . . وإن تنويهكم بفضلى لشرف لا أدرى كيف أستقبله أو بأى عبارات أعرب عن اعترافى به لقلة تعودى على أفضال العظماء .

سيدى اللورد ، لقد انقضت اليوم سبع سنوات منذ انتظرت فى حجرتك الخارجية أو رددت عن بابك ، ورحت خلال هذه الحقبة أدفع عملى خلال مصاعب من العبث أن أشكو منها ، حتى بلغت به آخر الأمر حافة النشر ، دون أن تسدى إلى يد واحدة ، أو كلمة تشجيع واحدة ، أو ابتسامة عطف واحدة . ومثل هذه المعاملة لم أتوقعها ، لأنه لم يكن لى راع بتاتاً قبل ذلك .

أليس راعى الأدب يا سيدى اللورد ذلك الذى ينظر فى غير اكتراث إلى رجل يصارع من أجل الحياة فى الماء ، حتى إذا بلغ اليابسة أثقله بمساعدته ؟

إن الاهتمام الذى طاب لك أن تبديه نحو جهودى كان كريماً لو أنه جاء مبكراً ، ولكنه تأخر حتى أمسيت عديم الاكتراث له ، عاجزاً عن الاستمتاع به ، وحتى بت وحيداً لا أستطيع اشراك غيرى فيه ، معروفاً لا حاجة بى إليه . وأرجو ألا يعد من القسوة البالغة السخرية ألا أعترف بأفضال لم أتلق منها نفعاً ، أو أن أكره أن يعدنى الجمهور مديناً لراع بما مكنتنى العناية الإلهية من أن أؤديه لنفسى .

وإننى إذ مضيت بعملى هذا الشوط بقدر ضئيل جداً من الدين لأى راع للأدب ، فلن يفت فى عضدى أن أنهى العمل بقدر أضأل إن كان هذا القدر متاحاً ، ذلك أننى أفقت منذ أمد بعيد من حلم الأمل الذى كنت يوماً ما أعتز به فى اغتباط شديد .

وإننى يا سيدى اللورد

خادمكم المتواضع المطيع

صموئيل جونسن [٢٩] .

أما تعليق تشسترفيلد الوحيد على الرسالة فهو أنها «كتبت كتابة جيدة جداً» ، وهى فى الحق آية من آيات نثر القرن الثامن عشر ، بريئة تماماً من المشتقات اللاتينية التى كانت أحياناً تعوق أسلوب جونسن وتثقله . ولا بد أن كاتبها كان عميق الإحساس بها والتفكير فيها ، لأنه تلاها على مسامع بوزويل من الذاكرة بعد ست وعشرين سنة[٣٠] ، ولم تنشر الرسالة إلا بعد موت جونسن . ولعل غيظه شوه حكمه على «رسائل تشسترفيلد لولده» بأنها — «تعلم أخلاقيات بغى ، وعادات معلم رقص»[٣١] .

وذهب جونسن إلى أكسفورد فى مطالع ١٧٥٥ ، من جهة ليرجع إلى المكتبات ، ومن جهة أخرى ليقترح على صديقه توماس وارتن أنه مما يعين على رواج القاموس أن يستطيع مؤلفه إضافة درجة جامعية إلى اسمه . ودبر وارتن الأمر ، وفى مارس خلعت على جونسن درجة أستاذ آداب فخرية . وهكذا صدر القاموس آخر الأمر ، فى مجلدين من القطع الكبيرة بلغا قرابة ٢,٣٠٠ صفحة ، وحدد له ثمناً أربعة جنيهات وعشرة بنسات . وفى ختام المقدمة أعلن جونسن أن .

« القاموس الانجليزى ألف بمساعدة ضئيلة من المثقفين ، ودون أى رعاية من العظماء ، ولم يؤلف فى هدوء العزلة الناعم ، ولا تحت الظلال الجامعية الوارفه ، بل فى غمار العناء والحيرة ، وفى جو المرض والحزن ، ولعله مما يكبح انتصار أصحاب النقد الخبيث أن يلاحظوا أنه إذا كانت لغتنا الانجليزية لم تحظ هنا بعرض كامل ، فعذرى أننى إنما فشلت فى محاولة لم تنجزها كمدرات البشر إلى الآن . . . لقد أطلت عملى حتى طوى القبر أكثر من كنت أبغى إدخال السرور إلى أفئدتهم ، وبات النجاح والإخفاق أصواتاً فارغة ، ومن ثم فإنى أطلقه فى هدوء لا يبالى ، إذ ليس هناك ما أخشاه أو أرجوه من اللوم أو المديح » .

وما كان فى الإمكان أن يتوقع من النقاد أن يدركوا أن قاموس جونسن عين قمة ، وخطاً فاصلا فى أدب القرن الثامن عشر الإنجليزى ، كما عينت موسوعة ديدرود الأمبير (١٧٥١ — ٧٢) قمة ونقطة تحول فى أدب فرنسا . ولقد كان هناك ضحك كثير على عيوب عارضة فى عمل جونسن . فبين المواد التى بلغت أربعين ألفاً ألفاظ غريبة مثل gentilitious و sygilates (وهما لفظان يحتفظ بهما قاموس وبستر باحترام) . وحوى القاموس تعريفات غاضبة كتعريف كلمة « معاش » pension « مكافأة تمنح لإنسان بدون مقابل . والكلمة فى انجلتره تفهم عموماً على أنها تعنى راتباً يدفع لأجير للدولة نظير خيانته لوطنه » . أو كلمة excise (ضريبة الإنتاج) « ضريبة بغيضة على السلع » . ثم هناك نكت شخصية كما فى تعريف كلمة oats (الشوفان) « غلة تطعم بها الخيل فى انجلتره عادة ، ولكنها فى اسكتلنده يقتات بها الآدميون » — وكان هذا صحيحاً لا غبار عليه . وسأل بوزويل جونسن ان كانت المدنية civilization كلمة : فقال لا ، ولكن civility (الكياسة) [٣٢] . كلمة . . وكثير من « اتمولوجيات » جونسن (تتبع أصول الكلمات وتاريخها) يرفض اليوم ، فقد كان يعرف الكثير من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية ، ولكنه كان ضئيل العلم باللغات الحديثة ، وقد اعترف صراحة أن « الاتمولوجيا » نقطة الضعف فيه[٣٣] . وقد عرف كلمة Pastern بأنها « ركبة الحصان » (وصحتها جزء من قدم الحصان) . وحين سألته سيدة كيف

حدث أنه وقع فى خطأ كهذا ؟ أجاب « الجهل يا سيدتى ، الجهل المطبق »[٣٤] ، ولم يكن فى استطاعته تجنب العثرات فى قاموس بهذه الضخامة كل صفحة فيه تفتح أبواباً كثيرة للزلل .

ولقد لقى إنجاز جونسن العظيم التقدير خارج وطنه . فأهدته الأكاديمية الفرنسية نسخة من قاموسها ، وأهدته أكاديمية ديللاكروسكا الفلورنسية قاموسها[٣٥] . وراج القاموس رواجاً أرضى الكتبيين ، فنقدوا جونسن أجر تجهيز طبعة مختصرة . وظل القاموس المطول قياسياً حتى حل محله « نوح ويستر » فى ١٨٢٨ . وقد وضع القاموس جونسن فى قمة المؤلفين الإنجليز فى عصره ؛ والواقع أن جونسن اكتسب سلطان الحكم الذى لايرد له حكم فى الأدب الإنجليزى ، إذا استثنينا أدباء أرستقراطيين مثل هوراس ولبول . وهكذا بدأ حكم « خان الأدب الأكبر » *

٣ — الحلقة المسحورة

على أنه لم يكن فوق الاعتقال بسبب الدين . ذلك أنه أنفق أجره الذى تقاضاه عن القاموس بالسرعة التى أتاه بها . ففى ١٦ مارس ١٧٥٦ كتب إلى صموئيل رتشرد سن يقول : « سيدى ، انى مضطر إلى طلب معونتك ، فأنا الآن مقبوض على لأننى مدين بخمسة جنيهات وثمانية عشر شلناً . . . فإذا تفضلت بموافاتى بهذا المبلغ رددته لك شاكراً ، مضيفاً إياه إلى كل أفضالك السابقة »[٣٦] . وأرسل إليه رتشرد سن ستة جنيهات . وكان يكسب قوته فى تلك الحقبة بتحرير المقالات للمجلات ، وبتأليف المواعظ بجنيهين للعظة لرجال الدين الذين لم يوهبوا القدرة الكبيرة على البيان ، وبجمع الاكتتابات مقدماً عن طبعة من مؤلفات شكسبير وعد بتحقيقها ، وبكتابه مقال أسبوعى لليونفرسل كرونكل (١٥ ابريل ١٧٥٨إلى ٥ ابريل ١٧٦٠ (باسم « العاطل » وكانت هذه المقالات أخف روحاً من « الرمبلر » ، ولكنها مع ذلك أشد جداً وثقلا مما يحتمله القراء الذين يتحرون الجرى فى القراءة . وقد ندد مقال

(*) Cham, The Great Cham معناها خان ويبدو أن العبارة استعملها سمولت أولا ، فى رسالة إلى ويلكس مؤرخة ١٦ مارس ١٧٥٩ .

منها بتشريح الحيوان الحى ، وشهر آخر بسجون المدينين . ورثى المقال رقم ٥ لانفصال الجند عن زوجاتهم ؛ واقترح تأليف فرق من « الفارسات الخفاف » يقمن بأعمال التموين والتمريض ، ويرحن أزواجهن فيما عدا هذا ».

وفى يناير ١٧٥٩ بلغه أن أمه ذات التسعين ، التى لم يرها منذ اثنين وعشرين عاما ، مشرفة على الموت . فاقترض نقوداً من طابع ، وبعث إليها بستة جنيهات فى رسالة رقيقة . ووافاها الأجل فى ٢٣ يناير . ولكى يغطى نفقات جنازتها وديونها كتب فى أمسيات أسبوع واحد (فى رواية رينولدز) « تاريخ راسيلاس أمير الحبشة » وأرسله إلى الطابع جزءاً فجزءاً ، ونقد عنه مائة جنيه . فلما نشر فى ابريل رحب به النقاد أثراً من عيون الأدب ، وقارنوا بينه وبين قصة فولتير «كانديد » التى صدرت فى الوقت نفسه تقريباً وعالجت المشكلة ذاتها : أيمكن أن تأتى الحياة بالسعادة ؟ أما جونسن فلم يؤخر الجواب ، « يا من تستمعون وأحلام الأمل تراودكم ، وتتوقعون أن تحقق الشيخوخة وعود الشباب ، وأن الغد سيعوض عن نقائص اليوم . انتبهوا لتاريخ راسيلاس »[٣٧] .

يقول جونسن أنه كان من عادة الملوك الأحباش أن يلزموا وريث العرش وادياً طيباً خصباً حتى يأتى الوقت لاعتلائه العرش . وكان يزود بكل شىء : بقصر ، وطعام طيب ، وحيوانات مدلله ، ورفاق أذكياء . ولكن راسيلاس يزهد فى هذه المباهج حين يبلغ السادسة والعشرين . فهو لايفتقد الحرية فحسب بل الكفاح أيضاً . « سأكون سعيداً لو كان أمامى هدف أسعى نحوه » . فيطيل الفكر فى كيفية الهروب من هذا الوادى المطمئن ليرى كيف يسعى غيره من الرجال إلى السعادة وكيف يجدونها .

ويقترح ميكانيكى حاذق أن يبنى آلة طائرة تحلق بهما فوق الجبال المحيطة إلى الحرية . ويشرح فكرته هكذا :

« ان الذى يستطيع السباحة يجب ألا ييأس من إمكان الطيران . فالسباحة طيران فى سائل أكثف ، والطيران سباحة فى عنصر أخف . وما علينا إلا أن نحقق التناسب بين قوة مقاومتنا وكثافة المادة المختلفة التى نخترقها . فسيحملك الهواء بالضرورة إذا استطعت تحديد أى دفع يدفعه بأسرع مما

يستطيع الهواء أن يتراجع من الضغط . . وسيكون جهد الارتفاع عن الأرض شديداً . . ولكننا كلما ارتفعنا قلت جاذبية الأرض وثقل الجسم تدريجياً حتى نبلغ منطقة يطفو فيها الإنسان فى الهواء دون أى ميل للسقوط» .

ويشجع راسيلاس الميكانيكى ، فيوافق على صنع طائرة ، «ولكن بشرط ، وهو ألا يفشى سر هذه الصنعة ، وألا تلزمنى بأن أصنع أجنحة لسوانا» . ويسأله الأمير «ولم تضمن على غيرك بمثل هذه الفائدة الكبرى ؟» ويجيب الميكانيكى «لو كان الناس كلهم فضلاء لعلمتهم بغاية الخفة أن يطيروا . ولكن أى ضمان للأخيار إذا كان فى استطاعة الأشرار إن شاءوا أن يغزوهم من الجو ؟» ثم يصنع طائرة ، ويحاول الطيران ، فيسقط فى بحيرة ينقذه منها الأمير[٣٨] .

ويؤثر راسيلاس التحدث إلى الفيلسوف إيملاك ، الذى شهد كثيراً من الأقطار والناس . ويجدان كهفاً يفضى إلى ممر يؤدى إلى العالم الخارجى ، ويهربان من فردوسهما مع أخت الأمير نكاياه وخادمتها . ثم يزورون القاهرة وقد تزودوا بالحلى عملة عالمية ، ويشاركون فى ملاهيها ثم يملونها ، ويستمعون إلى فيلسوف رواقى يتحدث عن قهر الشهوات ، وبعد أيام يعثرون عليه وقد برح به الحزن على موت ابنته . وإذ كانوا قد قرءوا الشعر الرعوى فقد افترضوا أن رعاة الغنم لا بد سعداء ، ولكنهم اكتشفوا أن هؤلاء الرجال «تقرحت سخطاً» و «حقداً وضغينة على من هم أعلى منهم مكانة»[٣٩] . ثم يقعون على ناسك ، فيتبينون أنه يتوق سراً إلى مباهج المدينة . ويستفسرون عن سعادة الحياة البيتية ، فيجدون كل بيت قد خيم عليه ظلام الشقاق و «الصدام القاسى بين الرغبات المتعارضة»[٤٠] . ويرتادون الأهرام ويحكمون عليها بأنها قمة الحماقة . ويسمعون عن الحياة السعيدة التى يحياها الدارسون والعلماء ، فيلتقون بفلكى مشهور ، يخبرهم أن «الأمانة بغير المعرفة ضعيفة عديمة الجدوى ، والمعرفة بغير الأمانة خطيرة رهيبة»[٤١] ، ولكن الفلكى يجن . وينتهون إلى أنه ما من طريق من طرق الحياة على الأرض يفضى إلى السعادة ، ثم يعزيهم إيملاك بحديث عن خلود النفس ، ويعتزمون

العودة إلى الحبشة والرضى بتقلبات الحياة فى هدوء تحدوهم الثقة فى قيامة سعيدة .

وهى قصة قديمة تجسدت فى صورة من أبدع صورها . ويدهشنا ذلك التدفق الجميل والوضوح الذى يتميز به الأسلوب ، الذى يعد كل البعد عن الألفاظ الثقيلة التى نجدها فى مقالات جونسن بل حتى فى حديثه . وبدا مستحيلا أن يكون المعجمى المتفقه هو كاتب هذه القصة البسيطة ، وأنه مما لايصدق أن يكون قد كتب هذه الصفحات التى بلغت ١٤١ فى سبعة أيام .

وكان أثناء ذلك قد انتقل من جف سكوير إلى ستيبل إن (٢٣ مارس ١٧٥٩) ؛ وستراه بعد قليل وقد انتقل إلى جريز إن ، ثم إلى الأنر تمبل لين . والراجح أن هذه التنقلات كان دافعها الاقتصاد فى النفقة . ولكن فى يوليو ١٧٦٢ رفع جونسن فجأة إلى حالة من الثراء النسبى بفضل معاش سنوى قدره ٣٠٠ جنيه نفحه به جورج الثالث بناء على نصيحة اللورد بيوت . أما السبب فى أن هذه المنحة كانت من نصيب رجل كان قد عارض الأسرة الهانوفريه فى إصرر ، وسخر من الإسكتلنديين فى كل مناسبة ، ووصف المعاش بأنه « أجر يدفع لأجير للدولة نظير خيانته لوطنه » ، — هذا السبب دار حوله الكثير من قصص الأسرار . فاتهمه أعداؤه بأنه يؤثر المال على المبدأ ، وزعموا أن بيوت كان يبحث عن قلم جبار يرد على ولكس ، وتشرشل ، وغيرهما ممن كانوا يشوهون سمعته بكتاباتهم . وزعم جونسن أنه قبل المعاش على أساس صريح أكده بيوت مرتين ، هو ألا يطلب إليه أن يؤيد الحكومة بقلمه[٤٢] . وقد أسر إلى بوزويل بأن « لذة لعن بيت هانوفر ، وشرب نخب الملك جيمس ، ترجحها المئات الثلاث من الجنيهات فى العام رجحاناً كبيراً »[٤٣] . على أى حال فقد استحق المعاش أضعافاً مضاعفة ، لا عن الكراسات السياسية التى كتبها فى السنين اللاحقة ، بقدر استحقاقه إياه عن إثرائه الأدب الانجليزى بالقلم والحديث وبالحكمة والنكتة المطهرة .

وكان له من الأصدقاء عدد يكفى لتشتيت الأعداء . يقول « ان الصداقة هى الشراب المنعش الذى يعين المرء على ابتلاع جرعة الحياة المقززة »[٤٤] . وكان فى كل محفل تقريباً من المحافل التى يختلف إليها يصبح محور الحديث ، لا لأنه شق طريقه بالقوة إليه ، بل لسبب أهم هو أنه كان أعظم شخصية متفردة فى حلقات لندن الأدبية . وكان فى استطاعة سامعيه أن يثقوا بأنه سيقول شيئاً كلما تكلم . ورينولدز هو الذى اقترح تأليف « النادى » الذى سماه بوزويل فيما بعد « النادى الأدبى » ، وأيد جونسن الاقتراح ، وفى ١٦ أبريل ١٧٦٤ بدأت الجماعة الجديدة لقاءاتها فى أمسيات الإثنين بحانة « تيركس هد » فى شارع جرارد بحى سوهو ، أما الأعضاء الأصليون فهم رينولدز ، وجونسن ، وبيرك ، وجولدسمث ، وكرستوفر نجنت ، وتوبهام بوكلرك ، وبنيت لانجتن ، وأنتونى كامبن ، والسرجون هوكنز . وأضيف إلى هؤلاء فيما بعد آخرون بتصويت الأعضاء : جبون ، وجاريك ، وشريدان ، وفوكس ، وآدم سمث ، ودكتور بيرنى . . .

ولم يظفر بوزويل بالعضوية إلا فى ١٧٧٣ ، وقد يكون بعض السبب أنه لم يكن يفد على لندن إلا لماما . ولم ينفق خلال السنين الإحدى والعشرين ، بين التقائه بجونسن ووفاة جونسن ، أكثر من عامين وبضعة أسابيع على قرب من معبوده . وكان فى حرارة إعجابه التى لم يخفها ، وفى علم جونسن بأن بوزويل يخطط لكتابة سيرته ، ما جعل أكبر الرجلين يغفر ما أبداه الاسكتلندى من مسلك يقرب من العبادة المتملقة . والمتكلم المجيد للكلام ، والمستمع المجيد للاستماع ، يؤلفان صاحبين سعيدين . ولم يكن جونسن شديد الاحترام لعقلية بوزويل . فحين قال « بوزى » ، كما كان يلقبه ، أن النبيذ الذى شربه أثناء تنديمهما أصابه بصداع ، قال جونسن مصححاً : لا يا سيدى ، ليس النبيذ هو الذى صدع رأسك ، بل المعنى الذى وضعته أنا فيه » . وقال بوزويل متعجباً « ماذا يا سيدى ! وهل يصدع المعنى الرأس ؟ » « نعم يا سيدى ، إذا لم يكن معتاداً عليه »[٤٥] . (وفى « السيرة » فقرات يبدو فيها بوزويل يتكلم كلاماً معقولا عن كلام جونسن) . وفى معرض الثناء على ملحمة بوب عن المغفلين (الدنسياده) لاحظ جونسن أنها خلعت على بعض المغفلين ذكراً خالداً ، ثم واصل نكتته : « لقد كانت

الغفلة يومها أمراً جديراً بالاهتمام . . آه ، ياسيدى ، لو إنك عشت فى تلك الأيام ! »[٤٦] . ولكن الدب الشائخ لم يلبث أن تعلم أن يحب شبله ، فقال له فى ١٧٦٣[٤٧] « قليل من الناس من آنس إليه أنسى إليك » ، وقال « ان بوزويل لم يغادر قط بيتاً دون أن يترك فيه رغبة فى عودته »[٤٨] . وفى ١٧٧٥ أعطى بوزويل حجرة فى مسكن جونسن لينام فيها حين يمتد بهما الحديث إلى ساعة متأخرة من الليل[٤٩] .

وفى ٣١ مارس ١٧٧٢ كتب فى يوميته : « إنى مصمم على كتابة سيرة المستر جونسن . وأنا لم أخبره بنيتى بعد ، ولا أدرى إن كان من واجبى أن أفعل » . ولكن جونسن علم بالأمر فى ابريل ١٧٧٣ إن لم يكن قبله[٥٠] . وعلم غيره به . وغاظتهم طريقة بوزويل فى إثارة مسائل جدلية بقصد واضح هو جر رجل الأديب العجوز والظفر بدرة جديدة للسيرة ، وافتخر الاسكتلندى الفضولى بأن « النبع كان أحياناً يسد حتى أفتح صنبوره »[٥١] ولعل جونسن الذى نعرفه ونستطيبه ماكان ليتجلى قط لولا أن حفزته إثارة بوزويل المفرطة ومطاردته التى لايعتريها الكلل . وشتان بين جونسن هذا وجونسن الذى نجده فى « السيرة » التى ألفها هوكنز ، أو حتى فى « النوادر » الرشيقة التى كتبتها مسز ثريل ! .

ويناير ١٧٦٥ هو تاريخ بداية صلة جونسن بأسرة ثريل ، وهى صلة لعبت فى حياته دوراً أكبر من صداقته لبوزويل . وكان هنرى ثريل صانع جعة ، وابناً لصانع جعة ، أصاب حظاً طيباً من التعليم وجاب الأقطار ، ولم يكن يؤمن أن يشرف وضعه الاجتماعى بانتخابه عضواً فى البرلمان . وفى ١٧٦٣ تزوج هستر لنسن سولزبرى ، وكانت فتاة ولزية لا يتجاوز طولها خمسة أقدام ولكنها مرحة ذكية . واستغرق هنرى فى عمله وهو يكبرها بإثنى عشر عاماً ، ولكنه بذل لها من الاهتمام ما كفى لجعلها تحبل كل سنة بين ١٧٦٤ و ١٧٧٨ ، ولنقل عدوى مرضه السرى إليها[٥٢] . وولدت له اثنى عشر طفلا مات منهم ثمانية فى طفولتهم وراحت تسرى عن نفسها بالأدب ، فلما جاء زوجها إلى البيت بصموئيل جونسن الذائع الصيت ، سخرت كل فنون الأنثى وملاطفاتها لتربطه بالأسرة . وسرعان ما اعتاد أن

يتعشى مع آل ثريل كل خميس فى منزلهما بسوثوارك ، وكان منذ ١٧٦٦ ينفق معهما الصيف عادة فى فلتهم الريفية فى ستريتهام بمقاطعة صرى . وجعلت السيدة ثريل من بيتها صالوناً كان قطبه جونسن ، ورواده رينولدز وجولدسمث وجاريك وبيرك ، وآل بيرنى ، وأخيراً — بوزويل — مدفوعاً بالغيرة لأنه علم أن السيدة ثريل تجمع البيانات عن نظرات بطلها وعاداته وألفاظه . وهكذا قدر لـ « السيرة » أن يكون لها منافس .

٤ — الدب الأكبر

كيف كان « الدب الأكبر » يبدو ؟ كتب بوزويل عقب لقائهما الأول (١٧٦٣) يقول : « ان مستر جونسن رجل رهيب المنظر للغاية . . . رجل كبير الحجم جداً ، يشكو التهاب العينين ، والشلل الارتجافى (تقلص عصبى لا إرادى) والداء الخنازيرى وهو رث الهندام جداً ، ويتحدث بصوت غاية فى الخشونة »[٥٣] . ووصفته السيدة ثريل حين تقدم به العمر فقالت : « كانت قامته فارعة إلى حد ملحوظ ، وأطرافه غاية فى الكبر . . أما قسماته فمحددة تحديداً قوياً ، ووجهه مضرس جداً . . وكان فى إبصاره قصر ، وفيه غير ذلك قصور ، ومع ذلك كانت عيناه شديدتى الجموح ، والنفوذ ، والضراوة أحياناً ، حتى أن الخوف منه كان فى اعتقادى أول انفعال يبدو فى عيون ناظريه »[٥٤] .

وكان جونسن يأسف على الساعات التى يجلس فيها إلى مصور يصوره باعتبارها « وقتاً مضيعاً » ، ومع ذلك فعل هذا عشر مرات حين رسمه رينولدز ، ومرة حين صنع نولكنز له تمثالا نصفياً . وفى ١٧٥٦ أبرزه السر جوشوا بديناً ثقيل الحركة [٥٥] ، وفى ١٧٧٠ رسم له صورة جانبية وجعله يبدو شبيهاً بجولدسمث [٥٦] . وفى ١٧٧٢ أسلمته أشهر صوره للأجيال اللاحقة رجلا ضخماً صعب المراس ، له شعر مستعار هائل ، ووجه ممثلىء كبير . وحاجبان هابطان فوق عينين حائرتين ، وأنف ضخم وشفتان غليظتان ، وذقن ملغد . . وكان شعره المستعار تزحه غير مرة الحركات التشنجية التى تند عن رأسه وكتفيه ويديه [٥٧] . وكان مهمل الهندام .

وقد قال لبوزويل « إن الملابس الجميلة لا قيمة لها إلا من حيث سدها النقص فى غيرها من وسائل جلب الاحترام للابسها »[٥٨] . ولم يكن يعبأ كثيراً بالنظافة الشخصية إلى أن نزل ضيفاً على آل ثريل .

وكان يأكل بشراهة ليملأ فراغ جوفه الكبير . وربما لأنه لم ينس سنوات الجوع . قال بوزويل :

« لم أعرف قط رجلا أكثر منه تلذذاً بالأكل الطيب . كان إذا جلس إلى المائدة استغرقته مهمة اللحظة استغراقاً تاماً ، فبدت نظراته وكأنها سمرت على طبقه . وما كان ليفوه بكلمة واحدة ، ولا ليبدى أقل انتباه لما يقوله غيره — إلا أن يكون فى صحبة قوم رفيعى المقام جداً — حتى يشبع شهيته التى كانت شديدة الضراوة حتى . . . لتنتفخ لها عروق جبينه عادة ويتفصد عرقاً غزيراً ملحوظاً للناظرين[٥٩] .

وكان يأكل السمك بأصابعه ، « لأنى أشكو قصر النظر ، وأخشى شوك السمك »[٦٠] . ولم يكن يطيق منظر الخضر . وكان فى الأيام التى تتعاظم فيها شهيته للطعام « يحب أن ينعش نفسه بالخمر . ولكنه لم يسكر قط غير مرة واحدة »[٦١] . وحين نددت المسز وليمز بالسكر قائلة « إنى لأعجب أى لذة يمكن أن يحس بها الرجال فى أن يجعلوا من أنفسهم حيوانات ؟» أجاب على الفور « إنى لأعجب يا سيدتى أنك لا تملكين من نفاذ البصيرة ما ترين به الإغراء القوى لهذا الإفراط فى الشراب ، لأن من يجعل نفسه حيواناً يتخلص من الألم الذى يصيبه من كونه إنساناً »[٦٢] . ولكن السكر فى رأيه « لا يعين على الارتقاء بالحديث مع الناس ، فهو يغير العقل حتى ليسر المخمور بأى حديث»[٦٣] . ثم تجنب كل ألوان المسكر فى أخريات حياته ، وقنع بالكاكاو ، وعصير الليمون ، وأقداح الشاى التى لا حصر لها . ولم يدخن قط ، « إنه لأمر رهيب أن ننفث الدخان من أفواهنا فى أفواه غيرنا من الناس وفى عيونهم وأنوفهم ، وأن يفعل الناس بنا هذا الشىء ذاته » . وعلل عادة التدخين بأنها « تحفظ العقل من الخواء التام »[٦٤] .

وكانت عاداته الفظة من جهة أثراً خلفته الأيام والليالى التى قضاها فى قاع المجتمع ، ومن جهة نتيجة للمثيرات البدنية والمخاوف العقلية . لقد كان

قوياً ، فخوراً بقوته ، استطاع أن يصرع كتبياً دون أن يخشى رده للثأر لنفسه ، وأن ينتزع من مكانه رجلا جرؤ على احتلال كرسى أخلاه جونسن مؤقتاً ويطرحه جانباً ؛ وقد امتطى جواداً وصاحب ثريل فى رحلة صيد للثعالب عبر الريف امتدت خمسين ميلا . ولكنه وجد مشقة فى حمل بدنه الثقيل . « حين كان يسير فى الشوارع ، كان يبدو الدوران رأسه المتصل وما رافقه من حركة بدنه كأنه يشق طريقه بتلك الحركة مستقلا عن قدميه»[٦٥]. فإذا ركب « لم يملك زمام جواده ولا توجيهه حيث يشاء ، بل كان يحمل وكأنه فى بللون »[٦٦] .

وبعد ١٧٧٦ كان يعانى من الربو والنقرس والاستسقاء . ولا بد أن هذه الأمراض وغيرها من أوصاب البدن زادت مزاجه السوداوى حدة ، وكان أحيانا يصيبه بغم شديد حتى « أننى لأرضى بأن يبتر منى عضو استرد بعدها مرحى »(٦٧(ولم يكن ليؤمن بأن بين الناس إنساناً سعيداً ، ومرة قال عن رجل زعم انه سعيد « هذا كله هراء ، ان الكلب يعرف أنه تعس طوال الوقت »[٦٨] .

وبعد أن أخبره طبيب بأن الوهم المرضى يفضى أحياناً إلى الجنون ، خاف أن يلتاث عقله يوماً ما [٦٩] . وقد أجرى هذه العبارة على لسان إملاك فى قصة « راسيلاس » ، « أن أبشع الشكوك وأكثرها إزعاجاً فى حالتنا الراهنة هى الشك فى احتفاظنا بسلامة عقولنا »[٧٠] .

وإذا كان يشكو قصراً فى بصره فإنه لم يجد لذة تذكر فى تأمل جمال النساء أو الطبيعة أو الفن[٧١] . وكان رأيه فى النحت أن الناس غالوا فى تقديره ، « ان قيمة النحت ترجع إلى صعوبته . فأنت لاتقدر أبدع رأس نحت فوق جزره .»[٧٢] . وقد حاول أن يتعلم العزف « ولكننى لم أفلح قط فى اخراج نغمة » . وسأل مرة « قل لى بربك ياسيدى من يكون باخ هذا ؟ أزمار هو؟ »[٧٣] — مشيراً إلى يوهان كرستيان باخ ، وكان يومها (١٧٧١) أشهر عازف على البيان فى انجلترة . وأحس أن الموسيقى تفسدها الحركات البهلوانية على الأصابع . ومرة سمع بأن عازف كمان نال ثناء الناس لأن

القطع التى عزفها عسيرة جداً ، فقال مندهشاً « عسيرة — ليتها كانت مستحيلة »[٧٤] .

ولابد أن رجلا أوتى هذه القوة والعافية لقى عنتاً فى التعامل مع أحلام الجنس التى تهيج حتى العقل السوى . وحين حضر حفلة الافتتاح لتمثيلية « أيرينى » وقاده جاريك إلى « الحجرة الخضراء » التى ينتظر فيها الممثلون بين المشهد والمشهد ، رفض اقتراحاً بأن يكرر هذه الزيارة . « لا يا ديفد ، لن أعود للمكان أبدا . لأن ثياب ممثلاتك البيضاء وجواربهن الحريرية تثير أعضائى التناسلية »[٧٥] . وقد أدهش بوزويل أن يسمعه يقول يوماً وهو فى جزائر الهبريد « كثيراً ما خطر لى أنه لو كنت أقتنى حريماً . . . »[٧٦] .

ويمكن القول عموماً أن نقائصه كانت أظهر من فضائله ، التى كانت لاتقل عن النقائص وجوداً حقيقياً . وفى وسعنا أن نعكس ملاحظة هوراس ولبول الذى قال « مع أنه كان طيب الطبع فى أعماقه فإنه كان سيء الطبع جداً فى قمته »[٧٧] . وقد أعرب جولدسمث عن هذا المعنى ذاته بعبارات ألطف : « إن فى سلوك جونسن خشونة ، ولكن ليس هناك إنسان حى له قلب أرق . فليس فيه من الدب إلا جلده »[٧٨]. فهذا الرجل الذى كان رث الهندام ، بايداً ، مؤمناً بالخرافة ، فظاً ، مستبد الرأى ، متكبراً ، كان أيضاً رحيماً ، عطوفاً ، كريماً ، يبادر بطلب الصفح وبالنسيان . وقد قدرت مسز ثريل أن جونسن كان يبذل ٢٠٠ جنيه من معاشه البالغ ٣٠٠ جنيه[٧٩] ، وأضافت : « كان يرعى مجاميع بأسرها من الناس فى بيته . . . وكان وهو ينفق نصف الأسبوع فى بيتنا عادة ، يحتفظ بأسرته الكبيرة العدد فى فليت ستريت مخصصاً لأفرادها نفقة ثابتة ، ولكنه يعود إليهم كل سبت ليقدم لهم ثلاث وجبات طيبة بالإضافة إلى صحبته ، قبل أن يعود إلينا فى ليلة الإثنين — باذلا لهم ذات الحفاوة والمجاملة التى كان يبذلها لمثلهم من أفراد المجتمع الراقى أو ربما أكثر منها »[٨٠] .

وكان يكتب للغير المقدمات والإهداءات والعظات وحتى الآراء القانونية ، مجاناً فى حالات كثيرة . وقد جاهد بلسانه وقلمه لينقذ الدكتور وليم دد من حبل المشنقة . وحين رأى مومساً راقدة فى الطريق (وكان فى

عامه الخامس والسبعين) وضعها على ظهره ، وحملها إلى مسكنه ، واعتنى بها حتى استعادت صحتها ، ثم « حاول أن يعينها على كسب رزق حلال »[٨١].
وقد قال جورج ستيفنز الذى تعاون معه فى التعليق على مسرحيات شكسبير « لو أن الحسنات الكثيرة التى أخفاها عمداً ، والأفعال الإنسانية التى أسداها سراً ، أعلن عنها بذات التفصيل الدقيق (كزلاته) ، لتاهت عيوبه فى وهج فضائله فلم يبق أمام الناس غير الفضائل »[٨٢] .

ولم يؤلف خلال الأعوام التسعة عشر الباقية من عمره سوى كتاب هام واحد هو « سيرة الشعراء » ، وفيما عدا ذلك أحل لسانه محل قلمه . وقد وصف نفسه بأنه « رجل يحب أن يلف ساقيه ويطلق حديثه »[٨٣] . ولو غضضنا النظر عن تلذذه بالطعام ، لوجدناه أسعد ما يكون حياة حين يتحدث إلى جماعة ذكية . وكان قد اجتمع له بالملاحظة والقراءة ذخيرة خارقة وتنوع مدهش من المعرفة بشئون البشر ، وقد حمل الكثير من هذه المعرفة فى مخزن ذاكرته وكان يرحب بفرصة التخفف منها . ومع ذلك فقلما كان البادىء بأى نقاش جاد ، وما كان يفصح عن رأيه إلا حين يثير بعضهم موضوعاً أو تحدياً . وكان يجد دائماً إغراء بأن يعارض رأى غيره ، وكان على استعداد للدفاع عن أى قضية أو عكسها ، يلتذ الجدل لعلمه بأنه لا يقهر ، ويصمم على أن تكون حجته هى الغالبة حتى ولو ماتت الحقيقة تحت ضرباته . وكان على علم بأن هذا لم يكن أرقى ضروب الحديث ، ولكنه كان واثقاً أنه ألذها . وكان إذا حمى وطيس المعركة واشتد استمتاعه بها لا يعرف المجاملة . يقول بوزويل « لم يكن يرحم أحداً منا . مرة قال لأحد مجادليه : لقد عثرت لك على حجة ، ولكنى لست ملزماً بالعثور لك على فهم »[٨٥] . يقول جولدسمث « لاسبيل للجدل مع جونسن ، فهو ان أخطأك رصاص طبنجته صرعك بمقبضها »[٨٦] ويروى بوزويل هذه القصة عنه ، « حين ألممت بالدكتور جونسن صبيحة الغد وجدته راضياً كل الرضى عن قدراته الكلامية فى البارحة . فقد قال : حسناً ، لقد استمتعنا بحديث طيب » . بوزويل « أجل ياسيدى ، لقد قذفت بالكثيرين وأثخنتهم بالجراح »[٨٧] . وقد وصفه توماس شريدان بأنه « بلطجى »[٨٨] . وجبون بأنه متعصب تعصباً

أعمى[٨٩] . وقال عنه اللورد مونبودو أنه « أشر وأخبث رجل عرفته فى حياتى ، لا يثنى على كاتب أو كتاب أثنى عليه غيره (ولكنه أثنى على قصة فانى بيرنى « افلينا ») . . . ولا طاقة له على سماع أى شخص غيره يشد انتباه الجماعة ، ولو لوقت قصير جداً »[٩٠] أما هوراس ولبول ، الآمن فى وظائفه الشرفية ، فكان يرتعد حين يخطر جونسن بباله ، وقد أجمل وصفه على النحو الذى يراه ابن رئيس وزراء من حزب الأحرار .

« كان جونسن بما ملك من سقط الثقافة وبعض الجوانب القوية شخصية كريهة خسيسة . فهو من حيث المبدأ استيوارتى ، مزهو ، مكتف بذاته ، متغطرس . . . ولقد ابتذل قلمه وسخره للحزبية حتى فى معجمه ، ثم ناقض تعريفاته بعد ذلك لقاء معاش يتلقاه . وكانت عاداته قذرة متعالية وحشية ، وأسلوبه خبيثاً طناناً إلى حد مضحك ، وباختصار كان فيه رغم كل حذلقته وتنطعه تلك التفاهة الهائلة التى تجدها فى المعلم الربنى . . فليت شعرى ماذا يحسبنا الخلف حين يقرءون أى صنم عبدنا ؟ »[٩١] .

وخير الحديث من الوجهة المثالية بالطبع هو ذلك الذى يجرى فى جماعة صغيرة مستأنية كل أفرادها مثقفون مهذبون ، أو كما أعرب جونسن فى فاصل لطيف : « أن خير الحديث ما خلا من المنافسة أو الغرور ، وكان تبادلا هادئاً مطمئناً للعواطف »[٩٢] ، ولكن متى كانت له هذه التجربة ؟ لقد قال لبوزويل وعيناه على الأرجح تومضان : « إن معاملة خصمك بالاحترام معناها إعطاؤه ميزة لا حق له فيها »[٩٣] ، ونحن الذين لم نحس قط ضرباته نغتفر له كل تلك اللطمات والإهانات والأحكام المتحيفة لأن ذكاءه وفكاهته ونظره الثاقب ، وإيثاره الحقائق الواقعية على الادعاءات الكاذبة ، والصراحة على الرياء ، وقدرته على حشد الحكمة فى عبارة ، — كل هذا يجعله شخصية من أشد الشخصيات سيطرة فى التاريخ الانجليزى .

٥ — الفكر المحافظ

أترانا نستمع إليه يتكلم ؟ لقد كان لديه الطريف الذى يقوله فى كل شىء تقريباً تحت الشمس . لقد رأى الحياة خطباً لا رغبة لإنسان فى تكراره ،

أكثر الناس « يطيقونه بصبر نافد ويرحلون عنه كارهين »[٩٤] . وحين سألته الليدى مكليود « أليس هناك إنسان صالح بطبعه ؟ » أجاب « بلى يا سيدتى ، ليس أكثر صلاحاً من الذئب »[٩٥] . « واضح أن الناس . . . فاسدون فساداً لا تكفى معه كل قوانين السماء والأرض لكفهم عن الجرائم . . . [٩٦] والناس يكرهون بأقوى مما يحبون ، وإذا كنت قد قلت شيئاً لأوجع إنساناً مرة ، فلن أفسد هذا بقول أشياء كثيرة لأسرة »[٩٧] .

وقلما كان يناقش الاقتصاد . وقد ندد باستغلال شعوب المستعمرات[٩٨] ، وأدان الرق بشدة ؛ ومرة أذهل بعض الأساتذة باقتراحه شرب نخب فى صحة « ثورة الزنوج فى جزر الهند الغربية »[٩٩] . ولكنه ذهب إلى أن « زيادة أجور العمال اليوميين خطأ ، لأنها لاتعينهم على عيش أفضل ، إنما (فى رأى « المتبطل ») تجعلهم أكثر كسلا ، والكسل مفسدة للطبيعة البشرية »[١٠٠] . وكان كبلاكستون يؤمن بقداسة حقوق الملكية ، وكنقيضه فولتير يدافع عن الترف لأنه يتيح عملا للفقراء بدلا من إفسادهم بالصدقات[١٠١] . وقد سبق آدم سمث فى الدعوة للمشروعات الحرة[١٠٢] ، ولكن تكاثر التجار كان يثيره . « أخشى ألا تتيح زيادة التجارة ، والصراع المتصل على الثروة الذى تثيره التجارة ، أى أمل فى نهاية نتوقعها سريعاً للخداع والغش . . . ان العنف يخلى مكانه للمكر »[١٠٣] . ولم يتظاهر قط باحتقار المال بعد أن عانى من الفاقة ، وقال « إن أحداً من الناس لم يكتب قط إلا طلباً للمال ، اللهم إلا إذا كان أحمق »[١٠٤] — وفى هذا الرأى بخس لغرور الإنسان .

وقد أحس أننا نغالى فى أهمية السياسة (ولنذكر الأبيات التى أضافها لقصيدة جولدسمث « الرحالة » (لست أبالى مثقال ذرة أن أعيش فى ظل شكل دون آخر من أشكال الحكومة »[١٠٥] ، وإذن « فمعظم خطط الإصلاح السياسى أشياء مضحكة جداً »[١٠٦] ، ومع ذلك سخط على « كلاب الهويجز » ، واقتضى رضاه عن الهانوفريين منحه معاشاً . ووصف الوطنية بأنها « آخر ملاذ يحتمى به الأوغاد »[١٠٧] . ولكنه دافع بحرارة الوطنيين الغيورين عن حق بريطانيا فى جزر فوكلند (١٧٧١) . وكان يحس باحتقار للاسكتلنديين والفرنسيين يكاد يكون شوفينيا .

وكان السباق ، فى ١٧٦٣ ، فى الدفاع عن النزعة المحافظة قبل بيرك « أن التجربة البشرية ، التى تناقض النظرية باستمرار ، هى المحك الأعظم للحقيقة . وإن نظاماً قام على كشوف عدد كبير من العقول لهو دائماً أقوى مما يتمخض عنه تفكير عقل واحد »[١٠٨] . وبعد عام ١٧٦٢ كان قانعاً تماماً بالوضع الراهن ، وأثنى على الحكومة البريطانية لأنها « أدنى إلى الكمال من أى شىء عرفناه بالتجربة أو وعاه التاريخ »[١٠٩] . وأعجب بالارستقراطية والفوارق والامتيازات الطبقية باعتبارها ضرورية للنظام الاجتماعى والتشريع الحصيف[١١٠] . « إننى صديق للطاعة ، فهى جد مفضية إلى سعادة المجتمع . . . والخضوع واجب الجهال . والقناعة فضيلة الفقراء »[١١١] . وأحزنه كما يحزن كل جيل :

« ان الطاعة إنهارت بشكل مؤسف فى هذا العصر . فما من رجل له اليوم السلطة التى كانت لأبيه — إلا السجان . وما من سيد يملكها على خدمه ؛ وقد تقلصت فى كلياتنا . أجل ، بل فى مدارسنا الثانوية . ولهذا أسباب كثيرة ، أهمها فى رأيى تكاثر المال تكاثراً شديداً . . فالذهب والفضة يدمران الطاعة الإقطاعية . ولكن هناك إلى هذا تراخ عام فى الإحترام . فلم يعد ابن يعتمد على أبيه الآن كما كانت الحال فيما مضى . . . وأملى أن يتمخض هذا التراخى الشديد عن إحكام للزمام كما تتمخض الفوضى عن الطغيان »[١١٢] .

وحكم جونسن من واقع تأمله لجماهير لندن بأن الديمقراطية ستكون وبالا . وسخر من الحرية والمساواة باعتبارهما شعارات غير عملية[١١٣] . « ليس صحيحاً على الإطلاق أن الناس متساوون بالطبيعة ، فما من شخصين يجتمعان معاً نصف ساعة إلا اكتسب أحدهما تفوقاً واضحاً على الآخر »[١١٤] . وفى ١٧٧٠ كتب كراسة عنوانها « الإنذار الكاذب » ، أدان فيها الراديكالية وبرر إقصاء ولكس عن البرلمان .

وفى كراسة أخرى عنوانها « الوطنى » (١٧٧٤) جدد جونسن هجومه على ولكس ، وانتقل إلى ما وصفه بوزويل بأنه « محاولة لفرض التسليم غير المشروط على إخواننا الرعايا فى أمريكا »[١١٥] . وكان جونسن قد

تحدث فى كتابات سابقة عن المستعمرات الأمريكية بحياد عرضى ، فرأى أنها « اختطفت دون استناد إلى مبادىء سياسية عادلة جداً » ، وذلك إلى حد كبير راجع إلى أن دولا أوربية أخرى كانت تختطف المستعمرات بأفراط[١١٦] ، ولأن انجلتره أرادت حماية نفسها من بلدين — فرنسا وأسبانيا — أصبحا قوتين إلى حد يهدد بالخطر بسبب التهامهما لأمريكا . وكان قد امتدح المستعمرين الفرنسيين على معاملتهم الهنود معاملة رحيمة وعلى التزاوج منهم ، وأدان المستعمرين البريطانيين اغتشهم للهنود وظلمهم للزنوج[١١٧] . ولكن حين راح المستعمرون يتحدثون عن الحرية ، والعدالة ، والحقوق الطبيعية ، احتقر جونسن دعاواهم لأنها رياء خداع ، وتساءل «ما بالنا نسمع أعلى نباح عن الحرية بين جلادى العبيد الزنوج ؟ »[١١٨] . ثم بسط الرأى المعارض لتحرير المستعمرات فى كراسة قوية عنوانها « فرض الضرائب ليس طغياناً » (١٧٧٥) ، والظاهر أنها كتبت بناء على طلب الوزارة ، لأن جونسن اشتكى (فيما يروى بوزويل) من أن معاشه منح له « بوصفه شخصية أدبية » ، وها هو الآن « تطلب إليه الحكومة أن يكتب كراسات سياسية »[١١٩] .

وكانت حجة جونسن أن المستعمرين بقبولهم حماية بريطانيا العظمى قد أقروا ضمناً بحق الحكومة البريطانية فى فرض الضرائب عليهم . وفرض الضرائب ، إذا توخينا الإنصاف ، لا يقتضى تمثيل الأشخاص المفروضة عليهم الضرائب تمثيلا مباشراً فى الحكومة ؛ ونصف سكان انجلتره لا ممثلون لهم فى البرلمان ، ومع ذلك قبلوا فرض الضرائب عليهم مقابلا عادلا لما توفره الحكومة من نظام اجتماعى وحماية قانونية . وقد ذهب هوكنز — وهو الذى أمد جونسن بحججه[١٢٠] — إلى أن هذه الكراسة « فرض الضرائب ليس طغياناً » « لم تتلق رداً قط »[١٢١] . أما بوزويل ، الذى تذكر كورسيكا ، فقد انحاز إلى صف الأمريكيين ، وأسف على ما فى قلم جونسن من « عنف بالغ » ، وقال « لست أشك فى أن هذه الكراسة كتبت بناء على رغبة أولئك الذين كانوا يومها يتقلدون زمام الحكم ، والحق أنه اعترف لى بأن بعض هؤلاء راجعها واختصرها »[١٢٢] . وقد تنبأت فقرة حذفتها الوزارة بأن

الأمريكان « سوف يكونون بعد قرن وربع أكثر من أنداد لسكان أوربا (الغربية) »[١٢٣] .

وكان فى فلسفته السياسية بعض العناصر اللبرالية . وقد آثر فوكس على بت الثانى ، وأقنعه بعضهم بتناول العشاء مع ولكس ، الذى تغلب على مبادىء جونسن السياسية بإعطائه قدراً من لحم العجل اللذيذ[١٢٤] . وداعب المحافظ العجوز الثورة فى إحدى فقراته فقال :

« إذا تأملنا بالنظرة المجردة التوزيع غير المتكافىء لمباهج الحياة . . . وإذا وضح لنا أن الكثيرين تعوزهم ضروريات الطبيعة ، وأكثر منهم ما تتيحه الحياة من أسباب الراحة والدعة ، ورأينا الكسالى يعيشون فى رغد على متاعب الكادحين ، والمترفين ينعمون بأطايب لايذوقها من يوفرونها ، وإذا كان السواد الأعظم لابد مفتقر دائماً إلى ما تستمتع به القلة وتبدده دون نفع ، بدا لنا من المستحيل أن نتصور أن سلام المجتمع يمكن أن يطول أمده ، وأدنى إلى الطبيعة أن نتوقع ألا يترك إنسان طويلا وفى حوزته مباهج فائضة عن حاجته بينما يفتقر هؤلاء الكثيرون إلى الضروريات الحقيقية »[١٢٥] .

على أن نزعته المحافظة كانت ترتد بكل عنفوانها حين يتكلم على الدين . فبعد أن أنفق سنة من التشكك فى شبابه[١٢٦] ، راح يؤيد عقائد الكنيسة الرسمية وامتيازاتها تأييداً متزايد الحرارة ؛ وكان أحياناً يميل نحو الكاثوليكية : فقد أعجبته فكرة المطهر ، وحين سمع أن قسيساً انجليكانياً تحول إلى كنيسة روما قال « ليباركه الله »[١٢٧] . ويقول بوزويل إنه « دافع عن ديوان التفتيش ، وذهب إلى أن العقيدة الزائفة يجب أن توقف بمجرد ظهورها ، وأن على السلطة المدنية أن تتحد مع الكنيسة فى عقاب من يجرءون على مهاجمة الدين المقرر ، وأن أمثال هؤلاء دون غيرهم هم الذين كان ديوان التفتيش يعاقبهم »[١٢٨] . وكان يكره المنشقين على الكنيسة الانجليكانيه ، ورحب بطرد المثوديين من أكسفورد[١٢٩] . وقد رفض أن يتحدث إلى سيدة هجرت الكنيسة الرسمية للتنضم إلى طائفة الكويكر[١٣٠] . ووبخ بوزويل على صداقته المعتدلة لهيوم « الملحد » . وحين أخبره آدم سمث أن هيوم يحيا حياة يضرب بها المثل ، صاح به جونسن « أنت تكذب : » ورد

عليه سمث فوراً « أنت ابن قحبة »[١٣٢] . وقد أحس جونسن أن الدين أمر لا غنى عنه للنظام الاجتماعى والأخلاق ، وأن الرجاء المنعقد على خلود سعيد هو وحده الذى يستطيع حمل الإنسان على تقبل شدائد الحياة الدنيوية . وقد آمن بالملائكة والشياطين ، وذهب إلى « أننا جميعاً كتب لنا أن نسكن فى الآخرة اما فى مواطن الهول أو السعادة »[١٣٢] . ثم قبل الوجود الحقيق للساحرات والعفاريت ، وأعتقد أن زوجته المتوفاه قد ظهرت له فى المنام [١٣٣] .

ولم يكن يهتم بالعلم ، وقد امتدح سقراط على محاولته نقل البحث من النجوم إلى الإنسان [١٣٤] . وكان يستفظع تشريح الحيوان الحى . ولم يثر الارتياد الجغرافى اهتمامه ، فاكتشاف الأراضى المجهولة لن يفضى إلا إلى الغزو واللصوصية »[١٣٥] . وذهب إلى أن الفلسفة متاهة عقلية تؤدى إما إلى الشك الدينى أو إلى الهراء الميتافيزيقى . ومن ثم فند مثالية باركلى برفس حجر ، ودافع عن حرية الإرادة بقوله لبوزويل « نحن عليمون بأن إرادتنا حرة ، وهذا يكفى لإنهاء المسألة . . . ان النظرية كلها ضد حرية الإرادة ، والتجربة كلها معها »[١٣٦] .

وقد رفض باشمئزاز فلسفته التنوير الفرنسى بأسرها . وأنكر حق العقل المفرد مهما عظم ذكاؤه فى أن ينصب نفسه حكماً على أنظمة أنشأتها شيئاً فشيئاً تجربة المحاولة والخطأ التى خاضها النوع الإنسانى حماية للنظام الاجتماعى من دوافع البشر غير الاجتماعية . وأحس أن الكنيسة الكاثوليكية مع كل مآخذها تؤدى وظيفة حيوية فى صيانة الحضارة الفرنسية ، وحكم بالغفلة والضحل على جماعة الفلاسفة الفرنسيين الذين يوهنون الركائز الدينية للناموس الأخلاقى . وقد بدا له فولتير وروسو نوعين من البلهاء : ففولتير مغفل عقلى ، ورسو مغفل عاطفى ، غير أن الفرق بينهما من الضآلة بحيث « يعسر تقرير نسبة الإثم فيما بينهما »[١٣٧] . وقد وبخ بوزويل على تودده لروسو فى سويسره ، وأسف لكرم الضيافة الذى بذلته انجلتره « إميل » (١٧٦٦) . « إن روسو يا سيدى رجل شرير جداً . وإنى ان أتردد فى أن أوقع على حكم بنفيه بأسرع مما أوقعه على أى جان أدانته

محكمة الجنايات على مدى هذه السنين الكثيرة . أجل يا سيدى ، أود لو أكره على الشغل فى المزارع الكبيرة »[١٣٨] .

على أن جونسن لم يكن محافظاً فى حياته بقدر ما كان فى آرائه . فكان يخرج فى مرح على عشرات التقاليد فى السلوك ، والحديث ، واللباس . ولم يكن متزمتاً ؛ ضحك على البيورتان ، وحبذ الرقص ، ولعب الورق ، والمسرح . ولكنه أدان قصة فيلدنج « توم جونسن » ، وصدمه أن يسمع أن حنه مور المحتشمة قرأتها[١٣٩] . وكان يخشى النزعة الحسية فى الأدب لأنه وجد مشقة فى كبت خياله ودوافعه الحسية . وربما كان يخيل للناس من واقع عقائده أنه لم يستمتع بالحياة . ولكن فى استطاعتنا أن نرى فى بوزويل أنه استمتع بـ « ملء الوجود البشرى » . لقد حكم على الحياة بأنها مؤلمة حقيرة ، ولكنه كمعظمنا طاولها ما استطاع . وواجه سنيه الأخيرة فى كره غاضب .

٦ — الخريف

فى عام ١٧٦٥ انتقل من الأنر تمبل إلى بيت ذى طوابق ثلاثة فى رقم ٧ بجونسنز كورت بفليت ستريت ، وكان قد أطلق عليه اسم ساكن قبله . هناك وجده بوزويل بعد أن عاد من أوربا . وفى يوليو منحته جامعة دبلن درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون ، فأصبح الآن لأول مرة « الدكتور جونسن » ، ولكنه لم يلحق هذا اللقب باسمه قط[١٤٠] .

وفى أكتوبر ١٧٦٥ أصدر ، فى مجلدات ثمانية ، مسرحيات شكسبير التى تحمل تحقيقاته وتعليقاته ، بعد أن أنقضت ثمانية أعوام على الموعد الذى وعد به المكتتبين فيها . وقد جرؤ على بيان ما فى مسرحيات الشاعر من أخطاء وسخافات وآراء طنانة صبيانية ، ولامه لافتقاره إلى الهدف الأخلاقى ، وذهب إلى أن شكسبير « ربما لم يخلف مسرحية واحدة لو عرضت الآن على أنها من تأليف كاتب معاصر لما استمع إليها جمهور النظارة إلى نهايتها »[١٤١] . ولكنه امتدح الشاعر على تحكمه فى عنصر الحب المشوق فى الدرامات الكبرى ، وعلى جعله كبار شخوصه ناساً لا أبطالا ، ودافع فى قوة عن إهمال شكسبير لوحدتى الزمان والمكان ، ذلك الإهمال الذى أخذه

فولتير على شكسبير[١٤٢] . وقد تحدى النقاد الكثير من تعليقاته وتصويباته ، وحل محل هذه الطبعة طبعة أصدرها إدموند مالون فى ١٧٩٠ ؛ ولكن مالون إعترف بأن طبعته مبنية على طبعة جونسن ، وغالى فى تقدير مقدمة جونسن فقال إنها « ربما كانت أروع التآليف فى لغتنا »[١٤٣] .

وفى ١٧٦٧ ، بينما كان جونسن يزور قصر بكنجهام ، التقى مصادفة بجورج الثالث ، فتبادل الرجلان عبارات المجاملة . ثم أصبحت صداقته ببوزويل أثناء ذلك حميمة ، فقبل جونسن فى ١٧٧٣ دعوة الرجل المعجب ليصحبه فى رحلة إلى جزر الهبريد . وكانت مغامرة شجاعة لرجل فى الرابعة والستين . وبدأت بسفرة طويلة شاقة فى مركبة بريد من لندن إلى إدنبره . وهناك التقى بروبرتسن ، ولكنه أبى أن يقابل هيوم . . وفى ١٨ أغسطس بدأ هو وبوزويل وخادم لهما الرحلة شمالا فى مركبة أجرة على الساحل الشرقى إلى أبردين ، ومن هناك شقوا طريقهم عبر إقليم المرتفعات الوعر مخترقين بأنف إلى انفرنس ، ثم على ظهور الخيل أكثر الرحلة مروراً بآنوخ إلى جلينيلج على الساحل الغربى . وهناك استقلا قارباً إلى جزيرة سكاى ، التى جابا أرجاءها كلها تقريباً من ٢ سبتمبر إلى ٣ أكتوبر . وقد كابدا مشاق كثيرة تقبلها جونسن فى شجاعة صارمة ، فنام فوق الدريس فى الأجران ، ودب عنه الهوام ، وتسلق فوق الصخور ، وركب فى وقار قلق أفراساً لا تكاد تفوقه حجماً . وفى إحدى وقفاتهما جلست سيدة من قبيلة مكدونلد على ركبته وقبلته فقال لها « أعيدى ، ولنرى من منا يتعب قبل الآخر »[١٤٤] . وفى ٣ أكتوبر ركب كلاهما قارباً مكشوفاً مسافة أربعين ميلا إلى جزيرة كول ، ومنها إلى جزيرة مل . ثم عبرا رجوعاً إلى البر الأم فى ٢٢ أكتوبر ، ثم سافرا مخترقين أرجلشير بطريق دمبرتن وجلاسجو إلى أوخنلك (٢ نوفمبر) . هناك التقى جونسن بوالد بوزويل ، الذى احتفى به احتفاء كبيراً ، وإن أسف لنحامله على الاسكتلنديين ، وخاضا فى جدل بلغ من العنف حدا رفض معه بوزويل أن يسجله . وبعدها لقب بوزويل الأب جونسن « الدب الأكبر » وهو لقب فسره الإبن فى لباقة بأنه لايعنى

الدب الأكبر بل « برجاً للعبقرية والعلم »[١٤٥] . ووصـــل المسافران إلى إدنبره فى ٩ نوفمبر ، بعد أن رحلا عنها بثلاثة وثمانين يوماً . فلما تذاكرا المشاق التى لقياها ، « ضحكا من قلبيهما على هذيان أولئك الحالمين السخفاء الذين حاولوا اقناعنا بما تتيحه الحالة الطبيعية من منافع خداعة ». « وغادر جونسن إدنبره فى ٢٢ نوفمبر ، فبلغ لندن فى السادس والعشرين . وفى ١٧٧٥ نشر كتاب « رحلة إلى جزر اسكتلنده الغربية » ، ولم يكن بالكتاب النابض بالحياة ، حتى إذا قورن بالوصف المهذب ، الذى أصدره بوزويل فى ١٧٨٥ بعنوان « يوميات جولة فى الهيبريد مع صموئيل جونسن » ، وذلك لأن الفلسفة أقل إمتاعاً من الترجمة ، ولكن فى بعض الفقرات[١٤٦] جمالا هادئاً يبدى لنا جونسن مرة أخرى ربا للنثر الانجليزى .

وفى ابريل ١٧٧٥ اقتنعت أكسفورد أخيراً بمنح جونسن درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون المدنى . وفى مارس ١٧٧٦ غير مسكنه لآخر مرة ، فانتقل إلى المنزل رقم ٨ ببولت كورت مصطحباً معه أسرته المختلطة . ثم كتب إلى كبير أمناء الملك (١١ ابريل ١٧٧٦) فى حالة نفسية غريبة من المرح يطلب شقة فى قصر هامتن كورت فقال « أرجو ألا يكون الاعتكاف فى أحد بيوت جلالته تجاوزاً فى غير موضعه أو دون استحقاق لرجل شرف بالدفاع عن حكومة جلالته »[١٤٧] . ورد كبير الأمناء آسفاً لكثرة عدد الطلاب .

وبقى إنجاز أخير للأديب . ذلك أن أربعين كتبياً لندنياً اشتركوا فى اعداد طبعة متعددة الأجزاء موضوعها الشعراء الانجليز ، وطلبوا إلى جونسن أن يقـــدم لكل شاعر بترجمة له . وتركوا له تحديد شروطه ، فطلب مائتى جنيه . قال مالون « لو أنه طلب ألفاً أو حتى ألفا وخمسمائة من الجنيهات ، لما تردد الكتبيون فى العطاء وهم العليمون بقيمة اسمه »[١٤٨] . وكان جونسن قد فكر فى كتابه « سير قصيرة » ، وفاته أن من أصول الكتبه أن القلم الجارى ، كالمادة فى قانون نيوتن الأول ، يواصل جريانه ما لم تكرهه على تغيير تلك الحالة قوى مفروضة عليه من الخارج . ولقد كتب عن صغار الشعراء بإيجاز

محمود . أما عن ملتن ، وأديسن ، وبوب ، فقد أطلق لقلمه العنان ، وأنشأ مقالات — من ستين صفحة واثنتين وأربعين ومائة واثنتين — تعد من أروع نماذج النقد الأدبي في الانجليزية .

وقد تلون حكمه على ملتن بكراهيته للبيورتان وسياستهم وقتلهم للملك . وقرأ نثر ملتن كما قرأ شعره ، ووصفه بأنه « جمهوري قاس فظ » (١٤٩) . أما مقاله عن بوب (الذي بلغ في الطبعة الأصلية ٣٧٣ صفحة) فكان آخر ، ضربة في الدفاع عن الأسلوب الكلاسيكي في الشعر الانجليزي يضربها أعظم وريث لذلك الأسلوب في النثر الانجليزي . لقد رأى ، وهو المالك لناصية اليونانية أن ترجمة بوب للألياذة تفضل هومر . وامتدح مرثية جراى ، ولكنه رفض قصائده الغنائية لاكتظاظها في غير نظام بالأرباب الأسطوريين . وحين نشرت المجلدات العشر من « حياة الشعراء » (١٧٧٩ — ٨١) ، صدمت بعض القراء أحكام جونسن التي كانت غير تقليدية ولكنها متعالية قاطعة ، وعدم إحساسه بلطائف الشعر الرهيفة ، وميله لتقدير الشعراء أو الحط من أقدارهم تبعاً للاتجاه الأخلاقي الذي تنحو إليه قصائدهم وحياتهم . وقد صرح ولبول بأن « الدكتور جونسن لايملك ولاريب من الذوق ولا السمع ولا معيار النقد إلا ميوله المغرضة العجائزية »(١٥٠) . وسخر من « هذا الهيكل الثقيل القائم على طوالتين» ، والذي يبدو أنه قرأ القدامى دون هدف إلا سرقة الألفاظ المتعدد المقاطع (١٥١) . فلم إذن فاقت هذه « السير » في ذيوعها وشغف القراء بها أي ثمرة أخرى من ثمرات قلم جونسن ؟ ربما بسبب تلك الميول المغرضة والصراحة في الإعراب عنها . فلقد جعل النقد الأدبي قوة نابضة بالحياة ، وأوشك أن يبعث الموتى من قبورهم بضرباته القاسية .

٧ – الإفراج : ١٧٨١ – ٨٤

نحن نحس بالفخر بيننا وبين أنفسنا حين يمتد بنا العمر بعد موت معاصرينا ، ولكننا نعاقب بشعور الوحدة . وهكذا كان موت هنري ثريل (٤ ابريل ١٧٨١) البداية لنهاية جونسن . وقد قام بمهمته بصفته أحد أربعة كانوا منفذين لوصية صانع الجعة . ولكن زياراته لأسرة ثريل قلت بعد ذلك .

وكانت السيدة ثريل قد بدأت قبل موت زوجها بأمد طويل تضيق بالضغوط التى تفرضها عليها حاجة جونسن للرعاية والآذان الصاغية. وكان ثريل قد أفلح فى جعل دبه الأسير يسلك سلوكاً مهذباً إلى حد معقول، ولكن (وهذه شكوى الأرملة) «إذا لم يوجد من يردعه (أى جونسن) عن التمادى فى إبداء مكارهه أصبح عسيراً جداً أن تجد إنساناً يستطيع التحدث إليه دون العيش دائماً على شفا الشجار... وقد وقعت أمثال هذه الحوادث مراراً وتكراراً، فاضطررت... إلى الاعتكاف فى باث، حيث كنت أعلم أن المستر جونسن لن يتبعنى»[١٥٢].

وزادت صحيفة المورنيج بوست الطين بلة بإعلانها أن معاهدة زواج بين جونسن والمسز ثريل «جاهزة»[١٥٣]. وكتب بوزويل نشيداً هزلياً (برلساك) عنوانه «نشيد بقلم جونسن إلى مسز ثريل بمناسبة زفافهما القريب المزعوم»[١٥٤]. ولكن فى ١٧٨٢ كان جونسن فى الثالثة والسبعين والمسز ثريل فى الحادية والأربعين. ولم تكن قد تزوجت ثريل بإرادتها هى، وكثيراً ما كان يهملها، ولم تتعلم قط أن تحبه. ومن ثم فقد طالبت الآن بحقها فى أن تحب وأن تحب، وفى أن تجد زوجاً فى نصف عمرها الأخير. وكانت فى تلك السن التى يشتد فيها شوق المرأة لنوع من الصحبة البدنية المتفهمة. وكانت حتى قبل موت زوجها قد تعلقت بجابرييل بيوتزى الذى كان يعطى بناتها دروساً فى الموسيقى؛ وكان وهو الإيطالى مولداً قد اتخذ انجلترا له مقاماً فى ١٧٧٦، وناهز الآن الثانية والأربعين. ويوم لقيته أول مرة فى حفلة أقامها الدكتور بيرنى، راحت تقلد لازماته تقليداً ساخراً وهو يعزف على البيان. بيد أن سلوكه الأنيق، وطبعه اللطيف، ومهاراته الموسيقية، جعلت منه نقيضاً مريحاً للدكتور جونسن. وأرخت الآن العنان لغرامها بعد أن تحررت. واعترفت لبناتها الأربع الباقيات على قيد الحياة برغبتها فى الزواج. فهالهن النبأ، ذلك أن هذا الزواج الثانى سيؤثر فى مستقبلهن المالى، والزواج من موسيقى — وأسوأ من ذلك كاثوليكى رومانى — سينال من مكانتهن فى المجتمع. لذلك توسلن إلى أمهن أن تتروى فى الأمر، فحاولت ولكنها فشلت. وسلك بيوتزى مسلك الرجل المهذب، فرحل إلى إيطاليا

(ابريل ١٧٨٣) وغاب قرابة عام . فلما عاد (مارس ١٧٨٤) ووجد أن المسز ثريل مازالت تواقة للزواج منه استسلم للأمر . ورفض البنات الموافقة ، وانتقلن إلى برايتن .

وفى ٣٠ يونيو أرسلت مسز ثريل إلى جونسن إعلاناً ينبئه بأنها وبيوتزى قررا الزواج . فأرسل إليها هذا الرد (٢ يوليو ١٧٨٤) .

سيدتى :

لو أننى أصبت فى تفسير رسالتك لقلت إنك تتزوجين زواجاً شائناً ، فإذا كان لم يعقد بعد ، فدعينا نقلب الأمر معاً مرة أخرى . ولو كنت قد تخليت عن بناتك وعن دينك ، فليغفر الله لك شرك ؛ ولو كنت قد خسرت سمعتك ووطنك ، فأرجو ألا تأتى حماقتك مزيداً من الشر . وإذا كنت لم تتخذى بعد آخر خطوة ، فإننى — أنا الذى أحببتك ، وقدرتك ، واحترمتك ، وخدمتك ، أنا الذى طالما رأيتك الأولى بين جنس النساء — أتوسل إليك أن أراك مرة أخرى قبل أن يصبح مصيرك لا رجعة فيه .

لقد كنت ، ذات مرة يا سيدتى ، المخلص لك جداً

صموئيل جونسن(١٥٥)

وساءت المسز ثريل كلمة « شائن » لأنها رأتها وصمة لخطيبها ، فردت على جونسن فى ٤ يوليو تقول : « لننكف عن التحادث حتى تغير رأيك فى مستر بيوتزى» ثم تزوجت بيوتزى فى ٢٣ يوليو . ووافقت لندن كلها جونسن على إدانتها . وفى ١١ نوفمبر قال جونسن لفانى برنى ، « إننى لا أتحدث عنها أبدا ، ولا رغبة لى مطلقاً فى سماع المزيد عنها »(١٥٦) .

ولا بد أن هذه الأحداث هدت من حيوية جونسن المتهافته . فاشتد أرقه ، ولجأ إلى الأفيون ليخفف آلامه ويهدىء أعصابه . وفى ١٦ يناير ١٧٨٢ مات طبيبه روبرت ليفت . وتساءل جونسن : على من يكون الدور بعده ؟ لقد كان يرهب الموت دائماً ، ومن ثم أحال هذا الخوف وإيمانه بالجحيم سنيه الأخيرة خليطاً من وجبات العشاء الثقيلة والمخاوف اللاهوتية . وقال للدكتور وليم آدمز عميد كلية بمبروك « أخاف أن أكون واحداً من

الهالكين» . فلما سأله آدمز ماذا يعني بكلمة «الهالكين» صاح «الذين مآلهم إلى النار والعقاب الأبدي يا سيدي»[157]. ولم يملك بوزويل إلا المقارنة بين هذه الحال وبين السكينة التي كان هيوم الملحد قد دنا بها من منيته[158] .

وفي ١٧ يونيو ١٧٨٣ أصيب جونسن بنقطة خفيفة «تشوش وخلط في رأسي أظنه دام نصف دقيقة . . وقد احتبس لساني . ولم أشعر بألم»[159]. وبعد أسبوع تماثل للشفاء تماثلا أتاح له تناول العشاء في النادي ، وفي يوليو أذهل أخصاءه بالقيام برحلات إلى روتشستر وسلزبري . قال لهوكنز «أي رجل أنا ، رجل قهر ثلاثة أمراض — الشلل ، والنقرس ، والربو — ويستطيع الآن الاستمتاع بحديث الأصدقاء !»[160] ولكن في ٦ سبتمبر ماتت مسز وليمز ، وباتت وحدته لا تطاق . فلما وجد «النادي» غير كاف — لأن العديد من أعضائه القدامى (جولدسمث ، وجاريك ، وبوكلارك) ماتوا ، ولأن بعض أعضائه الجدد كانوا كريهين في نظره ، أنشأ (ديسمبر ١٧٨٣) ، «نادي المساء» الذي كان يعقــد اجتماعاته في مشرب للجعة بشارع اسكس . هناك كان في وسع أي شخص مهذب ، إذا دفع ثلاثة بنسات ، أن يدخل ويستمع إليه يتحدث ثلاث ليال كل أسبوع . ودعا رينولدز للانضمام ، ولكن السر جوشوا رفض . ورأى هوكنز وغيره في النادي الجديد «تدهوراً في تلك القدرات التي كانت تبهج «أشخاصاً أكثر مهابة»[161] .

وفي ٣ يونيو ١٧٨٤ كان في عافية أتاحت له الرحلة مع بوزويل إلى لتشفيلد وأكسفورد . فلما عاد بوزويل إلى لندن أقنع رينولدز وأصدقاء آخرين بأن يطلبوا إلى وزير الخزانة توفير مبلغ من المال يمكن جونسن من القيام برحلة إلى إيطاليا ليسترد صحته . وقال جونسن إنه يفضل مضاعفة معاشه . ولكن وزير الخزانة رفض . وفي ٢ يوليو رحل بوزويل إلى اسكتلنده . ولم ير جونسن بعدها قط .

ذلك أن الربو الذي كان قد تغلب عليه عاوده وزاد عليه الاستسقاء . كتب إلى بوزويل في نوفمبر ١٧٨٤ «إن نفسي قصير جداً ، والماء يتزايد

الآن على »[١٦٢] . وتوافد عليه رينولدز ، وبيرك ، ولانجتن ، وفانى بيرنى وغيرهم ليلقوا عليه تحية وداع أخيرة . ثم كتب وصيته ، وقد خلف ٢,٠٠٠ جنيه ، أوصى منها بمبلغ ١,٥٠٠ لخادمه الزنجى[١٦٣] . وعالجه عدة أطباء ، ورفضوا تقاضى أى أجر . وتوسل إليهم أن يشقوا ساقيه شقاً أعمق ، فأبوا ، فلما انصرفوا دفع مبضعاً أو مقصاً فى عمق ربلتيه أملا فى فراغ مزيد من الماء والتخفيف من الورم المؤلم ، وانطلق بعض الماء ، ولكن انطلقت معه أيضاً عشر أوقيات من الدم . فى تلك الليلة ، ليلة ١٣ ديسمبر ١٧٨٤ ، قضى نحبه . وبعد أسبوع دفن فى كنيسة وستمنستر .

لقد كان أغرب شخصية فى تاريخ الأدب ، أغرب حتى من سكارون أو بوب . ومن العسير أن نحبه لأول وهلة ، فقد ستر رقته خلف ستار من الوحشية ، ونافست خشونة عاداته لياقة كتبه . ولم ينل أحد قط مثل هذا الإعجاب الكثير ولا بذل مثل هذا الثناء الضنين . ولكنه كلما تقدم به العمر ازدادت الحكمة فى كلامه . وقد أحاط حكمته بالتفاهات ، ولكنه رفع هذه التفاهات إلى مستوى جوامع الكلم بقوة حديثه أو تلوينه . ولنا أن نشبهه بسقراط ، الذى كان يتكلم أيضاً لأقل إثارة أو استفزاز ، والذى يذكره الناس بكلامه المنطوق . وكان كلاهما أشبه بذباب الخيل المنبه ، ولكن سقراط كان يلقى أسئلة ولا يعطى جواباً . أما جونسن فلم يلق سؤالا وقد أجاب عن كل الأسئلة . ولم يكن سقراط على يقين من شىء ، أما جونسن فكان على يقين من كل شىء . وقد ناشد كلاهما العلم أن يدع النجوم وشأنها ويدرس الإنسان . وواجه سقراط الموت مواجهة فيلسوف وبابتسامة ، أما جونسن فواجهه بارتجافات دينية تنافس أوجاعه الموهنة .

وان تجد اليوم إنساناً يراه فى صورة الكمال . وفى وسعنا أن نعرف لم تجنبته الطبقة الاستقراطية الانجليزية وتجاهلت إمارته — خلا لانجتن وبوكلارك . ونحن ندرك أى « جون بول » كان يمكن أن يكون لو جال فى « متحف خزف» النبلاء ، أو وسط تحف قصر « ستروبرى هل » النفسية ، إنه لم يخلق للجمال ، ولكنه أدى مهمة ، هى تخويف البعض ليكفوا عن الرياء والكذب والنفاق والمبالغة فى إظهار العاطفة ، وليجعلنا ننظر إلى أنفسنا بأوهام أقل

عن طبيعة البشر أو نشوات الحرية . ولا بد إن كان هناك شيء محبب في رجل استطاع رينولدز وبيرك وجولدسمث الاستماع إليه ألف ليلة وليلة ، شيء ساحر في إنسان استطاع أن يوحي بكتابة سيرة عظيمة ، ويملأ صفحاتها الألف والمائتين بحياة لايبليها الزمن .

٨ — بوزويل في أيامه الأخيرة

لما مات الدب الأكبر حام حوله قطيع الأدباء ليلتقطوا من جثمانه بعض قوتهم . أما بوزويل نفسه فلم يتعجل ، فقد عكف على « السيرة » سبعة أعوام ، ولكنه أصدر في ١٧٨٥ « يومية جولة في جزر الهبريد مع صموئيل جونسن » ، وقد طبعت ثلاث طبعات في سنة واحدة . وكانت مسز ثريل بيوتزي قد جمعت مادة عن أحاديث جونسن وعاداته ، فصنفت الآن من هذه « الثريليات » « نوادر عن المرحوم الدكتور صموئيل جونسن ، خلال سنيه العشرين الأخيرة (١٧٨٦) . وقد عرض الكتيب صورة لضيفها أقل اشراقاً مما سجلته من قبل في يوميتها يوماً بيوم ، ولاريب في أن رسائل جونسن الأخيرة لها قد خلفت فيها جرحاً لايندمل .

ويلي ذلك في الحلبة — إذا خلينا أكثر من عشرة أسماء طواها النسيان الآن — « سيرة صموئيل جونسن » التي نشرها في خمسة مجلدات فاخرة السرجون هوكنز عام ١٧٨٧ . وكان هوكنز قد لقي من التوفيق في عمله محامياً عاماً ما برز منحه لقب الفروسية (١٧٧٢) وحصل من الثقافة ما أتاح له تأليف كتاب جيد في « تاريخ الموسيقى » (١٧٧٦) . وقد شارك جونسن في تنظيم نادي « آيفي لين» (١٧٤٩) ، وكان أحد الأعضاء الأصليين في « النادي » . ولكنه تركه عقب جدال مع بيرك فلقبه جونسن بـ « الرجل الذي لايصلح للأندية » . ولكن جونسن ظل صديقه ، وكثيراً ما التمس مشورته ، وقد عينه واحداً من منفذي وصيته . وبعد وفاة جونسن بقليل طلب جماعة من الكتبية إلى هوكنز أن يعلق على طبعة تضم آثار الدكتور ويقدم لها بترجمة الأديب . وقد أخذ على هذه الترجمة أنها كشفت عن عيوب جونسن في غير رحمة ، وتشكك بوزويل في دقتها فيما بعد . ولكن

« التهم الموجهة للترجمة لا يمكن إثباتها فى تحقيق منصف »[١٦٤]. ومعظم العيوب التى أخذها هوكنز على جونسن لاحظها غيره من معاصريه .

ثم عادت المسز بيوزى إلى المأدبه بكتاب عنوانه « رسائل متبادلة مع المغفور له صموئيل جونسن » (١٧٨٨) ، وكلاها ساحر ، لأن رسائل جونسن (فيما خلا الأخيرة التى كتبها لسيدته الضالة) كانت تفوق حديثه كثيراً فى إنسانيتها . وكان بوزويل خلال ذلك عاكفاً بصبر فيما بين قضاياه ومجالس خمره على تأليف سيرة عقد العزم على أن يجعلها نسيج وحدها . وكان قد بدد فى تسجيل مذكرات بأحاديث جونسن عقب لقائهما الأول (١٧٦٣) ، ثم خطط للسيرة فى تاريخ مبكر (١٧٧٢) . غير أن الحبل بهذا الجنين كان غاية فى الطول والمشقة . ذلك أنه قلما كان يدون الملاحظات من فوره ، ولم يكن يعرف الاختزال ، ولكنه اتخذ مبدأ هو أن يدون على عجل وباختصار بمجرد عودته إلى حجرته ما يذكره عما حدث أو قيل . وبدأ كتابة « سيرة صموئيل جونسن » بلندن فى ٩ يوليو ١٧٨٦ وتنقل بين أرجاء المدينة باحثاً عن المعلومات يستقيها ممن بقى على قيد الحياة من أصحاب جونسن . وأعانه إدموند مالون ، الأديب المتخصص فى شكسبير ، على فرز وتصنيف ذلك الحشد الضخم المضطرب من المذكرات ، وشد أزره ودعم شجاعته حين بدا أنه يوشك أن يستسلم للنساء والشراب بعد أن هده الفجور والحزن وموت زوجته . كتب بوزويل فى ١٧٨٩ — « لن تستطيع أن تتصور أى عناء ، وأى حيرة ، وأى غيظ تحملته فى ترتيب عدد هائل من المواد ، وفى ملء الفراغات ، وفى البحث عن أوراق مدفونة بين أشتات من الأكداس ، وكل هذا بالإضافة إلى عناء التأليف والتهذيب . وكثيراً ما فكرت فى التخلى عن هذه المهمة »[١٦٥]. وقد اقتبس من كتاب وليم ميسن « سيرة جراى ورسائله » (١٧٧٤) فكرة بث رسائل بطله فى ثنايا القصة . وقد كدس التفاصيل عمداً ، لشعوره بأنها تضيف إلى الصورة الكاملة الحية . ثم نسجت من هذه الأشتات رواية مسلسلة التواريخ وكل متكامل .

فهل كان دقيقاً ؟ هذا ما زعمه . « لقد توخيت الدقة البالغة فى التسجيل

بحيث لا بد أن تكون كل صغيرة أو تافهة صادقة »[١٦٦] . وأينما استطعنا مقارنة روايته عن كلام جونسن بغيره من الروايات بدا أنها صحيحة من حيث الوقائع ، وان لم تكن كذلك من حيث حرفيتها . والمقارنة بين كتابى بوزويل « المذكرات» و « السيرة » تدل على أنه حول تلخيصه لأحاديث جونسن إلى اقتبـــاسات مباشرة ، قد يطيلها أحيـــاناً ، أو يقصرها ، أو يحسنها[١٦٧] ، أو ينقيها ، مع تمديد الألفاظ الصغيرة (الرباعية الحروف) إلى أطوال محترمة ، وكان أحياناً يحذف الوقائع التى لاتخدم مصلحته[١٦٨] . ولم يدع أنه قال كل الحقيقة عن جونسن[١٦٩] ، ولكن حين توسلت إليه حنه مور « ان يلطف من بعض خشونة جونسن وغلظته »، رد بأنه « ان يقلم أظافر جونسن ، أو يحيل الببرقطا ليسر أى إنسان »[١٧٠] . والواقع أنه كشف عن عيوب أستاذه كشفاً كاملا كما فعل غيره ، ولكن فى منظور أوسع خفف من بروزها . وقد حاول أن يظهر من الرجل فى صورته الكاملة ذلك القدر الذى تسمح به المحبة واللياقة . قال « إننى على يقين تام أن النهج الذى انتهجته فى كتابة السيرة ، والذى لايكتفى بسرد تاريخ لـ « مسيرة » جونسن فى الحياة ، ولمؤلفاته ، بل يضيف نظرة إلى فكره المتمثل فى رسائله وأحاديثه ، هذا المنهج هو أكمل منهج يمكن تصوره ، وسيكون أقرب إلى تصوير « حياة » جونسن من أى كتاب ظهر إلى الآن »[١٧١] .

وأخيراً خرجت السيرة من المطبعة إلى النور فى مجلدين كبيرين فى مايو ١٧٩١ ولم يقدره القراء لتوهم كنزاً فريداً فى بابه . وساء كثيرين أن يقص بوزويل أحاديثهم الخاصة ، ولم تكن دائماً مما يستحق الإعجاب ، فقد كان فى وسع الليدى ديانا بوكلارك مثلا أن تقرأ كيف نعتها جونسن بأنها عاهر ، ورأى رينولدز أين وبخه جونسن على الإفراط فى الشراب ، وعرف برك أن جونسن يتشكك فى نزاهته السياسية ويرى أنه لا يتورع عن التقاط مومس من عرض الطريق ، وجفلت المسز بيوتزى والمسز اليزابث مونتجيو مما قرأتا . وكتب هوراس ولبول يقول « ان الدكتور بلا جدن يقول بحق إن هذا ضرب جديد من القذف ، تستطيع به أن تسب أى إنسان

بقولك ان ميتاً ما قال كذا وكذا عن شخص حي »[١٧٢] . ووجد آخرون أن التفاصيل مسرفة ، وأن كثيراً من الرسائل تافهة ، وأن بعض الصفحات مملة . ولم تدرك انجلتره إلا شيئاً فشيئاً أن بوزويل قد أبدع رائعة من الروائع ، وأنه أسبغ على حياته شيئاً من النبل والسمو .

وكان أبوه قد مات في ١٧٨٢ مخلفاً إياه سيداً على أوخنلك بدخل بلغ ١,٦٠٠ جنيه في العام وقد أثبت أنه سيد عطوف رقيق الفؤاد ، ولكنه كان قد ألف حياة الحضر إلفا حال إطالته المكث في أوخنلك . وفي ١٧٨٦ صرح له باحتراف المحاماه في انجلتره ، وبعدها أنفق معظم وقته في لندن . وقد صوره رينولدز في ذلك العام — رجلا واثقاً من نفسه ، متغطرساً ، له أنف كفيل بأن يستل أي سر من صاحبه . وكانت زوجته تصحبه أحياناً إلى لندن ، ولكنها كانت تقيم في أوخنلك عادة . وفيها ماتت عام ١٧٨٩ بالغة الحادية والخمسين ، بعد أن أضنتها العناية التي بذلتها لبوزويل وأبنائه . وقد عمر بعدها ست سنين — كانت سني انحلال متعاظم . فلقد حاول مراراً وتكراراً أن يقهر حاجته إلى الشراب ولكنه أخفق . ومات بلندن في ١٩ مايو ١٧٩٥ ، بالغا السادسة والخمسين ، ونقل جثمانه إلى أوخنلك ليدفن فيها . وأوزاره ماثلة اليوم في أذهان جماهير الناس . ولكننا سننساها حين نقرأ مرة أخرى السيرة التي هي أعظم السير طرا .

هذا ولو رجعنا البصر إلى هذا القرن الثامن عشر في الأدب الانجليزي ، لأدركنا أنه كان قبل كل شيء قرن النثر ، من أديسن ، وسويفت ، وديفو ، إلى ستيرن ، وجبون ، وجونسن ، تماماً كما كان القرن السابع عشر قرن الشعر ، من « هاملت » ودن إلى درايدن والفردوس المفقود . وكان صعود العلم والفلسفة ، وهبوط الدين والغيبيات ، وإحياء الوحدات والقيود الكلاسيكية ، كل هذا برد من حرارة الخيال والآمال ، وعطل من تدفقهما ، وكان انتصار العقل هزيمة للشعر ، في فرنسا وفي انجلتره على حد سواء . بيد أن ما اتسم به أدب انجلتره النثري في القرن الثامن عشر من حيوية وتنوع عوض تعويضاً وافياً عن الشكلية الجامدة التي سادت شعره . وبفضل

رتشردسن وفيلدنج أصبحت الرواية ، التى كانت قبلهما سلسلة إبيزودية من مغامرات المتشردين والشطار ، وصفاً للحياة ونقداً لها . ودراسة للعادات ، والأخلاق ، والشخصيات ، هى أكثر إثارة من سجلات المؤرخين ، الذين تاه منهم الناس وسط الدولة . ثم أى تأثير أدبى يمكن أن يضارع فى ذلك العصر تأثير رتشردسن على بريفو ، وروسو ، وديدرو ، وجوته ؟

وإذا كان أدب انجلتره فى القرن الثامن عشر لم يستطع مطاولة أدب القرن السابع عشر ، أو منافسة الخيال الأليزابيثى المحلق ، فإن حياة انجلتره بجملتها استعادت حركتها صعدا بعد إخفاق الشجاعة والسياسة القوميتين فى عهد عودة الملكية . فلم تشعر انجلتره منذ هزيمة الأرمادا بمثل هذا التدفق فى المغامرة والسياسة ، وقد شهدت الأعوام الواقعة بين صعود شاتام وموت ابنه الثورة الصناعية تحل انجلتره مكاناً أسبق كثيراً من منافسيها فى روح الابتكار والقوة الاقتصاديين ، وشهدت البرلمان الانجليزى يغزو القارات وهو يكبح أثناء ذلك جماح ملوكه . فالآن بدت الامبراطورية البريطانية المترامية ، والآن تجاوبت قاعات مجلس العموم بالخطب البليغة التى لم تسمعها أوربا منذ أيام شيشرون . وبينما كانت فرنسا تنزح خزائنها لتحرر أمريكا ، وتضرب عنقها لتحقق أحلامها ، شحذت انجلتره كل مواردها من فكر وإرادة لتتطور دون ثورة ، ولتلج أبواب القرن التاسع عشر فى الاقتصاد والحكم مكللة بالنصر متبوئة أسمى مكان .

★ ★ ★



الكتاب السابع

انهيار فرنسا الإقطاعية

١٧٧٤ — ٨٩



الفصل الرابع والثلاثون

البهاء الأخـــير

١٧٧٤ – ٨٣

١ – ورثة العرش : ١٧٥٤ – ٧٤

كان لويس السادس عشر الابن الثالث للدوفن لوى دفرانس . الذى كان الإبن الشرعى الوحيد للويس الخامس عشر . وقد لقب الدوفن بلويس البدين لأنه كان أكولا . وقد حاول التغلب على سمنته بالصيد، والسباحة ، وقطع الأشجار ، ونشر الخشب ، واشتغال بالحرف اليدوية[1]. واحتفظ طول حياته باحترامه للكنيسة ، وكان أعز أصدقائه هم القساوسة ، وكان شديد الخجل من فسق أبيه . وقد أدمن القراءة ، وقرأ فيما قرأ مونتسكيو وروسو ، وآمن بالرأى القائل « إن الملك ليس إلا الوكيل على موارد الدولة »[2]. وضن على نفسه برحلة خلال فرنسا ، لأن « شخص بجملته لايسا وى ما تكلفه الرحلة للشعب الفقير »[3]. ومما يجدر بالملاحظة أن الكثير من خلقه وعاداته وأفكاره تحدر إلى ولده لويس السادس عشر .

أما زوجته ، ماري – جوزيف السكسونية ، المرأة الفاضلة الخلق ، القوية البدن ، فقد ولدت له ثمانية أطفال ، ومنهم لوى – جوزيف ، دوق برجنديه ، الذى قتل فى حادث عام ١٧٦١ ، ولوى – أوجست ، دوق بيرى ، المولود فى ٢٣ أغسطس ١٧٥٤ ، والذى سيصبح لويس السادس عشر ، ولوى – ستانسلاس ، كونت بروفانس ، المولود فى ١٧٥٥ ، والذى سيصبح لويس الثامن عشر ، ثم شارل – فليب ، كونت دارتوا ، المولود فى ١٧٥٧ ، والذى سيصبح شارل العاشر . فلما مات أبوهم عام ١٧٦٥ أصبح لوى – أوجست ، البالغ أحد عشر عاماً ، وارثاً للعرش .

وكان غلاماً عليلا ، جباناً خجولا ، ولكنه اكتسب الصحة والعافية بفضل سنوات الحياة الريفية والطعام البسيط . وكان كأبيه فيه من الطيبة أكثر مما فيه من الذكاء . وكان يحسد أخوته على ذكائهم المتفوق ، وكانوا يتجاهلون تماماً كبر سنه . وإذ كان فيه من الحياء ما يمنعه من الرد على الهجوم فقد أغرق نفسه فى الرياضة والحرف . فتعلم الرماية بمنتهى الدقة ، ومنافسة الصناع فى استعمال يديه وأدواته . وقد أعجب بمهارات الصناع الذين يخدمون القصر ، وأحب التحدث إليهم والعمل معهم ، واتخذ شيئاً من طباعهم وحديثهم . ولكنه أحب الكتب أيضاً . واستهواه فنيلون بنوع خاص ؛ وحين بلغ الثانية عشرة ركب مطبعة فى قصر فرساى ، وبمساعدة أخويه (وكانا فى التاسعة والحادية عشرة) جمع حروف مجلد صغير نشره فى ١٧٦٦ بعنوان « حكم أخلاقية وسياسية مستقاه من تلماك » ولم يحب جده لويس الخامس عشر هذه الحكم وقال « انظر إلى ذلك الولد الكبير ، سوف يكون القاضى على فرنسا وعلى نفسه ، ولكنى على أية حال لن أعيش حتى أرى ذلك »(٤) .

فكيف السبيل إلى تحويل هذا الأمير الصانع ملكاً ؟ أيمكن العثور على زوجة منبهة له تهبه الشجاعة والأباء ، وتلد له ملوكاً من البوربون للمستقبل ؟ وأما الحاكم الحالى فكان فى شغل عن هذا بمدام دوبارى ، ولكن شوازيل وزير الخارجية تذكر أيامه التى قضاها فى بلاط فيينا ، وتذكر أرشيدوقة مرحة تدعى ماريا أنطونيا يوزيفا ، كانت آنئذ (١٧٥٨) فى الثالثة من عمرها ، فلعل زواجها من لوى — أوجست ينفخ روحاً جديدة فى ذلك الحلف النمسوى الذى أضعفه الصلح المفرد المبرم بين فرنسا وانجلترة (١٧٦٢) ، وكان الأمير فون كاونتز قد أسر بمثل هذه الأفكار للكونت فلور يمند مرسى دارجنتو ، وهو نبيل من لييج ذو ثراء عريض وقلب طيب ، وكان سفيراً للنمسا فى فرساى . واستمع لويس الخامس عشر للنصيحة التى أجمعا عليها ، وأرسل (١٧٦٩) رسمياً إلى ماريا تريزا يطلب يد ماريا أنطونيا للوى — أوجست وأسعد الإمبراطورة أن تبارك اتحاداً كانت هى نفسها قد خططت له منذ أمد بعيد . وأما الدوفن الذى لم يؤخذ رأيه فى الأمر ، فقد

قبل طائعاً هذا الاختيار الذى رتب له . وحين أنبىء بأن خطيبته أميرة حسناء ، قال فى هدوء « ليتها حسنة الخلال »[٥] .

ولدت بفيينا فى ٢ نوفمبر ١٧٥٥ . ولم تكن بالطفلة الوسيمة . فجبينها مفرط الارتفاع ، وأنفها مسرف فى الطول والتدبب ، وأسنانها غير منتظمة ، وشفتها السفلى غليظة . ولكن سرعان ما عرفت أن دمها أزرق ، فتعملت أن تمشى مشية من ولدت لكى تكون ملكة ، وأعادت الطبيعة بأكسير الشباب العجيب حين أدركت سن البلوغ لف جسمها لفاً ساحراً ، حتى غدت بشعرها الأشقر الحريرى ، وبشرتها الزنبقية الوردية ، وعينيها الزرقاوين العابثتين المتألقتين ، و « عنقها الإغريقى » على الأقل لقمة لذيذة لولى عهد ، ان لم تكن طبقاً شهياً لملك . وكان ثلاث من شقيقاتها الخمس اللاتى يكبرنها قد هيأت لهن الامبراطورة بدهائها زيجات لينة : فماريا كرستينا تزوجت الأمير ألبرت السكسونى ، الذى أصبح دوق ساكسى — تيشن ، وتزوجت ماريا أماليا فرديناند دوق بارما ، ودأصبحت ماريا كارولينا ملكة على نابلى . أما أخوهن يوزف فكان شريكاً فى حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان أخوهن ليوبولد غراندوقا لتسكانيا . فلم يبق لماريا أنطونيا غير أن تصبح ملكة على فرنسا .

ولقد أهملت بعض الشىء بوصفها أصغر أطفال ماريا تريزا الأحياء ، فلما بلغت الثالثة عشرة تعلمت بعض الإيطاليا ، ولكنها لم تكن تحسن كتابة الألمانية ولا الفرنسية . أما التاريخ فلم تعرف منه شيئاً تقريباً ، ولم تحرز فى الموسيقى غير تقدم متواضع مع أن جلوك كان معلمها . وحين قرر لويس الخامس عشر قبولها زوجة لحفيده أصر على أن تطعم ضد الجدرى ، وبعث بالأب فرمون ليعجل بتعليمها . وكان تقرير فرمون عنها أن « خلقها وقلبها ممتازان » وأنها « أذكى مما كان يظن عموماً » ولكنها « على شىء من الكسل ، طائشة للغاية ، عسيرة التعليم . . . فهى لا ترغب فى التعليم إلا إذا سليت »[٧] ولكنها أحبت الرقص ، والعدو مع كلابها فى الغابات .

وكانت الإمبراطورة التي أضنتها الهموم عليمة بأنها تكل مصير الخاف لأبد أوهن من أن تضطلع بتبعة كهذه . وظلت طوال شهرين قبل ابرام الزواج المرتقب تأتي بماريا أنطونيا لتنام معها في حجرتها . حتى تبث في ابنتها في جو أمسياتهما الحميم شيئاً من حكمة الحياة وفن الملك . وقد وضعت لها قائمة قواعد لتهدى سلوكها في الأخلاق والسياسة . وكتبت للويس الخامس عشر ترجوه أن يغضى عن مآخذ العروس العزيزة التي ستبعث بها لحفيده . أما ولى العهد فقد وجهت إليه رسالة تفيض باهتمام الأم المفرط ومخاوفها :

« انى لآمل أن تكون مبعث سعادة لك كما كانت مبعث بهجة لى . لقد نشأتها لهذا . لأننى توقعت منذ أمد بعيد أنها ستشاركك حظك فى الحياة . لقد بثثت فيها حباً لواجباتها نحوك . . ومودة رقيقة . وقدرة على أن تعرف وتمارس وسائل إدخال السرور على قلبك . إن ابنتى ستحبك . وأنا واثقة من هذا . لأننى أعرفها . . وداعاً يا دوفيني العزيز . كن سعيداً . وأسعدها . . . أن الدموع تفيض منى . . . أمك الحنون »[٨] .

وفى ١٩ ابريل ١٧٧٠ . فى كنيسة الأوغسطينين بفيينا . عقد بالوكالة قران الفتاة المتألقة الحسن . الخلية البال . البالغة أربعة عشر عاماً . على لوى — أوجست ولى عهد فرنسا . واتخذ أخوها فرديناند مكان الدوفن .

وبعد يومين قادت قافلة من سبع وخمسين مركبة و ٣٦٦ جواداً ولية العهد مروراً بقصر شونبرون . وودعتها الإمبراطورة الوداع الأخير . هامسة لها أن « تكونى كريمة جداً مع الفرنسيين حتى يستطيعوا القول بأننى أرسلت لهم ملاكاً »[٩]. وضم الموكب ١٣٢ شخصاً — وصيفات ومصففات للشعر ، وخياطات . وأتباعاً ، وكهنة للقصر ، وجراحين ، وصيادلة ، وطباخين ، وخدماً . وخمسة وثلاثين رجلا ليعنوا بالخيل التى كانت تبدل أربع مرات أو خمساً فى اليوم خلال الرحلة الطويلة إلى فرنسا . وبعد ستة عشر يوماً وصل الموكب إلى كيل على الرين قبالة ستراسبورج . وعلى جزيرة فى النهر استبدلت ماريا بثيابها النمساوية ثياباً فرنسية ، وتركها أتباعها النمسويون قافلين إلى فيينا ، وحل محلهم حاشية من السيدات والخدم الفرنسيين ، وأصبحت ماريا

أنطونيا منذ الآن مارى أنطوانيت . وبعد الكثير من المراسم أدخلت ختراسبورج بين قصف المدافع ورنين أجراس الكنائس وهتاف الشعب وبكت وابتسمت واحتملت المراسم الطويلة فى صبر ، فلما بدأ العمدة خطاباً بالألمانية قاطعته قائلة : « لا تتكلموا بالألمانية أيها السادة ، فمنذ الآن لا أفهم لغة غير الفرنسية » وبعد أن سمح لها الموكب بالراحة يوماً بدأ رحلته عبر فرنسا .

وكان الترتيب أن يذهب الملك وولى العهد مع كثير من الحاشية إلى كومبيين على اثنين وخمسين ميلا شمال شرقى باريس ليقابلوا موكب ولية العهد . ووصل الموكب فى ١٤ مايو . وقفزت العروس من مركبتها ، وجرت نحو لويس الخامس عشر ، وانحنت إلى الأرض ، وظلت كذلك حتى أقامها الملك وهدأها وطمأنها بعبارة كريمة « لقد أصبحت عضواً فى الأسرة يا سيدتى ، لأن لوالدتك روح لويس الرابع عشر »[١٠]. وبعد أن قبلها على وجنتيها قدمها إلى ولى العهد ، الذى قبلها بالمثل ولكن ربما بلذة أقل . وفى ١٥ مايو بدأ الموكبان المجتمعان الرحلة إلى فرساى . وهناك ، فى ١٦ مايو ، أكد زفاف رسمى ذلك الزفاف بالوكالة الذى عقد قبل شهر . فى تلك الليلة أقيمت مأدبة عظيمة فى دار الأوبرا الجديدة ، ونبه الملك ولى العهد إلى أنه يفرط فى الأكل . فأجاب « إننى دائماً يحسن نومى بعد عشاء طيب» . وهذا ما حدث إذ أنه استغرق فى النوم بمجرد دخوله فراش الزوجية .

وقد نام بهذه السرعة فى ليال متعاقبة ، وفى أصباح متعاقبة كان يستيقظ مبكراً لينطلق إلى صيده . وألمع مرسى دارجنتو إلى النمو السريع الحديث الذى طرأ على لوى — أوجست قد أخر تطوره الجنسى ، وأنه لا حيلة فى الأمر إلا الانتظار . وكتبت ماريا تريزا إلى ابنتها بعد أن أنبئت بالموقف تقول « كلاكما صغير جداً ! أما أثر هذا على صحتكما فكاه يعمل للخير . وسيكسبكما مزيداً من القوة »[١١] . وزاد بعض أطباء ولى العهد الطين بلة بأنبائه بأن الرياضة والطعام الطيب سيحفزان نموه الجنسى ، ولكن حدث العكس ، فقد جعلاه أكثر بدانة وميلا للنعاس . وأخيراً ، وفى أواخر عام

١٧٧٠ ، حاول ولى العهد أن يحقق اكتمال الزواج بالدخول على زوجته ، ولكنه فشل ، وكانت النتيجة الوحيدة للمحاولة ألماً مخيباً للآمال . وأبلغ كونت أراندا ، السفير الإسبانى ، ملكه بالآتى « يقولون إن عائقاً تحت القلفة يجعل محاولة الجماع مؤلمة جداً » أو « أن القلفة سميكة جداً بحيث لاتستطيع التمدد بالمرونة اللازمة للانتصاب»[١٢] . واقترح الجراحون إزالة العائق بجراحة شبيهة بالختان ، ولكن ولى العهد رفض[١٣] وكرر محاولاته ، دون أن يبلغ من ورائها إلا الإثارة والإذلال له ولزوجته . وظل الموقف على الحال . وعمق إحساس ولى العهد بقصوره الزوجى شعوره بالنقص ، ولعل هذا الشعور شارك فى جعله ملكاً كثير التردد عديم الثقة بنفسه .

وأغلب الظن أن سنى الإحباط الزوجى السبع هذه أثرت فى خلق مارى أنطوانيت وسلوكها . وذلك أنها كانت عليمة بأن رجال البلاط ونساءه يسخرون من سوء طالعها ، وأن أكثر فرنسا ترميها بالعقم وهى تجهل السبب . ومن ثم فقد آست نفسها بزيارات للأوبرا أو المسرح فى باريس ، وأسرفت فى لبس الثياب الفاخرة الغالية ، وتمردت على الاختلاط الكثير بالبلاط بكل مراسمه وبروتوكوله ، وآثرت الصداقات الحميمة مع نفوس متعاطفة مثل الأميرة لامبال . وظلت طويلا تأبى الحديث إلى مدام دبارى ، إما لاشمئزازها من أخلاقها وإما بدافع الحسد لأن امرأة أخرى تظفر بالحب هذا الظفر الكبير ويكون لها هذا النفوذ القوى على الملك .

وفى ١٠ مايو ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر . واندفعت الحاشية إلى مسكن ولى العهد . فوجدوه هو وولية العهد راكعين وهما يبكيان ويصليان . وقال الفتى ذو التسعة عشر ربيعاً وهو يبكى « اللهم ارحمنا ! فنحن أصغر من أن نحكم ! » وقال لصديق ، « يا له من عبء ! إننى لم أتعلم شيئاً ، وإنى لأشعر كأن الكون سيسقط فوق »[١٤] . وفى جميع أرجاء فرساى وباريس ، ثم إلى أبعد ماسرى النبأ فى فرنسا ، هتف الرجال والنساء « مات الملك ، يحيى الملك ! » وكتب باريسى متفائل على تمثال لهنرى الرابع هذه الكلمة « قام »[١٥] ، لقد قام الملك العظيم من بين الأموات لينقذ فرنسا مرة أخرى من الفوضى والفساد والإفلاس والهزيمة .

٢ — الحكومة

ترى ماذا كان خطب الحكومة ؟ إنها لم تبلغ في إستبدادها مابلغته حكومة بروسيا ، ولا في فسادها ما بلغته حكومة انجلتره ، وكان جهازها البيرقراطي وإدارتها الإقليمية يضمان نفراً من الرجال الأفاضل وكثيراً من الرجال الأكفاء . ومع ذلك أخفقت ملكية البوربون في أن تلاحق تطور الشعب الاقتصادي والفكري . ونشبت الثورة في فرنسا بأسرع مما نشبت في غيرها لأن الطبقات الوسطى كانت قد بلغت شأواً من الذكاء أبعد مما بلغته في أي أمة معاصرة أخرى ، وفرض فكر مواطنيها اليقظ المتنبه مطالب على الدولة أكثر حدة مما كان على أي حكومة في ذلك العصر أن تلبيه .

وكان فردريك الثاني ويوزف الثاني ، وكلاهما نصير متحمس للفلسفة والملكية المطلقة ، قد أدخلا في الإدارة السياسية لبروسيا والنمسا قدراً من النظام والكفاية لم يكن وقتها متوافراً في بلد كفرنسا يحب الاسترخاء واليسر اللاتينيين . « واستشرى الاضطراب والفوضى في كل مكان »[١٦] ، ففي فرساي تنازع مجلس الملك في اختصاصه مع الوزراء ، الذين تنازعوا فيما بينهم لأن وظائفهم تداخلت ولأنهم تنافسوا على الأموال العامة ذاتها ، ولأنه لم تفرض عليهم من فوق سلطة توفق بين سياساتهم . وانقسمت الأمة في ناحية إلى دوائر Bailliages أو Senechaussees في مجال القضاء ، وفي أخرى إلى أقسام مالية (geanéralités) في المالية ، وفي ناحية ثالثة إلى إدارات (gouvernements) في الجيش ، وفي رابعة إلى أبرشيات paroisses وأقاليم provinces في الكنيسة . وفي كل قسم مالي كان الناظر الملكي يصطدم بالحاكم و « البرلمان » الإقليمي . وفي جميع أرجاء فرنسا اصطدمت مصالح المنتجين الريفيين مع مصالح المستهلكين الحضريين والأغنياء مع مع الفقراء ، والنبلاء مع البورجوازيين ، والبرلمانات مع الملك ، ومست الحاجة إلى قضية موحدة للصفوف وإرادة آمرة ، ولم تتوفر القضية إلا في ١٧٩٢ ، ولا الإرادة إلا في ١٧٩٩ .

وكان القانون من أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية ، ومع ذلك كان القضاة من أفضلها . واتبع جنوب فرنسا القانون الرومانى ، وشمالها القانون العام والإقطاعى . يقول دتوكفيل « إن العدالة كانت معقدة ، مكلفة ، بطيئة »[١٨] — رغم أن هذه شكوى عامة فى جميع البلاد . وكانت السجون قذرة ، والعقوبات وحشية ، والتعذيب القضائى ظل مسموحاً به فى ١٧٧٤ . وكان القضاة غير قابلين للعزل ، منصفين غير قابلين للرشوة عادة . وقد ذهب السر هنرى مين إلى أن رجال القضاء فى فرنسا « من حيث جميع الصفات المطلوبة فى المحامى ، والقاضى ، والمشرع ، يبزون كثيراً نظراءهم فى طول أوربا وعرضها »[١٩]. وكانوا يشغلون مناصبهم مدى الحياة ، ومن حقهم توريثها لأحد الأبناء . ووجد أكفأهم طريقه إلى البرلمانات الإقليمية ، واختير أغناهم وأعظمهم نفوذاً أعضاء فى برلمان باريس . وما وافى عام ١٧٧٤ حتى كانت طبقة « نبلاء الرداء القضائى » — أى القضاة الوراثيون قد انتهت إلى اعتبار نفسها مساوية إلا أقل قليلا لطبقة « نبلاء السيف » فى الكرامة والاستحقاق . ولم تسمح بعضوية البرلمانات إلا لمن ولدوا فى إحدى الطبقتين الاستقراطيتين .

كان من رأى مونتسكيو أن « الهيئات الوسيطة » بين الملك والشعب هى كوابح مفيدة على السلطة الأوتقراطية ، وحدد قوتين من هذه الهيئات هما النبلاء ملاك الأراضى والقضاه ولكى تقوم البرلمانات بهذه الوظيفة الكابحة طالبت بسلطة التصديق (أو التسجيل) على أى مرسوم ملكى ، أو رفضه حسبما يتفق فى رأيها أو يتعارض مع القوانين والحقوق الراسخة . وأعربت عدة برلمانات إقليمية ، خصوصاً برلمانات جرينوبل ، وروان ، ورين ، عن مبادىء شبه دمقراطية ، أحياناً بعبارات مقتبسة من روسو عن « الإرادة العامة » و « الموافقة الحرة للأمة » ، من ذلك أن برلمان رين أعلن فى ١٧٨٨ « أن الإنسان ولد حراً ، وأن الناس فى الأصل متساوون » و « أن هذه الحقائق ليست فى حاجة إلى إثبات »[٢٠] ، على أن البرلمانات كانت بوجه عام المدافع القوى عن فوارق الطبقات وامتيازاتها . وقد شاركت نزاعاتها مع السلطة الملكية فى الإعداد للثورة ، ولكن حين اقتربت الثورة انحازت إلى النظام القديم ، وسقطت بسقوطه .

وكانت السلطة الملكية من الناحية النظرية مطلقة . فالملك وفقاً للتقليد البوربونى هو المشرع الأوحد ، وهو السلطة التنفيذية الرئيسية ، وهو المحكمة العليا ، فى استطاعته أن يأمر بالقبض على أن شخص فى فرنسا وحبسه إلى أجل غير مسمى دون إبداء السبب أو السماح بمحاكمته ، وحتى لويس السادس عشر الرقيق القلب كان يرسل من قصره أوامر الاعتقال المختومة هذه . وكان الملك قد ورث مؤسسة غالية التكلفة ، تعد نفسها هيئة لا غنى عنها لإدارة الحكومة وهيبتها . ففى ١٧٧٤ كان بلاط فرساى يضم الأسرة المالكة و ٨٨٦ نبيلا ، هم ونساؤهم وأبناؤهم ، يضاف إليهم ٢٩٥ طاهياً ، و ٥٦ صياداً ، و ٤٧ موسيقياً وثمانية معماريين ، وأشتات من السكرتيرين ، وكهنة القصر ، والأطباء والسعاة والحراس . . . ، يبلغون فى مجموعهم ستة آلاف شخص ، مع عشرة آلاف جندى يرابطون عن كثب . وكان لكل عضو فى الأسرة المالكة بلاطه أو بلاطها الخاص ، وكذلك كان لبعض النبلاء الممتازين ، أمثال أمير كونديه وأمير كونتى ودوق أورليان ودوق بوربون . واحتفظ الملك بعدة قصور — فى فرساى ، ومارلى ، ولا مويت ، ومودون ، وشوازى ، وسان — أوبير ، وسان — جرمان ، وفونتنبلو ، وكومبيين ، ورامبوييه . وكان من المألوف أن ينتقل من قصر إلى آخر ، بعض الحاشية الذين يحتاجون إلى المسكن والطعام ، وفى ١٧٨٠ بلغت نفقات مائدة الملك ٣,٦٦٠,٤٩١ جنيهاً [٢١] .

وكانت رواتب موظفى البلاط معتدلة ، ولكن المنح والعلاوات كانت مطاطه ؛ من ذلك أن المسيو أوجار — وكان سكرتيراً فى إحدى الوزارات — لم يجاوز راتبه تسعمائة جنيه فى العام ، ولكنه اعترف بأن الوظيفة غلت له كل عام ٢٠٠,٠٠٠ جنيه خالصة . وغلت عشرات الوظائف الشرفية المال لأعضاء الحاشية بينما كان العمل يؤديه مرءوسوهم ، مثال ذلك أن مسيو ماشو كان يقبض ثمانية عشر ألف جنيه نظير التوقيع بإسمه مرتين فى العام[٢٢] . وأجريت عشرات المعاشات التى بلغت جملتها ٢٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كل عام على النبلاء ذوى النفوذ أو محاسيبهم[٢٣] . وكانت عشرات الدسائس تدبر لتقرير المحظوظ الذى سيظفر بكرم الملك وسخائه الطائش. وكان يتوقع منه

أن يعين الأسر النبيلة القديمة التي أعسرت ، وأن يقدم المهو لبنات النبلاء عند زواجهن . وكان كل من أبناء لويس الخامس عشر الأحياء يتلقى ما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ جنيه في العام . وكان راتب كل وزير دولة يرقى إلى ١٥٠,٠٠٠ جنيه في العام ، إذ كان المفروض فيه أن يفتح باب الضيافة على مصراعيه . كل هذا السفه في الإنفاق ، وكل هذه المعاشات ، والهبات ، والرواتب ، والمناصب الشرفية ، كانت تدفع من إيرادات تؤخذ من حياة الأمة الاقتصادية . وقد كلف البلاط فرنسا مبلغاً جملته خمسون مليون جنيه في العام — وهو عشر مجموع إيراد الحكومة [٢٤] .

٣ — الملكة العذراء

وكانت ماري انطوانيت أكثر أعضاء البلاط إسرافاً . ذلك أنها وقد ارتبطت بزوج عنين ، وحرمت الرومانس ، ولم تشغلها علاقات غرامية ، راحت تتسلى حتى عام ١٧٧٨ بالغالي من الثياب ، والجواهر ، والقصور ، والأوبرات ، والمسرحيات ، والمراقص . وكانت تخسر الثروات في القمار ، وتهب الثروات للمحاسيب في كرم متهور . وقد أنفقت ٢٥٢,٠٠٠ جنيه على ثيابها في عام واحد (١٧٨٣)[٢٥] ، وأتاها مصممو الأزياء بالغريب الطريف من الأثواب المسماة « المباهج الطائشة » أو « العلامات المكبوته » أو « الرغبات المقنعة »[٢٦] . وكان مصففات الشعر يعكفن الساعات فوق رأسها يصعدن شعرها حتى يبلغ ارتفاعات يبدو ذقنها فيها وقد توسط قامتها ، وقد قررت هذه « التسريحة العالية » ، كما قررت معظم الأشياء التي ابتدعتها ، زي نبيلات البلاط ، فزي باريس ، فزي عواصم الأقاليم .

أما شغفها بالحلي والمجوهرات فقد أوشك أن يكون هوساً . ففي ١٧٧٤ ابتاعت من بومر ، وهو الجواهري الرسمي للتاج ، أحجاراً كريمة قيمتها ٣٦٠,٠٠٠ جنيه[٢٧] . وأهداها لويس السادس عشر طقماً من العقيق ، والماس والأساور ، ثمنه ٢٠٠,٠٠٠ جنيه[٢٨] . وفي ١٧٧٦ كتب مرسي دارجنتو إلى ماريا تريزا يقول : « مع أن الملك أعطى الملكة في شتى المناسبات ما يساوي أكثر من ١٠٠,٠٠٠ « ايكو » من الماس ، ومع أن جلالتها تملك

الآن مجموعة هائلة ، إلا أنها مصممة على شراء حلق على شكل الثريا من بومر . ولم أخف عن جلالتها أنه كان أحكم فى الظروف الاقتصادية الراهنة لو تجنبت هذا الإنفاق الباهظ ، ولكنها لم تستطع مقاومة رغبتها — وإن أجرت الصفقة فى حذر مخفية أمرها عن الملك »(٢٩) .

وبعث ماريا تريزا إلى ابنتها بتوبيخ صارم ، واكتفت الملكة بالتزين بحليها فى المناسبات الرسمية فقط ، ولكن الشعب لم يغتفر لها قط هذا التبذير المفرط فى ضرائبه ، وبعد حين سيصدق أنها وافقت على شراء القلادة الماسية الشهيرة .

أما الملك فقد أغضى عن مواطن الضعف فى زوجته لأنه كان يعجب بها ويحبها ، ولأنه كان شاكراً لها صبرها على عجزه الجنسى . فدفع لها ديون القمار التى استدانتها من جيبه الخاص وشجع زياراتها لأوبرا باريس ، وإن علم أن مرحها المعلن على الملأ يزعج شعباً ألف فى ملوكه الوقار والحشمة ، ودفعت الحكومة نفقات ثلاث حفلات مسرحية ، وحفلتى رقص ، وعشائين رسميين فى البلاط مرتين كل أسبوع تقريباً ، يضاف إلى هذا أن الملكة كانت تحضر المراقص المقنعة فى باريس أو فى البيوت الخاصة ، لقد كانت هذه السنوات ١٧٧٤— ٧٧ فترة تبديد وإسراف على حد قول أمها بصراحة . وإذ كانت الملكة لاتجنى من وراء مغازلات زوجها فى الليل سوى الرغبة توقظ دون إشباع ، فقد شجعته على النوم مبكراً (مقدمة ساعة الحائط أحياناً لتعجل ذهابه للفراش) حتى تستطيع مشاركة الأصحاب ألعاباً قد تمتد الليل بطوله . وكانت زاهدة فى الأدب ، واهتمامها بالفن قليل ، وأكثر منه اهتمامها بالدراما والموسيقى ، وكانت تجيد الغناء والتمثيل وتعزف على الهارب ، وتؤدى بعض صوناتات موتسارت على الكلافيكورد (٣٠) .

وبين هذه العيوب جميعها كان واحد فقط عيباً جوهرياً — ذلك هو التبذير الطائش نتيجة للسأم والإحباط ، ولطفولة وصبى ألفا الترف وجهلا الفقر . وقد زعم الأمير لين (الذى ربما كان فيه من صفات الجنتلمان أكثر

مما فيه من صفات المؤرخ) أنها ما لبثت أن تخلصت من شغفها بالثياب الغالية ، وأن خسائرها فى القمار بولغ فيها ، وأن ديونها ترجع إلى سخائها غير الحكيم بقدر ما ترجع إلى إنفاقها الطائش[٣١]. وناصبها البلاط والصالونات العداء لأنها نمساوية ، ولم يكن الحلف مع النمسا من قبل محبوباً على الإطلاق . وكانت مارى أنطوانيت ، التى لقبت بـ « النمساوية » تجسيداً لذلك الحلف ، وقد اشتبه الفرنسيون ، ولهم بعض الحق ، فى أنها تخدم المصالح النمساوية ، على حساب فرنسا أحياناً . ولكن حتى مع هذا ، فإن حيويتها الشابة ، ومرحها ورقة قلبها ، كلها كسبت قلوباً كثيرة . حدث مرة أن جاءت مدام فيجيه — لبرون ، الحبلى منذ شهور كثيرة ، لتصورها (١٧٧٩) ، وبينما كانت المصورة كاكفة على رسمها أسقطت بعض أنابيب الألوان ، وللتو قالت لها الملكة ألا تنحنى ، « لأنك بعيدة جداً عنها » ثم التقطت بنفسها الأنابيب[٣٢]. وكانت أنطوانيت ترعى مشاعر غيرها عادة . ولكنها أحياناً ، فى مرحها الطائش كانت تضحك من لازمات غيرها أو عيوبهم . وكانت تستجيب بغاية السرعة لكل رجاء ، « أنها لم تعرف بعد خطر الاستسلام لكل دافع كريم »[٣٣] .

مثل هذه المخلوقة المفعمة حيوية ، والتى كانت الحياة والحركة عندها مرادفين ، لم تخلق لخطو مراسم البلاط ، ذلك الخطو البطىء الحذر . وسرعان ما تمردت عليه ، والتمست البساطة واليسر فى المبنى تريانون وحوله ، وكان على ميل من قصر فرساى . وفى ١٧٧٨ أهدى لويس السادس عشر الملكة هذا الملتقى ملكاً خالصاً لها ، تستطيع أن تخلو فيه مع أخصائها ، ووعد لويس أنه لن يتطفل عليهم إلا إذا دعى . ولما لم يكن فى المبنى غير غرف ثمان ، فقد أمرت الملكة ببناء بعض الأكواخ بقربه لأصحابها وخططت لها الحدائق المحيطة به على النمط « الطبيعى » — ممرات ملتفة ، وأشجار منوعة ، ومخابىء ، وجدول حمل إليه الماء فى أنابيب من مارلى بتكلفة غالية . ولاستكمال حلم روسو فى العودة إلى الطبيعة أمرت بإقامة ثمانى مزارع صغيرة فى الحديقة الملاصقة ، لكل منها كوخها الريفى ، وأسرتها الفلاحة ، وكوم سباخها ، وأبقارها . هنالك كانت تقلد راعيات الغنم فتلبس عباءة بيضاء ،

ومنديلا من الشاش ، وقبعة من الخوص ، وكانت تحب أن ترى اللبن يحلب بالملاطفة من خير الضروع فى آنية من برسلان سيفر . وكانت هى وأصدقاؤها يعزفون أو يلعبون ألعاباً داخل البيتى تريانون ، وعلى الخمائل يولمون الولائم للملك أو لكبار الزوار . وهناك وفى القصر الملكى أيضاً . كانت الملكة تخرج المسرحيات التى تلعب أدواراً هامة فى بعضها — كدور سوزان فى « زواج فيجارو » ، ودور كوليت فى « عراف القرية » فتبهج الملك بتنوع مواهبها وجاذبيتها .

فلما خشيت تقول المتقولين إن هى أسرفت فى حرية الاختلاط بالرجال ، كونت مع بعض النساء صداقات حميمة بلغت من الوثاقة ما وجه النميمة وجهة أخرى . فجاءت أولا مارى — تريز وسافوا — كارنيان ، أميرة لامبال ، الرقيقة ، الحزينة ، الهشة . وكان قد انقضى عليها سنتان فى ترملها مع أنها لم تجاوز الحادية والعشرين . وكان زوجها — وهو ابن دوق بنتييفر حفيد لويس الرابع عشر — يعاشر الخليلات ويختلف إلى المومسات بعد زواجه بقليل ، فأصيب بالزهرى ومات به بعد أن اعترف بآثامه لزوجته فى تفصيل مقزز . ولم تفق قط من المحنة الطويلة التى ابتلاها بها ذلك الزواج ، وظلت تعانى من التقلصات العصبية ونوبات الإغماء حتى مزقها اربا جمهور من غوغاء الثورة فى ١٧٩٢ — وانعطفت مارى أنطوانيت نحوها بدافع الشفقة أول الأمر ، ثم تعلمت أن تحبها حباً حاراً ، فتلقاكما كل يوم ، وتكتب لها رسائل الإعزاز مرتين فى اليوم أحياناً . وفى أكتوبر ١٧٧٥ عينت الأميرة مشرفة على بيت الملكة ، وأقنعت الملك رغم اعتراضات طورجو بأن يقرر لها راتباً سنوياً قدره ١٥٠,٠٠٠ جنيه . ثم كان للأميرة أقرباء وأصدقاء ، التمسوا منها أن تستخدم نفوذها لدى الملكة ، وعن طريقها لدى الملك ، لنيل المناصب أو الهبات . وبعد عام تركت أنطوانيت محبتها لها تذبل واتخذت صديقة أخرى .

وكانت هذه الصديقة الجديدة ، واسمها يولاند دبولا سترون زوجة الكونت جول دبولينياك ، عريقة المنبت رقيقة الحال : كانت حلوة ، صغيرة الجسم ، طبيعية . وما كان أحد ليخامره الظن إذا رآها بأن فيها هذا الشره

للمال الذى أيأس طورجو من موازنة الميزانية ما دامت الملكة تجد متعة فى صحبتها الظريفة . فلما قاربت الكونتيسة موعد الوضع أقنعتها الملكة بأن تنتقل إلى لاموييت ، وهى فيلا ملكية بقرب قصر فرساى ، وهناك كانت تزورها كل يوم حاملة إليها الهدايا دائماً تقريباً . فلما أصبحت الكونتيسة أما لم تضن عليها الملكة بشىء ، : ٤٠٠,٠٠٠ جنيه لتسوية ديونها ، ومهر لابنتها قدره ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، وسفارة لأبيها ، ومال ، وحلى ، وفراء ، وتحف فنية لشخصها ، وأخيراً (١٧٨٠) دوقية وضيعة بيتش ، لأن الكونت كان تواقاً لأن يصبح دوقاً . وقال مرسى دارجنتو للملكة آخر الأمر أنها تستغل ، وأن الدوقة الجديدة لاتبادلها محبتها ، واقترح على الملكة ، التى وافقت على اقتراحه ، أن تطلب إلى مدام دبولنياك على سبيل الامتحان أن تطرد من بطانتها الكونت دفودروى الذى كانت انطوانيت تمقته ، فأبت المدام ، وانصرفت أنطوانيت عنها إلى صداقات أخرى . وهكذا انضم آل بولنياك إلى صفوف أعدائها ، وأصبحوا مصدراً للافتراءات التى لوثت بها الحاشية وكتاب الكراريس اسم الملكة .

وكان كل شىء تقريباً تأتيه يخلق لها الأعداء . فأفراد الحاشية يتحسرون على الهبات التى تغدقها على محاسيبها ، لأن هذا معناه أن يقل عطاؤهم ، وشكوا من أنها أكثرت الغياب عن مهامها فى البلاط حتى فقدت هذه المهام بهاءها وقل الإقبال على حضورها . ولامها الآن كثيرون ممن عابوا من قبل غرامها القديم بالثياب الغالية ، لأنها قررت زياً جديداً تميز ببساطة الملبس . وقالوا أن هذا نذير بإفلاس تجار الحرير فى ليون وخياطى باريس[٣٤]. وكانت قد أقنعت الملك بإقالة الدوق دجيون (١٧٧٥) الذى تزعم أنصار مدام دوبارى ، وكان للدوق متعاطفون كثيرون ، كونوا نواة أخرى من الأعداء . وبعد عام ١٧٧٦ شن كتاب الكراريس الباريسيون على الملكة حملة قدح قاس لا هوادة فيه[٣٥] — وكان كثير منهم يتلقون المعلومات والمال من بعض الحاشية[٣٦] ، فوصفها بعض الكتاب بأنها الخليلة ، فى وقت أو آخر ، لكل ذكر موجود فى فرساى[٣٧] . وقد تساءلت كراسة عنوانها « تأنيب للملكة » . كم مرة تركت فراش الزوجية وقبلات زوجك لتسلمى نفسك للباخوسيات أو السواطير ولتندمجى معهم فى متعهم الوحشية ؟ »[٣٨] .

وصورت كراسة أخرى تبذيرها بوصف حائط فى البتى تريانون زعمته مكسوا بالماس[٣٩] . واتهمتها الشائعات بأنها قالت خلال حوادث الشغب التى وقعت بسبب شح الخبز عام ١٧٨٨ « إذا لم يكن لديهم خبز فليأكلوا كعكاً » ، ويجمع المؤرخون على أنها لم تذنب قط بقول تلك الملاحظة القاسية[٤٠] ، فهى على العكس أسهمت بسخاء من جيبها الخاص فى التخفيف عن الشعب . وأشد وأنكى حتى من هذا كله ما شاع وذاع بين الجماهير من أنها عاقر . تقول مدام كمبان الوصيفة الأولى لمخدع الملكة :

« حين ولد ابن للكونت دارتوا عام ١٧٧٧ ، تبع نساء السوق وبائعات السمك الملكة حتى باب مسكنها ذاته ، مؤكدات حقهن فى الدخول إلى القصر الملكى فى مناسبات الولادات الملكية ، وطفقن يصحن بأشد العبارات غلظة وسوقية قائلات أن من واجبها هى ، لا سلفتها ، أن تأتى بورثة للتاج الفرنسى . وعجلت الملكة بإغلاق بابها دون هؤلاء العجائز الشكسات الوقحات . واعتكفت فى حجرتها معى تندب حظها التعس »[٤١] .

فأنى لها أن تشرح للشعب أن الملك عنين ؟

وانتظرت فرنسا امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ليأتى ويزيل هذه العقدة . وفى ابريل ١٧٧٧ وصل يوزف الثانى فرساى متخفياً تحت اسم الكونت فون فالكنشتين . ووقع فى غرام الملكة ، وقال لها « لو لم تكونى أختى لما ترددت فى أن أتزوج ثانية ليكون لى رفيق ساحر مثلك »[٤٢] ، ثم كتب لشقيقهما ليوبولد يقول :

« لقد أنفقت معها الساعة تلو الساعة ، دون أن ألحظ مرور الزمن . . . أنها امرأة ساحرة نبيلة ، مازالت صغيرة بعض الشىء ، طائشة قليلا ، ولكنها فى صميمها كيسة فاضلة . . كذلك فيها جرأة ورهافة أدهشتانى ، واستجابتها الأولى صائبة دائماً ، ولو أنها أطاعتها . . . واهتمت اهتماماً أقل بالقيل والقال . . . لبلغت مرتبة الكمال . ولها رغبة قوية فى متع الحياة ، ولما كانت ميولها معروفة ، فإن ضعفها يستغل . .

« ولكنها لاتفكر إلا فى متعتها ، ولا تحب الملك ، وقد ثملت بإسراف

هذا البلد . . . وهى تسوق الملك بالقوة لأشياء لا يريد فعلها . . . فهى باختصار لاتؤدى واجبات الزوجة أو الملكة »[٤٣] .

وقد أوضحت السبب فى أنها والملك ينامان فى حجرتين منفصلتين ، فهو يحب النوم مبكراً ، وقد وجد كلاهما من الحكمة تجنب الإثارة الجنسية . وزار يوزف الملك وأحبه كثيراً . وكتب لليوبولد يقول « هذا الرجل فيه ضعف ولكنه ليس أبله . فله أفكار وحكم سديد ، ولكن عقله وجسمه فاتران . وهو يتحدث بشكل معقول ، ولكن ليس بهرغبة فى التعلم ولا حب للاستطلاع . والواقع أن لحظة « انطلاق النور » لم تأت بعد ، والأمر لا زال مفتقراً إلى الشكل »[٤٤] . وتحدث الإمبراطور إلى لويس حديثاً لم يجرؤ أحد من قبل على مصارحته به ، فأشار إلى أن العائق فى قلفة الملك يمكن إزالته بجراحة بسيطة وإن كانت مؤلمة ، وأن على الملك لوطنه ديناً هو أن ينجب أبناء ، ووعد لويس بأن يستسلم لمبضع الجراح .

وقبل أن يغادر يوزف فرساى كتب ورقة « تعليمات» للملكة . وهى وثيقة جديرة بالتنويه .

« إنك تكبرين ، ولم يعد لك عذر من صغر السن . فما مصيرك إذا أخرت (صلاح أمرك) أكثر من هذا ؟ . . فحين يعانقك الملك ، وحين يتحدث إليك ، ألا تبدين الضيق ، بل حتى النفور ؟ هل خطر ببالك يوماً أى أثر لا بد أن تخلفه فى الشعب . . . علاقاتك الحميمة وصداقاتك ؟ . . . هل وزنت النتائج الرهيبة لألعاب الحظ ، وما تجمع من أصحاب وما يضربونه من مثل ؟ . . . » .

وقال عن ولعها بالمراقص التنكرية فى باريس :

لم الاختلاط بحشد من الفاسقين ، والمومسات ، والأغراب ، تستمعين إلى ملاحظاتهم ، وربما تبدين مثلها ؟ يا له من تبذل ؟ . . . إنك تتركين الملك وحيداً الليل كله فى فرساى بينما تندمجين فى المجتمع وتخالطين أوشاب الباريسيين؟ إننى فى الحق أرتعد خوفاً على سعادتك ، لأن هذا لا يمكن أن

يؤول إلى خسيرك فى المدى الطويل ، وستنشب ثورة قاسية ما لم تتخذى الخطوات لتجنبها »[٤٥] .

وتأثرت الملكة من لومه . فكتبت إلى أمها بعد رحيله : « لقد ترك رحيل الإمبراطور فراغاً لا أستطيع ملأه ، ولقد كنت سعيدة جداً خلال تلك الفترة القصيرة حتى ليبدو الأمر كله وكأنه حلم من الأحلام . ولكن الشيء الذى لن يكون حلماً عندى هو كل النصيحة الحكيمة . . . التى بذلها لى ، والتى نقشت على صفحة قلبى إلى الأبد »[٤٦]. على أن الذى أصلحها حقاً لم تكن النصيحة بل الأمومة . ذلك أن لويس استسلم فى ذلك الصيف من عام ١٧٧٧ ، ودون مخدر من أى نوع فيما يبدو ، لجراحة نجحت نجاحاً تاماً . واحتفل بعيد ميلاده الثالث والعشرين (٢٣ أغسطس ١٧٧٧) باستكمال علاقته الزوجية فى النهاية . وكان فخوراً سعيداً . وأسر لعمة عذراء قائلا « أننى أستمتع كثيراً بهذه اللذة ويؤسفنى حرمانى منها هذا الزمن الطويل »[٤٧]. على أن الملكة لم تحبل إلا فى ابريل ١٧٧٨ . وأنهت النبأ إلى الملك بطريقتها المرحة : « مولاى ، لقد جئت أشكو إليك أحد رعاياك الذى بلغت به الجرأة أن يرفسنى فى بطنى »[٤٨] . فلما أدرك لويس المعنى الذى ترمى إليه ضمها بين ذراعيه . وراح الآن أكثر من أى وقت مضى يستجيب لنزواتها ويمنحها كل سؤل لها . وكان يزور مسكنها عشر مرات فى اليوم ليطلع على آخر بلاغ عن سير الوريث المرتقب . وقالت مارى أنطوانيت للملك وقد طرأ عليها تحول جسدى ونفسى غامض « منذ الآن أريد أن أعيش حياة غير التى عشتها من قبل . أريد أن أحيا حياة أم ، وأرضع طفلى ، وأكرس نفسى لتربيته »[٤٩] .

وبعد معاناة شديدة ، زادتها شدة قابلة تفتقر إلى المهارة ، وضعت الملكة فى ١٩ ديسمبر ١٧٧٨ وأسف الوالدان على أن الوليد بنت ، ولكن أسعد الملك أن مغاليق الحياة فتحت ، وكان على ثقة من أن الإبن قادم فى الوقت المناسب . أما الأم الشابة فقد اغتبطت لأنها حققت ذاتها فى نهاية المطاف . وكتبت لماريا تريزا فى ١٧٧٩ (وكانت الأم فى بداية عامها الأخير) تقول : « لماما العزيزة أن ترضى كل الرضى عن سلوكى . وإذا

كنت ملومة فى الماضى ، فالسبب أننى كنت غرة طائشة . أما الآن فإننى أكثر تعقلا ، وأنا شديدة الوعى بواجبى »(٥١). ولم يصدق البلاط ولا الشعب ، ولكن — كما كتب الكونت سيجور « من الحقائق المسلم بها أنها بعد مولد طفلها الأول بدأت شيئاً فشيئاً تعيش حياة أكثر انتظاماً ، وتشغل نفسها على نحو جاد . وهى أشد حرصاً على تجنب أى شىء من شأنه أن يثير القيل والقال . . . وحفلاتها المرحة أقل عدداً ، وأقل صخباً . . . والإسراف يخلى مكانه للبساطة ، والأرواب الفاخرة تحل محلها الفساتين التيلية الصغيرة »(٥١) . ولقد كان جزءاً من العقاب الطويل الذى عوقبت به مارى أنطوانيت أن شعب فرنسا أبى أن يدرك أن الفتاة المدللة المستهترة قد غدت أما حنوناً حية الضمير . فلا شىء يضيع هباء ، ولكن كل شىء لابد أن يدفع ثمنه .

وكانت عليمة بأن القانون الفرنسى يحرم النساء من العرش . لذلك رحبت بالحمل الثانى ، وتمنت على الله ولداً . ولكنها عانت من سقط بلغ من شدته أنه أفقدها معظم شعرها(٥٢) . ولكنها كررت المحاولة ، وفى ٢٢ أكتوبر ١٧٨١ ولدت غلاماً سمى لوى — جوزف — زافير . وتشكك الساخرون فى نسب الطفل ، ولكن الملك السعيد ضرب عنهم صفحاً وصاح « ولدى الدوفن ! ولدى ! » .

٤ — الملك الطيب (٥٤)

كان لويس النقيض لزوجته فى كل شىء إلا السن . كانت رشيقة ، سريعة الخاطر ، خفيفة الحركة ، لعوبا ، مندفعة ، جياشه ، طائشة ، مسرفة ، مؤكدة لذاتها ، متكبرة ، ملكة دائماً ؛ وكان بطىء الحركة ، بليداً ، متردداً ، رزيناً ، هادئاً ، كادحاً ، مقتصداً ، متواضعاً ، عديم الثقة بنفسه ، كل ما فيه ينطق بأنه ليس ملكاً . كان يحب النهار ، وعمله ، وصيده ، وكانت تهوى الليل ، ومائدة القمار ، والمرقص . ومع ذلك لم يكن زواجهما بالزواج التعس بعد سنوات التجربة الأولى تلك ، فقد كانت الملكة وفية لزوجها ، والملك شغوفاً بزوجته ، وحين جاء الحزن أحكم الجمع بينهما فى شخص واحد .

كانت قسماته سوية ، ولعله كان يكتسب الوسامة لو حد من وزنه . وكان طويل القامة ، خليقاً بأن يكون له سمت الملوك لولا أن شاب مشيته كتفان متأرجحتان وخطوة ثقيلة . وكان يشكو ضعفاً فى بصره زاده ارتباكاً وثقل حركة ، وندر أن كان شعره منتظماً . ذكرت مدام كمبان أن « شخصه كان مهملا جداً »[٥٤] وكان مفتول العضـــل قوى البدن ، وقد رفع مرة أحد أتباعه بذراع واحدة . وكان نهما ، معتدلا فى شرابه ، ولكنه كان أحياناً يشمل بالطعام ، فيقتضى الأمر إعانته على الذهاب إلى فراشـــه[٥٥] . وكان له هوايات قليلة ، ونشوات طرب قليلة ، وساعات ألم مفرط قليلة .

ولم يكن شعوره شعور الراحة واليسر مع الفرنسيين المحيطين به ، الذين دربوا على يقظة الذهن وسرعة البديهة فى الحديث ؛ على أنه فى أحاديثه الخاصة وقع موقعاً طيباً من رجال كيوزف الثانى بفضل سعة معرفته وسداد حكمه ؛ استمع إلى الأمير هنرى البروسى ، شقيق فردريك الأكبر يقول :

« إن الملك أدهشنى . . . فلقد أنبئت أن تعليمه قد أهمل ، وأنه لا يعرف شيئاً ، وأنه قليل الذكاء . ولكنى ذهلت أن أرى وأنا أتحدث معه أنه يعرف الجغرافيا معرفة جيدة جداً ، وان له أفكاراً صائبة فى السياسة ، وأن سعادة شعبه كانت دائماً ماثلة فى فكره ، وأنه يفيض بالإدراك السليم الذى هو فى الملك أعظم قيمة من الذكاء اللامع . ولكنه كان مسرفاً فى عدم الثقة بنفسه »[٥٦] .

وكان لويس يقتنى مكتبة حسنة أفاد منها ، فقرأ وترجم جزءاً من كتاب جبون « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها »[٥٧] . ولكنه نحاه عنه حين تبين نزعته المعارضة للمسيحية . وقرأ وأعاد قراءة كتاب كلارندون « تاريخ التمرد » كأنه يحس فى دخيلة نفسه بأنه سيكرر مصير تشارلز الأول ، قال « لو كنت فى مكانه لما امتشقت الحسام قط فى وجه شعبى »[٥٨]. ولكى يرشد رحلة بيروز الباسفيكية (١٧٨٥) كتب تعليمات مفصلة نسبها وزراؤه إلى علماء أكاديمية العلوم[٥٩] . وكان على صلة وثيقة بمختلف وزرائه

لا سيما فى الشئون الخارجية . وأعجب واشنطن وفرانكلن بسداد حكمه[٦٠] . وكانت نواحى ضعفه فى الإرادة فى الفكر ، ولعلها ارتبطت بثقل غذائه ووزنه . ومن أهم صفاته عجزه عن مقاومة الإلحاح أو الخلوص من التفكير إلى التنفيذ . وكان هو نفسه يمارس الاقتصاد ، ولكن كان فيه من اللطف ما منعه من فرضه على الآخرين ، وكان يوقع بالموافقة على صرف مئات الألوف من الفرنكات استجابة لأمر زوجته .

على أن الفضائل لم تعوزه . فهو لم يتخذ خليلة ، وكان فيه وفاء لأصدقائه ربما باستثناء طورجو « أغلب الظن أنه لم يفقه غير طورجو من رجال جيله فى حب الشعب أعظم الحب »[٦١] . ففى يوم اعتلائه العرش أمر المراقب العام للمالية بتوزيع ٢٠٠,٠٠٠ فرنك على الفقراء ، وأضاف « ان وجدت هذا أكثر مما تسمح به حاجات الدولة فخذه من راتبى »[٦٢]. وقد منع جمع « ضريبة التتويج » التى كانت تجعل من استهلال حكم الملك عبئاً جديداً على الأمة . وفى ١٧٨٤ حين كانت باريس تعانى من الفيضانات والأوبئة ، خصص ثلاثة ملايين من الفرنكات لإعانة الشعب . وخلال شتاء قارس البرد سمح للفقراء يوماً بعد يوم بأن يغيروا على مطبخه ويصيبوا منه طعاماً. وكان مسيحياً لقباً ، وواقعاً ، والتزاماً بالشعائر ، فكان يتبع كل طقوس الكنيسة وقواعدها بحذافيرها ، ويصوم الصيام الكبير كله رغم ولعه بالطعام . وكان متديناً دون تعصب أو إعلان عن النفس ، فهو الذى منح الحقوق المدنية لبروتستنت فرنسا رغم سنيته وتدينه . وقد حاول التوفيق بين المسيحية والحكم ، وذلك أمر ليس فى الدنيا أصعب منه .

وكان عليه أن يعيش عيشة الملك مظهراً رغم حبه للبساطة ، فيجوز مراسم استيقاظ الملك levée ويدع الاتباع والحاشية يلبسونه ثيابه ، ويتلو صلوات الصباح فى حضرتهم ، ويستقبل الناس ، ويرأس المجلس الملكى ، ويصدر المراسيم ، ويحضر حفلات الغداء أو العشاء ، والاستقبال ، والرقص — مع أنه لم يكن يرقص . ولكنه عاش كأى مواطن صالح على قدر ما سمح به منصبه وشهيته . وقد وافق روسو على أن من واجب كل إنسان أن يتعلم حرفة يدوية ، فتعلم عدة حرف ، من صناعة الأقفال إلى البناء . وتخبرنا

مدام كمبان أنه « سمح لصانع أقفال من عامة الشعب بدخول مسكنه الخاص ، وكان يصنع معه المفاتيح والأقفال ، وكثيراً ما كانت يداه اللتان اسودتا من هذا الضرب من العمل مثار لوم بل توبيخ حاد من الملكة فى حضرتى »(٦٣). وكان يستهويه كل شىء يتصل بالبناء ؛ فيعين عمال القصر على نقل المواد ، والعوارض ، وبلاط الرصف . وكان يحب أن يقوم بترميم ما يحتاج إلى ترميم فى مسكنه بيديه هو ، وكان زوجاً صالحاً كأزواج أوساط الناس . وقد احتوت إحدى حجراته على أدوات الجغرافيا ، والكرات الأرضية ، والخرائط الجغرافية — التى رسم بعضها بنفسه ؛ واحتوت حجرة أخرى أدوات للشغل فى الخشب ، وجهزت ثالثة بكير وسندان ، وأشتات كثيرة من الأدوات الحديدية . وقد عكف شهوراً على صنع ساعة حائط ضخمة تسجل الشهور وأوجه القمر والفصول والسنين . وشغلت مكتبته عدة حجرات .

وقد أحبته فرنسا ، حتى إلى موته وبعد موته ؛ لأن الذى أعدمه بالجليوتين فى ١٧٩٣ لم تكن فرنسا بل باريس . فى تلك السنين الأولى كان الترحيب به عاماً تقريباً . كتب فردريك الأكبر لدالامبير « أن لديكم ملكاً طيباً جداً ، وأنا أهنئكم عليه من كل قلبى . فالملك الحكيم الفاضل خليق بأن يخشاه منافسوه أكثر من ملك لا يملك من الفضائل غير الشجاعة ». وأجاب دالامبير « انه يحب طيبة القلب ، والإنصاف ، والاقتصاد ، والسلام . . . انه بالضبط ما كان ينبغى أن نصبو إليه فى ملكنا لو لم يمنحنا إياه قدر كريم »(٦٤) . ووافق فولتير على هذا الرأى : « كل ما صنعه لويس منذ توليه العرش حببه لفرنسا »(٦٥) . وقد استعاد جوته فى شيخوخته ذكر هذا الاستهلال الميمون : « فى فرنسا أبدى ملك جديد خيِّر أحسن النوايا . لتكريس نفسه للقضاء على مفاسد كثيرة ، ولتحقيق أنبل الأهداف ، وهى إدخال أسلوب فى الاقتصاد السياسى منتظم وكفء ، والاستغناء عن كل سلطة تعسفية ، والحكم بالقانون والعدالة وحدهما . وقد عمت الدنيا أبهج الآمال ، ووعد الشباب الواثق نفسه والنوع الإنسانى كله بمستقبل زاهر مشرق »(٦٦) .

٥ — وزارة طورجو : ١٧٧٤ — ٧٦

كان أول هم للويس السادس عشر أن يعثر على وزراء أكفاء أمناء يصلحون الفوضى التي استشرت في الإدارة والمالية . وكان الشعب يطالب في إلحاح بعودة « البرلمانات » التي أقصيت ، فأعادها ، وأقال موبيو الذي حاول من قبل أن يحل محلها هيئة أخرى ، ورد إلى فرساي لرآسة وزارته جان — فردريك فلبو ، كونت موريبا ، الذي كان وزيراً للدولة من ١٧٣٨ إلى ١٧٤٩ ، وأقيل لأنه عرض في أهجوة ساخرة بمدام دبومبادور ، فعاد الآن إلى السلطة بعد أن بلغ الثالثة والسبعين . وكان اختياراً كريماً ولكنه غير موفق ، لأن موريبا بعد أن عاش عقداً على ضيعته الريفية ، كان قد فقد صلته بتطور فرنسا في اقتصادها وفكرها ، وكان فيه من الظرف أكثر مما فيه من الحكمة . أما للشئون الخارجية فقد اختار الملك ذو العشرين شارل جرافييه ، كونت دفيرجين ، ولوزارة الحربية الكونت كلود — لوى دسان — جرمان ، ولوزارة البحرية آن — روبير — جاك طورجو ، بارون دلوان .

وقد رأيناه في صفحات سابقة لاهوتياً ، ومحاضراً في المسيحية والتقدم ، وصديقاً للفزيوقراطيين وجماعة الفلاسفة الفرنسيين ، وناظراً ملكياً مقداماً خيراً في ليموج . وقد حذر أتقياء القصر لويس من استخدام طورجو لأنه كافر سبق أن شارك في « الموسوعة » بمقالاته(٦٧) . ومع ذلك ففي ٢٤ أغسطس ١٧٧٤ رفعه الملك إلى أدق مناصب الحكومة — وهو منصب المراقب العام للمالية وحل محل طورجو في البحرية جابرييل دسارتين ، الذي أنفق في خفة على بناء أساطيل ستساعد على تحرير أمريكا ، والذي أعتمد على طورجو في تدبير المال اللازم لبنائها .

وكان طورجو رجلا فرنسياً من معدن شبيه بالذي وجده لويس الرابع عشر في كولبير ، كرس نفسه لخدمة وطنه ، واتسم ببعد النظر ، والعكوف على العمل بغير ملل ، ونقاء اليد وطهارتها . وكان فارع الطول حسن الصورة ، ولكن أعوزته رقة آداب الرجال الذين صقلتهم الصالونات — وإن رحبت

به الآنسة لسبيناس ترحيباً حاراً . وكان قد ضحى بصحته فى سبيل عمله ، وفى كثير من الوقت الذى كان عاكفاً فيه على إعادة صنع اقتصاد فرنسا كان يلزم مسكنه بسبب النقرس . وقد حاول أن يضغط ربع قرن من الإصلاحات فى وزارة واحدة قصيرة الأجل لأنه أحس بأن استيزاره قلق مزعزع . وكان فى السابعة والأربعين حين تقلد وزارته ، وفى التاسعة والأربعين حين فقدها . وفى الرابعة والخمسين حين ودع الحياة .

وقد آمن مع الفزيوقراطيين بتحرير الصناعة والتجارة ما أمكن من التنظيم الحكومى أو النقابى ، وبأن الأرض مصدر الثروة الوحيد ، وبأن ضريبة واحدة على الأرض هى أعدل الطرق وأكثرها عملية لجمع إيراد الدولة ، وبأنه ينبغى إلغاء جميع الضرائب غير المباشرة . ثم أنه أخذ عن جماعة الفلاسفة تشككهم الدينى وتسامحهم ، وثقتهم فى العقل والتقدم ، وأملهم فى إصلاح الأمور عن طريق ملك متنور . فإذا كان الملك صاحب ذكاء وإرادة صالحة ، يقبل الفلسفة مرشداً وهادياً له ، كان هذا ثورة سلمية . تفضل كثيراً الثورة العنيفة الفوضوية التى لا تكتفى بالقضاء على المفاسد بل تطيح بالنظام الاجتماعى ذاته . فالآن إذن حان وقت وضع نظرية فولتير . « النظرية الملكية » هـذه موضـع الاختبار . ومن ثم نرى جماعة الفلاسفة يشاركون الفزيوقراطيين ابتهاجهم بتقـلد طورجو زمام الأمر .

وذهب طورجو إلى كومبين فى ٢٤ أغسطس ١٧٧٤ ليشكر لويس السادس عشر على تعيينه وزيراً للمالية . وقال له « إننى لا أبذل نفسى للملك بل للرجل الأمين » . وأجاب لويس وهو يأخذ يدى طورجو فى يديه « لن يخيب ظنك »(٦٨) . فى مساء ذلك اليوم بعث الوزير إلى الملك رسالة بينت النقاط الأساسية فى برنامجه قال :

« لا إفلاس ، معلناً كان أو مقنعاً .

لا زيادة فى الضرائب ، والسبب حالة شعبك . . .

لاقروض ، . . . لأن كل قرض يقتضى فى نهاية أجل مسمى إما الإفلاس وإما زيادة الضرائب . . . »

ولتلبية هذه النقاط الثلاث لا يوجد غير سبيل واحد وهو خفض الإنفاق عن الإيراد ، وخفضه بقدر يكفى ضمان وفر فى كل عام مقداره عشرون مليوناً تخصص لاستهلاك الديون القديمة . وبغير هذا ستدفع أول طلقة نار بالدولة إلى هاوية الإفلاس (٦٩) .

(وقد التجأ نكير فيما بعد إلى القروض ، وأفضت حرب ١٧٧٨ بفرنسا إلى الإفلاس) .

وبعد أن تبين طورجو أن إيرادات الحكومة السنوية ٢١٣,٥٠٠,٠٠٠ فرنك ، ومصروفاتها ٢٣٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، أمر بشتى ضروب الوفر ، وأصدر تعليمات بألا يصرف مبلغ من الخزانة لأى غرض دون علمه أو موافقته ، وكان هدفه تنشيط الاقتصاد بإرساء دعائم حرية المشروعات ، والإنتاج ، والتجارة ، خطوة خطوة . وبدأ بمحاولة لإصلاح الزراعة . وكانت الحكومة قد أشرفت على التجارة فى الغلال تجنباً لتذمر أهل المدن ، فنظمت بيعها من المزارع لتاجر الجملة ، ومن تاجر الجملة لتاجر التجزئة ، وحددت سعر الخبز . ولكن انخفاض الأسعار التى دفعت للفلاح ثبطت همته عن زرع المزيد من الغلال ، وثنت غيره عن الاشتغال بالزراعة ، فظلت مناطق شاسعة من أرض فرنسا صالحة للزراعة دون زرع ، وعطلت ثروة الأمة الممكنة عند منبعها . وبدا إصلاح الزراعة فى نظر طورجو أول خطوة فى إحياء فرنسا . ذلك أن اطلاق يد المزارع فى بيع غلته بأى سعر يستطيع الحصول عليه سيرفع من دخله ويحسن وضعه الاجتماعى ، ويزيد قوته الشرائية ، وينهض به من الحياة البدائية الوحشية التى وصفها من قبل لابروير فى عصر لويس الرابع عشر الذهبى (٧٠) .

ومن ثم ففى ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ استصدر طورجو من المجلس الملكى مرسوماً أطلق تجارة الغلال فى كل مكان عدا باريس حيث قدر أن رد فعل أهل المدينة سيكون محرجاً . وكان ديون دنمور قد قدم للمرسوم بديباجة

تشرح الهدف منه ، وهو « تنشيط وتوسيع زراعة الأرض ، التى تعد غلتها أكثر ثروات الدولة حقيقة وضماناً ، والاحتفاظ بوفرة فى الغلال عن طريق مخازنها واستيراد الغلال من الخارج . . . والقضاء على الاحتكار . . . وإيثاراً للمنافسة الحرة » وهذه المقدمة التفسيرية كانت هى ذاتها تجديداً يعكس ظهور الرأى العام كقوة سياسية . ورحب فولتير بالمرسوم فاتحة لعصر اقتصادى جديد ، وتنبأ بأنه سيزيد بعد قليل من رخاء الأمة [٧١] . ثم أرسل مذكرة إلى طورجو قال فيها : « ان عليل فرنيه العجوز يشكر الطبيعة لأنها مدت فى أجله حتى يرى مرسوم ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ . وهو يقدم احترامه لواضعه ، ويرجو له التوفيق »[٧٢] .

على أن هذا الترحيب خرج عليه رأى معارض ينذر بالسوء . ففى ربيع ١٧٧٥ جاء مصرفى سويسرى يعيش فى باريس ويدعى جاك نكير إلى طورجو يحمل مخطوطاً « عن قانون الغلال وتجارتها » ، وسأل ان كان من الممكن نشره دون اضرار بالحكومة . وقد زعم نكير فى كراسته أن قدراً من الإشراف الحكومى على الاقتصاد لابد منه أن أريد ألا يفضى حذق القلة الفائق إلى تركيز الثروة فى طرف وتكثيف الفقر فى الطرف الآخر ، واقترح أن تستأنف الحكومة الإشراف والتنظيم إذا رفعت حرية التجارة من سعر الخبز فوق رقم معلن . أما طورجو ، الواثق من نظرياته ، والمحبذ لحرية النشر ، فقد أخبر نكير بأن ينشر المخطوط ويدع الشعب يحكم [٧٣] . فنشره نكير .

ولم تقرأه جماهير المدن ولكنها اتفقت معه فى الرأى . فحين ارتفع سعر الخبز فى ربيع ١٧٧٥ اندلعت حوادث الشغب فى عدة مدن . ففى الأقاليم المحيطة بباريس ، والتى تتحكم فى انسياب الغلال إلى العاصمة ، راح بعض الرجال يتنقلون بين المدن ويحرضون الناس على التمرد . وأحرقت العصابات المسلحة مزارع المزارعين والتجار وقذفت بالمخزون من الغلال فى نهر السين ، ثم حاولت منع الغلال المستوردة من إكمال طريقها من الهافر إلى باريس ، وفى ٢ مايو قادت جمعاً محتشداً إلى أبواب القصر فى فرساى .

وأعتقد طورجو أن هذه العصابات يستخدمها الموظفون البلديون أو الإقليميون الذين فقدوا وظائفهم بانتهاء الإشراف الحكومى والذين كان هدفهم أن يخلقوا فى باريس أزمة غلال ترفع سعر الخبز وتكره الحكومة على العودة إلى التجارة الخاضعة لهيمنتها[٧٤] . وظهر الملك على شرفة من شرفات القصر وحاول الكلام ، ولكن ضجة الجمع طغت على كلامه . على أنه منع جنوده من إطلاق النار على الشعب ، وأمر بخفض سعر الخبز .

ولكن طورجو أكد أن هذا التدخل فى قوانين العرض والطلب سيفسد محاولة اختبارها ؛ وكان واثقاً من أنه إذا تركت لها حرية العمل فإن المنافسة بين التجار وأصحاب المخابز ستهبط بأسعار الخبز عما قليل . وألغى الملك أمره بخفض السعر . وفى ٣ مايو تجمعت حشود غاضبة فى باريس وبدأت تنهب المخابز . وأمر طورجو مليشيا باريس بحماية المخابز ومخازن الغلال ، وبإطلاق النار على أى شخص يحاول القيام بأعمال عنف . ثم حرص فى الوقت نفسه على وصول الغلال الأجنبية إلى باريس والأسواق . وأكرهت هذه المنافسة المستوردة المحتكرين الذين حبسوا غلالهم توقعاً لارتفاع الأسعار على الإفراج عن مخزونهم ، فانخفض سعر الخبز . وهدأ التمرد . وقبض على نفر من زعمائه ، وشنق اثنان منهم بأمر البوليس . وخرج طورجو ظافراً من « حرب الدقيق » هذه . ولكن إيمان الملك بمبدأ عدم التدخل اهتز ، وأحزنه شنق هذين الشخصين فى ميدان جريف .

ولكن سرته الإصلاحات التى يجريها طورجو فى مالية الحكومة . فلم يمض يوم على مرسوم الغلال حتى بدأ الوزير العجول إصدار الأوامر للوفر فى مصروفات الدولة ، ولتحصيل الضرائب تحصيلا أكثر كفاءة ، وللإشراف إشرافاً أدق على الملتزمين العموميين . ثم بنقل الاحتكارات الأهلية فى المركبات العامة ، ومركبات البريد ، وصنع البارود ، إلى الدولة . واقترح ، ولكن لم يتح له الوقت لإنشاء « بنك للخصم » وهو مصرف لخصم الأوراق التجارية ، وتلقى الودائع ، وإعطاء القروض ، وإصدار البنكنوت الذى تدفع قيمته عند ابرازه . وقد اتخذ هذا البنك نموذجاً لبنك فرنسا الذى نظمه نابليون فى ١٨٠٠ . فلم تحل نهاية عام ١٧٧٥

حتى كان طورجو قد خفض المصروفات ٦٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأنقص الفائدة على الدين الأهلي من ٨,٧٠٠,٠٠٠ إلى ٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . واستعيدت الثقة بالحكومة حتى استطاع أن يقترض ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من الماليين الهولنديين بفائدة أربعة فى المائة ، ويسدد بهذه الطريقة ديوناً كانت الخزانة تدفع عنها فائدة من سبعة إلى اثنتى عشرة فى المائة . وأوشك أن يوازن الميزانية ، ولكنه لم يفعل هذا بزيادة الضرائب بل بالحد من الفساد ، والإسراف ، وعدم الكفاءة ، وكثرة الفاقد .

فى هذه الإصلاحات وغيرها لم يلق طورجو كبير عون من موريبا ، ولكنه لقى العون الكثير من كرتيان وماليرب ، الذى التقينا به من قبل حامياً للموسوعة ولروسو . فقد أرسل ، بوصفه الآن رئيساً لمحكمة المعونات (التى تختص بالضرائب غـير المباشرة) ، إلى لويس السادس عشر (٦ مايو ١٧٧٥) ، مذكرة تشرح المظالم التى ينطوى عليها جمـع الضرائب بواسطة الملتزمين العموميين ، وتحذر الملك من الكراهية التى يولدها استخدامهم . وأشار بتبسيط القوانين وتوضيحها ، وقال « ليس هناك قوانين حسنة غير القوانين البسيطة » وتعلق قلب الملك بما ليرب ، فعينه وزيراً لبيت الملك (يوليو ١٧٧٥) وحث هذا اللبرالى المسن لويس على تأييد طورجو ، ولكنه نصح طورجو بألا يحاول الإسراف فى اصلاحاته فى وقت واحد ، لأن كل اصلاح سيخلق له أعداء جدداً . وأجاب مراقب المالية العام . وماذا تريدنى أن أفعل ؟ أن حاجات الشعب هائلة ، ونحن فى أسرتى نموت بالنقرس فى الخمسين» (٧٥) .

وفى يناير ١٧٧٦ فاجأ طورجو فرنسا بستة مراسيم صدرت باسم الملك ، قرر أحدها أن تشمل حرية التجارة فى الغلال باريس ، وألغى العدو الكبير من المناصب المتصلة بتلك التجارة ، وانضم الموظفون المطرودون على هذا النحو إلى صفوف أعدائه . وألغى مرسومان أو عدلا الضرائب المفروضة على الماشية والشحوم ، فاغتبط الفلاحون . وألغى الرابع السخرة — وهى أيام اثنا عشر أوخمسة عشر يفرض فيها الشغل المجانى على الفلاحين كل عام

لصيانة الكبارى ، والقنوات ، والطرق ؛ وتقرر أن يتقاضى الفلاحون منذ الآن أجراً عن هذا العمل من حصيلة ضريبة تفرض على جميع الأملاك غير الكنسية ؛ واغتبط الفلاحون ، وشكا النبلاء . وأثار طورجو المزيد من الاستياء بالديباجة التى وضعها فى فم الملك .

« إننا لو استثنينا عدداً قليلا من الأقاليم . . . لوجدنا أن كل طرق المملكة تقريباً شقت بتسخير أفقر شطر من رعايانا . فالعبء كله وقع إذن على أولئك الذين لا يملكون غير أيديهم ولا تهمهم هذه الطرق إلا بدرجة ثانوية جداً . أما الذين تهمهم حقاً فهم ملاك الأرض . وكلهم تقريباً أشخاص يتمتعون بامتيازات ، وإملاكهم تزداد قيمتها بشق الطرق . فإذا أكره الفقير دون سواه على صيانة هذه الطرق ، وإذا أكره على بذل وقته وجهده دون أجر ، كان ذلك معناه أن عدته الوحيدة ضد الفقر والجوع انتزعت منه لإلزامه بالعمل لمنفعة الأغنياء »[٧٦] .

فلما أوضح برلمان باريس أنه سيرفض تسجيل هذا المرسوم ، كاد طورجو يعلن الحرب الطبقية » .

« إننى رغم عدائى للاستبدادية الآن كما كنت دائماً ، فانى لن أنى عن أن أقول للملك ، وللبرلمان ، وللأمة بأسرها إن لزم الأمر ، أن هذا أمر من تلك الأمور التى يجب أن تقررها إرادة الملك المطلقة ، ولهذا السبب : وهو ان هذه القضية هى فى صميمها قضية بين الأغنياء والفقراء . والآن ممن يتألف البرلمان ؟ من رجال أغنياء إذا قورنوا بالسواد الأعظم من الشعب ، وكلهم نبلاء لأن مناصبهم تحمل النبالة . ثم البلاط ، الذى يشتد فى احتجاجه — ممن يتألف ؟ من كبار النبلاء ، الذين يملك أغلبهم ضياعاً ستخضع للضريبة . . . ونتيجة لذلك فلا اعتراض البرلمان . . . ولا حتى تذمر الحاشية يجب أن ينال من القضية على أى وجه . . . ومادام الشعب لا صوت له فى البرلمانات ، فإنه لا بد أن يرى الملك فى القضية رأيه هو بعد الاستماع إلى هذه البرلمانات ، ولا بد أن يحكم لصالح الشعب ، لأن هذه الطبقة أتعس طبقاته »[٧٧] .

أما آخر المراسيم الستة فقد ألغى الطوائف الحرفية . وكانت قد أصبحت

أرستقراطية عمالة ، لأنها أشرفت على جميع الحرف تقريباً ، وحدت من الدخول فى عضويتها باشتراطها رسوم التحاق عالية ، ثم قيدت فوق ذلك الصلاحية لاختيار معلمى الحرف . وقد عطلت الاختراع ، وعرقلت التجارة بالمكوس أو بحظر المنتجات المتنافسة التى تدخل فى نطاقها . وقد نددت طبقة المتعهدين أو المقاولين الصاعدة — وهم رجال يوفرون المبادأة ، ورأس المال ، والتنظيم ، ولكنهم يطالبون بحرية استئجار أى عامل ، سواء من المنتمين للطوائف الحرفية أو غيرهم ، وبيع سلعهم فى أى سوق فى متناولهم — هذه الطبقة نددت بالطوائف الحرفية لأنها احتكارات تقيد التجارة . أما طورجو ، التواق إلى دعم التنمية الصناعية بإطلاق حرية الاختراع ، والمشروعات ، والتجارة ، فقد شعر أن الاقتصاد القومى سيفيد من إلغاء الطوائف الحرفية . وقد جاء فى ديباجة هذا المرسوم :

«كانت ممارسة الحرف والصنائع فى جميع المدن تقريباً مركزة فى أيدى عدد قليل من المعلمين المتحدين فى نقابات ، والذين كان لهم وحدهم حرية صنع وبيع سلع الصناعة الخاصة التى ينفردون دون غيرهم بامتيازها . فالذى كرس نفسه لأى صناعة أو حرفة لم يكن فى استطاعته ممارستها بحرية إلا بعد وصوله إلى مرتبة معلم الحرفة ، التى لاسبيل له إليها إلا بعد الخضوع لواجبات طويلة مملة لا حاجة إليها ، وبعد أداء ابتزازات متكاثرة تحرمه من جزء من رأس المال الضرورى لإنشاء تجارة أو تجهيز ورشة . أما العاجزون عن توفير هذه النفقات فمصيرهم العيش القلق تحت سلطان المعلمين ، ولا خيار أمامهم إلا الحياة فى ضنك . . . أو نقل صناعة قد تكون ذات نفع لوطنهم إلى بلد لاجنبى »[٧٨] .

وكان لهذه التهم الموجهة إلى النقابات الحرفية ما يبررها على قدر علمنا . ولكن طورجو استرسل فى إجراءاته فحظر على جميع معلمى الحرف وعمال المياومة والتلاميذ الصناعيين تكوين أى اتحاد أو جمعية[٧٩] . لقد آمن إيماناً مطلقاً بحرية المشروعات والتجارة ، ولم يتوقع أن يكون حق التنظيم هو الوسيلة الوحيدة التى يستطيع بها الصناع أن يجمعوا ضعفهم كأفراد فى قوة جماعية للمساومة مع أصحاب العمل المنظمين . وقد أحس أن كل الطبقات

ستفيد فى المدى الطويل بتحرير رجال الأعمال من القيود الإقطاعية والنقابية والحكومية المفروضة على المشروعات . وأعلن أن جميع الأشخاص فى فرنسا — حتى الأجانب — أحرار فى الاشتغال بأى صناعة أو تجارة .

وفى ٩ فبراير ١٧٧٦ رفعت المراسيم الستة إلى برلمان باريس . فلم يوافق إلا على واحد منها ألغى المناصب الصغيرة ، ورفض الموافقة على تسجيل الباقى . وخص بمعارضته إنهاء السخرة باعتباره افتئاتاً على الحقوق الإقطاعية(٨٠) . وبهذا القرار الذى اتخذ بالتصويت جهر البرلمان بأنه حليف طبقة النبلاء والصوت المعبر عنهم . وهو الذى زعم من قبل أنه حامى الشعب من الملك . ودخل فولتير المعمعة بكراسة هاجمت السخرة والبرلمان وأيدت طورجو . فأمر البرلمان بمصادرة الكراسة . ودافع بعض وزراء الملك عن البرلمان ، فوبخهم لويس فى لحظة ثبات وجلد قائلا « أرى جيداً أنه ليس هنا من يحب الشعب غيرى وغير مسيو طورجو »(٨١). وفى ١٢ مارس دعا البرلمان إلى « سرير عدالة » (وهو المجلس القضائى العالى) فى فرساى ، وأمره بتسجيل المراسيم . واحتفلت مواكب من العمال بانتصار طورجو .

وأبطأ المراقب العام خطو ثورته بعد أن أرهقته الأزمات المتكررة . فلما طبق حرية التجارة الداخلية على صناعة النبيذ (ابريل ١٧٧٦) لم يشك غير المحتكرين . ثم حث الملك على إرساء دعائم الحرية الدينية . وأصدر تعليماته إلى ديبون دنيمور بأن يضع خطة لتكوين مجالس انتخابية فى كل أبرشية ، يختارها كل من ملك أرضاً قيمتها ستمائة جنيه أو يزيد ، وهذه المجالس المحلية تنتخب ممثلين فى مجلس كنتونى ، تنتخب ممثلين فى مجلس إقليمى ، ينتخب نواباً فى مجلس الأمة . وكان طورجو مؤمناً بأن فرنسا ليست على استعداد للديمقراطية ، فاقترح ألا تعطى هذه المجالس إلا وظائف استشارية وإدارية ، أما السلطة التشريعية فتظل فى يد الملك وحده ، ولكن عن طريق هذه المجالس يحاط الملك علماً بحال المملكة وحاجاتها . كذلك قدم طورجو للملك تخطيطاً للتعليم العام بصفته المدخل الذى لابد منه للمواطنة المستنيرة . وقال : « مولاى ، إننى أجرؤ على التأكيد بأنه لن تمضى سنتان حتى تتبدل أمتك فلا تتعرف عليها الأمم ، وبفضل التنوير والأخلاق الطيبة . . .

ستسمو فوق جميع الدول الأخرى »[٨٢] ولكن الوزير أعوزه الوقت ، والملك أعوزه المال ، لإخراج هذه الأفكار إلى حيز الوجود .

وكانت مراسيم طورجو — وديباجاتها — قد ألهبت غضب جميع الطبقات ذات النفوذ عليه خلا التجار ورجال الصناعة ، الذين زكوا فى ظل الحرية الجديدة . والواقع أنه كان يحاول أن يحدث بطريق سلمى تحرير رجل الأعمال ، وهو النتيجة الاقتصادية الأساسية التى أسفرت عنها الثورة الفرنسية . ومع ذلك عارضه بعض التجار سراً لأنه تدخل فى احتكاراتهم . وعارضه الأشراف لأنه أراد أن يفرض كل الضرائب على الأرض ، ولأنه يستعدى الفقراء على الأغنياء . وأبغضه البرلمان لأنه أقنع الملك بإبطال قرارات نقضه . ولم يثق به رجال الدين زاعمين كافراً يندر أن يختلف إلى القداس ، ويدافع عن الحرية الدينية . وحاربه الملتزمون العموميون لأنه حاول أن يحل محلهم موظفين حكوميين فى جمع الضرائب غير المباشرة . وساء الماليين حصوله على القروض من الخارج بفائدة ٤٪ . وكرهته بطانة الملك لأنه سخط على إسرافهم ، ومعاشاتهم ، ووظائفهم الفخرية . أما موريبا ، وهو الأعلى منه منصباً فى الوزارة ، فلم يغتبط بسلطان المراقب العام للمالية واستقلاله المتزايدين . وكتب السفير السويدى يقول « إن طورجو يجد نفسه الهدف لحاف رهيب جداً »[٨٣] .

أما مارى أنطوانيت فقد رضيت عن طورجو أول الأمر ، وحاولت أن توفق بين نفقاتها واقتصادياته . ولكن سرعان ما استأنفت (حتى ١٧٧٧) اسرافها فى الثياب والعطايا . ولم يخف طورجو فزعه من مطالبها من الخزانة ، وكانت الملكة إرضاء لآل بولنياك قد حصلت على تعيين صديقهم الكونت دجين سفيراً لفرنسا فى لندن ، وهناك دخل فى معاملات مالية مشبوهة . وانضم طورجو إلى فرجين فى الإشارة على الملك باستدعائه ، وأقسمت الملكة لتنتقمن منه .

وكان للويس السادس عشر أسبابه الخاصة لفقد الثقة فى الوزير الثورى . ذلك أن الملك كان يحترم الكنيسة ، وطبقة النبلاء ، وحتى البرلمانات ،

وكانت هذه المؤسسات قد رسخت فى التقاليد وتقدست بمرور الزمن ، فإقلاقها معناه خلخلة ركائز الدولة ؛ ولكن طورجو كان قد أقصاها كلها . فهل تراه على حق وكل هؤلاء على ضلال ؟ وشكا لويس سراً من وزيره : « إن أصدقاءه فقط هم الأكفاء ، وأفكاره فقط هى الصائبة »(٨٤) . وفى كل يوم تقريباً كانت الملكة أو أحد أفراد الحاشية يحاول إثارته على المراقب العام . فلما رجاه طورجو أن يقاوم هذه الضغوط ولم يجب لويس ، عاد إلى منزله وكتب إلى الملك (٣٠ ابريل ١٧٧٦) رسالة كانت الفاصلة فى مصيره :

« مولاى : ان أخفى عنكم أن قلبي مجروح جرحاً عميقاً بسبب صمت جلالتكم يوم الأحد الماضى . . . ذلك أنى ماكنت لاستصعب أمراً من الأمور مادمت أؤمل الاحتفاظ بتقدير جلالتكم لصواب ما أفعل . واليوم أى جزاء ألقى ؟ أن جلالتكم ترون كم يستحيل على المضى فى طريقى قدماً ضد من يؤذوننى بالشر الذى يصنعونه بى ، وبالخير الذى يمنعوننى من فعله بتعطيل جميع إجراءاتى ، ومع ذلك فإن جلالتكم لاتمنحوننى عوناً ولا عزاء ، وأنا أجرؤ يا مولاى على القول بأنى لا أستحق هذا الجزاء . . .

« إن جلالتكم . . . قد دفعتم بافتقاركم إلى الخبرة . وأنا عليم بأنكم وأنتم فى الثانية والعشرين ، وفى منصبكم هذا ، لا تملكون المرانة على الحكم على الرجال ، وهى مرانة يحصل عليها الأفراد العاديون بفضل الاختلاط المعتاد مع نظرائهم ؛ ولكن هل سيتاح لكم مزيد من الخبرة بعد أسبوع ، بعد شهر ؟ وألا يمكن أن تتخذوا القرار الحاسم حتى تتوافر لكم هذه الخبرة البطيئة ؟ .

« مولاى ، إنى مدين لمسيو موريبا بالمنصب الذى قلد تمونى إياه ، وان أنسى له هذه اليد ماحييت ، ولن أقصر أبداً فى الاحترام الواجب له . ولكن أتعلمون يا مولاى مبلغ ضعف شخصية المسيو دموريبا ؟ — وكم تسيطر عليه أفكار من يلتفون حوله . إن الناس كلهم يعرفون أن مدام دموريبا ، بتفكيرها الأضعف كثيراً من شخصيتها ، توحى إليه دائماً

بإرادتها . . . وهذا الضعف هو الذى يدفعه إلى الموافقة دون تردد على سخط الحاشية على ، والذى يجردنى من كل سلطة تقريباً فى إدارتى . . .

« مولاى ، لاتنس أن الضعف هو الذى أطاح برأس تشارلز الأول على المقصلة . . . والذى جعل من لويس الثالث عشر عبداً متوجاً ، . . . والذى جر على الحكم السالف كل ويلاته . . مولاى ، إنهم يعدونك ضعيفاً ، وقد أتى وقت خشيت فيه أن يكون فى خلقاك هذا العيب ، ومع ذلك رأيتك فى مناسبات أكثر من هذه عسراً تبدى شجاعة أصيلة . . . ان جلالتكم لن تستطيع الاستسلام لإرضاء لمسيو دموريا دون أن تكون غير صادق مع نفسك . . . » [٨٥] .

ولم يرد الملك على هذه الرسالة . فقد أحس أن عليه الآن أن يختار بين موريبا وطورجو ، وأن طورجو يطلب خضوع الحكومة التام تقريباً لإرادته . وعليه ففى ١٢ مايو ١٧٧٦ أرسل إلى طورجو أمراً بأن يستقيل . وفى اليوم ذاته ، وخضوعاً لإرادة الملكة وآل بولنياك ، رفع الكونت دجين إلى مرتبة الدوقية . فلما سمع مالبرب بإقالة طورجو قدم استقالته . وقال له لويس « إنك رجل محظوظ . ليتنى أنا أيضاً أستطيع ترك منصبى »[٨٦] . وما لبث معظم من عينهم طورجو أن طردوا من مناصبهم . وصعقت ماريا تريزا لهذه التطورات ، ووافقت فردريك وفولتير على أن سقوط طورجو نذير بانهيار فرنسا[٨٧] ، وقد أحزنها الدور الذى لعبته ابنتها فى الأمر ، وأبت أن تصدق تنصل الملكة من التبعة ، وكتب فولتير إلى لاهارب يقول : « لم يبق لى إلا أن أموت بعد أن ذهب مسيو طورجو »[٨٨] .

أما طورجو فقد عاش بعد إقالته عيشة هادئة فى باريس ، يدرس الرياضة ، والفزياء ، والكيمياء ، والتشريح . وكان يلتقى كثيراً بفرانكلن ، وقد كتب له « مذكرة فى الرسوم » ثم اشتدت عليه وطأة النقرس حتى أكرهه بعد ١٧٧٨ على الاستعانة بعكازين فى مشيه . ومات فى ١٨ مارس ١٧٨١ بعد سنوات حفلت بالألم وخيبة الأمل . ولم يدر بخلده أن القرن التاسع عشر سيقبل معظم أفكاره ويطبقها . وقد أجمل مالبرب وصفه فى حب فقال : « كان له رأس فرانسيس بيكن ، وقلب لوبيتال »[٨٩] .

٦ — وزارة نكير الأولى : ١٧٧٦ — ٨١

خاف طورجو فى رقابة المالية كلونى دنوى ، الذى رد السخرة والكثير من النقابات الحرفية ، ولم ينفذ مراسيم الغلال . . وألغى المصرفيون الهولنديون موافقتهم على إقراض فرنسا ستين مليوناً من الجنيهات بسعر أربعة فى المائة ، ولم يكتشف الوزير الجديد طريقة لاجتذاب المال إلى خزانة الدولة خيراً من إنشاء يا نصيب قومى (٣٠ يونيو ١٧٧٦) . فلما مات كلونى (أكتوبر) ، أقنع مصرفيو باريس الملك بأن يستدعى إلى خدمته الرجل الذى كان أكفاء نقاد طورجو .

كان جاك نكير بروتستنتيا ، ولد فى جنيف عام ١٧٣٢ وأرسله أبوه — وكان أستاذاً للقانون فى أكاديمية جنيف — إلى باريس ليعمل كاتباً فى مصرف اسحاق فرنيه . فلما تقاعد فرنيه أقرض نكير بعض المال ليفتتح مصرفاً خاصاً به . وضم نكير ماله إلى مال رجل سويسرى آخر ، فأصابا نجاحاً بتقديم القروض للحكومة والمضاربة فى الغلال . وحين ناهز نكير الثلاثين كان غنياً ، محترماً ، عزباً . ولم يتمن الآن مزيداً من الثراء بل منصباً رفيعاً ، وفرصة للخدمة الممتازة والشهرة القومية ، وهذا يقتضيه زوجة وبيتاً يكون نقطة ارتكاز ، أو قاعدة عمليات . ومن ثم تودد إلى المركيزة فرمنو الأرملة ، فرفضته ، ولكنها جاءت من جنيف بسوزان كورشوا الجميلة الموهوبة التى كانت قبيل ذلك قد أفلتت من الزواج بأدورد جبون . ووقع نكير فى غرام سوزان ، وتزوجها فى ١٧٦٤ . ويعد وفاؤهما المتبادل طوال حياة حافلة بالأحداث من ألمع الأضواء فى مشكال ذلك العصر المضطرب . وأقاما بيتاً فوق مصرفه . وهناك أفتتحت صالوناً (١٧٦٥) دعت إليه الكتاب ورجال الأعمال ، أملا فى أن تعبد هذه الصداقات طريق زوجها وتنيره .

وكان نكير نفسه يتحرق شوقاً للتأليف ، فبدأ فى ١٧٧٣ بكتابة « مديح لكولبير » الذى توجته الأكاديمية الفرنسية . واعتزل الآن عمله ودخل المعترك السياسى بذلك المقال « فى قانون الغلال » الذى عارض سياسة طورجو فى

عدم التدخل الحكومى . وظفر الكتيب بثناء ديدرو ، الذى لعله استمتع بفقرة تكلم فيها المؤلف كما يتكلم الاشتراكيون ، وكان قد قرأ روسو . وقد هاجم نكير :

« قوة الطبقة المالكة التى تمكنها من أن تدفع نظير جهد العامل أبخس أجر لايكاد يكفى لغير الحاجات الماسة ... إن كل المؤسسات المدنية تقريباً أقامها الملاك . ولنا أن نقول إن قلة من الناس — بعد أن قسموا الأرض فيما بينهم — شرعوا القوانين تكتلا وضماناً لهم ضد الكثرة ... ولهؤلاء أن يتساءلوا . « أى معنى تعنيه لنا قوانين الملكية التى شرعتموها ؟ — فنحن لانملك أملاكاً ؛ أو قوانينكم فى العدالة ؟ — فنحن لا نملك شيئاً ندافع عنه . أو قوانينكم فى الحرية ؟ — فإننا سنموت جوعاً إن لم نعمل غداً »[٩٠] .

وفى ٢٢ أكتوبر ١٧٧٦ عين لويس السادس عشر نكير « مديراً للخزانة الملكية » بناء على تزكية موريبا . وكان تعييناً يشوبه الاعتذار . فقد احتج بعض الأساقفة على السماح لبروتستنتى سويسرى بأن يتحكم فى مال الأمة ، فأجاب موريبا ، « فى وسع رجال الدين أن يشاركوا فى اختيار الوزراء إذا هم دفعوا ديون الدولة »[٩١] . وستراً لهذا الواقع عين كاثوليكى فرنسى يدعى تابورو دريو مراقباً عاماً للمالية له الرآسة الإسمية على نكير . وتضاءلت معارضه الاكليروس حين جعل نكير تدينه واضحاً جلياً . وفى ٢٩ يونيو ١٧٧٧ استقال تابورو ، وعين نكير مديراً عاماً للمالية . وقد رفض أن يتقاضى راتباً ، بل أقرض الخزانة مليونى جنيه من ماله الخاص[٩٢] . ولكنه ظل محروماً من لقب الوزير ، ولم يسمح له بعضوية المجلس الملكى .

وقد وفق فى حدود خلقه وسلطته . ذلك أنه درب على علاج مشكلات الصيرفة لا مشكلات الدولة ، وكان فى قدرته تكثير المال بنجاح أكثر من سياسة الرجال . وقد أرسى فى الإدارة المالية نظاماً وحسابات ووفراً أفضل ، وألغى أكثر من خمسمائة وظيفة شرفية ومنصب زائد عن الحاجة . وإذ كان حائزاً على ثقة المجتمع المالى ، فقد استطاع طرح أسهم بقروض أكسبت

الخزانة ١٤٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه خلال عام واحد . ثم دعم بعض الإصلاحات الصغيرة ، فخفف من المظالم فى فرض الضرائب ، وحسن المستشفيات ، ونظم بنوك الرهونات لتقرض الفقراء المال بفائدة منخفضة ، وواصل جهود طورجو للحد من نفقات البلاط ، والبيت الملكى ، والملكة . ورد إلى الملتزمين العموميين جمع الضرائب غير المباشرة (١٧٨٠) ، غير أنه اختزل عددهم وأخضعهم لفحص ورقابة أدق . وقد أقنع لويس السادس عشر بأن يسمح بإنشاء المجالس الإقليمية فى برى ، وجرينوبل ، ومونتوبان ، ووضع سابقة هامة إذ اتخذ التدابير لجعل ممثلى الطبقة الثالثة (التى تنتظم الطبقتين الوسطى والدنيا) فى هذه المجالس مساوين لممثلى النبلاء والأكليروس مجتمعين . على أن الملك كان يختار أعضاء هذه المجالس ، ولم يسمح لهم بأى سلطة تشريعية . وقد ظفر نكير بنصر هام حين أقنع الملك بأن يعتق من بقى من الأقنان على الأراضى الملكية ، وأن يهيب بجميع السادة الإقطاعيين أن يحذوا حذوه . فلما رفضوا أشار نكير عليه بإلغاء القنية كلها فى فرنسا ، مع دفع التعويضات للسادة ، ولكن الملك الذى كان حبيس تقاليده أجاب بأن حقوق الملكية نظام بلغ من الرسوخ مبلغاً يعسر معه إلغاؤه بمرسوم (٩٣) .

وفى ١٧٨٠ ، وتحت إلحاح نكير أيضاً ، أمر الملك بإنهاء التعذيب القضائى ، وإلغاء السجون السفلية ، وفصل السجناء الذين جرموا فعلا عن أولئك الذين لم يحاكموا بعد ، وفصل كلتا الفئتين عن الأشخاص المقبوض عليهم بسبب الدين . هذه وغيرها من انجازات وزارة نكير الأولى تستحق عرفاناً أكثر مما ناله عموماً . فإذا سألنا لم لم يعمل مبضعه بأعمق وأسرع مما أعمله ، وجب أن نتذكر أن طورجو قد لقى اللوم على تعجله والاستكثار من الأعداء فى وقت واحد . وقد انتقد نكير على طرحه القروض بدلا من جمع الضرائب ، ولكنه أحس بأن الشعب قد فرض عليه من الضرائب ما يكفى .

وقد أحسنت مدام كمبان تلخيص موقف الملك من وزرائه ، وهى اللصيقة دائماً بهذه الدراما المتطورة « لقـــد حكم طورجو ، ومالزرب ، ونكير، بأن هذا الملك المتواضع البسيط فى عاداته ، لن يتردد فى التضحية بحقه الملكى فى سبيل عظمة شعبه الحقيقية ؛ لقد كان قلبه ينعطف به نحو

الإصلاح ، ولكن تحيزاته ومخاوفه ، ومطالب الأشخاص الأتقياء وأصحاب الامتيازات الملحة جعلته جباناً ، وأكرهته على التخلى عن خطط أوحى بها إليه حبه للشعب»(٩٤) . ومع ذلك فقد جرؤ على أن يقول فى إعلان عام (١٧٨٠) لعل نكير كان قد أعده له ، إن «الضرائب المفروضة على أفقر شطر من رعايانا . . وقد زادت بنسبة تفوق كثيراً سائر الرعايا الباقين . «وأعرب عن آماله فى ألا يحسب الأغنياء أنفسهم مظلومين إذا وجب عليهم ، بعد أن يردوا إلى المستوى العام (للضرائب) ، أن يؤدوا الفروض التى كان لابد أن يشاركوا فيها غيرهم منذ زمان بقدر أكبر من المساواة»(٩٥) . وكان يرتعد إذا خطر بباله فولتير ، ولكن روحه التحررية شكلها على غير وعى منه ذلك العمل الذى قام به فولتير ، وروسو ، وجماعة الفلاسفة بوجه عام لفضح المفاسد القديمة ولبعث الحياة الجديدة فى المشاعر الإنسانية التى ارتبطت من قبل بالمسيحية . ففى هذا النصف الأول من حكمه بدأ لويس السادس عشر اصلاحات كان خليقاً بها لو اتصلت واتسعت شيئاً فشيئاً أن تتفادى الثورة . ثم إنه فى عهد هذا الملك الضعيف نرى فرنسا التى سلبتها انجلترة ممتلكاتها وأذلتها فى عهد أسلافه — تكيل الضربات بجرأة وبنجاح لبريطانيا الفخور ، وتعين بعملها هذا على تحرير أمريكا .

٧ — فرنسا وأمريكا

اتفقت الفلسفة هذه المرة مع الدبلوماسية . فمؤلفات فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ورينال ، وعشرات غيرهم أعدت الذهن الفرنسى لمناصرة تحرير المستعمرات كما ناصر التحرير الفكرى ، وكان الكثيرون من الزعماء الأمريكيين — كواشنطن ، وفرانكلن ، وجفرسن — أبناء للتنوير الفرنسى . ومن ثم فحين قدم سيلاس دين إلى فرنسا (مارس ١٧٧٦) ملتمساً قرضاً للمستعمرات الثائرة ، كان الرأى العام الفرنسى شديد التعاطف معه ، وراح بومارشيه فى تحمسه يرسل المذكرة تلو المذكرة إلى فرجين يحثه فيها على مديد المعونة لأمريكا .

وكان فرجين نبيلا يؤمن بالملكية والاستقراطية ، ليس بينه وبين

الجمهوريات أو الثورات ود ، ولكنه كان تواقاً للثأر من انجلتره لفرنسا ، غير أنه لم يرض بالموافقة على أى معونة سافرة لأمريكا ، لأن البحرية البريطانية كانت لاتزال أقوى من الفرنسية رغم ما أنفقة عليها سارتين ، وكان فى مقدورها تدمير السفن الفرنسية إذا كانت الحرب سافرة إلا أنه أشار على الملك بالإذن ببعض المعونة السرية ، وحجته أن بريطانيا لو سحقت الثورة لخلص لها فى أمريكا أو قربها أسطول قادر على الاستيلاء متى شاء على الممتلكات الفرنسية والإسبانية فى البحر الكاريبى . أما إذا أمكن المطاولة فى الثورة ، فإن فرنسا ستقوى ، وانجلتره تضعف ، وتستطيع البحرية الفرنسية استكمال تجديدها . أما لويس فكان يرتعد فرقاً لفكرة تقديم المعونة لثورة ما ، وحذر فرجين من أى عمل سافر قد يفضى إلى حرب مع انجلتره[٩٦] .

وفى ابريل كتب فرجين إلى بومارشيه يقول :

« سنعطيك سراً مليوناً من الجنيهات ، وسنحاول الحصول على مبلغ مماثل من أسبانيا . (وقد حصلوا على هذا المبلغ) وبهذين المليونين عليك أن تؤلف شركة تجارية ، وتزود الأمريكيين على مسئوليتك بالسلاح والذخيرة والأجهزة ، وسائر الأشياء التى يحتاجون إليها لمواصلة الحرب . وستسلمك ترسانتنا السلاح والذخيرة ، ولكنك ستعوضها أو تدفع ثمنها . وإياك أن تطلب مالا من الأمريكيين ، لأنهم لايملكون المال ، ولكن أطلب مقابلا غلات أرضهم ، التى سنساعدك على بيعها فى هذا البلد »[٩٧] .

وبهذا المال اشترى بومارشيه المدافع والبنادق والبارود والثياب والأجهزة اللازمة لخمسة وعشرين ألف رجل ، ثم أرسل هذه البضائع إلى ميناء كان دين قد جمع فيه عدة قراصنة أمريكيين وأعاد تجهيزهم . وقد شجع وصول هذه المعونة أو الوعد الوثيق بها المستعمرين على إصدار إعلان الاستقلال (٤ يوليو ١٧٧٦) . فلما ترجم الإعلان إلى الفرنسية ، وتداوله الناس بموافقة الحكومة الفرنسية الضمنية ، استقبلته جماعة الفلاسفة بحماسة وفرح ، وكذلك تلاميذ روسو الذين تبينوا فيه أصداء من « العقد الاجتماعى » .

وفى سبتمبر عين الكونجرس الأمريكى . بنيامين فرانكلين وآرثر لى — ليمضيا إلى فرنسا مندوبين ، وينضما إلى دين ، ويلتمسا لا المزيد من الإمداد فحسب ، بل التحالف السافر ان أمكن .

ولم تكن هذه أول مرة ظهر فيها فرانكلين فى أوربا . ذلك أنه فى ١٧٢٤ ذهب إلى انجلتره ولم يكن قد بلغ التاسعة عشرة ، وقد اشتغل طباعاً ، ونشر دفاعاً عن الألحاد (٩٨) ، وعاد إلى فيلادلفيا والربوبية ، وتزوج ، وانضم إلى جماعة الماسون ، وظفر بشهرة دولية بوصفه مخترعاً وعالماً . وفى ١٧٥٧ أوفد إلى انجلتره ممثلا لمجلس بنسلفانيا فى نزاع ضرائبى . ومكث فى انجلتره خمس سنين ، والتقى بجونسن وغيره من وجوه القوم ، وزار أسكتلنده ، والتقى بهيوم وروبرتسن ، ونال درجة من جامعة سانت أندروز ، وأصبح منذ الآن الدكتور فرانكلن . ثم عاد إلى انجلتره من ١٧٦٦ إلى ١٧٧٥ ، وخطب فى مجلس العموم معارضاً ضريبة الدمغة ، وحاول المصالحة ، ثم عاد إلى أمريكا حين رأى أن الحرب واقعة . وقد شارك فى صياغة إعلان الاستقلال .

وصل فرانكلين إلى فرنسا فى ديسمبر ١٧٧٦ ومعه حفيدان له ، وكان الآن فى السبعين ، يبدو وكأنه الحكمة ذاتها مجسمة ، والعالم كله يعرف ذلك الرأس الضخم والشعر المشتعل الخفيف ، والوجه الشبيه بالبدر عند بزوغه المشرق . وأهال عليه العلماء أسباب التكريم ، وادعى الفلاسفة والفزيوقراطيون أنه واحد منهم ، ورأى المعجبون بروما القديمة فيه سنسناتوس ، وسكبيو الأفريقى ، والكاتوين ، وقد بعثوا من مراقدهم ، وصففت نبيلات باريس شعورهن فى لمة مجعدة تقليداً لقبعته المصنوعة من فرو القندس ؛ ولا ريب أنهن سمعن بغرامياته الكثيرة . وأذهلت الحاشية بساطة عاداته ، ولباسه ، وحديثه ، ولكن بدلا من أن يبدو مضحكاً فى زيه القريب من زى الريفيين ، كان اختيالهم فى المخمل والحرير والمخرم هو الذى تبدى الآن كأنه محاولة فاشلة لإخفاء الواقع وراء مظهر كاذب . ومع ذلك قبلوه هم أيضاً ؛ لأنه لم يستعرض أحلاماً لحكومات مثالية ، بل تكلم بتعقل وإدراك سليم ، وأظهر

الوعى الكامل بالمصاعب والحقائق . وكان يدرك أنه بروتستنتى ، ربوبى ، جمهورى ، يطلب العون من بلد كاثوليكى وملك تقى .

وقد باشر مهمته فى حذر وحيطة . فلم يغضب أحداً ، وأبهج كل إنسان . وقدم فروض الاحترام لا لفرجين فقط بل لميرابو الأب ولمدام دودفان ، ولمع رأسه الأصلع فى الصالونات وفى أكاديمية العلوم . وشرف نبيلا شاباً هو الدوق دلاروشفوكو أن يكون سكرتيره . وكانت الجموع تجرى وراءه حين يظهر فى الشوارع . ولقيت كتبه ترحيباً واسعاً حين ترجمت ونشرت « أعماله الكاملة » وطبع من كتاب واحد « تقويم وتشرد المسكين » ثمانى طبعات فى ثلاثة أعوام . واحتفل فرانكلين إلى محفل « النوف سير » الماسونى ومنح العضوية الفخرية ، وإعانة الرجال الذين التقى بهم هناك على كسب فرنسا فى حلف مع أمريكا . ولكنه لم يستطع أن يطلب للتو المعونة السافرة من الحكومة . وكان جيش واشنطن يتقهقر أمام السر وليم هاو ، وبدا أن معنوية الجيش تحطمت . وبينما كان فرانكلين ينتظر أحداثاً أكثر يمناً أقام فى باسى ، وهى إحدى ضواحى باريس اللطيفة ، وراح يدرس ، ويفاوض ، ويكتب نشرات الدعاية تحت أسماء مستعارة ، ويستضيف طورجو ، ولافوازييه ، وموريلليه ، وكابانى ، ويغازل مدام دودتو فى سانوا ومدام هلفتيوس فى أوتوى ، ولا عجب فقد كان فى هاتين المرأتين فتنة جعلتهما جذابتين بغض النظر عن تقدمهما فى العمر .

وكان بومارشيه وغيره أثناء ذلك يرسلون الإمداد إلى المستعمرات ، وضباط الجيش الفرنسيون يتطوعون للقتال تحت إمرة واشنطن . كتب سيلاس دين فى ١٧٧٦ « تتكاثر على تكاثراً رهيباً طلبات الضباط الراغبين فى الذهاب إلى أمريكا . . . ولو كان لدى عشر سفن هنا لملأتها كلها بركاب لأمريكا »(٩٩). والعالم كله يعرف كيف ترك المركيز لافاييت ، البالغ من العمر تسعة عشر عاما ، زوجة مخلصة حبلى ليرحل (ابريل ١٧٧٧) ويقاتل بلا راتب فى جيش المستعمرات . وقد اعترف لواشنطن قائلا « إن الشيء الوحيد الذى أتعطش إليه هو المجد »(١٠٠)، وفى سبيل المجد أقتحم كثيراً من المخاطر وألواناً من الهوان ، وجرح فى براند يواين ، وشارك فى أهوال فالى فورج ، وظفر بالمحبة الحارة من واشنطن رغم تحفظه المعهود .

وفى ١٧ أكتوبر ١٧٧٧ هزم جيش للمستعمرين عدته عشرون ألف مقاتل قوة مؤلفة من خمسة آلاف جندى بريطانى وثلاثة آلاف مرتزق ألمانى قادمين من كندا فى ساراتوجا وأكرهها على الاستسلام . فلما بلغ نبأ هذا الانتصار الأمريكى فرنسا وجدت مطالبة فرانكلين ، ودين ، ولى ، بابرام حاف قبولا أكثر بين مشيرى الملك . غير أن نكير عارض إذ كره أن يرى ميزانيته التى قاربت التوازن تقلبها نفقات الحرب رأساً على عقب . إلا أن فرجين وموريبا ظفرا بموافقة لويس السادس عشر التى بذلها على مضض حين حذراه من أن انجلتره — التى كانت عليمة منذ زمن طويل بالعون الفرنسى لأمريكا ومستاءة منه — قد تبرم صلحاً مع مستعمراتها وتوجه كامل قوتها الحربية ضد فرنسا . وعليه ففى ٦ فبراير ١٧٧٨ وقعت الحكومة الفرنسية معاهدتين مع « ولايات أمريكا المتحدة » أرست إحداهما علاقات التجارة ، والمعونة ، واشترطت الأخرى سراً أن ينضم الموقعان فى الدفاع عن فرنسا إذا أعلنت عليها انجلتره الحرب ، ولا يبرم طرف صلحاً دون موافقة الآخر ، ويواصل كلاهما قتال انجلتره حتى يتحقق استقلال أمريكا .

وفى ٢٠ مارس استقبل لويس المبعوثين الأمريكيين ، ولبس فرانكلن جوارب حريرية طويلة لهذه المناسبة . وفى ابريل وصل جون آدمز ليحل محل دين ، وأقام مع فرانكلن فى باسى ، ولكنه وجد الفيلسوف العجوز فى شغل بالنساء عن مهامه الرسمية . فتشاجر معه ، وحاول العمل على استدعائه لأمريكا ، ففشل ، وعاد إلى أمريكا . وعين فرانكلين وزيراً مفوضاً لدى فرنسا (سبتمبر ١٧٧٩) . وفى ١٧٨٠ ، حين كان يبلغ الرابعة والسبعين ، عرض الزواج دون جدوى على مدام هلفتيوس البالغة إحدى وستين سنة .

وأحب الفرنسيون كلهم تقريباً هذه الحرب عدا نكير . فقد كان عليه أن يجمع الأموال الطائلة التى أقرضتها فرنسا لأمريكا : مليون جنيه فى ١٧٧٦ ، وثلاثة ملايين أخرى فى ١٧٧٨ ، ومليوناً آخر فى ١٧٧٩ ، وأربعة فى ١٧٨٠ ، وأربعة فى ١٧٨١ ، وستة فى ١٧٨٢[١٠١]. وبدأ مفاوضات

سرية مع اللورد نورث (أول ديسمبر ١٧٧٩) أملا فى العثور على صيغة للصلح[١٠٢] . وكان عليـــه بالإضافة إلى هذه القروض أن يجمع المال لتمويل حكومة فرنسا وجيشها ، وبحريتها ، وبلاطها . وبلغت جملة ما اقترضه من المصرفيين والشعب ٥٣٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه[١٠٣]. وقد لاطف الأكليروس حتى أقرضوه أربعة عشر مليوناً ، ترد أقساطاً قيمتها مليون جنيه كل عام . وظل يرفض فرض ضرائب ، مع أن ثراء الطبقات العليا كان يمكن أن أن يجعل هذا الإجراء غير مؤلم نسبياً ، وسيشكو من خلفوه فى منصبه من أنه ألقى على عاتقهم هذه الضرورة التى لامحيص عنها . وقد حاباه الماليون لأنه منحهم على قروضهم معدلات الفائدة العالية التى طالبوا بها بحجة أنهم إنما يغامرون بأخطار متزايدة ، أخطار عدم استرداد قروضهم على الإطلاق . ورغبة فى تنمية الثقة فى المجتمع المالى ، نشر نكير بموافقة الملك فى يناير ١٧٨١ « تقريراً مقدماً للملك » هدفه إطلاع الملك والأمة على إيرادات الحكومة ومصروفاتها ، وقد أضفى على الصورة إشراقاً بإسقاطه النفقات الحربية وغيرها من المصروفات « غير العادية » ، وإغفاله الدين القومى . وأقبل الجمهور على شراء « التقرير » بمعدل ثلاثين ألف نسخة فى إثنى عشر شهراً . وحيا الناس نكير ساحراً للمالية أنقذ الحكومة من الإفلاس . وطلبت كاترين الكبرى من جريم أن يؤكد لنكير « إعجابها الذى لاحد له بكتابه ومواهبه »[١٠٤] . غير أن البلاط غضب لأن « التقرير المقدم للملك » فضح الكثير جداً من مفاسد الماضى المالية ، وكشف عن الكثير جداً من المعاشات التى تدفعها الخزانة . وهاجم بعضهم الوثيقة زاعماً أنها ليست إلا مديحاً للوزير بقلمه ، وغار موريبا من نكير غيرته من طورجو من قبل وانضم إلى غيره فى التوصية بإقالته . أما الملكة فدافعت عنه وان ساءتها إجراءات الوفر التى اتخذها ، ولكن فرجين سماه ثائراً[١٠٥] . واشـــترك النظار الملكيون فى اتهام نكير ومحاولة إسقاطه مخافة أن يحفظ التقويض سلطتهم بإنشاء المزيد من المجالس الإقليمية . وعمل نكير ذاته على سقوطه بتصريحه بأنه سيستقيل ما لم يمنح لقب الوزير وسلطته كاملين مع كرسى فى المجلس الملكى ، وقال موريبا للملك أنه لو أجيب نكير إلى طلبه هذا

لتخلى جميع الوزراء الآخرين عن مناصبهم . واستسلم لويس ، وأخلى سبيل نكير (١٩ مايو ١٧٨١) وحزنت باريس كلها لسقوطه إلا البلاط . وبعث يوزف الثانى بعزائه ، ودعته كاترين الثانية للحضور وإدارة مالية روسيا[١٠٦].

وفى ١٢ أكتوبر ١٧٧٩ انضمت أسبانيا إلى فرنسا ضد انجلتره . وأوشك الأسطولان الفرنسى والإسبانى المجتمعان ، ببوارج مجموعها ١٤٠ ، أن يعدلا بوارج البحرية البريطانية وعددها ١٥٠[١٠٧] ، وقطعاً على بريطانيا سطوتها على البحار . وقد أثر هذا التغيير فى ميزان القوة البحرية تأثيراً حيوياً فى الحرب الأمريكية . ذلك أن الجيش البريطانى الرئيسى فى أمريكا ، وعدته سبعة آلاف مقاتل يقودهم اللورد كورنواليس ، احتل موقعاً حصيناً فى يوركتون على نهر يورك قرب خليج تشيزابيك . وكان لافاييت برجاله الخمسة آلاف وواشنطن برجاله الأحد عشر ألفا (بما فيهم ثلاثة آلاف فرنسى تحت إمرة الكونت روشامبو) قد التقيا عند يوركتون واستوليا على كل المداخل البرية الميسورة . وفى ٥ سبتمبر ١٧٨١ هزم أسطول فرنسى بقيادة الكونت دجراس أسطولا انجليزياً صغيراً فى الخليج . ثم أغلق كل مهرب مائى على قوة كورنواليس الأقل عدداً . فلما استنفد كورنواليس ذخيرته استسلم هو وجميع رجاله (١٩ أكتوبر ١٧٨١) . واستطاعت فرنسا أن تزعم أن دجراس ، ولافاييت ، ورشامبو قد لعبوا أدواراً كبرى فى ذلك الحدث الذى تبين أنه الفاصل فى الحرب .

وطلبت انجلتره الصلح . وأوفد شلبيرن بعثتين منفصلتين إلى الحكومة الفرنسية والمبعوثين الأمريكان فى فرنسا ، آملا أن يثير أحد الحليفين على الآخر . وكان فرجين (١٧٨١) قد فكر من قبل فى الصلح مع انجلتره على أساس اقتسام معظم أمريكا الشمالية بين انجلتره وفرنسا وأسبانيا[١٠٨] ، وبدأ تفاهماً مع أسبانيا ليبقى وادى المسسبى تحت السيطرة الأوربية[١٠٩] . وفى نوفمبر ١٧٨٢ اقترح تأييد الانجليز فى سعيهم لأقصاء الولايات الأمريكية من مصايد الأسماك النيوفوندلندية[١١٠] . وكانت هذه المفاوضات متفقة تماماً مع السوابق الدبلوماسية ، ولكن المبعوثين الأمريكيين أحسوا حين

علموا بها أن الوضع يبرر عملهم بمثل هذه السرية . واتفق فرجين وفرانكلن على أن لكل حلف أن يتعامل مع انجلتره مستقلا عن الآخر ، على ألا يوقع طرف أى معاهدة صلح دون موافقة الطرف الآخر[١١١] .

أما المفاوضون الأمريكان — خصوصاً جون جاى وفرانكلن — فقد لعبوا اللعبة الدبلوماسية بمهارة فائقة ، فلم يكسبا للولايات المتحدة الاستقلال فحسب ، بل حق استعمال المصايد النيوفوندلندية ، ونصف البحيرات العظمى ، وكل المنطقة الشاسعة الغنية الواقعة بين جبال الليجانى والمسسبى ، وكانت هذه الشروط أفضل كثيراً مما توقع الكونجرس الأمريكى الحصول عليه . وفى ٣٠ نوفمبر ١٧٨٢ وقع جاى ، وفرانكلن ، وآدمز ، معاهدة تمهيدية مع انجلتره ، كانت من الناحية الرسمية انتهاكاً للاتفاق المبرم مع فرجين ، ولكنها اشترطت ألا يكون لها صلاحية حتى تبرم انجلتره الصلح مع فرنسا . وشكا فرجين ، ثم قبل الوضع . وفى ٣ سبتمبر ١٧٨٣ وقعت المعاهدة النهائية « باسم الثالوث الأقدس غير المنقسم »[١١٢] — بين انجلتره وأمريكا فى باريس ، وبين انجلتره وفرنسا وأسبانيا فى فرساى . وبقى فرانكلن فى فرنسا سفيراً للولايات المتحدة حتى ١٧٨٥ . فلما قضى نحبه فى فيلادلفيا (١٧ ابريل ١٧٩٠) لبست الجمعية التأسيسية الفرنسية الحداد عليه ثلاثة أيام .

وقد أفلست الحكومة الفرنسية نتيجة للحرب وأفضى ذلك الإفلاس إلى الثورة . فقد بلغ مجموع ما أنفقته فرنسا على الصراع بليوناً من الجنيهات ، وكانت الفائدة على الدين القومى تجر الخزانة يوماً فيوماً إلى هاوية العجز عن السداد . على أن ذلك الدين كان مشكلة بين الحكومة والأغنياء لا تكاد تؤثر فى الشعب ، الذى أثرى كثير من أفراده بفضل تنشيط الصناعة . وقد أوذيت الملكية — لا الأمة — أذى بليغاً ، وإلا فكيف يستطيع التاريخ تعليل النجاح الذى ثبت به اقتصاد فرنسا الثائرة وجيوشها لنصف أوربا من ١٧٩٢ إلى ١٨١٥ ؟

لاريب فى أن روح فرنسا قد رفعت . فقد رأى رجال الدولة فى صلح

١٧٨٣ بعثاً ظافراً أقامها من كبوتها عام ١٧٦٣ . أما جماعة الفلاسفة فقد هللوا للنتيجة ورأوها انتصاراً لآرائهم ، والحق ، كما قال توكفيل « ان الأمريكيين بدوا كأنهم نفذوا ما حلم به كتابنا »[113] . ورأى الكثير من الفرنسيين فى الإنجاز الذى حققته المستعمرات إرهاصاً يبشر بانتشار الديمقراطية فى أوربا كلها . وسرت الأفكار الديمقراطية حتى إلى الطبقة الأرستقراطية والبرلمانات . وأصبح إعلان الحقوق الذى أصدره مؤتمر فرجينيا الدستورى فى ١٢ يونيو ١٧٧٦ ، وقانون الحقوق الذى ألحق بالدستور الأمريكى ، من بعض الوجوه نموذجين حذا حذوهما إعلان حقوق الإنسان الذى أعلنته الجمعية التاسيسية الفرنسية فى ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ .

ولقد كان البهاء الأخير لفرنسا الإقطاعية ، وأوج فروسيتها ، أن تموت وهى تعين على إرساء دعائم الديمقراطية فى أمريكا . صحيح أن معظم رجال الدولة الفرنسيين كانوا يفكرون بلغة بعث قوة فرنسا وحيويتها . غير أن حماسة النبلاء من أمثال لافاييت وروكامبو كانت حقيقية لأمراء فيها . فلقد خاطروا بحياتهم غير مرة فى سبيل الدولة الوليدة . كتب الكونت سيجور الشاب يقول « لم أكن قط الوحيد الذى خفق قلبه لصوت استيقاظ الحرية وهى تكافح للتخلص من السلطة الاستبدادية »[114] . ونزول النبلاء الشهير عن حقوقهم الإقطاعية فى الجمعية التأسيسية (٤ أغسطس ١٧٨٩) صور ومهد له هنا سلفاً . لقد كان ضرباً باسلا من الهارا — كيرى ، بذلت فيه فرنسا المال والدم لأمريكا ، ونالت لقاء ذلك دفعة جديدة قوية للحرية .

* * *



الفصل الخامس والثلاثون

الموت والفلاسفة

١٧٧٤ — ١٨٠٧

١ — نهاية فولتير

أ — الشفق فى فرنيه

كان يناهز الثمانين فى ١٧٧٤ ، وكانت تغشاه نوبات إغماء فى هذه السنين ونحن نسميها حالات بسيطة من النقطة ، وقد سماها هو إنذارات صغيرة ولم يعبأ بها ، لأنه وطن نفسه على الموت منذ أمد بعيد ، ولكنه عمر واستمتع بإعجاب الملوك والملكات . فقد وصفته كاترين الكبرى بأنه « أشهر رجال عصرنا »[1]. وكتب فردريك الأكبر فى ١٧٧٥ « ان الناس يتزاحمون ويتجاذبون على شراء تماثيل فولتير النصفية بمصنع البرسلان » فى برلين « حيث لاينتجون التماثيل بسرعة تكفى لتلبية الطلب عليها »[2]. وكانت فرنيه قد أصبحت منذ زمان كعبة يحج إليها المثقفون الأوربيون ، أما الآن فكانت مزاراً دينياً تقريباً . فاستمع إلى مدام سوار عقب زيارتها لها فى ١٧٧٥ تقول : « لقد رأيت مسيو فولتير ، ان نشوات القديسة تريزا لم تفق قط تلك التى استشعرتها وأنا أرى هذا الرجل العظيم . فقد بدا لى أننى فى حضرة إله ، إله محبوب معبود ، استطعت فى خاتمة المطاف أن أعرب له عن كل عرفانى وكل احترامى»[3] . وحين مر بجنيف عام ١٧٧٦ كاد يخنقه الجمع المتحمس الذى التف حوله[4] .

وقد واصل اهتمامه بالسياسة والأدب حتى فى ثمانيناته . فحيا ارتقاء

لويس السادس العرش بمديح تاريخي للعقل ، اقترح فيه بأسلوب التنبؤ — بعض الإصلاحات التي تحبب الأجيال القادمة في الحاكم الجديد :

« سوف توحد القوانين . . . وستلغى الوظائف المتعددة (التي يجمع بينها كنسي واحد) والإنفاق الذي لاحاجة إليه . . . وسيعطى للفقراء الكادحين تلك الثروة الضخمة التي يمتلكها فريق من الكسالى كانوا قد نذروا حياة الفقر من قبل . ولن تعد الزيجات التي تبرمها مائة ألف من الأسر (البروتستنتية) النافعة للدولة نوعاً من التسري ، ولا أطفالها أبناء غير شرعيين . . ولن تعاقب الذنوب الصغيرة على أنها جرائم جسيمة . . ولن يستخدم التعذيب . . . ولن يكون هناك بعد سلطتان (الدولة والكنيسة) ، لأنه لا يمكن أن يكون غير واحدة — وهي سلطة قانون الملك في الملكية ، وسلطة الأمة في الجمهورية . . . وأخيراً ، سنجرؤ على أن نفوه بكلمة التسامح »[٥] .

وقد أنجز لويس الكثير من هذه الإصلاحات ، فيما عدا الكنسية منها . وكان لتقواه الصادقة ، ولاقتناعه بأن ولاء الكنيسة سند لا غنى عنه لعرشه ، يأسف على تأثير فولتير . ففي يوليو ١٧٧٤ أصدر حكومته تعليماتها لناظر برجنديه الملكي بمراقبة المهرطق العجوز مراقبة يقظة ، ومصادرة أوراقه جميعها فور وفاته ، وكانت ماري أنطوانيت تتعاطف مع فولتير ، وقد بكت حين شهدت تمثيل مسرحية « تانكريد » ، وقالت أنها تود أن « تعانق مؤلفها »[٦] ، فأرسل لها أبياتاً لطيفة .

وقد غمرته نوبة من التفاؤل يوم عين صديقه طورجو مراقباً عاماً للمالية ، ولكن حين أقيل طورجو أصابه تشاؤم بسكالي قاتم حول أحوال البشر . ثم استعاد السعادة بتبنيه ابنة ، هي رين فليبرت دفاريكور التي قدموها إليه في ١٧٧٥ على أنها فتاة تنوي أسرتها إدخالها أحد الأديرة لأنها تشكو فقراً يمنعها من تدبير مهر لها . وقد أدفأ جمالها البريء عظام الشيخ ، فأخذها في بيته ، وسماها « جميلة وطيبة » ووجد لها زوجاً — هو المركيز دفليت الشاب الموسر . وتزوجا في ١٧٧٧ ، وقضيا شهر العسل في فرنيه . كتب

يقول « ان العاشقين الشابين بهجة للناظرين ، وهما يعكفان على العمل ليل نهار ليصنعا فيلسوفاً صغيراً لى »[٧] ، ذلك أن الثمانين الأبتر اغتبط لفكرة الأبوة ولو بالأنابة .

وكتب أثناء ذلك آخر دراماته « ايرين » ودفعها إلى الكوميدى — فرانسيز . وقد أحدث قبولها (يناير ١٧٧٨) مشكلة . ذلك أن الفرقة درجت على أن تقدم كل مسرحية حسب تاريخ قبولها ، وكانت الفرقة قد تلقت مسرحيتين أخريين ووافقت عليهما قبل مسرحية فولتير — احداهما بقلم جان فونسوا دلاهارب ، والأخرى بقلم نيقولا بارت . وتنازل المؤلفان كلاهما للتو عن حقيهما المقدمين فى التمثيل . وكتب بارت إلى الفرقة يقول :

« لقد قرئت عليكم تمثيلية جديدة بقلم مسيو فولتير وكنتم على وشك النظر فى تمثيل مسرحيتى « الرجل ذاته » . « وليس أمامكم الآن غير شىء واحد ، هو ألا تفكروا فى مسرحيتى أكثر من ذلك . وأنا عليم بالإجراء المتبع فى هذه الأحوال ، ولكن أى كاتب يجرؤ على المطالبة بالتزام القاعدة فى حالة كهذه ؟ أن مسيو فولتير يقف فوق القانون كأنه ملك . وإذا لم يكن فى الإمكان أن أتشرف بتقديم إسهامى فى امتاع الجمهور ، فلا أقل من التنحى عن طريق إبهاج الجمهور بمسرحية جديدة من القلم الذى أنشأ « زائير » و « ميروب» . انى لأرجو أن تعرضوا هذه المسرحية بأسرع ما تستطيعون وأتمنى لو واصل مؤلفها ، مثل سوفوكليس ، تأليف التراجيديات حتى يبلغ المائة سنا ، ثم يموت كما تحيون أيها السادة — مكللا بفيض غامر من التصفيق »[٨] .

فلما بلغ النبأ فولتير داعب فى حب فكرة الذهاب إلى باريس ليشرف على إخراج مسرحيته . ذلك أنه لم يكن هناك على أية حال حظر رسمى أو صريح على دخوله باريس . وأى بأس فى أن يهاجمه رجال الدين من فوق منابرهم ؟ انه ألف ذلك . وماذا لو أقنعوا الملك بزجه فى الباستيل ؟ حسنا ، انه ألف ذلك أيضاً . فياها من فرحة أن يرى المدينة الكبرى مرة أخرى بعد أن غدت قصبة التنوير ! لكم تغيرت طبعاً منذ فراره الأخير منها قبل

ثمانية وعشرين عاماً ! ثم أن مدام دنى ، التى مات فرنيه منذ زمن طويل ، كثيراً ما توسلت إليه أن يعود بها إلى باريس . وعرض المركيز دفيليت أن يهيىء له أسباب الإقامة المريحة فى قصره فى شارع بون . وأقبلت الرسائل تترى من باريس صائحة : تعال !

فقرر أن يذهب . فإذا أجهزت عليه الرحـــلة فإنها لن تفعل أكثر من تقديم نهاية ما لا مفر منها زماناً يسيراً ، فالآن حان وقت الموت . واعترض على الكفرة وحزن خدام بيته ، ومشرفو مزرعته ، وفلاحو أرضه ، والعمال فى مستعمرته الصناعية ، فوعدهم بأن يعود بعد ستة أسابيع ، ولكنهم كانوا واثقين فى حزن أنهم لن يروه بعدها أبدا . وأى خاف له سيعطف عليهم عطفه ؟ فلما غادرت القافلة فرنيه (٥ فبراير ١٧٧٨) التف أتباعه من حوله ، وبكى الكثير منهم ، ولم يستطع هو ذاته أن يملك دموعه . وبعد خمسة أيام ، ورحلة ثلاثمائة ميل ، وقع بصره على باريس .

ب — تمجيد فولتير

حين بلغت المركبة أبواب باريس فتشها الموظفون بحثاً عن الممنوعات . وقال لهم فولتير مؤكداً « وديني أيها السادة انى أعتقد أن ليس هنا من ممنوع غير شخصى »[٩] . ويؤكد لنا سكرتيره فانيير أن سيده « تمتع طوال الرحلة بصـــحبة سابغة . فلم أره قط أروق مزاجاً ، وكان مرحه مبهجاً »[١٠] للنظاظرين .

وأعد له جناح فى بيت مسيو دفليت فى زاوية شارع بون والكى دى تياتر على الضفة اليسرى لنهر السين . وفور ترجله من مركبته سار على الرصيف قاصداً بيت صديقه دارجنتال القريب . وكان قد ناهز الثامنة والسبعين . ولم يكن الكونت فى بيته . ولكن سرعان ما ظهر فى قصر فيليت . وقال فولتير « توقفت عن الموت لآتى وأراك » . وبعثت إليه صديقة قديمة أخرى بكلمات ترحيب . فرد عليها بتأنقه المألوف فى نعى نفسه « لقد وصلت ميتاً ، ولا أريد أن أبعث حياً إلا لأرتمى تحت قدمى المركيزة دودفان »[١١] . وأبلغه المركيز جوكور أن لويس السادس عشر ثائر لمجيئه إلى باريس ، ولكن

مدام دبولنياك جاءت لتؤكد له أن مارى أنطوانيت ستحميه[١٢] . ورغب الأكليروس فى طرده ، ولكن لم يوجد فى السجلات أى حظر رسمى يحرم زيارة فولتير لباريس ، واكتفى لويس برفض رجاء الملكة السماح للكاتب الذى طبقت شهرته الآفاق بالمثول فى البلاط[١٣] .

وحين ذاع فى باريس نبأ خروج الرجل الذى حدد الطابع الفكرى للقرن الثامن عشر من منفاه الطويل الأمد ، تحولت قاعة الأوتيل فيليت إلى بلاط وعرض حقيقيين . وقد قيل إنه فى ١١ فبراير زاره ثلاثمائة شخص ، منهم جلوك ، وبلتينى ، وطورجو ، وتالبران ، ومارمونتيل ، والسيدات نكير ، ودوبارى ، ودودفان . وأتى فرانكلن فى صحبة حفيد له فى السابعة عشرة ، طالباً بركة الشيخ الجليل عليه ، ورفع فولتير يديه فوق رأس الصبى ، وقال بالإنجليزية « يابنى ، الله والحرية ، تذكر هاتين الكلمتين »[١٤]. فلما استمر سيل الزوار يتدفق يوماً بعد يوم كتب الدكتور ترونشان إلى المركيز د فيليت يقول : « ان فولتير يعيش الآن على رأسماله لا على الفائدة ، وان تلبث عافيته أن تتبدد من جراء أسلوب عيشه هذا . ونشرت هذه الرسالة القصيرة فى « الجورنال دبارى » فى ١٩ فبراير ، لمنع الفضوليين فيما يبدو من الزيارة »[١٥]. أما فولتير نفسه فكان قد تنبأ فى فرنيه بما سيكلفه انتصاره : « سأموت بعد أربعة أيام ان كان على أن أحيا حياة أهل الدنيا »[١٦] .

وخطر لبعض رجال الدين أنهم قد يحققون نصراً كبيراً لو أصلحوا بينه وبين الكنيسة الكاثوليكية . وكان نصف راغب فى هذا الصلح ، لأنه كان عليماً بأن الذين ماتوا فى أحضان الكنيسة هم وحدهم الذين يمكن دفنهم فى أرض مقدسة ، وكل المقابر فى فرنسا كانت أرضها مقدسة . ومن ثم فقد رحب بخطاب ورد له فى ٢٠ فبراير من الأبيه جولتييه يطلب مقابلته . وجاء الأبيه فى اليوم الواحد والعشرين ، وتحدثا برهة ، دون نتيجة لاهوتيه معروفة . ثم رجت مدام دنى الأبيه أن ينصرف ، وقال له فولتير أن له أن يحضر ثانية . وفى اليوم الخامس والعشرين أصيب فولتير بنزيف شديد ،

فنفث الدم من فمه وأنفه حين سعل . وأمر سكرتيره بأن يستدعي جولتييه . ويقول فاجنيير معترفاً : « لقد أمسكت رسالتي لأنني كرهت أن يقال أن مسيو فولتير قد تخاذل ، فأكدت له أن الأبيه لم يمكن العثور عليه »[١٧] . وكان فاجنيير عليماً بأن الشكاك في باريس يعللون أنفسهم بالأمل بأن فولتير لن يستسلم للكنيسة في اللحظة الأخيرة ، ولعله سمع بنبوءة فردريك الأكبر ، « انه سيخزينا جميعاً »[١٨] .

وعاده ترونشان وأوقف النزيف ، ولكن فولتير ظل يبصق الدم في الأيام الاثنين والعشرين التالية . وفي اليوم السادس عشر كتب إلى جولتييه يقول : « أرجو أن توافيني بأسرع ما تستطيع »[١٩] . وجاء جولتييه في صباح الغد فوجد فولتير نائماً ، فانصرف . وفي اليوم الثامن والعشرين سلم فولتير فاجنيير اعترافاً بالإيمان نصه : « اني أموت وأنا أعبد الله، وأحب أصدقائي ، ولا أبغض أعدائي ، وأكره الاضطهاد »[٢٠]. وعاد جولتييه في ٢ مارس ، وطلب فولتير الاعتراف على يديه ، وأجاب الأبيه بأن جان دترساك كاهن سان — سولبيس اشترط عليه أن يحصل على عدول عن آرائه قبل أن يستمع إلى الاعتراف . واعترض فاجنيير . وطلب فولتير قلماً وورقاً ، وكتب بخطه :

« أنا الموقع أدناه ، نظراً إلى إصابتي في الشهور الأربعة الماضية بتقيؤ الدم ، ولما كنت عاجزاً وأنا في الرابعة والثمانين عن جر نفسي إلى الكنيسة ، ولما كان كاهن سان سولبيس يريد أن يضيف إلى حسناته حسنة بإيفاد الأبيه جولتيي إلي ، فقد اعترفت على يديه ، (وأعلن) أنه إذا قبضني الله إليه ، فإني أموت على الدين الكاثوليكي الذي ولدت فيه ، مؤملا في رحمة الله أن تغفر لي كل أخطائي ، وإذا كنت قد صدمت الكنيسة في يوم ما ، فإني أطلب المغفرة من الله ومنها . التوقيع ، فولتير ، في الثاني من مارس ١٧٧٨ ، في بيت المركيز فيليت[٢١] .

ووقع المسيو فييلفيل والأبيه منيو (ابن أخت لفولتير) الإقرار بوصفهما شاهدين . وحمله جولتييه إلى رئيس الأساقفة في ضاحية كونفلانس وإلى

كاهن سان — سولبيس ، فأعلن كلاهما أنه غير كاف[٢٢] . ومع ذلك استعد جولتييه لمناولة القربان لفولتير ، ولكن فولتير اقترح تأجيل المناولة قائلا « أنني أبصق الدم فى سعالى باستمرار ، ويجب أن نحذر من اختلاط دمى بدم الآله الصالح »[٢٣] . ولسنا ندرى بأى روح قال هذه الكلمات — أبروح التقوى الصادقة أم بروح النزوة العارضة .

وفى ٣ مارس حضر ديدرو ، ودالامبير ، ومارمونتيل ، ليعودوا المريض . فلما جاءه جولتييه فى ذلك اليوم يحمل تعليمات من رئيسه بأن يحصل على اعتراف « أقل لبسا وأكثر تفصيلا » قيل له أن فولتير ليس فى حال تسمح له باستقباله . وعاد جولتييه عدة مرات ، ولكنه فى كل مرة كان يصرفه الحارس السويسرى الواقف بالباب . وفى ٤ مارس كتب فولتير إلى كاهن سان — سولبيس يعتذر لتعامله مع مرءوس له . وفى ١٣ مارس استقبل الكاهن ، ولكن يبدو أن الزيارة لم تسفر إلا عن تبادل المجاملات[٢٤] . ثم توقفت نوبات النزيف أثناء ذلك . فشعر فولتير بأنه يستعيد عافيته ، وفترت تقواه .

وفى ١٦ مارس مثلت « ايرين » على مسرح التياتر — فرانسيه . وحضر الحفلة كل البلاط تقريباً بما فيهم الملكة . ولم تكن المسرحية مما يرقى إلى مستوى فولتير العادى ، ولكنها ظفرت مع ذلك بالثناء باعتبارها إنتاجاً رائعاً لرجل فى الرابعة والثمانين . أما فولتير الذى حالت شدة المرض بينه وبين حضور الحفلة فقد كان يحاط علماً باستجابة النظارة فصلا فصلا ، وفى اليوم السابع عشر جاءه وفد من الأكاديمية الفرنسية يحمل إليه تهنئتها . وفى ٢١ مارس شعر بأن فيه من العافية ما يسمح له بالخروج راكباً عربته ، فزار سوزان دلفرى ، مركيزة جوفرتيه ، التى كانت خليلته . قبل ثلاثة وستين عاما . وفى الثامن والعشرين زار طورجو .

وكان يوم ٣٠ مارس يومه الأغر . فقد ذهب بعد ظهره إلى اللوفر ليحضر اجتماعاً للأكاديمية . قال دنى فون فيزن ، وهو كاتب روسى كان يومها فى باريس « حين خرج راكباً عربته من بيته رافقها حتى الأكاديمية

حشد لا آخر له من الناس الذين لم يكفوا عن التصفيق . وخرج جميع الأكاديميين للقائه »[٢٥] . ورحب دالامبير بمقـــدمة بخطاب اغرورقت له عينا الشيخ . وأجلس فولتير فى كرسى الرياسة ، وانتخب وسط التصفيق رئيساً لدورة أبريل الربعية . فلما انتهت الجلسة ودعوه حتى مركبته ، التى سارت من هناك عشقة إلى التياتر — فرانسيه مخترقة حشداً ضخماً يردد الهتاف « يحيى فولتير » .

فلما دخل المسرح قام النظارة والممثلون جميعاً لتحيته . وشق طريقه إلى المقصورة التى كانت تنتظره فيها مدام دنى والمركيزة دفيليت . فجلس خلفهما ، ورجاه النظارة أن ييسر لهم رؤيته ، فاتخذ مقعداً بين السيدتين . وجاء ممثل إلى المقصورة ووضع إكليلا من الغار على هامة فولتير ، فرفعه ووضعه على رأس المركيزه ، ولكنها أصرت على أن يقبله . وارتفعت أصوات بين النظارة تهتف « مرحباً بفولتير ! » « مرحباً بسوفوكليس ! » « الأجلال للفيلسوف الذى يعلم الناس أن يفكروا ! » « المجد للمدافع عن كالاس ! »[٢٦] قال جرم ، وكان شاهد عيان ، « استمرت هذه الحماسة ، هذا الهذيان الشامل ، أكثر من عشرين دقيقة »[٢٧]. ثم عرضت « أيرين » للمرة السادسة . وفى ختام الحفلة طالب النظارة بكلمة من المؤلف ، فاستجاب فولتير . ورفع الستار ثانية ، وكان الممثلون قد أخذوا تمثالا نصفياً لفولتير من البهو ووضعوه على خشبة المسرح ، فكللوه الآن بالغار ، وقرأت مدام فستريس التى لعبت دور أيرين على فولتير أبياتاً فى مدحه :

أمام عيون باريس المفتونة بك

تقبل اليوم تحية إجلال

سوف تؤكدها الأجيال الصارمة

من عصر إلى عصر .

كلا ، فما من حاجة بك

إلى بلوغ الشاطىء المظلم

لتحظى بشرف الخلود .
فتقبل يافولتير التاج
الذى قدم إليك ،
فما أجمل أن تكون جديراً به
حين تكون فرنسا هى التى تقدمه»[٢٨] .

وطلب النظارة إعادة الأبيات ، فأعيدت . وخلال التصفيق غادر فولتير كرسيه ، وأفسح له الجمع الطريق ، وقادوه إلى مركبته وسط جمهور يفيض حماسة . وجىء بالمشاعل ، وأقنعوا السائق بأن يبطىء السير بالمركبة ، وصاحبها جمع حتى الأوتيــل دفيليت[٢٩] . ان تاريخ الأدب الفرنسى بأسره لم يحوقط فيما نعلم مشهداً كهذا .

كتبت مدام فيجيه — لبرون التى شهدت هذا كله تقول : «كان الشيخ الذائع الصيت قد شف وهزل حتى لقد خشيت أن تؤذيه هذه العواطف الجياشة أذى مميتاً »[٣٠] .

ونصحه ترونشان بالعودة إلى فرنيه بأسرع ما يستطيع ، ولكن مدام دنى رجت خالها أن يجعل فى باريس مقامه الدائم . فوافقها بعد أن أسكرته حرارة استقباله . وامتدح شعب باريس لأنهم أكثر شعوب الأرض مرحاً ، وأدباً ، واستنارة ، وتسامحاً ، ولأن لهم أرفع الأذواق ؛ والملاهى ، والفنون[٣١] ، ونسى « الرعاع » لحظة ؛ وراح يجوب باريس فى مركبته باحثاً عن بيت يسكنه ، وفى ٢٧ أبريل اشترى بيتاً . واستشاط ترونشان غيظاً وقال « لقد رأيت حمقى كثيرين فى حياتى ، ولكن لم أر قط أكثر منه جنوناً . فهو يحسب أنه سيعمر مائة عام »[٣٢] .

وفى ٧ أبريل أخذ فولتير إلى محفل « الأخوات التسع » الماسونى فقبل عضواً دون أن يلزم باجتياز المراحل التمهيدية المألوفة . وكلل رأسه بأكليل من الغار ، وألقى رئيس المحفل خطاباً قال فيه : « إننا نقسم بأن نساعد اخوتنا ، ولكنك كنت المؤسس لمستعمرة كاملة تعبدك وتفيض بإحساناتك . . . لقد

كنت أيها الأخ المحبوب جداً ماسونيا قبل أن تنال الرتبة ، وقد حققت التزامات عضو الماسونية قبل أن تتعهد بالوفاء بها »[٣٣] . وفي اليوم الحادى عشر رد زيارة مدام دودفان فذهب لبراها في شقتها بدير سان — جوزيف ، وتحسست وجهه بيديها المبصرتين . فلم تجد غير العظام ، ولكنها كتبت في اليوم الثانى عشر إلى هوراس ولبول تقول : « انه يفيض حيوية كالعهد به دائماً . وهو في الرابعة والثمانين ، والحق أنني أحسبه لن يموت أبدا . وهو يستمتع بجميع حواسه ، ولم تضعف منها واحدة . أنه مخلوق فذ، وأسمى في الحقيقة بكثير من سائر الخلق »[٣٤] . فلما سمع الراهبات بزيارته نددن بالمركيزة لتدنيسها ديرهن بحضور رجل أدانته الكنيسة والدولة جميعاً[٣٥] .

وفي ٢٧ أبريل ذهب إلى الأكاديمية مرة أخرى . ودارت المناقشة حول ترجمة الأبيه دليل لكتاب بوب « رسالة إلى الدكتور أربثنوت» ، وكان فولتير قد قرأ الأصل ، فهنأ الأبيه على ترجمته ، واغتنم الفرصة ليقترح مراجعة « قاموس » الأكاديمية اثراء للغة المعتمدة بمثات الألفاظ الجديدة التي شقت طريقها إلى الاستعمال المهذب . وفي ٧ مايو عاد إلى الأكاديمية بخطة للقاموس الجديد . وتطوع بأن يضطلع بجميع الألفاظ المبتدئة بالحرف أ ، واقترح أن يتكفل كل عضو بحرف ، وعند رفع الجلسة شكرهم « باسم الأبجدية » ، ورد المركيز رشاستلوكس « ونحن نشكرك باسم الآداب »[٣٦] . في ذلك المساء حضر متنكراً حفلة تمثيل لمسرحيته « الزير» . وفي ختام الفصل الرابع صفق النظارة للممثل لاريف ، وشارك فولتير في الأعراب عن استحسانه «آه ما أروع هذا الأداء ! » وتعرف عليه الجمهور ، فتجددت مظاهر الحماسة العارمة التي شهدها ٣٠ مارس مرة أخرى .

ولعله خيراً فعل بالاستمتاع بتلك الأسابيع الأخيرة من حياته على حساب صحته ، بدلا من الانزواء في عقر داره وحيداً ليضيف إلى عمره بضعة أيام مؤلمة . وقد عكف بهمة عظيمة على خطته التي اقترحها لوضع قاموس جديد ، وأسرف في تعاطي القهوة — فقد بلغ ما شربه من أقداحها في اليوم أحياناً خمسة وعشرين — حتى لقد جفاه النوم ليلا . وساء حصره أثناء ذلك ، وبات التبول أشد إيلاماً وقصوراً ، وسرت إلى دمه العناصر السامة التي

كان يجب التخلص منها ، فأحدثت بولينا فى الدم . وأرسل له الدوق رشليو محلولا من الأفيون أوصى به مسكناً ولكن فولتير أساء فهم الإرشادات فشرب قنينة كاملة منه مرة واحدة (١١ مايو) ، فأصابه هذيان دام ثمانى وأربعين ساعة ، وشوه الألم وجهه . واستدعى ترونشان ، فأعطاه ما خفف عنه بعض الشىء ، ولكن فولتير ظل عدة أيام لا ينطق بكلمة ولا يمسك طعاماً . والتمس أن يعيدوه إلى فرنيه ، ولكن أوان ذلك كان قد فات .

وفى ٣٠ مايو قدم الأبيه جولتييه وكاهن سان — سولبيس ، مستعدين لمناولته سر الكنيسة المقدس إذا أضاف لاعترافه السابق بالإيمان إيمانه بلاهوت المسيح . وزعمت قصة لم يؤيدها مصدر آخر ، وقد رواها كوندورسيه[٣٧] ، أن فولتير صاح « بالله لاتكلمونى عن ذلك الإنسان ! »

أما لا هارب فروى أن جواب فولتير كان « دعونى أمت فى سلام » . أما دنواريستير فقد قبل الرواية العادية : وهى أن الكاهنين وجدا فولتير محموماً يهذى ، فانصرفا دون أن يناولاه القربان[٣٨] . وزعم ترونشان أن ساعات احتضار الفيلسوف اتسمت بالعذاب الشديد وبصيحات الغضب الشديد[٣٩] . ثم هدأت نأمته أخيراً فى الحادية عشرة من تلك الليلة .

ووضع الأبيه منيو جثمان خاله قائماً فى مركبة ، وكان قد توقع أن دفنه فى مقبرة باريسية سيرفض ، وانطلق بها ١١٠ ميلا إلى دير سكلير فى قرية رومييى — على — السين هناك قام كاهن محلى بمراسم الصلاة التقليدية على الجثمان ورتل قداساً مطولا فوقه ، وسمح بدفنه فى قبو الكنيسة .

وحظر أمر من لويس السادس عشر على الصحف نشر نبأ موت فولتير[٤٠] ، وطلبت الأكاديمية الفرنسية إلى الرهبان الفرنسسكان إقامة قداس على روح الميت ، ولكن لم يمكن الحصول على إذن بذلك . ورتب فردريك الأكبر ، تحية من شاك إلى شاك ، أن يقام قداس على روح فولتير فى كنيسة كاثوليكية ببرلين . ونظم تأبيناً حاراً لصديقه وعدوه ، قرىء على أكاديمية برلين فى ٢٦ نوفمبر ١٧٧٨ . وكتبت كاترين الكبرى لجريم تقول :

« فقدت رجلين لم أرهما قط ، أحباني ، وبجملتهما — فولتير والاورد شاتام . وسيظل القوم زمناً طويلا جداً ، وربما إلى الأبد ، يفتقدون من يعدلانهما ، ولن يجدوا أبداً من يفوقانهما — خصوصاً أول الرجلين . منذ أسابيع كرم فولتير علانية ، والآن لا يجرءون على دفنه . يا له من رجل ! أعظم رجل فى أمته ، لم لم تأخذ جثمانه باسمى ؟ كان ينبغى أن ترساه إلى محنطاً . . . وكان سيحظى بأفخم مثوى . . . اشترى مكتبته وأوراقه بما فيها رسائله إن أمكن . وسأدفع لورثته ثمناً مجزياً »[٤١] .

وتلقت مدام دنى ١٣٥,٠٠٠ جنيه نظير المكتبة التى نقلت إلى أرميتاج سانت بطرسبرج .

وفى يوليو ١٧٩١ ، وبأمر الجمعية التأسيسية للثورة ، نقل رفات فولتير من دير سكلبير إلى باريس ، وطافوا به المدينة فى موكب نصر ، ثم وورى فى كنيسة سانت جنفييف (التى ستسمى بعد قليل بالبانثيون) . فى ذلك العام أطلق على الكى دى تياتان رسمياً اسم جديد هو الكى د فولتير . وفى مايو ١٨١٤ خلال عودة الملكية البوربونية ، نقلت جماعة من الغيلان الأتقياء رفات فولتير وروسو من البانثيون خفية ، وأودعته غرارة ودفنته فى مقلب بأطراف باريس . ولم يعثر للرفات بعد ذلك على أثر .

جـ — تأثير فولتير

انه يبدأ بلحظات العداء للاكليروس فى « أوديب » (١٧١٨) ، وهو تأثير فعال اليوم على نطاق عالمى تقريباً . وقد رأينا هذا التأثير يحرك الملوك : فردريك الثانى ، وكاترين الثانية ، ويوزف الثانى ، وجوستاف الثالث ، وبدرجة أقل شارل الثالث ملك أسبانيا من خلال أراندا ، وجوزف الثانى ملك البرتغال من خلال بومبال . ولم يعد له فى العالم الفكرى فى المائتى السنة الأخيرة غير تأثير روسو وداروين .

وبينما كان تأثير روسو الأخلاقى ينحو إلى الحنان ، والعاطفة ، وإعادة الحياة الأسرية والوفاء الزوجى ، كان تأثير فولتير الأخلاقى ينحو إلى

الإنسانية والعدالة ، وإلى تطهير القانون والعادات الفرنسية من المفاسد القانونية وألوان القسوة البربرية ، فلقد حفز فولتير أكثر من أى فرد آخر تلك الحركة الإنسانية التى أصبحت من مفاخر القرن التاسع عشر . ولا حاجة بنا أن أردنا الإحساس بتأثير فولتير فى الأدب إلا لتذكر فيلاند ، وكاجرين ، وجوته ، وبايرون ، وشلى ، وهينى ، وجوتييه ، ورينان ، وأناطول فرانس . ولولا فولتير لاستحال ظهور جبون ؛ ويعترف المؤرخون بقيادته وإلهامه فى التقليل من التركيز على جرائم الناس والحكومات وزيادة الاهتمام بتنميته المعرفة ، والأخلاق ، والسلوك ، والأدب ، والفن .

وقد شارك فولتير فى إنجاب الثورة الفرنسية بإضعاف احترام الطبقات المثقفة للكنيسة وإيمان الطبقة الارستقراطية بحقوقها الإقطاعية . ولكن تأثير فولتير السياسى بعد عام ١٧٨٩ طغى عليه تأثير روسو . فقد بدا فولتير شديد المحافظة ، شديد الازدراء لجماهير الشعب ، شديد الاتسام بطابع السادة الإقطاعيين ؛ وقد رفضه روبسبير ، وظل « العقد الاجتماعى » سنتين انجيلا للثورة . أما بونابرت فأحس التأثيرين فى تعاقبهما العادى . قال متذكراً تلك الحقبة «كنت حتى عامى السادس عشر على استعداد لمقاتلة أصدقاء فولتير دفاعاً عن روسو ، أما اليوم فقد انعكس موقفى . . فكلما أمعنت فى قراءة فولتير ازددت شغفاً به . فهو رجل معقول دائماً ، لا بالمهرج ولا بالمتعصب أبدا »[(٤٢)]. وبعد عودة ملوك البوربون أصبحت مؤلفات فولتير أداة للفكر البورجوازى ضد النبلاء والأكليروس المنبعثين من جديد . وقد صدرت بين عامى ١٨١٧ و ١٨٢٩ أثنتا عشرة طبعة من مجموعة أعماله . فى تلك السنوات الإثنى عشرة بيع من كتب فولتير نيف وثلاثة ملايين مجلد[(٤٣)] . ثم أسلمت الحرب الشيوعية التى تزعمها ماركس وانجلتره القيادة مرة أخرى لروسو . ويمكن القول بوجه عام أن الحركات الثورية منذ ١٨٤٨ تبعت روسو أكثر من فولتير فى السياسة ، وتبعت فولتير أكثر من روسو فى الدين .

وكان أعمق تأثير لفولتير وأبقاه على الزمن تأثيره على الإيمان الدينى . فبفضله وبفضل شركائه تجنبت فرنسا حركة الإصلاح الدينى البروتستنتى ،

وانتقلت رأساً من النهضة إلى التنوير ، وربما كان هذا أحد أسباب العنف الشديد التى رافق التغيير ، إذ لم يكن هناك فترة توقف عند البروتستينية . وقد شعر بعض المتحمسين أن حركة التنوير فى جملتها كانت إصلاحاً أعمق من ذلك الذى أحدثه لوثر وكلفن ، لأنها لم تكتف بتحدى مغالاة الكهانة والخرافة فقط ، بل تحدت صميم أسس المسيحية ، لا بل كل العقائدفوق الطبيعية . وقد جمع فولتير فى صوت واحد كل ضروب الفكر المناهض للكاثوليكية ، وأضفى عليها مزيداً من القوة بفضل الوضوح والتكرار وخفة الروح ، حتى لقد بدا حيناكأنه قد هدم الهيكل الذى ربى فيه . وقد حركت جماعة الفلاسفة الطبقات المفكرة فى العالم المسيحى كله صوب ربوبية مهذبة أو إلحادمستتر . وتأثر جيل جوته من الشباب فى ألمانيا بفولتير تأثراً عميقاً وذهب جوته إلى أن « فولتير سيعد دائماً أعظم رجل فى أدب العصور الجديد ، بل ربما جميع العصور »(٤٤) . وفى انجلتره أحست أقلية لامعة بتأثير فولتير — جودوين ، وبين ، ومارى وولستونكرافت ، وبنتام ، وبايرون ، وشلى ؛ ولكن يمكن القول عموماً إن الربوبية الانجليزية سبقته فقللت من حدة تأثيره ، ثم إن السادة الانجليز شعروا بأنه ليس هناك عقل مثقف يرضى بالهجوم على دين يهب مثل هذا العزاء المهدىء للطبقات الأضعف والجنس الأضعف . أما فى أمريكا فإن الآباء المؤسسين كانوا كلهم تقريباً تلاميذ لفولتير . وهناك وفى انجلتره غطى تأثير داروين والبيولوجيا الحديثة على تأثير فولتير فى إضعاف الإيمان الدينى ؛ وفى عصرنا هذا يعانى اللاهوت المسيحى أكثر ما يعانى من وحشية حروبنا التى لانظير لها ، واقتحامات العلوم الظافرة التى تغزو تلك السماوات التى كانت يوماً ما مسكن الآلهة والقديسين .

ونحن مدينون لفولتير أكثر من أى إنسان آخر بذلك التسامح الدينى الذى يسود الآن أوربا وأمريكا الشمالية سيادة فلقة . ولقد رأى فيه أهل باريس لا مؤلف الكتب الفاصلة بين جيلين ، بل المدافع عن كالاس وسرفان . ولم تجرؤ محكمة فى أوربا بعده على تحطيم جسد رجل على دولاب التعذيب لتهم وأدلة كتلك التى أدانت جان كالاس . صحيح أن كتباً مثل

« أميل » ظلت تحظر وتحرق ، ولكن رمادها أعان على بث أفكارها ، وتقلصت الرقابة الدينية حتى انتهى بها الأمر إلى الإقرار بالهزيمة فى صمت . وإذا اضطر أبناؤنا يوماً ما إلى خوض معركة تحرير الفكر من جديد ، وهو أمر يبدو جائزاً ، فليلتمسوا الإلهام والتشجيع فى كتب فولتير التسعة والتسعين . ولن يجدوا فيها صفحة واحدة تبعث على الملل .

٢ — خاتمة روسو : ١٧٦٧ — ٧٨

أ — الروح المعذب

حين وصل روسو إلى فرنسا فى ٢٢ مايو ١٧٦٧ بعد مقامه التعس فى انجلتره ، وبعد أن أشرف على الجنون ، وجد بعض العزاء فى الترحيب الذى لقيه من المدن التى اجتاز بها هو وتريز . ومع أنه سافر متخفياً تحت اسم جان — جوزف رينو ، وكان لا يزال من الناحية القانونية خاضعاً للحظر الذى صدر ضده فى ١٧٦٢ ، إلا أن القوم تبينوه وكرموه ، واستقبلته أميان استقبال الظافرين ، وأرسلت له مدن أخرى « نبيذ المدينة » .

وعرض عليه كثير من الفرنسيين — وكلهم من النبلاء — بيتاً يقيم فيه . أولهم ميرابو الأب ، الذى خيره بين عشرين ضيعة ، فاختار روسو فلورى — سو — مودون ، القريبة من باريس . ولكن المركيز ألح عليه إلحاحاً مزعجاً ليقرأ كتبه ، فهرب روسو ، ولجأ إلى لوى — فرانسوا البوربونى ، أمير كونتى ، فى تربيه — لو — شاتو ، القريبة من جيزور (٢١ يونيو ١٧٦٧) . ووضع الأمير القلعة بأسرها تحت تصرف جان — جاك ، بل إنه أوفد الموسيقيين ليشنفوا أذنيه بالموسيقى الهادئة ؛ وفسر روسو هذا بأنه اتهام له بالجنون ، وخامره الظن بأن شوازيل والكونتيسة بوفليه (خليلة الأمير) انضما إلى فولتير ، وديدرو ، وجريم ، فى التآمر عليه ؛ والواقع أن فولتير كان قد اتهمه بإشعال النار فى المسرح بجنيف ، الذى احترق وأصبح أنقاضاً فى ٢٩ يناير ١٧٦٨[٤٥] . واعتقد روسو أن كل من فى جيزور ينظر إليه كأنه مجرم . وتاق إلى العودة لجنيف ، وكتب إلى شوازيل يرجوه إقناع مجلس جنيف بأن يكفر لروسو عن الإساءات الماضية التى ألحقها به[٤٦] .

وأرسل إليه شوازيل تصريحاً رسمياً بالسفر إلى أى بقعة يريدها فى فرنسا ، وبأن يبرحها ويعود إليها متى شاء(٤٧) . وخطر لروسو الآن أن يعود إلى انجلتره ، فكتب إلى ديفنبورت يسأله أن كان يسمح له بأن يشغل ثانية بيت ووتن ، وأجاب ديفنبورت بأنه يسمح بكل تأكيد .

ثم هرب روسو من ترى فى يونيو ١٧٦٨ خوفاً على حياته فيها . وترك تريز فى القصر الريفى ضماناً لسلامتها . واستقل مركبة عامة إلى ليون ، وأقام حينا مع أقرباء دانيل روجن الذى كان قد وفر له الملجأ فى ١٧٦٢ فى سويسرة . على أنه ما لبث أن اعتزل فى فندق الجولدن فونتن فى بورجوان — أن — دوفينه . وعلى باب حجرته كتب قائمة بالأشخاص الذين يعتقد أنهم يأتمرون به . ثم أرسل فى طلب تريز ، واستقبلها بالفرح والدموع ، وقرر آخر الأمر أن يتزوجها . وقد تم هذا القران فى حفل مدنى بالفندق فى ٣٠ أغسطس ١٧٦٨ .

وفى يناير ١٧٦٩ انتقلا إلى بيت بمزرعة فى موكان ، قرب جرينوبل . وهناك كتب آخر صفحات ، « الاعترافات » ، وهى صفحات نصف مجنونة ، وراح يهدىء أعصابه بدراسة علم النبات . ووجدت تريز أن طبعه يزداد حدة ، وكانت هى ذاتها تعانى من الروماتزم والأوصاب الغامضة التى تصاحب أحياناً « تغيير المعيشة » . وتشاجر الزوجان الحديثان مشاجرة بلغ من شدتها أن حملت روسو على الرحيل فى رحلة طويلة لجمع النبات ودراسته بعد أن ترك لها خطاباً ينصحها بدخول الدير (١٢ أغسطس ١٧٦٩)(٤٨). فلما عاد ووجدها تنتظره تجدد حبهما . وندم الآن على أنه تخلص من أطفالها . وأحس « أن الرجل الذى يستطيع تربية أولاده تحت بصره رجل سعيد جـداً(٤٩) . وكتب إلى أم شابة يقول : إن أجمل أسلوب فى الحياة يمكن أن يوجد هو أسلوب الأسرة . . فما من شىء يندمج معنا بأشد وأثبت من أسرتنا وأبنائنا . . . ولكن أنا الذى يتكلم على الأسرة والأبناء — . . . سيدتى ، ارثى لأولئك الذين يحرمهم قدرهم القاسى من هذه السعادة ، ارثى لهم إن كانوا عاثرى الحظ فقط ، ومزيداً من الرثاء لهم إن كانوا مذنبين ! »(٥١) .

وكان الشتاء الذى قضته الأسرة فى موكان شاقاً فى بيت ريفى يقع فى مهب الرياح كلها . والتمست تريز منه الرحيل إلى باريس . وهكذا استأنف الزوجان أسفارهما الطويلة فى ١٠ أبريل ١٧٧٠ وأنفقنا شهراً لطيفاً فى ليون ، حيث مثلت أوبريت روسو عراف القرية ، جزءا من احتفال أقيم تكريماً له . ثم سافرا فى مراحل بطيئة مخترقين ديجون ، ومونبار ، وأوجزيز ثم بلغا باريس فى خاتمة المطاف فى ٢٤ يونيو ١٧٧٠ . وأقاما فى الطابق الرابع من نزله القديم فى الأوتيل سانت اسبرى ، بشارع بلاتريير — واسمه الآن شارع جان — جاك روسو فى حى من أشد أحياء المدينة ضجيجاً .

وعاش عيشة متواضعة هادئة ، يتكسب بنسخ الموسيقى ويدرس علم النبات . وكتب الآن (٢١ سبتمبر ١٧٧١) إلى لينايوس رسالة يعرب فيها عن إجلاله[٥١] . فلما ذاع أنه يقيم فى باريس خف لزيارته قدامى الأصدقاء ومريدوه الجدد : الأمير لين (الذى عرض عليه بيتاً فى ضيعته قرب بروكسل) ، وجريترى ، وجلوك (الذى جاء ليناقش الموسيقى معه) . والمسرح جولدونى ، والمغنية صوفى أرنو ، وجوستاف ولى عهد السويد ، وشباب المؤلفين أمثال جان — جوزف دوزو ، وجاك — هنرى برناردان دسان — بيير . وفى ١٧٧٧ نال ما اشتهاه فولتير ولم ينله — وهو زيارة من الإمبراطور يوزف الثانى[٥٢] . ورد إليه تصريح الدخول إلى دار الأوبرا مجاناً ، فكان يختلف إليها من حين لحين ، ليسمع جلوك على الأخص . ووصفه برناردان دسان — بيير فى هذه الحقبة (وكان الآن فى الستين) بأنه رقيق البدن ، متناسب الأعضاء ، وله « جبين عال ، وعينان متقدتان . وفى غضون الجبين حزن عميق ، ومرح حاد بل كاو »[٥٣] .

وقد استفزه للعودة إلى القلم — رغم وعده عام ١٧٦٢ بالكف عن التأليف — اتصال هجوم أعدائه عليه . وكان فى سبيل الرد عليهم ، وعلى كل ما دار حوله من شائعات معادية فى باريس وجنيف ، قد اضطلع بكتابه « الاعترافات » (١٧٦٥) ومن ثم أتم الكتاب الآن (نوفمبر ١٧٧٠) ، ومع أن روسو كان حتى ذلك الحين عازفاً عن نشره كاملا ، إلا أنه صمم على أن تطلع باريس على أجزائه المتصلة بهذه الهجمات . وهكذا قرأ فى

ديسمبر على مسامع دوزو وغيره ، فى حجرته ، فقرات طويلة من أعظم كتاب ألفه ، واستمرت القراءة سبع عشرة ساعة قطعتها وجبتان خفيفتان عاجلتان[٥٤] . وفى مايو ١٧٧١ قام بتلاوة أخرى أمام الكونت والكونتيسه أجمون ، والأمير بيناتللى أجمون ، والمركيزه دميم ، والمركيز جوينيه . واختتم بتحد من نار :

« لقد كتبت الحقيقة . فإذا سمع أى شخص أشياء مناقضة لما قررته الآن ، حتى إذا أثبتت ألف مرة ، فهو لم يسمع سوى تشهير وافتراء ، وإذا رفض بتاتاً أن يمحصها ويراجعها معى وأنا حى فهو ليس صديقاً للعدالة أو الحق . أما عن نفسى فإنى أعلنها صريحة دون أدنى خوف أن كل من دقق النظر فى بعينيه — طبعى ، وخلقى ، وسلوكى ، وميولى ، ولذاتى ، وعاداتى — حتى بغير قراءة كتبى ، ثم حكم على بأننى رجل غير شريف إنما يستحق أن يشنق »[٥٥].

والذين استمعوا إليه استنتجوا من شدة انفعاله أن عقله يوشك أن يختلط . وقال دوزو أن شكوك روسو واتهاماته لاتليق « بجان جاك الرجل السمح الفاضل » ، فكان هذا النقد نهاية صداقتهما[٥٦] . وحمل غيره من المستمعين أصداء هذه القراءات إلى صالونات باريس ، وأحس بعض ذوى النفوس الحساسة أن روسو قد افترى عليهم . وكتبت مدام ديبنيه إلى مفتش عام الشرطة تقول :

« يجب أن أحيطك علماً مرة أخرى بأن الشخص الذى حدثتك عنه صباح أمس قد قرأ كتابه على السادة دورا ، وبيزيه ، ودوزو . ومادام يستخدم هؤلاء الرجال ليأتمنهم على القذف والتشهير فإن لك الحق فى أن تحيطه برأيك فى هذا الأمر . ويخيل إلى أنه ينبغى أن تكلمه بما يكفى من التلطف حتى لا يشكو ، ولكن بحزم يثنيه عن العودة إلى خطئه . فإذا حصلت على كلمة شرف منه فإنى أعتقد أنه لن يحنث بها ، معذرة ألف مرة ، ولكن سلامى النفسى كان فى خطر »[٥٧] .

وطلبت الشرطة إلى روسو أن يكف عن قراءاته ، فوافق ، وخلص إلى أنه لم يستطع قط أن يظفر بالاستماع المنصف إليه فى حياته ، وأعان

شعور الأحباط هذا على اختلاط عقله . وبعد عام ١٧٧٢ أغلق بابه دون الزوار كافة تقريباً عدا برنارداان دسان — بيير . وكان فى جولاته منفرداً يخامره الظن بأن كل من يمر به تقريباً عدو له . وفيما عدا أشباح العداء هذه فإنه احتفظ بطبيعته الطيبة الأصيلة . فاكتتب رغم مقاومة فولتير فى المال المجموع لإقامة تمثال له . وحين أرسل إليه أحد الآباء الروحيين كراسة تندد بفولتير وبخ الكاتب قائلا : « لاريب فى أن فولتير رجل ردىء وليس فى نيتى أن أثنى عليه ، ولكنه قال وفعل أشياء طيبة كثيرة جداً بحيث ينبغى أن نرخى الستار على أخطائه »(٥٨) .

وحين كان يصرف فكره عن « المؤامرة » التى يتخيلها من حوله ، كان فى استطاعته أن يكتب بوضوح كالعهد به من قبل ، وبروح مدهشة من المحافظة والواقعية وقد رأينا كيف التمس المؤتمر البولندى المنعقد عام ١٧٦٩ اقتراحاته بشأن دستور جديد . وقد بدأ كتابه « آراء حول حكومة بولنده » فى أكتوبر ١٧٧١ ، وانتهى منه فى أبريل ١٧٧٢ . وأول انطباعاتنا عنه أنه يخرق جميع المبادىء التى دافع عنها من قبل دفاعاً مشبوباً . فإذا اعدنا قراءته فى شيخوختنا كان عزاء لنا أن نرى أن روسو (وقد بلغ الستين) يمكن أن يشيخ هو أيضاً ، وأن ينضج — كما يحب الشيوخ أن يقولوا . فالرجل الذى صرخ قائلا « ولد الإنسان حراً ، وهو فى كل مكان يرسف فى الأغلال » هذا الرجل بعينه نبه الآن البولنديين ، الذين حكم عليهم « حق النقض المطلق » بالفوضى ، إلى أن الحرية امتحان عسير كما أنها عطية إلهية ، وأنها تحتاج إلى مجاهدة للنفس أشق كثيراً من طاعة الأوامر الخارجية . قال :

« إن الحرية طعام قوى ، ولكنه طعام يحتاج إلى هضم متين . . انى أضحك من تلك الشعوب المنحطة التى تثور لمجرد كلمة من متآمر دساس ، والتى تجرؤ على التحدث عن الحرية وهى تجهل كل الجهل ما تعنيه ، والتى تتصور أنه لكى يتحرر الإنسان يكفى أن يكون ثائراً متمرداً . أيتها الحرية المقدسة السامية ! ليت هؤلاء المساكين يعرفونك حق المعرفة ، ليتهم يتعلمون أى

ثمن يبذل للظفر بك ولصيانتك ، وليت فى الإمكان تعليمهم ان قوانينك أشد صرامة من نير الطغاة الثقيل ! »(٥٩) .

لقد علمت الحياة ومونتسكيو روسو أن مناقشات مثل « عقده الاجتماعى» إنما هى أحلام تهوم فى الفراغ ونظريات مجردة لا ترتكز على الواقع . لذلك سلم الآن بأن جميع الدول تضرب جذورها فى التاريخ والظروف ، وأن مصيرها الفناء ان هى قطعت جذورها دون تمييز . ومن ثم فقد نصح البولنديين بألا يدخلوا تغييرات فجائية على دستورهم ، وبأن يحتفظوا بملكهم المنتخب على أن يقيدوا حق النقض المطلق ، وبالكاثوليكية ديناً رسمياً للدولة مع تطوير نظام تعليمى يستقل عن الكنيسة(٦٠) . وقد بدت له بولنده بحال مواصلاتها ووسائل نقلها الراهنة أوسع من أن تحكم من مركز واحد ، فمن الخير إذن تقسيمها إلى ثلاث دول تتحد فقط فى الاتصالات المشتركة والشئون الخارجية . ومن عجب أن الرجل الذى ندد من قبل بالملكية الخاصة أصلا لكل الشرور ، كرس الآن الإقطاعية البولندية ، واقترح فرض الضرائب على جميع الأراضى ، على أن تترك حقوق الملكية الراهنة دون مساس بها . ثم أعرب عن أمله فى أن تلغى القنية يوماً ما ، ولكنه لم يدع إلى انهائها فى وقت قريب ، فهذا فى رأيه يجب أن يؤجل إلى أن يتاح للقن مزيد من التعليم . وقد أكد أن كل شىء رهن بنشر التعليم ، وتعزيز الحرية بأسرع من تعزيز الذكاء والأخلاق معناه فتح الباب على مصراعيه للفوضى وتقسيم البلاد .

غير أن التقسيم تم قبل أن يتمكن روسو من انهاء مقاله . فالسياسة العملية تجاهلت تشريعه الفلسفى فى بولنده كما تجاهلته فى كورسيكا . وقد شارك هذا الأحباط المزدوج فى تكدير سنيه الأخيره . وزاد من حدة احتقاره لجماعة الفلاسفة الذين أثنوا من قبل على أولئك الحكام — فردريك الثانى ، وكاترين الثانية ، ويوزف الثانى — الذين يقطعون الآن أوصال بولنده ، وامتدحوهم باعتبارهم حكاماً مستبدين مستنيرين وملوكاً فلاسفة .

وفى ١٧٧٢ بدأ محاولة أخرى للرد على خصومه وسمى الكتاب « حوارات :

روسو يحاكم جان — جاك». وقد عكف على هذا الكتاب الذى بلغت صفحاته ٤٥٠ فترات متقطعة على مدى سنين أربع ، وكان الظلام يغشى عقله أكثر فأكثر كلما مضى فيه . وقد رجت المقدمة القارىء أن يقرأ الحوارات الثلاثة قراءة دقيقة شاملة ، « انظر إلى هذا التفضل الذى يطلبه منك قلب أثقله الحزن على أنه دين انصاف تفرضه السماء عليك »[٦١] . وقد اعترف بما يشوب الكتاب من « إسهاب مفرط وتكرار ، وحشو ، وفوضى »[٦٥] ، غير أن مؤامرة اتصلت خمسة عشر عاماً — فيما زعم — للنيل من سمعته ، ولا بد أن يبرىء نفسه قبل أن يموت . وقد نفى وجود أى تضارب بين فردية « الأحاديث » وجماعية » العقد الاجتماعى » ، وذكر قراءه أنه لم يرغب قط فى أن يقضى على العلوم والفنون ويرتد إلى الهمجية . ووصف مؤلفاته — لا سيما « جولى » و « أميل » — بأنها غنية فى الفضيلة والحنان ، وتساءل كيف يمكن أن يؤلف مثل هذه الكتب فاسق أنهكه المرض كما صوره المنتقصون من قدره[٦٣] . واتهم أعداءه بأنهم أحرقوا دمية تصوره ، وبأنهم ألفوا السرينادات عنه للهزء به[٦٤] وشكا من أنهم ، حتى الآن ، يراقبون كل زواره ويحرضون جيرانه على إهانته[٦٥] . ثم كرر قصة ميلاده ، وأسرته ، وصباه ، ووصف رقة خلقه ونزاهته ، ولكنه اعترف بما فيه من كسل ، و « ميل إلى أحلام اليقظة »[٦٦] ، ونزوع إلى أن يخلق فى جولاته منفرداً عالماً وهمياً يستطيع أن يسعد فيه ولو للحظة . وعزى نفسه بهذه النبوءة « أنا واثق من أنه سيأتى يوم يبارك فيه الناس الطيبون الشرفاء ذكراى ويبكون على مصيرى »[٦٧] .

ثم أضاف إلى الحوار الأخير فصلا عنوانه « تاريخ هذا الكتاب» ذكر فيه كيف أنه لكى يلفت نظر باريس وفرساى لكتابه اعتزم أن يودع نسخة من المخطوط ، موجهة إلى العناية الإلهية ، على المذبح الأعلى فى كتدرائية نوتردام . وقد حاول هذا فى ٢٤ فبراير ١٧٧٦ ، فلما وجد المذبح مسدوداً بدرابزين ، حاول الدخول إليه من جانبيه ، فلما وجدهما مقفلين أصابه دوار ، وخرج عدواً من الكنيسة ، وراح يضرب على غير هدى ساعات

فى الشوارع فى شبه هذيان قبل أن يبلغ مسكنه »[٦٨]. ثم كتب نداء للشعب الفرنسى عنوانه « إلى جميع الفرنسيين الذين ما زالوا يعشقون العدل والحق » ونسخ صوراً منه على إعلانات وزعها على المارة فى الشوارع . وقد رفضه العديد منهم قائلين أنه ليس موجهاً إليهم [٦٩] . فأقلع عن محاولاته ، واستسلم للهزيمة .

وهدأت الآن ثائرته بعد أن راض نفسه على الإذعان . وكتب فى هذه الفترة (١٧٧٧ — ٧٨) أجمل كتبه « أحلام جواب منفرد » فروى كيف أن أهل موتييه رفضوه وحصبوا بيته ، وكيف اعتكف فى الأيل دسان تبيير فى بحيرة بيين . وهناك وجد السعادة ، ثم راح — بعد أن استرجع ذكرى تلك الخلوة — يصور المياه الهادئة ، والجداول المتدفقة ، والجزيرة تغطيها الخضرة ، والسماء الكثيرة الصور والأشكال . وقد عزف على نغمة رومانسية جديدة بالماعه إلى أن الروح المتأملة قد تجد دائماً فى الطبيعة شيئاً يستجيب لمزاجها . ونحن نسأل أنفسنا حين نقرأ تلك الصفحات ، أيستطيع رجل نصف مجنون أن يكتب بهذا الإتقاق ، وبهذا الوضوح ، وأحياناً بهذا الهدوء والصفاء ؟ ولكن الشكاوى القديمة تعود إلى الظهور ، وينوح روسو من جديد لأنه نبذ أطفاله ، وأنه لم يؤت الشجاعة البسيطة التى تمكنه من تربية أبنائه . وقد رأى طفلا يلعب ، فعاد إلى حجرته و « بكى وكفر عن ذنبـــه »[٧٠] .

فى تلك السنين الأخيرة التى قضاها فى باريس كان ينظر بعين الحسد إلى ذلك الإيمان الدينى الذى سما بحياة العامة من الناس المحيطين به إلى مسرحية من الموت والبعث . وكان أحياناً يختلف إلى خدمات الصلاة الكاثوليكية . وقد زار ديراً مع بزناردان دسان — بيير ، وسمع الرهبان يتلون ابتهالا فقال « آه ؛ ما أسعد الإنسان الذى يستطيع أن يؤمن »[٧١] . إنه لم يستطع أن يؤمن [٧٢] ، ولكنه حاول أن يسلك كمسيحى ، يتصـــدق ، ويفتقد المرضى ويواسيهم[٧٣] . وقـــد قرأ وكتب حواشى على كتاب توماس أكمبيس « الاقتداء بالمسيح » .

ثم خف إحساسه بالمرارة فى نفسه بدنو أجله . وحين وصل فولتير

إلى باريس فانهالت عليه أسباب التكريم ، شعر روسو بالغيرة منه ولكنه تكلم بخير عن عدوه القديم . ووبخ أحد معارفه الذى سخر من تتويج فولتير فى التياتر — فرانسيه فقال : « كيف تجرؤ على السخرية من التكريم الذى بذل لفولتير فى الهيكل الذى هو ربه ، وبيد الكهان الذين ظلوا خمسين سنة يعيشون على روائعه ؟ »[٧٤]. ولما سمع بأن فولتير يحتضر قال متنبئاً « كانت حياتانا مرتبطتين الواحدة بالأخرى ، ولن يطول عمرى بعده »[٧٥].

وحين بدأ ربيع ١٧٧٨ يزهر طلب بيتاً فى الريف ، فدعاه المركيز رينيه دجيراردان ليسكن كوخاً على مقربة من قصره الريفى فى ارمينونفيل ، على نحو ثلاثين ميلا من باريس . وذهب إليه جان — جاك وتريز فى ٢٠ مايو ، وهناك راح يجمع العينات النباتية ويعلم النبات لابن المركيز البالغ من العمر عشر سنين . وفى أول يوليو تعشى بشهية مع أسرة مضيفه . وفى صباح الغد أصيب بالنقطة ووقع على الأرض . فرفعته تريز إلى فراشه ، ولكنه وقع منه ، واصطدم بالأرض المبلطة صدمة حادة أحدثت قطعاً فى رأسه تدفق منه الدم ، وصرخت تريز مستغيثة ، فحضر المركيز ، ووجد أن روسو قد فاضت روحه .

ولا حقته الافتراءات إلى النهاية . فأذاع جريم وغيره القصة التى زعمت أن روسوا انتحر . وأضافت مدام دستال فيما بعد أنه قتل نفسه حزناً حين اكتشف خيانة تريز . وفاقت هذه القصة غيرها قسوة ، لأن تعقيب تريز عقب موته بقليل كشف عن حبها له . قالت « إن لم يكن زوجى قديساً فمن يستطيع أن يكون ؟ » ووصف غير ذلك من الشائعات روسو بأنه مات مجنوناً ، ولكن كل الذين كانوا معه فى أيامه الأخيرة تلك وصفوه بالهدوء والصفاء .

وفى ٤ يوليو ١٧٧٨ ووری الثرى فى جزيرة الحور فى بركة صغيرة على ضيعة جيراردان . وظلت جزيرة الحور هذه طويلاً كعبة يحج إليها الأتقياء ، فأمها المجتمع العصرى كله — حتى الملكة — للصلاة على قبر روسو . وفى ١١ أكتوبر ١٧٩٤ نقل رفاته إلى البانتيون حيث ثوى إلى جوار رفات فولتير .

ومن ذلك المرفأ الذى نعما فيه بسلام الجوار نهضت روحاهما لتجددا حربهما في سبيل الثورة ، وفرنسا ، والإنسان الغربي .

ب — تأثير روسو

وهكذا ننتهى كما بدأنا بالتأمل المعزز بالدليل الآن ، فى ذلك الأثر الذى لايصدق ، والذى خلفه روسو فى أدب القرن الذى بدأ بموته ، وفى بيداجوجيته وفلسفته ، ودينه ، وأخلاقه ، وعاداته ، وفنه ، وسياسته . والكثير مما كتب يبدو اليوم أن فيه غلواً ، أو إسرافاً فى العاطفة ، أو سخفاً ، و«الاعترافات» و «أحلام اليقظة » فقط هما اللذان يحركان مشاعرنا ، ولكن حتى الأمس كانت كل كلمة من كلماته تسمع فى ميدان أو آخر من ميادين الفكر الأوربى أو الأمريكى . إن روسو كما قالت مدام دستال « لم يخترع شيئاً ، ولكنه أشعل النار فى كل شيء »[٧٦] .

فأول شيء بالطبع هو أنه كان بمكانة الأم من الحركة الرومانتيكية . وقد رأينا غيره كثيرين يبذرون بذرتها . « طومسن ، وكولنز ، وجراى ، ورتشردسن ، وبريفو ، والمسيحية ذاتها ، التى يعد لاهوتها وفنها أعجب ضروب الرومانس قاطبة . ولكن روسو أنضج البذار فى مستنبت عواطفه الدافىء . وأسلم لنا الثمرة مكتملة النمو خصبة منذ موالدها ، فى « الأحاديث : و « العقد الاجتماعى» و « اميل » و « الاعترافات » .

ولكن ما الذى سنعنيه بالحركة الرومانتيكية ؟ تمرد الوجدان على الفكر ، والغريزة على العقل ، والعاطفة على الحكم ، والذات على الموضوع ، والنزعة الذاتية على الموضوعية ، والوحدة على التجمع ، والخيال على الواقع ، والخرافة والأسطورة على التاريخ ، والدين على العلم ، والتصوف على الشعائر ، والشعر والنثر الشعرى على النثر والشعر النثرى ، والفن القوطى المحدث على الكلاسيكى المحدث ، والأنثوى على الرجولى ، والحب الرومانسى على زواج المصلحة ، و « الطبيعة » و « الطبيعى » على المدنية والتكلف ، والتعبير العاطفى على الضوابط العرفية ، والحرية الفردية على النظام الاجتماعى ، وتمرد الشباب على السلطة ، والديمقراطية على الأرستقراطية ، والإنسان فى

مواجهة الدولة — وبإختصار ، تمرد القرن التاسع عشر على الثامن عشر ، أو بعبارة أكثر تحديداً . الفترة ١٧٦٠ — ١٨٥٩ على ١٦٤٨ — ١٧٦٠ : هذه كلها أمواج للمد الرومانتيكى العظيم الذى اكتسح أوربا فيما بين روسو وداروين .

ولقد وجد كل من هذه العناصر تقريباً فى روسو تعبيراً وتأييداً . ووجد بعض الدعم فى حاجات العصر وروحه . ذلك أن فرنسا كانت قد ماتت الفكر الكلاسيكى والانضباط الأرستقراطى . فأتاح تمجيد روسو للوجدان تحرراً للغرائز المكبوته ، والعاطفة المكظومة ، والأفراد والطبقات المظلومة . وأصبحت « الاعترافات » كتاب الوجدان المقدس كما كانت « الموسوعة » العهد الجديد لعصر العقل . ولا يعنى هذا أن روسو رفض العقل ، فهو على العكس وصفه بأنه عطية إلهية ، وقبله حكماً نهائياً [٧٧] ؛ ولكنه أحس أن نوره البارد فى حاجة إلى دفء القلب ليلهم العمل والعظمة والفضيلة . وأصبحت « الحساسية » شعار النساء والرجال . وتعلم النساء الأغماء ، والرجال البكاء ، بأسرع من ذى قبل . وتذبذبوا بين الفرح والحزن ، ومزجوا الإثنين فى دموعهم .

وقد بدأت الثورة « الروسوية » على صدور الأمهات . هاتيك الصدور التى آن الآن أوان تحريرها من عقال المشدات ، على أن هذا الجانب من الثورة كان أصعب جوانبها ، ولم يعقد له النصر إلا بعد أكثر من قرن تراوح فيه الحبس والإفراج . وبعد نشر « اميل » أرضعت الأمهات الفرنسيات أطفالهن ، حتى فى دار الأوبرا ، وفيما بين الألحان[٧٨] . وأطلق الطفـــل من سجن أقمطته ، وقام أبواه على تربيته بأنفسهم . فإذا التحق بالمدرسة حظى بالتعليم « على طريقة روسو » فى سويسره أكثر منه فى فرنسا ، ولما كانت النظرة للإنسان الآن تعده خيراً بطبيعته ، فإن التلميذ وجب أن ينظر إليه لا على أنه عفريت صغير مشاكس بل ملاك رغباته هى صوت الله . ولم تعد حواسه تدان لأنها أدوات الشيطان ؛ بل تعد أبواباً للخبرات المنيرة ولمئات المباهج البريئة . ووفقاً للنظرة الجديدة لا تعود حجرات الدرس سجوناً . أما التعليم فيجب أن يجعل طبيعياً وساراً بتفتيح حب الاستطلاع

والقوى الفطرية وتشجيعها . وأما حشو الذاكرة بالحقائق ، وخنق الفكر بالعقائد القطعية ، فيجب أن يحل محلهما التدريب على فنون الإدراك الحسى ، والحساب ، والتفكير . ويجب أن يتعلم الأطفال من الأشياء لا من الكتب كلما أمكن — من النبات فى الحقل ، والصخور فى التربة ، والغيوم والنجوم فى السماء . وقد حفز التحمس لأفكار روسو التربوية بستالوتزى ولافاتير فى سويسره ، وبازدوف فى المانيا ، وماريا مونتسورى فى إيطاليا ، وجون ديوى فى أمريكا ؛ و « التربية التقدمية » هى جزء من تراث روسو . وقد أنشأ فريدرش فروبل نظام رياض الأطفال فى ألمانيا ، ومنها انتشر فى العالم الغربى طولا وعرضاً .

ثم أدركت الفن نفحة من الإلهام الروسوى . فقد أثر تمجيد الطفولة فى جروز ومدام فيجيه — لبرون ، وعكست لوحات الفنانين من المدرسة السابقة — للرفائيليين فى انجلتره تمجيد العاطفة والغموض . وأعمق من هذا أثر روسو فى الأخلاق والسلوك . فطرأ المزيد من دفء الصداقة ووفائها ، ومن التضحيات والاهتمامات المتبادلة . واقتنص الحب الرومانسى الأدب وشق طريقه إلى الحياة . واستطاع الأزواج الآن أن يحبوا زوجاتهم دون هزء بالتقاليد ؛ واستطاع الآباء أن يحبوا أبناءهم ، وأصلح ما فسد من الأسرة ، « كان الناس يغضون عن الخيانة الزوجية ، أما روسو فقد جرؤ على اعتبارها جريمة »[٧٩]. صحيح أنها استمرت ، ولكنها لم تعد أمراً لاغنى عنه . وحل محل الإعجاب الأعمى بالحظيات الشفقة على المومسات . وقاوم احتقار العرف طغيان الأتيكيت . وارتفعت سمعة الفضائل البورجوازية ، كالاجتهاد ، والاقتصاد ، وبساطة العادات واللباس . وعما قليل ستطيل فرنسا « الكيلوت » (السراويل القصيرة) إلى سراويل طويلة وتصبح « صان — كيلوت» (متطرفة) فى زيها كما هى فى سياستها . وقد ساهم روسو مع البستنة الانجليزية فى تغيير الحدائق الفرنسية من رتابة طراز النهضة إلى المنحنيات الرومانتيكية والأركان الفجائية ، وأحياناً إلى فوضى برية و « طبيعة » . وانطلق الرجال والنساء من المدينة إلى الريف ، وزاوجوا

بين حالات الطبيعة وحالاتهم النفسية وتسلق الرجال الجبال ؛ والتمس الرجل منهم الوحدة ودلل « أنا » .

واستسلم الأدب بجملته تقريباً لروسو والموجة الرومانتيكية ، فغمر جوته بطله « فوتر » فى فيض من الحب ، والطبيعـــة ، والعبرات (١٧٧٤) ، وجعـــل بطله فاوست يختزل نصف روسو فى كلمات ثلاث « الوجدان هو الكل » . قال فى ١٧٨٧ مسترجعاً ذكرياته «كان لكتاب اميل وماحوى من عواطف تأثير شامل على العقل المثقف »[٨٠] وأكد شيلر التمرد على القانون فى « اللصوص » (١٧٨١) ، وحيا روسو محرراً وشهيداً ، وقارن بينه وبين سقراط[٨١] . وصاح هردر فى مرحلة مماثلة من مراحل تطوره « تعالى يا روسو وكن لى مرشداً »[٨٢]. وأعانت بلاغة روسو على تحرير الشعر والمسرحية الفرنسيين من قواعد بوالو ، وتقليد كورنيى وراسين ، وقيود الأسلوب الكلاسيكى الصارمة . وقد أبدع برناردان دسان — بيير ، وهو تلميذ متحمس لروسو ، رائعة رومانسية فى « بول وفرجينى » (١٧٨٤) . وانتصر تأثير جان — جاك الأدبى بعد الفاصل النابليونى فى أشخاص شاتوبريان ، ولامارتين ، وموسيه ، وفينى ، وهوجو ، وجوتييه ، وميشليه ، وجورج صاند . وقد أنجب هذا التأثير جيلا من الاعترافات ، وأحلام اليقظة ، وقصص العاطفة أو الغرام ، وحبذ تصور العبقرية على أنها فطرية لا تعرف قانوناً ، وأنها القاهرة للتقليد والتقييد ، فحرك فى إيطاليا ليوباردى ، وفى روسيا بوشكن وتولستوى ، وفى انجلتره وردزورث ، وصذى ، وكولردج ، وبايرون ، وشلى ، وكيتس ، وفى أمريكا هوثورن وثورو .

ونصف فلسفة القرن المحصورين « هلويز الجديدة » (١٧٦١) وكتاب داروين « أصل الأنواع » (١٨٥٩) يلونه تمرد روسو على عقلانية حركة التنوير . والواقع أن روسو كان قد أعرب من قبل فى رسالة وجهها عام ١٧٥١ إلى بورد عن احتقاره للفلسفة[٨٣] ، وأقام احتقاره هذا على عجز العقل فى زعمه عن تعليم الفضيلة للناس . فالعقل يبدو أنه بغير حس أخلاقى ، وهو يناضل للدفاع عن أى رغبة مهما كانت فاسدة إذن فالحاجة إلى شىء

آخر — إلى وعى فطرى بالصواب والخطأ ، وحتى هذا الوعى لا بد من أن يدفئه الوجدان إن أريد منه أن يولد الفضيلة ، وأن ينجب رجلا فاضلا لا آلة حسابية ماهرة .

وهذا بالطبع كلام قاله بسكال من قبل ، ولكن بسكال كان قد رفضه فولتير ، وفى ألمانيا كانت « عقلانية » فولف فى صعود فى الجامعات . وحين أصبح إيمانويل كانط أستاذاً فى كونجزبرج كان قد اقتنع بما قاله هيوم وجماعة الفلاسفة الفرنسيين من أن العقل وحده لا يمكنه أن يقدم الدفاع الكافى حتى عن أساسيات اللاهوت المسيحى . ولكنه وجد فى روسو سبيلا لإنقاذ تلك الأساسيات : هى أن تنكر مفعول العقل فى العالم فوق الحسى ، وتؤكد استقلال الفكر ، وأولوية الإرادة ، والقوة المطلقة للضمير الفطرى ؛ وتستنبط حرية الإرادة ، وخلود النفس ، ووجود الله ، من شعور الإنسان بالتزام غير مشروط بالقانون الأخلاقى . وقد أقر كانط بدينه لروسو ، وعلق صورته على جدار مكتبه ، ونادى به « نيوتنا » للعالم الأخلاقى[٨٤] . وشعر ألمان آخرون بروح روسو تتقمصهم : ياكوبى فى فلسفة الوجدان ، وشلايرماخر فى تصوفه الدقيق النسيج ، وشوبنهاور فى تمجيده للإرادة . وتاريخ الفلسفة منذ كانط صراع بين روسو وفولتير .

أما الدين فقد بدأ بتحريم روسو ، ثم انتقل إلى استخدامه منقذاً له . وأجمع القادة البروتستنت والكاثوليك على تكفيره ، ووضع على صعيد واحد مع فولتير وبيل بوصفهم رجالا « يبثون سموم الضلالة والفسوق »[٨٥] . ومع ذلك فحتى فى حياة روسو وجد نفر من رجال الدين والعلمانيين راحة وعزاء حين سمعوا أن قسيس سافوا قد قبل بتحمس العقائد الجوهرية للمسيحية ، وأنه نصح الشكاك بأن يثوبوا إلى إيمانهم الأصيل . وحين فر روسو من سويسره عام ١٧٦٥ رحب به أسقف ستراسبورج ، وبعد أن عاد من انجلتره وجد بعض الكاثوليك الفرنسيين يستشهدون بأقواله شاكرين فى ردهم على غير المؤمنين ، وتراودهم الآمال فى هدايته الظافرة .

وقد حاول منظرو الثورة الفرنسية إقامة أخلاقية مستقلة عن العقائد

الدينية ؛ على أن روبسبيير فى اقتدائه بروسو أقلع عن هذه المحاولة لفشلها ، والتمس قوة تأييد المعتقدات الدينية فى صيانة النظام الأخلاقى والمضمون الاجتماعى ، وأدان جماعة الفلاسفة لأنهم رفضوا الله وأبقوا على الملوك ؛ أما روسو (فى رأى روبسبيير) فقد ارتفع فوق هامات هؤلاء الجبناء ، وهاجم جميع الملوك بشجاعة وجاهر بالدفاع عن الله والخلود[٨٦] .

وفى ١٧٩٣ بلغ تراثا فولتير وروسو المتنافسان مرحلة الحسم فى الصراع بين جاك — رينيه إيبير ومكسمليان روبسبيير . فأما إيبير ، أحد قادة كومون باريس ، فقد اتبع العقلانية الفولتيرية ، وشجع انتهاك حرمات الكنائس ، وأقام العبادة العلنية لألاهة العقل (١٧٩٣) . وأما روبسبيير فكان قد رأى روسو أثناء مقام هذا الفيلسوف آخر مرة فى باريس . وقال مناجياً جان — جاك « إيه أيها القديس ! . . . لقد تطلعت إلى محياك المهيب . . وفهمت كل أحزان حياة نبيلة كرست نفسها لعبادة الحق »[٨٧] . وحين تقلد روبسبيير زمام السلطة أقنع المؤتمر الوطنى بتبنى « اعلان الإيمان » الذى دان به قسيس سافوا ديناً رسمياً للأمة الفرنسية . وفى مايو ١٧٩٤ افتتح مهرجان الكائن الأعظم إحياء لذكرى روسو . وحين أرسل إيبير وغيره إلى الجيلوتين بتهمة الإلحاد ، شعر بأنه يتبع نصائح روسو بحذافيرها . ووافق نابليون اللا أدرى روبسبيير على الحاجة إلى الدين . وأعاد وضع الحكومة الفرنسية فى جانب الله (١٨٠٢) . ثم أعيدت الكنيسة الكاثوليكية إعادة كاملة بعودة الملكية البوربونية الفرنسية (١٨١٤) وكسبت أقلام شاتوبريان ، ودميتر ، ولامارتين ، ولامنية القوية . ولكن الإيمان القديم اتكأ الآن أكثر فأكثر على حقوق الوجدان لا على حجج اللاهوت ، فحارب فولتير وديدرو بپسكال وروسو . وازدهرت من جديد تلك المسيحية التى بدت محتضرة فى ١٧٦٠ — فى انجلترة الفكتورية وفرنسا فى عهد عودة الملكية .

ونحن الآن فقط — من الناحية السياسية — نخرج من عصر روسو ، وأول علامة على تأثيره السياسى كانت فى موجة التعاطف العام الذى أيد المعونة الفرنسية الفعالة للثورة الفرنسية . وقد اقتبس جفرسن إعلان الاستقلال من روسو كما اقتبسه من لوك ومونتسكيو ، واستوعب الكثير من كل من

فولتير وروسو حين كان سفيراً لدى فرنسا (١٧٨٥ — ٨٩) ، وردد صدى جان — جاك فى افتراضه أن هنود أمريكا الشمالية « يتمتعون فى جملتهم بقدر من السعادة يفوق بمراحل أولئك الذين يعيشون فى ظل الحكومات الأوربية »[٨٨] . وقد رفع نجاح الثورة الأمريكية مكانة فلسفة روسو السياسية .

وتزعم مدام دستال أن نابليون عزا الثورة الفرنسية إلى روسو أكثر من أى كاتب آخر[٨٩] . وقد ذهب إدمند بيرك إلى أن فى الجمعية التأسيسية للثورة الفرنسية (١٧٨٩—٩١) خلافاً كبيراً بين زعمائهم على أيهم أقرب شبهاً بروسو . والحق أنهم جميعاً يشبهونه . . . فإياه يدرسون ، وإياه يتأملون ، وإليه يرجعون فى كل الوقت الذى يستطيعون اقتناصه من شرورهم المجهدة نهاراً أو فجورهم وعربدتهم ليلا . فروسو هو كاهن كتابهم المقدس . . . وله يقيمون أول تماثيلهم[٩٠] .

وفى ١٧٩٩ استعاد ماليه دويان إلى الأذهان أن « روسو كان له قراء من الطبقتين الوسطى والدنيا أكثر مائة مرة مما لفولتير . فهو وحده الذى لقح الفرنسيين بعقيدة سيادة الشعب . . . ومن الصعب ذكر ثورى واحد لم ينتشى بهذه النظريات الفوضوية ولم يشتعل بغيرة تحقيقها . . . وقد سمعت مارا فى ١٧٨٨ يقرأ « العقد الاجتماعى » ويعلق عليه فى الشوارع العامة ، فيقابله السامعون المتحمسون بالتصفيق » . . .[٩١] .

واستشهد الخطباء فى طول فرنسا وعرضها بأقوال روسو فى التبشير بسيادة الشعب ؛ وبعض الفضل فى استطاعة الثورة أن تعيش عقداً من الزمان الزمان رغم خصومها وشططها راجع إلى الترحيب العارم الذى لقيته هذه العقيدة .

وقد اتصل تأثير روسو فى السياسة طوال تقلبات الثورات والرجعية . وبسبب تناقضاته ، وبسبب القوة والحماسة اللتين بشر بهذه التناقضات بهما ، وجد فيه الفوضويون والاشتراكيون على السواء نبياً وقديساً ؛ ذلك لأن كلتا

الدعوتين المتعارضتين وجدتا غذاء فى إدانته الأغنياء وعطفه على الفقراء . وقد ألهمت النزعة الفردية التى اتسمت بها أول «الأحاديث» ورفضه «المدينة» الثوار من بين ، وجودوين ، وشلى ، إلى تولستوى وكرويوتكين وادورد كاربنتر . قال تولستوى «كنت وأنا فى الخامسة عشرة أحيط عنقى بمدالية عليها صورة روسو بدلا من الصليب المعتاد »[٩٢] . وقد وفرت عقيدة المساواة ، التى بشر بها ثانى « الأحاديث » موضوعاً أساسياً لضروب منوعه من النظرية الاشتراكية ، من « جراكوس » بابوف وشارل فورييه وكارل ماركس إلى نيقولاى لينين . يقول جوستاف لانسون «كان كل تقدم أحرز طوال قرن من الزمان فى الديمقراطية ، والمساواة ، وحق التصويت للجميع ، وكل دعاوى الأحزاب المتطرفة التى قد نكون موجة المستقبل ، والحرب على الثراء والملكية ، وكل الحركات المحرضة للجماهير الكادحة المعانية ، كل أولئك كان ، من بعض النواحى ، من عمل روسو »[٩٣] أنه لم يخاطب المثقفين والكبار بالمنطق والحجة ، بل تكلم إلى الشعب كله بشعور وحماسة فى لغة يستطيعون فهمها ، وكانت حرارة بيانه ، فى السياسة كما فى الأدب ، أقوى من سلطان قلم فولتير .

٣ — لحن سير جنائزى

بعد أن رأى ديدرو فولتير عام ١٧٧٨ سأل صديقاً « لم يتحتم أن يموت؟ »[٩٤]. ولقد بدا لحن السير الجنائزى الذى شيعت به جماعة الفلاسفة ، من موت هلفتيوس فى ١٧٧١ إلى موت موريلليه فى ١٨١٩ ، كأنه تعليق ساخر على الغرور والخيلاء ، ولكنا قد نتساءل أيضاً لم طال عمر بعض هؤلاء الرجال طولا جر معه كل آلام الشيخوخة وهوانها .

وقد مات المحظوظون منهم قبل الثورة ، تعزيهم ماثة أمارة على أن أفكارهم وشيكة الانتصار فقضى كوندياك فى ١٧٨٩ ، وطورجو فى ١٧٨١ . أما دالامبير فقد مد فى أجله على كره منه بعد موت الآنسة دلسبيناس . وكانت قد أودعته أوراقها ، ووضح منها أنها فى السنين الإثنتى عشرة الأخيرة من حياتها منحت حبها لمورا أوجيبير ، ولم تترك له غير

صداقة يشوبها الضيق أحياناً . قال كوندورسيه لطورجو « ان دالامبير مطعون طعنه نجلاء ، وكل ما أرجوه له الآن أن تكون حياته محتملة »[٩٥] . وقد عاد إلى دراساته ، ولكنه لم يكتب بعدها شيئاً ذا بال . وكان يختلف إلى بعض الصالونات ولكن الحياة انطفأت من حديثه الذى كان يوماً ما ألمعياً ، وقد رفض الاستجابة لدعوة فردريك إلى بوتسدام ، ودعوة كاترين إلى سانت بطرسبورج . وكتب إلى فردريك يقول : « انني أشعر كأنني رجل تنبسط أمامه صحراء شاسعة تنتهى بهاوية الموت ؛ ولا أمل له فى لقاء إنسان واحد يحزن إن رآه يسقط فيها ، أو يفكر فيه مرة أخرى بعد أن يختفى »[٩٦] .

وكان فى هذا مخطئاً ، فقد اهتم به كثيرون ، ولو أولئك الذين كان يمدهم ببعض دخله بانتظام . ذلك أن هيوم أوصى لدالامبير بمائتى جنيه[٩٧] وهو واثق أنه سيوزع هذا المبلغ . ومع أنه كان يتقاضى مختلف المعاشات ، فقد عاش عيشة بسيطة إلى النهاية ، و ١٧٨٣ أصيب هو وديدرو بأمراض خطيرة — فأصيب ديدرو بذات الجنب ، ودالامبير باضطراب فى المثانة . وشفى ديدرو ، أما دالامبير فقضى نحبه (٢٩ أكتوبر ١٧٨٣) بالغاً من العمر سبعة وستين عاما .

وكان ديدرو قد عاد من مغامرته الروسية فى أكتوبر ١٧٧٤ . وقد أضناه طول السفر فى مركبة حبست حركته ، ولكنه تنبأ صادقاً بأن « القدر يخبىء له عشر سنين أخر فى جرابه »[٩٨] . ثم عكف على « خطة لإنشاء جامعة لحكومة روسيا » (لم تنشر حتى ١٨٠٣) ، وقد دعا للاهتمام الأشد بالعلم والتكنولوجيا ، ووضع اليونانية واللاتينية والأدب فى نهاية القائمة تقريباً ، وبين الطائفتين الفلسفة فسبق بذلك التطورات التربوية بمائة وخمسين عاما . وفى ١٧٧٨ بدأ « مقالا عن عهدى كلوديوس ونيرون ، وعن حياة سنكا ومؤلفاته » . واستطرد فى هذا المقال ليرجو الأمريكيين المنتصرين فى جمهوريتهم الجديدة أن « يمنعوا الزيادة الهائلة والتوزيع غير المتكافىء للثروة والترف ، والتبطل وفساد الأخلاق »[٩٩]. وفى القسم المخصص لسنكا

أفسح مكاناً للدفاع الحار عن جريم ومدام دبينيه وعن نفسه ضد التهم التى رماهم بها روسو فى قراءاته العلنية لاعترافاته ، قال :

« إذا صدر يوماً ما ، نتيجة جنوح المؤلف دائماً للاغراب والشذوذ ، كتاب يمزق فيه الشرفاء اربا بقلم وغد خبيث... فانظروا إلى الأمام واسألوا أنفسكم هل . . . يجدر بنا أن نصدق رجلا وقحاً . . . اعترف بألف فعل شرير . فماذا يكلف الافتراء رجلا كهذا — وماذا تضيف جريمة كثيراً أو قليلا للفساد الخلقى المستتر لحياة تتخفى طوال أكثر من خمسين عاماً وراء أصفق أقنعة الرياء ؟ . . . فسحقاً للعاق الذى يذم من أحسنوا إليه ؛ سحقاً للرجل الأثيم الذى لا يحجم عن تشويه سمعة أصدقائه القدامى ؛ وسحقاً للجبان الذى يخلف فوق قبره كشف الأسرار التى أؤتمن عليها . . أما عن شخصى ، فأقسم أن عينى لن تتلوثا أبداً بقراءة كتابه ، وانى أوكد أنى أوثر أن يسبنى عن أن يمدحنى (١٠٠) .

وفى ١٧٨٣ ماتت مدام دبينيه . وأحس ديدرو بهذه الخسارة إحساساً عميقاً ، لأنه كان يستمتع بصداقتها وندوتها . وكان جريم ودولباخ على قيد الحياة ، ولكن علاقاته بهما كانت فاتره ، وكان الثلاثة ينحدرون إلى الأنانية الضيقة التى تصحب الشيخوخة ، وكل ماكان فى استطاعتهم تبادله من حديث كان آلامهم . أما تشكيلة الأمراض التى شكا منها ديدرو فكان منها التهاب الكلية والتهاب المعدة ، وحصى المرارة ، والتهاب الرئتين ؛ ولم يعد فى قدرته صعود السلم من مسكنه فى الطابق الرابع إلى مكتبته فى الطابق الخامس ، وشعر الآن أنه محظوظ لأن له زوجة ، وكان قد اختزل خياناته الزوجية إلى ذكريات حزينة ، وأبلت هى حصيلتها من الكلام ، وهكذا عاشا فى سلام الإعياء المشترك .

وفى ١٧٨٤ مرض مرضاً خطيراً . وحاول كاهن سان — سولبيس الذى فشل من قبل مع فولتير أن يكفر عن تقصيره برد ديدرو إلى حظيرة الإيمان ، فزاره ، وتوسل إليه أن يرجع إلى الكنيسة ، وأنذره بأنه ما لم يتناول الأسرار المقدسة فإنه لن يحظى بدفنه فى جبانة عامة ، وأجاب ديدرو ،

« انى أفهمك ياسيدى الكاهن . فلقد رفضتم دفن فولتير لأنه لم يؤمن بلاهوت الإبن . حسناً ، انهم يستطيعون دفني حين أموت فى أى مكان يشاءون ، ولكنى أعلن أننى لا أومن لا بالآب ولا بالروح القدس ولا بأى واحد فى الأسرة »[١٠١] .

وحين سمعت الإمبراطورة كاترين بأوصابه ، وفرت للى ولزوجته جناحاً فاخراً فى شارع ريشليو . وانتقلا إليه حوالى ١٨ يوليو . وابتسم حين رأى الأثاث الجديد يحمل إليه ، وقال إن فى استطاعته أن يستعمله بضعة أيام لا أكثر . وقد استعمله أقل من أسبوعين . وفى ٣١ يوليو ١٧٨٤ تناول وجبة شهية ، فأصابته جلطة تاجية ، ومات وهو على المائدة بالغاً الحادية والسبعين . وأقنعت زوجته وصهره كاهناً محلياً بالصلاة فى الكنيسة على جثمانه رغم إلحاده المشهور . ودفن فى كنيسة سان — روش ، ثم اختفى منها على نحو غامض فى تاريخ غير معروف .

وواصل الموكب سيرته . فمات ما بليه فى ١٧٨٥ ، وبوفون فى ١٧٨٨ ، ودولباخ فى ١٧٨٩ أما رينال فقد عمر إلى ما بعد الثورة كما رأينا ، وأدان جرائمها الوحشية ، وفاجأ نفسه بالموت ميتة طبيعية (١٧٩٦) . وأما جريم فقد قابل كل لطمات الحظ بصبر تيوتونى . ففى ١٧٧٥ رقاه يوزف الثانى بارونا من بارونات الامبراطورية الرومانية المقدسة . وفى ١٧٧٦ عينه دوق ساكسى — جوتا سفيراً لدى فرنسا . وأكثر « الرسائل الأدبية » كان يقوم بتحريرها بعد ١٧٧٢ سكرتيره ياكوب ما يستر ، ولكن جريم شارك بمقالات لاذعة فى الأدب ، والفن ، والدين ، والأخلاق ، والسياسة ، والفلسفة . وكان الشاك الوحيد الممعن فى شكوكيته بين جماعة الفلاسفة ، لأنه تشكك أيضاً فى الفلسفة والعقل والتقدم . وبينا كان دويدور ونفر من فريق المؤمنين يتطلعون إلى الأجيال القادمة بأحلام الطوبى تنعكس فى أعينهم ، قال جريم أن هذا سراب قديم العهد جداً ، « وهم تحدر من جيل إلى جيل » ، وقد لاحظنا نبوءته عام ١٧٥٧ بنشوب « ثورة قاضية »[١٠٢] وشيكاً فلما جاءت الثورة وكانت سفاكة للدماء ، عاد إلى وطنه الأصلى ألمانيا وأقام فى جوتا

(١٧٩٣) وخففت كاترين من فقره وعينته سفيراً لها فى همبورج (١٧٩٦) فلما ماتت ولية نعمته الأمبراطورة ذهب ليعيش مع املى بلزونس ، حفيدة حبيبته مدام دبينيه . وعمر حتى ١٨٠٧ ، وعاش هذه الحقبة أولا على ذكريات تلك الأيام المثيرة التى كان فيها فكر فرنسا يقود أوربا إلى حافة شاهقة هى حافة الحرية .

: — خاتم الفلاسفة الفرنسيين

ولد جان — أنطوان — نيقولا كاريتا ، مركيز كوندورسيه ، وحفيد أسرة عريقة فى دوفينيه ، فى بيكاردى (١٧٤٣) ، وتلقى تعليمه على اليسوعيين فى رامس وباريس ، وظل سنين طويلة لا يفكر إلا فى أن يكون رياضياً كبيراً . وحين بلغ السادسة والعشرين أنتخب عضواً فى أكاديمية العلوم . وحين أصبح فيها بعد سكرتيراً دائماً لها ، كتب التأبينات للأعضاء الراحلين ، كما فعل فونتينيل للأكاديمية الفرنسية . وقد أحب فولتير هذه التأبينات التذكارية كثيراً حتى أنه قال لكوندورسيه : « إن الجمهور يتمنى أن يموت أكاديمى كل أسبوع أو نحوه حتى تتاح لك فرصة الكتابة عنه »[١٠٣]. وقد زار فولتير فى فرنيه (١٧٧٠) ، وعلق على طبعة تنظم أعمال فولتير نشرها بومارشيه ، وكتب لها مقدمة حارة بعنوان « حياة فولتير » وأقنعه دالامبير بأن يكتب مقالات للموسوعة ، وقدمه لجولى دلسبيناس ، التى أصبح فى حفلات استقبالها قطباً من الأقطاب رغم خجله . لا بل انه كان فى نظر جولى لايفضله غير دالامبير من حيث ســعة عقله ، وربما كان يفوقه فى حرارة حبه للخير . وكان أحد الرعيل الأول ممن انضموا للحملة التى شنت على تجارة الرقيق (١٧٨١) . وقد أعانت جولى على تحريره من ربقة عشقه اليائس للآنسة دوسى ، وهى فتاة لعوب استغلت حبه لها دون أن تبادله إياه . وقد عزى نفسه بصداقة جان — باتست سبوار ومدام سيوار ، وعاش معهم فى شركة ثلاثية قانعة .

وفى ١٧٨٥ أصدر « مقالا فى تطبيق التحليل على الاحتمالات » وفيه سبق نظرية مالثوس إذ قال إن نمو السكان ينحو إلى تجاوز إنتاج الطعام ، ولكنه لم يدع إلى العفة الجنسية علاجاً ، بل أقترح تحديد النسل[١٠٤] .

وقد رحب بالثورة فاتحة لمستقبل التعليم الجامعى ، والعدالة ، والرخاء . وفى ١٧٩٠ اختير للمجلس البلدى الذى كان قد تسلم إدارة باريس . ثم أنتخب عضواً فى الجمعية التشريعية التى حكمت فرنسا من أول أكتوبر ١٧٩١ إلى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢ ، ووضع بوصفه رئيساً للجنة التعليم العام تقريراً يدعو إلى نظام قومى للتعليم الابتدائى والثانوى ، العام ، المجانى ، الشامل للجنسين على السواء ، والبعيد عن النفوذ الكنسى ، ويخطط التقرير لهذا التعليم تخطيطاً عاماً [١٠٥]، وقد وضع مبدأ « دولة الرفاهية » قال : « يجب أن يكون هدف جميع المؤسسات الاجتماعية تحسين الأحوال البدنية والفكرية والأخلاقية لأكثر طبقات السكان عدداً وأشدها فقراً »[١٠٦] . وقدم التقرير إلى الجمعية فى ٢١ أبريل ١٧٩٢ ، ثم عطلت حروب الثورة اتخاذ اجراءات تنفيذه ، ولكن حين وطد نابليون سلطته جعل تقرير كوندورسيه الأساس الذى أرسى فوقه تنظيمه للتعليم من جديد فى فرنسا تنظيماً بدأ به عهداً حاسماً .

ولم يتح لكوندورسيه مثل هذه المكانة المرموقة فى المؤتمر القومى الذى حل محل الجمعية التشريعية . لأن الجيرونديين المحافظين تشككوا فيه بوصفه جمهورياً ، وارتاب اليعاقبة المتطرفون فى نواياه بوصفه ارستقراطياً يحاول أن يخضع الثورة لسيطرة الطبقة الوسطى [١٠٧] . وقد صوت فى صف الذين أدانوا لويس السادس مذنباً بالخيانة ، ولكنه صوت ضد إعدامه . فلما عين مع ثمانية آخرين أعضاء فى لجنة وكل إليها صياغة دستور جديد ، قدم مشروعاً رفض بدعوى إسرافه فى محاباة البورجوازية — فلما تبنى المؤتمر الذى سيطر عليه اليعاقبة دستوراً أكثر تطرفاً ، كتب كوندورسيه نشرة غفلا من التوقيع ينصح فيها المواطنين أن يرفضوه . وفى ٨ يوليو ١٧٩٣ أمر المؤتمر بالقبض عليه .

وظل تسعة أشهر مختبئاً فى منزل لأرملة المصور كلود — جوزف فرنيه . ولكى يصرف ذهنه عن خوف القبض عليه ألف كتيباً يصلح تلخيصاً لحركة التنوير . و «كتاباً أزرق » (أى مخططاً) للمجتمع المثالى القادم . وعنوان المخطوط « نشرة تمهيدية لجدول تاريخى بمراحل تقدم العقل البشرى »[١٠٨] .

كذلك سماه Esquisse أى تخطيط ، ويبدو أنه كان يؤمل أن يكتب يوماً ما عرضا أكثر تفصيلا لفلسفته .

وقد استوحى مخطوطه من المحاضرة التى أجمل فيها طورجو ، يوم كان لاهوتياً ، (١١ ديسمبر ١٧٥٠) « المراحل المتعاقبة لتقدم الفكر البشرى »[١٠٩] وقسم كوندورسيه التاريخ إلى عشر مراحل : (١) اتحاد الأسر فى قبائل ، (٢) الرعى والزراعة ؛ (٣) اختراع الكتابة ؛ (٤) ازدهار الثقافة اليونانية حتى عهد الاسكندر ؛ (٥) تطور المعرفة خلال صعود روما واضمحلالها ؛ (٦) العصور المظلمة ، من ٤٧٦م . إلى الحروب الصليبية ؛ (٧) نمو العلم بين الحروب الصليبية واختراع الطباعة ؛ (٨) من جوتنبرج إلى بيكن ، وجاليليو ، وديكارت ، « الذين خلعوا نير السلطة ؛ (٩) من ديكارت حتى تأسيس الجمهوريتين الأمريكية والفرنسية ؛ (١٠) عصر الفكر المحرر[١١٠] .

وكان كوندورسيه لا يعترف للعصور الوسطى بقدر ، شأنه فى ذلك شأن فولتير ، فقد تمثل فيها تساط الكنيسة على الفكر الأوربى ، وتخدر الشعب بسحر القداس ، وانبعاث الشرك نتيجة لعبادة القديسين[١١١] . ومع أنه احتفظ — كفولتير أيضاً — بإيمان ربوبى بالله ، فإنه اعتمد على تقدم المعرفة وانتشارها لتقويض سلطان الكنيسة ، وتوسيع الديمقراطية ، بل والارتقاء بالأخلاق ، فقد شعر بأن الخطيئة والجريمة هما إلى حد كبير نتيجة للجهل[١١٢] . « سيأتى الوقت الذى تشرق فيه الشمس فقط على أحرار الرجال الذين لايعرفون لهم سيداً غير عقلهم »[١١٣] . وقد اثنى على فولتير لإطلاقه الفكر من عقاله ، وعلى روسو لإلهامه الناس بأن يقيموا نظاماً اجتماعياً عادلا . وصور الخير العميم الذى سيفيض بهما القرنان التاسع عشر والعشرون بفضل جهود القرن الثامن عشر : التعليم العام ، وحرية الفكر والتعبير ، وتحرير المستعمرات ، والمساواة أمام القانون . وإعادة توزيع الثروة . وقد تذبذب بعض الشىء فى أمر حق التصويت للجميع : فهو يريد بصفة عامة أن يقصر التصويت على أصحاب الأملاك أو الثروة مهما قلت[١١٤] ، وكان أحياناً يخشى أن تمكن سذاجة الجماهير قلة غنية من أن تلقنهم آراءهم متى

شاعت ، وهكذا تخلق أوجركية بورجوازية ، مستترة وراء واجهة ديمقراطية[١١٥] ، ولكن هروب لويس السادس ومارى أنطوانيت إلى فارين ، والخوف من أن تحاول الدول إعادة الملكية الأوتقراطية فى فرنسا ، رداه إلى الدعوة لحق التصويت للجميع بما فيهم النساء[١١٦] .

وقد تطلع فى الخيال من عزلته المطاردة إلى مستقبل ملؤه جلائل الأعمال . فتنبأ بصعود الصحافة ضابطاً لطغيان الحكومة ؛ وبتطور دولة الرفاهية بفضل التأمين والمعاشات الاجتماعية ؛ وبحفز الثقافة نتيجة لتحرير المرأة ؛ وبإطالة عمر الإنسان بفضل تقدم الطب ؛ وبانتشار النظام الاتحادى بين الدول ؛ وبانقلاب الاستعمارية إلى معونة أجنبية تقدمها البلاد المتقدمة للمتخلفة ؛ وبخفة التعصب القومى نتيجة لانتشار المعرفة ؛ وبتطبيق البحوث الإحصائية على إنارة السياسات وصياغتها ؛ وبازدياد ارتباط العلم بالحكومة[١١٧] ، وإذ رأى كل عصر مضيفاً أهدافاً جديدة لإنجازاته ، فلا يمكن إذن أن تكون هناك نهاية متطورة للتقدم . ولا يعنى هذا أن الإنسان سيغدو كاملا فى أى وقت ، بل أنه سيسعى أبدا إلى الكمال . « ان الطبيعة لم تحدد زماناً لكمال الملكات البشرية ، وقابلية الإنسان للكمال لاحدود لها ، وتقدم هذه القابلية — التى ستكون منذ الآن مستقلة عن أى قوة قد تبغى تعطيلها — لا حد له غير عمر هذا الكوكب الذى ألقتنا الطبيعة على سطحه[١١٨] »

وقرب ختام هذا التخطيط تصدى كوندورسيه للمشكلة التى سيعرضها بعد أربع سنين فى « مقال عن مبدأ السكان » (١٧٩٨) :

« ألا يجوز أن تأتى لحظة . . . يترتب فيها على زيادة سكان العالم عن أسباب العيش تناقص مستمر لسعادتهم ، . . . أو على أفضل تقدير تذبذب بين النفع والضرر ؟ وألا يدل ذلك على أن العالم قد وصل إلى نقطة يستحيل تحقيق المزيد من التحسين بعدها — وأن قبول النوع الإنسانى للكمال قد بلغ بعد سنين طويلة مرحلة يعجز عن تجاوزها ؟

ومنذا الذى يستطيع التنبؤ بالحالة التى يمكن أن يوصل إليها فن تسخير عناصر الطبيعة لخير الإنسان فى الوقت المناسب ؟ . . . وحتى لو اتفقنا على

أننا سنصل يوماً ما إلى ذلك الحد . . . فإنه قبل أن يقع هذا كله سيكون تقدم العقل قد واكب تقدم العلوم ، وتعصب الخرافة السخيف قد كف عن إفساد القانون الأخلاقى والحط منه بتعاليمه المنكرة . . . ولنا أن نفترض أنه إذا جاء ذلك الوقت فإن الناس سيعرفون أن عليهم واجباً قبل أولئك الذين لم يولدوا بعد ، هو واجب تيسير السعادة لهم ، لا مجرد العيش وكفى »(١١٩) .

ولم يكن تفاؤل كوندورسيه تفاؤلا أعمى تماماً . « ما زلنا نرى قوى التنوير لا تملك أكثر من جزء صغير جداً من العالم ، والمتنورين حقاً وصدقاً تطغى عليهم كثرة جماهير الناس الذين مازالت تسيطر عليهم الجهالة والتعصب . وما زلنا نرى مناطق شاسعة يرزح فيها البشر تحت نير العبودية »(١٢٠) . ولكن « صديق الإنسانية » يجب ألا يفقد الأمل أمام هذه المصاعب ، فانظر إلى الكثير من الأشياء النبيلة التى أنجزت فعلا ، أنظر إلى التطور الهائل للمعرفة وحب المغامرة ، فأى شىء يستعصى على هذه الإنجازات إذا اتصلت وانتشرت؟ وهكذا أختتم كوندورسيه كتابه برؤيا كانت سنداً له فى الشدة ، وبديلا له ولآلاف غيره عن إيمان فوق طبيعى . وإلى القارىء الكلمة الأخيرة والمتوجة لحركة التنوير :

« كم تعزى الفيلسوف الذى يرثى للأخطاء والجرائم والمظالم التى مازالت تلوث الأرض ، والتى كثيراً ما يكون هو نفسه ضحيتها — لكم تعزيه هذه النظرة للنوع الإنسانى ، وقد تحرر من أغلاله ، . . . يسير قدماً بخطى ثابتة مطمئنة على طريق الحق ، والفضيلة ، والسعادة . ان تأمل هذا المشهد هو الذى يجزيه عن جميع ما بذل من جهود فى إعانة تقدم العقل والدفاع عن الحرية . . وهذا التأمل ملاذ له لاتستطيع ذكرى مضطهديه أن تتبعه إليه . فهناك يحيا بالفكر مع الإنسان وقد رد له حقه وكرامته الطبيعيان ، وينسى الإنسان الذى عذبه وأفسده الجشع ، أو الخوف ، أو الحسد ؛ هناك يحيا مع أترابه فى جنة خلقها العقل ، وجملتها أطهر اللذات التى عرفها حب البشر »(١٢١) .

ولقد أوشك اعتراف الإيمان هذا أن يكون صرخة رجل شاعر بأن

الموت يبحث عنه . فلما خشى كوندورسيه أن يلحق الضرر بمدام فرنيه إذا اكتشف أنها تؤويه ، أودعها مخطوطه وغادر بيتها متنكراً رغم اعتراضاتها . وبعد أن تشرد أياماً على أطراف باريس طلب طعاماً فى فندق . وأثار الشبهة مظهره وعدم وجود أوراق تعرف بهويته . وسرعان ما تبينه القوم أرستقراطياً. وقبض عليه ، وزج فى سجن بمدينة بور — لا — رين (٧ أبريل ١٧٩٤) . وفى صبيحة الغد وجد ميتاً فى زنزانته . وقد ذهب أول كاتب لسيرته إلى أنه حمل السم فى خاتم ، وابتلع هذا السم ، غير أن تقرير الطبيب الذى فحص الجثة عزا موته إلى جلطة فى أحـــد عروقه[١٢٢] . أما المؤتمر فقد أمر بعد حصوله على تخطيطه وقراءته بأن تطبع الدولة ثلاثة آلاف نسخة منه وتوزعها فى جميع أرجاء فرنسا .

٥ — الفلاسفة والثورة

اتفق بيرك ، وتوكفيل[١٢٣] ، وتين[١٢٤] ، على أن فلاسفة فرنسا ، من بيل إلى ما بلى ، كانوا عاملا كبيراً فى احداث الثورة . فهل نستطيع قبول النتيجة التى خلص إليها جهابذة المحافظين أولئك ؟

لقد كان جميع الفلاسفة المرموقين معارضين للثورة على حكومات أوربا القائمة آنذاك ، لا بل إن منهم من وضعوا إيمانهم فى الملوك لأنهم أكثر أدوات الإصلاح عملية ؛ واحتفظ فولتير ، وديدرو ، وجريم بعلاقات صداقة ، إن لم يكن إعجاب شديد ، بواحد أو آخر من أشد الحكام المعاصرين استبداداً — فردريك الثانى ، كاترين الثانية ، جستاف الثالث ؛ وأسعد روسو أن يستقبل يوزف الثانى أمبراطور النمسا . أما ديدرو ، وهلفتيوس ، ودولباخ ، فقد وجهوا النقد العنيف للملوك بصفة عامة ، ولكنهم لم يدعوا قط فى كتبهم التى بين أيدينا إلى الإطاحة بالملكية الفرنسية[١٢٥] . وعارض مارمونتيل وموريلليه الثورة فى غير مواربة[١٢٦] ، وجهر ما بلى ، الاشتراكى بأنه ملكى[١٢٧] ، أما طورجو معبود جماعة الفلاسفة ، فقد جاهد لإنقاذ لويس السادس عشر لا للقضاء عليه . ودعم روسو الأقطار الجمهورية ، ولكن لصغار الدول فقط ، وقبلت الثورة نظرياته وأغفلت تحذيره . وحين

أقام الثوار نظاماً جمهورياً فى فرنسا لم يقيموه على طريقة الفلاسفة الفرنسيين بل أبطال بلوتارخ من اليونان والرومان . ولم تكن قبلتهم فرنيه ، بل اسبرطه وروما الجمهورية .

ان الفلاسفة وفروا الإعداد الأيدولوجى للثورة . وكانت أسبابها اقتصادية أو سياسة ، وعباراتها فلسفية ، وقد تيسر للأسباب الأساسية للثورة أن تفعل فعلها بفضل عمل الهدم الذى قام به الفلاسفة لإزالة العقبات القائمة فى طريق التغيير ، مثل الإيمان بالامتيازات الإقطاعية والسلطة الكنيسية ، وحق الملوك الإلهى . فلقد كانت كل الدول الأوربية حتى عام ١٧٨٩ تعتمد على معونة الدين فى غرس قدسية الحكومات فى النفوس ، وحكمة التقاليد ، وعادات الطاعة ، ومبادىء الأخلاق ؛ وكانت بعض جذور السلطة الأرضية مغروسة فى السماء ، واعتبرت الدولة الله رئيس شرطتها السرية . كتب شامفور والثورة تدور رحاها يقول إن « الكهانة كانت أول معقل للسلطة المطلقة ، وقد أطاح به فولتير »[١٢٨] . وذهب توكفيل فى ١٨٥٦ إلى أن « سوء السمعة العام الذى انحدر إليه الإيمان الدينى كله فى نهاية القرن الثامن عشر كان له ولا ريب أعظم الأثر فى سير الثورة برمته »[١٢٩] .

ثم انتقلت الشكوكية التى مزقت اللاهوت القديم شيئاً فشيئاً إلى نقد المؤسسات والشئون العلمانية . وقد ندد الفلاســفة بالفقر والقنية كما نددوا بالتعصب والخرافة ، وكافحوا ليقلصوا سلطان أمراء الإقطاع على طبقة الفلاحين . واعترف بعض النبلاء بقوة الانتقادات اللاذعة التى وجهت إليهم ، وفقد الكثير منهم الثقة فى تفوقهم الطبيعى وحقوقهم المتوارثة . استمع إلى الكونت لوى — فليب د سيجور» :

«كنا نقاداً شديدى الاحتقار للعادات القديمة ، ولكبرياء آبائنا الإقطاعية ومراسمهم المتزمته . . . وشعرنا بالميل إلى أن نتبع فى تحمس العقائد الفلسفية التى جهر بها الكتاب الأذكياء الجسورون . واجتذب فولتير انتباهنا ، ومس روسو قلوبنا . . . ولذنا خفية أن نراهم يهاجمون النظام القديم . . . فاستمتعنا فى وقت واحد بمزايا طبقة النبلاء ومتع الفلسفة الشعبية »[١٣٠] .

وكان من هؤلاء الأشراف الذين وخزهم ضميرهم أشخاص ذوو نفوذ كميرابو الأب والإبن ، ولاروشفوكو — ليانكور ، ولافاييت ، والفيكونت لوى — مارى دنواى ، و « فليب إيجاليته » (مساواة) ، والدوق أورليان ؛ ثم لنذكر المعونة والمواساة اللتين قدمهما لروسو المرشال لكسبورج ولوى — فرانسوا البوربونى أمير كونتى . وقد قادت الأقلية اللبرالية التى حفزتها غارات الفلاحين على الملكية الإقطاعية أمراء الإقطاع فى الجمعية التأسيسية على التخلى عن معظم حقــوقهم الإقطاعية لقاء تعويضات (٤ أغسطس ١٧٨٩) . لا بل إن الأسرة المالكة تأثرت بالأفكار شبه الجمهورية التى أعان الفلاسفة على نشرها . وكان أبو لويس السادس عشر يحفظ عن ظهر قلب فقرات كثيرة من كتاب مونتســكيو « روح القوانين » ، وقد قرأ كتاب روسو « العقد الاجتماعى » وحكم بأنه « سليم إلى حد كبير » فيما خلا نقده للمسيحية . وعلم أبناءه (الذين أصبح ثلاثة منهم ملوكاً) أن « أسباب الامتياز التى تحظون بها لم تعطكم إياها الطبيعة ، التى خلقت الناس كلهم سواسية »[١٣١] . واعترف لويس السادس عشر فى مواسيمه بـ « القانون الطبيعى » و « حقوق الإنسان »[١٣٢] . المترتبة على طبيعة الإنسان بوصفه كائناً عاقلا .

وأضافت الثورة الأمريكية مزيداً من المكانة والقدر للأفكار الجمهورية . ولقد استمدت تلك الثورة هى أيضاً قوتها من وقائع الحال الاقتصادية كنظام الضرائب والتجارة ، وكان « إعلان استقلالها » مديناً للمفكرين الانجليز دينه للمفكرين الفرنسيين ، ولكن لوحظ أن واشنطن ، وفرانكلن وجفرسن ، قد تهيأوا لقبول الفكر الحر بفضل جماعة الفلاسفة الفرنسيين . وعن طريق أولئك الأبناء الأمريكيين للتنوير الفرنسى ، تدرجت النظريات الجمهورية حتى تمثلت حكومة ظافرة فى السلاح ، يعترف بها ملك فرنسى ، وتمضى فى إرساء دستور يدين ببعض الفضل لمونتسكيو .

ولقد مرت الثورة الفرنسية بثلاث مراحل . ففى الأولى حاول النبلاء عن طريق البرلمانات ، أن يستردوا من الملكية ذلك السلطان الذى انتزعه منهم لويس الرابع عشر ، وهؤلاء النبلاء لم يستلهموا جماعة الفلاسفة . وفى

المرحلة الثانية ظفرت الطبقات الوسطى بالتحكم فى الثورة ، وكانت عميقة التشرب بأفكار الفلاسفة ، "ولكن المعنى الذى فهمته من « المساواة » كان مساواة البورجوازى بالاستقراطى . وفى المرحلة الثالثة انتزع الرياسة زعماء غوغاء المدينة . وظلت جماهير الشعب متمسكة بالدين ، ولكن زعماءهم كانوا قد فقدوا احترامهم للقساوسة والملوك؛ وأحبت الجماهير لويس السادس عشر إلى النهاية ، ولكن زعماءهم ضربوا عنقه . وبعد ٦ أكتوبر ١٧٨٩ ، سيطر اليعاقبة على باريس ، وكان روسو إلاههم . وفى ١٠ نوفمبر ١٧٩٣ احتفل المتطرفون الظافرون بعيد العقل فى كتدرائية نوتردام . وفى تور أحل الثوار تماثيل جديدة تسمى ما بليه ، وروسو ، وفولتير محل تماثيل القديسين. وفى شارتر عام ١٧٩٥ ، فى الكتدرائية الشهيرة ، افتتح عيد العقل بدراما أظهر فيها فولتير وروسو متحدين فى حملة على التعصب(١٣٣) .

لاسبيل إلى الشك إذن فى أن الفلاسفة أثروا تأثيراً عميقاً فى أيديولوجية الثورة ودرامتها السياسية . أنهم لم يقصدوا إلى العنف ، أو التقتيل ، أو الجيلوتين ؛ ولو قد شهدوا هذه المناظر الدموية لاقشعروا رعباً ، ولربما قالوا بحق إنه قد أسيء فهمهم على نحو قاس ، ولكنهم كانوا مسئولين بقدر ما استخفوا بأثر الدين والتقاليد فى ضبط الغرائز الحيوانية للبشر . وكانت الثورة الحقيقية أثناء ذلك ماضية فى طريقها فى ظل تلك الآراء الأخاذة والأحداث المرئية ، إذ انتزعت الطبقات الوسطى من الأرستقراطية والملك التسلط على الاقتصاد والدولة ، متذرعة بالفلسفة أداة من مائة أداة أخرى فى بلوغ غايتها تلك .



الفصل السادس والثلاثون

عشية الثورة

١٧٧٤ - ٨٩

١ - الدين والثورة

كانت الكنيسة الكاثوليكية من الناحية المالية أسلم مؤسسة فى البلاد ، تملك نحو ٦ ٪ من الأرض ، وأملاكاً أخرى تقدر قيمتها فى مجموعها بمبلغ يتفاوت بين بليونى جنيه وأربعة بلايين ، وتغل دخلا سنوياً قدره ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه[1] . يضاف إلى هذا ١٢٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من العشور التى تجبى على غلات الأرض وماشيتها[2] . وكانت هذه الدخول فى نظر الكنيسة لازمة لأداء مختلف وظائفها - وهى دعم الحياة الأسرية ، وتنظيم التعليم (قبل ١٧٦٢) ، وتربية الأخلاق ، وتأييد النظام الاجتماعى ، وتوزيع الصدقات ، ورعاية المرضى ، وتوفير الأديرة ملاذاً للنفوس النزاعة للتأمل أو العازفة عن السياسة تحميها من فوضى الزحام واستبداد الدولة ، وغرس مزيج حكيم من الخوف ، والرجاء ، والتسليم ، فى نفوس ضرب عليها الفقر أو المشقة أو الحزن نتيجة لعدم المساواة الطبيعية بين البشر .

كل أولئك زعمت أنها تفعله بواسطة اكليروسها الذى كان قوامه نحو نصف فى المائة من السكان . وكان عدد رجاله قد تقلص منذ عام ١٧٧٩[3] ، وأصاب الأديرة اضمحلال خطير . ويروون إن « رهبان كثيرين كانوا يحبذون الأفكار الجديدة ، ويقرأون مؤلفات الفلاسفة »[4] . وهجر مئات الرهبان حياة الرهبنة ولم يحل محلهم جدد ، وتقلص عددهم فى فرنسا بين ١٧٦٦ و ١٧٨٩ من ٢٦,٠٠٠ إلى ١٧,٠٠٠ ، وفى أحد الأديرة

من ثمانين إلى تسعة عشر ، وفى آخر من خمسين إلى أربعه[٥] . وقد أغلق مرسوم ملكى صدر عام ١٧٦٦ جميع الأديرة التى تضم أقل من تسعة نزلاء ، ورفع السن المسموح بها لنذر الرهبنة من ست عشرة سنة إلى إحدى وعشرين للرجال ، وإلى ثمانى عشرة للنساء . وكانت أخلاق الرهبان منحلة . كتب رئيس أساقفة تور فى ١٧٧٨ : « ان الأخوة الرماديين (الفرنسسكان) فى حالة انحطاط فى هذا الإقليم ، ويشكو الأساقفة من خلاعتهم وما فى حياتهم من فوضى »[٦] . أما أديرة الراهبات فكانت فى حالة طيبة . وكان هناك ٣٧,٠٠٠ راهبة يضمهن ١,٥٠٠ دير فى فرنسا عام ١٧٧٤[٧] ، وكانت أخلاقهن فاضلة ، وقد نشطن لمهامهن فى تعليم الفتيات ، والخدمة فى المستشفيات ، وتقديم المأوى للأرامل ، والعوانس ، والنساء اللائى تحطمن فى معركة الحياة .

وحسن حال الأكليروس من غير الرهبان مادياً فى مقار الأسقفيات وساء فى الأبراشيات . وقد كان هناك الكثير من الأساقفة المخلصين المجتهدين ، وبعض الكسالى المتشبثين بمتع الحياة الدنيا . وقد وجد بيرك أثناء زيارته لفرنسا عام ١٧٧٣ بعض الأساقفة ممن يعيبهم الجشع ، ولكن السواد الأعظم منهم وقعوا من نفسه خير موقع بعلمهم ونزاهتهم[٨] . وقد خلص مؤرخ ألم بكتب الفصائح إلى هذا الحكم « يمكن القول بصفة عامة أن الرذائل التى استشرت فى جسم الأكليروس كله خلال القرن السادس عشر قد اختفت فى القرن الثامن عشر . وكان قساوسة الريف عادة رجالا ذوى أخلاق كريمة ، متقشفين ، فضلاء[٩] رغم قانون التبتل » ، وقد شكا كهنة الأبرشيات هؤلاء من الكبرياء الطبقية فى الأساقفة ، وكانوا كلهم نبلاء ، ومن إلزامهم بتحويل الجزء الأكبر من العشور إلى الأسقف ، وما ترتب على ذلك من فقر ألجأ القساوسة إلى أن يفلحوا الأرض كما يخدمون الكنيسة . وقد تأثر لويس السادس عشر من احتجاجاتهم ، وأمر برفع رواتبهم من خمسمائة جنيه فى العام إلى سبعمائة . فلما أقبلت الثورة أيد كثيرون من صغار الكهنة الطبقة الثالثة . كذلك ظاهر بعض الأساقفة الإصلاح السياسى والاقتصادى ، ولكن أكثرهم ظل صلباً لا يلين فى عدائه لأى تغييرات فى الكنيسة أو الدولة[١٠].

وحين أشرفت خزانة فرنسا على الإفلاس ظهر ثراء الكنيسة مناقضاً لفقر الدولة تناقضاً مغرياً بالعدوان عليه ، وبدأ أصحاب الصكوك الذين تشككوا فى قدرة الحكومة على دفع فائدة قروضهم أو أصولها يرون فى نزع أملاك الكنيسة السبيل الأوحد لإصلاح مالية البلاد . والتقى رفض العقيدة المسيحية المنتشر مع هذا الدافع الاقتصادية .

وزكا الإيمان الدينى فى القرى ، وخبا فى المدن ؛ وفى المدن احتفظت نساء الطبقتين الوسطى والدنيا بتدينهن التقليدى . قالت مدام فيجيه — ليرون مسترجعة ذكرى ماضيها «كانت أمى تقية جداً . وكنت أنا أيضاً تقية فى قرارة نفسى . وقد ألفنا دائماً أن نستمع إلى القداس المطول ونختلف إلى خدمات الكنيسة »[11] . وكانت الكنائس تكتظ بالمصلين فى الآحاد والأعياد الدينية[12] . ولكن عدم الإيمان بين الرجال كان قد تسلط على نصف العقول القائدة . وفى أوساط النبلاء أصبحت الشكوكية المرحة زياً راج حتى بين النساء . كتب مرسييه فى كتابه « صورة باريس » فى ١٧٨٣ يقول : « لم يحضر أفراد المجتمع العصرى القداس طوال السنوات العشر الماضية ، فإذا حضروا فلكيلا يصدموا شعور أتباعهم الذين يعرفون أنهم يفعلون هذا إرضاء لهم »[13] ، وحذا القطاع الأعلى من الطبقة الوسطى حذو الأرستقراطيين . أما فى المدارس « فإن مدرسين كثيرين سرت إليهم عدوى الإلحاد بعد عام ١٧٧١ »[14] ، وأهمل كثير من الطلاب حضور القداس وقرأوا كتب الفلاسفة . وفى ١٧٨٩ صرح الأب بونفاكس بأن «أخطر فضيحة ، والفضيحة التى ستجر أوخم العواقب ، هى الهجر التام تقريباً للتعليم الدينى فى المدارس العامة »[15] . وقد قيل عن إحدى الكليات أن « ثلاثة من البلهاء فقط » هم الذين يؤمنون بالله[16] .

أما بين الأكليروس فقد اختلف الإيمان عكسياً باختلاف الدخول . فالأساقفة « قبلوا المبادىء النفعية التى قال بها جماعة الفلاسفة ، واحتفظوا بالمسيح واجهة ساترة فقط »[17] . وكان مئات من رؤساء الأديرة مثل ما يليه ،

وكونديلاك ، وموريلليه ، ورينال ، هم أنفسهم « فلاسفة » ، أو معتنقين للشكوك السارية . ثم أساقفة كتالبران لم يتظاهروا بالإيمان المسيحى إلا قليلا ؛ ورؤساء أساقفة مثل لومنيه دبريين ، شكا لويس السادس عشر من عدم إيمانهم بالله[١٨] . وقد رفض لويس أن يكلف قسيساً بتعليم ولده مخافة أن يفقد الغلام إيمانه الديني[١٩] .

وواصلت الكنيسة مطالبتها بالرقابة على المطبوعات . ففى عام ١٧٧٠ أرسل الأساقفة إلى الملك مذكرة تناولت « العواقب الخطيرة لحرية التفكير والنشر »[٢٠] . وكانت الحكومة فى عهد لويس الخامس عشر قد تساهلت فى تطبيق القوانين التى منعت دخول البروتستنت إلى فرنسا ، فكان منهم الآن مئات فى المملكة ، يحيون فى ظل قيود سياسية ، وفى زيجات لا تعترف بها الدولة ، وفى خوف كل يوم من أن تطبق عليهم فى أى لحظة قوانين لويس الرابع عشر القديمة . وفى يوليو ١٧٧٥ التمس مؤتمر من رجال الدين الكاثوليك من الملك أن يحظر اجتماعات البروتستنت ، وزيجاتهم ، وتعليمهم ، وأن يحرم البروتستنت من جميع المناصب العامة ؛ كذلك طلب خفض السن التى يسمح فيها بنذر الرهبنة إلى السادسة عشرة[٢١] . وناشد طورجو لويس السادس عشر أن يغفل هذه المقترحات ، وأن يخفف عن البروتستنت قيودهم ، فشارك الكهنة فى الحملة لإقصائه . وفى ١٧٨١ أحرقت الطبعة الثانية من كتاب رينال « التاريخ الفلسفى لجزر الهند الشرقية والغربية » بأمر من برلمان باريس ، ونفى المؤلف من فرنسا . وهاجمت الصوربون بوفون لأنه وصف تطوراً طبيعياً للحياة . وفى ١٧٨٥ طالب الأكليروس بالحكم بالسجن المؤبد على الأشخاص الذين يدانون ثلاث مرات بالإلحاد[٢٢] .

غير أن الكنيسة التى أوهن بأسها قرن من الهجمات لم تعد قادرة على الهيمنة على الرأى العام ، ولا على الاعتماد على « الذراع العلمانية » فى تنفيذ أوامرها . فبعد أن ظل لويس السادس عشر شديد القلق بسبب يمين التتويج التى أقسمها لسحق الهرطقة ، أذعن لضغط الأفكار الليبرالية وأصدر فى ١٧٨٧ مرسوماً للتسامح أعده مالبرب : « ان عدالتنا لا تسمح لنا بأن نحرم بعد اليوم

من حقوق الدولة المتحضرة رعايانا الذين لا يعترفون بالكاثوليكية »[٢٣]. وقد أبقى المرسوم على حرمان غير الكاثوليك من المناصب العامة ، ولكنه أعطاهم جميع الحقوق المهنية الأخرى ، وسمح لهم بالمهن الحرة ، وأضفى الشرعية على زيجاتهم الماضية والمستقبلة ، وأباح لهم الاحتفال بخدماتهم الدينية في المنازل الخاصة . ويجب أن نضيف أن أسقفاً كاثوليكياً هو لا لوزرن أيد بقوة تحرير البروتستنت وإطلاق الحرية الكاملة للعبادة الدينية[٢٤] .

ولم تكن هناك طبقة في مدن فرنسا أبغض إلى أقلية الذكور المتعلمة من الأكليروس الكاثوليك . يقول توكفيل أن الكنيسة كانت مكروهة « لا لأن القساوسة زعموا أنهم ينظمون شئون العالم الآخر ، بل لأنهم كانوا ملاكاً للأرض ، وأصحاب ضياع وعشور وحكاماً في هذا العالم »[٢٥] وكتب فلاح إلى نكير في ١٧٨٨ يقول : « إن الفقراء يقاسون البرد والجوع بينما يرتع كهنة الكتدرائيات في رغد من العيش ولا يفكرون إلا في تسمين أنفسهم كأنهم خنازير ستذبح للفصح »[٢٦] . وغاظ الطبقات الوسطى إعفاء ثروة الكنيسة من الضرائب .

ولقد كانت معظم الثورات السابقة ثورات اما على الدولة وإما على الكنيسة ، وندر أن نشبت ضدهما معاً في وقت واحد . فالقبائل الهمجية أطاحت بروما ، ولكنها قبلت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . والسوفسطائيون في اليونان القديمة ودعاة الإصلاح البروتستنتي في أوربة القرن السادس عشر ، رفضوا الدين السائد ، ولكنهم قبلوا الحكومة القائمة . أما الثورة الفرنسية فإنها هاجمت الملكية والكنيسة جميعاً ، واضطلعت بمهمة ومخاطرة مزدوجة ، هي مهمة الإطاحة بالركيزتين الدينية والدنيوية للنظام الاجتماعي القائم . فهل من عجب أن يركب فرنسا الجنون عقداً من الزمان ؟

٢ — الحياة على شفا الثورة

أدرك الفلاسفة أنهم وقد رفضوا الأسس اللاهوتية للأخلاق ملتزمون أدبياً بالعثور على أساس آخر ، على نسق آخر للإيمان يحمل الناس على السلوك الكريم بوصفهم مواطنين ، وأزواجاً ، وآباء ، وأبناء[٢٧] . ولكنهم لم

يكونوا إطلاقاً واثقين من إمكان السيطرة على هذا الحيوان البشرى دون ناموس أخلاقى مكرس تكريساً فوق طبيعى . وانتهى فولتير وروسو إلى الاعتراف بالضرورة الأخلاق لإيمان دينى شعبى . وكتب مابليه إلى جون آدمز فى ١٧٨٣ فى « ملاحظات على حكومة . . . الولايات المتحدة الأمريكية» عام ١٧٨٣ منبهاً إلى أن عدم المبالاة بأمور الدين ، مهما كان غير ضار بالأفراد المتنورين العقلانيين ، إلا أنه وبيل على أخلاق الجماهير . ورأى أن على الحكومة أن تضبط وتوجه فكر هؤلاء « الأطفال » كما يفعل الآباء مع أبنائهم الصغار[٢٨] . أما ديدرو فى النصف الثانى من حياته فكر ملياً فى وضع أخلاقيات طبيعية ، ثم اعترف بفشله : « بل إننى لم أجرؤ على أن أخط أول سطر . . ولست أخالنى كفئاً لهذا العمل الجليل »[٢٩] .

ولنسأل الآن أى ضرب من الأخلاق ساد فرنسا بعد أربعين عاماً حفلت بالهجمات على المعتقدات فوق الطبيعية ؟ وفى جوابنا عن هذا السؤال يجب ألا نصور النصف الأول من القرن الثامن عشر فى صورة مثالية . لقد قال فونتنيل قبيل موته فى ١٧٥٧ إنه يتمنى لو مد فى أجله ستون سنة أخرى « لأرى النهاية التى تنتهى إليه الخيانة الزوجية المستشرية والخلاعة وتحلل جميع الروابط »[٣٠]. فإذا كانت تلك العبارة (التى لعلها لم تنصف الطبقتين الوسطى والدنيا) تعطى صورة صادقة لأخلاق الطبقة العليا فى فرنسا قبل « الموسوعة » (١٧٥١) ، فلن نكون محقين إذا عزونا إلى جماعة الفلاسفة العيوب التى شابت الأخلاق فى النصف الثانى من القرن . ذلك أن عوامل أخرى غير اضمحلال الإيمان الدينى كانت توهن قوة الناموس الأخلاقى القديم ، فتكاثر الثروة مكن الناموس من الإنفاق على آثام كانت من قبل غالية التكلفة . وقد صور لنا رستيف دلابرتون بورجوازياً فاضلا يتحسر على تدهور الخلق الفرنسى بانتقال السكان من القرى والمزارع إلى المدن[٣١] ؛ وكان الشبان يهربون من النظام المفروض عليهم فى الأسرة ، والمزرعة ، والناحية ، إلى حياة المدن بما فيها من اتصالات وفرص مؤذية ، واختفاء للشخصية بين حشود المدينة . وفى كتابه « ليالى باريس » وصف رستيف باريس الثمانينيات كأنها دردور هائل عنيف يعج بالأحداث المنحرفين ، وصغار اللصوص ،

ومحترفى الإجرام ، والبغايا إناثاً وذكورا . وذهب تين إلى أن فرنسا فى ١٧٥٦ — ٨٨ ابتليت « بالمتشردين » والمتسولين ، وبكل ضروب النفوس العنيدة . . . الكريهة ، القذرة ، الشرسة ، المتوحشة ، التى ولدها النظام ؛ وقد تجمعت كالحشرات على كل قرحة اجتماعية »[٣٢] . وكانت حثالة الكائن الاجتماعى هذه نتائج الطبيعة البشرية وحكم البوربون ، ولا يمكن أن تعزى إلى الفلسفة أو انطفاء شعلة الإيمان .

وربما كان بعض القمار الذى ازدهر فى باريس (كما فى لندن) مرتبطاً بعدم الإيمان ، ولكن الجميع شاركوا فيه ، أتقياء وعصاة على حد سواء . وفى ١٧٧٦ ألغيت جميع ألوان اليانصيب الخاص لتدمج فى « اليانصيب الملكى» . ومع ذلك يجوز أن نعزو إلى حد معقول شطراً من الفوضى الجنسية فى الطبقات العليا إلى الإلحاد . ففى كتاب شودرلو دلاكلو « العلاقات الغرامية الخطرة » (١٧٨٢) نجد أشرافاً وهميين يتبادلون الملاحظات فى فن الإغواء ، ويضعون الخطط لفض بكارة فتاة فى الخامسة عشرة بمجرد تركها الدير ، ويعتنقون فلسفة العدمية الأخلاقية . وحجة البطل ، الفيكونت فالمون ، أن جميع الناس أشرار فى رغباتهم على السواء ، ولكن أكثرهم يخفقون فى تحقيقها لأنهم يسمحون للتقاليد الأخلاقية أن تخوفهم . ويقول فالمون أن الرجل العاقل يسعى إلى اشباع أى أحاسيس تعده بأعظم لذة ، ويحتقره كل النواهى الأخلاقية[٣٣] . ويحضرنا فى هـــذا المقام أن بعض السوفسطائين اليونان توصلوا إلى مثل هذه النتائج بعد أن نبذوا آلهتهم[٣٤] .

وفلسفة انعدام الحس الأخلاقى هذه ، كما يعرف العالم كله الآن ، غلا فيها غلواً مقززاً الكونت دساد — الذى يسمى خطأ عادة بالمركيز دساد . وقد ولد فى باريس عام ١٧٤٠ ، وخدم فى الجيش اثنتى عشرة سنة ، وقبض عليه وحكم عليه بالإعدام بتهم اللواط (١٧٧٢) ، ثم فر ، وقبض عليه ، وفر ثانية ، وقبض عليه من جديد ، ثم حكم عليه بالسجن فى الباستيل . وهناك ألف عدة قصص وتمثيليات ، فيها من الفحش والبذاءة ما اتسع له خياله : وأهمها « جوستين » (١٧٩١) ، و « قصة جولييت ، أو ازدهار

الرذيلة » (١٧٩٢) . وهو يزعم أنه مادام الإله غير موجود ، فإن العاقل من سعى إلى إشباع كل رغبة ما استطاع دون أن يجر عليه عقوبة أرضية . وكل الرغبات خيرة على السواء ، وكل الفوارق الأخلاقية أوهام ؛ والعلاقات الجنسية الشاذة مشروعة ؛ وهي ليست في حقيقتها شاذة ؛ والجريمة ممتعة لو تجنبت افتضاح أمرك ؛ وقل أن تجد شيئاً ألذ من ضربك فتاة جميلة . ولم يصدم القراء بانعدام الحس الأخلاقي عند دساد كما صدموا بالماعة إلى أن القضاء المبرم على النوع الإنساني لن يصيب الكون بأي أذى يذكر حتى أنه « لن يقف مسيره أكثر مما لو باد نوع الأرانب البرية أو البيئية كله »[٣٥] . وفي ١٧٨٩ نقل دساد إلى مستشفى للأمراض العقلية في شارنتون ، ثم أفرج عنه في ١٧٩٠ ، وحكم عليه بالعودة في ١٨٠٣ لاستعصاء شفائه ، ومات في ١٨١٤ .

وقد يدفع الفلاسفة بأن هذا الانعدام للحس الأخلاقي هو استنتاج خلق لنقدهم اللاهوت المسيحي ، وأن العقل السليم يقر الالتزامات لأدبية سواء دان أو لم يدن بالإيمان الديني ، وقد أقرها كثيرون . وكان بين سكان فرنسا — بل سكان باريس — الأسوياء في تلك السنين عناصر كثيرة للتجدد الأخلاقي : ازدياد رقة العاطفة والحنان ، وانتصارات الحب الرومانسي على زيجات المصلحة ، والأم الشابة ترضع طفلها بفخر ، والزوج يتودد إلى زوجته ، والأسرة ترد إلى سابق وحدتها باعتبارها أسلم منبع للنظام الاجتماعي . وكثيراً ما كانت هذه التطورات ممتزجة ببقايا من العقيدة المسيحية ، أو بفلسفة روسو نصف المسيحية ، ولكن ديدرو الملحد أيدها تأييداً حماسياً .

وقد أعقب موت لويس الخامس عشر انتقاض على إباحيته الجنسية . وضرب لويس السادس عشر المثل الطيب ببساطة لباسه وحياته ، وبوفائه لزوجته ، وبأدانته للقمار . وشاركت الملكة ذاتها في زي البساطة ، وقادت حركة إحياء الحساسية ورقة العاطفة . وجرت الأكاديمية الفرنسية على منح جائزة كل سنة للفضيلة البارزة [٣٦] . وكان أكثر الأدب مهذباً ، ونحيت قصص كريبيون الإبن جانباً ، وقررت قصة برناردان دسان — بيير « بول وفرجيني » طابع الطهارة الخلقية في الحب . وعكس الفن الأخلاق الجديدة ، ومجد جروز ومدام فيجيه — لبرون الأطفال والأمومة .

وغذت المسيحية والفلسفة معاً نزعة إنسانية بثت المئات من أعمال البر والخير . وفى شتاء ١٧٨٤ القارس خصص لويس السادس عشر ثلاثة ملايين من الجنيهات لإغاثة الفقراء ؛ وشاركت مارى أنطوانيت بمائتى ألف من جيبها الخاص ، وحذا الكثيرون حذوهما . وساعد الملك والملكة على تمويل مدرسة الصم والبكم التى أسسها الأبيه دليبيه فى ١٧٨٨ لتعليم أبجديته الجديدة التى ابتكرها للصم والبكم ، ومدرسة الأطفال المكفوفين التى افتتحها فالنتان هاوى فى ١٧٨٤ . وأسست مدام نكير (١٧٧٨) ملجأ ومستشفى للفقراء ، ظلت تشرف عليهما بشخصها عشرة أعوام . ووزعت الكنائس ، وأديرة الرهبان والراهبات ، الطعام والدواء . وفى هذا العهد تشكلت حملة لإلغاء الرق .

كذلك كانت آداب السلوك كالأخلاق انعكاساً لعصر روسو . فهى لم تبلغ قط فى عهد ملوك البوربون هذا المبلغ من الديمقراطية . صحيح أن الفوارق الطبقية ظلت قائمة ، ولكن خفف منها لطف أعظم ومجاملة أوسع . وكان الموهوبون من الرجال ، الذين لا يحملون ألقاب شرف ، يلقون الترحيب فى أعرق البيوت محتداً . ومرة قفزت الملكة من مركبتها لتعين حوذياً جريحاً ، ورفع الملك وأخوه الكونت دارتوا بكتفيهما العجلة ليساعدا عاملا على تخليص عربته من الوحل . وأصبح اللباس أبسط : فاختفت البواريك ، وتخلى السادة ، إلا فى البلاط ، من مطرزاتهم ، ومخرماتهم ، وسيوفهم ، بحيث كان من العسير فى عام ١٧٨٩ أن ينبىء المرء عن طبقة رجل من زيه . وحين استهوى فرانكلان فرنسا استسلم له حتى الخياطون ؛ وظهر الناس فى الشوارع « يلبسون على الطريقة الفرانكلينية قماشاً خشناً ، وحذاء سميكاً »[٣٧] .

أما سيدات الطبقة البورجوازية فتزين فى لباسهن تزين سيدات البلاط . وبعد ١٧٨٠ نبذت النساء الطوق الحديدى الثقيل ، ولكنهن حصن قوامهن بتنانير قاسية يلبسنها متراكبة كالأحجية الصينية المعقدة . وقصرت الصدارات من أمام ، ولكن الصدر كان عادة يغطى بمنديل مثلث يسمونه (رباط) ،

وفى الإمكان تكثيف هذه المناديل لستر النهود النحيلة ، ومن ثم سماها الفرنسيون المناديل « الغشاشة » أو « الكاذبة »[٣٨] . وظلت تسريحات الشعر عالية ، ولكن حين فقدت مارى أنطوانيت معظم شعرها أثناء حمل لها أحلت العقاص محل تسريحة « البرج » ، وانتشرت هذه الموضة الجديدة من البلاط إلى باريس . وكان هناك مائتا طراز لقبعات النساء ؛ وكان بعضها هياكل ضعيفة من السلك ، والريش ، والأشرطة ، والأزهار ، والخضر الاصطناعية ؛ ولكن النساء اتبعن فى أوقاتهن الأكثر دعة واسترخاء الطراز الذى ابتدعته الملكة فى البتى تريانون ، والذى يغطى الرأس بوشاح بسيط . وفى أعظم الثورات قاطبة لبس بعض النساء الأحذية الواطئة أو الإخفاف المريحة[٣٩] .

ورافق هذا التغيير إلى لباس أروح وأيسر أسلوب فى العيش أصح . وأقبلت قلة متزايدة على « العيشة الطبيعية » : فلا مشدات ، ولا خدم ، ومزيد من الحياة فى الهواء الطلق ، وهروب من المدن إلى الريف كلما أمكن . كتب آرثر ينج يقول «كل من يملك بيتاً فى الريف يهرع إليه ، ومن لا يملك يزور من يملك . والثورة التى قلبت آداب السلوك الفرنسية هى ولا ريب من أفضل الملامح التى أخذوها عن انجلترا . وقد زاد ادخالها يسراً سحر مؤلفات روسو»[٤٠] . غير أن الكثير من هذا « الرجوع إلى الطبيعة » كان كلاماً أو عاطفة أكثر منه عملا أو واقعاً ، وظلت الحياة فى باريس تجرى فى سباق مجنون مع الحفلات الموسيقية ، والأوبرات ، والتمثيليات ، وسباقات الخيل ، ورياضات الماء ، وألعاب الورق ، والرقص ، والحفلات الراقصة ، والدردشة ، والصالونات .

الصالونات (Salonniéres)

جملت النساء الفرنسيات اضمحلال الإقطاعية لا بمفاتن أشخاصهن وأزيائهن فحسب ، بل بقدرتهن التى لا تبارى على جعل المجتمع الفرنسى جزءاً حيوياً من الحياة الفكرية للأمة ، لا مجرد اجتماعات للثرثرة والقيل والقال . كتب جبون بعد أن وصل فى ١٧٧٧ ما انقطع بينه وبين صالونات باريس يقول :

« لو أتيح ليوليانوس الآن أن يلم من جديد بعاصمة فرنسا (حيث ولد عام ٣٣١م) . لاستطاع أن يتبادل الحديث مع علماء وعباقرة قادرين على فهم تلميذه من تلاميذ اليونان وعلى تعليمه ، ولعله مغتفر تلك الحماقات اللطيفة التي تند عن أمة لم يوهن روحها الحربية قط حبها للترف ، وهو لابد مصفق لكمال ذلك الفن الرفيع الذى يرقق ويهذب ويجمل علاقات الحيـــاة الاجتماعية »[٤١] .

ثم أضاف فى إحدى رسائله « لقد بدا لى دائماً أن النساء فى لوزان ، كما فى باريس ، أرقى كثيراً من الرجال »[٤٢] .

وكانت قدامى الصالونيات يخلين المسرح على كره . فمدام جوفران ماتت عام ١٧٧٧ كما سبق القول . أما مدام دودفان فقد أوشكت أن تتم عبور القرن من أوله لآخره ، فقد دخلت التاريخ بوصفها إحدى خليلات الوصى على العرش[٤٣] . وافتتحت صالوناً اتصل نشاطه من ١٧٣٩ إلى ١٧٨٠ ، وكانت قد خسرت معظم سباع الأدب ، إذ ظفرت بهم جولى دلسبيناس والصالونات الجديدة ، وقد وجد هوراس ولبول — الذى قدم إليها لأول مرة فى ١٧٦٥ — تشكيلتها من الشيوخ الأرستقراطيين مملة لا تثير اهتمامه . « إننى أتناول عشائى هناك مرتين كل أسبوع ، وأحتمل عشراءها المملين كلهم لأجل خاطر الوصى على العرش»[٤٤] ، وهو يعنى ذكرياتها المرحة لفترة الوصاية الرائعة تلك التى قررت طابع المجتمع الفرنسى والأخلاق الفرنسية طوال الستين عاماً التالية . أما هى ذاتها (فى عبارة هوراس) « فلذيذة (فى الثامنة والستين) ، تواقة لمعرفة ما يجرى كل يوم توق لما جرى فى القرن الماضى » .

وقد أعجب بفكرها إعجاباً مفرطاً — لأنه لم يلتق قط بمثل هذا الذكاء اللامع فى نساء انجلترة اللائى مازلن مقهورات مكبوتات — حتى لقد ألف أن يلم بها كل يوم ، وقدم لها من التحية والأطراء ما بدا معيداً شبابها الذهبى ، وأفردت هى له مقعداً خاصاً يحجز له دائماً ، ووفرت له التدليل بكل لون من ألوان اهتمام المرأة ورعايتها . وإذ كان فى طبيعتها بعض الذكورة ، فإن

رقته الأنثوية تقريباً لم تسؤها . واستطاعت وهى عاجزة عن رؤيته أن تشكل صورتها عنه كما يشتهيها قلبها ثم أحبت تلك الصورة . أما هو فلم يستطع قط وهو المبصر أن ينسى شيخوختها وعجزها البدنى . وحين عاد إلى انجلترة راحت تدبج له رسائل فيها من حرارة الحب ما يقرب مما فى رسائل جولى دلسبيناس إلى جيبير ، مكتوبة بأروع ماأبداه ذلك العصر من نثر . وقد حاولت ردوده على رسائلها أن تكبح فرحتها ، وكان يقشعر فرقاً إذا خطر له ما قد يفعله كتاب انجلترة الهجاءون (مثل سلوين) بمثل هذه الأكلة المثيرة لشهية الهجاء . واحتملت لومه ، وأكدت حبها من جديد ، ووافقت على أن تسميه صداقة ، ولكنها أكدت له أن الصداقة فى فرنسا كثيراً ما تكون أعمق وأقوى من الحب . « انني ملكك أكثر منى ملك نفسى . . . وددت لواستطعت أن أبعث إليك بروحى بدلا من رسالة . وانى لأبذل السنين من عمرى عن طيب خاطر لأضمن وجودى على قيد الحياة حين تعود إلى باريس » وقد شبهته بمونتايني « وهذا أسمى مديح فى وسعى أن أخصك به ، لأنى لا أجد فكراً يعدل فكرة انصافاً ونصوعاً »(٤٥) .

ثم عاد إلى باريس فى أغسطس ١٧٦٧ . وانتظرته فى انفعال العذارى « أخيراً ، أخيراً ، لم يعد يفرقنا بحر . لا أستطيع أن أحمل نفسى على أن أصدق أن رجلا له شأنك فى الحياة ، ويداه على عجلة حكومة عظمى ، وإذن على عجلة أوربا ، فى وسعه . . أن يترك كل شىء ليحضر ويرى عرافة عجوزاً فى ركن دير . انه حقاً لأمر بالغ السخف ، ولكننى مسحورة ... فتعال يا معلمى ! ليس هذا حلماً — فأنا أعلم أننى صاحية — سأراك اليوم ! » وأرسلت مركبتها ليستقلها ، فوافاها على الفور . وظل ستة أسابيع يطربها بحضوره ويحزنها بتحذيراته . فلما عاد إلى انجلترة لم تستطع أن تفكر إلا فى رجوعه إلى باريس ، « ستجعل غروبى أجمل وأسعد كثيراً من ظهيرتى أو فجرى . أن تلميذتك ، المطيعة طاعة طفل ، لا أمنية لها إلا أن تراك »(٤٦) .

وفى ٣٠ مارس ١٧٧٣ طلب إليها أن تكف عن الكتابة(٤٧) . ثم لانت قناته واستؤنفت الرسائل بينهما . وفى فبراير ١٧٧٥ طلب إليها أن ترد إليه جميع رسائله ، فامتثلت ، مع إلماعة رقيقة إلى رغبتها فى أن يرد إليها رسائلها

« سيكون لديك ما يكفى لإثارة أحاسيسك الحارة مدى طويلا ان أضفت إلى رسائلك كل الرسائل التى تلقيتها منى وسيكون هذا انصافاً ولا ريب ، ولكنى أترك هذا الأمر لحكمتك »[٤٨] . ولم يبق من رسائله الثمانمائة إليها غير تسع عشرة ، أما رسائلها فقد احتفظ بها كلها ، ونشرت بعد موت ولبول . وحين سمع أن معاشها توقف عرض أن يعوضه من إيراده الخاص ، ولكنها لم تر ضرورة لهذا .

وقد زاد انهيار غرامها من قتامة ذلك التشاؤم الطبيعى لامرأة فقدت ألوان الحياة ولكنها عرفت أمواهها الضحلة والعميقة . فقد استطاعت حتى فى عماها ، أن تنفذ ببصيرتها خلال الظاهر الأنيق لتصل إلى أنانية البشر التى لا يدركها التعب . وقد سألت ولبول « يامعلمى المسكين ، ألم تلق غير الوحوش ، والتماسيح ، والضباع ؟ أما أنا فلا أرى غير الحمقى ، والبله ، والكذابين ، والقوم الحاسدين ، الغادرين أحياناً .. ان كل من أراه هنا يذبل روحى . فلست أجد فى أحد فضيلة ، ولا إخلاصاً ، ولا بساطة »[٤٩] . ولم يبق لها غير أثارة من إيمان دينى يعزيها . ومع ذلك فقد واصلت حفلات عشائها ، مرتين فى الأسبوع عادة ، وكثيراً ما كانت تتغذى خارج مسكنها ، ولو هروباً من سأم أيام مظلمة كالليالى .

وأخيراً كفت عن التشبث بالحياة بعد أن تعلمت أن تكرهها ، وراضت نفسها على تقبل الموت . وكانت الأمراض التى تبتلى بها الشيخوخة قد تفاقمت واصطلحت عليها ، فشعرت وهى فى الثالثة والثمانين بأنها أضعف من أن تقاومها . واستدعت كاهناً وأسلمت نفسها للأمل دون كبير إيمان . وفى أغسطس ١٧٨٠ بعثت بآخر رسالة إلى ولبول تقول :

« إننى اليوم أسوأ حالا . . . ولست أخال لهذه الحال معنى إلا النهاية . وليس فى من القوة ما يكفى للإحساس بالخوف ، وبما أنه قدر على ألا أراك مرة أخرى فليس لدى ما أسف عليه . . . فسل نفسك يا صديقى ما استطعت . ولا تبتئس لحالتى . . . وسوف تأسف على ، لأن المرء يطيب له أن يعرف أنه محبوب »(٥) .

وماتت فى ٢٣ سبتمبر تاركة لولبول أوراقها وكلبها .

وواصلت الكثيرات غيرها من الصالونيات هذا التقليد الجليل : السيدات دودتو ، ودبينيه ، ودنى ، ودجنليس ، ولكسمبور ، وكوندورسيه وبوفليه ، وشوازيل ، وجرامون ، وبوهارنيه (زوجة عم لجوزفين) . يضاف إليهن جمعاً آخر صالونات ما قبل الثورة ، وهو صالون مدام نكير العظيم . وقد بدأت حوالى ١٧٧٠ حفلات استقبالها فى الجمعة من كل أسبوع ، ثم أضافت الثلاثاء بعد ذلك وفيه كانت الموسيقى هى الغالبة على الندوة ؛ وهناك قسمت المدعوين للعشاء حرب جلوك — بلتشينى حزين ، ثم وحدت بينهم الآنسة كليرون بتلاوتها فقرات من أحب أدوارها التمثيلية إليها . وفى الجمع كان رواد الصالون يلتقون بديدرو ، ومارمونتيل ، وموريليه ، ودالامبير (بعد موت جولى) ، وسان — لامبير ، وجريم (بعد موت مدام دبينيه) ، وجبون ، وزينال ، وبوفون ، وجيبير ، وجاليانى ، وبيجال ، وأنطوان توما صديق سوزان الأديب الأثير لديها . وفى أحد هذه الاجتماعات (أبريل ١٧٧٠) طرقت فكرة إقامة تمثال لفولتير . هناك كان ديدرو يكتم هرطقاته ، وهناك كاد يصبح رجلا مهذباً مصقولا . كتب إلى مدام نكير يقول « مما يؤسفنى أن الحظ لم يواتنى بمعرفتك فى وقت أسبق ، وإلا لكنت بلا ريب بعثت فى إحساساً بالنقاء والرقة يسرى من نفسى إلى كتبى »[٥١] . ولم يبد غيره رأيهم فيها بمثل هذا الثناء . فمارمونتيل مثلا ، وهو الذى ظل صديقاً لها خمسة وعشرين عاماً ، وصف سوزان فى مذكراته بهذه العبارات : « لم تؤت شيئاً من مفاتن الشابات الفرنسيات لجهلها بآداب باريس وعاداتها .. فلا ذوق فى لباسها ، ولا يسر فى حركاتها ، ولا سحر فى أدبها ، وكان ذهنها ، كما كان تعبير وجهها ، ثابتين ثباتاً مفرطاً بحيث أفتقدا الخفة والرشاقة . وكان أكثر صفاتها جاذبية هى المجاملة ، والإخلاص ، ورقة الفؤاد »[٥٢] . ولم تحبها نساء الطبقة الأرستقراطية . مثال ذلك أن البارونه دوبركرش التى زارت آل نكير مع الغراندوق بول فى ١٧٨٢ لم تر فيها « ببساطة أكثر من مربية »[٥٣] ، أما المركيزه دكريكى فقد مزقتها إرباً فى صفحات مشحونة بالغل الظريف[٥٤] ، ولا بد أن مدام نكير أوتيت الكثير من الخصال

الطيبة حتى ظفرت بحب جبون الدائم ، ولكنها لم تتغلب تماماً على تراثها الكالفنى إطلاقاً ، فظلت متزمته صارمة التدين رغم ثرائها ، ولم تكتسب قط ذلك المرح الراقى الذى توقعه الرجال الفرنسيون من النساء .

وفى ١٧٦٦ أنجبت الفتاة التى أصبحت فيما بعد مدام دستال . وقد غدت هذه الفتاة جرمين نكير — التى شبت وترعرعت بين الفلاسفة والحكام — عالمة وهى فى العاشرة . وجعلها نبوغها المبكر مفخرة لأبويها إلى أن أرهق مزاجها العنيد العصبى أعصاب أمها . وقد أخضعت سوزان ابنتها لنظام صارم لأن الأم كانت تزداد غلواً فى المحافظة كل يوم ، فتمردت الفتاة ، وأصبح الشقاق فى هذا البيت الأنيق منافساً للفوضى الضاربة فى مالية الدولة . وأضافت إلى تعاسة الأم تلك المصاعب التى لقيها نكير فى محاولته تفادى إفلاس الحكومة رغم الحرب الأمريكية ، وكرهها الكل نقد توجهه إليه الصحافة ، حتى بدأت سوزان تحن إلى الحياة الهادئة التى كانت تحياها فى سويسرة .

وفى ١٧٨٦ تزوجت جرمين ، واضطلعت ببعض واجبات المضيفة فى صالون أمها . غير أن الصالون الفرنسى كان آخذاً فى الاضمحلال . فالنقاش الأدبى كان يخلى مكانه للسياسة المتحمسة المتحزبة . كتبت سوزان إلى صديقة فى ١٧٨٦ تقول « ليس عندى أنباء أدبية أسوقها إليك ، فحديث الأدب لم يعد الآن موضة العصر ، والأزمة بالغة الشدة ، والناس لا يهتمون بلعب الشطرنج وهم على شفا جرف هار »[٥٦] . وفى ١٧٩٠ انتقلت الأسرة إلى كوبيه ، وهو قصر ريفى اشتراه نكير على سواحل بحيرة جنيف الشمالية . وهناك ملكت مدام دستال ، وعانت مدام نكير سنوات من مرض عصبى أليم قضى على حياتها فى ١٧٩٤ .

٤ — الموسيقى

كتب موتسارت من باريس فى أول مايو ١٧٧٨ : « من حيث الموسيقى أرانى محاطاً بوحوش ضارية لا أكثر . . . سل أى شخص شئت — شريطة ألا يكون فرنسى المولد — فإذا كان له أى علم بالموضوع أجاب بهذا الجواب بالضبط . . سأكون شاكراً الإله القدير إذا هربت دون أن يفسد ذوقى »[٥٦] .

وهذا حكم صارم ولكن جريم وجولدونى وافقا عليه[٥٧] . إلا أن هؤلاء النقاد الثلاثة كانوا كلهم أجانب . وقد عكس الذوق الموسيقى للباريسيين من علية القوم آدابهم ، فمال إلى القصد فى التعبير والرتابة فى الشكل ، وظل يردد أصداء عصر لويس الرابع عشر . ومع ذلك ففى هذه السنوات الأولى للحكم الجديد بالضبط فقد نصف باريس قصدهم ، وربما آدابهم ، فى وطيس المعركة الدائرة حول بكينى وجلوك . تأمل رسالة جولى ليسبيناس المؤرخة ٢٢ سبتمبر ١٧٧٤ ، « انى أشاهد باستمرار « أورفى وأوريد يتشى » وأنا تواقة إلى لاستماع مراراً وتكرار فى اليوم لذلك اللحن الذى يمزق نياط قلبى « لقد فقدت حبيبتى أوريد يتشى »[٥٨] . ان باريس لم تكن صماء لاتستطيب الموسيقى ، وان زاد ما استوردته منها على ما أنتجته .

وفى ١٧٥١ قدم فرنسوا — جوزف جوسيك ، البالغ سبعة عشر ربيعاً ، من موطنه هاينو إلى باريس يحمل خطاب تقديم إلى رامو . وحصل له الفنان العجوز على وظيفة قائد للأوركستر الخاص الذى يديره الكسندر — جوزف دلابوبلنيير . وألف جوسيك لهذه « الفرقة » (١٧٥٤ وما بعدها) سمفونيات سبقت سمفونية هيدن الأولى بخمس سنوات ، وفى ١٧٥٤ نشر رباعيات سبقت رباعية هيدن بسنة . وفى ١٧٦٠ قدم فى كنيسة سان روش « قداس الموتى » الذى استحدث فكرة العزف على آلات نفخ « التوبا » خارج الكنيسة . ولم يكن لإقدام جوسيك وتعدد مواهبه نهاية . ففى ١٧٨٤ أسس « مدرسة الغناء الملكية » ، التى أصبحت نواة كونسرفتوار باريس الموسيقى الذائع الصيت . وقد حقق نجاحاً متواضعاً فى الأوبرا ، الهازلة منها والجادة . ثم تكيف مع الثورة ، وألف بعضاً من أشهر أغانيها ، ومنها « ترنيمة للكائن الأعلى » لاحتفال روبسبيير (٨ يونيو ١٧٩٤) . وعمر بعد انحسار جميع موجات السياسة ، ومات فى ١٨٢٩ بالغاً من العمر خمسة وثمانين عاماً .

أما أبرز شخصية فى أوبرا ذلك العهد الفرنسية فهو أندريه جريترى . وكان أجنبياً ككثيرين غيره من أقطاب الموسيقى الفرنسية فى القرن الثامن

عشر ، فقد ولد فى لييج عام ١٧٤١ لعازف كمان . ويروى أنه فى أول مرة تناول فيها القربان طلب إلى الله أن يدعه يموت لتوه ما لم يكتب له أن يكون رجلا صالحاً وموسيقياً عظيماً . فى ذلك اليوم سقطت عارضة خشبية على رأسه وجرحته جرحاً خطيراً ، ثم تماثل للشفاء ، واستنتج أن السماء تعده بمستقبل سام[٥٩] . وكان منذ عامه السادس عشر يعانى دورياً من نزيف داخلى ، يتقيأ فيه ستة أقداح من الدم فى اليوم ، وكان عرضة للإصابة بالحمى وبالهذيان ينتابه بين الحين والحين ، وكاد أحياناً يجن لعجزه عن وقف نغمة موسيقية من التردد فى رأسه دون توقف . ولعلنا نغتفر حتى الموسيقى الرديئة لرجل لقى كل هذا العذاب واحتفظ رغم ذلك بابتهاجه طوال اثنتين وسبعين سنة .

وحين كان فى السابعة عشرة ألف ست سمفونيات كانت من الجودة بحيث حصلت له من كاهن إحدى الكتدرائيات على المال اللازم لسفره إلى روما . وقطع الطريق كله على قدميه فيما روته « المذكرات » الجذابة التى نشرها عام ١٧٩٧[٦٠] ، وخلال الأعوام الثمانية التى أقام فيها بروما حمله نجاح برجوليزى على تأليف الأوبرات الهازلة . فلما جاء باريس (١٧٦٧) لقى التشجيع من ديدرو ، وجريم ، وروسو . ودرس فن الآنسة كليرون المسرحى ، واكتسب مهارة غير عادية فى مواءمة موسيقاه لنبرات الحديث الدرامى وتغيراته ، وحقق فى أوبراته رقة ونعومة غنائيتين كأنهما انعكاس لروح روسو ، وللعودة إلى البساطة ورقة العاطفة فى الحياة الفرنسية . وظل محتفظاً بشعبيته طوال الثورة ، التى أمرت بنشر مؤلفاته على نفقة الحكومة ، وكانت الجموع الثورية تتغنى بألحان من أوبراته . وقد منحه نابليون معاشاً . وقد أحبه الجميع لأن حظه من وصمات العبقرية كان ضئيلا ؛ فهو رقيق القلب ، ودود ، أنيس ، متواضع ، يذكر منافسيه بالخير ، ويؤدى ديونه . وقد أحب روسو مع أن روسو أساء إليه ، واشترى الإرميتاج فى شيخوخته ، وهو الكوخ الذى أقام فيه روسو من قبل . فى ذلك الكوخ ، فى ٢٤ سبتمبر ١٨١٣ ، بينما كان نابليون يحارب أوربا كلها ، مات جريترى .

٥ — الفن فى عصر لويس السادس عشر

واصل « طراز لويس السادس عشر » ، الذى بدأ تقريباً مع مولد لويس السادس عشر (١٧٥٤) ، انتقاضه على شذوذات الباروك المعقدة ورقائق الروكوك الأنثوية ، وتحرك صوب الخطوط الرجولية والنسب السمترية لفن كلاسيكى محدث ألهمته حفائر هركولانيوم وحماسة فنكلمان للفن اليونانى— الرومانى . وأشهر مثال على الطراز الجديد فى العمارة هو البتى تريانو ، ومن الطريف المسلى أن تتفق مدام دوبارى ومارى أنطوانيت ، على ما بينهما من عزوف عن المخالطة ، فى الاستمتاع بهذا التقدير المتواضع للنظام والبساطة الكلاسيكيتين . ومثال جميل آخر هو « قصر اللجيون دونور » الحالى ، والذى بناه باسم « الأوتيل سالم » (١٧٨٢) بيير روسو على ضفة السين اليسرى . وهناك نتاج أضخم لهذا الطراز هو « قصر العدالة » الذى أعيد بناؤه فى ١٧٧٦ ، بمصبعاته الفاخرة من الحديد المشغول فى واجهة « الكور دمية » . أما « مسرح الأوديون القومى » (١٧٧٩) فقد اتخذ نمطاً دورياً قاتماً ؛ وألطف منه المسرح الذى شاده فى أميان (١٧٧٨) جاك روسو بطراز جمع بين الطراز الكلاسيكى وطراز النهضة . وقد بنى فكتور لوى فى بوردو (١٧٧٥) على النمط الكلاسيكى مسرحاً ضخماً وصفه آرثر ينج بأنه « إلى حد كبير أفخم مسرح فى فرنسا ، ولم أر مسرحاً يدانيه »[٦١] .

أما الزخرف الداخلى فقد احتفظ بالأناقة الفرنسية . وكان زى النسيج المزدان بالرسوم فى طريقه إلى الزوال إلا لتغطية الكراسى ذات الذراعين والأرائك ؛ وكان ورق الجدران المرسوم يصل من الصين ، ولكنه استعمل أساساً فى المخادع ، وقسمت جدران الصالونات عادة إلى حشوات من الخشب المشغول ، المنقوش أو المزين بأشكال أو زخارف نباتية عربية تضارع خير نظائرها فى إيطاليا . وأبدع الأثاث المصنوع فى فرنسا فى عهد لويس السادس عشر صممه ونفذه ألمانيان هما جان — هنرى ريزنر ودافيد رونتجن ؛ وتحوى مجموعة ولسن نماذج رائعة صنعت لمارى أنطوانيت والبتى تريانون .

وازدهر فن النحت ، وامتد العمر ببيجال ، وفالكونيه ، وجان —

جاك كافييرى من أيام لويس الخامس . أما أوجستن باجو ، الذى كان قد بدأ العمل فى ذلك العهد ، فقد نال الآن ما يستحقه من تقدير . وقام بتكليف من لويس السادس عشر بنقش الزخارف للباليه — رويال . والباليه — بوربون . وفى تمثاله « هجران بسيخى »[٦٢] حاول التوفيق بين عنصرين فى العهد الجديد — العاطفة الرقيقة والشكل الكلاسيكى . ثم نقل فنه — وزوج ابنته — لكلوديون ، واسمه الحقيقى كلود ميشيل . وقد شق كلوديون طريقاً إلى الثراء بمجموعات من التيرا — كوتا (الطين التضيح) فيها شائبة من الشهوانية ، وبلغ أوجه بتمثال لمونتسكيو[٦٣] . وكل نشوة الجسد تغنى فى تمثاله « الحورية والساطير » المحفوظ بمتحف المتروبولتان للفنون فى نيويورك .

على أن أعظم نحاتى العصر هو جان — أنطوان أودون . وكان أبوه بواباً ، ولكن فى مدرسة للفن . وإذا كانت فرساى مسقط رأس جان ، فقد تنفس النحت من التماثيل التى بثها لويس الرابع عشر فى حدائق لنوتر . وبعد أن درس على بيجال فاز بجائزة روما وهو فى العشرين ، فانطلق إلى إيطاليا (١٧٦٠) . وقد اغتبط البا كليمنت الرابع عشر بتمثال « القديس برونو » الذى نحته فى روما اغتباطاً شديداً فعلق عليه بقوله « إن القديس يود أن ينطق لولا أن قواعد رهبنته تفرض الصمت»[٦٤] . وفى باريس نحت أو صب سلسلة متعاقبة من تماثيل ديانا . وتمثال برونزى منها فى مجموعة هنتنجتن يعد آية فى القسمات الكلاسيكية والرشاقة الفرنسية . وأشهر منه تمثال « ديانا العارية » « البرونزى المحفوظ الآن باللوفر ، وقد ضن عليه بمكان فى « صالون » ١٧٨٥ ، ربما (كما قال ناقد) « لأنها كانت أكثر جمالا وعرياً من أن تعرض على الجماهير» [٦٥] ، وأرجح من هذا السبب أن التمثال انتهك الفكرة التقليدية عن ديانا التى تصفها بالعفة .

وقد وجد أودون ككثيرين غيره من فنانى القرن الثامن عشر فى تصوير معاصريه ربحاً يفوق تصوير الربات اللائى لا تنتهك حرماتهن . على أنه قرر أن يكون منصفاً للحقائق وأن يظهر الشخصية لا الوجه . وكان ينفق ساعات كثيرة فى حجرات التشريح بمدارس الطب لدراسة التشريح ، وكان يقيس

رأس من يصوره بعناية كلما استطاع ، ثم ينحت تمثاله أو يصبه وفق هذه المقاييس ، وحين أثير سؤال عن جثة نبشت فى باريس وهل هى حقيقة جثة جون بول جونز كما قيل ، قورن شكل الجمجمة ومقاييسها بشكل الصورة التى صبها أودون فى ١٧٨١ ومقاييسها ، وبلغ من توافق الشكلين أن عد التطابق مؤكداً (٦٦) . وقد نحت فى رخام التمثال الذى صنعه لميرابو كل غارات الجدرى ، وأبرز كل الظلال والتجاعيد ، بل توقد العينين وعمقهما ، والشفتين تنفرجان استعداداً للكلام .

وسرعان ما أسعد جبابرة الثورة أن يجلسوا إليه ليصنع تماثيلهم ، فنقلهم إلينا بأمانة أحالت الرخام والبرونز إلى لحم التاريخ وروحه . وهكذا نستطيع الآن أن نرى فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ودالامبير ، وبوفون ، وطورجو ، ولويس السادس عشر ، وكاترين الثانية ، وكاليوسترو ، ولافاييت ، ونابليون ، وناى . وحين قدم فولتير إلى باريس عام ١٧٧٨ صنع له أودون عدة تماثيل تصوره : منها تمثال نصفى برونزى محفوظ الآن فى اللوفر ، يبدو فيه الإرهاق والكلال ، وتمثال نصفى شبيه به فى متحف فكتوريا وألبرت ، وآخر فى مجموعة ولس ، ثم رأس مبتسم مهذب مثالى الشكل طلبه فردريك الأكبر ، وأشهر الكل ذلك التمثال الذى قدمته مدام دنى إلى الكوميدى — فرانسيز : تمثال فولتير جالساً فى روب فضفاض ، أصابع نحيلة تمسك بذراعى المقعد ، وشفاه رقيقة ، وفم أهتم ، وفى العينين الحزينتين مازالت أثارة من مرح — أنه واحد من التماثيل العظيمة فى تاريخ الفن . فى ذلك العام ، حين سمع أودون بوفاة روسو ، هرع إلى أرمنون — فيل وصب قناعاً لغريم فولتير الميت ، ومنه صنع التمثال النصفى المحفوظ الآن باللوفر ، وهو أيضاً آية من آيات الفن .

وكان هناك أبطال أمريكيون أيضاً ، وقد صنع أودون رءوساً تمثالهم نابضة بالحياة حتى أن قطع العملة المسكوكة فى الولايات المتحدة مازالت تحمل صورة لواشنطن ، وفرانكلن ، وجفرسن . وحين عاد فرانكلن إلى أمريكا عام ١٧٨٥ ذهب أودون معه ؛ وأسرع إلى مونت فرنون وأقنع

واشنطن ، الرجل المشغول النافد الصبر ، بأن يجلس إليه فى فترات متقطعة على مدى أسبوعين ، وهكذا صنع التمثال الذى يزدان به مبنى برلمان الدولة فى رتشموند بفرجينيا — رجل من الجرانيت ، تجلله انتصارات غالية وأعباء باقية . هنا أيضاً نجد ذلك الاتحاد بين الجسد والروح الذى هو علامة فن فن أودون وخاتمه .

مثل هذا النحت كان من الجائز أن يجعل التصوير بالقياس إليه ترفاً صغيراً لولا أن جروز وفراجونار واصلا العمل طوال هذا العهد وخلال الثورة ، لولا أن المصور جاك — لوى دافيد صعد إلى مقام الدكتاتورية على جميع الفنون فى فرنسا فى انطلاقة تبزكيه كانطلاقة نابليون . وقد تعلم تقنيته من عمه البعيد فرانسو بوشيه ، وأصبح رساماً من الطراز الأول ، وأستاذاً أتقن الخط والتأليف أكثر من إتقانه اللون . وقد أدرك بوشيه أن تغير الأخلاق من بومبادور ودوبارى إلى مارى أنطوانيت كان يقلص الطلب على الصور التى تبرز النهود والأرداف ، فنصح دافيد بأن يذهب ويلتقط الأسلوب الكلاسيكى المحدث البسيط فى مرسم جوزف فيان ، الذى كان يرسم الجند الرومان والنساء الأبطال . وفى ١٧٧٥ وافق دافيد فيان إلى روما . وهناك أحس بتأثير فنكلمان ومنجز ، والمنحوتات القديمة فى متحف الفاتيكان ، والأطلال التى كشف عنها فى هركولانيوم وبومبيى . وقد قبل مبادىء الكلاسيكية المحدثة ، واتخذ النحت اليونانى نموذجاً يحتذيه فى تصويره .

فلما قفل إلى باريس عرض سلسلة من الموضوعات الكلاسيكية المرسومة بصرامة : أندروماك تبكى على جثمان هكتور (١٧٨٣) ، وقسم الهوراتيين (١٧٨٥) ، وموت سقراط (١٧٨٧) ، وبروتس عائداً من الحكم بالموت على أبنائه (١٧٨٩)[٦٧] . (وتقول الأسطورة التى رواها ليفى أن لوشياس جونيوس بروتس ، حين كان بريتورا لجمهورية روما الفتية (٥٠٩ ق . م) ، حكم على أبنائه بالإعدام لتآمرهم على إعادة الملوك إلى عرش روما) ، وكان دافيد قد رسم هذه الصورة الأخيرة فى روما ، فلما عرضها على الأكاديمية فى باريس حظر عرضها ، ولكن جمهور الفن احتج ،

وأخيراً عرضت اللوحة ، فزادت من حمى العصر الثورية . ورأت باريس في هذه الرسوم ، وفي الأخلاقيات الصارمة التي عبرت عنها ، ثورة مزدوجة على الروكوك الأرستقراطي والطغيان الملكي . وأصبح دافيد البطل الراديكالي لأستوديوهات باريس .

وقد أنتخب أثناء الثورة عضواً في المؤتمر ، وفي يناير ١٧٩٣ صوت بالموافقة على إعدام الملك . ثم قتل أحد المتشيعين للملكية عضواً آخر من نواب المؤتمر صوت بالموافقة مثل دافيد (٢٠ يناير ١٧٩٣) ، فعرض جثمانه على الجماهير شهيداً جمهورياً ، ورسم دافيد « آخر لحظات لبوليتييه » ، وعلق المؤتمر اللوحة في قاعته . وحين قتلت شارلوت كورداي مارا (١٣ يوليو ١٧٩٣) صور دافيد الميت راقداً في حمامه نصف مغمور في الماء ، وندر أن كان التصوير ممعناً في تصويره للواقع إلى هذا الحد ، أو في تعمده إثارة المشاعر . وقد أرست اللوحتان سجل شهداء الثورة ، وعمل دافيد بحماسة لدانتون وروبسبير ، ومكافأة له عين مديراً لجميع ضروب الفن في باريس .

فلما أن تقلد نابليون زمام السلطة بلقب « القنصل » الروماني ، رسم دافيد له بذات الحماسة التي رسم بها لزعماء الإرهاب . فرأى في بونابرت ابن الثورة ، الذي يقاتل ليمنع ملوك أوربا من رد ملك نظيرهم إلى عرش فرنسا . وحين نصب نابليون نفسه امبراطوراً (١٨٠٤) لم يفتر إعجاب دافيد به ، وعينه نابليون مصوراً للبلاط الإمبراطوري فرسم له المصور عدة صورة مشهورة : نابليون يعبر الألب ؛ نابليون يتوج جوزفين ؛ وتوزيع النسور ؛ وقد علقت هذه اللوحات الضخمة بعد ذلك على جدران حجرات قصر فرساي . وأظهر دافيد أثناء ذلك تعدد مواهبه بلوحتين رائعتين رسم فيهما مدام ريكامييه والبابا بيوس السادس[٦٨] . فلما رد آل بوربون نفي دافيد باعتباره من قتلة الملك ، فاعتكف في بروكسل ، حيث وافته زوجته لتشاركه منفاه (وكانت قد هجرته في ١٧٩١ لتحمسه للثورة) . وعاد الآن إلى المواضيع الكلاسيكية ، وإلى أسلوب التصوير النحتي الذي حبذه منجز ،

وفى ١٨٢٥ أختتم وهو فى السابعة والسبعين حياة من أروع ما عرف تاريخ الفن .

ومن لوحاته لوحة تصور مدام فيجيه — لبرون ، التى رفضت الثورة وآثرت الملوك والملكات . وقد نشرت وهى تدنو من عامها السابع والثمانين (١٧٥٥ — ١٨٤٢) مذكرات تروى وصفاً لطيفاً لشبابها ، وتذكر قصة محزنة لزواجها ، ويوميات برحلتها الفنية الطويلة ، وصورة لامرأة فاضلة يصدمها عنف التاريخ . وقد مات أبوها وهى فى الثالثة عشرة ، وكان مصور أشخاص ، ولم يترك لها مالا ، ولكن اليزابث كانت تلميذة شديدة الذكاء ، فاستطاعت وهى بعد فى السادسة عشرة أن تكسب دخلا طيباً من صورها . وفى ١٧٧٦ تزوجت مصوراً آخر اسمه بيير البرون ، وكان ابن أخ بعيد لشارل لبرون الذى كان مدير الفنون للويس الرابع عشر . وبدد زوجها ثروتها وثروته (كما تقول) « بشغفه الجامح بالنساء السيئات الخلق ، وبولعه بالقمار »(٦٩) . وقد ولدت له ابنة ، ثم هجرته بعد ذلك بقليل .

وفى ١٧٧٩ رسمت صورة لمارى أنطوانيت ، التى بلغ إعجابها بها أن جلست لها لترسمها فى عشرين لوحه . وتوثقت الصداقة بين المرأتين فكانتا تشتركان فى غناء الألحان الرقيقة التى كان جريترى يستدر بها العبرات من عيون باريس . وقد فتح كل الأبواب أمام المصورة الجذابة هذا العطف الملكى وما تميز بها عملها من أناقة مهذبة . وقد خلعت الحسن على كل امرأة ، ووضعت الورود فى الخدود الذابلة ، ومالبثت كل سيدة ثرية أن اشتاقت للجلوس إليها لتصورها . وكانت تتقاضى أتعاباً يسر لها ارتفاعها الاحتفاظ بشقة غالية وصالون يختلف إليه خيرة موسيقيي باريس .

وقد ذهبت ثلاث مرات لتصور مدام دوبارى فى لوفسيين رغم صداقتها للملكة . وفى المرة الثالثة (١٤ يوليو ١٧٨٩) سمعت قصف المدافع فى باريس . فعادت إلى المدينة لتجد أن الباستيل سقط ، وأن جماهير الغوغاء الظافرة تحمل الرءوس النبيلة على أسنة الرماح الملطخة بالدماء . وفى ٥ أكتوبر بينما كان حشد آخر من الغوغاء يسير صوب فرساى ليأسر الملك والملكة ، جمعت

ما استطاعت جمعه من متاعها وبدأت ثلاثة عشر عاماً من النفى الاختيارى. وقد رسمت فى روما لوحتها المعروفة التى تصورها وتصور ابنتها(٧٠)، وفى نابلى رسمت الليدى هاملتن فى صورة باخوسية(٧١). ورسمت فى فيينا، وبرلين، وسانت بطرسبرج، وحين أنهت الثورة شوطها قفلت إلى فرنسا (١٨٠٢)، وهناك عمرت أربعين سنة أخرى بعد أن انتصرت على غير الدهر كلها، وأحسنت صنعاً بموتها قبل أن تندلع الثورة من جديد.

٦ — الأدب

أنجب الأدب الفرنسى فى الحقبة القصيرة الواقعة بين ١٧٧٤، ١٧٨٩ بعض الآثار المذكورة التى مازالت تجد القراء وتحرك العقول: منها «الحكم» لشامفور، وبول وفرجينى لبرناردان دسان — بيير، والعلاقات الغرامية الخطرة لشودرلو دلاكلو (التى تكلمنا عنها بما فيه الكفاية)، ومجلدات رستيف دلابريتون الكاشفة على ما فيها من فوضى.

تلك كانت جزراً انبعثت من بحر أدبى يموج بالمدارس والمكتبات، ومجموعات القراء، والمحاضرات، والصحف، والمجلات، والنشرات، والكتب، فيض من المداد فيه الزبد وفيه الخمير لم يعرف العالم له نظيراً من قبل. ولم يكن يلم بالقراءة من الشعب الفرنسى غير قلة قليلة(٧٢)، ومع ذلك كان الملايين منهم متعطشين للمعرفة جياشين بالأفكار. واتسع الطلب على الموسوعات، وخلاصات العلم الوافية، وملخصات المعرفة، وكان جماعة الفلاسفة والمصلحون يعلقون الآمال العراض على نشر التعليم.

وكان أكثر التعليم لايزال فى أيدى رجال الدين رغم إقصاء اليسوعيين وإشراف الدولة على المدارس. أما الجامعات المتصلة فى تقاليدها الدينية والسياسية فكانت قد تبلدت وساءت سمعتها، وكانت فى نهاية القرن بادئة لتوها فى الالتفات إلى العلوم. غير أن المحاضرات العامة فى العلم كانت تجد رواداً حريصين عليها، وكانت المدارس التقنية فى ازدياد. وكان كل تلاميذ الكليات تقريباً من الطبقة الوسطى. أما شباب النبلاء فآثروا إحدى

الأكاديميات الحربية الإثنى عشرة التى أنشأها سان — جرمان عام ١٧٧٦ أو بعده (وفى واحدة منها — بمدينة برين — كان نابليون بونابرت يتلقى دروسه)، ويروون أن طلبة الكليات «كثيراً ما ألفوا التنظيمات لتأييد المظاهرات السياسية»[٧٣]، ولما كان عدد خريجى الكليات فى تلك الفترة يجاوز طاقة الاقتصاد الفرنسى على استخدامهم، فقد بات الخريجون العاطلون مصدراً للسخط والتذمر، وألف هؤلاء الرجال نشرات أججت نيران الثورة .

وكان للأغنياء مكتبات خاصة فى مقار تحسد عليها، تضم كتباً تجلد تجليداً فاخراً وتقرأ أحياناً . أما أفراد الطبقتين الوسطى والدنيا فكانوا ينتفعون بالمكتبات المتنقلة، أو يشترون كتبهم — وكلها تقريباً ورقية الغلاف — من الأكشاك أو الحوانيت . وفى ١٧٧٤ قدر المبيع من الكتب فى باريس بأربعة أمثال المبيع فى لندن الآهلة بعدد أكثر كثيراً من السكان[٧٤]، وذكر رستيف دلابريتون أن القراءة قد جعلت عمال باريس «عنيدين»[٧٥] .

أما الصحف فكانت تنمو عدداً وحجماً وتأثيراً . وكانت صحيفة «الجازيت دفرانس» القديمة، التى أنشئت فى ١٦٣١، لا تزال الأداة الرسمية — وغير الموثوق بها — فى نقل الأنباء السياسية . وكانت صحيفة «المركيز دفرانس» التى بدأت فى ١٦٧٢ باسم «المركيز جالان» توزع فى ١٧٩٠ ثلاثة عشر ألف نسخة، وهو توزيع كان يعد ممتازاً؛ وقد وصفها ميرابو بأنها أكفأ الصحف الفرنسية[٧٦] . وفى ١٧٧٧ صدرت «الجورنال دبارى» — وهى أول الصحف اليومية الفرنسية، أما صحيفة «المونيتور» الأوسع شهرة فلم تصدر إلا فى ٢٤ نوفمبر ١٧٨٩ . وكان هناك الكثير من الصحف الإقليمية، مثل «الكوربيه دبروفانس» التى كان يحررها ميرابو الإبن .

وكانت النشرات أو الكراريس فيضاناً غامراً اكتسح فى النهاية كل شىء أمامه . ففى الشهور الأخيرة من عام ١٧٨٨ صدر منها نحو ٢٫٥٠٠ فى فرنسا[٧٧]،

وكان لبعضها تأثير تاريخي ، مثل كراسة الأبيه سبييس « ما الطبقة الثالثة » أو كراسة كامى دمولان « فرنسا الحرة » . حتى إذا جاء يوليو من عام ١٧٨٩ وجدنا الصحافة أعظم قوة فى فرنسا . وقد وصفها نكير فى ١٧٨٤ بأنها « قوة غير مرئية تملى أوامرها على المدن والمحاكم على السواء ، وحتى فى قصور الملوك ، رغم أنها بلا مال ، وبلا سلاح ، وبلا جيش »(٧٨) . ولعبت الأغانى دوراً فى الدعوة والتحريض ، وقد وصف شامفور الحكومة بأنها ملكية مقيدة بالأغانى الشعبية(٧٩) .

وطوى تيار الثورة شامفور نفسه فانتقل من كونه « شخصاً مرضياً عنه » فى البلاط إلى المشاركة فى اقتحام الباستيل . وقد ولد لبدال ريفى (١٧٤١) ، وقدم إلى باريس وكسب قوته بالحيلة والظرف . وكانت النساء يسكنه ويطعمنه لالشيء إلا للاستمتاع بإثاره حديثه ، وقد كتب عدة مسرحيات ، أبهجت إحداها مارى أنطوانيت كثيراً فأقنعت الملك بأن يمنحه معاشاً قدره ألف ومائتا جنيه . وعين سكرتيراً لأخت للويس السادس عشر ، وتلقى راتباً إضافياً قدره ألفا جنيه فى العام . وبدا أن كل شيء يربطه بالقضية الملكية ، ولكن فى ١٧٨٣ التقى بميرابو ، فما لبث أن انقلب لاذعاً للحكومة . وهو الذى اقترح على سبييس العنوان اللافت الذى وضعه على كراسته الشهيرة .

وفى هذه الأثناء ، وبوحى من لاروشفوكو ، وفوفنارج ، وفولتير ، دون بإيجاز وعلى عجلة « حكما » أفصحت عن نظرته الساخرة إلى العالم . وقد قالت مدام هلفتيوس التى ظلت تستضيفه فى بيتها بسيفر طوال سنين أربع « كلما جرى حديث بينى وبين شامفور فى الصباح ، كان الحزن يغمرنى بقية اليوم »(٨٠) . وقد رأى الحياة خدمة ينخدع بها الأمل « ان الأمل دجال لايفتأ يحتال علينا ، أما أنا فإن سعادتى لم تبدأ إلا يوم طلقت الأمل »(٨١) . « لو أن الحقائق القاسية ، والاكتشافات المحزنة ، وأسرار المجتمع — التى تتألف منها معرفة رجل الدنيا الذى بلغ الأربعين — عرفها هذا الإنسان نفسه وهو فى العشرين ، لأصابه اليأس ، أو لبات إنساناً فاسداً عن عمد »(٨٢) .

وقد سخر شامفور من العقل ، وهو الذى جاء فى ختام عصر العقل ، ورأى فيه سيداً على العاطفة أقل منه أداة للشر . « ان الإنسان فى حالة المجتمع الراهنة يبدو أكثر فساداً بسبب عقله منه بسبب عواطفه المشبوبة »[٨٣] . أما عن النساء « فمهما بلغ سوء رأى الرجل فيهن ، فما من امرأة لا يسوء رأيها فيهن عن رأيه »[٨٤] . والزواج فخ ، « ان الزواج والعزوبة كليهما مجلبة للعناء : وينبغى أن نفضل منهما ما ليست متاعبه بغير دواء»[٨٥] . « ان النساء لا يمنحن للصداقة إلا ما يقترضنه من الحب» [٨٦] . و « الحب الذى يوجد فى المجتمع ليس إلا تبادل أوهام واحتكاك بشرتين [٨٧] .

فلما خرج شامفور من القصور والبيوت الفاخرة إلى شوارع باريس اشتد تشاؤمه . « باريس ، مدينة اللهو واللذة ، حيث يموت أربعة أخماس الناس حزناً ... المكان الذى يفوح نتنه وليس فيه إنسان ينبض قلبه بالحب»[٨٨] .

والعلاج الوحيد لهذه الأحياء الفقيرة هو العقم . « من سوء حظ النوع الإنسانى ، وحسن حظ الطغاة ، أن الفقراء والتعساء لا يملكون غريزة الكبرياء التى يملكها الفيل ، فهو لا يتوالد وهو أسير » . . . [٨٩] .

وكان أحياناً يسترسل فى الحلم بمثل أعلى « من الضرورى الجمع بين النقائض : حب الفضيلة دون اكتراث للرأى العام ، والميل للعمل دون اكتراث للشهرة ، وحب المرء لصحته دون اكتراث للحياة » [٩٠] . وقد خطر له فى بضع سنين أن يضفى على الحياة معنى بتكريس نفسه للثورة ، ولكن خمس سنين من التعامل مع ميرابو ، ودانتون ، ومارا ، وروبسبير ، أحيت يأسه من جديد وبدا له يومها أن شعار الثورة « الحرية ، والمساواة ، والإخاء » أصبح معناه «كن أخى وإلا قتلتك » [٩١] . واختار الانضمام إلى صفوف الجيروند ، وراح يسوط الزعماء الأكثر تطرفاً بدعابته المتهورة . فقبض عليه ، ثم أفرج عنه بعد قليل . فلما رأى نفسه مهدداً بالقبض عليه ثانية ، ضرب نفسه بالرصاص وطعن نفسه . ومد فى أجله حتى ١٣ أبريل ١٧٩٤ ثم مات بعد أن قال لسييس ، « انى منطلق فى النهاية من هذا العالم الذى لابد فيه للقلب اما أن ينكسر أو يتقسى .

وإذا كان تأثير فولتير هو الغالب عند شامفور ، فإن تأثير روسو كان كاملا وسافراً فى جاك — هنرى برناردان دسان — بيير . ففى الحادية والثلاثين (١٧٦٨) كلف بوصفه مهندساً بمهمة حكومية فى الأيل دفرانس ، المسماه الآن موريتيوس . فى تلك الجزيرة الجبلية ، المطيرة ، الكثيرة الثمر ، وجد ما خاله « حالة الطبيعة » التى تخيلها روسو — رجالا ونساء يعيشون ملتصقين بالأرض لم تلوثهم رذائل المدنية . فلما عاد إلى فرنسا (١٧٧١) أصبح صديقاً مخلصاً لجان — جاك ، وتعلم أن يحتمل غضباته ، وأن يرى فيه مخلصاً ثانياً للبشرية . وفى كتابه « رحلة إلى الأيل دفرانس » (١٧٧٣) اوصف حياة سكان الجزيرة البسيطة وإيمانهم الدينى الذى يشددهم . وقد رأى أسقف اكس فى هذا الكتاب انتقاضاً سليماً على فولتير ، وحصل للمؤلف على معاش ملكى قدره ألف جنيه . واستجاب برناردان بكتاب عنوانه « دراسات للطبيعة » (١٧٨٤) ، وآخر عنوانه « توافقات الطبيعة » (١٧٩٦) ، وصف فيهما عجائب حياة النبات والحيوان ، وزعم أن الأمثلة الكثيرة للتوفيق ، والهدف ، والخطة ، تثبت وجود عقل أعلى . وفاق روسو فى تمجيده للوجدان فوق العقل . «كلما تقدم العقل أتانا بالدليل على تفاهتنا ، وبدلا من أن يهدىء أحزاننا بأبحاثه ، فهو كثيراً ما يزيدها بنوره . . أما الوجدان . . . فيعطينا دافعاً سامياً ، وهو إذ يخضع عقولنا يصبح أنبل الغرائز وأكثرها إشباعاً فى حياة البشر»[٩٣] .

وقد ألحق برناردان بالطبعة الثانية من « الدراسات » (١٧٨٨) رواية سماها« بول وفرجينى » ظلت واحدة من عيون الأدب الفرنسى خلال التقلبات الكثيرة التى اعترت الذوق الأدبى ، وخلاصتها أن امرأتين فرنسيتين حبليين تنزلان موريتيوس ، إحداهما مات زوجها ، والأخرى هجرها حبيبها ، وتلد الواحدة بول والأخرى فرجينى . ويشب الطفلان ويترعرعان فى واد فى الجبل ، وسط مناظر رائعة ينتشر فيها أريج الأزهار الطبيعية . ويشكل أخلاقهما حب الأم وتعاليم الدين ، حتى إذا بلغا الحلم أحب أحدهما الآخر . .

إذ ليس حولهما أحد غيرهما . وتبعث فرجيني إلى فرنسا لتتسلم إرثاً ، وهو أمر لايحدث كثيراً فى الحالة الطبيعية . فيعرض عليها هناك الزواج والثراء العريض إن أقامت فى فرنسا ، ولكنها ترفضهما لتعود إلى موريتيوس وبول . ويعدو بول هابطاً إلى الشاطىء ليرى سفينتها وهى تدنو من البر ، وتغمره الفرحة بخواطر الحب والسعادة ، ولكن السفينة تجنح إلى مياه ضحلة فترتطم بالقاع وتحطمها عاصفة . وتغرق فرجيني وهى تحاول الوصول إلى البر ، ويموت بول حزناً عليها .

والكتيب قصيدة منثورة ، رواها المؤلف ببساطة فى الأسلوب ، ونقاء وموسيقى فى اللغة لايفوقها كتاب فى الأدب الفرنسي . ووافقت تقواه ورقة عاطفته مزاج الجيل ، ولم يزعج أحداً أن لهاتين المرأتين الفاضلتين ولطفليهما عبيداً(٩٤) . وهلل القوم لبرناردان خلفاً أصيلا لروسو ، وكتبت إليه النساء بنغمة الإعجاب الحار التى طيبت من قبل خاطر مؤلف «اميل» . وحذا برناردان حذو روسو فلم يستغل شهرته ، بل تجنب مخالطة المجتمع ، وعاش عيشة هادئة بين الفقراء . وتركته الثورة دون أن تمسه بسوء . وفى إبان عنفها تزوج وهو فى الخامسة والخمسين من فيليسيتيه ديدو ، البالغة اثنين وعشرين ربيعاً ، فولدت له طفلين سميا بول وفرجيني . وبعد أن ماتت فيليسيتيه تزوج ثانية وهو فى الثالثة والستين من شابة تدعى ديزيريه وبيلبو ، رعته فى حب حتى مات فى ١٨١٤ . وقبل رحيله شهد بزوغ نجم شاتوبريان الذى تلقى من يديه مشعل الرومانسية والتقوى الفرنسيتين وحمله إلى القرن التاسع عشر .

هذا وقد ظهرت فى هذا العصر كتب أقل شأناً لم يعد الناس يقرءونها اليوم ، ولكنها شاركت فى إعطاء الجيل صوته ولونه . من ذلك أن الأبيه جان - جاك بارتلمي أصدر وهو فى الثانية والسبعين (١٧٨٨) كتاباً سماه « رحلة الفتى أناخارسس فى اليونان » بعد أن عكف على تأليفه ثلاثين عاماً ، وقد زعم الكتاب أنه وصف لطبيعة اليونان وآثارها ومؤسساتها وعاداتها وعملاتها فى القرن الرابع قبل المسيح ، كما رآها رحالة سكوذى . وقد صعد الكتاب إلى قمة الموجة الكلاسيكية ، وكان من أبرز الكتب الكلاسيكية الناجحة فى ذلك العصر ، وكاد يرسى أصول علم العملات فى فرنسا .

ونافس شعبيته كتاب آخر هو « الأطلال ، أو تأملات فى ثورات الامبراطوريات » الذى أصدره الكونت كونستانتان دفولنى فى ١٧٩١ بعد أن قضى أربع سنوات من الرحلة فى مصر والشام . وحين رأى حطام الحضارات القديمة تساءل « من يستطيع أن يؤكد لنا أن مثل هذا الخراب ان يكون يوماً ما مصير بلادنا ؟ » وقد نتردد الآن فى إعطاء جواب متفائل عن هذا السؤال ، ولكن فولنى الذى جاء فى ختام عصر العقل ، والذى ورث كما ورث كوندوريسيه كل آماله للبشرية ، أخبر قراءه أن سقوط تلك الإمبراطوريات القديمة مرده جهل شعوبها الذى نجم عن صعوبة نقل المعرفة من إنسان إلى آخر ومن جيل إلى جيل . أما الآن فقد ذللت هذه الصعوبات باختراع الطباعة . فكل ما يلزم منذ الآن لتفادى تدمير الحضارة هو بث المعرفة على نطاق واسع ، الأمر الذى يفضى بالناس والدول إلى المواءمة بين دوافعهم غير الاجتماعية والصالح العام . وفى هذا التوازن بين القوى ستخلى الحرب مكانها للتحكيم ، « وسيصبح النوع الإنسانى بأسره مجتمعاً عظيماً واحداً ، أسرة واحدة تحكمها روح واحدة وقوانين عامة ، وتتمتع بكل السعادة التى فى مقدور الطبيعة البشرية »[٩٥] .

والآن نصل إلى سيرة عجيبة هى سيرة نيقولا — إدمون رستيف دلابريتون ، الذى لقبه بعض معاصريه « روسو البالوعات » و « فولتير خادمات المخادع » ، وهو مؤلف نحو مائتى كتاب ، طبع الكثير منها بيديه وبمطبعته ، وبعضها فيه فحش متعمد ، وكلها يؤلف صورة تفصيلية لأخلاق وعادات الطبقات الدنيا فى عهد لويس السادس عشر .

ففى كتابه « حياة أبى » (١٧٧٩) أعطانا وصفاً صور فيه أباه إدمون فى صورة مثالية مشربة بالحنان ، هذا الأب الذى تذكر أن له « طلعة هرقول ورقة صبية »[٩٦] . أما الإبن فقد سجل حياته هو فى ستة عشر كتاباً مستفيضة عنوانها « مسيو نيقولا » (١٧٩٤ — ٩٧) ، اختلطت فيها الحقيقة بالخيال عن تقلبات حياته وغرامياته وأفكاره . وقد ولد فى بيت مزرعة (١٧٣٧) فى ساسيه (التى سمى قسم منها لابريتون) ، على عشرين ميلا من أوكسير . ويروى أنه حين بلغ الحادية عشرة أصبح أباً لأول مرة[٩٧] . وفى الرابعة

عشرة أحب جانيت روسو ، وكانت فى السابعة عشرة ، وبدأ إعجابه الذى امتد طوال حياته بأقدام الأنثى «كا شعورى نحوها نقياً رقيقاً كما كان حاداً . . وكانت قدمها الجميلة شيئاً لا أستطيع مقاومته » [٩٨] . ولعل الرغبة فى تخليصه من شراك كهذه هى التى أوحت بإيفاده إلى أوكسير (١٧٥١) ليعمل تلميذاً لطابع . وسرعان ما أغوى زوجته معلمه ، ولكن لا سند لنا لهذه الواقعة غيره . ثم يقول إنه فى الخامسة عشرة كان له خمس عشرة «خليلة» . وبعد أربع سنين من هذه الهواية انتقل إلى باريس ، وهناك استخدم طابعاً باليومية يكسب فرنكين ونصفاً فى اليوم ؛ وهو أجر مكنه من الحصول على طعامه ودفع أجر مومس بين الحين والحين ، وكان إذا قلت موارده نام مع الخادمات[٩٩] . وفى ١٧٦٠ حين كان فى السادسة والعشرين تزوج امرأة تكاد تقاربه خبرة ، واسمها أجنيس لوبيك ، ثم تبين أن كليهما غير وفى لصاحبه . وتم طلاقهما فى ١٧٨٤ ، لا بسبب هذه الزلات ؛ بل لأن كليهما وقع فى شرك التأليف ، وكانا يتنافسان على الورق والمداد والشهرة .

وكان نيقولا قد بدأ حياته كاتباً فى ١٧٦٧ بقصته « قدم فانشيت » التى كانت قدم الصبية هى « أبرز ملامحها Piéce de résistance وكان أول عمل أدبى ناجح له هو « الفلاح المنحرف» (١٧٧٥) وهو يقص بالرسائل كيف انحرف الفلاح إدمون بعد انتقاله إلى باريس متأثراً بحياة المدينة وفسوقها . فيعلمه ملحد يدعى جودى داراس أن الله أسطورة وأن الأخلاق أكذوبة . وأن كل اللذات مشروعة ، وأن الفضيلة عبء ثقيل لا مبرر له على الحقوق الطبيعية لرغباتنا . وأن أول واجباتنا أن نعيش ملء حياتنا ما استطعنا العيش[١٠٠] . ويقبض على أراس ، فيقول له إدمون « يوجد إله » ، ويشنق أراس غير نادم ولا تائب . وقد سمى أحد معاصرى المؤلف هذا الكتاب « علاقات الناس الغرامية الخطرة »[١٠١] ، وذهب رستيف إلى أنه سيعيش ما عاشت اللغة الفرنسية[١٠٢] وفى كتاب مرافق سماه « الفلاحة المنحرفة » (١٧٨٤) واصل هجومه على انعدام المسئولية الأخلاقية ومفاسد حياة المدينة . وقد استعمل حصيلته من كتبه ليرفع مقامه درجة أو اثنتين على السلم الاجتماعى للفسق .

أما أهم أعمال رستيف فهو « المعاصرات » الذى طال حتى بلغ خمسة وستين مجلداً (١٧٨٠ — ٩١) . وكان لهذه القصص القصيرة عنوان فرعى جذاب هو « مغامرات أجمل نساء عصرنا » — وفيه وصف لحياة وغراميات وآداب بائعات الزهر ، وبائعات القسطل ، وبائعات الفحم ، والخياطات ، والحلاقات ، بلغ من الواقعية والدقة مبلغاً أتاح للنساء الحقيقيات أن يتبين أنفسهن فيه ويلعن المؤلف حين يلقينه فى الشوارع[١٠٣] . ومثل هذا المشهد العريض من الحياة البشرية لم يقدمه كاتب فى الأدب الفرنسى حتى جاء بلزاك . وقد أدان النقاد إدمان رستيف على « الموضوعات المنحطة » ، ولكن سياستيان مرسييه ، الذى كان كتابه « لوحة باريس » . (١٧٨١ — ٩٠) يعرض مسحاً للمدينة أفضل ترتيباً ، حكم بأنه «أعظم قصاصينا غير منازع »[١٠٤] .

وقبيل نشوب الثورة بدأ رستيف يسجل فى « ليالى باريس » (١٧٨٨ — ٩٤) الأحداث التى شهدها (أو تخيلها) فى جولاته الليلية . وهنا أيضاً كان أهم ما لاحظه الأعماق السفلى لباريس — الشحاذين ، والحمالين ، والنشالين ، والمهربين ، والمقامرين ، والسكارى ، وخاطفى الأطفال ، واللصوص ، والمنحرفين ، والبغايا ، والقوادين ، والمنتحرين . وقد زعم أن حظه من السعادة كان ضئيلا ، ومن الشقاء موفوراً ، وصور نفسه بطلا منقذاً فى حالات كثيرة . وقد ألم بالمقاهى القريبة من الباليه — رويال ، ورأى الثورة تتشكل ، سمع كامى ديمولان يدعو الناس دعوته المشهورة إلى حمل السلاح ، ورأى الدهماء الظافرين يجوبون المدينة عارضين رأس دلونى مأمور سجن الباستيل المفصول عن جسده ، ورأى النساء يزحفن على فرساى لأسر الملك[١٠٥] . ثم لم يلبث أن مل العنف والإرهاب وعدم الأمان . وتعرض غير مرة لخطر القبض عليه ، ولكنه نجا بإعلانه الولاء للثورة . أما فى مجالسه الخاصة فكان يندد بهذا كله ويتمنى لو أمكن « رد لويس السادس عشر الطيب إلى مكان السلطة »[١٠٦] . وقد عنف فى لوم روسو لأنه أطلق العنان لانفعالات الشباب والجهال والعاطفيين ، « ان كتابه أميل هو الذى

رمانا بهذا الجيل المغرور ، العنيد ، الوقح ، المتصلب ، الذى يعلو صوته على من هم أكبر منه سناً فيسكتهم »[١٠٧] .

وهكذا تقدم به العمر وندم على أفكار شبابه لا على خطاياه . وفى ١٧٩٤ عاد فقيراً كما كان ، غنياً فى ذكرياته وحفدته فقط ؛ وقد وضع فى المجلد الثامن من « المسيونيقولا » « تقويماً » بالرجال والنساء الذين عرفهم فى حياته ومنهم عدة مئات من العشيقات ، وأكد من جديد إيمانه بالله . وفى ١٨٠٠ أخبرت الكونتيسه بوهارنيه نابليون بأن رستيف يعانى شظف العيش وأن حجرته ليس بها نار تدفئها ، فبعث إليه نقوداً وخادماً وحارساً ، ثم عينه (١٨٠٥) فى وظيفة بوزارة الشرطة . وفى ٨ فبراير ١٨٠٦ مات رستيف وقد بلغ الثانية والسبعين . واشتركت الكونتيسه وعدة أعضاء من المجمع الفرنسى (الذى كان قد رفض انضمامه إليه) مع جمع العامة البالغين ألفاً وثمانمائة فى تشييعه إلى مثواه الأخير .

٧ — بومارشيه

كتب أرثر ينج فى ١٧٨٨ يقول «كلما خبرت المسرح الفرنسى وجدتنى مضطراً إلى الاعتراف بتفوقه على مسرحنا ، سواء فى عدد ممثليه الأكفاء ، أو فى نوعية الراقصين والمغنين والأشخاص الذين تعتمد عليهم صناعة المسرح ، وكلهم راسخ القدم على نحو رائع »[١٠٨] . وكانت الحفلات التمثيلية تحيا كل ليلة ، بما فيها ليالى الأحد ، فى التياتر — فرانسيه الذى أعيد بناؤه فى ١٧٨٢ ، وفى كثير من المسارح الإقليمية . وجاءت الآن فترة خلت فيها خشبة المسرح من فحول الممثلين فقد مات لوكان ، وتقاعدت صوفى أرنو فى ١٧٧٨ ؛ ثم استهل تالما الذى سيصبح أثير نابليون حياته المسرحية مع الكوميدى — فرانسيز فى ١٧٨٧ ، وحقق أول انتصار له فى مسرحية مارى — جوزف شنييه « شارل التاسع » فى ١٧٨٩ . وكان أحب كتاب العصر المسرحيين إلى الشعب ميشيل جان سيدين الذى ألف كوميديات عاطفية استأثرت بالمسرح الفرنسى طوال قرن من الزمان . ونحن نحييه وننتقل إلى الرجل الذى نفخ الحياة فى « فيجارو » بمساعدة موتسارت وروسينى ، وأعطى الحرية لأمريكا (فى زعمه) .

وقد عاش هذا الرجل ، وهو بيير — أوجستن كارون ، كما عاش فولتير ، أربعة وعشرين عاماً دون أن يعرف اسمه التاريخي . وكان أبوه صانع ساعات فى ضاحية سان — دينى الباريسية . وبعد أن تمرد قليلا راض نفسه على احتراف حرفة أبيه . فلما بلغ الحادية والعشرين اخترع ضرباً جديداً من الهروب مكنه من أن يصنع « ساعات ممتازة بلغت غاية ما يناسب من الصغر والتسطح »(١٠٩) . وقد أبهج لويس الخامس عشر بعينة منها ، وصنع لمدام بومبادور ساعة كانت من الصغر بحيث أمكن إدخالها فى خاتمها ، وزعم أن هذه أصغر ما صنعه الصانعون من الساعات اطلاقاً . وفى ١٧٥٥ اشترى من مسيو فرانكيه المسن وظيفته التى كان يشغلها بوصفه أحد المشرفين على المائدة الملكية الذين كانوا يقومون على خدمة الملك خلال تناوله الطعام ؛ ولم تكن بالوظيفة المرموقة ، ولكنها أتاحت لبيير مدخلا إلى البلاط . وبعد عام مات فرانكيه ، فتزوج بيير أرملته (١٧٥٦) وكانت تكبره بخمس سنين . وإذ كانت تملك إقطاعة صغيرة ، فقد أضاف بيير اسم الإقطاعة إلى اسمه ، فأصبح بومارشيه . فلما ماتت زوجته (١٧٥٧) ورث أملاكها .

ولم يكن قد حظى بأى تعليم ثانوى على الإطلاق ، ولكن الجميع — حتى الأرستقراطيين الذين ساءهم تسلقه السريع — أقروا بتيقظ ذهنه وسرعة خاطره . والتقى فى الصالونات والمقاهى بديدرو ، ودالامبير ، وغيرهما من جماعة الفلاسفة ، فنهل من التنوير . وقد استرعى انتباه بنات لويس الخامس عشر العوانس تحسين أدخله فى نظام دواسة الهارب ، وفى ١٧٥٩ بدأ يعطيهن دروساً فى الهارب . وطلب المصرفى جوزف بارى — دوفرينه إلى بومارشيه أن يستعين بالآنسات الملكيات فى الحصول على تأييد لويس الخامس عشر للمدرسة الحربية التى كان رجل المال يديرها ، وأفلح بيير فى الأمر ، فأعطاه بارى — دوفرنيه أسهماً قيمتها ستون ألف فرنك . يقول بومارشيه « لقد أطلعنى على أسرار عالم المال . . . وبدأت أجمع ثروتى بإرشاده ، وعملا بنصيحته دخلت فى مضاربات عديدة ، أعاننى فى بعضها بماله أو باسمه »(١١٠) . وهكذا أصبح بومارشيه فيلسوفاً من أصحاب الملايين ، مقتدياً فى هذا وفى كثير غيره بالسوابق التى وضعها فولتير . فما وافى عام

١٧٧١ حتى بلغ من الثراء ما أتاح له شراء وظيفة سكرتارية شرفية لدى الملك ، جاءته بلقب النبالة . وسكن منزلا رائعاً فى شارع كونديه أنزل فيه أباه وأخواته الفخورين .

وكان له أختان أخريان تعيشان فى مدريد — إحداهما متزوجة والأخرى — واسمها ليزيت . مخطوبة لخوزيه كالافيجو أى فخاردو المحرر المؤلف الذى ظل ست سنوات يؤجل الزواج غير مرة . وفى مايو ١٧٦٤ خرج بومارشيه فى رحلة طويلة راكباً عربة البريد نهاراً وليلا إلى العاصمة الإسبانية . فعثر على كلافيجو ، ووعده هذا بأنه سيتزوج ليزيت عما قليل ، ولكنه زاغ متنقلا من مكان إلى مكان . وأخيراً أدركه بيير ، وطالبه بالتوقيع على عقد زواج ، فاعتذر خوزيه بحجة أنه تناول لتوه مسهلا ، وكان القانون الإسبانى يعتبر أى عقد يوقع فى ظرف كهذا باطلا . فهدده بومارشيه ، فاستعدى عليه كلافيجو قوى الحكومة ، وهزم الفرنسى الذكى بسلاح التسويف والمماطلة . فلما أقلع عن المطاردة ، حول جهوده إلى ميدان التجارة وكون عدة شركات ، إحداها لإمداد المستعمرات الإسبانية بالعبيد الزنوج . (ونسى أنه قبل سنة واحد فقط كتب قصة ذم فيها الرق) [١١١] . وتحطمت هذه الخطط جميعها على صخرة الموهبة الإسبانية ، موهبة التسويف والتأجيل . على أن بيير استمتع أثناء ذلك بالصحبة الطيبة وبخليلة تحمل لقب نبالة ، وخبر من العادات الإسبانية ما أعانه على تأليف تمثيلياته عن حلاق أشبيلى . أما ليزيت فقد وجدت حبيباً آخر ، وقفل بومارشيه إلى فرنسا خاوى الوفاض إلا من الخبرة . وقد كتب مذكرات رائعة عن رحلته ، ألف منها جوته مسرحيته « كلافيجو » كما أسلفنا .

وفى ١٧٧٠ مات بارى — دوفرنيه تاركاً وصية أقر فيها بأنه مدين لبومارشيه بخمسة عشر ألف فرنك . ونازع أهم الورثة وهو الكونت دلابلاش على صحة هذه الفقرة مدعياً أنها مزورة . وأحيل النزاع على برلمان باريس ، فعين المستشار لوى — فالنتن جوزمان ليبدى رأيه فيه . فى هذا الظرف الحرج كان بومارشيه نزيل السجن نتيجة شجار عنيف مع الدوق دشولن على خليلة . فلما أفرج عنه مؤقتاً ، أرسل « هدية » من مائة جنيه ذهبى (لوى

دور) ، وساعة مرصعة بالماس ، إلى السيدة جوزمان اغراء لها على أن تمهد السبيل لاستماع زوجها إليه ، فطلبت خمسة عشر جنيهاً ذهبياً أخرى أجر « سكرتير » ، فأرسلها . وظفر بالمقابلة ، ولكن المستشار اتخذ قراراً ضده ، فأعادت السيدة جوزمان كل شيء إلا الخمسة عشر جنيهاً ذهبياً ، وأصر بومارشيه على ردها هذا المبلغ أيضاً ، واتهمه جوزمان بتقديم الرشوة . فعرض بيير الأمر على الشعب فى سلسلة من « المذكرات » فيها من الحيوية والظرف ما أكسبه ثناء عريضاً باعتباره مجادلا بارعاً ان لم يكن رجلا أميناً كل الأمانة . وقد قال فولتير عنها : لم أر قط شيئاً أقوى ولا أجرأ ولا أفكه ولا أطرف ولا أشد إذلالا لخصومه . فهو يحارب « دستة » منهم فى وقت واحد ويحصدهم حصداً »[١١٢] . وأصدر البرلمان حكماً برفض دعواه فى حقه فى الميراث (٦ أبريل ١٧٧٣) ، واتهمه فى الواقع بالتزوير ، وحكم عليه بدفع ٥٦,٣٠٠ جنيه نظير التعويض والديون .

فلما أفرج عن بومارشيه (٨ مايو ١٧٧٣) استخدمه لويس الخامس عشر جاسوساً فى بعثة إلى انجلتره ليمنع تداول نشرة فاضحة فى حق مدام دوبارى . فنجح فى مهمته ، وواصل اشتغاله عميلا فى عهد لويس السادس عشر الذى كلفه بأن يعود إلى لندن ويرشو جوليلمو انجيلوتشى كى يمتنع عن اصدار نشرة فى حق مارى أنطوانيت . وسلم انجايلوتشى المخطوطة نظير ٣٥,٠٠٠ فرنك ورحل إلى نورمبرج ؛ واشتبه بومارشيه فى حيازته نسخة ثانية ، فتبعه عبر المانيا ، وأدركه قرب نويشتات ، وأكرهه على تسليمه النسخة ، ثم هاجمه قاطعاً طريق ، فدفعهما عنه ، ولكنه جرح ، وشق طريقه إلى فيينا ، حيث قبض عليه بوصفه جاسوساً ، وقضى فى السجن شهراً ، ثم أطلق سراحه ، فركب قافلا إلى فرنسا .

ولكن مغامرته الجريئة التالية أحق بمكان فى التاريخ . ذلك أن فرجين أوفده فى ١٧٧٥ إلى لندن ليستطلع له حقيقة الأزمة المتصاعدة بين انجلتره وأمريكا . وفى سبتمبر بعث بومارشيه إلى لويس السادس عشر بتقرير تنبأ بنجاح الثورة الأمريكية ، وأكد وجود أقلية مناصرة للأمريكيين فى انجلتره .

وفى ٢٩ فبراير ١٧٧٦ وجه إلى الملك رسالة أخرى ، أوصى فيها بإرسال المعونة الفرنسية سراً إلى أمريكا ، بحجة أنه لا سبيل أمام فرنسا لحماية نفسها من التبعية إلا بإضعاف شوكة انجلتره[١١٣] . ووافق فرجين على هذا الرأى ، ورتب كما رأينا أن يمول بومارشيه لتزويد المستعمرات الانجليزية بالعتاد الحربى . وفرغ بومارشيه بحملته لهذه المغامرة . فنظم شركة « رودريج هورتاليه وشركائه » . وراح يتنقل بين الثغور الفرنسية ويشترى السفن ويجهزها ويشحنها بالمؤنه والعتاد ، ويجند الضباط الفرنسيين المدربين للجيش الأمريكى ، وينفق (فى زعمه) عدة ملايين من الجنيهات من ماله الخاص فوق المليونين اللذين أمدته بهما الحكومتان الفرنسية والإسبانية . وقد أبلغ سايلاس دين الكونجرس الأمريكى (٢٩ نوفمبر ١٧٧٦) « انى ماكنت لأستطيع انجاز مهمتى لولا جهود مسيوبومارشيه الذكية السخية التى يعتريها الكمال ، هذا الرجل الذى تدين له الولايات المتحدة من جميع الوجوه ، أكثر من دينها لأى رجل آخر على هذا الجانب من المحيط »[١١٤] . وفى نهاية الحرب قدر سايلاس أن أمريكا تدين لبومارشيه بمبلغ ٣,٦٠٠,٠٠٠ فرنك . أما الكونجرس الذى افترض أن كل العتاد كان منحة من الحلفاء ، فقد رفض الطلب ، ولكنه فى ١٨٣٥ دفع ٨٠٠,٠٠٠ جنيه لورثة بومارشيه .

ثم انه وجد خلال هذا النشاط المحموم وقتاً لكتابة المزيد من المذكرات الموجهة إلى الشعب والتى يحتج فيها على مرسوم البرلمان الصادر فى ٦ أبريل ١٧٧٣ . وفى ٦ سبتمبر ١٧٧٦ ألغى ذلك المرسوم ، وردت إلى بومارشيه كل حقوقه المدنية . وفى يوليو ١٧٧٨ أصدرت محكمة فى اكس — أن — بروفانس حكما لصالحه فى النزاع على وصية بارى — دوفرنيه ، واستطاع بومارشيه أن يحس أنه فى النهاية قد برأ أسمه .

ولم تكفه كل هذه المغامرات فى الحب ، والحرب ، والتجارة ، والقضاء . فقد بقى عالم لم يغزه بعد ، هو عالم الكلام ، والأفكار ، والطباعة ، وعليه ففى ١٧٦٧ قدم للكوميدى — فرانسيز أولى تمثيلياته « أوجينى » ، وقد عرضت فى ٢٩ يناير ١٧٦٩ ، واستقبلها النظارة استقبالا حسناً ، ولكن

النقاد رفضوها . ثم سقطت تمثيلية أخرى هى « الصديقان » (١٣ يناير ١٧٧٠) رغم الأعداد المألوف ، « لقد ملأت الصالة بأفضل العمال ، بأيد كالمجاذيف ، ولكن جهود العصبة المتآمرة » غلبته [١١٥] . ذلك أن جمعية الأدباء التى يتزعمها فريرون قاومته باعتباره دخيلا ، ومجرماً مزمناً انقلب كاتباً مسرحياً ، تماماً كما ناصبه بلاط فرساى العداء لأنه صانع ساعات انقلب نبيلا . ومن ثم نراه فى مسرحيته التالية يجعل فيجارو يصف « جمهورية الأدب » بأنها « جمهورية الذئاب ، الذين لا يفتأ بعضهم ينشب مخالبه فى رقاب البعض الآخر . . . كل الحشرات ، والبعوض الصغير والكبير ، والنقاد ، وكل الحاسدين من الصحفيين ، والكتبيين ، والرقباء »[١١٦] .

ولقى بومارشيه فى المسرح كما لقى فى الحياة جيشاً من الأعداء فهزمهم جميعا . وفى أروع لحظات الإبداع التى جادت بها عبقريته المتعددة المناحى تصور شخصية فيجارو الحلاق ، الجراح ، الفيلسوف ، اللابس صدرية من الساتان وسراويل ركوب ، وقيثارته المعلقة على كتفه ، وذهنه المتوقد على استعداد لتذليل أى صعوبه ، وذكاؤه يخترق حجب النفاق والأكاذيب والمظالم التى تلوث عصره . ويمكن القول أن فيجارو من ناحية لم يكن خلقاً جديداً ، إنما هو اسم وشكل جديدان لشخصية مألوفة هى شخصية الخادم الذكى فى الكوميديا اليونانية والرومانية ، وفى الكوميديا ديللارتى الإيطالية ، وفى شخصية موليير « سجاناريل » ولكنه كله كما عرفناه من صنع بومارشيه إلا الموسيقى ، لا بل حتى الموسيقى كانت أصلا من صنعه . فقد ألف أول الأمر « حلاق أشبيليه » أوبرا هازله عرضها على الكوميدى — ايتاليين فى ١٧٧٢ فرفضت ، ولكن موتسارت تعرف إلى هذه الموسيقى حين كان فى باريس [١١٧] . وعدل بومارشيه الأوبرا إلى كوميديا ، فقبلها الكوميدى — فرانسيز وحدد تاريخاً لإخراجها ولكن سجن المؤلف (٢٤ فبراير ١٧٧٣) اضطر الفرقة لتأجيل عرضها . فلما أفرج عنه استؤنف اعدادها للعرض ولكنها أجلت لأن مؤلفها وجهت إليه التهمة من البرلمان . غير أن النجاح الذى لقيه دفاع بومارشيه عن نفسه فى « مذكراته » حدا بالمسرح مرة أخرى إلى ترتيب اخراجها ، فأعلن أنها ستعرض فى ١٢ فبراير ١٧٧٤ . يقول

جريم « نفدت كل المقاصير حتى الحفلة الخامسة »[١١٨] . ولكن حظرت التمثيلية فى اللحظة الأخيرة بحجة أنها قد تحدث تأثيراً ضاراً بالقضية المعلقة فى البرلمان .

ومضت سنة أخرى ، وجاء ملك جديد خدمه بومارشيه ببسالة معرضاً حياته للخطر غير مرة ، فأعطى الإذن ، وفى ٢٣ فبراير ١٧٧٥ وصلت « حلاق أشبيليه » آخر الأمر إلى خشبة المسرح . غير أن الحظ لم يحالفها ، فقد كانت مفرطة الطول ، وكانت الإثارة التى مهدت لها قد جعلت جمهور النظارة يتوقع منها فوق ما ينبغى . وعليه فى يوم واحد راجعها بومارشيه واختصرها فى عملية جراحية رائعة ، فنقيت الكوميديا من التعقيدات المشوشه ، وأخليت الفكاهة من الإسهاب فى الحديث ، وأزال بومارشيه العجلة الخامسة من العربة على حد قوله — وحققت التمثيلية انتصاراً فى المساء الثانى ووصفتها مدام دو دفان التى كانت تحضر الحفل بأنها « نجحت نجاحاً مفرطاً . . ولقيت من الاستحسان والتصفيق ما جاوز كل الحدود »[١١٩] .

ثم تحداه الأمير كونتى أن يكتب تتمه للمسرحية يبدو فيها فيجارو شخصية أكثر تطوراً ونضجاً . وكان المؤلف مستغرقاً الآن فى دور المنقذ لأمريكا ، فلما أنجز تلك المهمة عاد إلى المسرح وأخرج كوميديا خلقت تاريخاً أكثر درامية حتى من « طرطوف» موليير . فى هذه الكوميديا — زواج فيجارو — نرى الكونت المافيفا وروزينا ، وهما شخصيتا حلاق أشبيليه — يقضيان عدة سنين فى حياتهما الزوجية ، وكان قد مل المفاتن التى سحرته خلال الكثير من المواقف المعقدة ، وانصرف الآن إلى مغامرة هى إغواء سوزان ، خادمة الكونتيسه وخطيبة فيجارو الذى أصبح كبير خدم الكونت وقهرمان القصر الريفى . ويقوم تابع فى الثالثة عشرة يدعى شيروبان بدور أشبه باللحن الرشيق المصاحب للموضوع الرئيسى وذلك بعشقه الغرير للكونتيسه التى يبلغ عمرها ضعف عمره. أما فيجارو فقد تحول فيلسوفاً ، ويصفه بومارشيه بأنه «العقل موشحاً بالمرح والملح »[١٢٠]. ويكاد هذا أن يكون تعريفاً للروح الغالية ولحركة التنوير .

يقول لسوزان « ولدت لأكون رجل بلاط » ، فإذا رأت فى هذه الوظيفة « حرفه عسيرة » أجابها « مطلقاً . الاستقبال ، والأخذ ، والطلب — هذا هو السر فى كلمات ثلاث »(١٢١) . وفى المناجاة التى جعلها روسينى تدوى فى جنبات العالم كله يخاطب نبلاء أسبانيا (وفرنسا) باحتقار يوشك أن يكون ثورياً ، « ما الذى صنعتموه لتنالوا هذا الحظ الوفير ؟ لقد كلفتم أنفسكم مشقة أن تولدوا ، لا أكثر ، وفيما عدا ذلك فأنتم قوم عاديون تماماً ، فى حين أننى أنا ، التائه وسط الجماهير ، كما على فى سبيل تحصيل قوتى فقط أن أستعين بقدر من العلم والحساب يفوق ما أنفق فى حكم أسبانيا كلها هذه السنين المائة المنقضية »(١٢٢) . وهو يهزأ بالجنود الذين « يقتلون ويقتلون فى سبيل مصالح يجهلونها تماماً . «أما أنا فأريد أن أعرف لماذا يشتد غضبى »(١٢٣) ، وحتى النوع الإنسانى ينال منه ما يستحقه من قصاص : « أن يشرب وهو غير عطشان ، وأن يمارس الحب فى جميع المواسم — هذا وحده ما يميزنا عن سائر الحيوان »(١٢٤) . ثم يكيل شتى الضربات لبيع الوظائف العامة ، وسلطة الوزراء التعسفية ، وإخفاقات العدالة ، وحالة السجون ، والرقابة على الفكر واضطهاده « مسموح لى أن أنشر ما أشاء ، شريطة ألا أذكر فى كتاباتى لا الحكام ، ولا دين الدولة ، ولا السياسة ، ولا الأخلاق ، ولا الموظفين ، ولا المالية ، ولا الأوبرا ، ولا . . . أى شخص ذى خطر ، على أن أخضع لتفتيش رقيبين أو ثلاثة »(١٢٥) . واتهمت فقرة جنس الذكور بأنهم مسئولون عن البغاء — وهى فقرة حذفها الممثلون ، ربما لأنها اقتربت قرباً شديداً من أسباب ترفيههم — : أن الرجال يخلقون العرض بطلباتهم ، ثم يعاقبون بقوانينهم النساء اللائى يلبين هذا الطلب »(١٢٦) . أما حبكة التمثيلية فلم تكتف بإظهار الخادم أذكى من سيده — فهذا تقليد مألوف جداً بحيث لايسىء لأحد — بل انها فضحت الكونت النبيل فأظهرته رجلا زانياً بكل ما فى الكلمة من معنى .

وقبل الكوميدى — فرانسيز « زواج فيجارو » فى ١٧٨١ ، ولكن لم يتيسر اخراجها حتى ١٧٨٤ . ذلك أنها حين تليت على مسامع لويس السادس

عشر احتمل بروح الفكاهة المتسامحة ما تخللها من هجاء عارض ، ولكن حين سمع المناجاة وما اشتملت عليه من هزء بطبقة النبلاء وبالرقابة ، أحس أنه لايسعه السماح بأن تهان هذه المؤسسات الأساسية علانية ، فصاح قائلا « هذا شيء بغيض ، ويجب ألا يمثل أبدا . ان السماح بعرضه ليعدل تدمير الباستيل . فهذا الرجل يسخر من كل شيء يجب احترامه فى أى حكومة»(١٢٧)، ثم حظر تمثيل المسرحية .

وقرأ بومارشيه أجزاء منها فى بيوت خاصة ، فأثار هذا فضول القوم ، ورتب بعض الحاشية أن تمثل أمام البلاط ، ولكن هذا أيضاً حظر فى اللحظة الأخيرة . وأخيراً أذعن الملك للاحتجاجات والالتماسات ، ووافق على اعتماد تمثيلها علناً بعد أن ينقى الرقباء النص بعناية . وكانت حفلة العرض الأولى (٢٧ أبريل ١٧٨٤) حدثاً تاريخياً . وبدت باريس كلها مصممة على حضور هذه الحفلة الأولى . واقتتل الأشراف والعامة على دخول المسرح ، وحطمت البوابات الحديدية ، وهشمت الأبواب ، واختنق ثلاثة أشخاص ، وكان بومارشيه موجوداً ، وقد سعد بهذا الشجار . وبلغ من نجاح المسرحية أنها مثلت ستين مرة دون انقطاع ، وكان المسرح يغص بالنظارة فى كل حفلة تقريباً . أما الحصيلة فلم يسبق لها نظير ، وتصدق بومارشيه بنصيبه كله — البالغ ٤١,٩٩٩ جنيهاً (١٢٨) .

ولقد رأى التاريخ فى « زواج فيجارو » إرهاصاً بالثورة ، ووصفها نابليون بأنها « الثورة وقد أخذت تفعل أفعالها »(١٢٩) . ودخلت بعض عباراتها فى خميرة العصر . وقد أنكر بومارشيه فى المقدمة التى صدرت بها بعد ذلك المسرحية المنشورة أى قصد ثورى ، واستشهد بفقرات من كتاباته دافع فيها عن الملكية والأرستقراطية . فهو لم يطلب هدم المؤسسات القائمة بل القضاء على المظالم المتصلة بها ، وتوفير العدالة المتكافئة لجميع الطبقات ، ومزيداً من حرية الفكر والنشر ، وحماية الفرد من أوامر القبض المختومة

وغيرها من ضروب شطط السلطة الملكية . وقد رفض الثورة كما رفضها معبوده فولتير لأنها دعوة إلى الفوضى وطغيان الرعاع .

وواصل دراسة أعمال فولتير طوال شتى الاضطرابات العارمة التى اكتنفته . وأدرك أوجه الشبه بينه وبين الشيخ — ولكن لعله لم يدرك البعد — : ذلك المركب الذى جمع بين النشاط الذهنى المحموم والدراية البارعة بأمور المال ، وذلك الاحتقار للشكوك والوساوس الخلقية ، وتلك الشجاعة فى محاربة الظلم والمحن والشدائد . واعتزم أن يحفظ أعمال فولتير وينشرها طبعة جامعة كاملة . وكان على يقين من أن هذا غير ميسور فى فرنسا حيث حظر الكثير من مؤلفات فولتير . لذلك ذهب إلى موريا وأخبره أن كاترين الثانية مزمعة إصدار طبعة فرنسية فى سانت بطرسبرج . وقال إن هذا سيكون وصمة عار على فرنسا ، وأدرك الوزير المعنى المراد ، ووعد بالإذن بتداول طبعة كاملة . وكان كتبى باريسى يدعى شارل — جوزف بانكوك قد حصل على حقوق طبع مخطوطات فولتير التى لم تنشر ، فاشتراها بومارشيه بمبلغ ١٦٠,٠٠٠ فرنك . ثم جمع كل ما وجده من مؤلفات فولتير المنشورة ، واستورد حروف باسكرفيل الطباعية من انجلترا ، واشترى مصانع للورق فى الفوج . وظفر بكوندورسيه معلقاً ومترجماً لفولتير . واستأجر حصناً قديماً فى كيل ، عبر الرين من ستراسبورج ، وركب المطابع ، وأخرج طبعتين رغم مئات المحن والشدائد ، إحداهما فى سبعين مجلداً من قطع الثمن ، والأخرى فى اثنين وتسعين مجلداً من القطع الإثنى عشرى (١٧٨٣ — ٩٠) . وهذا أضخم مشروع طباعى حاوله إنسان حتى ذلك التاريخ فى أوربا ، بما فى ذلك « الموسوعة » . وطبع بومارشيه خمسة عشر ألف مجموعة وهو يتوقع بيعاً عاجلا لها ، فلم يبع منها غير ألفين ، من جهة بسبب الحملات التى شنها البرلمان والاكليروس على المشروع[١٣٠] ، ومن جهة ثانية بسبب الاضطرابات السياسية فى ١٧٨٨ — ٩٠ ، ومن جهة ثالثة لأن قلقلة مركز الناس المالى منعتهم من شراء المجموعة الغالية الثمن — وزعم بومارشيه أنه خسر فى هذه المغامرة مليوناً من الجنيهات . على أنه أخرج أيضاً طبعة من أعمال روسو .

أما الثورة التي أعان على الإعداد لها فكانت نكبة عليه . ذلك أنه في ١٧٨٩ بنى لنفسه ولزوجته الثالثة قصراً غالي التكلفة تجاه الباستيل ، ملأه بالبديع من الأثاث والرياش وأحاطه بفدانين من الأرض . ونظر الرعاع الذين أثاروا الشغب مراراً في المنطقة شزراً إلى هذا الترف ، فأغاروا على بيته مرتين ، وأصبح بومارشيه الذي اكتمل الآن صممه وشاخ قبل الأوان مهدداً باعتباره أرستقراطياً . لذلك بعث بملتمس إلى كومون باريس يعلن فيه إيمانه بالثورة ، غير أنه قبض عليه رغم ذلك (٢٣ أغسطس ١٧٩٢) ثم أفرج عنه بعد قليل . إلا أنه عاش في خوف من الاغتيال لا يفتأ يؤرقه . ثم دارت عجلة الخطر فكلفته حكومة الثورة (١٧٩٢) بالسفر إلى هولنده وشراء المدافع للجمهورية . على أن المفاوضات أخفقت وصودرت أملاكه في غيابه ، وقبض على زوجته وابنته (٥ يوليو ١٧٩٤) ، فهرع قافلا إلى باريس ، وحصل على الإفراج عنهما ، وسمح له باسترداد أملاكه . وعاش بعد ذلك ثلاث سنين محطم الجسد لا الروح ، ورحب بصعود نجم نابليون ، ثم مات في ١٨ مايو ١٧٩٩ بالنقطه وقد بلغ السادسة والسبعين . وندر حتى في تاريخ فرنسا أن عاش رجل حياة تمثل هذا الملء والتنوع والمغامرة .

* * *


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع والثلاثون

تشريح الثورة

١٧٧٤ — ٨٩

لقد فحصنا فكر فرنسا عشية الثورة — فحصنا فلسفتها ، ودينها ، وأخلاقها ، وسلوكها ، وأدبها ، وفنها . ولكن هذه كانت أزهاراً هشة نبتت من أرض اقتصادية ، ولا قدرة لنا على فهمها إن لم نلم بجذورها ، لا بل إننا لن نفهم حقيقة ذلك الزلزال السياسى الذى أطاح بـ « النظام القديم » دون أن نفحص كل جهاز من أجهزة الاقتصاد الفرنسى ، كل بدوره ولو فى إيجاز ، ونرى كيف عاونت حالته على مجىء هذه القارعة الكبرى .

وعلينا ونحن نعود مرة أخرى إلى تناول الزراعة والصناعة والمالية أن نتذكر أنها ليست لوحات تجريدية قابضة للصدر بل كائنات بشرية حية حساسة : نبلاء وفلاحون ينظمون إنتاج الطعام ؛ ومديرون وعمال يصنعون السلع ؛ ومخترعون وعلماء يصوغون طرائق وأدوات جديدة ؛ ومدن تشغى بالمتاجر والمصانع ، وربات بيوت مهمومات وجماهير رعاع متمرده ؛ وثغور ومراكب تزخر بالتجار ، والملاحين ، والبحارة ، والرجال المغامرين ؛ ومصرفيون يغامرون بالمال ويكسبونه ويخسرونه مثل نكير ، وبالحياة مثل لافوازييه ؛ ثم تدفق الأفكار والسخط الثوريين وضغطهما خلال هذا الكل الهائج المضطرب ، أنها لصورة معقدة رهيبة .

١ — النبلاء والثورة

كان عدد الفرنسيين ٢٤,٦٧٠,٠٠٠ رجل وامرأة وطفل ، وهكذا قدر نكير عدد السكان فى ١٧٨٤[1] . فقد تصاعد عددهم من ١٧,٠٠٠,٠٠٠

فى ١٧١٥ بفضل زيادة إنتاج الطعام وتحسن وسائل حفظ الصحة وانعدام الغزو الأجنبى والحرب الأهلية ، وحظيت الأمة فى مجموعها بازدياد الرخاء خلال القرن الثامن عشر ، ولكن أكثر الثراء الطارىء انحصر فى الطبقة الوسطى[٢] .

وكان كل الفرنسيين ريفيين فيما عدا مليونين من الأنفس ، والحياة الزراعية يديرها النظار الملكيون ، والمديرون الاقليميون ، وكهنة الأبرشيات ، والسادة — أى أمراء الإقطاع — الذين قدر عددهم فى ١٧٨٩ بنحو ٢٦,٠٠٠ . هؤلاء وأبناؤهم خدموا وطنهم فى الحرب بأسلوبهم الأنيق العتيق (وقد أصبحت السيوف الآن حلية أكثر منها سلاحاً) . ولم تبق إلا قلة من النبلاء فى البلاط ، أما السواد الأعظم فعاشوا فى ضياعهم . وزعموا أنهم يكسبون دخولهم بتوفير الإدارة الزراعية ، والرقابة البوليسية ، والمحاكم ، والمدارس ، والمستشفيات ، والإحسانات . على أن معظم هذه المهام كانت قد تلقاها عمال للحكومة المركزية ، وكان الملاك من الفلاحين يطورون نظمهم الهادفة إلى الإدارة الحماية ، وهكذا باتت طبقة النبلاء عضواً أثرياً ، يأخذ الدم الكثير من الكائن الاجتماعى ، ولا يعطيه لقاء ذلك إلا القليل بخلاف الخدمة العسكرية . وحتى هذه الخدمة أثارت شكوى عامة ، لأن النبلاء أقنعوا لويس السادس عشر (١٧٨١) بأن يحرم من جميع المناصب الكبرى فى الجيش والبحرية والحكومة كل من لايظاهره أربعة أجيال من الأستقراطية .

ثم رمى النبلاء فوق هذا بأنهم تركوا مساحات شاسعة من ضياعهم بورا فى الوقت الذى يجوع فيه للخبز الآلاف من سكان المدن . ويصدق على الكثير من بقاع فرنسا هذا الوصف الذى كتبه آرثر ينج عن قطاعى الاوار ونهر شير : « ان الحقول مسرح للإدارة المهلهلة ، كما أن البيوت شاهد على الفقر المدقع . ومع ذلك فإن هذه البلاد كلها قابلة جداً للتحسين لو عرفوا ما ينبغى أن يصنعوه بها »[٣] * وكان عدد غير قليل من النبلاء فقراء ،

(*) قام آرثر يونج ، أحد وجوه المزارعين الانجليز ، برحلات فى القارة فى ١٧٨٧ و ١٧٨٨ و ١٧٨٩ وروى مشاهداته فى « رحلات فى فرنسا » (١٧٩٢) وفى آرائه بعض التحيزات الانجليزية (« خذ جماع الجنس البشرى ، تجد فى انجلترة فى نصف ساعة قدرا من حسن الادراك أكثر مما تجده فى فرنسا فى نصف سنة (٤) .) ولكن يبدو انه قدم لنا وصفا منصفا موثوقا به لما رأى . وسنراه يذكر الثراء كما يذكر الفقر . وأهم مآخذه على فرنسا تتركز فى تخلفها التكنولوجى ، وحكومتها المسرفة فى المركزية ، والقهر ، والاوتقراطية .

بعضهم لنقص كفايتهم ، وبعضهم لسوء طالعهم ، وبعض لإرهاق أرضهم . وقد التمس كثير من هؤلاء المعونة من الملك ، وتلقى العديد منهم منحا من خزانة الدولة .

أما القنية بمعنى ارتباط الشخص قانوناً بقطعة من الأرض وخضوعه بصفة دائمة لمالكها فى أداء الرسم والخدمات ، فكانت قد اختفت من فرنسا إلى حد كبير فى ١٧٨٩ ، وبقى نحو مليون من الأقنان أكثرهم على الأملاك الديرية . فلما حرر لويس السادس عشر الأقنان العاملين على الأراضى الملكية (١٧٧٩) ، سوف برلمان فرانسن — كونتيه (فى شرقى فرنسا) تسعة أشهر حتى سجل مرسومه . ورفض الاقتداء بالملك كنيسة لوكسوى ودير فونتين ، ومجموع ما لديهما أحد عشر ألف قن ، ودير سان — كلود فى مديرية الجورا الحالية ، وكان لديه عشرون ألف قن ، وذلك رغم عدة نداءات انضم فيها إلى فولتير عدد من الكنيسيين[٥] . على أن هؤلاء الأقنان اشتروا حريتهم شيئاً فشيئاً ، أو نالوها بالهروب ثم ألغى لويس السادس عشر فى ١٧٧٩ حق المالك فى مطاردة الأقنان الآبقين خارج أملاكه .

ومع أن ٩٥٪ من الفلاحين كانوا أحراراً فى ١٧٨٩ ، إلا أن السواد الأعظم منهم ظلوا خاضعين لحق أو أكثر من الحقوق الإقطاعية التى تختلف فى الدرجة من اقليم لآخر . وكانت تشمل إيجاراً سنوياً (ضوعف فى القرن الثامن عشر) ، ورسماً نظير حق التوريث ، وأجراً عن استعمال مطحن السيد وأفرانه ومعاصره وبرك سمكه — التى كانت كلها حكراً له . وقد احتفظ بحق مطاردة طرائده حتى داخل محاصيل الفلاح ، وسيج مساحات متزايدة من الأرض المشاع التى كان الفلاح يحتطب منها ويطلق فيها ماشيته لترعى . أما السخرة فقد خففت فى معظم أرجاء فرنسا إلى ضريبة تدفع نقداً ، ولكن ظل الفلاح فى أوفرن ، وشمبانيا ، وأرترا ، واللورين ، مطالباً بأن يبذل للإقطاعى المحلى كل سنة ثلاثة أيام أو أربعة من العمل الذى لايتقاضى عنه أجرا ، وذلك لصيانة الطرق البرية والجسور والطرق المائية[٦] . ويمكن القول أن الحقوق الإقطاعية الباقية اقتطعت فى جملتها ومتوسطها

عشرة فى المائة من إنتاج الفلاح أو دخله ، ثم اقتطعت ضريبة العشور الكنيسية نسبة أخرى تتفاوت بين ثمانية وعشرة فى المائة . فإذا أضيف إلى هذا الضرائب المدفوعة للدولة ، وضرائب السوق والبيوع ، والرسوم المدفوعة لكاهن الأبرشية نظير مراسم العماد والزواج والدفن ، لم يبق للفلاح إلا نحو نصف ثمرات كده .

ولما كانت قيمة المبالغ النقدية التى يتسلمها السادة الإقطاعيون تتناقص بهبوط قيمة العملة ، فقد حاولوا حماية دخلهم بزيادة الرسوم ، وإحياء رسوم عفى عليها الدهر ، وتسييج المزيد من الأرض المشاع . وكانت جباية الرسوم تعهد عادة إلى ملتزمين محترفين كثيراً مالا يعرفون الرحمة فى أداء عملهم . فإذا تشكك الفلاح فى حق السيد فى رسوم معينة قيل له أنها مدرجة فى قوائم الضياع أو سجلاتها . فإذا تحدى صحة هذه القوائم رفع الأمر إلى المحكمة الإقطاعية أو إلى البرلمان الإقليمى الذى كان سادة الإقطاع يهيمنون عليهم[٧] . وحين نشر بونسير ، بتشجيع طور جو سرا ، (١٧٧٦) كراسة عنوانها «مساوىء الحقوق الإقطاعية» أوصى فيها باختزال هذه الحقوق ، لامه برلمان باريس . وانبرى فولتير لخوض المعركة من جديد وقد بلغ الثانية والثمانين ، فكتب يقول : إن اقتراح إلغاء الحقوق الإقطاعية يعدل مهاجمة أملاك السادة أعضاء البرلمان أنفسهم ، الذين يمتلك معظمهم إقطاعات . . . أنها قضية الكنيسة ، والنبلاء ، وأعضاء البرلمان . . . متضافرين ضد العدو المشترى — أى الشعب»[٨] .

على أن هناك ما أمكن أن يقال دفاعاً عن الحقوق الإقطاعية فهى من وجهة نظر النبيل رهن عقارى قبله الفلاح بمحض حريته كجزء من الثمن الذى اشترى به قطعة أرض من مالكها الشرعى — الذى كان فى كثير من الحالات قد اشتراها بحسن نية مالكها السابق . وكان بعض النبلاء الفقراء يعتمدون فى قوتهم على هذه الرسوم . وكان الفلاح يعانى من شر الضرائب ، والعشور ، ومطالب الحرب وغاراتها أكثر كثيراً مما يعانى من الرسوم الإقطاعية . استمع إلى أعظم وأشرف الاشتراكيين الفرنسيين وهو جان —

جوريه يقول « لو لم يكن فى المجتمع الفرنسى فى القرن الثامن عشر مساوىء غير تلك البقايا التافهة لذلك النظام (الإقطاعى) ، لما دعت الحاجة لثورة تشفى هذا الجرح المتقرح ، ولكان اختزال الحقوق الإقطاعية تدريجياً وتحرير الفلاحين كفيلا بإحداث التغيير بطريقة سلمية [٩] .

وكان أبرز ملامح طبقة النبلاء الفرنسيين اعترافها بالذنب ، إذ لم يقتصر الأمر على انضمام الكثير من النبلاء إلى جماعة الفلاسفة فى رفض اللاهوت القديم ، بل ان بعضهم كما رأينا سخر من امتيازات طبقتهم التى عفى عليها الزمن[١٠] . وقبل الثورة بسنة عرض ثلاثون نبيلا أن يتنازلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية المالية[١١] . وكانا يعرف مثالية الشاب لافاييت الذى لم يكتف بالقتال دفاعاً عن أمريكا بل حال عودته إلى فرنسا خاض بقوة ذلك الكفاح فى سبيل الإصلاح السلمى . وقد ندد بالرق ، ورصد جانباً من ثروته ليعتق العبيد فى جيانا الفرنسية[١٢] . وفشا الجهر بالمبادىء اللبرالية ، والدفاع عن الإصلاح ، فى شطر من الأرستقراطيين لاسيما حاملات الألقاب مثل النبيلات لا مارك ، ودبوفليه ، ودبريين ، ودلكسمبور . ولعب مئات من الأشراف والأساقفة دوراً نشيطاً فى الحملات التى شنت لتحقيق المساواة فى الضرائب ، والحد من الإسراف الحكومى ، وتنظيم أعمال البر ، وإنهاء السخرة[١٣] . وبذل بعض الأشراف ، كدوقة بوربون ، معظم ثروتهم للفقراء[١٤] .

على أن هذا كله لم يكن إلا حيلة لطيفة فوق الواقع الواضح للعيان ، وهو أن طبقة النبلاء الفرنسيين لم تعد تستأهل قوتها . صحيح أن كثيرين منهم حاولوا الاضطلاع بمسئولياتهم التقليدية ، غير أن المفارقة بين التبطل المترف الذى يرتع فية الإقطاعيون الأثرياء وبين شظف العيش الذى تعانيه جماهير أشرفت غير مرة على المجاعة ، أثارت العداء والاحتقار . وقبل ذلك بزمن مديد أصدر رجل ، كان هو نفسه نبيلا عظيماً ، حكم الإعدام على طبقته . فلنستمع إلى رينيه — لوى دفوايه ، مركيز دارجنسون ، وزير الدولة (١٧٤٤ -- ٤٧) يكتب حوالى ١٧٥٢ :

« لابد من القضاء على سلالة السادة العظام قضاء مبرما . وأعنى بالعظام أصحاب الألقاب والأملاك والعشور والمناصب والوظائف ، الذين يتبوأون المقام الرفيع رغم أنهم بلا كفايات وأنهم ليسوا بالضرورة راشدين ، فهم لذلك عديمو القيمة فى كثير من الأحايين . . . وإنى ألاحظ أن الناس يحافظون على سلالة من كلاب الصيد الأصلية ، ولكن متى تدهورت السلالة قضوا عليها »[١٥] .

هؤلاء السادة بعينهم ، الأغنياء ، المتكبرون ، الذين لا وظيفة لهم فى الغالب ، هم الذين بدأوا الثورة . ذلك أنهم كانوا ينظرون بحسرة إلى العهد الذى سبق ريشليو ، يوم كانت طبقتهم هى السلطة الحاكمة فى فرنسا . وحين أكدت البرلمانات حقها فى إبطال المراسيم الملكية ، انضم نبلاء الدم والسيف إلى نبلاء الرداء — وهم القضاه الوراثيون — فى محاولة لإخضاع الملك . وهللوا لخطباء البرلمان الذين رددوا صيحة « الحرية » وشجعوا الشعب وكتاب الكراريس على التنديد بسلطة لويس السادس عشر المطلقة . وليس فى وسعنا أن نلومهم على هذا ، غير أنهم بإضعافهم سلطة الملك مكنوا ١٧٨٩ الجمعية التشريعية التى تهيمن عليها الطبقة البورجوازية من أن تستحوذ على السيادة فى فرنسا . وهكذا دق النبلاء أول مسمار فى نعشهم .

٢ — الفلاحون والثورة

كان أكثر العمل الزراعى المؤدى على الخمسة والخمسين فى المائة من أرض فرنسا الذى يمتلكه النبلاء ورجال الدين والملك ، يؤديه محاصصون يأخذون المواشى والأدوات والبزار من المالك ويدفعون له نصف المحصول عادة . وكان هؤلاء المحاصصون بوجه عام فقراء معدمين حتى لقد حكم آرثر ينج على هذا النظام بأنه « لعنة البلاد بأسرها وخرابها »[١٦] ، ومرد ذلك ضعف الحوافز أكثر من قسوة الملاك .

أما أغلبية الملاك الفلاحين الذين زرعوا خمسة وأربعين فى المائة من الأرض فقد قضى عليهم بالفقر صغر مساحة أراضيهم . الأمر الذى حد

ن استعمال الآلات الزراعية استعمالا رائجاً . وتخلفت التكنولوجيا الزراعية في فرنسا عن نظيرتها في انجلترا . صحيح كان هناك مدارس زراعية ومزارع نموذجية ، ولكن لم يفد منها غير قلة من المزارعين . ولعل ستين في المائة من الملاك الفلاحين كانوا يملكون أقل من الهكتارات الخمسة (نحو ثلاثة عشر فداناً) اللازمة لإعاشة الأسرة ، واضطر الرجال للعمل فعلة أجراء على المزارع الكبيرة . وقد ارتفعت أجور فعلة المزارع اثنى عشر في المائة بين ١٧٧١ و ١٧٨٩ ، ولكن الأسعار ارتفعت في الفترة ذاتها خمسة وستين في المائة أو أكثر [١٧] . ومع أن الإنتاج الزراعي ارتفع خلال حكم لويس السادس عشر ، فإن الأجراء من الفلاحين ازدادوا فقراً ، وألفوا بروليتاريا ريفية كانت في فترات العمالة الراكدة بمثابة معمل تفريخ ينتج حشوداً من المتسولين والمتشردين . وقد ذهب شامفور إلى أنه « لاجدال في أن بفرنسا سبعة ملايين رجل يتسولون ، واثنى عشر يعجزون عن التصدق » [١٨] .

ولعل فقر الفلاحين قد بالغ الرحالة في وصفه لأن أول ما استرعى ملاحظتهم كان الأحوال الظاهرة ؛ فهم لم يروا العملة والسلع المخبأة هرباً من عين مقدر الضريبة . وتتضارب التقديرات المعاصرة لهذه الفترة . فقد وجد آرثر ينج مناطق يعمها الفقر والتوحش والقذارة كما في بريتاني ، ومناطق فيها الثراء والكبرياء كما في بيارن [١٩] . ويمكن القول عموماً أن الفقر في ريف فرنسا عام ١٧٨٩ لم يكن مدقعاً كما كان في إرلنده ، ولا أسوأ منه في أوربا الشرقية أو في بعض الأحياء الفقيرة المزدحمة في المدن « الغنية » في وقتنا الحاضر ، ولكنه كان أسوأ منه في انجلترا أو في وادي بو المعطاء أبدا . وتشير أحدث الدراسات إلى أنه «كان هناك أزمة زراعية في نهاية النظام القديم » [٢٠] . فإذا جاء القحط والمجاعة . كما حدث في ١٧٨٨ — ٨٩ بلغت معاناة الفلاحين لاسيما في جنوبي فرنسا مبلغاً لم ينج فيه نصف السكان من التضور جوعاً إلا بفضل الصدقات التي وزعتها الحكومة والكهنة .

وكان على الفلاح أن يدفع ما يفرض عليه أداؤه للدولة والكنيسة والنبلاء . ووقعت ضريبة التاي — أي ضريبة الأرض — كلها تقريباً على كاهله . وكان يقدم كل الرجال اللازمين لمشاة الجيش أو جلهم . وقد تحمل عبء

احتكار الحكومة للملح . وكان الفضل لجهده فى صيانة الطرق والجسور والقنوات . ولعله كان مؤدياً العشور برضى أكثر — فهو رجل « يخاف الله » والعشور تجبى جباية رحيمة ، ونادر أن اقتضته عشر دخله بالضبط[٢١] ، ولكنه رأى أكثرها يترك الأبرشيه ليعول أسقفا فى بلد ناء ، أو كنسياً عاطلا فى البلاط ، بل حتى علمانياً اشترى حصة فى العشور المستقبله . وقد خفف لويس السادس عشر عبء الضريبة المباشرة على الفلاح ، ولكن الضرائب غير المباشرة زيدت فى كثير من الأقاليم[٢٢] .

فهل كان فقر الفلاح سبب الثورة ؟ لقد كان فقره عاملا دراميا فى مركب من أسباب عدة . كان أفقر الفقراء أعجز من أن يثوروا ؛ فى استطاعتهم أن يرفعوا أصواتهم طلباً للغوث ، ولكنهم لا يملكون الوسيلة ولا الهمة لتنظيم الثورة ، إلى أن استنفرهم المزارعون الأكثر ثراء وعملاء الطبقة الوسطى ، وانتفاضات رعاع باريس . على أنه حين وهنت قوى الدولة نتيجة تطور الشعب الفكرى ، وحين سرت عدوى الأفكار الراديكالية إلى الجيش سرياناً خطراً ، وحين لم تعد السلطات المحلية قادرة على الاعتماد على التأييد الحربى يأتيها من فرساى — عندها أصبح الفلاحون قوة ثورية ، فتجمعوا ، وتبادلوا الشكاوى والعهود ، وتسلحوا ، وهاجموا القصور الريفية ، وأحرقوا بيوت الإقطاعيين المتغطرسين ، ودمروا السجلات الإقطاعية التى استشهدوا بها على صحة الحقوق الإقطاعية ، هذا العمل المباشر ، الذى هدد بتدمير شامل لأملاك الإقطاعيين ، هو الذى روع النبلاء فنزلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية (٤ أغسطس ١٧٨٩) . ووضعوا بذلك نهاية شرعية للنظام القديم .

٣ — الصناعة والثورة

فى موضوع الصناعة على الأخص تغيم الصورة السابقة للثورة وتتعقد(١) . فالصناعة البيتية — صناعة الرجال والنساء والأبناء فى البيت — كانت تخدم التجار الذين يوفرون المادة ويشترون الناتج(٢) ، والطوائف الحرفية — المعلمون ، وعمال اليومية ، والصبية — كانت تنتج السلع اليدوية لتلبية الاحتياجات المحلية بنوع خاص . وقد عمرت هذه الطوائف حتى الثورة ، ولكن فى

١٧٨٩ كان قد أوهنها غاية الوهن نمو(٣) المشروعات الحرة الرأسمالية — وهى شركات كان لها أن تجمع رأس المال من أى مصدر ، وأن تستأجر أى إنسان . وأن تبتكر وتطبق أساليب جديدة فى الإنتاج والتوزيع ، وأن تتنافس مع أى إنسان ، وأن تبيع فى أى مكان . وكانت هذه المؤسسات عادة صغيرة ولكنها أخذت تتكاثر ، فكان فى مرسليا وحدها عام ١٧٨٩ ثمانية وثلاثون مصنعاً للصابون ، وثمانية وأربعون للقبعات ، وثمانية للزجاج ، واثنا عشر لتكرير السكر وعشر مدابغ[٢٣] . أما فى المنسوجات ، والبناء ، والتعدين ، وتصنيع المعادن ، فقد اتسعت الرأسمالية وغدت مشروعات واسعة النطاق ، وكان هذا عادة بفضل شركات المحاصة .

وكانت فرنسا بطيئة فى الأخذ بآلات النسيج التى كانت آنئذ تفتتح الثورة الصناعية فى انجلترة ، ولكن مصانع نسيج كبيرة كانت تدور دواليبها فى آبفيل ، وأميان ، ورامس ، وباريس ، ولوفييه ، وأورليان ، وازدهرت صناعة الحرير فى ليون . وكانت صناعات المعمار تقيم تلك العمائر الضخمة ذات الشقق ، التى مازالت تضفى على المدن الفرنسية ملامحها المميزة . وكانت صناعة السفن تشغل آلاف العمال فى نانت ، وبوردو ، ومارسليا ، أما التعدين فكان أكثر الصناعات الفرنسية تقدماً . وقد احتفظت الدولة بجميع الحقوق فى التربة السفلية ، وأجرت المناجم لأصحاب الامتياز ، وفرضت قانون أمن للمعدنين[٢٤] ، وحفرت الشركات مداخل للمناجم وصل عمقها إلى ثلاثمائة قدم ، وركبت أجهزة غالية للتهوية ، والصرف ، والنقل ، وخلقت أصحاب ملايين . وكان لشركة انزان (١٧٩٠) أربعة آلاف عامل ، وستمائة حصان ، واثنتا عشرة آلة بخارية ، وكانت تستخرج ٣١٠,٠٠٠ طن من الفحم فى العام . وقد وفر استخراج الحديد وغيره من المعادن المادة لصناعة معدنية متسعة . وفى ١٧٨٧ جمعت شركة كروزر المساهمة رأسمال قدره عشرة ملايين جنيه لاستخدام أحدث الآلات فى إنتاج المصنوعات الحديدية ، وكانت الآلات البخارية تشغل المنافيخ ، والمطارق ، والمثاقب ، ومكنت السكك الحديدية الجواد الواحد من أن يجر ما كان يحتاج جره من قبل إلى خمسة جياد .

وقد ابتكر الفرنسيون بعض الاختراعات المذهلة في هذه السنين . ففي ١٧٧٦ رفه المركيز جوفروا عن الجماهير المحتشدة على نهر دوب بمنظر قارب تحركه آلة بخارية ، وذلك قبل أن يبحر زورق فولتن « كلير مونت » التجارية في نهر هدسن ذهاباً وإياباً . بل أدهش من هذا كانت الخطوات الأولى في غزو الفضاء . ففي ١٧٦٦ أثبت هنري كافندش أن للهيدروجين كثافة أقل من الهواء ، واستنتج جوزف بلاك أن كيساً يملأ بالهيدروجين يستطيع الصعود في الجو . وعكف جوزف وإتيين مونجولفييه على تجاربهما على هدى المبدأ القائل بأن الهواء تقل كثافته إذا سخن ؛ وفي ٥ يونيو ١٧٨٣ ، في انونيه قرب ليون ، ملأ بالوناً بالهواء المسخن ، فارتفع إلى علو ألف وستمائة قدم ، ثم هبط بعد عشر دقائق حين برد هواؤه . وصعد بالون مملوء بالهيدروجين صممه جاك — الكسندر شارل من باريس في ٢٧ أغسطس ١٧٨٣ على مشهد من ٣٠٠,٠٠٠ متفرج يهتفون له ، فلما هبط على بعد خمسة عشر ميلا مزقه حشد من القرويين إرباً زاعمين أنه عدو مغير من الجو [٢٥] . وفي ١٥ أكتوبر قام جان — فرنسوا بيلاتر دروزييه بأول طيران مدون للإنسان ، مستخدماً بالوناً كبالون مونجولفييه به هواء مسخن ، واستمر صعوده أربع دقائق . وفي ٧ يناير ١٧٨٥ طار الفرنسي فرنسوا بلانشار ، والفزيائي الأمريكي جون جفريز ، في بالون من انجلترا إلى فرنسا . وبدأ الناس يتحدثون عن الطيران إلى أمريكا [٢٦] .

وزكت مدن فرنسا خلال هذا العهد الحاسم بعد أن غذتها الصناعة والتجارة . فكانت ليون تشغى بالحوانيت والمصانع والمشروعات . وذهل آرثر ينج لفخامة بوردو . وأصبحت باريس الآن مركزاً تجارياً أكثر منه سياسياً ، فكانت بمثابة القلب لمجمع اقتصادي يهيمن على نصف عاصمة فرنسا ، ومن ثم على نصف اقتصادها . وكان يسكنها عام ١٧٨٩ نحو ٦٠٠,٠٠٠ نسمة [٢٧] . ولم تكن وقتها مدينة ذات جمال رائع ، وقد وصف فولتير الكثير منها بأنه جدير بالقوط والفندال [٢٨] . وقال بريستلي الذي زارها في ١٧٧٤ : « لا أستطيع الزعم بأنه قد راعني شيء منها غير اتساع

العمائر العامة وبهائها ، وفى مقابل هذا ساءنى كثيراً ضيق أكثر الشوارع وقذارتها ونتنها »[٢٩] . ومثل هذا الوصف كتبه ينج :

« ان تسعة أعشار الشوارع قذر ، وكلها خلو من أرصفة المشاه . والمشى — الذى تجده فى لندن غاية فى الإمتاع والنظافة بحيث تمارسه السيدات يومياً — هو هنا كد وعناء للرجل ، وضرب من المحال على المرأة الأنيقة الثياب . . وعربات الركوب كثيرة ، وأسوأ من ذلك كثيراً ذلك العدد الهائل من « الكبريلات » التى يجرها حصان واحد ويسوقها الفتيان العصريون ومقلدوهم . بسرعة فائقة . . . تجعل الشوارع بالغة الخطر . . . وقد لطخنى أنا نفسى رشاش الوحل غير مرة »[٣٠] .

وأخذت طبقة من العمال الكادحين « برولتاريا » تتشكل فى المدن كبيرها وصغيرها ، رجال ونساء ، وأطفال يعملون لقاء أجر بأدوات ومواد ليست ملكاً لهم . ولا يتوافر لدينا إحصاء عنهم ، ولكن قدر عددهم فى باريس عام ١٧٨٩ بـ ٧٥,٠٠٠ أسرة ، أو ٣٠٠,٠٠٠ فرد[٣١] . وكان هناك أعداد كبيرة بهذه النسبة فى آبفيل ، وليون ، ومرسليا . وكانت ساعات العمل طويلة والأجور ضئيلة ، لأن حكماً أصدره برلمان باريس (١٢ نوفمبر ١٧٧٨) حظر على العمال تنظيم أنفسهم . وقد ارتفعت الأجور ما بين عامى ١٧٤١ و ١٧٨٩ اثنين وعشرين فى المائة ، وارتفعت الأسعار خمسة وستين فى المائة[٣٢] ، ويبدو أن حال العمال تدهور فى عهد لويس السادس عشر[٣٣] . فلما قل الطلب ، أو اشتدت المنافسة الأجنبية (كما حدث فى ١٧٨٦) ، طردت أعداد كبيرة من العمال فأصبحوا كلا على البر والإحسان . وكادت آلاف الأسر تموت جوعاً عندما ارتفع ثمن الخبز ، الذى كان قوام نصف طعام الجماهير الباريسية[٣٤] . وكان ثلاثون ألف شخص يتلقون الإغاثة العامة فى ليون عام ١٧٨٧ ، واشتد فقر ثلثى سكان رامس فى ١٧٨٨ عقب أحد الفيضانات . وفى باريس عام ١٧٩١ قيدت مائة ألف أسرة على أنها معوزة[٣٥] . وكتب مرسييه حوالى ١٧٨٥ يقول « ان عامة الشعب فى باريس ضعاف الأبدان صفر الوجوه صغار الأجسام معوقو النمو وكأنهم طبقة تفردت عن سائر الطبقات فى الدولة[٣٦] .

وألف العمال الاتحادات وأضربوا فى تحد لأوامر الحظر فى ١٧٧٤ توقفوا عن العمل لارتفاع تكاليف المعيشة بأسرع من الأجور ، ولأن قوانين العرض والطلب غير المنظمة تهوى بالعمال إلى درك الكفاف لا أكثر . أما أرباب العمل الذين امتلأت مخازنهم بالطعام فقد انتظروا أن يكره الجوع العمال على طلب الصلح . ودفع الإحباط الكثير من العمال إلى الرحيل عن ليون قاصدين مدناً أخرى ، بل مهاجرين إلى سويسره أو إيطاليا ، ولكنهم أوقفوا على الحدود وأعيدوا إلى مواطنهم قسرا . وثار العمال ، واستولوا على مكاتب البلدية ، وأقاموا دكتاتورية قصيرة الأجل من البرولتاريا على الكومون . فاستدعت الحكومة الجيش الذى أخمد التمرد ، ثم شنق اثنان من زعماء العمال ، وعاد المضربون إلى ورشهم مقهورين ، يشعرون بالعداء نحو الحكومة وأرباب العمل على السواء [٣٧] .

وفى ١٧٨٦ عادوا إلى الإضراب ، مؤكدين أنهم عاجزون عن إعالة أسرهم حتى بمواصلة العمل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم ، شاكين من أنهم يعاملون « بأقسى مما تعامل به الحيوانات المنزلية ، فحتى هذه تعطى من الطعام ما يكفى لحفظها سليمة قوية »[٣٨] . ووافقت سلطات المدينة على منحهم علاوة ، ولكنها حظرت أى اجتماع يضم أكثر من أربعة أشخاص . واضطلعت كتيبة مدفعية بتنفيذ هذا الحظر ، وأطلق الجند الرصاص على المضربين فقتلوا عدة أشخاص ، وعاد المضربون إلى العمل وسحبت العلاوة منهم بعد ذلك [٣٩] .

وقد نشبت حوادث الشغب احتجاجاً على ارتفاع تكاليف المعيشة ، متفرقة طوال النصف الثانى من القرن الثامن عشر . فوقعت منها ستة فى نورمنديه بين عامى ١٧٥٢ ، و ١٧٦٨ ؛ وفى ١٧٦٨ سيطر القائمون بالشغب على روان ، ونهبوا مخازن الغلال الحكومية ، وسلبوا المتاجر ، ووقعت أحداث مماثلة فى رامس عام ١٧٧٠ ، وفى بواتييه عام ١٧٧٢ ، وفى ديجون وفرساى وباريس ويونتواز عام ١٧٧٥ ، وفى اكس ــ ان ــ برو فانس عام ١٧٨٥ ، ثم فى باريس عامى ١٧٨٨ ، ١٧٨٩ [٤١] .

فأى دور إذن لعبه فقر البرولتاريا ، أو فقر المدن عموماً ، فى إحداث الثورة ؟ لقد كان فى ظاهر الأمر سبباً مباشراً ، فالعجز فى الخبز وما ترتب عليه من شغب فى باريس فى ١٧٨٨ — ٨٩ رفع حمى الشعب إلى درجة كان فيها أفراده على استعداد للمغامرة بحياتهم فى تحدى الجيش والهجوم على الباستيل . على أن الجوع والغضب يستطيعان إعطاء القوة المحركة ، ولكنهما لا يعطيان القيادة ، ومن المحتمل أن حوادث الشغب كان يمكن تهدئتها بخفض سعر الخبز لو لم توجه القيادة من الطبقات الأعلى المتمردين للاستيلاء على الباستيل والزحف على فرساى . ثم ان الجماهير لم يكن لديها إلى ذلك الحين أى فكرة عن قلب الحكومة ، أو خلع الملك ، أو إقامة جمهورية . وكانت طبقة البرولتاريا تتحدث عن المساواة الطبيعية حديثاً يملؤه الأمل ، ولكنها لم تحلم بالاستيلاء على الدولة . لقد طالبت بتنظيم الدولة للاقتصاد — بينما عارضته البورجوازية — أو على الأقل بتحديد سعر الخبز ، ولكن هذا كان عودة للنظام القديم ، لا تقدماً نحو اقتصاد تهيمن عليه الطبقة العاملة . صحيح . أنه حين جد الجد كان رعاع باريس المدفوعون بالجوع والمحرضون من الخطباء والعملاء هم الذين استولوا على الباستيل ومنعوا بذلك الملك من استخدام الجيش ضد الجمعية الوطنية ، ولكن حين أعادت الجمعية تنظيم فرنسا كان ذلك بإرشاد البورجوازيين وتحقيقاً لأهدافهم .

٤ — البورجوازية والثورة

كان الملمح البارز للحياة الاقتصادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر هو صعود طبقة التجار ورجال الأعمال . وكانت قد بدأت تزكو أيام لويس الرابع عشر وكولبير ، وأفادت أعظم فائدة من الطرق والقنوات الممتازة التى يسرت التجارة ، وأثرت على الاتجار مع المستعمرات ، وارتفعت إلى مكان مرموق فى الوظائف الإدارية (حتى ١٧٨١) ، وهيمنت على مالية الدولة .

ولكن ازعجتها إلى حد التمرد تلك المكوس التى فرضت لصالح

الإقطاعيين أو الحكومة على الطرق والترع ، وذلك الفحص المضيع للوقت للشحنات عند كل محطة للمكوس وكان هناك ثلاثون إلى أربعين من هذه المكوس يجب أن يدفعها المركب الذى يحمل بضاعة من جنوبى فرنسا إلى باريس(٤١). وطالب رجال الأعمال بحرية التجارة داخل الحدود، ولكنهم لم يكونوا واثقين من رغبتهم فى هذه الحرية بين الأمم . وفى ١٧٨٦ . وبدافع من نظريات الفزيوقراطيين ، خفضت الحكومة التعريفات على المنسوجات والبضائع الحديدية الواردة من انجلتره ، مقابل خفض التعريفات الانجليزية على الخمور والزجاج والحاصلات الفرنسية الأخرى . وكان من نتائج هذا إصابة صناعة النسيج الفرنسية بضربة ، لأنها لم تستطع منافسة المصانع الانجليزية المجهزة بآلات أحدث . وبلغت البطالة فى ليون ، وأميان ، نقطة التفجر.

ومع ذلك دعم خفض التعريفات التجارة الخارجية وملأ خزائن طبقة التجار . وتضاعفت التجارة تقريباً بين عامى ١٧٦٣ و ١٧٨٧ ، ونيفت على بليون فرنك فى ١٧٨٠ (٤٢) . واكتظت مدن الثغور الفرنسية بالتجار ، والشاحنين ، والملاحين ، والمتاجر ، ومعامل التكرير ، ومصانع التقطير . فى تلك المدن كانت طبقة التجار ورجال الأعمال هى الغالبة قبل أن تكرس الثورة تفوقها القومى بزمان .

وجاء شطر من الثروة التجارية من قنص العبيد الأفارقة أو شرائهم ونقلهم إلى أمريكا وبيعهم هناك ليعملوا على المزارع الكبيرة ، وهى ما كانت عليه الحال فى انجلتره . فى ١٧٨٨ شحن تجار الرقيق الفرنسيون ٢٩,٥٠٦ زنجياً إلى سان — دومنج (هايتى) وحدها »(٤٣) . وكان المستثمرون الفرنسيون يمتلكون معظم الأرض والصناعات هناك وفى جوادلوب والمارتنيك . وفى سان — دومنج كان ثلاثون ألفاً من البيض يستخدمون ٤٨٠,٠٠٠ عبد(٤٤) . وتألفت فى باريس « جمعية أصدقاء السود » عام ١٧٨٨ برآسة كوندورسيه ، وكانت تضم بين أعضائها لافاييت وميرابو الابن ، وتستهدف إلغاء الرق ، غير أن الشاحنين أصحاب المزارع أغرقوا الحركة باحتجاجاتهم . وفى ١٧٨٩ صرحت غرفة بوردو التجارية بالآتى : « أن فرنسا تحتاج إلى مستعمراتها

لصيانة تجارتها ، ومن ثم تحتاج إلى عبيد حتى تصبح التجارة مجزية فى هذا الجزء من العالم ، على الأقل إلى أن يعثر على وسيلة أخرى»[٤٥] .

واحتاجت المشروعات الصناعية والاستعمارية وغيرها إلى رأس المال ، وولدت سلالة متكاثرة من المصرفيين ، وعرضت شركات المحاصة السندات ، وطرحت الحكومة أسهم القروض ، وتطورت المضاربة فى بيع وشراء السندات المالية ، واستأجر المضاربون صحفيين لبث الشائعات المقصود بها رفع أسعار الأسهم أو خفضها[٤٦] . وشارك أعضاء الوزارات فى المضاربة ، فأصبحوا خاضعين لضغط المصرفيين أو نفوذهم . وكانت كل حرب تزيد من اعتماد الدولة على الماليين ، وتزيد من اهتمام الماليين اهتماماً جدياً بسياسة الدولة وقدرتها على الوفاء بديونها . وحظى بعض المصرفيين بثقة شخصية تفوق الثقة فى الحكومة ، ومن ثم استطاعوا أن يقترضوا بفائدة منخفضة ، ويقرضوا الحكومة بفائدة أعلى ، ويزيدوا ثروتهم بإمساك دفاترهم لا أكثر — مادام حكمهم صائباً وما دامت الدولة تدفع ديونها .

وتعاظم ثراء الملتزمين العامين (وهم الماليون الذين كانوا يشترون حق جباية الضرائب غير المباشرة بتقديمهم قرضاً للحكومة) واشتد كره الناس لهم ، وذلك لأن الضرائب غير المباشرة ، كضرائب البيوع عموماً ، كانت أفدح ما تكون على من يضطرون لإنفاق الكثير من دخلهم على ضروريات الحياة اليومية . وكان بعض هؤلاء الملتزمين مثل هلفتيوس ولافوازييه ، رجالا ذوى نزاهة نسبية وروح وطنية ، أسخياء فى مساهمتهم فى البر والآداب والفنون [٤٧] . وتبينت الحكومة مساوىء نظام الالتزام هذا ، وخفضت عدد الملتزمين من ستين إلى أربعين فى ١٧٨٠ ، ولكن عداء الشعب لهم استمر . وقد ألغت الثورة النظام ، وكان رأس لافوازييه أحد الرءوس التى تهاوت فى هذه العملية .

ولما كان نظام الضرائب قد لعب دوراً قيادياً بين أسباب الثورة ، فلابد لنا من أن نذكر القارىء مرة أخرى بمختلف الضرائب التى كان الفرنسيون يدفعونها . (١) كانت التاى ضريبة على الأرض والأملاك الشخصية . وقد

أعفى الأشراف منها لمـــا يؤدونه من خدمة حربية ، وأعفى الأكليروس لأنهم يحفظون النظام الاجتماعى ويصلون من أجل الدولة ، وأعفى القضاه وكبار الإداريين ، وموظفو الجامعات ، ووقع كل الضريبة تقريباً على كاهل ملاك الأرض من الطبقة الثالثة — ومن ثم على الفلاحين فى المقام الأول. (٢) ضريبة الرءوس وكانت تفرض على كل رأس فى الأسرة ، ولم يعف منها غير الأكليروس (٣) الضريبة العشرينية وكانت ضريبة على الملكية كلها عقارية أو شخصية ، ولكن النبلاء تهربوا من شطر كبير منها ومن ضريبة الرءوس باستخدام النفوذ الخاص ، أو استخدام المحامين ليعثروا على ثغرات فى القانون ، وتفادى الأكليروس الضريبة العشرينية بعطاء اختيارى دورى للدولة (٤) كانت كل مدينة تدفع ضريبـــة للحكومة وتفرضها على مواطنيها . (٥) فرضت الضرائب غير المباشرة بهذه الوسائل : (أ) مكوس النقل . (ب) مكوس الاستيراد والتصدير . (حـ) رسوم الإنتاج على الأنبذة والمسكرات والصابون والجـــلد والحديد وورق اللعب الخ . (د) الاحتكارات الحكومية لبيع التبغ والملح ، فكان على كل فرد أن يشترى كل عام حداً أدنى مقرراً من الملح من الحكومة بالسعر الذى تحدده ، وكان دائماً أعلى من سعر السوق . وكانت ضريبة الملح (الجابل) هذه من أكبر أسباب شقاء الفلاح (٦) كان الفلاح يدفع ضريبة لينجو من السخرة . وبلغت جملة ما يدفعه الفرد من الطبقة الثالثة فى المتوسط من الضرائب اثنين وأربعين إلى ثلاثة وأربعين فى المائة من دخله [٤٨] .

فإذا أخذنا التجار وأصحاب المصانع ورجال المال والمخترعين والمهندسين والعلماء وصغار البيروقراطيين والكتبة وأصحاب الحوانيت والكيميائيين والفنانين والكتبة والمعلمين والمؤلفين والفزيائيين والمحامين والقضاء من غير ذوى الألقاب — إذا أخذنا هؤلاء جملة باعتبارهم المؤلفين للطبقة البورجوازية ، أمكننا أن نفهم كيف أنها فى ١٧٨٩ كانت قد أصبحت أغنى وأنشط شطر من الأمة . ولعلها كانت تملك من الأرض الريفية قدر ما تملك طبقة النبلاء[٤٩] ، وكان فى استطاعتها اكتساب النبالة بمجرد شراء إقطاعة نبيلة

أو وظيفة من وظائف « السكرتيرين » الكثيرة للملك . وبينا خسرت الطبقة النبيلة النفر والمال بفعل البطالة والإسراف والتحلل البيولوجى ، وخسر الأكليروس الأرض الصلبة بصعود العلم والفلسفة ، والحياة والناموس الأبيقوريين الحضريين ، إزدادت الطبقات الوسطى ما لا وقوة بفضل تطور الصناعة والتكنولوجيا والتجارة والمالية ، فملأت بغلاتها أو وارداتها الحوانيت (البوتيكات) التى أدهش بهاؤها الزوار الأجانب الذين ألموا بباريس أوليون أورامس أو بوردو[٥٠] . وبينما كانت الحروب تفقر الحكومة كانت تغنى الطبقة البورجوازية التى قدمت النقل والمواد . وقد انحصرت أكثر الثروة المتعاظمة فى المدن ؛ وهربت من الفلاحين والعمال وظهرت أوضح ما تكون فى التجار والماليين . فكان أربعون تاجراً فرنسياً يملكون فى ١٧٨٩ ثروة جملتها ستون مليون جنيه[٥١] ، وجمع مصرفى واحد هو بارى — مونمارتل مائة مليون[٥٢] .

أما السبب الأساسى فى الثورة فهو تلك المفارقة بين الواقع الاقتصادى والنظم السياسية ، بين أهمية الطبقة البورجوازية فى إنتاج الثروة وتملكها وبين إقصائها عن القوة السياسية . وكانت الطبقة الوسطى الراقية على وعى بقدراتها وحساسة للاستخفاف بها . وأحفظها انغلاق طبقة النبلاء الاجتماعى ووقاحتها — كما حدث لامرأة ألمعية هى مدام رولان حين دعيت للمكث حتى تتناول العشاء فى بيت أرستقراطى ، ثم وجدت الطعام يقدم لها فى جناح الخدم[٥٣] . وقد رأى البورجوازيون طبقة النبلاء تستنزف مال الدولة فى الإنفاق المسرف والولائم الباذخة فى الوقت الذى أنكر فيه المنصب أو الترقية السياسية أو الحربية على الرجال الذين وسعوا بجرأتهم وابتكارهم اقتصاد فرنسا الجالب للضرائب ، والذين تدعم مدخراتهم الخزانة الآن . ثم رأوا الأكليروس يلتهمون ثلث دخل الأمة فى الإبقاء على لاهوت عده كل الفرنسيين المتعلمين تقريباً طفلياً وأثرا متخلفا من تراث العصر الوسيط .

ولم يكن بالطبقات الوسطى رغبة فى الإطاحة بالملكية ، ولكنها تطلعت إلى الهيمنة عليها . ولم يكن بها رغبة قط فى الديمقراطية ، ولكنها أرادت

حكومة دستورية ، يمكن أن يحشد فيها ذكاء جميع الطبقات للتأثير فى التشريع والإدارة والسياسة . وقد طالبت بالتحرر من هيمنة الدولة أو الطوائف النقابية على الصناعة أو التجارة ، ولكنها لم تكره الإعانات المالية الحكرمية ، أو التأييد من الفلاحين وجماهير المدن لتحقيق أهدافها . وكان لب الثورة الفرنسية هو إطاحة البورجوازية بالنبلاء والأكليروس ، وهى بورجوازية استخدمت سخط الفلاحين للقضاء على الإقطاعية ، وسخط جماهير المدن لشل جيوش الملك . فلما عقد اللواء للجمعية التأسيسية بعد عامين من الثورة ، ألغت نظام الإقطاع ، وصادرت أملاك الكنيسة ، وأجازت تنظيم التجار ، ولكنها حظرت جميع تنظيمات العمال أو تجمعاتهم (١٤ يونيو ١٧٩١) [٥٤] .

٥ — احتشاد القوى

كانت هذه القوى الثورية كلها خاضعة لتأثير الأفكار ، وقد استخدمتها قناعاً للرغبات وموجهاً لها . وكان يوجد بالإضافة إلى الدعوة التى نشرها الفلاسفة الفزيوقراطيون شيوعيون مبعثرون واصلوا ووسعوا الاشتراكية التى فصلها فى الجيل الماضى موريللى ، وما بلى ، ولنجيه[٥٦] . فسبق بريسو دفارفيل بكتابه « مباحث فلسفية حول حق الملكية » (١٧٨٠) كتاب بيير برودون «ليست الملكية إلا لصوصية» ، إذ زعم أن الملكية الخاصة إنما هى سرقة للممتلكات العامة ، فليس هناك « حق مقدس ... يبيح أكل طعام عشرين رجلا بينما يكون نصيب الرجل الواحد غير كاف « والقوانين » مؤامرة الأقوياء على الضعفاء ، والأغنياء على الفقراء »[٥٧]. وقد اعتذر بريسو فيما بعد عن كتبه الأولى باعتبارها فورات طالب ، وأصبح من زعماء الجيروند ، وأعدم بالجليوتين لاعتداله (١٧٩٣) .

وفى ١٧٨٩ قبيل الاستيلاء عنوة على الباستيل ، أصدر فرنسوا بواسيل «كتاب تعليم للنوع الإنسانى بالسؤال والجواب » ، قطع الشوط كله إلى الشيوعية ، فزعم أن كل الشرور مردها » الطبقة المرتزقة ، القاتلة للبشر ، المعادية للمجتمع ، التى ظلت إلى الآن تحكم الناس وتذلهم وتدمرهم »[٥٨] . ولقد استرق الأقوياء الضعفاء ، ووضعوا القوانين ليحكموهم . واخترعت

الملكية ، والزواج ، والدين ، لأضفاء الشرعية على الغصب ، والعنف ، والخداع ، وكانت النتيجة أن قلة قليلة هى التى تملك الأرض ، بينما تكابد الأغلبية الجوع والبرد . وما الزواج إلا ملكية خاصة فى النساء ، وليس لإنسان حق فى أكثر مما يحتاج إليه ، وكل ما زا على ذلك يجب أن يوزع على كل إنسان حسب حاجته . وعلى العاطلين الأغنياء أن يعملوا أو يجوعوا ، ويجب أن تحول الأديرة إلى مدارس (٥٩) .

أما أطرف هؤلاء الرا يكاليين وأبعدهم أثراً فهم فرنسوا — اميل بابيف . فبعد أن أعان النبلاء والأكليروس فى تأكيدهم للحقوق الإقطاعية ضد الفلاحين (٦٠) ، أرسل إلى أكادمية آراس (٢١ مارس ١٧٨٧) اقتراحاً بأن تقدم جائزة لأفضل مقال يكتب فى هذا الموضوع « إذا أخذنا فى الاعتبار مجموع المعرفة التى حصلناها الآن ، فماذا يكون حال شعب بلغت غرائزهم الاجتماعية حالة تستوجب أن تسود بينهم المساواة الكاملة . . . التى يكون فيها كل شيء مشتركاً بينهم » (٦١) . غير أن الأكاديمية لم تستجب لاقتراحه ، فبين جراكوس بابيف (كما سمى نفسه فيما بعد) فى رسالة بتاريخ ٨ يوليو ١٧٨٧ أن كل الناس متساوون بالطبيعة ، وأن كل الأشياء مشتركة فى الحالة الطبيعية ، أما كل التاريخ التالى لهذه الحالة فهو انحطاط وخداع . وقد جمع خلال الثورة أتباعاً كثيرين ، وكان على وشك تزعم تمرد على حكومة الإدارة ، ولكن عملاءها قبضوا عليه فحكم عليه بالإعدام (١٧٩٧) .

على أن آراء كهذه لم تلعب غير دور متواضع فى توليد الثورة . فلم يكن هناك أثر يذكر للميول الاشتراكية فى « كراسات المظالم » التى وردت لمجالس طبقات الأمة من جميع أرجاء فرنسا فى ١٧٨٩ ، ولم يحتو أى منها على هجمات على الملكية الخاصة أو النظام الملكى — وكانت الطبقة الوسطى تمسك بزمام الموقف .

ثم هل كان البناءون الأحرار (الماسون) عاملا فى الثورة ؟ لقد سبق ذكر صعود هذه الجمعية السرية فى انجلترا (١٧١٧) وأول ظهورها فى فرنسا (١٧٣٤) ، وقد انتشرت سريعاً فى أوربا البروتستنتية ، وأيدها

فردريك الثانى فى ألمانيا ، وجستاف الثالث فى السويد . وحظر البابا كلمنت الثانى عشر (١٧٣٨) على السلطات الكنسية أو العلمانية الانضمام إلى الماسون أو مساعدتهم ، ولكن برلمان باريس رفض تسجيل هذا الأمر البابوى ، فجرده بذلك من مفعوله القانونى فى فرنسا . وفى ١٧٨٩ كان هناك ٦٢٩ محفلا ماسونياً فى باريس ، كل منها يضم عادة خمسين عضواً إلى مائة [٦٢] ، وبين هؤلاء كثير من النبلاء ، وبعض الكهنة ، وأخوة لويس السادس عشر ، وأكثر زعماء حركة التنوير [٦٣] ، وفى ١٧٦٠ أسس هلفتيوس محفل العلوم ، وفى ١٧٧٠ وسعه الفلكى لالاند إلى « محفل الأخوات التسع » (ربات الفنون) . هنا التقى برتولليه ، وفرانكلن ، وكوندورسيه ، وشامفور ، وجروز ، وأودون ، ثم سييس ، وبريسو ، وديمولان ، ودانتون [٦٤] .

وكان الماسون من الناحية النظرية يستبعدون من عضويتهم كل « فاسق كافر » وكل « ملحد غبى » [٦٥] ، وكان على كل عضو أن يعلن إيمانه بـ « مهندس الكون الأعظم » ولم تشترط فى العضو عقيدة دينية غير هذه ، وبذلك قصر الماسون بوجه عام لاهوتهم على الربوبية . ويبدو أنهم كانوا أصحاب نفوذ فى الحركة التى قامت لطرد اليسوعيين من فرنسا [٦٦] . وكان هدفهم المعلن أن ينشئوا جماعة إخوان دولية سرية يترابطون فيها بالاجتماع والطقوس ويتعهدون بتبادل العون وبالتسامح الدينى والإصلاح السياسى . وفى عهد لويس السادس عشر دخلوا ميدان السياسة بنشاط ، وأصبح عدد من الأعضاء الأرستقراطيين زعماء متحررين فى الجمعية الوطنية — لافاييت ، وميرابو الأب والإبن ، والفيكونت دنواى ، ودوق لاروشفوكو — ليانكور ، ودوق أورليان [٦٧] .

وأخيراً جاءت الأندية ذات الطابع السياسى الواضح . وقد نظمت أول الأمر على غرار الأندية الانجليزية — لتناول الطعام ، والسمر ، والقراءة — ثم أصبحت حوالى عام ١٧٨٤ مراكز للدعوة شبه الثورية . قال معاصر إنهم فى هذه الأندية « يبدون آراءهم بصوت عال ودون قيد فى حقوق الإنسان ، ومزايا الحرية ، والشرور الكبرى الناجمة عن عدم المساواة فى ظروف الحياة » [٦٨] . وبعد تجمع مجلس الطبقات كون المندوبون عن

إقليم برتنى « نادى برتن » ، ولم يلبث النادى أن وسع عضويته فشملت غير البرتنيين كميرابو الإبن ، وسييس ، وبروبسبير . وفى أكتوبر ١٧٨٩ نقل مقره إلى باريس ، وأصبح « جمعية اليعاقبه » .

وهكذا تضافرت عشرات القوى المتنوعة لأحداث الثورة الفرنسية ، وهو ما يحدث فى معظم الأحداث البالغة الأهمية فى التاريخ . وكان من العوامل الأساسية نمو الطبقات الوسطى عدداً وتعليماً وطموحاً وثراء وسلطاناً اقتصادياً ، ومطالبتها بوضع سياسى واجتماعى يتناسب وإسهامها فى حياة الأمة ومالية الدولة ، وخشيتها من أن تجعل الخزانة سنداتها الحكومية عديمة القيمة بإعلانها الإفلاس . ومما لحق بهذا العامل واستخدمه مساعداً ومهدداً فقر ملايين الفلاحين الذين يستصرخون طلباً للتخفف من الرسوم والضرائب والعشور ، ورخاء عدة ملايين من الفلاحين لهم من القوة ما يكفى لتحدى الإقطاعيين وجباة والضرائب والأساقفة وأفواج الجند ، والسخط المنظم الذى استشعرته جماهير المدن التى عانت من التلاعب فى إمدادات الخبز ، ومن تخلف الأجور عن الأسعار فى التصاعد التاريخى للتضخم .

أضف إلى هذا أشتاتاً متشابكة من العوامل المساعدة : إسراف البلاط المكلف ، وعجز الحكومة وفسادها ، وإضعاف الملكية نتيجة لصراعها الطويل مع البرلمانات وطبقة النبلاء ، وانعدام المؤسسات السياسية التى يمكن عن طريقها التعبير عن المظالم على نحو قانونى وبناء ، ومستويات الإدارة الرفيعة التى يتوقعها مواطنون شحذت عقولهم المدارس والكتب والصالونات والعلم والفلسفة وحركة التنوير أكثر من أى شعب من الشعوب المعاصرة . هذا فضلا عن انهيار الرقابة على المطبوعات أيام لويس السادس عشر ، وبث أفكار الإصلاح أو الأفكار الثورية على يد فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ودالامبير ، ودولباخ وهلفتيوس ، وموريلليه ، وموريللى ، ومابلى ، ولنجيه ، وميرابوا الأب ، وطورجو ، وكوندورسيه ، وبومارشيه ، وميرابوا الإبن ، ومئات غير هؤلاء من الكتاب الذين لم يكن لهم قط نظير من قبل عدداً والمعيه وقوة ، والذين تغلغلت دعوتهم فى كل طبقة باستثناء

طبقة الفلاحين – فى ثكنات الجيش ، وصوامع الرهبان ، وقصور الأشراف ، وحجرات الانتظار الملكية . يضاف إلى هذا كله ذلك التقلص المدمر الذى أصاب الإيمان فى صدق كنيسة كانت قد ساندت الأوضاع الراهنة وحق الملوك الإلهى ، وبشرت بفضائل الطاعة والإستسلام ، وكدست قدراً هائلا من الثروة المحسودة فى الوقت الذى لاتستطيع الحكومة أن تعثر فيه على وسيلة لتمويل واجباتها المتسعة . ثم انتشار الإيمان بـ « قانون طبيعى » يتطلب عدالة إنسانية لكل عاقل دون نظر للمولد أو اللون أو العقيدة أو الطبقة ، و بـ « حالة طبيعية » معطاءة كل الناس فيها متساوون ، فضلاء أحرار ، سقطوا منها نتيجة لنمو الملكية الخاصة ، والحرب ، والقانون الذى يوجه لخدمة الطبقة المميزة ، أضف إلى هذا ظهور وتكاثر المحامين والخطباء المستعدين للدفاع عن الوضع الراهن أو مهاجمته ، ولإثارة مشاعر الشعب وتنظيمها ، وتكاثر كتاب النشرات وضراوتهم ، والنشاط السرى للأندية السياسية ، وطموح الدوق أورليان إلى التربع على عرش فرنسا مكان ابن عمه .

ثم أجمع هذه العوامل كلها معاً فى حكم ملك لطيف خير ضعيف متردد حيره تشابك الصراعات من حوله ، والدوافع المتضاربة فى داخله ، واتركها تفعل فعلها فى شعب أشد وعياً بمظالمه ، وأحر عاطفة وأقبل للإثارة وأخصب خيالا من أى شعب آخر تقريباً وعاه التاريخ ، ثم لا يلزم لضم هذه القوى وتأجيجها لتحدث انفجاراً ممزقاً إلا حادث يمس الجماهير ، ويتغلغل تغلغلا أعمق من الفكر فى أقوى غرائز البشر . وربما كانت هذه هى وظيفة قحط عام ١٧٨٨ وبجاعته ، وشتاء ١٧٨٨ — ٨٩ القاسى . لقد تنبأ المركيز دجيراردان فى ١٧٨١ بأن « الجوع وحده سيولد هذه الثورة الكبرى[٦٩] » . وقد وصل الجوع إلى الريف ، وإلى المدن ، وإلى باريس ، وأنشب فى الجماهير أظفاره فى ضراوة تكفى للتغلب على التقاليد ، والاحترام ، والخوف ، ولتوفير معلية لتحقيق أهداف وأفكار رجال ينعمون بالغذاء الطيب . وهكذا تحطمت سدود القانون والعرف والتدين ، واندلع لهيب الثورة .

الباب الثالث

الانهيار السياسى

١٧٨٣ – ٨٩

١ – القلادة الماسية : ١٧٨٥

فى يونيو ١٧٨٣ عاد أكسيل فون فرسن إلى فرنسا بعد أن أبلى بلاء حسناً فى الدفاع عن أمريكا وكسب الفخار فى يوركتون ، فوجد مارى أنطوانيت فى روعة حسنها الذى تركها عليه قبل ثلاث سنين . وحتى فى ١٧٨٧ ، حين كانت فى الثانية والثلاثين ، وجدها آرثر ينج « أجمل امرأة » رآها فى البلاط ذلك اليوم[١] . ولم تتردد فى تأييد طلب جوستاف الثالث إلى لويس السادس عشر أن يعين فرسن الوسيم كولونيلا للفوج السويدى الملكى فى الجيش الفرنسى – مما سيتيح له قضاء وقت غير قصير فى فرساى . واعترف أكسيل لأخته صوفى بأنه يحب الملكة ، وأنه يعتقد أن حبه يلقى استجابة منها . وما من شك فى أنها كانت تحس الود الحار نحوه ، وقد تبادلا الرسائل الرقيقة بعد ثمانية أعوام عقب المحاولة الباسلة التى بذلها لتهريبها هى والملك من فرنسا ، غير أن دعوتها لصوفى أن تأتى وتعيش بقربه توحى بعزمها على أن تحتفظ بشعورها نحوه فى نطاق الحدود اللائقة[٢] . ولم يكد يؤمن ببراءتها أحد فى البلاط غير زوجها . وأكدت علاقتها الآثمة أغنية ذاعت بين عامة الشعب تقول :

إن أشئت أن تعرف
ديوثا ، وابن زنا ، وامرأة فاجرة ،
فانظر إلى الملك ، والملكة .
والأمير ولى العهد[٣] .

ولقد لخص لوى — فليب د سيجور الأمر فى هذه العبارة : « لقد فقدت سمعتها ولكنها صانت فضيلتها »[٤] .

وفى ٢٥ مارس ١٧٨٥ ولدت مارى أنطوانيت ابناً ثانياً سمى لوى — شارل . وسر الملك سروراً عظيماً فوهبها قصر سان — كلو الذى كان قد اشتراه من الدوق أورليان بستة ملايين من الجنيهات . وأدان البلاط غلو تقديره للملكة ، ولقبتها باريس على سبيل التهكم (السيدة العجز)[٥] . وقد استخدمت نفوذها على زوجها لتوجيه تعيينه للوزراء والسفراء وغيرهم من كبار القوم وحاولت دون جدوى أن تغير من كراهيته للتحالف مع النمسا ، وزادت جهودها هذه من كره الشعب لها .

فى هذا الجو من عداء الشعب لـ « النمساوية » **L, Autrichienne** كما كانوا يلقبونها نستطيع أن نفهم تصديق الناس لقصة القلادة الماسية . وكانت هذه القلادة ذاتها أمراً لايصدق ، فهى خيط من ٦٤٧ ماسة قيل إنها تزن ٢,٨٠٠ قيراط[٦] * وكان اثنان من جواهرية البلاط هما شارل بومر وبول باسانج — قد اشتريا ماساً من نصف العالم ليصنعا قلادة لمدام دوبارى ، اثقين من أن لويس الخامس عشر سيبتاعها لها . ولكن لويس الخامس عشر مات ، فمن تراه يشترى الآن حلية باهظة الثمن كهذه ؟ وعرضها الجوهريان على مارى أنطوانيت لقاء ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه ، فرفضتها لغلوها الشديد[٧] وهنا تصدر الصورة الكردينال برنس اوى — رينه — ادوار دروهان .

وكان الكردينال ثمرة ناضجة لأسرة من أعرق الأسر الفرنسية وأغناها ، قيل إن دخله بلغ ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه فى العام . رسم قسيساً فى ١٧٦٠ ، وعين مساعداً لعمه رئيس أساقفة ستراسبورج ، وبصفته هذه رحب رسمياً بمارى أنطوانيت أول مرة دخلت فيها فرنسا (١٧٧٠) . فلما وجد ستراسبورج ميداناً يضيق به طموحه ، عاش أكثر وقته فى باريس ، حيث انضم إلى

(*) إذا أخذنا تقدير عام ١٩٦٥ معيارا لسعر الماس (١٢٠٠ ريال القيراط) كانت القلادة تساوى ٣٣٦٠٠٠٠ دولار .

الحزب المناوىء للنمسا والملكة . وفى ١٧٧١ أوفده لويس السادس عشر إلى فيينا مبعوثاً خاصاً لاستطلاع المناورات النمساوية لتقسيم بولنده . واغتاظت ماريا تريزا من الولائم الباذخة التى كان يولمها ومن بثه الشائعات الفاضحة عن ولى العهد الجديد . واستدعاه لويس السادس عشر إلى باريس ، ولكن الأقارب الأقوياء أقنعوا الملك بأن يعينه كبير المتصرفين فى المبرات الملكية (١٧٧٧) . وبعد عام رقى القس المرح الوسيم إلى رتبة الكردينالية ، وفى ١٧٧٩ أصبح رئيساً لأساقفة ستراسبورج وهناك التقى بكاليوسترو فوقع تحت سحر المشعوذ وانطلت عليه دعاواه . وإذ كان روهان قد ارتفع إلى هذا المقام العالى بهذه السرعة الكبيرة ، فقد خيل إليه أن فى وسعه الطموح إلى تقلد منصب كبير وزراء لويس السادس عشر ، شريطة أن يكفر عن سنوات معارضته للملكة .

وكان من أسباب لهوه فى باريس مدام دلاموت — قالوا ، المرأة الجذابة الذكية . وكانت جان دسان — ريمى دفالوا هذه تدعى أنها تحدرت من هنرى الثانى ملك فرنسا وإحدى خليلاته . ولكن أسرتها فقدت ثروتها ، فاضطرت جان إلى الاستجداء فى الشوارع . وفى ١٧٧٥ أكدت الحكومة نسبها الملكى ، ومنحتها معاشاً قدره ثمانمائة فرنك . وفى ١٧٨٠ تزوجت أنطوان دلاموت ، وكان ضابطاً فى الجيش يهوى الدس والتآمر ، خدعها فى أمر دخله ، فكان زواجهما على حد قولها رباطاً بين القحط والمجاعة[٨] . وقد انتحل لقب كونت ، فأصبحت جان كونتيسه دلاموت ، وبهذه الصفة راحت ترف حول باريس وفرساى ، وتغزو قلوب الرجال بما سمته « مظهر العافية والشباب (الذى يسميه الرجال التألق) ، وبشخصية غاية فى الحيوة والمرح »[٩] . فلما أصبحت خليلة للكردينال (١٧٨٤)[١٠] ، ادعت أن لها صلات وثيقة جداً فى البلاط ، وعرضت أن تنال له موافقة الملكة على أهدافه . فكلفت ريتو دفيليت تقليد خط جلالتها ، وجاءت الكردينال برسائل حب زعمت أنها من مارى أنطوانيت ، وأخيراً وعدت بأن ترتب له لقاء مع الملكة . ثم دربت مومساً تدعى « البارونه » أوليفيا على انتحال شخصية الملكة ، وفى « بستان فينوس »

« بفرساى » فى جوف الليل البهيم » التقى الكوردينال فترة قصيرة بهذه المرأة » وحسبها أنطوانيت » ولثم قدمها » وتلقى منها وردة عربوناً للتصالح (أغسطس ١٧٨٤) » أو هكذا تروى « الكونتيسة »[١١] .

ثم غامرت مدام دلاموت الآن بخطة أكثر جرأة لو نجحت لوضعت حداً حداً لفقرها . ذلك أنها زورت خطاباً من الملكة يخول لروهان شراء القلادة باسمها » وقدم الكردينال الخطاب إلى بومر » فسلمه هذا الجواهر (٢٤ يناير ١٧٨٥) بعد تعهد كتابى منه بدفع ١,٦٠٠,٠٠٠ فرنك منجمة . وأخذ روهان الماسات إلى الكونتيسة » وبناء على طلبها سلمها إلى ممثل مزعوم للملكة . أما تاريخ الماسات بعد ذلك فغير مؤكد » ويبدو أن الكونت » دلاموت أخذها إلى انجلتره وباعها قطعة قطعة [١٢] .

وأرسل بومر فاتورة بالقلادة إلى الملكة فردت بأنها لم تطلبها قط وأنها لم تكتب قط الخطاب الذى يحمل اسمها . فلما وافى القسط الأول (٣٠ يوليو ١٧٨٥) ولم يعرض روهان غير ثلاثين ألف فرنك من المبلغ المستحق وقدره ٤٠٠,٠٠٠ عرض بومر الأمر على البارون دبروتوى وزير البيت الملكى . فأنبأ بروتوى به الملك . فاستدعى لويس الكردينال ودعاه لتفسير تصرفاته » فأراه روهان بعض خطابات زعم أنها من الملكة . وفطن الملك للتو إلى أنها مزورة وقال « ليس هذا خط الملكة » والتوقيع ليس له حتى الشكل المميز »[١٣] » واشتبه فى أن روهان وغيره من الحزب المناوىء لزوجته قد بيتوا هذه المؤامرة لتشويه سمعتها . فأمر بزج الكردينال فى الباستيل (١٥ أغسطس) وطلب إلى الشرطة البحث عن مدام دلاموت وكانت قد هربت إلى المخبأ تلو المخبأ » ولكن أمكن القبض عليها » فزجت هى أيضاً أيضاً فى الباستيل . كذلك قبض على « البارونة » أوليفيا » وريتو دفيليت » وكاليوسترو » الذى اشتبه خطأ فى أنه مدبر المؤامرة » مع أنه فى الواقع فعل قصاراه ليثبطها[١٤] .

وأعتقد لويس أنه لابد من محاكمة علنية لإقناع الشعب ببراءة الملكة » فعرض القضية على أعدائه » وهم برلمان باريس . وكانت المحاكمة أشد قضايا

القرن فى فرنسا إثارة لاهتمام الرأى العـام ، كما أصبحت قضيـة وارن هيستنجز فى انجلتره بعدها بثلاث سنين . وصدر حكم البرلمان فى ٣١ مايو ١٧٨٦ . فأعلنت براءة الكردينال روهان ، باعتباره مخدوعاً أكثر منه خادعاً ، ولكن الملك حرمه مناصبه الرسمية ونفاه إلى دير لاشيز — ديو . وحكم على اثنين من الشركاء فى الجريمة بالسجن ، وبرئت ساحة كاليوسترو. أما مدام دلاموت فقد جردت من ملابسها علانية وضربت بالسوط فى « الكوردمى » أمام قصر العدالة ، ورسمت بحرف V (اختصاراً لكلمة Voleur أى اللصة) وحكم عليها بالسجن مدى الحياة فى سجن سالبتريير ، وهو سجن النساء سيئى السمعة . وبعد أن قضت عاماً فى هذا المحبس الذى يورث الجنون فرت ، ولحقت بزوجها فى لندن ، وكتبت ترجمة لحياتها شرحت فيها كل شىء ، ثم ماتت فى ١٧٩١ .

واغتبط النبلاء وجماهير الباريسيين بتبرئة ساحة الكردنيال وانتقدوا الملكة لإيصالها الأمر إلى محاكمة علنية ، وكان الشعور العام أن شرهها المعروف للجواهر هو عذر الكردينال فى تصديق الرسائل المزورة . وغالت الشائعات والأقاويل إلى حد اتهامها بمخللة روهان [١٥] ، مع أنها لم تكن رأته خلال السنوات العشر السابقة للقبض عليه . ومرة أخرى صانت الملكة عرضها ولحق الأذى بسمعتها . قال نابليون « إن موت الملكة يجب أن يؤرخ من محاكمة القلادة الماسية [١٦] .

٢ — كالون : ١٧٨٣ — ٨٧

فى ١٠ نوفمبر ١٧٨٣ عين الملك شارل — ألكسندر دكالون مراقباً عاماً للمالية . وكان كالون قد أصاب نجاحاً فى منصب الناظر الملكى بمتز وليل ، واشتهر بآدابه الساحرة ، وروحه المرحة ، وبراعته فى أمور المال — رغم أنه هو ذاته كان غارقاً فى الدين شأنه شأن الحكومة التى دعى لإنقاذها[١٧] . ولم يجد غير ٣٦٠,٠٠٠ فرنك فى الخزانة ، مع دين قصير الأجل قدره ٦٤٦,٠٠٠,٠٠٠ ، يزيد خمسين مليوناً من الفرنكات كل سنة . وقد رفض كما رفض نكير من قبل فرض المزيد من الضرائب مخافة أن يثير الأمر التمرد

ويضعف الاقتصاد ، وبدلا من الضرائب قرر عمل يا نصيب بعد المفاوضة ، جاء بمائة مليون من الجنيهات . ثم لجأ إلى الأكليروس وظفر منهم بمنحة قدرها ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات بعد أن تعهد بمصادرة الطبعة التى أصدرها بومارشيه من أعمال فولتير . ثم أعاد سك العملة الذهبية فربح للخزانة بذلك خمسين مليوناً . واقترض ١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ من المصرفيين . وحداه الأمل فى حفز التجارة إلى تخصيص مبالغ كبيرة للمشروعات الصحية العامة فى المدن ولتحسين الطرق والترع والثغور ، واستفادت موانىء الهافر ودنكرك وديبب ولا ووشيل ، وبدأت الأرصفة الكبرى فى شربورج . وعملا بالنظرية التى تزعم أنه لابد للحكومة من أن تتخذ لها دائماً واجهة من الثراء ، خصص الاعتمادات دون تردد للحاشية ، ولم يسأل أسئلة حول نفقات أخوة الملك والملكة . أما الملك نفسه ، فإنه برغم نواياه الطيبة سمح بزيادة نفقات بيته من ٤,٦٠٠,٠٠٠ جنيه فى ١٧٧٥ إلى ٦,٢٠٠,٠٠٠ فى ١٧٨٧ (١٨) .

وكان كالون يقترض كلما زاد إنفاقه ، وكلما اقترض ازدادت الفائدة التى يتعين دفعها على الدين . وفى أغسطس ١٧٨٦ اعترف للملك المذهول أن كل الوسائل قد استنفدت ، وأن الدين القومى والعجز السنوى زادا زيادة لم يسبق لها نظير ، وأنه لانجاة للحكومة من الخراب المالى إلا بتوسيع الضرائب لتشمل النبلاء الأكليروس . وكان كالون عليماً بأن برلمان باريس الذى كان آنئذ مرتبطاً بنبلاء السيف فى حلف سافر سيقاوم هذا الاقتراح ، ومن ثم اقترح أن يدعى لفيف من الرجال البارزين يختارهم بمعرفته من الطبقات الثلاث كلها فى جميع أرجاء فرنسا إلى فرساى للتشاور إنقاذاً لمالية الدولة ، فوافق الملك .

والتأم شمل « مجلس الأعيان » فى ٢٢ فبراير ١٧٨٧ ، وكان يضم ٤٦ نبيلا ، و ١١ كنسياً ، و ١٢ عضواً من مجلس الملك ، و ٣٨ قاضياً ، و ١٢ نائباً من « أقطار الدولة » (وهى أقاليم تتمتع بامتيازات خاصة) ، و ٢٥ موظفاً بلدياً ، وجملتهم ١٤٤ . ووجه كالون إليهم الخطاب بصراحة تنطوى على الشجاعة ، وأفاض فى الحديث عن المساوىء التى لابد من القضاء عليها

أيا كان رسوخها فى الزمن والميول المغرضة ، لأنها « ثقيلة الوطأة على أكثر الطبقات إنتاجاً وكدا » . وأدان عدم المساواة العام فى منح الإعانات المالية ، و « عدم التناسب الهائل فى النصيب الذى تسهم به مختلف الأقاليم والرعايا الذين يدينون بالتبعية للملك واحد »[١٩] . ثم عرض اقتراحات أكثر راديكالية من اقتراحات طورجو ، وقدمها على أن الملك قد وافق عليها ، ولو أنها نفذت لربما تفادت اندلاع الثورة . وقبل الأعيان بعضها مما تحدر من عهد طورجو كخفض ضريبة الملح ، وإلغاء المكوس على التجارة الداخلية ، وإعادة حرية الاتجار فى الغلال وإنشاء المجالس الإقليمية ، وإنهاء السخرة . أما طلبه فرض ضريبة جديدة وعامة على الأرض فقد رفض ، وكانت حجة الأعضاء الأشراف والأكليروس أن « إعانة الأرض » تقتضى مسحاً لجميع الأراضى ، وإحصاء لكل ملاك الأرض ، فى فرنسا ؛ وهذا يستغرق سنة ، ولن يكون له أثر فى الأزمة الراهنة .

ولجأ كالون إلى الشعب بنشر خطبه . ولم يستطب النبلاء ولا الأكليروس هذا الالتجاء للرأى العام . ورد المجلس بأن طالب كالون بتقديم حساب كامل عن الإيرادات والمصروفات أثناء وزارته . فرفض الامتثال للطلب ، لأنه عرف أن الكشف عن وسائله ونفقاته سيكون فيه القضاء عليه . وأصر المجلس على أن الحاجة إلى القصد فى النفقات أمس منها إلى تعديل هيكل الضرائب ، ثم تشكك فى سلطته فى وضع نظام جديد للضرائب ، فمثل هذه السلطة لا يملكها إلا مجلس طبقات الأمة (Etats Généraux وهو مؤتمر قومى من نواب تختارهم الطبقات الثلاث états) ولم يدع مجلس كهذا منذ عام ١٦١٤ .

ووافق أحد الأعيان ، وهو لافاييت ، على معظم مقترحات كالون ، ولكنه كان عديم الثقة بالرجل — فاتهمه ببيع بعض الأراضى الملكية دون علم الملك ، وتحداه كالون أن يثبت التهمة ، فأثبتها[٢٠] . وكان لويس السادس عشر قد ساءه التجاء كالون للشعب متخطياً بذلك رجال الحكومة ، فأدرك

الآن بعد أن تكشفت له الأمور تباعاً أن كالون قد غشه فى حالة الخزينة ، ووضح له أنه لن يستطيع الحصول على أى تعاون من الأعيان مادام كالون مراقباً للمالية . فلما طاب كالون إقالة ناقده البارون دبرتوى الذى كان صديقاً شخصياً لمارى أنطوانيت ، أشارت على الملك بأن يقبل كالون بدلا منه . فاتبع النصيحة بعد أن أرهقته هذه الضجة الشديدة (٨ أبريل ١٧٨٧) . أما كالون فقد هرب سراً إلى انجلترا بعد أن علم بأن برلمان باريس يخطط للتحقيق فى إدانته وفحص شئونه الخاصة . وفى ٢٣ أبريل حاول لويس تهدئة الأعيان بالوعد بالوفر الحكومى ونشر مالية الدولة . وفى أول مايو ، وبناء على نصيحة الملكة أيضاً ، عين أحد الأعيان رئيساً لمجلس فرنسا :

٣ — لومينى دبرين : ١٧٨٧ — ٨٨

كان رئيساً لأساقفة تولوز ، ولكنه كان حر الفكر حرية اشتهر بها حتى أن جماعة الفلاسفة رحبوا بتقلده السلطة . وقبل ست سنوات ، حين زكى ليخاف كرستوف دبومون رئيساً لأساقفة العاصمة ، اعترض لويس السادس عشر قائلا « يجب على الأقل أن يكون لنا رئيس أساقفة لباريس مؤمن بالله »[٢١] . وكان من أعظم ضرباته الموفقة وهو وزير للمالية أنه حصل على نقله لرآسة أساقفة سانس ، وهو منصب أغنى كثيراً من منصب رئيس أساقفة تولوز . وقد أقنع الأعيان بالموافقة على خطته الرامية إلى جمع ثمانين مليوناً من الفرنكات ، ولكن حين طلب إليهم الموافقة على ضريبة الأرض الجديدة عادوا يعتذرون بأنهم لا يملكون سلطة هذه الموافقة . فلما رأى لويس أن الأعيان لن يزيدوا على ذلك أقاله فى لطف (٢٥ مايو ١٧٨٧) .

وقد حاول برين تحقيق الوفور بطلبه الخفض فى نفقات كل مصلحة حكومية ، فقاومه رؤساء المصالح ، ولم يؤيد الملك وزيره . وخفض لويس نفقات بيته بمليون فرنك ، وارتضت الملكة خفضاً كهذا (١١ أغسطس) وقد أوتى برين من الشجاعة ما جعله يرفض المطالب المالية التى طالب بها البلاط ، وأصدقاء الملكة ، وأخ الملك . ومما يشرفه أنه استصدر من

البرلمان الكاره (يناير ١٧٨٨) وفى وجه مقاومة معظم زملائه الأساقفة ، المرسوم الملكى الذى بسط مظلة الحقوق المدنية على البروتستنت .

وكان من سوء طالعه أنه تقلد السلطة فى فترة انتشر فيها انكماش اقتصادى استمر حتى الثورة ، نتيجة لنقصان المحاصيل مراراً ولمنافسة الواردات البريطانية . وفى أغسطس ١٧٨٧ تصايحت جماهير المشاغبين الجائعة فى باريس بالنداءات الثورية وأحرقت الدمى التى مثلت بعض الوزراء . كتب أرثر ينج فى ١٣ أكتوبر يقول « يبدو أن الناس جميعاً يشعرون بأن رئيس الأساقفة لن يقوى على تخليص الدولة من عبء موقفها الراهن ، . . . وأن شيئاً خارقاً للعادة سيقع ، وأن إشهار الدولة لإفلاسها فكرة ليست بعيدة الذيوع إطلاقاً »[٢٢] ثم أضاف فى اليوم السابع عشر « إن رأياً واحداً غلب على الجماعة كلها ، وهو أنهم على شفا ثورة عظيمة فى الحكومة . . . وغليان شديد فى جميع صفوف الناس ، الذين يتوقون إلى تغيير ما ، . . . وخميرة قوية من الحرية ، تكبر كل ساعة منذ الثورة الأمريكية »[٢٣] .

وكانت الإصلاحات التى دعا إليها كالون وبريين ، وقبلها الملك ، تنتظر تسجيل البرلمانات لها وإقرارها قانوناً للدولة ، أما برلمان باريس فقد وافق على إطلاق حرية تجارة الغلال وتحويل السخرة إلى مبلغ نقدى ، ولكنه رفض التصديق على ضريبة دمغة . وفى ١٩ يوليو ١٧٨٧ أرسل إلى لويس السادس عشر تصريحاً بأن « الأمة ، ممثلة فى مجلس الطبقات ، هى وحدها صاحبة الحق فى أن تمنح الملك الموارد التى قد يتبين أنه لا غنى عنها »[٢٤] . ووافقت جماهير باريس على هذا الحكم ، وفاتها أن مجلس الطبقات ، كما هو معلوم إلى ذلك الحين فى التاريخ الفرنسى ، ليس إلا مؤسسة إقطاعية شديدة الانحياز إلى الطبقات المميزة . أما نبلاء السيف ، الذين لم تغيب عنهم هذه الحقيقة ، فقد وافقوا على التصريح ، ومنذ ذلك الحين انضموا إلى البرلمان ونبلاء الرداء فى هذا « التمرد النبيل » الذى مهد للثورة . وأما لويس فقد تردد فى دعوة مجلس الطبقات مخافة أن ينهى المجلس استبدادية الملكية البوربونية بتأكيده للسلطات التشريعية ،

وفى أغسطس ١٧٨٧ قدم للبرلمان مرسوماً بضريبة على جميع الأراضى فى جميع الطبقات ، فرفض البرلمان تسجيلها ، فدعا لويس الأعضاء إلى مجلس قضائى أعلى « سرير عدالة » فى فرساى ، وأمرهم بالتسجيل ، فلما عاد الأعضاء إلى باريس أعلنوا أن التسجيل باطل ، وعادوا يطالبون بعقد مجلس الطبقات . فنفاهم الملك إلى ترويه (١٤ أغسطس) وثارت البرلمانات الإقليمية احتجاجاً ، واندلعت حوادث الشغب فى باريس ، وأذعن بريين والملك ، فاستدعى البرلمان (٢٤ سبتمبر) وسط مظاهر ابتهاج الشعب .

ثم تجدد الصراع حين رفض البرلمان التصديق على اقتراح بريين جمع قرض قدره ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . ودعا الملك لعقد « جلسة ملكية » للبرلمان (١١ نوفمبر ١٧٨٧) قدم فيها وزراؤه الحجج المؤيدة لتسجيل القانون . ولكن البرلمان أصر على الرفض ، وصاح الدوق ورليان « مولاى ، هذا غير قانونى ! » وأجاب لويس فى نوبة غضب طائشة على غير العادة « هذا لا يغير من الأمر شيئاً ! انه قانونى لأنى أريده » — وهكذا أكد مبدأ الحكم الاستبدادى فى غير مواربة . ثم أمر بتسجيل المرسوم ، فسجل ، ولكنه ما إن غادر القاعة حتى ألغى البرلمان التسجيل . فلما سمع لويس بهذا نفى الدوق أورليان إلى فيلليه كوتريه ، وزج باثنين من أعضاء البرلمان فى الباستيل (٢٠ نوفمبر) . واحتجاجاً على هذين الأمرين وغيرهما من أوامر القبض دون محاكمة ، بعث البرلمان إلى الملك (١١ مارس ١٧٨٨) « اعتراضات » اشتملت كلاماً سر النبلاء والعامة على السواء : « ان القوانين التعسفية تنتهك الحقوق التى لا يمكن انتزاعها ... ان الملوك يحكمون إما بالقهر أو بالقانون . . . والأمة تطالب من جلالته أعظم خير يمكن لأى ملك أن يعطيه لرعاياه — وهو الحرية »[٢٥] .

ورأت الوزارة أن تهدىء ثائرة البرلمان بالإذعان لما طالب به من نشر بيان بإيرادات الحكومة ومصروفاتها . فزاد هذا النشر الطين بلة لأنه كشف عن عجز مقداره ١٦٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . ورفض المصرفيون أن يقرضوا الدولة مزيداً من المال ما لم يصدق البرلمان على القرض ، وأقسم البرلمان أنه

لن يفعل . وفى ٣ مايو ١٧٨٨ أصدر « إعلاناً للحقوق » ذكر لويس السادس عشر ووزراءه بأن فرنسا « ملكية يحكمها ملك ، طبقاً للقوانين » ، وأن على البرلمان ألا يتخطى عن حقه القديم فى تسجيل المراسيم الملكية قبل أن تصبح قوانين . ثم عاود المطالبة بعقد مجلس الطبقات . • أمر الوزراء باعتقال عضوين من زعماء البرلمان هما ديمرنيل وجوابلار (٤ مايو) ، وتم هذا وسط فوضى واضطراب فى القاعة واحتجاجات غاضبة فى الشوارع . وفى ٨ مايو أعلن بريين عزم الحكومة على إنشاء محاكم جديدة ، ترأسها « محكمة مطلقة السلطة » يكون لها وحدها منذ الآن سلطة تسجيل المراسيم الملكية ، أما البرلمانات فتقصر سلطتها على أداء الوظائف القضائية البحته ، ثم يصلح هيكل القانون الفرنسى بجملته . ومنح برلمان باريس أثناء ذلك « أجازة » — أى أنه من الناحية الفعلية أوقف عمله .

وعليه لجأ البرلمان إلى النبلاء ، والأكليروس ، والبرلمانات الإقليمية ، فخف الجميع لتأييده . وأرسل الأدواق والأشراف إلى الملك احتجاجات على إلغاء حقوق البرلمان التقليدية . وأدان مؤتمر للأكليروس (١٥ يونيو) « المحكمة المطلقة لسلطة » الجديدة ، وخفض « منحته » من إثنى عشر مليون جنيه فى المتوسط إلى ١,٨٠٠,٠٠٠ ، ورفض أى معونة أخرى حتى يعاد البرلمان [٢٦] . ثم شقت البرلمانات الواحد تلو الآخر عصا الطاعة على الملك . وأعلن برلمان بو (عاصمة بيارن) أنه لن يسجل مراسيم رفضها برلمان باريس ؛ وحين هددت الحكومة أعضاءه باستعمال القوة تسلح الشعب ليحميهم . أما برلمان روان (عاصمة نورمنديه) فقد شهر بوزراء الملك باعتبارهم خونة ، وحرم من حماية القانون كل الأشخاص الذين يستخدمون المحاكم الجديدة . وأصدر برلمان رين (عاصمة برتنى) قوانين مماثلة ، فلما أرسلت الحكومة الجند لفضه تصدى لهم موظفو النبلاء المحليون المسلحون [٢٧] . وحين أذاع الحاكم العسكرى فى جرينوبل (عاصمة الدوفينه) مرسوماً ملكياً بحل البرلمان المحلى ، هبت جماهير المدينة التى عززها الفلاحون الذين دعاهم ناقوس الخطر ، فقذفت الجند الكارهين لمهمتهم ببلاط من الأسطح ،

وأكرهت المحاكم على سحب مرسوم الملك (٧ يونيو ١٧٨٧ ، « يوم البلاط ») وإلا شنقوه على ثريا ردهته . ولكن القضاة امتثلوا لأمر ملكي بنفيهم .

ولقد صنع مجتمع جرينوبل التاريخ بانتقاضه هذا . وصمم النبلاء الاكليروس والعامة على إعادة مجلس طبقات الدوفينية ليلتئم فى ٢١ يولو . ولما كانت الطبقة الثالثة قد قادت النصر فى « يوم البلاط » فقد منحت تمثيلا مكافئاً لتمثيل الطبقتين الأخريين مجتمعتين ، واتفق على أن يكون التصويت فى المجلس الجديد بالأفراد لا بالطبقات ، وقد وضعت هذه الاتفاقات سوابق لعبت دوراً فى تنظيم مجلس الطبقات القومى . فلما حظر على مجلس طبقات الدوفينه أن يجتمع فى جرينوبل ، اجتمع فى فيزيل على بضعة أميال ، وهناك ، بقيادة محام شاب يدعى جان — جوزيف مونييه ، وخطيب شاب يدعى أنطوان بارناف ، وضع النواب الخمسمائة قرارات (أغسطس ١٧٨٨) أيدت حقوق البرلمانات فى التسجيل ، وطالبت بألغاء أوامر القبض الملكية ، ودعت إلى عقد مجلس لطبقات الأمة ، وتعهدت بعدم الموافقة إطلاقاً على ضرائب جديدة ما لم يصدق عليها مجلس الطبقات . هنا كانت إحدى بدايات الثورة الفرنسية : فإن إقليماً بأسره تحدى الملك ، وطالب فى واقع الأمر بملكية دستورية .

واستسلم الملك بعد أن قهره هذا التمرد الذى شمل الأمة كلها تقريباً على السلطة الملكية ، فقرر أن يدعو مجلس الطبقات ، ولما كان آخر اجتماع لهذه الهيئة قد انقضى عليه ١٧٤ عاما ، ولما كان نمو الطبقة الثالثة قد استحال معه اتباع الإجراءات القديمة ، فقد أصدر لويس السادس عشر (٥ يوليو ١٧٨٨ (نداء غير عادى على أنه أمر من أوامر مجلس الملك :

« سيحاول جلالته العمل بما يقرب من الإجراءات القديمة ، ولكن إذا لم يتيسر التحقق من هذه الإجراءات فإنه يريد أن يسد الثغرة بالتأكد من مشيئة رعاياه . . . وعليه فقد قرر الملك أن يأمر بإجراء كل البحوث الممكنة الخاصة بالأمور سالفة الذكر فى جميع محفوظات كل إقليم ، وأن تبلغ نتائج هذه البحوث إلى مجالس الطبقات الإقليمية ومؤتمراتها ، . . . التى بدورها

تبلغ جلالته برغباتها ... ويدعو جلالته جميع الدارسين والأشخاص المتعاملين فى مملكته . أن يوافوا حامل الأختام بجميع المعلومات والمذكرات المتصلة بالشئون التى يتضمنها هذا المرسوم »(٢٨) .

وفى ٨ أغسطس دعا لويس طبقات فرنسا الثلاث أن توفد مندوبين إلى دورة لمجلس الطبقات تجتمع بفرساى فى أول مايو ١٧٨٩ . ثم عطل فى اليوم ذاته « المحكمة المطلقة السلطة » التى سرعان ما طواها التاريخ فى زوايا النسيان . وفى ١٦ أغسطس اعترفت الحكومة بإفلاسها فى الواقع ، إذ أعلنت أن التزامات الدولة ابتداء من ٣١ ديسمبر ١٧٨٩ لن تدفع كلها عملة بل يدفع بعضها ورقاً على المواطنين جميعاً أن يقبلوه عملة قانونية . وفى ٢٥ أغسطس استقال برين محمد بالرضى والثراء فى الوقت الذى أحرقت فيه جماهير باريس دمية تصوره . ثم اعتكف فى سانس ، وهناك انتحر فى ١٧٩٤ .

٤ — عودة نكير : ١٧٨٨ — ٨٩

وطلب الملك إلى نكير على مضض أن يعود إلى الحكومة (٢٥ أغسطس) ومنحه الآن لقب الوزير ومقعداً فى المجلس الملكى . وهلل الجميع لهذا التعيين من الملكة والأكليروس إلى المصرفيين وعامة الشعب . وتجمع حشد فى فناء قصر فرساى ليرحبوا به ، فخرج إليهم وقال لهم « نعم يا أبنائى ، أنا باق ، فاطمئنوا » ووقع بعضهم على ركبهم وقبلوا يديه (٢٩) فبكى على طريقة ذلك العصر .

على أن الخلل الذى استشرى فى الإدارة ، وفى الشوارع ، وفى الفكر الحكومى والشعبى ، كان قد قارب جداً حالة التحلل السياسى بحيث كان قصارى ما استطاعة نكير هو الاحتفاظ بالاستقرار حتى يجتمع مجلس الطبقات ، ثم بلفتة كريمة منه لاستعادة الثقة بالحكومة وضع مليونى فرنك من ماله فى الخزانة ، وارتهن ثروته الخاصة ضماناً جزئياً لالتزامات الدولة(٣٠) . ثم ألغى الأمر الذى صدر فى ١٦ أغسطس بإلزام حملة السندات بقبول

البنكنوت بدلا من النقود ، وارتفعت أسعار السندات الحكومية ثلاثين في المائة في السوق ، وقدم المصرفيون من المال للخزانة ما يكفي لتجاوز الأزمة عاما .

وعملا بنصيحة نكير دعا الملك البرلمان ثانية (٢٣ سبتمبر) . واقترف البرلمان في نشوة انتصاره خطأ التصريح بأن مجلس الطبقات القادم ينبغي أن يعمل كما عمل سابقه في ١٦١٤ — أي منعقداً بطبقات منفصلة ومصوتاً في وحدات طبقية ، وهذا كفيل بأن يصيب الطبقة الثالثة أوتوماتيا بالعجز السياسي . أما جماهير العامة التي كانت قد صدقت دعوى البرلمان بأنه يدافع عن الحرية ضد الطغيان ، فقد أدركت أن الحرية المقصودة هي حرية الطبقتين المميزتين في التسيد على الملك . وهكذا حرم البرلمان نفسه ، بانضمامه على هذا النحو إلى صف النظام الإقطاعي ، من تأييد الطبقة الوسطى القوية ، ولم يعد منذ الآن عاملا مؤثراً في تشكيل الأحداث . وبلغ « التمرد النبيل » بهذا حدوده وأنهى شوطه ، ثم أخلى الآن مكانه للثورة البورجوازية .

وقد زاد مهمة نكير عسراً ما حل بالبلاد عام ١٧٨٨ من قحط انتهى بعواصف ثلجية أتلفت المحاصيل الهزيلة . وكان شتاء ١٧٨٨ — ٨٩ من أقسى ما غرفه تاريخ فرنسا ، ففي باريس هبط الترمومتر إلى ١٨° تحت الصفر الفارنهيتي ، وتجمد السين تماماً من باريس إلى الهافر . وارتفع سعر الخبز من تسعة سنتات في أغسطس ١٧٨٨ إلى أربعة عشر في فبراير ١٧٨٩ ، وبذلت الطبقات العليا قصارى جهدها للتخفيف عن الشعب ، وأنفق بعض النبلاء ، كالدوق أورليان ، مئات الألوف من الجنيهات في إطعام الفقراء وتدفئتهم ، وتبرع رئيس الأساقفة بأربعمائة ألف جنيه ، وظل دير للرهبان يطعم ألفاً ومائتي شخص يومياً على مدى ستة أسابيع [٣٢] . وحظر نكير تصدير الغلال ، واستورد منها ما قيمته سبعون مليون جنيه ، فأمكن تفادي المجاعة ، ولكنه ترك لخلفائه أو لمجالس الطبقات مهمة سداد القروض التي اقترضها .

ثم أقنع الملك أثناء ذلك (٢٧ ديسمبر ١٧٨٨) بأنه يجب فى مجلس الطبقات القادم أن يكون نواب الطبقة الثالثة مساوين فى العدد لنواب الطبقتين الأخيرتين مجتمعتين ، وذلك رغم النصيحة المضادة التى أشار بها النبلاء الأقوياء . وفى ٢٤ يونيو ١٧٨٩ أذاع على جميع أقسام فرنسا دعوة لتنتخب ممثلين لها بالتصويت . وكان كل رجل فرنسى فى الطبقة الثالثة يزيد عمره على أربعة وعشرين عاما ويدفع أى ضريبة ، من حقه — بل أنه مأمور — بأن يدلى بصوته ، وكذلك جميع المهنيين ، ورجال الأعمال ، وأعضاء الطوائف الحرفية ، أى أن جميع العامة — باستثناء المعدمين وأفقر العمال — كان عليهم أن يدلوا بأصواتهم[٣٢] . واجتمع المرشحون الناجحون على هيئة لجنة انتخابية اختارت نائباً عن القسم . أما فى الطبقة الأولى (الأكليروس) فكان كل كاهن أو خورى ، وكل دير للرهبان أو الراهبات ، يدلى بصوته لاختيار ممثل فى الجمعية الانتخابية للقسم ، وكان رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، أعضاء فى تلك الجمعية بحكم وظائفهم ، واختارت الجمعية مندوباً فى مجلس الطبقات . أما فى الطبقة الثانية (الأشراف) فقد كان كل نبيل فوق الرابعة والعشرين تلقائياً عضواً فى الجمعية الإنتخابية التى اختارت مندوباً يمثل نبلاء قسمه . وفى باريس وحدها قصر حق التصويت على من يدفعون فرضة رؤس قدرها جنيهات أو أكثر ، وقد أسقط بذلك معظم أفراد الطبقة العاملة [٣٣] .

ودعت الحكومة كل جمعية انتخابية فى كل طبقة لوضع «كراسة بالشكاوى والمظالم» لإرشاد ممثلها . ولخصت كراسات الأقسام لكل طبقة فى كراسات إقليمية ، ثم قدمت هذه للملك ، كاملة أو مختصرة ، وأجمعت الكراسات كلها على إدانة الحكم المطلق ، والمطالبة بملكية دستورية تتقيد فيها سلطات الملك ووزرائه بالقانون وبمجلس منتخب على نطاق قومى يجتمع دورياً وله وحده حق تقرير الضرائب الجديدة واعتماد القوانين الجديدة . وطلب إلى جميع النواب تقريباً عدم الموافقة على اعتماد أموال للحكومة حتى تحصل الأمة على دستور كهذا . وأدانت جميع الطبقات عدم كفاية الحكومة فى شئون المال ، والمظالم المقترنة بالضرائب غير

المباشرة ، وشطط السلطة الملكية كما يتمثل فى أوامر القبض الملكية . وطالب الجميع بالمحاكمة وفق نظام المحلفين ، وبسرية الرسائل ، وبإصلاح القانون . ودعا الجميع للحرية ، ولكن على طريقتهم الخاصة : فالنبلاء لاستعادة السلطات التى كانت لهم قبل حكم ريشليو ، والأكليروس والبورجوازيون للتحرر من كل تدخل للدولة ، والفلاحون للتحرر من الضرائب الظالمة والرسوم الإقطاعية . وقبل الجميع من حيث المبدأ المساواة فى الضرائب على جميع أنواع الملكية . وأعرب الجميع عن الولاء للملك ، ولكن أحداً لم يذكر « الحق الإلهى » فى الحكم (٣٤) ، فقد كان هذا الحق بإجماع الآراء فى عداد الموتى .

واشترطت كراسات النبلاء أن تجتمع كل طبقة من الطبقات الثلاث فى مجلس الطبقات منفصلة وتصوت بوصفها طبقة متحدة . أما كراسات الاكليروس فقد رفضت التسامح الدينى ، وطلبت إلغاء الحقوق المدنية الممنوحة للبروتستنت مؤخراً . وطالبت بعض الكراسات بترك شطر أكبر من ضريبة العشور الأبرشية ، وبفتح المناصب فى السلم الكهنوتى أمام جميع القساوسة على السواء . وأسفت معظم الكراسات الكنسية على ما شاب العصر من فساد أخلاقى فى الفن والأدب والمسرح ، وعزت هذا التدهور إلى حرية النشر المفرطة ، وطالبت بقصر الأشراف على التعليم على الاكليروس الكاثوليكى دون سواه .

أما كراسات الطبقة الثالثة فأعربت أكثر ما أعربت عن آراء الطبقة الوسطى والفلاحين الملاك . فطالبت بإلغاء الحقوق الإقطاعية ومكوس النقل ، وبفتح الطريق للمواهب لجميع الطبقات ولجميع المناصب . ونددت بثراء الكنيسة وتبطل الرهبان الغالى التكلفة . واقترحت إحدى الكراسات على الملك إن أراد تغطية العجز أن يبيع أراضى الاكليروس وإيجاراتهم ، واقترحت كراسة أخرى مصادرة جميع الأملاك الديرية (٣٥) . وشكت كراسات كثيرة من العبث المنكر الذى تحدثه بالمزارع حيوانات النبلاء ومطاردتهم لصيدهم . وطلبت التعليم المجانى للجميع ، وإصلاح المستشفيات والسجون ، والقضاء المبرم على القنية وتجارة الرقيق . وأكدت كراسة

نموذجية للفلاحين « أننا ركيزة العرش الرئيسية ، وسند الجيوش الصادق . . .
إننا مصدر الثراء للآخرين ، بينما نظل فقراء »[٣٦] .

لقد كان انتخاب مجلس الطبقات هذا ، فى جملته ، لحظة نبيلة باعثة على الفخر فى تاريخ فرنسا . وكادت فرنسا البوربونيه ، ولو للحظة ، أن تصبح ديمقراطية ، على الأرجح بنسبة من السكان تدلى بأصواتها تفوق نسبة من يدلون بأصواتهم فى إنتخاب أمريكى يجرى اليوم . وكان انتخاباً عادلا ، لا يشوبه الخلل الذى قد يتوقع فى عملية بهذه الجدة ، وواضح أنه كان أقل فساداً من معظم الانتخابات التى أجريت فى ديمقراطيات أوربا اللاحقة [٣٧] .
ولم يحدث قط من قبل ، على قدر علمنا ، أن أصدرت حكومة من الحكومات دعوة عريضة كهذه لشعبها لتحيطه علماً بالإجراءات ، ولتتعرف إلى شكاوى الشعب ورغباته ، وقد أتاحت هذه الكراسات فى جملتها للحكومة نظرة للأحوال فى فرنسا أشمل من أى نظرة أتيحت لها فى أى عهد قبل ذلك .
فالآن امتلكت فرنسا ، إن كانت قد امتلكت فى أى عهد ، المواد المؤهلة لفن الحكم ، والآن اختارت خيرة رجالها بمحض حريتها من كل طبقة ، ليلتقوا بملك كان قد قام فعلا بمقدمات شجاعة للتغيير . وملأ الأمل فرنسا كلها حين اتخذ هؤلاء الرجال القادمون من كل فج الدولة سمتهم إلى باريس وفرساى .

٥ — يدخل ميرابو

وكان أحدهم نبيلا انتخبه العامة عن إكس — أن — برفانس ومرسليا .
وقد أصبح هذا الرجل ، أنوريه — جابرييل — فكتور ركيتى ، كونت ميرابو — الدميم الوجه الساحر الشخصية ، والذى تفرد بهذا الشرف الشاذ المزدوج ، علماً مسيطراً من أعلام الثورة منذ وصوله إلى باريس (أبريل ١٧٨٩ (حتى موته السابق لأوانه (١٧٩١) .

ولقد نوهنا من قبل بأبيه — فكتور ركيتى ، مركيز ميرابو — فزيوقراطيا و « صديقاً للإنسان » ، أى لكل إنسان عدا زوجته وأبنائه ، وقد وصف

فوفنارج « صديق الإنسان » هذا بأنه « ذو طبع نارى مكتئب ، أشد عتواً وتقلباً . . . من البحر ، يتسلط عليه نهم دائم للذة والمعرفة والمجـــد »[٣٨] . وقد اعترف المركيز بهذا كله ، وأضاف إليه أن « الفساد الخلقى طبيعة ثانية فيه » . وحين بلغ الثامنة والعشرين صمم على أن يكتشف إن كان ممكناً أن يكتفى بامرأة واحدة ، فطلب يد مارى دفيسان ، التى لم يرها قط ، ولكنها كانت الوريثة غير المنازعة لثروة كبيرة . وبعد أن تزوجها وجد أنها امرأة سليطة رثة عاجزة ، ولكنها أنجبت له فى إحدى عشرة سنة أحد عشر طفلا ، تخطى الطفولة منهم خمسة . وفى ١٧٦٠ زج المركيز فى « الشاتو دفانسين » بتهمة الكتابات المهيجة ، ولكن أفرج عنه بعد أسبوع . وفى ١٧٦٢ هجرته وعادت إلى أهلها .

وشب ابنه البكر ، أونوريه — جابرييل — وسط هذه الدراما العائلية . وقد ماتت إحدى جدتيه مجنونة ، وتعرضت إحدى شقيقاته وأحد إخوته للجنون بين الحين والحين ، ومن المعجزات أن ينجو جابرييل نفسه من الجنون وهو يصارع الكارثة تلو الكارثة . وقد ولد وله سنان ، وكأنهما تحذير للعالم . وحين بلغ الثالثة أصيب بالجدرى الذى خلف فى وجهه ندوباً ونقراً كأنه ساحة قتال . وكان غلاماً شديد الحيوية ، مشاكساً ، عنيداً ، وكان أبوه ، الشديد الحيوة ، المشاكس ، العنيد ، يكثر من ضربه ، فربى فيه كراهية أبيه ، وسر المركيز أن يتخلص منه بإرساله حين بلغ الخامسة عشرة (١٧٦٤) إلى أكاديمية حربية فى باريس . وهناك تعلم جابرييل الرياضيات والألمانية والانجليزية ، وقرأ بنهم إذ تسلطت عليه رغبة عارمة فى الإتيان بجلائل الأعمال . وقرأ فولتير ففقد دينه ، وقرأ روسو فتعلم أن يتعاطف مع عامة الشعب ، وفى الجيش سرق خليلة قائده ، واشتبك فى مبارزة ، وشارك فى الغزو الفرنسى لكورسيكا ، وظفر بقدر من الثناء على بسالته أشعر أباه بحبه ولو لحظة .

وحين بلغ الثالثة والعشرين تزوج ابتغاء المال بصراحة من إميلى مارنياك ، وكانت تتوقع أن ترث ٥٠٠,٠٠٠ فرنك . فولدت لجابرييل ولداً ، ثم اتخذت عشيقاً ، واكتشف خيانتها ، وأخفى خيانته ، ثم غفر لها . وتشاجر

مع رجل يدعى فللنيف ، وحطم شمسية فوق ظهره ، فاتهم بتعمد القتل ، ورغبة فى تفادى القبض عليه حصل أبوه على أمر ملكى مختوم زج بمقتضاه جابرييل فى الشاتوديف ، القائم على جزيرة حيال مارسليا ، وطلب إلى زوجته أن تلحق به ، ولكنها رفضت ، وتبادلا رسائل فيها حنق متصاعد ، انتهت بأن أقرأها « الوداع إلى الأبد » (١٤ ديسمبر ١٧٧٤). واستدفأ أثناء ذلك بمضاجعة زوجة مأمور السجن بين الحين والحين .

وفى مايو ١٧٧٥ نقل بمسعى أبيه إلى سجن أرخى فى الشاتودجو ، قرب بونتارلييه والحدود السويسرية . ودعاه سجانه المسيو دسان – مورى إلى حفلة التقى فيها بصوفى دروفيه ، الزوجة ذات التسعة عشر ربيعاً للمركيز دمونييه السبعينى . وقد وجدت ميرابو أكثر إشباعاً من زوجها ؛ صحيح أن وجهه كان منفراً ، وشعره صوفى القوام ، وأنفه ضخماً ، ولكن عينيه كانتا متقدتين ، وطبعه كان « نارياً » وكان فى استطاعته أن يغوى بحديثه أى امرأة . واستسلمت له صوفى كلية . وفر من بونتارلييه ، ثم هرب إلى تونون فى إقليم سافوا ، وهناك أغرى ابنة عم له . وفى أغسطس ١٧٧٦ لحقت به صوفى فى فريير بسويسره لأن العيش بعيداً عنه كما قالت معناه « الموت ألف مرة كل يوم »[٣٩] . وأقسمت الآن « أما جابرييل أو الموت ! » واقترحت أن تشتغل ، لأن جابرييل كان مفلساً .

فصحبها إلى أمستردام حيث استخدمه مارك ريه ، ناشر كتب روسو ، مترجماً ، وعملت صوفى سكرتيرة له ، واشتغلت بتدريس الإيطالية . وقد كتب عدة كتب صغيرة تحدث فى أحدها عن أبيه فقال « انه يعظ بالفضيلة ، والبر ، والقصد ، فى حين أنه أسوأ الأزواج ، وأقسى الأباء وأكثرهم إسرافاً »[٤٠] . ورأى ميرابو الأب فى هذا خروجاً على أصول اللياقة . فاتفق مع والدى صوفى على تدبير إعادة الزوجين من هولنده ، فقبض عليهما (١٤ مايو ١٧٧٧) وجىء بهما إلى باريس . وبعد أن فشلت صوفى فى محاولة الانتحار ، أرسلت إلى إصلاحية ، أما جابرييل الساخط فقد زج فى الشاتو دفانسين ، مقتفياً فى ذلك خطى أبيه وديدرو . وهناك ظل

يقضى فى السجن اثنين وأربعين شهراً . وبعد أن قضى فيه عامين سمح له بالكتب والورق والقلم والمداد ، فراح يبعث لصوفى برسائل ملؤها الإخلاص المشبوب . وفى ٧ يناير ١٧٧٨ ولدت بنتاً لعلها كانت ابنته وفى شهر يونيو نقلت الأم وطفلتها إلى دير فى جيان قرب أورليان .

والتمس ميرابو من أبيه أن يصفح عنه ويعمل على اطلاق سراحه . وقال متوسلا « دعنى » أرى الشمس ، دعنى أتنسم هواء أكثر حرية ، دعنى أرى وجه اخواتى البشر ! . انى لا أبصر غير الجدران المظلمة . ابتاه سأموت من آلام التهاب الكلى ! » ولكى يخفف من شقائه ويكسب بعض المال لصوفى ، ويتقى الجنون ، ألف عدة كتب ، بعضها جنسى . وكان أهمها هو « الأوامر الملكية المختومة » الذى وصف مظالم القبض دون إذن والسجن دون محاكمة ، وطالب بإصلاح السجون والقانون فلما نشر هذا الكتاب فى ١٧٨٢ بلغ تأثر لويس السادس عشر به مبلغاً حمله على أن يأمر فى ١٧٨٤ بالإفراج عن جميع السجناء المعتقلين فى فانسين(٤٢) .

وقد ترفق سجانو ميرابو به ، وبعد ١٧٧٩ سمح له بالتمشى فى حدائق الشاتو ولقاء الزوار ، ووجد فى بعض زائريه منصرفات لطاقته الجنسية العارمة (٤٣) . ووافق أبوه على أن يعمل على الإفراج عنه إذا اعتذر لزوجته واستأنف معاشرتها ، لأن المركيز العجوز كان تواقاً لحفيد يواصل بقاء الأسرة . فكتب جابرييل إلى زوجته يطلب الصفح . وفى ١٣ ديسمبر ١٧٨٠ أطلق سراحه بكفالة أبيه ، الذى دعاه إلى قصر الأسرة فى لوبنيون ، وكانت له بعض العلاقات الغرامية فى باريس ، وزار صوفى فى ديرها ، والظاهر أنه أخبرها أنه ينوى العودة إلى زوجته . ثم مضى إلى لوبنيون ، وأبهج قلب أبيه . وتلقت صوفى مالا من زوجها ، وانتقلت إلى بيت قريب من الدير ، وانهمكت فى أعمال البر ، ووافقت على الزواج من كبتن سابق فى الخيالة . ولكنه مات قبل أن يزف إليها ، فانتحرت فى الغد (٩ سبتمبر ١٧٨٩)(٤٤) . أما زوجة ميرابو فقد رفضت لقاءه ، فأقام عليها دعوى تهمها فيها بهجرها له ، وخسر دعواه ، ولكنه أدهش الأصدقاء والأعداء

ببلاغه مرافعته التي ستغرقت خمس ساعات دفاعاً عن قضية يستحيل الدفاع عنها . وتبرأ منه أبوه ، فقاضاه ، وحصل منه على راتب قدره ثلاثة آلاف فرنك في السنة ، وراح يقترض المال زيحيا حياة مترفة . وفي ١٧٨٤ اتخذ خليلة جديدة تدعى هنرييت نيرا . واصطحبها في رحلة إلى انجلتره وألمانيا (١٧٨٥ — ٨٧) . وفي الطريق كانت له مغامرات غرامية عارضة ، غفرتها له هنرييت لأنه — كما قالت — « ما إن تتودد إليه امرأة أقل تودد حتى يلتهب لفوره »[٤٥] . والتقى بفردريك مرتين ، وعرف عن بروسيا ما يكفي لتأليف كتابه « في الملكية البروسية » (١٧٨٨) (من مادة زوده بها ضابط بروسي) ، وقد أهدى الكتاب لأبيه ، الذي وصفه بأنه « مصنف ضخم لعامل هائج . » وكلفه كالون برسائل سرية عن الشئون الألمانية ، فأرسل منها سبعين أدهشت الوزير بإدراكها المرهف وأسلوبها القوى .

فلما عاد إلى باريس رأى أن سخط الشعب قارب الحماسة الثورية . وفي رسالة إلى الوزير مونموران حذر من نشوب الثورة ما لم يجتمع مجلس طبقات الأمة قبيل عام ١٧٨٦ « انى أسأل هل حسبتم حساب قوة الجوع المزلزلة إذا تفاعلت مع روح اليأس . انى أسأل من سيجرؤ على أن يكون مسئولا عن سلامة جميع من يلتفون حول العرش ، أجل ، بل سلامة الملك نفسه ؟ »[٤٦] وقد طواه خضم هذا الهياج فاندفع فيه ووفق في مصالحة هشة مع أبيه (الذى مات في ١٧٨٩) . ثم رشح نفسه في اكس — أن — بروفانس لمجلس طبقات الأمة ودعا نبلاء الإقليم لاختياره ، فرفضوا ، فاتجه إلى الطبقة الثالثة ، التي رحبت به . وانبعث الآن من شرنقتين المحافظة واتخذ له أجنحة بوصفه ديمقراطياً « أن حق السيادة كامن في الشعب وحده ، والملك لا يمكن أن يكون أكثر من القاضي الأول للشعب »[٤٧] . وقد أراد الاحتفاظ بالملكية ، إنما حماية للشعب من الارستقراطية ، ثم دعا بإلحاح أثناء ذلك إلى إعطاء حق التصويت لجميع الذكور البالغين[٤٨] . وفي خطاب موجه لمجلس طبقات إقليم بروفانس هدد الطبقات المميزة بإضراب عام : « حذار من أن تحتقروا هذا الشعب الذى ينتج كل شيء ، هذا الشعب الذى لا يحتاج إلا لفرض الجمود عليه حتى يصبح رهيباً جباراً »[٤٩] .

ثم اندلع شغب بسبب الخبز فى مارسليا (مارس ١٧٨٩) ، وأرسل أولو الأمر فى طلب ميرابو ليهدىء ثائرة الشعب لأنهم كانوا على بينة من شعبيته ، وتجمعت الجماهير فى حشد من ١٢٠,٠٠٠ للهتاف له[٥٠] . فنظم دورية لمنع حوادث العنف . وفى « بيان لشعب مارسليا » نصح العامة بالصبر حتى يتاح لمجلس طبقات الأمة الوقت للموازنة بين المنتجين الذين يريدون أسعاراً عالية والمستهلكين الذين يريدون أسعاراً منخفضة . وأطاعه القائمون بالشغب . وبقوة الإقناع ذاتها هدأ تمرداً نشب فى إكس . وانتخبته إكس ومرسليا نائباً عنهما ، فشكر الناخبين ، وقرر أن يمثل إكس . وفى أبريل ١٧٨٩ اتخذ سمته إلى باريس ومجلس الطبقات .

٦ – التجربة الأخيرة للدراما : ١٧٨٩

واخترق بلداً يواجه المجاعة ويجرب الثورة . ففى ربيع عام ١٧٨٩ نشب فى أقسام عديدة تمرد متكرر على الضرائب وغلاء الخبز . من ذلك أن الجماهير فى ليون أغاروا على مكاتب جابى الضرائب وأتلفوا سجلاته . وفى آجده ، قرب مونبلييه ، هدد الشعب بعمليات سلب ونهب شاملة ما لم تخفض أسعار السلع ، ومنعت القرى التى خشيت عجز الغلال عنوة تصديرها من الأقسام . وتحدث بعض الفلاحين عن احراق جميع القصور الريفية وقتل أمراء الإقطاع (مايو ١٧٨٩)[٥١] . وفى مونلبرى قادت النساء حشداً من الغوغاء فى حملة على مخازن الغلال والمخابز حين نمى إليهن أن سعر الخبز قد زيد ، واستولين على كل ما وصلت إليه أيديهن من الخبز والدقيق . ومثل هذا حدث فى بريه – سير – سين » وبانول ، وأميان ، وفى كل مكان بفرنسا تقريباً . وفى المدينة تلو المدينة أثار الخطباء الشعب بأنبائهم بأن الملك أجل دفع الضرائب كلها[٥٢] . وسرى خلال إقليم بروفانس فى شهرى مارس وأبريل نبأ يقول ان « خير الملوك يريد المساواة فى الضرائب ، وألا يكون بعد اليوم أساقفة ، ولا إقطاعيون ، ولا عشور ، ولا مكوس ، ولا ألقاب ، ولا امتيازات »[٥٣] . وبعد أول أبريل ١٧٨٩ كف الناس عن دفع الرسوم الإقطاعية ، وهكذا لم يكن نزول النبلاء « التطوعى » عن

حقوقهم الإقطاعية فى ٤ أغسطس عملا من أعمال التضحية ، بل إقراراً بالأمر الواقع .

وازداد الانفعال والإثارة فى باريس كل يوم تقريباً باقتراب موعد انعقاد مجلس طبقات الأمة ، فتدفقت النشرات من المطابع ورفع الخطباء عقائرهم فى المقاهى والأندية وصدرت أشهر وأقوى نشرة فى التاريخ بأسره فى يناير ١٧٨٩ ، بقلم رجل من أحرار الفكر هو الأبيه إمانويل — جوزف سييس ، الوكيل العام لأسقفية شارتر . وكان شامفور قد كتب متسائلا « ما الطبقة الثالثة ؟ — إنها كل شىء . وماذا تملك ؟ لا شىء » . فصاغ سييس هذا « الأجرام » المتفجر عنواناً جذاباً وحوله إلى ثلاثة أسئلة سرعان ما رددتها نصف فرنسا :

« ما الطبقة الثالثة ؟ كل شىء

ماذا كانت إلى اليوم فى النظام السياسى ؟ لا شىء .

ماذا تطلب ؟ أن تصبح شيئاً (٥٤) .

وذكر سييس أنه من بين سكان فرنسا البالغين ٢٦,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، ينتمى إلى الطبقة الثالثة — العلمانية المجردة من الإلقاب — على الأقل ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ وهذا معناه فى حقيقة الأمر أن الطبقة الثالثة هى الأمة . فإذا أبت الطبقتان الأخريان الجلوس معها فى مجلس الطبقات ، كان لها العذر فى أن تؤلف بنفسها « الجمعية الوطنية » . وقد حفظ التاريخ تلك العبارة فيما حفظ .

على أن الجوع كان أبلغ حتى من الكلام . فتقاطر الشحاذون والمجرمون على مراكز الإغاثة كلما أقامتها فى باريس الحكومة والكهنة والأغنياء ، وافدين من داخل البلاد ليأكلوا ويغامروا بفقرهم فى أفعال يائسة . وكانت الجماهير هنا وهناك تنفذ إرادتها بنفسها دون اعتداد بالقانون ، فهددت بشنق أى تاجر يخفى الغلال أو يغالى فى سعرها على أقرب عمود نور ، وكثيراً

ما اعترضت قوافل الغلال ونهبتها قبل أن تستطيع هذه القوافل الوصول إلى السوق ؛ وكانت أحياناً تطبق على الأسواق بالغوغاء وتستولى عنوة ودون دفع الثمن على الغلة التى أتى بها الفلاحون ليبيعوها[٥٥] . وفى ٢٣ أبريل استصدر نكير من المجلس الملكى مرسوماً يخول للقضاه والشرطة جرد مخازن الغلال الخاصة وإلزامها حيثما عز الخبز بإرسال غلالها للسوق ، ولكن هذا الأمر نفذ فى تراخ . كذلك كانت صورة باريس فى ربيع ذلك العام .

فى هذه الجماهير الغاضبة من الدهماء تبين الدوق أورليان أداة قد تحقق له مآربه . وكان الحفيد البعيد لفليب أورليان الذى كان وصياً على عرش فرنسا (١٧١٥ — ٢٣) . وقد ولد فى ١٧٤٧ ، ولقب بدوق شارتر فى الخامسة من عمره ، ثم تزوج فى الثانية والعشرين بلويز — مارى دبوربون بنتييفر ، التى جعلته ثروتها أغنى رجل فى فرنسا [٥٦] . وفى ١٧٨٥ ورث لقب دوق أورليان ، وبعد ١٧٨٩ ، وبفضل دفاعه عن القضايا الشعبية ، عرف بفليب إيجالتيه (المساواه) . وقد رأيناه يتحدى الملك فى البرلمان وينفى إلى فيلليه — كوربه . فلما عاد بعد قليل إلى باريس صمم على أن يجعل من نفسه معبود الشعب ، مؤملا أن يختار خلفاً لابن عمه لويس السادس عشر أن اعتزل أو خلع هذا الملك الذى أزعجته الخطوب . فسخا فى عطائه للشعب ، وأوصى بتأمين أملاك الكنيسة [٥٧] ، وفتح للجماهير حديقة البالية — رويال وبعض حجراته فى قلب باريس ، وكانت له شمائل الارستقراطى الجواد وأخلاق سلفه الوصى على العرش . وقامت مربية أبنائه مدام جنليس ، همزة وصل بينه وبين ميرابو ، وكوندورسيه ، ولافاييت ، وتالبران ، ولافوزييه ، وفولنى ، وسييس ، وديمولان . وقد بذل له زملاؤه من الماسون الأحرار التأييد الكبير [٥٨] . وقام الروائى شوديرلو دلاكلو ، وكان سكرتيره ، بدور العميل له فى تنظيم المظاهرات والانتفاضات الشعبية . وفى الحدائق والمقاهى .وبيوت القمار ، والمواخير القريبة من قصره كان كتاب النشرات يتبادلون الأفكار ويضعون الخطط ، هنا شارك آلاف الناس من جميع الطبقات فى اضطرابات الساعة وانفعالاتها ، وأصبح البالية — رويال ، بوصفه اسماً على هذا المركب كله ، قلب الثورة النابض .

ويزعمون ، وهو زعم محتمل ولكنه ليس مؤكداً ، أن مال الدوق ، ونشاط شودرلو دلا كلو ، لعبا دوراً فى تنظيم الهجوم على مصنع ريفيون فى شارع سانت - أنطوان . أما ريفيون هذا فكان يتزعم ثورته الخاصة : يحل محل الرسوم والنسجيات الجدارية ورقاً رقيقا رسمه فنانون بتقنية طورها بنفسه ، وينتج ما وصفه حجة انجليزى بأنه « أجمل ما صنع على الإطلاق من ورق الحائط بغير جدال » (٥٩) . وقد استخدم مصنعه ثلاثمائة عامل ، كان الحد الأدنى لأجر العامل منهم خمسة وعشرين سوا (١,٥٦ دولاراً ؟) فى اليوم . وفى اجتماع لجمعية الناخبين فى حى سانت - مارجريت نشب نزاع بين ناخبى الطبقة الوسطى والعمال ، وخيف أو تخفض الأجور (٦١) . وسرى نبأ كاذب بأن ريفيون قال « ان العامل الذى له زوجة وأولاد فى استطاعته أن يعيش على خمسة عشر سوا فى اليوم » . وفى ٢٧ أبريل احتشد جمع أمام منزل صاحب المصنع ، فلما لم يجدوه أحرقوا دمية تمثله . وفى اليوم الثامن والعشرين ، أغار الغوغاء بعد أن عززوا قوتهم وتسلحوا على بيته ، ونهبوه ، وأشعلوا النار فى أثاثه ، وشربوا الخمر من مخزن خموره ، واستولوا على النقود والآنية الفضية . ثم انتقل القائمون بالشغب إلى المصنع ونهبوه . وجرد الجنود لقتالهم ، فدافعوا عن أنفسهم فى معركة اتصلت عدة ساعات ، لقى فيها اثنا عشر جندياً ونيف ومائتا مشاغب مصرعهم . وأغلق ريفيون مصنعه وشد رحاله إلى انجلتره .

كذلك كان مزاج باريس حين وصل النواب المنتخبون ومناوبوهم لحضور مجلس طبقات الأمة فى فرساى .

٧ - مجلس طبقات الأمة : ١٧٨٩

فى ٤ مايو تحرك النواب فى موكب مهيب للاستماع إلى القداس فى كنيسة القديس لويس : يتقدمهم كهنة فرساى ، ويليهم ممثلو الطبقة الثالثة فى ثياب سوداء ، ثم نواب الأشراف فى ثيابهم الزاهية وقبعاتهم المزينة بالريش ، ثم النواب الكنسيون ، ثم الملك والملكة يحيط بهما أفراد الأسرة المالكة . وازدحم أهل المدينة فى الشوارع والشرفات وأسطح المنازل ، وصفقوا

لممثلى العامة ، وللملك والدوق أورليان ، واستقبلوا بالصمت النبلاء ، ورجال الاكليروس ، والملكة ، وكان كل إنسان (عدا الملكة) سعيداً ذلك اليوم ، لأن الأمل الذى تطلع إليه الكثيرون قد تحقق . وبكى الكثيرون ، من بين النبلاء ، لمرأى الأمة المنقسمة وقد بدت متحدة .

وفى ٥ مايو اجتمع النواب فى « قاعة الملاهى الصغيره الضخمة ، الواقعة على نحو أربعمائة ياردة من القصر الملكى . وبلغ عددهم ٦٢١ من العامة ، و ٣٠٨ من الاكليروس ، و ٢٨٥ من النبلاء (وفيهم عشرون من نبلاء الرداء) . أما النواب الكنسيون فكان نحو ثلثهم من أصل شعبى ، وقد اختار كثيرون من هؤلاء الوقوف فى صف العامة . وكان نصف نواب الطبقة الثالثة تقريباً من المحامين ، وخمسة فى المائة من أرباب المهن ، وثلاثة عشر فى المائة من رجال الأعمال ، وثمانية فى المائة يمثلون الفلاحين[٦٣] . ومن رجال الاكليروس أسقف أوتان ، شارل — موريس دتاليران — بيريجور ، الذى وصفه ميرابو وصفاً سبق به عبارة نابليون « الوحل فى جوارب حريرية » فقال عنه « رجل خسيس ، جشع ، سافل ، دساس ، لايشتهى غير الوحل والمال ، يبيع روحه فى سبيل المال ، وهو إن فعل كان على حق ، لأنه عندها سيأخذ الذهب بدل كومة من الروث »[٦٤] ، ولم يكن فى هذا الوصف إنصاف لذكاء تاليران الطيع . وكان بين النبلاء عدة رجال دعوا إلى الإصلاحات الجوهرية : لافاييت ، وكوندورسيه ، ولا للى — تولندال ، وفيكونت نواى ، وأدواق أورليان ، وايجيون ، ولا روشفوكو — ليانكور . وقد انضم معظمهم إلى سييس ، وميرابوا ، وغيرهم من نواب الطبقة الثالثة فى جمعية الثلاثين» التى قامت بدور الجماعة المنظمة للإجراءات اللبرالية » ومن أبرز نواب الطبقة الثالثة ميرابو ، وسييس ، ومونييه ، وبارناف ، والفلكى جان بايى ، ومكسمليان روبسبيير . وكان هذا الجمع فى مجموعه أبرز تجمع سياسى فى التاريخ الفرنسى ، وربما فى التاريخ الحديث بأسره . وتطلعت النفوس الكريمة فى طول أوربا وعرضها لهذا الحشد عساه أن يرفع لواء ينضوى تحته المظلومون فى كل أمة .

وافتتح الملك الجلسة الأولى بخطاب موجز اعترف فيه صراحة بما تعانيه حكومته من كرب مالى نسبه إلى « حرب غالية التكالفة ولكنها شريفة » وطلب « زيادة فى الضرائب» وأبدى الأسف على « الرغبة المغالية فى التجديد » . ثم تبعه نكير بخطاب استغرق ثـلاث ساعات واعترف فيـه بعجز بلغ ٥٦,١٥٠,٠٠٠ جنيه (وحقيقة الأمر أنه بلغ ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠) وطلب الموافقة على قرض قدره ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . وتململ النواب من الإحصاءات المرهقة للذهن ، وكان أكثرهم يتوقع من الوزير اللبرالى أن يبسط برنامجاً للإصلاح .

ثم بدأ صراع الطبقات فى الغد ، حين انفرد كل من طبقة النبلاء والاكليروس بقاعة منفصلة وشق جمهور الشعب الآن طريقه عنوة إلى قاعة الملاهى الصغيرة ، وسرعان ما أخذ يؤثر فى أصوات النواب بأعرابه القوى — المنظم عادة — عن الاستحسان أو الاعتراض . ورفضت الطبقة الثالثة أن تعترف بنفسها هيئة منفصلة ، وانتظرت فى تصميم أن تنضم إليها الطبقتان الأخريان ويتم التصويت عضواً عضواً . ورد النبلاء بأن التصويت بالطبقات — أى بصوت لكل طبقة — جزء من الدستور الملكى لا يمكن تغييره « ذلك أن إدماج الطبقات الثلاث فى طبقة واحدة والسماح بالتصويت الفردى ، فى جمعية تؤلف الطبقة الثالثة الآن نصف مجموعها وفى استطاعتها دون عناء أن تكسب التأييد من صغار الاكليرزس هذا كله معناه تسليم عقل فرنسا وخلقها لمجرد الكثرة العددية والإرادة البورجوازية . أما مندوبو الاكليروس المنقسمون بين محافظين وأحرار ، فلم يتخذوا موقفاً من الطرفين ، منتظرين أن تهديهم الأحداث إلى أفضل طريق . ومضى شهر على هذه الحال .

وكان سعر الخبز أثناء ذلك يواصل ارتفاعه برغم محاولات نكير لضبطه ، وخطر العنف الجماهيرى يتزايد . وتدفق فيض من النشرات ، فكتب آرثر ينج فى ٩ يونيو يقول : « ان الحركة التجارية المتزايدة الآن فى حوانيت باريس التى تبيع النشرات لاتصدق . ولقد ذهبت إلى الباليه رويال لأرى

ما جد نشره ولأحصل على قائمة بكل ما نشر ووجدت أن كل ساعة تلد جديداً . فقد صدر من النشرات اليوم ثلاث عشرة ، وأمس ست عشرة ، وفى الأسبوع الماضى اثنتان وتسعون . . وتسع عشرة من عشرين من هذه النشرات يناصر الحرية ، ويناوىء الاكليروس والنبلاء عادة . . . ولا يصدر أى رد عليه »(٦٥) .

وفى ١٠ يونيو أوفد نواب الطبقة الثالثة لجنة إلى النبلاء والاكليروس تكرر دعوتهم إلى اجتماع موحد ، وتصرح بأنه إذا واصلت الطبقتان الاجتماع منفصلتين فإن الطبقة الثالثة ستأخذ فى التشريع للأمة بدونهم . ووقع التصدع فى صراع الإرادات الجماعية فى ١٤ يونيو ، حين انضم تسعة من كهنة الابرشيات إلى نواب العامة . فى ذلك اليوم أنتخبت الطبقة الثالثة ، بأى
الابرشيات إلى نواب العامة . فى ذلك اليوم أنتخبت الطبقة الثالثة ، بأى
رئيساً لها ، ووضعت لنفسها نظاماً للمناقشة والتشريع . وفى اليوم الخامس عشر اقترح سييس أن يطلق النواب المجتمعون فى قاعة الملاهى الصغيرة — الذين يمثلون ستة وتسعين فى المائة من الأمة — على أنفسهم اسم « جمعية نواب الأمة الفرنسية المعترف بهم والثابتة صحة عضويتهم . ورأى ميرابو أن العبارة فضفاضة ولا بد أن الملك سيرفضها . وبدلا من أن يتراجع سييس ، بسط الإسم المقترح فجعله «الجمعية الوطنية » ، وكذلك تمت الموافقة على الإسم الجديد بأغلبية ٤٩١ مقابل ٨٩ صوتاً (٦٦) . وقد غير هذا الإعلان الملكية المطلقة تلقائياً إلى ملكية مقيدة ، وأنهى السلطات التى امتازت بها الطبقات العليا ، وشكل — من الناحية السياسية — بداية الثورة .

ولكن هل يقبل الملك هذا الغض من سلطته ؟ ولكى تعطفه الجمعية الوطنية للقبول قررت أن جميع الضرائب القائمة ينبغى دفعها كالسابق إلى أن تحل الجمعية ، وبعدها لا تدفع ضرائب إلا ما أذنت به الجمعية ؛ وأن الجمعية ستنظر بأسرع ما تستطيع فى أسباب عجز الخبز وعلاجه ؛ وأنها بعد قبول دستور جديد ستتكفل بديون الدولة وتوافق على سدادها ، وقد استهدف أحد هذه القرارات تهدئة القائمين بالشغب ، وسعى آخر إلى

كسب تأييد حاملي السندات الحكومية ، وقد وضعت كلها بمهارة لتقلل من مقاومة الملك .

واستشار لويس مجلسه . فحذره نكير من أن مجلس الطبقات سينهار ما لم تزعن الطبقتان المميزتان ، وأن الضرائب لن تدفع ، وأن الحكومة ستصبح مفلسة لا حول لها ولا قوة . واعترض وزراء آخرون بأن التصويت الفردي سيكون معناه دكتاتورية الطبقة الثالثة وإصابة طبقة النبلاء بالعجز السياسي . وقرر لويس أن يقاوم الجمعية الوطنية لأنه شعر أن عرشه يعتمد على النبلاء والأكليروس . فأعلن أنه سيلقي خطاباً على مجلس الطبقات في ٢٣ يونيو . وقدم نكير استقالته بعد أن هزم . ولكن الملك أقنعه بالبقاء لعلمه بأن الشعب سيقاوم خطوة كهذه .

واقتضت « الجلسة الملكية » المقررة تجهيز قاعة الملاهي الصغيرة بترتيبات مادية جديدة فأرسلت الأوامر بإجراء هذه الترتيبات إلى مهرة صناع القصر دون إشعار الجمعية . فلما حاول نواب الطبقة الثالثة دخول القاعة في ٢٠ يونيو وجدوا أبوابها مغلقة وداخلها مشغولا بالصناع . واعتقد النواب أن الملك يخطط لطردهم ، فانتقلوا إلى ملعب للتنس مجاور (وصالة ملعب التنس وأقسموا يميناً صنعت التاريخ .

« حيث أن الجمعية الوطنية دعيت لوضع دستور المملكة ، ولإحداث التجديد في النظام العام ، ولصيانة المبادىء الصحيحة للنظام الملكي ، وحيث أنه ما من شيء يقوى على منعها من مواصلة مداولاتها في أي مكان تضطر إلى الاجتماع فيه ؛ وأخيراً ، بما أنه حيثما اجتمع أعضاؤها فهناك تكون الجمعية الوطنية ، لذلك تقرر الجمعية أن يقسم جميع أعضائها يميناً مغلظة بألا يتفرقوا ، وأن يعاودوا الاجتماع كلما دعت الظروف ، حتى يستقر حال المملكة ، ويرسى على أسس مكينة ، وأنه بعد حلف اليمين المذكورة سيصدق جميع الأعضاء ، وكل منهم بمفرده ، على هذا القرار الثابت بالتوقيع عليه »[٦٧] .

وقد وقع جميع النواب الحاضرين وعددهم ٥٥٧ نائباً وعشرون مناوباً إلا اثنين ، ثم وقع في تاريخ لاحق خمسة وخمسون أخر وخمسة قساوسة . فلما

أن ترامى نبأ هذه الأحداث إلى باريس احتشد جمع غاضب حول الباليه — رويال وأقسموا على الدفاع عن الجمعية الوطنية أيا كان الثمن . وفى فرساى بات من الخطر على أى شريف أو أسقف أن يظهر فى الشوارع ، وقد لقى عدد منهم معاملة خشنة ، ولم ينج رئيس أساقفة باريس بجلده إلا حين وعد بأن ينضم إلى الجمعية . وفى ٢٢ يونيو اجتمع النواب الذين أقسموا اليمين فى كنيسة سان لوى ، وهناك انضم إليهم بعض النبلاء و ١٤٩ من النواب الكنسيين البالغ عددهم ٣٠٨ .

وفى ٢٣ يونيو اجتمع نواب الطبقات الثلاث فى قاعة الملاهى الصغيرة ليستمعوا إلى الملك . وطوق الجنود القاعة . وتخلف نكير عن الحضور مع الحاشية الملكية على نحو واضح . وتكلم لويس فأوجز ، ثم أناب وزيراً فى قراءة قراره . وقد رفض القرار دعوى النواب الذين أعلنوا أنفسهم جمعية وطنية باعتبارها غير قانونية وباطلة . وسمح باجتماع موحد للطبقات الثلاث ، وبالتصويت الفردى على المسائل التى لاتؤثر فى هيكل فرنسا الطبقى ، ولكن بحظر أى عمل يمس « الحقوق القديمة والدستورية . . . للملكية ، أو الامتيازات التشريفية . . . للطبقتين الأوليين » ، أما الأمور المتصلة بالدين أو الكنيسة فلا بد من أن يوافق عليها الاكليروس . وسمح الملك لمجالس الطبقات بحق الاعتراض على الضرائب والقروض الجديدة ، ووعد بالمساواة فى فرض الضرائب إذا وافقت عليها الطبقتان المميزتان ، وعرض أن يتلقى توصيات بالإصلاح . وينشىء مجالس اقليمية يكون التصويت فيها فردياً . ووافق على إنهاء السخرة ، والأوامر الملكية المختومة ، والمكوس على التجارة الداخلية ، وكل آثار ألقنية فى فرنسا . ثم ختم الجلسة بمظهر وجيز للسلطة :

« لو أنكم تركتمونى وحدى فى هذه المغامرة الكبرى فسأعمل وحيداً لرفاهية شعبى . . . وسوف أعد نفسى دون سواى الممثل الحقيقى لهم . . . ولن تصبح خطة من خططكم أو اجراء من اجراءاتكم قانوناً ما لم أوافق عليه صراحة . . . وانى آمركم بالتفرق فوراً ، وبمضى كل نائب إلى قاعة طبقته صباح غد لتستأنفوا مناقشاتكم »[٦٨] .

فلما انصرف الملك رحل معظم النبلاء وقلة من الاكليروس . وأعلن المركيز بريزيه ، كبير التشريفات ، على النواب الذين بقوا أن الملك يريد الجميع أن يبرحوا القاعة . ورد ميرابو رداً مشهوراً : « سيدى .. . ليس لك هنا مكان ولا صوت ولا حق فى الكلام . . . فإذا كنت قد كلفت بإرغامنا على مبارحة هذه القاعة ، فلا بد لك من طلب الأوامر باستعمال القوة ، . . . لأننا لن نبرح أماكننا إلا على أسنة الرماح »(٦٩) . وظاهرت هذا التصريح صيحة هتف بها الجميع « هذه إرادة الجمعية » فانسحب بريزيه ، وصدرت الأوامر للجند المحليين بإخلاء القاعة ، ولكن بعض النبلاء الأحرار أقنعوهم بالا يتخذوا أى اجراء . فلما أنبىء الملك بالموقف قال « تباً لهم لهم ، فليمكثوا إذن »(٧٠) .

وفى ٢٤ يونيو كتب ينج فى يوميته : « ان الغليان فى باريس لا يمكن تصوره ، فقد كان عشرة آلاف شخص طوال اليوم فى الباليه رويال . . . والاجتماعات المستمرة هناك تتصل وتبلغ من التهور . وسورة الحرية درجة لاتكاد تصدق »(٧١) . وعجزت السلطات البلدية عن حفظ النظام ، لأنها لم تستطع الاعتماد على « الحرس الفرنسيين» المحليين ؛ ذلك أن كثيرين من هؤلاء كان لهم أقرباء شرحوا لهم قضية الشعب ، وتآخى بعض هؤلاء الجند مع الحشد المحيط بالباليه — رويال ؛ وفى فوج فى باريس كانت هناك جمعية سرية أقسمت ألا تطيع أوامر مناوئة للجمعية الوطنية . وفى ٢٥ يونيو اجتمع الرجال الذين انتخبوا من قبل نواب الطبقة الثالثة عن باريس ، وعدد هؤلاء الرجال ٤٠٧ — وأحلوا أنفسهم محل الحكومة الملكية للعاصمة ، فأختاروا مجلساً بلدياً جديداً ، كله تقريباً من الطبقة الوسطى ، وترك لهم المجلس القديم مهمة حماية الحياة والأملاك . فى ذلك اليوم نفسه انتقل سبعة وأربعون نبيلا يتقدمهم دون أورليان إلى قاعة الملاهى الصغرى . وبدا أن انتصار الجمعية أصبح الآن أكيداً ، وأن القوة وحدها هى التى تستطيع زعزعته .

وفى ٢٦ يونيو ، وبرغم معارضة نكير ، أخبر الأعضاء المحافظون فى الوزارة الملك أن الجنود المحليين فى فرساى وباريس لا يمكن بعد الآن الركون

إلى طاعتهم الأوامر ، وأقنعوه بأن يرسل فى طلب ستة أفواج من الأقاليم . وفى السابع والعشرين ، وتحولا إلى نصيحة نكير ، أمر لويس وفود النبلاء والاكليروس بالانضمام إلى باقى النواب . ففعلوا ، ولكن النبلاء أبو المشاركة فى التصويت بحجة أن تفويضهم عن دوائرهم الانتخابية يمنعهم من التصويت الفردى فى مجلس الطبقات . وخلال الأيام الثلاثين التالية عاد أكثرهم إلى ضياعهم .

وفى أول يوليو استدعى الملك إلى باريس عشرة أفواج ، معظمهم من الألمان والسويسريين . وفى الأسابيع الأولى من يوليو احتل ستة آلاف جندى بقيادة المرشال برولى فرساى ، واتخذ عشرة آلاف أخر بقيادة البارون بزينفال مواقعهم حول باريس ، لا سيما فى الشان دمارس . واعتقدت الجمعية والشعب أن الملك يخطط لتفريقهم أو تخويفهم . وبلغ الخوف من القبض ببعض النواب مبلغاً جعلهم يبيتون فى قاعة الملاهى الصغرى بدلا من العودة إلى بيوتهم ليلا(٧٢) .

فى جو الإرهاب هذا عينت الجمعية لجنة لوضع مخططات لدستور جديد . وقدمت اللجنة للجمعية تقريراً تمهيدياً فى ٩ يوليو ، ومن ذلك اليوم أطلق النواب على أنفسهم اسم « الجمعية التأسيسية الوطنية » . وكان الميل السائد بين الأعضاء فى جانب الملكية الدستورية . وكان من رأى ميرابو المطالبة بـ « حكومة شبيهة بحكومة انجلترا بوجه عام » تكون فيها الجمعية الهيئة التشريعية ، ولكنه واصل فى السنتين اللتين أفسحتا له فى أجله الإلحاح على الاحتفاظ بملك لفرنسا . وأثنى على لويس السادس عشر لما أتصف به من طيبة قلب وسماحة مقصد يشوش عليهما أحياناً مشيرو قصار النظر ، ثم تساءل :

« هل درس هؤلاء الرجال ، فى تاريخ أى شعب من الشعوب ، كيف تبدأ الثورات وكيف تنفذ ؟ وهل لاحظوا بأى سلسلة رهيبة من الظروف يكره أعقل الرجال على إتيان أفعال تتجاوز كثيراً حدود الاعتدال ، وبأى دوافع مخيفة يقذف بشعب غاضب إلى ألوان من الشطط لو فكروا فيها مجرد تفكير لارتعدت فرائصهم فرقا ؟ »(٧٣) .

وخامرت الجمعية الشك فى أن ميرابو مأجور من الملك أو الملكة ليدافع عن الملكية ، ولكنها أساساً اتبعت نصيحته . وأحس النواب ، الذين كان العنصر السائد فيهم الآن رجالا من الطبقة الوسطى ، أن جماهير الشعب أخذت تصبح عسيرة القياد إلى حد خطر ، وأن السبيل الوحيد للحيلولة دون التحلل الشامل للنظام الاجتماعى هو الإبقاء فترة على الهيكل التنفيذى الراهن للدولة .

على أنهم لم يشعروا بمثل هذا الانعطاف نحو الملكة . فقد علم أنها شاركت إيجابياً فى تأييد الحزب المحافظ فى مجلس الملك ، وأنها تمارس سلطة سياسية تفوق كفايتها كثيراً . وكانت خلال هذه الأشهر الحرجة قد تجلدت لتكل ربما نال من أى قدرة أوتيتها على الحكم الهادىء المتعقل . ذلك أن ابنها البكر ، ولى العهد لويس ، كان شديد المعاناة من الكساح واعوجاج العمود الفقرى إلى درجة أعجزته عن المشى بغير معونة[٧٤] . وفى ٤ يونيو مات . ولم تعد مارى أنطوانيت التى حطمها الحزن والخوف تلك المرأة الفاتنة التى كانت تمرح طوال سنى الحكم الأولى . وباتت وجنتاها شاحبتين نحيلتين ، وأخذ الشيب يتسلل إلى شعرها ، وشاب الحزن بسماتها وهى تذكر أياماً أسعد ، ثم أرق مضجعها وعيها بحشود الدهماء تلعن اسمها فى باريس وتحمى الجمعية فى فرساى وترهبها .

وفى ٨ يوليو وافقت الجمعية على اقتراح لميرابو يطلب إلى الملك أن ينقل من فرساى جنود الإقليميين الذين جعلوا من حدائق لنوتر معسكراً مسلحاً . ورد لويس بأنه ليس هناك أذى مقصود بالجمعية ، ولكن فى ١١ يوليو أفصح عن سطوته بإقالته نكير وأمره بمغادرة باريس فوراً . تقول مدام دستال مستحضرة ذلك الحدث « وتقاطرت باريس كلها لتزوره فى الساعات الأربع والعشرين التى سمح له بها للاستعداد لرحلته . . . وأحال الرأى العام عاره انتصاراً »[٧٥] . ثم رحل هو وأسرته فى هدوء إلى الأراضى المنخفضة . أما الذين أيدوه فى الوزارة فأقيلوا معه . وفى ١٢ يوليو ، وفى استسلام كامل لدعاة استخدام القوة ، عين لويس صديق الملكة ، البارون دبروتوى ، خلفاً لنكير ، وعين دبرولى وزيراً للحربية . وبدا أن الجمعية وثورتها الوليدة مقضى عليهما قضاء مبرما .

ولكن الإنقاذ جاءهما من شعب باريس .

٨ — إلى الباستيل

كانت عوامل كثيرة تحمل الجماهير على الانتقال من الغليان إلى مرحلة العمل . فقد كان سعر الخبز قضية مثيرة لحفيظة ربات البيوت ، وانتشرت الشبهة فى أن بعض تجار الجملة يحبسون الغلال عن السوق طمعاً فى أسعار أعلى حتى مما وصلت إليه(٧٦) . وأرسلت السلطات البلدية الجديدة الجند لحماية المخابز مخافة أن يفضى الجوع إلى النهب العشوائى . وكانت القضية التى تؤرق الباريسيين علمهم بأن الأفواج التى فى خارج المدينة ، والتى لم يتسن بعد كسب تأييدها لقضية الشعب ، تهدد الجمعية والثورة . وقد بلغ غضب الجماهير وخوفهم أثر سقوط نكير المفاجىء — وهو الرجل الوحيد فى الحكومة الذى كان الشعب قد وثق به — نقطة كفت عندها كلمة واحدة لتثير رداً عنيفاً . ففى ١٢ يوليو وثب كامى دمولان ، وكان أحد خريجى مدارس اليسوعيين ولكنه أصبح الآن محامياً متطرفاً فى التاسعة والعشرين من عمره ، فوق مائدة خارج « الكافية دافوا » على مقربة من البالية — رويال وندد بإقالة نكير باعتبارها خذلاناً للشعب ، وصاح « إن الألمان (الجند) فى الشان دمارس سيدخلون باريس الليلة ليذبحوا سكانها ! » ثم لوح بطبنجة وسيف وهتف « إلى السلاح ! »(٧٧) . وللتو تبعه فريق من السامعين إلى ميدان فاندوم يحملون تماثيل نصفية لنكير والدوق أورليان ، وهناك أكرههم بعض الجند على الفرار ، ثم تجمع فى المساء حشد فى حدائق التويلرى ، فهاجمهم فوج من الجند الألمان ، فقاوموهم بالقوارير والحجارة ، فأطلق الجنود النار عليهم وجرحوا كثيرين ، وبعد أن تفرقوا عادوا إلى التجمع فى الأوتيل دفيل ، وشقوا طريقهم إليه عنوة ، واستولوا على ما وجدوه من سلاح . وانضم الشحاذون والمجرمون إلى القائمين بالشغب ، ثم انقض الجميع على عدة بيوت ونهبوها .

وفى ١٣ يوليو تجمع الحشد مرة أخرى ، ودخلوا دير سان — لازار ، واستولوا على مخزونه من الغلال وحملوه إلى السوق فى لى هال ، وفتح

حشد آخر سجن لا فورس وأطلق سراح السجناء وكان أكثرهم من المدنيين وراح أفراد الشعب يفتشون عن البنادق فى كل مكان ، فلما لم يجدوا منها إلا القليل ، صنعوا خمسين ألف حربة [٧٨] . وخافت الطبقات الوسطى فى باريس على بيوتها وممتلكاتها ، فألفت مليشيا خاصة بها وسلحتها ، وفى الوقت نفسه واصل الأغنياء تشجيع الجماهير الثائرة وتمويلها وتسليحها لعل هذا أن يثنى الملك عن استعمال القوة مع الجمعية[٧٩] .

وفى صباح ١٤ يوليو الباكر أغار حشد من ثمانية آلاف رجل على الأوتيل ديزنفاليد ، واستولوا على ٣٢,٠٠٠ بندقية ، وبعض البارود ، واثنتى عشرة قطعة من المدفعية . وفجأة صاح أحدهم « إلى الباستيل » . ولكن لم الباستيل بالذات ؟ لا لإطلاق سراح سجنائه ، الذين لم يتعدوا السبعة ، فضلا عن أنه كان بوجه عام منذ ١٧١٥ يستعمل مكاناً لحبس راق لسراة القوم . غير أن هذه القلعة الضخمة التى بلغ ارتفاعها مائة قدم وسمك أسوارها ثلاثين قدماً والتى أحاط بها خندق عرضه خمسة وسبعون قدماً ظلت أمداً طويلا رمزاً للاستبداد . وكانت ترمز فى ضمير الشعب إلى مئات السجون والزنزانات الخفية ، وكان بعض الكراسات قد طالب بتدميرها . ولعل ما أثار الجمع علمهم بأن الباستيل قد صوب بعض المدافع إلى شارع وضاحية سانت — أنطوان ، وهى حى يغلى بالمشاعر الثورية . وربما كان أهم من هذا كله ما قيل من أن الباستيل احتوى مخزناً ضخماً من السلاح والذخيرة ، لا سيما البارود ، ولم يملك الثوار منه إلا القليل . وكان فى القلعة حامية قوامها اثنان وثمانون جندياً فرنسياً واثنان وثلاثون من الحرس السويسرى ، بقيادة المركيز داونى ، وكان رجلا لين الطبع [٨٠] . ولكن ذاع عنه بين الجماهير أنه وحش غليظ القلب[٨١] .

وبينما كان الجمع الذى تألف أكثره من الباعة والصناع يتجه صوب الباستيل استقبل داونى وفداً من المجلس البلدى ، طلب إليه سحب المدافع المهددة من مواقعها ، وألا يتخذ أى اجراء عدائى نحو الشعب ، ووعد نظير ذلك باستخدام نفوذه لثنى الجمع عن مهاجمة الحصن . ووافق القائد ، واستضاف الوفد تناول طعام الغداء ، وتلقت لجنة أخرى أوفدها المحاصرون

أنفسهم تعهداً من دلونى بألا يطلق جنوده النار على الشعب ما لم تكن هناك محاولة لاقتحام الحصن عنوة . ولكن هذا لم يرض الجمع الهائج ، فقد كان مصمماً على الاستيلاء على الذخيرة التى لاتستطيع بنادقه بدونها أن تقاوم الزحف المنتظر من جنود بيزنفال الأجانب على المدينة . على أن بيزنفال لم يكن حريصاً على الزحف إلى داخل باريس إذ خامره الظن بأن جنوده سيرفضون إطلاق النار على الشعب . لذلك انتظر الأوامر من دبرولى ، ولكن شيئاً منها لم يصله .

وحوالى الواحدة بعد الظهر تسلق ثمانية عشر من الثوار سور بناء مجاور ، ووثبوا إلى داخل الفناء الأمامى للباستيل ، وأنزلوا كوبريين متحركين ، فعبر المئات فوق الخندق ، وأنزل كوبريان آخران ، وسرعان ما امتلأ الفناء بجمع متحفز واثق من نفسه . فأمرهم دلونى بالانسحاب ، فأبوا ، وعليه فقد أصدر أمره لجنوده بإطلاق النار عليهم . ورد المهاجمون على النار وأشعلوا النيران فى بعض الأبنية الخشبية والملاصقة للأسوار الحجرية . وحوالى الثالثة انضم أفراد من الحرس الفرنسيين المنطرفين إلى المحاصرين ، وأخذوا يقصفون الحصن بخمسة من المدافع التى استولت عليها الجماهير ذلك الصباح من الأوتيل ديزنفاليد . وبعد أربع ساعات من القتال لقى ثمانية وتسعون من المهاجمين وواحد من المدافعين مصرعهم . أما دلونى فحين رأى الجمع لايفتأ يزداد عدداً بوصول امداد جديدة ، وإذ لم تصله كلمة تعده بالعون من بزينفال ، ولم يكن لديه مؤونة من الطعام تثبت للحصار ، فقد أمر جنده بالكف عن إطلاق النار ورفع علم أبيض . ثم عرض الاستسلام إذا سمح لجنوده بالخروج بسلاحهم آمنين ، فرفض الجمع الذى هاجه منظر قتلاه النظر فى أى شىء غير التسليم دون قيد أو شرط (٨٢) . وأراد دلونى نسف الحصن فمنعه رجاله . وعليه أرسل إلى المهاجمين أسفل الحصن مفتاح المدخل الرئيسى . واندفع الجمع ، وجردوا الجنود من سلاحهم ، وقتلوا ستة منهم ، وقبضوا على دلونى ، وأطلقوا سراح السجناء المذهولين .

وبينما كان كثير من المنتصرين يستولون على ما وصلت إليه أيديهم من سلاح وذخيرة ، قاد فريق من الجمع دلونى إلى الأوتيل دفيل توطئه لمحاكمته

فيما يبدو على جريمة القتل . وفى الطريق أوقفه المتحمسون منهم وأوقعوه أرضا ، وأوسعوه ضرباً حتى مات ، ثم قطعوا رأسه ، واخترقوا شوارع باريس فى عرض ظافر وهم يحملون هذه الغنيمة الدامية مرفوعة عالياً فوق حربة .

فى عصر ذلك اليوم عاد لويس السادس عشر إلى فرساى من رحلة صيد قضى فيها نهاره ، ودون فى يوميته هذه الملاحظة « ١٤ يوليو : لا شىء » فلما وصل الدوق دلا روشكوكو — لا نكور قادماً من باريس أنبأه بنبأ الهجوم الناجح على الباستيل . وقال الملك مندهشاً « ماذا ، هذا تمرد ! » وأجاب الدوق « لا يا مولاى ، إنها ثورة » .

وفى ١٥ يوليو ذهب الملك إلى الجمعية فى تواضع وأكد لها أن الجنود الإقليميين والأجانب سيبعدون عن فرساى وباريس ، وفى ١٦ يوليو أقال بروتوى واستدعى نكير لوزارة ثالثة . وبدأ بروتوى وأرتوا ودبرولى وغيرهم من النبلاء حركة نزوح المهاجرين عن فرنسا ، ودمرت الجماهير أثناء ذلك الباستيل بعد أن تسلحت بالمعاول والبارود . وفى ١٧ يوليو ذهب لويس إلى باريس يرافقه خمسون من الجمعية ، واستقبله المجلس البلدى والشعب فى الأوتيل دفيل ، وثبت على قبعته شارة الثورة الحمراء البيضاء الزرقاء .

ختـــام

وهكذا نختتم فى هذين المجلدين الأخيرين مسحنا للقرن الذى مازالت صراعاته وإنجازاته فعالة اليوم فى حياة البشر . لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التى قد تحقق — قبل أن نصل إلى الألف الثانى للميلاد — حلم أرسطو بالآلات التى تحرر البشر من كل عناء يدوى . ولقد سجلنا المراحل التى خطتها علوم كثيرة صوب فهم أفضل للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها . ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل فى شئون البشر الدنيوية . ولقد تتبعنا باهتمام حى محاولة تحرير الدين من الشعوذة والتعصب الأعمى وعدم التسامح ، وتنظيم الأخلاقية

دون استعانة بالثواب والعقاب السماويين ؛ ولقد علمتنا جهود الساسة والفلاسفة أن نقيم حكومة عادلة قادرة ، وأن نوفق بين الديمقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية . ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال فى الباروك ، والفن الكلاسيكى المحدث ، وانتصارات الموسيقى فى باخ ، وهندل ، وفيفالدى وفى جلوك ، وهايدن ، وموتسارت . ولقد شهدنا ازدهار الأدب فى ألمانيا على يد شيلر وجوته ، وفى انجلترة على يد فحول الروائيين وأعظم المؤرخين ، وفى أسكتلنده على يد بوزويل وبيرنز ، وفى السويد بتفجر الأغنية فى عهد جوستاف الثالث ؛ وفى فرنسا ترددنا بين فولتير منافحاً عن العقل والذكاء وبين روسو مدافعاً بالدموع عن حقوق الوجدان . ولقد سمعنا التصفيق الذى عاش عليه جاريك وكليرون ، وأعجبنا بسلسلة من النساء الفاتنات فى صالونات فرنسا وانجلترة ، وبملك النساء المتألق فى النمسا وروسيا . ثم راقبنا الملوك الفلاسفة .

وقد يبدو من السخف أن ننهى قصتنا فى اللحظة التى أوشك الكثير جداً من الأحداث على بث الحياة ونفخ الروح فى هذه الصفحات . وما كان أسعدنا لو أتيح لنا الزحف خلال ضجيج الثورة وعجيجها ، ثم فحصنا ذلك التفجر البركانى للطاقة المعروف بنابليون ، واستمتعنا أيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر فى الأدب ، والعلم ، والفلسفة ، والموسيقى ، والفن ، والتكنولوجيا ، والحكم . وكان يبهجنا أكثر لو عدنا إلى وطننا أمريكا ، جنوبها وشمالها ، وحاولنا أن ننسج قطعة النسيج المعقدة ، نسيج الحياة والتاريخ الأمريكيين فى صورة واحدة متماسكة متحركة . بيد أنه لابد لنا أن نروض أنفسنا على تقبل فكرة الفناء ، وأن نترك لعقول أنضر القيام بمهمة ومغامرة ، هما إضافة تجارب فى التأليف والتركيب إلى البحوث الأساسية التى قام بها الإخصائيون التاريخيون والعلميون .

لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ، ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل ، فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة فى التاريخ ، وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين

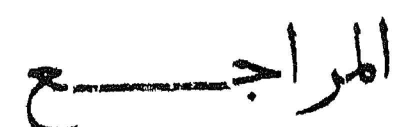
يطمو نهر المعرفة ويتعاظم . غير أننا ونحن نتابع در ستنا من قرن إلى قرن، ازددنا يقيناً بأن كتابة التاريخ الرسمى قد أسرف فى تجزئتها أبواباً وفروعاً ، وأنه ينبغى لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلا ، كما كان يعاش ، فى جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة فى ملاحقة التاريخ . وكنا نحلم باليوم الذى نكتب فيه آخر كلمة فى آخر مجلد . والآن وقد أقبل هذا اليوم فإننا عليمان بأننا سنفتقد الهدف الممتع الذى أضفى على حياتنا معنى واتجاها .

وإننا لشاكران للقارىء الذى صاحبنا هذه السنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها . لقد كنا على الدوام واعين بحضوره . والآن نستأذنه فى الرحيل ونقرئه تحية الوداع .

* * *





CHAPTER XXVII

1. Shakespeare, *Richard II*, Act II, Sc. i.
2. Nussbaum, *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 130.
3. Namier, Sir Lewis, *Crossroads of Power*, 175.
4. Ashton, T. S., *Economic History of England*, 179.
5. Watson, J. S., *Reign of George III*, 28.
6. Nussbaum, 73.
7. Hammond, J. L. and Barbara, *The Village Labourer*, 17.
8. Usher, A. P., *An Introd. to the Industrial History of England*, 323.
9. Quennell, M. and C., *History of Everyday Things in England*, 79.
10. Mantoux, Paul, *The Industrial Revolution in the 18th Century*, 258.
11. Samuel Smiles, *Lives of the Engineers*, in *History Today*, April, 1956, 263.
12. *Ibid.*, 263, 265.
13. *The Age of Voltaire*, 517.
14. Mantoux, 316.
15. Usher, *Introd. to Industrial History*, 326.
16. Boswell, *Life of Johnson*, 598.
17. Lipson, E., *Growth of English Society*, 190.
18. Mantoux, 385; George, *London Life*, 206-7.
19. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 73.
20. Mantoux, 439; Smith, 60.
21. Ashton, 203.
22. Mantoux, 70.
23. Arthur Young in Turberville, *Johnson's England*, I, 218.
24. Müller-Lyer, F., *History of Social Development*, 221.
25. Mantoux, 420.
26. *Ibid.*, 421.
27. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 313.
28. Webb, Sidney and Beatrice, *History of Trade Unionism*, 51.
29. Ashton, 235.
30. Traill, H. D., *Social England*, V, 336.
31. Mantoux, 411.
32. *Ibid.*, 413.
33. 413.
34. Lecky, *History of England*, III, 135-36.
35. Smith, *Wealth of Nations*, I, 59.
36. Rogers, J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 89.

CHAPTER XXVIII

1. George, M. D., *England in Transition*, 218 f.
2. *Ibid.*, 219.
3. 218.
4. Namier, *Structure of Politics at the Accession of George III*, 80.
5. New *CMH*, VII, 245.
6. Lecky, *History of England*, III, 172.
7. Wilson, P. W., *William Pitt the Younger*, 6.
8. Plumb, J. H., *Men and Places*, 22.
9. Namier, *Structure of Politics*, 77-79.
10. *Ibid.*, 150.
11. Lecky, III, 171.
12. Blackstone, Sir W., *Commentaries on the Laws of England*, 17 (p. 50 of orig. ed.).
13. Namier, *Crossroads of Power*, 133.
14. Thackeray, *The Four Georges*, 62.
15. *Cf.* Butterfield, *George III and the Historians*, 175; Morley, John, *Burke: a Historical Study*, 9.
16. Lecky, III, 11; Namier in *History Today*, September, 1953, p. 615.
17. Watson, J. S., *The Reign of George III*, 6.
18. *Age of Voltaire*, Ch. iii, Sec. ix; present volume, Ch. ii, Secs. ii, iv.
19. Walpole, Horace, *Memoirs of the Reign of George III*, II, 331.
20. Burke, Edmund, speech on American Taxation, in *Speeches and Letters on American Affairs*, 28.
21. Burke, *Vindication of Natural Society*, 9.
22. *Ibid.*
23. 22-20.
24. 20.

25. 22.
26. 44.
27. 21.
28. 48.
29. 50.
30. Morley, John, *Burke*, 13.
31. *Vindication*, 4 (preface).
32. Burke, *On Taste, and On the Sublime and Beautiful*, 45 f.
33. *Ibid.*
34. 93.
35. 95.
36. Macaulay, *Essays*, I, 454.
37. Morley, *Burke*, 30.
38. *Ibid.*, 104.
39. Boswell, *Journal of a Tour to the Hebrides*, 141.
40. Stephen, Sir Leslie, *History of English Thought in the 18th Century*, I, 222.
41. *Parliamentary History*, XXXVII, 363, in Buckle, H. T., *An Introd. to the History of Civilization in England*, I, 327.
42. Piozzi, Hester Thrale, *Anecdotes of the Late Samuel Johnson*, 138.
43. Morley, *Burke*, 107.
44. In *Cambridge History of English Literature*, XI, 9.
45. *Enc. Brit.*, XI, 644d.
46. Moore, Thomas, *Memoirs of the Life of Sheridan*, I, 78.
47. Drinkwater, John, *Charles James Fox*, 9, 11.
48. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 277.
49. Thackeray, *Four Georges*, 87.
50. *Enc. Brit.*, IX, 568b.
51. Drinkwater, 195.
52. Walpole, Horace, *Letters*, Feb. 4, 1778.
53. Lecky, III, 468.
54. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 54.
55. National Gallery, London; Dulwich College; National Gallery, Washington.
56. Moore, *Sheridan*, I, 17.
57. *The Rivals*, Act I, Sc. ii.
58. *Ibid.*, III, iii.
59. In Taine, H., *English Literature*, 355.
60. *Enc. Brit.*, XVII, 973b.
61. Wilson, P. W., *William Pitt*, 58.
62. Dorn, W. L., *Competition for Empire*, 75.
63. Walpole, letter of Oct. 31, 1760.
64. Laski, Harold, *Political Thought in England, Locke to Bentham*, 144.
65. Butterfield, *George III*, 173.
66. Lecky, III, 61.
67. Macaulay, *Essays*, I, 431.
68. Wilson, *William Pitt*, 44.
69. Gibbon, Edward, *Journal*, 145.
70. *Enc. Brit.*, XXIII, 602b.
71. *Ibid.*
72. Sherwin, *A Gentleman of Wit and Fashion: The Life and Times of George Selwyn*, 47-53.
73. Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 140.
74. Walpole, *Memoirs of Reign of George III*, I, 248.
75. *Enc. Brit.*, XXIII, 603d.
76. Walpole, *Reign of George III*, I, 263.
77. *Boswell on the Grand Tour: Italy, Corsica and France*, 5.
78. Walpole, *Reign of George III*, III, 239.
79. Lecky, III, 151.
80. S. MacCoby, ed., *The English Radical Tradition*, 2.
81. Lecky, III, 175-76.
82. *Ibid.*, 152.
83. MacCoby, 2.
84. Lecky, III, 153.
85. Junius, *Letters*, 3-6.
86. Junius, letter of Nov. 29, 1769.
87. *Letters*, pp. 134, 148.
88. *Ibid.*, p. 29.
89. Lecky, II, 468.
90. Walpole, *Reign of George III*, IV, 78; Lecky, III, 143.
91. MacCoby, 31.
92. *Enc. Brit.*, XXIII, 603d.
93. *CMH*, VIII, 714.
94. Lecky, III, 268.
95. *Ibid.*, 300.
96. Watson, *Reign of George III*, 174.
97. Ashton, 158; Traill, V, 115.
98. Hammond, J. L. and Barbara, *Rise of Modern Industry*, 32.
99. Lecky, III, 299.
100. Drinkwater, 94.
101. *CMH*, VIII, 521.
102. Lecky, III, 331.
103. Beard, Charles and Mary, *Rise of American Civilization*, I, 212.
104. Peterson, Houston, *Treasury of the World's Great Speeches*, 102-22.
105. Lecky, III, 530.
106. *Ibid.*, 531.
107. 545.
108. Peterson, 143-46.
109. *CHE*, IX, 6.
110. Sherwin, 205.
111. Burke, *Speeches and Letters on American Affairs*, 84.
112. *Ibid.*, 118-19.
113. Drinkwater, 145.
114. Walpole, letter of Sept. 11, 1775.
115. Lecky, IV, 82.
116. Churchill, Sir Winston, *History of the English-Speaking Peoples*, II, 116.
117. Lecky, IV, 221.
118. Namier, *Crossroads*, 130.
119. *Enc. Brit.*, V, 833d.
120. Namier, *Crossroads*, 164.
121. Walpole, letter of Mar. 5, 1772.
122. Lecky, III, 491.
123. *CMH*, VI, 570.
124. *Ibid.*, 572.

125. 578-80.
126. Walpole, letter of Mar. 2, 1773.
127. Wilson, *William Pitt*, 171.
128. Morley, *Burke*, 33; Namier, *Crossroads*, 165-67.
129. Watson, *Reign of George III*, 319.
130. Morley, *Burke*, 125.
131. G. G. S., *Life of R. B. Sheridan*, 113.
132. Macaulay, *Essays*, I, 633.
133. Peterson, *Great Speeches*, 179.
134. Gibbon, *Memoirs*, 334.
135. Macaulay, I, 644.
136. Burke, *Observations on the State of the Nation* (1769), in Lecky, V, 335n.
137. Burke, speech on "Relief of Protestant Dissenters" (1773), in Morley, *Burke*, 69.
138. Wilson, *William Pitt*, 226.
139. Stephen, *English Thought in the 18th Century*, I, 279.
140. Lecky, V, 449; Wilson, 235.
141. Burke, *Reflections on the French Revolution*, 8.
142. *Enc. Brit.*, IV, 418c.
143. Burke, *Reflections*, 35.
144. *Ibid.*, 18 f..
145. 36.
146. 73.
147. *Enc. Brit.*, IV, 418d.
148. *CHE*, X, 285.
149. Morley, *Burke*, 179.
150. *Ibid.*, 15.
151. Burke, *Reflections*, 93.
152. *Ibid.*, 6.
153. *CHE*, XI, 11.
154. *Letter to a Member of the National Assembly*, in *Reflections*, 279.
155. Burke, 87.
156. Lecky, III, 218-19; Stephen, *English Thought in the 18th Century*, I, 251-52; Laski, 159, 171.
157. Laski, 147.
158. Sherwin, *Selwyn*, 275.
159. Taine, *English Literature*, 416.
160. Wilson, 325.
161. G. G. S., *Life of Sheridan*, 155.

CHAPTER XXIX

1. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, Mar. 12, 1827.
2. Lecky, *England in the 18th Century*, VI, 139.
3. Quennell, *Everyday Things*, 93.
4. George, *London Life*, 103.
5. Quennell, 90.
6. George, 26.
7. Boswell, *Hebrides*, 31.
8. Lecky, VI, 153.
9. Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 128.
10. Boswell, *Life of Johnson*, 1, 781.
11. Sherwin, *George Selwyn*, 34.
12. *Ibid.*, 125.
13. Drinkwater, *Charles James Fox*, 13.
14. Lecky, VI, 152.
15. Boswell, *Johnson*, 978.
16. *Age of Voltaire*, Ch. ii, Sec. vi.
17. *Wealth of Nations*, II, 276.
18. Stephen, *English Thought*, I, 421.
19. Besant, *London*, 282-83.
20. Sherwin, 288.
21. *Vicar of Wakefield*, Ch. xxiv.
22. Boswell, *Johnson*, 338.
23. Lecky, VI, 268; Drinkwater, 131.
24. Lecky, VI, 269.
25. Boswell, *Johnson*, 846.
26. Walpole, Mar. 22, 1780.
27. *CMH*, VI, 187.
28. Buckle, *An Introd. to the History . . of England*, I, 321n.
29. George, *London Life*, 135.
30. Botsford, J. B., *English Society in the 18th Century*, 332 f.
31. Blackstone, *Commentaries*, 128-29.
32. *Enc. Brit.*, XX, 780a.
33. *Ibid.*, 780d.
34. Faÿ, Bernard, *Franklin*, 77.
35. Mowat, *Age of Reason*, 61.
36. Quennell, 9.
37. Watson, P. B., *Some Women of France*, 77.
38. Walpole, *Memoirs of the Reign of George III*, IV, 158.
39. Boswell, *Johnson*, 597.
40. Burke, *Reflections*, 86.
41. *Boswell on the Grand Tour: Italy . . . .*, 184.
42. Robertson, *Short History of Freethought*, II, 206.
43. *Boswell in Holland*, 62.
44. Gibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, V, 554.
45. Faÿ, *La Franc-Maçonnerie*, 273.
46. *Age of Voltaire*, pp. 528, 580.
47. Cowper, *The Task*, ii, lines 378-94.
48. Stephen, *English Thought*, II, 375.
49. Walpole, June 3, 1780.
50. Walpole, June 7, 1780.
51. June 16, 1780.
52. Lecky, V, 189.
53. Sir F. D. McKinnon, in Turberville, *Johnson's England*, II, 289.
54. Bentham, Jeremy, *A Fragment on Government*, 22.
55. Blackstone, *Commentaries*, Vol. I, p. 3.
56. *Commentaries* (orig. ed.), Book I, Ch. vii.
57. *Commentaries* (1914 ed.), Vol. II, p. 129.
58. Lecky, VI, 261.
59. *Ibid.*, 255-58; Turberville, I, 17-21; Johnson, *The Idler*, Jan. 6, 1759.
60. Besant, *London*, 608.
61. Bentham, *Fragment*, 10.
62. *Ibid.*

63. Ch. iv, No. 20.
64. Bentham, *Fragment*, 3.
65. *Ibid.*, 56.
66. *Age of Voltaire*, 139, 149, 529, 687.
67. Mack, M. P., *Jeremy Bentham*, 102-5.
68. Bentham, *Introduction to Principles of Morals and Legislation*, 189.
69. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 127.
70. Davidson, W. L., *Political Thought in England: The Utilitarians*, 26.
71. Turberville, II, 178.
72. Mantzius, Karl, *History of Theatrical Art*, V, 388.
73. Krutch, *Samuel Johnson*, 272.
74. Barton, Margaret, *Garrick*, 53.
75. *Ibid.*, 59.
76. 50.
77. Burney, Fanny, *Diary*, 12.
78. Hawkins, Sir John, *Life of Samuel Johnson*, 189.
79. Pearson, Hesketh, *Johnson and Boswell*, 282.
80. Johnson, Samuel, *Works*, I, 196.
81. Krutch, 37.
82. George, *London Life*, 288.
83. *Boswell: The Ominous Years*, 118.
84. Turberville, I, 195.
85. George, *London*, 171.
86. *Ibid.*, 24.
87. Turberville, I, 171.
88. *Boswell's London Journal*, 81.
89. Boswell, *Johnson*, 733.

CHAPTER XXX

1. Geiringer, *Haydn*, 95.
2. *Ibid.*, 103.
3. Burney, Charles, *History of Music*, II, 868.
4. Walpole, June 23, 1789.
5. National Portrait Gallery, London.
6. Burney, II, 9.
7. Sherwin, *Selwyn*, 110.
8. Lewis, W. S., *Horace Walpole*, 107.
9. Turberville, II, 110.
10. Dillon, *Glass*, 299.
11. Samuel Smiles in Mantoux, *Industrial Revolution*, 385.
12. London, Royal Academy of Arts.
13. Turberville, II, 10.
14. *Ibid.*, 91.
15. Wilson, *William Pitt*, 97.
16. Collection of Lady Ford.
17. Greenwich, Eng., National Maritime Museum.
18. London, National Gallery. (Unallocated pictures are in private collections.)
19. National Portrait Gallery.
20. *Ibid.*
21. Reynolds, Sir Joshua, *Portraits*, 110.
22. National Portrait Gallery.
23. *Ibid.*
24. San Marino, Calif., Huntington Art Gallery.
25. Waterhouse, *Reynolds*, 110.
26. *Ibid.*, 127.
27. 79.
28. 87.
29. 63.
30. 267.
31. 291; London, National Gallery.
32. Waterhouse, 57.
33. Wallace Collection, London.
34. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 3.
35. Wilenski, R. H., *English Painting*, 150.
36. Reynolds, *Portraits*, 167.
37. Boswell, *Johnson*, 651.
38. National Portrait Gallery.
39. Royal Academy of Arts.
40. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 78 (Discourse VI), 8 (I).
41. *Ibid.*, 7 (I).
42. 14 (II).
43. *Ibid.*
44. 30 (III).
45. *Ibid.*
46. 264 (XVI).
47. Wilenski, 113.
48. Allan Cunningham in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 789.
49. Gillet, Louis, *La Peinture, xvii^e et xviii^e siècles*, 416.
50. Washington, National Gallery.
51. Edinburgh, National Gallery.
52. Millar, Oliver, *Thomas Gainsborough*, 11.
53. Clark, B. H., *Biographies*, 796.
54. Craven, Thomas, *Treasury of Art Masterpieces*, 214.
55. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 230 (XIV).
56. Waterhouse, *Gainsborough*, 36.
57. Pijoan, Joseph, *History of Art*, III, 479.
58. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 227 (XIV).

CHAPTER XXXI

1. Lecky, *England in the 18th Century*, IV, 314.
2. *New CMH*, VIII, 28.
3. *Ibid.*, 714.
4. Lecky, IV, 317.
5. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, IV, 545; *Enc. Brit.*, X, 659d.
6. Faÿ, *La Franc-Maçonnerie*, 399.
7. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 70.
8. Johnson, *Works*, II, 271, 345.
9. Boswell, *Hebrides*, 135.
10. *Enc. Brit.*, XX, 169d.
11. Snyder, F. B., *Life of Robert Burns*, 189.
12. *Age of Voltaire*, 184.
13. *Ibid.*, 507-86.
14. 586-602.
15. 139-61.
16. Reid, Thomas, *Works*, I, 7, 81, 91.

17. *Ibid.*, 12.
18. 106.
19. Hume, David, *Treatise of Human Nature*, I, 254.
20. Reid, *Works*, 423.
21. Boswell's Journal, Sept. 16, 1769 (*Boswell in Search of a Wife*, 293).
22. London National Portrait Gallery.
23. Edinburgh National Gallery.
24. Private Collection.
25. Carlyle, *Schiller*, 103.
26. Walpole, July 11, 1759.
27. Gibbon, *Memoirs*, 122.
28. Stewart, Dugald, *Life of Robertson* (1811), 305.
29. Gibbon, *Memoirs*, Appendix 22, p. 296.
30. Black, *Art of History*, 15.
31. Brandes, *Goethe*, I, 84.
32. See *The Age of Faith*, 498.
33. Thomson, Derick, *The Gaelic Sources of Macpherson's "Ossian,"* 4-5, 80.
34. Macpherson, James, *Poems*, 40 (*Fingal*, Book I).
35. *Ibid.*, 49, 52, 54.
36. 415-16.
37. Johnson, *Works*, XII, 375; Boswell, *Hebrides*, 163.
38. Boswell, *Johnson*, 496.
39. Thomson, Derick, 16 f.
40. Buckle, Ib, 347.
41. Smith, Adam, *Moral and Political Philosophy*, 75.
42. *Ibid.*, 255.
43. 191.
44. Laski, *Political Thought in England*, 99, 101, 188; see also *Age of Voltaire*, 155.
45. Smith, *Wealth of Nations*, II, 107.
46. *Ibid.*, 113.
47. 121.
48. See *Age of Voltaire*, 138.
49. *Wealth of Nations*, II, 180.
50. *Ibid.*, I, 26, 29.
51. I, 119.
52. 129.
53. 129.
54. 42.
55. 75, 2.
56. 73.
57. 72, 345.
58. Rosebery, Lord, *Pitt*, 4.
59. Waterhouse, *Reynolds*, 329.
60. Burns's autobiographical letter to John Moore, in Neilson, W. A., *Robert Burns*, 1.
61. In Snyder, *Burns*, 54.
62. *Ibid.*, 67.
63. 67.
64. 239.
65. See "The Ordination."
66. Witte, *Schiller and Burns*, 10.
67. Hill, J. C., *Love Songs and Heroines of Robert Burns*, vii-2.
68. Burns, Robert, *Works*, I, 85, 75.
69. *Ibid.*, 101.
70. Witte, *Schiller and Burns*, 10.
71. "The Rigs o' Barley."
72. Burns, *Works*, I, 85, 77.
73. *Ibid.*, 50.
74. Brown, Hilton, *There Was a Lad*, 23, 50.
75. Carlyle, *Essay on Burns*, in *Works*, XIII, 294-96.
76. Burns, *Works*, I, 162.
77. Keith, Christina, *The Russet Coat*, 81.
78. Burns, *Works*, I, 141.
79. Brown, Hilton, 26.
80. Snyder, 297.
81. *Ibid.*, 308.
82. Hill, J. C., 102.
83. Snyder, 360, 374, 379, 390.
84. Burns, Robert, and Mrs. Dunlop, *Correspondence*, 11, viii.
85. Burns, *Works*, I, 24.
86. Currie, James, *Life of Robert Burns*, in Burns, *Works*, II, 58.
87. Robert Chambers in Snyder, 432.
88. Snyder, 432-35.
89. *Ibid.*, 430.
90. *Boswell's London Journal*, 108.
91. Pearson, 107.
92. *Boswell's London Journal*, 66.
93. *Ibid.*, 93.
94. 66.
95. 93.
96. 137.
97. 206-9.
98. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 44.
99. Boswell, *Johnson*, 237-40.
100. *Boswell's London Journal*, 251, 281.
101. *Boswell in Holland*, Sept. 18, 1763.
102. *Ibid.*, 387-90.
103. 46.
104. 157.
105. 259-61.
106. 314.
107. 328.
108. 330.
109. 349.
110. 368.
111. *Boswell on the Grand Tour: Germany*, 134.
112. *Ibid.*, 117.
113. 164-66.
114. 241.
115. *Boswell in Search of a Wife*, 24.
116. *Ibid.*, 36-37.
117. 76.
118. 207.
119. 240.
120. *Boswell for the Defense*, 140.
121. *Boswell: The Ominous Years*, 34-48.
122. *Ibid.*, 304-7.
123. Macaulay, *Essays*, II, 539-41.
124. *Boswell: The Ominous Years*, [illegible]38

125. *Boswell in Search of a Wife*, 40.
126. *Boswell: The Ominous Years*, Introd., *x*.

CHAPTER XXXII

1. Johnson, *The Idler*, No. 40.
2. Brooke, Henry, *The Fool of Quality*, 80.
3. Cross, Wilbur, *Life and Times of Laurence Sterne*, 99.
4. *Ibid.*, 179.
5. *Ibid.*
6. 183.
7. Parton, *Life of Voltaire*, II, 267.
8. Mossner, E. C., *Life of David Hume*, 503.
9. Sterne, Laurence, *Tristram Shandy*, Book VIII, Ch. ii.
10. *Ibid.*, Book IV, Ch. xxxviii.
11. Cross, 263.
12. Sterne, *Letters to Eliza*, x.
13. *Ibid.*, letter of Apr. 14, 1767.
14. Sterne, *Journal*, Apr. 24, 1767.
15. Moore, Thomas, *Life of Lord Byron*, in Taine, *English Literature*, 477.
16. Macaulay, *Essays*, II, 565.
17. Burney, Fanny, *Diary*, 17.
18. Burney, Fanny, *Evelina*, 22.
19. Letter of Mar. 5, 1772.
20. Walpole, Feb. 28, 1769.
21. See *Age of Voltaire*, 95-98.
22. Lewis, *Horace Walpole*, 12n; Wharton, Grace and Philip, *Wits and Beaux of Society*, II, 28.
23. Walpole, "Reminiscences," in *Letters*, I, *xciii*.
24. Letter of Mar. 2, 1773.
25. Nicolson, Harold, *The Age of Reason*, 249.
26. Walpole, *Memoirs of the Reign of George III*, II, 154.
27. Letter of Nov. 24, 1774.
28. Nicolson, 248.
29. *Ibid.*, 249.
30. Letter of July 24, 1756.
31. Letter of Dec. 2, 1762.
32. Sherwin, *Selwyn*, 104.
33. Letter of Nov. 11, 1766.
34. Walpole, *Memoirs of the Last Ten Years of the Reign of George the Second*, p. *xl*.
35. Letter of June 15, 1768.
36. Oct. 1, 1782.
37. Nov. 11, 1763.
38. Lewis, *Horace Walpole*, 5.
39. Feb. 7, 1772.
40. Jan. 12, 1766.
41. Letter to John Chute, January, 1766.
42. Lewis, 20.
43. Wharton, II, 83.
44. Lewis, 81.
45. Jan. 18, 1759.
46. Gibbon, *Memoirs*, introd. by G. B. Hill, *xxi*; Robertson, J. M., *Gibbon*, 1.
47. *Memoirs*, 20.
48. *Age of Voltaire*, 127.
49. *Memoirs*, 45.
50. *Ibid.*, 51, 54.
51. 65.
52. 69.
53. 105.
54. 106, 156.
55. Gambier-Parry, M., *Madame Necker*, 16.
56. Gibbon, *Journal*, introd., *lxxii*.
57. *Memoirs*, 107.
58. *Ibid.*, 120.
59. Gibbon, *Essai sur l'étude de la littérature*, in *Miscellaneous Writings*, No. 1.
60. *Ibid.*, *liii*.
61. *Memoirs*, 143.
62. *Journal*, 22.
63. *Ibid.*, 136.
64. *Memoirs*, 153.
65. Robertson, J. M., *Gibbon*, 117; *Memoirs*, 158.
66. *Ibid.*, 167.
67. *Decline and Fall of the Roman Empire*, final page.
68. *Memoirs*, Appendix 30.
69. *Ibid.*, 172.
70. 189.
71. 191n.
72. 193.
73. Robertson, *Gibbon*, 119; Drinkwater, *Charles James Fox*, 206.
74. Low, D. M., *Edward Gibbon*, 282.
75. *Memoirs*, 190.
76. *Ibid.*, 195.
77. 195.
78. *Decline and Fall*, I, 316. Renan agreed with Gibbon about the Antonines; see his *Marc Aurèle*, 479, Calmann-Lévy, Paris, n.d.
79. *Decline and Fall*, I, 316.
80. *Ibid.*, 250.
81. 9 and 10 William III, c. 22.
82. *Decline and Fall*, II, 72-73.
83. *Ibid.*
84. 102-5.
85. 182.
86. 244; see Voltaire's view in *The Age of Voltaire*, 486.
87. Low, 260.
88. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 152-53.
89. Low, 258.
90. Gibbon, *Miscellaneous Writings*, 277.
91. Walpole, Jan. 27, 1781.
92. *Memoirs*, 211.
93. *Decline and Fall*, 432-33.
94. *Memoirs*, 213.
95. *Ibid.*, 215.
96. Low, 302.
97. *Memoirs*, 214.
98. Walpole, June 5, 1788.
99. *Decline and Fall*, VI, 656.
100. *Memoirs*, 225.
101. *Ibid.*, 89n.

102. Fuglum, Per, *Edward Gibbon*, 15.
103. *Memoirs*, 240.
104. Boswell, *Johnson*, Mar. 19, 1781.
105. Low, 222-23.
106. *Memoirs*, 230-31.
107. Low, 320.
108. *Memoirs*, 228, 234. G. G. S., *Life of Sheridan*, 122.
109. *Memoirs*, Appendix 55.
110. *Ibid.*, 241n.
111. Appendix 66.
112. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 159.
113. *Memoirs*, Appendix 66.
114. *Ibid.*, 339 and Appendix 62.
115. Gibbon, *Correspondence*, II, 93, 298, in *Memoirs*, 339.
116. *Correspondence*, II, 255, in Robertson, *Gibbon*, 120.
117. Gibbon, *Autobiography*, Everyman's Library ed., in Gay, P., *Voltaire's Politics*, 259.
118. *Memoirs*, introd. by G. B. Hill, *xii*.
119. Low, 344.
120. Gibbon, letter of Nov. 11, 1793.
121. *Decline and Fall*, 1776 ed., I, 206.
122. Bury, J. B., in *Enc. Brit.*, X, 331d.
123. *Decline and Fall*, ed. J. B. Bury, I, *xli*.
124. *Ibid.*, *xlvii*; Robertson, *Gibbon*, 15; Black, *Art of History*, 161.
125. *Decline and Fall*, IV, 673.
126. *Ibid.*, 99.
127. I, 314.
128. Voltaire, *Works*, XVIa, 250-51.
129. *Decline and Fall*, III, 97.
130. VI, 337.
131. Cf. Fuglum, 136.
132. *Decline and Fall*, Ch. lxiv.
133. V, 237.
134. *Ibid.*, 423.
135. III, 522.
136. Preface to Milman ed., p. 6.
137. *CHE*, X, 445.
138. Seebohm, Frederick, *The Age of Johnson*, 228.
139. Walpole, letter of Nov. 15, 1764; *Reign of George III*, II, 25.
140. Nevill, J. C., *Thomas Chatterton*, 96.
141. Chatterton, *Complete Poetical Works*, 207.
142. *Ibid.*, 64.
143. Walpole, letters of June 19, 1777, and July 24, 1778.
144. Irving, Washington, *Oliver Goldsmith*, 266.
145. Stanza xlv.
146. Cowper, William, *Poems*, 135.
147. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 173.
148. Cowper, 188.
149. *CHE*, XI, 89.
150. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 176-77.
151. Cowper, 87.
152. See *Age of Voltaire*, 331.
153. Cowper, *The Task*, Book I, line 749.
154. *Ibid.*, line 718.
155. II, lines 1-7.
156. II, 11-28.
157. 206.
158. Cowper, *Poems*, 172.
159. *Enc. Brit.*, X, 495a (by Macaulay).
160. Boswell, *Johnson*, 252.
161. *Ibid.*, 305.
162. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 37, 170.
163. Thackeray, *English Humourists*, in *Works*, 281n.
164. Irving, 170.
165. *Vicar of Wakefield*, preface.
166. Boswell, *Johnson*, 449.
167. Barton, *Garrick*, 256.
168. E.g., Reynolds, *Portraits*, 38.
169. Irving, 121.
170. Garnett and Gosse, *English Literature*, III, 342; Irving, 320.
171. *Boswell for the Defense*, 167.
172. Thackeray, *English Humourists*, 291.
173. *Ibid.*
174. Goldsmith, Oliver, *Select Works*, 194.

CHAPTER XXXIII

1. Boswell, *Johnson*, 17.
2. Boswell, *Hebrides*, 142.
3. Krutch, *Johnson*, 12.
4. Pearson, *Johnson and Boswell*, 6.
5. Krutch, 10.
6. Boswell, *Johnson*, 564.
7. *Enc. Brit.*, XIII, 109d.
8. Hill, G. Birkbeck, *Johnsonian Miscellanies*, II, 309; Greene, Donald, *Politics of Samuel Johnson*, 133.
9. Johnson, *London*, line 202.
10. Hawkins, *Life of Samuel Johnson*, 55-57.
11. Krutch, 49.
12. *Ibid.*
13. Turberville, *Johnson's England*, I, 318n.
14. Boswell, *Johnson*, 94.
15. *Enc. Brit.*, XIII, 110a.
16. Boswell, *Johnson*, 1177.
17. Hawkins, 66.
18. Hume, David, *Essays, Literary, Moral, and Political*, 52.
19. Johnson, *Works*, I, 213.
20. *Ibid.*, 215.
21. 217.
22. Hawkins, 98.
23. Johnson, *The Rambler*, 257-64.
24. Boswell, *Holland Journal*, Sept. 23, 1763.
25. Davis, Bertram, *Johnson before Boswell*, 72.
26. Hill, G. B., *Miscellanies*, I, 136.
27. Boswell, *Johnson*, 165.
28. *Ibid.*, 242.
29. Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 130.
30. Boswell, *Johnson*, 992.

31. *Ibid.*, 157.
32. *Boswell for the Defense*, 55 (Mar. 23, 1772).
33. *Johnson's Dictionary*, preface; p. 20.
34. *Ibid.*, 284.
35. Boswell, *Johnson*, 179.
36. Arthur Murphy in Johnson, *Works*, I, 89.
37. *Works*, V, 419.
38. *Rasselas*, Ch. vi.
39. *Ibid.*, Ch. xix.
40. Ch. xxviii.
41. Ch. xli.
42. Boswell, *Johnson*, 228.
43. *Ibid.*, 260.
44. Wharton, Grace and Philip, *Wits and Beaux of Society*, I, 366.
45. Krutch, 264.
46. Pearson, 184.
47. Boswell, *Johnson*, 272.
48. Bailey, John, *Dr. Johnson and His Circle*, 35.
49. Boswell, 542.
50. *Boswell for the Defense*, 175.
51. Boswell, *Hebrides*, 189.
52. Pearson, 195.
53. *Boswell's London Journal*, 234.
54. Piozzi, *Anecdotes of the Late Samuel Johnson*, 190.
55. National Portrait Gallery.
56. National Gallery, London.
57. Hawkins, 293.
58. Turberville, I, 384.
59. Boswell, *Johnson*, 283; Hawkins, 147.
60. Boswell, *Hebrides*, 136.
61. Boswell, *Johnson*, 49.
62. Pearson, 81.
63. *Boswell: The Ominous Years*, 264.
64. Bailey, 29.
65. Boswell, *Johnson*, 955.
66. *Ibid.*, 1197.
67. 293.
68. Piozzi, 181.
69. Hawkins, 122.
70. *Rasselas*, Ch. xliii.
71. Hawkins, 132.
72. Boswell, 586.
73. Turberville, II, 198.
74. Krutch, 369.
75. This is Hume's report, in Krutch, 221, and Pearson, 48; the phraseology was made more decorous in Boswell.
76. Boswell, *Hebrides*, 144.
77. Walpole, May 26, 1791.
78. Irving, *Goldsmith*, 183.
79. Piozzi, 70.
80. *Ibid.*, 57.
81. Boswell, *Johnson*, 1124.
82. *Ibid.*, 1126.
83. Bailey, 30.
84. Boswell, 351.
85. Krutch, 366.
86. Boswell, *Hebrides*, 20.
87. Boswell, *Johnson*, 343.
88. *Boswell: The Ominous Years*, 133.
89. Low, *Gibbon*, 223.
90. Lovejoy, Arthur, *Essays in the History of Ideas*, 39.
91. Walpole, Mar. 28, 1786.
92. In Gibbon, *Memoirs*, 220n.
93. Boswell, *Hebrides*, 11.
94. Boswell, *Johnson*, 222.
95. *Hebrides*, 140.
96. *Johnson*, 988.
97. Pearson, 262.
98. Greene, Donald, *Politics of Samuel Johnson*, 270.
99. Boswell, *Johnson*, 744.
100. *Ibid.*, 1025.
101. 807.
102. 362.
103. Bailey, 104.
104. Boswell, *Johnson*, 807.
105. *Ibid.*, 410.
106. 263.
107. 525.
108. 274.
109. Hawkins, 208.
110. Boswell, *Johnson*, 267, 414, 469, 514, 740; *Boswell's London Journal*, 276, 281.
111. *Ibid.*, 253; Johnson, *Works*, XII, 111.
112. Boswell, *Johnson*, 787.
113. *Ibid.*, 341.
114. 309.
115. 486.
116. Greene, 161.
117. *Ibid.*, 167.
118. *Taxation No Tyranny*, in *Works*, XII, 225.
119. Boswell, *Johnson*, 508.
120. Johnson, *Works*, XII, 198n.
121. Hawkins, 222.
122. Boswell, *Johnson*, 505.
123. *Ibid.*, 507.
124. 654.
125. In Greene, 195.
126. Boswell, *Johnson*, 33, 1051; Piozzi, 14.
127. Boswell, *Johnson*, 1102-3.
128. *Ibid.*, 282.
129. 421; Bailey, 103.
130. Pearson, 252.
131. *Ibid.*, 251.
132. *Lives of the English Poets*, I, 63 ("Milton").
133. *Rasselas*, Ch. xxxi; Hawkins, 131.
134. *Lives*, I, 63.
135. Pearson, 248.
136. Boswell, *Johnson*, 352, 807.
137. *Ibid.*, 309.
138. 308.
139. Hopkins, Mary A., *Hannah More*, 61.
140. Hawkins, 108.
141. Johnson, *Works*, X, 169.
142. *Ibid.*, 137, 149.

143. Krutch, 289.
144. Boswell, *Hebrides*, 178.
145. *Ibid.*, 268.
146. *Works*, XII, 413.
147. Pearson, 237.
148. Boswell, *Johnson*, 685n.
149. *Lives*, I, 93.
150. Walpole, Feb. 19, 1781.
151. Walpole, Apr. 14, 1781.
152. Piozzi, 186.
153. Krutch, 522.
154. *Ibid.*, 509.
155. Schuster, *Treasury of the World's Great Letters*, 133.
156. Burney, Fanny, *Diary*, 92.
157. Boswell, *Johnson*, 1109.
158. Krutch, 547.
159. Boswell, *Johnson*, 1059.
160. Hawkins, 255.
161. *Ibid.*, 259.
162. Krutch, 551.
163. Boswell, *Johnson*, 1181.
164. Davis, Bertram, *Johnson before Boswell*, *vii*.
165. *CHE*, X, 213.
166. *Boswell: The Ominous Years*, 103.
167. E.g., Boswell, *Note Book*, *xvii*, 1, 23; Krutch, *Johnson*, 384.
168. E.g., *Boswell: The Ominous Years*, 111.
169. Boswell, *Johnson*, *x*.
170. Hannah More, *Letters*, 102.
171. *CHE*, X, 213.
172. Letter of May 26, 1791.

CHAPTER XXXIV

1. Gooch, *Maria Theresa*, 124.
2. *Ibid.*, 7.
3. 8.
4. Bearne, Mrs., *A Court Painter*, 323.
5. Ercole, *Gay Court Life*, 272.
6. Castelot, André, *Queen of France*, 20.
7. Zweig, Stefan, *Marie Antoinette*, 5.
8. Padover, Saul, *Life and Death of Louis XVI*, 30.
9. Gooch, *Maria Theresa*, 122.
10. Padover, 30.
11. Castelot, 37.
12. *Ibid.*, 40.
13. Zweig, 21.
14. Castelot, 64.
15. *Ibid.*, 73; Dakin, *Turgot and the Ancien Régime*, 19.
16. Walpole, July 10, 1774.
17. Mathiez, Albert, *The French Revolution*, 9.
18. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 122.
19. Maine, Sir Henry, *Ancient Law*, 48.
20. Cobban, Alfred, *History of Modern France*, I, 127.
21. Taine, *The Ancient Regime*, 95.
22. *Ibid.*, 68-69.
23. Mathiez, 5.
24. Taine, *Ancient Regime*, 118, 98.
25. Ercole, 370.
26. Castelot, 85.
27. Campan, Mme., *Memoirs*, I, 317.
28. Mossiker, Frances, *The Queen's Necklace*, 201.
29. *Ibid.*, 163.
30. Castelot, 66, 158.
31. Lacroix, *The Eighteenth Century*, 35.
32. Vigée-Lebrun, Mme., *Memoirs*, 56.
33. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, VIII, 294.
34. Castelot, 174.
35. Cobban, Alfred, *Historians and the Causes of the French Revolution*, 5, 14.
36. Mme. Campan gives several examples (*Memoirs*, I, 190–94).
37. Cobban, *History of Modern France*, I, 115.
38. Castelot, 123.
39. Faÿ, Bernard, *Louis XVI, ou La Fin d'un monde*, 311.
40. Havens, G. R., *The Age of Ideas*, 392.
41. In Mossiker, *Queen's Necklace*, 160.
42. Castelot, 119.
43. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 119, 125.
44. *Ibid.*, 119.
45. Castelot, 122.
46. *Ibid.*, 121.
47. 124.
48. Zweig, *Marie Antoinette*, 137.
49. Padover, *Louis XVI*, 102.
50. Ségur, Marquis de, *Marie Antoinette*, 104.
51. *Ibid.*
52. Michelet, *Histoire de France*, V, 491.
53. "The Good-natured King."
54. Campan, Mme., *Memoirs*, I, 178.
55. Padover, *Louis XVI*, 118-19.
56. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 545.
57. Gibbon, *Decline and Fall*, ed. J. B. Bury, IV, 529.
58. Padover, *Louis XVI*, 23.
59. Campan, Mme., I, 185n.
60. Faÿ, *Louis XVI*, 8.
61. Taine, *Ancient Regime*, 304.
62. Funck-Brentano, 546.
63. Campan, I, 180.
64. Stryienski, *Eighteenth Century*, 213.
65. Gooch, *Catherine the Great*, 230.
66. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 350.
67. Dakin, *Turgot*, 126.
68. Say, Léon, *Turgot*, 101.
69. Robinson, J. H., *Readings in European History*, 426.
70. See *Age of Louis XIV*, 160.
71. Voltaire, *Works*, XXIb, 347.
72. Parton, *Life of Voltaire*, II, 535.
73. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 340.
74. Dakin, 187; Padover, *Louis XVI*, 75.
75. Say, 12.

76. Dakin, 152; Tocqueville, 190.
77. Tocqueville, 190.
78. Say, 161-66; Funck-Brentano, 554.
79. Renard, Georges, *Guilds in the Middle Ages*, 125.
80. Martin, H., *France*, XVI, 371.
81. *Ibid.*, 372.
82. Taine, *Ancient Regime*, 237.
83. Padover, *Louis XVI*, 92.
84. Dakin, 221.
85. Say, 185-91.
86. Dakin, 163; Martin, H., *France*, XVI, 379.
87. Michelet, *Histoire de France*, V, 480.
88. Say, 43.
89. Warwick, *Mirabeau and the French Revolution*, 104. On L'Hôpital see *The Age of Reason Begins*, 337-45.
90. Jaurès, Jean, *Histoire socialiste de la Révolution française*, I, 159.
91. Martin, H., *France*, XVI, 387.
92. Taine, *Ancient Regime*, 302.
93. Michelet, *Histoire de France*, V, 488.
94. Campan, Mme., I, 181.
95. Tocqueville, 191.
96. Lecky, *History of England in the 18th Century*, V, 39-41.
97. Padover, *Louis XVI*, 108; Martin, H., *France*, XVI, 416.
98. Becker, Carl, *The Heavenly City of the 18th-Century Philosophers*, 77.
99. Lecky, IV, 50.
100. *History Today*, October, 1957, 659.
101. Martin, H., *France*, XVI, 428.
102. Morris, R. B., *The Peacemakers*, 104-7.
103. *CMH*, VIII, 93.
104. Gooch, *Catherine the Great*, 97.
105. Martin, H., *France*, XVI, 500-1.
106. *Ibid.*, 504.
107. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power upon History*, 337.
108. Morris, *Peacemakers*, 178-81.
109. Lecky, IV, 256-59.
110. *Ibid.*
111. Morris, 277.
112. *Ibid.*, 461.
113. Tocqueville, 155.
114. *Ibid.*, 119.

CHAPTER XXXV

1. Parton, *Life of Voltaire*, II, 491.
2. *Ibid.*, 496.
3. Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 427.
4. Chaponnière, *Voltaire chez les calvinistes*, 162.
5. Faguet, *Literary History of France*, 508.
6. Lanson, Gustave, *Voltaire*, 158.
7. Torrey, N. L., *The Spirit of Voltaire*, 150.
8. Brandes, *Voltaire*, II, 317.
9. Wagnière in Parton, II, 564.
10. *Ibid.*
11. Note to Walpole, *Letters*, VII, 35.
12. Brandes, *Voltaire*, II, 322; Parton, II, 367.
13. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, VIII, 199-200; Campan, I, 323; Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 393.
14. Parton, *Life of Voltaire*, II, 568.
15. Brandes, II, 324.
16. Pomeau, 263.
17. Noyes, *Voltaire*, 583.
18. Pomeau, 307.
19. Desnoiresterres, VIII, 230.
20. Lanson, *Voltaire*, 200.
21. Desnoiresterres, VIII, 232-33.
22. *Ibid.*, 235.
23. 236.
24. 245.
25. Wiener, Leo, *Anthology of Russian Literature*, I, 357.
26. Noyes, 600.
27. Brandes, *Voltaire*, II, 336.
28. *Ibid.*, 337.
29. Desnoiresterres, VIII, 283-91.
30. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 199.
31. Ducros, *French Society in the 18th Century*, 121.
32. Desnoiresterres, VIII, 302.
33. *Ibid.*, 306; Brandes, *Voltaire*, II, 340.
34. Strachey, Lytton, *Books and Characters*, 121n.
35. Brandes, II, 341.
36. Desnoiresterres, VIII, 334, 365.
37. Pomeau, 447.
38. Desnoiresterres, VIII, 359.
39. *Ibid.*, 366; Créqui, Marquise de, *Souvenirs*, 235n.
40. Brandes, *Voltaire*, II, 348.
41. Gooch, *Catherine the Great*, 70.
42. In Brandes, *Voltaire*, II, 94n.; the order has been slightly changed.
43. *Ibid.*, 354.
44. Parton, II, 494.
45. Voltaire, *La Guerre de Genève*, in Josephson, *Rousseau*, 479.
46. Hendel, Charles, *Citizen of Geneva*, 92.
47. Josephson, 481.
48. Hendel, *Citizen*, 98.
49. *Ibid.*, 99 (letter of Oct. 10, 1769).
50. *Ibid.*, 101 (letter of Jan. 17, 1770).
51. See *Age of Voltaire*, 565.
52. Michelet, *Histoire de France*, V, 485.
53. Morley, *Rousseau*, II, 156.
54. Josephson, 495.
55. Rousseau, *The Confessions*, II, end.
56. Josephson, 501.
57. *Ibid.*
58. Desnoiresterres, VII, 488.
59. Vaughn, C. E., *Political Writings of Rousseau*, II, 445.
60. *Ibid.*, 376, 381.
61. Rousseau, *Rousseau juge de Jean-Jacques*, p. x.
62. *Ibid.*, 19.

63. 64-67.
64. 120, 124.
65. 117-18.
66. 292, 302, 327.
67. Third Dialogue.
68. *Rousseau juge*, 319 f.
69. Josephson, 508.
70. *Reveries of a Solitary*, Ninth Promenade.
71. Josephson, 518.
72. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, II, 213-15, 301-2.
73. *Ibid.*, 246.
74. Josephson, 502; Faguet, *Vie de Rousseau*, 399.
75. Josephson, 527.
76. Babbitt, Irving, *Spanish Character and Other Essays*, 225.
77. Cassirer, *The Question of Rousseau*, 39.
78. Lemaître, *Rousseau*, 247.
79. Lanson, *Histoire de la littérature française*, 798.
80. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 236.
81. Schiller, "Rousseau," in *Poems*, 25. In *Works*.
82. In Maritain, *Three Reformers*, 225.
83. *Collection complète des oeuvres*, I, 186.
84. Cassirer, *Question of Rousseau*, 39.
85. Pomeau, 340.
86. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 239-44.
87. *Ibid.*, 74.
88. In Morley, *Rousseau and His Era*, II, 273.
89. Masson, *La Religion*, III, 227.
90. Burke, "Letter to a Member of the National Assembly," in *Reflections on the French Revolution*, 262.
91. Taine, *Ancient Regime*, 317.
92. Lemaître, 361.
93. Lanson, *Histoire de la littérature française*, 798.
94. Crocker, *The Embattled Philosopher*, 310.
95. Ségur, *Julie de Lespinasse*, 4..
96. Letter of Feb. 27, 1777, in Hazard, *European Thought*, 323.
97. Ford, Miriam de, *Love Children*, 212.
98. Havens, *Age of Ideas*, 351.
99. Crocker, *Embattled Philosopher*, 400.
100. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, "Avertissement," *v-vi*.
101. Crocker, *Embattled Philosopher*, 433.
102. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 213.
103. Schapiro, J. S., *Condorcet*, 69.
104. Russell, Bertrand, *History of Western Philosophy*, 722.
105. Schapiro, *Condorcet*, 91.
106. Martin, H., *France*, XVI, 525.
107. Schapiro, 96-97.
108. So reads the ms. in the Bibliothèque de l'Institut.
109. See *The Age of Voltaire*, 775.
110. Condorcet, *Sketch for a Historical Picture of the Progress of the Mind*, p. *v*.
111. *Ibid.*, 105.
112. 10.
113. 179.
114. Aulard, A., *The French Revolution*, I, 123.
115. Schapiro, 80, 88.
116. Condorcet, 193.
117. *Ibid.*, *x-xi*, 175.
118. 4.
119. 188.
120. 169.
121. 202.
122. Schapiro, 107.
123. Tocqueville, 8.
124. Taine, *Ancient Regime*, 317.
125. Aulard, I, 83.
126. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 284.
127. Aulard, I, 83.
128. Robertson, J. M., *Short History*, 288.
129. Tocqueville, 165.
130. In Sée, Henri, *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 107.
131. Padover, *Louis XVI*, 6, 7, 11.
132. Tocqueville, 156.
133. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 237.

CHAPTER XXXVI

1. Sée, *Economic and Social Conditions*, 61; Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 60; Taine (*The French Revolution*, I, 168) estimated the value of church property at four billion livres.
2. Herbert, Sydney, *The Fall of Feudalism in France*, 40.
3. Mornet, Daniel, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 278.
4. *Ibid.*, 274; Sée, 66.
5. *Ibid.*; Taine, *French Revolution*, I, 162-63.
6. Sée, 66.
7. Taine, *French Revolution*, I, 167.
8. Burke, Edmund, *Reflections on the French Revolution*, 142.
9. Sanger, W., *History of Prostitution*, 131.
10. Sée, 23; Mornet, 276.
11. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 14.
12. Lacroix, Paul, *The Eighteenth Century in France*, 346.
13. Taine, *Ancient Regime*, 291.
14. Mornet, 335.
15. Lacroix, 265
16. Mornet, 331.
17. Faÿ, *Louis XVI*, 280.
18. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 512.
19. Faÿ, 280.
20. Lecky, *England in the 18th Century*, V, 308.

21. Martin, H., *France*, XVI, 353.
22. Mornet, 212.
23. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 554.
24. Martin, H., *France*, XVI, 585.
25. Tocqueville, 9.
26. Herbert, S., *Fall of Feudalism*, 84.
27. See *Age of Voltaire*, 776-80.
28. In Crocker, *Age of Crisis*, 392.
29. In Becker, *Heavenly City*, 80.
30. Carlyle, *Essay on Diderot*.
31. Restif de La Bretonne, *La Vie de mon père*, 90 f.
32. Taine, *Ancient Regime*, 380.
33. Laclos, Choderlos de, *Les Liaisons dangereuses*, Letter LXVI.
34. See Plato, *The Republic*, Nos. 338-44.
35. De Sade, Comte, *Juliette*, in Crocker, *Age of Crisis*, 15.
36. Guerard, Albert, *Life and Death of an Ideal*, 204.
37. Mme. d'Oberkirch in Taine, *Ancient Regime*, 163.
38. Köhler, Carl, *History of Costume*, 366.
39. Boehn, *Modes and Manners*, IV, 215.
40. In Loomis, *Du Barry*, 169.
41. *Decline and Fall of the Roman Empire*, near end of Ch. xix.
42. Gibbon, *Correspondence*, II, 46, in *Memoirs*, 222n.
43. See *Age of Voltaire*, 301-2.
44. Walpole, Dec. 2, 1765.
45. Koven, Anna de, *Horace Walpole and Mme. du Deffand*, 102, 116.
46. *Ibid.*, 127.
47. Watson, Paul, *Some Women of France*, 90.
48. *Ibid.*
49. 89; Koven, 157.
50. *Ibid.*, 195.
51. Crocker, *Embattled Philosopher*, 354.
52. Gambier-Parry, *Madame Necker*, 78.
53. *Ibid.*, 215.
54. Créqui, Marquise de, *Souvenirs*, 192-94.
55. Gambier-Parry, 250.
56. Anderson, E., *Letters of Mozart*, II, 787.
57. Einstein, *Mozart*, 356.
58. Lespinasse, *Letters*, 138.
59. Rolland, Romain, *Essays in Music*, 147.
60. *Grove's Dictionary of Music*, II, 456.
61. Young, Arthur, *Travels in France*, 67.
62. Louvre.
63. In the Institute, Paris.
64. Dilke, Lady Emilia, *French Architects and Sculptors*, 130. It is now in the École des Beaux-Arts in Paris.
65. *Time* magazine, Jan. 31, 1964, p. 44.
66. *Ibid.*
67. All in the Louvre.
68. Both in the Louvre.
69. Vigée-Lebrun, 42.
70. Louvre.
71. Private collection.
72. Taine, *French Revolution*, I, 141; Mornet, *Origines intellectuelles*, 419; La Fontainerie, *French Liberalism*, 23.
73. Mornet, 443.
74. Lecky, V, 394.
75. Mornet, 426.
76. *Enc. Brit.*, XVI, 349d.
77. Lecky, V, 425.
78. Ducros, *French Society*, 314.
79. *Ibid.*
80. Faguet, *Literary History*, 539.
81. Chamfort, Sébastien, *Maximes*, 25.
82. *Ibid.*, 27.
83. 6.
84. 71.
85. 67.
86. 69.
87. 62.
88. 87.
89. 89.
90. 26.
91. 539.
92. *Ibid.*, preface, p. 50.
93. In Masson, *La Religion de Rousseau*, III, 137-38.
94. Bernardin de Saint-Pierre, *Paul et Virginie*, 15, 34, 58.
95. In Bury, J. B., *The Idea of Progress*, 200; italics ours.
96. Restif de La Bretonne, *La Vie de mon père*, 75.
97. Palache, *Four Novelists of the Old Regime*, 172.
98. *Ibid.*, 191.
99. Restif, *La Vie de mon père*, 14.
100. Chadourne, *Restif de La Bretonne*, 185.
101. *Ibid.*, 354.
102. Palache, 246.
103. Chadourne, 223.
104. *Ibid.*, 219.
105. Restif, *Les Nuits de Paris*, Nos. 109-114.
106. Ibid., No. 412.
107. No. 103.
108. Young, Arthur, 143.
109. Beaumarchais, letter of June 16, 1755, in Loménie, *Beaumarchais and His Times*, 55.
110. *Ibid.*, 78.
111. 94.
112. Voltaire, letter of Jan. 3, 1774.
113. Loménie, *Beaumarchais*, 263, 269 f.
114. Havens, *Age of Ideas*, 368.
115. Beaumarchais, *The Barber of Seville*, Act I, in Matthews, *Chief European Dramatists*, 332.
116. *Ibid.*
117. Blom, Eric, *Mozart*, 119n.
118. Loménie, *Beaumarchais*, 250.
119. *Ibid.*, 252.
120. *Le Mariage de Figaro*, directions to the players, in Beaumarchais, *Oeuvres*, 184.
121. *Ibid.*, Act II, Sc. ii.

122. V, vii.
123. V, xii.
124. II, xxi.
125. V, iii.
126. Preface, *Oeuvres*, 172.
127. Loménie, *Beaumarchais*, 351.
128. *Ibid.*, 383-84.
129. Havens, 382.
130. Loménie, 348.

CHAPTER XXXVII

1. Sée, *Economic and Social Conditions*, 8.
2. Labrousse, C. E., in Cobban, *Historians and . . . the French Revolution*, 35.
3. Young, Arthur, *Travels in France*, 70.
4. *Ibid.*, 19.
5. Herbert, *Fall of Feudalism*, 5-10.
6. *Ibid.*, 12, 15.
7. Lefebvre, Georges, *Coming of the French Revolution*, 121.
8. Sée, *Economic Conditions*, 54.
9. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 36.
10. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution*, 143.
11. Michelet, *Histoire de France*, V, 548.
12. Martin, H., *France*, XVI, 512n.
13. Tocqueville, 193; Taine, *Ancient Regime*, 300 f.; Taine, *French Revolution*, I, 157.
14. Goodwin, *The European Nobility*, 41.
15. Argenson, Marquis d', *Pensées sur la réformation de l'état*, in Sée, *Economic Conditions*, 109.
16. Young, 24.
17. Herbert, *Fall of Feudalism*, 58; Sée, 5; Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 310.
18. Chamfort, *Maximes*, 90.
19. Young, 125, 61.
20. Lefebvre, 116; see also Taine, *Ancient Regime*, 335-36.
21. Lefebvre, 118.
22. *Ibid.*
23. Jaurès, I, 76.
24. NCMH, VII, 237.
25. Mousnier and Labrousse, *Le Dix-huitième Siècle*, 137.
26. Stryienski, *Eighteenth Century*, 271.
27. Lefebvre, 87.
28. Lacroix, *Eighteenth Century in France*, 340.
29. French, Sidney, *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 87.
30. Young, 103.
31. Lefebvre, 97.
32. *Ibid.*, 21.
33. Sée, 183; Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 198.
34. Mousnier and Labrousse, 186.
35. Taine, *Ancient Regime*, 387.
36. *Ibid.*, 388.
37. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 109.
38. *Ibid.*, 110.
39. *Ibid.*
40. Taine, *Ancient Regime*, 334.
41. *Ibid.*, 361.
42. Lecky, V, 394; Gershoy, 308.
43. Jaurès, I, 69.
44. *Ibid.*, 68.
45. Sée, 148.
46. Cobban, *History of Modern France*, I, 123.
47. Jaurès, I, 62; Sée, 197-98.
48. Taine, *Ancient Regime*, 351-52.
49. Lefebvre, 14.
50. Jaurès, I, 62.
51. *Ibid.*, 98.
52. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 404.
53. Taine, 320.
54. Beard, Miriam, 352.
55. Lecky, V, 484.
56. See above, Ch. iii, Sec. v.
57. Lichtenberger, André, *Le Socialisme et la Révolution française*, 35; Martin, Kingsley, *Rise of French Liberal Thought*, 252.
58. Lichtenberger, 447.
59. *Ibid.*, 446-50.
60. *Enc. Brit.*, II, 238b.
61. Lichtenberger, 442 f.
62. Mornet, 360.
63. *Ibid.*, 364; Lefebvre, 43.
64. Cumming, Ian, *Helvétius*, 126-28.
65. *Ibid.*, 119.
66. Fülop-Miller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 436.
67. Faÿ, *La Franc-Maçonnerie*, 242.
68. Georgel, *Memoirs*, II, 310, in Buckle, Ib, 665.
69. Mornet, 450.

CHAPTER XXXVIII

1. Young, Arthur, *Travels in France*, 15.
2. Ségur, *Marie Antoinette*, 121; Castelot, 184.
3. Faÿ, *Louis XVI*, 293.
4. Gooch, *Maria Theresa*, 168.
5. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 57.
6. Mossiker, *Queen's Necklace*, 36.
7. *Ibid.*, 37, 200, 203.
8. 105.
9. *Vie de Jeanne de Valois*, by herself, in Mossiker, 63.
10. *Enc. Brit.*, VII, 321a.
11. Mossiker, 183-84.
12. *Ibid.*, 226.
13. 273.
14. 269.
15. Faÿ, *Louis XVI*, 275.
16. Mossiker, *ix*.
17. Martin, H., *France*, XVI, 539.

18. Taine, *Ancient Regime*, 92.
19. Martin, H., XVI, 573.
20. Paine, Thomas, *The Rights of Man*, 80.
21. Stryienski, *Eighteenth Century*, 286.
22. Young, Arthur, 92.
23. *Ibid.*, 97.
24. Guérard, A., *Life and Death of an Ideal*, 308.
25. Martin, H., *France*, XVI, 597.
26. Lefebvre, 29; Cobban, *History of Modern France*, I, 128.
27. Martin, H., XVI, 608.
28. Stewart, J. H., *Documentary Survey of the French Revolution*, 27-29; Martin, H., XVI, 612.
29. Michelet, *The French Revolution*, 118.
30. Michelet, *Histoire de France*, V, 545.
31. Faÿ, *Louis XVI*, 308; Taine, *French Revolution*, I, 2.
32. Aulard, I, 129; Michelet, *French Revolution*, 73.
33. Lichtenberger, 20; Martin, H., XVI, 630n.
34. Tocqueville, 121.
35. Herbert, *Fall of Feudalism*, 76, 87.
36. *Ibid.*, 76.
37. *CMH*, VIII, 128.
38. Barthou, Louis, *Mirabeau*, 11.
39. *Ibid.*, 62.
40. 68.
41. Michelet, *Histoire de France*, V, 515.
42. Crocker, *Embattled Philosopher*, 436.
43. Barthou, 91.
44. *Ibid.*, 97.
45. 118.
46. 138.
47. 162.
48. 163; Martin, H., *France*, XVI, 624.
49. Jaurès, I, 77.
50. Michelet, *Histoire de France*, V, 554.
51. Herbert, *Fall of Feudalism*, 95.
52. Taine, *French Revolution*, I, 17.
53. Taine, *Ancient Regime*, 378.
54. Martin, H., *France*, XVI, 625.
55. Lefebvre, 94.
56. *Enc. Brit.*, XVI, 909d.
57. Faÿ, *Louis XVI*, 312.
58. *Ibid.*, 305.
59. *Enc. Brit.*, XII, 491b.
60. Taine, *French Revolution*, I, 28.
61. *Enc. Brit.*, XII, 491b.
62. Taine, I, 28.
63. *CMH*, VIII, 133; Cobban, *History of Modern France*, I, 140.
64. Barthou, 171.
65. Young, Arthur, 153.
66. Lefebvre, 72.
67. Young, 176.
68. Lefebvre, 76.
69. Young, 176.
70. Lefebvre, 77.
71. Young, 177.
72. Michelet, *French Revolution*, 137; Lefebvre, 80-81.
73. Speech of July 8, 1789, in Barthou, 186.
74. Mme. Campan, *Memoirs*, I, 358.
75. Mme. de Staël, *Considérations sur la Révolution française*, in Ducros, *French Society*, 316.
76. Kropotkin, Peter, *The Great French Revolution*, 61-63.
77. Michelet, *French Revolution*, 133.
78. *Ibid.*, 141.
79. Lefebvre, 86.
80. Taine, *French Revolution*, I, 42.
81. Michelet, *French Revolution*, 150.
82. Lefebvre, 101.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٥٠٦٦

مطابع الدجوى القاهرة — عابدين



















